

عالم الفكر

المجلد العاشر - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٩

عدد خاص

ثقافة الطفل
الأطفال واللعب
صحة الجنين والوليد
تنشيط نمو الأطفال
الطفل في التراث الشعبي



عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر - ١٩٧٩
لمراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

الطفولة

التمهيد	بقلم مستشار التحرير	٣
اعلان حقوق الطفل		١٢
الطفل في التراث الشعبي	الدكتور محمد الجوهري	١٥
ثقافة الطفل	الدكتورة الفتى حقي	٥٣
هداء الحامل وصحة الجنين ولوليد	الدكتور محمد احمد غالى	٧٣
الاطفال واللعب	الدكتورة فيولا البيلاوى	١١١
تنشيط نمو الاطفال	الدكتور طلعت منصور	١٥٣

• • •

شخصيات وآراء

جان جاك روسو والعقد الاجتماعى	الدكتور محمود أبو زيد	١٩٣
في ذكرى روسو	بقلم موديس كرانستون - ترجمة : بدرية محمد احمد	٢٠٩

• • •

مطالعات

ادب الرحلات والمغامرات	الدكتور عبدالواحد لؤلؤة	٢٢٥
------------------------	-------------------------	-----

• • •

من الشرق والغرب

الكتابة العربية عنصر زخرفى	الدكتور محمد مصطفى	٢٦٥
----------------------------	--------------------	-----

• • •

صدر حديثا

ديناميات التغير السياسى والاجتماعى في العالم الثالث	عرض وتحليل الدكتور محمد فاتم الريميحي	٣٤٥
---	---------------------------------------	-----

الدراسات التى تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

الطفولة

تمهيد

«اسمى كويكوه وعمري تسع سنين اناس كثيرون ينادوننى (يا ولد) ولكنني اميش وحدى ، انا ابيع (اللبن) في ميدان أوردور في ساعات السينما، كثير من الاولاد والبنات يشترون منى قبل الذهاب للسينما . . لا اذهب للمدرسة لان ليس معى نقود . . امى ماتت الناء ولادتى ولا احد يعرف من هو ابى
احدى النساء ارضعتني اللبن حين كنت طفلا صغيرا ولكنني كبرت الان واشتغل . . انا بعد ان يتقدم الليل . . الساعة الثانية صباحا واحيانا الساعة الثالثة . . ليس عندي بيت انا فيه . . انا في محطة البنزين ، واشترى الاشياء التى يبيعونها على الطريق . الدنيا مليئة بالناس المرضى . .
اتمنى ان تكون سنة ١٩٧٩ بدون حرب وبدون اطفال يولدون مثلى . . انا افاسى كثيرا . .
ليس عندي صابون ولا سكر ولا اشياء اخرى كثيرة جدا . . اتمنى من سنة ١٩٧٩ ان تجلب لى بيتا وتجلب للناس في القرية الماء حتى يشربوا . . لا تاخذ صورتي اذ لا احب ان يرى الرجل الابيض قدارتي » .

(كويكو - طفل من اكرا - غانا)

في اوائل هذا القرن ، وبالدات في عام ١٩١٢ كتبت ماريا منتسوري Maria Montessori التي كانت تعتبر من اكبر علماء التربية ليس في ايطاليا وحدها بل وفي العالم اجمع تقول ان حرية الطفل يجب ان يسمح بها في حدود مصلحة الجماعة لان هذا الشكل للحرية هو الذي يعتبر بحق مثال التربية الطيبة ، ومن هنا كان ينبغى علينا ان نوقف في الطفل كل ما من شأنه ان يتسبب في ابداء الآخرين او ازعاجهم ، وكذلك كل ما قد عساه ان يدفعه الى العنف او السلوك غير المهذب . . » وتتضمن هذه العبارة القصيره مبدأ عاما وهاما يجدره صدى قويا لدى الجميع لانه يكفل للطفل التمتع بحريته وان كان في الوقت ذاته يحدد هذه الحرية ويقيدها بمصلحة الجماعة التي ينتمى الطفل اليها كما انه يعترف للطفل بحق (العمل) والانطلاق لكي يحقق ذاته ويهيئ له الفرصة كاملة للخلق والابداع ، وهي كلها عناصر هامة في تكوين الشخصية المتكاملة التي تستطيع التكيف والتلاؤم مع المجتمع .

فالهدف الاساسى للتربية الصحيحة اذن - في رأى ماريا منتسوري - كان هو تحقيق ذلك التوازن الحيوى بين الحرية والمسئولية ، بين الابداع والانطلاق والابتكار من ناحية ، والنظام والالتزام من الناحية الاخرى حسب ما تقول بل موني Bel Mooney في كتابها الذى صدر منذ اسابيع قليلة فقط (اوائل يوليو ١٩٧٩) والذي تقدم فيه ، بمناسبة العام الدولى للطفل ، دراسة طريفة لاثنتى عشرة حالة لاطفال مختارين من انحاء مختلفة من بريطانيا ، وتكشف لنا في هذه الدراسة عن العناصر السلوكية والتربوية والاجتماعية التي تتدخل في تكوينهم وتنشئتهم ، والى اى حد افلحت هذه العناصر في تحقيق التوازن المنشود (انظر :

Bel Mooney: The year of the Child: Portraits of British Children; Hutchinson, London 1979)

الا ان ماريا منتسوري تذهب في حقيقه الامر الى ابعد من هذا بكثير اذ تقول : « اننا لا ندرك تماما ما قد ينجم من آثار ونتائج وخيمه اذا نحن خنقنا منذ البداية كل عمل تلقائي يمكن ان يصدر عن الطفل بمجرد ان يبدى الطفل رغبة او ميلا في اداء ذلك العمل ، لاننا قد نخنق فيه بذلك الحياة ذاتها . . فالانسانية تكشف عن نفسها وعن كل ما فيها من روعة ومن سمو عقلى في تلك السن المبكرة ، تماما مثلما تكشف الشمس عن نفسها وقت الفجر ، ومثلما الزهرة عن وجودها حين تظهر (بتلاتها Petals) المبكره . . ومن هنا الحرية ويقيدها بمصلحة الجماعة التي ينتمى والاجلال هذه العلاقات الاولى للكيان الفردى . »

كانت هذه الاراء تتردد اذن منذ سبعة وستين عاما وكانت تعتبر في ذلك الحين اراء ثورية متمردة ، ولكننا اصبحنا نتقبلها الان ونسلم به رغم ما قد يكون هناك من خلاف في الرأى حول افضل الطرق والاساليب التي يمكن بها التوفيق بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة او بين الحرية والمسئولية . . وعلى الرغم من ان التسليم بان التربية الصحيحة - ان كان هناك مثل هذه التربية - تتمثل في التوفيق والملاءمة بين هذين العنصرين الاساسيين فتمة تفاوت كبير بين المجتمعات المختلفة و

توكيدها على احد الجانبين دون الاخر، بحيث نجد المجتمعات الحديثة في الغرب مثلاً تتيح قدراً أكبر من الحرية الشخصية بحيث أصبحت تعرف عموماً باسم مجتمعات الإباحة والتحرر Permissive Societies بينما تؤكد مجتمعات أخرى ضرورة إعلاء سلطة المجتمع وإشرافه وسيطرته على الفرد، وتركز على إبراز مسئوليات الفرد نحو المجتمع، وقد تبالغ في ذلك بحيث يكاد المجتمع يخلق فردية الإنسان وكيانه المستقل وشخصيته الذاتية. فكان التوفيق بين هاتين الناحيتين كما أرادت ماريا منتسوري - مسألة صعبة للغاية وتكشف عن مدى صعوبة عملية التربية، فليست تربية الطفل في آخر الأمر سوى عملية تنشئة اجتماعية، أو تطبيع اجتماعي هدفها هو تحقيق ذلك التوازن بين الطفل وحاجات ورغبات ومصالح المجتمع الذي يعترف في الوقت ذاته بفردية الطفل واستقلال شخصيته وكيانه وجوده.

والمعروف أن الكائن البشري عاجز إلى أبعد حدود العجز، وأنه يقطع خلال حياته طريقاً طويلاً شاقاً وملئاً بالمواقف الجديدة والتغيرات المفاجئة التي يتعين عليه أن يكيف نفسه معها ويتعلم منها ويسخرها لصالحه الخاص، وليست التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي Social. Zalion في جوهرها إلا عملية تكيف مستمر مع هذه الظروف والأوضاع والمواقف، ومن هنا فإنها لا ترتبط في حقيقة الأمر بسن معينة بالذات، ولا تقتصر على مرحلة عمرية معينة، وإنما تستمر طيلة حياة الإنسان، وإن كانت تختلف عناصرها ومكوناتها باختلاف المراحل والتجارب التي يمر بها الفرد والمواقف التي يجد نفسه فيها والتي يتبقى عليه أن يعدل من سلوكه ليتلاءم معها أو يستجيب لها أو يستغلها لصالحه. ومن هنا تعتبر التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي شيئاً أكبر وأوسع وأعمق وأشمل من مجرد التعليم الرسمي أو التربية الرسمية المنهجية المنظمة، التي يتلقاها الطفل في المدرسة، ثم بعد ذلك في معاهد التعليم المختلفة. إنها عملية تبدأ منذ اليوم الأول لولادة الطفل الذي يجد نفسه منذ البداية في مجتمع معين تميزه ثقافة معينة تتألف من عادات وتقاليد ونظم وعلاقات معينة أيضاً، فيخضع لتلك العادات والتقاليد ويدخل طرفاً في كثير من هذه النظم والعلاقات، وتتعدد علاقاته وتتشابك وتتشعب بمرور الزمن. وهذه نقطة هامة في عمليات التنشئة أو التطبيع الاجتماعي انتبه إليها كل الذين درسوا الموضوع في مجالات علم النفس والاجتماع والانثربولوجيا والتربية، وبخاصة حين كانوا يعرضون لدراسة الطابع القومي أو الشخصية القومية، كما أبرزها - وإن يكن بدرجات مختلفة - كل الاساتذة الذين أسهموا بدراساتهم في هذا العدد من المجلد، والتي تناولوا فيها الطفولة ومقوماتها ومشكلاتها وتنشيطها نموها.

ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الأطفال الذين يولدون في مجتمع معين وثقافة معينة يصبون جميعاً في قالب واحد بحيث يصبحون نسخاً متشابهة من نفس الأصل. فالتجارب والخبرات والظروف الاجتماعية والاقتصادية والعائلية تختلف من فرد لآخر مما يسمح بقيام الفوارق الفردية داخل المجتمع الواحد، على الرغم من وجود خلفية واحدة وأساس واحد

يشارك فيه جميع اطفال ذلك المجتمع . وهذا الاساس هو الثقافة السائدة في المجتمع ، بكل ما تعنيه كلمة (ثقافة) في الاستخدام الانثربولوجي . من الطبيعي ان يقوم الوالدان بالدور الاول في عملية التنشئة الاجتماعية ، مادامت هذه العملية تبدأ بولادة الطفل ، ومادام الطفل يولد في اسرة معينة تكون بمثابة المجتمع الاول ، او المجتمع النواة ، الذي يتعين عليه ان يتكيف معه ويكتسب منه اولى المؤثرات التي تتدخل في تشكيل حياته وتطويع سلوكه الاجتماعي . فالوالدان يدفعان طفلهما - قصدا او عن غير قصد - في طريق مرسوم ، ويخضعانه لاساليب تربوية محددة ، تتضمن اتجاهات وافكارا وآراء ومعتقدات وقيما وانماطا سلوكية متعارف عليها ، اى انهما يوجهان عن وعى او عن غير وعى منهما عملية التنشئة وجهات معينة منذ البداية ، وان كان الفرد بطبيعة الحال يخضع فيما بعد لكثير من المؤثرات الاخرى التي تأتي من الاشخاص الذين يحتك بهم (زملاء المدرسة وزملاء اللعب مثلا والمدرسين وزملاء العمل وما الى ذلك) ، او من البيئة الفيزيقية التي تحيط به سواء اكانت بيئة صحراوية او ريفية او حضرية او صناعية ، او من وسائل الاعلام كالتلفزيون والسينما والراديو وما اليها . وكل هذه المؤثرات لتشارك معا في تشكيل شخصيته وتكوين عقليته ، وفي تحقيق ذلك التواء مع الجماعة وقيمها واهدافها وراثتها ، اى تطويع الفرد داخل انماط صاغتها ثقافة ذلك المجتمع على مر العصور ، حسب ما يقول تشايلد J. L, child في كتابه الطريف (ايطالي او امريكي Italian or American) الذي نشره عام ١٩٣٤ والذي حاول ان يبين لنا فيه الى اى حد يعكس سلوك اطفال المهاجرين الايطاليين انماط الحياة الايطالية التقليدية ، والى اى حد يتلائم هذا السلوك مع الحياة الامريكية ، وهل يعتبر هؤلاء الاطفال على هذا الاساس ايطاليين او امريكيين . ويقول آخر فان هذا الكتاب كان يحاول الوصول الى اجابة عن التساؤل عن اين توجد ايطاليا كثقافة داخل كل طفل منهم ، واين توجد امريكا ؟

وهذا كله يدل دلالة قاطعة على ان التنشئة الاجتماعية لا تسير في اتجاه واحد فقط ، وان الطفل يخضع لمؤثرات كثيرة ومعقدة ومتشعبة ، ولكنها تتضافر كلها في اخر الامر في اعدادة لان يكون عضوا متكاملًا مع غيره من اعضاء المجتمع ، وتحقيق ذلك التوازن الذي قالت به ماريا منتسوري بين حرية الفرد وانطلاقه وبين صالح الجماعة ، وانه مهما يكن من تأثير الوالدين المباشر على اولادهم فانه لا يمكن الزعم بان الطفل يمكن ان يكون نسخة مطابقة تماما لاحد الوالدين . فكان التنشئة الاجتماعية تتألف في حقيقة الامر من عمليتين مختلفتين ولكنهما متكاملتان : الاولى هي عملية نقل الثقافة التي تسود في المجتمع الى الطفل ، والثانية هي عملية التكيف الذي يقوم به الطفل ليتلاءم مع البيئة والمجتمع والثقافة التي يعيش فيها . والعمليتان كلتاهما مستمران طيلة حياة الفرد ، وان كانت مكوناتها وعناصرها تختلف كما ذكرنا بحسب الظروف وتبعًا لتقدم الفرد في السن وما يكتسبه من خبرات . فليس من شك في ان الطفل يكون في بداية الامر (سلبيًا) ان صح هذا القول ، بحيث يستقبل كل التأثيرات الخارجية التي تعمل باستمرار ويغير انقطاع في تشكيل شخصيته ، ثم لا يلبث بمروء الزمن ان (يكون فكرة عن نفسه) او يكتشف ذاته وبذلك يصبح

اقدر على المقارنة وعلى الاختيار بين مختلف المواقف والامكانات وهذا عنصر اخر هام في تكوين الشخصية وفي ابراز الاختلافات والفوارق بين اعضاء المجتمع الواحد . فقد تتضارب المعايير التي يتعرض لها الطفل كما هو الحال مثلا حين تختلف معايير البيت والمدرسة والقيم التي تسود في كل منهما ، وبذلك يواجه الطفل كثيرا من المشكلات الصعبة حول اى النمطين من انماط القيم والمعايير يقبل وايهما يرفض . . . وهذا التضارب هو الذى يزيد تجارب الفرد منذ طفولته ويثريها ، وان كان يعطل في كثير من الاحيان سير عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها .

وربما كان هذا هو الموقف الذى يواجهه الطفل في المجتمعات التي تتعرض للكثير من عوامل التغير السريع المفاجيء كما هو الحال مثلا في المجتمعات العربية التي تمر في الوقت الحالى بمرحلة من اخطر مراحل تاريخها، حيث تغزوها كثير من الافكار والفلسفات والاتجاهات الحضارية والثقافية الوافدة من الخارج ، في الوقت الذى لا يزال تأثير الثقافة التقليدية المتوارثة قويا للغاية، وبذلك يواجه الطفل منذ سن مبكرة أوضاعا اجتماعية متضاربة بل ومتناقضة . وكثيرا ما تكون هذه الاوضاع جديدة حتى على الوالدين نفسيهما اللذين يتوليان تنشئة الطفل وتوجيه حياته وسلوكه ، بحيث يجد الوالدان نفسيهما عاجزين عن التعرف على افضل الاساليب والطرق للتوفيق بين هذه الثقافة التقليدية الراسخة والثقافات والتيارات الفكرية والاتجاهات السلوكية الجديدة الطارئة التي لا يفهمها الآباء والامهات تماما ولا يقرونها لانها على اقل تقدير - لم تكن جزءا من تكوينهما النفسى والعقلى والاجتماعى ، كما لم تكن عنصرا من عناصر تنشئتهم وتربيتهم واعدادهم للحياة . . . وربما كان هذا هو السبب في أن الكثيرين من علماء النفس والاجتماع والانثربولوجيا ممن يهتمون بدراسات الطفولة وعمليات التنشئة الاجتماعية يقفون في صف اساليب التعليم التقليدية في المدارس الابتدائية ، ويدافعون عنها على اساس ان تلك كانت هي الاساليب التي خضع لها الآباء والامهات حين كانوا اطفالا ، وبذلك فلن يكون ثمة تعارض بين تأثير البيت وتأثير المدرسة على الاطفال ، وهو الامر الذى لن يتحقق بسهولة في حالة اتباع المدرسة لاساليب التعليم الحديثة او غير التقليدية التي لم يألها الآباء بعد ، او التي ليس لهم بها علم او دراية . . . ويجب الا يؤخذ هذا الكلام على أنه هجوم على اساليب التعليم الحديثة او محاولة للتهوين من شأنها وفعاليتها .

وهذه على اية حال مسألة خارجة عن نطاق هذا الحديث ، وكل ما يهمنا هنا هو ان تؤكد ان افضل اساليب التنشئة الاجتماعية داخل نطاق الاسرة هي تلك التي لا تؤدي - ما يمكن ذلك - الى شعور الطفل بآية ضغوط حين يواجه المواقف الاجتماعية المختلفة ، وهي الضغوط والتوترات التي كثيرا ما تدفع الى الانحراف والى الجنوح .

والشائع هو ان الام تلعب الدور الرئيسى في تنشئة الطفل وفي عملية التطبيع الاجتماعى كنتيجة طبيعية لارتباط الطفل بها في السنوات المبكرة من حياته ، اكثر من ارتباطه بالاب وتأثره به . ويتمثل

هذا بوجه خاص في المجتمعات التقليدية التي تقف فيها المرأة حياتها وجهودها على شئون البيت والأسرة ورعاية الاطفال دون ان تمارس عملا في الخارج . ولكن يبدو ان هذا الموقف اخذ في التغير بسرعة نتيجة خروج الام للعمل خارج البيت وانتشار حركات « التحرر النسائي » في الغرب على الخصوص ، حيث ترتفع الاصوات بضرورة اشراك الاب في تربية الطفل ورعايته منذ الولادة ، على اعتبار ان التربية هي مسئولية الوالدين معا وليست عملا متخصصا وقاصرا على الام . والواقع انه حتى بدون هذه الدعوة وبدون قيام هذه (الحركات التحررية) فان الاب يلعب وفي كل المجتمعات في تنشئة الطفل منذ الصغر دورا اكبر مما يظن في العادة ، وان كانت الام تضي بحكم طبيعة الاشياء وواقع الامور فترات من الوقت مع الطفل اطول من تلك التي يمضيها الاب ، ولذا كان تأثيرها اوضح واعمق في السنوات المبكرة ، كما انه يترك بعض البصمات على شخصية الطفل خلال بقية حياته ومن هنا كان انفصال الطفل عن الام او ابعاده عنها - وبخاصة في السنوات الخمس الاولى من حياته ، يعتبر في نظر الكثير من اقصى الاجراءات التي يمكن ان يتعرض لها الفرد في حياته . وربما كانت هذه هي الحكمة من وراء منح حق الحضانة للام في السنوات الاولى للطفولة ، وحتى سن معينة ، لما لهذه العلاقة بين الام والطفل من اثر على التوازن النفسي والاجتماعي لدى الطفل وصحيح ان هناك مجتمعات تفصل الاطفال عن امهاتهم وهم لا يزالون في سن صغيرة نسبيا ويوكل امرهم الى اشخاص آخرين من اعضاء المجتمع الذكور لكي يتولوا تربيتهم والاشراف عليهم وتاهيلهم للحياة الاجتماعية ، كما هو الحال في بعض المجتمعات القبلية في افريقيا وبخاصة تلك التي تعرف نظام طبقات العمر الذي يهيئ الافراد للقيام بادوار معينة يحددها لهم المجتمع . ولكن هذا يحدث عادة بعد ان يتخطى الطفل المراحل المبكرة من طفولته ، ويكون اقرب الى مرحلة البلوغ ، كما ان النظام كله يهدف في آخر الامر الى ادماج الفرد في المجتمع الكبير ككل ، وتحديد مركز اجتماعي له . اى ان للنظام وظيفة مكملية لوظيفة الاسرة والبيت في التنشئة الاجتماعية ، وهي اشبه بوظيفة المدرسة وحتى مراكز التدريب والتاهيل في المجتمعات الاكثر تقدما . وزيادة على ذلك فان هذا النظام يؤدي الى خلق علاقات اجتماعية واسعة بين الاطفال الذين يمرون معا بهذه الشعائر بحيث تقوم بينهم ما يمكن تسمينه بالقرابة الاجتماعية التي تفرض عليهم التزامات وواجبات تماثل تلك التي تقوم بين الاقارب الحقيقيين . وهذا نمط من التنشئة يتلاءم تماما مع الظروف البيئية والاجتماعية والاقتصادية التي تعيش فيها تلك الجماعات والقبائل في الغابات ، والتي تحتاج الى درجة عالية من التكافل الاجتماعي . وهذا النظام يشبه ، الى حد ما على الاقل ، ما يحدث في كثير من المجتمعات التقليدية التي تسود فيها العائلات الكبيرة الحجم ، فهناك يخرج الطفل ليجد نفسه محاطا باعداد كبيرة من الاشخاص البالغين والذين يكبرونه سنا من كلا الجنسين ، والذين يسهمون جميعا بشكل او باخر في تنشئته وتوجيهه واعداده للحياة ، وبذلك لا تكون التنشئة عملا قاصرا على الوالدين وحدهما . وهذا يساعد من ناحية على تحرر شخصية الطفل واستقلالها عن شخصية الابوين ، ولكن من الناحية الاخرى كثيرا ما ينشأ عن هذا الاسلوب من التنشئة بعض المشكلات اذا تعرض الطفل لتأثيرات

وتوجيهات عديدة متضاربة من اشخاص لهم قيم وانماط سلوكية وافكار واتجاهات متعارضة . . وهذا يذكرنا بما سبق ان قلناه عن تصارع القيم والانماط السلوكية بين البيت والمدرسة واثره في حياة الطفل .

وايما تكون العوامل التي تتدخل في عملية تنشئة الطفل والصعوبات التي تتعرض لها هذه العملية وعدم اتفاق العلماء على خير الوسائل والاساليب التي يمكن اتباعها في ذلك واختلاف المجتمعات بعضها عن بعض في نظرتها الى الطفل واسلوب تربيته وتنشئته والتوقعات التي تنتظرها هذه المجتمعات من اطفالها حين يكبرون ، فالظاهر ان العملية اصبحت الان اكثر تعقيدا ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل والاجهزة الرسمية وغير الرسمية التي تضطلع الان بجانب هام ومؤثر في تنشئة الاطفال كانت تقوم به الاسرة والمدرسة قبل ذلك . وتقوم وسائل الاتصال والاعلام المختلفة بدور هام في ذلك . ولم يعد التلفزيون بالذات مجرد وسيلة للتسلية ، وانما اصبحت اداة هامة من ادوات التعليم والتربية والتوجيه ، وبالتالي اداة فعالة في التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعي ، خاصة وان الاطفال في كل المجتمعات يميلون الى الجلوس لاقوات طويلة امام اجهزة التلفزيون ، وبذلك فانهم يقلدون في سلوكهم اليومي ما يشاهدونه في البرامج المختلفة . وكثير من الكتاب والمفكرين يعززون انتشار الجريمة والعنف والتحرر في السلوك الجنسي الذي يسود في المجتمعات الغربية وبخاصة أمريكا الى البرامج التلفزيونية التي تميل الى ابراز هذه الجوانب وتدور حولها . انما الذي يهمهم هنا في الدرجة الاولى هو ان وسائل الاعلام الجماهيرية تحقق ذبوع وانتشار ورسوخ انماط سلوكية موحدة ، وتعمل على تقريب الاتجاهات والمواقف والقيم في المجتمع ، وهذه مسألة لها اهميتها بغير شك لانها تقلل من التناقض والتضارب داخل المجتمع الواحد . وهنا ايضا يكون من الخطأ الاعتقاد ان دور الاطفال امام وسائل الاعلام بما فيها التلفزيون دور سلبي بحت ، وانهم يتقبلون كل ما يشاهدونه امامهم بطريقة واحدة ، فالواقع ان استجابات الاطفال تتفاوت ، ولذا فان عملية تكيف الاطفال مع البرامج التي تقدم لهم تجد في الوقت الحالي كثيرا من عناية واهتمام علماء النفس والتربية . وكما يقول جيمس هالوران مدير مركز بحوث الاتصالات الجماهيرية بجامعة ليستر بانجلترا : « ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل الاتصال . . . ثم ان الاطفال بالاضافة الى الفروق السياسية في تكوينهم ينشأون في ظروف مختلفة ، ويرون اشخاصا مختلفين ، ويكتسبون تجارب مختلفة ، تتاح لهم فرص متعددة ، ولذلك فانهم عندما يتشاهدون التلفزيون يحكمون عليه بالمعايير التي اكتسبوها من مجموعة التجارب الماضية والعلاقات الحاضرة والامال المستقبلية . ومن هنا لم تكن القضية هي ما يفعله التلفزيون بالاطفال ولكن هي ماذا يفعل الاطفال بالمادة التي يعرضها التلفزيون عليهم . (انظر مقال هالوران عن آثار التلفزيون على الاطفال ، الذي نشر في مجلة رسالة اليونسكو



ولقد اعلنت الامم المتحدة عام ١٩٧٩ عامادوليا للطفل ، وذلك بقصد تحسين ظروف الحياة لاطفال العالم . وكما جاء في أحد النداءات التي وجهتها الامم المتحدة حول هذا الموضوع فان هذا العام

سوف يشمل جميع الاطفال ولكن مع التوكيد بوجه خاص - وهو توكيد له ما يبرره على الاطفال المحرومين من الحب ومن الطعام ومن الصحة والمأوى ، ومن التعليم نتيجه لظروف خاصة حرمتهم من اشباع هذه الاحتياجات ، او الاصح التمتع بهذه الحقوق الطبيعية للطفل . ولم يكن من مخططات هذا العام عقد اى مؤتمرات دولية او انشاء اية منظمات جديدة ، وانما هو عام يقوم ويرتكز فى المقام الاول على الجهود الذاتية التى تبذلها الحكومات والمؤسسات والافراد والهيئات العلمية فى مختلف الدول ، لدراسة مشكلات الاطفال بها ووضع خطط لمشروعات تتصل بتحقيق تلك المطالب وتمكين الطفل من التمتع بتلك الحقوق . ولقد حرصت الامم المتحدة فى الوقت ذاته على ان يؤخذ فى الاعتبار راي الاطفال انفسهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها وتصوراتهم ومطالبهم وحقوقهم . وهذا اتجاه جديد فى معالجة مشكلات الطفل والطفولة . فلقد درج الباحثون من قبل على الاكتفاء باستطلاع آراء الوالدين والكبار والبالغين بوجه عام باعتبارهم المسؤولين عن تربية الاطفال وتعليمهم وتنشئتهم وتطبيعهم اجتماعيا ، دون ان يعطوا للطفل ذاته اية اهمية ، على الرغم من ان هذه الدراسات تدور حوله وسوف تؤثر نتائجها فى حياته ، وعلى الرغم من ان معرفة راي الطفل قد تكون مفتاحا لفهم كثير من المشكلات التى قد تدق على افهام الكبار .

ازاء ذلك ، وضعت منظمة اليونسكو قائمة قصيرة من الاسئلة الطريفة (عشرة اسئلة) اقترحت توجيهها الى اطفال العالم عسى ان تؤدي المعلومات التى تجمع عن طريقها الى الوصول الى فهم اعمق لمشكلات الطفل والطفولة . وسوف نرى كيف ان هذه الاسئلة تعتمد استشارة تفكير الطفل فى نفسه ووالديه والاوزاع الاجتماعية السائدة فى مجتمعه وتتيح له فرصة لتقويم هذا :-

- ١ - هل تعتقد انه ينبغي على الوالدين مناقشة المشكلات العائلية مع اطفالهما ؟
- ٢ - ما هى السن التى يجب ان يكون عليها الاطفال حتى يمكن للوالدين مناقشة المشكلات الجنسية معهم ؟
- ٣ - هل يتحمل الاطفال مسئوليات كافية ؟
- ٤ - هل ستعامل اطفالك بطريقة تختلف عن الطريقة التى عوملت انت بها ؟
- ٥ - هل تعتقد انه يجب معاملة البنات بالطريقة نفسها التى يعامل بها الاولاد ؟
- ٦ - هل تريد ان تحيا حياة تختلف عن حياة والديك ؟
- ٧ - هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة ؟
- ٨ - هل يخيفك الكبار ؟
- ٩ - هل تعتقد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات ؟
- ١٠ - هل تعتقد ان الكبار يعرفون كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟

ولقد حصلت اليونسكو على كثير من المعلومات الطريفة التي لا يخلو بعضها من كثير من العمق والفهم والسخرية حين وجهت هذه الاسئلة الى (عينة) مختاره من اطفال العالم . **مثال** ذلك ان طفلا كنديا يبلغ من العمر احدى عشرة سنة يجيب على السؤال التاسع : هل تعتقد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات بقوله : نعم ، ان الكبار يعتقدون انهم الوحيدون الذين يستطيعون اتخاذ قرارات تتعلق بالاطفال ، حتى في الحالات التي يجب أن يكون القرار هو قرار الطفل نفسه . فقد يقولون مثلا : **اننى اشعر بالبرد ولذا فمن الافضل ان ترتدى سترتك** ، دون ان يهتموا بسؤال الطفل اذا كان يشعر بالبرد ام لا ، وانما هم يفترضون ان الطفل لا بد وأن يشعر بالبرد لانهم هم انفسهم يشعرون به . « وقد اجاب على السؤال العاشر » هل تعتقد ان الكبار يعرفون كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟ بقوله : « اننى لا احب ان ارى شخصا كبيرا ينحنى فوقى ويفرض خدى ويقول لى كيف سارت الامور فى المدرسة اليوم ؟ هل تصرفت كولد طيب ؟ ... » وكثير من الكبار لا يحبون ان يجلسوا مع الصغار لانهم يعتقدون ان الصغار يشيرون كثيرا من الضجة والصخب ، ولكنهم كثيرا ما ينسون انهم هم انفسهم كانوا يفعلون الشيء نفسه حين كانوا صغارا . فالكبار يعتقدون ان ما يفعلونه هو اهم شيء فى الوجود . وقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لهم . ولكن حين يثير الصغار الضجة وحين يلعبون فان هذا يعتبر ايضا امرا مهما بالنسبة لهم (اى للصغار ولا يقل اهمية عما يفعله الكبار . وكثير من الكبار لا يعرفون كيف يتكلمون مع الصغار ، ويعتقدون ان الصغار متشابهون سواء كان عمرهم احدى عشرة سنة او خمس سنوات . ان ذلك يشبه ان يتفرس الناس فى (الاقزام الصغيرة) ويتعجبون منها لشيء الا لانهم اعتادوا على رؤية الاجسام الطبيعية التي لها ذراعان وساقان ولها حجم طبيعى . فالصغار اشبه بهذه الاقزام الصغيرة فى نظر الكبار . انهم اقزام مضحكة لانهم صغار الجسم . والكبار لا يعرفون كيف يتصلون بهم لانهم غرباء عنهم تماما . الطفل فى نظرهم شيء مختلف وغير مألوف . . . شيء اشبه بالزئوج او الناس الفقراء جدا . »

وتجيب فتاة سويدية فى العاشرة من عمرها عن السؤال السابع — هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة — بقولها : « فى بعض الاحيان تثور اُمى عليّ حين تعود الى البيت من العمل ، واشعر انها تائرة بسبب شيء ما فى العمل نفسه ، ولكنها تفضب عليّ انا بدلا من ان تثور على العمل — ومن ناحية اخرى تجيب فتاة بريطانية فى العاشرة من عمرها ايضا على السؤال الخامس — هل تعتقد انه يجب معاملته البنات بالطريقة نفسها التي يعامل بها الاولاد ؟ » بقولها : نعم ، فانا مثلا لا احب اللعب بالرمل وحين احصل مثلا على جهاز لتجفيف شعر الدمية فان ما احب ان افعله هو ان انزع الغطاء عنه وانزع البطاريات وكل ما شابه ذلك . اننى اعتقد ان الاختلاف الحقيقى الوحيد بين البنات والصبيان هو ان الصبيان اقل انزانا »

وتكفى هذه الامثلة التي اخترناها من مجموعة كبيرة من الاجابات على الاسئلة العشرة السابقة لتبين كيف يفكر الاطفال وكيف ينظرون الى مشاكلهم وإلى مكانتهم بالنسبة للكبار ، وكيف

يحكمون على سلوك هؤلاء الكبار وتصرفاتهم ويقومونها . والمفارقة الطريفة هنا هي ان التعرف على آراء الصغار قد يساعد الكبار الراشدين على فهم انفسهم ، على ان ينظروا الى انفسهم بعيون هؤلاء الصغار ، وقد يوحى اليهم ذلك بمراجعة تصرفاتهم وسلوكهم ازاء اطفالهم ، وان يوجهوا عملية التنشئة بالتالى وجهة تتفق مع الاحتياجات الحقيقية للاطفال كما يعبر عنها هؤلاء الاطفال انفسهم . لقد عبر كويكو - وهو الطفل الفانى الصغير ابن التاسعة - عن هذه الامال والاحتياجات وعن رايه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وعن نظريته الى نفسه ، وبخاصة ازاء الرجل الابيض فى تلك العبارات العميقة المؤثرة التى استشهدنا بها فى مطلع هذا الحديث . . . وهذه الامال والتطلعات والاحتياجات ذاتها يعبر عنها - ولكن بأسلوب اخر وطريقة اخرى وان كانت تؤدي الى الهدف ذاته ، ابن اخر من أبناء افريقيا وهو أحمد مختار أمبو ، المدير العام لليونسكو ، حيث يقول بمناسبة العام الدولى للطفل (١٩٧٩) : -

«من الحقائق التى تتردد على السنة الناس كثيرا ان الاطفال هم امل العالم ، فلنتأكد خلال العام الدولى للطفل ، وفى كل عام يليه ان اطفال العالم يعلمون اننا ، معشر الراشدين ، نهتم بسعادتهم ونعمل من اجلها . ولتكن جهود هذا العام عوناً لنا على ان نفهم الاطفال بطريقة افضل ، وان نذكر حين نعاملهم اننا كنا اطفالاً مثلهم ، وبهذا يمكننا ان نتجنب الآلام التى يعانيتها العديد من الاطفال فى العديد من الدول . واود لو استطعنا - عندما ينتهى العام الدولى للطفل - ان نعتقد ان روح الاخاء والوحدة فى العالم قد اصبحت اشد قوة بفضل ما حرزناه من فهم للاطفال ، وبفضل روح التسامح التى فرساناها فى نفوسهم» .

أحمد أبو زيد

اعلان حقوق الطفل

١ - يتمتع الطفل بكل الحقوق المذكورة في هذا الاعلان . ويمنع هذه الحقوق كل الأطفال دون اى استثناء ، او تفرقة او تمييز بسبب الجنس او اللون او النوع او اللغة او الدين او الراى السياسى او غيره ، او الاصل القومى او الاجتماعى او الملكية او المولد او اية حالة اخرى له او لأسرته .

٢ - يتمتع الطفل بحماية خاصة ، ويمنع عن طريق القانون وغيره من الوسائل الفرص والتسهيلات التى تتيح له أن ينمو جسميا وعقليا وخلقيا وروحيا واجتماعيا نموا صحيحا وسويا ، وفى ظل الحرية والكرامة . ويراعى عند سن القوانين اللازمة لهذا الغرض أن يكون لافضل مصالح الطفل اكبر اعتبار .

٣ - للطفل عند مولده الحق فى اسم وجنسية .

٤ - يتمتع الطفل بمزايا الأمن الاجتماعى ، وله الحق فى أن ينمو ويشب فى صحة جيدة ، ويجب من اجل هذا أن يحاط هو وأمه برعاية وحماية خاصتين ، بما فى ذلك الرعاية المناسبة قبل الولادة وبعدها . وللطفل الحق فيما يناسبه من غذاء ومسكن وتسليية وخدمات طبية .

٥ - يعطى الطفل المعوق جسميا او عقليا او اجتماعيا المعالجة والتربية والرعاية اللازمة تبعا لحالته الخاصة .

٦ - يحتاج الطفل من اجل نموه وشخصيته ، نموا كاملا متناسقا ، الى التفهم ويجب ، كلما أمكن ، أن ينمو فى رعاية وتحت مسئولية ابويه ، وعلى اية حال ، فى جو من العطف والأمن المعنوى والمادى . ولا يجوز ، فيما عدا الحالات الاستثنائية أن يفصل طفل صغير السن عن أمه . ومن واجب المجتمع والسلطات العامة أن تشمل بالرعاية الخاصة الأطفال الذين لا أسرة لهم ، والأطفال الذين لا يملكون موارد كافية للمعيشة . ومن المرغوب فيه أن تنفق الدولة وتبذل المعونات اللازمة لإعالة الأطفال فى الأسر العديدة الافراد .

٧ - من حق الطفل أن يتلقى تعليمامجانيا واجباريا ، على الاقل فى المراحل الاولى . ويجب أن يعطى تعليم يرقى بثقافته العامة ، ويساعده على اساس من الفرص المتكافئة أن ينمى قدراته ومداركه واحساسه بالمسئولية الادبية والاجتماعية ، ويصبح عضوا نافعا فى المجتمع .

ويجب ان يستهدف المسئولون عن تعليم الطفل وارشاده تحقيق افضل مصالح الطفل وتقع هذه المسئولية اولا وقبل كل شىء على كاهل ابيه .

ويجب ان يتاح للطفل الفرصة الكاملة للعب والتسلية اللذين يجب ان يوجها الى نفس الاغراض التى يتبناها التعليم ، وعلى المجتمع والسلطات العامة ان تعمل جاهدة على تعزيز تمتع الطفل بهذا الحق .

٨ - يجب ان يكون الطفل فى جميع الظروف اول من يتلقى الحماية والمعونة .

٩ - يجب حماية الطفل من كل اشكال الاهمال والقسوة والاستغلال ، ولايجوز ان يكون موضوعا للمتاجرة باى شكل من اشكالها، ولايجوز السماح بتشغيله قبل ان يبلغ حدا أدنى من العمر ، ولايجوز بآية حال حمله او السماح له بان يتولى عملا او وظيفة تضر بصحته او تعليمه ، او تعيق نموه الجسمى او العقلى او الخلقى .

١٠ - يجب حماية الطفل من ممارسة الاعمال التى من شأنها ان تعزز التمييز العنصرى او الدينى او سائر انواع التمييز ، ويجب ان يربى بروح التفاهم والتسامح والصداقة بين الناس ، والسلام ، والاخوة الشاملة والادراك التام بان يكرس طاقته ومواهبه لخدمة اقرانه .

اقر الاعلان الجمعية العامة للامم المتحدة فى ٢٠ من نوفمبر ١٩٥٩ ، واستنسخه لرسالة اليونسكو دافيد براين ، الذى يبلغ من العمر سبع سنوات .

الطفل في التراث الشعبي

يحتفل التراث الشعبي في كل مجتمعات العالم بالطفل احتفالاً خاصاً ، ولا عجب في هذا . فالطفل هو « بداية » الحياة ، وهو - في ميلاده وفطامته ونموه - رمز حي متجدد لتجديد هذه الحياة . وينسج التراث الشعبي حول حملته وميلاده وحمايته آلاف الممارسات والمعتقدات . وينعكس بعضها في كثير من العناصر الفنية الشعبية مادية وغير مادية ، مما سنلمس بعضه بوضوح أكثر فيما بعد . والطفل والالعب الشعبية يمثلان رابطة بديهية قريبة لكل ذهن ، كذلك الطفل والغناء . . الخ . ولذلك لانبالغ اذا قلنا ان دراسة الطفل في التراث الشعبي لاى مجتمع انما تمثل عرضاً لقطاع مستعرض في ثقافة هذا المجتمع ، وسنطوف اثناء ذلك بكافة اقسام هذا التراث من حيث أن الطفل في كل قسم منها يشكل حجر زاوية ومصدر الهام وبؤرة اهتمام .

وقد سبق لنا أن طورنا تصنيفاً رباعياً لعناصر التراث الشعبي ، رأينا وقتها أنه يفى بالغرض من شمول الرؤية وتعميق النظرة الى التراث الشعبي .

وقد قسمنا التراث الشعبي الى أربعة اقسام رئيسية هي :-

١ - المعتقدات والمعارف الشعبية

٢ - العادات والتقاليد الشعبية

٣ - الادب الشعبي

٤ - الثقافة المادية والفنون الشعبية (١)

ولما كانت دراسة الطفل في التراث الشعبي هي تطوير عبر التراث كله ، ففنا سنتخذ من هذا التصنيف مرشدا وموجها لنا في جولتنا آخذين في الاعتبار ان هذه التقسيمات انما هي حدود نظرية وهمية نفرضها على المادة الحية ، بفرض تيسير الدراسة وتجزئ المعالجة ، وهو امر تحتمه طبيعة تناول العلم . اما المادة الحية المحفوظة في صدور الناس وفي سلوكهم وفي أشيائهم المصنوعة فتتداخل فيها هذه الاقسام تداخلا طبيعيا .

وسيلاحظ القارئ ، فضلا عن هذا ، أن هناك بعض المراحل في حياة الطفل لا نستطيع ان نتناوله فيها بعيدا عن أمه . فهو يظل مرتبطا بأمه في مرحلة الحمل ، وفي الولادة والرضاع . . . الخ . فالكلام عن كل تلك الموضوعات هو كلام عن الام والطفل معا وهو كلام عن الطفل من خلال الام . وأقصد بذلك أن أجسد مدى تلاحم العلاقة وقوتها في تلك المرحلة (٢)

وتدخل تلك العلاقة الوثيقة في مرحلة حاسمه ، كما انها تتعرض لأول تجربة قوية في عملية الفطام . فالفطام هو أولى خطوات الطفل على طريق الاستقلال بكيانه ووجوده الفيزيقي . كما أنه في نفس الوقت بداية الاستقلال النفسي . فهو اذن مرحلة حاسمة وهامة في حياة الام والطفل معا ، ولكن اذا أردنا الدقة فهي أكثر اهمية وابعد دلالة بالنسبة للطفل عنها بالنسبة للام . فهذه ليست في العادة اول تجربة للام في الانفصال الجسدي عن طفلها . ربما تكون قد مرت مرارا بتلك التجربة ، وان لم تكن قد فعلت ، فالأرجح انها ستمر بهامرارا بعد ذلك ، اما الطفل فهي تجربة يتيمة في حياته . ومن هنا قلنا ان تجربة الفطام بالنسبة له ابعد دلالة واخطر وزنا .

وتظل الام على أي حال مرتبطة بعلاقة خاصة مع اولادها ، ربما أكثر من أي مصدر اجتماعي آخر (وان كانت قوة هذه الرابطة تشتد بالنسبة للبنات عنها بالنسبة للاولاد) . فالام في مجتمعاتنا التقليدية كانت حتى عهد قريب لاتعمل ، وما زالت أغلب الامهات بعيدات عن سوق العمل خارج البيت . ولم تكن أمام تلك الام وسائل اتصال او تسلية عامه ، ولم يكن التعليم منتشرا بقدر يذكر . ونتيجة كل هذا بقاء الام مع اولادها الفترة الأكبر من طفولتهم المبكرة ، وقبل خروج

(١) - ناقشنا كافة التقسيمات السابقة - العالمية والمحلية - وعرضنا لعناصر القوة والضعف في كل منها ، وانتهينا الى هذا التقسيم الذي يأخذ في اعتباره تطور البحث الفولكلوري على المستوى العالمي ومراعاة الواقع المحلي لبلادنا ، انظر محمد الجوهري ، علم الفولكلور . الجزء الاول ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ ، الفصل الثالث ، ص ٥٣ - ٥٨ .

(٢) بلغ من عمق التصور الشعبي لقوة هذه العلاقة أن الام الحامل - كما ترى بعض المجتمعات - تربطها علاقة خاصة مع الجنين الذي في بطنها : تعرف ان تضايق وتعرف ان فرح ، وتحس به في كل حالاته . (مع خلاف هذا التصور اختلافا أساسيا بديها مع المعطيات العلمية الحديثة) . ومن هنا حرص المحيطون بالام الحامل على رعاية مزاجها وملاطفتها ومسائرتها طوال فترة الحمل . وللموضوع جوانب أخرى ستتضح في سياق الدراسة .

الدكور الى العمل اوالى مجالس الرجال ، وبالنسبة للبنات حتى زواجهن . (٣) فالام هى التى تنقل لهم تراث المجتمع الذى يعيشون فيه ، هى التى تطعمهم ، وتربيههم فى شئون الحياة اليومية ، وتحكى لهم القصص ، وتغنى لهم ، وتلاعبهم ... الخ .

ثم تمر علاقة الطفل بأمه (وبمجتمعه الكبير المحيط به) ، كما يمر نموه الجسمى والاجتماعى ببعض المراحل الحاسمة ، التى تمثل (محطات على رحلة حياته . ويحتفل المعتقد الشعبى ، كما تهتم العادات الشعبية ، بتلك المراحل احتفالا كبيرا : فتنسج حولها الافكار وترسم فيها أساليب السلوك ، وتتحوط بكافة السبل ضد ما يهدد الطفل فيها من أخطار .

ومن أهم تلك المراحل انقضاء الاسبوع الاول من عمر الطفل . (وفى بعض المجتمعات الاربعون يوما الاولى) ، حيث يؤدى حفل السبوع دورا مناظرا لعملية « التعميد » ، ولكن بالمفهوم الاجتماعى وليس الدينى . فالسبوع هو قبول او « ادخال » الطفل للمجتمع المحيط به من خلال عملية « التسمية » من ناحية » ، وتأكيد الوجود الاجتماعى للطفل من ناحية أخرى . وهذا الوجود الاجتماعى هو الامر الحاسم والهام ، وليس مجرد الوجود الفيزيقي الذى تحقق فعلا من خلال عملية الولادة .

ومن المراحل الهامة فى حياة الطفل ايضا انقضاء السنة الاولى من عمره ، حيث يكون الاحتفال بعيد الميلاد الاول ، ثم بأعياد بعد ذلك ، وبمشى الطفل لأول مرة ، وكلامه لأول مرة ... الخ . تلك كلها « بدايات حاسمة وهامة لمراحل اساسية فى حياة الطفل ، يتصرف المعتقد الشعبى والعادات الشعبية حولها بكل دقة ، وترسم استجابات المحيطين ، وتفسر كل الظواهر المصاحبة لها .

بعد أن تتطور عمليات نمو الطفل نسبيا ، تظهر ألعاب الاطفال وأغاني الاطفال بشكل اولى بسيط ، وعلى لسان الام اولا . فهى اول من يردد لوليدها الاغاني ، ومعها تبدأ اولى محاولات اللعب ويتطوره تتطور قدراته على الفناء واللعب ، ويكتسب من خلالها سبيله الى اطفال الاسرة الآخرين ، ثم اطفال البيت ، والشارع والمدرسة بعد ذلك . فالألعاب هى أول مدرسة اجتماعية يدخل اليها الطفل ، ومن خلالها يجتاز اولى تجارب حياته .

وتمر حياة الطفل بعد ذلك بمراحل أخرى ذات أهمية ودلالة ايضا ، حين يبدأ اول « خروج » منتظم للطفل من البيت ، سواء للعمل (كما فى المجتمع البدوى للرعى مثلا ، أو من المجتمع

(٣) ولذلك ليس من الغريب أن يشير العالم الفرنسى دي شابرول ، فى دراسته عن سكان مصر المحدثين ، الى هذه الحقيقة قائلا : - « .. اذا كانت المرأة لا تحدث عند الشعوب الشرقية الا تأثيرا بالغ الضلالة على الرجل بالمقارنة بما يحدث فى أوروبا ، فإن الاطفال فى سنى عمرهم الاولى يخضعون لتأثيرها هي اساسا » . انظر :

دي شابرول ، دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، ١٩٧٦ ، ص ٤٧ ، (حلقة من كتاب وصف مصر ، الذى يخرج له زهير الشايب ترجمة كاملة ، ظهر منها لآن اربع مجلدات ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .)

الزراعى للمساعدة فى أعمال الحقل البسيطة) اوحديثا للمدرسة . ولكن لا جدال فى ان أهم تلك المراحل على الإطلاق مرحلة الختان ثم مرحلة البلوغ . وهى تعد ايدانا بدخول هذا « الطفل » الى مجتمع الرجال (ان كان ذكرا) ، او الى مجتمع الاناث (ان كان انثى) .

واشرنا الى ان كل تلك المراحل يحيطها المعتقد الشعبى ، كما تحيطها العادات الشعبية ، بالكثير من الاجرامات والممارسات الرمزية والسحرية التى تهدف الى حماية الطفل وتأمين انتقاله الى المراحل التالية ، او الحفاظ عليه من اخطار هذا الانتقال . كما يمثل الطفل خلال كل مرحلة حاسمة منها بؤرة احتفال اجتماعى يقوم به الكبار من حوله ، ويعبرون خلاله عادة بمختلف اساليب التعبير عن فرحهم وسعادتهم بوصول الطفل الى هذه المرحلة ، ونجاحه فى اجتيازها بسلام .

حول مفهوم الطفولة :

لم نتعرض فى هذه الدراسة بشكل مباشر لتحديد مفهوم الطفولة من وجهة نظر المعتقد الشعبى . فتلك النقطة على بساطتها الظاهرة من أعقد موضوعات الدراسة وأكثرها اتساعا . اذ تختلف الشعوب فيما بينها اشد الاختلاف فى تعيين البدايات والنهايات (الزمنية) لتلك المرحلة فبعضها يرى أن الحياة تبدأ منذ بداية الحمل (انقطاع الدورة عند المرأة) ، وبعضها يبدؤها بتحريك الجنين فى بطن أمه ، وطائفة أخرى تبدؤها بال ميلاد ، ورابعة بالسبوع ، وأخرى بالتسمية ، وسادسة بالختان ، وغيرها باجتياز طقوس العبور الشاقة . . . الخ . هذه فكرة سريعة متعجلة عن الاختلاف حول بداية مرحلة الطفولة ، ويمكننا مما سبق أن نتصور مدى الخلافات حول تحديد نهايات هذه المرحلة .

فخروج الطفل الى مجتمع الكبار للمشاركة فى أداء وظيفة اقتصادية - مهما كانت متواضعة - يمكن أن يبدأ فى الرابعة أو حول تلك السن . وقد يتأخر الى السابعة أو العاشرة (٤) . على أن المشاركة فى النشاط الاقتصادى للجماعة لا تعنى اوتوماتيكيا اعترافا بانتهاء مرحلة الطفولة وبدء مرحلة الشباب فقد يتأخر الاعتراف بهذا « العبور » الى سن أبعد من ذلك ، الى حين تمام البلوغ (بلوغ الكفاءة الجنسية الكاملة للذكور والاناث) ، او الى حين اجتياز بعض اختيارات العبور الشاقة ، وربما الى ما بعد تكوين الفرد أسرة نووية جديدة ، وأحيانا يمكن أن يؤجل هذا الاعتراف الى ما بعد انجاب اول طفل فالمسألة كما نرى معقدة ومتشابكة مع أنساق اجتماعية ثقافية أخرى ، ولا يمكن أن نلقى فيها حكما عاما ببساطة .



(٤) نذكر هنا الحديث النبوي الشريف الذي ينصحنا بان نأمر الطفل بالصلاة فى السابعة ونضربه على تركها فى العاشرة . فالسنة العاشرة بداية عمله نوع من المسئولية التى يجب ان يحاسب عليها .

أولاً : المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل

هناك بعض التحفظات والملاحظات التي يجب أن نبدأ بها حديثنا عن المعتقدات الشعبية . فصفة « الشعبية » تدل هنا على ما تدل عليه في عبارة « الأغاني الشعبية » أو « العادات الشعبية » . الخ . أى أننا نقصد المعتقدات التي يؤمن بها الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي . وليس من الأمور ذات الأهمية الرئيسية - مع أننا نوليها عنايتنا عند الدراسة وفي التحليل - ما إذا كانت هذه المعتقدات قد نبعت من نفوس أبناء الشعب عن طريق الكشف أو الرؤية أو الإلهام ، أو أنها كانت أصلاً معتقدات دينية (إسلامية أو مسيحية أو غير ذلك) ثم تحولت في صدور الناس إلى أشكال أخرى جديدة بفعل التراث القديم الكامن على مدى الأجيال ، فلم تعد بذلك معتقدات دينية رسمية بالمعنى الصحيح ، أى أنها لا تحظى بقول وإقرار رجال الدين الرسميين . وقد كان الشائع أن يطلق عليها في الماضي اسم ينطوي على حكم قيمى واضح ، إذا كانت تسمى خرافات أو خزعبلات . ومن الواضح أن هذه التسمية كانت صادرة عن رجال الدين الرسميين ، سواء في الخارج أو عندنا . لأن المعتقدات التي تدور حول هذه الموضوعات الغيبية ، ولا تتفق وتعاليم الدين الرسمي ، لا تستحق من وجهة نظر أصحاب هذا الدين اسم « معتقدات » . فكانت تسمى بهذا الاسم الخاطيء الذي تخلينا عنه اليوم كلية . (٥)

الملاحظة الأخرى أن أغلب تلك المعتقدات - التي يدور عنها الحديث هنا - تفصح عن نفسها غالباً في شكل عادات وممارسات شعبية . ومن هنا تؤكد من جديد أن الفصل بين المعتقد والعادة هو فصل نظري بحث لأغراض الدراسة العلمية ، ولا وجود له في الواقع الحى . فالمعتقد والعادة هما وجهان لعملة واحدة .

كما نلاحظ أن الغالبية العظمى من العادات التي تمارس أزاء الجنين والطفل الوليد ، ثم بعد ذلك قبل قبوله في المجتمع ، إنما يمكن تفسيرها في ضوء معتقد شعبى أساسى . فهى جميعاً تستهدف حماية هذا الجنين ثم الوليد من الأخطار التي تهدده سواء من جانب قوى منظورة أو خفية . وأغلب تلك الممارسات (التي سنعرض لطرف منها في سياق حديثنا التالى) كانت في الأصل ممارسات سحرية وطقوساً دينية تخدم نفس الغرض ، ثم « سقطت » إلى مستوى العادات ، وتحولت إلى الصورة التي نجدها عليها اليوم . فعادات وتقاليد رعاية الجنين والمرأة الحامل ثم المرأة الواضعة ووليدها إنما هى بهذا المعنى « رواسب » لممارسات قديمة كانت تمثل درجة أعلى من التقديس ، ولكنها تخدم نفس الوظيفة الثقافية .

الوظيفة الثانية لبعض العادات التي تمارسها الحامل ، أو تمارس عند الولادة أو بعد ذلك هى الاعتقاد بأن كل ما يحدث للجنين أو الوليد في تلك الفترة سيؤثر على مستقبله ومصيره . فالقاء « الخلاص » في مياه جارية يطيل عمر الوليد ، و « الوطواط » للبنات هامة لجمالها لأنها تمنع

نمو الشعر في الاماكن الموطوة . بل ان التسمية نفسها ليست عملية فردية عشوائية ، ولكن الاسم الذي سيطلق على هذا الوليد سيؤثر على خصائصه ، وعلى مستقبله . (٦)

اما الوظيفة الثالثة فجمالية بحتة ، حيث تستهدف هذه الممارسة او تلك : اطالة الشعر والتاثير على خصائصه ، او توسيع العينين ، او تقوية الذاكرة عند الطفل ، او التاثير على لون البشرة ... الخ مما سيتضح بعضه في سياق حديثنا .

وتبدأ جولتنا مع المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل بالاشارة الى تفسير أصل الطفل له ، او بيان الكبار المحيطين به المصدر الذي حصلوا منه عليه . فهناك طائر او حيوان او انسان او كائن ما « أحضر » هذا الطفل الى البيت . قد يكون الضفدعة ، او الغراب ، او الثعلب ، او « الداية » (او بابا نويل في بعض المجتمعات الاوربية) . (٧) ويعتقد أحيانا أن كل الاطفال موجودون في مكان معين (في بئر معين ، او تحت شجرة معينة ، او في احد المناجم ، او في بحيرة معينة ، او فوق جبل بالذات او امام احد المساجد ... الخ) وان هناك شخصا معيناً هو الذي يحضرهم للأسرة .

والطفل الذكر في كل المجتمعات العربية أكثر تفضيلاً من الطفل الانثى . وقد عرضت الدراسات الفولكلورية القليلة المنشورة عن المجتمعات العربية لهذه الملاحظة بكل جلاء ودون أي لبس (٨) . ويعرف المعتقد الشعبي كثيراً من التفاصيل التي تجب مراعاتها والممارسات التي يجب اتباعها لانجاب طفل ذكر (٩) .

فأهم خبر يترقبه أفراد الأسرة بمجرد أن تضع الوالدة طفلها هو جنس المولود من حيث كونه ذكراً أو أنثى . ويصل هذا التفضيل الى درجة أن « بعضهم يملؤه الحزن اذا ولدت له أنثى . اما

(٦) انظر مزيداً من التفاصيل والامثلة ، عند ريتشارد فايس ، الفولكلور السويسري (بالالمانية) :

R. Weiss, Volksunde der Schweiz, Zurich, 1946, P. 175.

(٧) انظر مزيداً من التفاصيل عند ريتشارد بايتل ، قاموس الفولكلور ، (بالالمانية) : -

R. Beitzl, Worterbuch der Volkskunde, herausgegeben von O.A. Erich und R. Beitzl, Z. Auflage, Alfred Kroner, Verlag, Stuttgart, 1955, P. 409.

(٨) انظر بيانات اثنوجرافية دقيقة ومفصلة اوردتها علياء شكري في دراستها لبعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية ، علياء شكري ، بعض ملامح التغيير الاجتماعي الثقافي في الوطن العربي . دراسات ميدانية لبعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ .

وانظر كذلك مؤلفي احمد امين وفوزية دياب وغيرهما مما سيرد ذكره في حواشي هذه الفقرة فيما بعد .

(٩) وقد اورد احمد امين في « قاموسه » ان : الرجل اذا اراد ان تلد امراته الذكور فليضع يده اليمنى على سرتها وهي نائمة ، ويمسح على السرة وهي في ابتداء حملها ويقول ثلاث مرات ، وهو يديم المسح بيديه : اللهم ان كنت خلقت خلقاً في بطن زوجتي هذه فكونه ذكراً وانا اسميه محمداً . رب لا تلدني فرداً وانت خير الوارثين . فبشرناه باسمحق ومن وراء اسحق يعقوب ، وبشروه بغلام عليم «

انظر احمد امين ، قاموس العادات والتقاليد والتعبيرات المصرية ، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ ، ص ٤١٥ .

الصبي فالكل يفرح ويتهلل لمقدمه بدليل القول السائر لدى الفلاحين المصريين : « لما قالوا ده ولد انشد ضهرى وانسند ، ولما قالوا دى بنيه انطبقت الدار على » او القول : « لما قالوا ده غلام انشد ضهرى واستقام ، ولما قالوا دى بنية شمتت العدافيه » . (١٠)

ومع ذلك فان دراسة اشمل لتراث الامثال والعبارات الشعبية المتداولة في مجتمع كالمجتمع المصرى (يجلد كما رأينا انجذاب الذكور) توضح لنا أن هناك عديدا من الامثال التى تمتدح انجاب الاناث . (١١) والرأى عندنا أن مثل هذه الامثال التى تحبب في انجاب البنات انما هى دليل يؤكد القاعدة الاولى ولا ينفيها . فهى تؤكد تعاسة المرأة التى تلد بنتا ، وتنبهنا الى أن المجتمع انما ابتكر تلك العناصر الشعبية لكى يخفف عن هذه المرأة ويواسيها .

وبعد ميلاد التوائم مثارا لاهتمام المعتقد الشعبي . ومع أنه من المعروف أن التوائم ليست من الظواهر الشائعة احصائيا على مستوى العالم ، الا أننا نجد المعتقد الشعبي لدى كل الشعوب وعلى مدى كل العصور يحفل بكثير من الافكار والعناصر الدائرة حول التوائم .

وتتراوح المواقف من التوائم في المعتقد الشعبي بين التشاؤم الشديد منها (وما يتبع ذلك من ممارسات) ، والتفاؤل او التقدير الكبير . وان شئنا المفاضلة بين الاتجاهين او وزنهما من حيث سعة الانتشار وجدنا اتجاه النفور منهما والتشاؤم هو الاوسع انتشارا والاكثر تواترا بين الناس

وقد عرفنا عن بعض المجتمعات ان أحد التوأمين ينسب عادة الى الالهة ، اما الآخر فينسب الى اب من البشر (قارن في هذا حكاية هرقل في الاسطورة الاغريقية) . بينما تعتقد شعوب اخرى أن التوأمين يكونان دائما لرجلين شاركوا في اخصاب الام ، كل منهما أب لواحد من التوأمين . وكثيرا ما يعتقد ان انجاب التوائم هو ثمرة علاقة زنى ودليل عليه .

(١٠) انظر مزيدا من التفاصيل عند فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية . مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ، صص ٢١٤ وما بعدها .

(١١) من الامثال والعبارات التى تحبب في انجاب الاناث : -

- « اخير الناس اللي تبكر بالبنت »

- « اللي يسعدنا زمانها تجيب بناتها قبل صبيانها » .

- « اللي مالهاش بنية تصبغ ايادياها ، تعيط بحرقة والناس تعزينا » .

- « اكبري يابنتي والنصيب كثير » .

- « ام واحدة ربنا محيرها ، وام عشرة ربنا مدبرها » .

- « ابو البنات مرزوق »

- « اللي ما عندوش بنات ما يعرفوش الناس امتى مات »

انظر مزيدا من التفاصيل عند ، ابراهيم احمد شعلان ، الشعب المصري في امثاله العامة » ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، صص ١٢٩ - ١٣٠ ، وص ١٣٥ .

اما المجتمعات الاحداث والاقرب اليها والاكثرتقدما فتعتقد أن انجاب التوائم هو دليل على زيادة في رجولة الأب . بينما تعتقد كثير من الشعوب البدائية أن التوائم يجب التخلص منها ، وأن على المرأة أن تتطهر لفترة من الوقت بعد أن تضعهما .

ولهذا السبب تحرص تلك المجتمعات على تجنب أكل المرأة للثمار المزدوجة كلوزتين ملتصقتين ببعضهما ، او موزتين ملتصقتين . الخ حيث يعتقد أن أكل تلك الأشياء يؤدي الى انجاب التوائم . ويورد قاموس فونك للفولكلور تفصيلا لبعض الممارسات - مشفوعة بالنصوص المستخدمة - التي يتحتم اللجوء اليها في حالة اذا ما اضطرت الفتاة او المرأة الى أكل مثل هذه الثمار المزدوجة . والهدف من كل تلك الممارسات والصيغ تجنب انجاب التوائم . (١٢)

ثم هناك على الطرف الآخر الموقف الذي يحجب انجاب التوائم ويسعد بها ويعتبرها فالأحسنا . فيعتقد أبناء تلك الثقافات أن التوائم تتمتع ببصيرة نافذة ، اوهم يتمتعون بقوة خارقة ناتجة عن جمعهم بين شخصيتين في نفس الوقت . كما ترى إحدى قبائل الهنود الحمر أن التوائم تستطيع رؤية الأرواح وغيرها من الكائنات فوق الطبيعية . وهو الأمر الذي لا يستطيعه الناس العاديون كما نعرف . ولكن التوائم يمكن أن تفتقد هذه القدرة اذا ما تناولت طعاما من أعداد امرأة حائض .

ونستطيع أن نجد نفس هذين الموقفين العامين من التوائم في الثقافة الافريقية جنوب الصحراء أيضا ، خاصة غرب افريقيا ، ومنها انتقلت تلك المعتقدات الى زنوج العالم الجديد . ويفسر البعض هذه المواقف المتطرفة من التوائم في ضوء أنهم يمثلون نوعا من الولادة الشاذة او التي تلابسها ظروف غير طبيعية . ويرسم هيرسكوفيتش في مقاله عن التوائم في غرب افريقيا معالم الخط الفاصل بين منطقتي تقديس التوائم والنفور منهم بأنه يمتد عبر وسط نيجيريا . حيث نجد أن اليوروبا وقبائل الساحل الغربي غربا من الفريق الذي يحب التوائم . أما الايبو وزنوج منطقة الدلتا والكاميرون فيتحذون الموقف المعاكس .

ويشير فضلا عن هذا الى أن هناك طائفة من المعتقدات الدائرة حول الطفل التالي في الولادة على التوائم . اذ ترى تلك الثقافات الزنجية أن هذا الطفل يتميز بقوة جسمانية فائقة ، وأنه يجب أن يلقي معاملة خاصة . الخ . ويفسر انتشار الممارسات والعبارات المتعلقة بالطفل التالي على التوائم (والمعروف باسم "the dosu" في مجتمعات البرازيل ، وكوبا ، وجيانا ، وهايتي وغيرها من شعوب البحر الكاريبي بأنه يكاد يكون احتفاظا طبق الأصل لنظائرها الأصلية ، والتي انتشرت الى تلك المنطقة ، وتركت بصماتها واضحة عليها دون إعادة تفسير .

Funk & Wagnalls Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend, (١٢)
ed. by Maria Leach, Funk and Wagnalls Publishing House, N. Y., 3rd ed. 1972. Art.,
„Twins”, PP. 1134-6.

وانظر ، كذلك محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني : (دراسة المعتقدات الشعبية) ، دار المعارف ،
الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ . الفصل الخاص بالمعتقدات الدائرة حول الانسان .

الاحطار المحيطة بالطفل جنينا ورضيعا وطفلا :

يرى المعتقد الشعبى ان الام وجنينها يتعرضان طوال فترة الحمل وعند الولادة وبعدها الى عدد من الاخطار المتنوعة التى تأتى من مصادر مختلفة ولاعتبارات شتى . وسوف نحاول الامام بتلك العناصر بشكل موجز ، ثم نركز كلامنا على نقطة واحدة على سبيل التوضيح .

تعرض الام وهى حامل لخطر المشاهدة (او الكبس) : ومعنى ذلك الوقوع تحت تأثير الحسد وتأثير ارواح شريرة . وهناك عدة اساليب وسبل تؤدى الى مشاهدة الحامل ، فدخل رجل أجرودى عليها ، او امرأة عاتر ، او امرأة حائض . . . الخ كل ذلك من عوامل مشاهدة تلك الحامل .

ومن المستحب فوق ذلك ان تتغنى الحامل ويفنى لها الآخرون اغان معينة تتفق والمناسبة السعيدة المقبلة عليها . ويجب على المحيطين بها على وجه العموم الحرص على عدم ذكر اى حكايات مخيفة او اخبار سيئة او حكايات ولادات عسرة امامها . ولابد من الحرص على اعتدال مزاجها وسرورها بقص الحكايات ورواية الاخبار الطريفة المبهجة الباعثة على التفاؤل . (١٣) ولا يصح لها ان تشارك فى مناسبات العزاء ، ولا ان تقوم بزيارة المقابر طوال فترة الحمل . ويستحب لها ارتداء الالوان المبهجة الجميلة وترك الملابس ذات الالوان القاتمة ، فلا يصح ان ترتدى ملابس الحداد اطلاقا واذا حدث فلمدة قصيرة جدا وبشكل رمزى .

وعلاوة على هذه الرعاية النفسية فهناك رعاية جسمانية للحامل ، حيث يخشى عليها من حمل الاحمال الثقيلة او اداء الاعمال الشاقة (تجنباً لحدوث اجهاض) .

ومن الممكن القول بصفة عامة بأن الاسرة تحرص ، خاصة بالنسبة للام « البكرية » على الاستجابة لكل طلباتها والتسرية عنها ، وتخفيف الام الحمل التى تشعر بها . واهم احداث تلك الفترة « الوحم » . والوحم ظاهرة تحدث فى الشهر الثالث والرابع فى اشهر الحمل . وكثيرا ما تتوحم الحبل فتشعر برغبة ملحة فى نوع او انواع خاصة من المأكولات . وفى بعض الاحيان تكون هذه المأكولات نادرة ، او غير موجودة فى فترة وحم الزوجة ، لان لها اوانا واوقانا او مواسم معينة . وهناك اعتقاد شائع ان الحامل التى تتوحم اذا اشتته شيئا من المأكولات ولم يحضر لها ، فان هذا النوع من الطعام سيظهر على بشرة الوليد على هيئة بقعة تسمى « وحة » كبيرة او

(١٣) واتساقا مع هذا حرص الحامل طوال ايام الحمل والوحم على الابتعاد عن كل المناظر القبيحة ، كمنظر الحميم او الفروء مثلا ، او منظر الاشخاص المشوهين . لان الاعتقاد الشائع انه اذا وقع نظر السيدة الحامل على منظر شخص او حيوان قبيح ، فان وليدها سيكون قريب الشبه منه ، لان العين « لقاطة » كما يقولون . ولذلك تعتمد الحامل ان تنظر الى الاطفال والاشخاص ذوي الخلقة الجميلة والوجه الحسن ، لكي تلتقط عينها مناظرهم فيأتى الجنين على هذه الصورة الجميلة .

كذلك تحذر الحامل كل التحذير من « المخيلة » على اى شخص ، اى السخرية والتهكم على من كان اسمر مثلا او لثما او ممتوها او به اى صفة معينة بشكل عام . فان سخريتها من مثل هؤلاء ، وتهكمها عليهم ، يجعل وليدها ياتى متصفا بصفاتهم . انظر فوزية ذياب ، القيم والمعادن الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

صغيرة. وقد تظهر في وجه الوليد فتشوه منظره. ولذا يحرص الزوج وأهله على السعى لاحتضار ما تشتهى الزوجة الحامل ، مهما كلفهم ذلك من ثمن ومشقة . (١٤)

وتتعرض الام الحامل ، ثم هي ووليدها بعد ذلك لخطر الحسد . وكتب الدراسات الشعبية تزخر بعشرات ، بل مئات ، الشواهد والنماذج على ذلك . (١٥) فالطفل الجميل اكثر تعرضا للحسد من العادي والقبيح ، والوحيد اكثر تعرضا من له اخوة ، والذكر اكثر تعرضا للحسد من الانثى ، وهكذا . وتلجأ الامهات الى اساليب شتى لدرء خطر الحسد ، فالبعض يلبس اولادهن الذكور ثياب الاناث في الايام الاولى عقب الميلاد ، بل بعضهن يطلق على الذكر اسم انثى . وكانت الامهات المصريات الموسرات على ما يحكى ولين يتركن اطفالهن في ثياب قدرة ومظهر رث خوفا من الحسد وقد تعلق بعض الاسر على اطفالها الاحجية المختلفة لحمايتهم من الحسد . الخ .

وتتخذ اعظم الاحتياطات واكثرها جدية ساعة مولد الطفل ، بهدف حماية الام وحمايته هو . فتتلو الحاضرات الادعية والايات والصيغ والعبارات التي تستهدف تخفيف آلام الولادة والتعجيل بها ونهايتها نهاية حسنة سليمة . ويمثل انفتاح رحم الام في تلك اللحظة مصدر خطر - حسبما يرى المعتقد الشعبي في كثير من الثقافات - يجب التحرز من اخطاره وتجنب دخول ارواح شريرة من حيث يتدفق الدم . ثم ان هذا الدم نفسه موضع احساس مزدوج : فهو رمز للخير والنماء والتجدد والحياة الجديدة ، وهو في نفس الوقت عنصر نجس ينطوى على خطورة غير معلومة وعلى تهديد للام والطفل والمحيطين . (١٦) ويحتم كل ذلك التصرف بحذر في الخلاص وبقايا الحبل السرى ، ومعالجة الوليد بحكمة ودراية . الخ على اساس ان كل سلوك في تلك اللحظة ستكون له آثار بعيدة المدى على حياة الام والطفل ، وعلى الطفل بوجه خاص . وترتفع درجة الاستعداد وتتخذ ابعادا مختلفة في حالات الولادات العسرة ، حيث انه من المنطقي أن تزداد احتمالات الخطر التي يتعرض لها الام والطفل معا .

وبعد نزول الجنين من بطن أمه وليدا ، تجرى له بعض الاستعدادات وتقدم له بعض ألوان الرعاية ، كقطع الحبل السرى ، ودهان جسمه ببعض المواد ، وتكحيله . الخ ومن هذا أيضا عصر ثدييه (ساعة الميلاد ويوميا لمدة سبعة أيام ، اعتقادا بأن هذه الممارسة تقي الطفل رائحة

(١٤) فوزية دياب ، المرجع السابق ، الموضع ، وتبدي الدكتور فوزية دياب بهذه المناسبة ملاحظة طريفة ، حيث تقول : « والواقع ان رغبات الحامل في فترة الوحم تعد فرصة امامها وامام أهلها لاختبار شعور زوجها وأهل زوجها نحوها ، وما يحملونه لها من محبة وعطف واهتمام وتسامح . ولذلك فكثيرا ما تنتهز الزوجة هذه الفترة وتتدخل على زوجها وأهله بطلب المأكولات والملبوسات المختلفة التي كانت تشتهيها قبل الحمل » .

(١٥) انظر على سبيل المثال ولين لين ، المصريون المحدثون . شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلي طاهر نور الطبعة الثانية ، الناشر غير مبين ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، وكذلك أحمد أمين ، مرجع سابق وغيرهما كثير .

(١٦) انظر مادة « ميلاد الطفل child birth في قاموس فرنك للفولكلور ، التي سبقت الإشارة اليه ،

العرق الكريهة عندما يكبر) . و « الوطوطة » (بالنسبة للبنات، بدهن ابطاها وعانتها بدم خفاش أو وطواط كما يسميه الفلاحون المصريون ، لكى لا ينمو الشعر في هذه الاجزاء عندما تكبر) . وفي تلك اللحظة ايضا تقدم للام بعض صور الرعاية ، كتدليك جسدها ، وتغذيتها .. الخ .

ولكن من أهم ملامح تلك الفترة وأكثرها خطورة وأبعدها تأثيرا على حياة الطفل فيما بعد كيفية التصرف في الخلاص وبقايا الحبل السرى . وسوف نركز دراستنا الباقية في تلك الفقرة على هذا العنصر كنموذج للاهتمام الذى يمكن توجيهه الى سائر الموضوعات والعناصر التى أشرنا اليها على سبيل الإيجاز (١٧) .

الخلاص في المعتقد الشعبي :

من الملاحظ أن الخلاص يرتبط عند كافة شعوب الأرض تقريبا - المتخلف والمتحضر على السواء - ارتباطا وثيقا بروح وحياة ، وموت ، وصحة ، وطباع ، ونجاح أو فشل الشخص الذى يولد فيه . ولذلك نجده يرتبط بالاعتقاد الانسانى الراسخ الجذور فى الروح الخارجية أو الروح التى لا تنفصل عن الجسد . ومن هنا أصبح ما يحدث للخلاص (وكذلك الحبل السرى وبرقع الجنين - وهو غشاء رقيق يغطى رأس المولود أحيانا) يؤثر فى حياة الطفل كلها ، بل يحدد مصيره حيث يعتقد أنه يحوى روح الطفل الوليد أو يضم روحه الحارس ، أو هو أخوه أو توأمه أو نظيره الحقيقى ، أو أنه مرتبط به ارتباطا غامضا ووثيقا . فالتصرف فيه أو مصيره سوف يحددان مهارات الطفل وحظه ومصيره فى الحياة .

وتنتشر تلك المعتقدات لدى كافة شعوب الأرض وشتى الثقافات من كولومبيا البريطانية . الى تيراديل فويجو ، ومن أيسلنده حتى سيبيريا ، ومن أوربا حتى جنوب افريقيا ، وعند شعوب الصين واندونيسيا وجنوب المحيط الهادى . بل وحتى عند شعوب الهنود الحمر الأمريكيين . فكل تلك الشعوب تنظر الى الخلاص بتقدير وحرص شديد ، وتعمل على المحافظة عليه أو التصرف فيه طبقا للمعتقدات الشائعة عنه لدى الجماعة .

وهناك شواهد لا حصر لها على هذا الاعتقاد عند الشعوب المختلفة (١٨) . من هذا مثلا ما يقوم به هنود كواكيوتل الحمير فى كولومبيا البريطانية حيث يقدمون خلاص الوليد الذكر الى الغربان السوداء ، معتقدين أن ذلك سوف يمنح هذا الطفل القدرة على التنبؤ بالمستقبل . أما خلاص البنت فيدفن فى أحد الأماكن المرتفعة التى تغطيها مياه الجزر لتكون امرأة ولودا .

(١٧) انظر حصرا شاملا بالعناصر والموضوعات التى يجب دراستها حول هذا الموضوع فى الدليل الذى قمنا باعداده مع بعض الزملاء لدراسة عادات دورة الحياة ، انظر محمد الجوهري وعلياء شكرى وعبد الحميد حواس ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ ، خاصة الاسئلة من ١١ حتى ٩٢ . وانظر كذلك وليم لين ، المرجع السابق ، واحمد أمين ، المرجع السابق ، وفوزية دياب ، المرجع السابق ، وغيرها من المراجع .

(١٨) النماذج التى سنستعرضها فيما يلى نقلا عن مثال عن « الخلاص » بقاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٢٤ - ٢٥ حيث يقدم مادة اثنوجرافية وفيرة عن الموضوع .

ونجد نفس هذا النوع من السحر التعاطفى عند شعب اليوقاغير "Yukaghir" فى شمال شرقى سيبيريا . اذ كانوا يلفون خلاص الوليد فى جلد الرنة ويلفون معه نموذجا مصغرا لقوس وسهم ، وسكينا خشبيا صغيرا وقطعا صغيرة من الفراء . وذلك بهدف أن يصبح هذا الوليد صائدا ماهرا . أما خلاص البنات فتوضع معه سكين صغيرة مما يستعمله النساء ، وكستبان (مما تضعه النساء فى اصبعها عند الخياطة) وابرة . ويلف كل هذا مع الخلاص فى لفة . والهدف من ذلك ان تصبح المرأة ماهرة فى بيتها .

وهناك شعب بعيد عن هاتين المجموعتين بمسافة كبيرة هو شعب الايمارا "Aymara" ، فى بوليفيا بأمريكا الجنوبية نجده يهتم بالخلاص اهتماما كبيرا . فيغطون هناك الخلاص بالزهور ثم يدفن بالنسبة للولد ومعه نماذج مصغرة جدامن ادوات العمل الزراعى أما بالنسبة للبنات فيدفن ومعه وعاء طهى صغير .

كذلك نجد فى جميع أنحاء اوربا أن المعتقد الشعبى السائد يرى أن مصير الشخص متوقف على خلاصه ومرتبطة به . ولذلك يحرصون اكبر الحرص على ألا يعثر عليه حيوان ويأكله ، أو يتعرض للارواح الشريرة . لأنه لو حدث وعثر عليه أحد الحيوانات وأكله ، فإن الطفل عندما يكبر سوف يكتسب كل الخصائص الدميمة (الجسمية او النفسية) لذلك الحيوان .

أما الاعتقاد بأن خلاص الوليد يحوى جزءا من روح ذلك الطفل فشائع فى أطراف الارض جميعا من أيسلنده حتى زنجبار ، ومن استراليا حتى سومطرة . من هذا ما يعتقده شعب الباجندا فى وسط افريقيا ، اذ يرى هذا الشعب أن الخلاص هو التوأم الحقيقى أو هو « قرين » الطفل المولود ، ولذلك فإنهم يعمدون الى وضعه فى وعاء ويدفنونه تحت شجرة موز الجنة أو لسان الحمل . بعدها يتحول الخلاص الى شبح يحل فى الشجرة المدفون تحتها . وتقوم القبيلة بحراسة تلك الشجرة بحرص خوف من أن يقوم شخص من غير أقارب الطفل بالأكل من الشجرة أو الشرب منها . لأنه اذا حدث ذلك فإن التوأم الشبح سوف يذهب بعيدا ويختفى . وبعدها سوف يلحق به الطفل الموجود فى البيت ثم يموت .

أما توأم (أى خلاص) الملك عند الباجندا فيحفظ فى معبد صغير ويعين له حارس خاص للسهر عليه . ويقوم هذا الحارس باخراج الخلاص من لفافته مرة كل شهر ، ويضعه من ضوء القمر ليسطع عليه بنوره ، ثم يمسح به بالزبد ، ويعرضه على الملك ليؤكد له سلامة قرينه . ثم يعيده فى النهاية الى مكانه الامين داخل المعبد .

كذلك تعتقد قبائل جنوب أوغندا أن الخلاص عبارة عن كائن بشرى . ويحكى أيضا بعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية قصصا تكشف بوضوح عن الاعتقاد فى الخلاص كتوأم للطفل . ومن هذه القصص تلك التى تحكى أن طفلا طلب من أبيه قوسين ورمحين صغيرين ليلعب بهما (وحده) فى الغابة . فقرر الاب أن يختبئ ليشاهد رفيق ابنه الغامض الذى يلعب معه . وقد رأى الاب من مخبئه ولدا آخر قادما من مكان دفن خلاص ذلك الطفل فى الاحراش ليلعب مع ابنه فأدرك أنه هو توأم ابنه .

وهناك حكايات عديدة جمعت من مناطق متعددة تكشف بوضوح عن ظهور التوأم من خلاص الطفل . وان كانت هناك بعض الحكايات التي تروى ظهور ذلك التوأم من الحبل السرى الذى قد يلقيه الاهل باهمال ولا يعتنون بدفنه .

والملاحظ أن الاعتقاد بذلك الشبح الصغير الذى يحل في الشجرة المدفون تحتها الخلاص يربط المعتقدات الدائرة حول هذا الموضوع بتلك المتعلقة بشجرة الحياة ، والايمان بوحدة الهوية بينها وبين الطفل الذى تزرع من أجله . ففي « كالابار » في غرب افريقيا تزرع شجرة نخيل صغيرة عند ميلاد طفل جديد ، ثم يدفن تحتها خلاص ذلك الطفل . ويعتقد أن الخلاص يضمن نمو تلك الشجرة ، كما أن نمو الشجرة يضمن هو الآخر نمو الطفل . واللافت للنظر حقا هو أن ذلك المعتقد وتلك الممارسة تنتشر في نيوزيلندا وجزر ملقا ، كما كان معروفا في منطقة « بومرن » بشمالى ألمانيا وفي بعض المناطق الاوربية الاخرى .

وقد حفل التراث العبرى القديم بعدد من الممارسات الطبية والمواد السحرية التي كانت اصنع من الرماد المتخلف عن طريق الخلاص . فكانوا اذا خلطوه باللبن يعتقدون أنه يفيد في علاج امراض هزال الاطفال الصغار . أما اذا خلط مع نبات أنف العجل (١٩) ووضعه في وعاء صغير علق حول رقبة الطفل ، فانه يكون بمثابة حجاب قوى يقيه شر الحسد المؤذى . أما في الصين القديمة فكثيرا ما كانت تصنع من الخلاص اقراص طبية . كذلك يستخدم هنود الايمارا (في بوليفيا بأمريكا الجنوبية) الرماد المتخلف عن حرق الخلاص كعلاج لبعض الامراض .

أما العادات الشائعة في جاوة حول هذا الموضوع فتختلف عن كل ما ذكرناه . اذ تعتمد نساء جاوة الى وضع خلاص الوليد في وعاء صغير ، ثم تغطيه بالفواكه والزهور والشموع المضيئة وتترك ذلك الوعاء يطفو على سطح النهر ليلا لارضاء التماسيح . وربما كانت تلك الممارسة وما وراءها من معتقد راجع الى أن جميع الخلاص ليست سوى تماسيح (بمثابة اخوة أو أخوات لاقرانها البشر) ، أو لأن التماسيح هي مثوى أرواح أسلاف أولئك الناس . وان تلك الممارسة تتم لكي تكون بمثابة عودة دينية لذلك التوأم اليهم .

أما بالنسبة للتصرف في الخلاص في المجتمع الريفي المصرى المعاصر فيراعى قبل التخلص منه استبقاؤه في حجرة الوالدة حتى تمر عليه ثلاثة « أذانات » . حيث تعتقد النساء أن ذلك يحفظ الطفل من الشر والحسد . فاذا فرض أن الولادة تمت في الفجر أو في الصباح مثلا ، فلا بد أن يبقى الخلاص حتى يمر أذان الظهر وأذان العصر وأذان المغرب .

ثم تحكى فوزية دياب بعد ذلك عن كيفية التخلص من الخلاص . « ومن العادات المتبعة في التخلص من الخلاص ، أن يرمى في الصاغة اعتقادا بأن هذا يجعل الطفل ثريا في المستقبل ، أو يرمى في ماء البحر أو النهر أو الترعة اعتقادا أن هذا يجعل جروح الطفل في المستقبل سريعة الالتئام

(١٩) أنف العجل أو السمكة snap dragons نبات ذو زهر أبيض أو قرمزي أو أصفر .

بفسلها بالماء (٢٠) . ويفضل البعض رميه للكلاب لتأكله أملا في أن تكون الزوجة ولودا مثل أنثى الكلب المعروفة بكثرة خلفها . وكثيرا ما تلجأ السيدات اللاتي يموت أطفالهن في سن معينة الى وضع الخلاص في قدر صغير ، ومعه كمية من الملح ورغيف من الخبز الساخن . ويقفل القدر قفلا محكما ، ويحفظ في مكان أمين . والمعتقدان هذا الاجراء يحفظ الطفل من الموت .

هذا ويراعى فيمن يرى الخلاص أن يكون ضاحكا في اثناء رميه حتى ينشأ الطفل ضاحكا باستمرار . . . ومن المحرمات الواجب مراعاتها بهذا الصدد أن الخلاص اذا خرج من الحجرة التي بها السيدة الوالدة ، فلا يدخل عليها مرة أخرى لاي سبب من الاسباب خوفا من مشاهرتها ، اى انقطاع حملها بعد ذلك « (٢١) .

الطفل والطب الشعبي :

أوضحنا في دراسة سابقة لنا عن الطب الشعبي أن فلسفة العلاج في الطب الشعبي تقوم على الاعتقاد بأن لكل داء دواء ، ومن ثم فإن كل مرض من الممكن شفاؤه ، ما لم تكن نهاية المريض مقدرة في تلك اللحظة . وهنا يستحيل على اى طب أن يغير مشيئة الله . ولكننا نجد داخل هذا المفهوم أن المعتقد الشعبي يفسح مكانا كبيرا للعوامل المرض الراجعة الى عوامل « نفسية » أو قل سحرية ، أو بمعنى آخر تلك التي لا ترجع الى اسباب مادية معروفة ملموسة . فكثير من الامراض (يستوى في ذلك الحمى - ارتفاع درجة حرارة الجسم - أو الصرع أو حتى العمى) . يمكن أن تعلق بالعين أو الحسد (٢٢) .

ويندرج تحت هذا البند أيضا تأثير الكائنات فوق الطبيعية وأبرزها القرينة (أو أم الصبيان) والجن بصفة عامة ، فهي قد تعمل على إلحاق الضرر بالطفل . وأبرز خطر تمثله القرينة هو الاعتداء على حياة الطفل نفسه ، أو أخذ الطفل الانسى واعطاء الام احد أولاد الجن ، فيسمى هذا الجديد « مبدولا » (أى أن الجن أبدلوه) ، ويطلق ذلك بالدات على الطفل الدائم الصراخ ، والذي يتألم دائما لاسباب غير مفهومة (٢٣) .

ولما كان المرض يمكن أن يرجع الى عوامل نفسية أو روحية وأخرى مادية عادية ، فإن العلاج يمكن - أو يتحتم أحيانا - أن يتم بوسائل سحرية من نفس الطبيعة : كالرقى والتمايم وما الى ذلك . كما قد يتم بالاساليب الطبية التقليدية أو باستخدام مشروط الجراح أيضا . ولكن الملاحظ

(٢٠) هناك تفسيرات أخرى اقرب الى حقائق التاريخ الثقافي ، انظر مزيدا من التفاصيل عند محمد الجوهري وزملائه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مرجع سابق ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(٢١) انظر فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٢٢) انظر احمد أمين ، المرجع السابق ، ص ٤١٥ ، وكذلك ص ٣٢٤ .

(٢٣) بالنسبة للقرينة ، انظر محمد الجوهري ، الجزر في المعتقد الشعبي المصري ، مقال في المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧٢ ، ص ٩٥ - ١٣١ ، حيث نجد معالجة موضوع القرينة وتأثيرها على البشر وصور تدخلها في حياتهم بالضرر ، خاصة الامهات الواضعات حديثا والاطفال الحديثي الولادة .

على أى حال أن الفئة الاولى من الوصفات تحتل المكانة الابرز والاسبق . حتى بعض الوصفات الطبية العادية تفرض عليها بعض الشروط والتحفظات والقواعد ذات الطبيعة السحرية الخالصة (٢٤) .

إذا انتقلنا الى التساؤل عن مضمون الوصفات العلاجية بنوعها ، فسوف نجد أن الفئة الاولى - ذات الطبيعة السحرية - تضم كل العناصر المستخدمة في « الاعمال » السحرية العادية : كالاسماء ، والآيات القرآنية (مجافاة للروح الاسلامية الصحيحة) ، (أو طاسة الرجفة) ، والأحجبة ... الخ .

أما عن المواد والعناصر المستخدمة في النوع الثاني من الوصفات العلاجية ، وهى الوصفات الطبية بمفهومها التقليدى ، فهي كل العناصر التي تتيحها البيئة الطبيعية من نباتات وحيوانات . وكلها أشياء عادية قد تستخدم كماهى ، وقد تعالج على نحو معين ، قد يكون شديد التعقيد أحيانا . وليس من الضروري أن يستخدم العنصر النباتي أو الحيواني كله ، بل أن الأمر قد يقتصر ، كما هو الحال عند استخدام عنصري حيواني ، على عضو منه ، أو على افرازات ذلك الحيوان . ولكن القاعدة العامة أن تكون موادا عادية مألوفة كالعسل أو الزيت ... الخ (٢٥) .

إلا أن هذه العناصر النباتية أو الحيوانية لا تستخدم في الغالب كما هى بحالتها الطبيعية . وإنما يتطلب الأمر تقييدها بعدد من الظروف والقواعد والاجراءات « الفنية » . أول هذه القيود وإسقاطها قصر استخدام العنصر على وقت معين (٢٦) . ومن القيود الأخرى تعقيد الوصفة الطبية بكثير من التفاصيل . ومن ألوان هذا التعقيد أن تضم الوصفة عددا من العناصر ، وأن ينص على كميات متفاوتة من هذه المواد ... الخ .

تلك فكرة سريعة عن طبيعة الوصفات الطبية التي تستخدم في ميدان الطب الشعبي لعلاج الطفل . ولكن ما هى أبرز الامراض ، التي تصدى لعلاجها تلك الوصفات ؟ هناك قائمة طويلة تتصل في أول الامر بكون الطفل طفلا . فتأخر نمو الطفل عن أقرانه في أى مجال من المجالات ، خاصة التأخر في المشي أو التأخر في الكلام يجعله هدفا ضروريا لممارسة الوصفات الطبية الشعبية (٢٧) . وأمراض الاطفال هي الأخرى : كالسعال ، والحصبة ، والقراع ،

(٢٤) انظر بعض الملاحظات حول ذلك عند الكسندر كراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٠٧ .

(٢٥) انظر شواهد على ذلك في مصر الفرعونية عند رانكه ، مصر والحياة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٩٤ . أما بالنسبة للمجتمع المصري المعاصر فتؤكد ذلك الخبرة العامة ، بصرف النظر عن التفصيلات والتحفظات التي ترد عند ذكر كل وصفة . وانظر كذلك وليم لين المصريون المحدثون ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ .

(٢٦) لعل هذا القيد يمكن أن يفهم بشكل أفضل في ضوء معرفتنا بالخصائص المميزة للاوقات كما يستخدمها المشتغل بالسحر . فلكل ساعة من ساعات اليوم ملك خاص موكل بها .. الخ . وهي تفاصيل يمكن استيعابها بشكل أفضل بالرجوع الى محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني عن المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالسحر .

(٢٧) انظر عند وليم لين المرجع السابق ، وصفة لعلاج الطفل الذي تأخر في المشي ، ص ٢٢٨ .

والبكاء المستمر . . الخ . وهناك قائمة أخرى من الأمراض التي يعاني منها الطفل لأنه يعيش في هذا المجتمع ، وليس مجرد كونه طفلاً ، أذكر منها على سبيل المثال أمراض العيون ، والصرع ، والحمى ، والهزال (الضعف الشديد) ، والجرب الخ (٢٨) .

الطفل والممارسات السحرية الاحترافية :

قد يبدو هذا العنوان غريباً بسبب صعوبة تصور اشتراك الطفل في عملية سحرية احترافية ، فهو لا يمكن أن يكون ساحراً محترفاً ، ولا يمكن أن يكون عميلاً يلتمس وصفاً سحرية عند أحد من السحرة . إنما الذي يحدث أن هناك بعض العمليات السحرية - التي تتم على يد سحرة محترفين - يدخل فيها الطفل كأداة أو عامل مساعد في اتمام العملية .

والسبب في ذلك أن الطفل كائن نقى لم تعرف الشرور طريقها إليه ، وطبيعته خيرة مطلقة ، ولا يعرف الكذب ولا المداراة ، كما أنه أمين على ما يرى وما يسمع . فلن يحدث أحداً بحقيقة ما رأى ، ربما لأنه لن يفهم تماماً دقائق ما يدور أمامه .

ولا بد أن تتوفر في الطفل الذي يستخدم في مثل هذه الأعمال عدة شروط ، أولها وأهمها أن يكون دون سن البلوغ ، ويفضل السنة السابعة أو الثامنة ، لكي يستطيع أن يتحدث بوضوح ويصف ما يراه بدقة (٢٩) . والشرط الثاني أن يكون ذكراً ، فاستخدام البنات في مثل هذه الأعمال خطأ فادح . ثم قد يضاف إلى هذين الشرطين شروط أخرى ، منها أن تكون علامات كفه ذات شكل معين ، أو يكون ذا ملامح فيزيقية معينة ، أو من أسرة معينة . . الخ (٣٠) .

ومع ذلك فقد تصادف من السحرة من لا يتطلب في الطفل الذي يستخدم في « ضرب المندل » أو « فتح المندل » أى صفة خاصة ، سوى أن يكون دون البلوغ ، فهذا الشرط لا استثناء فيه . وقد لجأ إلى هذا الأسلوب الساحر الذي حكى عنه وليم لين في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه (صفحة ٢٣٥) . ولكنه في تجربة أخرى أجرى التجربة على ثلاثة صبيان على

(٢٨) انظر دراسة مفصلة عن الطب الشعبي ، محمد الجوهري ، مقدمة في دراسة الطب الشعبي ، مقال بمجلة الحكمة ، طرابلس ، عدد خريف ١٩٧٩ ، وهي تضم عديداً من الشواهد الموثقة لكل غرض من أغراض العلاج الطبى الشعبي .

(٢٩) انظر تحديد السن عند وليم لين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٣٥ وما بعدها ، ونموذج مفصل عند أحمد أمين ، المرجع السابق ، ص ٣٨١ وما بعدها .

(٣٠) من هذا مثلا أن يكون رسم كفه يقرأ ٧١ ، و ١٧ ، لكي يضمن ذلك نجاح المندل . أحمد أمين ، المرجع السابق ، نفس الصفحة . ومع ذلك فليس من المحتم أن كل طفل يصار لذلك . فمن الممكن أن يحدث كما يحكى لين ، وكما تدل خبرتنا الشخصية في دراستنا لبعض السحرة المحترفين في مصر ، أن الساحر قد يجرب مع طفل أو أكثر ، ولكن أيا منهم لا يستطيع مع ذلك أن يرى شيئاً في كفه . فاما أن يؤجل العملية ، أو يبحث عن طفل آخر . ولما سألت أحد السحرة المحترفين عن تفسير عدم صلاحية هذا الطفل أو ذاك ، أجاب بأن هناك عدة أسباب محتملة لذلك . أقربها أن يكون الطفل قد بلغ الحلم مبكراً ، ومن الأسباب الأخرى أن يكون والقاعات تأثير بعض الأرواح أو « الأسياد » الذين يعارضون في اتمام ذلك العمل . انظر مزيداً من التفاصيل عند محمد الجوهري ، استخدام أسماء الله في السحر ، (بالالمانية) ، رسالة دكتوراة منشورة ، بون ، ١٩٦٦ . انظر عرضاً مفصلاً لهذا العمل عند : علياء شكري ، التراث الشعبى المصرى في المكتبة الأوروبية ، الفصل الثامن ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ .

التوالى ، « ولكنها لم تنجح تماما مع أولهم ، وفشلت مع الآخرين » . وبناء على ذلك أجل الساحر التجربة الى يوم آخر (صفحة ٢٣٦) .

فالطفل بهذا المعنى وسيط روحى غير متخصص ، سبق وما زال (فى ثقافتنا) الوسطاء الروحانيين المعروفين الذين تستخدمهم اليوم جمعيات وهيئات تحضير الارواح للاتصال بهذا العالم فوق الطبيعى .



ثانيا : العادات والتقاليد الشعبية المتعلقة بالطفل :

لن نحتاج الى أن نكرر هنا بعض ما قلناه فى موضع سابق من هذا المقال ، من أن حديثنا الذى سبق عن المعتقدات قد تضمن بالضرورة اشارة الى طائفة من العادات والتقاليد . وبالمثل لن تقدم فى هذه الفقرة عن العادات اشارات الى المعتقدات الكامنة وراءها والدافعة اليها .

ونلاحظ بعد هذا أن العادات والتقاليد المتعلقة بالطفل تصاحبه فى مرحلة حياته منذ لحظة مولده ، وحتى اكتمال التربية ودخول الحياة العملية او البلوغ ، أو حتى الزواج . وسنقتصر فى عرضنا على التوقف عند بعض « المحطات » الهامة على طريق هذه الرحلة الطويلة .

١ - السبوع :

السبوع هو اليوم السابع لولادة الطفل ، ويقام له احتفال خاص ، يكون أكثر بهاء وكلفة فى حالة المولود الذكر . وتحت أيدينا عدة أوصاف مكتملة لهذا الحفل ، نذكر على رأسها وصف شابرول ، ووليم لين ، وأحمد أمين ، ورشدى صالح ، وفوزية دياب .

ونقدم فيما يلى وصفا مختصرا لهذا الحفل ، نعلق بعده على التفسيرات المطروحة لبعض الممارسات التى تتم اثناءه ، وسوف استعين بالوصف الوارد عند فوزية دياب مع اسقاط التفسيرات التى قدمتها . ذلك أنها خلطت فيها بين تفسيرات الاخباريين لما يمارسونه من سلوك ، والتفسيرات العلمية التى يجب ابرازها فى مثل هذا العرض . ولذلك لا نعرف بالتحديد هل التفسيرات الواردة تمثل خلاصة بحثها ودراساتها أم أنها مستقاة من الاخباريين لما فيها من أخطاء بجانب حقائق التاريخ الثقافى المعروفة (٣١) .

« يبدأ الاستعداد للاحتفال منذ الليلة السابقة على السبوع ، بما يسمى « تبينة السبوع » التى تشمل استحمام المولود واللباسه ملابس نظيفة . ثم يؤتى بصينية كبيرة يوضع فيها ماء استحمام الطفل الذى يسمى « ماء الملوك » ، ويوضع فيه مقدار من حب الفول . ثم يوضع وسط الصينية قلة مملوءة بالماء اذا كان المولود أنثى . أما اذا كان المولود ذكرا فيوضع ابريق بدلا من القلة . ويزين الابريق أو القلة بشمعة كبيرة تظل مضيئة الى أن تنطفئ من تلقاء

نفسها ... ويوضع تحت رأس المولود بعض الخضروات ... كما يوضع بجواره أيضا اناء به سبعة أصناف من الحب مثل القمح والشعير والذرة والفل والارز والحلبة والبرسيم .

وفي صباح اليوم السابع تأتي المدعوات من النساء ومعهن أطفالهن للاحتفال بالمولود . وتأتي القابلة فتكحل عيني الطفل بالكحل الأزرق . ثم تضعه في غربال ، وتضع معه الحبوب السبع المذكورة آنفا . وبعد أن تطلق البخور المضاف إليه الملح ، تغربل الطفل قليلا ، وهي تغنى أغنية خاصة بالسبوع (تختلف من منطقة لأخرى) ... (٣٢) وبانتهاء الأغنية يوضع الغربال على الأرض لتخطو الأم فوقه سبع مرات ... وعلى مقربة من الغربال تدق إحدى السيدات « الهون » أو ما يشبهه لاحداث صوت عال .. ومع هذا الدق تقول القابلة « اسمع كلام أمك ، اسمع كلام أبوك ، شرق شرق ، غرب غرب » ...

وبانتهاء هذا الاجراء يؤخذ الطفل والحبوب من الغربال الذي يتدحرج على الأرض أطول مسافة ممكنة .. ثم تحمل القابلة الطفل وتدوربه في أرجاء المنزل لتزفه ... ويمشى وراءها الاطفال الصغار ممسكين بالشموع المضاء وهم يرددون وراءها أغنية برجالاتك .

وهنا تزغرد النساء ويتهلل الجميع وتنشر القابلة الملح ... بينما تردد بعض الادعية والدعوات ... ثم يوزع على الموجودين الحلوى والحمص والفل السوداني مع شراب المغات . اما الفول المستنبت في ماء الملوك (وهو ماء استحمام الطفل) فتتنظمه السيدات الموجودات في شكل عقود صغيرة (وذلك بعد ثقب كل حبة بالبرة) ، وتوزع على الاطفال . وفي أثناء ذلك تعمل القابلة حجابا للوليد يحتوى على الحبات السبع المذكورة سابقا ، مع قليل من الملح وبعض قطع النقود الصغيرة . وتعلق هذا الحجاب في خيط حول عنق الطفل وهي تردد أثناء ذلك بعض الدعوات والصيغ الوقائية المسجوعة ... اما ماء الابريق أو القلة ، فيسكب بجوار شجرة مخضرة مترعرة ... « (٣٣) . وعلاوة على هذا يعد السبوع مناسبة هامة لتقديم النقوط سواء بمبادرة من المدعوات أو ردا لنقوط سبق أن قدمته أسرة المولود في مناسبة سابقة .

ونتناول فيما يلي بالمناقشة السريعة أهم التحليلات والتفسيرات التي صاحبت هذا الوصف، والتي لم تحدد المؤلف كما قلنا مصدره بوضوح ، هل هي بيانات الاخباريين أم تفسيرات علمية مستمدة من دراسة تاريخ الثقافة .

١ - فبالنسبة لتسمية هذا الاحتفال بالسبوع ، فمن غير المعروف في أى من كتب الفولكلور أو التفسيرات العلمية أنه في هذا اليوم « تفارق الملائكة السبعة الطفل ، بعد أن كانت تحرسه طيلة

(٣٢) انظر عند فوزية دياب نص الاغنية ، وانظر نصوصا أخرى عند رشدي صالح ، الادب الشعبي ، مرجع سابق ، وكذلك عند وليم لين ، المرجع السابق ، وتحت أيدينا يضع مئات من النصوص المسجلة من مختلف أنحاء مصر بنصوص وعبارات مختلفة .

(٣٣) نقلا عن فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ٣٢٠ - ٣٢٣ . يلاحظ القارئ أن النقط الفاصلة بين بعض الجمل قد وضعناها لتحل محل تفسيرات المؤلف التي اسقطناها .

هذه المدة من الجن والعفاريت » (كما تشير المؤلف على صفحة ٣٢٠) . وانما السر في تحديد اليوم هو دلالة الرقم ٧ ، الذى يمثل عددا مكتملا في نظر المعتقد الشعبي ، شأنه في ذلك شأن العدد اربعين والعدد مائة . ولذلك نجد بعض المجتمعات تحتفل بهذه المناسبة في اليوم الاربعين لمولده وليس في اليوم السابع . ومن هنا فان البحث عن دلالة اختيار اليوم يجب التماسها في المعتقدات الشعبية المتعلقة بالارقام والاعداد ، وليس في مجال آخر (٣٤) .

ب - بالنسبة للشمعة التى تضاء ليلة الاحتفال في القلة أو الابريق ، فهي لا تضاء « ، اكراما للملائكة واعترافا بفضلهم في حراسة الطفل من الجان والعفاريت والاشرار » ، (كما قالت المؤلفة في الموضع السابق) ، وانما لان النار - أيا كان مصدرها - هي قوة حامية وحافظة من الارواح الشريرة ، والمقصود هنا « أم الصبيان » (أو القرينة) بالذات . كما أن النور في ذاته عامل وقاية من تلك الارواح الشريرة ، حيث أنها ترتاح وتعيث فسادا في الظلام . فقوة النار وتأثير النور هما التفسيران المحتملان لضاءة الشموع في تلك الليلة .

ج - أما وضع بعض الخضروات تحت رأس الطفل ليلة الاحتفال بالسبوع ، فهي من الممارسات التى تهدف الى الانماء والخير والبركة بصفة عامة ، كما ذكرت المؤلفة ، رغم أنها وضعت هذا التفسير بين قوسين مما يرجح معه انه تفسير الاخباريين ، على خلاف التفسيرات السابقة التى اطلقتها بين الكلام دون تمييز خاص مما يؤكد أنه تفسير من وضعها هي .

د - أما بالنسبة لوضع سبعة حبوب في الاناء الموضوع بجوار المولود ليلة السبوع ، فليس الهدف منه كما جاء في الموضع السابق : « ويرمز هذا الاجراء الى أمل أهل الطفل في أن يكون فلاحا يزرع هذه الانواع كلها » . انما تفسير ذلك يجب أن يلتصق في عنصرين :

الاول : هو الرقم سبعة الذى يدل على الكثرة أو الاكتمال ، **والثاني :** هو الحبوب التى ترمز الى النماء والخصوبة .

هـ - وبالنسبة لخطو الام سبع مرات فوق وليدها الموضوع في غربال على الارض ، فهي لا تفعل ذلك « اعتقادا بأن هذا الاجراء يقى الطفل الاصابة بداء القراع اذا خطا فوقه احد في المستقبل » . ذلك أن الخطو أو التخطية فوق شيء أو كائن لما هو توحيد بين كيانيي القائم بالتخطية والمخطو عليه ، أو هو اكتساب كل منهما لقوى وعناصر الكائن الآخر ، كما تفعل المرأة العاقر في تخطية احجار مقدسة أو بخورا أو عمل سحرى معين ، وتخطية الشيخ الساحر للمريض ... الخ . فالتخطية في المعتقد الشعبي لها مدلول عام موسع ينطبق في هذا الموقف متخذة مدلول متميزا معينا ، ولكنه مشتق من ذلك المدلول العام . فالام - بما يسكن جسدها من قوى روحية - تحمى وليدها ، وهي تحقق نوعا من الالتحام والتكامل بين كيانهما وكيانه .

(٣٤) انظر محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالاعداد .

و - أما الاصوات التي يحدثها المحتفلون بالسبوع بالدق في الهون (الهون وعاء نحاسى له يد من نفس معدنه يستخدم أصلاً لطحن الحبوب الدقيقة بكميات قليلة) أو ما يشابهه . فنجد أن التفسير الشائع والذي صادفناه لدى عشرات الاخباريين فيما قمنا به من تسجيلات ميدانية هو الرغبة في تعويد الطفل على ضوضاء الحياة وعلى الاصوات ، لكى لا يفزع كلما سمع صوتاً . أما المؤلفة فلم تثبت هذا التفسير - الحديث في نظرنا - ولكنها قالت ان ذلك يتم لجذب سمع الطفل . والواقع ان احداث الاصوات العالية له هدف معلوم من دراسة تاريخ الثقافة هو طرد القوى الشريرة وابعادها . فالصوت يؤدي هنا نفس الدور الذى تؤديه النار ، أو يؤديه الملح في دفع الارواح الشريرة واتقاء خطرهما . وهو معروف في ثقافات عديدة .

ز - ويصدق تفسير المؤلفة عن مغزى الزفة أو الجولة التى تقام للمولود المحتفى به داخل أرجاء المنزل وفي كل غرفة من غرفه ، فهى تستهدف « تقديمه » الى ساكنيه غير الظاهرين ، واسمهم فى المعتقد السحري الرسمى (الاحترافى) « القمار » (٣٥) .

ح - كما يصدق تفسير استخدام الملح لدفع الحسد ، وهو يستخدم على العموم كالشبه لمقاومة الارواح والقوى الشريرة ودرئها عن الانسان . ويدخل فى عدد من العمليات السحرية لاداء نفس الوظيفة .

٢ - التسمية :

تعنى اللغة الشعبية بصفة عامة واسماء الاعلام بالذات محاولة لفهم العالم المحيط وترتيبه وفق نظام خاص . وتخلق الاسماء بين الدوات الفردية التى تهم الشخص نوعاً من العلاقة الخاصة التى تحقق التفاعل وتيسر التكامل . ويدلنا تاريخ الثقافة العام ان معرفة اسم الشخص أو الشيء تعطيك سطوة على هذا الشخص أو الشيء . وهذا معتقد شعبى قديم جديد فى نفس الوقت . فالاسم قوة ، والاسم والمسمى كيان واحد أو شيء له وحدة واحدة ، من عرف الاسم استطاع من خلاله أن يؤثر على صاحبه . فالاسم على هذا النحو ليس مجرد وسيلة للتعريف والتحديد وتصنيف الاشياء والاشخاص ، ولكنه جزء من وجود المسمى به .

وفى بعض الثقافات كان يعتقد أن الطفل الوليد لا تدب فيه الروح الا بعد أن يتسمى باسم معين ، فالاسم والوجود الروحى شيء واحد . ومن هنا يمكن ان نفهم سر الرابطة التى يقيمها المعتقد الشعبى بين الاسم والمسمى ، فالاسم ينبىء عن مستقبل صاحبه ومصيره . ولذلك يحرص الاهل فى العادة على اختيار اسم لوليدهم كشخص عرف عنه التقوى أو الصلاح أو النجاح أو العمر المديد . . . الخ تلك الصفات المرغوبة .

(٣٥) بالنسبة لهذا المفهوم أرجع الى مؤلفنا ، استخدام اسماء الله فى السحر ، مرجع سابق ، الملحق رقم (١) .

ولهذا يطلق على الاطفال الذكور المسلمين أسماء الرسول وأهل بيته وصحابته وخلفائه الراشدين ... وغيرهم من الصالحين . وفي مناطق أخرى يسمى الولد الاول على اسم جديه لآبيه ، ثم يسمى الثانى على اسم جده لأمه ، ثم على اسم أبيه وأعمامه وهكذا . أما البنات فتطلق عليهن أسماء بنات النبى وزوجاته وغيرهن من الصالحات . كما تطلق عليهن أسماء الزهور . الخ (٣٦) .

ولكن مع ذلك فان أسماء الاشخاص تختلف من اقليم لآخر داخل المجتمع الواحد ، تماما كما تختلف من مجتمع لآخر . ومن عوامل ذلك اختلاف نسبة التركيب الدينى من مجتمع لآخر ، واختلاف أسماء الاولياء المحليين من منطقة لأخرى (على اعتبار أن نسبة كبيرة من الاطفال يسمون بأسماء الاولياء المحليين) ، وتباين المناطق في قربها لتيارات « الموضة » في الاسماء ... الخ ذلك من العوامل التي يمكن الكشف عنها وتحديد هياكلها في كل حالة .

وقد لفت نظر كثير من المستشرقين الذين كتبوا عن أسماء المصريين طائفة من الاسماء الغريبة والمضحكة (مثل : الامور - الحيوان - بلاص - حلوف - أبو طبيخ - خيشة - جحس - غراب - عجل - فار - قط - وزه - الاعمش - الاخيش ... الخ) . ولكن العجيب أن تلفت تلك الاسماء نظر باحث مصرى الى أن يقف منها موقف السخرية (مثلا : الدكتور احمد أمين في قاموسه ، ص ٤٤) . والحقيقة في تلك الاسماء أنها أطلقت على أصحابها انطلاقا من معتقدات شعبية ، وليست مجرد صدى أو تعبير عن « ذوق » أصحابها . فالام التي يموت لها ولد أو أكثر تطلق عليه اسما قبيحا غير مألوف لكى يعيش . (٣٧) والام التي يتعثر حملها فترة من الزمن ، تطلق على وليدها الجديد اسما قبيحا أيضا لكى يعيش . كذلك الحال بالنسبة للام التي تنجب ولدا ذكرا بعد عدد من الاناث ، فانها تخشى على حياته أشد الخشية . ومن وسائل الحفاظ عليه أن تطلق عليه اسما قبيحا ... وهكذا .

لهذه الاسباب جميعا كان حرص الناس كبيرا على اختيار اسم لوليدهم . ونعرف أنه كانت تتم في الماضى عمليات استطلاع للنجوم والكواكب لمعرفة طالع المولود والكوكب الذى يناسبه ، فيختار له المنجم الاسم المناسب . ومع ثبوت الشواهد التاريخية التى تحدثنا عن ذلك أننا لا يمكن أن نتصور أن هذا الاسلوب كان يتبع في تسمية أبناء الشعب العاديين .

(٣٦) انظر احمد أمين ، المرجع السابق ، ص ٤٤ - ٤٥ ، وليم لين ، المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ ، وكذلك ريشارد فايس ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ وما بعدها .

(٣٧) ذلك أن الارواح الشريرة تربص لكل ما هو جميل ، فتصيب الوجه الجميل ، والحيوان الجميل ، وكذلك بالطبع لاسم الجميل ، فتقبح الاسم وسيلة لرد تلك القوى والارواح الشريرة عن هذا الطفل ، بهدف انقاذه من الامراض أو الموت . هذا وقد تعرضنا لموضوع الاسماء بتفصيل كبير في دراستنا عن استخدام أسماء الله في السحر ، (بالالمانية) ، انظر عرضا وافيا لها عند علياء شكرى ، التراث الشعبى المصرى في المكتبة الاوروبية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

وتحدثنا كتب التراث (وكذلك بعض الاخباريين المتقدمين في السن) عن طريقة أخرى أكثر يسرا ويمكن أن تكون في متناول عامة الناس . حيث يقع اختيار الاسرة على عدد من الاسماء ، ولكنهم لا يستطيعون - أولا يريدون - اختيار أحدها بالذات . فيحضرون عددا من الشموع يماثل عدد الاسماء التي وقع عليها الاختيار المبدئي . ويطلقون على كل شمعة اسما منها ، ثم يشعلونها ويتركونها مشتعلة الى أن تنتهي . ولا بد أن أحدها ستظل مشتعلة ولو لفترة بعد نفاذ كل الشموع ، عندئذ يطلق على الوليد الاسم الذي سميت به تلك الشمعة (لأنها أطولهم عمرا ولاعتبارات أخرى) .

ومع أن استخدام هذا الأسلوب في التسمية قد انحسر ، إلا أنه يدلنا بشكل واضح على أهمية اختيار الاسم الذي ما زالت الاسرتولية اهتمامها ، وفقا لطرق الاختيار التي المحنا إليها آنفا .

٣ - الختان :

الشائع أن يتم الختان للذكور (خاصة في المجتمعات العربية الإسلامية) أما ختان البنات ، فهو أقل انتشارا . والنظرة الدينية لكليهما تختلف ، ذلك أن ختان الولد واجب ، والاتفاق عليه أكبر بين الفقهاء . وسأقتصر فيما يلي على الكلام عن ختان الولد .

وليس للختان سن معينة يتم فيها ، وتحت أيدينا شواهد عن اتمامه في سن مبكرة نسبيا ، وشواهد عن اتمامه في سن السادسة أو السابعة ، وأخرى عن اتمامه قبل البلوغ على أي حال ، وأخرى عن ضرورة اتمامه قبل الزواج (٣٨) . وهذا الاختلاف الشائع في تحديد مواعيد الختان، يدلنا على أنه قد وعى ممارسوه كثيرا من دلالاته الطقسية التقليدية باعتباره أحد « المحطات » الرئيسية في رحلة الإنسان عبر الحياة ، والتي تدل على تجاوزه مرحلة الاولاد ودخوله مرحلة الرجولة ، أو الشباب (٣٩) . حيث تدلنا المواعيد السابقة أحيانا على ربط الناس بينه وبين قدرة الولد على أداء الفروض الدينية (لان وجود الفلفة يمنع الطهارة ، والطهارة شرط لأداء الصلاة) . وأحيانا بينه وبين القدرة على ممارسة الجنس مع الزوجة . . . الخ . بل اننا نجد هذه المرونة تبلغ مداها عندما تنتهز أسرة الولد مناسبة أحد أفراس الاقارب أو الجيران لأجراء عملية الختان لأولادها . فهنا يكفي بتحديد مجال زمني معين يعد الولد فيه صالحا لأجراء هذه العملية ، ولكنه لا يتحدد ذلك سن معينة تحديدا دقيقا .

(٣٨) انظر حول هذا الموضوع : علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعي الثقافي في الوطن العربي ، مرجع سابق ، وكذلك وليم لين ، مرجع سابق ، ص ٥٢ وما بعدها ، وشابروول ، مرجع سابق ، ص ص ٥٧ - ٥٩ ، واحمد أمين ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٣٩) انظر مثلا تعبير شابروول عن شيء قريب من هذا : « . . . ويعتبر الختان عند المسلمين (حديثه عن مصر اوائل القرن التاسع عشر) بمثابة الخطوة الاولى في الحياة . إذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الاخلاقية والروحية . إذ يؤمر عندئذ بأداء الصلاة ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة ، لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فاختان إذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصري بكونها وطيشها . ويمكن القول أنه بهذه العملية يولد مره أخرى ، لكنه في هذه المرة يولد رجلا » ، شابروول . المرجع السابق ، ص ٥٩ .

وتقدم لنا المراجع المذكورة آنفا عدة أوصاف لمركب ختان ولد ، كلها مستمدة من المجتمع المصرى في فترات تاريخية مختلفة . واللافت للنظر في هذه الأوصاف جميعا أنها تبرز هيبة الزفة ، فموكب الختان كموكب العرس ، ولكن بشكل مصغر ، والطفل المختون « عريس » ، كما يسميه أهله والمحتفلون به . والزفة تعنى علاوة على اظهار الفرحة - الاشهار ، فهذا الطفل قد بلغ اليوم مبلغ الرجال . وتتفاوت عناصر الاحتفال من زينة الطفل ، وهيئة ركوبه ، والماكولات والمشروبات التى توزع ، وعدد المشتركين ، والعناصر الموسيقية أو الفنائية ... الخ تتفاوت كل تلك العناصر الاحتفالية حسب مكانة الطفل المحتفى به داخل أسرته حسب مكانة تلك الأسرة داخل المجتمع المحلى .

ولكننا نلمس لحفل ختان الطفل ملمحا آخر أشد تمايزا وأكثر إثارة وادعى الى الاهتمام من كل ما سبق ، وحيث تعد تلك المناسبة « امتحانا » لرجولة الولد المختون ، بكل معنى الامتحان . فعملية ازالة الغلفة تتم على مرأى من افراد المجتمع المحلى جميعا ، ذكورا واناثا ، ولا تستخدم فيها بالطبع أى مخدرات أو مهدئات طبية لتخفيف الألم ، وعار على الولد المختون أن يصدر أى تعبير عن الألم ، والا فقد ماء وجهه فى المجتمع الى الابد ، واثار ذلك على سمعة رجولته بين ذويه . وهذا البعد هو الذى يحملنا على أن نقدم فيما يلي وصفا لاحد حفلات الختان من المجتمع العربى السعودى ، كما سجلته علياء شكرى عن بعض الاخباريين . وهى صورة لم تكن معروفة من قبل فى أى من كتب التراث الشعبى عربية أو أجنبية عن هذا المجتمع .

« ... تجرى عملية الختان للذكور فقط . وكان الصبى يترك حتى يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره وربما أكثر . ثم يجمع الاقران من صبيان القرية (٤٠) فى احدى ساحاتها فى مظهر يتم عن بواذر الرجولة كحمل السلاح من بنادق أو سيوف وغيرها ، وعدم الاكتراث أو الخوف من هذه العملية التى يفوق تعذيبها والمها كل تصور . ويبدأ القائم بعملية الطهارة باستقبال الصبيان واحدا تلو الآخر لتمامها ، وهم يرددون بعض اشعار الحماسة وعبارات فخر الصبى بأسرته وأسرته أخواله وأجداده ، كأن يقول أنا فلان من فلان وأخوالى فلان وفلان من أسرة كذا .. وهكذا .

وبعد أن ينتهى الجميع من عملية الطهارة يقوم كل واحد بربط القضيب بخيط يسمى « حثيلة » وربطه بحزام فى أسفل البطن يسمى « حثيله » ليمنع القضيب من الالتصاق فى الارجل بواسطة الدم الذى ينزف من القضيب بكميات كبيرة حيث يقطع رجل الصبى المختون ، والذى لا يرتدى سوى ثوب يحرس على سلامته من الدم برفع يديه .

(٤٠) القرية هي « سبت العلابة » احدى قرى قبيلة بلقرن التى تقطن جبال السروات جهة الجنوب ، والتي يبلغ عدد قراها حوالى ١٤٥ قرية . وتقع سبت العلابة على الطريق بين الطائف وأبها ، حيث تبعد عن الطائف بمسافة ٢٠٠ كيلو متر وعن أبها بمسافة ٢٢٠ كم . أنظر علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، ص ٣٥ وما بعدها ، حيث تجد معلومات مفصلة عن القرية .

بعد هذا يجوب الصبية المختونون شوارع القرية في شكل عرضه شعبية (رقصة شعبية ذات شكل خاص) وكل واحد منهم يمسك بثوبه، حيث يرددون قصائد البطولة والشجاعة ثم يغادرونها الى القرى الاخرى بنفس المظهر .

وبعد أن يشعروا أهل القرية التي وصلوها بأنهم أجروا عملية الختان يقومون بأداء العرضة الشعبية ، ثم يقوم أهل القرية باستقبالهم واستضافتهم حسب امكانياتهم وظروفهم . فتارة يتناولون في إحدى القرى وجبة وفي أخرى ربما يقضون نهارا كاملا . وهكذا تستمر زيارة القرى من قرية الى أخرى حيث يستقبلون ويضيفون في كل قرية يزورونها . وليس هناك عدد محدد لأيام الزيارة التي كانت تتم مشيا على الاقدام .

وفي اليوم الثاني لعملية الختان يحفر في الأرض حفرة ضيقة يبلغ عمقها حوالي ٣٠ سم يوضع بداخلها كمية بسيطة من الجمر حيث يستلقى الصبي المختون على بطنه في وضع يسهل تعرض القضيب لحرارة النار . وعندما يحاول الهرب من شدة الألم يكون هناك أحد اقاربه يعمل على ارغامه على الصبر وتحمل حرارة النار ، وذلك بأن يدوس على ظهره باحد قدميه . وبعد هذه العملية التي تستمر لوقت يسير ينظف من الصديد الذي قد تكون عليه ويوضع عليه كمية من قشرة الجبر بعد سحقه سحقا جيدا .

وتستمر هذه الطريقة وهي التسخين على النار ثم تنظيف الصديد ووضع طبقة من مسحوق قشرة نبات الجبر لعدة أيام ريثما يندمل الجرح . ولا يخفى ما لهذه العملية من الألم وتعذيب (٤١) .

٤ - أعياد الميلاد :

ربما يبدو للبعض أن موضوع الاحتفال بأعياد الميلاد من « الموضوعات » الجديدة التي لا يصح أن يلتفت اليها دارس التراث الشعبي ، لانها لا تدخل في اختصاصه ، فاذا كان يهتم بالممارسات والمعتقدات التقليدية المتوارثة ، أي القديمة المستمرة ، فلا يصح أن يهتم بهذه الموضة . والحقيقة أن دارس التراث الشعبي لا يغفلون ولا يستطيعون ان يتجاهلوا التجديدات التي تطرا على السلوك التقليدي للشعب . فهذا الموضوع فوق أنه يرصد عناصر جديدة من التراث ، فان الدراسة المتعمقة قد تكشف أن هذا الذي نظنه شيئا جديدا ، ليس في الحقيقة سوى احياء لممارسات قديمة ، ربما بنفس شكلها القديم المندثر، وربما في ثوب جديد يلائم ظروف العصر . كما أن هذا التجديد قد يحدث نتيجة اتصال ثقافي بمجتمعات جديدة ، نقلت إلينا أو نقلنا عنها بعض العناصر السلوكية والاعتقادية الشائعة عندها . ولكن يجب أن ندرك بوضوح أن سلوكا

(٤١) انظر عيسى شكري ، المرجع السابق ، صص ١٢٥ - ١٢٧ .

وبعد أن فرغت من وصف عملية الختان كما كانت تحدث في الماضي القريب ، وهو ما أوردناه بنصه ، بدأت تستعرض الوضع الراهن لهذه المناسبة وكيفية اجرائها والاحتمال بها ، انظر ص ١٢٧ وما بعدها . وقد درست المؤلفة في هذا الكتاب ثلاثة مجتمعات محلية في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية ، وقد تناولت الموضوع في كل قرية من القرى الثلاث .

جديدا مثل الاحتفال بأعياد لا يمكن أن يلقي قبولا وينتشر الا اذا كان يستجيب لشروط وأوضاع جديدة طرأت على المجتمع المستقبل الذى نقل هذا السلوك الجديد وأذاعه بين أبنائه . ولعلنا نلمس أن هذا الانتشار الواسع المدى - فى المناطق الحضرية من بلادنا أساسا - لعادة الاحتفال بأعياد الميلاد إنما هو تعبير عن المكانة التى أصبح يحتلها الطفل فى الأسرة فى عالم اليوم (٤٢) .

لكل هذه الأسباب لا نعجب عندما نتصدى دراسة كهذه لموضوع الاحتفال بأعياد ميلاد الاطفال فى الأسرة العربية المعاصرة .

وأشارتنا المحددة الى « أعياد ميلاد الاطفال » تعنى أن أغلب الكبار ما زالوا يستنكفون أو ينفرون من الاحتفال بمناسبة ذكرى مولدهم، هذا اذا طرحت الفكرة أصلا . فالشائع فى المناطق الحضرية ، وفى الطبقات الاجتماعية الوسطى والعليا أن يتم الاحتفال بأعياد ميلاد الاطفال فقط .

وإذا اردنا أن نعود الى الوراثة لتبين أصل عادة الاحتفال بعيد الميلاد ، فسوف نجد أن الفرس والافريق كانوا يحتفلون بعيد ميلاد الشخص بمناسبة لاهياء ذكرى الاجداد ودعم صلة المرء بأسلافه . كما أن الاحتفال بعيد الميلاد لم يكن احتفالا بالشخص المحتفى به نفسه بقدر ما كان احتفالا بالقدس أو الاله (المحلى) الذى يحمى ذلك الشخص .

ولذلك حدث فى فجر المسيحية أن رفضت الكنيسة بشدة عادة الاحتفال بعيد الميلاد لكونها « ممارسة وثنية » . ولم يبدأ الاحتفال بعيد المسيح نفسه الا فى القرن الرابع الميلادى (وقد كان ذلك يوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من كل عام) .

والملاحظ بصفة عامة أن الاحتفال بعيد الميلاد فى المجتمعات الغربية ليس على تلك الدرجة من العمومية والانتشار التى نلاحظها ، أو حتى يظنها أبناء الاوروبيين (٤٣) . فالاحتفال بعيد ميلاد الشخص هو أصلا أكثر شيوعا فى الطبقات والقطاعات الميسورة من المجتمع . ويكثر الالتزام به فى بعض البلاد اذا صادف فترة الشتاء باعتبارها وقت راحة من العمل الزراعى ، أو من العمل بصفة عامة) ، وهو أكثر انتشارا فى الاجواء المناسبة منه فى اليوم الغابر السيئ الطقس ، وهو كذلك يقام بمعدل اكبر فى أيام الاحاد أكثر منه فى أيام الاسبوع العادية .

وهناك بعض المناطق الاوربية التى تقتصر على الاحتفال بعيد الميلاد الاول ، أو أعياد الميلاد عند بلوغ رقم مكتمل . (الخمسين ، والستين ، والسبعين ، او الخامسة والسبعين) .

ولكن الملاحظ أن الاحتفال بأعياد الميلاد بات موضة عامة شديدة الانتشار فى كل أنحاء أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بحيث سقطت كثير من التحفظات والتحديدات التى كانت تراعى من قبل ، والتى ذكرناها آنفا . كما يلاحظ أيضا أن الاجيال الشابة والصفار أكثر

(٤٢) انظر مزيدا من التفاصيل عند علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، دار المعارف ، القاهرة

١٩٧٩ .

(٤٣) انظر ريشارد بائيل ، قاموس الفولكلور (بالمانية) مرجع سابق ، مادة « عيد الميلاد » ، ص ص

٢٤٣ - ٢٤٤ .

ارتباطا اليوم بالاحتفال بهذه المناسبة وأكثر حرصا على استمرارها والالتزام بها . وعن ذلك الوضع نقلت كثير من الطبقات الميسورة والوسطى في مجتمعاتنا العربية عادة الاحتفال بعيد ميلاد الطفل .

ه - الاحتفال بالبدايات الاولى لما يفعله الطفل

القاعدة العامة أن الأشياء التي يأتيها الطفل لأول مرة ، أو تؤدي له لأول مرة ، تكون موضع اهتمام المحيطين به ويسجلونها بعناية ويتندرون بها ، وربما يحتفلون بها على نحو أو آخر ، كما سيتضح فيما بعد . ونفس الاهتمام يوجه بالطبع للأقوال أو العبارات ، بل والأصوات ، التي تصفر عنه لأول مرة . وإذا تجاوزنا هذا المستوى الأولى ، نجد اهتمام الأسرة ، وخاصة الأم ، بكل شيء يفعله الطفل لأول مرة ، كخروجه من البيت لأول مرة ، وذهابه إلى « الكتاب » أو المدرسة لأول مرة ، وقص شعره لأول مرة (قص شعر البطن) ، واستحمامه لأول مرة ، وفطامه عن لبن أمه الخ .

والملاحظ بصفة عامة أن ذلك الاهتمام قد يكون من جانب الأسرة كلها ، وقد يكون مقتصرًا على الأم وحدها . وأنه قد يتخذ حجما خاصا بالنسبة للطفل الأول « البكرى » وقد ينعدم تماما بالنسبة للأولاد غير الأول . وهذا شيء منطقي ، ولكنه قاصر على الأمور التي تثير الدهشة والفرحة . ولكن هناك بعض تلك البدايات التي تكون لها أهمية طقسية أو اعتقادية خاصة ، فتلقى قدرا أكبر من الاهتمام وتلتزم الأسرة أو الأم بمراعاتها بالنسبة لكل الأولاد دون تمييز بين الأول ومن عداه .

ومن أبرز تلك البدايات ذات الأهمية الطقسية : قص « شعر البطن » ، وقص الأظافر لأول مرة ، وفي أحيان أخرى مياه أول حمام للطفل . فشعر البطن يجب العناية بالتصرف فيه إذ لا يصح إطلاقا القاؤه هكذا . لأن له صلة وثيقة بشخصية صاحبه ، وقد يتخذ « أثرا » له تمارس عليه بعض العمليات السحرية « الأعمال » التي تنعكس على الطفل مباشرة . ونفس الشيء بالنسبة لبقايا أول أظافره فهي أيضا جزء من كيان الطفل يجب التصرف فيها بحذر ، وعلى نحو لا يؤدي إلى وقوعها في أيدي أغراب أو أعداء يمكن أن يستغلوها على النحو المذكور لايقاع الضرر الجسيم بالطفل . وبالنسبة لماء أول حمام للطفل رأينا في حديثنا عن السبوع ، كيف تستنبت فيه بعض الحبوب التي تلعب دورا في حفل السبوع ، وتؤدي وظيفة انمائية حافظة بالنسبة لحياة الوليد الجديد .

ولكن تتركز حول شعر البطن أكبر عدد من الممارسات والمعتقدات . فالأساس في بعض مناطق الريف المصري - ألا يقص هذا الشعر عند قبر أحد الأولياء في مناسبة الاحتفال بمولده . ولذلك ينتشر في احتفالات الموالد (خاصة المشاهير منهم) عدد كبير من الحلاقين الذين يقومون بقص شعر البطن للأطفال الصغار . حيث يوهب ذلك الشعر للولي . وبعضهم يتصدق بوزنه مالا (فضة أو ذهباً حسب الأحوال) . وإذا اضطرت الأسرة إلى قص شعر الطفل ولم

يتيسر لها لسبب أو لآخر زيارة ضريح الولي الذي وهب له الشعر (٤٤) ، فاننا نجد الاسرة تقص شعر الطفل كالمعتاد ، ولكنها تترك وسط الرأس خصلة . وتظل تلك الخصلة ذات شكل متميز (غير حلقة) وسط رأس الصبي الى ان يتيسر للأسرة زيارة الولي ، حيث تقص هناك .

٦ - الاطفال في الاعياد والمواسم :

المقصود هنا الاعياد والمناسبات الدورية التي تتتابع على مدى العام ، وترتبط بتعاقب الشهور (العربية أساسا) وتتابع المواسم . من أهم الاعياد والمواسم : الاعياد الدينية ، والمواسم الدينية الشعبية : كبداية رجب ، ونصف شعبان ، وبداية رمضان ، ومواليد الاولياء (المحليين أو الاقليميين) . الخ .

وفي كثير من تلك المناسبات يكون الاطفال هم اصحاب الاحتفال الرئيسيين ، أو هم الذين من أجلهم وبهم تتم اغلب الممارسات الاحتفالية . فالمصري - على سبيل المثال - يحتفل بالعيدين بالتوسعة في الطعام ، ليس على نفسه وزوجته ، وانما على اطفال الاسرة أساسا . ويحتفل كذلك بلبس الجديد ، وان ضاقت امكانياته ، عن تدبير ملابس جديد له ، ولكن لابد من تدبير ملابس جديدة للاطفال . ويوسع الاب في المصروف على اطفاله في الاعياد .

ففي ليلة النصف من شعبان يحرص كل أب ريفي على اصطحاب اولاده معه الى المسجد ، والاشتراك في الدعاء ، ثم يسلكون سبيلهم بعد ذلك الى البيت للاشتراك في وليمة « ليلة النصف » . فركنا الاطفال في هذه المناسبة هي الدعاء في المسجد ، والوليمة . والاطفال في كليهما محور اساسي .

وطوال ليالي رمضان يصحب كل طفل فانوسه ويتجولون في مجموعات على بيوت الحي يغنون لاصحابه و « يشحتون » منهم الهدايا ، ولا يمكن ردهم بسهولة دون هدية . وأغنية « وحوي يا وحوي » مشهورة بهذه المناسبة . (٤٥)

ومواكب الاطفال الذين يقومون بالاستجداء معروفة في اغلب ثقافات العالم ، خاصة عند الشعوب ذات التاريخ الحضاري . وأغلب المجتمعات كالأوروبية تعرف تلك المواكب في مناسبات مختلفة . ولكل مناسبة أناشيد وأغان وعبارات محفوظة يتم ترديدها لهذا الغرض . (٤٦)

(٤٤) من أهم أسباب اضطراب الاسرة الى قص شعر الطفل مقاومة ما قد يكون تجمع فيه من حشرات ، أي لغرض النظافة .

(٤٥) « وحوي يا وحوي » أغنية منتشرة في رمضان بين الصبيان حيث يجتمع الاطفال بعد الفطور ، بأن يلبسهم فوانيس صغيرة مضاءة بالشمع ، زجاجها ملون بألوان مختلفة ، من احمر ، واخضر وأزرق وأصفر . وينشد منشدهم : وحوي يا وحوي . فيجيب الآخرون : ايأحة . ثم يستمر المنشد : « بنت السلطان لابسة قفطان بالاحمر ، بالاخضر ، بالأصفر » . وينشد الاطفال وراء كل كلمة : « ايأحة » . وينقل الاطفال يمتدحون صاحب البيت وأسرته ، ولا ينصرفون الا بعد أن يقدم لهم شيئاً من الحلوى أو المكسرات أو النقود . راجع كذلك أحمد أمين ، المرجع السابق ، صص ١١٤ - ١١٥ وكذلك رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، ١٩٥٦ ، مواضع متفرقة .

(٤٦) انظر دراسة قيمة في التاريخ الثقافي المقارن لهذه الممارسة عند ريشارد فابس ، الفولكلور السويسري . مرجع سابق ، صص ١٦٥ وما بعدها .

كما يشارك الاطفال بدور حيوي في مجالس السمر التي كانت تشهدها ليالي رمضان حتى عهد قريب . وبعد انقضاء رمضان وحلول العيد تحرص الاسرة على التفنن في عمل كعك للاطفال على هيئة عرائس آدمية لادخال السرور السى نفوسهم . وهي ظاهرة ما زالت معروفة في بعض انحاء الريف المصري وقليل من احياء المدن المصرية حتى اليوم . (٤٧)

٧ - تربية الاطفال :

من الطبيعي ان حديثنا عن التربية لا يمكن ان يكون شاملا ولا وافيا ، فنحن أولا لا نعد بحثا عن التربية ، ثم اننا لا نستطيع ان نستغرق في هذا الحير المحدود كافة الوسائل والاساليب التقليدية في التربية . وانما سنقتصر على عرض بعض الخطوط الرئيسية .

الملاحظ أولا ان الاسرة هي أهم عامل في نقل التراث الشعبي الى الطفل ، وهي تتفوق في ذلك على كافة وسائل ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الاخرى ، خاصة في المجتمعات التقليدية . ومن بين افراد الاسرة تعد الام الشخصية الاولى صاحبة الدور الجوهري في توصيل التراث الى الطفل .

وقد أشرنا في صدر هذه الدراسة الى قوة العلاقة بين الطفل و أمه . ولكننا نؤكد هنا ان الطفل هو كل شيء في حياة والديه . وقد عبر شابرول عن ذلك بصورة بليغة في دراسته المتضمنة في كتاب وصف مصر (٤٨) ، حيث يقول : « وهكذا يبدو أن العناية الالهية تقيم نوعا من التعويض بين المزايا التي توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصري الذي ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا او نفس ميزاتنا الجسدية او الروحية التي تبعده عن أسرته يعرف اكثر منا معنى العواطف الطبيعية . فاطفاله هم كل شيء في حياته . وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله . ولربما كانت احساسه اكثر واقل تنوعا لكنها اكثر نفاذا واكثر حقيقة . وهو يدين بذلك الى براءة عادته وكذا الى بساطة تقاليده . لقد وجدها كامنة في نفسه وفي ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العائلي ما يسمم مباهجه . »

الملاحظة الثانية ان عملية التربية واعنى بها توصيل التراث الثقافي الى الطفل لا تتحدد بحدود زمنية معينة ، وانما هي تتم بشكل مكثف في سنوات العمر الاولى . ولكنها تظل مع ذلك مستمرة طوال العمر ، بحيث يتم امتصاص (او استدماج) القيم والمعايير ونماذج السلوك الاجتماعية امتصاصا كاملا .

والتربية لا تتم على نحو واحد او بوسيلة واحدة او وسائل بعينها ، ولكن الاسرة والمجتمع المحلى بوجه عام يسخر كل ما لديه من ذخيرة لتحقيق هذا الهدف العزيز . فتتوسل الأسرة

(٤٧) يروى وليم نظير في : العادات المصرية بين الامل واليوم ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨ ، يروى انه هتر في دير المدينة بطيبة من عصر الدولة الحديثة على انواع من الخبز على هيئة اشكال آدمية كانت تقدم للاطفال في الاعياد . وهي محفوظة بقسم الزراعة المصرية القديمة بالمتحف الزراعي بالقاهرة (قطعة رقم ١٤٤٧ ، ا ب ، ج) .

(٤٨) دى شابرول ، سكان مصر الحديثون ، مرجع سابق ، صفحة ٥٤ .

الى ذلك بالقدوة أولا ، وبالتعويد والتدريب المتكرر ، وبالأوامر والنواهي المباشرة والمتفاوتة القوة ، بقص وانشاد الاغانى ، والقاء الأمثال والحكم ، والاشتراك فى المناسبات والطقوس الاجتماعية (عامة وخاصة على السواء) .

والقيمة الاسياسية التى تحرص الأسرة على غرسها فى نفس الطفل هى قيمة احترام الوالدين ، والكبار بصفة عامة . وبديهي أن استقرار هذه القيمة فى نفوس الاطفال تسهل مايلى ذلك من وصول تأثير سبل التنشئة السالف ذكرها الى أعماقهم . ولشابرول عبارة جامعة من قيمة الاحترام فى نفس الطفل المصرى، يقول فيها : « ان احترام الابناء لابائهم وأمهاتهم يذهب الى حد بعيد ، فهم لا يخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ . ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة . ومع ذلك فهم لا يسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم - ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم . ثم ينزلون بعد ذلك الى والدهم ويقدمون له نفس امارات الاحترام . ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته الا اذا كان ذلك فى يوم يعد من اعياد الأسرة . (٤٩) وهو - كذلك - لا يسرف فى تدليلهم ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة . وهذه عادة عامة عند كل الطبقات . وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة . » (٥٠)

على أن هذا الحرص الكبير على تربية الطفل يمكن ان يتعرض - كما هو متوقع - لبعض الصور غير السوية ، أو مظاهر التطرف من تدليل أو قسوة . وتحت أيدينا شواهد عن مظاهر هذا التدليل كما سجلها بعض المؤلفين . اما اذا أردنا شواهد عن القسوة فيكفى أن نرجع الى أى وصف للكتاب فى القرية المصرية ، لنرى الى أى مدى يسوء العريف استغلال السلطة التربوية الممنوحة له (٥١) .

اما عن التربية الرسمية فكانت تتم أساسا فى الكتاتيب ، ثم تراجعت جميعا ، أو كادت متخفية عن وظيفتها للمدارس بمراحلها المختلفة التى عمت مختلف أنحاء البلاد .

ومن الموضوعات التربوية ذات الاهمية الفولكلورية الواضحة الشخوص التى تستخدم لتخويف الاطفال . اذ تعرف كل الثقافات الشعبية عددا من الشخوص والهيئات التى تخيف بها الاطفال فترتعد فرائصهم لمجرد ذكرها ، أو تمثيل هيئتها ، أو مجرد التهديد بجلبها .

(٤٩) لغتت هذه الظاهرة نظر وليم لين الذى دعى مرة على مائدة افطار ، ولعل اولاد المصيف الذكور (وبعضهم فوق الاربعين) يخدم على المائدة دون أن يشاركهم فى الطعام .

(٥٠) يشير شابرول بوجه خاص الى الاسراف فى تغذية الطفل الى حد اصابته بالتخمة وأمراض اضطراب التغذية ، وكثرة الإفطية التى لاحظها على اطفال بعض الطبقات التى لا تتفق وطبيعة جو مصر ، كما لا تتفق ومتطلبات الحركة الصحية للطفل ، انظر شابرول ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

(٥١) بالنسبة للكتاب انظر الاوصاف التى وردت لعند أمين أمين ، مرجع سابق ، صص ٢٣٤ - ٢٣٥ . ووليم لين ، مرجع سابق ، صص ٥٤ - ٥٥ . وقبل هذا وبعدها الوصف الرائع الذى قدمه لنا الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام .

وهي تستعمل للأغراض التربوية عامة : لإبعاد الطفل عن أماكن معينة ، أو تخويله من ممارسة فعل أو سلوك معين أو إصدار قول معين ... الخ .

وإذا أردنا لقاء نظرة شاملة على تلك الشخصيات التي تستخدم للتخويل من الثقافة الشعبية المصرية وجدنا أنها تنقسم إلى : -

١ - كائنات خرافية ، كالعفريت ، وأبورجل مسلوخة (٥٢) ، والسلوعة ، والببع (٥٣) ، و « الأخت اللي تحت الأرض » ... الخ ب - حيوانات : أغلبها مألوف في البيئة ، ولكن تتردد بين الحين والآخر حكايات عن أذاه لبعض الأفراد ، ومنها : الكلب ، والدئب والثعلب ... الخ .

ج - أشخاص ووظائف معينة في المجتمع : وهي تستدعى للتخويل إما لأنها رمز للسلطة والبطش كالعسكري (الشرطي طبعا) ، أو لما تحدثه من ألم شديد يفرع منه الطفل كالدكتور (الطبيب) واعطائه الحقنة ... الخ . (مع مراعاة ما لذلك العنصر الأخير من آثار تربوية سليمة) .

ثانيا : الأدب الشعبي والطفل

١ - أغاني الطفل :

الأغاني الشعبية عموما هي أكثر عناصر التراث الشعبي التي أثبتت بشكل واضح العلاقة بين الثقافة الراقية (أو الرسمية) والثقافة الشعبية . وتحتل أغاني الأطفال مكانا متميزا داخل تراث الأغاني الشعبية . فهي أقدم أنواع الأغاني الشعبية على الإطلاق وأوسعها انتشارا . كما نجد لها تشابه فيما بينها إلى حد بعيد من حيث النغم ومن حيث المضمون بين الثقافات على امتداد العالم . وهي من أغنى المصادر التي تحفظ لنا بقايا معتقدات وممارسات ومناسبات درست ولم يعد لها وجود في عالمنا المعاصر . (٥٤) .

(٥٢) « أبو رجل مسلوخة » اسم للعفريت يخوف به الأطفال ويصلونه بأنه مخلوق نصفه الأعلى كالإنسان ونصفه الأسفل كالجمار ، وله ذنب وبغديه سلوخ في الجلد يظهر منها لحمه الأحمر . وهذا الوصف نقلنا عن أحمد أمين ، القاموس ١٧ . مع مراعاة أن تلك الأوصاف تختلف اختلافا شاسعا من صالة لأخرى ، لأنها تصف كائنا خرافيا لا وجود له ، ويختلف كل إنسان لنفسه بصورة خاصة عنه تشترك في الملامح العامة ولكنها تختلف في بعض التفاصيل .

(٥٣) « الببع » - حسب وصف أحمد أمين أيضا - المرجع السابق ، ص ٩١ مخلوق غريب مخيف ، يخوف به الأطفال ... وهو من الأشياء التي تخلع قلوب الأطفال من الصغر ، وتنشئهم جبناء . كزيد من المعلومات حول هذه الشخصيات الخرافية أرجع إلى مقالنا عن الجن ، المعتد الشعبي المصري ، الذي سبقت الإشارة إليه .

(٥٤) سوف نقتصر في هذا القسم من الدراسة على تناول موضوعي أغاني الأطفال والألغاز ، مع علمنا بأن هناك بعض الأنواع الأدبية الشعبية الأخرى الوثيقة الاتصال بالطفل ، ولكنها تحتاج إلى دراسات مستقلة ، وعلى رأسها الحكايات الخرافية . كما أن معالجتنا للموضوعات الشعبية ستأتي بالضرورة موجزة أشد الإيجاز لأنها قد درست بتفصيل أكبر في المؤلفات الخاصة بالأدب الشعبي . انظر حور موضوعنا مزيدا من التفاصيل عند ، رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، مواضع متفرقة ، نبيلة إبراهيم ، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق ، مرجع سابق ، وأشكال التمييز في الأدب الشعبي ، « الحكاية الخرافية » ، وانظر نماذج عند أحمد أمين ، مرجع سابق ، وكذلك قاموس فونك للفولكلور . ص ٢١٩ ، وقاموس باتيل للفولكلور ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

ومن أوجه الأهمية الكبيرة التي تحفزنا إلى ضرورة الاهتمام بتسجيل أغاني الأطفال ودراستها وتحليلها :

أ - تتميز أغاني الأطفال الشعبية بوضوح ارتباطها الاجتماعي ، فهي تعبير حي واضح عن المجتمع ، وهي ما يمكن أن نسميه تراثاً شعبياً بالمعنى الصحيح .

ب - كشفت الدراسات السابقة لأغاني الطفل (العربية والأوربية على السواء) بوضوح شديد عن صفة الاستمرار عبر الزمن ، على نحو يمكن أن يمتد عبر مئات أو آلاف السنين أحياناً ، وهي تشبه في ذلك أغلب عناصر التراث الشعبي المتصلة بالطفل .

وتتميز أغاني الأطفال من الناحية الشكلية (أو الفورم) بأن الإيقاع هو الذي يلعب الدور الحاسم فيها . وهذا يفسر لنا طبيعة العلاقة الوثيقة بين أغاني الأطفال والألعاب الشعبية ، وكذلك بين أغاني الأطفال والرقص الشعبي . كما تتميز أغاني الأطفال بالقافية الواضحة التي يستبدل بها أحياناً السجع والجناس الاستهلاكي . أما النغم فموقع توقيعا شديداً ، ويتميز بنفس الشكل الأساسي الذي يطوع عضوياً مع كل النصوص . بل يمكن القول بأن لحن أغنية الأطفال واحد متكرر ، طالما لم يتعرض بالطبع لمؤثرات من المدرسة أو أي مصدر آخر من مصادر الثقافة الرسمية .

ويمكن تقسيم أغاني الأطفال من حيث المضمون إلى أربع مجموعات أو فئات كبيرة هي :

أ - المجموعة الأولى هي تلك الأغاني التي تتردد في أثناء التعامل بين الطفل والكبار المحيطين به ، خاصة الأمر . وتنتمي إلى تلك المجموعة أغاني المهد ، وأغاني ملاعبة وهددة الطفل ، والأغاني ذات المضمون التربوي بصفة عامة . (٥٥)

ب - المجموعة الثانية هي تلك التي تتردد من خلال تعامل الطفل مع البيئة ، وخاصة البيئة الطبيعية المحيطة . فالطفل يقنن لكثير من الظواهر والتغيرات الطبيعية التي تلفت نظره أو تخيفه أو تعجبه أو تفاجئه ... الخ فهو يفرح للمطر ، ويمضي تحت وابله منتشياً ، فيتمنى أن يشتد ليزكو الزرع ويفيض الانتاج فيمتلئ بطنه . (٥٦) ومرة ثانية يتمنى أن تصيب السماء ماءها فيملاً « القلة » (٥٧) . وأغنية أخرى يرجو فيها أن يفيض المطر فتفيض به

(٥٥) انظر بعض نصوص لأغاني هدهدة الطفل عند رشدي صالح ، الأدب الشعبي مرجع سابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٥ وما بعدها .

(٥٦) انظر نصاً لأغنية بهذه المناسبة عند رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٥٧) نص الأغنية في المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

دروب القرية ويعوم الازر . (٥٨) والطفل يغنى للقمر عندما يختنق ، ويغنى للشمس وهو يرمى اليها بسنته التي سقطت (٥٩) ويغني للرعذوالبرق . . . الخ . كما يغني للحيوانات والطيور المعروفة في بيئتها . وقد أورد رشدي صالح أغنية تحكى قصة طائر « أبو قردان » الذى طالما عرضة في الحقول وبهرهم بخفته وسمعوا من آبائهم أن صيده « حرام » ، والذى تثير مثل هذه الاغنية حبهام له لأنه « مسكين » بلا ولد . (٦٠)

ج - المجموعة الثالثة هى تلك الاغاني التى تنشأ نتيجة العلاقة الوثيقة بين الايقاع واللعب ، فتنشأ اغاني اللعب ، واغاني الرقص ، والاغاني التنافسية . . الخ . (٦١)

د - اما المجموعة الأخيرة فتنشأ نتيجة التفاعل بين الطفل والمجتمع المحيط به في مناسبات العادات الشعبية المختلفة في مراحل دورة الحياة (كأغاني السبوع ، والختان ، والزواج . . . الخ) ، والمناسبات التى ترتبط بمرور العام وتتابعه (كأغاني الاعياد الدورية ورمضان . . الخ) . ويبدو هذا بشكل جلى سمة هامة من سمات الاغنية الشعبية (بالمعنى العام الشامل) التى فقدتها بمرور الوقت ، وظلت باقية في اغاني الاطفال فقط ، وأعنى الترابط العضوى الوثيق بين الاغاني الشعبية ومناسبات العادات الشعبية المختلفة . ولا نغالي اذ نقول ان استخدام تلك الاغاني في مناسبات العادات الشعبية أصبح هو المبرر الاول لبقاء واستمرار اغاني الاطفال .

ولكن ماذا عن مستقبل اغاني الاطفال ؟ من الملاحظ بالنسبة لمجتمع كالمجتمع المصرى - على سبيل المثال - أن الثقافة الرسمية (الراقية) لم تكن تحفل بأغاني الاطفال ، وأن كل اغاني الاطفال كانت مستمدة - حتى عهد قريب - من التراث . ولم يكن هناك اختلاف بين الطبقات الاجتماعية أو المناطق الجغرافية في هذا الأمر . اذ كان الجميع يهدن أطفالهن بأغان تعلمنها من أمهاتهن وجداتهن . كذلك كان الاطفال في سن المدرسة يلهون بأغان مما لم يتم انتاجه في «معامل» الثقافة الرسمية . ولكن ما أن بدأت الثقافة الرسمية تنتج اغانيا للطفل ، حتى تلقفها اغلب الطبقات العليا والوسطى ، خاصة تلك الفئات التى ترغب في أن تنفض عن نفسها العناصر الشعبية وتبعد عن نفسها أى شبهة انتماء شعبى (لأنه أصبح يعنى انتماء للطبقات الدنيا) . ثم لانسى بعد هذا دور المؤسسات التربوية الحديثة (المدارس أساسا) ووسائل الاعلام في ترويج كثير من أغاني

(٥٨) النص في المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٥٩) أنظر هانز فينكلر ، الفولكلور المصرى (بالالمانية) ، شتوتجارت ، ١٩٣٦ .

(٦٠) نص الاغنية عند رشدي صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

(٦١) أنظر بعض النصوص في المرجع السابق ، صص ٢٤٠ - ٢٤١ .

المناسبات الوطنية للأطفال . معنى هذا أن ثروة أغاني الأطفال في مجتمعاتنا المستمدة من التراث الشعبي معرضة للزوال في المستقبل القريب ، مالم نلتفت الى تطويرها والترويج لها (من خلال وسائل الثقافة الرسمية ايضا) .

٢ - الالغاز :

يرى بعض العلماء أن الالغاز في نشأتها الاولى تعد نوعا من الشعر الشعبي من مستوى رفيع ، شأنه في ذلك شأن التعاويذ والادعية السحرية ، وصيغ الاستنجاد بالقوى العلوية . ويرى هذا الفريق من العلماء أن الطرق الصوفية والفرق الدينية كانت تستخدم هذا الأسلوب (من التساؤلات الحكيمة ذات المفزى الدينى أو الصوفى) في تربية أفرادها والحكم عليهم وترقيتهم في مدارج الطريق . كما كان بعض المطاردين من أصحاب الدعوات الدينية والصوفية وأصحاب الدعوات السرية يتخذون الالغاز أسلوبا لتبادل الرأي وإذاعته . (٦٢)

ولكن هناك الى جانب ذلك عامل آخر في تكوين اللغز والاحتفاء به لدى الأطفال والكبار على السواء . هذا العامل هو الرغبة الكامنة لدى الإنسان والميل الى لعبة الاخفاء . ويبدو هذا الميل في أوضح صورته لدى الطفل ، ولكنه موجود لدى كل منا على أى حال .

ومحور هذا الأسلوب حفز المشتركين الى البحث عن الأشياء العادية المألوفة وراء هذا الوصف الشعري المغمى . وهذه الرغبة في الاخفاء والالغاز تتعارض بطبيعة الحال مع أسلوبنا العصري (الرسمي) الذي يتوسل بالمنطق ويسعى الى الوضوح . ولكنه يتفق مع ذلك مع التصور البدائي عن وجود صلة قرابة بين كل الأشياء الموجودة في هذا العالم . وهو تصور على الاعتقاد البدائي بوجود نوع من التناغم في الوجود كله . ومعناه أنه توجد بين كافة الأشياء والعمليات التي تبدو متقاربة أو متباعدة في الظاهر علاقة داخلية عميقة .

فعلى حين يبدو لنا أسلوب اللغز أمرا مجافيا لتفكيرنا المنطقي ، فقد كان يؤدي في الاصل وظيفة عميقة الدلالة هي رؤية صلة القرابة والرابطة المشتركة بين البشر ، والحيوانات ، والنباتات ، وكافة الأشياء ، وإدراكها ككائنات على مستوى واحد .

ويمكننا ان نلتمس اليوم القواعد الراسخة لكل من الالغاز والحكايات الخرافية من نفس القطاعات الشعبية ، حيث تتجلى بأوضح صورها لدى الأطفال . فهم اليوم الجمهور الاول لكل من اللغز والحكاية الخرافية . فالصبي أو الفتاة يحفظون منها قدرا يسوقه الواحد منهم عندما

(٦٢) وذلك على أساس أن الالغاز رموز لمعان مخبوءة ، قد يستطيع الفرد حلها بدكائه ، ولكن الكثير منها لا بد ان يعرف المرء « شفرته » كما يقال . انظر رشدي صالح ، فنون الأدب الشعبي ، الجزء الثاني ، ص ص ١٤ - ١٥ ، حيث نجد معالجة أوسع لموضوع الالغاز من وجهة نظر دارسي الأدب الشعبي .

ينازل أحد أقرانه ، ويتلهى الاب والام بإيرادها على مسامع ابنائهما . وذلك بأن حل اللغز من أكثر الموضوعات رواجاً وقبولاً لدى العامة ، ومن أكثر الموضوعات نجاحاً في الأدب الشعبي .

وتعكس الالغاز علاوة على هذا سمة من السمات المميزة للغة الشعبية بصفة عامة ، وهي الميل إلى التشخيص (أو التجسيد) ، مما لا مجال للخوض فيه تفصيلاً هنا ، ويجد القارئ دراسات وافية في بعض مراجع الأدب الشعبي الحديثة . (٦٣)

ويترتب على تلك السمات السابقة للغرائنا لا يصح أن نفاجأ عندما يحاول البعض إقامة الدليل على وجود نفس اللغز (وكذلك بعض الحكايات الخرافية) ربما بنفس النص ونفس الاستخدام - في أماكن متباعدة على خريطة العالم ، بل ربما في كافة أرجاء العالم . ذلك لأنه يستجيب بهذا الوضع لسمات إنسانية عامة لصيقة بالإنسان حيثما كان ، لأنها انبثقت منه بوصفه إنساناً .

ومع ذلك فلا بد أن نسلم في نهاية الأمر - ورغم كل ما قلناه - بأن الحضارة العقلية الحديثة التي تتسم بالرشد قد أدت إلى تراجع اللغز حتى بين الأطفال أنفسهم . حيث أصبح الناس أكثر انطباعاً بالأسلوب المنطقي في التفكير ، علاوة على أن سرعة إيقاع الحياة الصناعية الحديثة لم تعد نوع مكان للتفكير العاثر أن يأخذ مداداً ويستغرق في حل ما يطرح عليه من ألغاز .

والملاحظ كذلك - على الأقل في كثير من دراسات الفولكلور الأوروبي - أن الميل إلى الالغاز (تأليفها وحلها) لدى الكبار قد انحسر بحيث أصبح يقتصر أساساً على ميدان الجنس . وفي هذا المجال تداخل اللغز الجنسي مع النكتة الجنسية المعتمدة على التورية والجناس والتلاعب اللفظي .



رابعاً :

الالعاب الأطفال الشعبية :

الالعاب الشعبية ضرورة أساسية من ضرورات الطفولة تصاحب الطفل منذ بداية تكون القدرات الحركية عنده ، وتتطور معه تبعاً لتطور قدراته الجسمية والنفسية والاجتماعية . فهي بذلك حاجة طبيعية لديه ، لا تحتاج إلى تربية معينة لتعويده عليها أو جذبه إليها ، وربما فقط لتنظيم ممارسته لها . ويتم هذا التنظيم بشكل تلقائي عادة من خلال التفاعل مع أمه في البداية ، ثم مع رفاقه بعد ذلك .

(٦٣) انظر على سبيل المثال ، ريشارد فايس ، المرجع السابق ، ص ٢٥٢ - ٢٧٦ . وكذلك المراجع والدراسات الواردة هناك .

والالعب الشعبية بصفة خاصة متنوعة تنوعا كبيرا فمنها الالعب الصغيرة والكبيرة ، ومنها الفردية والجماعية ، والهادئة والكثيرة الحركة ، ومنها الداخلية (التى تتم داخل مكان مغلق) والخارجية . كما انها متدرجة ففيها ما يصلح لكل الاعمار والقدرات . وهذا التنوع الكبير يلبي شرط العمومية والانتشار ، ففيها المناسب لكل اتجاه ولكل قدرة ولكل مرحلة عمرية . والالعب الشعبية لا تحتاج لمعدات خاصة أو أدوات رياضية معقدة ، ولا تحتاج بالطبع للاعب خاصة ، وانما يمكن تدبيرها بأبسط الامكانيات وبما هو متاح فى البيئة المحلية ، وعلى أى أرض أوفى أى مكان متوفر امام الطفل . والسمة الهامة الاخرى فى الالعب الشعبية انها لا تتطلب مسبقا اية استعداد خاص أو مهارات معينة فيمن يود ممارستها ، بل هى التى تربي المهارات وتهذب الاستعدادات وتنميها . وهى لذلك تتسم بالبساطة اذ يوسع أى فرد أن يفهمها وان يؤديها ، لأن القوانين التى تحكمها سهلة ميسورة وبسيطة . وهذه الخاصية تجعلها فى متناول الجميع فلا يشعر أحد بعجزه ازاءها . وتلك من العوامل التى تؤكد ذيوها وانتشارها بين كل الدوائر الشعبية . ومن أهم سمات الالعب الشعبية انها طابع محبب يستهوى اللاعبين . فهى تهدف - من بين ما تهدف اليه - الى اظهار المهارة وسرعة البديهة (وأحيانا القوة) ، فتشد الاطفال الى ممارستها وتحقق لهم بذلك قدرا من الاشباع هم فى حاجة طبيعية اليه . وهى كذلك تساهم فى نهاية الأمر من خلال المرح المتكرر عليها - الى تنمية سرعة الخاطر وحضور البديهة لدى ممارسيها .

لذلك يمكن أن نقول بحق ان الالعب الشعبية تعمل على تكوين الشخصية الناضجة ، وتتيح الفرصة للطفل لتنمية استعداداته وقدراته ، ومتابعة احتياجاته الاساسية بدنية ونفسية واجتماعية (٦٤) .

وتتميز العاب الاطفال شأنها شأن كافة العناصر الشعبية المتعلقة بالطفل (كأغاني الاطفال مثلا) بأنها تحتل فى المجتمع مكانة اكبر من العاب الكبار . كما انها تعكس مثل بقية عناصر التراث الشعبى الخاصة باطفال تراث الاجداد بشكل أوضح من تراث الكبار (٦٥) .

(٦٤) انظر حول هذا الموضوع ، محمد عادل خطاب ، الالعب الريفية الشعبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ ، ص ٣٢ وما بعدها .

(٦٥) استعرض وليم نظير ، المرجع السابق ، ص ٨٠ وما بعدها عددا من الالعب التى وردت شواهد من وجودها عند قدماء المصريين ، وما زالت تمارس حتى اليوم فى مدن مصر وقراها . من هذا مثلا التخطيط ، ولعبة الكرة ، (ثقاف الكرة باليد بين الفتيات) ، والنط (التى تعرف باسم نط الانجليز) ، والسيجة ، والداما (الداما كانت على هيئة مائدة من الطين غير المحروق فوق اربع قطع من الطين تقوم مقام الأرجل ، وسطحها مقسم الى ثمانية عشر مربعا ومعا نحو اثنتى عشرة قطعة للعب مصنوعة من الطين ومقطعة بالشمع . وهى لعبة مسلية) . هذا علاوة على رياضة العبيد ، بانواع واساليب مختلفة . وقد أورد نصوص وصور عدد من الشواهد التى استند اليها .

فعلى حين نجد أن ألعاب الكبار لا تعدوان تكون في أغلب الأحيان مجرد تمارين بدنية أو عمليات تحريك للجسم ، نجد أن ألعاب الأطفال تتميز بأنها مزيج رائع بين حركة الجسم والمضمون الذي تعبر عنه .

ومن هنا ندرك سبب اهتمام علم الفولكلور في كل بلاد العالم بدراسة ألعاب الأطفال بدرجة تفوق الاهتمام بدراسة ألعاب الكبار . فقد لاحظنا أن ألعاب الأطفال قد حفظت لنا كثيرا من عناصر التراث القديم ، التي كان يمكن أن تختفي دون أثر لولا ارتباطها بألعاب الأطفال . ولكن هذا الاستمرار الثقافي يفرض علينا التزام الحذر الشديد عند التعرض لتفسير مدلول هذه الألعاب ومعاني ما تتضمنه من رموز أو إشارات . ذلك أننا هنا بصدد صور باهتة - غالبا ما تكون مشوهة أو معدلة - لألعاب قديمة درست من عالم الثقافة التقليدية على امتداد آلاف السنين .

ولكن هذا الحذر وهذا التحفظ لم يمنع كثيرا من الباحثين من أن يؤكدوا بكل قوة :- أن دلالة التراث والمجتمع بالنسبة لعالم الطفل وألعابه دلالة واضحة وقوية . ويرى هذا الفريق من الباحثين أن دراسة ألعاب الأطفال تعد أسهاما هاما بعيد الأثر في تأسيس فهم انثروبولوجي شامل ومتكامل للإنسان (٦٦) .

ويدلنا التأمل السريع لألعاب الأطفال التي عرفت المجتمعات في العصور الغابرة وتلك التي ما زالت معروفة في أيامنا أن بعض تلك الألعاب مجرد تقليد لبعض العمليات أو أساليب السلوك وبعضها الآخر مجرد تدريب أو استعداد (ربما من الوجهة البيولوجية) لحياة الطفل في مرحلة البلوغ عندما يصل إليها . أما الجانب الأكبر من تلك الألعاب فيعكس لنا بوضوح خيال الإنسان وقدراته الخلاقة ، وفن التجسيد الحي للأفكار والعمليات والمعاني ، والقدرة على الفهم الحقيقي لكثير من جوانب الحياة .

ويبدو أن اللعبة (أعني الدمية أو الشيء الذي يلعب به الطفل) هي التي تضيف على ألعاب الأطفال طابعها الرئيسي ومعناها الخاص . ولكننا نلاحظ مع ذلك أن تطور اللعبة واندماج الطفل فيها يأخذ في الابتعاد التدريجي عن اللعبة كشيء مادي ، وتحتل فيها اللعبة (الدمية) مرتبة ثانوية في عملية اللعب نفسها . ولكن لنا أن نتساءل إذا كانت اللعبة (الدمية أو الشيء) تنقل أهميتها ويتراجع دورها بهذا الشكل ، ففيم إذن ذلك الاهتمام الكبير من جانب دارسي

(٦٦) انظر مزيدا من التفاصيل عند ريشارد باتيل ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق مادة ألعاب الأطفال ، صص

التراث الشعبي بالعباب الاطفال ؟ ربما يرجع ذلك الى اننا نرى في تلك الالعب تعبيرا عن قدرة فنية بدائية على التشكيل ، تتفق وشخصية الطفل وتكوينه النفسى والفكرى والعاطفى (٦٧) .

والملاحظ بصفة عامة ايضا ان العباب الاطفال الراقصة والفنائية ترتبط بالمرحلة العمرية للطفل ، فكل عمر له العابه وله اغانيه التي تتفق ومزاجه وتتفق كذلك و « العرف » السائد بين الاطفال . فطفل العام والعامين يسعد أكبر السعادة حين الالعبه لعبة البيضة » ، ويستنكف طفل السادسة ان الالعبه اياها .

ولكن في كل تلك المراحل تتحدد حركات اللعب بايقاع الاغاني او الكلمات المسجوعة المصاحبة، فهي التي تضبط هذه الحركة وتنظمها، وتدخل في تكوينها مكونة معها نسيجاً عضوياً متماسكاً . ولكن مع اضطراد نمو الطفل ، ثم نلاحظ بدايات حدوث اختلاف بين تطورها عند الاولاد وعند البنات . حيث تظل الايقاعات الفنائية والكلمات المسجوعة تنظم حركة اللعب عند البنات . أما عند الاولاد فتتجه الالعب الى اتخاذ الطابع الحركى والطابع الصراعى الواضح (الذى لا يخلو من العنف أو استخدام القوة البدنية) .

وهذا التطور هو نفسه الذى يجعل من الصعب علينا في بعض الاحيان أن نفصل فصلا قاطعا حاسما بين العباب الاطفال والعباب الكبار . اذ تمثل تلك الحلقة بدايات الدخول في العباب الكبار أحيانا .

وأقصى ما يمكن أن نجريه في هذا الصدد هو التمييز بين العباب الشباب أو كبار الاطفال والعباب الكبار العاملين (الذى بدأوا يمارسون عملا منتجا) . ولكن لا شك أن مثل هذا التمييز شئ قليل الفائدة وضعيف الدلالة بالنسبة لتاريخ الالعب من وجهة نظر دارسى الفولكلور . وأقصى ما يستطيع دارسو التراث الشعبى عمله اليوم هو تحديد الخطوط العريضة لتطور العباب الاطفال في ضوء التاريخ العام للالعب عموما .



(٦٧) يشير بعض المشتغلين بالفولكلور مسألة تحول أنواع معينة من أدوات السحر والأدوات المستخدمة في الطقوس والمناسبات الاعتقادية الى مدار اللعب أو الى حيث تكون مادة للسخرية . ومن الأمثلة التي يقدمونها شاهدا على ذلك عرائس الاطفال . فالمعروف انها شائعة في شتى ألوان السحر في كل العصور ، تتخذ انموذجا للكائن البشرى ، فتلقى عليها العزيمة أو الرقية . وما تزال النساء في قرانا حين يردن رد العين يصنعن عروسا يثقينها بدبوس ، ويلقينها في النار بين البخور ، وكأنها تمثال للحاسد أو الحاسدة . ثم تجد البنات يشغفن شغفا جما بالعرائس . ونقطة الجدل هنا خاصة بالصلة بين السحر واللعب . ويرى رشدى صالح في كتابه الأدب الشعبى (ص ٢٤١) أن الفراغ ووسائل تمضيته توأم العمل ذاته ، ومثله في العراقة والقدم . ويرجح ان الانسان بدأ في فجر تاريخه يلهو اثناء قعوده عن طلب الطعام وقبلما يخطو الى حيث يريد السيطرة على مصادر الخير والشر . وبالتالي فاللعب ووسائله أعرق من السحر .

خاتمة

لمسنا على امتداد الدراسة كيف أن الطفل هو محور لكثير من العادات والمعتقدات الشعبية، ومستهلك رئيسي لعديد من الأنواع الأدبية الشعبية ولطائفة كبيرة من الألعاب الشعبية . وهو البطل الأول لعملية التنشئة الاجتماعية ، وكل عملية نقل التراث ، من جيل إلى جيل إنما هي بيان عملي حتى متجدد لأهمية الطفل من حيث علاقته بالتراث الشعبي .

ولكن الملاحظ أن طريقة الاهتمام بالطفل قد اختلفت في المجتمع المعاصر عن المجتمعات التقليدية ، واتخذت مسارا مغايرا . فقد أصبح الطفل في مجتمع اليوم تعبيرا عن مستوى الأسرة ، وأصبح مظهره مقياسا لحالة الأسرة . ولذلك أصبحت عملية تنشئة الطفل متأثرة بسيطرة النزعة الفردية على مجتمعنا المعاصر . ذلك المجتمع الذي يركز بكل الشدة والاصرار على تدعيم القدرات الفردية لكي يحقق الطفل نجاحا كبيرا في مستقبله . والتعليم هو في رأى أبناء كافة الطبقات الاجتماعية خير ضمان لتهيئة مستقبل مناسب للطفل . ولم يكن هذا التوتر قائما في الماضي ، لأن الطفل كان يرث مكانة أسرته كما يرث مهنة والده .

وهذا التركيز على الأعداد الفردية للطفل حرمة من اللعب ، ومن الفناء ، وصرف نظر الوالدين عن كثير من أركان عملية التربية الحقة . لأن المهم هو تحصيل مزيد من التعليم ، وتحقيق النجاح الفردي في المستقبل .

وترتبط هذه النقطة كذلك بانفتاح الطبقات الاجتماعية ، وشدة وكثافة الحراك الاجتماعي في المجتمع المعاصر . فهذا الانفتاح الطبقي وبروز المكانة المكتسبة كعنصر غالب في تحديد مكانة الشخص ، جعل الطموح الفردي أو طموح الوالدين لابنهما لا يقف عند حد . ومن هنا تفسر هذا الاهتمام الهستيرى بنجاح الابن في المستقبل . ذلك أن هذه المرونة في سلم التدرج الاجتماعي هي نفسها التي تجعل من السهل أن يسقط أو ينحدر هذا الابن في سلم التدرج الاجتماعي إذا لم يزود بإمكانيات النجاح .

الطفل في مجتمع كثير من البلاد النامية اليوم دخل طرفا في سباق الصعود الطبقي ، فأرهقت ملكاته الرقيقة ، واستنفذت في أغلب الأحيان لغير ما خلقت له . فأصبح هذا الطفل - ما لم ندركه بالعلاج المناسب - أقل سعادة وأقل « طفولة » .

ثقافة الطفل

في أواخر القرن الثامن عشر ، أثناء ظهور البوادر العلمية الأولى لفهم التطور العقلي والانفعالي للإنسان ، عثر بعض القناصة على طفل في الثانية عشرة من العمر (١) ، يجوب غابات أفيرون Aveyron خارج مدينة باريس بفرنسا . وكان الطفل لا يتحرك إلا على يديه وقدميه ، يطلق أصواتا غير مفهومة تصدر عادة من حيوانات المنطقة ، ويهاجم بأسنانه وأظافره كل من يقترب منه . عندما عرض على فيليب بينيل Philippe Pinel (١٧٤٥ - ١٨٢٦) وهو من مشاهير الأطباء النفسيين الفرنسيين ، شخص الطفل على أنه حالة تخلف عقلي عميق غير قابلة للتحسن . ولكن تلميذه إيتار J.M.C. Itard . . . رأى أن شدة التخلف العقلي عند الطفل لم يكن سببها الانعزاله عن المجتمع الحضاري ، وحرمانه ، بالتالي ، من تكوين استجابات اجتماعية يتعلمها الأطفال الآخرون لتعرضهم المستمر للمثيرات التي تولدها . ومع أن إيتار نشر ورقتين في سنة ١٨٠١ وسنة ١٨٠٧ تعبران عن خيبة أمله الشديدة لاختفاقه في تعليم الطفل الاعتماد الكامل على نفسه ، إلا أن الأكاديمية الفرنسية للعلوم

(*) مدرسة علم النفس بكلية الإدارة جامعة الإسكندرية .

Humphrey, G. and Humphrey, Muriel. (1932). The Wild Boy of Aveyron. (١)
Appleton-Century Crofte. New York. (Translation of Reports of Itard IBOI-1807).

اجمعت على ان الطفل اظهر تقدما ملحوظا عن الحالة التي وجد عليها . فقد تعلم المشى منتصباً ، وأصبح ينطق كلمات بسيطة ، ويتعامل مع الافراد المحيطين به بأسلوب اكثر تحضراً ، حصل هذا كله ، مع أنه كان متخلفاً عقلياً .

كيف يصل الطفل الى ما يكون عليه غداً من معارف ، كالقدرة على القراءة والكتابة والتعامل بالارقام ، او التهيؤ لفهم الآخرين والتفاعل معهم بما يناسب الموقف ، او التوتر لعمل الاشياء او

توليد الافكار او مواجهة المشاكل ؟

يساعده في الوصول الى هذا كله قدرته على المادة واسلوبه في اختيار المنهج ، علاوة على أسلوب محيطه في تقديم المادة التي ستوصله الى اهدافه ، . وتنتهي هذه العمليات المتصلة بتكوينه النفسي والعقلي الى تكامل وظيفي بينه وبين بيئته يسمى ثقافته .

الثقافة هي مجموع المورثات الاجتماعية التي تمثل انجازات جماعة ما (٢) . وعليه فان ما توصل اليه مجموعة من الافراد ، من افكار وعادات وقيم او مناهج وانشطة عملية او انتاج فكري او يدوي او اساليب لنقل هذه المعلومات والخبرات من جيل لجيل ، كل هذه في مجموعها تمثل ما نسميه بالثقافة ، وهذا يعني ان التنظيم الاجتماعي لأي مجموعة من السكان لا يمكن ان يدرس ويفهم الا عن طريق ثقافتها . فالجزء الفيزيقي من البيئة الذي يصنعه الانسان حوله (ماواه - اوانيه - كساؤه - أدواته العملية واساليبه التكنولوجية) ، ثم الجزء الميتافيزيقي الذي يخلقه لنفسه في نفسه (الرموز - المثل - قواعد المعاملة - الخيال والاساطير - التنظيمات العلمية او الترفيهية او الضابطة) يشكلان مخلفات جماعة سابقة تعالجها الجماعة الحاضرة لكى تعيد صياغتها للجماعة المستقبلية او تناولها لها كما تناولتها .

أين يقف الطفل من كل هذا ؟

الاجابة على السؤال هنا تركز على قاعدة عريضة أساسها ان الطفل يولد مفلس المعلومات الخاصة ببيئته الخارجية ، خصب الاستعداد للاستقبال وخزن المعلومات الخاصة بكل خبرة يتعرض لها ويتكيف أي أنه منظمة حيوية خام ، لها صفاتها الخاصة فعلاً ، ولكنها شديدة التفاعل مع كل ما تحتك به . هو اذن اجتماعي من صنع بيئته ، ولكنه تكويني من خلال وراثته . فتكوين الطفل phenotype يتبع خصائص وراثية genotype تخزنها مورثاته genes وتنقلها من جيل لآخر مستمرة الى مالا نهاية أحياناً . وقد يتبادر الى الذهن ان الثوابت الوراثية لاشأن لها بثقافة الطفل ، ولكنها في الحقيقة تلعب دوراً هاماً في تثقيفه . فمما يرثه قد يكون تخلفاً عقلياً

(٢) Hinsie, L.E. and Campbell, R.J. (1970). Psychiatric Dictionary. Oxford University Press. New York.

أو إعاقة حسية أو اضطراباً غدياً . (٣) ونجد بذلك معرقلاً من أول مرحلة التثقيف ، ولن يعنى هذا إحباطاً في كل الحالات ، لاننا عرفنا في طه حسين وهيلين كيلر وبيتهوفن وميلتون أمثله لإعاقة حسية نجحت في دفع أصحابها إلى الإبداع . ولم يكتف العلم بالبحث في تأثير هذه المحددات البيولوجية فقط ، لأنه اتجه إلى دراسة طوبولوجية التذكر مثلاً . (٤) وتبع عمل الحمض النووي ribonucleic acid وتصنيعه للبروتينات المستولة عن عملية التعلم والتذكر . بل واتجه إلى أعمق من هذا في نظرية الانجرام (أى قصاص الذاكرة memory trace) . لان التجارب العملية على ديدان planaria لفتت النظر إلى ان استجاباتها الشرطية للضوء بعد ازدواجه مع صدمات كهربائية لم تتوقف عند أول جيل لهذه الديدان (٥) . فلم ينطفئ تعلمها الشرطي في جيل آخر من أنصاف هذه الديدان (٦) ، بعد أن فصلت رؤوسها عن أذيابها ، وتركت إلى ان استكمل كل جزء ما فصل عنه ، ليصبح النصفان دودين كاملتين ، أى جيلاً آخر ، أو امتداداً للجيل الأصلي . هل تدعم هذه النتائج نظريات كارل يونج Carl Jung حول اللاشعور الجماعي أي النفس الموضوعية objective psyche ؟ (٧) وهل يكون للمخلفات النفسية المتراكمة نتيجة لخبرات الأجيال السابقة أثر على أجيالها التالية فعلاً ؟ وكيف تكونت مفاهيم الطوطم والتابو والمندالا ؟ ومع أن هذا اللاشعور الجماعي ليس إلا جزءاً صغيراً من ثقافة الطفل ، إلا أنه قد يلعب دوراً ذا وزن في نوع المخاوف أو أساليب الإدراك التي ستلاحقه .



يدرك الطفل الأشياء والتغيرات الحادثة حوله لأن له حواساً تعدد لذلك ، ودوافعاً تنشط إدراكه ، وقسطاً مما نسميه بالدكاء يتعامل به ليصل إلى المعرفة ويخزنها . وهذه هي الخصائص الدائيه التي سيساهم بها من ناحيته في عملية تثقيفه . لان لتثقيفه قطبا آخر مقابلاً هو

(٣) Kleinmuntz, B. (1974). *Essentials of Abnormal Psychology*. Harper and Row. New York.

(٤) Lashley, K. (1960) In search of the engram, In *The Neuropsychology of* Lashley. F.A. Beach, D. D. Hebb, C.T. Morgan, and H. W. Nissen, editors. McGraw-Hill. New York.

(٥) John, E.R. (1967) „Neurophysiological correlates of learning and memory,” In *Comprehensive Textbook of Psychiatry*. A. M. Freedman and H. I. Kaplan, editors. The Williams and Wilkins Co. Baltimore.

(٦) John, E.R. (1964) „Studies on learning and retention in planaria” In *Brain Function*. M.A.B. Brazier, ed. University of California Press. Los Angeles.

(٧) Jung. C.G. (1963) *Memories, Dreams, Reflections*. Collins and Routledge and Kegan Paul. London.

خصائص مادة ثقافته . وهى صفات لاحصر لها تناقش فيما بعد . وبين القطبين المتفاعلين عامل آخر يحكمهما ، هو مسطرة معيارها السرعة ، وتعرف بالزمن . لان الطفل ولو انه تكوين حيوى مستعد للبقاء منذ ولادته ، الا انه شديد الاعتماد على بيئته وعلى هذه المسطرة الزمنية منذ البدايه . فقد يظل خاوى المعلومات الحضارية مثلابينما هو يتقدم فى النمو مع الزمن . ويقترب بذلك من النضج الفيزيقي ، ولكنه يبتعد عن الخزن المعرفى لافتقاره الى المثيرات . وهذا هو ما حدث لصبى افرون . **معارف الطفل اذن رهن بمتغيرات تحيط به وتولد حوله وبعوامل بيولوجيه تحرك استجاباته للآثاره ، ثم نموه ونضجه ثم عجزه .** وحيث ان الزمن ثابت التقدم ولكن النمو يختلف فى السرعة من فرد لآخر ، فان المقياس الزمنى هو المرجع الوحيد لتحديد كفاءة الطفل فى الاستقبال والاستيعاب من ناحية ، ثم نوع وكمية التنمية المعرفية الممكن تشبيع الطفل بها من ناحية اخرى . فكم من طفل نابغة وصف بالجنون (توماس اديسون) او بالفشل (تشارلز داروين ثم اينشتاين) لان عمره العقلى كان اكثر تقدما من عمره الزمنى . فاضطر الى التقدم بتفكيره وانتاجه حتى وان تمهل الآخرون ، اوفقد الدفعية حتى الى مشاركة العاديين الآخرين فى مستوى تفكيرهم لاحساسه بالاحباط . ولا يتوقف المقياس الزمنى عند رصد العبقريه او التخلف فقط ، ولكن هدف الثقافة ازاءه هو التغذية الموقوتة للنفس النامية ، بحيث تنتهى تغذيتها هذه الى ثراء نفس اقتصادى يفيدها ويفيد المجتمع الذى تتعامل معه . فلن يتعلم الطفل الجبر قبل معرفه الاعداد ، ولن يدرك مفهوم الامانه قبل تطور عملياته السيمانتيكيه .

الثقافه التى يعرضها المجتمع على الطفل يأخذها الناشئ على علائها . لذلك تكون مهمة العطاء حرجة . فالمجتمع ، سواء كان عائلة الطفل او مجتمعه الكبير ، له هو الآخر صفاته . وحيث انه اقدم واكثر خصوبة واقوى فاعلية من الناشئ الفج ، فانه يفرض عليه اساليب الفكرية والعملية بلا منازع . فبصمات العائلة العاملة الامينة او المفككة اللااخلافية تظهر واضحه على جيلها الثانى الناشئ . ولا تتغير آثارها ، ان تغيرت ، الا بعد ان ينتقل الطفل الى مرحلة الرشد ، او تغير ثقافته بيئة اخرى موازية لبيئته المباشرة . لاننا نعجب احيانا مثلا من صغير ينحرف مع انه من عائلة مستقيمة . او من آخر يتحلى بصفات مثالية مع انه من أسرة لامثل لها . ويكون السبب ان كلاهما قد حول انتماءه الى جماعة بديلة تشكل الآن اليد العليا فى تكوينه النفسى .

وانتقال الثقافة من الاباء ظاهرة غير معقدة قوامها تقمص الطفل لشخصية الكبار . وهى عملية واضحة ومنطقيه فى معظم الاحيان . ولكن العمليه الاكثر تعقيدا هى انتقال الثقافة جماعيا من اجيال باكملها الى الاجيال التى تليها ، مع وجود فروق فردية بين ابنائها تساعد على عدم

ثبتت الميراث او على الاقل على عدم ترابطه . هذا بالإضافة الى حتمية تغير التشكيل الاجتماعي (٨) واساليبه ومنجزاته . فالحضارة المصرية القديمة مثلا خصائص ثقافية لم تتغير كثيرا عبر عشرين قرنا تقريبا ، منها فن المعمار والنحت والتصوير ثم عقائد الالهية وعودة الروح ثم الهيراقية الاجتماعية والسياسية . كما كانت للحضارة الرومانية من ناحية أخرى طباع ثقافية بدأت سبع قرون قبل الميلاد واستمرت خمسابعه ، ولم يؤثر فيها كثيرا اختلاطها بالحضارات الأخرى بعد الفتوح الحربية ولا التغير الثقافي الذي فرضه ظهور المسيحية (٩) . وكان لهذا التطبع الصارم يد في تقوضها . ومن الطريف مثلا ان كثيرا من الطقوس والعادات التي يمارسها الكثيرون في مصر اليوم يرجع اصلها الى الثقافة الفرعونية ، كاستمرار الحداد على الموتى اربعين يوما . بل ونجد ان اللون الاسود يتبناه العالم في الحداد بعد المصريين القدامى ايضا . ولا دخل للدين في العادة على الاطلاق ، لان كثيرا من المجتمعات الاسلامية لاتمارس هذه العادة بل وتستكبرها ، بالإضافة الى انها عادة عالمية لا يحددها الدين او المواقع الجغرافية .

اهم عناصر الثقافة التي يقابلها الطفل ، سابقة التجهيز في مجتمعه ، هي اسلوب السلوك المنتظر منه ونوع التفكير الدينى الذى سيتبناه . فاذا ولد في الشرق الاقصى او الاوسط في الغرب ، فان الدين الذى ولد فيه وتعلم ان يميل اليه هو الذى سيمتسك به في معظم الاحيان . لان حالات الانتقال من دين لآخر طواعية (بعد نزول كل الاديان واستتبائها على الارض) تعد ضئيلة جدا اذا ما قورنت بالحالات التى استمرت بدون تغير ، حتى وان تعرضت لمغريات الانتقال اولعوامل التفكير الدائى . ومع ان دين الطفل هو ميراث جماعته الدينية ، الا ان الطرف المباشر في التوريث يكون عائلته . لذلك نجد ان عملية التطبيع الدينى رهن بفهم وتطبيق اسرة الطفل قبل كل شئ ، حتى وان تعرضت العملية للتطور فيما بعد ، لانه اخفق في التذكر . ومع ان القسط الاكبر من اعباء العملية يقع على عاتق المربي الدينى في حياة الطفل ، الا ان جذور التربية تنتهى الى جماعة الدين الكبرى . لذلك يعتبر هذا المدخل الثقافى اجتماعيا اكثر منه فرديا . ويهمنا من الناحية التربوية اثر هذا النوع من الثقافه على سلوك الطفل في طفولته ثم بعد نضجه ، لان الطفل لن يقابل في حياته بعد هذا شيئا بمثل قوته ، مع غموضه وغرابه جذبه ورهبته . فهو حتى وان عوقب لانه كسر قانونا اجتماعيا ، او جوزى لانه قام بعمل استفاد منه مجتمعه ، الا ان خبرته المبتا فيزيقيه المتصله بالثواب والعقاب الدينى (المؤجل ، غير المحسوس) هى التى ستؤسس قواعد الضمير والاخلاق لديه .

(٨) Sherif, Muzafer and Sherif, C.W. (1969), Social Psychology. Harper and Row. New York.

(٩) Van Loon, Hendrik. (1938 The Story of Mankind. Garden City Publishing Co. New York.

ولن يكون الميراث الدينى القاعدة الاجتماعية الوحيدة بالنسبة للطفل . لانه سيولد ايضا فى مجتمع له عادات خاصة يقبلها واخرى يحرمها . فقد يكون مجتمعه من التطرف بحيث يحرم عليه اكل الابقار مثلا ، او يفرض عليه اكل اللحوم البشرية ، او يحتم عليه ارتداء انواع خاصه من الكساء والطلاء ، او يبيع له التعرى . وقد يولد فى مجتمع يمارس طقوس التكريس او ختان الاناث او تفضيل الذكور او انتهاء حياة الكهول فى المجتمع . ويكون موقع حادثه ميلاده هو المقرر لما سيتعرض له فى حياته من خبرات . وتكون هذه الخبرات نتاج الفكر والتطبيق الاجتماعى لموقع ميلاده او للجماعات المستقلة فى الموقع الواحد . ولن تكون كل العادات متطرفة او غير مقبولة فى معظم المجتمعات الاخرى . لان من اساليب السلوك التى تفرضها معظم المجتمعات مثلا تنظيم كل من علاقات الزواج والملكية والحريات الفردية ثم المعاملات الاقتصادية والضابطة واخيرا اساليب التعليم والانتاج . هذا علاوة على صفات السلوك الاخرى كاحترام السن او الوقت او المحافظة على العهد . وهى صفات تختلف نسبيا من مجتمع لآخر ، فيكون للاخلال بها عقوبات فى بعضها او مرورا غير ملحوظ فى اخرى .

وفى النهاية تتولد من هذين الاصلين الثقافيين سابقى التجهيز ، آفاق ثقافية اخرى يشق فيها الطفل طريقه الخاص . لانه سيطبق او يخالف قواعد الاخلاق والانضباط والمشاركة الاجتماعية . وسيختار ماذا يأكل وكيف يأكله ، متى يأخذ واين يتوقف ، الى من يلجأ ليتعلم او يستكشف . ولن تكون كل جهوده ذاتية . لانه سيحاط فى كل مراحلها بأفراد اكثر خبرة منه يرشدونه او يضبطونه . والمهم من الناحية الانسانية هنا هو الفروق الواسعة بين المتاح لبعض الاطفال والذى يحرم منه آخرون . لان كثيرا من المجتمعات تعوزها التكنولوجيا الحديثة أوحثى العلم الكفاء . وتكون النتيجة الا يتعدى ما يتعرض له الطفل من ثقافة حدود ضروريات البقاء على الحياة . وقد لا تتوفر هذه ايضا . فمن المؤلم مثلا ان يتوقف الانسان اولا فى بلد يتمتع فيه الطفل بالدفع والشبع والصحة ، ويدير قرضا فيتصل بأى مكان فى كوكبه ، او يضغط زرا كهربائيا فيرى ويسمع اوينال ما اراد من خدمات آليا ، او يستفهم فيجيب على اسئلته عقل الكترونى يوفر الطاقة البشرية . ثم ينتقل الانسان بعد ذلك الى بلد مقفر يش فيه الطفل من المرض والجوع وعوامل الجو ، ولا يجد فى بيئته ما يوصله الى أى معرفه ذات قيمة ، فيظل جاهلا متخلفا مريضا يعيش ليومه لا غير ، لأن أى عمل يقوم به سينتمى الى عيش اليد الى الفم .

• • •

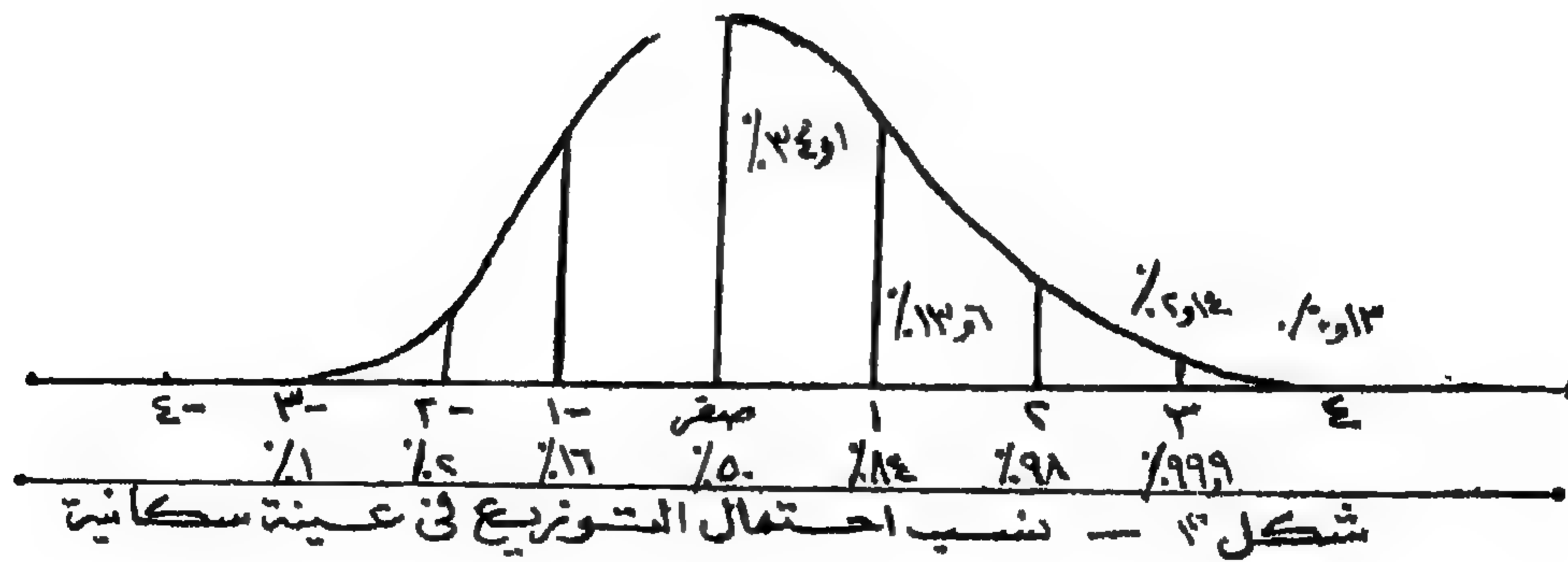
مادة الثقافة التى ستملا حياة الطفل ، لتثير انتباهه فيعيرها تفكيره وتخيله وذاكرته ، مادة مركبة بعضها نشط العناصر والبعض الآخر ثابتها ، فاذا انجهدنا مثلا الى ادواته التى سيستعملها لكى يصل الى اهدافه لوجدناها اسرع مواد ثقافته تطورا وتغيرا ، بينما تظل

المادة المجردة بطيئة التغير قليلة التعديل . ولناخذ على سبيل المثال أدوات طهى طعامه من ناحية ، واكله لما يميل اليه من ناحية اخرى ، او مسكنه وولائه لعائلته ، او معدات قتاله وحاجته الى الامن . فسعيه الى الشبع ثابت ولكن الانتقال من موقد الفحم القديم الى افران الاشعة القصيرة microwa ve ovens لم يتوقف في مسيرته بعد . وكذلك مواد مبانيه من طوب نبيء الى زجاج الالياف fiber glass مازل يتطور ، بينما احاسيسه نحو الافراد الذين يضمهم البناء لم تتغير . ولا تتفاوت عناصر الثقافة حيث التغير والثبات فقط ، لانها تختلف ايضا من حيث الابتكار والاستكشاف . فبينما المبتكر يخلق شيئا جديدا لم يكن موجودا ، نجد ان المستكشف يعثر على شىء جديد كان . ولناخذ على سبيل المثال وسائل مواصلات هذا الطفل من ناحية ، والطبيعة حوله من ناحية اخرى . فالطفل البدائي لم يعرف سوى كتف امه اولا وقدميه ثانيا . و اضاف اليهما بعد زمن ظهر الجواد ، فسيارة ففواصة ، ثم طائرة فمركبة فضاء . ومع ذلك 'فالتبيعة هي كما كانت عندئذ . يابس وماء وفضاء . بل وستظل هكذا . ولكن طفل اليوم في معظم دول العالم تعرف على عطارذ وعلى الثقوب السوداء black holes في فضاءه ، وسمع عن اثلانتيس ومثلث برمودا في مائه ، ودرس مواد الطاقة التى يخزنها يابس من بترول الى يورانيوم الى غازات طبيعية جوفية . ولم تكن كل هذه الاشياء غائبة عندما كان الطفل الاول يمتطى جوادا فقط . ولكنها ، وغيرها كثير ، كانت وما يزال بعضها الآخر ، في ظلمات المجهول ، تنتظر ثاليس وفيثاغورس ثم نيوتون وماكس بلانك واينشتاين .

نخطئ الظن انن لواعتقدنا ان ثقافة كل الاطفال محكومة بما تعرضه عليهم بيئتهم فقط . لان لبعض الاطفال خصائص ذاتية لا يتمتع بها الاقليل منهم . كالطفل الذى اجاد اللعب على الهارب والكمال والارغن ولم يتعد الخامسة من العمر . والف الموسيقى بينما اطفال سالزبورج الآخرون يطاردون الفراش في حدائقهم . وعند انطفاء حياته في الثلاثين من عمره كان موسسات قد ملا آلاف الصفحات الموسيقية ليتمتع العالم بالعديد من السيمفونيات والكونسيرتو واعمال الاوبرا مثل دون جيوفانى ، وزواج فيجارو ، والفولت السحري . الامثلة الصارخة للموهوبين من الاطفال قليلة جدا ، ولكن كل العباقره الراشدين كانوا اطفالا . ومما يحير العلم مثلا ان البرت اينشتاين لم يتكلم قبل الثالثه ، وانه كان يتعثر في لغته حتى التاسعة ، وان ابويه خشيا ان يكون متخلفا عقليا (١٠) . وترك اينشتاين مدرسة الجيمازيام بلا رجعة ، نائرا على طريقة التدريس المارينشتالية بها . واخير التحق بمعهد بوليتكنيك زيوريخ وهو في السابعة عشرة من العمر ، بعد ان فشل مرة في اختبار الالتحاق . هذا الطفل ، ضعيف التحصيل ، اذهل علماء الفيزيكا وهو في السادسة والعشرين باربج اوراق علمية في مجلد واحد ، فجرت

نظرية نسبية الفراغ والزمن ونظرية الكوانتات ونظرية الذرة . وكان حينئذ موظفا مغمورا في مكتب تسجيل بمدينة برن سنة ١٩٠٥ .

ما هو العدد المنتظر من هذه النماذج العقلية في الطفولة المبكرة اوفيا بعد ؟ لان امثلة هذا النوع الذي لن تتوقف . بل من المؤكد ان المسيرة ستضيف الى ميادين العلم آخرين يسلطون الضوء على مجهول ويخلقون ويبتكرون . ومن الواضح ان الرهط يزداد كثافة ، وان المسافة الزمنية بين المبقرى والآخر اصبحت اقصر ، فما الذى يحدث للعقل البشرى ؟ الحقيقة الاولى هي ان عدد العباقره بالنسبة للتوزيع السكاني لن تتغير . فاذا اتبعنا قاعدة نسبه الاحتمال probability لوجدنا ان ٠.١٣٪ فقط من البشر سيتفوقون في الذكاء اوفى الانتاج العقلى او العملى او الفنى . فاذا كان تعداد عالم القرن الرابع قبل الميلاد مقدرا بمائتى مليون نسمة (١١) ، فان اغلب الظن ان من بين مواليده عاش ٢٦٠ الف طفل مفرط الذكاء . ولم يقدر لهم جميعا الوضوح ، ولكنهم وجدوا ، وعلى الأرجح ، فان من بين هؤلاء ، لم ينشط سوى قرابة ٣٣٨ مبقرى في كل الميادين . واليوم نحن نقارب اربعة آلاف وخمسمائة مليون على ظهر الارض . ومع ان التعداد السكانى يتزايد الان نسبه الاحتمال في حدوث اى ظاهرة تظل ثابتة . وبتطبيقها على سكان اليوم سنجد خمسة ملايين طفل مفرط الذكاء . ولكن من بين هذه المجموعة المختارة ايضا سيحس العالم بوجود واحد في الالف منها . لان احتمال النشاط بينهم سيتوقف عند الانحراف المعيارى الموجب الرابع من التوزيع ايضا . اى اننا سنسمع عن ٦٥٠٠ تقريبا من مثل ابن سينا او اينشتاين او شيكسبير او ما يكل انجلو جديد في هذا الجيل .



ما الذى يلهب مثل هذه الشعلة سواء في الطفولة المبكرة او عند الرشد ؟ فاذا ورث الطفل الذكى حدة النشاط العقلى ، ولم ير او يسمع منه احد شيئا ذا قيمة ، فانه يختلف كثيرا عن آخر يقتنى نفس الصفة الوراثية ولكنه يسخرها ويمتطى طاقاتها ليخلق في أجواء معيشيه عليا .

عنصر الاختلاف بينهما خليط آخر من امكانيات ثرية ومعلومات نشطة في بيئته ، وهو خارجي . كيف نوصل الطفل الى اقصى حدوده من اول الطريق ؟ ولانعنى توصله الى العبقرية او الابداع ، ولكن الى استثمار كل طاقاته . الطفل مستكشف منذ البدايه ، فهو لذلك يفتح الاشياء ليعرف ما بداخلها ، ويسأل فيما بعد اين نذهب عندما نموت او ما هو شكل الله ، ثم عندما يشب سيتعلم انه سيعيش اسعد واطول اذا لم اكثر بما يحدث داخله وخارجه . وهذه هي الفرصة المثلى لأول دفعة في ثقافته . ان يترك ليبحث وان يعطى عندما يريد . وهذا يتطلب وقتا وصبرا ممن يباشره ، علاوة على دراية علمية بما قد يسأل عنه ، ودراية بكيفية الاجابة عليه . ولايسىء الى الطفل اكثر من سقوط بطله الذي اعطاه معلومات يظهر خطأها فيما بعد . وهذا عيب يقع فيه عدد غير قليل من الآباء . فاهون على الطفل ان يسمع من أبيه اقتراحا بأن يفتشا معا عن الاجابة ، عن ان يتضامل العملاق في اعين الطفل لانه كذب . بل وتخلق الامانه في هذه الحالة دافعا جديدا هو المشاركة والزماله في البحث ، او الاتجاه الى خوض المعرفة المتصلة به من كل جانب وبكل السبل .

دوافع الاستكشاف والتحسس والانتماء والاتصال والمشاركة الاجتماعية معروف انها مكتسبه ، اعنى ان الطفل يتعلمها ممن يعيش معهم . وليس كل اكتسابها معتمدا على هذه البيئة ، لان الطفل نفسه يقتنى بعضا من هذه الدافعية بالفطرة . لانه ، وهو مازال في اشهر الجهل الاولى من عمره ، يتلفت تلقائيا الى المثيرات الضوئية او الصوتيه كلما نشطت وهو يخطط بيده على ماتقع عليه ليحدد نوعه وصلته به . فاذا صح تنظيم مورفي Murphy لبناء الشخصية الاخذ بتبادل العلاقات بين عوامل اربعة هي : (١) الاستعدادات التكوينية ، (٢) التوجيه او التقنيه canalyzation ، (٣) الاستجابات الشرطية ، ثم (٤) العادات المعرفية والادراكية (١٢) ، فان ميلاد الطفل يضعه في المحتوى الثانى بمجرد اتصاله بالعالم الخارجى ، ليوافقه بالنمو ضرورة تأسيس محتويات البناء الاخرى . وفي النهاية ، تتجمع كلها لتستقر على هيئة دور role هو الطريقة الثابتة نوعا للسلوك والاتجاهات ، وهذا الدور تفرضه ثقافته على الطفل .

اي ان تكوين الطفل ، وبالتالي وظائف هذا التكوين تعد نقطة انطلاقه النفس ونموه . وقد فسر كارلا يونج (١٣) الديناميات النفسية بمبدأين : مبدأ التعادل ومبدأ الانتقال entropy . ومبدأ التعادل يوازي مبدأ هلمولتن Helmholtz الاول للديناميكا الحرارية في الفيزيكا ، الاخذ بثبات الطاقة . فانخفاض قيمتها في مجال ما يعنى رفعها في اخرى . فاذا

Murphy, G. (1951) Introduction to Psychology. Harper. New York. (١٢)

Jung, G.G. (1916) Analytical Psychology. Moffat and Yard. New York. (١٣)

انخفض تقدير الطفل لعائلته مثلا فسوف يريده اهتمامه باشياء او افراد اخرين . اما مبدأ الانتقال ، وهو ايضا يوازى المبدأ الثانى للديناميكا الحرارية ، كما يصف به يونج ديناميات النفس فيعنى توازن القوى يتبادل الطاقة . هذا مع ان الطاقة والحركة فى النفس لا تتبعان نفس الاسلوب الجامد النمطى الذى تتبعانه فى الطبيعة . فالطاقة النفسية كيان فرضى كما كديونج ، يستخدم الفرد كل ما يلزمه منها لاشباع احتياجات بقائه اولا ، واى فائض بعد ذلك يخدم أنشطة الفرد الثقافية والروحية وهنا يتجه الى اهداف ارقى من مجرد البقاء واذا انطلقنا من هذه النقطة لاستنتجنا ان توليد دافع حب المعرفة والبحث عن الحقيقة فى الطفل الناشئ لا يمكن ان ينجح اذا كان محروما من حاجاته الاساسية . فكيف يدرس سبب انجذاب الاشياء الى الارض اذا كان جائعا او محروما من الرعاية ؟ ولا يعنى هذا تعميم القانون . لان الفريد آدلر (١٤) واى ان الفرد يكافح فى سبيل التفوق . والتفوق عنده لا يعنى التميز الاجتماعى ، ولكنه يقترب كثيرا من فكرة تكون الذات عند يونج ، وهى الانتقال من الانا الى مركز اقل بدائية واكثر جدية يقع بين الشعور والاشعور ، ومن مبدأ تحقيق الذات عند كيرت جولد ستين (١٥) وهو خاصية فردية تختلف من شخص لآخر اختلافا كبيرا . لانه وجد ان بعض ضحايا آفات المخ يخضعون لمرضهم ، بينما البعض الآخر يتخطى الاصابة بمحاولات للتكيف وتحدى الشلل الناتج عن المرض . بل ويمكننا الخوض اكثر من هذا (١٦) لان الحرمان او الاحباط يتسببان احيانا فى توليد دافع خاص (المقاومة) يكون هدفه تحقيق الذات . وهو دافع لا يتساوى فى القوة عند كل الافراد ، ولا يزول توتره عند بلوغ نهايه السلوك الهادف الناتج عنه - لأن حالات فقد او الاحباط او الحرمان تظل مستمرة ، ويظل الدافع الجديد مستمرا معها . ولعل ابرز الصور لهذا النوع من الدافعية هو المقاومة التى يبديها بعض الافراد فى الكوارث او الشدائد حتى بعد نقطة اللارجوع .



البيئة الاجتماعية وثقافة الطفل :

واضح مما سبق ان الثقافة تتولد فى كائن حي لانه تعرض لكائنات اخرى واشياء تخصهم . وواضح ايضا ان لهذا الكائن الصغير صفات ساجية مزودا بها قبل ان يلتقى بالبيئة التى سيتفاعل معها . وان هذه الخصائص قد تساعده على تلقى الثقافة اولا تساعده .

Ansbacher, H.I. and Ansbacher, R.R. (1959) *The Individual Psychology of Alfred Adler*. Basic Books. N.Y. (١٤)

Bischof, L.J. (1970) *Interpreting Personality Theories*. 2nd edition. Harper & Row. New York. (١٥)

Hakky, U.M. (1976) *Basic Psychology*. Manar El Elm. Alexandria. (١٦)

ويهمنا الآن التعرض لما تساهم به بيئة الصغير الجديدة من مشيرات ومؤثرات ستكون في مجموعها ثقافته على حده ، وثقافة الاجيال التالية بعد ان يتعامل معها هو وجيله معا . لان اسلوب الحياة الذى سيلقنه اياه مجتمعه لن يظل كما هو الى مالا نهاية ، بل سيتعرض للتغير والتعديل ، شأنه تماما شأن كل شىء حي نشط .

اذا شرحت البيئة الاجتماعية الكل لوجدت مجزاة الى اربعة مكونات : افراد ، اشياء ، انظمه ، وحاجات (١٧) . ومن الممكن الاشارة الى الافراد ككتلة عامة لتمييزية من الادميين homosapiens ، او كمجموعة مختلطة من البشر في موقع جغرافى محدد (دولة) ، او كمجموعة اصغر من الافراد متجانسة الميول والاتجاهات (فريق سباحة كلية الهندسة ، او جمعية الرفق بالحيوان مثلا) . اما الاشياء فيمكن ان تكون اجزاء من الطبيعة (زرع ، جبال ، انهار ، موارد ، أنشطة طبيعية كالطر والضوء والحرارة الخ . .) او اشياء من صنع الافراد (مساكنهم ، ملابسهم ، اوانيتهم ، وسائل مواصلاتهم وترفيههم وتخطبهم الخ . .) والانظمة هى الحدود المجردة التى يرسمها المجتمع ليتبعها افراده ، كلهم او من ينطبق عليهم نظام بالدات . ومن هذه الانظمة : الدين ، الشرع ، الضبط ، السياسة ، التعليم ، الزواج ، الملكية ، الحريات الخ . . اما الحاجات ، وان كانت اصلا فردية ، الا انها تنتظم فى النهاية لتصبح حاجات اجتماعيه . ومنها مثلا الاتصال ، التكامل ، المشاركة ، الاستقرار ، الامن والمنفعة الخ . .

اقترح ايريك فروم Erick Fromm (١٨) مجتمعا مثاليا يرتبط الانسان بالانسان برابط المحبة ، ويتيح له امكان التعامل مع الطبيعة بالخلق بدلا من التدمير ، ويشعر فيه الفرد بذاته . ولم يكن فروم رائدا فى فكرته ، لان جان جاك روسو سبقه اليها بأسلوبه الخاص فى تشخيص امراض المجتمع وعلاجها . بل وسبق كلاهما افلاطون بمدينته الخالدة يوتوبيا ، بمثلها ونظمها . وحيث ان تمنى الشىء يعنى الحرمان منه (١٩) ، فان تهيو هؤلاء المفكرين لاشكال المجتمعات التى خلقها خيالهم يعتبر فى حد ذاته مؤشرا للمرض الاجتماعى الذى عانت منه مجتمعات كل منهم . هل تغيرت المجتمعات عما كانت عليه آتئذ ؟ وما هى الهيئه التى يكون عليها المجتمع اليوم عندما تطؤه قدم الطفل ؟ هل يعطيه هذا المجتمع العزة والرعاية والطمأنينة والدراسة ؟ وهل يوفرها له طول الوقت منذ البداية حتى تشكل دعائم ثقافته ، وتهيئ الميادين لديناميات سلوكه وتفاعله السليم الجدى مع هذا المجتمع ؟

(١٧) حتى ، الفت . (١٩٧٩) علم النفس الحديث . منار العلم - الاسكندرية

Fromm, Erick. (1955) The sane Society. Rinehart. New York. (١٨)

Guetzkow, H.S. and Bowman, R.H. (1964), Men and Hunger, Brethren Publishing House, Elgin, Illinois. (١٩)

المجتمع ، أو الكل من أفراد وأشياء ونظم وحاجات ، يخضع هو الآخر ، تماما كالطفل الفرد ، لمتتالية زمنية تترتب عبرها أحداثه . وهذا التتابع ، التطوري في المظهر والوظيفة ، يحدد ثقافته الطفل التاريخية . من أين نزلت عائلته الاولى ، ولأى أحداث تعرضت ، ثم أين استقرت وكيف تأثرت بالطبيعة وانتفعت بها ، ولمن خضعت أو على من سيطرت ، كلها آثار تاريخية تشكل طابع هذا المجتمع . فلا شك في وجود اختلاف ثقافي مثلا بين طفل نشأ في صحراء غرب إفريقيا ، وآخر في ادغال البرازيل ، وثالث في جبال سويسرا . لان لكل منهم مناخ وطبيعة خاصة ، علاوة على تاريخ قديم يتابعه الصغير في عادات قومه وفي فولكلورهم وفيما يفرض عليه من أساليب المعاملة والمآكل والملبس .

ولا ترضخ كل المجتمعات لقيودها التاريخية، أو لأساليب ماضيها التقليدية . وهنا يواجه الطفل صراع الثقافتين الحديثة والقديمة ، ولا يحدث الانتقال فجأة الا في حالات قليلة ، كقيام الحروب أو تغيير أسلوب الحياة (تعديل تكنولوجيا مثلا) أو الهجره . وعادة ما يشارك الاهل الطفل في مواجهة الصراع في مثل هذه الحالات . ويكون عبء التكيف ، الواقع على عاتقه اقل ثقلا . وإذا ما قارنا موقفه السابق بموقفه من محاولة التوفيق بين ثقافة جيل باويه والتغير الحادث في ثقافة جيله لوجدنا للتوافق مظهرا آخر . لانه سيواجه ، وحيدا ، تيارا داخل عائلته . ولنأخذ على سبيل المثال دخول الفتاة المدرسة أو الجامعة في مجتمعات كانت تحرمها منه . هل اذا ارادت الفتاة سيستجيب الاب ؟ وحتى ان رضى الاب فهل سيرضى العم أو الجد أو رئيس القبيلة ؟

تغير أسلوب الحياة في المجتمع الواحد لا يحدث كثيرا في المجتمعات المغلقة ، وهذه تتضاءل في العدد بشكل واضح كلما ازدادت طرق الاتصال وتقدمت اساليبه . ولكن التغير ظاهرة مستمرة في المجتمعات المفتوحة . وهذا هو اكثر العوامل الثقافية تفاوتنا بينها . فقد يولد الطفل مثلا في مجتمع زراعي يعتمد على أسلوب محدود لانه محكوم بظروف اقتصادية ومناخية وجيوفيزيكية معينة . أو يولد في مجتمع آخر يجمع بين الزراعة والصناعة والتعدين ، ويضيف الى موارده الطبيعية المعرفة التكنولوجية . وهنا تظهر الفروق بين ثقافة الطفلين . لان الميراث الثقافي للطفل الاول يظهر كما جاء في معظم الاحيان ولكن الطفل الثاني يتعلم منذ طفولته الاستعداد لتقبل التغير بل والتهيؤ لاستقبال التطور المنتظر في كل الاوقات . ويتولد عامل جديد ، يحكم ثقافته ، هو خليط من سعة الافق والتطلع المتواصل ، واذا تواجد فانه نادرا ما يشبع .

ثراء الثقافة المطروحة امام الطفل مسئولية مجتمعة اولا واخرا . فاذا لم يصعد رصيدها دائما ، فان اقتصاديات هذه ثقافته يصيبها الكساد لا بالنسبة لنفسها فحسب ، ولكن بالمقارنة بالثقافة الموازية . لان معيار التقدم في أى مجال ليس الازدياد في القوة والسرعة

فحسب ، ولكنه الفرق في التطور بينه وبين آخر . ولناخذ على سبيل المثال أسلوب تلقين اللغة للطفل . فاذا افترضنا بأن وسيلة الاتصال بين الافراد في المجتمع الواحد هي رموزهم الخاصة لمعاني عامة عالمية ، وان هذه الرموز اللفظية تختلف في المنطق والمسمع من مجتمع لآخر ، ولكنها في النهاية تتفق في اشارتها الى نفس الشيء ، فان هذا النوع من الاتصال الاجتماعي يعتبر أولى حاجات الطفل غير الحيوية التي يقاوم بها العزلة ، والتي يعتمد في اقتنائها على مجتمعه . وحيث ان حجم وغزارة هذه الرموز يشير الى كمية وعمق المفاهيم والمعاني التي ترمز اليها ، فان اللغة خير معبر عن ضيق او سعة الثقافة . وغنى عن الذكر ان افتقار لغة ما الى المصطلحات التي ترخر بها أخرى لخير مؤشر على تخلف مجتمع الأولى . كيف تولد اذن هذه الرموز ؟ اذا رجعنا الى الوراثة السحيق في تاريخ البشرية لاستنتجنا ، وهذا محض تخمين ، ان الانسان الاول لا بد وانه لجأ الى نوع من الاصوات ، يخلقها في حلقه ، ليبر بها عن خوفه او ألمه او لينبه بها افراد مجموعته الى خطر او اى شيء حادث . لان الاصوات الحلقية هي استجابة فطرية تصدر من معظم الكائنات الحية عند انفعالها . بل وتظهر هذه الحاجة للتعبير عن الانفعال بشكل اوضح عند دراسة سيكولوجية الصم . فمع ان الاصم ابكم ، الا انه عند الانفعال يصدر من حلقه اصواتا ، لا معنى لها بالنسبة لباقي المجتمع ، الا انها موحدة نمطية عند الحيوانات العليا . وترجع معظم الدراسات الفيلوجينية للسلاسل احتمال اعتماد الانسان بالذات على حنجرته وعلى تعبيرات وجهه الفطرية في نقل افكاره على الآخرين . وان استعماله لحنجرته لم يتعد اصدار ما نسميه اليوم الحروف المتحركة ، تماما كما يلاحظ على الاطفال في دراسات نموهم الارتقائي (٢٠) . وهذا يعنى ان ضحالة الرموز اللفظية في المجتمعات البدائية يرجع افتقارها الى المثيرات التي تولدها . لان الانسان الاول لم يلجأ الى تكوين هذه الرموز الا عندما اضطره ازدحام بيئته الى خلق اصوات موحدة لكل تعبير ، حتى يتسم التفاهم مع الآخرين عن طريقها .

ضحالة او عمق اللغة ، وتهذب السلوك اللفظي او عدمه ، لا يشير ان الى ثراء الثقافة فحسب (٢١) ، ولكنها يحددان الطبقة العقلية والاجتماعية التي ينتمي اليها المتكلم . فالمتخلف العقلي والمتخلف الاجتماعي يستعملان رموزا لفظية محدودة ، سهلة التفصيل syntax بينما يتعامل مرتفع الذكاء او ثرى الثقافة بكودات لغوية اكثر تعقيدا واشد تركيبا من حيث التفصيل والتحديد والاتساع . وعليه فان دور المجتمع واضح في هذه الناحية . فتطوير اللغة باستمرار لتساير تطور حاجات المعيشة والعلوم ، وتلقين النشء لها في سنين حياتهم

(٢٠) Bernstein, B.A. (1955) „A Socio-lingulstic approach to social learning, In Social Science Survey, J. Gould, ed. Pelican Books, London.

(٢١) Deutsch, M. (1965) The role of social class in language development and cognition, American Journal of Orthopsychiatry. 35:78, 1965.

الاولى ، خير دعامة للكسب المعرفى . ولا تتوقف المعرفة هنا عند لغة جماعة الطفل المباشرة ، لانه فى حاجة الى أخريات تخص مجتمعات موازية ، حتى تتحسن مهارته فى الاتصال الاجتماعى والقدرة على حل المشاكل . وحيث ان اللغات تعبير عن الافكار ، والافكار تعبير عن المعارف ، وأن المعارف معيار للتطور الاجتماعى (٢٢) ، فان لغة الطفل فى النهاية هى معيار رصيده من المعرفة الخاصة بالمعاني والعلوم القائمة فى مجتمعه .

القيم ونظم السلوك واساليب الانفعال ركن آخر من أركان ثقافة الطفل التى تنتقل اليه من مجتمعه . والدليل على ذلك هو اختلافها الشديد من مجتمع لآخر . ومن الصعب تصور هذا التباين الى ان يلمسه الانسان بالانتقال من ثقافة الى اخرى (٢٣) . وهذا ما فعلته مثلاً مارجريت ميد (٢٤) ، عندما عاشت فعلاً فى جزيرة بالى (جنوب شرق اندونيسيا) ، وسجلت ، على مدى عامين ، كل ما يتصل بشخصية أهل هذه الجزيرة النائية عن العمران . وقارنت بين السلوك الخاص بالدوافع البيولوجية بالذات ، العالمية فى خصائصها ، فى مجتمع بالى والمجتمعات الغربية . فسكان بالى يتفادون الاكل امام الآخرين . واذا اضطروا الى ذلك ، فانهم يعطون ظهورهم لبعض ، ويأكلون بسرعة ، كما لو كانت العملية مخجلة او معيبة . وقد ربط بعض الملاحظين اتجاه أهل بالى نحو التغذية باتجاه الحضارات الاخرى نحو الاخراج . ويريد من تنفير الطفل لعملية الاكل ، طريقة تغذية الاولى ، بدس الطعام فى فمه عنوة وهو مطروح على ظهره ارضا ، سواء رغب ام لم يرغب . ومن العادات الاخرى التى شاهدها ميد هناك ، طريقة المعاملة التى يلقاها الطفل من أمه . فدافع الامومة معروف انه يهدف الى حنو الام على اطفالها لاعتمادهم عليها عاطفياً وجسيمياً . ولكن مجتمع بالى يخرج تماماً عن هذه الاستجابات المكتسبة ، لانه يفرض على الام تبني اطفال اخر ، لتعود اطفالها على الاستغناء عن الحاجة العاطفية للغير ، بما فيهم الام . ويشب الفرد بعد ذلك محافظاً على « بعد اجتماعى » يقيه من عواقب الاحتكاك الانفعالى مع الآخرين ، ويعطيه فرصة اكبر للتأمل الذاتى . واذا قارنا هذه القيم بتلك التى تفرضها المجتمعات الاخرى ، لوجدناها فى كثير منها تشخص على انها انطواء اجتماعى .

انتقال الطفل بعد ذلك من نظام اجتماعى الى آخر ، لا يعنى بالضرورة تمسكه التام بالنظام الاول الذى شب عليه ، لان من خصائص الكائن الحي القدرة على التكيف لبيئته . وهذا يعنى

(٢٢) Piaget, J. (1926) The language and Thought of the Child, Harcourt Brace, New York.

(٢٣) Mead, Margaret (1934), Mind, Self and Society From the Feral Man, Harper Standpoint of a Social Behaviorist. University of Chicago Press, Chicago.

(٢٤) Mead, Margaret, Ed. (1937) Cooperation and Competition Among Primitive Peoples. McGraw-Hill. New York.

ان التعديل وظيفة يمكن حدوثها طالما توفرت القدرة والامكانيات من داخل الطفل ومن خارجه . فاذا كان طفل افيرون قد عانى من التخلف العقلى ، وهو لذلك لم يتقدم كثيرا عندما غير بيئته ، فان الطفلة كمالات الهندية نجحت في الارتقاء من سلوك حيواني عدواني بحث الى سلوك اجتماعى ذكى (٢٥) . فبعدها عاشت كمالات تسع سنوات في جحر ذئب ، عثر عليها لتنتقل من مجتمع الدئاب الى الانسان . وتعلمت كيف تمشي منتصبه ، على قدميها ، وكفت عن التجوال ليلا والمواء . وتعلمت مخالطة الناس بحرارة والتحدث بلغتهم بطلاقة وبدون تعثر ، الى ان توفيت وهى في السابعة عشرة من العمر . وتضيف هذه الامثلة براهين اخرى على ان اسلوب الحياة رهن بالاحتكاك الاجتماعى الذى يتعرض له الطفل .

ومع ان التغير في الحالات السابقة يعتبر فرديا ، الا انه يساعد في الاشارة الى ما يمكن ان يحدث عند عبور الثقافات او عند هجرة الجماعات الى مجتمعات ثقافية اخرى . وحيث ان الحدود الجغرافية لم تعد وعاء ثقافيا كما كانت الى مدخل القرن العشرين ، فان تداخل الثقافات اليوم يجعل من العسير التعرف على اسلوب حياة مميز لكل مجتمع معاصر على حده ، الا في عدد صغير من المجتمعات المعزولة جغرافيا . لان معظم دول العالم مثلا تبني نفس النظم الاجتماعية والترفيهية والسياسية والقانونية تقريبا ، كالزواج والملكية وقواعد المرور والحريات الخ . . واذا استثنينا الديانات ، لوجدنا ان الحدود المميزة تتلاشى بين العديد من الثقافات المتجاورة ، بحيث اقترب كثير منها من كونه عالميا مع فارق بين الشرق والغرب مثلا ، او الزراعى والصناعى ، او المجتمعات المتحضرة والنامية .

بقي شيء آخر ، هو معنى من ناحية ، وفيزيقى من ناحية اخرى . فالبشرية باعدادها المتفجرة لم تعد تهيم نفس الظروف التي كانت تهيؤها للاجيال السابقة . ويشكل هذا النوع من التغير في الكثافة السكانية ضغطا على بعض المجتمعات يختلف من ضوضاء الى ملوثات بيئية ، الى تضاؤل العناية والقوت والوقت والدخل والفرص . والصارخ في هذه الحقيقة ان المجتمعات المسؤولة عن الازدحام والتلوث والتخلف تعاني أصلا من ثقافة محدودة . بينما المجتمعات الاكثر تطورا ، والتي تتحكم تكنولوجيا في تلك العوامل ، تقاسى من القلق الناتج عن اللامبالاة والاضطراب التي يتسبب فيها غيرها .

الى الآن ، ومناقشة ثقافة الطفل التي يكتسبها من مجتمعه ، معتمدة على مداخل انسانية فقط ، تدور حول اساليب اتصاله بالآخرين من حيث سلوكه اللفظى والعملى والانفعالي فقط .

ولكن مساهمة المجتمع في ثقافة الطفل لا تتوقف عند هذه العوامل المعنوية فقط ، لأنها تشمل ايضا عناصر مادية محسوسة هي ادوات المعيشة التي يستعملها الفرد في مجتمعه ، ونوع الغذاء والعقاقير التي يتناولها ، والكساء والمأوى الذي يحميه ، علاوة على ادوات الترفيه والتعبير الفني التي يلجأ اليها لتسليته .



يعتمد المام الطفل بالطبيعة حوله على الوسائل التعليمية التي يقدمها له مجتمعه ، بل وتعتمد على ذلك كثير من العادات التي سيتبناها في مستقبله ، الخاصة بحياته ومأكله وفهمه للأمراض والعدوى والعلاج والوقاية . وحيث ان هذا المجتمع يوفر له ايضا نوع وقوانين مسكنه ، ثم نظام محاصيله الكبرى والصغرى وقوانين تصنيع منتجاته ، وطرق حمايته من الطبيعة ومن المجتمعات الاخرى ، فان الطفل يولد وثقافته هذه رهن بعبء هذا المجتمع . ولا متسع هنا لعد المسئوليات ، وهل هي اليق ما بوسع هذا المجتمع ان يقدم ؟ وهل هي آخر ما وصل اليه العلم في باقى المجتمعات ؟ وهل هي تضمن فعلا لهذا الفرد الصغير ، الذى لم يكن له شأن بميلاده ، حياة السعة والطمأنينة والعافية ؟

الاسرة وثقافة الطفل :

يتكون المجتمع الكبير من وحدات من مجتمعات اصغر هي الاسر . ومع ان هذه الاسر لا تخضع لنفس التنظيم الذى يخضع له المجتمع الكبير ، الا ان لمعظم الاسر قواعدا وطرقا للمعيشة تقوم مقام النظم والقوانين الاجتماعية العامة . ويعتقد معظم السيكولوجيون ان سنين الطفولة الاولى تشكل مرحلة التكوين النفسى للطفل ، وانها اكثر مراحل نموه حرجا . وحيث ان سنواته الخمس الاولى « الحرجة » تجده في كنف اسرته طول الوقت تقريبا ، فانه لعجزه ، يصبح صورة الظل لهذه الاسرة . فكيف يفعل ، ماذا يأكل ، ماذا يقول ، لماذا يخاف او يفرح وكيف يعبر عن نفسه ، كلها رهن بما يدور داخل هذه الاسرة وما يبدر عن افرادها .

تكوين الذات ، اى الشخصية الفردية ، يتم على مراحل متعددة منذ ولادة الطفل الى ان ينضج . وهذه الذات ، أو « الانا » ، لا تظهر بوادرها فى الاسابيع الاولى . لان الطفل حديث الولادة لا يميز بين جسمه وبين بقية الحقائق التى تحيط به . يعنى ان جسمه ونفسه يظلان وحدة متصلة الى ان يصل الوليد الى مرحلة التمييز بين هذا الجسم وبين محتويات العالم خارجه . ثم بعد ذلك ينتقل الى تنظيم الاشياء الى ذاتية وموضوعية عن طريق ادراكه وذكرته . ويكون بهذا الاسلوب قد توصل الى التعرف على ذاته ، وتعرف عليها المحيطون به ايضا .

الذات تنظيم يتطور ٤.٤ لأن الطفل يتعرض لمثيرات حوله تخص حواسه أولا ، وأخرى تخص عملياته العقلية والحشوية بعد فترة قصيرة . وكما قال وليام جيمس فإنه « بمجرد الولادة الطبيعية ، تهاجم البيئة الصاخبة حواس الطفل ». فتتطور الوظائف الدماغية بين الأسبوعين الرابع والسادس (٢٦) بحيث تبدأ في الاستقلال عن وظائف التوازن الحيوى . لأن الطفل يولد مستعدا للقيام بعمليات التفاعل العضوى التي تؤمن له الاستمرار على الحياة ، كالتنفس والمص والبلع . ولكن عملياته العقلية التي ستعتمد على حواسه ، لا تكون مؤهلة للعمل إلا بعد عدة أسابيع ، بل ولا تعمل إذا لم تتصل بما يثيرها من الخارج . فقد ثبت تجريبيا مثلا (٢٧) أن قردة الشمبانزى التي حرمت من الضوء منذ ولادتها تفقد ٩٠٪ من خلايا الإبصار بشبكيتها . وأن القطط التي منع الضوء عن إحدى عيونها فقط (٢٨) ، لكى تبقى العين الثانية بمثابة عامل الضبط بالتجارب ، أصبحت تستعمل العين المتعرضة للضوء فقط في الاستجابات التلقائية (المتماثلة أصلا في الاثنين) المتصلة بمتابعة الضوء أو المثيرات المتحركة . أى كما رأى بياجيه Piaget ، يلزم الكائن الحى النامي غذاء من المثيرات ، تماما كما يحدث في جهازه الهضمي ، لكى ينمو ويتطور . وتكفينا الحقائق الطبية الانثروبولوجية الخاصة بتطور الجمجمة كدليل على أن النمو رهن بالوظيفة بالإضافة الى الوراثة ، لأن حجم مخ الإنسان الاول Australopithecus (٥٠٠.٠٠٠ قبل الميلاد) لم يكن أكثر من ٧٠٠ سنتيمتر مكعب ، بينما أصبح حجم مخ الرجل المتوسط اليوم حوالى ١٤٠٠ سنتيمتر مكعب . ولم يحدث ذلك إلا لأن ازدياد الوظائف الموكولة الى هذا المخ اضطرره الى توسيع مسطحه ، فزادت تلافيفه ، وبالتالي عدد نوروناتا .

ما سبق يعنى أن ثراء بيئة الطفل الاولى يثرى ثقافته سواء من الناحية التكوينية او من الناحية الوظيفية . ولا يتوقف تقدم النمو على الخلايا الدماغية فقط ، لأن انظمة الطفل الحيوية، وعظامه وعضلاته تتأثر بعوامل البيئة أيضا . فعلاوة على انه قد ثبت ان اطفال الملاحياء اللقطاء (٢٩) يعطون متوسطات اقل للدكاء ، ترتفع عندما ينقل الطفل الى عائلة ترعاه ، فان نسب الوفاة

(٢٦) Erikson, E.H. (1959) Identity And The Life Cycle. Psychological Issues, Monograph No. 1 International Universities Press, New York.

(٢٧) Riesen, A.H. (1960) „Effects of stimulus deprivation on the development and atrophy of the visual sensory system,” Amer. J. Orthopsychiatry. 30:23, 1960.

(٢٨) Wiesel, T.N. and Hubel, D.H. (1963). Effects of visual deprivation on morphology, and physiology of cells in the cat's lateral geniculate body,” J. Neurophysiology 29:978 1963.

(٢٩) Bowly, J. (1952) Maternal Care and Mental Health, 2nd ed. Monograph Series. No. 2, World Health Organization, Geneva.

تختلف ايضا بين اطفال الملاجيء والاطفال المتبنين (٣٠) ، بل ويتباين طوال عظامهم ونضج عضلاتهم نتيجة للمجاعة النفسية . ولا يخفى مدى ما تسببه هذه المجاعة من حرمان من حرمان من الدافعية لتبنى النظم الصحية للسلوك السليم (٣١) .

الرعاية التي تحيط بها الاسرة طفلها هي السند الاكبر لنمو واكتمال كل وظائفه النفسية والجسمية . وتساعد هذه الوظائف على تكوين مكانته الخاصة في المجال الاجتماعي ، لا بالنسبة للآخرين فقط ، ولكن بالنسبة لتقديره السوسيوميتري لنفسه ايضا (٣٢) . ويلاحظ ان بياجيه قسم التطور المعرفي للطفل الى ثلاث مراحل : ١ - الحس - حركية (العام الاول والثاني) ، ٢ - العمليات المحسوسة (٢ - ١٢ سنة) ، وأخيرا ، ٣ - العمليات المدروسة (١٢ سنة فصاعدا) ، وانه وجد فروقا في التطور بين الثقافات من ناحية وبين الطبقات الاجتماعية من ناحية اخرى . يعنى ان انتماء الاسرة الى واحدة او الى اخرى يؤثر على نمو الطفل المعرفي . بل اثبت الباحثون (٣٣) تميز الانفعالات الطفلية من اول الشهر الثالث ، وان الفروق تبعث خصائص الانفعالات لدى الابوين او من يقوم برعاية الوليد . فالطفل البشوش ، هادىء الطبع يتبع الراعى الحنون . اما الطفل القلق ، حاد المزاج ، غير المنتظم في استجاباته فانه ناتج الرعاية المقتضبة غير المستقرة او الفظة .

ثم ينتقل الطفل من مرحلة المهد الى مرحلة المشى toddler stage ، يجنى اثناءها مهارات كثيرة ، كالللام والاعتماد على ساقية والتفريق بين ما يريده وما لا يقبله . ويتبنى للمرة الاولى اما سياسة الرفض او الاتجاه السلبي نحو ما يفرض عليه . بل يتعلم ان يقول « لا » قبل « نعم » . ويتعرف على ما يملكه قبل التعرف على ما يريد . وفي هذه المرحلة تستكشف الاسرة كيفية التعامل مع هذه الذات الجديدة . لان اسلوب الجذب والشدة لن يؤدي الى حل مشاكلها ، ولكن سياسة التعاطف والحزم هي التي ستنجح في اقامة الحدود الاولى للسلوك المقبول (٣٤) .

(٣٠) Spitz, R.A. (1946) Anaclitic depression, *Psychoanal. Stud. Child.* vol 2, pp. 313-42.

(٣١) Sherif, M, (1967) Group processes and collective interaction in delinquent activities *J. Res. in Crime and Delinquency*, January, 43-62.

(٣٢) Petri, H. L., Mills, R.G., and Barry, L.S. (1974). Variables influencing the shape of personal space, *Proc. Amer. Psych. Assoc.* New Orleans, Aug. 1974.

(٣٣) Thomas, A., Birch, H.G., Chess DS., Hertzog, M.E., and Korn, S. (1965) *Behavioral Individuality in Early Childhood.* New York University Press. New York.

(٣٤) Kessen, W. (1965), *The Child.* Wiley. New York.

وفي السنتين الثالثة والرابعة يجد الطفل متعة في الانطلاق والاعتماد على نفسه والتحسس المعرفي . ويزيح أسرته الى اقصى محيط انشطته . لان الطفل يأبى الآن ان يظهر ضعيفا ويصر على الاستقلال . ويكون المطلوب من أسرته في هذه المرحلة (٣٥) التقليل من ممارسة السلطة ، واطلاق حرية الطفل في النشاط الهادف الى تحقيق ذاته . ومع ذلك فان مستوى طموحه في هذه المرحلة يفوق دائما مستوى امكانياته . فهو لذلك يأخذ على عاتقه امالا لا يستطيع اتمامها ، او يدخل في مشاكل لا قدرة له على الخروج منها . ويكون دور الاسرة اما مساعدته على بلوغ هدفه بعدما يستنفذ كل طاقته في المحاولة ، او ارشاده في المراحل النهائية الى انجح السبل لحل مشكلته . واهم من هذا وذاك هو دور الاسرة في اعداده لتقبل الفشل او القصور ، وانتظارهما كواحد من وجهي اللعبة .

ويتقدم الطفل نحو التطبيع الاجتماعي في هذه الفترة ايضا . لانه سيستقبل اطفالا جدد في العائلة ، او يقابل اطفالا غرباء خارج العائلة . ويتعلم للمرة الاولى ضرورة التعامل مع الغير ، والم فراق بعض اشياءه دائما او احبائه بعض الوقت ، لان الآخرين سيشاركونه فيهم . وتخدم هذه المعاناة منفعة جديدة ، لان الطفل سيتجه في نفس الطريق الى البحث عن ذاته ، وسيتأثر بهؤلاء الغرباء ، وسيعين ايهم يميل اليه وايهم ينفر منه . وهنا ايضا تؤثر أسرته على اختياره ، لانها تتحكم فيمن يخالط ، او لانها تحدد له القيم التي ينتظر منه ان يرن بها الافراد والاشياء والافعال .

وتنحصر الثقافة النفسية السليمة التي تتيحها الاسرة للطفل بعد هذا في قيم تعتبر في الحقيقة معايير عامة للصحة النفسية . فعليه ان يتعلم تقبل الحقائق المتعلقة بقدراته ، واستعداداته ، وحالته الجسمية والعقلية . وعليه ان يتفاعل مع من يحيطون به تماما كما يود ان يعاملوه ، فيتعاطف معهم ويتقبلهم كما يقبل نفسه ، وعليه ان يتعلم الاقبال على الحياة وتحمل نصيبه في اي عمل ، وان يكون طموحا شجاعا مستعدا للكفاح والمقاومة اذا تعرقل هدفه او فشل اول الامر . واخيرا ان يتعلم الموازنة بين حاجاته وبين متطلبات المجتمع حوله ، فيتوقف عند الحدود التي رسمها هذا المجتمع ، حتى وان ادى ذلك الى حرمانه من اشباع حاجة جسمية او نفسية . وحيث ان الرياح لن تجيء بما تشتهي السفن دائما ، فان عليه ايضا ان يتعلم التكيف لمواقف الاحباط بتغيير الاشياء او بتغيير اوضاعه النفسية . ومهمة أسرته في هذه الثقافة النفسية

طويلة شاقة ، لأنها لا تخضع للوقت او لقانون اولطريقة . فهي تبدأ من اول يوم يتبادل فيه الطفل الكلمات مع من يقوم برعايته . ولا تنتهى الا عندما يصبح الطفل راشدا آخر مسئولاً عن طفل آخر ، يرعاه ويحبه بنفس الاسلوب تقريبا ، ويختار عند ارشاده بعض الاساليب التي طبقت عليه (٣٦) :

« واذا استطعت ان تملأ كل دقيقة قاسية بستين ثانية من سعى ومتابعة ، لك الارض بكل ما عليها ، واكثر من ذلك ، تكون قد صرت رجلا يا بنى » .

لتنقل الثقافات من الجيل الى الجيل عن طريق فرد ، ميراثا ومتعة ودين .

★ ★ ★

(٣٦) Kipling, Rudyard (1959). „If“, In : Anthology of Modern Verse., Pelican Books. London.

غذاء الحامل وصحة الجنين والوليد

مقدمة : -

حقوق علم الاجنة ، وعلم نفس الطفل توسعا كبيرا فى دراسة مرحلة ما قبل الميلاد ، باعتبارها اهم مرحلة تضع البذور الاولى لحياة الانسان بعد الولادة فترسم له عن طريق الوراثة ، ومن طريق ما يصله من الام من خدمات التغذية ، ووظائف التنقية ، ترسم له اطار مستقبل حياته اما حياة سليمة سوية ، او حياة متعثرة فاشلة جسميا او عقليا او انفعاليا ، او هى جميعا .

ولقد عشنا عصورا طويلة ننكر ، او نجهل اثر هذه المرحلة على نمو الفرد بعد الميلاد ، ولا زالت الكثير من الامهات الى اليوم لا يعين هذه الاهمية ، ولذلك فانهن بالتالى لا يسمعن الى صوت الجنين الصامت يشكو النقص ، ولا فرحته المدوية دون ضوضاء حين ينعم بالكمال ، كل الكمال ، فيما ياتيه من امدادات غذائية ، او يخطى به من اعفاء من عمليات الاخراج او التنفس للتخلص من الفضلات او العناصر الضارة بجسمه الواهى ، الى ان ظهرت على بعض المواليد امراض

وعلى ، أو تطورت لديهم أنواع من النقص الجسمي أو العقلي ، أضر بهم وبمستقبلهم وارق مضاجع آبائهم ، فانتبه الناس الى هذه المرحلة مرحلة ما قبل الميلاد « prenatal period » يتلمسون فيها ما قد يحدث أثناءها من نقص في غذاء الجنين أو دوائه ، أو عجز في مقومات حصانته من كل سوء ، أو عوامل قد تؤخر نماءه .

لقد عاش الفكر النفسى فترة طويلة يقصر تأثير هذه المرحلة على المواليد في حدود تأثير العوامل الوراثية دون غيرها ، منكرا أحيانا ومتجاهلا أحيانا أن ذلك الكائن الذى يعيش فى ظلمات ثلاث ، هى ظلمات الرحم ، يتأثر كثيرا وكثيرا جدا بما وراء هذه البيئة الرحمية ، أو ماهية البيئة الخارجية التى تعيشها الام الحامل .

ولقد توصل العلم الحديث الى الكثير عن التأثير المباشر الذى يظهر على الجنين فى بطن أمه ، اذا تغيرت المؤثرات البيئية التى تحيط بالام ، او تغيرت الام نفسها بما يغير البيئة الرحمية . ولا غرو فالجنين كائن متطفل على الام يعيش بها ومعها ، وعلى ما تقدمه له من احتياجاته الغذائية والهوائية والوقائية جميعا .

ان الجنين فى بطن أمه كائن عاجز ، ولكنه مع عجزه لديه استعدادات تبدأ من لحظة تلقيح البيضة تعطيه طاقات حيوية واضحة جدا ، فبمجرد تلقيح البيضة التى يفرزها مبيض الام بواسطة الحيوان المنوى تصبح لها القدرة على الحركة ، ثم تخرج من الشعيرات « الحوالى » ما يصلها ويررعها فى جدار الرحم . ثم لديها من الطاقة - طاقة الحياة - ما يجعل خليتها الواحدة تنقسم ثم تنقسم وتتضاعف عددا ، ثم تتمايز وظيفية ، ثم تصبح علقة ثم مضغة ، ثم تتكسى أو يكسوها الله - بعد تكوين العظام لحما - الخ من التطورات المعروفة .

قابلية الجنين للتأثر بظروف البيئة الخارجية .

المعروف أن تطور الجنين فى مرحلة ما قبل الميلاد يمر بمراحل نمائية هامة هي : -

١ - مرحلة البذرة أو البيضة الملقحة بالحيوان المنوى . وتستمر لمدة أسبوعين بعد الاخصاب . .

٢ - مرحلة المضغة وتستمر من الاسبوع الثالث حتى السابع .

٣ - ثم مرحلة العلقة والجنين وتبدأ من الاسبوع الثامن يوم الولادة .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل تحدث تغيرات نمائية ، وتظهر أعضاء وتتضح وظائف لهذا المخلوق ، وهو يبدأ أول حياة فى تاريخه الطويل .

وقد يفيدنا هنا أن نستعرض فى عجلة سريعة أهم التغيرات التكوينية والحيوية والبيولوجية التى تظهر فى كل مرحلة من هذه المراحل . ذلك أن اهتمام هذا البحث بموضوع التغذية يجعل من الضرورى تحديد المراحل النمائية - قبل الميلاد - التى قد تتأثر باضطراب مورد الغذاء أو عناصر تكوين الغذاء الواصل من الام : « شكل ٢ »

مراحل التغير قبل الولادة : prenatal development

١ - مرحلة البذرة : وهى مرحلة البيضة التى تم اخصابها بواسطة الحيوان المنوى . بعدها يتكون حول البيضة غشاء قوى يمنع دخول أكثر من حيوان منوى واحد من مئات الملايين التى تصب فى الرحم بعد عملية الوصال الجنسى . بعد ذلك تبدأ المرحلة الثانية فى التطور وهى انقسام الخلية الى العديد من الخلايا ، وهى ما تسمى مرحلة الانقسام « metosis » (١) وفى اليومين التاليين تستمر عملية الانقسام الخلوى . وخلال هذه العملية تتحرك البيضة المخصبة خلال قناة فالوب لتصل الى تجويف الرحم (انظر شكل ١ وشكل ٢) .

وبين اليوم الثالث واليوم الخامس بعد الاخصاب تبدأ الخلايا فى اعادة تنظيم نفسها لتتجمع حول السطح الخارجى تاركة فراغا خاويا وسطها يمتلئ بسائل ما .

وفى اليوم الخامس او السادس تتجمع خلايا معينة داخل هذا الفراغ ثم تبدأ فى التخصص ، فالخلايا التى تتجمع على أحد جوانب هذا التجويف ستصبح فيما بعد العلقه ، أما الخلايا الباقية فانها تكون منطقة الاتصال بالرحم وهى البشيمة « placenta » والسائل الداخلى الذى سوف يسبح فيه الجنين .

وبعد اليوم السابع الى التاسع من الاخصاب ، تحتك هذه التركيبة بجدار الرحم ، وتبدأ عملية التصاق بالجدار بواسطة « حوائق » تظهر فيما بعد وتكون بعد ذلك المضغة . ان افراز الام الحامل لهرمونات الاستروجين والبروجسترون تهىء الرحم لاستقبال هذا الضيف الجديد المقدس (٢) . هنا ترقد كتلة العلقه فى احضان جدار الرحم ويبدأ تمييزها بالغذاء من دم الام من طريق حويصلات تتكون فى جدار الرحم تتبادل دم الام مع دم الجنين . والام هنا معطاءة كريمة ، حانية على التكوين تطهر دمه لحظة بعد لحظة فى عملية تبادل غريبة كلها السخاء والعطاء . (انظر شكل ١) .

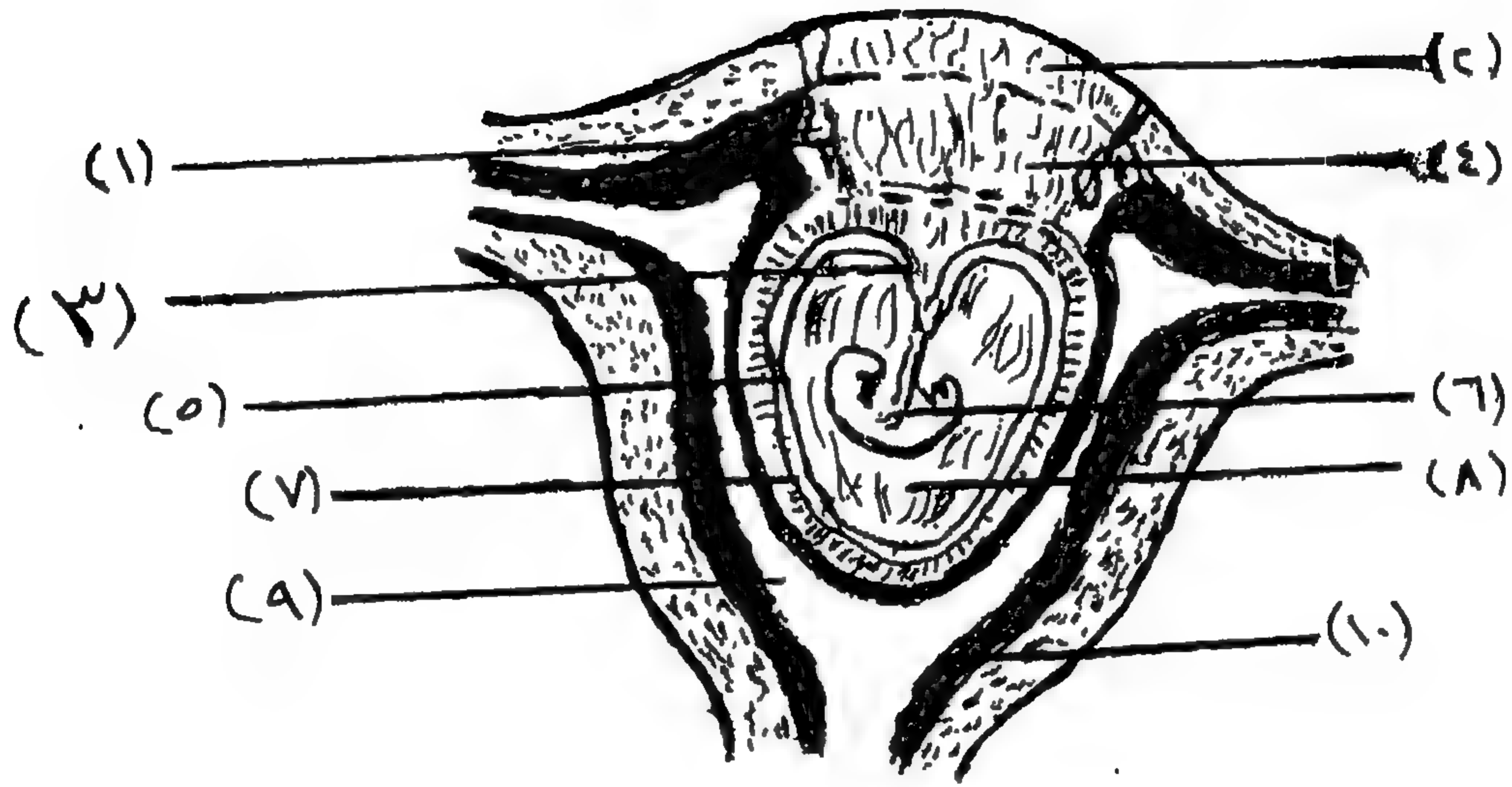
هنا يحدث نماء سريع جدا لهذه العلقه يوما بعد يوم ، ويتضاعف حجمها كل ٢٤ ساعة (انظر شكل ٢) وبعد حوالى اسبوع يكون طول العلقه تقريبا ١ : ١.٠٠ من البوصة . ان احتضان جدار الرحم لهذه العلقه يعطى الحياة لهذا التكوين حين يتسلم الغذاء والاكسجين من دم الام ويطرد منه الفضلات . ولا يزال الكائن هنا جسما غريبا على الام ، ولولا ما تقدمه له من هرمونات ، ولولا قوة هذه المنطقة لحدث للجنين طرد سريع ولم يتمكن الرحم من الامساك بالتكوين .

مرحلة المضغة : « The embryonic period »

هذه مرحلة هامة جدا فى تطور الجنين وهنا يتغير مظهر العلقه بصورة جذرية من كتلة من الخلايا الى كائن بشرى واضح المعالم .

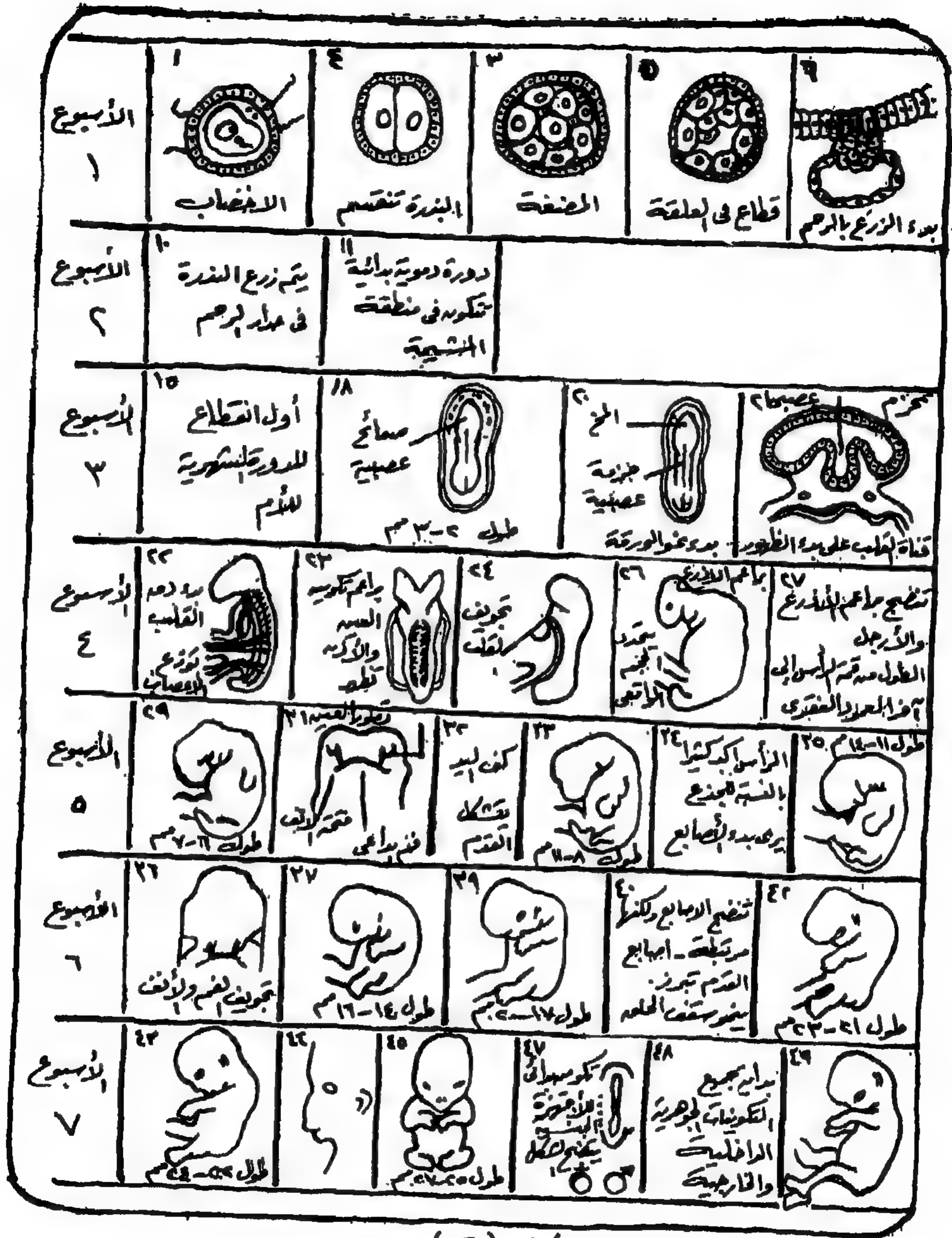
(١) تسمى احيانا حالة تكاثر الخلق بالانقسام المتتابع (cleavage) .

(٢) غالبي وآخرون



شكل (١)

رسم توضيحي يبين العلاقة بين الرعم والغشاء الرعوي والبنية ايام الحمل



(٢) شكل

أمناء على مواليدهم في الأسابيع الثمانية الأولى من الحياة عمر " Moore " 1977
(13) ٢٠٠٢

وهنا نشهد بديع خلق الله فيما جاء في قول الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغفة ، فخلقنا المضغفة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميتون » سورة المؤمنون آية ١٢ - ١٥ .

وبنهاية المرحلة تكون جميع الاعضاء الكبرى والاجهزة الرئيسية قد تكونت كما يتضح ذلك من « شكل ٢ » . وهذه المرحلة التي تنتهى بنهاية الاسبوع السابع او آخر الشهر الثانى من الحمل تتسم بالنمو السريع ، وهى لذلك مرحلة يكون فيها التكوين اكثر عرضة للتأثر بالعوامل البيئية الخارجية التي قد تمتاز بنقص او قصور ما . ولهذا فانها بالنسبة للكائنات البشرية تعتبر أكثر المراحل حساسية لآى مؤثر رحى او خارج رحى . وهنا نلاحظ أنه - بين اليوم ١٨ - ٢٨ يبدأ الجهاز العصبى فى الظهور والتطور . وهو الجهاز الذى يقوم بعملية توجيه النماء والتطور لأغلب الاجهزة الحيوية الاولى ، ويبدأ تطوره من تجميعه عصبية ثم تتطور لتكون المخ والمخيخ والجبل الشوكى .

- فى نفس الوقت تقريبا تتطور اجهزة دقيقة أخرى فى نفس فترة تطور الجهاز العصبى المركزى . ففي الاسبوع الثالث من الاخصاب يبدأ تشكيل الاوعية الدموية والمعدة . وهنا تظهر أنبوبة صغيرة تتطور لتكوين القلب ، ولذلك يظهر عليها نوع من النبض البدائى فى الاسبوع الرابع . وبعد ذلك يسير تكوين الجهاز الدورى بانتظام .

وفى اليوم الثامن والعشرين تظهر فى جسم المضغفة ٤٨ زوجا من قطاعات الانسجة هى التى تتكون منها العضلات فيما بعد .

- ثم يبدأ تكوين الاربطة والعظام فى صورة خلايا غضروفية .

- وفى نهاية الاسبوع الرابع تحدث تغيرات غاية فى العجب فى المضغفة ، فهنا يزيد حجمها ليصبح قدر ما كانت عليه ٧٠٠ مرة ، ومع ذلك لا يمكن تمييز كائن بشرى ابدا من مظهرها لحسب . فهنا لا تختلف عن مضغفة أى كائن حي آخر . « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تفيض الارحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » سورة الرعد آية ٨ ، ٩

- وابتداء من الاسبوع الخامس الى السابع تتطور المضغفة تطورا واضحا حين تصبح وظيفة المخ والقلب ضرورية تماما لعملية تطورها ، وهى اكثر حاجة لهما من حاجتها الى وظيفة الهضم مثلا . (شكل ٣)

- ففي الاسبوع الخامس يكبر حجم المخ نسبيا اذا قورن بكبر حجم كتلة المضغفة ، وتبدأ قشرة المخ الدماغية فى الظهور لأول مرة ، وهى الجزء من المخ الذى يحكم النشاط الحركى والدهنى العقلى ، ويؤثر فى أسلوب الفرد الانفعالى بعد الولادة (٣) .

28(2)

بجميع المراحل لدرجة وتوترات انما هو الحاسمة في نمو الجنين في مرحلة ما قبل الولادة - "الانما لها السواء منذ غلى أكثر الفترات، هامة -
للمويزاوت الطبيعية خارج الرحم خلاصة الغذاء - والبعضا، تفنونة كبريطا الكوكبية أقل هامة -"

— وفي الاسبوع الخامس يتم تكوين التجويف الصدرى والبطن . ولذلك هنا تصبح العيون واضحة من خلال الجفون المغلقة ، ثم تظهر براعم الرئتين وصفائح اليد والقدمين غير متميزة بأى أصابع » .

— وفي الاسبوع الخامس يبدأ تكوين النصر الشمى من المخ .

— وفي الاسبوع الخامس والسادس يتعرض القلب لتغيرات جذرية فى التكوين والوظيفة ، اذ تتحول صورته الانبويية الى القلب الرباعى التقسيم .

— ولا يزال التكوين خفيف الوزن صغير الحجم حتى اليوم ٣٦ حين تظهر جميع الكتل العضلية وتتكون براعم الاذرع والساقين .

— فى اليوم ٤٧ يبدأ تشكيل الاجهزة الجنسية وفتحة الشرج ولو انه يكون من الصعب تحديد جنس التكوين — ذكرا كان ام انثى .

— وفى نهاية المرحلة اى فى اليوم ٤٩ تكون جميع اعضاء التكوين قد ظهرت ، ويسمى الكائن النامى هنا بالجنين .

ليس فى ذلك ابراز لمظمة الخالق الذى حدد كل هذه المعالم المتغيرة فى الجنين فى الكتاب الكريم فى آيات بينات « هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم » . آية ٦ سورة آل عمران . وقوله تعالى « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون » آية ٧٨ سورة النحل .

مرحلة الجنين : Fetus

ان التغيرات النمائية التى تتم فى هذه المرحلة تكون اقل غرابة من تلك التى تمت فى المرحلة السابقة ، ولو ان التغير يظل مستمرا .

— ففى خلال الشهر الثالث تنضج الاجهزة التناسلية ويتميز الجنسان .

— ثم هنا تبدأ التكوينات العظمية تحل محل الانسجة الغضروفية الطرية فى الهيكل العظمى ، اى تتكلس الغضاريف نوما ما .

— ونظرا لاتصال العضلات بالجهاز العصبى المركزى تبدأ حركة الساقين والذراعين ، وهو امر يحتمل حدوثه دون ان تشعر الحامل بحركة الجنين .

— ان الاستجابات الانكاسية الاولى للجنين تكون بصورة كلية يقوم بها بكل جسمه قبل بدء تخصصه العضوى ، لكل مثير . ثم تبدأ مناطق معينة من الجسم فى التخصص . وبنهاية الشهر الثالث تنضج للجنين : —

* جفون العين

* اظافر الاصابع

* ثم براعم أسنان الطفل .

وخلال الشهر الرابع : -

* يظهر الشعر على الرأس

* ويبدأ ظهور الرموش والحاجب

وفي الشهر الخامس : -

* يزيد شعر الرأس

* يأخذ الجلد شكلا واضحا في المثاني .

* وخلال الشهر الخامس يسمع نبض القلب بالسماعة المعروفة ، وهذا دليل هام على أن الجنين يتمتع بالحياة .

اما الفصل الثالث والآخر فهو الشهور الثلاثة الأخيرة ، السابع والثامن والتاسع وهي شهور يكون فيها الجنين قد نضج بدرجة تكفيه للحياة خارج الرحم في حالات الولادة المبكرة "Premature birth"

ففي الشهر السادس يكون الجنين قد تعلم التنفس بنفسه عن طريق رئتيه ، ويمكنه ان يعيش لو ولد ، ولو أن الأفضل ان يتم الشهر السابع لكي يتم له في هذه الفترة الكمية اللازمة لاكتمال حجم المخ والجهاز العصبي المركزي .

هذا وتحدث هنا أيضا تغيرات ذات مغزى، فقد يطول شعر الرأس الى بوصة ، وتمتد الاظافر الى أبعد من أصابعه في اليدين والقدمين . ولعل من أهم ما يحدث في الشهر التاسع هو وصول الاجسام المضادة « Anti bodies » والتي تقاوم الامراض العديدة تنساب مع دم الام الى الاوعية الدموية للجنين ، وبذلك تعطيه المناعة الضرورية ضد الكثير من الامراض ، الامر الذي لا يتحقق له بدون ذلك لمدة شهرين او ثلاثة بعد الولادة (٤) .

وخلال هذه المرحلة يزيد حجم الجنين باستمرار وصول امدادات من عناصر الغذاء الضرورية لعملية التسمين في هذه الفترة ، ولوانه على العموم يأخذ معدل النماء في الانخفاض تدريجيا في الشهر التاسع . وينمى الجنين كذلك طبقة اضافية من الجلد السميك المتدهن الناعم الاملس تخلص غالبا من الشعر الذي يكسو أغلب الجسم .

وبعد الولادة يفقد المواليد بعض الوزن بسبب عملية التأقلم للبيئة خارج الرحمية ، والمعروف ان فرص الحياة تكون أفضل بعد الولادة كلما قضى الجنين فترة أطول في المرحلة الأخيرة تصل الى ٤٠ أسبوعا من آخر دورة شهرية .

(٤) يراجع في موضوع التغيرات النمائية في مرحلة ما قبل الميلاد . انظر المراجع المدونة بأخر البحث وخاصة

Fein, G. Greta, 1978, (5)

النماء والغذاء من البيئة الخارجية :

لقد أردنا بعرض هذه الصورة أن نبرز المراحل الهامة والحيوية من حياة الحمل والتي قد تتأثر بنقص الغذاء أو نقص العناصر الغذائية ، وذلك لتكون الأم الحامل على وعي بالعناصر الضرورية لكل مرحلة نمائية من مراحل عمر حملها ، وما يحتاجه لكل منها من عناصر غذائية ، فمثلا في فترة تكون الجهاز العصبي المركزي تكون حاجة الجنين ماسة للبروتين والفسفور والبوليتاسيوم ، وفي حالة تكون أو نمو الهيكل العظمي تكون الحاجة ماسة للكالسيوم وغيره من العناصر مثل فيتامين (د) مثلا .

هذا ونحن هنا - وبصدد دراسة أثر نقص الغذاء على تطور الجنين - نحب أن نشير الى ان علوم الاجنة وعلم نفس الطفل قد تلمسا هذه النتائج من تتبع تطور الاجنة في بطون امهاتها وكذلك لما قد يبدو على المواليد من نواحي النقص النمائي نتيجة ذلك .

كذلك نحب ان نوضح هنا أن هذه الدراسة ، وهي تبرز الجوانب السلبية للامدادات الغذائية من الام ، انما نفترض ان هذا يوضح ضرورة الاهتمام بعكس هذه المظاهر ، اي توفير ايجابيات غذائية الحمل في كل مرحلة من مراحل التطور .

كذلك نحب ان نشير هنا الى اثر البيئة الخارجية على نمو الجهاز العصبي المركزي وتطوره في عجلة نبدأ بها جذب انتباه كل مهتم بالطفولة بأثر ذلك على هذا الجزء الحيوي ، والحيوي جدا من التكوين .

فالمعروف ان مراحل نضوج المخ الاساسية ثلاث ، ولو تعرض نماء المخ لاي تأثير من البيئة الخارجية وخاصة نقص الغذاء فان لذلك آثارا سيئة جدا كما يتبين من الجدول التالي :

جدول رقم ١

يبين الالوجه الثلاثة لنماء المخ وتأثير سوء التغذية فيها (٥) .

الوجه أو المرحلة النمائية	المظهر النمائي	اثر سوء التغذية
(١) من التلقيح الى الولادة وتسمى Hyperplasia	استمرار زيادة عدد الخلايا العصبية	يؤثر في انقسام الخلايا ويسبب عطبا دائما .
(٢) من الولادة حتى آخر السنة الاولى خليط من Hyperplasia و hypertrophy	زيادة في عدد الخلايا وفي حجمها ووزنها .	يسبب عطبا واصابة دائمة قد يكون من الممكن اصلاحه جزئيا ولكن هذا امر غير مؤكد .
(٣) ما بعد السنة الاولى Hypertrophy	استمرار زيادة وزن الخلايا العصبية	يكون حجم الخلايا اقل من العادي ويمكن اصلاح النقص بالاهتمام بزيادة الغذاء اللازم .

الحمل والغذاء وحجم المشكلة :

يتبين لنا من العرض السابق لمراحل تطور الحمل ان تأثير الظروف البيئية الخارجية يختلف باختلاف المرحلة التي يحدث فيها : فمثلا ان بعض الظروف البيئية قد تسبب هلاك التكوين في ٣٠٪ من الحالات اذا حدثت في مرحلة المضغة لشدة ضعفها ، وافتقارها لعناصر المقاومة ، وفي هذه المرحلة كذلك تكون مظاهر النقص الخلقي والتشوه الاستعدادي او الولادي اكثر احتمالا « Congenital » . هذا ونحسب ان نشير هنا الى ان المؤثرات البيئية الخارجية لا تؤثر في الكرموزومات ولذلك فانها قد لا تنتقل الى الاجيال التالية ، ما لم تتعرض لمثل هذه الظروف .

ولعل من فضل الله على البشر ، ان المؤثرات البيئية الخارج رحمية قد لا يظهر لها اي اثر اذا حدثت بعد الاسبوع العاشر من الاخصاب ، فلا تسبب هنا اي تشويه للجنين او نقص خلقي ، الا ما قد يحدث للمخ والجهاز العصبي المركزي او العيون والاجهزة التناسلية ، كما يحدث في حالات الولادة من امهات أصبن بالامراض السرية التناسلية .

كذلك مما يجب ان نشير اليه ان النقص والشذوذ الخلقي بالولادة لا يصيب اكثر من ٢٥٪ من المواليد واغلبها يكون من انواع الخلل والنقص البسيط . ففي كل ٢٠٠ مولود يولدون اصحاء تماما يولد واحد فيه حلة او نقص ما ظهر عليه قبل الولادة ولم تدركه الام او المسئول عنها .

ان مرحلة المضغة تعتبر مرحلة حساسة تماما ، حيث ان الكثير من التكوينات والاجهزة الاساسية يبدأ تطورها ، بل يتم بعضها في هذه المرحلة ، وهي عملية تسير بسرعة مذهلة . والمعروف ان التطور السريع يجعل الكثير من الصفات او السمات الموروثة قد تنحرف عن جادة تطورها السوى . ولذلك فان الكائن في هذه المراحل الدقيقة يكون اكثر عرضة واستعدادا للتأثر بالمؤثرات خارج الرحمية من البيئة الخارجية ، التي قد لا يكون لها نفس التأثير في المراحل اللاحقة ، اى انه كما يرى Waddington « ان هذه المراحل مراحل المضغة هي مراحل الازمات التكوينية الخلقية » . اكثر المراحل حساسية للمؤثرات الخارجية Epigenetic crises .

ففي الايام التي يتطور فيها عضو بذاته ، كالقلب مثلا ، يكون لكل مؤثر من البيئة الخارجية يصل الى هذا العضو اثره الخطير في حسن تطوره وتشكله وتوصله الى الاداء الوظيفي الامثل (٦) .

كذلك نجد ان هناك اياما وفترات مبنية (شكل ٣) تبدأ فيها وبسرعة أعضاء مما في الظهور والتطور ، ويتوقف تأثير أى نقص او عجز او ضغوط بيئية على نوع العضو النامي في هذه الفترة .

فمثلا قد وجد ان تأثير عقار الثاليدوميد « Thalidomide » وهو واحد من العديد من العقاقير المهدئة التي شاع استعمالها في الستينات - تأثيره على الجنين كان واضحا تماما في اكثر

من حالة . وقد ظهر من دراسات عديدة على مواليد أمهات كن يتعاطين هذا العقار أيام الحمل ما يمكن أن يكون للبيئة الخارجية من تأثير على تطور الجنين . بل أن هذه الدراسات كانت أشبه بالدراسة العملية لآثر البيئة الخارجية على تطور الجنين . ذلك أنه ثبت أن تأثير هذا العقار على تطور التكوين أيام الحمل يتوقف على تاريخ تعاطيه . فمثلا أكدت البحوث أنه : -

- إذا تعاطته الحامل بين الأيام ٣٤ - ٣٨ من تاريخ الإخصاب فإن الوليد يولد بدون الأذن الخارجية .

- وإذا تعاطته الحامل بين اليوم ٣٨ - ٤٦ فإنه يسبب عدم ظهور الأذرع أو تشوه نموها . وقد يكون له تأثير كذلك على الساقين .

- وإذا كان تناول العقار بين اليوم ٤٦ - ٥٠ من تاريخ الإخصاب فإنه يسبب ظهور عظام زائدة في أصبع الإبهام .

وينطبق ما أمكن الكشف عنه من الدراسة التتبعية لآثار تناول هذا العقار على تأثير سوء التغذية على حياة الحمل . ذلك أن التغذية تؤثر من اتجاهين :

- الأول كمية الغذاء ودرجة كفايته للحامل وحملها معا .

- والثاني توفر كيفية وعناصر معينة ضرورية في الغذاء .

ومن هذين الاتجاهين يختلف التأثير باختلاف فترة تطور الجنين وطبيعة التغيرات النمائية التي تحدث له . فكل فترة تحتاج لعناصر غذائية تختلف عن الفترة الأخرى ، سواء في كمية الغذاء أو كافيته وتوفر عناصر معينة فيه .

تحديد أثر سوء تغذية الحامل على تطور الجنين :

ثبت من دراسات عديدة أن ٦٦٪ إلى ٧٥٪ من المواليد في الدول النامية يولدون من أمهات يعوزهن الكفاية الغذائية قبل وأثناء وبعد الحمل . وليست حالة سوء التغذية قبل وبعد الولادة ظاهرة تضر بالكائن الجديد أثناء الحمل وبعد الولادة في الدول النامية وحدها ، بل أن هناك نفس هذه الظاهرة في أمريكا نفسها .

فقد أثبتت الدراسات الإحصائية أن الكثيرات من الأمهات الحوامل القادرات لا يختلفن كثيرا عن صاحبات الدخل المنخفض في هذا الأمر من حيث أنهن يعانين نقصا وحرمانا كبيرا من البروتين الكافي ، وذلك لأن هؤلاء يكتفين فقط بالتهام أكالات خفيفة أثناء العمل ، وهى وجبات يعوزها السرعات الحرارية الضرورية اللازم توفرها للأم الحامل ، أو لأنهن يعتمدن كثيرا على المشروبات الخفيفة أو أنواع « البسكويت » المالح أو يحصلن على حاجتهن من السرعات الحرارية من تناول الكحول أو بعض الدهون أو الكربوهيدرات ، دون الاهتمام بالأغذية التي توفر لهن البروتين اللازم من اللحوم والبيض وغيرها ، كالإسماك مثلا ، كذلك دون رعاية لأهمية الخضار والفواكه في تزويد أجسامهن ، وبالتالي أحمالهن من الأجنة بال حاجة الضرورية من الفيتامينات المختلفة .

كذلك لوحظ بين أبناء الطبقات الغنية في أغلب بلاد العالم تمسكهن « بالحصنة » أيام الحمل « الرجيم » حفاظا على القوام المشقوق ، وقد تصل (٧) بهن هذه النزعة الى درجة من فقدان الشهية الهستيرى *Anarexia nervosa* . وهذه كلها أمور تحرم الحمل المتعطش للغذاء كل الغذاء ، النهم المحتاج لتنوع العناصر الغذائية ، تحرمه من توفر البيئة الغذائية وهو حبيس الظلمات الثلاث ، داخل التجويف الرحمى لاحوله ولا قوة الا من أمه .

ولقد ركزت البحوث الاخيرة على تأثير سوء التغذية بين الحوامل في مرحلة ما قبل الولادة والشهور الست الأولى بعد الولادة ، على اعتباراتها امتداد لمرحلة الرحم ، على آثار هذه الحالة على جوانب نمو هامة أهمها : -

١ - سوء تغذية الحامل واثره على النمو العقلى للجنين :

ان الاطفال الذين يولدون بعد جو من سوء التغذية في المرحلة الرحمية قد لا يحققون أقصى درجات النماء الجسمى ، وقد لا يتوفر لديهم التكوين اللازم لتحقيق أقصى درجات النمو العقلى . فقد أثبتت دراسات أجراها دايتن Daytin في عام ١٩٦٩ أن سوء التغذية يؤثر تأثيرا مباشرا على نضوج المخ ونمائه عند الجنين ، ما دام يعتمد في غذائه على الام الحامل ، وهى لا تمدّه بالعناصر أو الكميات الضرورية الغذائية اللازمة لنماء هذا العضو الهام في التكوين . (جدول رقم ١)

ان دراسات ذلك العالم وغيره من العلماء أثبتت أن الجنين اذا لم يحصل على القدر الكافى من الغذاء أيام الحمل فان معدل انقسام خلايا المخ وتكاثرها الانقسامى يقل بنسبة ٢٠٪ عن المعتاد . وانه اذا كان يعاني من سوء التغذية في الشهور الست الأولى بعد الولادة فان الانقسام الخلوى في المخ يقل مرة ثانية بمعدل ٢٠٪ اخرى عن المعتاد . وهكذا يمكننا ان نتصور كيف يمكن ان تكون صورة الكارثة اذا اجتمع للجنين سوء التغذية قبل الميلاد وبعد الولادة ، ولو علمنا أنه في هذه الحالة الاخيرة يقل حجم المخ بمعدل ٦٠٪ عن الحجم الطبيعى (١) (٨) .

ولعل مما يريد هذه الكارثة فظاعة مانعلمه من أن هذا الجهاز هو من أول الاجهزة التى تتكون في تطور الحمل كما بينا ، (شكل ٣) ، وذلك لأن الحاجة اليه ملحة في تشغيل وتنظيم عمل وتناسق وظائف ما يأتى أو يتطور بعد ذلك من الاجهزة .

ولو علمنا ان في وسط هذا الجزء من الجسم تتكون أهم الغدد الصماء ، التى تلعب دورا قياديا بين الغدد ، ونعنى بها الغدة النخامية *Pituitary* « وهى الغدة التى تنظم عمل جميع الغدد ، كما أنها هى نفسها تفرز ، وفي وقت مبكر من الحياة ، هرمون النمو أو المنشط للنمو الجسمى *Somatotropic hormone* . وأنها تتأثر بلا شك بأى إصابة أو نقص أو انخفاض في جسم المخ ، لو تصورنا ذلك كله لا يمكن ان ندرك أى جناية تجنيها الحامل على

وليدها اذا حرمته وهو في احشائها من حاجته الضرورية للغذاء ؟ ! ! الغذاء المكتمل كما المتكامل
كيف ؟ !

ان العمليات العقلية المختلفة العليا ، والوظائف الدهنية تتأثر الى حد كبير بحجم المخ ،
ولعلنا جميعا نعرف الارتباط الكبير بين حجم المخ وظاهرة النقص العقلي عند من يسمون
اصحاب الرؤوس الصغيرة « Microcephals » .

ولقد اجريت دراسات عديدة اجراها العلماء من امثال وايدن « Wyden » ودرايتون
« Dryton » على اطفال من مواليد شيلى وجواتيمالا وجنوب افريقيا تبين منها ان الاطفال الذين
عانوا من سوء تغذية الام ايام حملهم ، او سوء تغذيتهم في الشهور الست الاولى لا يمكنهم ان
يعوضوا آثار ذلك من نقص الكفاية الدهنية ، ولا يمكنهم ان يلاحقوا اندادهم من العاديين في الاداء
الذهنى ، حتى ولو امكن امدادهم بالتعويض الغذائى فيما بعد (٩) .

ولقد تأكدت هذه الكشف بنتائج دراسات جديدة على الاطفال الامريكيين من الذين كانت
امهاتهم تعاني نقصا واضحا في كمية البروتين في الغذاء في النصف الثانى من فترة الحمل ، وهى
الفترة التي تزداد فيها حاجة الجنين الى البروتين للتسمين ، وتأكيد وظائف الاعضاء المختلفة ،
وتقوية الخلايا العصبية ، خاص في الجهاز المركزى .

ولقد قورنت حالة المواليد من هؤلاء الأمهات بمواليد أمهات أخريات كن ايام الحمل يحظين
بقدر كاف ووافر من البروتين اثناء فترة الحمل الاخيرة خاصة ، ووجد ان اطفال المجموعة الثانية
كانوا يولدون ووزنهم اكبر كثيرا من اطفال المجموعة الاولى .

وعند اجراء اختبارات عقلية ، ومقاييس النمو الحركى ، ويقاس نسبة الذكاء على هؤلاء
في دراسات تتبعية استمرت حتى الرابعة من العمر ، وجد ان الاطفال الذين حرمت من
البروتين ايام الحمل كانت حالتهم العامة اسوأ بكثير من حالة المجموعة الاخرى . فقد كانت
نسبة ذكاء المجموعة التي حظيت امهاتها باللازم من البروتين تزيد عن ١٠٠ في المتوسط ، بينما
كان متوسط ذكاء مواليد الامهات المحرومات ٨٤ .

وفى هذا المقام يكتب Mussen وKonges وKagan (١٠) الكثير عن أهمية التغذية للام الحامل ،
فيرى هؤلاء جميعا ان الام التي تتوقع مولودا يجب ان تحتفظ لنفسها بنسبة معقولة من
التغذية الجيدة اذا كانت حريصة على ولادة طفل يتمتع بدرجة معقولة من الصحة . وهذا يبدو
أمرا معقولا اذا علمنا ان امداد الجنين النامى من الغذاء يأتى كلية من مجارى الدم للام (شكل ١)
عبر غشاء شبه كامل يقع في منطقة التبادل الدموي البشيمة Placenta والحبل السري .
ولقد قدم لنا هؤلاء العلماء تجربة اجريت لدراسة وببحث تأثير الغذاء على الجنين ، غذاء الام ايام

(٩) Wyden 1971 (19) Dayton 1969 (3)

(١٠) Mussen et al 1963 p 81 (15)

الحمل . ولقد تحدد المتغير المراد دراسته بسوء تغذية الام اثناء الحمل ، وأجريت التجربة على ٢١٠ من الحوامل اللاتي كن يحضرن عيادة رعاية الحوامل في جامعة تورنتو . كن جميعا يتناولن غذاء غير ملائم من الناحية الصحية ومن ناحية احتوائه على عناصر الغذاء الضرورية ، وكان ذلك في الاربع والخمس شهور الاولى من الحمل . وفي المراحل التالية اختيرت منهن تسعون امرأة من الحوامل أعطي لهن غذاء اضافي ، وكانت تغذيتهم اكثر ملائمة لوضعن ، اما المجموعة الباقية وعددها مائة وعشرون من الحوامل فقد استمرت حالة التغذية لديهن طوال الحمل . ولقد استطاع الباحث في هذه الدراسة مقارنة المجموعتين لدراسة تأثير الغذاء الجيد والسيء للام الحامل على مجريات عملية الحمل وعلى حالة الوليد في الشهور القليلة الاولى بعد الميلاد.

اما عن النساء اللاتي احسنت تغذيتهم فكن ينعمن بصحة جيدة طوال فترة الحمل ، ولم يتعرضن لما تعرضت له مجموعة الحوامل اللاتي لم يحظين بتغذية جيدة ، وهن اللاتي كن اكثر عرضة لعلل فقر الدم ، والتسمم الجنيني ، وكن يتهددن الاجهاض او الحمل الخاطئ (خارج الرحم) . والولادة المتيسرة ، او ولادة الاجنة الميتة ، وحتى التي شاعت في حالات السيدات من المجموعة الثانية بفروق ذات دلالة واضحة عن مجموعة الحوامل جيّدات التغذية . وقد استطاعت السيدات اللاتي تمتعن بالغذاء الجيد ان ينتهين من الوضع في وقت اقل . من المجموعة الاخرى بمتوسط خمس ساعات . ناهيك عن تكرار تعرض الامهات سيئات التغذية للام الشديدة في الظهر والبطن أيام الحمل .

اما عن المواليد فقد تبين من الدراسة والمتابعة وجود فروق هامة فقد كان مواليد الامهات اللاتي تمتعن بالغذاء الجيد ينعمن بصحة افضل خلال الاسبوعين الاولين بعد الولادة . كذلك كانت معدلات الاصابة بالامراض الخطيرة بينهن اقل ومنها ، (الالتهاب الرئوي ، والتيتانوس ، وفقر الدم ولين العظام) ، كذلك كانوا اقل عرضة لالامراض الخفيفة خلال الاشهر الستة الاولى من الميلاد (ومنها نزلات البرد والالتهابات الشعبية) .

وفي دراسة اخرى على الف جانح من امهات لم ينعمن بالغذاء الملائم (١١) وجد في نسبة كبيرة منهن حالات الولادة الميتة ، والمتيسرة ووفيات الاطفال بين هؤلاء المواليد الذين كانت امهاتهم لا تنعم بالغذاء الملائم . كذلك وجد ان حسن تغذية الام التي ترضع ابنها في الشهور الاولى كان يساعد تماما على تقص حالات وفيات الاطفال في الاسبوعين الاولين . كما ان الدراسة بينت ان نقص البروتين في غذاء الام كان يرتبط كثيرا بحالات الولادة المتيسرة ، ويسبب ايضا اشكالا من النقص العصبي للمواليد .

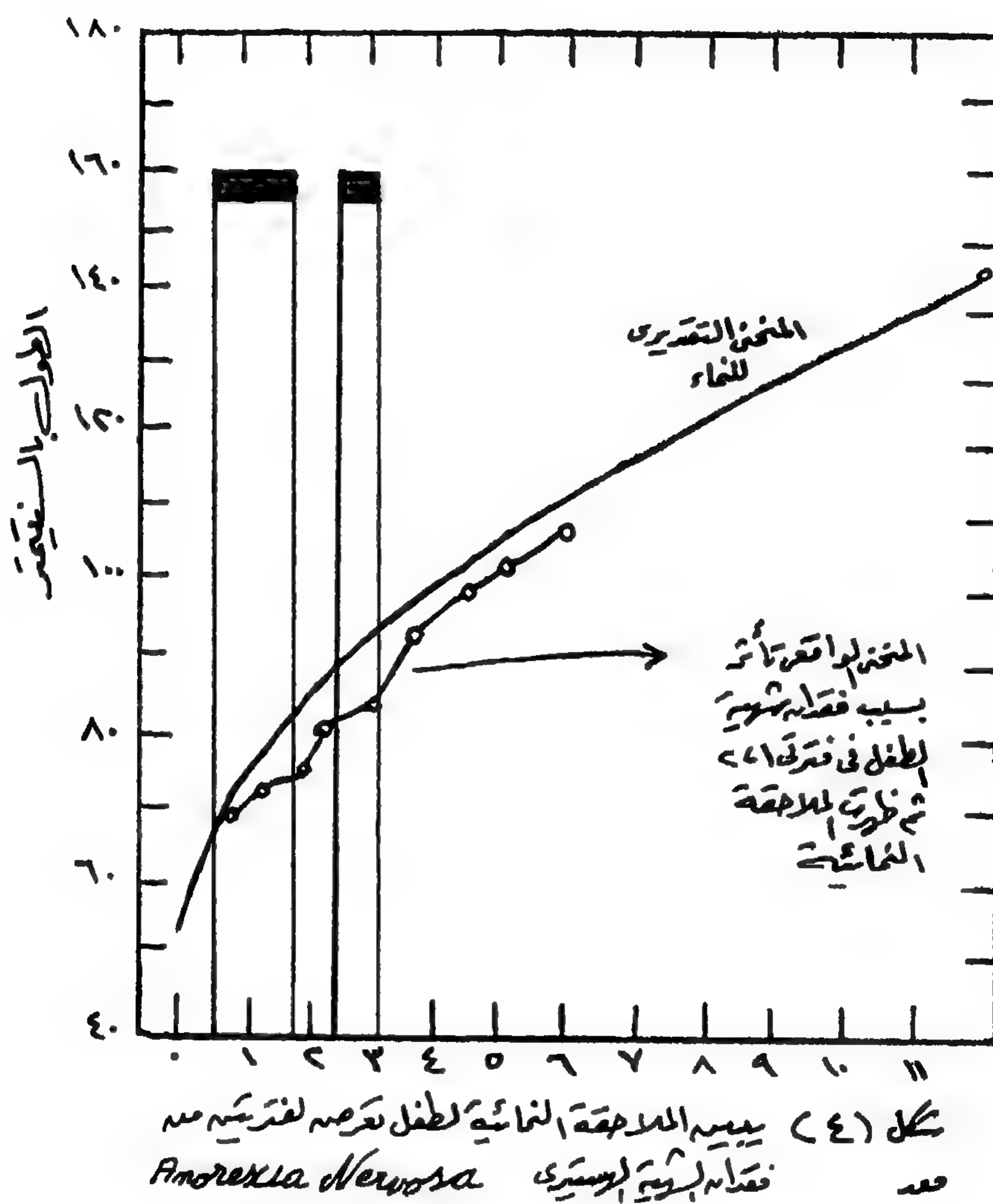
ان نتائج الدراسات جميعا تؤكد ان الجنين يستمد حاجاته الغذائية من الام قبل ان تحصل هي على حاجتها من هذه العناصر الغذائية ، ولذلك فهو يستهلك قدرا كبيرا من مخزون الغذاء لدى الام . فاذا كان هذا المخزون يتناقص الى درجة القصور الكبير لدى الام الحامل ، فان الجنين لن يتحقق له الحصول على العناصر الغذائية الضرورية .

ويؤكد Mussen (١٢) ان الادلة عديدة على صحة الفرض القائل بأن النقص الحاد في غذاء الام الحامل قد يسبب التأخر العقلي للطفل ذلك انه في جميع الكائنات الحيوانية يوجد غطاء من الدهن يكسو الالياف العصبية Myelin وهذا الغشاء لا يتكون ، بل انه يتهتك اذا تعرض الجنين لسوء التغذية في فترة تكون هذا الغشاء الدهني . والجنين البشري يبدأ تكوين هذا الغشاء في الشهر السابع من الحمل ، ولهذا فانه من الممكن في مرحلة الجنين ، اذا لم يتوفر له الغذاء الكافي بسبب سوء تغذية الام ، ان يتعطل لديه تكوين هذا الغشاء . هذا النقص قد يؤدي الى تعطل تطور وظيفة المخ وبالتالي قد يؤدي الى تأخر النمو العقلي ، ناهيك عن تعريض كثير من الالياف العصبية للالتهابات .

واذا كنا نشهد ظاهرات نقص التغذية بين الامهات الحوامل في كل دول آسيا تقريبا ، وافريقيا وامريكا اللاتينية ، فان ذلك قد يهدد هذه المجتمعات بزيادة المواليد الذين يتعرضون لتلف المخ في فترة الحمل وهم أجنة في بطون امهاتهم ، ولذلك فعلى المؤسسات الصحية المحلية بل والعالمية استدراك هذا النقص ورعاية غذاء الامهات حتى لا تصاب البشرية جميعا ، بزيادة نسبة من يعانون من التأخر العقلي ، خاصة وان هذا العامل يمكن التحكم فيه ، وهذا يكلف الدول والمجتمعات اقل كثيرا مما تتكلفه هذه المؤسسات لعلاج وتحمل مسئوليات هذه الولادات المشوهة عقليا .

كيف يؤثر سوء التغذية على المخ ؟ :

هذا سؤال يتبادر الى ذهن كل باحث ، بل لقد اثار هذا السؤال بحوثا عديدة في تطور نمو المخ عند الكائنات وخاصة الانسان . ولقد أصبح من الممكن الان - وبعد تطور علوم النيورولوجيا في دراسة الخلايا العصبية - الاجابة على هذا السؤال بشكل افضل . لقد انكر العلماء قديما اثر الغذاء على مخ الانسان واكتفى الفكر النفسي وعلوم الاحياء بالاهتمام بتأثير الغذاء على طول القامة ووزن الجسم ، وربما محيط الجمجمة . ولقد كانت هذه وحدها المقاييس التي اهتم بها العلماء كادلة على سوء التغذية ، وكانت مع ذلك مقاييس تقريبية عرضة لكثير من الخطأ الى حد ما ، بل احيانا لم تكن لها دلالة كبيرة نظرا لتعدد العوامل التي قد تؤثر فيها ، ومنها الوراثة والامراض وغيرها . فهناك بعض المواليد يكونون على العموم صفار الحجم بالوراثة ، او بسبب الاصابة بمرض معين ، او بسبب الاضطراب في الكروموزومات ، او اضطراب افراز الغدة الدرقية مثلا ، دون ان يكون للتغذية دور يذكر في حجم الجسم .



أما اليوم فإن التقنية الحديثة قد مكنت العلماء من دراسة وقياس معدلات النمو لا عن طريق مجرد حجم الجسم ولكن بتحديد عدد وحجم الخلايا العصبية المختلفة ، أو الخلايا الأخرى المكونة للعضو موضوع القياس والدراسة. ولقد ساعد هذا الانجاز العلمي الكبير على دراسة وفحص وقياس حجم خلايا المخ عند الإنسان .

ولكي نجيب على سؤالنا هذا ، السابق التقديم به لهذا الجزء الخاص بآثار سوء التغذية على نمو المخ ، لا بد من أن نتتبع الصور المختلفة التي تأخذها عملية النمو لهذه الخلايا . أن الخلايا في المخ تزداد عدداً عن طريق الانقسام الخلوي ، أي أن الخلية تتكاثر وذلك بانقسامها المستمر إلى خلايا عصبية تتضاعف يوماً بعد يوم أيام نمو الجهاز العصبي المركزي في الحمل ابتداءً من الأسبوع الثالث تقريباً . كذلك يزيد حجم الخلية المخية يوماً بعد يوم . إذا هناك نماء عددي ونماء حجمي أو كمي معين . ولقد استطاع العلماء أن يميزوا ثلاث مراحل أو أوجه لتطور المخ ونمائه : (راجع جدول رقم ١) .

١ - ففي المرحلة الأولى ، قبل الولادة تزيد خلايا المخ في عددها عن طريق الانقسام الخلوي .

٢ - وفي المرحلة الثانية بعد الولادة مباشرة وخلال السنة الأولى من عمر الوليد تستمر عملية الزيادة بالانقسام الخلوي ، كما تبدأ الزيادة عن طريق كبر حجم الخلية الواحدة وتسمى هذه العملية Hyertrephy hyperplasia

٣ - وتبدأ المرحلة الثالثة بعد السنة الأولى حيث يزداد حجم المخ عن طريق استمرار زيادة حجم ووزن الخلايا العصبية فقط ، وتستمر هذه العملية إلى أن يصل حجم المخ إلى ما يقرب من حجمه عند الراشدين بنهاية السنة الثانية من عمر الوليد تقريباً Hypertrophy

ويضيف بعض العلماء في هذا المقام مرحلة رابعة وهي مرحلة تكون ارتباطات عصبية بين الخلايا المختلفة في المخ ، وهي العملية أو المرحلة الهامة والضرورية لحدوث عملية التعلم والارتباط الشرطي ، وهي مرحلة قد تستمر إلى نهاية مرحلة النمو العضوي أو إلى أقصى درجاته . (١٣)

هنا نعود مرة ثانية للإجابة عن سؤالنا الذي يفرض نفسه دائماً وهو ما تأثير سوء التغذية على نمو المخ ؟

إن الإجابة على هذا السؤال لا بد أن تأخذ في الاعتبار الزمن أو الوقت الذي تحدث فيه حالة سوء التغذية . ففي المرحلتين الأولى - قبل الميلاد والسنة الأولى من عمر الوليد - تؤثر حالة سوء التغذية ونقص العناصر الضرورية لنمو الجهاز العصبي المركزي في سرعة انقسام الخلايا ، بحيث يولد الطفل الجنين وفي مجموعته عدد أقل من المعتاد من الخلايا العصبية التي تكون المخ لدى من تحظى أمهاتهم أيام الحمل بالغذاء الأنسب .

هنا يقول العالمان الشهيران مايرون Myron..... ووتش "Witch" وهما من الرواد الأوائل في دراسة نماء المخ وتطوره « أن المخ لا يمكن أن تتوفر له فرصة أخرى إذا فاتته فرصة التكاثر عن طريق الانقسام الخلوي في مرحلة الجنين ، ذلك أن عملية التكاثر في الخلايا تتوقف في وقت واحد عند كل من الفئتين من الاجنة ، فئة من يحظون بنعمة الغذاء الجيد للام الحامل وفئة من يقاسون نقص التغذية لدى الامهات الحوامل . (١٤)

وكذلك يلاحظ ان السنة الاولى من حياة الوليد ، وهي تكاد تعتبر امتدادا للمرحلة الرحمية ، تتأثر بالغذاء ، لان نقص الغذاء يعطل عملية النماء في صورة زيادة حجم الخلايا العصبية ، وهو امر يصعب تداركه كذلك .

الا انه بعد السنة الاولى من الميلاد ، اي من عمر الوليد فان سوء التغذية قد يؤدي الى نقص حجم ووزن الخلايا بالمخ ، وهذا نقص يمكن تصحيحه بالتغذية الملائمة بعد ذلك . ذلك ان الدراسات المتعددة في موضوع النمو النفسي قد اثبتت ان الاطفال يمكنهم ان يلاحقوا في نمائهم وبسرعة مذهلة بعد فترة من سوء التغذية ، ذلك ان النماء ، بعد ان يحظى الطفل بظروف تغذية افضل يزيد معدله بصورة ظاهرة وبسرعة يجعلهم يصلون الى المستوى المعياري للطول والوزن في حدود العوامل الوراثية لديهم ، وهذا ما يعرف بظاهرة الملاحقة النمائية ، كما سنشرح ذلك فيما بعد .

هذا امر يصدق بعد الميلاد ولكن ذلك يصعب تماما اذا حدثت نتائج سوء تغذية الام الحامل ايام الحمل فان الجنين يلاحق حتى لو تحسنت ظروف التغذية بعد الولادة ، وخاصة فيما يتعلق بالنماء الخلوي العصبي في خلايا المخ بالذات وهي التي لا تستطيع ان تحقق ظاهرة الملاحقة النمائية بعد الولادة .

الملاحقة النمائية : "Developmental catch up"

الملاحقة النمائية ظاهرة تعتبر من أهم وأوضح امثلة الاتجاه النمائي في الاجهزة المختلفة لدى الكائن البشري ، ويقصد بها انها عملية تنظيم ذاتي في سير الفقرات النمائية ، بمعنى ان الكائن البشري يستطيع بسرعة ان يعوض ما فاتته من نماء في حياته اذا تحسنت الظروف وزالت العوامل المعطلة للنمو ، والا تعرض لما يعرف بالهوة النمائية او التخلف النمائي او ما يعرف باسم Developmental Lag.....

وهنا يهمنا كيف يمكن ان تظهر هذه الظاهرة مع متغير نقص او سوء التغذية . فالاطفال الذين يعانون نقصا في الغذاء يتعثر نموهم بصورة عامة ، ولكنهم اذا استعادوا حاجاتهم المناسبة من الغذاء ، فان معدلات النمو تكون اسرع من متوسط معدلات نمو العاديين من اندادهم في السن ، وذلك يحدث للجهاز او الوظيفة او العملية الحيوية التي تأثرت بسوء

التغذية . هذا الاسراع الواضح في معدل النمو والتطور والنماء يستمر حتى يقترب الكائن من وضعه الطبيعي في المنحنى الاعتدالي للنمو عند الانداد من نفس السن ، وهو المنحنى الذي يتأثر وضع الفرد فيه بعوامل الوراثة وغيرها ، من يحدد ما نسميه مستوى اكتمال النضج وحدوده Maturity والذي يختلف من سن لآخر ، ويختلف كذلك بسبب عوامل ترجع لفروق فردية .

وللدلالة على ان ظاهرة الملاحقة النمائية تعتبر ظاهرة ذات فعالية كبرى في مواقف معينة نسوق هذا المثال : -

فقد تعرض طفل لمجاعة غذائية في فترتين بسبب اصابته بمرض عصابي هو فقدان الشهية الهستييري Anorexia nervosa وهو اضطراب يجعل الفرد يرفض الطعام كله أحيانا او اطعمة معينة أحيانا أخرى . ولقد تبين من دراسة حالة هذا الطفل « راجع شكل ١ » ان منحنى نمو هذا الطفل كان يلاحق في آخر كل مرحلة حتى يصل الى مستوى المنحنى العادي لامثاله ، بعد ان تزول حالة نقص السكر في الجسم .

ولقد لاحظ العلماء ان عملية النماء وما يظهر فيه من الملاحقة تشيع لدى الاطفال الذين يعانون اضطرابا في الهرمونات . وكذلك في الاطفال الذين يعانون من آثار سوء التغذية بعد الولادة ، وحتى في الاطفال الذين يولدون ولديهم حاملات الوراثة التي تؤهلهم لطول القامة ، مع أخرى تورثهم نزوعا لقصر القامة ، فهؤلاء يغالبون ما قد يرثونه من ميل لقصر القامة الموروث عن الام القصيرة عن طريق ظاهرة الملاحقة النمائية ، هؤلاء جميعا يكون نماؤهم ظاهرا واضحا ، ويسير بمعدل اكبر خاصة في السنة الاولى ، بل اكثر واكثر من المتوسطين في الشهور الستة الاولى بعد الولادة . (١٥)

هذا وعملية الملاحقة كظاهرة نمائية لا تكون كاملة تماما . فقد دلت التجارب على الفئران على انه اذا تعرضت للتجوع بعد الولادة اعطيت لها بعد ذلك حرية كاملة في تناول الغذاء او اعطيت كميات اكبر من الغذاء .

ان ظاهرة الملاحقة النمائية في موضوعنا هذا تثير الكثير من التساؤلات ولعل أهمها ؟

١ - لماذا تحدث هذه الظاهرة على العموم ؟

٢ - ما الذي يجعل النماء يبطئ عندما يصل الانسان الى مستوى المعدل العادي كما يظهر في منحنى النمو ؟

٣ - لماذا تكون عملية الملاحقة غير كاملة عندما تحدث آثار سوء التغذية في فترات حرجية من عمر الكائن البشري وأهمها مرحلة ما قبل الميلاد والشهور الستة الاولى من العمر بعد الولادة ؟

لا تبدو الاجابة على هذه التساؤلات واضحة تماما لدى كثيرين من العلماء . ثم انه يزيد المسألة تعقيدا ما يلاحظ من ان ظاهرة الملاحقة النمائية تؤثر في الجهاز او العضو الذي تخلف عن النماء كله ، بل ربما يمتد اثرها لغير الجهاز او الوظيفة او العضو الذي حدث فيه الخلل ، ثم أعقبه ظاهرة الملاحقة النمائية . هذا ولقد حاول بعض العلماء ان يجيبوا على هذه التساؤلات بما جاء في بعض دراساتهم مما يؤكدان للقدرة التعويضية لبعض الغدد الصماء دورها في إبراز هذه الظاهرة - ظاهرة الملاحقة النمائية - ذلك ان القصور او التعطل في بعض جوانب النمو قد يثير مزيدا من افراز غدة من الغدد الصم تساعد على اتمام الملاحقة النمائية ، حين تريد سرعة المعدلات النمائية . (١٦)

اختلاف التوافق الزمني واثـر ذلك على نمو المخ :

هناك نظرية جديدة توصل اليها العالم تانر Tanner (١٧) الذي استمر في دراساته للموضوع من عام ١٩٧٠ - ١٩٧٣ ، وهي نظرية تساعد على تفسير ظاهرة الملاحقة النمائية . فهو يرى انه ما أن يصل المخ والجهاز العصبي المركزي كله في نموه وتطوره الى نقطة معينة ، وربما بنهاية الشهر الثالث بعد الاخصاب حتى تتراكم مادة معينة ذات طبيعة دهنية على جدران خلايا هذا الجهاز التي تسير في نمائها بدرجة وحسب منحني معين ، وهذه المادة الفرضية تغطي الجهاز العصبي الوقت او التوقيت الانسب للنماء العصبي الكلي ، وهي تختلف في كميتها وتركيبها من فرد الى فرد . وهو يرى أن الحجم الحقيقي لجسم الكائن في مرحلة ما من مراحل نموه قد يدل عليه ويمثله مادة أخرى تنتجها خلايا هذا الجسم . وبمعنى آخر فانه كلما توفر للكائن من الغذاء ما يزيد وزن جسمه كلما توفر له قدرة أكبر على افراز هذه المادة الثانية في جسمه .

وبمعنى آخر فانه اذا تعرض الجنين او الطفل في مراحل معينة حرجة من نموه لأي نوع من انواع المجاعة نتيجة نقص التغذية او الجوع ، او غير ذلك من أشكال الحرمان البيئية ، فان حجم جسمه الواقعي يكون أقل كثيرا مما يجب أن يكون عليه حسب منحني النمو الطبيعي لامثاله . وبذلك يقل حجم المواد اللازمة للمساعدة على نموه والمحافظة على خلايا الجهاز العصبي المركزي .

ونظرا لانه حتى ولو زالت اسباب هذه الحالة من المجاعة ، فان النماء لايسير بنفس السرعة المطلوبة التي تصل بالكائن الى المستوى العادي للأطفال بعد نفس سنه ممن يعيشون في ظروف بيئية غذائية أفضل . فقد تبين انه اذا حدثت حالة مجاعة ما تأثيرا على الجنين في مرحلة النماء السريع للمخ والجهاز العصبي المركزي ، حين تكون هذه الاجهزة نفسها واقعة تحت تأثير مظهر نمائي سريع جدا عن طريق الانقسام الخلوي ، فان الملاحقة النمائية الزمنية التي يمكن أن تولدها طاقات المخ ليستعيد قوته تتأثر بشكل ظاهر ولا تكون لها فعالية كاملة تماما .

(١٦) راجع في غالي وآخرون الوظيفة التعويضية للغدد وخاصة الغدد الجنسية وبالاخص البينيين .

Tanner 1973 - Ibid (17)

(١٧)

أن فشل الملاحقة النمائية هنا تعنى أن هناك نقصا ما فى التقدم الطبيعى للطاقة النمائية الوراثية فى المخ . فإذا كان النقص فى الغذاء أو كانت حالة المجاعة غير حادة أو طويلة الأمد أو الأثر ، فإنه عندما يزول سببها ، فإن مخطط النمو يعود الى مجراه الطبيعى عن طريق آلية الملاحقة النمائية . أما إذا كان النقص حادا ، أو طويل المدى والأثر ، فإن هذا يؤدى الى تعطيل الملاحقة النمائية الزمنية ، ويأخذ النمو طريقا آخر ينجو به نحو النقص أو عدم الكمال غالبا . وهذه الحالة تشيع كثيرا فى فترات النماء الخلوى للمخ التى سبق أن أشرنا اليها .

نقص الوزن وأثره فى نمو الطفل :

بناء على هذا فإننا نجد من النتائج الشائعة بسوء تغذية الأم الحامل نقص وزن المولود عند الولادة . ولقد كان العلماء قديما - والى عهد قريب - يسمون بأن المواليد الذين يزنون أقل من ٥ رطل عند الولادة (٢ كيلو جراما) كانوا يعتبرون مواليد من ولادة مبكرة Premature birth أو أنهم ولدوا ناقصى اكتمال النضج أيام الحمل . أى بمعنى آخر أنهم ولدوا قبل مرور ٣٧ اسبوعا من الحمل . إلا أن أبحاثا كثيرة قام بها العلماء فى الستينات أثبتت أن الكثير من الاطفال الذين ولدوا فى تلك الايام ناقصى الوزن ، كان مالا يقل عن ثلث عددهم قد اكملوا أيام الحمل الى آخر اسبوع ، ولكنهم عانوا أثناء الحمل من آثار نقص تغذية الأم الحامل وتأثروا لذلك من سوء تغذيتهم داخل الرحم .

أن نقص الوزن الناجم عن سوء التغذية يختلف تماما عن نقص الوزن الناجم عن الولادة المبكرة ، أو قصر مدة الحمل ، فهما ظاهرتان متشابهتان فى مظهرهما مختلفتان فى أسبابهما . ولهذا يطلق على الاطفال الذين يولدون ناقصى الوزن مع اكتمال مدة الحمل Low birth weight infants . أما الذين يولدون قبل الاسبوع السابع والثلاثين من الحمل فإنهم يطلق عليهم اسم Short gestation period infants S.G.P.I. .

ولقد حدد العلماء الاوزان المعيارية لكل مولود فى أى لحظة يولد فيها بعد عملية الاخصاب . وهنا تتضارب الآراء بين آراء أطباء النساء والولادة وبين أطباء الاطفال عن الوزن الأمثل للجنين فى مراحل تطوره داخل الرحم ، ولكنهم على العموم يحددون سن الجنين ومن الحمل عند الولادة بعلامات عديدة منها لون الجلد وصبغته ، وشكل الأذن وتكوينها كذلك بعض الخطوط التى تظهر على كعب الوليد فى شكل تجاعيد ، وغير ذلك من المقاييس العصبية ومنها وضع الوليد عند الولادة وطريقته فى النوم وكذلك سرعة انثناء الرسغين والكعبين والعودة الى وضعهما . ولهذا فإن أى وليد يولد فى أى لحظة من أوقات الحمل يمكن تحديد مركزه بالنسبة لعمره الجنين ، وهل هو عادى الوزن أم أقل . أو أكثر من المعتاد .

لقد تأكد أن هناك أهمية عملية للتفرقة بين نقص الوزن لسبب الولادة المبكرة ونقص الوزن عند الميلاد لسبب سوء التغذية ، ذلك لأن لكل منها إجراءات معينة وطرق رعاية تبدأ بعد الولادة مباشرة لتحقيق الملاحقة النمائية .

فقد يحتاج المواليد نتيجة ولادة مبسرة الى التغذية بالحقن الوريدي ، والى المعينات الضرورية لضمان التنفس السليم ، اما اولئك الذين يولدون في حالة نقص الوزن بسبب سوء التغذية فانهم يعانون من نقص سكر الدم Hypoglycemia ، وهذه الظاهرة تؤثر كثيرا في الخلايا العصبية ، ذلك لان الخلية العصبية تعتمد في حياتها على القدر الكافي من البروتين وكذلك المواد السكرية والكربوايدراتية التي تمنع احتراق الخلية نفسها . لذلك فان هذه الحالة تجعل هؤلاء المواليد يتعرضون لتلف في خلايا المخ اذا لم يتم حقنهم فورا وبمجرد الولادة بكميات من الجلوكوز . لهذا يعتقد العلماء أن الاهتمام بمن يولدون ناقصي الوزن بسبب سوء التغذية ، ورعايتهم الغذائية بعد الولادة مباشرة ، قد يقلل وفيات مثل هؤلاء المواليد بنسبة ٥٠٪ وربما كان لهذا كله اثره الطيب في استبعاد حوادث تلف المخ وما يترتب عليه من نقص الكفاية او الكفاءة العقلية اذا تمت الملاحقة النمائية .

وعلى اية حال ، فانه بالرغم من كل ماتقدم من الرعاية التي يمكن ان تقدم للمواليد ناقصي الوزن بسبب سوء التغذية ، فان هؤلاء الاطفال يعانون كثيرا من الاضرار في نمو وتطور قواهم العقلية لدرجة قد تعرضهم للضعف العقلي . فقد دلت الابحاث على انه لا توجد علاقة تذكر بين الولادة المبسرة وبين النمو العقلي في أيام الطفل المقبلة ، الا أن الدراسات التي قام بها علماء من أمثال وليامز وديفنز (١٨) عام ١٩٧٤ على مواليد عام ١٩٦٠ قد أظهرت أن الاطفال الذين ولدوا في تلك السنة (١٩٦٠) وكان وزنهم عند الولادة أقل من المتوسط كان متوسط نسبة ذكائهم ٩٢ ، بينما كان متوسط نسبة ذكاء من ولدوا في نفس السنة وكان وزنهم عند الميلاد في حدود المتوسط ٩٩٫٢ . كما أنه كذلك أثبتت دراسات أخرى أن متوسط وزن المخ لدى الاطفال الذين يولدون قبل الموعد المنتظر العادي أو الذين يولدون ناقصي الوزن كان أقل من المعتاد بصورة ذات دلالة واضحة ، مما يدل على أن عملية النماء الضرورية بالمخ لم تحقق القدر الكافي من الانقسام الخلوي أو زيادة وزن المخ . (١٩)

دراسات احصائية لتدعيم الآراء النظرية في تأثير سوء التغذية : -

ان حجم مشكلة المواليد ناقصي الوزن تختلف من دولة الى دولة وذلك لاسباب ثقافية حضارية ترتبط الى حد كبير بالوضع الاقتصادي لهذه الثقافة وتؤثر بالتالي في حالة الأم الصحية ، كما تؤثر في مدى تحقيق أنسب الغذاء لها أيام الحمل . وفي دراسة عبر الثقافات ظهرت الحقائق التالية : -

- في الولايات المتحدة كانت نسبة المواليد ناقصي الوزن ٧٫٤٪ من المواليد الاحياء (وزن ٥ر٥ رطل ٢ كيلو) احصائية ١٩٧٥ .

- في المناطق الفقيرة من الهند وقرى جواتيمالا كانت النسبة ٤٠٪ أو أكثر من المواليد الأحياء .

وفي جميع بلاد العالم تتأثر نسبة المواليد ناقصي الوزن بعوامل اجتماعية اقتصادية « Socioeconomic »

- فمثلا في أمريكا نجد أن نسبة المواليد ناقصي الوزن بين غير البيض ١٣٪ من المواليد الأحياء .

وهؤلاء بالطبيعة يعيشون ضغوطا اقتصادية من نوع أو آخر .

- بينما نجد أن نسبة المواليد ناقصي الوزن بين البيض ٦٥٪ .

- وفي الشعوب والسكان الذين يعانون قسوة الفقر المدقع نجد أن المواليد ناقصي الوزن تزيد نسبتهم بين مواليد الأمهات القصيرات القامة .



- أن الوزن المنخفض عند الولادة يرتبط كثيرا بنسبة الوفيات بين الاجنة ، وحديثي الولادة ، ففي الشعوب التي يرتفع فيها نسبة أي من هذه الأنواع ، ترتفع النسب الأخرى .

أن زيادة وزن الجنين تعطيه فرصة أكبر للعيش والحياة ، سواء في لحظات الولادة أو بعد الولادة . والوزن الأمثل طبعاً هو ٨ أرطال (٣٦٣ كجم) .

فقد وجد أن نسبة الوفيات بين المواليد الناقصي الوزن (أقل من ٥ أرطال أو ٢٥ كيلو) هي ٨٥ في كل ألف من المواليد من هذه الفئة . وهذه النسبة تصبح ٢٠٧ إذا نقص وزن المولود عن ٢ كيلو ، وهذا ما أبرزته تقارير مكتب الإحصاء في أمريكا عام ١٩٧٥ . كذلك دلت الدراسات التي أجريت في بلاد غرب أوروبا على نسبة الوفيات قبل الولادة وبعد الولادة مباشرة على أنها كانت ترتبط إلى حد كبير بتوافر أعداد المواليد ناقصي الوزن . ولعل من الغريب أن أغلب الوفيات من هذا النوع كان يرجع إلى الضعف العصبي الشديد أو تلف المخ الشديد ، أو التهاب العصبي بسبب تأخر تطور الغشاء المبطن لحماية الألياف العصبية .

وفي السويد مثلاً ، وبلغاريا ، حيث وجد أن ٥٪ من المواليد كان وزنهم أقل من ٥ رطل عند الولادة كانت هناك حوالي ٢٠ حالة مولود ميت في كل ألف من المواليد الأحياء . وفي المجر حيث كانت نسبة المواليد ناقصي الوزن تصل إلى ١٠٪ كانت نسبة المواليد المتو ٣٥ في كل ألف من المواليد الأحياء .

وهذا ما أبرزته تقارير منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٢ .

- هكذا نجد أن وزن المولود أمر هام لعدة أسباب : —
- فبالإضافة الى أنه يرتبط بتحسين فرص البقاء ومقاومة العلل والادواء بعد الولادة .
- فانه كذلك يعتبر دليلا جيدا للتنبؤ بالنمو السليم عامة ، جسميا وذهنيا .
- وهو كذلك يرتبط بالكثير من ادلة النمو السليم كالطول ومحيط الجمجمة وحجم المخ ، والنمو العقلي والمعرفي بالتالي .
- وهو يعني فيما يعني ان الجنين قد تحققت له فرص تغذية أفضل أيام الحمل بما يرجح ان يكفل نماء الجهاز العصبي المركزي بصورة أفضل .

نقص الوزن عند الولادة واثره على النمو العقلي :

لقد دلت الدراسات التي أجريت في البلاد التي يعاني سكانها النقص الحاد في الغذاء على أن نقص وزن الوليد من الامهات اللاتي يعانين سوء التغذية — يعتبر من العوامل الهامة في تواتر ظاهرة التأخر العقلي .

ففي إحدى المدن المكسيكية دلت الابحاث على انه كلما صغر حجم الطفل بالنسبة لسنة كلما نقصت درجاته في اختبارات القدرة على التعلم واختبارات السلوك الاخرى .

وفي بحث أجرى في قرية مايان Mayan الهندية ، حيث وجد أن أغلب الاطفال في سن ما قبل المدرسة (قبل السادسة) يبدو عليهم التأخر الواضح في النماء الجسمي ، تأكدت هذه الحقيقة بصورة واضحة . فقد كان يطلب الى الاطفال تادية ثلاثة من الاختبارات لقياس قدرتهم على اكتساب المعرفة المتكاملة من حواس عديدة ، وفي هذه الاختبارات كان أداء الاطفال ذوي الاجسام الصغيرة الحجم أسوأ من غيرهم دائما وبصورة واضحة .

وهنا يجب أن نشير الى حقيقة هامة ، وهي ان نتائج مثل هذه الاختبارات كانت تعتبر صادقة فقط عندما كان صغر حجم الطفل يرجع الى سوء التغذية L. b. w. I

وفي مدينة جواتيمالا ، وبين اطفال الطبقة العليا والوسطى حيث صغر حجم الاطفال يرجع لاسباب وراثية أو بسبب جينات معينة من المورثات أكثر منه الى سوء التغذية ، وجد انه لا يوجد ارتباط يذكر بين صغر حجم الطفل وطول قامته من جهة ، وبين انخفاض مستوى قدراته العقلية أو نموه العقلي المضطرب .

ان النتائج التي تترتب على سوء تغذية الام الحامل اثناء الحمل تزداد عمقا : في اثرها في نمو الطفل العقلي بسبب الظروف البيئية التي قد تعمق هذا الاثر . ومنها ظروف حياة الطفل وتغذيته بعد الولادة مثلا .

كذلك نلاحظ أن الاوضاع الاجتماعية هي عوامل لا يمكن فصلها فصلا تاما عن العوامل البيولوجية في التأثير واحداث ما يعرف بتأخر النمو العقلي . ذلك ان الأسر التي يتوافر

فيها سوء تغذية الام والاطفال تميل لان تكون من تلك الاسر التي لا تحظى بالقدر الكافي من الرعاية الصحية أو النظافة ، وهي غالبا أسر كبيرة الحجم ، وغالبا ما يكون الآباء ممن يعوزهم القدر الكافي من العلم والثقافة . وبالرغم من أنه يصعب أن نميز أو نفرق بين أثر سوء التغذية وبين تأثير غير ذلك من العوامل أو من الظروف البيئية المختلفة المتعددة المتنوعة ، إلا أن هناك حقيقة تبرز واضحة في كل الدراسات : وهي أن النتائج السيئة المتعددة التي تترتب على سوء التغذية بأيام الحمل تزداد سوءا بسبب البيئة الفقيرة التي يعيشها الطفل فيما بعد ولادته . فالاطفال الذين يقاسون من العاملين معا - سوء تغذية الام أيام الحمل ، وسوء الظروف البيئية - إنما يتعرضون لخطر بتضاعف قدره وأثره باستمرار ، وهو خطر مرعب فاحش مدمر للقوى البشرية ، وذلك لأنهم لا تتوفر لهم غالبا عوامل تحقيق الملاحقة النمائية ، ولو أنها تكاد تكون فرصا غير مؤكدة .

هذا وبالنظر الى تعدد أسباب تأخر النمو عامة لدى الاطفال ، والنمو العقلي خاصة ، تعدد هذه العوامل وتداخلها وتراكبها ، فإننا ننصح بما يأتي كوسيلة لوقاية الاطفال من أسباب تأخر نموهم العقلي بصورة خاصة وهي : -

- تحسين الظروف المدرسية والصحية والغذائية والتعليمية خاصة في المراحل الاولى .
- نشر الثقافة الصحية والغذائية بين الآباء وخاصة الامهات الحوامل .
- توفير التموين الغذائي المناسب لكل من الام الحامل والمواليد في اول ايامهم .
- تحسين القيمة والنظام الغذائي للام الحامل في الاسرة والعمل وذلك للتقليل من حالات المواليد الموتى ونقص وزن المولود .
- توفير الظروف الصحية للأم الحامل في المنزل وخارجه .

هذا وفي هذا المجال ، مجال اثر تغذية الام الحامل لدينا دليل ملموس مما حدث في بريطانيا خلال الحرب العظمى الثانية عندما بدأ فيها نظام الحصص الغذائية بالبطاقة وهي « تجربة طبيعية ميدانية حية » توضح تماما تأثير الاهتمام بالتموين الغذائي الاضافي للحوامل . فقد جاء في التقرير الذي أصدره مجلس البحوث القومي البريطاني سنة ١٩٧٠ ص ١٢٢ - ١٢٤ ما يأتي : -

« في اطار نظام الحصص الغذائية أعطيت أيام الحروب اولوية خاصة للنساء الحوامل في الحصول على حاجتهن من الغذاء ، وخاصة من حيث مستوى الغذاء اللازم في كميته وجودته ، وخاصة أولئك اللائي كن من أسر ذات دخل مادي منخفض ، وكان هذا الامر موضع اهتمام المسؤولين بصفة خاصة تماما . لهذا كله انخفض معدل الوفيات بين الاطفال او المواليد الموتى الذي ظل ثابتا فترة طويلة على مستوى ٣٨ في كل ١٠٠٠ من المواليد الاحياء انخفض الى ٢٨ في كل ١٠٠٠ في الفترة التي كانت بريطانيا تعاني فيها من التدهور الشديد في كثير من نواحي الحياة المادية ، وهذا الانخفاض الذي بلغ ما يقرب من ٢٥٪ يعتبر تحسنا جيدا يدل على اثر الاهتمام بتغذية الام الحامل في تحسين مستوى المواليد صحيا » .

ولقد أكدت دراسات العالم شوفيه "Chavez" وآخرين ، وهى دراسات أجريت عام ١٩٧٤ على بعض مدن كولومبيا والمكسيك أن الامدادات الغذائية الاضافية للحوامل والاطفال الحدثى الولادة قد أدت الى تحسن ملحوظ فى نمو الاطفال العقلي ، وكذلك فى اتجاهات الآباء نحو تقبل الابناء ، والابناء نحو الآباء ، وبالتالي فى نموهم الاجتماعى عامة . (١٩)

وهكذا تؤكد نتائج الدراسات المتعددة والمتداخلة بقوة أن تحسين التغذية الاموية له اثر ايجابى على المواليد . وعلى أى حال فان صحة الحامل والجنين لا تتاثر وتأخذ صورتها المزهرة بتحسين الغذاء أثناء الحمل فقط بل أيضا بالحالة الصحية التى تكون عليها الام قبل الحمل . وهنا يؤكد العالم مرييل ريند "Merrill's Rend" وهو الذى عمل مديرا لمشروع « النماء والتطور » الذى تبناه « المعهد القومى لصحة الطفل والنمو الانساني » أن رصيد الام من الغذاء الذى يجب أن يتوفر لها ليكفي لامداد حملها من الجنين ، لا يمكن أن يجمع أو يجتمع أثناء فترة الحمل وحدها ، بل ان هذه النتيجة الطبية ، وهى حسن تغذية الجنين هى محصلة تراكم الغذاء خلال سنوات عمرها السابقة .

وهنا يضيف هذا العالم كذلك أن أكثر النساء حظا « لا يجب ان يثقن ثقة مطلقة فى أن أجسامهن سيكون لديها المخزون المطلوب من رصيد الغذاء اللازم للجنين حين يحملن حملهن بأية حال » .

هنا يجدر بنا أن نتقدم ببعض النصائح الضرورية التى يمكن ان تطبق على أغلب النساء الحوامل أيام الحمل . فالبحث الى هذا الحد كان يهتم باسماع صوت الجنين للامهات الحوامل ، وذلك عن طريق دق نواقيس الخطر بإبراز سلبيات نقص تغذية الام الحامل . ويجب هنا وفى نهاية هذا العرض الطويل ان نوجه الالذهان الى طريقة التغلب على هذه النتائج او الوقاية منها بمعنى أصح .

الوقاية والعلاج من مشكلة سوء تغذية الحوامل واثرها السيء على الجنين

من الافضل ان تحصل الام الحامل على حاجتها من السعرات الحرارية من العناصر الغذائية الاربعة ولا تقتصر على مجموعة دون اخرى ، وهى : -

أ - مجموعة الأسماك واللحوم والالبان ومنتجاتها وهى توفر البروتين اللازم لبناء الخلايا عامة والخلايا العصبية خاصة .

ب - مجموعة الخضر والفواكه وهى التى تمد الجنين بحاجته من الفيتامينات العديدة التى تؤهله بمقومات الوقاية من كثير من الامراض .

ج - مجموعة الخبز والكربوايدرات بأنواعها ، وهي التي تفيد في عملية امداد الجنين بما يلزمه في وقت التسمين بعد الشهر الرابع والخامس من الحمل .

كما أنها تفيد في توليد الطاقة اللازمة لحركة الجنين بعد الشهر الرابع .

د - مجموعة البقول وهي تحتوى على مزيد من البروتين وبعض العناصر الضرورية لبناء الخلايا .

وهكذا يضر الحامل ويضر الجنين معا أن تعتمد الحامل في غذائها على الحلوى فقط ، او المشروبات الخفيفة « المياه الغازية » او شرائح البطاطس وحدها دون غيرها .

نظام الغذاء الأمثل أيام الحمل (٢٠)

لقد توصل العلماء أخيرا الى ما يجب أن يكون عليه التركيب الجيد لغذاء الحامل بحيث يضمن لها ولحملها ما يحتاجه كلاهما من العناصر الغذائية ولذلك تحدد الغذاء على النحو التالي : -

١ - اربع مرات يقدم لها فيه وحدة من اللبن الطازج ومجموعة من منتجات الالبان أى ما يعادل ١/١ لتر من اللبن

٢ - في مرتين يقدم للحامل قطعة من اللحم او الدجاج او الاسماك او البيض بكمية تزن بين ٣ - ٥ أوقيات حسب وزن جسم الحامل .

٣ - في أربع مرات أو أكثر يقدم لها عناصر من الخضر والفواكه بحيث يكون منها الخضر الطازج الخضراء ، ذات الورق الاخضر او الاصفر أحيانا ، مع اضافة وجبة يكون فيها من الفواكه ما يكفي لتموين الحامل بكمية كافية من فيتامين ج (Vit. C) .

٤ - في أربع وجبات أو أكثر يقدم للحامل غذاء يحوى حبة كاملة من الخبز الغني بالفيتامينات مع الدهن أو الزبد وكذلك البقول .

ولقد أوصى المكتب الدولي للصحة والتربية والرعاية الاجتماعية بأمريكا في تقرير له صدر عام ١٩٧٣ بهذا النوع الغذائي للأم الحامل ، كما أنه حدد في جدول دقيق المزيد من العناصر الغذائية التي يجب أن تحصل عليها الحامل أيام الحمل بما يزيد عما تحصل عليه غير الحامل ، وذلك رعاية لصحة الجنين في أكثر مراحل تطوره حساسية للتأثر بنقص عناصر غذائية معينة ، ضمانا لصحته ، وكفالة لحسن سير خط نمائه .

هذا الجدول نعرضه فيما يلى ، ويتضح منه كيف أن المزيد من العناصر الغذائية الإضافية تحتاج اليها الحامل بدرجة قد تصل الى نسبة ١٠٠٪ مما تحتاجه المرأة غير الحامل ، وذلك في بعض العناصر الغذائية .

(جدول ٢) (٢١)

العناصر الغذائية	غير الحامل سن ١٨ - ٢٢	اضافة في أيام الحمل يوميا	نسبة الزيادة أيام الحمل	فعالية هذه العناصر واثرها في تطور الكائن أيام الحمل
١ - سعرات حرارية ٢ - بروتين بالجرام	٢٠٠٠ ٥٥	يوميا يوميا	٢٠٠ ١٠	١٠٪ ١٨٪
٣ - فيتامين ١ (وحدة دولية) ٤ - فيتامين د (وحدة دولية) ٥ - فيتامين هـ (وحدة دولية)	٥٠٠٠ ٤٠٠ ٢٥	يوميا يوميا يوميا	١٠٠٠ - ٥	٢٠٪ - ٢٠٪
٦ - حامض الاسكروبيك « ملجم » ٧ - الفولاسين B « ملجم »	٥٥ ٤٠	يوميا يوميا	١٠ ٤	١٨٪ ١٠٠٪
٨ - النياسين « ملجم » ٩ - ريبوفلافين « ملجم » ١٠ - ثيامين « ملجم »	١٣ ٥٠ ١٠٠	يوميا يوميا يوميا	٢ ١ ١	١٥٪ ٢٠٪ ١٠٪
١١ - فيتامين ب ٦ « ملجم » ١٢ - فيتامين ب ١٢ مجلأم	٢٠٠٠ ٥٠٠٠	يوميا يوميا	٥٠ ٣٠٠	٢٥٪ ٦٪ ٥٠٪
١٣ - كالسيوم (جرام) ١٤ - فسفور (جرام)	٨٠ ٨	يوميا يوميا	٤٠ ٤	٥٠٪ ٢٥٪
١٥ - يود « ميكروجرام » ١٦ - حديد « ملجم »	١٠٠ ١٨	يوميا يوميا	٢٥ ٢٠-٦٠	٢٥٪ ١٦٦-٣٣٢٪
١٧ - مغنسيوم « ملجم »	٣٠٠	يوميا	١٥٠	٥٠٪

(٢١) منقول بتصرف واصافة

(٥) Ibid 1978. Yneta Y fein

غذاء الحامل وصحة الجنين والوليد

هذا الجدول يبرز أمورا هامة لعمل من أهمها حاجة الحامل لمزيد من العناصر الغذائية وكذلك اختلاف هذا الميزان من الامدادات من العناصر الغذائية من عنصر لآخر . ولذلك تتحقق الفائدة من هذا الجدول لو أمكن الربط بينه وبين توقيت ظهور أعضاء معينة أو وظائف بذاتها في تطور الجنين . (راجع شكل ٣)



لقد أصبح الشغل الشاغل لجميع دول العالم هو موضوع غذاء الحامل ، بل ان الكثير من الدول النامية قد أصبحت تقدم للحامل التي تعيش في ظروف اقتصادية صعبة الكثير من العناصر الغذائية بالمجان ، وتجد في ذلك استثمارا اقتصاديا ووفرا كبيرا . ذلك ان النفقات التي تنفقها الدول على الاطفال المرضى ، والامهات الضعيفات والمواليد الموتى وغير ذلك تفوق كثيرا ما ينفق في اعطاء الحامل كفايتها من الغذاء بما يكفل وقاية الجنين من العلل ، ويوفر على الحامل جهدا يضيع هباء بموت حملها ، ناهيك عما يصيب الأم الحامل من احباط واضطراب نفسى كلما ضاع جهدها هباء ، وكان شقاء حملها جهدا لا ثمرة منه ، ولا نتيجة له ، حين تعود من عملية الولادة خاوية الوفاض مهيضة الجناح محرومة من متعة الامومة بعد شقاء دام شهورا تسعة .

عوامل قد يكون لها اثر سلبي على تغذية الحامل الجيدة : (٢٢)

قد تكون الشعوب التي تعيش في غرب أوروبا والدول الصناعية اسعد حظا واقل عرضة لاضرار سوء تغذية الحامل ، من كثير من الشعوب القديمة والحديثة ، ومع ذلك فان الكثير من الأمم الراقية المتقدمة والحديثة تعاني اخطارا جديدة تتعرض لها الأم الحامل هي وما تحمله من جنين .

وبالرغم من أن موضوعنا هنا ينصب على اضرار سوء التغذية ومحاسن التغذية الجيدة للحامل ، الا أن مجتمع القرن العشرين في أغلبه، وخاصة في الثقافات المتحضرة تتعرض لظروف واطار قد تجعل فعالية الغذاء الجيد في حسن تطور الجنين في بطن أمه تتهددها الاخطار ، وتكون بذلك اقل جودة ، بل تقل استفادة الجنين بشكل واضح من العناية الغذائية بالحامل .

فهناك على سبيل المثال :

(١) - تلوث البيئة : خاصة في البلاد الصناعية والمدن المزدحمة . وسواء كان هذا التلوث كيميائيا أو ذريا أو صحيا ، فانه يتلف فعلا الكثير من العناصر الغذائية قبل وصولها الى الجنين ، بل يتلف الكثير من الخلايا الدموية في دم الأم مما ينعكس على صحة الجنين .

(ب) - **والمخدرات** التى قد تعاطاها الأم أيام الحمل بارادتها قد تسبب خطرا كبيرا على الجنين . فانها بالاضافة الى انها تسبب فقدان الشهية لدى الحامل ، فانها تحرمها وتحرمه بالتالى من كثير من احتياجاته من الفيتامينات خاصة فيتامين ب المركب و ب ١ و ب ٦ .

والمخدرات لها ضرر بليغ على صحة الجنين - ابتداء من الكحول وانتهاء بأنواع المخدرات الاخرى ، حيث انها تمر فى الدم مباشرة الى دورة الجنين وتخترق الغشاء المصلى الذى يفرز بحجب كل الفيروسات ، وهو الموجود فى منطقة التبادل الدموى البشيمة Placenta السابق الاشارة اليها ، وتؤثر تأثيرا مباشرا على صحة الجنين فتحول بذلك بينه وبين الاستفادة الكاملة من الغذاء الواصل مع دم الحامل .

(ج) - **العقاقير** : وهناك كثير من العقاقير التى تتناولها الحوامل دون وصفة الطبيب عادة، وهى العقاقير الاكثر خطورة على صحة الجنين ، ولذلك يؤكد العلماء من أمثال روج وشملز Rugh and Shemles انه لا يجب على الحامل ان تتعاطى اى عقار - ولا حتى الاسبرين - دون استشارة الطبيب ، وهؤلاء يعددون العقاقير التى يجب ان تمتنع عنها الحامل امتناعا باتا واهمها :

- هرمون الاندروجين وغيرها من الهرمونات الجنسية الذكرية ، وهى رغم انها قد تفيد فى تقوية الرحم ومساعدته على الحفاظ على الحمل ، الا انها قد تسبب اضطراب تطور الاجهزة التناسلية للجنين .

- التابولامين Tabulamine وهو عقار يوصف احيانا لمرضى السكر ويسبب نقص حاجة الجنين من المواد الكربوهيدراتية .

- الادوية المضادة للتجلط والتى توصف فى حالات ارتفاع ضغط الدم وهذه قد تسبب نزيفا داخليا للجنين وتعطل استفادته من الغذاء .

- الكورتيزون بجميع فصائله ، وهذه قد تسبب للجنين بعض التشوهات الخلقية خاصة ثقب سقف الحلق ، وتشوه الاذن الخارجية ، لو تعاطتها الحامل فى الشهور الاولى من الحمل .

- العلاج بالتىروكسين أو مضادات التىروكسين، وقد يسبب ذلك تلف الغدة الدرقية، وما يترتب على ذلك من مرض الجويتر Goiter... وقد يؤثر ذلك فى حجم الجنين ووزنه، وقد يترتب عليه ولادة جنين قمىء cretine...

- انواع العلاج بالاشعة العميقة أو غيرها فى حالات مرض السرطان وهى تسبب تلف الخلايا المختلفة فى الجنين فتهدم ما بناه من خلايا نتيجة امداده من غذاء الأم .

هكذا نجد أننا - ونحن بصدد أهمية الغذاء للحامل ودوره في نمو الجنين - نجد أن هذه العقاقير قد تعطل القيمة النمائية للغذاء الجيد .

(د) **التدخين :** وقد وجد مثلا أن افراط الحامل في التدخين أيام الحمل يؤثر كثيرا في مضاعفة حركة الجنين في بطن أمه ، وهي حركة تزيد أحيانا بنسبة ٢٠٠ ٪ عن الحركة الطبيعية بسبب ما يصله من النيكوتين مع دم الأم . وبذلك تبدد هذه الحركة نسبة كبيرة من أثر الغذاء في الطاقة التي يبذلها في الحركة الزائدة ... Huprtmobility... وهو الغذاء الذي كان يمكن أن يستفيد به الجنين في تسمينه أو زيادة وزنه ، أو مضاعفة عملية النماء الخلوي في الجهاز العصبي المركزي .

ولقد وجد من دراسات عديدة أن أغلب مواليد المفرطات في التدخين يكونون أقل وزنا من المعتاد ، وكذلك أقصر في طول القامة وتكون نسبة الوفيات بينهم كبيرة نسبيا . ثم هم يولدون شديدي الحركة Hyperactive

ولقد أكدت دراسات أجريت في بريطانيا عام ١٩٧٣ أن أكبر العوامل ارتباطا بنقص الوزن عند الولادة هو عامل افراط الأم في التدخين ، ويرجح أن التدخين يفقد الدم الواصل للجنين نسبة كبيرة من الأكسجين الضروري لأكسدة الأغذية حتى تتم عملية الأيض لدى الجنين على الوجه الأكمل ، وذلك لأنه يحمل كمية كبيرة من ثاني أكسيد الكربون والنيكوتين .

(هـ) - **الخمور وتعاطي الكحول :** إن تعاطي الخمور باعتدال أيام الحمل قد لا يضر الجنين ولو أن الكحول يصل إلى دم الجنين مباشرة ، ولذلك فإن الإفراط في تعاطي الخمر قد يسبب ولادة أطفال يعانون من الارتعاد الذي يشبه الارتعاد الهترى (٢٣) لدى المدمنين ، أي أنهم يولدون وعندهم رعشة عصبية غريبة تعطل بلا شك فعالية ومفعول الغذاء الجيد . ناهيك عن أن المرأة المدمنة على الكحول تفقد الشهية للطعام المكتمل العناصر أو الاهتمام بالطعام وهذا مما لا يجعلها تراعى القواعد الغذائية على الوجه الأمثل . كذلك وجد أن هذه الحالة تصيب الأم المدمنة بنقص فيتامين ب ، وفيتامين ب ١ ، وهي فيتامينات ضرورية لتقوية وتحسين ظروف نمو الجهاز العصبي المركزي عند الجنين وتطوره .

(و) - وجد أيضا أن ادمان الهيروين أو الأفيون أو غيرها يرتبط كثيرا وكثيرا جدا بظاهرة نقص الوزن عند الميلاد ، هذا إلى أن الوليد يكون شبه مدمن ، فهو يولد في حالة دوخان وتخدير ، ويتمرض من أول أيامه للسلبية والانسحابية وعدم الإقبال على الطعام فترة تمتد

(٢٣) Delerius tramen وهو نوع من الاضطراب العصبي يعيب كثيرين من المدمنين على الخمر إذا عادوا إليها

بعد الإقلاع عنها .

من ٢٤ - ١٢٠ ساعة بعد الولادة . هذا يجعل الوليد عزوفا عن الرضاعة ، ويزداد ضعفا على ضعفه الطبيعي الذي يحدث نتيجة تكسر الكريات الدموية الحمراء في أول عهده بالحياة وهو يحاول التأقلم والتكيف مع البيئة الجديدة خارج الرحم . هذا وأطفال المدمات يكونون بعد فترة التخدر هذه شديدي الحركة ، يتعرضون لحالات توتر عنيف وتقلصات وقد يتعرضون لنوبات من الاغماء متكررة ، وقد يفضي بهم ذلك للموت . (٢٤)

وفي هذا المقام لا بد من الإشارة الى بعض الامور البديهية والظروف البيئية التي قد تعطل اثر التغذية الجيدة ونذكر منها على سبيل المثال:

- مرض الأم وخاصة في الشهور الاولى مما قد يعطل نمو الجهاز العصبي المركزي على الوجه الامثل وخاصة عندما تصاب بالحميات او الحصبة الالمانية او النكاف او الحمى القرمزية والانفلونزا الحادة والامراض السرية وغيرها من الامراض التي تستطيع فيروساتها ان تخترق المشاء المصفي في منطقة التبادل الدموي وتصل الى الجنين ، فتعطل بالتالي التأثير الجيد للغذاء المتكامل في نمو الجنين .

ان ما يهمننا من هذه الامراض هو تأثيرها على فعالية الغذاء في تطور الجنين ونمائه ، ذلك الغذاء الذي نهدف من وراء تأمين وصوله للجنين الى ان يحقق الغاية من سرعة نماء الكائن خاصة في مراحل التطور الحرجة ايام تكوين الهيكل العظمي او الجهاز العصبي او ظهور الحواس الدقيقة الهامة كالسمع والابصار .

فمثلا قد تسبب الحصبة العادية اضطرابا في تكوين القلب وقد تحدث فيه ثوبا اذا اصببت بها الأم في الشهور الاولى ، وقد تسبب صفر حجم الجمجمة ويترتب على ذلك عدم كفايتها لتكاثر خلايا المخ وتطور حجم هذه الخلايا بما يكفل نمو هذا الجزء الهام جدا من أجهزة الجسم ومن هنا قد تتطور ظاهرة التأخر العقلي . كذلك قد يسبب بطء النمء الخلوي في العضلات او تغير التكرار وموزمات حاملات الوراثة اضطرابا كبيرا في نمو الطفل الجسمي ووزنه ، ويترتب عليه ما اشرنا اليه من اضطراب النمو العقلي .

اما عن الحصبة الالمانية ، فان لها آثارا سيئة تماما على نحو الجنين ، خاصة لما تحدثه من خلل في الجهاز العصبي المركزي الذي يصاب بكثير من التلف اذا اصببت بها الأم قبل الشهر

الرابع من الحمل ، وهكذا تعطل هذه الاصابة ما نرجوه من التغذية الانسب في أن تحدثه في هذا الجهاز الهام .

لذلك يترتب على اصابة الام بهذا المرض قبل الشهر الرابع من الحمل ضعف العقل كالولادة المشوهة وأحيانا الميتة ، ناهيك عن انها تسبب ولادة (٢٥) الجنين بثقب في القلب او نقط فيه او اضطراب في تكوين الاوعية الاساسية وغير ذلك مما يعتبر عاملا معطلا معوقا لاثر الغذاء الجيد .

كذلك الامراض السفلية السرية التي ان وصلت الى الجنين توقف تماما اثر التغذية الجيدة في تطور الجنين . فهي التي تسبب ٢٥٪ من حالات الولادة المبكرة ، و ٢٥ - ٣٠٪ من المواليد المولود ، كما يكون لهذه الامراض دائما اثر سئ في وزن الجنين وصحته العامة ، فهي تعطل النماء الخلوي السابق الاشارة اليه وبذلك تحرم الجنين من الصحة والحيوية اللازمة لعملية الولادة وما تعنيها من جهد شديد قد يقع امامها الجنين الضعيف المصاب صريعا ، ولو ولد بعد جهد شديد فهو مولود معوق لما يصاب به من عاهات العمى او الصم او لين العظام او غيرها . وهنا تكون قد فانت عليه فرصة الاستفادة من الغذاء في تقويته وتقوية حواسه . ناهيك عن ان المواليد بالامراض السرية بالوراثة هم ضعاف العقول غالبا .

اما عن الام المصابة بالسكر ايام الحمل فان مرض السكر يعطل تماما النماء الطبيعي للجنين ، وذلك اما لان الام تتبع نظاما خاصا في الحصنة ، اولان الانسولين الذي تتعاطاه لكي يساعد على تخلصها من سكر الدم بتعويض نقص السكر الحيواني الذي تفرزه غدد الام يصل مع دم الام الى الجنين فيسبب اضطرابا ما في عملية الابض والبناء الطبيعي في خلايا الجنين . كذلك فان حرمان الام من بعض العناصر الغذائية لتقليل نسبة السكر في دمها ينعكس على الجنين في فترة شدة احتياجه الى هذه العناصر .

ولقد وجد - ان نسبة كبيرة من الاجنة تموت في الاسبوع الاخير من الحمل بسبب مرض الحامل بالسكر ولذلك ينصح الاطباء عادة مريضات السكر بأن يتممن عملية الولادة بالقيصرية بحيث تتم عملية الولادة قبل موعدها بأسبوعين حفاظا على الجنين وتلافيا لما يعانيه الجنين من نقص عناصر غذائية معينة .

ان الجنين في عملية الولادة يحتاج لبذل جهد كبير حتى يساعد في تمديد عضلات جدران

الرحم وعنق الرحم ، وحتى يوفر لنفسه فرص الخروج الى الحياة . فاذا كان يعوزه الغذاء في فترة امس الحاجة اليه أيام الحمل بسبب ما تسير عليه الام من حصنة ونظام التغذية المحدد ، فان ذلك يؤثر في تموين الجنين بحاحته من الغذاء وبالتالي يجعله ضعيفا في عملية الولادة بدرجة قد تعرضه للاختناق .

هذا وكثيرا ما تصاب الام بظاهرة نقص السكر بالجهاز العصبي والدم ، وهي ما تعرف بظاهرة « هيبوجلايسيميا » Hypoglycemia وهي حالة من الدوار والاعماء احيانا بسبب ضعف قدرة الجهاز العصبي على الحفاظ على مخزون من المواد الكربوايدراتية لفترة طويلة . هذه الحالة في ذاتها قد يتعرض لها الجنين وهو في بطن أمه فيعاني ظاهرة نقص الغذاء في خلايا جهازه العصبي ، وربما تعرض لشبه دوار الهيبوجلايسيميا عندما تتعرض له الام .

والمعروف ان تكرار تعرض أي كائن لهذه الحالة - صغيرا كان أو كبيرا - يؤدي الى ضعف الخلايا العصبية ويترتب على ذلك - في حالة حدوثه للجنين ، تأخير عملية النماء العصبي سواء من طريق الانقسام الخلوي قبل الولادة أو كبر حجم الخلايا العصبية قبل وبعد الولادة ولذلك فقد دلت بحوث عديدة على ضعف الاجنة الذين يولدون من امهات مرضى السكر وخاصة السكر الذي يورث الاستعداد له ويولدون بجهاز عصبي اضعف بكثير من المعتاد عند الولادة .

هذا وتعتبر الوراثة عاملا هاما في وراثة الجنين للاستعداد للاصابة بالمرض نفسه - مرض سكر الدم - حيث يرث الجنين الاجهزة الضرورية للموازنة في كمية السكر في الدم في حالة استعداد تكويني يهيئ الفرد للاصابة بمرض السكر . ولذلك قد تضعف قدرة الجنين وهو في بطن أمه على ابض المواد الكربوايدراتية واكسدتها بما يعين على دخولها في بناء خلايا جسمه .

اختلاف وجود عامل : R.H. وهو عامل وجد انه قد يثير في الام نشاطا زائدا في تكوين الاجسام المضادة اذا كان الاب RH+ والام R.H- ، وهذه الاجسام تقوم بدور اتلاف خلايا الكريات الدموية الحمراء في الجنين ، فتعطل بذلك آثار الغذاء الجيد من الام . ثم ان هذه الظاهرة ، ظاهرة تكسير الكريات الحمراء بواسطة الاجسام المضادة من الام تعتبر الخطوة الاولى نحو ذلك الجسم الغريب - جسم الجنين الذي دمه به عامل R.H.+ ، ولذلك قد يترتب عليها ، بعد مدة الاجهاض او ولادة الطفل بدون حركة still birth ضعفه ، وزيادة الصفراء في جسمه . والصفراء تنجم عن زيادة البليروبين Bilirubin... او غشاء الكريات الحمراء المتكسرة التالفة ، وهو بذات قد يؤثر في الجهاز العصبي ويكون مسئولا بالتالي

عن المواليد ضعاف العقول او المصابين بالكساح او العاهات المختلفة وهذا كله تعطيل للتأثير
المرغوب من الفداء الجيد يصل الى الجنين .

اخيرا : نحن نرجو ان يؤتى هذا البحث ثماره في استشارة اهتمام كل ام يهبها الله نعماء
الحمل ، اهتماما بفدائها كما وكيفا .

كما نرجو ان يكون لهذه الدراسة اثرها في استشارة انتباه الحكومات والهيئات المسؤولة عن
الحوامل في اي مجتمع الى ضرورة توفير الفداء الامثل بأي ثمن ، او بغير ثمن للامهات الحوامل ،
وهذا ما تنبهت اليه هيئات وحكومات عديدة . تتأثر تشريعاتها في هذا المجال بظروفها الاقتصادية ،
بل العكس من ذلك لقد اصبحت مثل هذه المجتمعات تجد ان من اهم مشروعات الاستثمار
الاقتصادي ان العناصر الفدائية الضرورية للحوامل والمرضعات اذا حالت ظروفهن المعيشية
الاقتصادية ، دون التمكن من توفيرها ، بالحصول على الفداء الامثل والاكثر تكاملا .

★ ★ ★

مصادر البحث :

لمزيد من الاطلاع في موضوع البحث يمكن الرجوع الى المصادر الآتية :

(١) - المراجع العربية :

- ١ - الفقى ، حامد عبد العزيز : دراسات في سيكولوجية النمو . قرطاسية العتيقى ، الكويت ١٩٧٧ . الفصل الثالث .
- ٢ - غالى ، محمد أحمد وآخرون : القلق وأمراض الجسم . مكتبة الفلاح بالكويت . الطبعة الثانية ١٩٧٨ الفصل الخامس والسادس (الجهاز العصبى - والغدد الصم .)

(ب) - المراجع الأجنبية :

- (3) Dayton. D.H.
Early maturation and human development. Wiley 1969.
- (4) English, H.B.
Dynamics of child development. Holt Rinehart and Winston INC. 1967. chs 8 & 11.
- (5) Fein, G. Greta, Child development.
Prentice Hall Inc Englewood Cliffs, New Jersey. 1978
- (6) Francis Williams, J. Davies, P.A., Very Low birth-weight and later intelligence. In :
Developmental medicine and Child Neurology. 1974, 16.pp. 709-728.
- (7) Hill, D.E., Placental insufficiency and brain growth of the fetns. In: D.B. Cheek, Fetal
and postnatal Cellular growth. edited. New York. Wiley. 1976.
- (8) Hurlock, E.B., Developmental Psychology. Tata McGraw-Hill Publishing Company
Ltd., Bombay, New Delhi 1959-Ch. 2
- (9) Hurlock, E.B., Child development. McGraw-Hill Book Company INC 1972 Chs. 4
and 5.
- (10) Johnson, R.C., and Medinnus, Gene, R., Child Psychology, behavior and development.
John Wiley & Son Inc. N. Y. London. Second Edition 1969.
- (11) Liebert, R.M., Poulos, R.W., and Strauss, G. D., Developmental Psychology. Prentice-
Hall, INC. New Jersey 1974 Ch. 3. pp 47-77.
- (12) Marcus, A. Krupp and Milton, J. Shatton, and associate authors. Current medical
diagnosis and treatment. edited. Langne Medical Publications (L.M.P.) Los altos
California. 1975.
Ch. 20 on Nutrition : Nutritional and Metabolic Disorders : By Milton, J. Shalton, and
Phyllis, M. Ullman.
- (13) Moore, K.L. The developing human : Clinically oriented embryology. (2nd ed)
Philadelphia. Saunders 1977.

- (14) Mussen, P.H., Conger, J.J. and Kagan, J. Child development and personality. Humper and Row Publishers N.Y. 1963 Chs. 3 and 4.
- (15) Pribram, K.H., Brain and behaviour 1. Mood, States and Mind. edited. Penguin Modern Psychology 1969.
 Ch. 2 : Research on the nervous system in general and on that of the brain in particular :
 By : F.G. Gall and G. Superzheim.
 Ch. 6. pp. 61 - 69.
- (16) Smith, A.M. Sheridan, The retarded child and the mother. Trans. Tavistock Publications. London 1973. 1 - 2 pp. 3-45.
- (17) Tanner, J.M. The regulation of human growth. In : F. Robelsky and L. Dorman (Eds) Child development and behavior. New York. Knopf. 1973.
- (18) Waddington, C.H. The strategy of genes. London. Allen and Unwin 1957.
- (19) Wyden, B. Growth : 45 crucial months. Life. December 17 1971 - pp. 93 - 95.

الأطفال واللعب

مقدمة :

الطفل لا ينمو من تلقاء نفسه : فهو يتشكل ويتغير ويرتقي كشخصية سوية ، بقدر ما توفر له ، في الوسط الانساني الاجتماعي الذي يعيش فيه ، من عوامل التربية ومقوماتها ، بل اننا لنستطيع بتربية رشيدة أن نشكل هذا الكائن الحي بمواصفات تجسد الجوهر الحقيقي للانسان .

وقد جرت عادتنا أن نهتم فقط ، بتربية الطفل في المدرسة ، استنادا الى التعليم المدرسي خاصة ، كأساس حقيقي لبناء شخصية الطفل . هذه النظرة تنطوي على معنيين مختلفين : فمن ناحية تعني أن اهتمامنا بالتربية المنظمة كما لو أنها تبدأ مع التعليم الشكلي ، أي مع التحاق الطفل بالمدرسة . وتعني من ناحية أخرى أن التعليم المدرسي وكأنه غير متصل بنشاط الطفل وخبراته خارج المواد الدراسية التقليدية، ويتعلم الطفل في سنوات ما قبل المدرسة .

ان من أبرز المقومات التربوية ، في سنوات الطفولة خاصة ، اللعب كنشاط مميز لحياة الاطفال . وهي مقومات لا تكاد ندركها بوعي ، أو اننا لانعطيهما قدرها الذي يستحقه في تربية

الطفل . فالدراسات والبحوث الكثيرة والمتنوعة تؤكد على أن اللعب هو مدخل وظيفي لعالم الطفولة، ووسيط تربوي فعال لتشكيل شخصية الفرد في سنوات طفولته .. وهي تلك الفترة التكوينية التي تجمع نظريات علم النفس على أهميتها الحاسمة كركيزة أساسية لبناء النفس للفرد في مراحل نموه المتعاقبة .

و « اللعب » كلمة كثيرا ما نستخدمها في حياتنا اليومية ، الى درجة يكاد معها هذا المفهوم يفقد معناه الحقيقي . فاللعب قد نربطه بأي نشاط يمارسه الفرد لكي يبعث في نفسه البهجة والارتياح ، ووفقا لذلك فقد نفهم اللعب على أنه نشاط هدفه اللهو واستهلاك الوقت والجهد ، بدون أن تكون هناك قوى أو دوافع خارجية تحركه وتوجهه . واللعب بذلك قد نفهمه على أنه يختلف عن العمل الحقيقي الذي هو نشاط موجه نحو غاية محددة يقوم به الفرد .

بل إن أطفالنا كثيرا ما يفرقون بين العمل واللعب على أساس الشروط الخارجية التي يفرضها المجتمع ، فالعمل بالنسبة للطفل هو العمل المدرسي أساسا ، أو قد يعني لديه في بعض الأحيان ما قد يكلف به من مهام منزلية يساعد فيها أسرته ، بينما يعني اللعب أي شيء آخر يبعث على اللهو . وغالبا ما يهتم الأطفال، ونشجعهم نحن الكبار ، بأن العمل نشاط جاد مفيد ، بينما اللعب لهو لا فائدة منه .

والحقيقة ، أن أهمية اللعب في حياة الأطفال وتحقيقه لدوره التربوي في بناء شخصية الطفل ، تتحدد أساسا بوعي الكبار عامة والآباء والمعلمين خاصة ، وبمدى اتاحتهم الفرصة أمام الطفل لتحقيق الذات في أنشطة اللعب ، ومواقفه المتنوعة ..



الخصائص المميزة للعب الأطفال

يختلف لعب الأطفال عن لعب الكبار في أوجه كثيرة . ويتميز بجانب ذلك بخصائص معينة نجدها في أي مجموعة من الأطفال تقوم بدراسة نشاطها .

١ - اللعب عملية نمو :

فاللعب يأخذ النموذج الذي يتطور به نمو الطفل نسقا نمائيا محددا . تتضح هذه الحقيقة إذا تتبعنا الخط النمائي للطفل منذ ميلاده ، وموقع اللعب فيه .

فمنذ المهد والطفولة المبكرة ، تبرز أنشطة معينة للعب ، وتشيع في سن عن آخر ، بصرف النظر عما ينتمى اليه الطفل من بيئة أو قومية أو سلالة أو خلفية اجتماعية اقتصادية . ومع ذلك ، وبالرغم من أن شكل النشاط يتغير كلما ازداد الطفل نضجا ، إلا أنه لا توجد بداية أو نهاية محددة لنشاط لعب معين . بيد أن المرحلة العمرية ، التي يشيع فيها لعب معين ، تكون متألية بدرجة كبيرة لدى جماعة أخرى من الأطفال ،

فاللعب ، في البداية ، يكون بسيطا للغاية ، يتألف أساسا من حركات عشوائية ، ومن استئثار لأعضاء الحس . وهي تلك الفترة العمرية التي تستغرق العامين الأولين تقريبا من حياة الاطفال (مرحلة المهد) ، حيث تكون الحياة النفسية - وفقا لنظرية جان بياجيه (*) - عبارة عن نشاط حسي - حركي sensori-motor ، يتمثل في ممارسات الأفعال المنعكسة reflexes والارجاع الدورية circular reactions ، وتكون فاعليه استئثار أعضاء الحس والحركة في هذه المرحلة « منبثا » الى حد كبير من فاعلية الحياة النفسية في مراحل النمو التالية .

ومع تطور نمو ذكاء الطفل ، يصير لعبه معقدا بشكل متزايد . فاللعب بالدمى يجتذب الطفل منذ الطفولة المبكرة ويصل الى ذروته في العام السابع أو الثامن من العمر ، لذا تعرف هذه الفترة بـ « سن اللعب بالدمى » toy age . وبعد التحاق الطفل بالمدرسة ، تبدأ اهتماماته باللعب في التغير . فخلال العام الاول أو العامين الأولين من الحياة المدرسية ، يجري تداخل بين أنشطة اللعب المميزة لمرحلة الطفولة المبكرة (سن ٣ - ٦ سنوات) وتلك المميزة لمرحلة الطفولة الوسطى (سن ٦ - ١٠ سنوات) . فبينما تظل أنشطة اللعب المحببة الى الصغار في الطفولة المبكرة قائمة لسنوات قليلة ، تنمو في نفس الوقت اهتمامات جديدة للعب ، وفي البداية يكون الطفل شغوفاً بألعاب الجري ، ثم تصبح الألعاب الرياضية القائمة على قواعد ونظم محددة هي تسلية المفضلة بعد ذلك . وعلاوة على هذا ، تأخذ اهتمامات الاطفال باللعب في الاتجاه الى آفاق أخرى - كالقراءة مثلا ، أو جمع الأشياء كالطوايع والعملية والفراشات والنبات ، والافلام والصور ، والاذاعة والتلفزيون ، والانشيد والغناء ، والتركيب . الخ وتنبلور هذه الاهتمامات بصورة واضحة في مرحلة الطفولة المتأخرة .

وبجانب ذلك ، تتصف الطفولة المتأخرة (سن ١١ - ١٢ سنة) بالاتزان الحسي الحركي الذي يتميز بمعالم معينة من النضوج - كالرشاقة ، والقوة والحيوية ، وهادفية الحركة والقدرة على التحكم فيها ، والانسيابية وسهولة انتقال الحركة وتنوعها من الجذع الى الذراعين والقدمين ، وسرعة تعلم المهارات الحركية . ولذلك فكثيرا ما يجري تشبيه اتساق الاستجابات الحسية الحركية في هذه المرحلة العمرية « برشاقة القط » . وتنطوي حقائق النمو هذه على مغزى تربوي عظيم : فنظرا لأن هذه المرحلة هي فترة « كمون نسبي » من الناحية الفسيولوجية ، أي تكون عمليات الهدم والبناء في الجسم أكثر هدوءا ، وتجرى بمعدل أقل اذا قورنت بمعدل النمو في المرحلة التالية (المراهقة) ، فانها تعتبر المرحلة الحساسة من النمو للتعلم الحركة المنظم ، والفترة المثلى للتمكن من الألعاب الرياضية الحركية .

ويتضح الخط النمائي للعب الاطفال اذا أخذنا بعض أنواع من لعبهم ونرى كيف تنمو في حياة الطفولة . فبناء المكعبات ، مثلا ، يسير في أربع مراحل محددة من النمو (جونسون ، ١٩٣٣) : فالمرحلة الأولى عبارة عن مجرد تناول للمكعبات وحملها وتكوينها في مجموعات غير منظمة . وفي المرحلة الثانية يبدأ الطفل في تكوين صفوف وأعمدة من هذه المكعبات ، وفي المرحلة

(*) (ارجع الى الفصل الثاني من كتاب : د . بيرد : جان بياجيه وسيكولوجية نمو الاطفال .

(ترجمة : فيولا البيلوى) . القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١ .)

الثالثة تنمو قدرة الطفل على عمل نماذج من هذه المكعبات وتتضح بعض الطرق التي يتبعها في بنائه للمكعبات . أما في **المرحلة الرابعة** فيقوم ببناء تكوينات حقيقية تعبر عن معان متكاملة ويستطيع إعادة البناء وتجويده . أما الرسم والنشاط التعبيري فيختط كذلك نموذجا للنمو (بل ، ١٩٥٢) : فهو يبدأ بـ « الشخبطة » أو « الخربشة » في حوالى العامين الأولين من عمره ، وينمو كصورة معبرة على أرضية ملائمة في حوالى سن الثامنة أو التاسعة . وهكذا يمكن أن نميز في كل أشكال اللعب نسقا نمائيا developmental course لتطور نمو نشاط الطفل من مرحلة لأخرى .

٢ - تتناقض أنشطة اللعب « كما » مع تطور نمو الطفل :

يقضى الاطفال الصغار معظم أوقات يقظتهم في اللعب ، لدرجة أنهم يلعبون وهم يأكلون أو يستحمون ، أو حتى في لحظات ما قبل النوم وفي الفراش . ويتفق هذا مع طبيعة النمو في هذه المرحلة ، حيث انها مرحلة نشاط حركي ، وتتم عمليات الهدم والبناء فيها بمعدل أسرع ، ناهيك عن أن هذه الفترة تمثل بدايات تعرف الطفل على العالم المحيط به واكتشافه لدائه داخله .

في سنوات ما قبل المدرسة (الحضانه ورياض الاطفال) تتضمن أنشطة اللعب الالعاب التمثيلية ، واللعب بالمكعبات والماء والرمل والطين ، واستخدام مواد الرسم والتلوين بالأصابع ، والموسيقى والرقص الايقاعي (هارتلى وآخرون ، ١٩٥٢) . وفي هذا السن يكون لعب الاطفال ابداعيا ، تمثيليا ، تكراريا ، تخيليا ، وتخليقيا (ريسى ، ١٩٥٤ ، تورانس ، ١٩٦٢ ، ليتون ، ١٩٧١) .

أما في مرحلة المدرسة الابتدائية فيهم الاطفال باللعب الذي يتضمن نشاطا جسميا ، فيمارسون شيئا أو يذهبون الى أماكن خارج المنزل والمدرسة أكثر من اهتمامهم بالالعاب ذات النمط العقلي أو الجمالي . وفي هذه الفترة يركز بعض الاطفال على القراءة أو الموسيقى في لعبهم (جيرسيلد وتاش ، ١٩٤٩) . تبين بعض الدراسات (ليهمان وويتى ، ١٩٢٧) أن الاطفال في سن الثامنة يلعبون بأنشطة مختلفة بمتوسط ٤.١١ في الاسبوع ، في حين يبلغ هذا المعدل ١٧.٧١ لدى الشباب في حوالى الاثني عشر وعشرين عاما من العمر .

ويتناقض مقدار أنشطة اللعب الاجتماعي ، بما فيه اللعب مع الاطفال الآخرين ، مع العمر . ففي حوالى سن السابعة والنصف يبلغ متوسط هذه الالعاب ٢٧ ، بينما يصل هذا المعدل الى ٢١ في سن الحادية عشرة والنصف ، والى ١٣ في سن السادسة عشرة والنصف (وتى ، ١٩٣١) .

ويمكن أن نعزو التناقض الكمي في أنشطة اللعب عند الاطفال الى عوامل عدة : في مقدمتها تضاؤل مقدار الوقت المتاح للعب ، بسبب الواجبات الجديدة المفروضة عليه ، وبسبب الوقت الذي يقضيه في المدرسة وما يتبعه من التزامات خارج المدرسة . والنتيجة أن الطفل عليه أن ينتقى من بين الأنشطة المختلفة للعب تلك التي تستثير اهتماماته أكثر وتبعث في نفسه البهجة . ويتضح ذلك أكثر حينما يصل الطفل الى مرحلة المراهقة ويصير وقت فراغه محدودا

بشكل متزايد . فالطفل كلما كبر يجد انه مطالب بالاقبال من الوقت الكثير الذى يقضيه فى اللعب وفاء لمسئوليائه المختلفة ، ومسايرة للضغوط الاسرية والمدرسية والاجتماعية ، كما يدرك أن عليه أن يحسن التنسيق بين عمله ولعبه . وهذا جانب ايجابي ينبغي تنميته فى طفلنا ، حتى يستطيع أن يستمتع بلعبه حينما يلعب ، ويرضى عن عمله حينما يعمل . ومن عوامل التناقص الكمى لنشاط اللعب أيضا ، تزايد وعي الاطفال بميولهم وقدراتهم ، وتزايد مدى الانتباه وتركيز الطاقة العقلية لديهم ، مما يمكنهم بالتالى من التركيز على نمط واحد من نشاط اللعب لفترة طويلة والاستمتاع به ، وينقلنا هذا الى خاصية « كيف » فى لعب الاطفال .

٣ - تتزايد أنشطة اللعب « كيف » مع تطور نمو الطفل :

ينتقل الاطفال فى نشاطهم ، بسبب نقص قدرتهم على تركيز الانتباه ، من لعبة لآخرى أو من نشاط معين الى نشاط آخر . لذلك يجب أن يكون فى متناولهم عدد كبير من مواد اللعب حتى يظل اهتمامهم قويا . وفى مقدور الطفل فى سن العامين ، على سبيل المثال ، أن يركز انتباهه فى نشاط لعب معين لمدة سبع دقائق فى المتوسط تقريبا ، فى حين يزداد معدل الانتباه الى حوالى ١٢ر٦ دقيقة لدى الطفل فى الخامسة من العمر (فان اليستون ، ١٩٣٢) . كذلك ، كلما كبر الطفل ، ازداد مقدار الوقت الذى يقضيه فى نشاط واحد (بريد جى ، ١٩٢٩) . ولكن اذا كان اللعب ومواده مثيرا لاهتمام الاطفال ، فان الاطفال فى سن ما قبل المدرسة سوف يثابرون على هذا النوع من اللعب حتى ولو كان ذلك صعبا عليهم (ويلسون ، ١٩٥٥) .

فاذا كان الطفل فى المراحل الاولى للنمو ينشغل بالالعاب كثيرة تستغرق معظم وقته ، فانه مع تطور نمو قدراته واهتماماته ومعارفه وخبراته يأخذ فى « انتقاء » ألعاب معينة من بين هذا الحشد الهائل من الالعاب ، وقد تصل عملية الانتقاء من الناحية الكمية الى لعبة واحدة أو نشاط واحد ، لكنه اذا صار يجيد هذا النمط الواحد من نشاط اللعب وتمكن من مهاراته وتوحد معه انفعاليا ونظم له وقتا أكبر بدلا من تشتيت طاقاته واهتماماته على كل ما يقع فى مجاله الحسى المباشر . أى أن هذا التحول من « الكم » الى « كيف » فى نشاط اللعب عند الطفل دليل على تغيرات كيفية فى بنية الشخصية على طريق « التمكن » من نفسه بيئته . فاذا اخذنا اللعب الاجتماعى مثلا ، نجد الطفل فى المراحل الاولى يلعب مع اطفال كثيرين ، حتى ولو كان لا يعرفهم من قبل ، وهو يلعب معهم حينما ، و « يتعارك » معهم أحيانا أخرى ، ليتصالحوا بهم فى غضون فترة قليلة من ناحية ثالثة . ولكن من مظاهر النضج الاجتماعى أن « يصطفى » الطفل ، كلما كبر ، مجموعة معينة من أصدقائه ، يتوحد معها ويعيش نشاطها ، ويسعى لأن يحظى بمكانه داخلها ، ويرتبط بها برابط المعية والانتماء . ويتضح هذا بصفة خاصة فى ظاهرة « جماعة الشلة » فى مرحلة المراهقة .

ومن مظاهر « التحول الكيفى » فى نشاط اللعب عند الاطفال ، أن النشاط الجسمى المبدول فى اللعب يأخذ فى التناقص كلما كبر الطفل ، بينما يزداد الميل الى أنشطة اللعب ذات الطابع العقلى المعرفى . فالمراهق ، مثلا ، يبذل طاقة أقل من الناحية الجسمية فى لعبه ، بينما نجد الطفل ، وخاصة فى مرحلة ما قبل المدرسة ، دائم الحركة والنشاط الجسميين . وبينما نجد الاطفال فى

الأربع سنوات الأولى من المدرسة الابتدائية يفضلون الألعاب الرياضية النشطة ولا يهتمون كثيراً بالألعاب التي يقضى فيها الفرد معظم وقته جالساً كما هو فى سنوات المراهقة (جيرسيلد وتاش ، ١٩٤٩) ، فانه بدءاً من الطفولة المتأخرة والمراهقة المبكرة يسيطر على لعب الأطفال أشكال معينة ، مثل مشاهدة التلفزيون والأفلام السينمائية والاستماع للموسيقى والقراءة واجادة ألعاب رياضية معينة (سوللينجرو وآخرون ، ١٩٥٣) .

هذا التحول الكيفى يسير بدوره هكذا مع التغيرات الكيفية فى عملية النمو العقلى المعرفى ، الذى يبدأ بالمظاهر الحسية الحركية فى مرحلة المهد حتى يصل فى مرحلة المراهقة غالباً الى المستويات التجريدية للذكاء الانسانى .

٤ - اللعب فى الطفولة نشاط تلقائى :

يتسم لعب الأطفال ، عند الصغار خاصة ، بالتلقائية واللاشكلىة . فالطفل يكون على سجيته حينما يلعب ، ويبدو بذاته وبأصالته ، بدون ما اصطناع ، وبدون ما مسيطرة لضغوط اجتماعية .

الطفل الصغير يلعب حينما يرغب ، بالكيفية التى يريد بها غالباً ، وبأى مواد اللعب ووسائله ، بصرف النظر عن اعتبارات الزمان والمكان ، وبصرف النظر عما لديه من لعب ثمينة أو كثيرة . ففى أحيان كثيرة نجد الطفل سعيداً وهو يلعب بأشياء تخص والديه أو أخوته أو ببعض أدوات المنزل ، أكثر مما يسعد بالعبء الخاصة . والطفل الصغير لا يكتثر لأن يلعب بملابس خاصة ، فالموقف يستوى عنده إذا أراد أن يلعب ، سواء بأحسن ملابسه أو بملابس اللعب ، وهو أيضاً لا يبدي اهتماماً كثيراً بما قد تخصصه له الأسرة من مكان أو حجرة للعب ، ولا يراعى مواعيد معينة للعبه .

ولكن اللعب يأخذ فى أن يصير بالتدريج أكثر شكلىة ، وفى أن يختفى الكثير من تلقائية اللعب فى مرحلة المراهقة . ففى هذه المرحلة يزهر المراهق بارتدائه للزى المميز لبعض الألعاب ، ويشعر بحاجته الضرورية الى أجهزة وأدوات خاصة للعب كمضارب التنس مثلاً ، وإلى أماكن معينة يلعب فيها كالملاعب والنوادرى والساحات التى يشترك فيها . وهو لا يلعب بغير هدف ، بل يخضع نشاطه لنظام معين - فهو يتفق على مواعيد محددة ليلتقى برفاقه ، ويلعب فى وقت محدد ، وهو يلتزم بدوره فى اللعب ويسعى الى تحقيق أعلى مستويات الأداء فيه .

هذا الاتجاه نحو الشكلىة فى اللعب يزداد كل عام مع تطور نمو الطفل ، وتكون النتيجة أن يصير اللعب فى المراهقة شيئاً جدياً ، وليس بذلك النمط اللاشكلى العرضى من النشاط الذى يتهج به الطفل الصغير .

أهمية اللعب فى حياة الأطفال :

الطفل فى لعبه لا يكون طفلاً فحسب ، ولكنه يلعب أيضاً دور طفولته ، فيعيشها من خلال اللعب الذى ينضوى فيه ، ويتوحد مع عناصره وأدواته ، ويستجيب لرموزه ومعانيه . ومع أن

الكبار يتقبلون اللعب كجانب أساسي من حياة الاطفال ، الا ان هذا التقبل ربما لا ينطوى على ادراك واع لأهمية اللعب في حياة الاطفال ولقيمة الدور الذي يحققه في نمو الطفل وبناء شخصيته .

فاللعب بالنسبة للطفل حقيقة يعيشها بواقعه وبخياله . وهو نشاط تلقائي أكثر إثارة لاهتمامه مما يحيط به . في اللعب يعيش الطفل ، فتظل آثار خبراته فيه حية متصلة أكثر من آثار الحياة الواقعية التي لم يستطع بعد أن يدخل فيها ويستوعبها لصعوبة ظاهراتها وعلاقاتها . في اللعب يعيش الطفل خبرة نموه ، ومن اللعب يحمل معه ركانز نموه للمراحل التالية

وانطلاقه في تطور عملية النمو .

وفي الواقع ان ابراز قيمة اللعب في حياة الاطفال كان موضع اهتمام الكثير من علماء النفس والتربية ، في أمريكا والغرب والشرق . فعلى سبيل المثال ، اذا كان عالم النفس الالماني الاصل « كارل بيولر » (١٩٣٠) يؤكد على أهمية اللعب في النمو العقلي للطفل ، فان عالم التربية الروسى « ماكارينكو » (أعمال مختارة ، ١٩٥١ ص ٣٧٣) يؤكد على التأثير البالغ للعب في تشكيل شخصية الطفل : « فاللعب في حياة الاطفال يحمل نفس الأهمية التي ينطوى عليها العمل في حياة الكبار . فكيفما يكون الطفل في اللعب ، فانه سوف يكون كذلك الى حد كبير في عمله عندما يكبر . لذلك تنشأ تربية الشخصية قبل كل شيء في اللعب . بل ان كل تاريخ الفرد كشخصية وكانسان يعمل ، ربما نتصوره في نمو اللعب وفي الانتقال التدريجى من هذا الشكل الطفلى للنشاط الى العمل . ومن ثم فان تربية الطفل كشخصية للمستقبل ينبغي أن تقوم لا على استبعاد اللعب من حياة الاطفال ، وانما على حسن تنظيمه ، بحيث يؤدي الى تكوين الخصائص البنائية للطفل في نموه » .

.. واذا كان اللعب بهذه القيمة البالغة في حياة الاطفال ، فما هى أبعاد هذه الأهمية ؟ وما هى الجوانب من شخصية الطفل التي يباشر فيها اللعب تأثيره بالدرجة الاولى ؟ تلك تساؤلات عامة نتبين اجابتها فيما يلى ، استنادا الى تحليل نتائج بحوث ودراسات شتى شهدها هذا الميدان .

(١) للعب قيمة بنائية

(اللعب نمو)

يتضمن اللعب بالنسبة للطفل ، وخاصة في سنوات ما قبل المدرسة ، بدرجة كبيرة تلك المثيرات الباعثة على تكوين قدراته وخصائص شخصيته ، بحيث ان المثيرات التربوية التي توفرها المدرسة في المرحلة التالية هى امتداد لمثيرات ما قبل المدرسة وتطویر لها تلبية لمطالب وحاجات نمو الطفل المتغيرة من مرحلة لآخرى .

من الطبيعى اذن أن تنسحب نواتج مثيرات النمو ، المرتبطة بنشاط اللعب الذى « ينضوى فيه الطفل » ، على بنية الشخصية برمتها .. وأن تنعكس « تغذياتها الراجعة » على مكوناتها الجسمية الفسيولوجية ، والاجتماعية والانفعالية ، والعقلية المعرفية .. وعلى التمايز التدريجى لهويته ولاسلوبه في الحياة الذى يعكس « ذاته » التي بدأت « تتمايز » وسط المثيرات المتباينة للحياة والوجود بابعادهما المادية والانسانية .

✳ **فمن الناحية الجسمية الفسيولوجية في بنية الشخصية ، يؤدي اللعب دورا ضروريا** إذا كان للطفل أن ينمي عضلاته على نحو سليم، ويدرب كل أعضاء جسمه بشكل فعال . ويستخدم نشاط اللعب أيضا كمتنفس للطاقة الزائدة surplus energy outlet التي إذا احتبست تجعل الطفل متوترا ، عصبيا ، غير مستقر ، (ميليتشامب ، ١٩٥٣) . وفي دراسة عن تأثير اللعب على نمو النشاط الحركي للأطفال في سن ما قبل المدرسة ، وتوصل «زاباروجيتس» (١٩٤٨) إلى أن اللعب حينما يخضع للتنظيم اللائم ، فإنه يخلق شروطا مواتية لنمو وتحسين الأشكال المختلفة للنشاط الحركي عند الطفل. وفي تحليله لأسباب وطبيعة تأثير اللعب على نمو النشاط الحركي عند الطفل ، يبين أنه حتى وإن كان الطفل يستوعب المهارات الحركية المعقدة ، ليس في اللعب وإنما عن طريق التعلم المباشرة ، فإن اللعب ، بصفة خاصة يوفر تلك الشروط اللائمة التي تهين الطفل لتحسين هذه المهارات فيما بعد . والسبب في ذلك أنه في اللعب تتحول الحركة من كونها وسيطا لتحقيق نتائج معينة إلى كونها أيضا غاية في حد ذاتها لفاعلية الطفل ، وتصير لذلك موضوعا لوعيه . وباتخاذ الطفل لنفسه دورا محددا ، فإنه ينزع بوعي إلى أن يأتي بحركات مميزة لشخصيات معينة تصدر عنها مثل هذه الحركات . لكل هذا يعتبر نمو النشاط الحركي في اللعب مقدمة للممارسات الجسمية الواعية لدى الأطفال في سنوات المدرسة .

وإذا كانت قيمة اللعب من الناحية الجسمية الفسيولوجية تتجلى في « فاعلية البدن » وفي « حكمة توظيفه » ، فإن الطفل في سياق اللعب يبدأ في أن تتكون لديه اتجاهات معينة نحو كيانه الجسمي النامي ، وكيفية استخدامه لمكانياته الجسمية ، وسميه إلى تعلم مهارات حركية معينة ، وغير ذلك مما يعرف بمفهوم الذات الجسمية physical-self concept وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المدخل الجسمي حركي لتربية الأطفال في سنوات ما قبل المدرسة، خاصة وأنه لا يعود بالفائدة على المكونات الجسمية من بنية الشخصية فحسب ، ولكن أيضا على « الفاعلية النفسية » psychic activeness بصفة عامة : ففاعلية الانتباه والادراك والتخيل والتفكير والذاكرة والإرادة والضبط الذاتي وغير ذلك من مظاهر تطور نمو عمليات النشاط النفسي في الطفل .

✳ **وفيما يتعلق بالنواحي العقلية العرفية في بنية الشخصية : يباشر اللعب دورا كبيرا** في نمو النشاط العقلي العرفي ، وفي نمو الوظائف العقلية العليا - كالادراك والتفكير والذاكرة والكلام ... الخ عند الطفل ، بدءا من أبسط الوظائف إلى أكثرها تعقيدا .

فاللعب يساعد الطفل على أن « يترك » العالم الذي يعيش فيه ، وعلى أن « يتحكم فيه » ويتمكن منه « ميليتشامب » ، (١٩٥٣) . فالطفل الصغير من خلال أنشطة اللعب المختلفة يتعرف على الأشكال والألوان والأحجام ، ويقف على ما يميز الأشياء المحيطة به من خصائص وما يجمع

(١) د . بورد : مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٢) هذه البحوث قد تضمنتها بعض أعداد من مجلة « تربية الطفل » (Child education) في عام ١٩٥٨ خاصة .

بينها من علاقات ، وما تحققة من وظائف وتحمله من أهمية . وهو بذلك تنمو لديه محركات التمييز بين موضوعات العالم المحيط به (التعلم التمييزي) . وكلما تقدم الطفل في السن ، فانه ينمى الكثير من المهارات في سياق ممارسته للالعاب ولانشطة معينة . ولاشك ان الالعاب التي يقوم فيها الطفل بالاستكشاف والتجميع وغيرها من أشكال اللعب الذي يميز مرحلة الطفولة المتأخرة تثرى حياتهم العقلية بمعارف جمّة عن العالم الذي يحيط بهم ، وبمهارات معرفية تمكنهم من هذا العالم ، لا يستطيع الحصول عليها من الكتب المدرسية وحدها . ومن شأن القراءة والرحلات والموسيقى والبرامج التلفزيونية والافلام السينمائية أن توسع من الافاق المعرفية للطفل،بالاضافة الى ما تجلبه الى نفسه من بهجة وسرور . وفي اللعب يتعلم الطفل الكثير عن نفسه وقدراته ، بما من بناء مفهوم أوضح عن ذاته (اكسلين، ١٩٥١) .

ويبرز من وحي نظرية « جان بياجيه » في نمو الاطفال وما استشارته من دراسات وبحوث وفيرة ، أن مدى القدرات بين الاطفال في سن الخامسة وقبل التحاقهم بالمدرسة يكون هائلا بالفعل ، أما الاطفال الذين يأتون من بيوت فقيرة لم تمكنهم ظروفهم من الالتحاق بدار للحضانة او بمركز للعب الاطفال فانهم يبدوون بمستوى منخفض في هذه القدرات (١) .

وقد تركزت سلسلة من البحوث العلمية في بريطانيا على استخدام أنشطة اللعب في « تقريب مبادئ العلم الى الاطفال » (٢) ، وتوظيف هذه الأنشطة لإبراز أهمية هذا المدخل اللعبي في توسيع آفاقهم المعرفية وفي التمكن من مهارات اكتسابها وتعلمها . في إحدى هذه الدراسات التي أجريت على عدد من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية في بريطانيا ، يقرر « م . بيرى » (١٩٥٨) أنه قد جرى الاهتمام فقط باليول التقليدية للأطفال الصغار نحو الحيوانات المنزلية والبرية والطيور والنبات والاشخاص البارزين في البيئة ، الا انه ينبغي ان نطرح الآن مشكلة نمو اهتمام الاطفال المتزايد بالعلم : فهم يستثيرهم الكثير من مظاهر العلم والتكنولوجيا في عالمنا المعاصر - من وسائل مواصلات ، كالمطائرات وسفن الفضاء وارتفاعه والسفن البحرية ، ومن تركيبات في الاجهزة ، ومن سير للعلماء وقصص عن الاختراعات ، الخ . وقد اتضح من دراسته انه من خلال اهتمام الاطفال من سن ٤ - ٧ سنوات باللعب بالسفن وبنائها ونظام العمل فيها ، فقد صارت حصيلتهم اللغوية أكثر غنى ، وكلامهم أكثر امتلاء بالمضمون وفي مثابة قاموا بعمل سجل للسفينة دونوا فيه ملاحظاتهم على حالة الجو والبحر . وفي نشاط لعب آخر قاموا ببناء منزل ، انتقلوا فيه أيضا الى الاهتمام بالالات الحديثة - فلبناء المنزل عملوا أوناشا بسيطة ووضعوا لها رافعات من البكر والخيط . ، وعن طريق جريان الخيط نقلوا مواد البناء من قطع طوب ومونة . وفي تجارب بعض المدارس في هذا الدراسات أكدوا على قيمة استخدام الماء وما يرتبط به من أشياء ووظائف (عوامات وأطواق ، آنية ، ومراكب مصنوعة من المطاط . ، وسفن مصنوعة من الخشب ذات آلات محرك) . وبمساعدة هذه الالعاب استطاع الاطفال ادراك الكثير عن صناعة السفن : لماذا تظل السفينة طافية على الماء ؟ ولماذا لا تفرق ؟ كيف نرفع السفينة الغارقة ؟ ما علاقة سير المركب باتجاه ؟ . الخ . وقد كانت النتائج التي خرجت بها هذه الدراسات واضحة في هدفها ومضمونها التربوي - فالالعاب التي تستثير الاهتمام بالعلم

لدى الاطفال تستحق عناية بالغة في عالمنا اليوم ، حيث يحرك الاطفال شغفا متأججا بما يحيط بهم من منجزات العلم والتكنولوجيا .

ويؤكد الكثير من الدراسات والبحوث المعاصرة على اهمية تنظيم أنشطة اللعب على أساس مبادئ التعلم القائم على حل المشكلات في تنمية الابتكار عند الاطفال (توارنس ، ١٩٧٠) كما تؤكد هذه الدراسات والبحوث أيضا على أن ذلك المعين الخصب الهائل من خيال الاطفال ، الذي يتجلى في الكثير من أشكال لعبهم ، وخاصة فيما يعرف باللعب الإيهامي ، يمكن توظيفه في تدريب الاطفال على تعلم السلوك الابتكاري (دافيز وهوتمان ، ١٩٦٨) .

❖ وفيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية والانفعالية في بنية الشخصية ، يؤدي اللعب دورا بناء في نضج الطفل اجتماعيا واتزانه انفعاليا . فبدون اللعب ، وخاصة اللعب مع الاطفال الآخرين وليس مع الكبار ، يصبح الطفل أنانيا ، مسيطرا ، ضيق الأفق ، غير محبوب . ولكن الطفل يتعلم من لعبه مع الآخرين أن يشاركهم ويقاسمهم خبرات اللعب وأدواره والتزاماته ، وأن يتعاون معهم ، وأن يتدرب على مهارات الأخذ والعطاء ، وأن يكتسب مكانة مقبولة وسط جماعة رفاقه . فإذا كان الطفل في بداية حياته متمركزا حول ذاته ، فإن انخراطه في أنشطة اللعب الجماعي خاصة يجعله يتخفف بالتدريج من نزعة التمركز حول الذات ، فيرتبط أكثر بالجماعة ويتبادل فيها الأدوار الملائمة .

والحقيقة أنه إذا كان على الطفل أن يتعلم السلوك الاجتماعي المقبول من خلال اتصالاته وروابطه بالاطفال الآخرين في المدرسة ، فإن الفصل المدرسي بنظامه التقليدي ، أو اللعب الخاضع لإشراف المدرسة لا يتيح إلا فرصة ضئيلة للتعلم الاجتماعي ، إذا قورن باللعب الحر خارج المدرسة . فهذا اللعب الحر يعطي الطفل متنفسا للرغبة في عقد اتصالات اجتماعية نادرا ما تلقى أشباعا في المنزل ، إلا إذا كان هناك أطفال آخرون كثيرون من نفس عمر الطفل تقريبا ، وكذلك في المدرسة حيث القيود الكثيرة المفروضة على التفاعل الاجتماعي الحر .

وفي داخل الأسرة ، من ناحية أخرى ، يساعد اللعب الخيالي أو الإيهامي على تخفيف العداوات بين الأخوة الأكبر والأصغر . ومن خلال اللعب مع الاطفال الآخرين ، يتعلم الطفل كيف يعقد علاقات اجتماعية مع الغرباء ويوسع من دائرة اتصالاته بالآخرين ، وكيف يواجه ويحل المشكلات التي تجلبها مثل تلك العلاقات (اكسلين ، ١٩٥١) . ومن خلال الألعاب التعاونية ، يتعلم الطفل مهارات اجتماعية مرغوبة كالأخذ والعطاء المتبادلين ، والعطاء أكثر من الأخذ في بعض الأحيان ، وأن يتعاون مع الآخرين ، وكيف يتبادل معهم المسؤوليات والالتزامات (كورنيليوس ، ١٩٤٩) . وهو يتعلم أيضا أن بالخسارة أو الهزيمة في بعض الأحيان مثلما يغتبط بالكسب والفوز (دي بوا ، ١٩٥٢) . وفي اللعب يمارس الطفل أدوارا مختلفة كثيرة ، يتعلم منها الأدوار التي تعطيه رضا أكثر ، وفي نفس الوقت تمكنه هذه الأدوار من إقامة علاقات مشبعة مع الآخرين (جيرسيلد ، ١٩٥٤) .

والواقع أن الكثير من تكوين النظام الأخلاقي المعنوي للشخصية يستمد أصوله من الأنشطة والممارسات السلوكية التي يعيشها الطفل في سنواته الأولى . فمنذ فترة مبكرة من حياة الاطفال ، يقوم الكبار بتوجيههم إلى معايير السلوك ، ويطلبون منهم الالتزام بها . ويتعلم

ما تعتبره الجماعة صواباً أو خطأ في المنزل أو المدرسة ، ولكن تدعيم تقبل المعايير الاخلاقية لا يكون جامداً في جماعة اللعب . فالطفل يعرف انه ينبغي ان يكون نزيهاً ، أميناً ، موضع ثقة ، لاعباً حسناً وخاسراً حسناً ، وقادراً على ضبط النفس ، اذا كان عضواً مقبولا من جماعة اللعب .

ويستوعب الطفل معايير السلوك الاجتماعي من خلال الاختلاط المباشر مع غيره من الاطفال والكبار ، ويكتسب بالتدريج المقدرة على التنظيم الواعي لسلوكه وفقاً للمعايير المرغوبة لهذا السلوك . فمعايير السلوك الاجتماعي تتجسد بدرجة كبيرة في الدور الذي يقوم به الطفل في اللعب ويتوحد معه ، وبالتالي تنتقل المعايير من مؤثرات خارجية الى معايير لذاته هو . فالدور يمثل في هذه الحالة حلقة وسيطة بين الطفل وقواعد السلوك .

ويستند مضمون القواعد الاخلاقية المعنوية للسلوك في اللعب ليس فقط على علاقات الطفل نفسه بالاشخاص المحيطين به ، بقدر ما يستند أيضاً على العلاقات المتبادلة بين هؤلاء الاشخاص ، وخاصة في نظامهم العملي والاجتماعي ، فوراء هذه العلاقات تكمن معايير معينة يبدأ الطفل في ان يدركها خلال لعبه ، وأن يعيشها ويمارسها لتصبح جزءاً من ذاته . وفي ذلك يؤكد « كارل روجرز » . في الفصل الحادي عشر من كتابه عام (١٩٥١) انه في بعض الظروف يشعر الفرد بموضوعات أو أحداث توجد خارجه لتكون جزءاً من ذاته ، وخاصة اذا كان الفرد يدركها على أنها تحمل أهمية ومعنى بالنسبة له ، أو اذا كان يحدث لديه « انصواء للأنف » ego-involvement في هذه المواقف .

ولنا ان نعتبر في اللعب أيضاً ، مجالاً هاماً لنمو عملية « الادراك الاجتماعي » social perception ، حيث أن « القدرة على الاحساس بشعور الآخرين empathic ability تنمو وتتطور من خلال العلاقات الاجتماعية التي يتعرض لها الطفل في السنوات الاولى من حياته » (سعد عبد الرحمن ، ١٩٧١ - ١٩٧٧ ، ص ٣٨١) وفي أنشطة اللعب التي يعيشها الطفل يقف بدرجة كبيرة على « التشابه الحقيقي » actual similarity حيث تؤثر صورة الذات عند الفرد على تكوين مفهومه من ذات الفرد الآخر ، وعلى « التشابه المدرك » perceived similarity الذي يدركه الفرد بين صورة ذاته وبين مفهومه من ذات الآخرين (سعد عبد الرحمن ، ٧١ - ١٩٧٧ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١) .

فاذا كان الطفل في اللعب يجرب ويختبر قدراته بدون ما التزام بمسؤولية كاملة حيال أفعاله (جيرسيلد ، ١٩٥٤) ، واذا كان يتعلم في اللعب ان يميز بين الواقع والخيال ، فانه في اللعب ، وفي سنوات الطفولة الاولى خاصة ، يظهر الشكل الأولي للاحساس بالذات لدى الطفل وفي علاقتها بموضوعات العالم المحيطة به ، فيبدأ في ان يكون صورة عن ذاته وادراكها على نحو متميز عن ذوات الآخرين أو الموضوعات الموجودة في الوسط المحيط به . وهذا المفهوم الأولي من الذات self-concept يأخذ في النمو والتطور بتزايد خبرات الطفل في الأنشطة التي يعيشها .

(٢) للعب قيمة تربوية(اللعب تعلم)

اللعب - شكل رئيسي لنشاط الطفل ، فيه يجرى بدرجة كبيرة نمو الذاكرة والتفكير والادراك والتخيل والكلام والانفعالات والارادة والخصال الخلقية . ولكن لا ينبغي أن نفهم من ذلك أن نمو هذه العمليات النفسية وخصائص الشخصية يحدث تلقائيا لدى الطفل بمجرد أنه يلعب فحسب . فلقد سار في هذا الشأن وجهة نظر تذهب الى أن الطفل الصغير يتعلم بوحى من خبرته الخاصة ، وأنه بنفسه يتكشف هذا العالم . ولاشك أن الطفل يستوعب الكثير من طريق المحاكاة المباشرة للأشخاص المحيطين به : فهذه الطريقة أساسا يستوعب اللغة والكثير من خبرات الحياة . وهذه الخبرة التى يكتسبها الطفل بطريقة تلقائية واستقلالية ذات قيمة تربوية عظيمة : فهي تنمى فيه حب الاستطلاع والشغف ، والفاعلية ، والتزود بانطباعات عديدة عن العالم المحيط به ، والثراء الحسى ، الخ .

ولكن مبالغتنا ، من ناحية أخرى ، فى تقدير قيمة هذه الخبرات القائمة فى معظمها على مبادئ التعلم بالمحاولة والخطأ ، انما ينطوى على خطأ كبير . فهذه الخبرات ليست دائما مربية ، وليست فى كل الاحوال بنائية ، بل كثيرا ماتجلب فى ثناياها انطباعات وتصورات خاطئة يؤدى ترسيبها وتراكمها الى الانحراف بالخط النمائى للطفل ، فتسير عملية النمو فى اتجاه سلبى ، قد يؤدى الى اختلال فى التكوين النفسى للطفل .

فاللعب فى حد ذاته لا ينطوى بدرجة كبيرة على قيمة تربوية ، ولكنه يكتسب هذه القيمة اذا ما أمكن تنظيمه وتوجيهه تربويا . فلا يمكن أن نترك عملية نمو الاطفال للصدفة أو للخبرة العرضية ، فالتربية العفوية أو الفلسفة الترسلية Laissez-faire التى ذهب اليها « روسو » لاتضمن تحقيق القيمة البنائية للعب التى تكلمنا عنها ، وانما يتحقق النمو السليم للطفل بتأثير تربية واعية ، تضع فى الاعتبار خصائص نمو الطفل ومقومات تشكيل شخصيته فى سياق نشاط تربوى منظم هادف .

يتضح ذلك من نتائج سلسلة من الدراسات التجريبية أجريت على اطفال من سن ٥ - ٨ سنوات فى عدد كبير من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية فى إنجلترا (جاردنر ، ١٩٤٢ - ١٩٤٨ ، ١٩٥٦) ، بلغت ١٨ مدرسة ابتدائية وروضة اطفال : منها ٦ مدارس تجريبية تقوم على استخدام نشاط اللعب كأساس وكطريقة للتعليم ، وكان يتراوح وقت هذا النشاط ما بين ساعة الى ساعة ونصف يوميا ، و ١٢ مدرسة تؤلف المجموعة الضابطة التى لم يكن فيها تقريبا توظيف للعب كنشاط للتعلم .

ولقد كشفت نتائج مجموعة المدارس التجريبية عن مستويات متقدمة للنمو فى كافة جوانب بنية شخصية الطفل ، مقارنة بالمستويات الاقل التى ظهرت لدى المجموعة الضابطة ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - نمو مهارة جمع المواد بحرص ودأب ، اكى يجعل منها شيئا تعبيرا يثير اهتمامه وشغفه ،

(٢) الرسم الحر بالاقلام والتعبير الحر عما يراوده من أفكار في رسومه ، (٣) نمو مهارة الاجابة على الاسئلة المنظمة الموجهة اليهم ، وتكوين الجمل المفيدة ، والتعبير الحر المباشر عن افكارهم (٤) نمو القدرة على عقد علاقات قائمة على الصداقة والود مع غيرهم من الاطفال أو الكبار ، وحتى مع من لا يعرفونهم ، (٥) سلوك اجتماعي ناضج في علاقاتهم مع الاطفال الآخرين ، (٦) التمكن من مهارات الكتابة بسرعة وبنظافة وباتقان ، (٧) القدرة على توجيه الانتباه الى مشكلات أو أنشطة يختارونها ، (٨) القدرة على تركيز الانتباه على العمل الذي يطلب الاطفال انفسهم ان يقوموا به ، والذي قد لا يستثير اهتمامهم بشكل مباشر في اللحظة الراهنة ، (٩) القدرة على توزيع انتباههم من نشاط لآخر وفقا لمتطلبات الموقف ، (١٠) اكتساب مهارات جسمية حركية والافادة من تدريبات الالعاب الرياضية ، (١١) الانتظام في انجاز الاعمال والواجبات المطلوبة منهم ، (١٢) زيادة الحصيلة اللغوية والقدرة على التعبير عن موضوعات معينة .

وقد قامت « جاردنر » بتتبع هؤلاء الاطفال في بعض سنوات تعليمهم التالية ، ووجدت أن اطفال المجموعة التجريبية كانوا متقدمين في النظرة والاستقلالية والنضج الاجتماعي ، وفي التمكن من بعض المهارات ، كالتعبير بالكتابة أو بالفن مثل الرسم الموسيقى ، وكانت النتيجة أن حصيلتهم اللغوية والمعرفية عالية ، وتحصيلهم الدراسي مرتفع ، وميولهم المعرفية متعددة وعميقة ، وغير ذلك من مظاهر تقدم النمو .

وقد اهتمت دراسات أخرى في إنجلترا (مانسيل وايلفر ، ١٩٥٨) بالالعاب التمثيلية المسرحية للاطفال من سن ٥ - ١٠ سنوات ، وهي متنوعة من حيث المضمون أو الشكل . فبعض الالعاب تستخدم العرائس لعرض مسرحيات فكاهية يشترك فيها الاطفال بأدوار مختلفة ، وبعضها يقوم على ألعاب « الاسرة » و « المنزل » يعيش فيها الاطفال بأدوارهم أحداثا معينة . وكان الاطفال يثابون على اشتراكهم في الاعداد والتنظيم الجيد للعرض . وتوضح ملاحظات هذين الباحثين « أن تشجيع هذه الالعاب ، مثل « علاء الدين والمصباح السحري » ، على أساس من اشتراك الاطفال في الاعداد والتنظيم الجيد يستثير اهتمامهم بطريقة بناءة . أما بدون الاعداد والتنظيم لعبهم فكان من المستحيل أن يأتي الاطفال بأفكار أصيلة لحكاياتهم ومسرحياتهم ، ولا أن يعيشوا جو المسرحية أو القصة » .

وتولى الدراسات التربوية والنفسية في روسيا للعب الاطفال ، واستخدامه كمدخل تربوي لتعليمهم ، اهتماما كبيرا . ونسوق مثالا من بعض هذه الدراسات : قامت « جوكوفسكايا » (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) بسلسلة من التجارب كانت تهدف منها الى أن الاطفال يعكسون الظواهر والاحداث والشخصيات في لعبهم وبصورة خلافة . قدمت الباحثة للاطفال قصة عن طفل نشط محب للاستطلاع وطائر طيب نشط في عمله أيضا . وكان الهدف أن يتبني الطفل في لعبه دور الطفل البطل في القصة ، وأن يعكس مضمون القصة في لعبه . وقد اتضح أن الاطفال من سن ٥ - ٦ سنوات (ويبلغ عددهم ٩٠ طفلا) استطاع ٦٦ منهم أن ينقلوا مضمون القصة الى لعبهم ، ويثرونه بخبرتهم الشخصية ، وأن ١٥ من الاطفال استطاعوا أن ينقلوا الى حد ما مضمون القصة في لعبهم ، في حين أن ٢٩ من الاطفال لم يستخدموا اطلاقا مضمون القصة في لعبهم .

وفي المرحلة الثانية من هذه التجارب كانت تهدف الى اختبار اثر الاستشارة التربوية على تغيير العملية التي يعكس بها الاطفال مضمون القصة . ومن أساليب الاستشارة التربوية هذه : اعادة قراءة فقرات من نصوص القصة تكون ذات جاذبية أكثر بالنسبة للعب ، عمل محادثات مع الاطفال للوقوف على دوافع سلوك أبطال القصة . وقد أوضحت النتائج انه اذا كان ٥٠٪ من الاطفال في المرحلة الاولى من هذه التجارب لم يعكسوا مضمون القصة في لعبهم ، فانه بتأثير التنظيم والتوجيه التربويين لهذا النشاط من اللعب استطاع غالبية الاطفال أن يعكسوا ، بطرق مختلفة ، مضمون القصة ، ويلعبوا أدوارها في لعبهم ، ويعبروا عنها في إنتاجهم . وتبين نتائج هذه الدراسات أيضا أن الذاكرة تثرى وتزداد سعتها وتكون فعالة اذا ما تجسد لعب الطفل في أنشطة حية تستثير اهتمامه . وبالإضافة الى ذلك ، فإن تقمص الطفل لشخصيات مرغوبة في القصة من ناحية ، وممارسته لأدوارها وسلوكها من ناحية أخرى ، قد أديا الى تغيرات بنائية في شخصية الطفل اجتماعيا وعاطفيا ، فقد صاروا أكثر صداقة وتعاوناً وضبطاً للذات ، الخ . وهكذا ، اذا كانت نزعة الطفل الى اللعب تعبر عن حاجة أصيلة ، الا أن اللعب يصير وسيطا تربويا وخبرة مربية اذا ما خضع لاهداف تربوية محددة ، وتحقق في اطار خبرات تربوية منظمة . في هذه الحالة يصير اللعب مدخلا وظيفيا لتعلم فعال للاطفال .

٣ - اللعب قيمة كينيتيكية

(اللعب علاج)

ليس النمو في كل الحالات خبرة باعثة على الارتياح في نفوس الاطفال ، فالنمو ينطوي على تغيرات دينامية عديدة ، في داخل الطفل وخارجه ، في علاقته بنفسه ومع الوسط المحيط به . وقد تتضمن هذه التغيرات وبتأثير الضغوط والتوقعات الاجتماعية خبرات سلبية ، وهي ليست بقليلة ، قد يعاني منها الطفل ، ويتوتر بشأنها ، ويصطرع حيالها .

وتلعب اتجاهات الكبار ، وخاصة الوالدين والمعلمين ، وأساليبهما في تربية الناشئة ، دورا كبيرا في تكوين المخاوف في حياة الاطفال ، وفي دفعهم الى مواقف باعثة على التوتر والصراع . فقد يفرط الاباء في القسوة او التدليل او التدلبذ في تعاملهم مع الابناء ، وقد لا يكونون عادلين بين الابناء بسبب ترتيب ميلاد الطفل (كان يفرقوا الابن الأكبر او الأصغر بالعطف) او بسبب جنس الطفل (كمحابة الطفل الولد) . وقد تؤدي أحداث معينة في الأسرة الى تكدر انفعالي في حياة الطفل ، مثل ميلاد طفل جديد ، او حدوث تصدع في الكيان الأسري ونظام حياته بالوفاة أو الطلاق ، او بسبب عدم الوفاق بين الزوجين . وقد يمر الطفل بخبرات غير سارة خارج نطاق أسرته ، في المدرسة او مع رفاقه . وقد يلقي احباطا في بعض المواقف حينما ترتطم أهدافه ببعض الصعوبات التي تعوقه عن تحقيقها .

تلك بعض عوامل النمو من المنظور السلبي . ولعلنا لانجانب الصواب اذا قررنا أن ما يترتب عليها من خبرات سلبية كثيرا ما يقع بشكل أو بآخر في سياق عملية تطور نمو الاطفال . لذا ينبغي علينا كآباء ومربين أن نكون على وعي بالمصاحبات السلبية لهذه العملية ، وبكيفية تشخيصها وتدبر

علاجها ، وبأن نمي في الطفل من ناحية أخرى قدرة عالية على « تحمل الصعاب » و « مواجهة المشكلات » ، لأن الحياة الانسانية زاخرة بالصعاب والمشكلات .

الطفل بحاجة اذن الى « التخفف » من المخاوف والتوترات التي تخلقها الضغوط المفروضة عليه من بيئته، والاساليب غير الرشيدة في تربية الأبناء . ومن الطرق الفعالة للعلاج النفسي في هذا المجال ومع الاطفال خاصة ما يعرف بطريقة « العلاج باللعب » أو « اللعب العلاجي » . play therapy . هذه القيمة العلاجية للعب قد تبينت من دراسات وبحوث عديدة :

فاللعب يساعد الطفل على التعبير عن انفعالاته (ميليتشامب ، ١٩٥٣) . ويستخدم اللعب الخيالي كمخرج للقلق والتوتر (سايموندس ، ١٩٤٦ ، آمين ورينيسون ، ١٩٥٤) . والكثير من الحاجات والرفبات التي لا يتحقق لها الاشباع في حياة الطفل اليومية يمكن أن تلقى اشباعا في اللعب ، وبالتالي تقل الاحباطات التي يخبرها الطفل في المواقف المختلفة . وفي خلال اللعب ، يتمكن الطفل غالبا من تكوين وتنفيذ خطط تساعد على حل مشكلاته التي تحمل أهمية كبيرة بالنسبة له في حياته الخاصة (روجرسون ، ١٩٣٩ ، أكسلين ، ١٩٤٧ ، ل.ب. ميرفي ، ١٩٤٧ ، ميتشيل وماسون ، ١٩٤٨ ، فرانك وهارتلي ، ١٩٥١ ، هارتلي ، ١٩٥٢ ، هارتلي وآخرون ، ١٩٥٢ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤ ، وغيرهم كثير) .

ان الطفل في انضوائه في نشاط اللعب وتوحيده مع أدواره يقوم بتحقيق عملية علاجية هامة وهي « تفريغ » رغباته المكبوتة ونزعاته العدوانية ومخاوفه وتوتراته واتجاهاته السلبية، و « نقلها » من داخله ، الى اخراجها من دفيئة تكوينه النفسي ، الى الخارج ، الى اللعبة او ادوار اللعب . فنراه أحيانا ينهر دميته بعنف، او يعاتبها بلهجة درامية مؤثرة ، وربما يحطمها بلا هوادة .

في هذه العملية العلاجية يحدث هكذا « تصريف » ventilation للتراكبات السلبية في حياة الطفل النفسية ، و « ازاحتها » عنه ، فلا تتدعم فيه أو تنأصل بداخله .

وتعتبر اساليب اللعب بالأدوار والتمثيلات الاجتماعية (السوسيو دراما) ذات فعالية في ترشيد العلاقات بين جماعات الاطفال والتلاميذ، وفي افصاحهم عن مخاوفهم واحباطاتهم حينما يدعون أنها تنتسب لغيرهم ، وفي الوعي بأنفسهم (شيسلو وفوكس ، ١٩٦٦) . ويؤدي اشتراك الاطفال في المسرحيات النفسية الى تحسين تفكيرهم مع انفسهم ومع الآخرين (روسينثال ، ١٩٥٢) .

ولا تعنى القيمة الكلينيكية للعب أنها مجرد طريقة للعلاج ، ولكنها أيضا مدخل للتشخيص وطريقة لدراسة شخصية الطفل ومعرفة عالم الطفولة (ل.ب. ميرفي ، ١٩٥٦) والعلاج الناجح : ففي اللعب يكون الطفل على سجيته ، وتكشف تلقائيا رغباته واتجاهاته ، ويتبين سلوكه على طبيعته : فما هو طفل يعنف دميته لانها « لا تسمع كلام ماما » ويردد الكثير من الاوامر والنواهي التي تمطرها به أمه ، يكشف عن أسلوب « ضاغط » للتربية . وهنا يمكن تبين

« مصدر العلة » في بعض اضطرابات الطفل الانفعالية كالعدوان او الكذب مثلا . وفي اللعب وادواره يتضح للعيان خصائص مميزة لبعض الاطفال كالطفل العصبى او الطفل المنطوى او الطفل العدواني او الطفل المسيطر او الطفل المدلل ، وغير ذلك من نماذج الاطفال الذين يعكسون بدرجة كبيرة اساليب خاطئة في تنشئتهم .

(٤) اللعب الصغار قيمة أيضا بالنسبة للكبار

واذا كان اللعب يحمل تلك الاهمية البالغة بالنسبة للصغار ، فانه أيضا ذو قيمة عظيمة بالنسبة للكبار .

(« تعرفونهم من لعبهم ») ، ذلك مبدا أساسى يمكن ان يفيد منه الكبار في فهم الاطفال والدخول الى عالمهم المتميز . فمن خلال لعب الطفل يكتشف الكبار الكثير من الاشياء عنه ، لا يستطيعون التوصل اليها بآية طريقة أخرى لما يتصف به لعب الاطفال من خصائص مميزة كما ذكرنا من قبل . فاللعب بالدمى يزود الكبار بمعلومات عن بيئة الطفل والاتجاهات التى كان هو موضوعا لها ، والأساليب التى تربي بها ، وتأثير هذه الخبرات المبكرة عليه ، وخاصة المترتبة على اتجاهات والديه نحوه (وينستيت ، ١٩٥١) . ويتعلم الكبار كيف يعقد الطفل علاقاته مع الاطفال الآخرين ، ويقفون الى حد كبير عن مفهومه عن نفسه ، وذلك من ملاحظة لعبه مع غيره من الاطفال (اكسلين ، ١٩٤٧ ، ١٩٥١) . وقد ثبت أن الرسوم التلقائية او الرسوم المعبرة من موضوعات انسانية تكشف بجلاء عن توافقات الطفل مع الناس ، وعن ادراكه لذاته في علاقته بالآخرين (باش ، ١٩٤٥ ، ماكوفر ، ١٩٤٩ ، ميرى وميرى ، ١٩٥٠ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) .

ومن أنشطة اللعب يكتشف الكبار مواهب الاطفال وقدراتهم وابتكارياتهم منذ سن مبكرة ، وبالتالي يمكن رعاية هذه الامكانيات وتعمدها بالتنمية منذ السنوات التكوينية الأولى ، فلا يحدث « فاقد في الابتكار » مع تطور نمو الطفل (تورانس ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٥) .

ويعرف الكبار انفسهم أيضا من خلال لعب الاطفال - فيمكننا أن نشبه لعب الاطفال بأشكاله المختلفة كمرآة تعكس خصائص سلوك الطفل ومكونات شخصيته كمتربيات ناتجة عن أساليب الكبار ، وخاصة الوالدين ، في تربية الابناء وعن الممارسات الوالدية في الأسرة وما يخلقونه من جو اجتماعى نفسى في نظام الحياة الأسرية . فالطفل السوي ، وفي مقابلة الطفل المشكل ، دالة بدرجة كبيرة لحياة الكبار مع الاطفال ، ولأسلوبهم في تنشئتهم لهم وتوجيه نموهم . هنا قد يستطيع الآباء خاصة والكبار عامة أن يعيدوا النظر في انفسهم من خلال تبصرهم باتجاهاتهم نحو ابنائهم ، فيسعون الى ترشيد هذه الاتجاهات والممارسات الوالدية ، أو الى التخفيف من « وطأة » الضغط على الطفل . فقد يكتشف الوالدان ، مثلا ، وجود انفعالات سلبية لدى ابنائهم كالغيرة أو العدوان نحو أحد اخوتهم ، وذلك بسبب عدم العدالة في المعاملة ، أو بسبب عدم وعي الوالدين بسلوكهما الذى قد يؤدي الى مثل هذه السلبيات في حياة الاطفال النفسية بل ان ما قد يتكشف من دلائل تنذر بالعصف بالنمو السوى لطفلهم ، ربما تجعل الآباء يعيدون النظر وبشكل جذرى في فلسفتهم في الحياة وفي أسلوبهم فيها .

وكم يتعلم الآباء من الإبناء !! وما أعظم هذا التعلم !! اليس في حياة الطفولة وسلوك الأبناء توجيه للوالدين وترشيد لأسلوب حياتهما ؟ اليس في تربية الآباء للأبناء إعادة تربية للآباء ؟

في لعب الإبناء ، ان شئنا ، علاج للآباء - فكم هو محبب الى نفس الطفل أن يجد والديه في بعض الاحيان يشاركانه لعبه ولهوه ؟ وفي مشاركة الآباء للأبناء لعبهم تقرب بين عالم الكبار وعالم الصغار ، وتقليل للهوة بين هذين العالمين ، وزيادة للفهم المتبادل بينهما . وفي مشاركتهم اطفالهم لعبهم ، يخبر الآباء « تجديدا للنفس » ، اذ يقتربون من الطفولة . . من البراءة والنقاء . . وفي هذا « علاج نفسى غير مباشر » للوالدين وللکبار . . و « تصاف » مع النفس حينما تقترب من صفاء الطفولة حيث يدركون « أصالة » النفس الانسانية كما تتجلى في طفولتها ، ويقفون على ما قد تكون قد انتهت اليه حياتهم في الرشد من تحريف لهذه الأصالة بتأثير عوامل الضغط والصراع في البيئة .

ولعل هذا يدعونا الى أن نتبصر وجهة نظر العالم الأمريكى ا . ماسلو (١٩٥٤ - ١٩٧٠ ، ص ٢٢٣) التى تؤكد على أن الخاصية الأساسية المميزة للطبيعة الانسانية العامة هى « الابداع » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، فهو الجوهر المتأصل في الطفل منذ الميلاد بحكم كونه انسانا . لكنه قد يفقد هذا الجوهر بتأثير عوامل ثقافية غير مواتية قد يخضع لها في تطور نموه من مرحلة لآخرى ، ومع ذلك ، فهو قابل ايضا لاستعادة هذا الجوهر اذا ما خضع لمنبهات ثقافية ملائمة .



أنواع اللعب عند الاطفال

أنشطة اللعب في الطفولة متنوعة - في شكلها ، ومضمونها ، وطريقتها . ويتوقف هذا التنوع على مستويات وخصائص نمو الاطفال في الاعمار المختلفة ، استجابة لمطالب النمو واحتياجات الطفولة في كل مرحلة من مراحل النمو . ويعكس هذا التنوع أيضا الظروف البيئية والثقافية والاجتماعية في الوسط المحيط بالطفل . ويمكننا تصنيف أشكال أو نماذج اللعب عند الاطفال الى الفئات التالية :

(١) الألعاب التلقائية

وهى تتمثل في الاشكال الاولى للعب ، حيث يبدو نشاط الطفل حرا تلقائيا . ويتصف هذا النموذج من نشاط اللعب بغياب القواعد والمبادئ المنظمة للعب ، لذا يكون في معظمه لعبا انفراديا وليس اجتماعيا . في هذا النشاط يلعب الطفل كلما رغب في اللعب ، ويتوقف عنه حينما لا يبقى مهتما به .

وهذا النوع من اللعب يكون في معظمه استقصائيا ، استكشافيا ، فيه يخبر الطفل بهجة عارمة من استثارة أعضاء الحس لديه ، وبالتالي يخبر احساسات مختلفة في البداية يكون معظم لعبه باطرانه ، وفي حوالى سن الثلاثة شهور ينمو التحكم في اليدين بدرجة كافية تمكنه من اللعب بالدمى أو بأية أشياء أخرى تكون في متناوله . وهو يأخذ في تكشف هذه اللعب

والاشياء المختلفة الموجودة في مجاله الحسى المباشر بواسطة المص والجذب والتلويح بها . ويتضمن اللعب التلقائى الحر استخدام الدمى، وان كانت غير ضرورية في هذه المرحلة .

وينزع الطفل في هذه المرحلة الاستقصائية للعب الى التدمير ، بسبب نقص الاتزان الحسى الحركي لديه . فهو يجذب الدمى أو الاشياء بعنف ، وقد يلقي بها بعيدا . وعند نهاية العام الثانى تقريبا من عمر الطفل ، يتحول اهتمامه الى اشكال اكثر تقدما وتعقيدا ، وان كان يعود من وقت لآخر الى هذا المستوى من اللعب . الا انه مع تطور نموه يصير هذا الشكل من اللعب اقل تلبية لحاجاته النامية ، وبالتالي يتخلى عنها بالتدريج لكي يفسح المجال امام اشكال اخرى .

(٢) الالعاب التمثيلية (اللعب بالادوار)

يتمثل هذا النوع من نشاط اللعب في تقمص الطفل لشخصيات الكبار أو الاشخاص الآخرين كما تتضح من أنماط سلوكهم وأساليبهم المميزة في الحياة ، التى يدركها الطفل عيانا وينفعل بها وجدانيا . في هذا اللعب يعكس الطفل نماذج الحياة الانسانية والمادية ، المحيطة به ، وينمى مضمونا للعب . أى أن هذا النموذج من اللعب ينشأ استجابة لانطباعات انفعالية قوية يتاثر فيها بنماذج من الحياة في الوسط المحيط به .

وتنطوى الالعاب التمثيلية في اصلها على الكثير من الخيال عند الاطفال . وفي هذا يكمن المغزى الابداعى لهذه الالعاب ، التى يطلق عليها « الالعاب الابداعية » . ويتفق هذا مع مايطرحه « تورانس » (١٩٦١) من تصورات ونتائج لدراساته في ميدان الابتكار ، خاصة من المدخل التربوى الذى يتبناه لتنمية الابتكار عند الاطفال: فالكثير مما يتعلمه الاطفال في سن ما قبل المدرسة يقوم على الخيال والتخمين والتساؤلات والاستفسارات والتنقيب والاستكشاف ، وهو مايعكسه في ادوار اللعب التى يعيشها بالخيال غالبا وبالواقع أحيانا .

من اللعب الاليهامى الى التمثيل الواقعى :

« اللعب الاليهامى » makebelieve play أو « لعب التوهم » game of illusion - شكل شائع للعب في الطفولة المبكرة ، فيه يتعامل الطفل - من خلال اللغة أو السلوك الصريح - مع المواد أو المواقف كما لو انها تحمل خصائص أكثر مما تصف به في الواقع، فيه يعمل الطفل مع « أى خيط كما لو أنه يخصه ذاته » ويضفى الحياة (الاحيائية animism) على الاشياء المختلفة التى يلعب بها ، كأن تكون العصا حصانا مثلا . (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) .

يبدأ تمثيل الشخصيات dramatic impresonation لدى الاطفال مبكرا في حوالى سن العام تقريبا ، رغم أن الفترة العادية لظهور هذا الشكل من اللعب تقع بين سن العام والنصف الى العامين من عمر الطفل (جير سيلد ، ١٩٥٤) . ويتعلم الاطفال كثيرا في لعبهم الاليهامى من الاطفال الاكبر سنا ، وخاصة الاخوة . كما يؤدي وجود الطفل وسط مجموعة من الاطفال متباينة في أعمارها الى تعلم سلوك خيالى أكثر مما لو كان الطفل يعيش وسط مجموعة متجانسة من حيث السن والجنس ، لأن الاطفال الاصغر سنا يتعلمون بالمحاكاة من الاطفال الاكبر سنا في المجموعة (ماركى ، ١٩٣٥) .

هذا اللعب التمثيلي الخيالي يحقق وظائف كثيرة في حياة الطفل : منها تنمية قدرة الطفل على تجاوز حدوده الواقعية ، وعلى أن يذهب الى ما وراء القيود التي يفرضها الواقع ، وتنمية القدرة على تحقيق رغباته بطريقة تعويضية ، والقدرة على تخليص نفسه من الضيق والسخط والغضب ، وعلى استبعاد أو مغالبة الظروف التي تزعجه أو تخذله في حياته الواقعية (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وقد لوحظ أنه بقدر ما يخبر الطفل احباطات قوية كثيرة ، يكون انشواؤه في لعب ايهامى . لذا كثيرا ما يأتى الطفل السيء التكيف بالعب ايهامية اكثر من الطفل المتكيف (سيموندس ، ١٩٤٦) . وفي هذا تبين ملاحظات بعض الباحثين (آمين ورينيسون ، ١٩٥٤) أن الاطفال الذين يبدون بمستويات عالية من القلق ، يقضون وقتا أكبر في اللعب الايهامى . فالطفل في اللعب - كما تبين دراسات « بيلر » (١٩٥٢) - يدعى أن يكون هناك شخص يحبه ويعجب به ويرغب في أن يضاهيه ، ويخلق مواقف يحاول فيها أن يكون بصورة أفضل تلقى « استحسان » الكبار وخاصة الوالدين .

ويتبع اللعب الايهامى نسقا نهائيا محددا : فقد لاحظ « ماركى » (١٩٣٥) أن الاطفال قبل سن ثلاث سنوات قد اظهروا اهتماما مسيطر بالاشكال التالية من اللعب الايهامى : (أ) اضافة صفات شخصية على الأشياء personification كالتكلم مع الدمى أو الأشياء غير الحية ، أو كالألعاب التي تتضمن مخلوقات يتخيلها الطفل مثل « العفريت » أو « البع » ، (ب) الاستخدام الايهامى للمواد make-believe use of materials ، كالتسمية التخيلية للأشياء مثل تسميته للعصا حصانا ، أو كالسلوك التخيلى الصريح البسيط مثل تناوله كوبا فارغا لكى يشرب منه ، (ج) المواقف الايهامية make-believe situations ، التي تتضمن استخداما معقدا للمواد كبنائهم لمنزل . وفي معظم الحالات يرتبط لعبهم بالمواد الموجودة امامهم في مجالهم الحسى العيانى المباشر . وبعد سن الثلاث سنوات ، يصير الاستخدام الايهامى للمواد هو أكثر الأنشطة التخيلية المميزة للعب في هذه الفترة . وكلما تطور نمو الطفل ، يزداد استخدامه للمواد بطرق أكثر تعقيدا ، كأن يستخدم الرمل في بناء نفق بدلا من مجرد حفره بجاروف . وبالإضافة الى ذلك ، يأخذ الطفل في الاشتراك في لعب يتضمن المواقف الايهامية ، والأنشطة التركيبية من مواد خام ، والألعاب التمثيلية الأخرى .

ويأخذ اللعب الايهامى اشكالا مختلفة : فهذا النوع من اللعب مرآة للثقافة السائدة في مجتمع الاطفال ، من حيث أنه يعكس بالتمثيل الاحداث الجارية في حياتهم اليومية . وكل شيء يسمعه الطفل أو يراه يكرره بالمحاكاة في لعبه (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) . ولا يعبر اللعب بالمحاكاة عن ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه الطفل فحسب ، وانما يعكس أيضا روح العصر الذى ينمو فيه الطفل . فالاطفال في ظروف الحرب العالمية الثانية ، مثلا ، كانوا يلعبون بأشياء تخيلية تتضمن الجنود والدبابات والمدافع والطائرات ، وغير ذلك من الأنشطة التي ترتبط بالحرب ومواده ومواقفه (جارسون ، ١٩٥٢) . وفي عالمنا المعاصر ، كثيرا ما يستخدم الاطفال في لعبهم نماذج تعبر عن مركبات الفضاء وارتياده ، وعن الكثير من مظاهر التكنولوجيا المعاصرة

ويمكن أن نحدد المظاهر التالية كاشكال للعب التخيلى الايهامى (ميرفى ، ١٩٣٧) : (١) الموضوعات المنزلية ، كبناء منزل ، تأثيث منزل ، الطبخ ، تناول الطعام ، عمل حفلة شاي ، رعاية

الأطفال الصغار ، أو أن يعملوا كأباء وأمهات ، أو كعريس وعروسة ، (٢) البيع والشراء - (٣) . الأنشطة المتصلة بالمواصلات ، مثل ركوب سيارة أو قطار ، أو أن يكون الطفل مهندسا ، أو بحاراً ، في سفينة ، أو طياراً يحلق بالطائرة (٤) توقيع العقاب ، كأن يلعب رجل شرطة يوقع العقاب على المخالفين ، (٥) اشغال الحرائق واللعب كرجال اطفاء ، (٦) القتل والموت ، (٧) لعب ادوار اشخاص خياليين مثل بابا نويل أو سندريلا ، أو غير ذلك مما هو شائع في بيئة الطفل من شخصيات خرافية . ويمثل « اللعب منزلا » نشاطا مرغوبا لدى الاطفال في سن ما قبل المدرسة ، يتضمن غالبا أنشطة معقدة مثل الجلوس الى المائدة بنظام ، استدعاء الطبيب المريض ، أو ايواء الدمية الى الفراش (بارتن ، ١٩٣٣) . ويميل الاطفال الاكبر سنا الى تمثيل القصص التي يسمعونها أو يقرأون عنها ، أو يشاهدونها في التلفزيون ، فبدلا من أن يلعبوا ادوار الشخصيات المعتادة في الحياة اليومية ، فانهم يقومون بأدوار الجان أو الهنود الحمر أو طرزان أو « كاوبوى » ، ... الخ .

وينزع الطفل الى تمثيل هذه الادوار بدقة تبعث على الدهشة ، فحتى نبرة الصوت يستطيع أن يحاكيها بالضبط . ولكن الطفل ، من ناحية أخرى ، كثيرا مايضيف الى هذه الادوار خلقا وابداعا من عنده ، فتأتى الادوار بمناذج جديدة تعكس خبرات الطفل ورغبانه . وكلما اخذ الطفل في النمو ، يصير بالتدريج بجانب ذلك اكثر اهتماما بالتفاصيل التي يعكسها في تمثيل الادوار ، واكثر ارتباطا بالواقع الذي يعبر عنه .

بذلك لا تقتصر الألعاب التمثيلية على نماذج الألعاب الخيالية الابهامية فحسب ، ولكنها تشمل ايضا ، ومع تطور نمو الطفل ، ألعاب تمثيلية واقعية ، تتضح في النشاط المنظم للتمثيل في المدارس ، وفيما يقوم به الاطفال من روايات . ولعل الصحة التربوية التي تنادى بضرورة العمل على « مسرحية المناهج الدراسية » تنشأ الافادة من المضمون النفسي للعب بالادوار وتوظيفه في استيعاب أفضل للمواد الدراسية يبرجى منه نمو للطفل ككل .

ورغم أن التطور الطبيعي للألعاب التمثيلية يبدو أنها تتجه باستمرار نحو الارتباط بالواقع والتعبير عنه ، إلا أننا كمرين ينبغي ألا نجعلها « واقعا محضا فحسب » فتصير جافة غير مشوقة ، بل علينا أن نشجع فيها أيضا ذاتية الطفل وما تأتي به مواهبه من خلق وابداع متفردين . بهذا يتلاقى الخيال مع الواقع في نشاط خصب حي .

(٣) الألعاب التركيبية

يعتبر الاهتمام بالتركيب أو البناء construction جانبا هاما من لعب الاطفال . هذا الشكل من اللعب كثيرا ما يكون حتى سن الخامسة أو السادسة موزعا للصدفة . فالطفل يضع الأشياء بجوار بعضها juxtaposition بدون خطة مسبقة ، وإذا حدث بالصدفة أن صارت هذه الأشياء تمثل نموذجا مألوفا فإنه يبتهج لما حققه . ومن السادسة تقريبا يلجأ الاطفال الى استخدام المواد بطريقة محددة وملائمة في البناء والتشييد . ولا يكون لعب الطفل ابداعيا إذا كان واقعيًا للغاية أو خياليًا مفرطا في خياله . ومع تطور النمو ، تنمو قدرة الطفل على التمييز بين الواقع والخيال . ثم يصبح اللعب أقل ايهامية وأكثر بناءية . وفي ذلك يختلف الاطفال بشكل واضح في قدرتهم على البناء والتركيب (م . فرنون ، ١٩٤٨) .

ويأخذ اللعب التركيبى البنائى constructive play أشكالاً مختلفة ، فالنماذج الأولى من هذا اللعب تتألف من عمل عجينة من الطين ، جبال أو أنفاق من الرمل ، واللعب بالمكعبات والخرز والمقصات والطين الصلصال والألوان والطباشير وأقلام الشمع ومواد القص واللصق ، الخ ، يستخدم الطفل هذه المواد والأدوات لعمل أشياء لها معنى محدد ، ويمكن أن يتعرف عليها بهذا المعنى . فى بناء المكعبات ، مثلاً ، يعطى الأطفال ، بعد العام الثانى تقريباً ، أسماء لما يكونونه من نماذج مثل منزل أو قارب ، الخ . ويكون بناء المكعبات بعد العام الثالث ، متسقاً مع اللعب التمثيلى (جوانيللا ، ١٩٣٤) .

ويعتبر اللعب التركيبى من المظاهر المميزة لنشاط اللعب فى مرحلة الطفولة المتأخرة (١٠ - ١٢ سنة) ، ويتضح فى بناء الخيم والألعاب المنزلية والأكواخ ، وعمل نماذج من الطين الصلصال وتشديد السدود والخزانات . يأخذ هذا اللعب عند الأولاد بصفة عامة شكل العمل المتعدد الخشن ويتحقق ارتباطاً بلبعضهم خارج المنزل ، أما فى حالة البنات فىأخذ اللعب التركيبى شكلاً رقيقاً محدداً يتضح فى عمل دمي من الورق أو عمل ملابس لها ، وفى الرسوم والتلوين ، وعمل نماذج من الصلصال . وبالنسبة لبناء المكعبات ، تميل البنات إلى تشكيل مناظر أكثر هدوءاً للحياة اليومية وخاصة تلك التى تدور حول المنزل أو المدرسة ، أما فى حالة الأولاد فىكون بناءؤهم للمكعبات أكثر تنوعاً فى طرقه ويركزون أكثر على المناظر خارج المنزل (أريكسون ، ١٩٥١) . إذن فى هذا السن ، فإن هذه الألعاب ينبغى أن تعتبر وبسبب ميل الأطفال إلى ألعاب التشييد والبناء أحد أوجه النشاط فى المعسكرات التى يقوم بها الأطفال فى هذا السن .

ومن الألعاب التركيبية الانشائية جمع الأشياء ، وهو نشاط يتضح لدى الأطفال منذ سن الثالثة ، حينما يبدون رغبة فى أن يقوموا بجمع أشياء تستثير اهتمامهم فى موقف معين . هذه الأشياء غالباً ما تكون فى مرحلة الطفولة المبكرة بغير ذات قيمة . فحالما يجمعونها ، فإنهم قد ينسونها أو يعطونها اهتماماً قليلاً . وقد يضعونها فى جيوبهم أو فى مكان معين بحجرة اللعب ثم يطويها النسيان . ولكن منذ سن السادسة حتى المراهقة يمتلك الأطفال ميل قوى إلى القيام بنشاط جمع الأشياء والواقع أن هذا النشاط محبوب للغاية لدى الأولاد فى هذه السنوات ، رغم أن البنات يجمعن أشياء أكثر من البنين (دروست ، ١٩٣٢) . وينزع الأطفال الأكبر سناً إلى حفظ الأشياء المتجمعة فى أماكن خاصة حتى لا تلتف أو تضيع ، كالبدروم أو القبو أو الصناديق أو السلال أو المكاتب وغير ذلك . ويصير الأطفال مع العمر أكثر انتقائية فى اختيارهم للأشياء ، فيجمعون أشياء قليلة ذات جاذبية أكبر . ويميل الأولاد فى كل الأعمار إلى جمع أشياء متعددة مختلفة أكثر من البنات (هوايتلى ، ١٩٢٩) .

والواقع أن الآباء والمعلمين ينبغى أن يعملوا على توجيه نشاط جمع الأشياء كنموذج من الألعاب التركيبية البنائية ، كنشاط تربوى ينتقل فيه الطفل من مجرد نزعته إلى الجمع والاقتناء ، إلى معالجة الأشياء على أساس من التعرف على خصائصها وإدارة مناقشات وتساؤلات عن طبيعة ما يجمعونه من مواد ، واستكمال جمع أشياء تنتمى إلى نفس فئتها . وفى هذا النشاط المنظم الهادف يقوم الطفل بعمليات عقلية ، كالفرز والتصنيف وعمل

المعارض أو حتى المتاحف لما قاموا بجمعه ، وعمل رسوم وقصص عنها ، وغير ذلك من تعدد الأنشطة البنائية .

وقد وفرت التكنولوجيا المعاصرة تأسيساً على الاهتمام بلعب الأطفال ، الكثير من الألعاب التركيبية ، وتبأري المصانع والمؤسسات في ذلك : مثل نماذج الأشياء التي تقوم على الفك والتركيب ، وبناء قطع وأشكال بنماذج وطرق مختلفة ، كبناء منزل أو مستشفى أو مدرسة ، وتصميم أشكال معبرة من مواد متعددة في الحجم واللون ، ونماذج السيارات والقطارات والسفن والآلات وتركيبها الداخلى وكيفية تشغيلها . وتجرى صناعة أدوات اللعب هذه من مواد مختلفة كالمعادن أو البلاستيك أو الخشب أو الجلد ، الخ .

في كل هذه الأشكال المختلفة ، يتصف اللعب التركيبى بخاصية أساسية وهى أن عالم الظاهرات المحيطة بنا يعكس الطفل في نواحي مادية ، مثل تشكيل آلة من أجزاء مختلفة ، وعمل مبنى ، أو رسوم تعبيرية . وينطوى الكثير من الألعاب التركيبية على استثارة لقدرات الطفل العقلية والمعرفية ، وعلى تكوين مهارات حركية لدية ، كما يمكن ربط هذا النوع من اللعب بأشكال اللعب المختلفة .

(٤) الألعاب الفنية

رغم أن الأنشطة التعبيرية كالرسم والخزف والنحت والتصوير والموسيقى والرقص والغناء والأشغال اليدوية تدخل غالباً في نطاق الألعاب التركيبية ، إلا أننا قد رأينا أن نجعلها فئة متميزة تعرف بالألعاب الفنية التي تختلف في جوهرها عن الألعاب التركيبية . فهى نشاط تعبيرى فنى جمالى ينبع أكثر من الوجدان والتذوق الجمالى والاحساسات الفنية ، بينما يعتمد التركيب أكثر على شحذ الطاقات العقلية المعرفية لدى الطفل ، وسوف نقتصر فيما يلي على مثال من الألعاب الفنية .

رسوم الأطفال :

وهى أحد الأنشطة الأكثر تعبيراً عن التالىق الإبداعى عند الأطفال فالطفل الصغير ، وإن كان لا يستطيع الرسم حقيقة بسبب نقص اتزان العضلى ، إلا أنه يحظى بهجة عارمة من « الخزبة » أو « الشخبطة » scribling التي يعملها بقلم أو بأصبع من الطباشير ، ويعبر بها عن حركات فجأة وبلا هدف غالباً ، ويعنى الرسم بالنسبة للطفل ، وسيلة للتعبير أكثر منها وسيلة لتكوين صور وأشكال جمالية . ويعتبر الناتج النهائى أقل أهمية بكثير من تكوين هذا الناتج . وكلما صار إدراك الطفل أكثر قدرة على التمييز ، فإن ثقته في قدرته على الرسم تأخذ في التناقص (جيزل وتومسون ، ١٩٣٤) .

والرسم تعبير عما يتجلى في عقل الطفل لحظة هذا النشاط . وتكون رسومة الأولى « رمزية » ، وليست بنسخ مباشرة للأشياء . وهو يرسم الأشياء كما تجود بها ذاكرته ، ولكنه لا يهتم بالمنظور أو النسب أو العلاقات . وهو يحشد من التفاصيل ما يثير اهتماماته ، كأن

يضع الاضرار على السترة بينما يغفل مكونات ضرورية مثل جسم الرجل . وكلما صار الطفل أكثر نضجا ، يقوم من ناحية برسم « كروكي » للأشياء من ذاكرته ، ومن ملاحظاته المباشرة لها من ناحية أخرى . ويحاول الطفل ، منذ سن السادسة تقريبا ، أن يستنسخ ما يراه في رسومه ويبدأ في النظر إليها بدقة واضعا في الاعتبار الحجم والمنظور وصحة التفاصيل . وحينما يصل الطفل الى سن الثماني سنوات تقريبا ، يكون الرسم المنظوري قد نما لديه جيدا (ليروى ، ١٩٥١) . وبعد هذا السن ، يتناقض ، بل ويندرفي الغالب ما يعرف بشفافية الرسم transparency

، الذي يبدو فيه رسم الطفل لشيء أول شخص كما لو أننا نراه في صورة بالأشعة (ليروى ، ١٩٥٠) . إلا أنه سرعان ما تختفى أصالة الطفل في التعبير بالرسم ، عدا حالات الاطفال الموهوبين (كابي ، ١٩٤٧) . ويبدى الاطفال الصغار اهتماما باللون أكثر مما يفعل الاطفال الأكبر سنا الذين يهتمون بالشكل . ويستخدم الطفل الصغير اصابع الطباشير او الالوان الشمع اساسا في رسمه ، بينما يميل الطفل الأكبر الى الرسم بالقلم .

وتلخر العاب الاطفال بالكثير من نماذج الأنشطة الابداعية التي تتمثل في استخدام اقلام الالوان والطباشير ، التي تسير بنفس الخط النمائي الذي يأخذه نمو رسوم الاطفال . في سن العامين يبدأ الطفل في تجربة اقلام التلوين ، وفي الثالثة يمكنه ان يتحكم في استخدامها ، وفي الرابعة يدخل الخيال في أنشطته ، وفي الخامسة يبدأ في ان يكون واعيا بذاته في عمله (جيزل وآخرون ، ١٩٤٠) . ويأتي استخدام الطفل للالوان المائية بعد استخدامه لاقلام التلوين بفترة قصيرة . والرسم بالالوان المائية شكل شائع للتعبير عن الذات ، ويبتهج الطفل كثيرا من تغطيته لصفحات الورق بالوان زاهية ، يختارها ويؤلف بينها بدون اشراف او تدخل من الكبار . ويسعد الاطفال كثير بالرسم والتلوين بالاصابع .

واعتبارا من سن السادسة تقريبا ، يتمثل التعبير الأكبر في الرسم في العمل على اتقان رسم « الارضية » التي يجسد عليها موضوعات رسمه (بل ، ١٩٥٢) . يتضح هذا في حالة استكمال الطفل لرسوم ناقصة او رسمه لموضوع كامل . فالرسم الناقص لرجل ، مثلا ، يمكن ان يعجل باضافة اجزاء الرسم ، ولكنه لا يفسد النظام الذي تبدو به الاجزاء . وفي الرسم الحر تبدو العينان في الرأس أولا ، ويميلان الى الظهور في استكمال الرسوم قبل اية تفاصيل أخرى ، حتى ولو كان المطلوب هو استكمال الذراعين او القدمين وليس العينين (آمز ، ١٩٤٥) .

وتأخذ رسوم الاطفال للاشكال البسيطة ، كالدوائر والمربعات والمثلثات ، خطا نمائيا مشابها ، كما يتبين من ملاحظات « جيزل وآمز » (١٩٤٦) . وحينما يكون تصميم الرسم صعبا على الطفل الصغير اذا أراد أن يستنسخه ، فانه يميل الى تبسيط الرسم وفقا لمبادئ معينة : كأن يستبدل تصميمًا له معنى بتصميم يختفى منه المعنى ، وأن يوحد و « يفلق » التصميم ، وأن يدخل الائتلاف او التماثل او النسب المألوفة حينما لا توجد في التصميم . وهناك ميل الى تقصير المستطيل ، والى تربع أي شيء له زوايا ، والى استبدال الدائرة بأي تصميم يقترب من الاستدارة ، والى توسيع الزوايا والى التبسيط ككل عن طريق الفاء التفاصيل . « فالمل هنا - كما تقرر » هيلدرث » (١٩٤٤) من ملاحظاتها - موجه نحو استجابة أكثر

اعتيادية وبدائية ، تتمخض عن اقتصاد عقلى *mental economy* وعن جهد أقل « ويميل الطفل الى التعبير عن رسومه في « كليات » ، حتى حينما ينقصها الكثير من الاجزاء (هيلدرث ، ١٩٤٤) . وتأخذ رسوم الاطفال الصغار شكلا مبعثرا على الورقة بطريقة عشوائية ، ولكنه يميل ، كلما اخذ في النمو ، الى تجميع الرسوم المنفصلة في وحدات كلية (بارنهارت ، ١٩٤٢) .

ولما كان الطفل يرسم اساسا من وحى الانطباعات والآثار المخزونة في الذاكرة ومما تجود به سعة ذاكرته وفاعليتها ، فان رسومه عادة ما تكون غير دقيقة وغير مكتملة . ويتضح هذا في النقص الملحوظ في النسب كما نراه في رسمهم للأشخاص حيث يبدو الرأس اكبر غالبا من الجذع ، كما يكون جامدا وغير معبر .

ويتبع الطفل نموذجا نمطيا في رسمه لكل الانسان ولكن بأجسام وبارجل اربع كالحيوانات . فغالبا ما يرسم الحيوانات برؤوس كراس الانسان ولكن بأجسام وبارجل اربع كالحيوانات . ومن مميزات رسوم الاطفال الصغار الشفافية ، فتبدو الحجرات مثلا من خلال الجدران . ولكن في حوالي السادسة أو السابعة من عمر الطفل تصير رسوم الاطفال عبارة عن تراكيب تتضمن علاقة بين الاجزاء المختلفة (جود انف وهاريس ، ١٩٥٠ ، ميرى وميرى ، ١٩٥٠) . وحينما يرسم الاطفال بطريقة تلقائية ، فمن غير المعتاد لديهم ان يرسموا أى شيء غريب أو شاذ ، رغم ان الكثير من رسومهم قد تبدو بالنسبة للكبار ، « كاريكاتورية » (جيرل ، ١٩٢٨) .

ويعبر الاطفال في رسومهم عن موضوعات مختلفة ، تخضع للتغير من سن لآخر . فالاطفال الصغار يعبرون عادة عن أشياء وأشخاص ومنازل وحيوانات مألوفة ، ويتضح الشكل الانساني اكثر في الرسوم . وتذخر رسومهم ايضا بالمنازل والاشجار ، بينما تقل الحيوانات في رسومهم . ويحب الاطفال الالوان في رسومهم ، رغم استخدامهم لها بطريقة غير ملائمة . ومعظم رسومهم نمطية ، والزخرفة غير متسقة ، والنسب غير متوازنة .

ومع تطور نمو الاطفال ، يصيرون اكثر تركيزا على رسوم الآلات والتصميمات وتقل الرسوم ذات الشكل الانساني . ويتزايد الاهتمام برسوم الحيوانات والمنازل والازهار والاشجار (هورلوك وتومسون ، ١٩٣٤ ، هيوز وستوكديل ، ١٩٤٠ ، الكيش ، ١٩٥٢) . وكثيرا ما يلجأ الاطفال الاكبر سنا الى رسم مناظر هزلية تعبر عن موضوعات ومواقف مختلفة (ويتى ، ١٩٤١ ، ١٩٤١) .

وتتضح الفروق بين الجنسين في رسوم الاطفال منذ فترة مبكرة . فالاولاد يرسمون الاشكال الانسانية اقل من البنات ، ولكنهم افضل من البنات في مراعاة النسب الجسمية . وتميل البنات اكثر الى زخرفة رسومهن المعبرة عن اشكال انسانية . ويميل الاطفال اكثر بين سن الخامسة والحادية عشرة ، الى رسم الاشخاص من نفس جنسهم . ولكن من الحادية او الثانية عشرة ، تبدأ البنات في رسم اشكال تعبر اكثر عن الجنس الآخر . ومع ذلك ، فان الوعي بالفروق الجنسية يتضح في خصائص تعبيرية مثل الشعر والملابس وتعبيرات الوجه منذ حوالي السادسة من عمر الطفل . ويتضح في رسوم البنات الميل الى رسم الاشخاص بوجوه مكتملة اكثر غالبا مما يفعل الاولاد الذين يرسمون صورا جانبية للوجه (بروفيل) . وتزخر رسوم

الاولاد بالطائرات والدبابات ومناظر المعارك ، بينما تندر هذه في رسوم البنات . ويميل الاولاد الى رسم الآلات اكثر من البنات (جود انف ، ١٩٢٦ ، وييدر ونولر ، ١٩٥٠ ، جولز ، ١٩٥٢) .

ويعكس الاطفال ، الذين ينتمون الى أسر ذات مستويات اجتماعية اقتصادية عالية ، في رسومهم تفاصيل اكثر من الاطفال الذين من نفس عمرهم ولكن من مستويات أقل (وييدر ونولر ، ١٩٥٠) . كذلك يؤثر مستوى ذكاء الطفل على نوعية رسومه وعلى الموضوع الذى يعبر عنه (جود انف ، ١٩٢٦ ، آمز ، ١٩٤٥) . لذا يستخدم الرسم كطريقة لقياس ذكاء الطفل . « اختبار رسم الرجل لجود انف » .

(٥) الالعاب الترويحية والرياضية

يعيش الاطفال أنشطة اخرى من الالعاب الترويحية والبدنية ، يسعدون لها اكثر . وتنعكس بايجابية تامة على كافة جوانب شخصيتهم . فمنذ النصف الثانى من العام الاول من حياة الطفل ، يبدأ فى الانجذاب الى بعض الالعاب البسيطة التى يشار اليها غالبا على انها « ألعاب الأم » mother games ، لأن الطفل يلعبها غالبا مع الأم .

وتخبر الطفولة انتقال نماذج من الالعاب من جيل لآخر كميّات ثقافي مثل « لعبة الاستغماية » و « السوق » و « التعلب فات » وغير ذلك من الالعاب التى تتواتر تقريبا عبر الاجيال . ونجد الطفل ، بعد ان يتعلم المشي ، يحظى بسعادة كبيرة حينما يختبئ عن أنظار الآخرين لكى يرى ما اذا كانوا يعثرون عليه ، وكثيرا ما تصدر عنه صيحات الفرح وتتعالى ضحكاته .

وفي سنوات ما قبل المدرسة ، يصبح الطفل اكثر اهتماما باللعب مع الجيران فيما يعرف بالالعاب الجيرة neighbourhood games وهى نمط من الالعاب تكون فيه جماعة اللعب غير محددة ، حيث يمكن ان يشترك فى اللعب أى عدد من الاطفال . وفى هذا اللعب قد يقوم طفل واحد بتنظيم اللعبة ويدعو الآخرين الى اللعب معه ، كما قد يجرى تنظيمها بواسطة طفل اكبر أو شخص راشد . فى هذه الالعاب يقلد الاطفال بعضهم بعضا ويتبعون اوامر وتعليمات محددة من القائد الذى يتصدر اللعبة .

والالعاب فى هذا السن بسيطة ومختصرة وقليل الفوائد ، وكثيرا ما تنشأ توا لدى الطفل وفى الموقف نفسه . وغالبا ما تخضع هذه الالعاب للتعديل كلما مضى الاطفال فى اللعبة (ريسى ، ١٩٥٤) . ومن أمثلة هذه الالعاب « الاستغماية » والاختباء والمطاردة ، وقد يستخدم الاطفال أدوات للعب ، مثل أدوات المطبخ أو حجرة نوم أو صالون أو مواصلات ، فى تنظيم هذه الالعاب .

وفى حوالى سن الخامسة ، يقوم الطفل باللعب لكى يختبر بها مهاراته ، كالسير على الحواجز الموجودة فى الشوارع وعلى رصيف مكسر والقفز من أماكن عالية ، أو يحجل على قدم واحدة ، أو الوثب ونط الحبل ، أو التقاط الكرات برشاقة ، الخ . وهذه الالعاب تقوم على تنظيم اجتماعى أقل من ألعاب الجيرة ، لأنها فردية أكثر منها جماعية ، ولأن عنصر التنافس

فيها ذو أهمية قليلة نسبياً . ويعتمد نمط الألعاب هذه بدرجة كبيرة على مستوى النمو الحركي والعقلي لدى الطفل (جيرسيلد، ١٩٥٤) .

وفي سنوات ما قبل المراهقة ، تصبح الألعاب غالباً تنافسية في مضمونها : فيتخلى الأطفال عن الألعاب الفردية ، وتتحول ألعاب الجيرة إلى ألعاب الفريق أو الألعاب الثنائية ، والان يصير اهتمام الطفل متمركزاً حول المهارة والتفوق . والمعروف أن الطفل في البداية يكون فردياً ، قليل التعاون في لعبه ، لأنه يبتغي السيطرة على اللعب بدلاً من تحديد جهوده في إطار دوره . إلا أنه يتعلم بالتدريج التعاون مع الآخرين المشتركين في اللعب ويتبادل أدوار اللعب معهم ، ونتيجة لذلك فإنه يحظى بقبطة أكبر ، لأنه عضو فعال في فريقه ويتعاون مع أعضائه ويخضع لقواعده .

وليست الألعاب الترويحية والرياضية باعثة على البهجة في نفس الطفل فحسب، ولكنها أيضاً ذات قيمة بالغة كوسيط للتطبيع الاجتماعي له . فمن هذه الألعاب ، ومن غيرها أيضاً ، يتعلم كيف يسلك وينسجم مع الأطفال الآخرين، وكيف يتعاون في الأنشطة المختلفة ، وكيف يلعب دور القائد أحياناً والتابع في مواقف أخرى ، وكيف يقدر نفسه ويقيم قدراته بطريقة واقعية عن طريق مقارنة نفسه بزملائه المشتركين معه في اللعب . وفي ذلك يؤكد « دي بوا » (١٩٥٢) ، ص ٣٧٠ - ٣٧١) على قيمة هذه الأنشطة في تنشئة الطفل وفقاً لمعايير الصحة النفسية السليمة :

« فهذه الأنشطة تتحدى الطفل لكي ينمي مهارة ، أو يكون عادة ، وفي سياقها يستثار بالنصر ويبدل جهداً أكبر . وحينما لا يشترك الناس في صباهم في ألعاب رياضية ، فإنهم يحصلون على تقديرات منخفضة وفقاً لمقاييس التكيف الاجتماعي والانفعالي الناجحين . فمثل هؤلاء الأشخاص كثيراً ما يترغمون الشغب ويثيرون المتاعب ، لأنهم لم تكن لديهم الفرصة لأن يتعلموا كيف يكسبون بتواضع ، أو يخسرون بشرف وبروح طيبة ، أو يتحملون التعب الجسمي في سبيل تحقيق الهدف . وباختصار، فإن أشخاصاً كهؤلاء لا يحظون بميزة تعلم نظام الروح الرياضية الطيبة ، وهي لازمة للغاية لحياة سعيدة عند الكبار » .

والواقع أن ما تحققه الألعاب الرياضية من فوائد ملموسة ومعروفة تتعلق بتعلم المهارات الحركية والالتزان الحركي والفاعلية الجسمية لا يقتصر على مظاهر النمو الجسمي السليم فقط، وإنما ينعكس كذلك على تنشيط الأداء العقلي كما يتضح من نتائج اختبارات الذكاء ، وعلى العمل الأكاديمي كما يتضح من نتائج اختبارات التحصيل المدرسية ، بل وعلى الشخصية ككل متكامل .

فقد بينت بعض الدراسات (أبرنيثي ، ١٩٣٦ ، بايلي ، ١٩٤٠) وجود علاقة إيجابية بين ارتفاع الذكاء والنمو الجسمي الأفضل لدى الأطفال منذ الطفولة المبكرة وحتى نهاية المراهقة، بسبب عوامل رعايتهم كالتغذية وممارسة الألعاب الرياضية . ومن ناحية أخرى ، كشفت بعض الدراسات (جونز ، ١٩٥٤) عن علاقة عكسية بين نقص النمو الجسمي والتحصيل الدراسي، أي ارتباط قلة الفاعلية الجسمية بانخفاض مستوى تحصيل الطفل دراسياً . ومع ذلك ،

فإن نتائج الدراسات في هذا الميدان ، وإن كانت لها دلالتها عملا بالقول المأثور « العقل السليم في الجسم السليم » ، فإنها لازالت غير قاطعة ، وقد تكون متضاربة أحيانا ، وغير دالة في أحيان أخرى .

(٦) الألعاب الثقافية

للطفولة ثقافتها .. تعبر عن حاجة أصيلة في الاطفال وهي « الحاجة الى الاستطلاع » (برلاين ، ١٩٦٥ ، كما تبدو في النزعة الى التعرف على العالم المحيط بهم ، وإلى ادراك العلاقات فيه ، وإلى الرغبة في المعرفة . وتعكس ثقافة الاطفال ، من ناحية أخرى ، أسلوب حياة الجماعة كما يتضح في النواتج المادية والعملية والرمزية التي يهيئها الكبار لعالم الصغار : وفي فلسفة وأساليب تنشئة الكبار للصغار .

ومن الأساليب الفعالة في تثقيف الطفل ما يعرف بالألعاب الثقافية ، حيث يكتسب الطفل أساسا معلومات ومعارف وخبرات من خلال نشاط مثير لاهتمامه يأخذ شكل اللعب بدرجة كبيرة . ورغم أن الطفل يكتسب زادا معرفيا من الأشكال والنماذج المختلفة للعب ، إلا أنه يمكن أن نحدد أساليب معينة للألعاب الثقافية كالقراءة ، وبرامج الاطفال بالاذاعة والتلفزيون ، وسينما ومسرح الاطفال . وسوف تقتصر الآن على القراءة كنموذج من الألعاب الثقافية .

القراءة عند الاطفال :

من الخطأ الاعتقاد بأن القراءة عند الاطفال تبدأ مع تعليمهم للقراءة والكتابة وتمكنهم النسبي منها ، فللقراءة أصولها التطورية التي تنمو مع الطفل .

فمنذ العام الاول نجد أن الطفل الرضيع يجب أن يسمع غناء الكبار حيث يفتبط للاصوات الإيقاعية المصاحبة لترديد الأم للكلمات أو أغاني حانية تغريه بالنوم ، وحيث يبتهج لما في دور الحضنة من ألوان الإيقاع التي يجرى غناؤها أو تسميعها بصوت غنائي . وفي حوالى العامين ، يحب الطفل أن ينظر إلى الكتب المصورة التي تحوى صوراً كبيرة مطبوعة بألوان زاهية للناس والحيوانات ولاشياء منزلية مألوفة ، الخ . وهم يستمتعون ، حينما ينظرون إلى الصور ، بأن تحكى لهم قصصاً بسيطة عن هذه الصور . وحتى إذا لم يستطع الطفل فهم الكلمات ، فإنه يستمتع بانسياب الاصوات ، وبما يحدثه القارئ من تغيرات في مقام الصوت ، وبتعبيرات وجهه . وبالإضافة إلى ذلك ، تعتبر القراءة للطفل الصغير خبرة سارة ، وخاصة إذا كان جالساً على « حجر » أمه أو شخص عزيز عليه (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وتنطوى الخبرات القرائية المبكرة على تأثير واضح على نمو الميول القرائية لدى الطفل فيما بعد . فهي تؤثر ليس فقط على كمية ما يقرأ ولكن أيضاً على نوعية ما يقرأه (جيتس ، ١٩٤٩ ، رسل ، ١٩٤٩ ، افرون ، ١٩٥٣) .

لذلك يمكن ، وإلى حد كبير ، تبين الميول القرائية عند الاطفال منذ مرحلة مبكرة . فالكتب المصورة والقصص التي يقرأها الكبار للطفل والتي يعرفها غالباً عن ظهر قلب ، غالباً ما تجذب الاطفال خلال سنوات الطفولة المبكرة . ويحب الطفل في هذا السن أن تكون كتبه صغيرة حتى يستطيع أن يمسكها بسهولة وإن تحوى صوراً جذابة وقصصاً قصيرة . ولما كان الطفل لا يفهم

دائما معنى الكلمات التي يسميها من قراءة القصص له ، فانه يسعد بالانصات لهذه القصص في عبارات مقفاة او في ايقاع منغم (جاريسون ، ١٩٥٢ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وغالبا ما يميل الاطفال الصغار الى القصص الواقعية . ولكن بقدر ما تكثر حقائق الحياة امام الطفل الصغير ، يزداد عدم ميله للخيال في القصص . ولاتجبا الام نحو الخيال تأثير هام على الطفل . فالام التي تشعر ان الخيال غير ضروري او انه يشجع على الهروب من الواقع ، تؤثر في تفضيل الطفل للواقعية في قصصه . ومع ذلك ، فان معظم الاطفال الصغار يستمتعون بالخيال في القصص ، ويميلون الى « التوحد » مع شخصيات القصص التي يسمونها (ولفنشتاين ، ١٩٤٦) .

والطفل الصغير ليس حرا في انتقاء ما يريد ان يقرأه له الكبار . فالكبار في حياته ، من آباء او مدرسين في دور الحضانة ورياض الاطفال يزودونه بكتب عليه ان يختار منها القصص التي يجب سماعها . لذا يفضل معظم الصغار قصصا تدور حول اشخاص وحيوانات مألوفة في حياتهم اليومية . ويميلون ايضا الى القصص الكلاسيكية مثل (سندريلا) و « على بابا والاربعمائة حرامي » والقصص المصرية مثل القصص التي تدور حول الفضاء ورواده ، والقصص الفكاهية والدرامية . وتتألف الشخصيات المحببة اليهم في هذه القصص من الحيوانات والاولاد والبنات ، مع الاهتمام الضئيل بالكبار والاطفال الرضخ والجان . ويتحدد ميلهم الى تلك الشخصيات المحببة بما يتصفون به من خصائص مؤثرة او من مرح وفكاهة . ويميلون ايضا في سنوات ما قبل المدرسة ، بسبب ما يتصفون به من « احيائية » animism (اي اضافة الحياة على الاشياء) ، الى القصص التي تدور حول حيوانات تسلك كالكائنات الحية الانسانية (ويلسون ، ١٩٤٣ ، وتي وآخرون ، ١٩٤٦ ، فرييدسون ، ١٩٥٣) .

والاطفال الاكبر سنا ، كالصغار ايضا ، محكومون الى حد ما فيما يستطيعون قراءته بما يسره لهم الوسط المحيط بهم : في البداية يتحدد نطاق قراءاتهم بالكتب التي يمددهم الوالدان بها . وبعد فترة ، قد يستمعون الكتب من اصدقائهم او من المدرسة او المكتبة العامة . ومع ذلك ، فان الطفل يخضع لضغوط ثقافية معينة تؤثر في تكوين اهتماماته بالقراءة . فهو يتعلم ان يقرأ ما يقترحه الكبار عليه وما يعتبر ملائما لجنسه (تشايلد وآخرون ، ١٩٤٦ ، سيوارد وهاريس ، ١٩٥١ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) . ويتأثر الى حد كبير مقدار ما يقرأه ونوعية قراءاته بالقيم والاهتمامات السائدة في طبقتهم الاجتماعية . وبالمستوى الثقافي للأسرة (وارنر ولونت ، ١٩٤١ ، براون ، ١٩٥٤) .

ومع تطور النمو ، تخضع تذوقات الطفل في القراءة للتغير . فهو يطلق على مالا يحبه بانه « طفلى » ، وسبب ذلك ، ان ما كان يستثير في الماضي لم يعد يشد انتباهه الان . وبتأثير نموه العقلي وازدياد خبراته المدرسية ، يصبح أكثر واقعية ، ويعتبر اي شيء يتعلق بالخيال على انه « زيف » او « دجل » (فرييدسون ، ١٩٥٣) .

ولا يستطيع الكبار دائما التنبؤ بميول وتفضيلات الاطفال في القراءة وانتقاء الكتب ، فتفضيل الطفل للواقعية او الخيالية يتوقف بدرجة كبيرة على ما اذا كان قد تعلم حب الخيال في الطفولة المبكرة ، وعلى اتجاهات والديه في هذا الشأن . وقد يجلب شكل الكتاب وما فيه

من صور ورسوم ايضاحية بعض الاطفال اكثر من غيرهم ، كما ان ما ينجذب اليه الاطفال يكون غالبا مختلفا عما ينجذب اليه الكبار . كما ان القدرة القرائية لدى الطفل سوف تحدد ما الذي سوف يحبه ويفضله . فالاطفال الذين يلاقون صعوبات في القراءة يفضلون كتب ذات مستوى اقل مما يميل اليه الاطفال المتفوقون في قدرتهم القرائية . ويؤدي الاهتمام الزائد بالوصف وبحشد الكتاب بالكثير مما هو غريب على الطفل الى جعل الكتاب غير مألوف لديه ، رغم تقدير الكبار لمثل هذا الاتجاه في اعداد كتب الاطفال (ويليامز ، ١٩٣٩ ، رانكن ، ١٩٤٤) .

وتكشف الدراسات الخاصة بالميل القرائي لدى الاطفال في سنوات المدرسة عن تفضيلات معينة لانماط من الكتب في اعمار مختلفة ، فمما يحصل عليه الطفل الاكبر من متعة القراءة يرجع غالبا الى اشباع روح المغامرة التي تكون قوية لديه في هذا السن . واذا ادخلنا الطفل في عالم خيالي نخلقه له بواسطة الكتاب ، فانه يتخيل نفسه وكأنه يقوم بعمل الاشياء التي يحب ان يعملها ولا يكون قادرا على الاتيان بها في حياته اليومية . وفي حوالى السادسة او السابعة ، تتركز اهتمامات الطفل بالقراءة حول قصص عن الطبيعة والرياح والطيور والاشجار والزهور . وفي هذا السن يبدأ الاهتمام بحكايات تتعلق بالجان او الشخصيات الخرافية ، ولكنها ينبغي ان تكون قصيرة وبسيطة وفي شكل حوار غالبا .

وتصبح الحكايات المتعلقة بالجان او الشخصيات الخرافية fairy tales اكثر اللوان القراءة تفضيلا لدى الاطفال . فالعنصر الخيالي في هذه القصص يكون له جاذبية اكبر في نفس الطفل في هذا السن . ويتزايد اهتمام الطفل في هذه الفترة ايضا بالقصص التي تدور حول اجزاء اخرى من العالم ومن حياة الشعوب ، وخاصة اذا كانت تتمركز حول الاطفال .

وفي نهاية مرحلة الطفولة الوسطى ومع بدايات الطفولة المتأخرة (اى في حوالى التاسعة او العاشرة من عمر الطفل) يأخذ الاهتمام بمثل هذه الحكايات في الانطفاء . ويعزى ذلك الى تلك الحقيقة بان ما يتلقاه الطفل في المدرسة من تعلم وتدريب يجعل من الصعب عليه ان يعتقد في مثل هذه العناصر الخرافية التي تتضمنها هــ القصص . ويصدق هذا خاصة على الاولاد الذين تنتقل اهتماماتهم القرائية الى القصص التي تدور حول حياة الاولاد ، مثل الكشافة والجوالة . ويميلون ايضا الى قصص المغامرة والكوميديا والرعب وقصص الاشباح . وفي نهاية الطفولة تبرز الرغبة الملحة في القراءة التي يصير لها الان مكانة عالية بين اكثر أنشطة اللعب التي يميل اليها الطفل . وينطبق هذا على البنات بصورة خاصة . بل انه لمن المألوف تماما عند الاولاد والبنات في هذا السن ان يقرأوا في كل شهر كتابا او كتابين من اجل الاستمتاع .

اما في مرحلة المراهقة ، فان الاهتمامات واليوز القرائية لدى المراهقين تصبح اكثر صقلا وتبلورا واكثر امتاعا من الناحية العقلية . ويرجع هذا التغير الى نمو قدرتهم على التفكير التجريدي ، والى ازدياد خبراتهم ومعارفهم بالتعلم المدرسي . في هذه المرحلة يكون الاطفال اكثر نضجا في نظرهم الى الامور ، وبالتالي في ميولهم القرائية . فبينما يهتم الاولاد غالبا بموضوعات تتعلق بالعلم والاختراع ، تهتم البنات بالشئون المنزلية والحياة المدرسية . وفي المراهقة يصل الولع

بالقراءة الى ذروته . وترجع هذه الظاهرة الى نزعة المراهقين الى الانعزال بسبب ما تخبره هذه المرحلة من تغيرات جذرية في داخل المراهق وخارجه ، وما قد يترتب على ذلك من مشكلات قد تجعله مهموما ومشغولا ، وبالتالي يلجأ الى الانهماك في القراءة هروبا من مشكلاته أو صراعاته في هذا السن . كذلك ترجع هذه الظاهرة الى الطفرة في نموه العقلي والمعرفي ، والى تفرع نشاطه العقلي وتمايز قدراته الخاصة .

ولما كانت المراهقة مرحلة تسيطر فيها نزعة قوية الى التعلق بالابطال وعبادة البطولة ، فان الكتب التي تزخر بالابطال التاريخيين والخرافيين، مثل سير العظماء ، تلقى هوى في نفوس المراهقين . ويهتم الاولاد في هذا السن باختراعات والمغامرة ، بينما تهتم البنات اكثر بالكتب المتعلقة بالمنزل والحياة في المدرسة والجامعة والقصص المكتوبة عن الاولاد والكتب المتعلقة بالطبيعة والكتب الدينية . ومع تعاقب سنوات المراهقة ، تأخذ ميولهم القرائية في التعلق والتأصل (تيرمان وليما ، ١٩٢٧ ، وتي وآخرون ، ١٩٤٦ ، لينيس ، ١٩٥١ ، جاريسون ، ١٩٥٢ ، فريديسن ، ١٩٥٣) .

والواقع ان عادات الالفة بالكتاب والاستئناس للقراءة ، ومهارات البحث والتنقيب عن المعرفة . تمثل أحد المقومات الاساسية التي تقوم عليها فاعلية النشاط العقلي المعرفي . لذلك ينبغي ان تتكون هذه العادات والمهارات منذ الطفولة ، وان تتأصل عند الاطفال مع انتقالهم من مرحلة لآخرى من مراحل تطور نموهم .



العوامل المؤثرة في لعب الاطفال

لعب الاطفال ، كما يتضح من التحليل السابق ، يأخذ اشكالا ونماذج مختلفة ، فلا يلعب كل الاطفال بنمط واحد من النشاط ، ولا يلعب كل طفل في كل وقت بشكل أو نموذج بعينه . واذا كانت اهتمامات الاطفال باللعب تأخذ خطا نمائيا معينا ، الا ان لعب الاطفال هكذا لا يعد نشاطا يجري بصورة مطلقة ، ولكنه يخضع للكثير من التباين والمغايرة الذي يعزى الى واحد أو اكثر من العوامل التالية :

الحالة الجسمية :

من المعروف ان الاطفال الاصحاء بدنيا يلعبون اكثر من الاطفال معتلّي الصحة ، ويبذلون جهدا ونشاطا اكبر توظيفاً لما لديهم من طاقة . ويتضح من ملاحظات المعلمين في المدرسة الابتدائية والمشرّفين على دور الحضانة ورياض الاطفال أن الاطفال ناقصي التغذية والرعاية الصحية اقل لعبا واقل اهتماما وعناية بالالعاب والدمى التي تعطى لهم .

ويلعب مستوى النمو الحسي - الحركي في سن معينة دورا هاما في تحديد مدى نشاط اللعب عند الطفل . فمثلا ، حينما لا يكون الطفل قادرا على قذف الكرة والتقاطها ، فلن يستطيع مشاركة اقرانه في الكثير من ألعاب الكرة . ويؤدي نقص التناسق الحركي الى اعاقا الطفل

عن ممارسة الالعب التي تقوم على التقطيع والتركيب والرسم والزخرفة والعزف على الآلات الموسيقية .

وقد تبين من بعض الدراسات التي قامت على استخدام مواد من اللعب ، كنماذج لعربات القطار والدراجات (جونز ، ١٩٣٩) ، أن لعب الطفل يتوقف بدرجة كبيرة على مستوى الاتساق العصبى العضلى الذى وصل اليه الطفل : ففي سن ٢١ شهرا ، على سبيل المثال ، يستطيع جذب ودفع الدمى ، وفى سن ٢٤ شهرا يستطيع جذبها ودفعها بتحكم وتوجيه ، وفى سن ٢٩ شهرا يستطيع تسييرها لحوالى سبعة ونصف قدم ، وفى سن الثلاث سنوات يستطيع تسييرها بمهارة ولا يستطيع الطفل أن يمسك القلم باتساق ويستخدمه فى الكتابة باتقان قبل سن السادسة تقريبا ، لان عضلاته الدقيقة وتأزر الآليات العصبية العضلية اللازمة للكتابة لم تنضج بعد بدرجة كافية .

المستوى العقلى :

يتأثر لعب الطفل منذ المهد بمستوى ذكائه . فالاطفال النابهون أكثر لعبا وأكثر نشاطا فى لعبهم من الاطفال الأقل ذكاء ، كما يكشف لعبهم عن فراهة وإبداع أكبر . ومنذ العام الثانى ، تبدو الفروق واضحة بين هؤلاء الاطفال فى نشاط لعبهم . فالطفل الأكثر ذكاء ينتقل بسرعة من اللعب الحسى الى اللعب القائم على المحاكاة ، ويميز عنصر الخيال جليا فى لعبه . ولا يتضح هذا التطور فى لعب الاطفال الأقل ذكاء ، حيث يأخذ لعبهم مع انقضاء الشهور والسنوات شكلا « نمطيا » لا يتضح فيه مظهر أساسى للتغير ، فيتخلفون عن أقرانهم من نفس السن فى مدى نشاط لعبهم وأنواعه وأساليب ممارساتهم فى اللعب . ومع مرور الوقت ، تأخذ هذه الفجوة بين لعب الاطفال الأذكاء والأقل ذكاء فى الازدياد ، وفقا للمستويات العقلية المختلفة . ومن ناحية أخرى ، حينما يختلف لعب الطفل كثيرا عن لعب الاطفال الآخرين من نفس السن ، فإن ذكاء الاطفال يأخذ فى الانخفاض كثيرا (هولينجوارث ، ١٩٢٦) .

وفيما يتعلق باختيار مواد اللعب ، يبدى الاطفال العاديون أو ذوو المستويات الأعلى فى الذكاء تفضيلا لمواد اللعب التى تعتمد كثيرا على النشاط التركيبى البنائى بدرجة أكبر من الاطفال ضعاف العقول . كما يبدى الاطفال العاديون والأذكاء ثباتا أكبر فى طول فترة اهتمامهم بمواد اللعب التى يختارونها (هورن وفيليس ، ١٩٤٢) .

وتبين بعض الدراسات (مايبورى ، ١٩٥٢) أن الاطفال الذين حصلوا على نسب ذكاء عالية فى سنوات ما قبل المدرسة قد أظهروا اهتماما واضحا بالأجهزة والمواد التى تستخدم فى الالعب التمثيلية والأنشطة الابتكارية ، مثل الصلصال والمقصات والرسم والزخرفة والالعب التركيبية . وكان اهتمامهم بالكتب لاجل الحصول على المعرفة والاستمتاع والانسحاب من الجماعة .

وكلما تقدم الاطفال فى السن ، تصبح هذه الفروق فى اللعب بين الاطفال المرتفعى الذكاء والمنخفضى الذكاء أكثر وضوحا . فالاطفال النابهون يبدون اهتماما بمجموعة كبيرة من أنشطة اللعب ، ويقضون فيه وقتا أكبر (ليهمان ووتى ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ،

(١٩٣٣) . وهم أكثر ميلا الى الالعب الفردية منها الى الالعب الجماعية ، ويقضون وقتا أكبر في القراءة ، ويكون اشتراكهم في الالعب التي تتضمن نشاطا جسميا قويا أقل من الاطفال ذوي الذكاء المتوسط . كما يميل الاطفال النابهون قليلا الى الالعب الرياضية ، وكثيرا الى الالعب العقلية (تيرمان ، ١٩٢٥ ، ليهمان ووتى ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ، ١٩٣٣) . ويستمتع الاطفال النابهون بجمع الاشياء ولديهم هوايات أكثر من الاطفال الآخرين (بوينتون ، ١٩٤١) .

ويمكن ملاحظة عامل الذكاء في لعب الاطفال في القراءة خاصة . فالاهتمام المبكر بالقراءة والقدرة على القراءة يتضحان عند الاطفال الذين يحصلون على نسب ذكاء عالية . ويقضى الاطفال مرتفعو الذكاء في كل سن وقتا أكبر في القراءة ، ولديهم مدى أوسع من الاهتمامات القرائية . كذلك يختلف نوع القراءة التي يفضلونها ، فالاطفال الموهوبون يستمتعون بقراءة القواميس والاطالس والموسوعات والعلم والتاريخ والسير والاسفار والشعر والادب . ولا يميلون الى الحكايات الخرافية ، لكن يفضلون الروايات البوليسية على قصص المغامرات العنيفة . والقصص الخيالية العاطفية أقل جاذبية للاطفال الموهوبين ، وان كان الاهتمام بالروايات العاطفية (الرومانتيكية) يتكون لديهم قبل سن المراهقة (تيرمان ، ١٩٢٥ ، هولنجوارث ، ١٩٢٦ ، تيرمان وليما ، ١٩٢٧ ، ما يورى ، ١٩٥٢) .

الجنس (بنين - بنات) :

يلعب جنس الطفل دورا كبيرا في نشاط لعبه . الا ان الفروق بين الجنسين لا تتضح في السنوات الاولى من حياة الاطفال . بل انه اذا توفرت بيئة واحدة والعب واحدة ، فمن تتضح اية فروق دالة بين الجنسين قبل مرحلة المراهقة . ولكن ، لما كان الاطفال يعيشون في بيئات واوساط ثقافية متباينة تختلف فيه الالعب والدمى باختلاف الجنسين ، فان الفروق بين الجنسين في اللعب تبدأ في الظهور منذ سن مبكرة . ويصبح الاطفال واعين منذ سن مبكرة بأنه توجد أنواع معينة من اللعب ملائمة للاولاد وأخرى للبنات . وتلعب الاتجاهات الوالدية وانتقاء أدوات اللعب ووجود أمثلة من زملائهم في اللعب ووجود اطفال أكبر سنا دورا حاسما في تدعيم المؤثرات الثقافية بين الجنسين (كون ، ١٩٥١) .

وبصفة عامة ، تفضل البنات اللعب بالدمى والالعب المتعلقة بالمواد المنزلية والخز والمكعبات؛ بينما يفضل الاولاد القطارات والعربات والدبابات والطائرات والسفن والاحصنة والمسدسات ، الخ . ويلعب الاولاد بعنف أكثر من البنات ويفضلون العابا ككرة القدم والبلى ، بينما تحب البنات العابا مثل النط بالحبل والالعاب الاختفا وان يلعبن منزلا او مدرسة (بنجامين ، ١٩٣٢ ، كون ، ١٩٥١ ، هونزليك ، ١٩٥١ ، ما يورى ، ١٩٥٢) . وحتى حينما يلعب الاولاد والبنات بنفس مواد اللعب ، فان ما يتوصل اليه الاولاد من تكوينات وتشبيكات يختلف عما تحققه البنات (هونزليك ، ١٩٥١) . وتبدو الفروق بين الجنسين واضحة في تفضيلاتهم فيما يتعلق بالقراءة وبرامج الاذاعة والتلفزيون والافلام . ويبدى الاولاد في كل الاعمار مدى من اهتمامات

اللعب اكبر من البنات (هونزيك ، ١٩٥١) . والواقع أن الكثير من هذه الفروق يعزى الى المؤثرات الثقافية ، والى توقعات الادوار من كل من الجنسين .

العوامل البيئية :

يتأثر الاطفال فى لعبهم بعامل المكان . فمعظمهم يلعب ، خاصة فى السنوات الاولى ، مع الاطفال الذين يجاوزونهم فى المسكن . وبعد فترة يلعبون فى الشوارع أو الساحات أو الاماكن الخالية القريبة من مسكنهم ، وقلة منهم تلعب فى النوادي والملاعب والحدائق (سوللينجر وآخرون ، ١٩٥٣) . لذلك يكون للبيئة التى يعيشون فيها تأثير واضح على الكيفية التى سيلعبون بها وعلى نوعية الالعاب التى سيشترون فيها . واذا لم يتسیر امامهم اماكن ملائمة للعب قريبة من منازلهم أو بعض مواد اللعب التى يستخدمونها فى لعبهم ، فانهم سوف يقضون الكثير من وقتهم الحر فى « التسكع » hanging around ، وربما يقومون بالالعاب غير منظمة أو بمجرد ملاحظة الاطفال الآخرين أو الكبار ، أو يصبحون مصدرا للازعاج (ريفر ، ١٩٣١) .

وتوضح بعض الدراسات (مثل دراسات ليهمان ، ١٩٢٦ ، مير وميرى ، ١٩٥٠) أن اطفال البيئات الفقيرة يلعبون أقل من البيئات الأغنى . وقد يعزى هذا جزئيا الى الاختلاف فى الحالة الصحية ، ولكن يعزى بدرجة كبيرة الى أن البيئات الفقيرة بها لعب أقل ووقت أقل ومكان أضيق للعب من البيئات ذات الامكانيات الاقتصادية الأعلى . ورغم أن الاطفال فى البيئات الفقيرة يحظون بصحبة اكبر فى اللعب ، إلا أن هذا العامل وحده لا يكفى للتعويض عن العوامل الأخرى التى ذكرناها . وفى المناطق الريفية والصحراوية ، بسبب انعزالها الجغرافى ، تقل الالعاب لصعوبة تنظيم جماعات من الاطفال ، كما تقل أدوات ووقت اللعب لأن الاطفال كثيرا ما يساعدون الوالدين فى الحقل أو الرعى أو الأعمال المنزلية .

وتؤثر الظروف البيئية فى نوعية اللعب . فالمناخ وتعاقبه بين فصول السنة يؤثر فى نشاط اللعب عند الاطفال (سوللينجر وآخرون ، ١٩٥٣) : ففي الشتاء فى المناطق المعتدلة يخرج الاطفال للعب فى الحدائق والمتنزهات ، بينما يستمتعون فى المناطق الباردة بالتزحلق على الجليد واللعب بالثلج . وفى المناطق شديدة الحرارة صيفا يتحدد نطاق لعب الاطفال بالاماكن المغلقة ، وفى المناطق المعتدلة الحرارة صيفا يهرع الاطفال الى شواطئ البحر وحمامات السباحة . وهناك ألعاب تتعلق بفصول معينة من السنة كأن تعتبر كرة القدم والهوكى ألعابا شتوية أساسا ، والسباحة ألعابا صيفية بصفة عامة .

والاطفال فى المناطق الساحلية قد تنمو لديهم اهتمامات باللعب وبمواده تختلف عن الاطفال فى المناطق الداخلية أو الصحراوية . والاطفال فى البيئات الصناعية قد يهتمون بألعاب معينة تختلف عن البيئات الريفية ، وهكذا من عوامل التعدد والتنوع البيئيين .

العوامل الاجتماعية والثقافية :

يتأثر لعب الاطفال بثقافة المجتمع . . أى بأسلوبه فى الحياة ، وبما يتواتر فيه من عادات وقيم وتقاليد . وتتوارث أجيال الاطفال عن الأجيال السابقة بعض الالعاب التى تشيع فى المجتمع ،

كتوارث لعبة « التحطيب » في صعيد مصر مثلا. ومع ذلك فان ثمة ألعابا متشابهة تتوارثها الاجيان المختلفة في معظم دول العالم ، مثل ألعاب الاختفاء و « الاستغماية » و « عسكر وحرامية » ونط الحبل والقفز وكرة القدم وغيرها. ويكشف (تقرير الأمم المتحدة ، ١٩٥٣) عن ألعاب تقليدية نجدها تتكرر بين الاطفال في كثير من الشعوب . فقد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن لعبة « عكاز الأعمى » توجد في الكثير من الدول الأوروبية ؛ ولعبة الاختفاء توجد لدى الاطفال في كثير من البلدان الآسيوية والعربية والأوروبية . وربما تتضح الألعاب التقليدية المتوارثة لدى الاطفال الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية اقتصادية أقل ، في حين ان الاطفال من المستويات الأعلى يستطيعون اقتناء الكثير من الألعاب العصرية ويلعبون في أماكن مخصصة كالنوادي أو ساحات المنزل .

وتلعب الخلفية الاجتماعية الاقتصادية دورا كبيرا في لعب الاطفال. فالمستوى الاجتماعي الاقتصادي يؤثر في أنشطة اللعب من الناحية الكمية والكيفية على حد سواء (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) . وإذا كانت هذه الفروق لا تتضح خلال سنوات الطفولة الأولى ، إلا أنها تبرز كلما تقدم الاطفال في السن (مير وميرى ، ١٩٥٠) . ويبدى الاطفال الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية اقتصادية أعلى تفضيلا لأنشطة اللعب التي تتكلف بعض المال كالتنس مثلا ، بينما يشترك الاطفال من المستويات الأقل في أنشطة ضئيلة التكاليف كالعاب كرة القدم ونط الحبل والاختفاء والاستغماية (بوينتون ووانج ، ١٩٤٤) . بل ان الوقت المخصص للعب يتأثر بالطبقة الاجتماعية . فقد أوضح « فوكس » (١٩٣٤) ان الوقت المتاح أمام الاطفال من الأسر الفقيرة أقل من الاطفال ذوي المستوى الأعلى ، وذلك بسبب ضرورة مشاركتهم الأسرة في بعض واجباتها وأعبائها الاقتصادية . ومن ناحية أخرى ، قد يقضى هؤلاء معظم وقتهم في لعب غير موجه وغير مدعم من أسرهم .

وتؤثر الطبقة الاجتماعية التي ينتمى اليها الطفل في نوع الكتب التي يقرأها ، وفي الأفلام التي يراها ، وفي أنواع النوادي التي قد ينتمى اليها (فولبردنج ، ١٩٤٨) . فالاطفال الذين ينتمون الى أسر ميسورة ماديا وثقافيا يشتركون في ألعاب ذات صبغة حضارية أكبر ، كالموسيقى والفن والأنشطة المنظمة مثل الرحلات والعسكرات (جرامر ، ١٩٥٠) . وهم يقضون في هذه الأنشطة وقتا أكبر وبشكل أكثر نظاما ، بينما ينفق الاطفال ذوو المستويات الأقل وقتا كبيرا في مجرد مشاهدة برامج التلفزيون ، أو في اللعب خارج المنزل ولعظم اليوم (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) .

بل ان فلسفة المجتمع وايدولوجيته تؤثران الى حد كبير في لعب الاطفال بنماذجه وأشكاله واساليبه المختلفة . فبرامج الاذاعة والتلفزيون والأفلام السينمائية وكتب الاطفال ونتاج مواد اللعب المختلفة ، تخضع بشكل أو بآخر للتوجيه القومي لهذه الأنشطة وللغاية المنشودة منها .

نظرة الكبار للعب الاطفال :

ولعب الاطفال ، كأي جانب آخر من حياة الطفولة ، يتأثر بدرجة ادراك الكبار ، وخاصة الوالدين ، لهذا النشاط ولاهميته ولاساليبه . فلعب الاطفال يتحدد كثيرا بالاتجاهات الوالدية نحو أساليب تربية وتنشئة الاطفال . وهذه الاتجاهات بدورها تتحدد بالمستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للوالدين من ناحية وبتكوينهما النفسي من ناحية أخرى .

توافر امكانيات اللعب :

وفي ضوء الكثير من العوامل السابقة ، تؤثر نوعية اللعب ومواده وامكانياته المتاحة الى حد كبير في نشاط اللعب وفي مباشرته لدوره الهام في بناء الاطفال . فاذا زودنا الطفل بالعاب معينة ، فانه سوف يستخدمها ، وبالتالي فان نشاط لعبه سوف يتأثر بها . فاذا كانت امكانيات اللعب المتاحة ذات نماذج تركيبية بنائية ، مثل المكعبات والرمال والاجهزة التي يقوم الطفل بفكها وتركيبها ، فان اللعب بطبيعة الحال سوف يأخذ هذا الطابع التركيبي البنائي ، ويكون موجها اكثر للجانب العقلي من شخصية الطفل . اما اذا وفرنا العبا مثل الاجهزة المنزلية أو الدمى ، فان هذا يؤكد على نموذج اللعب الاليهامي .

والحقيقة التي تؤكدتها دراسات عدة (مثل دراسات مير وميري ، ١٩٥٠ ، ريسى ، ١٩٥٤) ان الكبار ينبغي عليهم أن يزودوا الطفل بالعاب تتضمن نماذج وأشكالا كثيرة ، لأن نشاط الطفل في اللعب ينسحب الى كافة جوانب شخصيته - الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية ، ولأن لعب الطفل ابداعي ، خلاق ، تمثيلي ، تقليدي ، تخيلي ، ولأن الطفل سرعان ما ينتقل من لعبة الى غيرها .

ومن ناحية أخرى ، تؤدي المبالغة في تزويد الطفل بمواد اللعب وامكانياته الى نتيجة عكسية اقرب الى ما قد يترتب على حرمان الطفل منها . فالاختيار الجيد لمقدار محدد من مواد اللعب يشجع على أن يكون لعب الطفل اكثر غنى بالمصادر resourcefulness واكثر اجتماعية مما لو ازدحم بمواد كثيرة للغاية (جونسون ، ١٩٣٥) . ومن المصادر التي ينبغي تزويد الطفل بها في لعبه ، تلك المواد التي يقوم الطفل بعملها في المنزل ومن اشياء بسيطة ، وأيضا استغلال مصادر البيئة وتوظيفها في انواع ومواد حية للعب قد لا تيسر بالمواد والوسائل الجاهزة للعب الاطفال (ليونارد ، ١٩٥٢) .

ولعل ما عرضنا له في الصفحات السابقة ، يكشف عن جانب أساسي من النشاط الذي يعيشه الاطفال ويعيشون فيه طفولتهم ، وفيه يدركون انفسهم والعالم المحيط بهم ، ومنه يتعلمون معارف ومهارات وخبرات جمة ، وفيه تنفتح امكاناتهم ، وتنمو شخصياتهم . ولكن اللعب ، لكي لا يكون مجرد لهو واستهلاك للطاقة ، ولكي يحقق الغاية البنائية المنشودة منه ، ينبغي أن يوجه ليصير نشاطا تربويا منظما هادفا .

المراجع

- (١) آمال احمد صادق : دراسة عاملية للإبتكار الموسيقى . الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، المجلد الرابع . القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٦ .
- (٢) د . بيرد : جان بياجيه وسيكولوجية نمو الاطفال . (ترجمة : فيولا البيلاوى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ .
- (٣) ف . سيفيرين : علم النفس الانسانى . (ترجمة : طلعت منصور ، عادل عز الدين ، فيولا البيلاوى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .
- (٤) سعد عبد الرحمن : السلوك الانسانى . الكويت : مكتبة الفلاح ، ٧١ - ١٩٧٧ .
- (٥) سوزان ايزكس : الحضانة . (ترجمة : سميرة فهمى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ ط ٣ .
- (٦) سيد عثمان : علم النفس الاجتماعى التربوى ، جزآن . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ .
- (٧) رمزية الغريب : العلاقات الانسانية فى حياة الطفل الصغير ومشكلاته اليومية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ .
- (٨) فيولا البيلاوى : دراسة لبعض الخصائص العقلية - المعرفية والانفعالية كاستجابة لعوامل الاستثارة لدى الاطفال فى مرحلة المهد . الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية . القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .
- (٩) فيولا البيلاوى : دور الشغلات فى حياة الاطفال النفسية . ندوة العمل مع الاطفال بجامعة عين شمس ، القاهرة ، فبراير ١٩٧٨ .

- 10— Adernethy, E.M. Relationships between mental and physical growth. Monogr. Soc. Res. Child Developm., 1, No. 7, 1936.
- 11— Amen, E.W. and N. Renison. A study of the relationship between play patterns and anxiety in young children. Genet. Psychol. Monogr., 50, 3-41
- 12— Ames, L.B. Free drawing and completion drawing : a comparative study of preschool children. J. Genet. Psychol., 66, 161 - 165, 1945.
- 13— Ames, L.B. Development of interpersonal smiling responses in the preschool years. J. Genet. Psychol., 74, 273 - 291, 1949.
- 14— Axline, V. M. Play therapy. Boston : Houghton Mifflin, 1947.
- 15— Axline, V.M. Observing children at play. Teach. Coll. Rec., 52, 358 - 363, 1951.

- 16— Bailey, S. Aggression in infancy and early childhood. *Cath. educ. Rev.*, 44, 421 - 429.
- 17— Barnhart, E.N. Developmental stages in compositional construction on children's drawings. *J. exp. Educ.*, 11, 156-184, 1942.
- 18— Bach, G.R. Young Children's play fantasies. *Psychol. Monogr.*, 59, No. 2, 1945.
- 19— Bell, J.E. Perceptual development and the drawings of children. *Amer. J. Orthopsychiat.*, 22, 386-393, 1952.
- 20— Benjamin, H. Age and sex differences in the toy preferences of young children. *J. Genet. Psychol.*, 41, 417-429, 1932.
- 21— Berlyne, D.E. *Structure and direction in thinking*. New York Wiley, 1965.
- 22— Boynton, P.L. The relationship between children's tested intelligence and their hobby participation. *J. Genet. Psychol.*, 58, 353-362, 1941.
- 23— Boynton, P.L. and F.A. Ford. The relationship between play and intelligence. *J. appl. Psychol.*, 17, 294-301, 1933.
- 24— Boynton, P.L. and J.D. Wang. Relation of the play interests of children to their economic status. *J. Genet. Psychol.*, 64, 129-138, 1964.
- 25— Bridges, K.M. The occupational interests and attention of four-year-old children. *J. Genet. Psychol.*, 36, 551-570, 1929.
- 26— Brown, F.J. *Educational sociology*. New York : Prentice-Hall, 1954.
- 27— Buhler, K. *The mental development of the child*. New York : Harcourt, Brace, 1930.
- 28— Cappe, J. Les manifestations artistiques chez l'enfant. *Nouv. Rev. Pedag.*, 3, 89-93, 1947.
- 29— Child, I.L., et al., Children's textbooks and personality development. *Psychol. Monogr.*, 60, No. 3, 1946.
- 30— Cramer, M.W. Leisure-time activities of economically privileged children. *Social. sec. Res.*, 34, 444-450, 1950.
- 31— Conn, J.H. Factors influencing development of sexual attitudes and awareness in children. *Amer. J. Dis. Child.*, 58, 738-745, 1939.
- 32— Conn, J.H. Children's awareness of sex differences. II. Play attitudes and game preferences. *J. Child Psychiat.*, 2, 82-99, 1951.
- 33— Cornelius, R. Games minus competition. *Child H. Educ.*, 26, 77-79, 1949.
- 34— Davis, G.A. and S.W. Houtman. *Thinking creatively : A guide to training imagination*. Madison, Wisc. : Wisconsin Research and development centre for Cognitive Learning, 1968.

- 35— Du Bois, F.S. The security of discipline. *Ment. Hyg.*, N.Y., 36, 353-372, 1952.
- 36— Ephron, B.K. *Emotional difficulties in reading*. New York : Julian Press, 1953.
- 37— Elkish, F. Significant relationships between the human figure and the machine in the drawings of doys. *Amer. J. Orthopsychiat.*, 22, 79-85, 1952.
- 38— Frank, L. K. and R.E. Hartley. Play and personality formation in preschool groups. *Personality*, 1, 149-161, 1951.
- 39— Erikson, E.H. Sex differences in the play configurations of preadolescents. *Amer J. Orthopsychiat.*, 21, 667-692, 1951.
- 40— Gardner, D.E. *Testing results in the infant school*. London : Methuen, 1942-48.
- 41— Garden, D.E. *The education of young children*. London : Methuen, 1956.
- 42— Garrison, K.C. *Growth and development*. New Yori : Longmans, 1951.
- 43— Gesel, A. *Infancy and human growth*. New York : Macmillan, 1928.
- 44— Gesell, A. and L.B. Ames. The development of directionality in drawing. *J. Genet. Psychol.*, 68, 45-61, 1946.
- 45— Gesell, A. et al. *The first five years of life*. New York : Harper, 1940.
- 46— Gesell, A. and H. Thompson. *Infant behavior, its genesis and growth*. New York : McGraw-Hill, 1934.
- 47— Goodenough, F.L. *Measurement of intelligence by drawings*. Yonkers, N.Y., : World, 1926.
- 48— Goodenough, F.L. and D.B. Harris. *Studies in the psychology of children's drawings*. II. 1928-1949. *Psychol. Bull.*, 47, 369-433, 1950.
- 49— Guanella, F.M. Block building activities of young children. *Arch. Psychol.*, N.Y., No. 174, 1934.
- 50— Hartley, R.E., *Growing through play : experiences of Teddy and Bud*. New York : Columbia Univ. Press, 1952.
- 51— Hartley, R.E., L.K. Frank, and R.M. Goldenson. *Understanding children's play*. New York : Columbia Nniv. Press, 1952.
- 52— Hildreth, G. The simplification tendency in reproducing designs. *J. Genet. Psychol.*, 64, 329-333, 1944.
- 53— Hollingworth, L.S. *Gifted children, their nature, and nurture*. New York : Macmillan, 1926.

- 54— Honzik, M. P. Sex differences in the occurrence of materials in the play constructions of preadolescents. *Child Developm.*, 22, 15-35, 1951.
- 55— Horne, B. M. and C.C. Philles. A comparative study of the spontaneous play activities of normal and mentally defective children. *J. Genet. Psychol.*, 61, 33-46, 1942.
- 56— Hughes, M.A., and L. Stockdale. The young child and graphic expression. *Childhood Educ.*, 16, 307-314., 1940.
- 57— Hurlock, E.B. and J.L. Thomson. Children's drawings : an experimental study of perception. *Child Developm.*, 5, 127-138, 1934.
- 58— Jersild, A.T. *Child Psychology*. New York : Prentice-Hall, 1954.
- 59— Jersild, A.T. and R.J. Tasch. *Children's interests and what they suggest for education* New York : Teachers College Bureau of Pud., 1949.
- 60— Johnson, H.M. *The art of block building*. New York : Day, 1933.
- 61— Johnson, M.W. The effect on behavior of variation in the amount of play equipment. *Child Developm.*, 6, 56-68, 1935.
- 62— Jolles, I. A Study of the validity of some hypotheses for the qualitative interpretation of the HTP for children of elementary school age. I. Sexual identification. *J. Chin. Psychol.*, 8, 113-118, 1952.
- 63— Joukovskaia, P.I. *Educating child in play*. (in Russia) Moscow : Academy Press, 1963.
- 64— Lehman, H.C. A comparison of the play activities of town and country children. *J. Genet. Psychol.*, 33, 455-476, 1926.
- 65— Lehman, H.C. and P.A. Witty. Periodicity and play behavior. *J. educ. Psychol.*, 18, 115-118, 1927.
- 66— Lehman, H.C. and P.A. Witty. *The Psychology of play activities*. New York : A.S. Barnes, 1827 a.
- 67— Lehman, H.C. and P.A. Witty. A study of play in relation to intelligence. *J. appl. Psychol.*, 12, 369-397, 1928.
- 68— Leonard, A Toys for toddlers. *Today's Health*, December, 42-43, 60, 1952.
- 69— Leroy, A. Representation of perspective in the drawings of children *Enfance*, 4, 286-307, 1951.
- 70— Lytton, Hugh. *Creativity and education*. London : Routledge & Kegan Paul, 1971.
- 71— Mac Donald, M.A. C.Mc Gurie, and R.J. Havighurst. Leisure activities and the socio-economic status of children. *Amer. J. Sociol.*, 54, *Amer. J. Sociol.*, 54, 505-519, 1949.

- 72— Machover, K. **Personality projection in the drawing of the human figure.** Springfield : Charles C. Thomas, 1949.
- 73— Markey, F.V. Imaginative behavior of preschool children. **Child Developm., Monogr.,** No. 18, 1935.
- 74— Mansell, T.M. and T.H. Elfer. The growth of a play. **Child Educ.,** 35, No. 2, 1958.
- 75— Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed : 1970)
- 76— Maybury, M.W. Selection of materials by nursery school children of superior mental intelligence. **J. educ. Res.,** 46, 17-31, 1952.
- 77— Merry, F.K. and R.V. Merry. **The first two decades of life.** New York : Harper, 1950/.
- 78— Millichamp, D.A. Another look at play. **Bull. Inst. Child Stud.,** Toronto, 15, No. 4, 1-13, 1953.
- 79— Mitchell, E.D., and B.S. Mason. **The theory of play.** New York : A.S. Barnes, 1948.
- 80— Murphy, L.B. **Social behavior and child personality.** New York : Columbia Univ. Press, 1937.
- 81— Murphy, L.B. **Play therapy : The inner dynamics of childhood.** New York : Houghton Mifflin, 1947.
- 82— Murphy, L.B. **Personality in young children.** New York : Basic Books, 1956.
- 83— Parten, M.B. Social play among preschool children. **J. abnorm, soc. Psychol.,** 28, 136-147, 1933.
- 84— Perry, M. young child's approach to science. **Child Educ.,** No. 8 - 9, vol. 35, 1958.
- 85— Peller, L.E. Models of children's play. **Ment. Hyg.,** N. Y., 36, 66-83, 1952.
- 86— Rankin, M. **Children's interests in library books of fiction.** New York : Teachers College Bureau of Pub., 1944.
- 87— Reece, L.H. The play needs of children aged 6 to 12. **Marriage Fam. Living,** 16, 131-134, 1954.
- 88— Reeves, W.R. Report of Committee on street play. **J. educ. Sociol.,** 4, 607-618, 1931.
- 89— Rogers, C.R. **Client - centered therapy.** Boston, 1951.
- 90— Rogerson, C.H. **Play therapy in childhood.** London : Oxford Univ. Press, 1939.
- 91— Rosenthal, S. A fifth grade classroom experiment in fostering mental health. **J. Child Psychiat.,** 2, 302-329, 1952.

- 92— Russel, D.H. **Children learn to read.** Boston : Ginn, 1949.
- 93— Seward, B., and D.B. Harris. The reading ease, human interest value, and thematic content of st. Nicholas Magazine. **J. educ. Psychol.**, 42, 153-165, 1951.
- 94— Symonds, P.M. **The dynamics of human adjustment.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1946.
- 95— Sullenger, T.E., et al. The leisure time activities of elementary school children. **J. educ. Res.**, 46, 551-554, 1953.
- 96— Terman, L.M. **Genetic studies of genius.** Stanford : Stanford Univ. Press, 3 Vols, 1925, 1930.
- 97— Terman, L.M., and M. Lima. **Children's reading.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1927.
- 98— Torrance, E. P. **Are the gifted being challenged to think and learn creatively : : An address presented to the Sacramento State College Association for Gifted children, Sacramento, California, 1961.**
- 99— Torrance, E. P. **Guiding creative talent.** Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1962.
- 100— Torrance, E.P., and R. Storm. **Mental health and achievement.** New York : Wiley, 1965.
- 101— Torrance, E.P. **Encouraging creativity in the classroom.** Dubuque, Iowa : William C. Brown, 1970.
- 102— Tsaparojets. **Psychology and education of play at preschoolers.** (in Russian). Moscow : Prosfishania, 1966.
- 103— United Nations Report. **Games of childhood same around world.** New York Times, May 24, 1953.
- 104— Van Alstyne, D. **Play behavior and choice of play materials of preschool children.** Chicago : Univ. Chicago Press 1932.
- 105— Vernon, M.D. The development of imaginative construction in children. **Brit. J. Psychol.**, 39, 102-111, 1948.
- 106— Volberding, E. Out-of-school behavior of eleven-year-olds. **Elem. Sch. J.**, 48, 432-441, 1948.
- 107— Warner, W.L., and P.S. Lunt. **The social life of a modern community.** New Haven : Yale Univ. Press, 1941.
- 108— Whitley, M.T. Children's interest in collecting. **J. educ. Psychol.**, 20, 249-261, 1929.
- 109— Weider, A., and P.A. Noller. Objective studies of children's drawings of the human figure. I. Sex awareness and socioeconomic level. **J. clin. Psychol.**, 6, 319-325, 1950.

- 110— Williams, A.M. Children's choices in science books. *Child Developm. Monogr.*, No. 27, 1939.
- 111— Wilson, F.T. Stories that are liked by young children. *J. Genet. Psychol.*, 63, 55-69, 1943.
- 112— Wilson, L.A. The influence of a child purpose upon the perseverance of young children. *J. exp. Educ.*, 23, 353-358, 1955.
- 113— Winstet, B. The use of a controlled play situation in determining certain effects of maternal attitudes on children. *Child Developm.*, 22, 299-311, 1951.
- 114— Witty, P.A. A study of deviates in versatility and sociability of play interests. *Teach. Coll. Contr. Educ.*, No. 470, 1931.
- 115— Witty, P.A. Children's interest in reading the comics. *J. exp. Educ.*, 10, 100-104, 1941.
- 116— Witty, P.A. Reading the comics - a comparative study. *J. exp. Educ.*, 10, 105-109, 1941 a.
- 117— Witty P.A., A. Coomer, and D. Mc Bean. Children's Choices of favorite books : a study conducted in ten elementary schools. *J. educ.* 37, 266-278, 1946.
- 118— Wolfenstein, M. The impact of a child's story on mothers and children. *Monogr. Sec. Res. Child Developm.*, 11, No. 1, 1946.
- 119— Yates, A.J. Behavior therapy. New York : Wiley, 1970.

★ ★ ★

طلعت منصور *

تنشيط نمو الأطفال

(تناول جديد لبعض قضايا النمو الانساني)

مقدمة :

النمو ، في جوهره ، عملية تغير وتوجيه للتغير (هوايت ، ١٩٦٩) .

فالكائن الحي الانساني ، منذ لحظة الاخصاب حتى الموت ، يخضع لعمليات من التغير المستمر . وهو بذلك ليس في حالة استاتيكية ساكنة ابدا ، بل ينمو في حركة دينامية خلال المراحل المتعاقبة التي يمر بها ، نموها يتضمن كيانها ككل مركب : من النواحي الجسمية - التشريحية ، والعقلية - المعرفية ، والانفعالية والاجتماعية ، بما يحدد الخصائص

* دكتور طلعت منصور بقسم الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس ، ومعار حاليا بقسم علم النفس بكلية الاداب والتربية جامعة الكويت . اسهم ببعض منشورة في بعض المؤتمرات الدولية الاخيرة لعلم النفس (المؤتمر الدولي العشرين لعلم النفس بطوكيو - اكتوبر ١٩٧٢ ، والمؤتمر الدولي الخامس للتوجيه التربوي والمهني بكوبيك بكندا - اكتوبر ١٩٧٣) ، وفي بعض المؤتمرات المحلية (المؤتمر الخامس والاربعين للثقافة العلمية بالقاهرة - ابريل ١٩٧٥) والمؤتمرات العربية (الندوة الدولية العربية لخبراء التعلم الذاتي ، جامعة الدول العربية - ١٩٧٧ ، والمؤتمر الفكرى الثانى للتربويين العرب ببغداد - ١٩٧٨) . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والجمع العربى للثقافة العلمية والجمعية الامريكية لتقديم العلوم .

التي تميزه ك شخصية متفردة . ولا تقف التغيرات عند حد معين ، ولكنها تستمر ، وان كانت بمعدل أقل سرعة حتى التدهور الذي يخبره الكيان الانساني في حالات الشيخوخة وما مولد الطفل الاحداث واحدا في سلسلة متتابعة من التغيرات ، وليس بداية هذه التغيرات .

وربما لا يكون الفرد دائما واعيا بهذه التغيرات التي تحدث باستمرار ، ففي السنوات المبكرة من الحياة ، حينما تكون التغيرات سريعة في معدلها ، يكون الانتباه موجه الى التغيرات بسبب التوافقات المستمرة التي على الطفل ان يقوم بها حيال هذه التغيرات . كما ان هذه التغيرات تكون مرغوبة من الفرد ، لانها تدل على انه «أخذ في النمو» . وهذا يتناقض تماما مع اتجاه الفرد نحو التغيرات في مرحلة الرشد ، حيث يمثل كل تغير اعلانا له للعالم المحيط به انه «أخذ في التقدم في السن» .

فالنمو عملية ارتقائية متتابعة موصولة الحلقات من التغيرات التي تكشف عن امكانات الطفل وتبرزها وتوسعها والنمو ، على هذا النحو ، عملية تفتح مركب للخصائص والامكانات العديدة التي تؤلف معا ، **وحدتها الوظيفية المتكاملة** ، مانسبها بالشخصية . ويتحقق هذا **التفتح الوجه** عن طريق العلاقة الدينامية بين الطفل والبيئة ، بين المحددات الداخلية والمؤثرات الخارجية . ويقصد بالمحددات الداخلية كل الشروط التي تجعل منا أعضاء في الجنس البشري من ناحية وشخصيات متفردة من ناحية أخرى ، فنحن نولد مزودين بتاريخ سابق من الوراثة ، مهياين لان تكون لنا بنية معينة ، ولانتمتع بمقدرات أو امكانات خاصة .

ولكن هذه الشروط الداخلية (الاستعدادات الطبيعية ، الخصائص التشريحية - المورفولوجية وخاصة الجهاز العصبي المركزي) لا تظهر ولا تتحقق قدريا ولا تفتح تلقائيا Automatic Unfolding ، وانما تظهر وتتحقق من خلال تحريك واستثارة المنبهات المتوفرة في البيئة (الفيزيائية ، التاريخية ، الاجتماعية ، الثقافية ، النفسية) . فكل هذه المقدرات أو الامكانات الكامنة قد تظهر أو لا تظهر ، أو قد تتحقق بمستوى أو بآخر ، وفقا لعوامل استثارة النمو التي يوفرها الوسط الذي يعيشه الطفل . اي ان التفاعل الوظيفي الموصول بين الطفل والبيئة وتوجيه هذا التفاعل هو وحده الذي يهيء التغيرات العديدة والمركبة التي تميز النمو وتحققه .

وفي ذلك يقرر « أندرسون » (١٩٥٧) :

« ما طبيعة الاشياء المتعلقة بالشخص الذي ندرسه من الميلاد حتى النضج ؟ تكشف الملاحظات المختلفة ، وحتى أكثرها اصطناعا ، عن نظام مركب Complex System للغاية يتحرك قدما مع الوقت عن طريق النمو في التركيب والحجم ، هذا النظام يتلقى الكثير من الاستثارة من العالم الخارجي ويستجيب لها بطرق كثيرة ومختلفة .

وكما ينمو يعقد اتصالات ذات مدى اوسع من الاشياء والاشخاص ، وتزايد قدرته على حل المشكلات ، ويبني الكثير من العادات والمهارات ، ويرتقي في المعرفة وضبط الذات . انه مركب متعدد الجوانب Complex manifold من خصائص وامكانات كثيرة تؤلف معا الشكل الكلي أو الصورة الكلية لما نسميه بالكائن الحي الانساني »

ولا يقتصر تطور نمو الطفل على الزيادة في الحجم والنسب ، ولكنه ينطوي على تغيرات كمية وكمية ، وعلى اختفاء معالم قديمة واكتساب معالم جديدة ، وعلى تعديل أنماط أكثر بدائية لتصبح أكثر اثرانا وتعقيدا وحضارية . والنمو ، على هذا النحو ، يتألف من سلسلة من التغيرات التقدمية الارتقائية ذات نمط منظم ، مترابط ، تهدف الى تحقيق النضج . ويشير مصطلح « ارتقائي » أو « تقدمي » Progressive الى ان التغيرات تكون موجهة ، تؤدي الى الانطلاق بالنمو قدما الى الامام ولا تعود به الى الوراء « أما المصطلحان « منظم » Orderly و « مترابط » Coherent فيؤكدان على ان النمو ليس عملية عرضية ، وانما هناك علاقة محددة بين كل مرحلة من مراحل النمو والمرحلة التي تليها في التتابع النمائي .

يقول « ايريك ايريكسون » (١٩٦٩) :

« اذا أردنا ان نفهم النمو علينا ان نتذكر مبدأ الخلق الجرمومي ، Epigenetic Principle الذي يشتق من نمو الكائنات الحية في الرحم . يقرر هذا المبدأ بان لا شيء ينمو خطة للبناء Ground Plan وانه انطلاقا من هذه الخطة تظهر الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقته الخاص الذي يبرز ويسيطر فيه ، حتى تظهر كل الاجزاء لتشكل كلا توظيفيا . وعند الميلاد يترك الطفل التبادل الكيميائي مع الرحم لينقل الى نظام التبادل الاجتماعي مع مجتمعه ، حيث تواجهه مقدراته Capacities المتزايدة بالتدرج فرص وحدود ثقافته . والنمو ، كما يقرر ، « جيزل » (١٩٥٢) أكثر من مفهوم . وهو يمكن ملاحظته وتقييمه ، وحتى قيامه الى حد ما ، في ثلاثة مظاهر أساسية : (١) المظاهر التشريحية Anatomical (ب) المظاهر الفسيولوجية Physiologic (ج) المظاهر السلوكية Behavioral وتؤلف الجوانب السلوكية مع ذلك المؤثر الاساسي للوضع التطوري - النمائي Developmental Status وللإمكانات النمائية للطفل Developmental potentials.

ويتمخض النمو عن خصائص جديدة وقدرات جديدة ووظائف جديدة تتوفر للطفل ، اعتمادا على ما تحقق من تطور نمائي لهذه الخصائص والقدرات والوظائف في مراحل سابقة ، لان كل تغير يستند الى ما سبقه من تغيرات ويؤثر بدوره على ما سيعقبه من تغيرات « والنمو يمثل بذلك انتقالا من مراحل ادنى الى مراحل ارقى من النشاط والوظيفة ، استنادا الى « منجزات النمو » Growth Achievements في مسار العملية النمائية .

موضوع علم النفس التطوري - النمائي اذن هو الدراسة العلمية لمظاهر التغير التي يخبرها الطفل النامي ، وعوامل هذا التغير ومحركاته ومثيراته ومعطياته ، بهدف تفسيره والتنبؤ به وضبطه وتوجيهه ، بما يحقق التطور الاحسن لنموه ، والتفتح الامثل لإمكاناته التطورية النمائية . ويقوم تصورنا لدراسات النمو وقضاياها على فلسفة معينة ، وتتلخص في العبارة التالية : « النمو موضوع للدراسة ومنهج للبحث » (طلعت منصور ، ١٩٧٥) . ولقد عرضنا في عجلة لموضوع علم نفس النمو ، بقى ان نعرض لتصورنا للنمو كمنهج للبحث السيكولوجي .

ان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية لا تتوفر للطفل في شكل عطاء موروث Hereditary Endowment يعطي « مرة لا تتكرر » Once for all ، وانما تنمو في النشاط وارتباطا به ، أي وفقا لاستثارة إمكانات النمو بالمنبهات الثقافية الملائمة . وبقدر ما يخضع

النشاط ذاته وبالتالي مقومات استثارة النمو للتغير في سياق التطور الثقافي للإنسانية ، فان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية ينبغي ان تتغير . واذا لم يكن الامر كذلك ، فكيف نفسر استيعاب الدماغ الانساني لكل المنجزات الثقافية المعاصرة (من انفجار معرفي ، وتكنولوجيا راقية ، الخ) ؟

فالخصائص والعمليات النفسية (كالتفكير والتذكر والادراك والانتباه وغير ذلك) والقدرات العقلية قابلة للتغير والارتقاء المتواصلين ، وخاصة في المراحل التكوينية . ومن ثم ليس هناك من اساس لان نفترض ثباتها لدى الاطفال في المراحل العمرية المختلفة ، وانما قابليتها المستمرة للتغيرة والارتقائية .

هذا الاتجاه في تناول قضايا النمو يفترض بقوة كذلك ان كل طفل يتمتع بالقدرة على اداء مناشط معينة ، وان مهمتنا كسيكولوجيين ان نحدد أي الامكانيات يمتلكها الطفل بالفعل ، وأي القدرات ينبغي ان تنمي فيه ، وكيف تنمو .

وفي هذا الصدد يمكن ان نشير الى بعض المنجزات العلمية في تاريخ الفكر السيكولوجي - وتحمل دلالة بالغة الاهمية في تغيير تصورنا للطفل النامي ، ونقصد بها ما حققه « جان بياجيه » من منجزات ودفعات نظرية ومنهجية ، فتحت سبلا وآفاقا جديدة أمام علم النفس عامة ودراسات النمو خاصة .

يبرز « ١ . كلابريد » ذلك ببراعة في تقديمه للطبعة الفرنسية لكتاب بياجيه : « في نفس الوقت الذي جعلوا فيه التفكير عند الاطفال مشكلة كمية ، تناولها بياجيه كمسألة كيفية » . ففي الوقت الذي تناول فيه علم النفس التقليدي التفكير عند الاطفال من منظور سلبي يسجل نواقص وعيوب هذا المستوى من نمو الحياة العقلية عند الاطفال على اساس مقارنتها بتفكير الكبار ، حاول بياجيه ان يكشف عن الخصائص الكيفية لتفكير الاطفال من منظور ايجابي . فما كان يسترعى اهتمام الباحثين من قبل هو : « ما الذي لا يوجد عند الطفل » ؟ ما الذي ينقصه بالمقارنة بالكبار ؟ وبالتالي حددوا خصائص التفكير عند الطفل هكذا : الطفل تعوزه القدرة على التفكير المجرد ، وتكوين المفاهيم وربط الاحكام والاستنتاج المنطقي وغير ذلك . ولكن بفضل بياجيه اتخذت البحوث مسارا آخر يدور حول « ما الذي يوجد بالفعل عند الطفل ؟ وبماذا يتصف تفكيره من خصائص وصفات مميزة ؟ »

وفي الحقيقة ان ما قام به بياجيه يعتبر جادا وجديدا في تاريخ الفكر السيكولوجي افاد فيه من آراء « روسو » بأن الطفل ليس اطلاقا بالشخص الراشد الصغير Miniature Adult وبأن عقله ليس بعقل الراشد على نطاق صغير . وتكمن وراء هذه الحقيقة التي أيدها بياجيه بالاثبات التجريبي ، فكسرة بسيطة في جوهرها فكرة التطور التي أضاعت كل أعمال بياجيه الفدة (فيجوتسكي ، ١٩٧٥ ، ص ٨٥ - ٨٦) .

وهكذا تكون مهمة علم النفس « العلمي » و « الانساني » اعظم واسمى من مجرد التوصيف أو القياس الكمي لـ « الوضع الراهن » Status Quo الذي وصل اليه مستوى نمو الخصائص

والعمليات النفسية والقدرات العقلية لدى الطفل. وعلم نفس النمو مطالب بذلك بان يتبنى تصورا تفاؤليا في تناول الظواهر النمائية وامكانية نموها وانمائها، وان يصطنع طرقا مناسبة للانماء وليصبح الاطفال في طورهم ((مكتملي الانسانية)) Fully Human

النمو ، اذن ، كمنهج للبحث السيكولوجي يفترض تتبع مسار نمو الظاهرة النفسية ، وصيرورتها ، وامكانات دفعها الى المستوى الامثل . وهو يتطلب منا الكشف عن الابعاد الكمية والكيفية للتغيرات التي تطرأ عليها ارتباطا ببيكانزمات تكشف خصائص هذه الظاهرة وتكوينها وتوظيفها في سياق النشاط الذي توفره للطفل النامي وعوامل استثارة امكانات نموه ، ووفقا لهذا المنهج لا نضع في الاعتبار ((الناتج Product)) فحسب ، ولكن ايضا العملية Process ذاتها ، لا نهتم بمنجزات النمو فحسب ، ولكن ايضا بالمسار والسياق النمائي للظاهرة النفسية .

في داخل هذا الاطار تبرز بعض القضايا الحاسمة :

.. الى اى حد تعتبر امكانات الطفل ثابتة ام متغيرة .. ؟

.. ما هي القوى الدافعة لمسار العملية النمائية ..) ما الذي يحدد خصائص النشاط النفسى للطفل في مرحلة معينة من مراحل النمو ؟

.. ما دور النشاط في تفتح وتوظيف امكانات الطفل الكامنة .. ؟

.. ما العلاقة بين النمو والتعلم .. ؟

امكانات الطفل بين الثبات والتغير (صيرورة النماء) :

في صيف عام ١٩٧٠ زار آرثر جنسن Arthur Jensen استاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا بريطانيا ليعقد ندوتين في كامبردج : احدهما نظمتهما « هيئة أبحاث المخ » Brain Research Association والاخرى « جمعية كامبردج للمسؤولية الاجتماعية في العلم » . Cambridge Society for Social Responsibility in Science ولقد دعى جنسن خاصة لايضاح ومناقشة نظريته التي طفق يبشر بها من طبيعة الذكاء الانساني وتوزعه ، تلك النظرية التي اثارت موجة عارمة من السخط والغضب في الولايات المتحدة ، امتدت بدورها الى بريطانيا .

تلخص نظرية جنسن ، كما عرضها في بعض أعماله (١٩٦٦ ، ١٩٦٧) ، في أن الملونين بالولايات المتحدة ، بسبب ما جلبوا عليه من عطاء خلقي ، أقل ذكاء من البيض ، وكذلك الفئات والطبقات الدنيا التي تنتمي الى الانسان الابيض أقل ذكاء من الانسان الابيض الذي ينتمي الى الطبقة الوسطى والارستقراطية ، فالانخفاض في المستوى العقلي مرتبط بالتكوين الوراثي المنحط Inferior Genstic Make-up

ويقرر جنسن أن ما توصل اليه من بينة ، وهي مشتقة من نتائج اختبارات الذكاء والقياس النفسى ، يؤكد بشكل قاطع ان كلا من الفروق السلالية والطبقية تقوم على امكانات موروثية ، وبالتالي فهي « ثابتة » ، « مستقرة » تستعصى على التغير بواسطة السياسات الاجتماعية والتربوية .

والإتجاه « جنسن » الجديد هو في جوهره تكرار للإتجاهات القديمة والمعيبة المشتقة من اختبارات الذكاء الجماعية ، وخاصة الإتجاه الذي يذهب الى أن الوراثة تحدد مستوى الذكاء . ويقرر ، وهو يتفق مع « سيريل بيرت » ، أن ٨٠٪ على الأقل من التباين في الذكاء يرجع الى الوراثة و ٣٠٪ الى العوامل البيئية .

وعلى ذلك يحدد جنسن نمطين او مستويين للذكاء : المستوى الاول يتفق مع القدرة على « التعلم الترابطي » Associative learning ، أي على التعلم الآلي البسيط ، قوة الاسترجاع ، وغير ذلك ، أما المستوى الثاني فيتفق مع القدرة على ادراك المفاهيم ، حل المشكلات ، أي باختصار على التفكير وتناول مواد التفكير بفاعلية . ويسلم بأن هذين المستويين ، كنتيجة للعوامل الخلقية ، يتوزعان بطريقة متميزة بين الناس « كدالة للطبقة الاجتماعية » . ونتيجة لذلك ، واتفقا مع هذا التصور ، ينبغي أن تتمايز التربية . فبالنسبة للمستويات الدنيا يكون التعليم الملائم قائما على التعلم الترابطي ، الآلي (حيث يكون : المدخل = المخرج . Input = Output) ، في حين ينبغي تخطيط التعليم بالنسبة للطبقتين الوسطى والارستقراطية القادرتين وحدهما على التفكير التصوري Conceptual Thinking (التفكير بالمفاهيم) لكي يبنى وينمى هذه القدرة الراقية .

وليس هنا مجال لاستعراض نظرية « جنسن » بالتفصيل ، ولكن ما نود الإشارة اليه تلك الموجة من التعاطف عليها . من هذا ، على سبيل المثال ، ما نشره سنو C.P. Snow في المجلة الاسبوعية المعروفة بـ « العالم الجديد » (New Scientist, May 1, 1969) من داء « عاصفة الاحتجاج والتجريح » التي أثارها نظرية جنسن . ويعتمد « سنو » في بعض دفاعه من هذه النظرية على « بعض » البيانات المتعلقة « بالإنجاز العقلي والفني لدى اليهود » الذي يعزيه الى معطيات وراثية .

والإتجاهات عنصرية « فاشية » هذه شأنها ليست بغريبة على تاريخ الفكر السيكولوجي . فلا يغيب عن ذهننا « علم النفس النازي » الذي تكرر على تبرير نظرية « المانيا فوق الجميع » ، والنظريات والدراسات التي خرج بها بعض العلماء الانجليز (١) في أوج الامبراطورية البريطانية لتبرير أوضاع عالمية امبريالية يقوم فيها الرجل الابيض بمهمة السيادة على الاجناس الاقل وتدير امورها لمعجزها ، بما يعرف بعبء الرجل الابيض White man's burden .

وهذا الإتجاه اللا علمي ، او الذي يأخذ بالعلمية الشكلية ، يشيع بصفة خاصة ويجد له تربة خصبة لدى السيكولوجيين الاسرائيليين ، نذكر منهم على سبيل المثال ، السيكولوجي « أمير » بجامعة « بارايلان » الذي حاول في دراسة قدمها أمام « المؤتمر الدولي العشرين لعلم

(١) من هذه الدراسات على سبيل المثال :

— H. L. Gordon. The brain capacity of East Africans. Eugen Rev. 25:223, 1934.

— R.A. Oliver. Intelligence of European and African schoolboys in KENYA. A. Afr. J. 9:160, 1932.

النفس» (طوكيو ١٩٧٢) ان يبين، بمنطق فاشى كاذب ، ان الشباب الشرقى (العربى والايرانى) اقل فى وظائفه العقلية من الشباب الاسرائيلي (٢).

وما تخرج به مثل هذه الدراسات من بيانات لا يصمد أمام الحقائق العلمية الرصينة ، بل تتهاوى وتتلاشى مع نور العلم والانسانية . ويكاد يستقر الفكر السيكولوجي المعاصر على ان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية فى تشكيلها لدى الطفل هي انعكاس للواقع الثقافى بدرجة كبيرة . وتمثل مقدرة الكائن الحى الانسانى على الانعكاس كخاصية لنظامه الراقى ، كما يتضح فيما يقوم به المخ من وظائف وأوجدتها ظروف الحياة ذاتها ، وهياتها الخبرة الاجتماعية . ويلعب الانعكاس دورا هاما للغاية فى العمليات الحياتية لانه يهىء الفرد للانتظام Orientation مع موضوعات البيئة وظواهراتها، وتمكينه من ضبط وتوجيه سلوكه ذاته .

فالانعكاس ، من وجهة النظر التطورية النمائية ، يكون فى البداية نشاطا خارج الطفل مرتبطا بموضوعات الوسط المحيط ويصير فيما بعد وبالتدريج نشاطا عقليا ، داخليا ، ذاتيا . الا ان المقدرة على الانعكاس لا تفقد ابدا علاقتها بالمصدر الاصلى ، بالاداءات العملية الخارجية التي يرتبط بها ارتباطا متبادلا ، وتؤلف وحدة مع هذا النشاط الثقافى بدرجة او باخرى . وفى نفس الوقت يتم بناء النشاط النفسى الداخلى بطريقة أشبه الى حد كبير بالنشاط الخارجى . وتتطلب منا هذه القضايا وقفة لاعادة تناول الكثير من التصورات التقليدية عن نفس عملية النمو العقلى للطفل فى ضوء مبادئ ثلاثة للنمو :

١ - النمو العقلى للطفل كعملية استيعاب للخبرة الانسانية المعاشة

يتميز النمو العقلى للطفل ، كيفيا ، عن النمو النوعى لسلوك الحيوان . تتحدد هذه الافضلية أولا وقبل كل شىء فى غياب عملية استيعاب او تمثيل الخبرة لدى الحيوانات ، تلك العملية التي تتجمع بواسطة الانسانية على مدار التاريخ الاجتماعى .

يمكن ان نميز لدى الحيوانات خبرة ذات نمطين : خبرة متجمعة بالتطور النوعى ومتشعبة وراثيا ، وخبرة فردية مكتسبة حياتيا . ويتفق مع هذين النمطين من الخبرة ميكانيزمات للسلوك ذات نمطين ايضا : الاولى - تلك الميكانيزمات الوراثية التي تكون اما جاهزة للاداء تماما منذ لحظة الميلاد ، او تنضج بالتدريج فى عملية النمو النوعى . وتكوين هذه الميكانيزمات يتم وفقا للقوانين العامة للتطور البيولوجى ويمثل عملية بطيئة كرد فعل للتغيرات البطيئة فى الوسط البيئى . هذه الميكانيزمات تحتل المكانة الاكبر فى عمليات التكيف، اما النمط الثانى من ميكانيزمات السلوك لدى الحيوانات ، فهي ميكانيزمات اكتساب الخبرة الفردية . وتتحدد خاصيتها الاساسية بأنه فيها تثبت وراثيا فحسب إمكانية تكوين السلوك الذى من شأنه ان يحقق التكيف الفردى ، وفى نفس الوقت يتثبت السلوك ذاته فى ميكانيزمات الخبرة الوراثية .

(٢) Y. Amir. Inter - and intra - ethnic comparisons of intellectual functions in Israeli and Middle Eastern populations. Abstract Guide of the XXth International Congress of Psychology, Tokyo, 1972.

وهنا ينبغي ان تؤكد ان هذين النمطين من الخبرة وميكانيزمات السلوك مرتبطان ببعضهما ارتباطا متبادلا ليس فطريا فحسب ، ولكن ايضا وظيفيا . فظهور السلوك الوراثي لدى الحيوانات لا ينمزل اطلاقا عن الخبرة الفردية ، ومن ناحية اخرى يتكون دائما السلوك الفردى على أساس السلوك الوراثي ، النوعى .

أى أن الوظيفة الأساسية التى تحققها ميكانيزمات تكوين الخبرة الفردية لدى الحيوانات تتمثل فى تكيف السلوك النوعى للعناصر المتغيرة بالوسط البيئى . ومن هنا يمكن تصور التطور النوعى للحيوانات على أنه تجمع للخبرة الفردية تستخدم فى تحقيق نشاطها الفريزى فى ظروف خارجية دينامية معقدة .

وبالنسبة للانسان ، يختلف الموقف تماما . فاختلافا عن الحيوان ، يتمتع الانسان بخبرة من نوع معين - الخبرة التاريخية، الاجتماعية المستوعبة . والسؤال : ماذا عن هذه الخبرة المميزة للانسان بشكل فريد . . ؟

فى مسار التاريخ الانسانى ، تجمعت منجزات هائلة وعظيمة ، هي أيضا منجزات النمو العقلى للانسان ، تناقلها من جيل الى جيل . وتجسدت هذه المنجزات بجلاء ، من الآلة اليدوية البدائية الى العقول الالكترونية ووسائط ارياد الفضاء ، فى اللغة ، فى العلم ، فى الفن ، فى الانتاج ، فى نظم العلاقات الاجتماعية ، وفى غير ذلك من مظاهر الوجود الانسانى . وفى هذه المنجزات ، من ناحية اخرى ، تتجسد الخبرة التاريخية للانسانية ، وايضا القدرات العقلية للانسان التى تشكلت فى هذه الخبرة .

وهكذا ، خلافا للتطور النوعى للحيوان الذى تبدت منجزاته فى شكل تغير للتنظيم البيولوجى ، تدعمت منجزات التطور التاريخى للانسان فى كل ما أبدعته عقليته وعبقريته من انتاج ، وفى تلك الظواهر المثالية (اللغة ، العلم) التى عاشها الانسان .

وئمة عملية اخرى اكثر تعقيدا وأهمية - عملية استيعاب او تمثيل تلك المنجزات المتجسدة فى عمله وانتاجه ورموزه . الطفل مندميلاده محاط بعالم من الموضوعات والعلاقات - فهذه مواد للمعيشة ، وأدوات بسيطة ، وهذه لغة وما ينعكس فيها من تصورات ومفاهيم وافكار . وحتى مع الظواهر الطبيعية يلتقى الانسان بظروف اوجدتها عقلية الانسان - فهذه ملابس تقيه البرد ، وتلك مواصلات تيسر انتقاله . ويمكن القول بأن الطفل يبدأ نموه النفسى فى عالم انساني .

ولكن . . ، الا يتم نمو الطفل كعملية تكيف لهذا العالم ؟

الاجابة بالنفسى . . فخلافا لوجهة النظر الشائعة ، لا يعبر مفهوم التكيف عن ركيزة جوهرية للنمو النفسى للطفل ، الطفل لا يتكيف مع عالم الموضوعات والظواهر المعقدة به ، ولكن يجعله عالمه ذاته ، أى يستوعبه ويتمثله .

ونسوق لذلك أبسط مثال : يلتقى الطفل ، في الوسط المحيط به ، بحقيقة وجود اللغة التي تعكس تراثا انسانيا حيا متجمعا على مر العصور التاريخية . ويحيل الطفل ، في عملية نموه ، هذه اللغة الخارجية الى لغة لذاته . وهذا يعنى انه تتكون لديه تلك الوظائف والقدرات الانسانية المتميزة ، كالقدرة على فهم الكلام والقدرة على التكلم ، وتلك الوظائف كالسمع والتلفظ الكلاميان . وهنا تؤلف الخصائص البيولوجية الوراثية للطفل فحسب شروطا لازمة لامكان تكوين هذه القدرات والوظائف . فلكي يتكون لدى الطفل ، على سبيل المثال ، السمع الكلامي ، ينبغي ان يتمتع بطبيعة الحال بأعضاء السمع والاعضاء التي تسهم في التلفظ . لكن وجود الاصوات الكلامية في الوسط المحيط بالطفل يفسر لماذا يتكون لديه السمع الكلامي .

ان علاقة الطفل بالعالم المحيط تتوسط بعلاقته بالناس ، حيث ينخرط معهم في عشرة كلامية وعملية . ولناخذ لذلك مثالا من حياة الطفولة : كيف تعلم الطفل الامساك بالملقعة . . ؟ لم ير الطفل أبدا ذلك الشيء البسيط ، وعندما يعطيه الوالدان هذه الاداة في يده ، ماذا سيفعل بها . . ؟ سوف يتناولها بيديه ويحركها ويلوح بها في حركات عشوائية ، ويخبط بها ، ويحاول ان يأخذها في فمه ، وغير ذلك من حركات غير منتظمة . ويقول آخر ، الملقة تتبدى بالنسبة له ليس من ناحية وسائل استخدامها التي تعارف عليها المجتمع ، ولكن من ناحية خصائصها المادية الطبيعية ، غير المتميزة . والآن في مواقف متكررة تقوم الام باستخدام الملقة كوسيلة لاطعام طفلها ، وبعد ذلك تعطيه الملقة في يده ، ويحاول مستقلا ان يأكل بها . في البداية تخضع حركات الطفل للوسيلة الطبيعية « أخذ ما تتناوله يده في فمه » . وفي هذه الحالة لا تحتفظ الملقة في يده بالوضع الافقى اللازم ، والنتيجة تساقط الطعام على المائدة . لكن الام لا تقف ساكنة : فهي تساعد الطفل ، وتتدخل في أديائه ، وتتكون لدى الطفل ، في هذا الاداء « المشترك » الناشئ على هذا « المشترك » الناشئ على هذا النحو ، خبرة استخدام الملقة والآن يجيد الطفل استخدام الملقة كأداة انسانية أو كموضوع انساني .

الخصائص والقدرات الانسانية تتكون ، اذن ، في عملية استيعاب وتمثل الطفل لمنجزات الحضارة الانسانية في مسارها من جيل لآخر .

٢ - نمو الوظائف العقلية كعملية تكوين لمنظومات مخية وظيفية (٣)

الموقف العلمي الذي يقرر ان القدرات والوظائف العقلية لا تتكون في شكل وراثية بيولوجية ،

-
- A.R. Luria. **Higher cortical functions in man**. New York ; Basic Books, 1966. (٢)
 - A.R. Luria **Human brain and psychological processes**. New York ; Harper & Row, 1966.
 - E.D. Homskaya. **Brain and activation**. Moscow Univ. Press, 1972.
 - K.H. Bribram. **Neocortical Functions in behavior**. In H.F. Harlow & C.N. Woolsey (Eds.) **Biological bases of behavior**. Univ. Wisconsin Press, 1958.
 - K.H. Bribram. **A review of theory in Physiological Psychology**. *Annual Review - of Psychology*, 11, 1960.
 - D.O. Hebb. **The Organization of behavior**. New York : Wiley, 1949.
 - D.O. Hebb **Intelligence, brain functions and the theory of mind**. „Brain”, 82, 1959.
 - I.P. Pavlov. **Abrief outline of the higher nervous activity**. In C. Murchison (Ed.) **Psychologies of 1930**. Workester, Mass. : Clark Univ. Press, pp. 207-220, 1930.

ولكن في سياق مكتسبات حياتية وفي عملية استيعاب منجزات الحضارة الانسانية بانتاجها وادواتها ورموزها ، يضع امامنا قضية بالغة التعقيد ، تبدو متناقضة ، عن الاساس الفسيولوجي - التشريحي لهذه الوظائف والقدرات .

يتلخص حل هذه المفارقة في انه في نفس الوقت مع تكوين العمليات النفسية العليا لدى الطفل تتشكل الاعضاء الوظيفية للمخ التي تمثل اساسا جسيما ديناميا لنشاط هذه العمليات ، وهذه الاعضاء المخية عبارة عن تجمعات او منظومات انعكاسية ثابتة ، تستخدم لانجاز أعمال محددة . وبالرغم من اننا نجد امكانية التكوين الحيائي لهذه المنظومات المخية الوظيفية لدى الحيوان ، الا انها لدى الطفل تصير ركيزة لتحقيق تكوينات جديدة . Neoformations في نموه النفسي ، كما ان تكوين هذه المنظومات يصير هو القانون الحاسم للعملية التطورية النمائية .

وتسمح نتائج الدراسات المختلفة في علم النفس الفسيولوجي ، والعصبي ، والمقارن ، ان نحدد خصائص هذه الاعضاء المخية الوظيفية الناشئة حياتيا :

اولا : حينما تتكون تلك الاعضاء ، فانها تقوم بوظيفتها كعضو واحد . لذا يمكن ان تكتسب العمليات النفسية المرتبطة بها خاصية الاداءات المباشرة التي تعبر عن قدرة معينة ، مثل القدرة على الازدراك المباشر للعلاقات المكانية او الكمية او المنطقية .

ثانيا : بالرغم من ان المنظومات الوظيفية تتشكل عن طريق تكوين روابط انعكاسية شرطية ، لكنها لا تنطفئ كما تنطفئ الانفعال المنعكسة الشرطية . فمن المعروف ، على سبيل المثال ، ان القدرة على التصور البصري للاشكال المدركة باللمس تتكون حياتيا . ولذا تختفي تماما لدى الاطفال المكفوفين منذ الميلاد ، بينما تظل هذه القدرة لعشرات السنين لدى الاطفال الذين فقدوا الابصار ان تكونت لديهم بالفعل هذه القدرة ، بالرغم من عدم امكان توفر اي تدعيم للروابط اللمسية البصرية لديهم .

ثالثا : المنظومات المخية الوظيفية قابلة لاعادة البناء ، فبعض مكوناتها يمكن ان تستبدل بغيرها ، وعند ذلك تبقى المنظومة الوظيفية ككل مركب . اي ان هذه المنظومات تكشف عن قدرة فائقة على التعويض .

والسؤال : كيف تتكون هذه الاعضاء المخية الوظيفية ؟

الطفل لا يولد بأعضاء مخية جاهزة للعمل على تحقيق الوظائف والعمليات النفسية الراقية (تفكير ، تذكر ، ادراك ، انتباه ، تخيل ، كلام ، انفعالات ، حركة ...) ، ولكن هذه الاعضاء وما يرتبط بها من وظائف وعمليات في وحدة وظيفية حية تنمو « حياتيا » في سياق عملية استيعاب وتمثل الخبرة الاجتماعية المتجمعة . وهذه المنظومات تتكون وفقا للميكانيزم العام لتكوين العلاقات الشرطية ، ولكن على نحو يختلف عن تكوين السلاسل العادية للافعال المنعكسة الشرطية .

وفي هذا تكشف البيئة السيكونيولوجية ان الوراثة تزود الطفل الوليد بكافة الطاقات

والاجهزة والاعضاء اللازمة التي تهيئه للتفاعل مع البيئة والاستجابة للمثيرات المختلفة المتوفرة في الوسط المحيط به . وليست عملية الولادة الا بداية لنشاط مرحلي معقد مستمر : تأثير واستجابة ، استعداد وتفتح ، حيث تقوم علاقة وظيفية متبادلة ، تفاعل موصول ، بين الاورجانزم ، والبيئة يكمن وراء تطور نمو الطفل .

٣ - النمو العقلي للطفل كعملية تكوين لاداءات عقلية

ينخرط الطفل منذ فترة مبكرة من حياته في اختلاط كلامي مع المحيطين به ؛ يلتقى بكلمات ، ويبدا في فهم معناها واستخدامها بفاعلية في كلامه . ويمثل تعلم الكلام واستيعاب اللغة الشرط الحاسم لنموه العقلي ، لان مضمون الخبرة الاجتماعية - التاريخية للناس يستقر ويتوطد ليس فحسب في شكل الاشياء المادية ؛ فهذا المضمون يعمم وينعكس في شكل كلامي ، لفظي . وفي هذا الشكل خاصة يتبدى امام الطفل ثراء المعارف المتجمعة بواسطة الانسانية ، والمفاهيم المتعلقة بالعالم المحيط به (٤) .

امام الطفل ، اذن ، مهمة استيعاب هذه المعارف والمفاهيم . ولكن لكي يتم ذلك ينبغي ان تتكون لديه تلك العمليات المعرفية الملائمة .

والسؤال : كيف تتكون العمليات العقلية - المعرفية ؟

هنا ، ينبغي ان نتصدى لرفض موقفين علميين :

اولا : وجهة النظر التي تذهب الى ان الطفل يتمتع بوظائف عقلية او بعمليات معرفية « وراثية » ، وان الظواهر الخارجية المؤثرة عليها تستدعيها الى الحياة فحسب .

ثانيا : التسليم بأن العمليات العقلية تتكون لدى الطفل تحت تأثير خبرته الفردية الشخصية ، وبأن الطفل في عملية التعلم يخضع لتأثيرات يتمخض عن تكرارها وتدعيمها تشكل علاقات او ارتباطات شرطية جديدة ، وبأن نشاطه العقلي لا يخرج عن كونه مجرد استرجاع بسيط لهذه العلاقات او الارتباطات .

تصورات كهذه لا تستقيم مع الحقائق ، الا يتطلب هذا المسار تكوين عمليات عقلية لدى الطفل ، وفقا لهذين الموقفين ، سندنا من خبرة هائلة ووقتا كبيرا للغاية . وفي الحقيقة ان تكوين العمليات العقلية لدى الطفل يعتمد على خبرة فردية ليست بضخمة نسبيا ، ويتم نسبيا على نحو سريع جدا .

تفسير ذلك ، ان الطفل يستوعب الخبرة في شكلها المفهم Generalized بالفعل . ومع ذلك لا يمكن ان تقدم اية خبرة الى الطفل في شكل جاهز الصنع . يمكننا ان نعلم الطفل ، مثلا ، تلك الارتباطات مثل $5 + 3 = 8$ او $6 - 2 = 4$ وغير ذلك من امثلة مشابهة . ولكن هذا لا يؤدي بالطفل على الاطلاق الى ان يتقن العمليات الحسابية الملائمة او مفهوم العدد . لذا لا يبدأ تعلم الحساب

بهذا ، وانما بالتكوين الفعال لعمليات ذات موضوعات أو أشياء خارجية - بما يتفق معها من تحويل وعد . ثم تتحول هذه العمليات الخارجية بالتدريج الى عمليات كلامية (العد بصوت مسموع) ، وتبلور وتختزل ، وتكتسب في النهاية خاصية العمليات الداخلية (العد في العقل) التي تتوافر بطريقة آلية في شكل أفعال ارتباطية بسيطة . الا انه يكمن وراءها الآن تلك الاداءات المعقدة مع مفهوم الكميات التي بنيناها لدى الطفل في البداية . ولذلك يمكن دائما ان تتوسع هذه الاداءات وان يستخرجها (في شكل استجابات خارجية) من جديد .

ومن ثم ، تتطلب اعادة الطفل للمفاهيم والتعليمات والمعارف أن تكون لديه العمليات العقلية الملائمة . ولكي يتحقق ذلك ، فان هذه العمليات ينبغي أن تبنى لديه بطريقة فعالة : في البداية تظهر في شكل اداءات خارجية يشكلها الكبار في الطفل ، ثم تتحول الى عمليات عقلية داخلية .

يتضح مما تقدم ان بناء الشخصية وتكوين الذكاء والقدرات العقلية وتشكل الوظائف المعرفية لدى الاطفال هو انعكاس للواقع الثقافي بدرجة كبيرة ، وان خصائص الشخصية والمستويات العقلية - المعرفية لا تتوفر للطفل منذ ميلاده في شكل معطيات وراثية ، او في شكل خصائص ومقدرات قديمة جاهزة الصنع « تعطي مرة لا تتكرر » Once for All و « لا تتغير » .

فيقدر ما يخضع الواقع الثقافي ذاته للتغير في عملية التطور التاريخي للانسانية ، فان القدرات والخصائص التي يمتلكها الفرد ينبغي ان تتغير . ففي كل مرحلة من التغير التاريخي يواجه الانسان بمتطلبات جديدة تتغير بتأثيرها قدرات الفرد وخصائصه . ولكن هذا لا يستبعد اطلاقا دور الاستعدادات الطبيعية (الخصائص الفطرية ، والمكونات التشريحية - المورفولوجية للجهاز العصبي) التي يستند عليها - الى حد ما - نمو القدرات . « فالقدرات لا تتمركز كميزة في مخ الفرد . وانما يتضمن المخ في ذاته كميزة ليس هذه او تلك من القدرات ، ولكن بحسب القدرة على تكوين هذه القدرات » (٥) .

الا ان الاستعدادات الطبيعية ذاتها تمثل شروطا لازمة لنمو القدرات فحسب ، ولكنها لا تحتم ولا تحدد التحقيق الفعلي القدرى لهذه الاستعدادات . فالنشاط الذي يقوم به الطفل في الوسط المحيط به يكمن وراء نمو استعداداته الطبيعية وامكاناته الكامنة .

يقول آخر ، النمو ليس عملية تفتح ذاتي Automatic Unfolding فليس بالضرورة ان تتحقق الاستعدادات الطبيعية في واقع الطفل ، واذا تحققت فقد تتحقق بمستوى او بآخر .

الاستعدادات الطبيعية ، اذن ، تفتح في السياق الثقافي الذي يتفاعل معه الطفل ، تتكون وتأخذ خصائصها ومستوياتها وفقا له .

(•) A.N. Leontiev. The significance of the concept of reflection for scientific psychology. Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology, 1966.

القوى الدافعة لمسار العملية النمائية

في سياق عملية النمو وتأثير ظروف حياتية محددة يعيشها الطفل ، يتغير الموقع الذي يحتله الطفل في نظام العلاقات الانسانية . يتضح ذلك من تبين هذه الحركة الارتقائية في مسارها من مرحلة لاخرى .

طفولة ما قبل المدرسة - تلك الفترة المبكرة من الحياة التي يتفتح فيها امام الطفل عالم الواقع الانساني المحيط به . والطفل في نشاطه، وخاصة في نشاط لعبه الذي يتجاوز الآن الحدود الضيقة للتناول البسيط للأشياء المحيطة وللأختلاط بطريقة مباشرة مع الأشخاص المحيطين، ينخرط في عالم أكثر رحابة ، مستوعبا إياه في شكل ادائي . فهو يستوعب العالم المادي كعالم للموضوعات الانسانية ، فيه تنطبع الاداءات الانسانية المرتبطة بهذا العالم ، وتتكون صور حسية - حركية وعقلية يسترجعها في مواقف مختلفة . الطفل « يسوق السيارة » ، و« يصبو المدفع » ، بالرغم من انه لا يستطيع حقيقة ان ينطلق بالسيارة أو يطلق النار من المدفع . فحاجات الطفل الحياتية الاساسية تلقى الاشباع بواسطة الكبار بدون ما علاقة بانتاجية نشاطه .

ويخبر الطفل علاقته بالأشخاص المحيطين به بطريقة مباشرة ، فهو ينبغي ان يحتسب المطالب التي يفرضها الكبار المحيطين على سلوكه ، والتي تحدد بدورها علاقاته الوطيدة معهم . وبهذه العلاقات لا ترتبط نجاحاته وأخفاقاته فحسب، وإنما يكمن فيها أيضا لدته واليه ، وبالتالي فهي تتمتع بقوة الدافع .

في هذه المرحلة العمرية يتوزع عالم الأشخاص المحيطين بالطفل ، وبالنسبة له ، الى دائرتين : الاولى - وتتضمن الأشخاص القريبين (الاب ، الام أو من يحل محلهما) من الطفل ، وتؤدي علاقاته بهم الى تحديد علاقاته بكل ما يحيط به . وتتضمن الدائرة الاخرى ، وهي أكثر اتساعا ، كل الأشخاص الآخرين الذين تتوسط علاقاته بهم بتلك العلاقات التي تشكل في جماعة الدائرة الاولى ، جماعة الاسرة ذات العلاقات الوطيدة الدافئة .

ويمثل التحاق الطفل بالمدرسة حدثا سيكولوجيا بالغ الأهمية في تاريخ حياة الطفل ، فكل نظام علاقاته الحياتية يخضع لإعادة البناء والتنظيم . وتبرز الآن مهمة المجتمع كقرص واجب ، وليس فقط مهمة الوالدين أو المعلم . ويؤدي تحقيق هذا المطلب الى تحديد موقع الطفل في الحياة ، وظيفته ودوره الاجتماعيين ، وبالتالي ما تنطوي عليه حياته من مضمون في المستقبل برمته .

هل يعني الطفل ذلك ؟ طبعي ، ان يكون على وعي بأهمية هذا الحدث (الالتحاق بالمدرسة) ، هذا أيضا قبل التعلم الشكلي . فحينما يجلس الطفل على دروسه ، قد يشعر بنفسه انه مشغول بعمل عظيم حقيقة . ويمنع الكبار الاطفال الصغار في الاسرة من احداث ازعاج لطفل المدرسة ، وحتى قد يضحي الكبار بأعمالهم الخاصة لكي يتوفر الطفل على دروسه . ويختلف هذا تماما عما كان يقوم به من لعب ونشاط من قبل . فموقع نشاط الطفل ذاته في حياة الكبار المحيطين به قد صار موقعا آخر .

ففى هذه المرحلة يمكن ان نشترى اولاً للطفل لعبة ، ولكن من المستحيل أن نشترى له كتاباً وكراسة وقلماً . لذا يطلب الطفل ان نشترى له كتاباً او قصة او مجلة اكثر مما يطلب شراء لعبة . مثل هذه المطالب تحمل مغزى مختلف ليس بالنسبة للوالدين فحسب ، ولكن ايضاً بالنسبة للطفل ذاته .

وفى هذه المرحلة الارتقائية تفقد علاقات الطفل الوثيقة دورها المسيطر السابق لتمتد الى دائرة اكثر اتساعاً واختلاطه وعشرته ، فهذه العلاقات ذاتها تتحدد الآن - بالعلاقات الآخذة فى الاتساع . وكيفما كانت ، على سبيل المثال ، العلاقات الاسرية الوثيقة التي يشعر بها الطفل طيبة ، فلا بد من ان يؤدي حصوله على درجة منخفضة فى أعماله المدرسية او عدم استحسان المعلم له الى تعكير صفو هذه العلاقات . ويختلف هذا تماماً عما كان من قبل ، فى سن ما قبل المدرسة . وهنا كما لو ان المدرسة تبلور فى ذاتها علاقات جديدة ، شكلاً جديداً للاتصال والمعايشة ينخرط فيه الطفل ، معنى جديداً لتحقيق ذاته .

ويصبح فى مقدور الطفل الا يغضب المعلم بسلوكه : فلا يحدث صوتاً فى الدرج ، ولا يتحدث مع زميله أثناء الدرس ، ولا يلقي بالقاذورات على الارض ، ولا يحدث شغباً مع الآخرين ، او ضرراً لهم وغير ذلك مما قد ينعكس فى الدرجات التي يحصل عليها . والدرجة المنخفضة لا تمنح من صفحة كراسته ، وانما تقف بجوارها الدرجة العالية الجديدة ، وليس بدلاً منها .

وبهذا يتحقق الانتقال الى المرحلة التالية من نمو الحياة والوعي لدى الطفل . يرتبط هذا الانتقال لدى المراهق بانضوائه فى أشكال ملائمة من الحياة الاجتماعية (المشاركة فى بعض المهام الاجتماعية التي لا تحمل طابعاً طفلياً ، الاضطلاع بأدوار هامة فى التنظيمات الطلابية ، ومشروعات ومعيسكرات الخدمة ، تبلور مضمونا جديداً للعمل الجماعي ، الى غير ذلك) . وبذلك يتغير الموقع الحقيقي الذي يحتله الطفل فى الحياة اليومية للكبار المحيطين به ، فى حياة أسرته . الآن تضعه قواه الجسمية ومعارفه ومهاراته فى بعض الحالات على قدم المساواة مع الكبار ، بل وحتى قد يشعر بالتفوق والافضلية : فقد يعترفون بما له من همة وما يقوم به من رعاية ومساعدة للأسرة ، وقد يكون هو العضو الاقوى فيها والناساطق بلسان حالها فيما تمر به الأسرة من احداث .

ومن ناحية الوعي يتصف هذا الانتقال بنمو الروح النقدية لدى المراهق بازاء المتطلبات والمسؤوليات والتصرفات والخصال الشخصية للكبار ، وبانبثاق ميول نظرية أصيلة . وتظهر عند المراهق الحاجة الى ان يعرف ليس الواقع المحيط به فحسب ولكن ايضاً ما هو معرف عن هذا الواقع . وفى هذه الفترة يتهيأ المراهق للعمل المهني ، بل وقد يمارس نشاطاً انتاجياً يحقق فيه ذاته . وهنا يحتل المراهق موقعا جديداً ، وتكتسب حياته مضمونا جديداً ، وهذا يعني انه صار يدرك كل العالم بمنظور جديد .

الا ان تغير الموقع الذي يحتله الطفل فى نظام العلاقات الاجتماعية خلال المسار النمائي لا يحدد فى ذاته ، بطبيعة الحال ، تطور نمو الطفل ، وانما يعين الطور النمائي القائم والمتاح بالفعل فحسب . لكن ما يحدد ، بطريقة مباشرة ، نمو النشاط النفسي لدى الطفل - هو حياته

ذاتها ، نمو العمليات الحقيقية لهذه الحياة ، بمعنى آخر ، نمو نشاط الطفل ، الخارجي والداخلي . وعلاوة على ذلك ، يرتبط نموه بنموه بالشروط الحياتية المتاحة وبمدى ما يتوفر من « مقومات استشارة النمو » .

ومن هنا ، ينبغي في دراسة تطور نمو الحياة النفسية لدى الطفل ان ننطلق من تحليل نمو نشاطه كما يتشكل في شروط ومواقف ملموسة من حياته . وبهذا المدخل وحده يمكن تفسير دور الشروط الخارجية لحياة الطفل ، وكذلك استعداداته الطبيعية التي يتمتع بها . وبهذا المدخل فحسب ، الذي ينطلق من تحليل مضمون نشاطه النامي ، يمكن ان نفهم بحق الدور الهائل للتربية التي تباشر تأثيرها على نشاط الطفل بصفة خاصة ، وعلى علاقته بالواقع ، ومن ثم على بناء حياته النفسية ووعيه .

ولا يتشكل النشاط بطريقة آلية انطلاقا من أشكال منعزلة من النشاط . تمثل بعض أشكاله في مرحلة معينة أشكالا مهيمنة وتحمل معنى كبيرا بالنسبة لاضطراب نمو الشخصية ، في حين تحمل الأشكال الأخرى معنى أقل . بعضها يلعب دورا رئيسيا في النمو والأخرى ثانويا . ومن ثم ينبغي ان نقرر ارتباط تطور نمو الطفل ليس بالنشاط بصفة عامة ، ولكن بالنشاط المسيطر .

لذا يمكن القول بأن كل مرحلة من مراحل النمو النفسي تتميز بعلاقة محدودة ، مهيمنة في مرحلة معينة ، للطفل مع الواقع ، بنمط محدد مهيمن لنشاطه . ومن أبرز دلائل ارتقائية الطفل من مرحلة لأخرى ، تغير النمط المسيطر للنشاط ، وتغير العلاقة المسيطرة لدى الطفل مع الواقع .

والسؤال : ماذا نعني بالنمط المسيطر للنشاط ؟

لا يتمثل النشاط المسيطر أبدا في دلائل كمية خالصة . النشاط المسيطر - ليس ببساطة نشاطا تقابله أكثر في مرحلة بعينها من مراحل النمو ، يعطيه الطفل وقتا أكبر . لكن ما نعنيه بالنشاط المسيطر ، ذلك النشاط الذي يتصف بالدلائل الثلاث التالية :

أولا : هو ذلك النشاط الذي تظهر على شاكلته وتتمايز في داخله أشكال جديدة أخرى من النشاط . من هذا ، على سبيل المثال ، ان التعلم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، يتضح قبلا في طفولة ما قبل المدرسة ، يظهر أولا في اللعب ، أي يظهر في النشاط المسيطر في هذه المرحلة من مراحل النمو . فالطفل يبدأ التعلم وهو يلعب .

ثانيا : النشاط المسيطر ، هو ذلك النشاط ، الذي تتكون فيه عمليات نفسية محددة ويعاد بناؤها . من هذا ، على سبيل المثال ، في اللعب تتكون عمليات التخيل النشط ، وفي الدراسة عمليات التفكير التجريدي . لكن هذا لا يعني ان تكوين وإعادة بناء كل العمليات النفسية يتم داخل النشاط المسيطر فحسب . فبعض العمليات النفسية تتكون ويعاد بناؤها ليس بطريقة مباشرة في النشاط المسيطر ذاته ، ولكن أيضا في أشكال أخرى من النشاط ترتبط

به من الناحية التطورية . فمثلا ، عمليات تجريد وتعميم اللون تتكون في سن قبل المدرسة ، ليس في اللعب ذاته ، ولكن في الرسم واستخدام الألوان وغير ذلك ، اى في تلك الاشكال من النشاط التي ترتبط في أصلها بنشاط اللعب فحسب .

ثالثا : النشاط المسيطر ، هو ذلك النشاط الذي يرتبط به ما يلاحظ في فترة معينة من النمو من تغيرات نفسية أساسية في شخصية الطفل . فالطفل في سن ما قبل المدرسة ، على سبيل المثال ، يستوعب في اللعب خاصة الوظائف الاجتماعية والمعايير الملائمة للسلوك الانساني (« ماذا يفعل العامل في المصنع ، والفلاح في الحقل » ، « ماذا يفعل الجندي ، وغير ذلك) ، وهذا يمثل ركيزة هائلة لبناء شخصيته .

وهكذا ، يكون النشاط المسيطر - هو ذلك النشاط الذي يضمن نموه تحقيق تلك التغيرات الهائلة في العمليات النفسية ، وفي خصائص شخصية الطفل في مرحلة بعينها من مراحل النمو .

ولا تتميز مراحل النمو ، رغم ذلك ، بمضمون محدد للنشاط المسيطر لدى الطفل فحسب ، ولكن ايضا بتتابع زمني محدد ، أي بعلاقة محددة بعمر الاطفال . ومع ذلك ، لا يمثل مضمون المراحل ولا تتابعها في الزمن شيئا يعطي لا يتكرر ولا يتغير .

فكل جيل جديد ، وكل فرد ينتمي الى هذا الجيل ، تنهيا امامه شروط معينة للحياة ، وبالتالي مضمون معين لنشاطه . لذا ، فبالرغم من تحديدنا لمرحلة معلومة في نمو الحياة النفسية لدى الطفل ، الا ان مضمون المراحل لا ينفصل أبدا عن الشروط التاريخية والثقافية الحية ، التي ينساب فيها نمو الطفل . وينسحب تأثير هذه الشروط سواء على مضمون هذه المرحلة او تلك من مراحل النمو ، او على كل مسار عملية النمو النفسي برمتها . فبالرغم من ان مراحل النمو تتوزع بشكل محدد في تتابع الزمن ، ولكن حدودها العمرية ترتبط بمضمونها الذي يتحدد بدوره بتلك الشروط التاريخية - الثقافية التي تتم فيها العملية النمائية ، وهكذا لا يحدد عمر الطفل مضمون مرحلة النمو ، ولكن ترتبط الحدود العمرية ذاتها بمضمونها وتتغير مع تغير الشروط الاجتماعية - التاريخية . ويبدأ الطفل ، في سياق النمو ، في ان يعي بأن الموقع السابق الذي كان يحتله في عالم العلاقات الانسانية المحيط به كما لو انه لا يتفق مع امكاناته ، ويسعى الى تغييره . وبالتالي ينشأ تناقض صريح بين نموذج حياة الطفل وامكاناته الفعلية . ومن ثم يخضع نشاطه لاعادة البناء ، وبالتالي تتحقق الانتقالية الى مرحلة جديدة من نمو حياته النفسية .

ونسوق مثلا لذلك عن تطور نمو الطفل في سن ما قبل المدرسة . في البداية يشترك الطفل عن طيب خاطر في حياة الجماعة بدار الحضانة ، يشارك الاطفال الآخرين لعبهم ، ويعرض رسومه ، ويقص الحكايات ويردد الاناشيد ، ويحكي عن الاحداث التي صادفته في تجولاته . وكثيرا ما يستجيب له الكبار بابتسامة راضية وباستحسان يعضد ما يقوم به . وبعد فترة من النمو ، تتسع معارف الطفل ، وتزداد مهاراته ، وتنمو قواه ، وبالتالي يفقد النشاط في دار الحضانة مفزاه السابق بالنسبة له . حقيقة يحاول ان يجد في حياة دار الحضانة مضمونا جديدا ؛ فهو يبدأ في

ان تكون له مجموعات من الاطفال تعيش حياتها وما قد يشبع فيها من خصوصيات واسرار ، وهي ليست ابدا بحياة ما قبل المدرسة ؛ لقد صار الشارع والفناء وجماعة الاطفال الاكبر سنا اكثر اجتذابا له . وقد تؤدي هذه التغيرات الى احداث خلل في انتظام عملية النمو . وهذا ما يسمى بأزمة العلم السادس من النمو .

وعادة ما ترتبط أزمات النمو - أزمة العلم الثالث ، أزمة العلم السادس ، أزمة المراهقة ، أزمة الشباب - بانتقال الطفل من مرحلة لآخرى . وهي تكشف بشكل صارخ عن وجود ضرورة داخلية لهذه الانتقالات من مرحلة لآخرى ، ولكن هل هذه الازمات حتمية الوقوع في نمو الطفل ؟

في الحقيقة لا تمثل أزمات النمو ابدا احداثا حتمية في مسار العملية النمائية . فالذي لا مفر منه ليس الازمات ، ولكن التحولات والنقلات الكيفية في النمو . وعلى العكس ، والازمة دليل على انتقال لم تتحقق في وقتها الموالي . الازمات قد لا تقع اطلاقا ، اذا ما تواتر النمو النفسي للطفل بطريقة غير عفوية ، وتحقق كعملية أحسن ادارتها وتوجيهها - بالتربية رشيدة التوجيه .

ويجب تحول النمط المسيطر لنشاط الطفل وانتقاله من مرحلة نمائية لآخرى ، في الحالات السوية ، على الحاجة الداخلية الناشئة ، ويعني هذا بدوره ان الطفل يضع التعليم امام مهام ومطالب جديدة تتفق مع امكاناته المتغيرة ووعيه الجديد .

نمو الطفل في النشاط :

الشخصية تتشكل في النشاط . فكل السمات والقدرات والاهداف والميول والمطامح والانماط السلوكية تتكون في الاشكال المختلفة للنشاط التي ينخرط فيها الطفل ، تلك الاشكال التي تؤلف حياة الشخصية ووجودها الاجتماعي . ففي النشاط خاصة تتكشف أهدافه ودوافعه ، نزعاته ورغباته ، وخصائص شخصيته وأسلوبها في مواجهة المواقف وحل المشكلات .

فارتباطا بما يفعله الطفل (مضمون نشاطه) ، وكيف يعمل (طرق النشاط) ، وبتنظيم وشروط هذا النشاط وبما يستدعيه هذا النشاط لدى الطفل من علاقات واتجاهات ، تتكون لديه ميول وقدرات وخصال معينة ، وتتدعم معارفه وخبراته .

خلال النشاط الذي يتحقق بالشخصية وبالاشتراك مع الاشخاص الآخرين ، يعرف الطفل ذاته ، يتكون وعيه في النشاط الذي يشترك فيه مع الاطفال الآخرين ، يعرف ذاته في الآخر ، يفهم الآخرين ونفسه ، ويوجه ذاته ويقيم تصرفاته وأفعاله ، ولعلنا لا نجانب الصواب حينما نقرر انه يمكن اعادة اللثام عن قوائين النمو النفسي ودينامياته بدراسة الاشكال المختلفة لنشاط الاطفال في كل الانتقالات النمائية .

اللعب : نشاط ينطوي على اشكال مختلفة : الالعاب الحركية ، الالعاب التعليمية ، الالعاب التمثيلية ، الالعاب التركيبية . ويحتل اللعب بالادوار ، او الالعاب الابداعية ، ان صح هذا التعبير ، مكانة هامة في نمو الاطفال من سن ٢ - ٧ سنوات . ويمثل هذا النمط من اللعب النشاط المسيطر في طفولة ما قبل المدرسة خاصة وفي المرحلة الابتدائية عامة . واللعب بالادوار ينشأ

ويوجد في ارتباط مع الانواع الاخرى من الممارسات الطفولية ، وخاصة مع ملاحظات الحياة المحيطة به والاستماع الى القصص والحكايات والاحاديث مع الكبار .

واللعب في الطفولة وسيط تربوي يعمل بدرجة هائلة على تشكيل الطفل في هذه المرحلة التكوينية الحاسمة من النمو الانساني . ولا يرجع مصدر هذه الاهمية الى ان الطفل يقضى جل وقته في اللعب الذي يستثير اهتمامه والى انه قليلا ما ينفهم في النشاط العملي للكبار ، وانما الى ان اللعب يتمخض عن تغيرات كيفية في التكوين النفسي للطفل ، وفيه تكمن اساس النشاط الدراسي الذي سيكون نشاطا مسيطرا على حياته في سنوات المدرسة .

فلا يمكن ان يتم اشباع نزعة الطفل الى الحياة المشتركة مع الكبار على اساس من العمل المشترك ، ولكن يبدأ الطفل في اشباع هذه الحاجة في سياق اللعب ، حيث لا يمارس الحياة العملية فحسب ، وانما يتسرب ايضا اتجاهات معينة نحو الذات وفي علاقتها بالآخرين ، متخذاً لنفسه ادوار الكبار . لذا يصير الموقع الخاص الذي يحتله الطفل في المجتمع ركيزة لنشأة اللعب بالادوار كشكل متميز من نشاط الطفل يدخل به الى عالم الكبار . في اللعب تفتح امام الطفل ابعاد العلاقات الاجتماعية القائمة بالفعل بين الناس ، ويبدأ في ان يتفطن الى ان الاسهام في أي نشاط يتطلب من الشخص الوفاء بالتزامات محددة والتمتع بنظر ذلك بحقوق معينة ، وهو ما يعكسه ايضا في نشاط لعبه . ويتعلم الطفل من اللعب الجمعي « الضبط الذاتي » - Self - Control و « التنظيم الذاتي » Self - regulation ، خضوعا للجماعة وتنسيقا لسلوكه مع الادوار المتبادلة فيها .

واللعب ايضا مدخل اساسي لنمو الطفل عقليا ومعرفيا ، وليس لنموه اجتماعيا وانفعاليا فقط . ففي اللعب يبدأ الطفل في التعرف على الاشياء وفرزها وتصنيفها ، وبالتالي في تعلم مفاهيمها والتعميم بينها على اساس لفظي لغوي . وهنا يلعب نشاط اللعب دورا كبيرا في نمو الكلام لدى الطفل وفي التعبير الرمزي وفي تكوين مهارات الاتصال الكلامي .

واذا كان الطفل يتغير ارتقائيا في اللعب ، فان مضمون اللعب ذاته يخضع لتغيرات كيفية مع تطور العملية النمائية . فالمضمون الاساسي للعب الطفل في العامين الاولين حركات جسمية حسية غير منظمة ، فلا يدرك الطفل مثلا خطورة تناول بعض المواد او الادوات التي تستثير شغفه . وفي حوالى العام الثالث يمارس الطفل بمواد اللعب تلك الاداءات التي يأتيناها الكبار مع المواد الحقيقية ، فالطفل مثلا يقوم بمسح المنضدة او تنظيف الارض او الاحذية او تقطيع الخبز او اطعام العروسة ، الخ . فهو يسترجع الاداءات الواقعية ، كما يلاحظها في دنيا الكبار ، في العابها وموادها وادوارها ويمارسها في نشاطه بصورة خيالية ورمزية . وفي الفترة من سن أربع الى سبع سنوات ، يأخذ لعب الطفل في ان يخضع تدريجيا بدرجة كبيرة لاعتبارات الواقع الموضوعي ، فتصير مسابقة القواعد والاجراءات التنظيمية هي المضمون الاساسي لنشاط لعبه ، وبالتالي يبدأ لعب الطفل في ان يصبح بشكل اكثر نظامية وهادفة ، ويأخذ في التخفيف التدريجي من نزعته الى التمرکز حول الذات وفي التوحد المتزايد مع الجماعة ، ومن ثم في تكوين صورة اكثر واقعية عن الذات النامية .

العمل : يحتل العمل في نمو الطفل مكانة بالغة الاهمية . لكن الدور الذي يلعبه هنا في حياة الطفل يختلف عن الدور الذي لعبه في تطور المجتمع الانساني . فالطفل يشب في عالم جاهز الصنع ، عالم العمل وادواته ونواتجه . وهو يتعلم على ايدي الكبار ، العاملين أنفسهم . وتمثل اداءاتهم بالنسبة للطفل نموذجا للتقليد ، أما ما يباشره الكبار من أوامر ونواهي وضبط وتوجيه وتفسير ومساعدة فانه يحرر الاطفال من الكثير من المحاولات عديمة الجدوى ويجنبهم الاخطاء الفادحة التي وقعت فيها الاجيال السابقة .

يؤكد تحليل الاشكال المختلفة لنشاط العمل لدى الاطفال ، خصائصه وتغيره في المراحل العمرية المختلفة ، ان العمل ينطوي على امكانيات تربوية وتعليمية هائلة في عملية النمو . فنظام الاداءات العملية يمثل مضمون نشاط العمل ، تلك الاداءات التي توجه نحو تحقيق هدف ينشده الطفل . ويحمل هذا الهدف دائما قيمة اجتماعية محددة .

والحاجة الى العمل - أحد الحاجات الحياتية المتعاضدة لدى الانسان المعاصر. فنشاط العمل يشبع في الطفل حاجة أصلية الى الممارسات السديدة الفعالة . وبقدر ما يكون نتاج النشاط ملموسا وواقعيا ، يصير في حد ذاته هدفا يسعى اليه الطفل . وتتقوى جاذبية العمل بما يعمل في الطفل من مشاعر السرور المرتبطة بالنشاط المشترك مع الكبار والاطفال الآخرين .

الا ان الاتجاه الناضج نحو العمل والنزعة الى انجاز هدف مفيد اجتماعيا لا يصير على التو دافعا محركا لنشاط العمل لدى الاطفال . فالاطفال الصغار ، بقيامهم بمهام عملية منفردة توكل اليهم ، توجههم اليها في البداية دوافع ضيقة تتسم بالمركزية حول الذات . يعملون لكي يستجلبوا استحسان الوالدين والكبار . وبالتدريج تأخذ دوافع العمل في التغير لدى الاطفال . بالنسبة لطفل الثالثة من العمر تكون عملية العمل ذاتها اكثر اجتذابا واستثارة . واذ يقوم الطفل بالاداءات المطلوبة بالاشتراك مع الكبار وينجز ما هو مطلوب منه ، يشعر بنفسه كشخص « كبير » . فهو باهتمام يضع الملاعق على المائدة ، ويناول بعض الادوات مع الام . ولا يختلف هذا العمل كثيرا عن اللعب ، ولكن دوافعه مختلفة . فكلما تطور نمو الطفل ، تكتسب نتائج العمل أهمية كبيرة ، أي الفائدة التي يمكن أن يجلبها ما يقوم به من مهام عملية واعية .

تأخذ دوافع العمل لدى اطفال السادسة والسابعة والثامنة من العمر في ان تكتسب اكثر وأكثر مغزى اجتماعيا واضحا . الاطفال يشتركون معا في العمل لكي تنهى المدرسة جيذا لاستقبال الآباء في حفل مدرسي . وينغمس الاطفال بهمة ، في تنظيف المدرسة او في مباراة رياضية مثلا ، لكي تفوز مدرستهم بالمكانة الاولى .

ويستدعى الوصول الى نتيجة حقيقية للعمل لدى الطفل شعورا بالترقي الانفعالي . وينشأ هذا الشعور لان الاطفال :

أ - يرون ان قواهم وطاقاتهم لا تذهب هباء .

ب - يبدأون في معرفة قواهم (« هذا ما يستطيع عمله ») .

ج - يبدأون في الاحساس بلذة العمل الجماعى ، وتأخذ عملية العمل ذاتها في اجتذابهم .
د - يشجعون بتقدير واستحسان الكبار ، ومن شأن الانفعالات الايجابية في عملية العمل ان تؤدي الى نمو حب العمل لدى الاطفال والى الثقة في قواهم .

يقول ابو علم النفس العربى الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى :

« لقد شاهدت بنفسى الاشخاص الذين طالعوا واكتفوا بالمطالعة وهضموا ما طالعوه ، شاهدتهم انهم يظلون في عقولهم كالاطفال الى ان يمارسوا الواقع ممارسة فعلية ، فرايتهم ينضجون ويكتمل نموهم ، لا في عملهم فحسب ولكن في شخصياتهم ، ولنا أسوة فيما قاله لنا الاستاذ الغزالى حيث نصحنا بأن نعمل بما نعلم لينكشف لنا ما لا نعلم » (٦) .

بالعمل تنمو الخصائص الجسمية والعقلية والخلقية المعنوية لدى الاطفال . العمل يؤدي الى نمو وتحسين العمليات النفسية ، وخاصة دقة الادراك والقدرة على الملاحظة وتنظيم الاداءات . ويمثل اتساق حركة العينين والذراعين في العمل (الاتساق الحسى - حركى) وانتظام حركة الاصابع مؤشرا أساسيا على تهيؤ الطفل للعمل المدرسى ، للدراسة ، للكتابة والخط ، للرسم ، لاجمال الورش بالمدرسة وغير ذلك . والاطفال ، بتوجيههم لاداءاتهم نحو انجاز هدف واضح ، يتدربون على الانتباهية ، على التركيز الانتقائي للانتباه الذى يصير اكثر ثباتا وارادية ، اى يكتسب خاصية التوجيه والادارة الواعيين .

ويتطلب العمل من الطفل استخداما متعدد الجوانب لخبرته . فلكى يقوم الاطفال بالعمل عن طيب خاطر ، ينبغى ان يتهيأ لهم فهم مغزى العمل في حياة الناس واهميته للمجتمع . ينبغى اثراء تصورات الاطفال عن : اين وكيف ولماذا يعمل الناس باختلاف تخصصاتهم ، وان نحكى لهم عن ادوات ووسائل وآلات ومواد العمل التى يعملون بها ، وان نبصرهم بالفائدة الاجتماعية للعمل كما تقوم به جماعات مهنية كاملة (عمال نسيج ، عمال نفط ، مزارعون ، خبازون ، صيادون وغير ذلك من جماعات العمل) ، وان نوقفهم على مدى السرور الذى قد يبعثه العمل وفيما تكمن صعوبة عمل الطبيب والعامل والمعلم والسائق والمهندس وغير ذلك . واذ نبرز للاطفال تلك العلاقات المتبادلة بين العاملين يحمل نشاط العمل مغزى تربويا تعليميا هائلا بالنسبة للاطفال . فعلى سبيل المثال :

« السائق يقود الاتوبيس ، عمله هام بالنسبة للجميع : وفي الاتوبيس حشد من الناس ، فهذا رجل ذاهب الى عمله وذلك الى الطبيب ، وثالث الى كليته ، هؤلاء ذاهبون لزيارة بعض الاصدقاء ، وآخرون الى المتحف او حديقة الحيوان ، او الى محل لبيع الملابس ، وغيرهم ذاهب الى محطة السكة الحديدية . لكن السائق نفسه يعتمد باستمرار على ما يقوم به الآخرون من اعمال . فهو يرتدى ملابس يعدها العمال في مصنع النسيج والترزى يفصلها له . وهذه الملابس مصنوعة من القطن الذى يزرعه الفلاح في الحقل او من الصوف الذى نحصل عليه من

(٦) دكتور عبد العزيز القوصى : مستقبل التعليم النظرى في مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .

تربية الاغنام . واذا مرض السائق يتوجه الى الطبيب للعلاج ، والى الصيدلى لشراء الادوية ، اولاده يذهبون الى المدرسة ، حيث يعمل المعلم . فكل انسان يستخدم عمل الآخرين ، ولا يمكن ان يعيش انسان وحده او يعمل لنفسه فحسب .

والعمل قيمة كبيرة فى نمو المهارات اليدوية والقدرات العقلية ، فالطفل بتقليده للكبار وبتنفيذه لتعليماتهم ، يستطيع ان يستخدم مايتوفر له من ادوات مثل ادوات المائدة وادوات المدرسة واستخدامها . الا ان الطفل ينبغى ان يتعلم ليس استخدام هذه الادوات استخداما آليا فحسب ، وانما ايضا اتقان بعض المهارات العقلية . فينبغى ان يتعلم كيف ينتقى الادوات والوسائل والمواد الملائمة لعمل وهدف معينين ، ان يتمكن من تحديد اى الاداءات يأتى بها وفى اى تتابع ينبغى تحقيقه .

ويتضمن نشاط العمل اربعة عناصر اساسية :

١ - استخدام المعلومات .

٢ - الوعى بالهدف .

٣ - تدبر اداءات العمل .

٤ - مراجعة وتقييم نتائج العمل .

٥ - الانجاز العملى للاداءات المطلوبة .

وهذه العناصر اللازمة لتحقيق نشاط العمل تتطلب من الطفل القيام بعمليات عقلية . لذا فان فاعلية الطفل فى العمل (ليس فقط الفاعلية الجسمية ، ولكن ايضا العقلية) تؤدى الى تفتح امكانات نمو التفكير والتخيل لدى الطفل . ولا ينفصل نمو التفكير عن تكوين الميول المعرفية لدى الاطفال .

والعمل ، بجانب ذلك ، مجال لتنمية الارادة لدى الاطفال ، فالطفل يتدبر مواقف العمل ، يخطط لتحقيق الاهداف ، يحاول التغلب على الصعوبات والمعوقات . وفيه تنمو اتجاهات الزمالة والصداقة وتبادل الادوار ، وغير ذلك من معالم النمو الاجتماعى والعاطفى للطفل .

وهكذا ، ينطوى العمل المنظم تربويا على امكانات هائلة للنمو المتعدد الجوانب للطفل ، حركاته واحساساته ، ذاكرته وتخيله ، الملاحظة والانتباه والتفكير ، وفى نشاط العمل تنهيا امكانات كبيرة لنمو الغرضية فى السلوك والثابرة والارادة والمثابرة والواقعية والخصال الخلقية السامية ، كالحب والوفاء والمودة والتضحية وغير ذلك . وتستلزم عملية البناء البشرى هذه من المعلم مواءمة تجسيدها فى الممارسات التربوية اليومية . وفيما يلى نعرض للمتطلبات الاساسية اللازمة لتنظيم نشاط العمل لدى الاطفال .

١ - ينبغى ان يتفق العمل ، كاي نشاط ، مع القدرات العقلية والجسمية للاطفال . فعملية النشاط ذاتها تجتذب طفل الثانية والثالثة من العمر ، فلا يتيسر للاطفال الصغار انجاز عمل

وفقا لهدف مقترح ، وحتى هدف قريب . اما طفل الخامسة والسادسة ، فيستطيع ان يرنو الى المستقبل ، فتشده اليه اهداف ودوافع معينة، وان كانت غير كافية . ويستطيع الاطفال الاكبر سنا ان يذهبوا الى تحقيق اهداف بعيدة اكثر تعقيدا ، يتطلب تحقيقها اسهام مجموعة كاملة من الاطفال وتنظيم للدوار والاداءات المختلفة .

٢ - لكي يؤدي العمل المنظم تربويا الى اشباع الاطفال ، ينبغي ان يتضح امامهم ليس الهدف (أى النتائج النهائي للعمل) فحسب ، ولكن ايضا القيمة الاجتماعية لهذا العمل .

٣ - لكي تتكون لدى الاطفال اتجاهات ايجابية نحو العمل من الضروري ان نفرس فيهم قيمة تقدير كل عمل نافع ، من ذلك مثلا تقدير العمل اليدوى والاعمال الشاقة التي لا غنى عنها لحياة الناس .

٤ - لكي يخبر الطفل شعورا بالرضا من نشاطه في العمل ، ينبغي ان يكون قادرا على العمل، اى يتقن نظاما من الخبرات والمهارات التي يستطيع استخدامها بنجاح في مواقف متعددة يحقق فيها ذاته .

النشاط الدراسى : كلما تطور نمو الطفل أخذ نشاط آخر - النشاط الدراسى - في احتلال مكانة متزايدة في حياته ويلعب دورا اكبر في نموه .

وترتبط الدراسة ارتباطا وثيقا بالعمل ، لان اى عمل يستلزم دراسة ، فالدراسة تسبق العمل ، ولكن الدراسة ذاتها عمل فريد ونشاط سواء من جانب الطفل او المعلم .

يمثل استيعاب الاطفال لنظام محدد من المعرفة مضمون النشاط الدراسى . وتؤلف هذه المعارف الخبرة المتجمعة من اجيال عديدة عاشت في بلاد العالم المختلفة وفي فترات تاريخية متعددة . ويتلقى كل جيل جديد من الاسلاف معلومات متجمعة في شكل جاهر ، وهو مطالب باستيعاب واتقان هذه المعلومات وطرائق استخدامها ، ذلك هو هدف ودافع النشاط الدراسى .

ويمكن ان نحدد خصائص النشاط الدراسى على النحو التالى :

١ - تنظيم النشاط الدراسى لدى الاطفال مهمة المعلم ، ارتباطا بمتطلبات المجتمع كما تحددها البرامج الدراسية . ويتعين في البرامج ان تسعى بفاعلية الى توظيف ذلك المحتوى الذي ينبغي تحقيقه في كل مرحلة من مراحل نموهم ، حيث يتحدد في البرنامج مستوى وحجم المعلومات والخبرات والمهارات التي على الاطفال اكتسابها .

٢ - يمثل استيعاب الطفل للمعلومات مضمون النشاط الدراسى ، وباستيعاب الاطفال للمعلومات وتطبيقها في اشكال مختلفة لنشاطهم ، يتقن الاطفال خبرات معينة ومهارات عقلية ، اى يتقنون طرائق مختلفة للاداء .

٣ - الفاعلية العقلية دالة لفاعلية الطفل في النشاط الدراسى . وبالرغم من ان اداءات الاطفال تعتمد بدرجة كبيرة على اداءاتهم الجسمية (عد أشياء في متناول يديه ، الكتابة) ، فان هذه

الاشكال من الاداءات تحمل طابعا مساعدا . وكلما تكونت اداءات عقلية ، يخضع معظمها لعملية استدخال ، (٧) ويتحول من مضمون النشاط الى طرائقه . فتعلم كتابة الحروف ، على سبيل المثال ، في بداية العام الاول من الحياة التعليمية النظامية يمثل المضمون الاساسي لدروس اللغة القومية ، في حين يصير في نهاية هذا العام الدراسي وسيطا لانجاز مجموعة من الانشطة والممارسات .

والمعلم يوجه فاعلية التلاميذ للاستماع الى الشرح ، وفهم النصوص المقروءة ، واقتان مواد الرياضيات والنحو . ويتطلب النشاط الدراسي المنظم فاعلية في التفكير ، التحليل ، والتعميم ، ومقارنة الجديد بالقديم ، والاستنتاج ، تجسيد القواعد والعمليات المعروفة بطريقة حسية لكي تضمن فهم المادة الدراسية . ويسر هذا ايضا عمل الذاكرة .

ودور الذاكرة في النشاط الدراسي بالغ القيمة . ففي دور الحضانة يعتمد المعلم الى اثناء ذاكرة الاطفال بتصورات جديدة عن الحيوانات والنباتات ، عن المدينة وظاهرات الحياة الاجتماعية ، اطفال الرابعة والخامسة من العمر يحفظون الاناشيد والاشعار ، يحكون عن أمهم ، يرسمون وفقا لتصوراتهم ، يسترجعون ما يرونه في الحياة من اشياء وموضوعات : الناس ، الترام ، البقرة ، الشجرة ، بل ويسترجعون احداثا كاملة فيما بعد : شجرة عيد الميلاد ، على شاطئ البحر وغير ذلك . وبالتحاق الاطفال بالمدرسة يستوعبون مجموعة من المفاهيم المتخصصة : النحوية (اصوات ، حروف المبتدأ ، الاسم) الحسابية (المجموع ، ناقص ، يساوي ، الجمع ، الضرب) ، والمفاهيم المتعلقة بالطبيعة والحياة الاجتماعية . وهذه المفاهيم بدورها تؤدي الى مزيد من ترشيد وانماء الحياة العقلية للاطفال .

والنشاط الدراسي المنظم جيدا يثري خيال الاطفال ويصقله ، والمعلم اذ يقدم للاطفال صورا من حياة الناس في الوطن العربي وبلاد العالم المختلفة ، ينمي الخيال الابتكاري لديهم بما يحكيه ويقرأه ويقدمه من مادة حية تؤدي الى تكوين صور حية عن حركة التطور والتقدم وتصورها ومستلزماتها .

وفي النشاط الدراسي تأخذ كل العمليات النفسية طابعا اراديا . وبالرغم من انه يتشكل في اللعب التفكير والخيال ، وتكون الظروف لاثراء الذاكرة ، فان في العمل الدراسي يتم كل النشاط النفسي (نشاط التفكير والذاكرة والادراك والخيال والحركة وغير ذلك) في اطار نشاط انضباطي ملتزم منظم . فالطفل في مرحلة المدرسة لا بد وان يوجه ذاته لكي يدرك المادة الدراسية سواء في الفصل او في المنزل ، وان يركز انتباهه ويشغل تفكيره ويستعيد ذكرياته عن قصد لاستيعاب نص او لحل مسألة أوللتعبير عن انطباعات وتخييلات في لوحة فنية .

فالدراسة ذاتها تصير منذ البداية عملا جادا ، مسئولا ملتزما . لذا يستلزم النشاط الدراسي من الاطفال فاعلية ارادية ، وتماسكا ، وانضباطا ذاتيا ، الاطفال ينصتون باهتمام

(٧) « الاستدخال » Interiorization يطلق على عملية الانتقال من الاداء الواقعي الخارجى الى

اداء مثالي داخلي ... عملية تحول ما هو خارجى موضوعى الى داخلي ذاتي .

وتركيز لكل ما يشرحه ويعرضه المعلم ، ولما يكلفه بهم من واجبات ومهام عليهم ان يضطلعوا بها كما طلبها منهم . وهم مطالبون باستمرار ان يتحكموا في نزواتهم : ان ينتظروا في صفوف امام المعلم في الفناء ، ان يتوجهوا لفصولهم في نظام ، الا يحدثوا ضوضاء في فترات الفسحة ، ان تكون احاديثهم مهذبة وعلاقاتهم طيبة كل هذا يتم في اطار من الضبط والتوجيه الذاتيين .

يقول آخر ، في النشاط الدراسي تتكون الانتظامية والاستقلالية والالتزامية كأنماط سلوكية لدى الاطفال ، أي الخصال الإرادية .

٤ - النشاط الدراسي ، كشكل من أشكال العمل الجماعي لدى الاطفال ، يفتح امام المعلم امكانات هائلة لتكوين سمات الروح الجماعية ، والزمالة والصداقة والتعاون والتواد والمسؤولية المتبادلة بين الاطفال في المدرسة .

٥ - النشاط الدراسي ، كأي نشاط يعيشه الاطفال ، يتغير مع تغير عمر الاطفال . بالتحاق الاطفال بالمدرسة يتغير النشاط الدراسي ليس من حيث المضمون وطرق التنظيم فحسب ، ولكن ايضا من حيث المعنى الذي يحتله في حياة الاطفال . فهو يصير النشاط المسيطر الذي يوجه ليس كل نظام حياة الطفل فحسب ، ولكن ايضا سلوكه ووضعه في الاسرة وموقعه الاجتماعي الحيائي .

بتغير مضمون وأشكال النشاط الدراسي تتغير أشكال المساعدة التي يقدمها المعلم . الاطفال في سن ما قبل المدرسة محتاجون الى تبين كل أدوات وطرائق العمل : كيف يمسون المعلقة والشوكة والسكين ، كيف يحكون قصة من وحي صورة ، كيف يميزون بين الرقم ٢ ، ٦ مثلا . اما الاطفال في سن المدرسة ، فهم بحاجة الى مساعدة من نوع آخر : ينبغي استشارة فاعليتهم العقلية ، تعليمهم كيف ينتقون القواعد والعناصر اللازمة لحل المشكلة ، كيف يراجعون ويصححون وينقدون ما توصلوا اليه من حلول ، كيف يستوعبون أفضل المعلومات الجديدة ، كيف يحصلون على المعرفة بأنفسهم ، وهكذا .

النشاط الحيائي : ينخرط الاطفال في المواقف الحياتية والمعيشية المختلفة في علاقات وممارسات مع غيرهم من الاشخاص ، يقلدونهم ، ويتعلمون منهم ، ويتوحدون مع حالات انفعالية مختلفة ، ويأتون بأنماط سلوكية تحقق لهم توافقا مع الجماعة وتجذب استحسان أعضائها . لذا ينبغي ان نضع في الاعتبار دور النشاط الحيائي في نمو الطفل ، الذي يتكون فيه الظروف الملائمة لتكوين عادات ملائمة : عادات صحية ، عادات الاستخدام الواعي للأشياء الموجودة في البيئة المحيطة ورعاية الصالح العام والممتلكات العامة في الشارع والحدائق والمواصلات ، المعاشرة الحضارية مع الكبار والاقربان والاصغر سنا ، وعادات الاتباع لنظام محدد .

الطفل في مجالات النشاط الحياتية وغيرها من أشكال النشاط يتعلم حسن توزيع وقته لما ينبغي ان ينجزه في ممارساته اليومية (النوم ، الدروس ، التجول ، اللعب ، الطعام ، النظافة ..) . ومراعاة هذا النظام يضمن ليس توازنا محدد للحياة الفسيولوجية اللاورجانزم (في وقت

محدد يقبل الطفل على تناول الطعام والنوم ، والعمل ، والراحة) فحسب ، ولكن أيضا تكوين عادات مفيدة (يعد دروسه في وقتها المناسب ، النزعة الى النظام والدقة ، ومراعاة الوقت وقيمه ، الوعي الصحي) . وهذه العادات والممارسات تنطوي على معنى مباشر لتكوين السمات الراقية في الخلف او الطابع : مثل التنظيمية والانضباطية والالتزامية والاستقلالية .

وغرس قواعد السلوك في الاطفال يحمل أهمية كبيرة في توجيه فاعلية الطفل في المواقف الحياتية والمعيشية المختلفة . وهذه القواعد السلوكية يمكن ان تنضوي في ثلاث مجموعات : « ينبغي » ، « ممنوع » ، « ممكن » ، وبقدرا تقدم هذه المتطلبات الى كل الاطفال في المجموعة أو في الفصل المدرسي أو في الأسرة ، وبقدر ما تقدم بعطف وحزم وحكمة ، وبقدر موالاة تنفيذها ، تكون عادات السلوك الحضاري . وتصير القواعد السلوكية المتجسدة في هذه العادات ، بالنسبة للطفل ، محكا أساسيا لتقييم سلوك الآخرين وسلوكه ذاته .

يلاحظ ان الاطفال كثيرا ما تصدر عنهم شكايات من بعضهم الآخر . وتعني الشكايات اللجوء الى احد الوالدين أو الكبار أو المعلم طلبا للمساعدة : « هشام اخذ كرسي » ، « زينب أوقعتني على الأرض » ، « كريمة لم تجعلني أشتري معها الخضار » ، وغير ذلك من الأمثلة . وهناك صورة أخرى من الشكايات ، حينما ينقل الطفل الى المعلم أو الوالدين حدثا لم يمسسه شخصا : « سميرة كسرت الزهرية » ، « جمال لم يفصل يديه قبل الأكل » ، .. الخ . والطفل بهذه الشكايات ، التي هي من قبيل « الاعلان » ، كما لو كان يعمد الى مراجعة فعالية وأهمية تلك القواعد ، وينتظر من المعلم أو الوالد تأييدا وتأكيدا على ضرورتها والالتزام بها . ولا شك ان الشكايات تختفى بسرعة مع المعلم الواعي والوالد الحكيم ، وبالتالي يتعلم الاطفال حسن العشرة والسلوك .

لذا ينبغي ان يعرف الاطفال بدقة تامة : ما الذي ينبغي ان يعملونه ، وبأي نظام ، وكيف يعدون دروسهم ، كيف يسلكون حينما يخرجون لرحلة أو نزهة أو حينما يتواجدون في الشارع أو في حديقة أو في محل . ومن الأهمية بمكان مواصلة توجيه وضبط سلوك الاطفال ، وإيقافهم بوعي على ما يصدر منهم : « حسنا كنت منتظما لانك ... » (ويذكر للطفل ما قام به من تصرفات تستحق الاستحسان) ، أو العكس من ذلك حينما يخرج الطفل عن قواعد النظام والسلوك السليم . ومن شأن هذه الموالاة لقواعد السلوك ان تضمن تحقيق نتائج مرغوبة :

١ - تتكشف القواعد وتصير بالنسبة للاطفال « علامات واضحة » لسلوكهم .

٢ - يستخدمها المعلم كوسيط لتوجيه سلوك الاطفال .

٣ - تصير المتطلبات محكات لتقييم سلوك الطفل أولا بواسطة المعلم ، ثم تصير أساسا لاتجاهات الطفل نحو تصرفات زملائه ، وفي النهاية نحو أفعاله ذاتها .

فنظام حياة الطفل في المدرسة ، العمل الدراسي في الفصل ، متطلبات عمل الواجب

المنزلي ، ضرورة مراعاة قواعد النظافة والمظهر الحضاري للأطفال ، العناية بالادوات المدرسية ، احضار ملابس التربية الرياضية في ايام محددة ، وكراسات للرسم او الموسيقى ، وهكذا - كل هذه قواعد تستلزم مواءمة دقيقة ومستمرة في التوجيه والتنفيذ .

ويلعب التقليد والمحاكاة دورا هائلا في المعاشرة الحياتية المعيشية . الطفل يقلد الكبار « بنسخة طبق الاصل » تقريبا ، وخاصة القريبين منه : الوالد ، الام ، المعلم . الطفل يسترجع في البداية بطريقة لا ارادية ثم بعد ذلك عن قصد ، نبرة صوت المعلم او الاب ولهجته واسلوبه في التكلم ، كلماته المحببة ، ايماءاته وحركاته المميزة ، مسلكه في المعاملة والاقبال على الآخرين ، وغير ذلك كثير ، ومما يحمل أهمية الخصائص السلوكية المرغوبة ؛ رعاية الفير ، والتوادم ، واحترام المسنين والمقعدين ، والحضارية في التعامل والعمل .

ومما يكون له قيمة تهذيبية عظيمة : أسلوب الحياة (منظم ، هادئ او عاصف ، مضطرب) الذي يعيشه الكبار ، مظهر الملبس الذي يبدو به ، مراعاة النظام في المنزل او في الفصل والمدرسة ، أسلوب التكلم والحديث ، والضحك والدعابة ، التشاؤمية او التفاؤلية ، التصرف بازاء الافراح والاتراح ، وغير ذلك من دقائق الحياة والوجود . فتتلمذ الحياة اليومية للطفل واثراء مضمونها واسلوبها يشكل في الطفل نظاما كاملا من العادات والالتزامات نحو الوسط الذي يعيش فيه .

ومن المعروف ان الجهاز العصبي للطفل مرن للغاية ، في حين ان الوسط المحيط به دائم التغير . لذا تتطلب العادات المتكونة ضبطا وممارسة مستمرتين ، والا تعرضت للانطفاء والتحلل . ومن الامور التربوية ذات الدلالة البالغة في هذا الصدد الاتساق بين اسلوب المنزل والمدرسة ، وهذا من شأنه ان ييسر ويعمق تكوين نظام من العادات والقيم الراقية الراسخة .



وهكذا ، يكشف تحليل الاشكال الاساسية للنشاط وظروف الحياة اليومية للأطفال ان اى نشاط منظم يتضمن امكانات هائلة للنمو المتوازن ، المتعدد الجوانب للأطفال . ووعى المربي بهذه الامكانات والاستخدام الامثل لها عن طريق تنظيم حياة الطفل ونشاطه في الاسرة وفي جماعات الاطفال والمرافق المدرسية يمثل شرطا حاسما لادارة وتوجيه نمو الطفل . وهنا ينبغي ان يكون المعلم ، كما يقرر عالم التربية « ١ . مكارينكو » ، قبل كل شيء منظما لحياة الاطفال .

بالتعلم ينشط النمو الانساني :

يدخر علم النفس بالعديد من الدراسات التجريبية حول قضية العلاقة بين النمو والتعلم ، والوزن النوعي لكل من النضج والتعلم في النمو ، تلك مشكلة ليست بالسهلة اليسيرة ، خاصة وانها قد درست من زوايا مختلفة ، واستنادا الى طرق عديدة ، كما انها تنطوي على مغزى هائل بالنسبة لقضية تنشيط نمو الاطفال ، والاسراع به . ويمكن تصنيف اهم

الدراسات والطرق التي استخدمتها في تفهم حقيقة العلاقة بين النمو والتعلم على النحو التالي :

١ - دراسات طريقة العزل Method of Isolation

طبقت هذه الطريقة خاصة على الحيوانات، ويستند المبدأ الاساسي لهذه الطريقة على عزل الفرد الصغير عن الاعضاء الاكبر من نفس النوع، لتحديد ما اذا كانت سمات معينة للسلوك مميزة لهذا النوع سوف تظهر بدون ما ان تخبر فرصة للتعلم من جانب الحيوان ، اما الدراسات على الانسان فقد كانت قليلة للغاية بسبب الصعوبات العملية والاعتبارات الانسانية (دينيس ، ١٩٣٧ ؛ ١٩٣٨) .

٢ - الدراسات التي استخدمت طريقة ضبط التوائم المتحدة Method of Co-twin Control

يعتبر (جيزل توسون ، ١٩٣٩ ؛ اول من استخدم هذه الطريقة لدراسة الاهمية النسبية للنضج والتعلم في نمو الطفل . في هذه الطريقة تستخدم التوائم المتحدة كمفحوصين : يعطى احد التوائم تدريباً في تعلم وظائف مختلفة ، بينما لا يلقى التوأم الآخر اي تدريب ، وبعد فترة تقارن نتائج التدريب لتحديد مدى فاعلية التدريب (هيلجارو ، ١٩٣٢ ، ماكجرو ، ١٩٣٩ ، توسون ، ١٩٤٣ . وبالرغم مما تتميز به هذه الطريقة من دقة وضبط علميين ، الا انها مشوبة بصعوبات عملية من حيث تطبيقها وخاصة بعد السنوات الاولى من الطفولة .

٣ - الدراسات التي استخدمت طريقة المجموعات المتزاوجة Matched-Group Method

وفيها يستخدم الباحثون مجموعتين متماثلتين على أساس المزاوجة بينهما في السمات المتعلقة بما : من دراسته من انماط سلوكية . وهذه الطريقة اشبه بالطريقة السابقة، حيث تدرس الاثر النسبي للنضج والتعلم عن طريق تدريب احدي المجموعتين ، في حين تترك المجموعة الاخرى وشأنها بدون أن تتلقى أي تدريب (جيتس وتيلور ، ١٩٢٩ ، جيرسيلد ، ١٩٣٢ ؛ ويلز وآرثر ، ١٩٣٩) .

٤ - الدراسة التطورية لمجموعات كبيرة ، The Genetic Study of Large Groups

تقوم هذه الطريقة على استخدام مجموعات عديدة من الاطفال كمفحوصين للوقوف على ما اذا كان نموذج النمو يظهر بصرف النظر عن الاختلافات في البيئة . واذا ابدى الاطفال من بيئات مختلفة، والذي تعرضوا لفرص مختلفة من التعلم ، سلوكاً يشابه في اساسياته (بالرغم من اختلافه في تفاصيل ضيقة) ، فمن الواضح أن هذا السلوك ليس بمتعلم . وهنا اعتبروا أن السلوك ينبغي أن يعزى الى التفتح الطبيعي للسمات المتوفرة كإمكانات كامنة أو الى النضج (تيرمان ، ١٩٢٥ ؛ ١٩٤٧ ؛ شيرلي ، ١٩٣١) .

تؤكد نتائج الدراسات التي عولت على هذه الطرق أهمية التفاعل بين النضج والتعلم في عملية النمو . يعنى النضج Maturation نمو أو تفتح الخصائص الكامنة في الفرد المرتبطة بمعطيات

وراثية .. بتنظيم يعتمد على مؤثرات موجودة في البيئة الداخلية للخلايا ومستقلة عن تأثير البيئة الخارجية والظروف الحياتية . وبذلك « يمكن تعريف النضج - كما يقول جيزل (١٩٥٢) - بأنه مجموع آثار الجينات (الموروثات) التي تعمل في دورة حياتية محدودة ذاتيا . وهنا يكمن مفتاح هام للفردية التكوينية للفرد Constitutional Individuality والنضج يزود الفرد بالاساسيات اللازمة للتعليم ، ولكن بدون ممارسة وتدريب لا يتم النمو من خلال النضج وحده . يشير « دينيس » (١٩٤١) : « النضج في حد ذاته ولذاته نادرا ما ينتج مظاهر نمائية جديدة ، ولكن نضج البنى Structures حينما يصاحب بنشاط موجة ذاتية Self-Directed activity يؤدي الى استجابات طفلية جديد » .

وبالنسبة للوظائف النوعية Phylogentic Functions ، او الوظائف العامة في الجنس البشرى مثل الحبر والزحف والجلوس والوقوف ، يكون التدريب ذات فائدة ضئيلة . أما بالنسبة للوظائف المميزة للطفل الفرد Ontogenetic Functions ، مثل السباحة او قيادة الدراجة او السيارة ، والتزحلق على الجليد ، يكون التدريب ضروريا ؛ فبدونه لا يتم النمو (ماكجرو ، ١٩٣٥ ، ١٩٤٠) .

يقول (جيزل ، ١٩٥٢) :

« ليس ثمة ضرورة لان نقيم حدا فاصلا جامدا بين عوامل النضج والبيئة . فالعطاء الجسمي والبيئة الثقافية في تفاعل متبادل .. وهناك دلائل قوية من وجود اساس متين للنمو محكوم بالتكوين المورفولوجي الوراثي الدينامي Inherent dynamic morphology الذي يفرضه خليط من الوراثة المرتبطة بالجنس البشرى وبالعائلة . ولهذا السبب يميل الطفل ذو الاصل المعين في حضارة معينة الى ان ياتي مستويا في مستويات متقدمة من سمات للنضج تميز الجماعة بدرجة اكبر او اقل وتمثل ذاته الكونية constitutional self .

واذا كان النمو متوقفا على كلا النضج والتعليم ، فانه بالتالى يتصف بالتنوع والتغاير ولكن اذا اعتبر النمو متوقفا على النضج وحده ، كما هو الحال لدى الكثير من الانواع الحيوانية ، لن يكون هناك تفرد في النمو . ومن ناحية اخرى ، بالرغم من ان هناك تجانسا وانتظاما للنمو بين الكائنات الحية الانسانية ، هناك ايضا تغاير « غير عادي في النموذج النمائي » (ويشيك ، ١٩٥٠) . فلكل طفل - كما يقرر جيزل ١٩٥٢ - نموذج فريد للنمو يعبر عن نفسه ، من حيث التطور النمائي الفردي للطفل ، في خصائصه السلوكية . فالمسار الكلى لهذا التطور مشدود بالمحددات الداخلية للنضج » .

وهكذا ، كما يقرر البعض ، يفرض النضج ، الذي يتوقف على المعطيات الوراثة للفرد ، حدودا لا يستطع النمو ان يتجاوزها . يقول « جيزل » (١٩٤٩) :

« تتوقف كل القابلية للتعليم educability على المقدرات الفطرية للنمو . هذا النمو الداخلى هو هبة الطبيعة ، وهو يمكن ان يوجه ، ولكن لا يمكن ان يخلق : ولا ان يتجاوز بالوسائط التربوية » .

ومن ناحية اخرى ، تتوقف فاعلية التعلم على النضج ، فلا يستطيع الطفل ان يتعلم الا اذا

كان مستعدا للتعلم ، فينبغى ان يتوفر النمو الجسمى والعقلى اللازم قبل ان نسعى لبناء مهارات وقدرات جديدة على هذه الدعامات .

يطلق (بلوم ، ١٩٥٢) على ذلك مصطلح « الاستعداد النمائي »
Developmental Readiness ويحدده على النحو التالى :

« الاستعداد النمائي هو حالة التهيؤ لدى الفرد فيما يتعلق بمجال أو أكثر من التوظيف . ويبدو الاستعداد النمائي ، وهو مرادف للنضوج، متأثرا أساسا بقوانين أو مبادئ تميل الى أن تكون من جانب الطبيعة أكثر من أن تعتمد على عوامل التربية والرعاية التى يتلقاها الطفل . لذا يمكن اعتبار حالة الاستعداد أو التهيؤ على أنها تتحقق بدرجة كبيرة خلال استجابات الطفل للمثيرات الداخلية التى تدفعه نحو النمو . . . والعامل الذى ينبغى أن يوضح بالضرورة فى الاعتبار ، مع ذلك ، هو التوقيت ، مع الاعتراف بأن التعلم سواء فى المجال الدهنى أو الاجتماعى أو الحركى يتحقق على نحو أفضل حينما يكون ما تقدمه للطفل من الناحية التربوية موفوتا بحالة الاستعداد أو النضج لدى الطفل » .

اما (روبرت هافيجهرست ، ١٩٥٣) فيطلق على هذا مصطلح « اللحظة المواتية للتعليم »
Teachable moment

« حينما ينضج الجسم ، ويتطلبه المجتمع ، وتكون الذات مستعدة لانجاز عمل معين ، فان اللحظة المواتية للتعليم تكون قد آتت . لذا تضيق جهود التعليم سدى اذا جاءت فى فترة مبكرة قبل الاوان ، فى حين أنها تأتى بنتائج مجزية حينما تأتى فى اللحظة المواتية للتعليم ، حينما ينبغى ان يتم تعلم مهارة او اداء معين » .

ووفقا لهذا ، اذا كان للتعليم والتعلم ان يتحققا بفاعلية ينبغى ان يرتبطا بمستويات النضج لدى الطفل . ومع ذلك ، غالبا ما لا يتم ذلك لسببين :

أولا - ان السن الذى يتم فيه نضج الوظائف العقلية والجسمية المختلفة غير محدد كلية . فبسبب التغيرات الفردية ، يكون من الصعب ان لم يكن من المستحيل حقيقة ، اقرار أى سن معين نوقن بأنه ينطبق على كل الافراد .

ثانيا : هناك تصورات خاطئة أقرت نموذجا لتربية الطفل وتعليمه . ففى حالة القراءة ، على سبيل المثال ، افترض للاجيال ان كل الاطفال مستعدون لتعلم القراءة حينما يدخلون المدرسة ، فى حين ان بعض الاطفال حقيقة مستعدون لذلك قبل دخولهم المدرسة وآخرين فى غير ما استعداد لذلك بدرجات متفاوتة من الوقت بعد دخولهم المدرسة . وغالبا ما يتجه المربون الى سوء التقدير والاقلال من قدرات الطفل ، ومن ثم يرجئون تعليم المواد « الصعبة » (وكسلر ، ١٩٥٠)

والسؤال : كيف يمكن ان نحدد متى يكون الطفل مستعدا للتعلم ؟

هناك ثلاث محكات تستخدم بصفة عامة لايضاح حالة الاستعداد عند الطفل :

(١) ميل الطفل الى التعلم .

(٢) كيف سيبقى ميله مستمرا الى فترة طويلة من الوقت .

(٣) أى تقدم يمكن ان يحرزه بالممارسة .

وحيثما يأخذ ميل الطفل الى التلاشى بسرعة او حينما لا يبدى تحسنا ملحوظا ، بالرغم من الممارسة المستمرة ، لنا ان نتساءل ونتشكك في استعداده للتعلم .

• • •

تلك ما تواتر من دراسات ونتائج وبيانات تقليدية حول قضية التعلم والنمو ، والعلاقة بين النضج والتعلم في النمو . لكن ذلك لا يعنى ان الفكر السيكولوجى قد استقر على تلك التصورات النظرية وما وصلت اليه الدراسات في هذا الصدد من نتائج ، وأنه صار ينهج على دربها بحكم القصور الدائى .

وقضية كهذه ليست بالبساطة التى قد يتصورها البعض ، لان تناولها بالحل يعنى الى أى حد نتيح للناشئة الفرص الملائمة لكى يتحقق لها التفتح الامثل لامكاناتها الكامنة ارتباطا بمنجزات العصر الهائلة ، بالانفجار المعرفى ، بالثورة العلمية التكنولوجية الفريدة ؟ كيف يمكن تنشيط المسار النمائي للطفل ؟ كيف يمكن استثارة امكانات التطور النمائي لدى الناشئة بما يضمن عدم ضياع او الاقلال من طاقاتهم الكامنة الاصلية ويضمن تحقيق كامل انسانياتهم وفرديتهم ؟

ليس بمستغرب اذن ان تحتل هذه القضية مكانة كبيرة في أعمال ومناقشات المؤتمرات الدولية لعلم النفس ليشارك فيها الثقافات في الميدان في العالم أملا في الوصول الى حلول اكثر رصانة وقبولا .

خصص « المؤتمر الدولى الثامن عشر لعلم النفس » ، الذى نظمه « الاتحاد الدولى لعلم النفس العلمى International Union of Scientific psychology » بموسكو في اغسطس ١٩٦٦ ندوة Symposium بعنوان « التعلم كعامل في النمو العقلى » Learning as factor in mental development

تكرست لتناول هذه القضية الحاسمة ، تصدرها وادار مناقشاتها ١٢ عالما من بلاد مختلفة (امريكا ، روسيا ، رومانيا ، بولندا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، النرويج ، هولندا ، المانيا الغربية) برئاسة « جيروم برونر » (امريكا) و « مينشيسكايا » (روسيا) (*) ، وبالرغم من أن هناك ندوات اخرى تناولت هذه القضية أيضا ، مثل : ندوة « تكوين المفاهيم والاداء الداخلى Concept Formation and inner action برئاسة « برونر » (امريكا) وجاليرن (روسيا) و « انهيلدر (سويسرا) وندوة الدراسات الطويلة في نمو الاطفال » Longitudinal studies in child development برئاسة « ر. زازو » R. Zazzo (فرنسا) ، وندوة « الدراسات الحضارية المقارنة في النمو العقلى » Cross-Cultural Studies in Mental Development. برئاسة « تاجفيل » H. Tajfel (بريطانيا) و « كلينبيرج » O. Kleinberg (فرنسا) .

* J.S. Bruner (USA). Learning and development.

- G.S. Kostyuk & N.A. Menchinskaya USSR). Interoductory remarks : „Learning and mental development”
- N.F. Taylsina (USSR). The theory of stage by stage formation of mental actions and the problem of development of thinking.
- R. Ojeman (USA). Guided learning and the concept of experience.
- P. Lenard (Hungary). Developing of production thinking in school-lessons.
- E. Fleszner (Poland). An attempt to develop the ability of abstracting in the courses of teaching.
- A. Roshka (Roumania). Development of flexibility and creativity of thinking.
- G.A. Kohnstamm (Holland). Teaching thought operations and developmental psychology : two different attitudes (with special attention to the position of Jean Piaget).
- J. Smedslund (Norway). Children's experiences and the acquisition of logical structures.
- I. Linhart (Crechoslovakis). Learning and mental development.
- H. Aebli (FRG). Does „Egocentrism” as described by Piaget reflecte a stage of cognitive development or is it „situationally determined”?
- B. Inhelder (Switzerland). Development and learning.

وبالرغم من ان الاعمال المقدمة والمناقشات المحتدمة ، باختلاف اتجاهاتها ومدارسها ، قد انطلقت من احساس عام بالمشكلة ، الا انها قد سارت في دروب ومسالك متعددة ، ووصلت بالتالى الى نتائج متباينة . لذا يمكن ان تعدد محاولاتنا لتصنيف الاتجاهات الاساسية التى سادت هذه الندوات ارتباطا بالمحك الذى يمكن ان نأخذه كأساس للتصنيف .

يتحدد المحك الاساسى ، الذى يحمل أهمية أكبر ، بالسؤال التالى : « كيف يمكن تقييم دور التعلم فى النمو ؟ هل يعطى للتعلم الاهمية المسيطرة ام يفترض أنه يستخدم بطريقة تلقائية فحسب (اى بدون ما ارتباط بمؤثرات خارجية ، ولكن فقط بتأثير القوانين الداخلية) ما يظهر من بنى Structures النشاط العقلى ؟ وفقا لهذا المحك ، انقسم علماء النفس الى معسكرين :

اولا : يمثل المعسكر الاول اتجاه مدرسة جنيف (بياجيه ، انهيلدر ، وآخرون) . يذهب هذا الاتجاه الى تقييد دور التعلم ، معتبرا ان التعلم « يخضع لقوانين النمو » . يعتبر بياجيه (٨) النمو على انه « تتابع للاشكال المختلفة من السلوك ، وخاصة للانتقال من اشكال معينة للنشاط النفسى الى اشكال اخرى » .

ومن المعروف ان مدرسة بياجيه تقر ثلاث مراحل اساسية للنمو العقلى : المرحلة الحسية الحركية Sensory-motor (التفكير الذى يعتمد على الادراك والاداء بتناول الاشياء) ، مرحلة العمليات العقلية الحسية Concrete operations ، ومرحلة التفكير التجريدى . ويتمثل الشرط الجوهرى لافراد هذه المراحل فى وجود تغيرات كيفية محددة فى عملية النمو ، خلافا لتحسن التدريجى غير المنقطع .

وتتميز المراحل ذاتها ، وفقا لبياجيه ، بخصائص محددة :

١ - هذه المراحل ينبغى ان تظهر فى مسار النمو فى نسق دائم غير متغير .

٢ - متغير ، تدخل البنى Structures (اشكال النشاط العرفى) المميزة للمراحل المبكرة ، فى اشكال النشاط المميزة للمراحل التالية .

٣ - ينبغى ان تؤلف الخصائص الكيفية ، التى تحدد المرحلة الحالية من النمو ، نظاما ثابتا هادفا .

وفيما يتعلق بالعمر ، الذى تميزه هذه او تلك من مراحل النمو ، يتخذ بياجيه الحيطة ضد الربط المفرط للمرحلة النمائية بالعمر ، ويقرر ان ما توصل اليه من حقائق يقدم فى احسن

(٨) J. Piaget. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feed-back regulatory mechanisms. Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology, 1966.

الحالات تقيما تقريبا لذلك العمر المتوسط Average age الذى يحقق فيه الطفل هذه او تلك من المراحل . وهكذا فان العمر ، الذى تظهر فيه كل مرحلة نمائية ، يمكن ان يتغير بدرجة كبيرة .

وفيما يتعلق بالعلاقة المتبادلة بين التعلم والنمو العقلى ، يقول بياجيه بصدد دراسته السابقة عن تكوين المفاهيم الرياضية : « من الخطا الفادح ان تعتقد ان الطفل يكتسب مفهوم العدد وغيره من المفاهيم الرياضية بطريقة مباشرة فى التعلم . وعلى العكس من ذلك ، ينمو لديه الى حد كبير بطريقة مستقلة ، تلقائية . واذ حاول الكبار فرض المفاهيم الرياضية على الطفل قبل الاوان ، فانه سوف يتعلمها فقط بطريقة قائمة على اللفظية ، فالفهم الحقيقى يتأتى مع نموه العقلى فحسب » .

وهكذا ، تعتبر المراحل الثلاث السابقة ، وفقا لبياجيه ، مراحل للنمو الفردى للنشاط العقلى ، تعكس الميكانزمات الداخلية للنمو . وقد تركزت نظرية بياجيه لاثبات الدور المسيطر لهذه الميكانزمات الداخلية التلقائية غير المرتبطة بالتعلم (٩) . فالتعليم ، كتعلم من الخارج ، يعطى الطفل مضمون ما يستوعبه فقط ، اما طريقة الحل من الخارج - بواسطة المعلم ، او شخص كبير - فلا تنتقل اليه . فالطفل ذاته ينبغي ان يبنى الطريقة ويجدها على اساس تلك الاشكال من النشاط التي يتقنها بالفعل . لذا لا تقوم تجارب بياجيه على تعليم الطفل طرق الاداء ، ولا ينظمونها ، وانما يوفرون الشروط المادية فحسب ، شكل توجيه التعليمات ، وتتابع تقديم المسائل او المشكلات . وهنا ينزعون الى ابعاد الاطفال المشتركين في التجربة عن اى تعلم يتعلق بما يمثل موضوع البحث .

وقد انعكست وجهة النظر هذه على الدراسة التي قدمتها « انهيلدر » زميلة بياجيه امام المؤتمر المذكور . وهى تؤكد ان « التعلم خاضع لقوانين النمو ، وليس العكس » . وتقرر اعتمادا على بحث اتقان العمليات Operations انه « بالرغم من الايقاع الفردى للنمو لدى كل طفل ، يظل نسق تتابع المراحل والمراحل الفرعية ثابتا ولا يخضع لمغايرات جوهرية » . وفى اكثر من موضع تؤكد هذا الموقف : ... « باى درجة يرتبط التعلم بمستوى وميكانزمات النمو ؟ وهل توجد قوانين للتطور ، اشبه ببعض القوانين فى علم الاجنة ، تفسر السرعة النسبية للتعليم ؟ » .

تقرر انهيلدر ، بتوصيفها لنتائج الاجابة على هذا السؤال انطلاقا من بحث طبقت فيه عناصر للتعلم ، ان هذه النتائج يمكن ان تتباين بدرجة هائلة ارتباطا بمستوى الاطفال الذى انطلق منه البحث . لذا استندت الباحثة الى اختبارات خاصة لاقرار هذا « المستوى المنطلقى » Initial Level : فى اى مرحلة او مرحلة فرعية يوجد الطفل .

فى هذا البحث تصدت انهيلدر لدراسة : كيف يصل الاطفال الى فهم الحجم والى مفهوم بقاء الحجم ؟ استخدمت فى تجاربها جهازا يتألف من ثلاثة آنية شفافة . فى بعض التجارب كانت

(٩) لمزيد من التفصيل فى نقد نظرية بياجيه فى هذا الصدد ، انظر : ل . فيجوتسكى : التفكير واللفظ . (ترجمة : د . طلعت منصور) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

تستخدم أزواجا من الآنية متشابهة في الشكل ، وفي تجارب أخرى كانت الآنية مختلفة - الاناء « ب » أوسع من الاناء « ب ا » ، وفي تجارب غيرها العكس . وبمساعدة صنادير معينة يستطيع الاطفال تنظيم مقدار السائل المناسب من اناء الى آخر .

تنوه انهيلدر ، بصدد تناولها لنتائج التجارب ، الى انه لم يستطع اى طفل ، يقع بالفعل في مستوى ما قبل العمليات Preoperations (اى ما قبل التفكير التجريدى) ، ان يتوصل الى فهم العمليات المنطقية الملائمة لمفهوم البقاء الاولى للكميات الفيزيائية (الوزن ، الحجم وغير ذلك) . لقد كان اطفال هذا المستوى يحكمون على تساوى وعدم تساوى كمية السائل في الآنية على اساس فقط مستوى السائل في الآنية ، ولم يستطيعوا ان يفهموا انه في حالة الاحجام المختلفة للآنية يمكن ان تكون هناك علاقة متبادلة عكسية بين حجم وارتفاع مستوى السائل ، اى لم يتقنوا بعد ما هو عكس العملية (التناول العكسى للاشياء reversibility) .

« لقد كان الموقف مختلفا تماما مع الاطفال ، فيه تحدد وضع الانطلاق Initial position لديهم بمستوى وسيط يؤهل الى مستوى العمليات . لقد ظل ٢٣٪ من الاطفال فقط بدون ان يدعنوا الى التعلم ، في حين استفاد ٧٧٪ من الاطفال بدرجات مختلفة من تلك التدريبات (بهدف اكتساب مفاهيم بقاء الكميات) التى تلائم بالفعل مستوى العمليات . . »

« الا انه - كما تقرر انهيلدر بعد ذلك - اذا قارنا بدقة التعليل ، الذى اكتسبه الاطفال اناء التعلم ، بالاستدلالات التى جرت خلال العملية التلقائية الطويلة ، نرى ان هذه الاستدلالات العقلية لا تتفق تماما » . فالاطفال ، الذين خضعوا للتعلم في هذه التجارب ، لم يستطيعوا كلية اتقان العلاقة العكسية للعمليات ، الميزة لمرحلة العمليات الشكلية (التجريدية) . وقد اتضح ذلك في هذه التجارب من ان الاطفال يلقون بعد صعوبات في فهم ما هو أساسى تماما (الاناء المرتفع والضيق قد يتساوى مع الاناء الواسع والمنخفض) .

وفي ختام دراستها تتناول انهيلدر الانتقالات من مرحلة الى مرحلة ، وتتكلم عن المبدأ الاساسى في نظرية النمو عند بياجيه - مبدأ تتابع المراحل . فالاطفال ، الذين بدوا بمستوى ما قبل العمليات لم يستطيعوا كلية تعلم العمليات المنطقية او ان يحققوا مستوى وسيطا ، اما الاطفال الذين كانوا في المستوى الوسيط ، فقد اقتربوا من مستوى العمليات ، في حين ان الاطفال الذين بدأوا بهذا المستوى أبدوا تقدما سريعا في نمو العمليات الشكلية المنطقية .

ثانيا : خلافا لاتجاه مدرسة چنيف ، يقرأ أصحاب الاتجاه الثانى (وهم كثيرون) بالدور المسيطر للتعلم في النمو ، ويعتبرون ان التعلم يوسع من امكانات النمو ، وقد يسرع به ، ويباشر تأثيرا بالغا ليس فحسب على تتابع المراحل في تفكير الاطفال ، ولكن ايضا على نفس طبيعة هذه المراحل .

تقوم هذه البحوث على دراسة النمو في ظروف وشروط ومواقف متغيرة للتعلم . وهنا يعتمد علماء النفس من أصحاب هذا الاتجاه الى تنوع هذه الشروط بهدف استيضاح كيف ان طبيعة النمو العقلي للطفل تتغير في هذه الحالات .

وينتمي اصحاب هذا الاتجاه الى بلاد مختلفة (امريكا ، روسيا بولندا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، رومانيا ، النرويج ، هولندا المانيا الغربية وغيرها) . وبالرغم من ان اصحاب هذا الاتجاه يعترفون بالدور المسيطر للتعلم في النمو ، ولكنهم ينقسمون بدورهم الى مجموعات فرعية ارتباطا يتباين فهم محكات النمو . ويتحدد التباين بين هذه المجموعات الفرعية اساسا بالاجابة على السؤال التالي : ما هو المنحى الذي يختارونه لبحث مشكلة التعلم والنمو ؟

يقيم بعض العلماء بحوثهم في هذا الصدد على اساس اجراء التجارب مع التلاميذ والمادة الدراسية . ويعمدون الى تغيير محتوى التعلم وطرقه ، بهدف تنشيط التدريس بأساليب مختلفة ، وتعليم الاطفال عادات التفكير وغير ذلك . ويعترفون بأن التعلم بطرق مختلفة يساعد على النمو ويدفعه ، ويقوده ارتباطا بالكيفية التي بني بها التعلم . وحول هذا المنحى ، الذي ينشد رفع زيادة تأثير التعليم على النمو العقلي ، تركزت بحوث ومناقشات عديدة .

يعرض « ج . كوسنيول » لاتجاهات ونتائج بحوث (معهد علم النفس بكييف بأوكرانيا) ويقرر أن الاطفال في سن ما قبل المدرسة يحققون، في شروط التعلم المبينة بطريقة خاصة ، مسنوبات أعلى بكثير مما هو معروف في تمييز دلائل الاشياء كاللون والشكل والحجم . وسرعان ما ينتقلون من تجميع الاشياء وفقا لاي دليل واحد الى تقسيمها لمجموعات وفقا لعدة دلائل ، من تشكيلها الادراكي Perceptual configuration الى تصنيف قائم على المفاهيم . وفي مواقف التعلم التي تتطلب تنظيميا للاشياء وفقا لطولها (اي ترتيبها في سلاسل) نجح الاطفال في سن ما قبل المدرسة في اتقان هذه العملية . واستطاع الاطفال في سن ٥ - ٦ سنوات اكتساب مهارة الانتظام وفقا لكل الدلائل الاساسية لسلسلة من الاشياء ، ومنها الانتظام في نسبية حجم كل عنصر في المجموعة او السلسلة (هذا عنصر اكبر من العنصر السابق وفي نفس الوقت اصغر من العنصر التالي) . ومن الاهمية بمكان ، كما يشير كوسنيوك ، تعميم هذه المهارة ، وبرز دليل على ذلك انتقالها الى تنظيم العناصر في نماذج مختلفة modalities أخرى (الضوء ، الصوت) ويستطيع الاطفال في سن ٦ - ٧ سنوات اتقان البنية المنطقية للعملية ، اي اتقان عملية ترتيب الاشياء وفقا لمبدأ التزايد والتناقص . وفي شروط اخرى للتعلم يتكون لدى الاطفال في سن ٥ - ٦ سنوات بنجاح مفهوم العدد ، حيث ينجرد الكم عن الدلائل الاخرى للاشياء ، وخاصة عن تشكيلها المكاني . وتأثير تعلم من نوع خاص يتقدم الاطفال بدرجة أسرع في نمو القدرة على تضمين فئات فرعية subclasses للاشياء في فئاتها classes في نمو القدرة على استخدام التعميمات المتكونة لديهم في استنتاجاتهم الاستدلالية عن خصائص الاشياء وعلاقاتها . . . في نمو السعي الى اثبات حقيقة استنتاجاتهم ،

اما التجارب التي اجريت على الاطفال في المدرسة الابتدائية ، فقد اثبتت امكانية تحقيق مستويات أعلى بكثير (مما هو معروف) لاستيعاب المعلومات والنمو العقلي (نمو الادراك ، والملاحظة ، والذاكرة ، والتفكير ، والكلام ، والتخيل) . ففي شروط جديدة للتعلم خضع التفكير لدى الاطفال لتطور نمائي هائل : فالانتقالية من التفكير الحسي الى التجريدي قد تمت بدرجة أسرع ؛ وهم في ذلك قد تكونت لديهم الاداءات العقلية اللازمة لاستيعاب المفاهيم العلمية (المقارنة ، التجريد ، التعميم ، التصنيف وغير ذلك) . ويستطيع الاطفال اتقان المهارات المعممة

في حل المسائل الحسابية (باستخدام رموز من الحروف) ، والامكانية الهائلة على نقلها الى أنماط مختلفة من هذه المسائل .

يقول « كوستيوك » :

« يتحدد التأثير النامي للتعلم المدرسي بمضمونه وطرقه . فالبناء التركيبي للمضمون ، واستخلاص المفاهيم الاساسية فيه ونظمها وما يرتبط بها من عمليات ، يخلق امكانات ملائمة هائلة لاستيعابها الكامل لدى التلاميذ مع المادة الدراسية ، وبما هي خصائص وعلاقات الاشياء التي يعرفونها بواسطة هذه الاداءات (الادراكية، التذكرية ، التفكيرية ، العملية وغيرها) . . فضل التعلم في نمو التلاميذ يتعاضد ، اذا كان يعلمهم نفس عمليات الاستيعاب .

« فالتعلم - كما يقول كوستيوك - لا يسرع فحسب من انتقالات الاطفال من المستويات الأدنى من بنية النشاط العقلي الى المستويات الأرقى . فهو يمثل شرطا ضروريا لتكوين هذه البنى . وهنا لا تتأني البنى الجديدة ببساطة من الخارج ، ولكنها تتشكل في عملية التعلم من البنى المتكونة في مراحل مبكرة . وتعمل الاشتتارة الخارجية في هذه العملية دائما من خلال الفاعلية الداخلية للتلاميذ » .

وفي دراسة « فليزور » (هولندا) عن « محاولة انماء القدرة على التجريد في سياق التدريس » ، يبين كيف ان التنظيم الانمائي للعملية التعليمية يقوم بتأثير فعال على نمو التفكير التجريدي . في هذه الدراسة استخدم احدى اشكال التجريد : التجريد في عملية استخدام المعلومات ، حينما يتطلب من التلاميذ التعرف على مبدأ معروف لديهم (او قانون ، او تركيب) في ظروف جديدة محددة للمسألة او المشكلة . اجريت هذه التجربة النفسية - التربوية مع تلاميذ صفين دراسيين متناظرين في سن من ١٤ - ١٥/٢ سنة . وقام بتعليم الهندسة معلم واحد في كلا الفصلين ، ولكن في الفصل التجريبي استخدم على نطاق واسع ما يسمى بحل المسائل ببيانات زائدة ، وهو ما لا يستخدم عادة في الممارسات المدرسية . وهنا يكون من الضروري بالنسبة للتلاميذ ، لكي يتمكنوا من حل هذا النوع من المسائل بنجاح ان يتجردوا من العناصر الزائدة غير اللازمة في حل المسألة . وقد ايدت الاربع سلاسل من التجارب (اجريت السلسلة الاولى في بداية التعلم ، وسلسلتان في سياقة ، والرابعة في نهاية العام الدراسي) الفرض الذي تبناه الباحث عن تأثير شكل معين من التعلم على نمو التفكير التجريدي : فقد تفوق الفصل التجريبي وفقا لكل المحكات على الفصل الضابط . وبدأت منجزات تلاميذ الفصل التجريبي ومستويات نموهم العقلي - المعرفي اقرب الى مستويات التلاميذ في سن ١٦ - ١٧ سنة . كما اوضحت هذه البحوث انتقال القدرة المتكونة على التجريد (الى مواد قريبة من الهندسة كالحساب وغيره) . ومن ناحية اخرى تؤيد هذه البحوث الفرض الذي يذهب الى أن تحسين القدرة على التجريد تنعكس بايجابية على العمليات العقلية الاخرى وخاصة على عمليات التحليل والتركيب Analysis-Synthesis Operations

وقد توفرت بحوث « اوجيمان » (امريكا) و « كونستام » (هولندا) و « سميديسلوند » (النرويج) و « آيبل » (المانيا الغربية) على تبين تأثير التعلم على النمو . وهنـى بحوث

معملية تناولت أساسا مفاهيم مدرسة جنيف في هذا الصدد . وتذهب هذه البحوث الى ان التمرکز حول الذات *Egocentrism* ، وهو مفهوم أساسى فى نظرية بياجيه ويعنى تقييم الوسط المحيط بالطفل من وجهة نظره الذاتية فحسب ، ليس بمفهوم صحيح ، وينبغى استبداله بمفهوم آخر هو « اللاتمرکزية » *Decenterism* ، ويعنى المقدرة على تبني وجهة نظر الآخرين ، ومن هذا الموقع يأخذ الطفل فى تقييم الوسط المحيط به . وفى هذا الصدد تلعب « المؤثرات الاجتماعية دورا هائلا » (سميد سلوند) ويظهر التمرکز حول الذات فى مواقف معينة ، حيث لا يستطيع الطفل ان يستعلم عما يقدم له من مسائل - أى يحدد ما هو غريب عليه - وبالتالي يحدد بدلا من ذلك موقفه ذاتيا . أى حيث تنعدم مواقف المؤثرات الخارجية ، يظهر التمرکز حول الذات ، وهنا « يتحدد التمرکز حول الذات موقفا » (آيللى) .

ويتضح من هذا العرض ان أصحاب المعسكر الاول (معسكر جنيف : بياجيه أساسا) أقرب الى « التشاؤمية » فى النظر الى امكانات التطور النمائي لدى الناشئة ، فى حين ان ممثلى الاتجاه الآخر (وهو الاغلب فى معظم دول العالم) يؤمن ، بالتجربة ، بأننا نستطيع ان ندفع هذه الامكانات الى آفاق لا يتوقعها أحد اذا احسننا توفير الشروط الملائمة للتعليم والتعلم .

بقول آخر : تمثل « قضية الاسراع بالنمو » الفلسفة التى تدور حولها وتنطلق منها دراسات النمو ، أو ان شئنا « دراسات الانماء » . ومع ذلك ، فلا زالت جد قليلة قياسا الى أهميتها المتعاظمة فى عالم اليوم .



الخلاصة :

يؤكد التصور العلمى الانسانى فى تناول قضايا علم نفس النمو على ان الوظائف العقلية العليا والخصائص النفسية توجد وتعمل هكذا فى حركة ، فى نمو ، فى صيرورة . واذا كانت لا تتبدى بصفة عامة كقدر أو كم غير متغير ، واذا كانت لا تتوفر بالتالى كمزايا تعطى « مرة لا تتكرر » وبالتالي « لا تتغير » - فليس ثمة اساس لان نفترض ثباتها ونمطيتها لدى الاطفال فى المراحل التى يخطتها مسارهم النمائي .

ومن هنا نرى ان علم نفس النمو ، خاصة فى مجتمعاتنا العربية النامية ، مطالب بأن يتبنى تصورا ومفاهيم وممارسات جديدة تتناول ليس النمو بطبيعته ومبادئه وعوامله ومظاهره فقط ، ولكن بدرجة اكبر - وارتباطا بتطور الفكر السيكولوجى المعاصر ، خاصة فى علم النفس العلمى والانسانى - مقومات استثارة النمو ، تنشيط امكانات النمو ، تحقيق التفتح الامثل والتوظيف الامثل لهذه الامكانات

ومن ثم ، ينبغى ان تنطلق دراسات النمو من « فلسفة انمائية » (*) « انماء الذكاء والقدرات » ، « انماء الانضباط السلوكي » ، « انماء الخلق » ، « انماء الشخصية » ، وهكذا من منجزات العملية انمائية .

(*) يمكن الرجوع فى ذلك الى دراسة للمؤلف يتضمنها المرجع التالى : د . طلعت منصور : التعلم الذاتى وارتقاء الشخصية (دراسات جديدة فى علم النفس - ٢) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

المراجع

أولا : باللغة العربية

- ١ - د . فان دالن : مناهج البحث في التربية وعلم النفس . (ترجمة نبيل نوفل ، سليمان الخضرى ، طلعت منصور - تحت اشراف دكتور سيد عثمان) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٢ - دكتور فؤاد أبو حطب : القدرات العقلية ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .
- ٣ - ل.س. فيجوتسكى : التفكير واللغة . (ترجمة : دكتور طلعت منصور) مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٤ - دكتور طلعت منصور : دراسة ارتباطية لتطور نمو فاعلية التذكر لدى الاطفال والراهنين . الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٥ - دكتور طلعت منصور : الطفولة بين الحرمان والاشباع الثقافى . المؤتمر الاول لثقافة الطفل ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ .
- ٦ - دكتور طلعت منصور : التربية وتنمية الابتكارية عند الاطفال . ندوة العمل مع الاطفال - جامعة عين شمس ، القاهرة ، مارس ١٩٧٨ .
- ٧ - دكتور طلعت منصور : التعلم الذاتى وارتقاء الشخصية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .
- ٨ - دكتور عبد العزيز القوصى : مستقبل التعليم النظرى في مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .
- ٩ - دكتور محمد الهادى هيفى ، دكتور محمد احمد العنام : الصحة الثقافية « صحيفة التربية ، العدد الرابع مايو ١٩٦١ .
- ١٠ - دكتور محمد عماد الدين اسماعيل ، دكتور نجيب اسكندر ابراهيم ، دكتور رشدى فام منصور : قيمنا الاجتماعية وانماها في تكوين الشخصية . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ثانيا - باللغة الانجليزية :

- 11— Anderson, J.R. Dynamics of development; System in process. In D.B. Harris (Ed.), The concept of development. Minneapolis, Univ. Minnesota Press, 1957.
- 12— Berelson, B. & Steiner. Human behavior : An inventory of scientific findings. New York, New York, Harcourt, Brace & World, Inc., 1964.
- 13— Blum L.H. Pediatric practice and the science of child development Nerv. Child, 1952, 9, 233-241.
- 14— Bossard, J.H. & Carter, W.T. The sociology of child development. New York, Harper & Bros., 1960.

- 15— Bribram, K.H. Neocortical functions in behavior. In H.F. Harlow & C. W. Woolsey (Eds.), **Biological bases of behavior**. Univ. Wisconsin Press, 1958.
- 16— Dennis, W. A biography of baby-biographies. **Child Developm.**, 1937, 7, 71-73.
- 17— Dennis, W. & Dennis, M.G. Infant development under conditions of restricted practice and a minimum of social stimulation : a preliminary report. **J. Genet. Psychol.**, 1938, 53, 49-157.
- 18— Dennis, W. Infant development under conditions of restricted practice and minimum social stimulation. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1941, 23, 143-189.
- 19— Erikson, E.H. Growth and crises of the healthy personality. In Hung-Min Chiang & A. Maslow Eds), **The healthy personality**, New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.
- 20— Gates, G.S.& Taylor, G.A. An experimental study of the nature of improvement resulting from practice in a motor function. **J. Educ. Psychol.**, 1962, 27, 226-236.
- 21— Gesell, A. & Thompson. Learning and growth in identical twins : an experimental study by the method of cotwin control. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1929, 6, 1-123.
- 22— Gesell, A. Growth potentials of the human infant. **Sci. Mon.**, N.Y., 1949, 68, 252-256.
- 23— Gessel, A. Developmental pediatrics. **Nerv. Child.**, 1952, 9, 252-57.
- 24— Havinghurst, R.J. **Human development and education**. New York, Longmans, 1953.
- 25— Hebb, D.O. **The organization of behavior**. New York, Wiley, 1949.
- 26— Hilgard, J.R. Learning and maturation in preschool children. **J. Genet. Psychol.**, 1932, 41, 36-56.
- 27— Horney, K. **The neurotic personality of our time**. New York, 1939.
- 28— Jensen, A.R. Individual differences in concept learning, Ch. 9 in H.J. Klausmeier & C.W. Harris(Eds.), **Analyses of concept learning** New York and London: Academic Press, 1966.
- 29— Jensen, A.R. Varieties of individual differences in learning, Ch. G. in **Learning and individual differences** (Ed. R.M. Gané). Columbia, Ohio : Merrill, 1967.
- 30— Jersild, A.T. Training and growth in the development of children. **Child Developm. Monogr**, 1932, 10, 1-73.
- 31— Kluckhohn, C. **Mirror for man**. New York, Mc Graw-Hill, 1949.

- 32— Luria, A.R. **Higher cortical functions in man.** New York, Basic Books, 1966.
- 33— Luria, A.R. **Human brain and psychological processes.** New York, Harper & Row, 1966.
- 34— Mc Graw, M.S. **Growth : a study of Johnny and Timmy.** New York : Appleton Cent. Grofts., 1935.
- 35— Mc Graw, M. B. Later development of children specially trained during infancy. **Child Deve- lopm.**, 1939, 10, 1-19.
- 36— Mc Graw, M.B. Neural maturation as exemplified in achievement of bladder control. **J. Pediat.** 1940, 16, 580-590.
- 37— Mead, M. **Sex and temperament in three primitive societies.** New York, Morrow, 1935.
- 38— Parker, S. & Kleiner, R. **Mental illness in the urban negro community.** New York, 1966.
- 39— Piaget, J. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feedback regulatory mechanisms. **Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology, Moscow, 1966.**
- 40— Shirely, M.M. **The first two years.** Mineapolis : Univ. Minnesota Press, 1931, vol. 1.
- 41— Szasz, T. **The myth of mental illness.** N.Y., Harper & Row Pub., 1961.
- 42— Terman, L.M. **Genetic studies of genius,** Stanford : Stanford Univ. Press, 1925, 1926, 1930, 3 vols.
- 43— Terman, L.M. & Oden, M.H. **The gifted child grows up.** Stanford, 1947.
- 44— Thompson, H. The modifiability of play behavior with special reference to attentional character- istics. **J. Genet. Psychol.**, 1943, 62, 62, 165-188.
- 45— Wechsler, D. Intellectual development and Psychological maturity. **Child Developm.** 1950, 21, 45-50.
- 46— Wells, J. & Arthur, G. Effect of foster-home placement on the intelligence ratings of children of feeble-minded parents. **Ment. Hyg. N.V.**, 1939, 23, 277-285.
- 47— Wishik, S.M. The importance of „timing” in child health supervision. **Child Developm.**, 1950, 21, 51-60.
- 48— White, R.W. Adult growth and emotional maturity. In Hung-Min Chiang & A. Maslow (Eds.), **The Healthy Personality,** New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.

جان جاك روسو والعصر الاجتماعي

محمود أيوزيد

مقدمة :

قرنان من الزمان مرا حتى اليوم على وفاة جان جاك روسو J. - J. Rousseau ، وان شئت الدقة فقد مات الفيلسوف الفرنسي العظيم في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ (*). وكان موته بعد أيام من الذكرى السادسة والستين لمولده ، وقبل سنوات قليلة فحسب من الثورة الفرنسية التي اعتبر ملهمها .

وبين اللحظات الاولى لمولده عام ١٧١٢ وتلك اللحظات الاخيرة التي جاد فيها بأنفاسه ، امتدت حياة روسو ليضيف بفكره وبشعوره الثوري الفياض ما اثرى الفكر الاوروبي عامة ، وربما بشكل قل أن يكون له مثيل حتى من بين الشوامخ الذين أنجبهم القرن الثامن عشر من امثال فولتير Voltaire ومونتسكيو Montesquieu ودالمبير D'Alembert

* كتب هذا المقال في يوليو/ ١٩٧٨ - التحرير .

ضمنها نظريته في العقد ، ثم نتلمس ثالثا بعض مظاهر الاتفاق أو الاختلاف بينه وبين صاحبيه هوبز ولوك ، وذلك تمهيدا لكى نتمكن رابعا من رؤية مدى أصالة فكر روسو بما قد يتيح لنا تقديم فكرة تقويما شاملا ، تتبين من خلالها جدارة هذا الفكر الفيلسوف بالشهرة الفائقة التى تمتع بها واستمرت قرنين من الزمان بعد وفاته .



هناك قاعدة أساسية يتفق عليها الجميع مؤداها أن أعمال المفكرين وليست حياتهم الشخصية هى ما يوجه الانتباه اليهم ويجعلهم احياء فى عقول الناس حتى بعد مرور قرون عديدة على وفاتهم . ومع ذلك فان جان جاك روسو يعتبر فى رأى الكثيرين استثناء ملحوظا لهذه القاعدة ، حيث نجد ما يشبه الاجماع على أن شخصيته تمثل منعطفًا من أخطر المنعطفات التى ولجتها العقلية الغربية وارتبط بذلك طابع الحياة المثيرة التى عاشها هذا المفكر الفيلسوف ، وجعلت منه انسانا مضطرب الروح زائد الحساسية ، وهما صفتان انعكستا بوضوح فى كتاباته ، لدرجة اننا نجده أحيانا متحاملا قاسيا على المجتمع بكل ما فيه من تقاليد على ما يظهر فى « رسالة عن منشأ عدم المساواة بين الناس Discourse on the Origin of Inequality واحيانا أخرى مجدا لشأن المجتمع ومعليا لمكانة الجماعة على مانجد فى كتابه « العقد الاجتماعى » على وجه التحديد .

ومع انه يسهل ملاحظة ذلك فى أماكن كثيرة من كتاباته ، إلا أن الطابع المميز لشخصية روسو يظهر كأوضح ما يكون فيما سجله هو نفسه فى « الاعترافات » بالذات ، خاصة وهو يصف الكيفية التى جاء بها الى الوجود ، فيقول « كنت ثمرة عودة أمي الى أبى بعد

وجعلوا منه - حقا - ما يعرف بعصر العقل أو عصر التنوير كما يقولون . ويكفى روسو أنه قدر له أن يكون ثالث أشهر ثلاثة مفكرين ارتبطت أسماؤهم بنظرية العقد الاجتماعى Social Contract ، ونعنى بهؤلاء توماس هوبز Hobbes وجون لوك Locke فى إنجلترا ، ثم مفكرنا الفيلسوف فى فرنسا . فنتيجة لكفائاتهم سادت نظرية العقد الاجتماعى التفكير السياسى فى القرن الثامن عشر ، ونجحت فى أن تؤثر تأثيرا بالغا فى كل من إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، بل وفى أن يكون لها دور مباشر لا فى تطوير النظم الديمقراطية بهذه الدول فحسب ، ولكن أيضا فيما تفجر من ثورات غيرت كثيرا من وجه الأحداث . . بعدما انزلوا بفلسفاتهم السلطة من السماء الى الأرض ، وأحلوا العلاقات المدنية محل العلاقات الطبيعية ، فاتاحوا بذلك للفرد مكانة ممتازة فى عملية تطور المجتمع ، باعتبار أن الفرد هو الوحدة التى ينبنى عليها العقد . وفى ذلك كله كان روسو بصفة خاصة أبرز دعاة هذه النظرية وأوسعهم صيتا وأبعدهم أثرا فى تاريخ الفكر السياسى (١) بما أثارته كتاباته من مظاهر المساندة والتأييد وكذلك موجات الانتقاد والتجريح . . والواقع انه بين هذه المساندة القوية من ناحية ، والانتقاد العنيف من ناحية ثانية تبدو وعظمة روسو كمفكر تتميز أفكاره بجدة وطرافة أصيلتين .

وعموما فإنه لكى نفهم فلسفة جان جاك روسو فهما شاملا ، فيجب أن نلقى بالضوء أولا على ظروف النشأة والتكوين وما كان لهذه الظروف من تأثيرات تدخلت فى تحديد أفكاره وآرائه ، ثم نحاول ثانيا أن نتعرف على أصول فلسفته السياسية والاجتماعية وانعكاسات ذلك فى مواقفه وتصوراته التى

أكثر من وظيفة فشل فيها جميعها . وحتى عندما تعرف في عام ١٧٥٤ على الفتاة التي اقترن اسمه بها إلى أن فرق بينهما الموت وهي تيريز ليفاسير ، وانجبت له عدة أبناء كان يودعهم الواحد بعد الآخر في ملجأ اللقطاء متدعرا في ذلك بمختلف الأسباب والمعاذير .

ومن الناحية الثانية كان لهذه الصورة وجهها الآخر مثل الرومانتيكية تماما . فما أن أخذ روسو يشرع قلمه ، حتى بدأت كتاباته تلفت الانظار ، وأخذ يحتل موضع القمة بين عمالقة المفكرين والفلاسفة الذين ساندوا الاعتقاد في الديمقراطية الحديثة ، وآمنوا بقدراتها اللامحدودة في تنمية الأفراد وتطويرهم . والواقع أن ذلك أيضا قد عكس أحد المفارقات الغريبة التي تمتلئ بها حياته . فالى جانب إيمانه الراسخ بطبيعة الطبيعة البشرية ونقاها فقد كان يؤمن كذلك بمساوئ المجتمع الانساني وشروره ، ومن هنا فقد كان عليه أن يقدم انتقادا عنيفا للنظم السياسية والاجتماعية ، ذلك على اعتبار أن هذه النظم هي التي انجرفت بالبشرية ومنعت الناس من أن يعيشوا كما أرادت لهم الطبيعة . (٤) ومن ثم فلم يكن غريبا أن يتبلور كل هذا فيقدم لنا مؤلف « اميل Emile » و « هيلويس الجديدة La Nouvelle Heloise » كتابه الفد « العقد الاجتماعي » الذي توج به دفاعه المجيد عن حقوق الانسان ونضاله المتصل ضد الديكتاتورية لا في قلب فرنسا وحدها ولكن في كل مكان في العالم . . . فاتهم

انفصال فرق بينهما وقتا . . . وبعد عشرة أشهر ولدت أنا . . . ضعيفا . . . مريضا . . . وكلفت أمي حياتها . أما مولدي فقد كان أول خطوات حظي العاثر الشقي « . (٢) . ثم بعد ذلك وهو يحاول تحديد الغرض من كتابته لهذه الاعترافات فيقول « وهدفنا هنا هو أن أقدم إلى الناس انسانا يعيش كل طبيعته بصدق وهذا الانسان هو أنا . . . أنا وليس احدا آخر غيري . حقا انني اعرف الكثيرين من الناس ، ولكني لم أخلق مثل أي منهم لدرجة انني اكاد اعتقد أنه لا يوجد انسان آخر يشبهني . . . وإذا لم اكن أفضلهم فأنا على الأقل أختلف عنهم » (٣) .

ولو شئنا ان نستخلص بعض الخصائص من تحليل هذه السطور لكان أبرزها في رأيي خاصيتين رئيسيتين هما اللتان تميزان حياة روسو إلى حد بعيد . فمن الواضح - وهذا من ناحية - أن روسو كان رومانتيكيا مغرقا في الرومانتيكية كما كان حساسا بالغ الحساسية . والواقع أن حياته الخاصة ذاتها كانت مرآة صادقة لهذه الروح بكل ما يعتلج فيها من غموض ومتناقضات واضطراب . ويؤكد ذلك أن يده امتدت إلى السرقة ومع ذلك لم يتورع أن يلقي بالتهمة على فتاة بائسة ، وهجر صديقا له كان يعاني شدة المرض لا شيء إلا أنه شعر بثقل هبء من رعايته وتمريضه ، كما عاش فترات من حياته على كدح من كن يقعن في حبه من النساء ، وعمل في

Rousseau, J. J., ; *Œuvres Complètes*, 13 Vols. Hachette, 1911. (٢)
Les Confessions, Vol. III. p.1.

Ibid, p. 5. (٣)

Lillie, W; *Introduction to Ethics*, Methuen & Co., Ltd., London, 1948. pp. 57-58. (٤)

(٥) نشر « العقد الاجتماعي » في عام ١٧٦٢ تحت عنوان طويل هو :

Du Contrat Social ou Principes du Droit Politique

وهو يتضمن ٤ كتب أساسية هالج روسو في أولها الميثاق الجماعي وفي الثاني حقوق السيادة وحدودها ، أما الكتاب الثالث فقد عرض فيه للحكومة وأشكالها المختلفة بينما خصص الكتاب الرابع لمعالجة بعض الجوانب الهامة في الحكومة . وبعد كتاب « العقد الاجتماعي » أصبح آثاره السياسية كما يتميز من دون آثاره كلها بأسلوبه الفلسفي المجرد .

بسبب أفكاره ووجهته إليه أبشع التهم ، وبدأت حكومة فرنسا وحكومة جينية- تضطهدانه وتطاردانه من مدينة الى أخرى ، كما أحرقت كتبه ومؤلفاته ، فلجأ الى إنجلترا في عام ١٧٦٦ حيث نزل لفترة ضيفا على صديقه دافيد هيوم ليتركه بعد نزاع نشب بينهما ، ولم يسمح له بالعودة الى وطنه فرنسا الا في أخريات أيامه حيث مات عجوزا محطما في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ كما قلنا .

ومن الطريف حقا ان تشير وفاة روسو الكثير من الروايات والافاصيص التي تمتلىء بالظن وبالشكوك . فما ان ذاع خبر وفاته حتى قيل انه مات منتحرا برصاص مسدسه ، كما ردد البعض انه قتل بيد احدى عشيقاته . وعلى الرغم من ان الكشف على جثته بعد ذلك في عام ١٨٦٧ قد اثبت عدم صحة ذلك ورجح انه مات نتيجة تسمم في الدم نتج عن مرضه المزمن بالمرارة ، فقد شاء قدره ان ينسج في مفارقة أخرى لا تقل غرابة عن المفارقات التي اتسمت بها حياته ، فقد أصدرت حكومة La Convention قرارها في عام ١٨٩٤ بنقل رفاته من جزيرة الحور التي كان قد دفن فيها الى البانثيون حيث رقدت هناك رقدتها الأخيرة ... الى جانب فولتير عدوه اللدود .

ولسنا نريد في الوقت الحالي ان نبحث في مدى الاتساق أو عدم الاتساق الذي تعكسه هذه الظروف في حياة روسو . ولكن من المهم على أي الأحوال ان نشير الى ان هناك من العوامل ما يمكن ان يعتبر مسئولا عن طبيعة الحياة التي عاشها وبالتالي تشكيل فكره وآرائه . ولعل اول هذه العوامل ان جان جاك روسو لم يتلق في حياته تعليما نظاميا ، لأن طبيعة تكوينه الذهني والنفسي لم تمكنه من احتمال ما يفرضه هذا النوع من التعليم من قيود . وتؤكد الكتابات الكثيرة التي ألفت عن حياة روسو ان ثقافته كانت مزيجاً غريباً من القراءات والمطالعات التي كان أبوه

يضعها في طريقة ويدفعه اليها . فقد قرأ روسو وهو لم يزل في السادسة بلوتارك والكثير من القصص وكتب الادب والروايات . وفي الفترة ما بين عامي ١٧٣٨ - ١٧٤٠ نجده يلتهم بنهم زائد كل ما يقع تحت يديه من أعمال الأدباء والفلاسفة والمفكرين ، فقرأ لايروبير وموتانس وبوسويه ولوك وفولتير ، وقد تأثر بصفة خاصة بهذين الأخيرين ، الامر الذي ظل لاصقا به في كل فترات حياته الفكرية . وعلى الرغم من ان معرفته بالقدماء كانت ضئيلة نسبيا ولا تتجاوز بعض كتابات تاسيت وسينكا وبعض آراء أفلاطون وأرسطو ، فان المؤكد ان معرفته الوثيقة بعد ذلك لكوندياك وماريفو وديدرو قد ساعدته كثيرا في بلورة فكره وتكوينه كمفكر اجتماعي وسياسي ، وكفيلسوف طبقت شهرته الافاق . وان كان من المهم مع ذلك الاعتراف بأن شخصيته الذاتية كانت موجودة دائما وتفرض نفسها بشكل واضح أيا كانت ضخامة وقوة المصادر التي التقى بها واثرت في تفكيره .

لم يكن من قبيل المصادفة ان يسمى روسو كتابه الضخم في السياسة «العقد الاجتماعي» ، فقد كان من الطبيعي ان يتحرك فكره في الاتجاه العام للتطورات التي سيطرت على الفكر السياسي آنذاك ، والتي اعتبرت العلاقة بين الافراد الاحرار هي الاساس الوحيد السليم للتنظيم السياسي .

وعلى الرغم من ان القول بالعقد كان قد عكس من قبل عبقرية هوبز ، وارتبط ايضا بنظرية لوك ، على اعتبار ان العقد كان محور فلسفتيهما ، الا انه من الصعب ان نتصور تماما كيف امكن لعقل روسو ان ينتهي بفلسفته الى نتائج اختلفت تماما عما انتهى اليه هذان ، خاصة جون لوك الذي قلنا ان روسو قد تأثر بكتابات لوك الى حد ملحوظ ، مع ان نقطة البدء كانت متماثلة عند الفيلسوفين . . . ومنع اننا لسنا هنا في معرض المقارنة - تفصيلا بين

تخضع لها كل ماعداها . وهو وضع كان خليقا على أى الاحوال بأن يدفع لوك الى الاصرار على ضرورة موافقة الرعايا وقبولهم .

وقبل أن تمضى قدما في متابعة تحليل مسألة القبول هذه التى شغلت فكر لوك ، فمن المهم ان نتضح فى الدهن تماما النظرة العامة التى عالج لوك المسألة كلها من خلالها . فالقبول كان يمثل بالنسبة اليه أساس الدولة ، بل وما يجعلها شرعية وأخلاقية وعادلة .

وما من شك فى أن أحدا لا يستطيع أن يختلف فى ذلك . ولكن المتمعن فى موقف لوك (٦) سوف يلحظ على الفور ان تحليله للمسألة لم يكن كافيا تماما . ونتيجة لذلك فهو لم يستطع ان يرى شيئين بذاتهما ، هما أولا عدم كفاية القبول طالما أن أفعال السيادة لا تكتسب شرعيتها الا اذا كان هذا القبول تاما وشاملا ودائما . وثانيا أن نسبة كبيرة من الديمقراطيات فى مقدورها بالفعل أن تمارس شتى أنواع الضغوط ضد الاقليات تماما مثلما بقدر شخص واحد أن يمارس هذه الضغوط ضد شعب بأكمله . وبمعنى آخر فان ما نريد ان نقوله هو أن لوك قد فشل فى ادراك تلك الحقيقة البسيطة وهى أن الاتفاق أو القبول قد يمثل فى الدولة الديمقراطية مشكلة أساسية مثلما هو الحال فى أكبر الدول اتصافا بالديكتاتورية وأشدّها ممارسة للقهر والطفيان .

والواقع أن روسو نجح فى ادراك هذه المشكلة بوضوح . ومن هنا فقد كانت محاولة حلها شغله الشاغل فى العقد الاجتماعى . ولكن اذا كان بمقدورنا ان نقول من الان أن هذه المحاولة لم تكن ناجحة تماما ، فانها لمفارقة عجيبه ان تنطوى كذلك على نظرة استطاع غيره من المفكرين الذين جاءوا بعده أن يذهبوا

الاثنين ، فمن الجدير بالذكر أن فلسفة كل منهما كانت انعكاسا فى آخر الامر لطبيعة كل منهما وتكوينه العقلى ، خاصة من حيث ان فلسفة روسو كانت تفتقر الى الوضوح الذى ميز كتابات لوك ، بالإضافة الى أنها كانت مبهمه الى حد بعيد وملبئة بالفموض والمتناقضات . والواقع انه اذا كان لنا أن نقول بوجه عام ان « المقالة الثانية فى الحكومة المدنية » كانت انعكاسا لبساطة حياة لوك وتقدميته ، فانه بالقياس نفسه يمكن القول ان « العقد الاجتماعى » كان انعكاسا لاتجاهات روسو واهتماماته المعقدة . ويرجع هذا الى ان عقلية لوك كانت أكثر وضوحا ومنطقا من عقلية روسو ، بل وأيضا لأن روسو حاول ان يقطع فى بضعة مسائل شائكة تضمنتها فلسفة لوك دون أن يدرك هو نفسه ذلك بوضوح كاف . وفى مقدمة هذه المسائل مسألة القبول على فيها من تشابك زائد وتعقيدات .

ان المسألة الاساسية التى شغلت اذهان الفلاسفة السياسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تتمثل فى تأكيد سلطة الحاكم وسيادته ، وهى المسألة التى ظهرت بدرجة واحدة عند كل من هوبز وبودان . ومع أن هذه المسألة - أقصد السلطة السيادية أو ذات السيادة - كانت قد استقرت تماما الى جانب دعمها وتقويتها واطلاقها بما يعنى القضاء على كل مظهر من مظاهر الحرية الفردية ومراقبة المحكوم للحاكم وكل مظهر من مظاهر مسئولية الحاكم أمام المحكومين ، الا أن جون لوك وغيره من الفلاسفة كانوا قد بدأوا يدركون حقيقة ان الخطر لايزال ماثلا ، ولم يكن هذا بسبب أن السيادة لم تكن قوية بما فيه الكفاية ، وانما لأن الحكام كانوا - على العكس من ذلك - أقوياء بمالا يقاس ، وينظر اليهم على أنهم ذاتيه منفصلة مميزة

(٦) انظر فى ذلك اساسا :

John Locke ; Two Treatises of Government, Cambridge University Press, 1960.

بها الى موقف يختلف كلية عن الاساس الذى التقينا به سواء عنده هو نفسه أو عند لوك . ونعنى بذلك أن تكون فكرة القبول هذه وسيلة للانتقال الى تصور الدولة الشمولية كما سيتضح لنا فيما بعد . وهو تصور لم يكن روسو يعتقد بحال فى امكان الوصول اليه أو حتى تخريجه من موقفه .

على أن هذه النظرة حتى الى المدى الذى قطعه روسو تشير الى حدوث تحول راديكالي يبعد عن التصور الذى بدأ منه لوك . ولو أمعن المرء النظر فى هذا التحول لتمكن من تفسير الاختلاف الذى يلمسه قارىء روسو بين بعض كتاباته المبكرة مثل رسالته فى نشأة عدم المساواة ، وبين العقد الاجتماعى وهو الاختلاف الذى ركز عليه الكثيرون ممن كتبوا عن روسو لدرجة أنهم أكدوا وجوده كذلك بين الطبعة الاولى « للعقد الاجتماعى » والطبعات المتأخرة ، حيث اتفقت تلك الطبعة ومعها مقالاته على وصف حالة الطبيعة بأنها ظرف خيالى ، فتجاوزت بذلك تفاؤلية لوك ، وخاصة عندما أكدت الصورة المثالية التى رسمها روسو للطبيعة البشرية وهو ينظر الى الانسان الاجتماعى على أنه ملاك هابط .

وأيا ما كانت وجهات النظر التى سبقت لتبرير هذا التحول ودوافعه ، فإن من الواضح أن روسو فى تلك الفترة المتأخرة من حياته العقلية لم يكن مجرد المصلح الاجتماعى الذى يرفع صوته ضد مساوىء المجتمع الذى يعيش فيه وينادى بالتخلص من قيوده والعودة الى الطبيعة ، ولكنه ذلك المفكر الناضج الذى يكرس نفسه لمهمة تبرير الدولة ومنظوماتها المختلفة . وأن كان هذا لا يمنع من القول أن نجاحه لم يكن تاما أو كاملا لأنه ظل مرتبطا بموقفه الاصلى الذى كان كثيرا ما يكتفى فيه بوصف أى موقف عملى بأنه سىء وشرير .

ومع هذا فمن الانصاف لروسو أن نعترف بأن ثمة تغيرا حقيقيا قد حدث على يديه فى مسألة القبول هذه ، ذلك أنه كان يشعر دائما بضرورة تقويم الحل الذى ساقه لوك للمسألة ، حتى وأن كان الامر قد تأدى به الى تصور « الارادة العامة » الذى قاده بدوره الى تصور العلاقة بين الافراد بطريقة أوضحت مذهبا فى الحياة يناقض مباشرة تلك النزعة الفردية التى طالما ميزت كتاباته الاولى .

وإذا كان من السهل على قارىء روسو أن يلمس فى كتبه ، باستثناء كتب العقد الاجتماعى ، تعلقه الشديد بالطبيعة ورغبته الجامحة فى التخلص من قيود المجتمع ، فإنه سوف يلحظ على الفور أيضا ، أن العقد الاجتماعى ذاته ، يؤدى الى جماعة مطلقة يثن فيها الفرد تحت نيرسيادتها ، لأنه يحاول فى ذلك الكتاب أن يشيد مجتمعا متماسكا تسود الجماعة فيه وتعلو على الفرد . وبذلك نجد أن روسو الذى طالما أكد عدم شرعية الجماعة وكذب دعواها الدائمة فى مطالبة الفرد بالتضحية من أجلها ، هو نفسه الذى ينتهى فى « العقد » الى مجتمع حبكت أطرافه وتمكنت سيادته ، ويروج لمبدأ أن الافراد يدينون للجماعة ، وذلك الى حد أن يقول بأنه ما من حق للافراد الاحقها (٧) .



إذا اعتبرنا العبارة الشهيرة التى قدم بها جان جاك روسو كتابه « العقد الاجتماعى » لقد ولد الانسان حرا ولكنه مكبل بالاغلال فى كل مكان . . كيف حدث ذلك ؟ لست أدري ! « وضع لنا مدى التغيير الذى طرأ على معنى هذه العبارة التى تضمنتها الطبعة الاولى من

(٧) يمكن الوقوف على تفاصيل أكثر لمنهج روسو فى كتابه « العقد الاجتماعى » فى العديد من الكتب والدراسات .

ارجع بصفة خاصة الى :

Félix Ponteil ; La Pensée Politique Depuis Montesquieu, Sirey, Paris. 1960.

وعلى الرغم من أن ذلك كله يبدو صحيحا في جملة ، فانه يثير مع ذلك تساؤلا عن الكيفية التي تم بها هذا التحول في موقفه .

ان الشيء الغريب ان روسو ، على الرغم من انه قد تساءل في جملة الافتتاحية عن كيفية حدوث ذلك التحول من مرحلة الحرية الى الحالة التي وصفها بان الانسان اصبح فيها مكبلا بالانحلال ، الا انه تجاهل الاجابة على ذلك ، وحاول ان يجيب على تساؤل آخر بصدد الاسباب التي دفعت الى حدوث التحول وبالتالي مدى شرعيته . ونراه يقول في ذلك « ان الاقوى لا تصل قوته ابدا الى الدرجة التي يصبح بها سيدا على الدوام الا اذا تحولت هذه القوة الى حق Right تصبح الطاعة معها واجبا Duty . ولكن من الناحية الثانية ، حيث انه لم تعد لانسان ما سلطة حقيقية على غيره . . . ومادامت القوة لا ترتب حقا ما . . فانه لا يتبقى غير الاتفاقات

Conventions

اساسا لكل سلطة مشروعة Legitimate Authority بين الناس . . . ومنذ البدء فقد سعى الناس الى شكل من اشكال التجمع يحمي شخص ومتاع كل عضو فيه ويدافع عنه بقوته المشتركة ويتحد فيه كل واحد بالكل فلا يطيع الا نفسه . . . ومن ثم يبقى حرا مثلما كان من قبل . . . (٨) .

هكذا يقرر روسو ان العقد قد حقق كل هذا . ولكنه لا يكتفى بذلك وانما يعود فيقرر ثانية ان كل فرد في هذا التجمع قد نزل عن شخصيته وحقوقه للجماعة ، وكان ذلك هو السبيل لايجاد تلك الهيئة المعنوية والجماعية التي يعتبر الشعب اعضاءها مجتمعين ، ولكنهم مواطنون ومساهمون في السلطة العامة اذا ما كانوا متفرقين .

العقد الاجتماعي ليصبح معناها متسقا مع موقفه العام الذي تبناه متأخرا .

ان اول ما يطرا على الذهن هو ان كلمات روسو في الطبعة الاولى لم تكن تحمل من المعاني اكثر من أن الانسان يجب أن يكون حرا فهذه افضل صور المعيشة بالنسبة اليه . وذلك في الواقع تعبير صريح عن الاتجاه العقلي الذي اطلق عليه البدائية الرومانتيكية او **الحنين الى حياة الطبيعة** وبساطة العيش الاولى التي كانت سائدة في العصر الذهبي Golden Age والتي فصلتنا عنها الحياة المعقدة التي أصبحنا نحياها في العصر الحديث .

على اننا اذا اردنا ان نقرب بين هذا المعنى وبين وجهة النظر التي قلنا ان روسو قد اعتنقها في الطبقات المتأخرة من العقد الاجتماعي ، فسوف يظهر ان القول بان الانسان قد ولد حرا ولكنه مكبل بالاغلال في كل مكان يبدو وكأنه بمثابة تأكيد لمعنيين ، او بالاصح حقيقتين اثنتين هما :

اولا : ان الانسان يحب ان يكون حرا ومستقلا .

ثانيا : ان الانسان نادرا ما يكون هكذا في الحياة الواقعية ،

واذا اعتبرنا ذلك فينبغي ان ندرك ان الحرية التي يتحدث عنها روسو قد أصبحت شيئا اكثر من مجرد الفراغ أو السلوك الفردي المتحرر من كل قيد ، ذلك لان ما يبدو من قول روسو ، انه يهدف الى نوع من المشاركة في حياة اكثر اتساعا يسهم فيها جميع الاعضاء بقيامهم بوظائفهم في توافق وانسجام يحفظ استمرارها ودوامها .

ومن الواضح ان ذلك يمثل خروجاً على روحه الفردي يكاد يذهب الى حد التناقض .

والملاحظة التي ينبغي ان نلتفت اليها هنا قبل ان نستطرد في توضيح متضمنات موقف روسو ، هي أن تصويره لفرد حر يشارك في الارادة العامة على ما عكست جملته الافتتاحية يبدو أمرا متناقضا تناقضا صريحا والقول بالعقد على ما يظهر في كتاباته المتأخرة . ذلك أن العقد يقوم هنا - مثلما عند لوك - على أساس وجهة نظر في الطبيعة البشرية اعتبرت الانسان مستقلا وتلقائيا تماما . وقد يكون صحيحا أن العقد يمثل هدفا مطلوبا في ذاته باعتبار أنه يجمع الناس معا بدلا من أن يعيشوا كوحيدات مستقلة متفرقة ، ولكن الصعوبة هنا هي في مقارنة تصور الطبيعة البشرية الذي أربطت به فكرة روسو في الارادة العامة ، بالزعم القائل بأن الناس كانوا في الأصل مستقلين بعضهم عن بعض . وحتى إذا نحن رجعنا الى مفكر مثل أرسطو لوجدنا أن النظرية العضوية قد تضمنت اعترافا صريحا بأن الناس قد تعاونوا دائما ، وأنهم قد اعتمدوا بعضهم على البعض ، لأنهم كانوا ينشدون بالاجتماع وسيلة تتكامل بها شخصياتهم .

لقد قلنا من قبل أن روسو كان متأثرا تأثرا ملحوظا بجون لوك . ولكن الذي يبدو لنا هنا هو أن اصطلاح الارادة العامة يظهر معارضا لعقد لوك . وصحيح أن هناك خصائص ذاتية مميزة لهذا التصور الجديد الذي يسوقه روسو وللتصور القديم للعقد عند لوك ، وأن كلا من التصورين قد أكد على ضرورة التبرير الاخلاقي لوجود الدولة وشرعية ممارستها للقهر والالزام كما حاول كل منهما بالتالي إبراز هذا التبرير حتى انتهى الامر بلوك الى تقرير أهمية قبول الافراد وموافقتهم الحرة الكاملة . ولكن الصحيح أيضا هو أن كافة الصعوبات التي انطوت المسألة عليها ، قد دفعت بروسو الى أن يطور مفهوم الارادة العامة في خط مغاير مما يترتب عليه حدوث تحول في التصور

القديم للانسان وعلاقاته بالآخرين ودون أن يغير ذلك شيئا من حقيقة أن المحاولة الجديدة قد تطلبت ، مثلها مثل الموقف السابق تماما ، تقديم التبرير الشرعي لممارسة القوة والسلطان . أن القوة في رأى روسو « هي القوة الطبيعية وما الاستسلام لها سوى نوع من الخضوع .. أو أمر من أمور الضرورة لا الارادة الذي يستحيل أن تكون نتائجه اخلاقية .. فبأي معنى من المعاني اذن يمكن أن يصير هذا واجبا اخلاقيا ؟ » (٩)

ولا شك في أن روسو هنا كان أمام واحدة من أكثر متناقضاته الفكرية غرابة . وليس لهذا التناقض الا تعليل واحد هو أن المشكلة لم تكن صيانة الحرية الفردية على ما كان يظهر في كتاباته الاولى ، بقدر ما أصبحت خيانة الحرية الاجتماعية . أضف الى ذلك ضرورة الاعتراف بالتنظيم الاجتماعي وبالسلطة القائمة . وإذا كان تاريخ الفكر السياسى قد حفل بأسماء الكثيرين ممن عارضوا شرعية ممارسة السلطة دون سند من الاتفاق ، ونذكر هنا جروثيوس على سبيل المثال الذي أكد أن الناس يتنازلون برغبتهم عن حريتهم للسلطة القائمة عليهم وقصد بذلك واقعة العبودية Slavery بالذات ، فذلك بالضبط هو ما لم يقبله روسو ورفضه رفضا قاطعا ، ذلك لان التنازل عن الحرية تنازل عن الانسانية ، وهذا أمر لا يتمشى مع طبيعة الانسان باعتبار أن كلمة حق وكلمة عبودية متناقضتان ، وكل منهما مانعة للآخرى .

وبصرف النظر عما تثيره هذه القضية من جدل ونقاش فإن الذى يعنينا هو روح المنطق الذى قاد روسو في بحثه عن تفسير آخر للسلطة يتفق ووجهة نظره في الاتفاق العام .

ولو أمعنا النظر في الموقف لوجدنا أن هناك ناحيتين يربط روسو بينهما ربطا موضوعيا :

يتعلق بحالته ، سوف يطالب أيضا بأن يصبح حكما في كل الحالات ، ومن ثم تستمر حالة الطبيعة ويصبح الاتحاد اما عديم الجدوى أو مؤديا الى الطغيان .. وعلى الفور فانه بدلا من الشخصية الخاصة المتفردة لكل طرف متعاقد .. ينتج من هذه العملية الاتحادية هيئة ، أو كيان معنوي وجماعي قوامه عدد من الاعضاء بقدر ما في المجتمع من أصوات (١١٠)

العلاقة اذن ، التي رأى روسو وجوب قيامها بين الناس ، ليست مجرد تحالف لا يتغير حال انضمام المرء اليه أو تحالف دائم السلطة والنفوذ باعتبار انه لا يتغير ، ولكنها على الأرجح علاقة مشاركة دائمة تتصف بالحرية وبالتلقائية والمبادرة ، كما انها تتطلع باستمرار تجاه شيء نموذجي يصبح بمثابة الخير الحقيقي للمجتمع كله . ويقدم روسو تأكيدا لهذا المعنى في أكثر من مكان فهو يقول « أن التحول من مرحلة الطبيعة الى المرحلة المتمدينة يخلق تغيرا ملحوظا ومميزا في الانسان ، انه يحل في تصرفاته حكم العدالة (العقل) بدلا من حكم الغريزة .. كما يكسب افعاله شخصية اخلاقية كانت تفتقر اليها بمعنى أن الشهوات تفسح الطريق لأول مرة امام الحق ، كما يفسح الدافع الطبيعي البحث الطريق الى صوت الواجب ... أما الانسان الذي لم يكن يرى من قبل سوى مصلحته الشخصية ، فسوف يجد من الضروري أن يستشير العقل وفق مبادئ جديدة ، وقد كان من قبل لا يستمع الا لصوت نزعاته ورغباته ... وإذا نحن وضعنا هذه الكلمات في صيغة أبسط نسبيا استطعنا ان نقول ان ما يفقده الانسان بالعقد الاجتماعي هي حرية الطبيعة وحقه المطلق في الحصول على كل ما يستطيع الحصول عليه ... أما ما يكسبه من العقد الاجتماعي

الاولى انه لا يعترف بالسلطة النابعة من القسر والارهاب . والثانية انه اعتبر القبول امرا ضروريا لتبرير السلطة وممارستها لوظائفها .

ومع ذلك فينبغي ان نذكر ان هذا القبول كان له معنى خاصا بالنسبة اليه ، فهو ليس امرا مطلقا يرجع الى القبول الاصلي ، ولكنه بالاحرى قبول يتضمنه الارادة العامة التي تعبر عنه باستمرار . ولعل ذلك هو ما قصد اليه عندما أكد « انه مادام أي انسان ليس له سلطة طبيعية على أي انسان آخر .. وما دامت القوة لا ترتب حقا ما .. فانه لا ينبغي غير القبول أو الاتفاق العام أساسا لكل سلطة مشروعة تقوم بين الناس (١٠) » .

وهكذا فاننا نجد انفسنا وجها لوجه امام النظام الاخلاقي الذي يقول به ، فما هي اذن خصائص هذا النظام وما هي مقوماته الأساسية ؟ الواقع ان روسو نفسه قد عبر عن ذلك تعبيرا صريحا فقال « اننا لو فهمنا عبارات العقد فهما سليما لوجدنا انها تشير الى شيء واحد هو التحالف الشامل للمجتمع بأسره .. ان هذا التحالف يستتبعه في المحل الاول ان تصبح الظروف واحدة بالنسبة الى الكل حيث ان كل فرد قد وهب نفسه كلية ... ثم انه لما كانت الظروف متساوية ، فلن تكون هناك مصلحة لاي فرد في أن يغيرها بالنسبة الى الآخرين ... بل ان هذا التحالف أو الاتحاد لما كان قد تم بدون اكراه أو ضغط ، فهو أقرب الى الكمال ، وبالتالي فلن يكون هناك مطالب أو امتيازات خاصة لاية جماعة دون أخرى ، لانه اذا بقيت مثل هذه المطالب او الامتيازات كانت النتيجة أن كل فرد وقد أصبح في هذه الحالة الحكم الوحيد فيما

Ibid, I. I. (24)

Ibid, I. 6 (33-34)

(وانظر في ذلك ايضا مقال الدكتور يحيى الجمل « الحرية في المذاهب السياسية المختلفة » ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الاول ، العدد الرابع - يناير فبراير - مارس ، ١٩٧١ ، ص ١٤٥ وما بعدها .

فهى حريته المدنية وحقه فى ملكية كل ما يملك
وحريته المعنوية التى تجعل منه سيد نفسه
بالمعنى الحقيقى ... » (١٢)

• • •

هذه النقطة الأخيرة تساعد الى حد كبير فى
توضيح بعض الخصائص الأساسية التى تميز
تفكير جان جاك روسو . **وأول هذه الخصائص**
هى أن روسو يميز تمييزا واضحا بين الحرية
الطبيعية التى تتعين حدودها بواسطة الافراد
أنفسهم وبين الحرية المدنية التى تحددها الإرادة
العامة . فالحرية الطبيعية التى يفقدها
الإنسان ليست سوى حرية زائفة بل هى اسم
آخر للعبودية ، ذلك أن خضوع الإنسان
لنوازمه وشهواته لا يعدو أن يكون ضربا من
العبودية . بينما الحرية الحقيقية هى التى
تقوم فى طاعة القانون الذى نصنعه بأنفسنا
ونشارك فى تقريره .

أما الخاصية الثانية فتتمثل فى التميز بين
الملكية باعتبارها نتيجة للسيطرة والقوة
وباعتبارها نتيجة للحق ومرتبة عليه . ومع
أن القضية هنا لا تزال تحمل طابع جون
لوك بشكل ملموس حتى فى الأسلوب التسي
صيفت فيه (١٣) ، فليس من السهل أن ننكر
أن روسو قد بنى وجهة نظر مختلفة
اختلافا عميقا عما نجده عند لوك .

فالواضح أن القضية تشوبها النغمة النفعية
وفى ذلك يبدو روسو متأثرا بلوك من حيث أن
كلا منهما قد مال الى إبراز المزايا والفوائد
التي تنتج عن العقد ولكن الواضح أيضا - أن
روسو قد عاد فحاول انكار ذلك كله ، أو
على الأقل التخفيف من وطأته . ويظهر ذلك
عندما ركز على وصف العقد الاجتماعى بأنه

مشاركة فى الإرادة العامة التى وصفها بأنها
تتجه دائما الى الخير الاجتماعى . وعلى هذا
النحو فهو يجعل الإنسان كائنا ذكيا يتصرف
فى ضوء من الدراسة والتخطيط على العكس
من الحيوان الذى يندفع اندفاعا أعمى
ولا تقوده سوى شهواته ونزعاته . أو بتعبير
آخر ، يمكن القول بأن العقد الاجتماعى عند
روسو هو بالذات ما يجعل الإنسان نوعا من
المخلوقات التى تأخذ فى اعتبارها لانفعها
الخاص فحسب ولكن نفع الآخرين كذلك .
بل أنه لا يجعل الإنسان مخلوقا عاقلا فحسب
ولكن مخلوقا أخلاقيا بالدرجة الأولى . وهذه
نقطة يختلف فيها روسو عن لوك اختلافا واضحا
من حيث أن الأخير قد اعتبر الإنسان أخلاقيا
بالعقل حتى قبل أن يوجد العقد كأساس
للدولة . وربما كان ذلك هو السبب الذى
جعله ينشئ العقد الذى لا يقدم له سوى
الحماية والضمان لبعض الأشياء كالملكية
الخاصة على سبيل المثال .

ولعل العامل الحاسم فى هذه الاختلافات
جميعها هو تلك الفائدة التى يحققها العقد
للإنسان باعتبار أنه يتيح الفرصة له لأن يظهر
شخصيته ويطورها .

ومع أن هذا الموقف يبدو أقرب الى هوبز
منه الى لوك ، إلا أنه يتضمن بدوره اختلافا
جوهريا : فعلى حين كانت نظرة روسو الى
الطبيعة البشرية كما اتضحت فى العقد الاجتماعى
تتصور إنسان ما قبل العقد كحيوان يستخدم
قوته لى يحافظ على حياته ، فإن العقد
باعتباره مشاركة فى الإرادة العامة هو ما يقظ
طبيعة الإنسان بشكل عميق وحوله الى كائن
أخلاقي يعرف قانونا آخر غير قانون الغاب .
فكان الإنسان اذن ، اذ يمثل للقانون

Ibid, I, 8 (36-37) II, 4 (46)

(١٢)

(١٣) راجع كتاب « الحكومة المدنية » لجون لوك ، الترجمة العربية . سلسلة « اخترنا لك » ، العدد ٨١ وبخاصة
الفصل الخامس الذى يتناول لفظة الملكية .

كونه مفيد اذ لا يستهدف شيئا سوى النفع العام .

والواقع اننا نلتقى هنا بكافة الخصائص التى يقرها روسو للسيادة . ولعل فى مقدمة هذه الخصائص ان السيادة مطلقة وغير محدودة . ومع ان هذا الوصف للسيادة يجعل روسو يقترب كثيرا من هوبز الا ان هناك فارقا جوهريا يقوم بينهما . فمن الواضح ان السلطة عند روسو لا تقوم على عقد سيكولوجي او تاريخي مثلما الحال بالنسبة الى هوبز ، ولكن على القبول العام بمعنى روح الاتفاق الحر المرهون برضا الافراد عن ممارسة القوة من كل الجماعة التى يعتبر العضو جزءا فيها . اما فيما يتعلق بالبرر الذى يسوقه لمنح الحاكم مثل هذه السلطة المطلقة فهو ان الشعب قد سبق وعبر عن قبوله لها ورضائه عنها .

ولكن لما كانت السيادة مطلقة وبلا حدود، فيلزم ايضا ان تكون كلية وشاملة . وقد صاغ روسو هذا المبدأ ، او هذه الخاصية الثانية بوضوح اذ يقول « ولما كانت السيادة هي ممارسة لارادة العامة فلا يمكن من ثم الا ان تكون شاملة ... ومن الناحية الاخرى فانه لما كانت السيادة كائنا جمعيا كذلك ، فيتحتم الا تمثل الا بذاتها فحسب ... ان السلطة يمكن تحويلها transfer او نقلها ولكن الارادة ليست كذلك ... ولجل السبب نفسه الذى اعتبرت السيادة شاملة فانه يستحيل تجزئتها ايضا ... ان الارادة اما ان تكون عامة او ان تكون غير عامة ، بمعنى اما ان تكون ارادة الشعب بأكمله او ارادة جزء منه ... وفي الحالة الاولى تصبح الارادة التى يعبر عنها من قبل السيادة قانونا، اما في الحالة الثانية فلا تعدو

يظل مستقلا ومتمتعا بذاتيته وبحريته لان القانون هو فى النهاية من صنع الافراد المتعاقدين أنفسهم ، ومن ثم تكفل لهم نصيبهم فى السلطة والسيادة . زد على ذلك انه لما كانت الارادة العامة تتمتع بالقدرة الصائبة دائما ، فيكون ذلك ضمانا لتحقيق المساواة الشرعية امام القانون وبصرف النظر عن عدم التكافؤ الطبيعى بين الناس فى القوة او المقدرة او الدكاء ، وكله مما يمثل عند روسو خطوة واسعة الى الامام فى طريق التطور البشرى ارتقى بها الانسان من حالة الفطرة الى الحالة المدنية وكان العقد الاجتماعى هو وسيلتها الوحيدة .

اذا كان ذلك هو ما انتهى اليه روسو فيما يتعلق بتصور الارادة العامة ، فينبغى ان نرى الكيفية التى استخدم بها هذا التصور لكى يتم بناء نظريته السياسية .

ولعل القضية الحاسمة التى تساعد على ذلك هى ما انطوت عليه كلماته التى تقول بان الارادة العامة هى الاسمى « فكل فعل تقوم به السيادة ... اى كل فعل للارادة العامة انما يرتبط بالتساوى بمصلحة المواطنين ويهدف اليه . » (١٤) فما هو اذن فعل السيادة بالضبط ؟

لقد لخص روسو فى « العقد الاجتماعى » تعريفه للسيادة فذكر انها ممارسة الارادة العامة او افعال ارادة المجموع . ووصف هذه الافعال بانها ليست اتفاقا بين الاسمى والادنى، ولكنها بالاحرى ارتباط بين الجسم ككل وبين كل عضو من أعضائه . كما قرر ايضا ان هذا الارتباط هو ارتباط عادل لانه يقوم على العقد ومن ثم فلا يمكن تجنبه او التهرب منه ، لان الكل يعترف به ويرضى عنه بالاضافة الى

ان تكون ارادة متخصصة ، او في عمل من اعمال الحكم او وسيلة من وسائل تطبيق الاوامر التي يصدرها الشعب صاحب الحق في صنع القوانين » (١٥) .

ويقود ذلك بشكل طبيعي الى الخاصية الثالثة التي تتمتع بها السيادة . فعند روسو ان الحاكم هو اصل القانون ومصدره بمعنى ان القانون لا يكون صحيحا الا اذا صدر عن الارادة العامة أي منبثقا من الشعب ومنصبا في الوقت نفسه على الصالح العام .

وفي وسع المرء ان يلح هنا تفرقة اساسية . فالقرارات التي تأتي عن غير هذا الطريق مثل تلك التي قد تصدرها هيئة ما او مصلحة او ما الى ذلك من المؤسسات والتنظيمات لاتمثل قانونا او عملا من اعمال السيادة ، وانما هي عمل او وسيلة فحسب من وسائل الحكم والادارة . كما انها في اعلى حالاتها لاتعدو ان تكون اعلانا او قرارا من القرارات . وهذه مسألة تعكس المدى الذي تقترب به افكار روسو فيما يتعلق بالقانون من الافكار الحديثة الخاصة بالقانون الدستوري الذي ينظم طرائق اداء الادارة لوظائفها .

على ان هذه النظرة للسيادة باعتبارها مقدسة ولا تقبل التصرف يترتب عليها امر خطير . فatasاقا مع هذه الخصائص التي

عرضناها يبدو روسو منطقيا مع نفسه عندما اعتقد ان السيادة لا بد وان تكون مثالية وواقعية في آن واحد معا . فاذا أضفنا الى ذلك اعتقاده الراسخ ان « القانون لا يصدر الا عن ارادة مجموع الشعب أي الارادة العامة ، وانه ميز في ذلك بين هذه الارادة و ارادة المجتمع من حيث انهما لاتتطابقان ابدا ، فيكون من الطبيعي اذن ان ينتهي الى الموقف الذي انتهى اليه وهو تفصيله للديمقراطية المباشرة التي اعتبرها افضل اشكال الحكم قاطبة (١٦) .

وتتضح لنا هنا في تفكير روسو حقيقة اساسية . فهذا التمجيد للديمقراطية المباشرة يدل في نظرنا على أمر له دلالة وهو ان روسو كان يضرر سوء ظن بالفا بالنظام النيابي . وصحيح انه كان يشك كثيرا في وجود الديمقراطية المباشرة او حتى في امكان وجودها بالمرّة ، ولكن الصحيح أيضا انه لم يحاول ابدا ان يخفي عدم رضائه على النظام النيابي الذي كان يعتبره دليلا على الفساد السياسي وابعده ما يكون عن الكمال الديمقراطي، وذلك لدرجة ان اعتبره سلبا تاما للديمقراطية . (١٧) ففي اعتقاده ان المجلس النيابي الذي يعين أعضاؤه بالانتخاب فينظر لهم على أنهم ممثلين للأمة صاحبة السيادة لايمثل صاحب السيادة في شيء . لانه نزولا على الخاصية القائلة بان السيادة لايجوز التصرف فيها ، فان نواب الشعب لا يستطيعون ان يكونوا ممثلين يحق له ، لانهم ليسوا اكثر من نواب فحسب .

(١٥)

Ibid, II, I. (49) and II, 2 (40-41)

(١٦) يصنف الكتاب عادة الديمقراطية في نوعين : الاول الديمقراطية المباشرة أو المحضة ، والثاني الديمقراطية النيابية أو التمثيلية . ولكن الديمقراطية المباشرة نظاما للحكم يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه عن طريق الاجتماع في جمعيات عمومية او اجتماع عام مثلما كان الحال في المدن الاغريقية . ولا يتحقق هذا النظام الا في الجماعات السياسية الصغيرة باعتبار ان تحلقه امر مستحيل في الدولة الحديثة المتراصة الاطراف . اما الديمقراطية النيابية او التمثيلية كما يطلق عليها عادة فهي النظام السياسي الذي تصاغ فيه ارادة الدولة ويعبر عنها بواسطة وكالة هيئة صغيرة نسبيا من الاشخاص المنتخبين ليكونوا ممثلين للشعب . (انظر في ذلك

Ford, H J; Representative Government, 1934. p. 3.

وانظر ايضا : محمده بدوي . فلسفتنا السياسية الثورية . منشأة المعارف . ١٩٦٤ . صفحة ١٢٤ ومابعدها .

G, Peter ; The Dilemma of Democratic Socialism, E. Bernstein's Challenge (١٧) to Marx, Columbia University Press N. Y. 1954. P. 247.

كونها وكيلًا بين الشعب باعتباره صاحب السيادة ، وبين الشعب باعتباره موضوعاً أو رعية . أي أنها أداة اتصال أو هي العضو الذي يعبر به الشعب ، صاحب السيادة عن إرادته ويصنع بواسطته التغيرات التي يريدتها في العالم الخارجي أو بتعبير روسو نفسه هي جسم أو وكيل لتأمين الاتصالات الحيوية الدائمة . . . إنها المسئولة عن تنفيذ القوانين وتأمين الحرية السياسية والمدنية . . . وهكذا فإن الحكومة أو الإدارة العليا ، كما أود أن أعبر عنها ، هي الممارسة الشرعية للسلطة التنفيذية ، سواء تحمل مسئوليتها الحاكم نفسه أو نائبة ، فرداً كان أو جماعة . . . (٢٠) وهو تحديد ساعده على أي الأحوال في تصنيف أشكال الحكومة كما رآها . وفي رؤية أن الحكومات أيا كان تنوع أشكالها فيمكن إدراجها تحت ثلاثة أنواع : هي أولاً حكومة يضطلع فيها الشعب أو الغالبية العظمى من الشعب بأعباء الحكم ، بمعنى أن يصبح المواطنون أو غالبيتهم حكاماً يتولون المناصب والوظائف العامة التي تقوم الحكومة بها وهي ما أطلق عليه الحكومة الديمقراطية . وثانياً الحكومة الأرستقراطية حيث تكون شئون الحكم في أيدي عدد قليل من المواطنين الذين يصلون إلى السلطة عن طريق الانتخاب أو طريق التمييز أما في الثروة أو النفوذ أو المولد . وثالثاً فقد تتركز الحكومة - أو عملية الحكم بمعنى أدق - في يد حاكم واحد يعتبر الأمر النهائي والمرجع الوحيد في توزيع كل السلطات والمسئوليات على الآخرين وهذه هي الحكومة الملكية .

ومع ذلك فينبغي أن نشير إلى أن روسو لم يتردد في توكيد أن الفيصل الأخير في شرعية

وليس من شك في أنه يرجع لروسو جانب كبير من الفضل في انتباه كثير من الفلاسفة والمفكرين إلى هذه الناحية . فعلى الرغم من أن الحياة الدستورية قد أصبحت اليوم تقليداً عميق الجذور ، فلم يمنع ذلك - حقاً - بعض المفكرين من أمثال لاسكي Laski وولاس Wallace وج. د. ه. كول G. D. H. Cole وغيرهم من أن يظهروا عدم ثقتهم بالأساس التي تبنى عليه الديمقراطية النيابية (١٨) باعتبار أن هذا الأساس يشوبه الكثير جداً من النقص الذي يجعل الديمقراطية - على الأقل في مفهومها الغربي الحديث - عاجزة حقيقة وعملاً عن حل قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم أو بمعنى أدق قضية التناقض بين السلطة والحرية (١٩) .

• • •

إذا كنا قد وصلنا إلى هذا المدى في اختبار آراء روسو فإنه يبقى لكى نفهم طبيعة نظريته في الاجتماع السياسي أن نرى عن كثب مفهومه للحكومة والصفات التي يخلعها عليها . وأول ما يلزم أن نؤكد عليه بهذا الصدد هو أن دولة روسو هي من غير شك دولة الشعب باعتبار أنه وضع السيادة في يد الكل . وإذا أخذنا عنه ذلك في الاعتبار فلا بد أن يستتبعه بالضرورة أن يكون صاحب السيادة شيئاً والحكومة شيئاً آخر .

ولقد كان هذا التمييز بمثابة الركيزة التي بنى عليها روسو تصوره للحكومة . وإذا أردنا أن نوضح ذلك بطريقة أسهل لأمكن القول بأن الحكومة بالنسبة إلى روسو ليست أكثر من

(١٨) انظر مقالنا عن « جراهام ولاس » مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الثاني ، يوليو - أغسطس -

سبتمبر ، ١٩٧٧ ص ٢٢٥ - ٢٥٥ .

(١٩) Laski, H; Liberty in the Modern State, New Edition, George Allen & Unwin, Ltd., London, 1948.

Contract Social, III. I. (64-65)

(٢٠)

الحكومة او عدم شرعيتها انما يقوم في الطريقة ذاتها التي تجيء بها كأن تكون منتخبة أو غير منتخبة . وغنى عن البيان أن أسوأ أنواع الحكومة ما كان وراثيا لأن صفة الشرعية تنتفى تماما من مثل هذا النوع .

وهكذا أدان روسو كل أنظمة الحكم التي كانت قائمة في أيامه ودمغها بالخديعة والزيف وعدم الشرعية . وكان قوله بالعقد بمثابة الدعوة أو الطريق للخلاص . والحقيقة أن مظاهر الجيرة التي تضمنتها فلسفته وأيضا الروح الفياض الذي عبر به عن افكاره كانت كلها عوامل ساعدت على أن تجد هذه الآراء صدى في العقول وفي القلوب . وعلى الرغم من كل العنت الذي لقبه في حياته فلم يمنع ذلك أبدا أن مثلت افكاره عالما جديدا يتطلع اليه الذي يسعون الى حياة افضل ، وان تظل نظريته في العقد محتفظة بشبابها وبنفوذها وقتا طويلا بعد وفاته ، حتى أن كثيرا من الدول خاصة الولايات المتحدة استلهمت بعض جوانبها وبعض روحها وهي تخطط لسياساتها . كما اعتبرت النظرية كذلك الروح المحرك للثورة الفرنسية التي تفتت بشعارات الحرية والاخاء والمساواة .

ولكننا نلاحظ ، من جهة أخرى ، أن نظرية روسو لم تسلم مع ذلك - مثل أى عمل آخر عملاق - في أى وقت من الاوقات من النقد والهجوم والتجريح .

ولعل أول ما يطرأ على الذهن ونحن نحاول الحديث في هذا هو ما وجهه الى الاساس السيكلوجى نفسه الذي بنى عليه روسو نظريته . ومن المسلم به أن القول بصحة نظرية ما أو بعدم صحتها لا يعدو أن يكون في آخر الامر مسألة نسبية محضة ويعتمد الى ابعد حد على ما اذا كانت نظرة المفكر الى الطبيعة البشرية صائبة .

ولسنا نقصد بذلك الى القول بأن كل ما ذهب اليه روسو في الطبيعة البشرية كان خاطئا أو غير صحيح ، وانما نحن نعتقد فحسب أن روسو لم يستطع بوضوح أن يضع الانسان في مكانه الصحيح لا من حيث ما أثبتته في الطبيعة البشرية ، ولكن فيما أنكره بالنسبة اليها وذلك عندما أكد تأكيدا زائدا على طهارة الانسان وطيبته وتقائه . فهنا لم يفعل روسو في الحقيقة سوى ما فعله مفكر آخر مثل هوبز عندما أعطى صورة للطبيعة البشرية أقل ما توصف به أنها صورة مقيبة ، وكان ذلك عندما رأى الانسان مخلوقا شريرا وفاسدا . واذا كانت نظرة هوبز هذه قد جانبها الصواب الى حد بعيد لانها تجاهلت غرائز التعاطف والاجتماع وغيرها من الميول الفطرية التي تدفع الانسان الى المشاركة والحوار ، فانه يمكننا بالقياس نفسه أن نقول أن روسو قد وقع في الخطأ ذاته وانما من الناحية المقابلة عندما عجز عن أن يرى في الانسان الا انه مخلوق طيب متجاهلا ما يعمل في أعماقه من غرائز حب الذات ومجموعة الميول والدوافع المتعلقة بنزعات الكفاح والعدوان وما اليها . .

غير أن روسو اضاف من غير شك عناصر جديدة لنظرية العقد . ولا جدال في أن تصور الارادة العامة كان أهم هذه الاضافات جميعها ليس لكونه التصور المحورى في نظريته فحسب ، ولكن أيضا لانه التصور الأكثر أصالة والأكثر إثارة في كل ما افاد به النظرية السياسية بوجه عام .

أن ماهية العقد الاجتماعى تتمثل في أنه ما يحدد الواجبات المتقابلة وما يقوم بين الافراد من صلات ونظم وعلاقات تتضمن في جوهرها فكرة العدالة . ولكن هل صحيح أن العقد قادر على إنجاز ذلك وتحقيقه وبالتالي حفظ الكيان السياسى وحمايته ؟

ومن الواضح أن هناك صعوبة حقيقية امام هذا التساؤل لأنه يمس مسا مباشرا كل جوانب

الانسان هذه الحرية الضائعة . . فالى أى مدى يمكن لذلك ان يكون صحيحا وصادقا ؟

لا شك انه على الرغم من كل ما يمكن ان يقال عن تقديس روسو الرائع للحرية ، فان وصفه للسيادة في الشعب في كل الظروف انما يتجه بالدولة لان تصبح دولة شمولية تطفى على الكيان الفردي وتخنقه (٢١) ، وقد يبدو هذا القول غريبا ، ومع ذلك فالحقيقة هي ان روسو عندما قال بحق السيادة في قوة السلطة كان يهرب من المشكلة كلها ، وذلك لسبب بسيط هو ان الاعلاء من شأن الارادة العامة لايعنى سوى القول بانها القوة النهائية ، اى انه قد اظهر بذلك جانبا وايده على حساب الجانب الآخر . ومن المسلم به تماما انه حيثما كانت الارادة هي الارادة الحاكمة فان النتيجة المنطقية لذلك لابد وان تكون القوة ، بمعنى ان اصطدام الارادات لايمكن حله في الواقع الا بانتصار الارادة الاقوى مما يجعل اى مذهب في الارادة ينتهى الى مذهب في القوة .

ومن جهة اخرى ، فقد يكون من الصعب التسليم تماما بإمكانية ربط هذه الارادة العامة بالدولة الكبرى والكيانات العظيمة . ويرجع ذلك الى انه كلما كانت الدولة اكبر كان دوام الارادة العامة واستمرارها واستقرارها اقل ، حتى ليصبح من المشكوك فيه القول بما اذا كانت مثل هذه الارادة موجودة بالفعل في الدول الكبرى الحديثة . وذلك بالإضافة الى انه كلما كبرت الدولة واتسع نطاقها ظهرت صعوبة اقامة علاقات عضوية تربط الاجزاء بعضها ببعض والاجزاء بالكل ، مما يشكك بالتالى فيما اذا كان يربط بينهم جميعا اى نفع او خير عام .

وقد يمكن القول في ذلك ان روسو قد بنى فكرته عن الديمقراطية متأثرا بفكرة المدينة الدولة عند ارسطو خاصة عندما اصر الأخير

المشكلة الاجتماعية . ومع ذلك فهناك حقيقة اساسية يجب الالتفات اليها ، وهي ان مفهوم العقد وان كان قد قام كحجة لحماية الفرد والوجود الفردي ضد المجتمع ، فمن الممكن استغلاله في الوقت نفسه ، وربما بالقوة ذاتها لخدمة الغاية المضادة . واذا نحن ربطنا ذلك بفكرة العدالة تبدت لنا المشكلة في كيفية التوفيق اذن بين آثار مبدأ الجماعة الذى يدمى العقد انه يعبر عنها ، وبين مبدأ الحكم الصالح الذى يتضمنه مصطلح 'العدالة' بما ينتج اكبر قدر من الخير العام .

• • •

وباستعراض المواقف المختلفة لفلاسفة العقد

من هذه القضية نجدها متميزة بشكل ملحوظ . فعلى حين آمن البعض بالسلطة المطلقة بكل ما يترتب عليها من انتفاء كامل لحقوق الافراد ، فقد عارض البعض الآخر ذلك بكل قوة ووقف ضد اى تسلط او تدخل على اية صورة من الصور ، بينما اكتفى آخرون باتخاذ موقف وسط فسلموا بإمكانية وجود ازدواجية في الارادة دون ان يعرض ذلك الخير العام للخطر ، بمعنى انهم تركوا في المجتمع مجالا لكل من حرية الافراد واراداتهم الحرة من ناحية ولفاعلية الدولة وتدخلها من أجل تحقيق الخير من ناحية ثانية . وفي الوقت الذى نجد هوبز يدافع عن السلطة المطلقة بكل ما يتضمنه ذلك من اهدار للحرية ، ولوك ينادى بالسلطة المقيدة تاركا بذلك مكانا للحرية في المجتمع الانساني ، نرى روسو يمشى في نص الحرية الفطرية التى اضاعتها الملكية الخاصة وما يربط بها من نظم وعلاقات ، ويتصور انه بدعوته الى عقد يوجد بين الحكام والمحكومين واقامة نوع من الارادة العامة يودع لديها كل الحقوق انما يعيد الى

العامة . ومن هنا فقد يبدو منطقيا ذلك الموقف الذي أصر فيه على استبعاد الدولة العظيمة من حسابه وان يجعل الدولة صغيرة الحجم لدرجة تكفى لاقامة ديمقراطيته المباشرة ، وان يمكن هذا التصور مما لا يستطيع أحد ان يأخذ به الآن على أى الأحوال .



ومهما يكن من أمر فمن الضروري ان ننتبه تماما الى هذه الصعوبات جميعها التى تحيط بفهمنا للارادة العامة عند روسو لكى نكون أقدر على انصافه . وإيا ما كانت درجة الاتفاق أو الاختلاف فى الراى فمن الواجب كذلك ان نقرب من فكره دون ان نكون متأثرين بأى تداخل أو خلط ميتافيزيقى . أو بتعبير آخر نريد ان نقول ان مدخلنا لدراسة فكر جان جاك روسو ينبغى ان يكون من خلال تلك النظرة التى شارك بها جون لوك والقاتلة بان الدولة ايا كانت طبيعة تصورها لأصلها ونشأتها انما توجد لأجل ان تجعل الحياة شيئا طيبا وممكنا لكل البشر الذين يعيشون فى ظلها .

على أن الدولة الصغيرة هي الاقدر على الوفاء بمتطلبات أعضائها واحتياجاتهم ، (٢٢) بل قد نستطيع الذهاب أبعد من ذلك فنقول ان روسو كان لابد متأثرا بمدينته الاولى ومسقط رأسه جينيف مما انعكس فى تفكيره وجعله يرتبط سواء شعوريا أولا شعوريا بتصوير الدولة الصغيرة التى لم تتسع حدودها بعد .

ولكن هل يكون معنى ذلك أن المشكلة سوف تحل فور ازالة هذا التحديد لحجم الدولة ؟

ان الأرجح فى راىي هو أن المشكلة ستظل قائمة ، لانه سيتعين علينا فى هذه الحالة ان نتساءل : وكيف يمكن اذن لهذا التصور ان يخدم كأساس للتنظيم السياسى الديمقراطى؟ أو بتعبير آخر الا يصبح ضروريا من ثم العثور على شكل آخر من أشكال التمثيل الديمقراطى ينبئ على تصور آخر غير تصور الارادة العامة ؟

ان انصاف روسو يقتضينا ان نقرر انه لم يعتقد فى وجود أساس آخر للديمقراطية وانه لم يفكر فى امكانية مقارنة التمثيل بوجود الارادة



(٢٢) ذهب أرسطو صراحة الى أن الدولة خلق طبيعى اسبق فى الظهور من الفرد والعائلة باعتبار ان الكل اسبق بالضرورة من الجزء ، ومن هنا دحض أرسطو المذهب السفسطائى القائل بان نظم المجتمع نتيجة للعرف والاتفاقات كما حاول أرسطو منذ البداية ان يوضح مفهوم الدولة على أساس ان هذا يساعد فى فهم العلاقة سواء بينها وبين افرادها أو بين الدول وبعض ، وفى هذا فقد أكد ان الجماعة التى يصل عدد افرادها الى مائة الف نسمة لا تمثل دولة ، ملتها فى ذلك الجماعة التى لا يزيد عدد افرادها على عشرة آلاف - فالليم الدولة عند أرسطو يجب ان يكون مرليا ككل بعين واحدة . وقد استخدم أرسطو تأكيد ذلك على أساس من الحقائق التى يمكن قياسها من حواس الانسان والذاكرة البشرية . وواضح هنا على اية حال انه كان يؤمن بضرورة صغر حجم الدولة لتكون الاقدر على الوفاء بغاياتها وأهدافها .

* في ذكرى روسو

بقلم : موريس كراستون
ترجمة : بدرية محمد احمد

كثير من التناقضات في كتاباته ، ولكنه كان يشعر بأنه لم يكن في الاستطاعة التعبير عما كان يريد ان يقوله طبقا لقواعد العرض الواضح الصريح التي كان يتبعها فولتير Voltaire وغيره من فلاسفة عصر الاستناره .

خلال المائتي عام التي انقضت على وفاة روسو ، او بالاحرى خلال الـ ٢٢٧ عاما التي مضت منذ نشر مقاله الاول ، خلال كل تلك الاعوام ثار كثير من الخلاف الحاد بين القراء حول ما كان يقصده روسو من كتاباته .
والواقع ان روسو نفسه اعترف بوجود

* نشر هذا المقال في الاصل في عدد ديسمبر ١٩٧٨ من مجلة Encounter تحت عنوان Remembering Reus ; A Bicentennial Essay and مؤلف المقال هو الاستاذ موريس كراستون مدير معهد الجامعة الاوربية European University Institute في فلورنسا ، وكان يشغل منصب استاذ علم السياسة في مدرسته لندن للاقتصاد London School of Economics في الفترة بين عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٨ . ومن اهم مؤلفات الاستاذ كراستون Rousseau's Social Contract وقد راجع الترجمة الاستاذ الدكتور احمد ابو زيد (Penguin, 1976) ; Politics and Ethics (1972) and the Mask of Politics (Allen Lane, 1973)

وقد كان لروسو اتجاهات ومواقف معقدة
ازاء ما كان يعتبره قضايا معقدة ومتشابكة ،
وربما كان اشد هذه القضايا والمشكلات
تعقيدا ، حسب رايه ، المشكلات السياسية .

ويعتبر موقف روسو من المشكلات
السياسية في وطنه الاصلى « جمهورية
جينيف » أحد الالغاز المحيرة .

فعلى الرغم من انه هرب من المدينة وهو
في سن السادسة عشرة وانه لم يعد اليها بعد
ذلك لأكثر من ايام معدودة في كل مرة ، فانه
كان يصف نفسه دائما بكثير من الفخر
والاعتزاز بانه « مواطن من جنيف » دون ان
ياخذ في الاعتبار انه اسقط حقه في هذه
المواطنة حين امتنق الكاثوليكية في تورينو .
وقد كان نموذج الدولة المدينة المتمثلة في
جينيف يهيمن على تفكيره في موضوع
السياسة ، ومع ذلك فلم يكن لديه سوى
القليل الذي يذكره عن سياسة جنيف ، سواء
في كتاباته المنشورة او غير المنشورة .

وفي عام ١٧٣٧ تفجر الصراع الحزبي في
جينيف حتى كاد يصل الى حد الحرب الاهلية
ولقد كان روسو الذي كان يناهز الخامسة
والعشرين من العمر حينذاك موجودا في
جينيف وشاهد بنفسه تلك الاحداث ، ولكن
الغريب في الامر هو ان استجابته لذلك الصراع
كان الحياد المطلق ، وكان سبب النزاع هو
الصراع الطويل بين الحكومة (التي كانت تسيطر
عليها العائلات النبيلة) وبين المعارضة الشعبية
التي كانت تسعى لاثبات حقوق المواطنين في
مواجهة الامتيازات التي كانت تتمتع بها العائلات
الكبيرة ، وقد كان المتوقع من روسو (الذي
طالما عبر بقوة وصراحة عن آرائه الجمهورية)
ان يقف بصلابه الى جانب الشعب ولكن ذلك
لم يحدث على الاطلاق .

ففي الرسائل التي كتبها في ذلك الوقت لم
يعبر الا عن شعوره بعدم الرضا عن الفوضى

المدينة التي ادت الى منعه من جمع ايراد ارث
له . بل وحين عاد بذاكرته الى تلك الاحداث
بعد ذلك بأربعين سنة حين كان يكتب
« الاعترافات Confessions » لم يتكلم الا
عن رؤيته لصديقيه صاحب المكتبة جاك باريبو
Jacques- Barillot وابنه جاك
فرانسو باريبو - Jacques Françoise
Barillot وهما يخرجان من نفس المنزل
ليحاربا في جبهتين متضادتين ، الاب يحارب
للحكومة والابن مع الثوار . « وقد ترك هذا
المنظر المفزع انطبعا سيئا للغاية في نفسي
بحيث اقسمت الا اشترك ابدا في اية حرب
اهلية » .

ثم عقد روسو بعد ذلك في الفصل الذي يتكلم
فيه عن الانتخابات في كتابه « العقد الاجتماعي »
مقارنة بين جينيف وفينسيا ليخرج منها بانه
لم يكن ثمة اختلافات كثيرة بين الجمهوريتين .

ويقول في ذلك « من الخطأ ان نعتبر حكومة
فينسيا ارسقراطية حقيقية ، فعلى الرغم من
عدم اشتراك الشعب في الحكومة ، فان النبلاء
الفينيسيين يؤلفون هم انفسهم شعبا ، ان
اعداد اكيرة من اتباع الكنيسة البرنابية الفقراء
لم يكونوا يرقون ابدا الى مناصب الحكم ، بينما
لم يكن « نبلهم » يتضمن شيئا اكثر من لقب
« الفخامة » الاجوف الى جانب حق حضور
اجتماعات المجلس الاعظم .

ولكن لما كان عدد اعضاء ذلك « المجلس
الاعظم » يماثل عدد « المجلس العام » في جينيف
فان اعضاء الموقرين لم يكونوا يتمتعون باية
امتيازات اكثر مما يتمتع به مواطنونا العاديون ،
ولهذا فعلى الرغم من التفاوت الواضح بين
حجم كل من الجمهوريتين فان نواب جينيف
يمثلون تماما نبلاء فينسيا ، كما ان مواطنينا
يقابلون السكان الحضريين هناك ، وفلاحونا هم
يعينهم عمال الاراضى عندهم ، وباختصار فانه
باستثناء فارق الحجم فان حكومة فينسيا

النبلاء حتى يستمتع بمبادئ ومثل الحكم الجمهوري التي كان المفروض ان جمهورية جينيف تشارك روما القديمة فيها وأن يصبح مواطنا بطلا وقد بلغ تعليم الصبي روسو مداه عندما درس على ايدي والده كتابات بلوتارك Plutarch من حياة الابطال ، ويقول لنا عن ذلك في اعترافاته «لقد اصبحت انتمى لروما قبل ان ابلغ الثانية عشرة» . والواقع ان قراءاته في آمال بلوتارك كانت قد توقفت وهو في سن العاشرة حين اضطر ابوه لترك جينيف بعد ان تحدى شخصا اعلى منه في المرتبة الاجتماعية ، ودعاه الى المبارزة ، ولذلك فلم يكتف بالالتجاء الى السيف كما يفعل « السيد المهذب » بل انه استخدمه ببراعة ومهارة حين قيل له بانه لا يتنمى الى فئة « السادة المهذبين » . وترتب على نفى ايزاك روسو من جينيف وخروجه بالتالي من حياة ابنه ان اصبح جان جاك روسو مسئولاً مع خاله الكولونيل برنار Bernard حيث تربى مع ابن خاله ابراهام Abraham تحت رعاية راعي كنيسة كالفاني في قرية خارج اسوار المدينة .

ومضت الامور على ما يرام حتى حان موعد تحديد مستقبلهما ، وتقرر ان يكون ابراهام ضابطا بالجيش كوالدة ، بينما ارسل جان جاك روسو الى حي سان جرفيه البرولتيارى ليتدرب على الحفر مع عامل شرس الطباع « كان ابراهام يعيش في الاحياء الراقية اما انا فلم اعد اكثر من ولد بائس يتمرن في سان جرفيه ، وبذلك لم تعد هناك اى مساواة بيننا رغم مولدنا ، اصبحت استمرار علاقتنا امرا يحط من قدره » .
(pléiad, vol 1, p. 42)



وكما حدث لوالده فقد غدرت به الدنيا ، وكما حدث لوالده ايضا لم يعد يحتمل الوضع ، فهرب هو الآخر من جينيف ، وكان المخرج

ليست اكثر ارسقراطية من حكومتنا من اية وجهة . والفرق الوحيد هو انه لا يوجد عندنا رئيس للدولة يتولى منصبه مدى الحياة ، وبالتالي فاننا لا نحتاج لنفس طريقة الانتخاب الجماعي The Social Contract, Penguin 1968 هذه الفقرة هي التي اطلق عليها فولتير Voltaire عبارة « الكذب المنفصاة fausseté révoltante بل انه يمكن ان نتخيل مدى السخط الذي اثاره هذا الكلام في نفوس اهالى جينيف ذوى الكبرياء . فاذا كان فولتير دهش لما قاله روسو من ان فينسيا لم تكن اكثر ارسقراطية من جينيف فلا شك انهم دهشوا لما قاله من ان جينيف لم تكن اقل ارسقراطية من فينسيا .

وقد يكون من الخير ان نتذكر هنا ان ذكريات روسو عن النظام الاجتماعي في جينيف لم تكن بالسعيدة .



ولقد ولد روسو لعائلة لها جذورها البرجوازية العميقة وقد وصفها هوبان « اسلوب سلوكها كان يميزها عن سلوك العامة » ولكن والده الذي كان قد تزوج بمن تعلوه في الطبقة الاجتماعية اخذ يتدهور بسرعة ، وانتقل بالفعل من المنطقة العالية في جينيف « حيث تقطن عائلات الطبقة الراقية » الى دائرة ابرشية سانت جرفيه St. gervais المنخفضة والتي تسكنها الطبقات العاملة .

اما جده دانييل روسو Daniel Rousseau فكان سياسيا مشاغبا وكان يؤيد المعارضة الشعبية ضد احتكار النبلاء للحكم ، والظاهر انه كان يشعر بالارتياح بين جماعات الحرفيين الراديكاليين ، وذلك يعكس ابيه اسحاق روسو Isaac Rousseau الذي كان يعتبر نفسه ارسقراطيا سلبت منه حقوقه . ولكنه بدلا من ان ينضم الى الراديكاليين في تبرمهم من ظلم الحكومة عكف على تنشئة ابنه كاحد

الوحيد أمامه هو ان يغير مذهبه الدينى ، وقد فعل ذلك فى دوقية سافوى على حدود جينيف ، حيث كانت الحركة المضادة للإصلاح الدينى لا تزال نشطة على ايدى المبشرين الكاثوليك الذين كانوا يبحثون عن الشبان الهاريين من سويسرا الكالفانية ، ليعملوا على تحويلهم الى الكاثوليكية .

وكانت سافوى لا تزال مجتمعا اقطاعيا ، ولقد لجأ روسو الى الطبقة الارستقراطية هناك ، فذهب فى اول الامر الى اسقف كونفنيون Confinon (على ما يذكر هو نفسه لنا) لانه كان يعرف انه يحمل دماء نبيلة .

وثناء تنقلاته بين كونفيتون وانيس Annecy كان روسو يقترب من اسوار قصور الاقطاعيين وهو يحلم بإمكان تكوين صداقات مع صاحب وصاحبة القصر والزواج من ابنتهما ، ويقول روسو انه لم يشعر بأى ميل جنسى نحو فتيات الطبقات الدنيا ، ولم يكن يعجبه الا اللائى يرتدين الملابس الانيقة ويصففن شعرهن بعناية ويمتلكن بشرات رقيقة ، ولقد اساء وصف جميع الفتيات العاملات بل اللائى تعرض لهن فى «الاعترافات» وحتى بنات الطبقة الوسطى ايضا لم يحركن فيه اى مشاعر او عواطف طيبة ، وانما كانت احلامه تدور دائما حول فتيات الطبقة العليا ولذا فقد كان من الغريب ان ينتهي به الامر الى ان يعيش مع عشيقة أمية تعمل فى احدى المغاسل .

ومع ذلك فلم يضع بحثه عن المجتمع الارستقراطى فى سافوى وييدمون هباء ، ففى تورينو استخدمه كونت جوفون Comte de Gouvon فى قصره كتابع ، ثم اتخذه ابن الكونت سكرتيرا له ، وبدأ يعلمه كيف يتدوق الادب .

وعندما عاد الى سافوى استقر به المقام مع

المرأة التى احسنت له ومدت اليه رعايتها بحيث اصبحت أماله بالتبنى ، وهى البارونة دى وارين Baronne de Warens

وصحيح ان مدام دى وارين لم تكن تشغل مركزا مرموقا فى الارستقراطية الأوروبية ، فاللقب الذى تحمله كان حماها قد اشتراه لزوجها مع ضيعته فى فود Conton de vaud وقت زواجهما ، ولكن اللقب سقط عنها حين باع زوجها الضيعة بعد ان هجرته وحطمتها ماديا ، ولم يعد يطلق على نفسه لقب البارون ، الا ان التظاهر بانها بارونة كان امرا هاما بالنسبة للدور الذى كانت تلعبه فى دوقية سافوى باعتبارها سويسرية مرتدة تساعد فى تحول الآخرين الى الكاثوليكية بتعزيد مالى من ملك ساردينيا واسقف انيس .

وقد كان لمدام دى وارين سمعة سيئة ، اذ كانت امرأة مغامرة بغير شك ، كما ان اخلاقياتها الجنسية كانت تتعارض مع وقار الطبقة الوسطى . ومع ذلك فقد كانت سيدة كريمة جدا وعلى درجة عالية من الثقافة . لقد علمت روسو والواقع انها هى التى زودته بالتكوين العقلى الذى ساعده على ان يصبح الكاتب الذى نعرفه . ولكنها مع ذلك لم تسهم كثيرا فى اعداده السياسى ، اذ كان تصورهما للسياسة محدودا للغاية ، ولم تكن السياسية بالنسبة لها اكثر من مجموعة من المؤامرات ، ومن هنا فقد عملت على كسب المزيد من ثقة ملك ساردينيا عن طريق الانغماس فى عمليات التجسس ، وعلى اى حال فخلال المدة التى عاشها مع مدام دى وارين فى سافوى ، تلك الدوقية التى اصبحت مجرد مقاطعة من مملكة ساردينيا يحكمها البيروقراطيون والنظار الايطاليون ، كان روسو بعيدا كل البعد عن اى شيء يمكن ان يطلق عليه كلمة سياسة .

وعلى اى حال فحين بلغ روسو السابعة والعشرين انتقل ليقضى عاما فى مكان اكثر

يكون عضوا في الهيئة التي تحكم تلك الجمهورية، ثم يتطرق الى أشياء أخرى كثيرة مثل قوام « لقد تعلمت احترام النبالة اللامعة » وانه ليس ثمة خير في مجتمع يتضاءل فيه عدم المساواة بين مختلف المستويات « ولكنه يضيف بعاطفة مشبوبة خليقة بالتقدير بأنه « بينما ينظر بتواضع الى هؤلاء الذين يعلنونه في المرتبة أو نبل المولد فانه يأمل على الاقل في أن يتساوى معهم في الفضيلة » .

وبالطبع فليس هناك من يلتزم بالصدق والامانة عند كتابة الشعر ، ولكن هذه الايات تعطينا فكرة عما كان يشعر به اثناء فترة اقامته المبكرة بفرنسا مصادقا نبلاء ليون . وفي باريس التقى بالنظرية السياسية لجماعة الموسوعيين « ومن المؤكد ان جميع هؤلاء الموسوعيين لم يكونوا يعتنقون نفس الآراء السياسية ، وان كانت النظرية الاساسية التي تميزهم جميعا هي تلك التي عبر عنها فوليتير بطريقة معتدلة ، بينما عبر عنها بارون هولباخ d, holbach في كثير جدا من التطرف ، وهي نظرية الاستبداد المستنير ، وقد تأثر الموسوعيون كثيرا ببيكون Bacon (صحيح أنهم تكلموا كثيرا عن لوك ، ولكن بطلهم الحقيقي لم يكن لوك ودعوته الى النظام الدستوري المتحرر ، وان كان بطلهم هو بيكون بخطته الجذرية للقضاء على الدين والفلسفة التقليدية واستبدال حكم العلم والتكنولوجيا بهما بقصد تحسين حياة الانسان على الارض ، كأن العلم يعتبر هو مخلص البشرية ، وكانت خطه ببيكون هي أن يجعل جيمس الاول حاكما مستبدا يسخر قواه المطلقة للحكم بأسلوب علمي حسب ارشادات ببيكون نفسه ، وكانت هذه هي « البضاعة » التي حاول فولتير وهو لباح ود يدور بيعها للملوك الآخرين ، مثل فريدريك الثاني في بروسيا ، وكاترين

اثارة للفكر ، وهو مدينة ليون في فرنسا ، وهناك ساعده الحظ في ان ينخرط مباشرة في حركة التنوير الفرنسي

The French Enlightenment

فقد اصبح المعلم الخصوصي لعائلة مسيودي ما بلي M. de Mably الذي كان له اخان هما آبيه دي كونديال Abbé de condillac الفيلسوف الشهير ، الذي كان يعتبر من اتباع فلسفة لوك Lock وآبيه دي ما بلي Abbé de Mably احد رواد النظرية الاشتراكية . وعندما ذهب الى باريس بحثا عن المال والشهرة وهو في الثلاثين من عمره اصبح صديقا حميما لدنيس ديدرو Denis Diderot ناشر الانسيكلوبيديا Encyclopédie .



وقد تحدد تفكير روسو في السياسة بعد ذلك في نطاق نوعين من المؤثرات هما خبرته في الحياة في إحدى الممالك الكبيرة ، واصطدامه بالآراء السياسية لفلسفة التنوير ، وان كان ينبغي ان نتذكر انه كان قد درس أيضا في مكتبه مدام دي وارين اعمال كثير من الفلاسفة السياسيين من أمثال هوبز Hobbes و لوك Locke ويوفند ورف Pufendorf و بيرلا ماكي Burlamaqui ولكنه ادرك اتجاهاته « الجمهورية » ، وشعر بكيانه كأحد مواطني جنيف ، وبغريته عن عالم الملوك والأمراء اثناء اقامته في بيت مسيو ما بلي في ليون .

وقد عبر عن هذا كله في قصيدة كتبها لاحد اصدقائه في ليون وهو الجراح باريسو Pairsot وفيها (Pléiade, Vol, pp1136-44) يصف نفسه بأنه ولد حرا وانه بفضل مولده كمواطن في جنيف ، له الحق في أن يشارك في السلطة العليا ، وان

الديبلوماسية ، وانه يمارس مهنة ارستقراطية في خدمة اعظم ملك في أوروبا ، ولكن لم تكن هذه هي نظرة السفير اليه ، اذ كان يعتبره « كاتب » خاص له لا يعلو مركزه الا قليلا عن مركز الوصيف .

ولم يكن « صاحب السعادة » بالرجل السهل الهين ، ولذا كان يملكه الفيط حين كان روسو يتصرف كما لو كان زميلا له بالسلك الدبلوماسي ، كأن يمد جسمه بعظمة على مقاعد السفارة او يطلب ان يوضع قارب (جندول) السفارة تحت طلبه . ولقد تبادل الرجلان الكلمات اللاذعة ، وقبل ان يمر عام كان روسو قد طرد من عمله بطريقة مهينة للغاية ، ولكنه كان على اى حال قد امضى من الوقت ما يكفى لمعرفة كيف كانت فينيسيا تحكم ، وليبدأ في تأليف كتابه عن « النظم السياسية » وهو الكتاب الذى ادى الى نشر كتاب « العقد الاجتماعى » فضلا عن توفير الوقت له للتعرف على الاوبرا الايطالية ولذوقها . ومن ناحية اخرى ، فان حظ روسو تبدل تماما بمجرد عودته الى باريس ، فقد وجد وظيفة طيبة كسكرتير عند عائلة اقطاعى واسع الثراء يدعى دوبان Dupin عاش معهم في اجمل قصور فرنسا على الاطلاق وهو قصر شينو نصو Chenonceaux وقام بنشر عدة اعمال من الموسيقى ، كما الف بعض الاوبرات والباليهات ، وكتب عددا من المسرحيات ، بل انه قام باعداد احد اعمال فولتير للمسرح . والواقع انه كان يسير فعلا في طريقه لتحقيق المجد والثراء اللذين كان يأمل فيهما بوصفه احد مفكرى عصر التنوير ، وانه يعيش في كنف المجتمع الباريسي البورجوازي الثرى الذى فتح له ذراعيه .

العظيمة في روسيا . ولم يصادف يكون اى نجاح في انجلترا حيث كان الناس يتمتعون بعقلية سياسية متمسكة بحقوقها المدنية وبالقانون والبرلمان ، لدرجة يستحيل معها التحول الى اى نظام استبدادى . اما في فرنسا حيث لم تكن هناك هيئات انتخابية ولا حريات فقد كان لمبدأ الاستبداد المستنير خاصة جاذبيته الشديدة بالنسبة للعقلية البورجوازية ، وقد كانت سياسة الاستبداد المستنير في نظر فولتير على اية حال تتفق اتفاقا تاما مع مصالح البورجوازية ، كما انه كان يعتبر الكنيسة وطبقة النبلاء اكبر اعدائه .



عندما وصل روسو لباريس اول مرة عام ١٧٤٢ يحدوه الامل في كسب الشهرة والثروة ، وكان في الثلاثين من عمره ، وقع هو وصديقه ديدرو في هذا الفيضان من ايدولوجية التنوير والتطلعات البورجوازية ، التى لم يلبث ان ابتعد عنها ورفضها كجزء مما اسماه « بالاصلاح » ثم بمرحلة هامة جدا في تكوينه السياسى ، وذلك حين عمل لمدة سنة بين سن الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين سكرتيرا للسفير الفرنسى في فينيسيا الكونت دى مونتاجى Comte de Montaigu ومع انها لم تكن تجربته سعيدة باى حال الا انها كانت مفيدة للغاية .

وقد كان السفير الفرنسى ضابطا كبيرا متقاعدا ، ولكن لم تكن له اى مؤهلات او قدرات دبلوماسية ، وكان روسو يتصف بالكفاءة وسرعة الخاطر والذكاء ، كما كان يجيد اللغة الايطالية ، ولذا القيت عليه اعباء سكرتارية السفارة ، وذلك في فترة كان يتطلع فيها الى النجاح ويسعى الى المجد والثراء .

اشترى روسو لنفسه ملابس باريسية انيقة ، وتخيل نفسه احد رجال السلك



لم يجعل الانسان اكثر سعادة ولا اكثر شرفا . فالفضيلة ، حسب رايه ، لا توجد في المجتمعات البسيطة حيث يعيش الناس حياة البساطة البعيدة عن التعقيد ، بينما افسدت الثقافات الاكثر تعقدا حياة الانسان ، فكلما زاد التعقيد زاد الفساد ، وقد استعان روسو بأراء افلاطون ليعضد قضيته او ام يكن افلاطون هو القائل بأن المعرفة العلمية ليست معرفة على الاطلاق ، وانه هو الذي نفى الشعراء والفنانين من الجمهورية الفاضلة؟

وكانت كل هذه الحجج في نظر ديدرو - وهو رجل مرح ومتسامح - مجرد متناقضات مسلية ، ولا ينبغي اخذها بجدية تامة ، ولكن كان من الواضح ان اى شخص يأخذ هذه الامور مأخذ الجد لم يكن يستطيع ان يستمر في نفس الوضع الذي وضع روسو نفسه فيه كأحد مثقفي حركة التنوير من ناحية ، وكباحث عن المجد والشهرة من الناحية الاخرى . ولذا لم يكن ثمة مناص من حدوث تغيير جذري في حياته ، وبخاصة بعد فوزه بجائزة ديجون وذيوع افكاره بين الناس . وكانت اول خطوة اتخذها هي الاقلاع عن طموحه في تكوين ثروة ، وترك الوظيفة التي كان يشغلها في مكتب صديقه الثرى دوبان دى فرانكرى Dupin de Francueil وهي وظيفة كانت ستضمن له انتفاخ جيوبه بالمال . ولا بد ان روسو كتب اثناء هذه الفترة واحدا من اقل مقالاته شهرة ، واكثرها امتاعا وهي « مقال عن الثروات Discours sur les richesses »

وتوجد هذه المقالة ضمن مخطوطات روسو في المكتبة العامة بنيوشاتل Neuchâtel في سويسرا ، حيث قام بجمع اجزائها أحد امناء المكتبة السابقين ويدعى فليكس بوفيه

وحين بلغ روسو السابعة والثلاثين اعتراه ذلك « الالهام » الشهير الذي جعله يغير اسلوب حياته تماما، فكل من قرأ « الاعترافات » لابد وان يتذكر القصة التي سردها عن زيارته لديدرو في فانسيه Vincennes حيث كان ديدرو مسجوناً آنذاك واكتشافه اثناء الطريق اعلاناً من جائزة تمنح في ديجون Dijon لمن يكتب مقالا حول اذاما كان احياء العلوم والفنون قد اسهم في تحسين اخلاقيات الانسان ، وادراك روسو بسرعة ان هذا التقدم قد ادى على العكس من ذلك الى افساد هذه الاخلاقيات . ولم يكن روسو يستطيع عند هذا الحد ان يسيطر على نفسه ، فضلا عن ان يواصل السير فجلس تحت شجرة واخذ في البكاء .

وكانت النتيجة كتابة « مقال » عن الموضوع نال عليه جائزة ديجون التي اكسبته شهرته الخالدة . وقد شجعه ديدرو على دخول المنافسة ، ولكن المقال كان هجوما مدعما بالاسانيد على كل ما كان ديدرو يؤمن به ، وعلى كل ما كانت « الموسوعة » تهدف الى نشره والارتقاء به . ولم يخرج ما قاله روسو في هذا المقال عما كان غيره قد قالوه من قبل ، ولكن ليس بمثل بلاغته ، وذلك فضلا عن تزمته ورجعية آرائهم بينما كان هو أحد أعضاء جماعة « الانسكلوبيديين » ومن أهم الذين اسهموا في ذلك العمل الذي اشرف ديدرو عليه .



كان شيئا ملحوظا ان يهاجم أحد الراديكاليين افكار بيكون ، اذ ذهب روسو الى ان العلم سيؤدي الى دمار الانسانية ، وليس الى انقاذها . وان التقدم ما هو الا مجرد وهم ، او ان تطور الثقافة الحديثة

Félix Bovet مع الذى قام بنشرها عام ١٨٥٣ مع حذف بعض العبارات عن طريق صاحب مكتبة صغيرة في باريس ، ولكن لم يعد طبعها بعد ذلك حتى في الطبقات التى تدعى أنها تضم أعمال روسو الكاملة ، أما المقال فهو حديث موجه لشخص يدعى كريستوفيل Chrysophyle (وهو روسو نفسه بدون شك) ويقوم على محاولة اقناعه بالتنازل عن مشروعاته لتكوين ثروة ، ونعلم من المقال أن كريستوفيل هذا يرغب في أن يصبح غنيا لتكون لديه الوسيلة للعمل على ما فيه خير العالم ، أى أنه سيستخدم ثروته لتخفيف آلام أخوته في البشرية الذين كانوا أقل منه حظا في الحياة ، ويدعى الكاتب أن هذا المشروع هو من المشروعات التى لا يمكن تحقيقها بحال ، أولا لان الانسان الفقير سيجمع ثروته عن طريق ادخار كل مليم يحصل عليه ، وهو ما ينمى فيه صفة البخل ، وهذا معناه أنه لكي يستعد للمستقبل البعيد ، حيث يعطى بغير حساب ، فإنه يتعين عليه أن يكون غليظ القلب ولا يسمح بالجود والعطاء ، وحين يقترب فجر هذا المستقبل البعيد ، ويصبح هذا الشخص ثريا ، فإنه لن ينظر للعالم من منظور الرجل الفقير .

فالانسان الفقير يدرك شرور الفقر لانه فقير ، ولكن حين يصبح غنيا فلن يكون هناك ما يجعله يشعر بهذه الشرور والمتاعب . ثم ما هي الوسائل التى سوف يتمكن بها من تكوين تلك الثروة ؟ فقد يمكن للرجل الفقير أن يكون امينا ، كما يمكن للشخص الذى ولد غنيا أن يكون امينا ، ولكن من الصعب جدا أن يظل المرء امينا اذا كرس حياته لجمع الثروات ، لان اسهل الطرق للحصول على الربح هي في العادة أقلها اعتمادا على الاخلاقيات وعليه توصيل روسو الى ان فكرة ان يصبح

المرء ثريا ليعمل الخير هي فكرة مستحيلة ، لان المجهود الذى سيبدل في تكوين الثروة سيحرم الشخص من الرغبة في الاحسان ، بمجرد اكتسابه القوة الكافية لفعل ذلك .

ومن المهم ان نلاحظ ان هذا المقال ليس هجوما على الثروة الموروثة ، ولا على قيم الارستقراطية ، بقدر ما هو هجوم على البورجوازية الطموحة ، التى تميل الى الاستيلاء على كل شيء وعلى الناس الذين صاحبهم روسو في سنوات حياته الاولى في باريس من امثال عائلات دوبان وبوبليشير Poplinères وبالطبع على مفكرى البوراجوزية الاغنياء ، امثال هولباخ وفولتير والذى يدعونا الى الاعتقاد بأن روسو كان يوجه المقال لنفسه هو ، أنه كان حتى ذلك الحين يعتبر محاولات لجمع المال على انها وسيلة تهدف فقط الى تقديم المساعدة المالية للسيدة التى رعته من قبل ، وهى مساعدة السيدة الفاضلة مدام دي وارين ، وذلك في سنوات مرضها وحاجتها ، فلم يكن روسو يرغب قط في جمع المال لنفسه .

ويذكر لنا روسو في الاعترافات أنه في فبراير ١٧٥١ « نبذت الى الابد كل افكارى عن الثراء والتقدم في العالم » Pléiade, Vol. 1, P. 362 « ولكن مما يدعو للسخرية انه بمجرد ان نبذ تلك الافكار عن جمع الثروة اكتسب شهرة واسعة ، ولم يكن هذا بسبب كتابته لمقال الفنون والعلوم الذى نال عليه الجائزة ، بقدر ما ترجع الى كتابته في الموسيقى او بالاحرى الى قيامه بالدور الرئيسي في الجدل الذى ثار حول الموسيقى ، والذى الهب باريس في أوائل الخمسينات من القرن الثامن عشر 1750 وكان غريمه هوجان فيليب رامو Jean- Philippe Rameau .

الموسيقى ، ولما كان رامو لا يعرف أصول اللبابة فانه لم يكن يتردد في أن يعلن هذا الرأي بصراحة .

الا ان رامو وجد في روسو خصما اكثر عنادا مما كان يتوقع ، فعندما اشتبك الاثنان في ذلك الجدل حول الموسيقى كان يبدو لاول وهلة انهما غير متكافئين ، على اعتبار أن رامو كان عالما بارزا بينما كان روسو هاويا علم نفسه الموسيقى بنفسه ولكن النزاع لم يكن موسيقيا فحسب بل كان ايضا ايدولوجيا ، ولذا فقد استطاع روسو أن يصمد بكفاءة أمام رامو ، واذا كان هناك فائز فقد كان هو روسو بالتأكيد .

بل وحتى في مجال الموسيقى فقد اثبت روسو انه منافس حقيقي لرامو فعندما عرضت أوبرا روسو «عراف القرية le Devin du village» في فونتينيلو Fontainebleau في اكتوبر ١٧٥٢ رغم كل محاولات رامو لاسقاطها لقيت كثيرا من الحظوه والمكانة لدى الملك والبلاط، ثم اصبحت فيما بعد ذات شعبية جارفة في اوبرا باريس . الا أن العمل الذي ثبت اقدم روسو كمنافس رئيسي لرامو في تلك المساجلة الموسيقية في الخمسينات من القرن الثامن عشر كان مقال بعنوان « خطاب عن الموسيقى الفرنسية Lettre sur la musique française » الذي ظهر في عام ١٧٥٣ ، وقد اثارت هذه المساجلة الموسيقية ، التي كانت تسمى أحيانا « معركة المهرجين La querelle des Bouffons » لانها كانت بين عملاقين يمثلان مدرستين مختلفتين للاوبرا .

والواقع ان روسو يزعم في (الاعترافات) ويكثر من الجراة ان ذلك النزاع حول الموسيقى ساعد على تحويل اذهان الناس عن الازمة الدستورية الناشبة بين الحكومة الملكية

ولد رامو في ديجون Dijon عام ١٦٨٣ وبهذا كان اكبر من روسو بنحو ثلاثين عاما . وبعد أن درس الموسيقى في ايطاليا وتنقل في عدة مناصب كعازف أرغن في الكنيسة في مناطق مختلفة من فرنسا حتى بلغ التاسعة والثلاثين ثم استقر في باريس ولح اسمه مع مؤلفه عن « دراسة في تناسق الالحان » وقد جذب هذا الكتاب اهتمام عائلة بويلنيير Poplinière وهم من أغنى رعاة الفنون من البورجوازيين ، وقد ساعدت هذه الرعاية رامو على أن يكرس كل وقته للتأليف . وكان رامو رجلا يثير الضجر والنفور ، ولكن عبقريته كانت من النوع الذي يفرض الاحترام على الجميع ، فقد كان مؤلفا موسيقيا عظيما وناجحا ، وقد كتب نحو ست اوبرات عرضت كلها في باريس في بحر اثني عشر شهرا (١٧٤٨ - ١٧٤٩) الى أن نجحت مدام دوبو مبادور Madame de Pompadour (التي كانت تكرهه) في قصر اخراج اوبراته على اثنتين في السنة . ولا تزال اعمال رامو تعرض بالطبع حتى الآن وتثير كثيرا من المتعة ، وفضلا عن ذلك فقد كان رامو عازفا وعالما موسيقيا ، وقد وضعته كتاباته عن الهارموني والجوانب الاخرى من النظرية الموسيقية على رأس المتخصصين في هذا العلم في أوروبا ، اذ كان على درجة من التعليم والمهارة الفنية أعلى من جميع علماء الموسيقى في عصره .

والواقع ان روسو نفسه اشار اشارات قوية جدا الى اعمال رامو في المقالات التي كتبها عن الموضوعات الموسيقية «للموسوعة» تماما مثلما اعتمد على الاعمال المنشورة لهذا الاستاذ الفرنسي العظيم ، في محاولة التعليم أصول النظرية الموسيقية . بيد أن الاحترام بينهما لم يكن متبادلا ، اذ كان رامو يعتبر روسو مشعوذا دجالا وجاهلا بأصول

وبرلمان باريس ، وبالتالي منع نشوب ثورة .

وقد ظهر رامو في هذا النزاع مدافعا ومؤازرا للاوبرا الفرنسية ، بينما وقف روسو في صف الاوبرا الايطالية ، ولم تكن الاوبرا الفرنسية فرنسية فحسب ، وانما كانت اوبرا ملكية واكاديمية وعقلية وعلى درجة عالية من الرقي ، ويرجع ذلك التعقد الى تأثرها بالتقليد الديكارتى عن سمو الرياضيات والتنظيم العقلاني ، كما انها كانت تعكس قيم النزعة الكلاسيكية الفرنسية في القرن ١٧ ، كما كان التناسق هو أهم عنصر في تكوينها الصعب المعقد . كما كانت بالإضافة باهتمامها باظهار المثاليات البوربونية تهتم ببراز المثل البوربونية من المجد ، وهي المثل التي تتمثل في اظهار عظمة الملوك كما لو كانوا آلهة ، فكانت الكائنات العليا تصور على المسرح فتستقبلها الموسيقى الرائعة التي تخاطب العقول السامية ، او التي كانت تثير بضربات الطبول والنحاسات الاحاسيس العسكرية ، باختصار كانت الاوبرا الفرنسية تخاطب الاذن بنفس الطريقة التي يخاطب بها قصر فرساي العين . وعلى اية حال فاننا نتكلم هنا عن عام ١٧٥٢ عندما كان أسلوب فرساي الفخم قد بدا يفقد سيطرته على مشاعر الفرنسيين وقد كان رامو نفسه مجددا مبدعا ، وقد أضفى حياة جديدة على الاوبرا الفرنسية خلال الثلاثينات من القرن الثامن عشر ، وذلك عن طريق ادخال قدر كبير من الرشاقة (والحبكة) على مؤلفاته وازيادة عناصر الرقص التي كانت تنقص الاوبرا الفرنسية قبل ذلك ، وبصفة عامة عن طريق نقل الموسيقى الفرنسية من القرن ١٧ الى ١٨ وحين اتم هذا كله أصبح المدافع المتحمس الاول عن التقاليد الموسيقية التي طورها بمثل هذا النجاح .

ولقد ساعد تصدى روسو للدفاع عن الاوبرا الايطالية ضد الاوبرا الفرنسية على ان يكتسب درجة من الدراية بالموسيقى الايطالية لم تكن تتوفر لمعظم الفرنسيين ، وذلك لانه كان قد سمعها وهو مازال صبيا في السابعة عشرة من عمره ، اثناء تجوله في تورينو حين كان ملك سردينيا يشجع على عزف روائع الموسيقى الايطالية كوسيلة لتجميل عاصمة ملكة ، وفتح ابواب كثير من الحفلات امام الجميع وحين كان روسو يعمل بالسفارة الفرنسية في فينيسيا كان له حق الدخول بالمجان لمعظم دور الاوبرا ، وكان هناك في ذلك الوقت اثنتا عشرة دارا للاوبرا في فينيسيا ، مقابل واحدة فقط في باريس .

• • •

ولكن كيف كانت الاوبرا الايطالية تختلف عن الفرنسية ؟

اولا : وقبل كل شيء بينما كانت الاوبرا الفرنسية تكشف عن درجة عالية من السمو والفخامة كانت الاوبرا الايطالية ذات طابع شعبي واضح ، اذ كانت موسيقاها حائلة وبسيطة ، يمكن لاي شخص ان يتغنى بنغماتها ، بل الواقع ان الناس كانوا يتغنون بها بالفعل في كثير من الاماكن مثل فينيسيا و نابولي ، كما كانت موضوعاتها متواضعة ومألوفة . فالاشخاص الذين كانوا يظهرون على المسرح كانوا افرادا عاديين اكثر منهم آلهة .
La serva padrona لير جولييزي
Pergolesi التي اعدّها روسو بنفسه
للنشر في باريس .

فقد عرضت اولاً في نابولي عام ١٧٣٢ في الوقت الذي لم يكسب مسرح باريس يالف

أن التوزيع الموسيقى يجب أن يتنوع حسب ما تعبر عنه ، وبهذا فهو يدافع عن الحرية الرومانسية في الفن ضد الاصرار العقلاني على وجود قواعد جامده . ومن ناحية اخرى فبينما كان رامو يزعم ان « الهارموني » هو العنصر المركزي في الموسيقى ، وانه يعكس مبادئ التناغم والتناسق في الطبيعة ذاتها كان روسو يؤكد ان الميلوديا Melody هي ما يهم في الموسيقى ، بينما لا يعدو الهارموني ان يكون تكويننا مصطنعا ، بل وايضا «مخيفا» من صنع ذهن المؤلف نفسه .

وهنا تواجهنا فكرتان مختلفتان عن الطبيعة، فعندما كان رامو يتكلم عن الطبيعة فقد كان يفكر في الطبيعة كما تبدو في الفيزياء النيوتونية وايضا الفيزياء الديكارتية : أي تناسق العوالم والنظام الثابت للكون ، اما الطبيعة ، بالنسبة لروسو ، فهي ما نراه في الحقول والغابات من شدة الطيور وغناء الفلاحين ، فهي الطبيعة من حيث هي تقابل الثقافة أكثر مما هي الطبيعة (كما يراها رامو) التي هي أعظم نتاج لله ، وكما يفهمها العقل الفلسفي ، فإراء روسو وحججه كانت موجهة في المحل الاول ضد العقلانية الديكارتية ، كما كان يعتنقها رامو ، واذا كنا نتكلم عن هذه المواجهة على انها ايديولوجية أكثر منها فلسفية فان ذلك راجع الى أن العقلانية الديكارتية كانت في تلك الفترة في التاريخ الفرنسي تأخذ شكلا ايديولوجيا كنسق للقيم الثقافية ، يستخدم في تدعيم سلطة الكنيسة والتنظيم الجامد للنظم الملكية ، والتدرج الطبقي في المجتمع .

وكان الموسوعيون الآخرون منهمكين في مهاجمة العقلانية الديكارتية لأغراض أخرى ، مستعنيين في ذلك ببعض الافكار الفلسفية المستمدة أساسا من الفلسفة التجريبية

تجديدات وابداعات رامو . وتدور هذه الاوبرا الرقيقة على شخص اعزب من نابولي يقع نتيجة للخداع في حب خادمتها ، ولكن الامر ينتهي نهاية سعيدة بالزواج منها . والمغزى من هذه القصة هو ان الخادمة ، ليست اقل من سيدتها في شيء ، ولكن الامر يحتاج من الرجل ان يفتح عينيه .

هذه الرسالة التي تدعو للمساواة ، والتي تحملها اوبرا بيرجوليزي ، أثارت الفرع بين الاوساط المحافظة في باريس . والواقع أن طرفي النزاع في « معركة المهرجين » اتخذوا موقفهما منذ البداية على أسس ايديولوجية متميزة ، بحيث نجد الفريق الذي كان يدافع عن الاوبرا الايطالية كان يضم معظم العناصر الليبرالية والتقدمية، ومن بينهم «الموسوعيون» وكان هؤلاء جميعا على استعداد لان يتقبلوا كل ما هو جديد ، وأكثر ديمقراطية ، وكل ما من شأنه ان يساعد على الابتعاد عن المتيازات الديكارتية، وعن تقديس البوربونيه لفكرة المجد ، التي يدافع عنها المحافظون .

ومما يدعو للسخرية ان يبدو روسو رئيسا للصف في جماعة التقدميين ، في نفس اللحظة من حياته التي كان مقاله عن الفنون والعلوم يعلن رفضه ونبذ لكل الفلسفة التقدمية . ولكن يجب أن نتذكر أنه بينما كان روسو يعارض رامو على أسس ايديولوجية ، وكذلك على أسس موسيقية بحتة ، فانه لم يكن يصدر في ذلك من موقف « ليبرالي » بل من موقف رومانسي ، ولا بد لنا بذلك من أن نأخذ في الاعتبار ما كان روسو يقوله بالفعل وليس ما نعتقد أنه كان يقوله .

وكان رامو يجادل حسب الاسلوب الديكارتى بأن هناك قواعد ثابتة يمكن تطبيقها على كل التعبيرات الموسيقية ، بينما كان روسو يرى

البريطانية . فهجوم فولتير واصدقائه على ديكاوت كان هجوما سياسيا يكاد يكون سافرا . وقد تدخلوا في « معركة المهرجين » لمجرد مهاجمة ركن آخر من أركان الثقافة الديكارتية ، ليس بسبب عقلانياتها ولكن بسبب تزعتها المحافظة ، وكانوا يكتبون كأحرار ليبراليين على العكس من روسو . ولا سبيل الى ان نخطيء في ادراك ذلك لو اننا القينا نظرة على احد المنشورات التي أسهمت في ذلك الصراع الفكري ، وقد كتبها المحرر المشارك للموسوعة وهو دالمبير D'Alémbert بعنوان De la liberté de la musique « عن حرية الموسيقى » وفيها يقول : « ان الحرية في الموسيقى تعني حرية الشعور ، وحرية الشعور تعني حرية التفكير ، وحرية التفكير تعني حرية الفعل ، وحرية الفعل تعني دمار الامم ، واذا اردنا ان نحافظ على المملكة فيجب علينا ان نحافظ على الاوبرا على ما هي عليه ، كما ينبغي علينا ان نضع قيودا على الترخيص بالفناء اذا اردنا ان نتجنب وضع القيود على الترخيص بالكلام (D. launay, ed.,)

La querelles des Bouffons, genève, 1973, vol. III, pp. 2216-7)
لقد كان المتكلم هنا هو دالمبير وليس روسو . فلقد كان الفيلسوفان يقفان على نفس الجانب في « معركة المهرجين » ولكنهما كانا هناك لاسباب مختلفة . لقد كان الاثنان يدركان البعد السياسي للمعركة . ويكتب روسو في « الاعترافات » : « لقد انتهى بي الامر الى ان ارى ان كل شيء مرتبط بالسياسة ارتباطا وثيقا ، واننا مهما حاولنا فلن تكون أية أمة شيئا اكثر مما يصنعه نظام حكومتها » (Pléiade. vol. I. p. 404)



ولكن ماهي بالضبط وجهة النظر السياسية

التي يريد روسو ابرازها ؟ من المهم ان نقارن هنا نص الاوبرا التي حققت له كل هذا النجاح في باريس سنة ١٧٥٢ وهي اوبرا « عراف القرية » باوبرا بيرجوليزي « السيدة الخادمة » ففي اوبرا بروسو نجد راعية الغنم كوليت collette حزينة لان خطيبها كولان Colin هرب مع سيدة ارسقراطية فتلجأ كوليت الى عراف القرية فيشير عليها بالطريقة التي تكفل لها عودة حبیبها . وتتبع نصيحته ويعود الراعي الى حبيبته الراعية في آخر الامر ليعيشا في هناء . فهذه قصة تختلف تماما عن « السيدة الخادمة » التي تظهر الخادمة على انها العروس التي تناسب سيدها ، فالقضية الاساسية في اوبرا روسو هي ان المرء يجد الحب بين من هم على شاكلته ، وانه من الخطأ ان يحاول المرء تجاوز حدود طبقته فهل يستغرب اذن ان نجد ان « عراف القرية » أصبحت إحدى الاوبرات المفضلة لدى الملك ومدام دي يومبادور ذلك ان الملك لم يكن يستمتع كثيرا بسماع الموسيقى بينما كانت مدام دي يومبادور تكره موسيقى رومو لانها كانت رفيعة المستوى للغاية ، ومن هنا كان اسلوب روسو (التطريبي) اقرب الى نفسيهما .

وقد نجم عن ذلك موقف آخر غريب اذ كان المحافظون يريدون اوبرا تقليدية لانها هي « الاصوب » بينما كان الملك واصفياؤه يفضلون الاوبرا italiamte المتأثرة بالطابع الايطالي الجديد لانها اكثر امتاعا .

ولم يكن موقف روسو اقل تناقضا ، فهو يقدم في « عراف القرية » موسيقى ليبرالية ان صحت هذه التسمية - مع « نص » محافظ واستطاع بذلك العمل ان « يغزو » جمهورا « لم يكن من المستطاع اقناعه عن طريق الحجج

دى بوفلير Bonfflers التى وقع في حبها بطبيعة الحال . فهل كان من التناقض واللامنتقى ان يجد السعادة والرضى بين العائلات النبيلة العريقة بعد أن أدار ظهره للبورجوازية والملك ؟ لا اظن ذلك .

ولروسو شهرة بانه بنى الديمقراطية والمساواة، ولكنه كان يفضل عليها الارستقراطية، وان لم يكن هذا واضحا للعيان في معظم الاحيان . وتقوم شهرته كأحد الدعاة للمساواة على مقاله (الثانى) عن « أصول عدم المساواة » ولكنه يفتتح ذلك العمل باهداء الى جمهورية جنيف يتضمن هذه الجملة الطريف interesting

« لما كان من حسن حظى ان اولد بينكم لم يكن ثمة مفر حين افكر في المساواة التى اوجدتها الطبيعة بين البشر، وفي عدم المساواة التى اقاموها هم انفسهم فيما بينهم ، من ان لاحظ كيف تمتزج الاثنتان معا بطريقة رائعة في هذه الدولة ، وترتبطان بطريقة تقربهما من القانون الطبيعى قريبا شديدا ، بحيث يفيد منهما المجتمع اكبر فائدة مما يؤدي الى المحافظة على النظام العام والى سعادة الافراد (Pléiade, vol. III. p. III)

وثمة ميل طبيعى لتجاهل هذه المقدمة واعتبارها مجرد اطناب لا معنى له ، لانها كتبت اثناء المحاولات المستمرة التى كان يقوم بها روسو في صيف ١٧٥٤ كى يسمح له بالعودة الى الكنيسة الكالفينية الراسخة في جنيف ، ويسترد بالتالى حقوقه كمواطن في تلك الجمهورية . ومن العسير ان تقبل ان روسو كان يؤمن حقا في كمال النظم السياسية والاجتماعية في جنيف ، خاصة . وانه هو نفسه قد قاسى الأمرين منها . الا ان هذه العبارة التى اقتبسها تكفى لتوضيح آرائه عن

والجدل ، ولكن هذا الفوز الذى لم يكن يرغب فيه سبب له كثيرا من الحرج ، لان روسو لم يمل الى الملوك ، كما لم يكن يرغب في أن يصبح من « موسيقى البلاط » وان يكون في خدمة الاستبداد الملكى .

ولقد جلبت له موسيقاه الشهرة ، ولكنها لم تكن نوع الشهرة الذى يتمناه . فقد رفض فرصة كسب المزيد من الشهرة تحت رعاية الملك ، مثلما رفض قبل ذلك بنحو عام فرصة كسب الثروة تحت رعاية احدى العائلات البورجوازية . واضطر مرة أخرى لان يتخذ قرارا جذريا فلم يكتف برفض قبول (معاش) من الملك عن كتابه الموسيقى كلية ، ورغم هذا فقد كان ما كتبه عن الموسيقى كافيا لان يدفع الموسيقى الاوروبية نحو قنوات جديدة ، فبعد روسو اخذت الموسيقى أسلوب موتسارت Mozart والذى تعد مقطوعته Bastien and Bastienne نسخة

معدلة من عراف القرية ، ثم يأتى بعد ذلك كل ما نعرفه عن الموسيقى الرومانسية ، ولقد تبين ان رامو كان نهاية لطراز معين من مؤلفى الاوبرا ، ولكننا لا نستطيع ان نقول ان روسو كان بداية لطراز جديد ، لانه كان مدينا بالكثير لبيرجوليزى ولغيره من المصادر الايطالية ، ومع ذلك فقد كان تأثيره حاسما في اعادة التركيب الموسيقى

ولقد تخلى روسو عن التأليف الموسيقى وعن باريس في وقت واحد ، وكرس كل وقته بعد ذلك للكتابة بينما كان يحيا وحيدا في مونت مورنيس Montmorency ولكنه لم يكن وحيدا بالفعل فاذا كان قد هجر مجتمع الاصدقاء الاغنياء (آل دوبيين وال بوبلنير) فانه وجد اصدقاء جددا في مارشال دوق لوكسمبورج وكونتيسة اوديتو houdetot وكونتيسة

عائلات معينة بالذات ويصفها بأنها « أسوأ الحكومات » .

ويذهب روسو في جدله الى أن الارستقراطية الانتخابية تستمد قوتها ليس من طريقة الانتخاب وانما من الاعتقاد بأن الذين ينتخبون هم الحكماء الاتقياء ، وانهم سوف يظلون كذلك وهذا هو ما يجعل من الصعب تحقيق ذلك في الواقع .

ولعل الصعوبة التي يؤكد بها روسو هنا هي ان هؤلاء الحكماء المنتخبين سوف يتصرفون في سلوكهم وافعالهم عن ارادتهم هم وليس عن الارادة العامة ، ومن هنا يعدل روسو على رايه في ان الارستقراطية الانتخابية هي افضل الحكومات ، بان يقول ان ذلك لا يصدق الا اذا احترم الحكام الارستقراطيون حرية وسيادة الشعب ، ولكن من سوء الحظ ان جميع الحكام يطأون باقدامهم حرية شعوبهم وسيادتها ان عاجلا او اجلا .



وهذا يمثل تناقضا آخر في نظرية روسو السياسية ، فهو لا يؤمن بإمكانية تطبيق ما يدعو اليه ، ففيما يتعلق بالشعب فانه يريد ان يحكموا انفسهم بانفسهم ويقوموا بسن القوانين الاساسية الخاصة بدولتهم ، لان هذه هي الطريقة الوحيدة التي تضمن لهم حريتهم ، مع خضوعهم للحكم ، او بقول اخر هي الطريقة الوحيدة التي تتيح لهم ان يحكموا انفسهم . ولكن بما ان روسو يؤمن بان الاشخاص العاديين لا يملكون من الذكاء والحكمة ما يمكنهم من وضع قوانين مناسبة فهم يحتاجون بالضرورة لمن يتولى عملية التشريع ووضع القوانين لهم ، على ما كان

المساواة ، فقد كان ينكر مظاهر عدم المساواة التي تسود معظم انحاء العالم ، ولكنه لم يكن يرغب في ان تحل المساواة المطلقة محلها ولذا كان يبحث عن ذلك المزيج الصحيح من « المساواة الطبيعية واللامساواة الوضعية » ، اي ذلك التدرج الذي يقترب من القانون الطبيعي قريبا شديدا . وكانت هذه الصيغة في نظر روسو تعنى المثال الافلاطوني القديم ، الذي يقضى بان يحتل كل شخص المكان الذي يجب ان يكون فيه ، وهذه هي الارستقراطية بادق معانيها حيث قد نبذ الديمقراطية بغير مناقشة ، ففي الكتاب الثالث من « العقد الاجتماعي » يقول : « اذا كانت هناك امة من الالهة فانها كانت تحكم نفسها حكما ديمقراطيا ، وهذه حكومة اكثر كمالا من ان تصلح للبشر » .

وفي الفصل التالي يدعي روسو ان الارستقراطية هي افضل الحكومات ، موضحا انه انما يستعمل كلمة « ارستقراطية » بمعنى ضيق محدود . ويميز روسو بين ثلاثة انواع من الارستقراطية ، يسمى الاولى بالارستقراطية « الطبيعية » ويضرب لها مثلا بالمجتمعات البدائية ، حيث يدعن الصغار للسلطة الابوية التي يمثلها رؤساء العائلات كما هو الحال عند الهنود الحمر ، ولكنه لا يقصر وجود (الارستقراطية الطبيعية) على المجتمعات البدائية دون غيرها ، ولكنه يقول انها « تناسب فقط هذه المجتمعات » ثم يتكلم روسو ثانيا عن الارستقراطية « الانتخابية » او « الارستقراطية بالمعنى الصحيح للكلمة » وبينما يذهب الى ان هذه هي افضل الحكومات الممكنة فانه يعلن بصراحة انها « مثال » يصعب تحقيقه في عالمنا الواقعي . واما النوع الثالث فهو الارستقراطية الوراثية او المتوارثة التي تقوم على تراكم الثروة في ايدي

الملايين البورجوازيين في صالونات باريس ،
ومن السهل علينا ان نفهم سبب ذلك .

فالفرنسيون النبلاء الذين ينحدرون من
عائلات قديمة مثل دون لو كسمبورج كان
يمكنهم ان ينظروا خلفهم الى فرنسا كما كانت
قبل ان يدخل اسرة البوربون Bourbon
الملكية الاستبدادية ، وقبل ان يدمر ريشليو
Richelieu قصورهم الحصينة . فقد
كانوا يذكرون فرنسا الاقطاعية حين كان الملك
النبيل سيدا لاتباعه ، وحين كان لا يدين
الا بقليل من الولاء للملك . وبالطبع فان دون
لو كسمبورج وامثاله كانوا اصغر من ان تكون
لديهم ذكريات عن تلك الايام . ولكن مخيلتهم
التاريخية كانت تركز على معلومات اكيدة ،
وتصاحبها مشاعر قوية بالنفور والاستياء من
الملكية المطلقة ، والازدراء لاقاربهم من النبلاء
الذين سمحوا لانفسهم بان يصبحوا من رجال
الحاشية في قصر فرساي ، وللبورجوازيين
الذين تملكوا الكثير جدا من ثروات الامة .

وكانت مواقفهم في الحياة ضربا من
الرومانسية ، فقد كانوا يعرفون ان القاب
الارستقراطية التي يحملونها هي القاب
جوفاء ، لانها تمنحهم بعض المزايا ، ولكن بغير
قوة او سلطة .

كانوا يحتلون مكانة اجتماعية عالية، ولكنهم
كانوا اقل اهمية في المجالات السياسية حتى
من الموظفين والكتبة الذين يخدمون الملك .
فحين عرف دون لو كسمبورج مثلا ان صديقه
وريبه روسو قد كان عرضه لالقاء القبض
عليه لم يملك اكثر من ان يساعده على
الهرب من باب خلفي في حديقة القصر، ويروده
بعربة تعود به الى سويسرا .

كان يفعل Solon او ليكورجوس Lycurgus
والاغلب ان يتمكن هذا المقنن من التفرير بالعامه
الاغبياء ويوهمهم بأنه تلقى تلك القوانين من
السماء .

وهذا معناه في نهاية الامر ان قيام نظام
يضمن السيادة الحقيقية للشعب امر معقد
ويستحيل تحقيقه، واما فيما يتعلق بالحكومة
الارستقراطية الحكيمة المنزهة من الاغراض،
وان كان يؤمن في الوقت ذاته بعدم امكان
احتفاظ اى حكومة بهذه الصفات لمدة طويلة،
وعلى ذلك فان الارستقراطية المنتخبة محكوم
عليها بالفشل في اخر الامر . ان حكم العامة
انما يولد في حالات الفوضى وعدم الاستقرار
بينما حكم الارستقراطية ينحدر الى مهاوى
الاستبداد والظلم . ويتفق روسو مع
ارسطو في ان الانسان حيوان سياسى ، وان
طبيعة الانسان لا تحقق ذاتها الا من حيث
كونه مواطنا ، ولكن الله لم يعط الناس جميعا
ما يكفى من العقل او النقاء الخلقى ما يساعدهم
على ادراك امكانياتهم وقدراتهم كمواطنين ، كما
ان الحضارة الحديثة ، افسدت الناس بدلا
من ان تصلح احوالهم كما قد تفعل الحضارات
البسيطة . واما فيما يختص بالانسان الصالح
حقا - وقد كان روسو يعتقد في نفسه انه
انسان صالح حقاً - سوف يجد نفسه مرغما
وسط كل هذا الفساد الذى يشيع في العالم
الحديث لان يصبح ناسكا لالشيء الا لانه
يعجز عن تحقيق طبيعته كمواطن . وكان
روسو يعتبر حياته في مونت ميرنسى
Montmorency حياة راهب ، وان كان
هذا بالطبع لا يخلو من مبالغه ، فقد كان
يقضي كثيرا من الوقت مع جيرانه من ذوى
المكانة الاجتماعية العالية ، وكان يشعر معهم
بارتياع اكثر مما كان يشعر به مع جماعة
الموسوعيين المثقفين المتقدمين ، او مع اصحاب

توحى به اعمال روسو ، وان كان لم يذكرها صراحة ، لان من الصعب ذكر هذه الاشياء ، لقد ساعدته نشأته في جينيف على تكوين رؤية عن المجتمع المثالى يعيش فيه القانون مع الحرية جنباً الى جنب . ولكن الصدمات التى تلقاها في جينيف ثم في غير جينيف قد علمته ان تلك الرؤية كانت رؤية فحسب ، وان الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها هى العيش في عالم من صنع الخيال وترك عالم الحقيقة الواقع لمن يمكنهم الاستمتاع به ، مثل ذلك الصديق الذى اصبح عدوه الاكبر الماكر العنيف الجذاب الذى لا يحاسب نفسه على شىء : فولتير .

كان للدوق وامثاله من نبلاء السيف احلامهم عن فرنسا « لا وجود لها » حيث كانت مثاليات الفروسية تقضى بالآ يقود الشعب ويحميه الا اشخاص من اصحاب الخلق الرفيع . وقد وجدت احلامهم صدى لها عند روسو في احلامه عن قيام عالم لا يتولى مناصب الحكم والمسئولية فيه الا افضل الرجال ، ولقد كانوا يعرفون ان عالمهم قد مات وراح الى الابد ، كما كان هو يعرف ان عالمه لن يستمر في الوجود لمدة طويلة اذا جاء على الاطلاق .

لقد سيطر عليهم جميعاً نوع من العجز المظلم الحزين، وهذا عنصر آخر من الرومانسية

ادب الرحلات والمغامرات

- ١ -

باستثناء قصص (الف ليلة وليلة) ومغامرات السندباد ، وبضعة قليلة من الكتب في ادبنا القديم ، يستطيع المرء أن يزعم ، وهو آمن ، أن ادب الرحلات والمغامرات لا يحظى بحقه من الاهتمام في ادبنا العربي المعاصر ، كما هو الحال في آداب الأمم الأخرى . ومثل ذلك أدب السيرة ، والسيرة الذاتية بخاصة . ثمة شعور غامض لدى القارئ العربي والكاتب العربي ، أن الحديث عن الذات ينطوي على شيء من التفاخر ، وهو ما يتنكر له الدين ، وتوحيد عنه قوانين الاخلاق الموضوعية عبر العصور . قليون هم الكتاب العرب الذين استطاعوا أن يخرجوا للناس كتاباً في الادب يتجاوز الحديث عن الذات بصورة مباشرة ، ويخرج عن ذلك بالحديث عن العصر والاحداث ، وعن الآخرين ممن تركوا اثراً في نفس الكاتب واعطوا صورة للعصر . من السهل علينا نحن العرب أن نتحدث عن الآخرين ، وقد نتحدث عن أمور لا يحسن التحدث عنها ، ولكننا ندرجها في باب السيرة ، واخبار الأمم والملوك ، زاعمين أن في ذلك صورة العصر ووصف الزمان واهله .

وقد يشمخ فوق ذلك كله كاتب معاصر دون سواه هو الدكتور طه حسين . ففي كتاب (الايام) نجد سيرة ذاتية عن حياة الكاتب نفسه ، ولكن الحديث دائما عن « الفتى الضريس » تجنباً للحديث عن الذات ، وجريا على عادة الحديث عن « الغير » حتى ولو كان هذا « الغير » هو « الانا » .

أما في كتابة سيرة الآخرين ، فلا اكاد اجد كاتبا عربيا ، في القديم والحديث من ادبنا ، يكتب كتابا في السيرة الا عن ملك او امير او سلطان او طاغية او كاتب مشهور جدا او مكروه جدا . وهو في كل ذلك ، يبالغ في المدح والقدح ، ويستعمل الصفات بأفعل التفضيل ، صيغة وبناء . وان هو اصطنع الموضوعية تجده يفوص في تفاصيل الحسب والنسب والتاريخ . . والجغرافيا ان شئت ، وتكون الحصيلة صورة للعصر مهزوزة في احسن الاحوال . من يستطيع ان يقبل على انه صحيح وواقع كل الذي نقرأ عن هارون الرشيد مثلا ، وعن قصور البرامكة ، وعن مبادئ الخلفاء في الشرق والغرب ؟ كيف تسنى لخلفاء المسلمين ان يفتحوا البلاد وينشروا الدين وقيموا حفلات وأعراسا متواصلة بين الحرب والحرب ؟ بل ماهي نسبة ما حدث فعلا مما نقرأ عن تاريخ العرب في الاندلس من المهرجانات ورخاء العيش الى جانب كل الحروب وكل الحملات منهم وعليهم ؟ كم من هذا حدث على الطبيعة وكم منه من نسج خيال الشعراء والكتاب ؟ ولكن التراث مقدس ويجب الا يصاب بمكروه ، حتى ولو كانت هذه الاصابة من باب الغربة والتصفية ، وليذهب الزبد جفاء ويمكث في الارض ما ينفع الناس .

ولم تكن الحال افضل من ذلك بكثير في الآداب الأوروبية حتى بواكير القرن التاسع عشر . وقد نستثنى في الادب الانجليزي مثلا (سيرة دكتور جونس) التي كتبها في اواخر القرن الثامن عشر صديقه ومرافقه (بوزويل) . فهذا كتاب ضخيم يعده الباحثون مرجعا جوهريا عن الشاعر الناقد الاكبر في ادب القرن الثامن عشر الانجليزي ، قد لا يفوقه سوى (سيرة الشعراء) الضخمة التي كتبها جونس نفسه من عدد من شعراء لفته ، ما كان لنا ان نعرف عنهم الكثير لولا ما فعل « دكتاتور » الادب الانجليزي في القرن الثامن عشر .

وقد ازدهرت كتابة السير واخبار المغامرات في الادب الانجليزي ، والفرنسي ، في القرن التاسع عشر بخاصة ، ذلك القرن الذي كان يقدس حياة البيت ، ويحترم الثقافة وسعة الاطلاع ، فيحتال على ليالي الشتاء الطويلة بجلوسات طويلة الى جانب المواقد في صحبة « كتاب » هو في الغالب « رواية » باجزاء ثلاثة . وهكذا ازدهر ادب (تشارلز ديكنز) ومن تبعه من كتاب الرواية . وفي عصر كانت فيه القراءة فضيلة وبخاصة في العهد الفكتوري (١٨٣٧ - ١٩٠١) تجد الكثير من الصور الشخصية لسيدات ذلك العصر تؤكد على وجود « الكتاب » في يد السيدة الانيقة ، الى جانب المروحة . وكان من عادات العصر الفكتوري ان يجمع الاب ، او الام ، اولاد الاسرة حول مواقد الشتاء ، ليستمعوا الى « قراءة » من كتاب فيه المتعة والفائدة . كل ذلك طبعا كان ممكنا قبل ان يدخل البيوت الراديو او التلفزيون .

في هذه الكتب الثلاثة التي اقدمها للقارئ العربي ثمة خيط يجمعها معا ، وهو انها كتب سيرة ، ومغامرة ، ورحلات ، فيها جميعا متعة من نوع او آخر . وهي ثلاثتها كتب تصور الشخص ، والعصر ، والزمان ، والمكان ، من خلال تصوير اشخاص آخرين يجمعهم جامع مع .

موضوع الكتاب او مع كاتبه . في بعض هذه الكتب اشارات او تفسيرات قد تكون مفاجئة للقارئ الذي لديه سابق معرفة بموضوع الكتاب من مصادر اخرى . وفي بعضها تصحيح لافكار سابقة عن الكاتب او العصر . ولان هذه الكتب الثلاثة قد نشرت عام ١٩٧٧ (واحد منها نشر اول مرة عام ١٩٤٣ ، ولكن اعادة النشر تتضمن قبول الناشر بصحة ما جاء فيه وبقاء المتعة او الاهمية على ما كانت عليها عند اول نشر) فانها تشكل اهمية في نظري ، لانها الى جانب حدائتها وطراوتها ، تحمل القارئ على اعادة النظر في بعض آرائه عن العصر او الكاتب بما تنقل من صور حية ، ممتعة ، مثيرة في كثير من الاحيان .

الكتاب الاول (كونن دويل : حياته وفنه) يتحدث عن كاتب انجليزي (١٨٥٩ - ١٩٣٠) يعرفه قراء العربية ، وكثير من قراء الانجليزية ، على انه مؤلف مغامرات شرلوك هومز (دون سواها . وهذا يمكن تبريره الى حد كبير ، فهذه المغامرات قد شغلت قراء الانجليزية على جانبي الاطلسي قرابة نصف قرن من الزمان ، واحسب انها ما تزال تثير تعجب الكبار والصغار على حد سواء . ولكن ثمة ما يثير ويعجب في حياة سر آرثر كونن دويل الى جانب مغامرات شرلوك هومز ورفيقه دكتور واتسن . لقد قيل في المجالات النقدية ان شخصيات دويل تأتي في الشهرة بعد شخصيات شكسبير مباشرة ، وان مغامرات هومز مع الدكتور واتسن تذكر القارئ بمغامرات (دون كيخوته) وتابعه (سانتشو بانزا) على اختلاف طبيعة المغامرات في الحالين ، ولكن ثمة في حياة دويل وسيرته من المتعة ما يفوق ما نجده في حياة سرفانتس عبقري اسبانيا ومعاصر شكسبير .

والكتاب الثاني (رديارد كبلنج وسيرته العجيبة : حياته وآثاره) يتحدث عن حياة اديب انجليزي آخر (١٨٦٥ - ١٩٣٦) يعرفه قراء العربية على انه « شاعر الامبراطورية » البريطانية وداعية الاستعمار . ولكن مؤلف الكتاب يقدم لنا في ضوء آخر هذا الادب المخضرم ، الذي عاش نصف سنواته السبعين في القرن التاسع عشر والعصر الفكتوري ، وعاش النصف الثاني في القرن العشرين الذي ابتدا بحرب البوير في جنوب افريقيا (اللفظ « بوير » بضم الباء ومد الواو الساكنة ، وهي كلمة هولندية تعني « فلاح ») اذ تمرد الفلاحون الهولنديون الذين استوطنوا جنوب افريقيا على سلطة الامبراطورية البريطانية في ١٨٩٩ وكانت الحرب التي ما زالت تستمر في جنوب افريقيا بعد ان تطورت واستشرت في شعاب شتى . يرى الكاتب هذه المشاعر « الامبراطورية » لدى كبلنج على انها مغالاة في « الوطنية » وانها ترفض « الاستعمار » و « الامبريالية » بالمعنى المعاصر . ويظهر الكاتب هذا الاديب على انه كان ينتقد بشدة موقف السياسة البريطانية من الهند والمستعمرات ، كما انه كان يخاصم السياسة الاميركية في بواكير القرن العشرين ، اضافة الى انه كان يحذر بلاده والعالم ايضا من خطر ظهور القوة الالمانية على شكل « قومية نازية » اعتدائية ، وبخاصة عندما وصل هتلر الى زعامة الحزب النازي عام ١٩٣٣ . توفي كبلنج عام ١٩٣٦ قبل ان يدرك الحرب الاوروبية الثانية عام ١٩٣٩ ، مما جعل الكثير من الانجليز يدرك ان في نبوءات كبلنج ما كان يبررها ، فرفع ذلك من سمعته كاديب ، رغم ان آراءه السياسية لم تكن من النضج والوضوح بما يجعله في عداد السياسيين ، فضلا عن ادباء السياسة .

اما الكتاب الثالث (كان الاهالي كرماء ... فاقمنا الليلة) فهو لصحفي بريطاني معاصر ولد عام ١٩٠٩ وما زال يكتب وهو في السبعين . لا احسب ان (نويل باربر) مؤلف هذا الكتاب يحمل مشاعر حيبة تجاه العرب ، ولكن يحسن بنا نحن العرب ان نقرأ للصديق الكريم (فقلت لها ان الكرام قليل) كما نقرأ للعدو اللئيم (قالت ايهم ؟ فهم كثر) . في هذا الكتاب لا اجد سوى « نهشة » سريعة من الكاتب لعربي في شمال افريقيا « طعنه من الخلف طبعاً » يوم كان العشرات بل المئات من الفرنسيين يقتلون اثناء حرب التحرير في شمال افريقيا العربية ، كما يضيف الكاتب في تبرير خجول . وما عدا ذلك ، فان الكتاب يطفح بمغامرات غريبة واقاصيص طريفة حدثت جميعها في الاربعين السنة الاخيرة ، وما يزال ابطالها على قيد الحياة في الغالب ، ومن غاب منهم عن الحياة فهو ما يزال ماثلاً في ذاكرة الجيل المعاصر من القراء . هذا رجل بدأ مغامراته قبل سن الخامسة ، يوم اخذه الالمان اسير حرب عام ١٩١٤ مع جميع ركاب السفينة الدانمركية المتجهة الى بريطانيا . في السادسة عشرة نشر اول مقالة وما زال يكتب عن مغامراته بين القطبين ، في اميركا خلال الحرب الثانية ، في جزر البحار الجنوبية الدافئة ، سنغافورة والهند والشرف الاقصى ، في مجاهل افريقيا ، فضلاً عن البلاد الاوروبية وما خبر من الحياة في باريس عند نهاية الحرب العالمية الثانية . هنا نقرأ كتاباً أشبه بشريط سينمائي يمتد على مدى الكرة الارضية خلال اربعين عاماً . وتوى عشرات من المشاهير يتحركون أمامك وتسمعهم يتكلمون . . . أناس مثل تشرشل ، مارلين ديتريش ، علي خان ، ريتا هيوارت ، الدالاي لاما ، الملك حسين ، دوق وندزور ، أناسيس ، بيكاسو ، مونتغمري سنغمان رى ، ايان سميث ، وقائمة طويلة من رجال السياسة والحرب والفن . كل ذلك بأسلوب غاية في الفكاهة ، واذا بدا عليه شيء من الجد عرفت ان مفاجأة تنتظر ، ولا تلبث ان تواجهك حكاية او حادثة او طرفة لم تكن تتوقعها في الغالب .

في الوقت الذي يكون فيه الكتابان الاولان من كتب سيرة الادباء بالدرجة الاولى فانهما لا يخلوان من القيمة الاكاديمية ، لانهما في الاساس يناقشان « الرجل وآثاره الادبية » ، بمعنى ان الكتّابين الاولين يتطلبان من القارئ احبانا يقظة ومعرفة اساسية باعمال المؤلف الى جانب ذلك نلمس خصائص اسلوب الكاتب ، وهو اديب معروف في الحالين . لذلك نجد تأقفاً في الاسلوب لا تغيب عنه الرصانة والجدية . اما في كتاب (نويل باربر) فاننا امام مراسل صحفي يمتاح البحور ويجوب البلاد ويكتب على عجل ، ولكن اسلوبه في غاية الطرافة والطراوة ، أعلى منزلة من التقرير الصحفي ، ويكاد يضارع اسلوب الاديب الذي نلمسه في الكتّابين الاولين .

ويجمع الكتب الثلاثة كذلك ولع خاص بالفن ، والرسم بخاصة . ففي حالة دويل نجد والده وجده من الرسامين ، وكان والد كبلنج مدرس الرسم والفن الزخرفي في مدرسة الفن بمدينة بومباي بالهند . اما نويل باربر ، فعلاوة على معرفته الواسعة برسامي المونمارتر والحى اللاتيني بباريس فقد كان هو يرسم كذلك . وثمة ظاهرة اخرى تجمع الكتب الثلاثة وهي ان الكتاب الثلاثة بدأوا حياتهم في العمل الصحفي ، وازدهرت كتاباتهم في صحف بلادهم وصحف بلاد اخرى حيث نشرت اهم اعمالهم اللاحقة . واذا كان اعتلال الصحة قد اقمع نويل باربر عن التطواف في ارجاء العالم فانه ما زال يكتب عن العالم الذي عرف .

١ - هيسكت بيرسن : كونن دويل ، حياته وفنه ، لندن ١٩٧٧

عندما نشر بيرسن هذا الكتاب عام ١٩٤٣ كتب مقدمته الكاتب المعروف جراهام جرين يعبر فيها عن إعجابه بالكتاب وبأسلوب كاتب السيرة . تقول المقدمة ان ابرز ما في أسلوب الكتاب ان بيرسن يحمل القارئ على الوقوف في صف المؤلف موضوع الكتاب على حساب كاتب السيرة نفسه ، وتلك صفة لا نجدها الا عند مشاهير كتاب السيرة ، وعلى رأسهم دكتور صامويل جونسون . وربما كان في ذهن جرين (سيرة الشعراء) الذي سبق ذكره في هذا العرض . وأرى ان جرين لا يحيد عن الحق في هذا القول . فانت تجد كاتب السيرة لا يتنازل من حقه في ابداء رأى او نقد لا يكون « في صالح » دويل نفسه ، ولكنه يفعل ذلك بأسلوب يجعلك تتحيز الى جانب دويل وتلتمس من كلام الكاتب ما يساند رأيك . وفي هذا ما يزيد متعة القراءة ويجعلك اقرب الى شخصية المؤلف وأعماله ، ويحدو بك ان تقرأ أو تعيد قراءة ما سبق لك ان خبرته من مؤلفات دويل . ولعمري ذلك أحسن نجاح يحققه كاتب سيرة : ان يحملك على الاهتمام بموضوع سيرته .

لقد زاد ما كتبه بيرسن اليوم على عشرة كتب في ادب السيرة ، منها كتاب عن سيرة شكسبير وآخر عن برنارد شو وثالث عن أوسكار وايلد . ولعل افضل صفة في هذا الكتاب ان أسلوبه يجرى « طبيعيا » دون حماس او تشنج . فهو يسوق الاحداث والتواريخ في هدوء العارف المحيط بما يكتب عنه . وعلى صفحة العنوان تقرأ عبارة بسيطة قالها كونن دويل بعد ان بلغ من الشهرة مبلغا أوصله لقب « سير » . يقول دويل « انا الرجل الذي في الشارع » بمعنى انه ابعد ما يكون عن اوصاف افعل التفضيل التي تقاسي منها اغلب الكتابات العربية بشكل أو بآخر . . فنحن قوم اذا رأينا عشقنا . . . بالطيف . واذكرها . . . بالطيف ، ايضا .

يقع هذا الكتاب في ١٨٨ صفحة من القطع المتوسط ، يتوزعها اثنا عشر فصلا ، تزينها اربع عشرة صورة للمؤلف في مراحل شتى من حياته، وبينها صور لبعض الشخصيات الأدبية ممن عرف

الفصل الاول هو فصل الحسب والنسب وسنوات الطفولة وايام الدراسة . ولكنك هنا لا تجد الا ما يعين على تحديد المهاد والنشأة الاولى . فتجد ان هذا « الرجل الذي في الشارع » لم يكن يختلف عن الالوف من امثاله الا في كونه يمتلك موهبة عرف كيف يسير بها في درب هو غير الدرب الذي يخطه الاهل في الغالب ، او المدرسة ، او مطالب المجتمع مما تعارف الناس عليه . كان يمكن ان « ينخرط » دويل في سلك الكنيسة بحكم نشأته الفقيرة التي تحمله على دراسة لا تكلف الاسرة مالا . وكان يمكن ان يصبح دويل طبيباً مثل الالوف الذين تخرجوا في جامعة ادنبرة العريقة في دراسة الطب . ولكن الموهبة الأدبية والقدرة على الكتابة و « نسج الاقاصيص » جعلت من ذلك الفتى اعظم كاتب مغامرات (واعتذر عن افعل التفضيل هذه) عرفته الانجليزية .

يرجع نسب ارثر كونن دويل الى اصول ايرلندية ، مثل برنارد شو واوسكار وايلد . فقد نزع جده لآبيه من دبلن الى لندن عام ١٨١٥ ، واشتغل بالرسوم الساخرة (الكاريكاتير) وخلف اربعة اولاد عمل جميعهم في الرسم . كان اصغرهم ، والد آرثر ، موظفا حكوميا يعالج الرسم ولا يربح

أكثر من ٥٠ باون في العام ، اضافة الى دخله من الوظيفة الذي لم يزد على ٢٤٠ سنويا . ولد آثر في ادنبره باسكتلندا عام ١٨٥٦ ، وهو العام الذي نشر فيه بالانجليزية كتابين تركا ابلغ الاثر في ثقافة العصر وتفكير الجيل وهما كتاب دارون : (اصل الانواع) وترجمة فنتزجيرالد (رباعيات عمر الخيام) . وسنرى ان الكتاب الاول حمل الكثير من الناشئة والشباب في انجلترا على الابتعاد عن الدين وما تعلم الكنيسة والكتب المقدسة ، دون الوقوع في الالحاد غالبا ، بل باتخاذ ما دعي بالمدب « العلماني » اى اعتناق العلم مذهبيا يخاطب العقل ، وعدم التنكر للدين الذي يخاطب الروح ، وكان دويل الى جانب جدوره الايرلندية ونشأته الاسكتلندية انجليزيا بالاختيار . يقول الكاتب ان دويل قد جمع بذلك ما في الطبع الايرلندي من فروسية وشهامة وحماس ، وما في الطبع الاسكتلندي من عزة واحتمال ، وما في الطبع الانجليزي من عناد وروح فكاهة . . في السابعة من عمره ذهب الفتى الى المدرسة ، وكان عنيدا مقائلا مما جعله يحتمل عقوبات المعلمين الذين كانوا « يضربون بالمطاط الهندي تسع ضربات على كل كف حتى لا يطبق الفتى ان يفتح الباب لدى خروجه بعد اخذ العقوبة » . وفي المدرسة اظهر ميلا شديدا الى قراءة كتب الادب ، مما جعل لجنة المكتبة تتخذ قرارا « بعدم تجديد اعادة اكثر من ثلاثة كتب في اليوم الواحد » وفي تلك السن المبكرة اظهر الفتى ميلا شديدا آخر نحو الشعر ، فحفظ قصيدة طويلة من نظم (ماكولي) بقى قادرا على « تلاوتها غيبا وهو في الخمسين من العمر » . وفي التاسعة دخل المدرسة الاعدادية فكره الاغريقية ونفر من اللاتينية والتربية اليسوعية والحياة الصعبة في اسلوب الطعام ، وحتى في اثناء اللعب . ولكنه يذكر باعتزاز انه في الرابعة من عمره جلس الى الكاتب الكبير (تاكري) مؤلف رواية (معرض الخيلاء) وان الكاتب الشهير (جورج ميريدث) كان من اصحابه . وفي السادسة عشرة انتهى الفتى آثر دراسة الثانوية بتفوق وقضى سنته الاخيرة في النمسا برعاية الالباء اليسوعيين . ورغم انه لم يفد كثيرا من تلك السنة لكنه استطاع زيارة عمه في باريس في طريق العودة الى انجلترا ، وكان يسير على مقربة من قوس النصر وليس في جيبه غير قرشين . وعندما غادر المدرسة الثانوية ودعمه مدرسه المشرف بقوله : « دويل ، انك لن تصلح لشيء » ! .

الفصل الثاني بعنوان : « اعمال متفرقة » يتحدث عن دخول الفتى آرثر كلية الطب بجامعة ادنبره عام ١٨٧٦ بتشجيع من الوالدة المدبرة ، التي رفضت لابن الاسرة الفقيرة ان يعمل اعمالا دون قابلياته الفكرية ، في سبيل كسب العيش لاسرة تتكاثر عددا برعاية اب « هاثم بين غيوم الفن » لا يكسب اكثر من مرتبه من الوظيفة بكثير . وكان ان دخل آرثر كلية الطب . ولكن دراسة « النبات والكيمياء والتشريح والفلسفة » لم تمنعه عن التهام اعمال تاكري ، ميريدث ، واشنتن ارفنج ، آديسون سويفت وغيرهم من المشاهير . كان كل كتاب يشتريه يعنى التضحية بثمان وجبة غداء . لقد شغله (ماكولي) الذي « يعرف كل شيء » كما شغله ادجار آلن بو الذي « يعالج كل شيء » . وكان من بين اساتذة الطب في ادنبره اثنان ممن ظهروا في قصص دويل ومغامراته : الاول « دكتور بل » الذي ظهر في شخصية (شرلوك هولمز) نفسه ، والثاني « البروفسور رذر فورد » الذي ظهر في شخصية (تشالنجر) وكان ثمة غيرهم ممن ظهروا في شخصيات المغامرات امثال « موريارتي » و « ماراكوت » . في الجامعة تطور تفكير دويل باتجاه اليقين الجديد الذي اشاعه كتاب دارون ، فوجد في العلمانية مهربا من تزميت اليسوعيين

الذين اربعة قول احدثهم بأن « من كان خارج كنيسة روما فنصيبه اللعنة الابدية » . وبعد سنتين من الدراسة الجامعية فكر دويل بالالتحاق بالجيش ، وكانت الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٨ فرصة لذلك . ولكن تطوعه في الخدمة الطبية في تلك الحرب لم يدم طويلا ، فعاد الى لندن يواجه الفقر . وما لبث ان حصل على وظيفة لمدة أربعة اشهر بدلا عن طبيب ريفي ، حصل لقاء ذلك على ٢ باون في الشهر فأحسن بانفراج كبير . وفي ضواحي مدينة برمنجهام ، اثناء العمل بدلا عن الطبيب ، بدأ يكتب أولى قصصه ، وقد شجعه صديق آنسى فيه براعة في كتابة الرسائل . ولما عرض قصته الاولى على مجلة معاصرة ادهشه ان يتلقى مكافأة قدرها ثلاثة جنيهات ، اى اكثر من مرة ونصف مرتبه الشهري كبديل طبيب . ولكن هذا التحسن الطفيف في الوضع المادى قابله سوء في صحة والده ، واضطراره الى التخلي عن العمل ، ولم ينقل الموقف ما كانت تساهم فيه شقيقاته الثلاث من مرتباتهن . وفي اوائل ١٨٨٠ عرض عليه ان يكون طبيب سفينة صيد لقاء ٢١٠ باون شهريا اضافة الى ٣ شلنات عن كل طن من زيت الحيتان التي تصطادها السفينة . كانت الحياة قاسية في البحار الشمالية ولكن دويل عاد وفي جيوبه « خمسون قطعة ذهب ادخلت السعادة الى قلب امه وهى تفتش عنها في ملابس الطبيب العائد من سفينة صيد الحوت » . وفي سنته الاخيرة في الجامعة تعرف دويل على « جورج بلد » الشاب العجيب الذهن الخصب الخيال ، الذى لا ينفك يأتى بالاختراع تلو الاختراع ، يدافع عنها في لغة سيالة عجيبة ، الهبت خيال دويل وتركت اثارها في مغامراته . وفي ١٨٨١ تخرج دويل طبيا وحصل على وظيفة في سفينة اخرى تتجه نحو الاقاليم الدافئة في غرب افريقيا هذه المرة بدل الطب الشمالي . كان مرتبه كطبيب متخرج ١٢ باونا هذه المرة . ويبدو من المقارنات الحسابية ودراسة نفقات المعيشة التي يذكرها هذا الكتاب ان الاجور والاسعار هذه الايام تعادل عشرين ضعفا عما كانت عليه قبل قرن من الزمان عندما بدأ دويل يكسب أولى نقوده ، وبذلك تكون الاثنا عشر باونا تعادل ٢٤٠ باونا هذه الايام ، وهو مبلغ غير قليل بالنسبة لفتى كان يصارع الفقر حتى تخرج طبيا برغم الصعاب . ولكن رحلة القطب ورحلة غرب افريقيا لم تترك عليه اثرا مفيدا في تطوره الادبى والذهنى . انه يذكر ان « مقالات مكولي » كانت ترافقه في الرحلتين ، ويذكر باعتزاز ان فرنسا كان يصارع الحمى في رحلة غرب افريقيا اعطاه كتابا فرنسيا بعنوان « الجو » . كان هذان الكتابان امتع ما يذكره دويل عن الرحلتين ، هذا الى جانب « المغامرة » بمعناها العام مما رافقه في الحالين .

الفصل الثالث يدور حول صديقه « دكتور بد » . كان والد « بد » طبيا عريقا في مدينة برستول ، واليها جاء ليفتح عيادة بعد تخرجه . ويبدو ان هذا الصديق المغامر لم يفلح في اجتذاب المرضى . « لا احد يثق بك في مدينة يعرفك الجميع فيها يوم كنت طفلا تسرق الفاكهة من اشجار الجيران » وكانت النتيجة ان « بد » اصبح على حافة الافلاس وصار يحلم بمخترعات تعود عليه بثروات طائلة . وكان ان تسلم دويل برقية من صديقه بد يدعو فيه للحضور فورا الى برستول ، وفي محطة القطار وجد دويل صديقه العاصف في انتظاره ، وبدأ من رصيف المحطة يشرح له تفصيلات اختراع جديد من دروع الحديد التي يحملها الجندي فلا ينفذ منها الرصاص ، ويبيع ذلك الاختراع الى الحكومة ليربح منه الملايين . كان بد يتدفق بالتفصيلات ، ودويل يصفى اليه ويكتنز في ذهنه افكارا سوف تظهر في خلق شخصيات مغامراته في قصص

المستقبل . وفي الختام لم يقتنع دويل بتصرفات صديقه وقفل راجعا الى برمنجهام حيث كان يعمل مع طبيب . وما لبث ان تسلم برقية ثانية من بد ، وقد انتقل الى بليموث وفتح عيادة صار يكسب منها الكثير بانواع الحيل والالاغيب في مدينة لا يعرفه فيها احد . استطاع بد ان يقنع دويل بترك برمنجهام والالتحاق به في بليموث ليساعده في عيادته التي كان يكسب منها اكثر من ٣٠ باون يوميا (٦٠٠ باون هذه الايام ؟) . واقتنع دويل ولحق بصاحبه . ولكن وجد بد انه قد اعلن من الكشف مجانا ، ولكن على المريض ان يشتري منه الدواء الذي كانت زوجته تعده بلا انقطاع . لم يكسب دويل اكثر من باونات قليلة لفترة طويلة ، ولكنه انقطع الى الكتابة . كان بد يسعى معاملة المرضى ويتعالى عليهم ، « لان احترام المريض لا يدفعه الى احترام الطبيب » كان بد يريد « ان تنتشر الامراض وتعم الاوبئة ليزداد ربح الطبيب » . مرة كان بد يسير على شاطئ البحر فوجد فتى يصطاد السمك فرفسه في قفاه فسقط الفتى في البحر . وما كان من بد الا ان قفز وراءه وانتشله من الماء ، وخلق بذلك مشهدا مسرحيا امام جمهور ليستطلع ما حدث ، فكسب الدكتور بد شهرة المنقذ الانساني في تلك المدينة التي جاء « ليكنس ما فيها من نقود » .

ولكن دويل لم يستطع الانسجام مع هذه الاحاييل ، فما لبث ان انفصل عن صاحبه ، مسجلا فشله كطبيب محتال ، ولكنه بدأ يشق طريقه في كتابة القصص وعالم التأليف ، فترك بليموث وفيها صاحبه الدكتور بد .

يتحدث الفصل الرابع عن « دكتور دويل » الذي جاء ليفتح عيادة في « ساوتسي » من اعمال مدينة بورتسموث ، وكان ذلك في تموز/يوليو ١٨٨٢ . كانت البداية في غاية الصعوبة ، بين البحث عن منزل يقيم فيه عيادته ، ولم يكن في يده من النقود ما يجعل البداية سهلة . ولكنه افلح في ذلك بتقتير شديد على نفسه . كان ينام على سرير حديد وهو يرتدى معطفه وتحت رأسه كتاب « مبادئ الطب » . كان اول زواره كاهن المدينة ، يريد ان يكسبه للكنيسة ، فانقلب مدعورا من طبيب يعتقد ان « المسيح بشر فان مثلنا » . وكان ثاني زواره موظف من شركة الغاز يطالب بمبلغ لم يدفعه المستاجر السابق . ولم تكن ذكرى عمله مع صديقه بد مما يدخل السرور على نفسه في تلك الوحدة والفقر . فقد اكتشف دويل ان بد وزوجته كانا يفتشان ملابس دويل ويقرآن رسائل والدته ، التي لم تكن راضية عن تلك الشراكة بين ابنها وبد المحتال . وفي اواخر الثمانينات توفي بد ولم يترك لزوجته من المال ما يقيم الاود ، فانطبق عليه المثل العراقي السائر « الذي يعيش بالحيلة يموت بالفقر » . كان على دويل ان يواجه الحياة وليس في جيبه اكثر من باون واحد . فسارع بالكتابة الى محرر مجلة « مجتمع لندن » حيث سبق ان نشرت بعض قصصه غفلا من الاسم ، وعرض قصة جديدة ، راجيا المحرر ان يرسل له دفعة على الحساب . ولما وصلت « العشرة باون » ارتفعت معنويات الطبيب المؤلف ، لان المبلغ ضمن ايجار العيادة للشهر الثلاثة القادمة . ولما اشتهر اسم دويل سارع محرر المجلة الى نشر قصصه تحت اسم المحرر نفسه ، فافسد بذلك « معروفه » السابق بارسال الباونات العشرة . مرة كل يومين او ثلاثة كان الدكتور دويل يستقبل مريضا لا يستطيع دفع اكثر من شلن ونصف . وبعد اسابيع وصل اخوه الاصغر ليقيم معه في بورتسموث ، فكان خير عون للطبيب في تنظيف الدار ، رغم انه كان

يقتسم كسرة الخبز اليابس مع اخيه الطبيب . مرات عديدة اضطر دويل ان يرهن ساعته لقاء بعض المال يعبر به ازمة من الازمات الكثيرة . كل هذا لم يجعله يحاول بعض احاييل دكتور بد ، فقد كانت اخلاق دويل من معدن اخر . ولماوصلته رسالة توصية من عمه مدير متحف دبلن الى مطران المدينة الكاثوليكي رفض دويل استخدام تلك الرسالة لتحسين مدخوله في العمل فمزق الرسالة ولم يذكرها لاحد . ومرة رمى القدر في طريقه صاحب دكان اغذية مصابا بالصرع ، استطاع دويل ان يخفف من نوبته ، وكانت النتيجة ان دويل حصل على مصدر من الزبدة والخضار واللحم كلما أصيب الرجل بنوبة . وعندما يتعافى يعود دويل الى الخبز اليابس . ولكن العمل ما لبث ان تحسن قليلا ، فصار دويل يخرج الى نوادي المدينة ويساهم في النشاطات الرياضية مما اكسبه الكثير من المصارف . ولكن دخله من العيادة لم يصل ارقاما كبيرة قط . فبين ١٨٨٢ - ١٨٩٠ لم يستطع ان يتدرج الى اكثر من ٣٠٠ باون في السنة . ولكن القدر هذه المرة ارسل اليه فتاة تزوج منها ، كان لها دخل سنوي بحدود ١٠ باون . وفي عام ١٨٨٥ ، عاد اخوه الى يوركشاير وحصل دويل على دكتوراه الطب ، وتزوج ليبدأ حياة على شيء من الراحة المادية .

((اثناء الانتظار)) هو عنوان الفصل الخامس . كان على دكتور دويل ان ينتظر طويلا بين زيارة مريض وآخر ، وما كان له ان يضيع وقته في الانتظار سدى . كان مشغولا « يحولك الحكايات » ويكسب من نشرها اكثر مما يكسب من عيادة الطب . فبين ١٨٧٨ - ٨٣ نشر عددا من القصص الغريبة التي استهوت الصغار والاحداث على نطاق واسع . كانت الحكاية تعود عليه بثلاث او اربع جنيهات ، وفي عام ١٨٨٣ نشرت له مجلة « كورنهل » حكاية لقاء ٢٩ جنيها (اكثر من ثلاثين باونا ، وهو مبلغ محترم في تلك الايام) . اثارت تلك الحكاية اهتماما بالدكتور دويل ، عندما ظهرت في مجلة اسسها الروائي الكبير (تاكرى) . قالت صحيفة مسائية تصدر في لندن ان الحكاية « تجعل تاكرى يتقلب في قبره » . ولكن آراء نقدية اخرى قالت ان اسلوب دويل يذكر القراء باسلوب روبرت لويس ستيفنسون . ولكن القصص اللاحقة لم تنل نفس الاهتمام ، فكان محرر « كورنهل » يرفض خمس قصص من كل ست . ولكن دويل لم يفقد حماسه فاندفع في كتابة « رواية جون سمث » التي ضاعت في البريد بين ناشر وآخر . ولم يؤثر ذلك في دويل ، لانه بعد فترة من الزمن الحقها برواية اخرى بعنوان « شركة جردلستون » . كانت الرواية الاولى سيرة ذاتية ، وكانت الثانية ملأى باوصاف محيطه وجامعته والناس الذين عرفهم . ومرة اخرى لم يفلح دويل في اقناع احد الناشرين بهذه الرواية ، ولم يفقد الامل ، فراح يقرأ كثيرا من قصص المغامرات ويدرس شخصيات الامريكي ادجار آلن بو ، مطورا بعض تلك الشخصيات لتناسب الدكتور بل في جامعة ادنبرة ، فكان اول ظهور لشخصية (شرلوك هومز) في روايته التي انجزها عام ١٨٨٦ بعنوان « دراسة بالاحمر » . ولم تفلح هذه الرواية على الفور ، اذ لم يدفع بها اي ناشر اكثر من ٢٥ باون فصدرت في السنة اللاحقة . وكان عليه ان يفيد من الانتظار فراح يقرأ في شغف تاريخ الحركة البيوريتانية (فرقة المتطهرين من القرن السابع عشر) اضافة الى (مقالات ماكولي) فاستغرقه ذلك سنة من

القراءة وخمسة أشهر حتى كتب رواية (ميخا كلارك) فانجزها في اوائل عام ١٨٨٨ . في هذا الوقت بدأت قصة شرلوك هومز تشتهر ، ولكن ذلك لم يساعد في ضمان ناشر لروايته الجديدة ، لأن « اغلب شخصياتها تعود الى القرن التاسع عشر دون القرن السابع عشر » . وفي هذا الوقت ارتفع دخل دويل من الكتابة الى ٥٠ باون سنوياً، وبدأ الحظ يتسم له ، اذ افلح ناشر امريكي في تهريب نسخة من (دراسة بالاحمر) ونشرها في امريكا فحازت رواجاً كبيراً ، فجاء ناشر امريكي اخر الى لندن يبحث عن مؤلفين بريطانيين ، وكان أن دعي دويل الى عشاء مع عدد من الادباء الايرلنديين بينهم اوسكار وايلد . كان وايلد قد قرأ (ميخا كلارك) وتحمس لها ، مما شجع دويل وكانت حصيلة ذلك العشاء الأدبي ان اتفق وايلد مع الناشر الامريكي على كتابة (صورة دوريان جراي) كما اتفق دويل على كتابة (علامة الاربعة) حيث ظهر فيها شرلوك هومز للمرة الثانية . وبعد ان ظهر اهتمام النقاد برواية (ميخا كلارك) وتحمس دويل وقضى سنتين في كتابة رواية تاريخية جديدة بعنوان (الفرقة البيضاء) قرأها اكثر من مئة مجلد بالانجليزية والفرنسية عن تاريخ الملك ادوارد الثالث « اعظم الحقب في التاريخ الانجليزي ... لان تلك الفترة شهدت ملوك فرنسا واسكتلندا في سجون لندن » . كان دويل شديد الإعجاب بالمعرفة الموسوعية لدى ماكولي ، فراح يقلد اسلوبه في كثرة التفاصيل وغزارة المعلومات في رواية (الفرقة البيضاء) . وربما كان ذلك أكبر ما يؤخذ على الرواية كما يؤخذ على روايته الاخرى (سرنابل) . هنا يحار المرء وهو يقرأ ان كان الكتاب تاريخاً ام رواية تاريخية . والفرق ان على الروائي ان يمزج الحقائق بشيء من الخيال كي يخلق روح العصر فيلمس القارئ مظاهر الحياة فيه ، وذلك ما لم يفلح دويل في بلوغه في رواياته التاريخية . ولكن دويل كان شديد الاعتزاز برواياته التاريخية ، ولم يكن ينظر نفس النظرة الى القصص والمغامرات التي « يحوكمها » في سهولة ويسر . ولكن الواقع اثبت ان تلك القصص هي التي خلدت ، رغم ان الفنان لم ينفق عليها من الجهد ما انفقه على رواياته التاريخية . واذا كان يحسب تلك القصص دون براعته الفنية ، فقد كان جلبرت وسليمان من نفس السراى حول الاوبرات التي خلدت اسميهما وطبعت العصر بطابعهما . في قصصه ومغامراته كان دويل يعبر عن ضمير العصر ويعكس رغبة القارئ العادي . فقد كان من « اوساط الناس » وهو الذي يقول عن نفسه انا « الرجل الذي في الشارع » . لقد كان العصر يتفجر بحثاً عن المغامرة وعن كل ما يبعده عن القوالب الفكتورية في « السلوك المحترم » فكان دويل يكتب لمثل هذا الجمهور بين ١٨٨٥ - ٩٠ . ومثل غالبية الناس في فترة « نهاية العصر » ممن لم يكتمل تطورهم الروحي ، كان دويل شديد الولع بالروحانيات والتنويم المغناطيسي وما يقع خارج حدود الخبرة المألوفة ، فاستهوى البوذية زمناً وكتب عن ذلك بعض القصص التي ظهرت في اواسط التسعينات . وكان دويل طيلة حياته مولعاً بالمغامرة ، فبلغه في عام ١٨٩٠ ان (الدكتور كوخ) في برلين اعلن عن طريقة لمعالجة مرض السل ، فقرر ان يزور برلين ويقابل الرجل ، وهكذا فعل ، ولكنه لم يفلح في المقابلة . وفي الطريق تعرف على طبيب ناجح في لندن اقترح عليه دراسة طب العيون في النمسا لمدة ستة اشهر ليعود ويفتح عيادة في لندن بدل الإقامة في الاقاليم .

واستهوته الفكرة ، فشد الرحال الى فينا في اول العام ١٨٩١ ولكنه برم بالدراسة في اول ثلاثة اشهر فعاد الى لندن ، وفتح عيادة لطب العيون ، واثناء الانتظار ، كان يشغل وقته بكتابة القصص .

الفصل السادس يدور عن «شرلوك هومز» هذه المغامرات اشغلت قراء الانجليزية في اواخر القرن الماضى اكثر مما اشغلتهم قصص ديكنز في اوائل القرن . كان الكاتب الشهير ج.ك تشيسترتون يرى لو ان ديكنز قيض له كتابه مغامرات هومز لجعل كل شخصية في شغافية هومز نفسه . ولكن كاتب هذه السيرة يرى ان ذلك كان سيفسد القصص جميعا ، لان دويل كان يقدم شخصيات بارعة اخرى ولكنها تزيد من تألق شخصية هومز الاساسية . وفي الوقت الحاضر نجد تسعين بالمئة من القراء يعرفون ثلاث شخصيات ادبية شهيرة الى جانب هومز ، اثنتان منها من صنع شكسبير وهما روميو ، رمز الحب ، وشارلوك رمز الجشع ، والشخصية الثالثة هي روبنسن كروزو رمز المغامرة . اما الشخصية الرابعة الشهيرة لدى القراء فهي شخصية هومز ، رمز الروح الرياضية المغامرة . ويضاف الى ذلك ان شخصية هومز وتصرفاته تصور حياة لندن في اواخر القرن الماضى وبخاصة شارع بيكر . وقد تكون تفصيلات الحياة وشارع بيكر غير دقيقة تماما ولكن القارئ لا يلتفت الى ذلك تجاه المتعة التي يقدمها للخيال شخص هومز الذي يريد ان يتقمصه كل انسان ، تماما مثل شخصية هاملت ، او مثل دون كيخوته الذي يدافع عن المظلومين ويقف وحده تجاه قوى الظلام ، ومعه تابعه سانتشو بانزا ، كما يفعل هومز ومعه تابعه دكتور واتسن . وليس غريبا ان يكون دويل قد افاد من قراءاته الواسعة سواء في ادب فولتير اوفي قصص بو ، او في بناء شخصياته على نماذج عرفها في الحياة العامة . ولكن طابع شخصيات المغامرات يبقى متفوقا على ذلك جميعا ، ويختلف عنها قدر ما تختلف شخصية دكتور واتسن عن شخصية دويل نفسه . في عيادة طب العيون في حي معروف بلندن كان ثمة « غرفة فحص وغرفة انتظار » ، يخبرنا دويل : « في غرفة الفحص كنت انتظر ، وفي غرفة الانتظار لم يكن ثمة من ينتظر » . ولكن الوقت كان يستخدم في كتابة القصص ، وراح دخله يتزايد حتى بلغ ٥٠ باونا للقصّة الواحدة في عام ١٨٩١ ، ولم تكن تستغرق كتابة الواحدة اكثر من اسبوع واحد . وفي نهاية عام ١٨٩٣ وضع حدا لحياة ذلك المخبر البوليسى ، بعد ان احس انه قد كتب عنه ما فيه الكفاية ، ولم يفكر باعادته الى الحياة قبل مرور سنوات عديدة . وبالفعل ، في ختام عام ١٩٠٣ بدأ دويل سلسلة جديدة من مغامرات هومز . واذا اصبح متحررا من عائلة الفقر صارت قصصه اكثر نضجا وادق هندسة ، كما يشير في مذكراته وكما يعرف من قرأ تلك القصص . وكانت القصّة الستون هي الاخيرة في مغامرات شارلوك هومز ، وقد نشرت في مجلة (ستراند) في نيسان / ابريل ١٩٢٧ ختم بها دويل فترة طويلة من الزمن في امتاع القارئ « بأخذه بعيدا عن متاعب الحياة ، الامر الذي لا يتم الا عن طريق الخيال » .

يتحدث الفصل السابع عن « الاصدقاء والشهرة » . كان من يزور دكتور دويل في منزله يدهش لرأى رجل رياضى متواضع ودود سرعان ما ينسجم في اية جماعة . ولم يكن يشبه قط

صورة الفنان في اواخر القرن الماضي ، رجل عليه سيماء التخنت والخفر ، وهو ما سخر منه اوسكار وايلد . كان دويل بحق « الرجل الذي في الشارع » كما قال عن نفسه ، و « الرجل الذي كتب كتباً جيدة ولكن لا يبدو عليه انه قد سمع بشيء اسمه كتاب » كما قال عنه انتوني هوب مؤلف رواية (سجين زندا) الذي اشتهر في تسعينات القرن الماضي . عرف دويل عدداً من مشاهير عصره من الكتاب امثال جيروم ك. جيروم ، روبرت لويس ستيفنسن الذي توفي قبل ان يكمل روايته الاخيرة (سانت ايفز) وطلب الورثة من دويل ان يكملها ولكنه « لم يجد في نفسه الكفاءة » . وقد طلب الكاتب جرانت آلن في وصيته ان يطلب من دويل اكمال اخر فصلين من روايته (هيلدا ويد) . وكان دويل يعتز بصداقة ميريدث ، اشهر كاتب في اواخر القرن الماضي كما جمعت صداقة مع توماس هاردي . وفي اثناء ذلك كله كان دويل يكتب باستمرار حتى بلغ دخله من القصة الواحدة ١٥٠ باونا ، فجمع في عام ١٨٩١ اكثر من ١٥٠٠ باون . وفي عام ١٨٩٤ طلب اليه القيام برحلة في اميركا لتقديم قراءات من قصصه فذهب بصحبة زوجته واخيه وحقق نجاحاً كبيراً ، وعاد الى لندن وقد حصل من جولته الف باون ، وقام بزيارات عديدة ابرزها زيارة رديارد كبلنج الذي كان يقيم في فيرمونت . والجير بالذكر ان دويل كان هو اول من ادخل لعبة الجولف الى اميركا ولم تكن معروفة هناك حتى ذلك الوقت .

في الفصل الثامن نجد مؤلف هومز يقتبس من « مذكرات بارون ده ماربو » عن ايام نابليون ، ويصنع منها (مغامرات البريجادير جيرارد) وهي قصة تطفح بالخيال والمغامرات صنعها الكاتب على النقيض من رواياته التاريخية السابقة . كان نجاح هذه المغامرات الجديدة بعد الفراغ من مغامرات هومز ، وبعد عودته من رحلته الاميركية . وكان اهم سبب في نجاح تلك القصص ان القارئ الانجليزي يتساهل في قبول الفرنسي يقوم بدور البطل اذا كان ذلك البطل مبعثاً للضحك ، وهو ما فعله دويل معتمداً على الاصل الفرنسي ، محاذراً ان يبدو على تلك القصص علائم البحث والتقصي والجهد التاريخي .

(رجل النشاط) هو موضوع الفصل التاسع: اضافة الى ادخال لعبة الجولف الى اميركا ، كان دكتور دويل اول من ادخل رياضة التزحلق على الجليد الى سويسرا . كان ذلك في اوائل ١٨٩٥ ، وبشطحة من شطحات خياله الخصب استطاع تحويل استعمال الزلاقات في القطب الشمالي وجرينلند الى زلاقات تربط بالقدمين وتستعمل للرياضة في ثلوج سويسرا . ولكن احداً لم يعترف له بالفضل مادياً او معنوياً . وبعد ان انجز مغامرات جيرارد عام ١٨٩٥ بدأ دويل في كتابة (رودنى ستون) اول رواية تدور حول الملاكمة . لم يكن غير دويل من يمتلك الجرأة على التحدث عن الملاكمة كفن ، فاستطاع اقناع مجلة (ستراند) بنشرها على حلقات استهوت القراء بما فيها من تفاصيل ومغامرات . وفي اواخر عام ١٨٩٥ سافر دويل الى مصر لتفيد زوجته العلية من الشمس والمناخ الدافئ ، فاقاما في فندق مينهاوس قرب الاهرامات . كان اول ما سمع في مصر ان مغامرات شرلوك هومز قد ترجمت الى العربية وفرضت كتاباً مقرراً في مدارس الشرطة

بمصر . وفي أوائل عام ١٨٩٦ قام برحلة الى اعالي النيل حتى وادي حلفا ثم قام برحلة الى البحيرات المالحة في عربة مزركشة كانت قد جهزت لاستقبال نابوليون الثالث الذي كان ينتظر لافتتاح قناة السويس . في ١٨٩٧ كان دويل قد عاد الى انجلترا ليقوم في دار شيدها في (سري) . في ذلك الوقت كان دويل يميل الى الدعوة للسلام ونيل الحروب فساهم في دعوة قيصر روسيا لاقامة مؤتمر سلام في لاهاز . وفي أوائل ١٨٩٩ حضر اجتماعا لهذا الغرض وحضر معه جاره برنارد شو، الذي بدا كأنه يساند الحرب اول الامر ولكنه اعلن عن مساندته مؤتمر السلام . ولكن دويل ما لبث ان نيل الدعوة الى السلام عندما اصبحت بريطانيا تحت تهديد رجال (كروجر) في جنوب افريقيا وتطوع للخدمة الطبية في حرب البور ، وابتعد الى جنوب افريقيا في شباط / فبراير ١٩٠٠ ، ليشهد فظائع الحرب ، ويشهد خمسة الاف من الجنود يتسممون بعد ان شربوا من مياه الابار هناك . وبعد ان عاد الى انجلترا دفعه حماسه الوطني الى كتابة كراس يشرح فيه موقف بريطانيا امام الراي العالمي وجند لذلك تبرعات و مترجمين الى عدد من اللغات الاوربية . وجاءت نتيجة انتشار ذلك الكراس باثر طيب على سمعة بريطانيا في اوربا واميركا ، فكرمته الدولة بمنحه لقب فارس ، واصبح (سر آرثر كونن دويل) عام ١٩٠٢ .

غرق الباخرة « تايئانك » هو موضوع الفصل العاشر : شأن الكثير من الناس كان دويل يحس برغبة شديدة للقيام بعمل يفيد الآخرين ، ومثل اغلب الحالات يتضح انه كان من الافضل ترك مثل تلك المحاولات . كانت اولى محاولات دويل لكي يحسن من احوال أبناء جلدته هو ان يخوض غمار السياسة ، فرشح نفسه للبرلمان في « الانتخابات الخاكية » عام ١٩٠٠ ولم يحالفه التوفيق . وحاول ثانية عام ١٩٠٥ وانتهى الى نفس النتيجة ، فوصل الى فئاة ان السياسة لا تأتيه منقادة اليه تجرر اذيالها فلا هي تصلح حتما له ولا هو يصلح حتما لها . واذا كان دويل لا يصلح للسياسة فيظهر انه كان يصلح للرياسة . فقد أسس وترأس « نادي الرماية » الذي اصبح مثالا في الاقاليم التي صارت تقلده فظهرت اهمية فعاليات تلك النوادي عندما قامت الحرب العظمى . ودعا الى حفر نفق تحت القنال الانجليزي يربط انجلترا بفرنسا ، وظهرت اهمية خيالاته الهومرية عندما قامت الحرب العظمى كذلك . والجدير بالذكر ان مشروع نفق القنال الانجليزي كان يتصدر الاخبار البريطانية قبل بضعة اعوام (ولا ادري ما تم بشأنه اليوم) . ثم ترأس رابطة الكشف في منطقته كما ترأس « اتحاد اصلاح قانون الطلاق » . وشرع يدافع عن الكونغو في كتاب حمل الحكومة البلجيكية على اصلاح سياستها في تلك المستعمرة الافريقية . ثم تولى حملة للدفاع عن عاملات اوتيل متروبول في مدينة برايتن بجنوب انجلترا واستعاد لهن حقوقهن . كثير هم الناس الذين يتجردون للدفاع عن قيم معنوية ويستشهدون في سبيل عقيدة او راى . ولكن دويل كان يدافع عن امور ملموسة واشخاص بعينهم . مرة تولى الدفاع عن محكوم بتهمة باطلة ووقف في وجه البوليس والادعاء العام وكسب الدعوى . ومرة وقف يدافع عن كاهن في كنيسة . وكانت اشهر حادثة دفاع تجرد لها دويل هي مأساة السفينة

« تايتانك » التي غرقت في أول رحلة لها من ساوثهامبتن في ١٠/٤/١٩١٢ وكان على ظهرها ٢٢٠١ من الركاب . فبعد أربعة أيام من الإبحار اصطدمت السفينة بجبل من الثلج الطافي وغرق حوالي ثلثي الركاب . وتجردت الصحافة تنهال باللائمة على قبطان الباخرة ، وكان أشهر المهاجمين برناردشو . ولكن دويل تجرد للدفاع عن القبطان قائلا انه كان يؤدي واجبه وينفذ التعليمات على ادق وجه . وكانت مناقشة حامية على طرفي الاطلسي ، دخل فيها المنطق والقانون وكثير من العواطف والتفصيلات الفنية . وكانت مقارعة شهيرة بين دويل وبرناردشو كسب فيها منطق الاخير ولفته اللاذعة . ولكن مواطني الجماهير برغم الفاجعة كانت مع دويل ، حتى قيل « ان ٩٩٪ من الناس يفضلون ان يكونوا على خطأ مع دويل على ان يكونوا على صواب مع شو » .

« الرجل الذي في الشارع » هو عنوان الفصل الحادي عشر . في هذا الفصل يستعرض كاتب السيرة الاسباب التي جعلت سر آرثر كونن دويل محبوبا من جميع الناس الذين عرفوه او قرأوا قصصه ورواياته . كان دويل ، كما سبق القول ، رمز الروح الرياضية المغامرة التي يتعشقها الفرد الانجليزي العادي . وكانت شخصيات قصصه تمثل هذه الروح بالدرجة الاولى ، وهذا سر نجاح قصصه ، وهو كذلك سر نجاح اي كاتب يعطي القارئ ما يريد ويحلم به في الحياة . فقد كان دويل يرغب في تجربة كل شيء في الحياة . ففي عصر البالون حاول دويل ان يهبط بالمظلة من البالون ، حبا بالمغامرة ، مثلما سبق له ان تسلق الاهرامات وتحدث عن مراقبة الآخرين وهم يعانون مخاطر الصعود والانزلاق . ولكنه في مغامرة البالون اقتنع بالصعود الى ارتفاع ستة آلاف قدم فوق « القصر البلوري » في قلب لندن . كان يعارض الرماية من اجل الصيد والقنص ، ولكنه لا يمانع في صيد السمك « لان السمك من ذوات الدم البارد ، ولا يحسن بالالم الذي يحسه الارنب البري او الغزال » . كانت قصص دويل تشبع رغبة « الشخص العادي » في البحث عن المغامرة والفوضى والدهشة . ولكنه احيانا كان يخلط بين الخيال والتصور . فالتصور يعتمد المثيرات كما يفعل « الكاري في طعام غير شهى » . ولكن الخيال يعالج امور الحياة اليومية ولا ينزلق نحو التافه المبتذل ، وهو ما نجده في « خيال » شكسبير ولا نجده في « تصور » ديكنز . كان اعجابه « بتصورات » پو قد جعل من بعض قصصه ما يفوق قصص پو في اثاره الرعب احيانا ، فيعطي القارئ « صدمة جسدية » بدل ان يعطيه « رعشة فكرية » وكان اعجابه بقصص الفرنسي موياسان في نفس الطبيعة ، ولكن ولع الفرنسي بالجنس يقابله ولع الانجليزي بالرياضة . ومن امثلة الطبيعة الانجليزية « في ادب دويل هذا الولع الانجليزي بتقليل اهمية الذات واعطاء الانجاز الشخصي اقل مما يستحق من التقدير . وهنا تذكرنا هذه الصفة في ادب دويل بصفة مشابهة لدى اول واهم شاعر انجليزي : جفري تشوسر ، الذي كان لا يغفل عن التقليل من قيمة « حكايات كانتر برى » وهي الحكايات التي تطفح بالمتعة والبراعة . كان دويل يقول : « اذا كنا نحن اصحاب الحكايات لا نتمتع بعقول عظيمة

نبوسعنا في الاقل ان نقدم ما يريح عقول الآخرين الذين يقومون باعمال اكثر اهمية مما نقوم به نحن . كان في مقدور دويل ان يتحدث عن كل شيء من الرياضة الى الادب الى الحرب الى التعذيب الى السياسة الى العلوم الى القتل... كل ذلك بما يظهر اهتماما متساويا في جميع المسائل . وقد جرب دويل حتى المسرح والسينما منذ بداية الافلام الصامتة . لقد شكلت العديد من قصصه اسسا لمسرحيات وافلام نجحت بدرجات متفاوتة ، وكان كريما مع المخرجين والمنتجين ، بحيث ان احدهم ادعى انه يخسر في انتاج مسرحيات تستند الى قصص دويل ، وبلغت خسارة المؤلف من جراء ذلك اكثر من ثمانية آلاف باون . ولكن ذلك المنتج المحتال انتهى الى الانتحار ، فاستحصل دويل ما خسر عند تصفية الحساب . وفي عام ١٩١٢ طفع خيال دويل فكتب رواية (العالم المفقود) التي تحدث عن عالم في اعالي الامازون يعج بالتنانين والمخلوقات العجيبة ، مما دعا جامعة بنسلفانيا باميركا ان تجند حملة الى اعالي نهر الامازون للبحث عن ذلك العالم المفقود ! كانت شعبية دويل قد عبرت من اميركا الى كندا ، فقبل دعوة لزيارة كندا مع زوجته وكانت الحفاوة به تليق بالملوك . ولما عاد الى انجلترا نشبت الحرب العظمى ، فراح يملأ الصحف البريطانية بمقترحات لوقاية الجنود ، منها دروع الحديد التي بلدها في ذهنه صديقه دكتور بد في اول عهده بالطب . وجدد دعوت له لبناء نفق تحت القنال الانجليزي ، واضطر البحرية الى اتخاذ اطواق المطاط والقوارب المحصنة التي انقذت حياة الكثير من البحارة في الحرب العظمى . ولكن جميع اقتراحاته ، مثل ادخال الترحلق على الجليد في سويسرا ، لم تجد من يعترف بها او يشكره عليها .

« الوجه الأخير » هو الفصل الثاني عشر والاخير في هذه السيرة . في الحقبة الاخيرة من حياة دويل ، بدأ يميل نحو الروحانيات . وقد كان ذلك تطورا طبيعيا في ذهن رجل لا يستطيع التخلي عن يقين يملأ عليه روحه . ففي شبابه نفر من المذهب اليسوعي والتفسيرات الكنسية ، وشغفه مذهب دارون واليقين المادي الذي يؤمن بالاشياء الملموسة . لقد قضى دويل حياته يدرس ويبحث ويطلع على كل زاوية من زوايا المعرفة ، كان آخرها الشغف بالارواح والعالم الآخر . لقد كانت بعض نتائج تلك الاستقصاءات تظهر في قصص المغامرة التي كان يحوك . وكانت الاشباح بعض مكونات قصصه . وكان دويل الى ذلك يؤمن بوجود عالم بعد الموت ، ولكن ايمانه يأتية عن طريق مادي منطقي . « فاذا لم تكن ثمة حياة بعد الموت ، فلماذا يسعى الانسان الى اصلاح نفسه ؟ » هذا هو اليقين الذي كان يشغل دويل ، وراح يجمع حوله الاتباع ، كما يفعل كل صاحب يقين . وبدأ اصحابه الكثيرون يلاحظون هذا التطور في شخصيته في آخريات ايامه ، وبخاصة بعد الحرب العظمى . فقد كان يشعر ان عليه واجبا يؤذيه في نشر هذه الآراء . مرة كان عليه ان يحاضر عن الموضوع في ثوتنجهام ، وكان ابنه كنجسلي يحتضر ، فرفض ان يؤجل المحاضرة قائلا ان الجمهور قد تعلم ان يثق به ، وهو لا يريد ان يخيب املمهم ، ولا امل ابنه المحتضر في ان يكون الاب امينا على مواعيده مخلصا « للقضية » . كان يضحي بكل شيء في سبيل « القضية » .

ففي اسفاره الكثيرة مع اسرته في يارة استراليا عام ١٩٢٠ ، واميركا عام ١٩٢٢ ، وثانية عام ١٩٢٣ ، وفي زيارة جنوب افريقيا عام ١٩٢٨ ، كان يجمع دخله من محاضراته ، وبعد ان يستقطع نفقات السفر والاقامة ، كان يتبرع بالباقي من اجل « القضية » . وبرغم ذلك كله لم يفقد ما لديه من روح الدعاية . مرة كان يزور لوس انجيليس في ضيافة « رجلي » ملك العلك « اللبان » فقال : « اذا علكت فينوس بدت مبتدلة ، واذا علك شكسبير بدا من الاجلاف ... ليس من عادة اقل احتراما من العلك . فقد يشرب الرجل خمرا ويبدو ملكا بين الملوك ، وقد يدخن فيبدو جدابا ، ولكن الرجل الذي يملك ينقلب حيوانا في الحال ، والاسوأ من ذلك ان المرأة تنقلب الى بقرة بالتمام والكمال » .

ولكن شعبية دويل بدأت تضحل منذ بدأ في مزاوله الروحانيات . ومع ذلك فقد ظهرت آخر رواياته العجيبة عام ١٩٢٩ بعنوان (اعماق ماراكوت) هنا يتحدث دويل عن احفاد حضارة منقرضة يعيشون في اعماق المحيط الاطلسي . ولكن الكتاب صورة عن انجلترا في عشرينيات هذا القرن : « لم يعد ثمة حياة اسرة هادئة ، ولا عناية بالدهن ، وليس غير شعب قلق ضحل ، يتراكم خلف اللدائد فلا يدركها ... لقد نشأت طبقة مفرطة الفنى لا تحفل بغير اشباع الرغبات الحسية ، تقابلها طبقة مفرطة الفقر تسمى لتلبية مطالب السادة ، مهما تكن تلك المطالب شريرة » .

كان دويل في آخر ايامه يعلن برمه بشخصيات هومز وقصص المغامرت مفضلا عليها رواياته : (وودني ستون) و (اللاجئون) و (الفرقة البيضاء) و (سرنابل) . ولكن الايام اظهرت ان القارئ الذي يلتفت الى هذه الروايات التاريخية يقابله مائة قارئ مشغوف بقصص هومز وجيرارد ، تلك القصص التي لا ينافس دويل فيها من الكتاب احد .

توفي دويل في ٧/٧/١٩٣٠ . وقبل وفاته بشماني عشرة سنة ، كان قد كتب ابياتا من الشعر يقول فيها :

اكون قد بلغت ما سعت اليه لو قدرت ان اعطي ساعة من البهجة
للفتى الذي نصه رجل والرجل الذي نصه فتى .

- ٢ -

آنجوس ولسن : رديارد كبلنج وسيرته العجيبة لندن ، ١٩٧٧

مؤلف هذا الكتاب اديب انجليزي « نصف جنوب افريقي » كما يقول عن نفسه . وقد نشر الى جانب هذا الكتاب خمسة عشر كتابا آخر في الرواية والسيرة والدراسة الادبية . والكتاب ضخيم ، يقع في ٣٤٣ صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيق ، تتوزعها سبعة فصول ، تزينها ٨٥ صورة وتخطيطا ، تتناول حياة كبلنج في مراحل شتى . لقد اعتمد الكاتب اسلوب

الدراسة الأدبية الرصينة ، التي تستند الى الكثير من المراجع والمقابلات والاحاديث مع من عرفوا كبلنج في مناسبات عدة . يتتبع الكاتب سيرة الرجل منذ أن ولد في مدينة بمباي بالهند في ١٨٦٥/١٢/٣٠ حتى وفاته في فندق براون في لندن في ١٩٣٦/١/١٧ ، قبل يوم من ذكرى زواجه ، وهو في طريقه الى مدينة (كان) بجنوب فرنسا . ولأن الكتاب يتناول الرجل في « حياته وآثاره » فإننا نجد يمتلىء بتفصيلات دقيقة ، قد يكون من المتعب ملاحظتها ، ولكنها تشكل من الصورة الظلال والاعماق والابعاد ، وتعود على القارئ دوما بنوع من المتعة ، وقد تثير كثيرا من القصص والاشعار التي ألفها كبلنج ، كما أنها - وهذا مهم - تفسر الكثير من مواقف كبلنج ، سواء في الحياة العامة ، أو في مواقفه السياسية التي لا يسهل على المرء أن يخرج بصورة واضحة عنها دائما . ولكن التفصيلات والدقائق تفيد القارئ أحيانا ازاء موقف سياسي بعينه ، يتضح لدى اطالة النظرائه لم يكن سوى رد فعل شخصي في غالب الاحيان ، لا يستند الى وضوح فكر أو فلسفة سياسية بعينها .

ويبدو ان الكاتب يريد ان يؤكد الناحية الفنية في أعمال كبلنج ، مشيرا في مناسبات عدة ان من الخطأ محاولة قراءة افكار الفنان في أعماله الفنية . وكان الكاتب يريد ان يقول لنا ان عامة الناس لا يعرفون من كبلنج سوى انه شاعر الامبراطورية ، وانه كان يعنى بالسياسة بالدرجة الاولى ، وانه كان يريد ان يرى بريطانيا امبراطورية لا تغيب الشمس عن ارجائها . ويوحى الكاتب ان في ذلك كله مبالغة لا مبرر لها ، وان كبلنج اديب وشاعر وفنان ، يحب وطنه ويحب اوطان الآخرين كذلك ، طالما ليس في نية الآخرين شن عدوان على وطنه أو على من يحب . ولكنه يحتفظ بكراهية خاصة للألمان والروس ، لم يسلم منها الاميركان ، رغم انه تزوج بأميركية وعاش اكثر من أربع سنوات في مدينة فيرمونت . ومن أجل ذلك كله يصف الكاتب سيرة كبلنج بانها « عجيبة » واكاد أقول « غريبة » لان القارئ لا يخرج من الكتاب برأى واضح للرجل في السياسة ، أو بموقف بعينه من حزب أو حكومة . فقد يكون مع صاحب رأى بعينه تارة ، ولا يلبث ان ينقلب على الرأى وصاحبه اذا بدا انه ضد « بريطانيا » .

يحمل الفصل الاول عنوان « الفردوس والسقوط » ويتحدث الكاتب عن مدينة بومباي على انها فردوس كبلنج الذي سقط عنه عندما عاده والده الى انجلترا وهو في السادسة من عمره ، ليقيم ست سنوات بعيدا عن الوالدين ، وعن الفردوس . يتصدر الفصل بعض أبيات من قصيدة نظمها كبلنج بعنوان « الى مدينة بومباي » عام ١٨٩٤ ، يقول فيها ان بومباي بالنسبة اليه « أم المدائن جميعا ... ولدت عند بابها ، بين النخيل والبحر ، حيث العالم والمراكب في انتظار » . محبة الهند ومحبة الاطفال يشكلان الاساس في كل ما كتب كبلنج من قصص وشعر . وقد بقى ذلك طابعه المميز طيلة حياته . فقد كان يجالس الاطفال ويصغي اليهم ويراقب تصرفاتهم ويتعلم منهم الكثير . ومن طبيعة الطفل ان « المكان » لديه يكبر حتي يصبح هو العالم . وهكذا كان شعور كبلنج نحو بومباي : فقد كبرت المدينة في عينه حتى

أصبحت الهند برمتها ، ثم أصبحت العالم اجمع . فهذا الحس بالمكان ، بألوانه وأصواته ، هو الذى جعل قصصه عن الهند من أروع ما كتبه كاتب عن « مكان » ولا يضارعه فيها الا ما كتبه (بيبر لوتى) الفرنسي عن الشرق الاقصى .

ينحدر كبلنج من سلالة تعتنق فى الدين مذهب « أصحاب الطريقة Methodist » ولكنه كان علمانيا ، مثل غالبية أبناء جيله - من الادباء ، لا يؤمن بما تعارف عليه الآخرون من التفسيرات الكنسية للدين . ولكن صفة « الوعظ » لدى أصحاب الطريقة تركت ميسمها فى أدبه ، فتجد شعورا يجرى فى تضاميف ما كتب من شعرو قصص ، ان الرجل يريد أن يقول لك شيئا بعينه ، ويكاد يشير بأصبعه أو يرفع صوته ليقول ذلك . وكان يعارض أصحاب الطريقة لانهم يعارضون الجندية والحرب ، وكان كبلنج مع الاثنين بحكم دراسته فى مدرسة (ويستوارد هو) التى تخرج فيها قبل التحاقه بالعمل الصحفى فى الهند . وكان فى طبع كبلنج كثير من الاطراق الحزين والقلق النفسى ، يفسر هذا النزوع الى الهرب من الطرق المألوفة والخروج الى العالم الاوسع وكثرة التجوال . عمل والد كبلنج فى الفن الزخرفى والنحت فى لندن ثم حصل على وظيفة لتدريس ذلك الفن فى (مدرسة الفن) فى بمباى ، التى تعنى بتدريب الاحداث على الفنون المفيدة فى البناء ، فأصاب الوالد وزجته سمعة طيبة فى الهند كانت خير عون لابنهما عندما جاء الى لاهور ليعمل كمراسل صحفى وهو فى السادسة عشرة من العمر . عندما بلغ (رديارد) السادسة من العمر وشقيقته (تريكس) ثلاث سنوات ، اضطر الوالدان الى العودة بهما الى انجلترا وايداعهما لدى ضابط بحرى متقاعد فى مدينة (ساوئسى) . لاسباب مادية بحتة ، ولخوف الوالدين من الامراض التى كانت تسبب فى نسبة عالية من وفيات الاطفال فى تلك الايام . اقام الصبي (رديارد) ست سنوات لم تكن سعيدة بحال ، وهو بعيد عن والديه ، فى رعاية مجوز غريب ، فظهرت لدى الصبي بوادر اضطرابات عصبية وضعف فى البصر ، مما اضطر الوالدين الى نقل الفتى الى مدرسة تعد الفتيان للخدمة البحرية ، ولم يكن الفتى سعيدا فيها قط . ولكنه فى هذه الفترة كان يقيم مع شقيقته لدى زوج خالته الفنان (برن جونز) الذى كان يعنى بالرسوم الساخرة ، مما جعل رديارد يهتم بهذا الفن كما تظهر قصصه الاولى وكثير من رسائله . وفى الثالثة عشرة اظهر رديارد كذلك ميلا الى السخرية مما ظهر فى شعره المبكر . وأصابه الارق فى تلك السن المبكرة كذلك ، مما جعله يسير فى الليالى ، وهى عادة لحقته فى أيام عمله فى الهند بعد ذلك بثلاث سنوات . كان الارق مما انحك صحتة ، ولكن الارق كان يغذى خيال ديستوفيسكى وديكنز من قبله فى تأليف القصص والحكايات . فى عام ١٨٩٤ ألقى رديارد خطبة فى توديع احد مدرسيه قال فيها ان « كل ما يريده المدرس والمدرسة هو صناعة الرجال الذين يصنعون الامبراطوريات ويحافظون عليها » . وبذلك اثبت كبلنج على نفسه صورة « الامبريالية » قبل ان يبلغ الثلاثين . وبسبب من اعتلال الصحة وعدم وجوده فى مدرسة مناسبة ، لم يستطع كبلنج دخول

كمبريدج او اكسفورد مثل بعض اقاربه واصدقائه ، وقد ترك ذلك في نفسه شعورا بالغيرة ، انعكست في الصورة الهائلة التي يرسمها في قصصه لرجل اكسفورد مثل (جلال الدين مكنوتوش) في بعض قصصه الهندية . ولكن جامعة اكسفورد كرمته عام ١٩٠٧ بمنحه شهادة فخرية ، الى جانب مارك توين الساخر الاميركي ، فكانت تلك من أسعد اللقاءات في حياته . بقيت ذكريات المدرسة ماثلة في ذهن كبلنج ، خلال اقامته في اميركا بعد زواجه ، فكان يكتب عددا من القصص تستند شخصياتها الى عدد ممن عرف في أيام دراسته . أما شعره فهو يعكس اهتماما بالغا بالمكان وتفصيلاته ، وكان الشعر أهم ما كتب في أيام الدراسة في (ويستوارد هو) شخصية المدير (كوم برايس) صديق والده اذ قضى الفتى مع مدير المدرسة اول اجازاته ، مما جعله يحس بشيء من السعادة لتغير جو المدرسة اثناء الاجازة . ثم وصل والده من الهند واصطحب الفتى الى باريس ، فكانت تلك الزيارة اول ما ألهم حماس كبلنج لكل ما هو فرنسي ، كما يبدو في الكثير من قصصه واشعاره وزياراته لتلك البلاد . وفي ربيع ١٨٨٢ كان كبلنج في احدى الاجازات المدرسية فتعرف على محرر (المجلة العسكرية والمدنية) الذي توسم في الفتى قابليات ادبية جمة ، فرأى أن يسرع في تمرينه على العمل الصحفي تحت اشرافه ، بناء على توصية من المدير (كوم برايس) . وهكذا كان على الفتى أن يذهب الى (لاهور) ليعمل في (المجلة) ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة بعد في ايلول/سبتمبر ١٨٨٢ . كان الفتى يفضل البقاء في لندن ومحيطها الادبي ، ولكنه كذلك كان يريد الابتعاد عن انجلترا ، فبقي موزع المشاعر ، واختار الذهاب الى حيث والديه ، ليبدأ حياة من الادب الصحفي ويشق طريقه نحو الشهرة .

« عودة الى الفردوس للعمل » هو عنوان الفصل الثاني ، حيث يستعرض الكاتب السنوات السبع من حياة كبلنج في الهند بين ١٨٨٢ - ٨٩ . كان هذا الشاب الضعيف البصر المصاب بالارق يدعو (لاهور) « مدينة الليل المرعب » وأحيانا « مدينة الموت » . فقد كان يسير الليالي ساعات بطولها ، يراقب ويسمع ويكتب عن خبرته قصصا وتقارير صحفية عن « بوابة دلهي » ومقاهي الحشيش التي يديرها صينيون يتاجرون بالمخدرات والرعب ... من المآذن والجوامع التي بناها سلاطين وفاتحون ، عن البشر المذبذب على قارعة الطريق بين الفقر والامراض ، عن الالوان الصارخة والموسيقى الصاخبة برغم كل ما حول البشر المعذبين في تلك الارض . يجد المراقب المدقق في مدينة لندن ملامح في قصص ديكنز ، ويجد في باريس ملامح في قصص بلزاك واميل زولا ، ويجد في ليننغراد ملامح في قصص ديستوفسكي ، ولكن مدينة لاهور لم يبق فيها ما يكتبه الآخرون ، لأن كبلنج قد كتب كل شيء وخبر كل شيء في المدينة ، وأودع تلك الخبرة في « قصصه الهندية » وفي « كتاب الادغال » . وكان في ذلك كله يعبر عن محبة عميقة للهند وأهلها ، ولا ينظر باحترام الى موقف « اليوراسيويين » وهم الانجليز المقيمون في الهند ، لأن اقامتهم كانت تتميز بنظرة متعالية نحو « الالهالي » ولكن كبلنج كان يرفض « الروح السياحية » لاولئك

الاوربيين في الهند . كان يقول : يجب ان تكون الهند حياتك جميعا أو لا شيء غير ذلك . وقد خبر كبلنج حياة الهند في المدن المجاورة لمدينة لاهور وكذلك المدن البعيدة عنها مثل (سيملا) و (الله آباد) (مدراس) التي مر بها عاجلا في رحلة بين سيلان ولاهور . كانت هذه الملاحظات والانطباعات تشكل « هند الخيال » في ذهن كبلنج ، الهند التي كتب عنها أجمل قصصه وأشعاره . أما « هند الواقع » التي عرفها بين أواخر عامة السادس عشر وأواسط عامه الثالث والعشرين فتبدأ في وصوله بومباي ، مسقط رأسه ، في آخر تشرين الاول / اكتوبر ١٨٨٢ ، حيث استقل القطار الى لاهور فوجد والديه مع محرر (المجلة العسكرية والمدنية) ستيفن ويلر ، الذي سبق أن قابله في لندن . كان محيط الوالدين والأصدقاء في لاهور محدودا ، وكان دخل الادب لا يشجع على التوسع في العلاقات الاجتماعية . وبرغم ذلك فقد كان الوالدان على صلة طيبة باثنين من كبار المحررين في المجلة ، الى جانب محرر جريدة (الرائد) شقيقة (المجلة) في مدينة (الله آباد) . وكان وصول رديارد ليعمل في تلك السن المبكرة ويكسب دخلا اضافيا مما أنعش حياة الوالدين في لاهور ، وشجع على استقدام شقيقة رديارد (تريكس) من انجلترا بعد وصول رديارد بسنوات قليلة . وقد تحسن الوضع الاجتماعي للوالدين حتى أصبحا من أصدقاء نائب الملكة في الهند .

راح الفتى رديارد يعمل بحماس في المجلة ، ولما مرض المحرر تولى الصحفي الشاب تحرير المجلة وإدارة العاملين فيها ولما يبلغ السابعة عشرة . وكان أهم عمل صحفي هو ترجمة الصحف الروسية الصادرة بالفرنسية عن المناوشات على حدود الأفغان ، وكانت معرفته بالفرنسية خير عون له في هذا المجال ، مما أعطى المجلة طابعا مميزا في لاهور . كان يبحث دائما عن المفامرة ، وقد شهد مرة أحداثا في أعالي البنجاب تتميز بالقسوة والرعب ، نجدها في تضاعيف قصصه اللاحقة عن حروب جنوب افريقيا أو الحرب العظمى . ولأنه كان يفضل مراقبة الأحداث على الطبيعة فإنه لم يكن يرتاد (نادى لاهور) برغم الأحاديث التي كانت تدور فيه عن حياة الانجليز في الهند . كان يفضل المشي ليلا بعد تعب المجلة نهارا ليشهد حياة الليل في تلك المدينة الخرافية . ولا يستطيع أحد أن يجزم كم من حياة الليل خبر الفتى وفي الواقع ، ولكن الأكثر قبولا أنه كان يستخدم تلك الوقائع ليحولها في خياله قصصا مثل « دون امتيازات رجال الدين » وهي القصة التي تتحدث عن مفامرات (هولدن) و (أميرة) . وفي عام ١٨٨٦ بدأ كبلنج يكتب قصصا لصحيفة (الرائد) جمع ٣٩ منها بعنوان (حكايات بسيطة من التلال) . ومهما يكن رأى النقاد في تلك القصص الهندية المبكرة فإن « نسبة عالية من قراء تلك الصحف قد نجحوا في امتحانات المسابقة بما يفوق قراء المجلات الانجليزية في لندن في تلك الايام » .

وفي خريف ١٨٨٧ انتقل كبلنج لتحرير الملحق الاسبوعي لصحيفة (الرائد) فنشر فيها الكثير من القصص التي اشتهر بها خارج الهند ، رغم أن أغلب تلك القصص كانت دون مستوى الجودة ، سوى واحدة بعنوان « كوميديا عرضية » وفي عام ١٨٨٩ صار بوسع الشاب رديارد أن

يقف على قدميه في عالم الكتابة دون مساعدة الغير، فأقام في (الله آباد) وهنا تعرف على أستاذ في الزراعة وصل الى الهند مع زوجته الاميركية : البروفسور هل . كانت صداقة كبلنج مع هذه الاسرة الجديدة متنفسا له من القوانين المفروضة من الانجليز على حياة الهنود ، وقد سبق للصحفي الشاب ان اشتبك في مناقشة حول اسلوب التعليم المفروض على الهند من اناس يحسبون انفسهم اعلى منزلة في مجال الحضارة . وفي هذا الوقت بدأت المجالات الادبية في لندن تلفت النظر الى اعمال كبلنج ، مما جعل رحلته الى انجلترا مع أسرة هل ممتعة جدا ، اذ بدأت من كلكتا الى بورما الى سنغافورة الى اليابان ثم الى سان فرانسيسكو حيث وصلوها في آذار/مارس ١٨٨٩ ومنها بعد اقامة قصيرة في اميركا ، الى لندن . ولم يعد كبلنج الى زيارة الهند سوى زيارة قصيرة لوالديه في لاهور عام ١٨٩١ . وعندما اقام في لندن بعد هذه السفرة الطويلة والابتعاد عن الهند راح يعبر عن اشمئزازه من الحياة في لندن من خلال قصص نشرها على لسان شخصيات هندية خيالية . بقيت محبة الهند تطفئ على قصص كبلنج حتى عند زيارته جنوب افريقيا ، حيث كان يكتب قصصه عن تلك البلاد ، ولكن شخصياته كانت هندية في الاساس . في عام ١٩٠٥ رفض كبلنج ان يرافق (امير ويلز) في زيارته للهند ، كما رفض ان يقيم مع (اللورد كرزن) نائب الملك في الهند عام ١٩٠٧ قائلا انه لا يريد ان يرى الهند وقد تغيرت عما كان يعرف في ايامه الاولى وفي شبابه في العمل الصحفي . وهذا الجانب من معرفة الهند في ادب كبلنج يجب ان يبقى الاساس في تقويم انجازه في الشعر والقصة اضافة الى رائحته : رواية (كيم) . ففي تلك الاعمال المبكرة نجد التفرد الذي يميز اسلوب كبلنج في نظراته الى البلاد واهلها ، وهذه هي الصفة التي تجعله مختلفا عن غيره من الكتاب . ففي تلك القصص يجمع عالم الطبيعة مع عالم الحيوان الى جانب العالم البشري . وثمة جانب « وعظي » في تلك القصص حول « القانون » يحمل الى القارئ احتراماً لأسلوب الحياة في الهند الى جانب اسلوب الحياة الاوروبية وينتهي الى القول ان عقيدة الغرب حول اهتمامات الانسان سوف تسود في النهاية ، وبخاصة في الازمات . بدأ كبلنج يفكر في كتابة (كيم) في اول عهده بالحياة الزوجية عندما اقام في فيرمونت ، ثم اكمل الرواية عند والديه ، مستغرقا في ذلك اطول وقت قضاه في انجاز اي كتاب . في هذه الرواية نلمس محبة كبلنج للمغامرة والتجربة وفي تقليد عبارات الناس مفرداتهم . وفي هذه الرواية نجد ملامح من « الوعظية » في الفن ، ولكن عالم « كيم » لا يختلف عن العالم المألوف بخيره وشره .

« معرض الخيلاء » هو عنوان الفصل الثالث ، الذي يتحدث من زيارته الاولى لاميركا عام ١٨٨٩ ، حيث أحب البلاد ولكنه لم يحب الناس فيها ، وكأنه لم يقدر له ان يحب من البلاد والناس الا الهند الهنود . كذلك كان حاله في لندن حيث لم يكن يحب الانجليز الذين عرفهم في المحيط الادبي في لندن ، ولا هو كان معجبا بالملكة فكتوريا نفسها « امبراطورة الهند » وقد ظهرت كراهيته لخيلاء بعض البشر يوم فرقت الباخرة « تايتانك » فوجد في غرقها نموذجا رمزيا

لما يمكن ان تؤديه خيلاء الانسان وثقته الزائدة بنفسه . كان عليه خلال رحلته الطويلة من الهند الى لندن عن طريق الشرق الاقصى واميركا ان يرسل صحيفة « الرائد » ويوافيها بمقالات عن مشاهداته . ولانه كان قد ترك قلبه في الهند ، فقد كان عليه خلال الرحلة « ان يدافع عن الهند ضد ما لا يقل عن ثلاثة ارباع سكان العالم » . في الرابعة والعشرين من عمره بدأ يتشكل في ذهنه « الحلم الامبراطوري » عندما مر بسنغافورة في اول مراحل تلك الرحلة الطويلة . صار يقول ان المناخ الاستوائي لا يصلح لاقامة الانجليز فترات طويلة ، لذا يتوجب على المستعمرات ان تبقى معتمدة على الحكومة المركزية في لندن ، والانطلقت في سبيل حريتها . وفي هذا الشعور كان كبلنج دائم الخوف من « العدو الخارجي » وهذا هو الاساس في مشاعره « الامبراطورية » . وعندما وصل لندن قادما من اميركا ، كان على وشك ان يتم خطبته لكارولين ، شقيقة السيدة هل ، بعد ان زار أهلها في بنسلفانيا ، وكانت هي في طريق العودة مع شقيقها الى (الله اباد) وهنا صار كبلنج وحيدا في لندن ، وصار له جماعتان في الهند يحن اليهما ، والده وأسرته هل . ولكنه اقتحم الحياة الادبية في لندن وكسب الرهان ، برغم ان سلاحه التحضيري لم يكن سوى تحضير تلميذ مدرسة وسط عاصمة تعج بالجامعيين وكبار الكتاب . وكاد ان يكسب الى ذلك عداوة وغيره بعض المشاهير . وفي اواخر القرن كان كبلنج قد عرف في الاوساط الادبية وكأنه ليس اكثر من صورة للحلم « الامبراطوري » . ولكن لما زاد جمهور قرائه ، اصبح ادب كبلنج اوسع من ذلك الحلم ومن تلك الآراء السياسية الضبابية : لقد أصبح افضل من نقل صورة صادقة عن الهند والهنود ، وكان ذلك هو الجديد في المحيط الادبي في اواخر القرن الماضي في انجلترا .

بعد اقامة سنتين في لندن ، تزوج كبلنج من كارولين في ١٨/١/١٨٩٢ ، وفي الشهر اللاحق ابهر العروسان الى اميركا . جاء كبلنج الى اميركا بمشاعر مختلطة ، منها ما كان قد جمعه من قراءاته لمشاهير الكتاب الاميركان في شبابه ، ومنها ما جمعه من زيارته الاولى لاميركا بعد ترك الهند عام ١٨٨٩ . كان كبلنج قد خلف في اميركا سمعة اديب لاذع العبارة في نقد الاميركان ، اكثر مما وصف به ديكنز والسيدة ترولوب (والدته انتوني ترولوب ، التي كتبت تسعين رواية) قبل ذلك بنصف قرن . وكانت شهرته الادبية قد سبقته الى اميركا قبل وصولها هذه المرة ، وذلك من تهريب ما نشر من مقالاته عن الرحلة الاولى في مجلات الهند وبخاصة صحيفة (الرائد) . هذه المرة كان كبلنج يأمل ان تستطيع اميركا بمعاونة بريطانيا القيام بتنظيم العالم بما لدى الدولتين من قدرات فائقة وتضحيات . ولكن هذا الحلم كان خطوة أخرى نحو فشل التحقيق عندما بدأت الدولتان ، وبخاصة بعد الحرب العظمى ، تصطرعان على نفوذ مستقل لكل منهما . ويبدو هذا الشعور بالفشل في كتابات كبلنج منذ ذلك التاريخ حتى أخريات أيامه . ونراه ينحاز نحو اليمين المتطرف في السياسة على أمل ان برامج اليمين ستحقق له أحلامه . ولكن كتاباته اللاحقة أثبتت انه كان فنانا بالدرجة الاولى ، اما في السياسة فقد كان رومانسيا حالما .

في أميركا عرف كبلنج « أرضا بلا أسوار » فيها من الحرية ما لا يوجد في العالم القديم . ولكنه لم يكن معجبا بأخلاق الأميركيين أنفسهم وعاداتهم الشخصية مثل التفاخر ، البصاق ، وقاحة موظفي الجمارك والفنادق ، تدخل الصحفيين في ما لا يعنيهم من شؤون الآخرين ، فساد السياسة ... وهي مسائل سبق ان لاحظها ديكنز قبله بنصف قرن ، ولعل أكثر ما أغضب كبلنج عدم احترام الناشرين في أميركا لحقوق المؤلف .

يستعرض الفصل الرابع موقف كبلنج من حرب البور وما سبقها ورافقها من الاوضاع السياسية في بريطانيا ، حيث نجد صورة أخرى لفكر الفنان في آرائه السياسية الرومانسية ، وفلوائه الوطنية التي لم تتبلور في رأى سياسي متزن ، يمكن تحديد ملامحه وآثاره في التطبيق . فقد عاد كبلنج من أميركا ليقیم في فندق براون بلندن ، ملتقى الأثرياء الأميركيين ومشاهير المحيط الأدبي في لندن . وهنا يبدو موقف كبلنج من إنجلترا وقد تغير بعد اقامته الأميركية . فقد بدأ يساهم في جميع المناسبات والمواسم الأدبية في العاصمة وكأنه يريد الانسجام مع هذا المحيط ويحس بالعائدية اليه ، وليس من فنان لا يريد حسا بالارتباط بمكان بعينه ومجتمع بعينه . كان عام ١٨٩٧ عام الاحتفال بالذكرى الستين لتتويج الملكة فكتوريا ، وقد جلب له هذا العام اعترافا من جامعة أكسفورد ، تنامي حتى منحه الجامعة شهادة فخرية بعد عشر سنوات ، وفي عام ١٩٠٨ منحه كمبريدج شهادة مماثلة . وفي عام الاحتفال قبله (نادى اثنايوم) عضوا بارزا ، وهذا اعتراف من الوسط الأدبي بتميزه وشهرته . وفي هذا الوقت تعرف على (سيسيل رودس) و (الفريد ملنز) أهم شخصيتين في « السياسة الامبراطورية » . وفي هذا الوقت بدأت آراؤه السياسية في التطور بشكل مضطرب ، فنشر في (التايمز) قصيدة بعنوان « انحسار » ينعي فيها على بريطانيا تقاعسها عن القيام بدورها في العالم بنشر النظام والحضارة . وبعد ذلك بسنة ، نشر في (التايمز) كذلك قصيدته التي اشتهر بها أكثر من سواها في آرائه « الامبراطورية » وهي بعنوان « عبء الرجل الابيض » ففي عام ١٨٩٨ كانت أميركا ما تزال أملا يراوده في الوقوف مع بريطانيا في تحمل عبء الرجل الابيض لنشر الحضارة . ولما قامت الحرب في تلك السنة بين أميركا واسبانيا حول كوبا ، وجد كبلنج في هذه الحرب مناسبة لاجتماع البلدين بترائهما الانجلو سكسوني لوضع حد لاستعمارية اسبانيا وآرائها السياسية التجارية العتيقة . كانت قصيدة « عبء الرجل الابيض » تمثل الجانب الايجابي للدور المنتظر من أميركا في تعضيد بريطانيا ، مثلما كانت قصيدة « انحسار » تمثل الجانب السلبي في موقف بريطانيا من مسؤولية التمدين والتحضير . وكان كبلنج في الحالين مدفوعا بخوف من عدو مشترك للحضارة الانجلو سكسونية ، فراح يدعو الى « سلام بريطاني » منظم ، أو « سلام انجلو سكسوني » أو في « سلام فرانكو - بريطاني » . كانت مشاعر كبلنج ومخاوفه بين ١٨٩٧ - ١٩٠١ تردد أصداء مماثلة عند عامة الناس في بريطانيا ، ومن هنا جاءت شهرته كداعية للروح « الامبراطورية » في مقارعة « الاستعمار » القديم . وفي عام ١٨٩٨ كذلك قام كبلنج برحلة بحرية في القنال الانجليزي جعلته على مقربة من ضباط

البحرية البريطانية وقوت من آرائه حول دور البحرية في نشر آرائه عن دور بريطانيا في العالم . وفي هذا الوقت كان كبلنج ما يزال على مخاوفه من « العدو الخارجي » المتمثل في القوة البحرية الألمانية وفي « الدب الروسي » ورغم آراء ثلاثة من زعماء سياسة اليمين بإمكان الوصول الى تفاهم مع ذلك « العدو » . ولما قامت المظاهرات في بريطانيا تطالب بزيادة القوة البحرية (رغم معارضة تشرشل) وجد كبلنج في ذلك مصداقاً لمخاوفه على المستوى الشعبي . وكان ثمة « عدو » آخر أمام بريطانيا يتمثل بالفلاحين الهولنديين في جنوب افريقيا بزعماء « كروجر » وهنا بدأ اهتمام كبلنج بجنوب افريقيا في الفترة ١٨٩٨ - ١٩٠٨ . فقد أعلن كبلنج صراحة أن « البور في اقليم الرانسفال قد يتمردون على السلطة البريطانية في جنوب افريقيا ، مدفوعين بعون من احدى القوى الاوربية ، عند ذلك يجب القضاء عليهم » . كان تشيمبرلن ورودس وملنر قادة اليمين في معالجة الوضع في جنوب افريقيا ، ولكن كبلنج كان يراهم جميعاً مقصرين في النهوض باعباء الرجل الابيض . لقد شهد كبلنج جانباً من حرب البور ، وعمل بجد كمراسل صحفي ، وخرج بعدد من القصص عن ذلك الجنوب الافريقي ، ولكنها باطالها ومحيطها تبدو نسخة أخرى عن تجربته الهندية . لم تكن تلك القصص من المستوى الجيد ، غير أنها كانت تفصح عن مشاعره السياسية . كانت تمتلئ بالكراهية والحقد ، لا على « أعداء » بريطانيا الظاهرين ، بل على أعدائها غير المعلن عنهم : المحايدون ، الاجانب الذين ساندوا البور ، فلاحى الدولة الحرة في الرانسفال ، والمثقفين الامريكان الذين وقفوا الى جانب (كروجر) ورغم ولائهم الظاهر لبريطانيا . وكان حصيلة ذلك ذلك قصتان نشرهما في (التايمز) لدى عودته الى لندن من جنوب افريقيا في نيسان/ابريل ١٩٠٠ ، وليس فيهما من القيمة الادبية قدراً فيهما من الهجوم السياسى على « خونة الدولة الحرة » وخونة (الكاب) . وفي ١٩٠١ استدعى ملنر الى لندن فترك ادارة (الكاب) وفي ١٩٠٢ توفي رودس فجأة ، فخرس كبلنج اثنين من أبطاله في الحلم « الامبراطورى » في « جنوب افريقيا انجلو سكسونية » . وبدأت آراؤه السياسية في هذا المجال تضحل تدريجياً مع الايام . وفي ١٩٠٣ بدأت أحاديثه وقصصه تفصح أن بريطانيا كانت تخوض معركة خاسرة في جنوب افريقيا . رغم انه لم يستطع الاعتراف بذلك علناً . وراح يهاجم ساسة اليمين ويتهم « الطبقات العليا » في بريطانيا في سياسة الجنوب الافريقي ، ويدعو الى سياسة تخلو من « النظرة الطبقية » . وفي ١٩٠٣ لم يبق أمام كبلنج في حلمه « الامبراطورى » سوى (جوزف تشيمبرلن) الذى ذهب في زيارة الى (الكاب) فراح كبلنج يكتب المقالات التي تقول ان رئيس الوزراء البريطاني وقع في حبال (جروجر) وزعماء البور . وفي ١٩٠٩ قام (اتحاد جنوب افريقيا) وكان كبلنج في ذلك التاريخ قد نسي أو كاد ينسى كل علاقة له بجنوب افريقيا ، وشغلته احداث اوربا ، فراح « يبحث عن وطن جديد ليحبه » وجاء هذا الوطن في شكل فرنسا . وعندما نشر قصصه عن التجربة الافريقية ، كانت قصصاً يقصد بها « أن تقرا بصوت مسموع ... للاطفال » تمتلئ بأحاديث وصور عن ادغال افريقيا وحيواناتها ، وفي ذهنه دوما خبرته الهندية .

« الحماسة وسوء الحكم » : انجلترا بين ١١٠٢ - ١١١٤ « هو ما يقدمه لنا في الفصل الخامس . ففي آذار/مارس/١٩٠٥ كتب كبلنج من جنوب افريقيا الى صديقه مسز هل ، أخت زوجته ، قائلا ان قصصه الافريقية التي ظهرت قبل ذلك بسنة بعنوان (مشاغل واكتشافات) كان المفروض فيها أن تظهر تحت عنوان احدى القصص « جيش الحكم » وتكون بمثابة كراسة سياسية. ولكن تبرير فشل تلك القصص البحرية لم ترتفع الى مستوى الجودة ، يستثنى من ذلك قصتان : « لاسلكي » و « هم » اضافة الى قصة واحدة ممتازة بعنوان : « تحت سدة الطاحون » . في هذه القصة تعبير عن خوف كبلنج وخيبة امله عن فشل انجلترا في مهمتها التحضيرية التمدينية واخفاؤها في الاستعداد للمستقبل . والقصة في اطارها هجوم سياسي على حكومة المحافظين عام ١٩٠٢ . ومع مجيء حكومة الاحرار عام ١٩٠٦ زادت مخاوف كبلنج على مستقبل بريطانيا بما انطوت عليه سياسة تلك الحكومة من « غوغائية وفوضى وفساد تحت اسم « الاشتراكية » وفي عام ١٩٠٨ نشر كبلنج قصة تنطوي على هجوم سياسي على حكومة الاحرار بعنوان « الخلية الام » . ليس في القصتين من القيم الادبية مما يجعلها موضوعا يرجع اليه ، لأن الهجاء السياسي في الادب موقوف بزمان ومكان، حتى هجاء شاعرين كبيرين من وزن درايدن وبايرن . ولا يمكن مقارنة الهجاء السياسي عند كبلنج بكتابات جورج اورويل مثلا ، فضلا عن جونائلن سويفت في (رحلات جليفر) . ولكن اشعاره السياسية امتدت بين ١٩٠٢ - ١٩١٢ ، تبني قضية الجنود العائدين من جنوب افريقيا ، وترسم لهم مستقبلا وحلولا على شكل : الامبراطورية ، الهجرة ، الاستيطان في استراليا . في هذه الفترة راح كبلنج يجاهر بعوائده السياسية لنقابات العمال والاشتراكيين وعشاق الديمقراطية والطبقات التجارية ، قائلا ان ذلك كله لن يصمد عندما يداهمنا « العدو » . كانت السياسة الداخلية أبرز نقاط الضعف في حكومات اليمين المتطرف ، الذين كانوا يرون بناء الامبراطورية متصلا بالتغيير الاجتماعي في الداخل ، وهو ما يذكركنا بآراء ديكنز ورسكن وتنسون من الادباء في وجوب اخماد التمرد في جمايكا . وذلك التغيير يحتاج الى معرفة دقيقة باوضاع المستعمرات واوضاع بريطانيا ، مما لم يكن في مقدور أي سياسي او فئة حاكمة في تلك الايام ، رغم ان الحديث عنه كان بمقدورهم جميعا ، ولكنهم كانوا يقصرون لدى التطبيق ، بما في ذلك كبلنج نفسه . واذا كانت قصة « جيش الحلم » التي اراد لها كبلنج ان تكون عنوان هجائه السياسي ، ليست سوى دعاوة سياسية محكومة بظروفها الآنية ، فان اهميتها للناقد الادبي تكمن في انها بداية الاضمحلال في قواه القصصية . اما هجومه على حكومة الاحرار في قصة « الخلية الام » فهي تقول ان أعداء الامبراطورية الجدد هي افكار « التقدم ، الفردية المتحررة ، مذهب السلام ، العالمية ، المساواة... » وامثال ذلك مما يحول بين الامبراطورية وبين مواجهة الخطر الالمانى المتعظم ضد رسالة التمدين » . ومن اجل بلوغ تلك الرسالة ، وجد ان اسلوب التطوع للجيش كان قليل الفائدة وكان من الضروري لذلك اتخاذ اسلوب « الخدمة الوطنية » الالزامي . ولكن ذلك لم توافق عليه حكومة الاحرار ، ولما قامت الحرب العظمى وجد كبلنج نفسه يلقي الخطب في الحث على التجنيد الالزامي . وفي عام ١٩٠٧ ذهب كبلنج في زيارة

رسمية الى كندا مجدداً أمله أن هذا الجزء من «الدمنيون» البريطاني قد ينعش آمال الامبراطورية بعد أن خاب أمله في اميركا . نشر كبلنج قصيدة في تحية كندا ، التي قدمت معاملة تفضيلية أمام البضائع البريطانية ، داعياً تلك البلاد «سيدة الثلوج» التي سوف تكون أول من يلبي نداء الحرب، وداعياً بقية أعضاء «الدمنيون» أن يتبعوا مثال كندا . في كندا كان استقباله فخماً ، وراح يفدق في المديح في خطبه ، معلناً في وسع بريطانيا «السماح لخمسة ملايين» أن يهاجروا الى كندا من بين الاسر العاملة في الوطن الأم .

في الفصل السادس نجد صورة عن أوضاع كبلنج الصحية ، وشيئاً عن تاريخ حياته قبيل الحرب العظمى. ففي أيلول/سبتمبر ١٩٠٢ انتقل كبلنج والأسرة من الساحل الجنوبي في إنجلترا الى منطقة الشمال الشرقي منها ، في قرية صغيرة وفرت له ما يشبه العزلة عن العالم الخارجي ، ليتفرغ للكتابة ويتعد عن صخب الحياة والسواح على الساحل الجنوبي من البلاد . وفي «برواش» كان يتغير نحو الأفضل ، لان القرية كانت تقع في وسط مناظر طبيعية متنوعة كان وضعه الصحي في أشد الحاجة اليها . وفي عام ١٩٠٤ نشر قصة بعنوان «هم» يرى فيها الكثير من النقد تعبيراً عن ألمه لوفاة ابنته جوزفين في نيويورك وكانت لم تبلغ الرابعة . وفي هذه القصة نجد حبه القريب للأطفال ، في عبارات قد يجد فيها بعض المولعين بعلم النفس مجالاً خصباً للتحليل وتفسير «سوداويته» وآلامه النفسية . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن «في نفس الحال» ١٩١١ ، وعن «الكلب هيرفي» ١٩١٤ . في القصتين ثمة عناصر مشتركة : ففيها معاً تصوير ملموس لشعور باليأس يوشك أن يقع . وفيهما معاً نصل الى سبب عصابي في مرض الشخصيات في القصة . ولكنهم في النهاية يظهرون في تمام العافية . وهكذا يكون المحيط النفسي العصابي مفروضاً من الخارج وقد أقحم على القصة التي تخلو من صراع داخلي مثل هذه الصفات في قصصه الأخيرة جعل الكثير من النقاد والمعجبين بأدب كبلنج يعتقدون أن أعماله المتأخرة بدأت تظهر الاضطرابات النفسية في شخصية الكاتب ، تلك الاضطرابات التي بدأت مبكرة ، في السنوات الست التي قضاها في إنجلترا بعيداً عن أبويه في بومباي ، عندما كان في السادسة من عمره . وفي خلال اقامته في اميركا ، وفي العقد الاول من هذا القرن ، ظهرت على كبلنج علامات الضعف العصبي أكثر من مرة . ولا شك أن الارهاق والعمل المتواصل في الكتابة والمحاضرات والمناقشات السياسية كان لها جميعاً أثر في ذلك . كانت زوجته كرى (كارولين) موضوع بحث لدى الكثير من النقاد . كم من التأثير كان لها في شخصية الكاتب ؟ الى أي حد كان لها يد في كتابة أو نشر بعض القصص ؟ كم كان مقدار فهمها لعمل الكاتب وأدبه ؟ في هذا المجال لا يبدو أن كاري كان لها تأثير ايجابي على إنتاج الكاتب ، ولكنها كانت «سيدة البيت» تحسن ادارته وتلاحق الحسابات والزيارات والواجبات الاجتماعية . وبسبب من براعتها في إدارة الامور المالية أصبح كبلنج على جانب من الثراء الكبير عند اعتلال صحة الزوج والارهاق العصبي الذي أصابه إبان الحرب العظمى .

الفصل السابع والآخر في هذا الكتاب يدور حول الحرب العظمى وما بعدها . في اثناء تلك

الحرب نشر كبلنج ثلاث قصص ، ولم يكن نشيظاً أثناء الحرب بشكل خاص . فاضافة الى اعتلال صحته ، كان لوفاة ابنه جون في السنة الثانية من الحرب أبلغ الأثر في نفسه . لقد صارت قصصه بعد الحرب تهتم بالاثار العصبية والنفسية التي خلفتها الحرب على الجنود . وكان الذي شغله بعد مقتل ابنه عملاق كيران : الاول كتاب (الحرس الايرلندي زمن الحرب) الذي اتعبه كثيراً ولم ينجزه الا عام ١٩٢٣ . والعمل الثاني البحث عن قبور قتلى الحرب في أوروبا وفي تركيا وفلسطين والعراق ، وهو العمل الذي امتد به الى اواسط العشرينات . فبعد زيارة مواقع القتال في شمال أوروبا الغربية نشر قصة بعنوان « البستاني » في عام ١٩٢٦ عبر عن مشاعره تجاه ابنه القتيل . وقد قيل ان أعظم نقص يؤخذ على اعمال كبلنج هو غياب الحب في قصصه ، باستثناء (كيم) . والملاحظ أن ثمة تجرعات كبيرة من الكراهية في أعماله وبخاصة في اوائل القرن وبعد الحرب . ورغم ان بعض تلك القصص عليها مسحة من الرحمة والتعاطف ، ولكن ذلك من نصيب الكاره لا المكروه . فقد كان ينظر الى الحرب على أنها ضرورة لوقف العدوان ، وكان يرى أن أحسن وقود للحرب هو الكراهية للعدو . وقد وجد كبلنج في الحرب العظمى مناسبة لتجديد كراهيته للامان ، ذلك الشعور الذي بدالديه في اواسط التسعينات . لقد بلغت كراهية الامان لديه حد العنصرية . ففي ايار/مايو/١٩١٦ كتب في (الديلي اكسبرس) يقول : « علينا أن ندخل شيئاً في عقولنا الكثيفة : وهو انه حالما يجد الالماني مجالا يزدهر فيه فان ذلك يعني موت البشر المتحضرين ، تماماً مثل الجرائم في أي مرض . . . موت دنىء او خسارة للبشرية . . . الالماني تيفوئيد او طاعون . . . وان شئت : الوباء الالماني » . وفي آخر رسالة كتبها كبلنج الى صديقه جيمس باري في كندا في ١٩٣٦/١/٤ أي قبل وفاته بأسبوعين ، قال ان المانيا « اشبه بمخلوق مدجج بالسلاح يقف وسط حركة المرور ويقلق كل شيء . لقد سبق لالمانيا منذ خمس أو ست سنوات أن فسرت السبب وراء تسليحها كما فعلت لست أو سبع سنوات قبل الحرب . وفي هذا المجال أرى ان المانيا قد احترمت أقوالها » . وفي عام ١٩٣٥ ألقى كبلنج محاضرة أمام (جمعية القديس جورج) حذر فيها من تصاعد القوة النازية ، ودعا فيها للتهيؤ للحرب ، وقد أثبتت الاحداث صدق ما ذهب اليه .

وبعد الحرب العظمى لا نجد أثراً كبيراً لتلك الاحداث في كتابات كبلنج . أما « الامبريالية » فقد أصبحت مزيجاً من الحماس البلاغي وملاحقة المصالح الاقتصادية . وان كبلنج قد بدأ يشيخ ، ويجد قليلاً من الامل في التفاهم مع العالم الجديد . فقد رأى أن الحرب جمعت بين أعضاء « الدمينون » طالما كانت الحرب قائمة ، وبعدها بدأت اطماع الفردية في الظهور ، وبخاصة في السياسة الاميركية مما أثار حنق كبلنج وأثار موقفه القديم من الاميركان . ولكن السبب الاول في ابتعاد كبلنج عن السياسة في الحقبة الاخيرة من حياته هو انهيار صحته ، مما جعله أكثر انطواء على نفسه . ولكنه بين ١٩٢٠ حتى وفاته كان يكثر من الاسفار ، تسرية وتسلية . فقد دفعته الرياح الى الجزائر والبرازيل وجمايكا وتشيكوسلافيا وبولجيا واسبانيا . وفي اوائل كانون الثاني يناير/

١٩٣٦ زاد عليه المرض وهو في فندق براون بلندن ، ونقل الى مستشفى (مدلسكس) حيث توفي في ١٧/١/١٩٣٦ ، واحرق جثمانه وادع في « زاوية الشعراء » على مقربة من تشارلز ديكنز في ويستمنستر ابي .

(٣)

نوئيل بابر : كان الاهالي كرماء .. فاقمنا الليلة - لندن ١٩٧٧

مؤلف هذا الكتاب صحفي حتى العظم ، انجليزى حتى النخاع ، يعشق المغامرة ويحب الحياة بشتى صنوفها واحوالها ، يحب الناس جميعا يسخر من كل الناس مبتدئا بنفسه - كائى انجليزى عريق - ولا يعرف معنى كلمة مستحيل ، ولا يقبل كلمة صعب . وهو يعرف على استعداد ليعمل كل شيء ، ويستمع الى كل شيء ، ويقابل أى انسان فى أى مكان بحثا عن المغامرة والطرافة والغرابة .. وقد يخيل للقارىء سيرة نوئيل بابر ان الغرائب والمعجائب والطرائف هى التي تبحث عنه ، وليس هو الذي يبحث عنها . وقد يخيل للقارىء أن الرجل يبالغ في ما يقول ويحكى ، وقد ، وقد .. الخ ولكن يبقى شيء واحد واضح ، وهو ان الكتاب سلسلة متواصلة الحلقات من القفشات ، والصدف العجيبة . ليس في الكتاب عقد ولا مشاكل ، ولا بداية ولا نهاية ، ولا تواريخ متشابكة ، ولا مسائل تحتاج الى تفسير ، ولا ظواهر تحتاج الى توضيح ... من أول كلمة في المقدمة الى اخر كلمة في الكتاب تحس ان الرجل امامك يحدثك ولا يكتب لك شيئا لتقرأه .. يحدثك : فلفته لغة الحديث لا لغة الكتابة ، وتكاد « تسمع » حديث بابر ونبرات صوته الخبيثة وحركات وجهه المعبرة وهو يروى لك طرفة او يسرد لك حكاية وقعت له . ومن أجل ذلك لا أحسب أن ترجمة هذا الكتاب الى لغة غير الانجليزية يمكن تحتفظ للكتاب بنفس النكهة مثلا . لان النقل سيذهب بحلاوة لغة الحديث . ولا أحسب أن عرض مثل هذا الكتاب يحتاج الى تحليل أو تعليق . فهذا كتاب أشبه بمعزوفة موسيقية جميلة كل ما يستطيع المرء فعله هو أن يعيد عزف تلك الموسيقى ليسمعها من جديد . ولا أحسبني قادرا على أكثر من تلخيص ، واعادة رواية ما في هذا الكتاب ، لمصلحة القارئ العربى الذى لا يستطيع قراءته فى الاصل الانجليزى او لمصلحة القارئ الذى لا يستطيع الحصول على الكتاب ، رغم أنني لا أجد سبب لذلك . فالكتاب حديث وقد صدر عام ١٩٧٧ ، وأحسب ان من يقدر أن يحصل عليه لن يلومني على اقتراحى ، اذ سيجد القارئ ساعات من المتعة ليس في وسع كثير منا أن يفرط بها هذه الايام .. لسبب أو لآخر . هناضحك « متحضر » لا يستند الى نكات سميحة ، بل فكاهة سلسلة تدور حول عشرات من الشخصيات التي عرفها الكثير من القراء العرب ، من مجرد الثقافة العامة والاطلاع على ما في الدنيا من اخبار منذ عشية الحرب العالمية الثانية الى اليوم . هناصحفي يروى ما حدث له في حياته الصحفية خلال الاربعين السنة الاخيرة ، وهذه سيرة ذاتية تصور عناد الانسان ان هو اراد النجاح في مسعاه رغم الصعاب ، وهذه قصة انسان يضحك من كل شيء ، ولا يستسلم لاي عارض ، بل يواصل مسعاه ولو بعد كبوة ، ويضحك ، دائما يضحك .

يقع هذا الكتاب في ٢١٨ صفحة من القطع المتوسط ، وهي تسعة عشر فصلا . وهو الكتاب السادس والعشرون من قلم الكاتب ، من بينها ثلاثة كتب بالاشتراك مع غيره . كتب نويل باربر في التاريخ المعاصر ، والسيرة ، والاسفار ، والسياسة والحرب . وهذا آخر كتبه أنجزه بين ١٩٧٥ - ٧٧ . فمئذ أن كان باربر في التاسعة من العمر كتب كتابا في ثلاثين صفحة كان يطالب أصدقاء والدته بفلس واحد لقاء قرائته ، وما زال يكتب منذ ذلك التاريخ ، ويكسب الوف الأضعاف عما كسب من كتابه الأول ذي الثلاثين صفحة . وفي الرابعة من عمره نشبت الحرب العظمى ، وكان في الدانمرك مع والديه ، وكانت مغامرته الأولى أن الألمان طاردوا الباخرة التي اقلتهم إلى بريطانيا واحتجزوها ثلاثة أشهر . ومنذ ذلك التاريخ لم ينقطع نويل باربر عن المغامرة . فهذا إذن كاتب مغامر منذ « نعومة أظفاره » واليوم وهو في السبعين لا أحسب أن أظفاره بقيت ناعمة ، ولكنه ما زال « يتكلم » بروح شاب في العشرين .

عنوان الفصل الأول : « الربيع في باريس » يذكرنا باغنية (دوريس داي) وهي فاتحة جميلة لسيرة ذاتية تبدأ بقوله : - « ليس هذا الكتاب عن لعبة التنس ، ولكن ... » ثم يبدأ الشلال اللغظي ولا تعرف أين ينتهي . الصدفة وحدها ساقط الكاتب إلى مونت كالوليشهد لعبة تنس تغيب عنها أحد اللاعبين فحل هو محله بالصدفة ، ويبدأ صداقة مع (لورد رودمير) في أواسط الأربعينيات في لعبة ربحها مع صديقه الجديد . يقدم الكاتب نفسه وأسرته في جملتين ويقفز إلى ذكر رحلاته في أرجاء العالم ، ثم يعود بخفة إلى الحديث عن أسرته . عند نهاية الحرب عمل باربر محررا لجريدة (ديلي ميل) في باريس وهو في الخامسة والثلاثين . وفي الثالثة والأربعين أصبح مراسلا صحفيا في البلاد الأجنبية ، وفي حدود الخمسين صار يكتب الكتب ليعيش ... أحسن عيشة . وتبدأ الذاكرة تتطافر ، عن أحداث طفولته وشبابه وكهولته ، وليس من رابط منطقي يجمع بين ذكر حادثة وأخرى . ليس غير التذكر ... يبدأ بقوله كيف أنسى يوم كذا أو كذا ، ويسرد لك حادثة لا تدري لماذا يسردها ، ولكنها دائما حادثة طريفة . مرة كنت أزور بيكاسو ... هكذا يبدأ باربر ... فجاءت امرأة تجادله حول مبلغ كبير طلبه لقاء تخطيط ساذج فقال لها « يا سيدتي » ذلك التخطيط استغرقني نصف ساعة - وخمسين سنة - لكي أنجزه . ثم يعود إلى مونت كارلو و « الصدفة » التي دفعته للعب الروليت بعد اختيار الرقم ٩ لأنه ولد في ٩/٩/١٩٠٩ . وبالصدفة كذلك يضع مبلغ السبعين جنيهها التي في جيبه ويربح ألفا وخمسمائة دفعة واحدة يكتسبها وكأنه مقامر عريق . والحياة في باريس عام ١٩٤٥ تثير الحنين لدى الكثير ممن عرفوها أو قرأوا عنها . هنا مراسلون في كل صحف الدنيا ، يعيشون عيش الكفاف وهم سعداء لمجرد وجودهم في باريس . كانت وجبة الطعام تكلف ٢٠ - ٣٠ باون تلك الأيام ، وهي ليست مشكلة إذا استطعت أن تجد كرسيًا غير مشغول في أحد المطاعم . وفي ذلك الوقت كانت الأحداث تتسارع في نهاية الحرب عندما كان ترومن « يلعب » القنبلة الذرية استعدادا لالقائها على هيروشيما . وكان ديجول قد عاد إلى فرنسا ولكن الأميركان تقاعسوا في الاعتراف بتلك

الحقيقة ، مما أثار نقمة دييجول والفرنسيين على أميركا . وكان ذلك العام كذلك عام انتقام دييجول من « الخونة » الفرنسيين في جماعة (بيتان) .

في الفصل الثاني يقول باربر ان « احسن الاشياء في الحياة تأتي مجانا » وهو يتحدث عن غلاء اسعار المطاعم والطعام في باريس في صيف ١٩٤٥ . ولكن باربر استطاع ان يقنع صاحب أشهر مطعم في باريس (مكسيم) ان يقدم له ولضيوفه ما يعادل ربع مليون فرانك من الطعام شهريا مقابل ان يعلن عن المطعم في جريدة (الديلي ميل) التي يحررها في باريس نويل باربر . وكان باربر بذلك قد ربح مرتين : مرة بالحصول على تلك الكميات الضخمة من الطعام ومرة بالاعلان في جريدته التي لا يعلن فيها أحد ، لانها تصدر بالانجليزية في باريس ولا يقرأها سوى القوات البريطانية والأميركية ، وهؤلاء لا يأكلون عند (مكسيم) . ولكن الاعلان ذاته كسب اعلانات اخرى لانه اعلان عن (مكسيم) .

في ذلك الوقت الذي كان من الصعب فيه اخراج النقود من مكاتب الديلي ميل في لندن كان على باربر ان يصدر الجريدة في باريس بالحد الأدنى من النفقات سواء على الموظفين او على المساهمين في الكتابة . وقد استطاع باربر ان يستكتب عددا من المشاهير الذين كان يعجبهم ان تظهر اسماءهم في جريدة قد مسها سحر باريس ، ولو بأقل المكافآت عن مقالاتهم ، ازاء هذه الصعوبات المادية كان ثمة مفارقات عجيبة كان أغلب المحررين العاملين في الديلي ميل اليمينية يعملون كذلك في (الامانييتية) اليسارية على الجهة المقابلة من الشارع ، في سبيل دخل اضافي . مرة فوجيء المحرر براتر فرنسي عند أول بداية العمل في الجريدة ، وكان الزائر مختصا « بالتدليك » . كان المحرر السابق يستخدمه ليعوض عن قلة التمرين الحركي بسبب الجلوس وراء المكتب ساعات طويلة . ولم يكن بوسع المحرر باربر دفع هذه النفقات الجديدة ولكنه لم يشأ ان يخيب أمل المسكين ، الذي كان « يدلك » للسيدات كذلك في بيوتهن ، ومرة قال لباربر اثناء أداء الواجب : « انقلبي الى الجهة الاخرى يا سيدتى ! »

استطاع باربر ان يحصل على مواد لجريدته من وكالات الاخبار دون مقابل لان وكالات الاخبار العاملة في باريس بعد الحرب كانت تحتاج نفسها الى الدعاوة وليس افضل دعاوة من جريدة انجليزية في باريس تقرأ في جميع السفارات ودوائر الحكومة . واذا كان (مكسيم) يفخر بالمشاهير الذين زاروا المطعم اثناء الحرب فقد استطاع باربر ان يجلب له مشاهير اخرين « ضيوفا » على باربر هذه المرة ، ويكسب الاثنان : باربر ومطعم مكسيم .

عنوان الفصل الثالث « وردة بين الاشواك » هو قلب متعمد من باربر لما يجب ان يكون « شوكة بين الورود » التي هي قائمة طويلة من المشاهير الذين عرفهم باربر في باريس في سنوات ما بعد الحرب ، ولكنه يدعوهم بالاشواك وهو الوردة بينهم . من أول هؤلاء المشاهير (دو قوندزور) الذي كان ملك بريطانيا عام ١٩٣٦ وتنازل عن العرش

لأنه أصر على الزواج من أميركية ، فتولى الملك بعده جورج السادس من ١٩٣٦ - ١٩٥٢ . كان دوق وندسور قد أعلن عن نشر مذكراته ، فتخاطفتها الصحف البريطانية لقاء مبالغ ضخمة . ولم يكن بمقدور باربر أن يدفع لينشر تلك المذكرات في باريس ، ولكنه استطاع أن يفعل ذلك لقاء مبلغ زهيد ، لأن الدوق كان يرحب بنشر مذكراته ليقرأها أصدقاؤه الكثيرون في باريس ، وهكذا توطدت الصداقة مع باربر ، الذي يقدم لنا صورة من قريب عن حياة « ملك سابق » يقيم في باريس ، وليس لديه ما يفعله سوى زيارة المتاحف ومحلات العاديات ، وينظر في مفكرته ليرى ما يجب أن يفعله بعد ذلك .

و « الشوكة » الثانية التي عرفها « الورد » باربر في باريس اسمها (آغا خان) والد (علي خان) العاشق الأكبر المزدوج . كان باربر قد ساعد في نشر سيرة حياة آغا خان فتوطدت العلاقة . ولأن جميع المشاهير كانوا يمرون بباريس بعد الحرب فقد مر « مشهور » آخر هو شقيق باربر (انتوني) العائد من الأسر في ألمانيا ، والذي أصبح فيما بعد وزير المالية البريطاني . ذهب الشقيقان إلى ناد ليلي كان « يراعى ظروف النقص في الأقمشة في تلك الأيام فكان أن وزعت ستة أثواب على اثنتي عشرة من فتيات النادي بحيث يستر بعضهن الجزء الأعلى من الجسم والبعض يسترن الجزء الأسفل » .

ثم جاء تشرشل إلى باريس في زيارة خاصة وحضر باربر دعوة غداء مع تشرشل وطلب منه في آخرها مقابلة لجريدته حول آرائه عن مستقبل أوروبا . واستأذن تشرشل من زوجة السفير البريطاني في باريس أن ينسحب إلى غرفة نومه « ليناقش مع باربر مستقبل أوروبا » . وفي الغرفة استلقى عجوز بريطاني على السرير طالباً من باربر أن يساعده في نزع حذائه . وبعد أن فعل ذلك باربر قال تشرشل « كان من دواعي سروري التعرف عليك في هذه المقابلة ، مع السلامة » .

وتوالى الزوار المشاهير على باريس ولكل واحد منهم قصة مع باربر : مسز هرست زوجة امبراطور الصحافة الأميركية ، المغنى الأميركي بنج كروسبى ، ايان فلمنج مؤلف جيمز بوند ، وفي زيارات باربر إلى جنوب فرنسا كان يلتقى بمشاهير آخرين ويحدثنا عنهم أحاديث : بيكاسو ، سومرست موم ، أرسطو طاليس ، أوناسيس ، ليدي تشرشل ، ماريا كالاس . كان موم ناقماً على بريطانيا لأنها لم تمنحه وسام الاستحقاق وهو أشهر أديب بريطاني ، وفي مقابلة مع باربر نجد صورة للعجوز الغاضب في منفاه الاختياري وكان يفسر (وسام الاستحقاق) بعبارة (مستوى الاخلاق) .

الفصل الرابع يتحدث عن « عزلة الكاتب » وهو سيرة ذاتية تختصر سنواته السابقة والاحداث التي انتهت به إلى الإقامة في باريس مع نهاية الحرب ليكون محرر الديلي ميل . عندما كان

في السادسة عشرة ، كان نويل يقيم مع أسرته في (دوناستر) وكان ينتظر منه أن يحصل على وظيفة دائمة . ولكن نويل كان يريد أن يصبح كاتباً ، ليهرب من الارتباط بالوظيفة . وكانت أولى مقالاته الصحفية وصفاً لفعالية شباب الكشافة بخمسمائة كلمة نشرتها الصحيفة المحلية في دونكاستر ، فألهمت حماس الفتى ليستمر . ولكن المحرر أراد استغلال الفتى في كتابة عمود كل أسبوع ، ولو قدر له النجاح لحصل نويل على مكافأة رمزية في عيد الميلاد . ولكن الوالد لم يعجبه ذلك وفضل لابنه العمل في شركة الحلويات التي يديرها ، لأن « الدخل مضمون رغم قلته » . لم يكن نويل يعرف أحداً من الكتاب في ذلك الوقت ليشجعه في مساعيه ، لذلك ثقلت عليه العزلة . وفي أوائل الثلاثينات كان يكسب حوالي ألف باون سنوياً من مبيعات الحلويات ، بينما لم تكن الكتابة تدر عليه شيئاً ذا بال . ولكن مساعيه للعمل في الصحافة نجحت بالحصول على وظيفة في جريدة (يوركشاير بوست) في مدينة ليدز وهو في السادسة والعشرين من العمر ، عام ١٩٣٥ . في ذلك الوقت كان نويل قد كتب تسعة عشر كتاباً رفضها الناشر جميعاً . وثناء عمله في الجريدة خطر له أن يكتب عن خبرته في التقارير الصحفية ، وكان أن باع كتابه الأول هذا لقاء عشرين باون في أوائل عام ١٩٣٦ . ثم انتقل إلى جريدة الديلي اكسبريس في مانجستر وكله ثقة في مواصلة كتابة الكتب . وهنا تدخلت روح المغامرة بحثاً عن مواد للكتابة ، فقرر الإبحار من ليفربول على ظهر باخرة اتجهت إلى المكسيك ومنها على ظهر باخرة أخرى متجهة نحو سنغافورة حيث وصلها في بداية عام ١٩٣٨ ، ليعلم ساعة وصوله أن محرر جريدة (ملابا تريبون) كان على وشك السفر في اجازة ، وكان لا بد من بديل ، فتوظف نويل في الحال وبقي في سنغافورة سنة ونصف ، تزوج خلالها من (هيلين) وهي فتاة انجليزية مغامرة جاءت لتعمل في تلك البلاد . ومع نشوب الحرب الثانية اضطر نويل إلى ترك البلاد ، ففعل راجعاً مع زوجته إلى لندن عن طريق هونج كونج ، شنغهاي ، بكين ، ثم استقلاً قطار سيبريا الذي استغرق ٢١ يوماً للوصول إلى موسكو . وفي ثاني أسبوع من وصوله لندن اشتغل في الديلي اكسبريس ثانية ، ثم انتقل إلى الديلي ميل في أوائل ١٩٤٠ ، وعمل في الإذاعة البريطانية ونشر كتابين . كل ذلك في ظروف الحرب الصعبة . ولما كان إخواه قد تطوعا في الحرب ، فقد أراد نويل كذلك أن يتطوع في القوة الجوية . وكانت المغامرة في الفحص الطبي ، الذي طلب منه (نموذج ادرار) ولكنه لم يستطع تقديم نموذج وهو يقف في صف طويل من المتطوعين . ولمحه العريف ، فهمس في أذنه : « لعب يدك بكم قرش ، وأنا أضع في قنينتك نصف ادرار الرجل الواقف أمامك » ونجحت الحيلة ، والتحق بالقوة الجوية وما لبث أن أرسلوه بمهمة سرية إلى أميركا استغرقت حتى أوائل عام ١٩٤٥ ، وعاد إلى بريطانيا في قافلة بحرية أفرق الألمان منها خمس بواخر . ولما وصل لندن كان ينتظر أن يعود إلى السلاح الجوي باعتباره ضابط احتياط . ولكن الديلي ميل كانت تبحث عن مراسل خارجي ، فذهب إلى فحص الاحتياط واستطاع ثانية أن يقدم رشوة للعريف ، عشرة باونات هذه المرة ، « سقطت منه عن غير قصد » . وظهر أن انجلترا كانت « ما تزال تثق بالباون الاسترليني » . فتأجل طلب نويل للسلاح الجوي ، وسافر إلى باريس بعد ثلاثة أيام ليحرر النسخة الأوروبية من الديلي ميل .

في الفصل الخامس يتحدث باربر عن « الجنس والرجل والاعزب » . هنا يخبرنا باربر بكل صراحة وطرافة عن مغامراته مع النساء منذ أن كان في الثامنة عشرة من عمره يقضى اجازة في كوبنهاجن ، في انتظار والده . وفي الفندق تعلقت به سيدة فرنسية كانت تنتظر وصول زوجها هي الأخرى ، وكان ذلك في عام ١٩٢٧ ، وباربر ما يزال في أول الشباب . وفي عام ١٩٣٨ يروى باربر مغامرة عجيبة أخرى مع (سلطان جوهور) في سنغافورة ، الذي كان يعيش في (قصر النعيم) ويأكل في صحاف من ذهب . اجتمع باربر مع السلطان في مناسبة ، وأراد السلطان أن يشكر باربر على معروف قدمه إليه . وعند انتهاء العشاء « صفق السلطان قدخل سرب من الصبايا الآسيويات ، وكان على ضيف الشرف باربر أن يختار اثنتين منهما لقضاء الليلة في « قصر النعيم » ليتبعه الآخرون ، فيأخذ الواحد منهم « حصتين » لتلك الليلة » . ويستغرق باربر في وصف ذلك المحيط الخرافي الذي لا وجود له خارج حدود (ألف ليلة وليلة) إلا في سايفون كما يصفها باربر في السنوات التي سبقت الحرب الثانية . وفي سايفون كان باربر في وسط يعج بنساء اللذة ، أكثر من سنغافورة وقصر سلطان جوهور . هناك كان يوسع المرء أن « يشتري زوجة » لسنة أو اثنتين ، وهو ما كان يفعله الأوروبيون العاملون في سايفون ، حتى ولو كانوا متزوجين في بلادهم . يقدم لنا باربر وصفا أخذا لمدينة سايفون التي تجد فيها ملامح كثيرة من باريس في طراز البناء والسيارات وتصرفات الأوروبيين ، وهم فرنسيون في الغالب .

وفي الفصل السادس « الحقيقة العارية » يقدم لنا باربر وصفا لا يقل « قبحا » من حياة الفجور في سنغافورة وسايغون . المكان هذه المرة باريس عام ١٩٤٥ ، في ناد ليلي تديره المغنية السحايقية (سوزي سوليدر) . كان باربر يرتاد هذا النادي لأنه يشكل مصدرا للقصص المغرية عن باريس بعد الحرب لكثرة الشخصيات البارزة التي كانت ترتاده . ثم دعت (سوزي) إلى اجازة آخر الأسبوع إلى دارها الريفية في ضواحي باريس مع عدد من العاملات في ناديهما للتمتع « بحمام شمس » وكان هو الرجل الوحيد . وعلى نفس الوتيرة يروى باربر كيف حضر مرة الحفلة السنوية لنادي « رابطة الشمس والهواء الوطنية البريطانية » في عام ١٩٤١ ، وهو في الحقيقة أحد « نوادي العراة » في بريطانيا . لقد ذهب هناك كمراسل صحفي بعدما شاعت الشائعات عما يدور في ذلك النادي والبلاد في أخطر سنوات الحرب .

في الفصل السابع يتحدث باربر عن « فن مضغ الكلمات » ويروى مغامراته في الكتابة للصحف الأميركية بحثا عن مدخول إضافي . حاول باربر لسنة كاملة ولكنه لم يجد من يشتري مقالاته ، فآمن بقول برنارد شو « أن العالم القديم والجديد تفرقهما لغة مشتركة » . اذ يبدو أن باربر كان يكتب لغة لا تجد من يستسيغها في أميركا ، رغم أنها لغة انجليزية . وخطرت له فكرة « بارسية » وهي أن يجمع عددا من « صفات » الشراب في باريس وفي البلاد التي زارها ويصنع منها كتابا بعنوان « شربت في طريقى حول العالم » استطاع باربر أن يستشير اهتمام جميع اصحاب المطاعم التي عرفها في جولاته ، اذ كان يوجه إليه رسالة بتوقيع « المحرر » فعلت فيهم فعل السحر لان

في ذلك دعوة للمطاعم دون مقابل، فكانوا يرسلون أوراق المطاعم الرسمية وعليها وصفة الشراب ، فراح باربر يجمعها ويقدم لها تقديمًا قصيرا . ثم ارسل الكتاب الى مجلة (ترو) في نيويورك التي سارعت بإرسال ألف دولار ، وهو أعلى مكافأة حصل عليها صحفى حتى تلك الايام .

واعقب ذلك ضربة حظ ثانية . فقد التقى باربر صدفة بصديق قديم مع ابن عم له وقد تزوج حديثا من أميركية تملك وكالة أنباء . وكانت الوكالة تطلب مراسلين في باريس ممن يستطيعون كتابة عمود أسبوعي عن أى شيء فيه نكهة باريسية . وسرعان ما اتفق باربر مع أصحاب الوكالة وقدم أول مقالة نالت الإعجاب . واستمر باربر يرسل تلك الوكالة كل اسبوع ، ضامنا مرتبا شهريا استمر أكثر من ثلاثين سنة حتى صدور هذا الكتاب .

« شيء ذو قيمة » هو عنوان الفصل الثامن الذي يتحدث فيه باربر عن رفقة الرسامين في مونمارتر والحي اللاتيني في باريس في أواخر الأربعينات . هنا يذكر باربر عددا كبيرا من الرسامين الذين عرفهم في تلك الايام ، وكان باربر نفسه يمارس الرسم ، « فكان يذهب بصحبة احد البوهيميين في الحي اللاتيني او مونمارتر ليرى الرسم « في السادسة صباحا » وبعد ذلك يذهب الى عمله في الجريدة . ومن غرائب طباع اولئك الفنانين ما يرويه باربر عن « سفارتز » الذي كان يعطي لوحاته لباعة الخضار واللحوم مقابل ما يحصل منهم من طعام . كان بعضهم يقدم لوحاته الى صاحب حانوت يبيع مواد الرسم من زيت والوان ومواد أولية ، وبذلك يأخذ الفنان تلك المواد بيد ويرسم بها ليقدم النتيجة باليد الاخرى . وهكذا الحياة البوهيمية والا فلا ! ومثال آخر من تلك الحياة يسوقه باربر عن الرسام (اتريللو) الذي كان لا يصحو من الخمر الا ليزيد في الشراب ، ولا يتوقف عن رسم مشاهد الثلج والشتاء في باريس . ومرة قرر (اتريللو) ان يتمتع باجازة في جنوب فرنسا حيث المناخ الدافئ والشمس المشرقة . . وراح يرسم هناك ثلاثة أشهر دون توقف وارسل لوحاته في رزمة كبيرة الى باريس . ولما فتح الصندوق وجدوا أن كل واحدة من لوحات الساحل اللازوردي الدافئ كانت تصور مناظر الثلج في مونمارتر .

كان باربر على صلة مع بيكاسو في هذه الفترة كذلك ، ويروي عنه هذه الحادثة : كان لدى بيكاسو شاب يساعده في صنع الخزف ، وكان بيكاسو يشجع هذا الفتى الفقير . فلما تزوج الشاب استأجر دارا متواضعة جدرانها من طين . وفكر بيكاسو في اهداء العروسين هدية مناسبة . وما كان منه الا ان ذهب الى الدار الطين وطلّى جدرانها بالوان عجيبة ورسم على كل حائط صورة لا تقدر بثمن . واسقط في يد العروسين . فلم يكن بالامكان « بيع » تلك الرسوم الجدارية وتقرر غلق الدار واعتباره من « املاك الدولة » لان خبراء المتاحف لم يجدوا وسيلة « لاقتلاع » الصور من الجدران ونقلها الى مكان آخر .

وفي تلك الايام كانت باريس تمتلئ بالفنانين من بلاد العالم اجمع . وقد تعرف باربر على

رسامة من روسيا البيضاء كان لها شأن في عالم الرسم واسمها (كوتشاروفا) تقيم مع زميلها (لاريونوف) الرسام . كان الاثنان يعيشان عيشة الكفاف في شقة ضيقة تشرف على نهر السين . وكان بارير يزورهما مرة فمرة فعرف ان ممثلا من متحف (جورجنهايم) الاميركي قد جاء ليشتري لوحة من الفنانة الروسية ، ودفع لها مبلغا ضخما . ولكن الفنانة كانت تعرف ان بارير قد أعجب بتلك اللوحة ، وكا بارير يقدم لها لرفيقها مبالغ من المال على سبيل « القرصة الحسنة » . وكانت الفنانة لا تريد بيع اللوحة وتريد قهر أشهر وأغنى متحف في العالم . فقررت في الاخير ان « تعطي » اللوحة الى الصديق بارير وتنتصر على المتحف الاميركي .

« تدخل تيتينا » عنوان الفصل التاسع ، الذي يتحدث فيه بارير من فراقه عن زوجته الاولى (هيلين) التي تزوج منها في سنغافورة عام ١٩٣٨ وبقيت تعيش في لندن اثناء اقامته في باريس يعيش حياة العزاب . كان الفراق ضروريا ل كليهما ، وصعبا على بارير ، الذي لم يكن يستطيع اصطحابها معه في باريس في حياة الصحفي القلقة واسفاره الكثيرة . وفي عام ١٩٥٣ توقفت الديلي ميلى الباريسية من الصدور وتفرق أعضاء التحرير وكان على بارير ان يبحث عن عمل جديد . وما لبث ان أقنع مكتب لندن بالبقاء في باريس ليكتب لهم مرتين في الاسبوع . وفي هذه الاثناء عرضت عليه الخطوط الجوية البريطانية رحلة مجانية الى جزر الهند الغربية وعرض عليه احد الاثرياء من معارفه الاقامة في منزله في جمايكا ، وهنا ارض جديدة للمغامرة وموضوعات جديدة للكتابة . وما لبث ان تلقى برقيه من الجريدة تطلب منه التوجه الى « هوندوراس البريطانية للكتابة عن الوضع السياسي والانتخابات المقبلة » وهكذا بدأ بارير عمله الجديد كمراسل خارجي واصاب نجاحا كبيرا ، دفع به في مهمة اخرى الى غواتيمالا . وجاءته برقية ثالثة للتوجه الى باريس في انتظار السفر الى الشرق الاقصى . وفي باريس تعرف على (تيتينا) .

كان التعرف خاطفا ، بدأ بنظرة وابتسامة وسلام . كانت أرملة شابة ومعه ابنها في سن السادسة عشرة ، وقد توفي زوجها في الحرب : ايطالية - رومانية ، فقرر الزواج منها كانت على وشك السفر الى نيويورك لتستقر في اميركا . وبعد ايام ودعها الى الباخرة ، ثم اشترى بطاقة سفر الى نيويورك وثلاث بطاقات عودة من نيويورك الى باريس . وعلى رصيف ميناء نيويورك كان بارير ينتظر تيتينا ، وما لبث ان عاد بها زوجة الى باريس .

« السيدات اولاً » هو حديث عن الزواج والزوجات الذين عرفهم بارير ، وهو موضوع الفصل العاشر . كانت اول خسارة في مغامرة الزواج ان بارير خسر خادمه الاسيوي ، الذي لا يطيق ان يشاركه سلطان البيت احد ، حتى ولا زوجة مخدومه ، فتلاشى من الوجود بشكل غامض . وكان من معارف بارير مستشار السفارة البريطانية بباريس ، ثري في الثمانين من العمر ، ولكنه يعشق الحسنات . فكان يقيم كل يوم غداء فاخرا يحضره كثيرات من حسان باريس ، واختار واحدة لتكون وريثته . ولكنها أصيبت بمرض عضال وتوفيت قبله . اما علي

خان ابن أغا خان الكبير فكان له مع النساء قصص وحكايات . شهد بارير زواج علي من ريتا هيورات . وفي ليلة العرس طلب علي من بارير ان يوصل ريتا الى الدار بسيارته ! وخرجت ريتا من حياة علي خان لتدخل أخرى من قريبات زوجة بارير ، وتمكث قليلا لتخرج هي الأخرى . وهذه المفامرات في أمر آل باير كثيرا ، لان « علي فتى طيب جدا » .

يتحدث الفصل الحادي عشر عن « الحياة الزوجية » كان أول ما فعلته تيتينا ان رمت جميع الاثاث في بيت بارير من الشرفة الى الشارع ، لانها اشترت غيره للحياة الزوجية الجديدة . لم يكن منظر فراش في وسط شارع على ضفة نهر السين شيئا مألوفا في باريس . ولكن زوجة بارير فعلت ذلك . وفي أول يوم من الحياة الزوجية اكتشف الزوجان ان بارير وزوج تيتينا السابق قد ولدا بنفس اليوم وان تيتينا وزوجة بارير السابقة قد ولدا بنفس اليوم كذلك (هل سيقوم هذا الزواج الجديد الى نهاية غير سعيدة كالزواج السابق ؟ وقرر الزوجان شراء دار في سويسرا والاقامة بعيدا عن صخب باريس . وما لبثا ان اكتشفا ان صاحب مكتب العقار في مدينة (رول) السويسرية هو مدير البنك ومدير شركة الكهرباء ومدير شركة الماء كذلك . وعندما انتهت التوصيلات في البيت الجديد جاءت الحسابات مضطربة حول مصروف الكهرباء ، ولدى الاستفسار تبين ان (مسيو بيتر) مدير شركة الكهرباء قد أخطأ في الحساب الذي أرسله الى (مسيو بيتر) مدير البنك وعندما ولدت للزوجين الجديدين أول طفلة اضطرا لاستقدام فتاة دانماركية للإشراف على الطفلة . وجاءت الدانمركية في كامل البرة الرسمية ونياشين الخدمة الممتازة ، وبدأت الطفلة تنام نوما عميقا يصل الى عشرين ساعة كل يوم ، مما أبهج الوالدين فلقباها « بلقب الفتنة النائمة » وبعد فترة وجيزة اكتشفت الام ان المربية الدانمركية تحتفظ في حقيبتها « بحبوب منومة » كل واحدة مقسمة الى أربعة اقسام متساوية ، فظهر سر النوم العميق عند الطفلة ، كما ظهر اين كانت تختفي ملاعق الفضة من الدار ، يوما بعد يوم .

(الاماكن العجيبة) عنوان الفصل الثاني عشر . كان العمل الصحفي يحمل نويل بارير الى افرق الاماكن . مرة ذهب الى ادغال السودان في مهمة صحفية وكاد ان يضل الطريق مع صحفي آخر . وفجأة لمح بارير على البعد رجلا بلون الفحم ، وجسمه العاري الفارع يستند الى رمح . كان الرجل يشكل خطرا على الاثنين على ما يبدو . وتقدم زميل بارير في حركة بطولية من الزنجي الفارع المخيف وخاطبه بالانجليزية بلهجة متعالية يسأل عن مدرسة زراعية في المنطقة . وما كان من الزنجي الا ان اجاب بلهجة انجليزية سليمة ، دون ان يفارق انحناءه : « تقصد المدرسة الزراعية ؟ روعة من الروائع . بعد القرية بثلاثة أميال الى الشمال . هل أنتما من اهل الصحافة ؟ هه ! لقد قابلت امثالكما عندما كنت في كمبردج . . . » وتبين ان الرجل قد درس الزراعة في جامعة كمبردج ، وكان زعيم قبيلته ، وقد عاد ليضع معرفته موضع التطبيق ، بعد ان نزع ملابسه . . . الانجليزية ، وعاد الى سابق طبيعته السليمة .

وفي أحداث المجر عام ١٩٥٦ كان بارير هناك أيضا ، يساعد المجريين ، ويغطي أنباء القتال . ولما اكتشف أمره اطلق عليه النار جندي روسي فأصابه في رأسه وادخل المستشفى لعلاج ٥٢ جرحا في رأسه . وكان بقاءه في المستشفى مجلبة للخطر ، فهرب بملابس النوم الى الحدود النمساوية . ثم اخذه العمل الصحفي الى هونولولو « وصادف » وجود ممثلة متقاعدة من هوليوود تستلقي تحت شمس الشواطئ . و « صادف » ان تلك الممثلة كانت تسكن الى جوار اسرة بارير في مدينة (هل) بشمال انجلترا أعالم صغير !

ي في الفصل الثالث عشر يتحدث بارير عن « الطبقة الحاكمة » . وهنا نسمع قصصا عن دوق وندزور ، الملك امبرتو ملك ايطاليا السابق ، ماوتسي تونغ ، الرئيس سنغمان رى ، مونتغمري وايان سمث . وربما كانت أمتع قصة هنا عن الملك حسين . كان بارير قد قابل الملك حسين في مناسبات عديدة ، وخطر له ان يتعاون مع الملك في كتابة سيرته . فوافق الملك وجاء بارير وزوجته والطفلة (سيمونيتا) للإقامة في عمان والعمل على كتابة السيرة . هنا يبدي بارير إعجابه الكبير بالملك حسين ودمائة اخلاقه وتواضعه وكرمه . ويروى انه جلس مع الملك مرة للمناقشة حول الفصل السادس من السيرة ، وبخاصة الصفحتين ١٤ ، ١٥ . وفاجأه الملك بزيارة في منتصف النهار ورأى ان يأخذ الاوراق معه ليفكر فيها . وخاف بارير على النسخة الوحيدة أن تضيع . ولما ارتفع الملك حسين بطائرته الهيلوكبتر ، رأى بارير غمامة بيضاء تخرج من الطائرة : الفصل السادس يتطاير في الهواء . وسرعان ما خف الشرطة لجمع تلك الاوراق المتطايرة حول التلال المحيطة بعمان ، وجمعوا اوراق الفصل السادس عدا ورقتين : الصفحتين ١٥ ، ١٦ اياهما !

في الفصل الرابع عشر نقرا عن ثلاثة من « الاماكن البعيدة » التي زارها بارير . ففي ١٩٥٧ ذهب في مهمة صحفية الى القطب الجنوبي ، فوصله في ٣١/١١/١٩٥٧ وكان أول بريطاني يصل تلك البقعة من العالم بعد الكابتن سكوت ، وهنا نجد وصفا عجيبا للقطب الجنوبي تكاد تحس بالانجماد يسري في أوصالك وانت تقراه . وبعد القطب الجنوبي تسلم بارير أمرا بالتوجه الى البحار الجنوبية الدافئة ، الى جزيرة تقع على بعد ٧٠٠ ميل الى الغرب من تاهيتي ، ليقابل رجلا من نيوزيلندا قضى في تلك الجزيرة خمس سنوات وحيدا ، وهو على عتبة الستين من العمر ، كان هذا الرجل (توم نيل) مهندسافي سفينة اثناء الحرب الثانية وقد مر بتلك الجزيرة ، وقرر في أخريات عمره ان يعيش هناك « سعيدا » مثل روبنسن كروزو . كانت أول جملة سمعها بارير من نيل عندما قابله : « ماذا جرى لذلك الفتى المصور ؟ هل تزوج الاميرة مار جريت ؟ » والمكان البعيد الثالث الذي زاره بارير يدعى اقليم (هونزا) في شمال الباكستان ، في منطقة جبلية معزولة من العالم « المتمدن » يعيش فيها ١٨ ألف نسمة . سمع بارير بهذا المكان عن طريق صديقه علي خان في باريس ، عندما جاء زعيم (هونزا) بالاسماعيلي ليقابل

علي خان . وعندما ذهب بارير الى (هونزا) وجد الناس في أعلى درجات الصحة لانهم لا يعرفون السيارات ولا السلاح ويعيشون على أطعمة شتى مشتقة من الشمس ، الى جانب اللبن . اما الماء فهو ينزل من أعالي الجبال بعد ذوبان الثلوج ويجرف معه من الاملاح المعدنية ما يقاوم كل مرض . ليس في ذلك الاقليم نقود ولا تجارة ولا اتصال بالعالم الخارجي ... والكل في غاية السعادة .

في الفصل الخامس عشر « الفداء جاهز » يتحدث بارير عن اختفائه في منطقة بالملايو مع بعض المحاربين الذين اقتطعوا فخذ أحد « الامداء » وصنعوا منها « ستيك » قدموه لفداء بارير فوجده لحما لذيذا لا يختلف عما يقدم في كثير من مطاعم العالم ! وسمعت السندي اكسبرس بالخبر فنشرت عنوانا عريضا يقول (شقيق وزير المالية من اكلة لحوم البشر) .

وفي باريس اجتمع بارير مع احد الجنرالات الفرنسيين الخبراء في شؤون جنوب شرق آسيا وطلب منه مقابلة ، فاجاب الجنرال : « لا بأس ، ما رأيك في العشاء معا مساء السبت القادم (في سايفون طبعاً ! » وكانت سايفون على بعد ٧١٣ ميلا من باريس ، واليوم الاربعاء ، فطار بارير الى سايفون بعد ان اتفق مع جريدة نيويورك تايمز على نشر المقال . وبعد عشاء السبت مباشرة طار بارير عائدا الى باريس ومعه مقال ممتاز ملئ بالتوقعات عن حرب فيتنام . ودفعت الجريدة الاميركية ألف دولار مكافأة للصحفي بارير .

الفصل السادس عشر عنوانه : « توقف طبيعي » يروي فيه بارير كيف اضطر الى التوقف عن العمل الصحفي لمدة ستة أشهر ، بسبب « طبيعي » كان مبعثه حادث اصطدام مروع وقع له وهو يسوق سيارته على الرقيرا الفرنسية ، في يوم عاصف ممطر ، فدهمته من الخلف سيارة فرنسية فيها أربعة رجال ، كانت تنطلق بسرعة في ظروف الطرق الصعبة . عندما أفاق بارير من الصدمة وجد نفسه في سيارة مهشمة ، وعلى جانبي الطريق سيارة ستروين شطرت شطرين وفيها أربعة قتلى ، كل اثنين على جانب من الرصيف . كان بارير يبدأ عطلة ستة اسابيع من عمله الصحفي ، واتفق ان يقابل زوجته واولاده في نيس ، وكانت مفاجأة الاصطدام . واذا استطاع الاتصال بمكتب الديلي ميل في باريس ، نقل على الفور فوجد نفسه في مستشفى يحيطه أربعة اطباء فرنسيين ، وبدأت خياطة جروح الرأس ، تاركين الفخذ اليسرى على التوالها . ثم التفتتوا الى جرح بسيط في الرق ، رفضوا وضع شريط لاصق عليه لأن ذلك « غير جميل » والرجل ذوالستين عاما مكسر العظام والمفاصل . وبدأ الاطباء يختصمون حول عدد الغرزات الضرورية لذلك الجرح ولكن اسنان بارير كانت تتدلى من فمه . ثم انتقل الاطباء الى الركبة اليمنى التي كان فيها جرح أبسط مما أصاب بارير مرة اثناء لعب كرة القدم . ولكن الغرزات واجبة ، طالما ان بارير رياضي يلبس (الشورت) الذي يظهر الركبة ..

اذن يجب الا يظهر على الركبة تشويه . ولكن ماذا عن الذراع الملتوية ، والاصابع المتخدرة والقدم الموضوعة والفخذ الشمال ؟ الجمال اولا ، حتى على حساب الكسور في العظام . انتظر دقيقة ! وغاب الاطباء وجاء غيرهم للفحوص الشعاعية ، فظهر ان الفخذ الشمال مكسورة في خمسة مواضع ، وتبدو اقصر من الفخذ الثانية بخمسة سنتيمات .. ولكن الناحية الجمالية تاتي اولا عند الطبيب الفرنسي ! .

ودخلت الزوجة فجأة ، فحاول الاطباء منعها . كان طبيبان يتناقشان عن موعد العملية الضرورية فصاح احدهم بصاحبه : « مستحيل ، الخميس عندي موعد للصيد » وذلك يعنى أن باربر يجب أن ينتظر . متى ؟ بعد غد . يؤسفنى يا سيدتى أن أقول من الضروري بتر الساق (وصعقت الزوجة وركضت الى اقرب تلفون لتتصل بباريس ويرتب امر نقل باربر بطائرة خاصة الى لندن وهو مجبر من الرأس الى القدم . وفى الطريق من مطار لندن الى المستشفى طلب باربر من السائق أن يتوقف عند أول مشرب لتناول قدح من الجعة الانجليزية) كان رأى الطبيب الانجليزى اكثر تطمينيا ، على أن يصبر باربر على الإقامة فى المستشفى أربعة اشهر . وكان الانقطاع الطبيعى عن العمل الصحفى وبعد سنة من الحادث عاد باربر الى فرنسا ليشارك فى مسابقة بالتنس . وكان لطف الله ، وعزيمة المريض أقوى من رأى الجراحين ونظرياتهم الجمالية . وكان القدر الذى جعل الزوجة تتأخريوما آخر فى باريس ، لتحضر الى المستشفى وتغير خطط الجراحين فى مستشفى باريس . وبرغم كل ما حدث يقول باربر انه لم يشعر بخوف قط ، بل كان أول خاطر له يقول « يا خسارة ، ضاعت الاجازة » .

فى الفصل السابع عشر « نصيحة من جندي عفيف » حول أسلوب الكاتب وشروط النجاح . يرى باربر أن من الضروري للكاتب الناشئ أن يعرض اعماله على خبير فى الكتابة ، شريطة أن يصارحه الرأى حول نوعية المعروض . وهنا كذلك يروى لنا باربر حادثة نادرة من كتاب له حصل على مديح مفرط من كاتبة شهيرة كانت صديقه له ، ولكن نفس الكتاب حصل على رأى مناقض تماما من « وكيل أدبى » له خبرة بعالم النشر وشروط النجاح . فى غالب الاحيان لا يكون مديح الصديق على صواب .

فى الفصل الثامن عشر « بلاد النجاة المفقودة » حنين الصحفى القديم الى جميع البلاد التى زارها وعمل فيها قبل أن يقعده المرض وتقدم به السن . وفى تلك السن المتأخرة قام باربر بزيارة تاهيتى ، وقابل توم نيل ذلك الروبسنون كروزو المعاصر ، وكتب ثلاثة كتب من خبرته فى الشرق الاقصى وزار سنغافورة بعد غياب اكثر من ثلاثين سنة ، وزار الدالاي لاما فى منغاه فى شمال غربى الهند ، بعد أن اضطر لانتظاره كى يفرغ من طقسوسه الدينية التى تستغرق ثمانى ساعات . وبالرغم من منزلته الدينية الكبيرة كان الدالاي لاما نموذجاً من التواضع . فقد ذكر باربر عرضاً أثناء المقابلة

ان ساعة يده غير دقيقة فطلب الدالاي لاما أن يفحصها لعله يستطيع اصلاحها . ولكنها ساعة رولكس ذهب « هدية من الملك حسين » . وقبل ان يكمل باربر جملته بدأ الدالاي لاما بفك الساعة الرولكس ، فأصلحها ، ولم يضطرب سيرها منذ ذلك اليوم .

الفصل التاسع عشر والآخر في هذا الكتاب عنوانه « البقية تأتي ... » وكان باربر وهو يشارف السبعين يعدنا بقصص واحاديث جديدة لم يخبرنا عنها بعد . يعود للحديث عن أسرته ، وعن تقلبات الزمان بهم ، واطرف خبر في ذلك ان والدته قد توفيت وكان والده في الثانية والستين ، فتزوج بعد ذلك بسنوات ، وقبل أن يتوفى في الرابعة والسبعين من عمره انجب طفلة ، كان نوئيل اكبر منها بأربعين سنة فقط . وعندما التحق بالقوة الجوية كان يصطحبها في بعض الاحيان ويسيران معا في شوارع المدينة . مرة سمع أحد المارة يقول : « هذا العجوز القذر ، مع هذه الطفلة ؟ » فأجابه على الفور : « كيف تجرؤ على مثل هذا الكلام أمام اختي ؟ » .



الكتابة العربية عند نصري غربي

* محمد مصطفى

بعد الشقة بين البلاد التي صنعت فيها
والعصور المختلفة التي ترجع اليها .

ويختص الفن الاسلامي وحده ، دون غيره
من الفنون باستعمال الكتابة العربية - كنصر
زخرفي ، لما تتميز به حروف الكتابة من جمال
ورشاقة ومرونة ، وقابلية على التشكيل
 والتصنيف .

ومثال على ذلك مجموعة من ست بلاطات
من الخزف (شكل ١) من صناعة آسيا
الصغرى في القرن ١١ هـ (١٧ م) ، عليها

في القرون الثلاثة الاولى بعد الهجرة ، كان
هناك تفاهم روحى بين الشعوب الاسلامية في
جميع الانحاء ، وكان العلماء والفنانون ينتقلون
من بلد الى آخر من بلاد الدولة الاسلامية ،
التي كانت تمتد من الهند وبلاد ما وراء النهر
في اواسط آسيا ، حتى المحيط الاطلسي .
وكانت اللغة العربية لغة العلم والحضارة ،
يتحدث ويكتب بها العلماء في جميع البلاد .

كما ساعد تنقل الفنانين على انتشار فن
اسلامي ، له طابع خاص ، تتميز به التحف
الفنية ، فجعلنا نشعر لأول وهلة انها تنتمي الى
وحدة فنية واحدة ، تربط بينها بالرغم من

* كتب الاستاذ محمد مصطفى هذا البحث بالانجليزية ، وترجمه محمد عبد العزيز الى العربية .

كتابة عربية لشعار يقرأ : « لا شرف أعلى من الاسلام » . وقد راعى الفنان في كتابتها أن تظهر في انسجام وتناسق ورشاقة ، كما زخرف الأرضية خلف الكتابة بفروع نباتية دقيقة مزهرة ومورقة ، وهادئة الألوان ، ليزيد من جمال الكتابة ومن الغرض الزخرفي .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٠٧ - ٦٧ x ٤٣ سم » .

• • •

والتحف المنشورة هنا محفوظة في متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، أو في مجموعات أخرى سوف نذكرها الى جانب كل تحفة على حدة . وكثير من هذه التحف لم يسبق نشره ، ونشر هنا لأول مرة ، وجميع الصور المنشورة هنا من تصوير محمد مصطفى كاتب هذا البحث .

• • •

ونجد في سجلات التحف المحفوظة في خزائن القصور والكنائس القديمة في أوروبا ، أمثلة متنوعة الاشكال ، من صناعة مصر أو غيرها من الاقطار الاسلامية الأخرى ، من بينها تحف من الزجاج والبللور الصخرى والخزف والديباج والسجاد ، وزاد في جمال وسحر هذه التحف حروف الكتابة العربية التي اندمجت في الزخارف ، وكونت معها وحدة واحدة .

وقد وصلت هذه التحف الى أوروبا عن طريق التجارة ، أو تبادل الهدايا ، أو كانت مما أحضره معهم الحجاج ، والرحالة ، وقناصل الدول وسفراؤها ، أو غيرهم من عشاق الفن من الأوروبيين ، الذين استهواهم ما في هذه التحف من خيال رائع ، وجاذبية ساحرة وانسجام ، فكانوا يحفظونها في قصورهم ، أو يودعونها نذورا في خزائن الكنائس .

ونلاحظ انه يوجد في كنوز الكنائس الأوروبية وكاتدرائياتها ، كثير من التحف الاسلامية المهداة من أصحابها المتدينين ، كانت تستعمل في الأغراض الكنسية ، والطقوس الدينية ، كأوعية للعشاء أو لحفظ الماء أو الدم المقدس ، بالرغم مما عليها من كتابات عربية اسلامية .

وفي كنيسة مريم العذراء بمدينة جدينيا (دانزيج) يوجد رداء كهنوتي من الحرير (شكل ٢) تزخرفه أشرطة من كتابات دعائية ، لأحد سلاطين المماليك ، من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وحائك هذا الرداء لم يتعرف على الحروف العربية ، فجعلها مقلوبة في الجانب الأيسر وصحيحة الوضع في الجانب الأيمن . وكذلك القساوسة الذين لبسوا هذه الردية كانوا يعتبرون أشرطة الكتابات العربية ، كتصميم زخرفي بحث .

« كنيسة مريم العذراء بمدينة جدينيا (دانزيج) » .

• • •

وظل العرب يحكمون في صقلية أكثر من قرنين من الزمان ، وكان تأثيرهم في الفنون واضحة ، في فن العمارة أو في الفنون الزخرفية . ومن الصناعات التي اشتهرت بها صقلية ، صناعة نسج الحرير خصوصا في عصر النورماندين الذين جاءوا الى الحكم في القرن ٥ هـ (١١ م) ، فأسسوا مصانع حكومية للنسيج (طراز) ، كما فعل معاصروهم من الفاطميين في مصر ، واستمروا في استعمال عناصر زخرفية عربية من بينها أشرطة من الكتابات العربية .

وفي متحف الكنوز بمدينة فينا عباءة ثمينة ، هي عباءة التتويج (شكل ٣) يزخرفها رسم سبع ينقض على جبل ، وعلى حافة هذه العباءة شريط من كتابة عربية ، يقرأ منها أن العباءة صنعت في مدينة بالرمو

كاروتو ، في القرن ٩ هـ (١٥ م) وهى تمثل صورة السيدة الزابيث جونزاجو دوقة أوربينو (شكل ٥) ، وعلى رقبة الرداء الذى تلبسه زخرفة تشبه الكتابة العربية ، والرسم يمثل حروفا من شبه الكتابة العربية التى نراها فى اطارات البسط والسجاجيد الشرقية .

« قصر بيتي فى مدينة فلورنسا »



والواقع أن تجويد الخط العربى والدقة والكمال فى الكتابة ، ميدان واسع من ميادين الفنون الاسلامية ، اشتهر فيه كثيرون من الخطاطين ، تطالع اخبارهم فيما كتبه لهم المؤرخون فى كتب التراجم وكتب التاريخ ، بينما لم يصلنا سوى قدر ضئيل من تراجم الفنانين الآخرين الذين شاركوا فى انتاج التحف الاسلامية الرائعة .

ومن الطبيعى أن تكون الكتابة العربية ملائمة للاستعمال فى الاغراض الزخرفية ، ولا يوجد فى اية لغة اخرى كتابة تصلح للاستعمال او تكون لها مرونة ما للكتابة العربية فى تشكيل العناصر الزخرفية . وتزودنا كتب الادب والفنون بأنواع واساليب الكتابة العربية وتطورها على مدى العصور فى البلاد الاسلامية المختلفة . واسلوب الكتابة له أهمية كبرى فى تحقيق توارىخ صناعة التحف او انشاء العماثر .



وليس هذا مجال الحديث عن طرز واساليب الكتابة العربية أو عن تراجم مشاهير الخطاطين ، ولكننى اقتصر هنا على استعراض الكتابة العربية واستعمالها على التحف الفنية كعنصر زخرفى فى مصر ، وفى القسم الشرقى من العالم الإسلامى .

بصقلية ، سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) ، للملك النورمندى روجر الثانى . وتدل هذه الحقيقة والتفاصيل ، على أن التقاليد الفنية الاسلامية — بما فى ذلك الكتابة العربية ، كانت ما زالت تستعمل فى ذلك العصر فى صقلية . وبعد تتويج الملك هنرى السادس فى مدينة بالرمو ، أخذ معه عند عودته الى فينا هذه العباءة وأودعها بين أدوات التتويج ، فى ممتلكات أسرة هاسبورج .



وكان للعلاقات التجارية مع المدن الايطالية دور رئيسى ، فيما يتعلق بالتبادل الفنى بين أوروبا والبلاد الاسلامية . وصك تجار البندقية دنائير من الذهب ، عليها كتابات عربية ، لاستعمالها فى التجارة مع البلاد الاسلامية ، وظلت هذه الدنائير شائعة الاستعمال ، حتى القرن ٧ هـ (١٣ م) حين اعترض البابا على ذلك .



واستعمل الكثيرون من مصورى عصر النهضة فى أوروبا حروف الكتابة العربية لأغراض زخرفية . وعلى سبيل المثال ، فانهم عندما كانوا يريدون تصوير السيدة العذراء او السيدات النبيلات فى ملابس الحفلات الرسمية ، والاعياد التقليدية ، كانوا يزخرفون اطرافها بحروف من شبه كتابة عربية .

وفى معرض أوفيتري بمدينة فلورنسا لوحة تمثل تتويج السيدة العذراء رسمها المصور فراليبوليى ، وترى فى صورة مكبرة لبعض تفاصيل هذه اللوحة (شكل ٤) ملائكة يرفعون شريطا عليه كتابة عربية .

« معرض أوفيتري ، بمدينة فلورنسا » .

ويوجد أيضا بمدينة فلورنسا ، فى قصر بيتى لوحة من عمل المصور فرانيسكو

غير اننا نذكر هنا نوعين رئيسيين من الكتابة العربية ، شاع استعمالهما في جميع البلاد الاسلامية ، هما : الخط الكوفي ، والخط النسخي .

بقى الخط الكوفي يستعمل في الكتابات التاريخية على العماير ، والتحف الفنية ، حتى القرن ٦ هـ (١٢ م) . وينسب الخط الكوفي الى مدينة الكوفة ، وهي مركز ثقافي له شهرة في الحضارة الاسلامية بالعراق ، حيث يحتمل ان يكون هذا النوع من الخط العربي قد استحدث واستعمل أولا ، وتظهر الكتابة الكوفية في اول امرها على التحف القديمة في أسلوب بسيط ولكنه قوى ، دون نقط او علامات تشكيل .

واستعمل الخط الكوفي منذ القرن ٢ هـ (٨ م) في مصر والعراق وسوريا وبلاد فارس ، وظل يستعمل مدى القرون الخمسة الاولى للهجرة في الكتابات على العماير وكتابة المصاحف ، كما نراه على صفحة من مصحف مكتوب على الرق (شكل ٦) محفوظ في دار الكتب بمدينة جوتة في المانية . وقد كتب هذا المصحف في مصر في القرن ٢ هـ (٨ م) بخط كوفي بسيط ، دون اية نقط او علامات ضبط .

« دار الكتب بمدينة جوتة في المانيا » .



ونلاحظ في القرن ٣ هـ (٩ م) تطورا في الخط الكوفي جعله يبدو في أسلوب زخرفي بحت . وفي حوالى القرن ٥ هـ (١١ م) كثر التشابك والتضفير ، وزخرفة الارضية بأوراق وسيقان وفروع نباتية ، في أسلوب يعرف بالكوفي المزهر ، فاستغل الفنانون هنا جميع الامكانيات الزخرفية للخط الكوفي القديم ، وسرعان ما انتشر هذا التنوع الزخرفي للخط الكوفي وشاع في جميع البلاد الاسلامية .

ومثال طيب لهذا النوع من الخط الكوفي المزهر نراه في لوح من الرخام (شكل ٧) عليه كتابة بارزة بالحفر ، ترجع الى القرن ٥ هـ (١١ م) . وينبثق من حروف الكتابة فروع مورقة على شكل زخارف عربية .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٤٢ - ١٨٠ x ٣٢٥ سم » .

وعلى قنينة عطر من البللور الصخري (شكل ٨) نرى ان زخرفتها الوحيدة تتألف من عبارات دعائية لصاحبها ، بالخط الكوفي المزهر ، محفورة على بدن القنينة . وهذه القنينة من صناعة مصر في القرن ٥ هـ (١١ م) .

« متحف الفن الاسلامي ، رقم السجل ١٥٤٤٦ ارتفاع ٨ سم ، قطر ٣٢ سم » .

ومن انتاج مصر أيضا محراب صغير متنقل من الخشب (شكل ٩) للاستعمال في المنزل ، او أثناء السفر من القرن ٥ هـ (١١ م) . وعلى جانبي المحراب شكل عمودين وعليه كتابة كوفية مزهرة منقوشة بالحفر في الخشب .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٥٢ ارتفاع ٢٤ سم عرض ١٣ سم » .

وفي (شكل ١٠) نرى ورقة من مصحف كتب في العراق ، ويرجع تاريخه الى حوالى القرن ٦ هـ (١٢ م) . وقد تعمد الخطاط ان يكتب المتن على ارضية من فروع وسيقان وأوراق نباتية ، ليزيد من جمال الكتابة التي تمتاز بالانسجام وحسن التوزيع .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٣٩٩٩ - ٢٣٧ سم x ٢٤ سم » .

وتوجد تحف من الخزف من صناعة بلاد ما وراء النهر ، من بداية القرن ٤ هـ (١٠ م) ، وتزخرف هذه التحف كتابات عربية بالأسلوب الكوفي . ومن هذا العصر صحن من صناعة

والكوب من الخزف الإيراني من نوع مينائي ، متعدد الألوان (شكل ١٥) من القرن ٧ هـ (١٣ م) ، يزخرف بدنه حيوانات خرافية تخطو بعضها خلف بعض . وعلى حافة الكوب كتابة دعائية بالخط الكوفي ، نراها باللون الاسود على الحافة من الداخل ، وباللون الابيض على أرضية زرقاء غامقة على الحافة من الخارج ، ليزيد الانطباع الزخرفي .

« متحف الفن الاسلامي رقم السجل ٣٦٠٠ ارتفاع ١١ سم قطر الفوهة ١١ سم » .

وفي خلال القرن ٥ هـ (١١ م) ، قل استعمال الخط الكوفي في كتابة المخطوطات والمصاحف . غير أن استعمال الخط الكوفي استمر بعد ذلك لمدة طويلة لكتابة عناوين السور في المصاحف بطريقة زخرفية ، كما نرى في صفحة العنوان (شكل ١٦) من مصحف كتب للسلطان الاشرف شعبان ، في النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وتتألف الزخارف من عناصر هندسية على شكل وردة تملأها زخارف عربية . وفي أعلى الصفحة وأسفلها عنوان مكتوب بحروف كوفية زخرفية .

« دار الكتب المصرية ، بالقاهرة » .



ومن أمثلة الخط النسخي حشوة صغيرة من الرخام (شكل ١٧) ترجع الى عصر المماليك في مصر ، في القرن ٨ هـ (١٤ م) كتب عليها البسملة بخط نسخي بارز بالحفر على أرضية تقل بروزا ، وتتألف من فروع نباتية مورقة ، تلتف في رشاقة وأناقة . والكتابة والزخارف على الارضية ، كلها منحوتة في أعماق ومستويات مختلفة ، ليزيد ذلك من قوة تأثير وجمال التكوين الزخرفي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ٢٣٣٠ ٢٧×١١ سم » .

سمرقند (شكل ١١) ، عليه بوسطه اسم الفنان « أحمد » تحيط به كتابة عربية بالخط الكوفي البسيط . وهذا دليل يثبت الى أي مدى كان استعمال الكتابة العربية ، كعنصر زخرفي في هذا العصر المبكر .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٨٩ قطر ١٩ سم » .

والى القرن ٦ هـ (١٢ م) يرجع صحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ١٢) من صناعة مصر ، تزخرفه على الحافة كتابة بالخط الكوفي الرشيق ، بوسطه زخرفة عربية من أوراق نخيلية محددة بالابيض على أرضية مدهونة بالبريق المعدني . وعلى هذا الصحن من الخلف توقيع الخزاف المشهور « مسلم » .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٩٥٨ قطر ٢٥ سم » .

ويزخرف هذا الشريط من الحرير (شكل ١٣) من صناعة ايران في القرن ٦ هـ (١٢ م) كتابة بالخط الكوفي المزهر . ونرى توريقات من نوع الزخارف العربية تنبثق حروف الكتابة أرضية من زخارف نباتية ، وهذا مثال آخر لتطور الكتابة الكوفية نحو الاسلوب الزخرفي البحث .

« موسومة الفنون الإيرانية لوحة ٩٩٧ العرض ١٨٠٣ سم » .

وفي متحف فرير جاليري ، بمدينة واشنطن ، شمعدان من النحاس مكفت بالفضة (شكل ١٤) ، من صناعة الموصل في القرن ٦ هـ (١٢ م) ، وفي أعلاه وأسفله شريطان بالبارز من اشكال سباع جالسة بينها منطقة عريضة يحدها شريطان رفيعان تزخرفهما كتابة عربية بالخط الكوفي .

« متحف فرير جاليري بمدينة واشنطن ارتفاع ٤٥ سم قطر القاعدة ٥٢ سم » .

وفي بداية الامر ، كانت الكتابات بالخط النسخي تكتب على التحف الفنية بخط بسيط ، كما نرى في قطعة من نسيج حرير (شكل ١٨) من صناعة مصر في أواخر القرن ٦ هـ (١٢ م) عليها عناصر زخرفية منسوجة . وفي الوسط شريط عريض به جامات تضم كل منها بطة أو أرنبا ويحد هذا الشريط العريض من أعلا وأسفل آخرا ضيقان بكل منهما كتابة بالخط النسخي البسيط .

« متحف الفن الاسلامي رقم السجل ١٤٧٩٩
ارتفاع ١٥ × ٧ سم » .

ومن صناعة الموصل أيضا شمعدان من النحاس المكفت بالفضة (شكل ١٩) من أوائل القرن ٧ هـ (١٣ م) ويخرف هذا الشمعدان شريطان رقيقان بهما كتابة دعائية بالخط النسخي ، ويحدهما من أعلى وأسفل شريطان عريضان ، عليهما صور سباع بارزة . ويعلو جدار الشمعدان تماثيل طيور صغيرة ، تبدو وكأنها شرفات . ويشبه هذا الشمعدان شمعدان آخر محفوظ في متحف فريز جاليري بمدينة واشنطن ، نشرناه هنا فيما سبق (شكل ١٤) ويرجع تاريخه الى النصف الثاني من القرن ٦ هـ (١٢ م) ، ولذلك كانت الكتابات عليه بالخط الكوفي ، ونلاحظ ان الشمعدان في (شكل ١٩) الذي يرجع تاريخه الى حوالي خمسين سنة بعد ذلك ، تزخرفه كتابات مكتوبة بالخط النسخي وليس الكوفي ، بينما بقيت الاشرطة الزخرفية الاخرى كما هي واحدة في الشمعدانيين .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥١٢٤
ارتفاع ٣٢ سم قطر القاعدة ٣٩ سم » .

وعلى قنديل من الزجاج الموه بالمينا المتعددة الالوان (شكل ٢٠) من صناعة مصر في عصر المماليك ، في أواخر القرن ٧ هـ (١٣ م) شريط من كتابة الخط النسخي باسم الامير

الطيبغا تتخلله جامات بكل منها رنك هذا الامير ويتألف من سبع على بقعة مربعة . وشارة السبع نراها في رنك السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، مما يجعلنا نرجح ان الامير الطيبغا هو احد امراء هذا السلطان .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٨٠٢٨
الارتفاع ٢١ سم قطر ١٨ سم » .

والمشكاة من الزجاج الموه بالمينا المتعددة الالوان (شكل ٢١) ، عليها شريطان عريضان من كتابات بالخط النسخي ، أحدهما على الرقبة لاية النور بالمينا الزرقاء ، والاخر على البدن لكتابة دعائية بالمينا البيضاء ، باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والكتابات على أرضه من فروع نباتية بيضاء ملتفة بأوراق زخرفية حمراء . وهذه المشكاة عثر عليها في مسجد بناءه الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٣١٣
ارتفاع ٢١ سم قطر ٢٤ سم » .



وسورة الفاتحة في (شكل ٢٢) في مصحف السلطان الاشرف شعبان ، الذي ذكرناه فيما سبق ، نرى على هذه الصفحة نص السورة مكتوبا بالخط النسخي الجميل بينما كتب العنوان في أعلى وأسفل الصفحة في شكل حشوة مستطيلة ، وبالخط الكوفي الزخرفي . وكما ذكرنا فان هذا المصحف كتب للاشرف شعبان في النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤ م) .

« دار الكتب المصرية بالقاهرة » .

والكوكب من الخزف (شكل ٢٣) من صناعة مصر في عصر المماليك ، في القرن ٨ هـ (١٤ م) ، نجد ان زخرفته الوحيدة عبارة عن كتابة دعائية بالخط النسخي بحروف طويلة مرتفعة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٣٢٩٢
ارتفاع ٢٧ر٢٧ سم »

وبالخط الكوفي وبالخط النسخي أيضا نرى كتابات على محراب من بلاطات الخزف من صناعة قاشان (شكل ٢٧) وعليه تاريخ سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦) ، وتوقيع الحسن بن عرب شاه وتتألف الزخارف من عناصر زخرفية عربية واشربة من كتابات كوفية أو نسخية.

« متحف الفن الاسلامي ، من متاحف الدولة في برلين
ارتفاع ٢٨٤ سم »

ومثال آخر نراه في سطح كرسي من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٨) ، في وسطه اسم « محمد » بالخط النسخي تحيط به كتابة دعائية بالخط الكوفي الزخرفي باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون والقباه. وتكرر هذه الكتابة مرة أخرى على الحافة ، ولكن بالخط النسخي ، وتتخللها في الاركان رسوم بط طائر ، ورسوم البط الطائر نراها على عدد التحف باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ويظهر أنها كانت ترمز اليه . وعلى هذا الكرسي توقيع الصانع محمد بن سنقر البغدادي ، وتاريخ سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٣٩
ارتفاع ٨١ سم قطر ٣٠ سم »

والمقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب (شكل ٢٩) على قاعدتها من الداخل كتابة دعائية بالخط النسخي باسم السلطان الملوكي المنصور محمد بن قلاوون ، الذي حكم مصر حوالي السنتين في النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وعلى الغطاء كتابة بالخط الكوفي الزخرفي ذات حروف اطرافها مجذولة ومتناسقة ، ويحيط بالكتابة زخارف نباتية دقيقة من وردات وزهرات لوتس صينية .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٥٥٩١
ارتفاع ١٣ سم قطر الفوهة ١٠ سم »

ومن عصر المماليك ، في مصر أيضا من القرن ٨ هـ (١٤ م) ، سلطانية من الخزف (شكل ٢٤) في وسطها رسم زهرة اللوتس على شكل رنك ، يحيط بها شريط عريض به كتابة دعائية بالخط النسخي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٣٧٤٢
ارتفاع ١٣ر٥ سم قطر ٢٤ سم »



وأحيانا نجد هذين النوعين أساسيين في الكتابة العربية : الكوفي والنسخي مجتمعين على تحفة واحدة امعانا في زيادة التأثير الزخرفي .

ومثال لذلك تركيبة من الخشب وجدت في القبر للمشهد الحسيني في القاهرة يفلب انها صنعت في عصر السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب في أواخر القرن ٦ هـ (١٢ م) وعلى الجزء الذي يظهر في (شكل ٢٥) نرى ثلاثة اشربة ، عليها كتابات قرآنية ، الاوسط منها عريض وبالخط الكوفي المزهر ، ويحده من اعلاه واسفله شريطان بالخط النسخي . والكتابات في الاشربة الثلاثة محفورة باتقان ودقة على أرضية من فروع نباتية موزقة تلتف برشاقة وتناسق في أعماق ومستويات متعددة ، وقد استعمل الفنان كلا النوعين بمهارة ودقة ليزيد من جمال الزخارف .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٠٢٥ »

كما نجد هذين النوعين من الكتابة : الكوفي والنسخي مجتمعين في أبريق من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٦) وهو من صناعة ايران في القرن ٦ هـ (١٢ م) تزخره اشربة بها كتابات دعائية بالخط الكوفي أو بالخط النسخي ، وعلى الرقبة بالبارز أشكال سباع.

الشمعدان على الحجرة النبوية الشريفة في
سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .

متحف الفن الاسلامى فى القاهرة رقم
السجل ٤٠٧٢ ارتفاع ٤٨٥ سم قطر القاعدة
٥٧ سم .

« متحف الفن الاسلامى فى القاهرة رقم السجل ٤٠٧٢
ارتفاع ٤٨٥ سم قطر القاعدة ٥٧ سم » .

● ● ●

ومرة أخرى يسبح الفنان فى أفق الخيال،
ويجعل حروف الكتابة تنتهى بصور أشخاص
فى مناظر صيد وموسيقى وطرب ، ويرسم
بدلاً من نقط الحروف رؤوس حيوانات
وطيور .

ومثال لهذا الأسلوب الفنى ، نراه على
رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة
والذهب (شكل ٣٢) ، تزخرف الشريط
العريض منه كتابة دعائية من هذا النوع ،
وعلى القسم العلوى من هذه التحفة سطر
كتابة نسخية باسم السلطان المعادل كتبها
المنصورى الذى تولى الحكم فى مصر لفترة
قصيرة فى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٤٤٦٣
ارتفاع ١٤ سم قطر ٨٥ سم » .

● ● ●

وانخذ الفنانون ، فى جميع البلاد الاسلامية
الكتابة العربية ببراعة فائقة كوسيلة للربط بين
الوحدات الزخرفية ، أو بملء مناطق
وجامات بكلمات ، أو بأبيات من الشعر .

وعلى قطعة من النسيج (شكل ٣٣) من
صناعة مصر فى القرن ٢ هـ (٨ م) ، نرى
عليها العناصر الزخرفية مرسومة بخطوط
هندسية ، تمثل وحدة زخرفية تتألف من
فارسين على الجياد فى أسقف كل منهما

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٤٤٦١
طول ٣٢ سم عرض ٩ سم ارتفاع ٨ سم » .

● ● ●

وفى خلال القرن ٧ هـ (١٣ م) تطور الخط
العربى فى ايران ، وأصبحت الحروف تنساب
الى اليسار والى اليمين وسمى « خط
التعليق » . وفى القرن ٩ هـ (١٥ م) ازداد
التنميق والتعديل فى « خط التعليق » الى أن
وصل الفنانون والخطاطون الى أصول خط
« النستعليق » . وهذا أسلوب وشيق
لحروف فيها استدارة ، تجمع بين ملامح
خط النسخ وخط التعليق .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٣٠)
من صناعة ايران فى القرن ٨ هـ (١٤ م) ،
نرى عليها أشرطة بها من كتابات بالأسلوب
الايرانى للخط النسخى وهذه القطعة محفوظة
فى فيرونا ، فى إيطاليا .

● ● ●

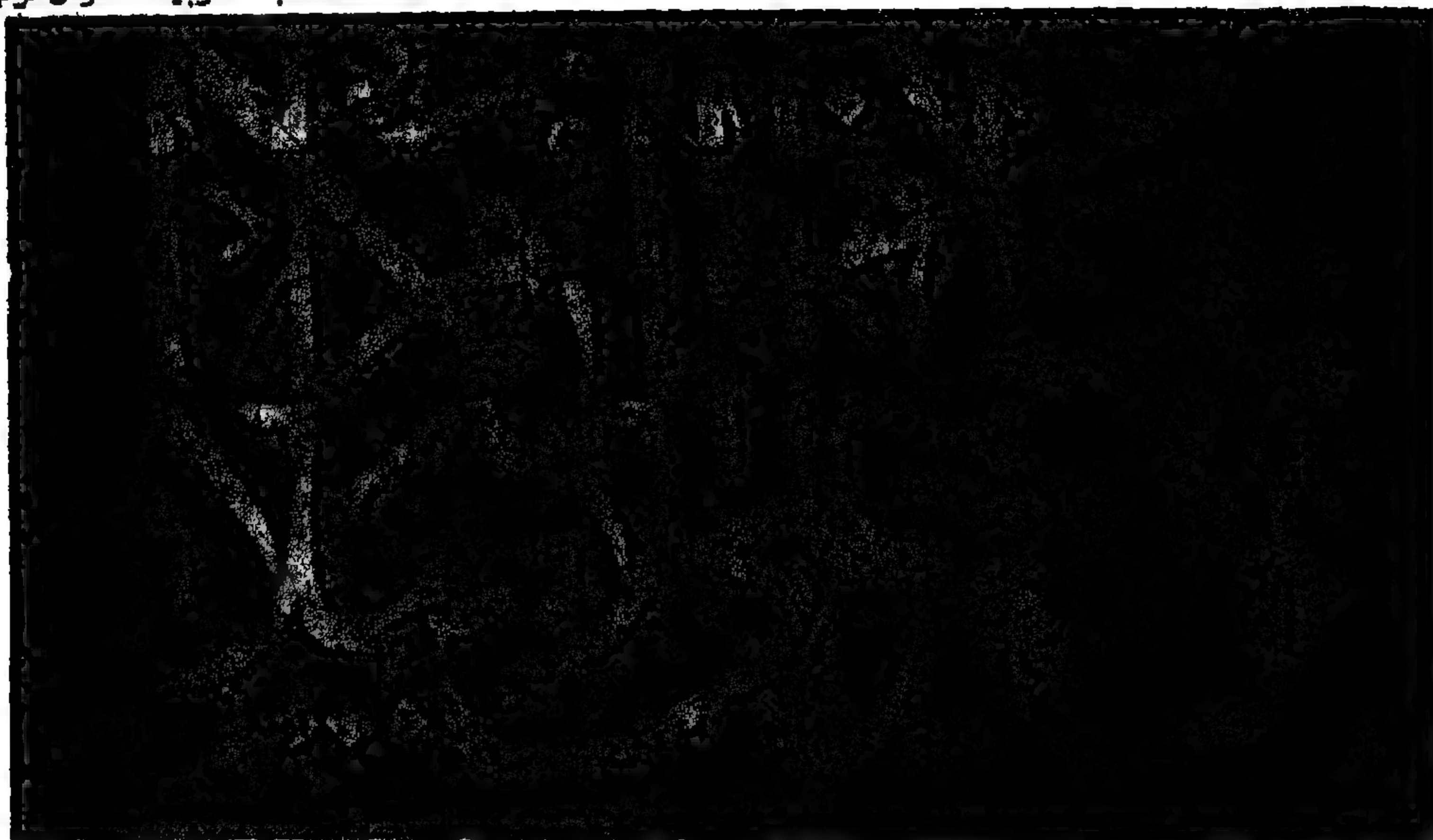
« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٩٩٦ » ، « فيرونا ،
إيطاليا عرض ٨٥ سم » .

وأحيانا لم يكتف الفنانون باستخدام أساليب
الكتابة العربية فى أشكالها البسيطة ، بل
حاولوا ان يتفننوا فى اللعب فى أشكال الحروف
المفردة ، وذلك برسمها فى أشكال تنتهى
برسوم مجدولة ، كما رأينا على غطاء المقلمة فى
(شكل ٢٩) .

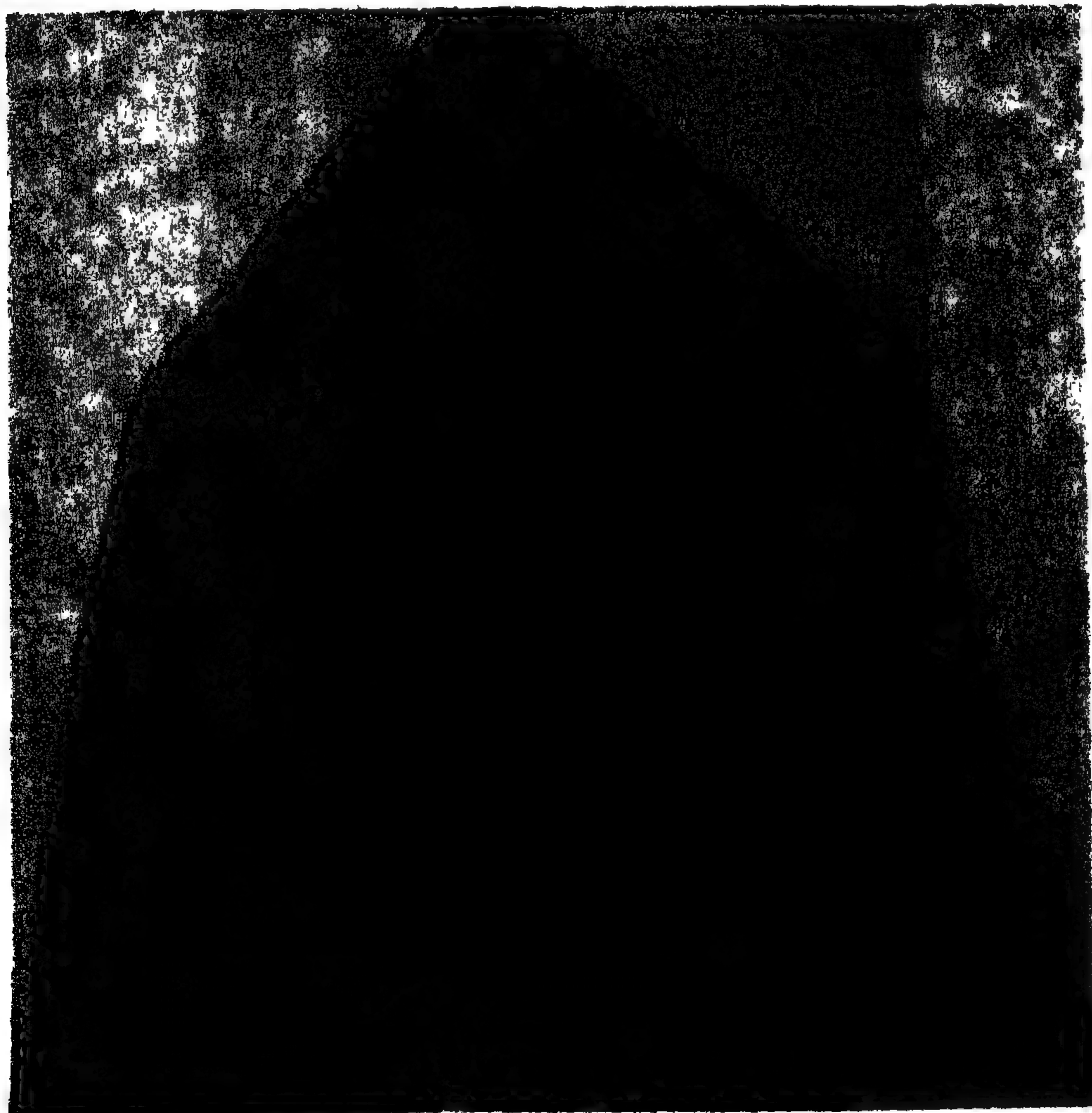
وهذا هو الحال فى كتابة نراها على بدن
شمعدان من النحاس (شكل ٣١) عليه كتابة
دعائية باسم السلطان الاشرف قايتباى وتنتهى
حروفها الطويلة بأشكال مجدولة تشبه
المقصات .

وعلى حافة هذا الشمعدان شريط ضيق
فيه سطر من كتابة نسخية ، بقرا منها ان
السلطان الاشرف قايتباى قد أوقف هذا

الكتابة العربية عنصر زخرفي



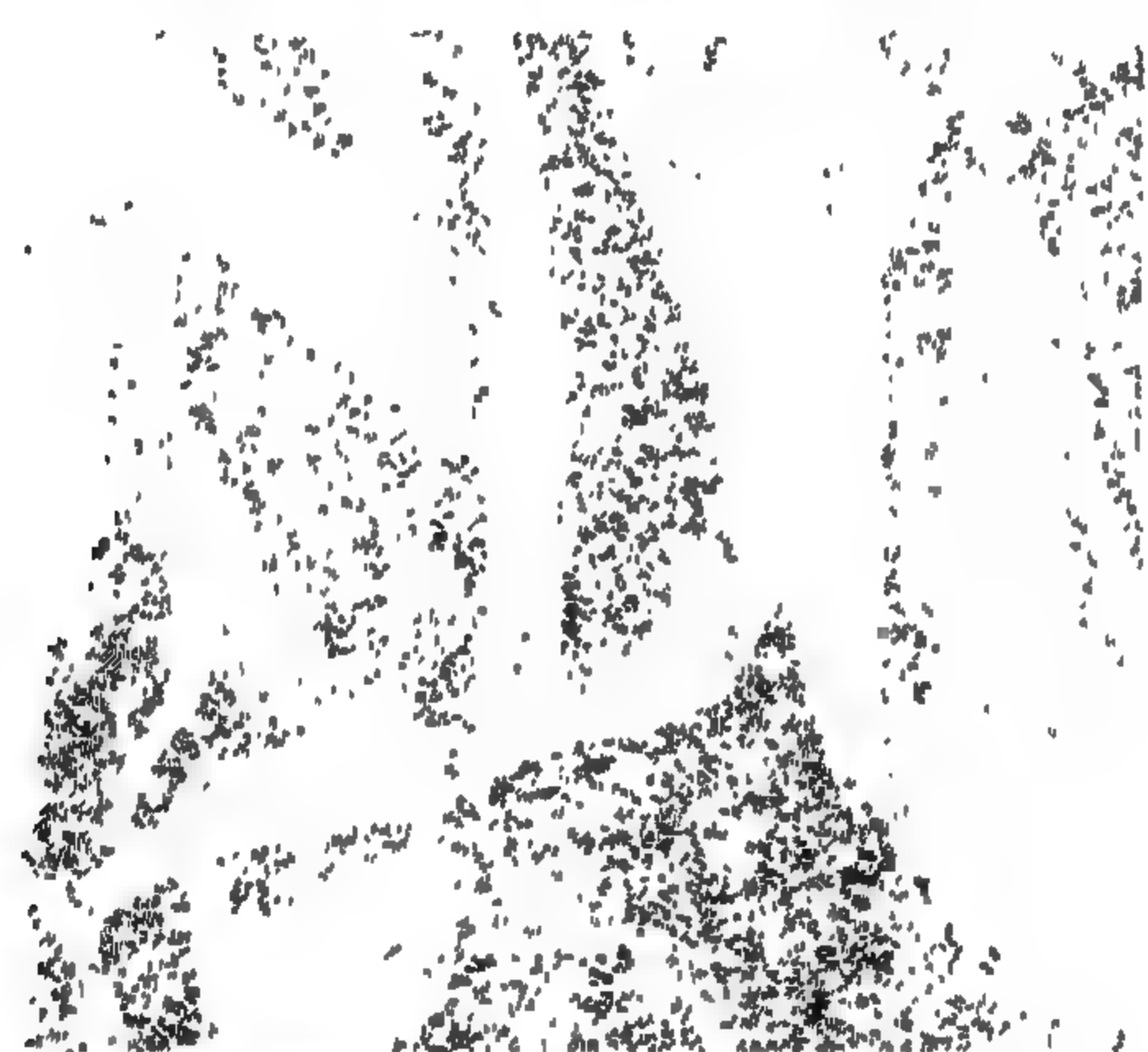
(شكل ١) مجموعة من ست بلاطات من الخزف ، آسيا الصغرى ، القرن ١١ هـ (١٧)



(شكل ٢) طراحة من الحرير محفوظة في كنيسة مريم الملراء بمدينة دانييج ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)

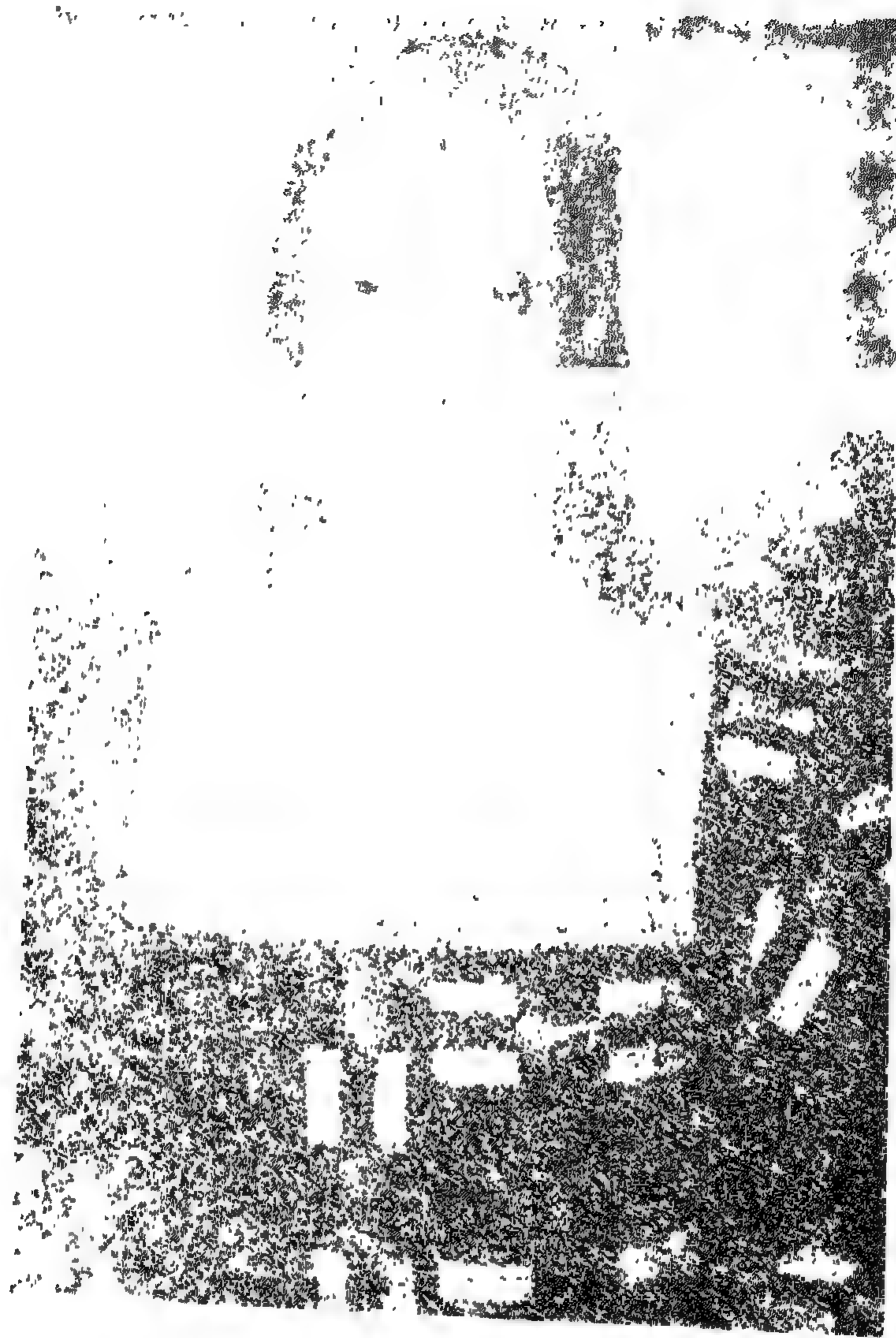


(شكل ٣) عباءة التوبج ، محفوظة في متحف مدينة وينا ، صمدية ، سنة ٥٦٨ هـ (١١٢٢)

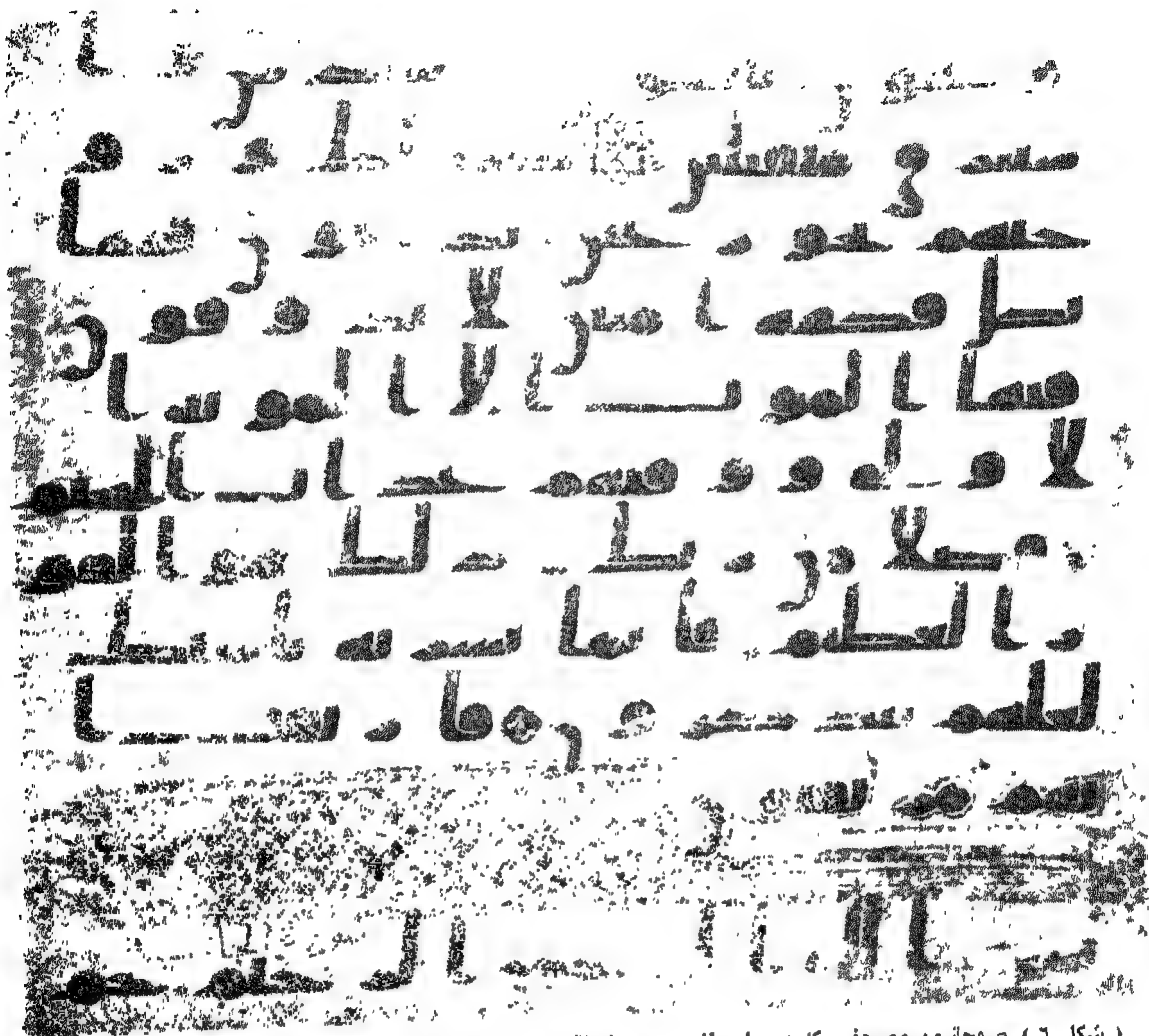


(شكل ٤) صورة توبج العذراء للمصور فراليو ليبي ، محفوظة في متحف مدينة فلورنسا
إيطاليا ، سنة ١٤٠٦ - ١٤٦٩

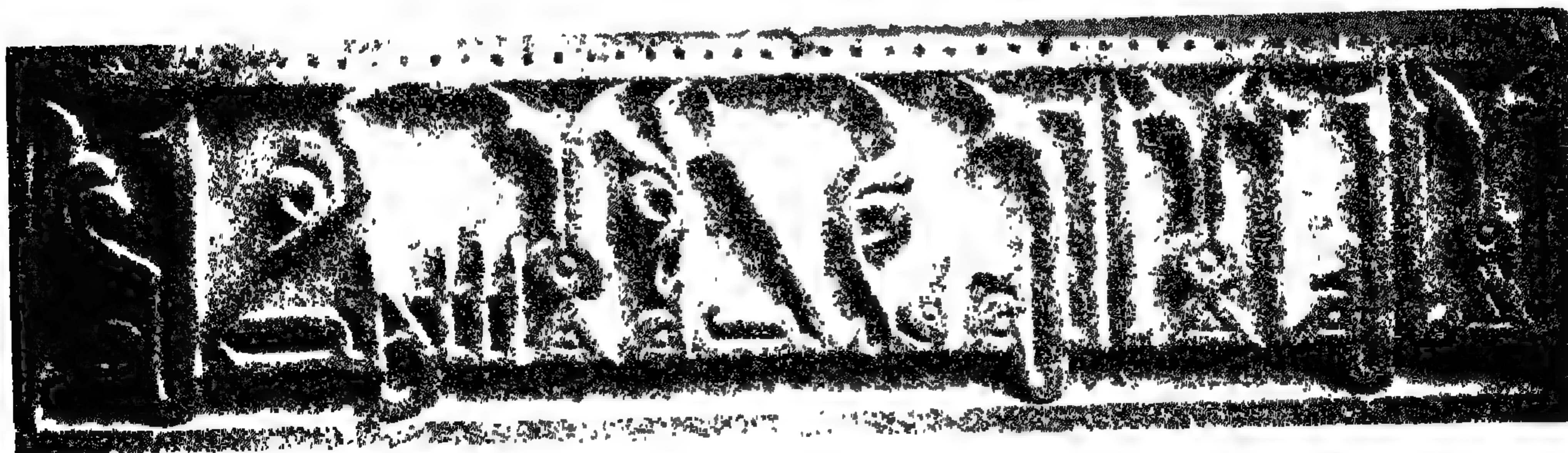
الكتابة العربية عنصر زخرفي



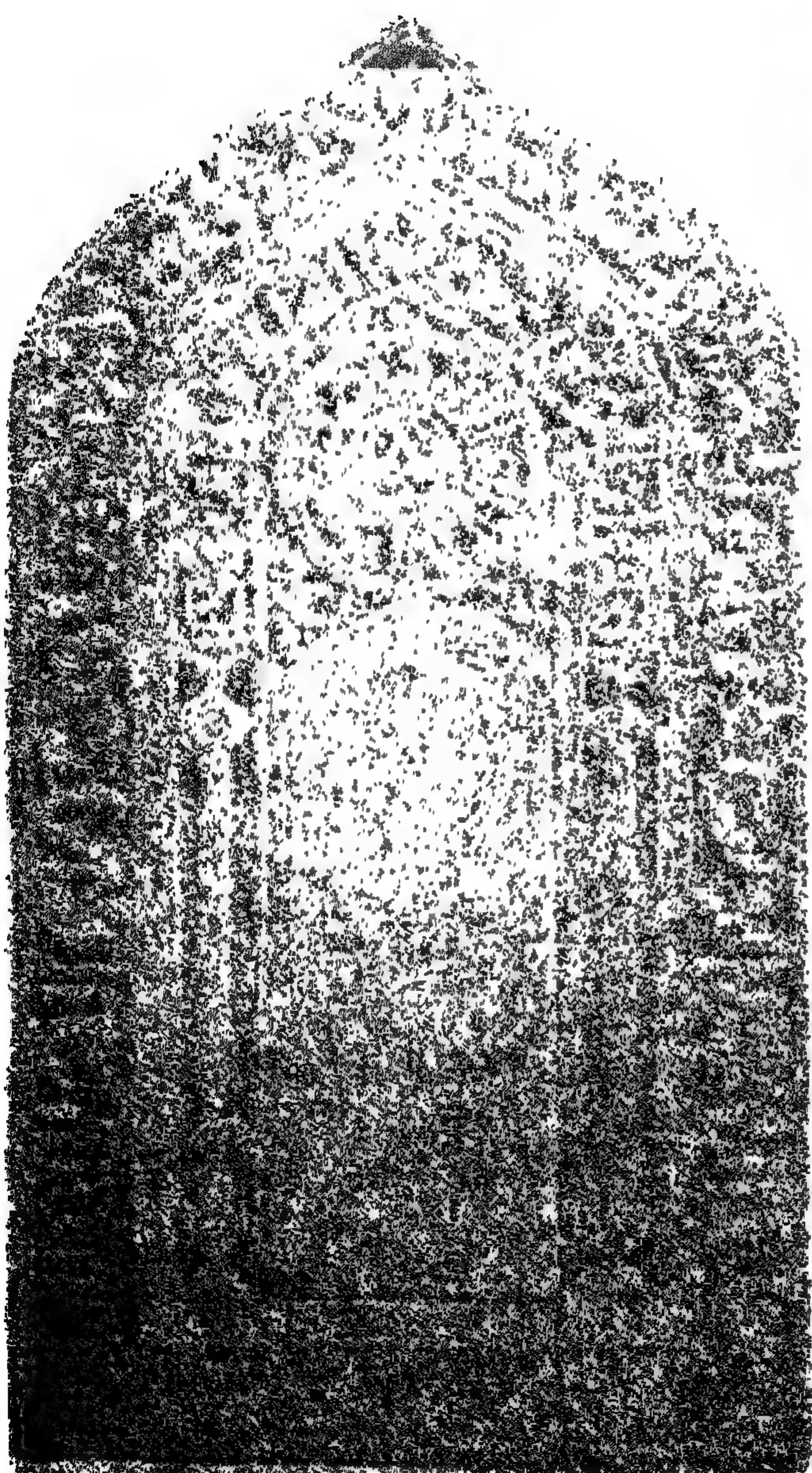
(شكل ٥) صورة السيده الزاوية ، بونزايجر ترميمه انشور
أوربيجو ، للمصور فرانسيسكو كارو ، عسك في ترميم
بمدينة فلورنسا ، إيطاليا ، سنة ١٩٧٨ م ١٥٤٥



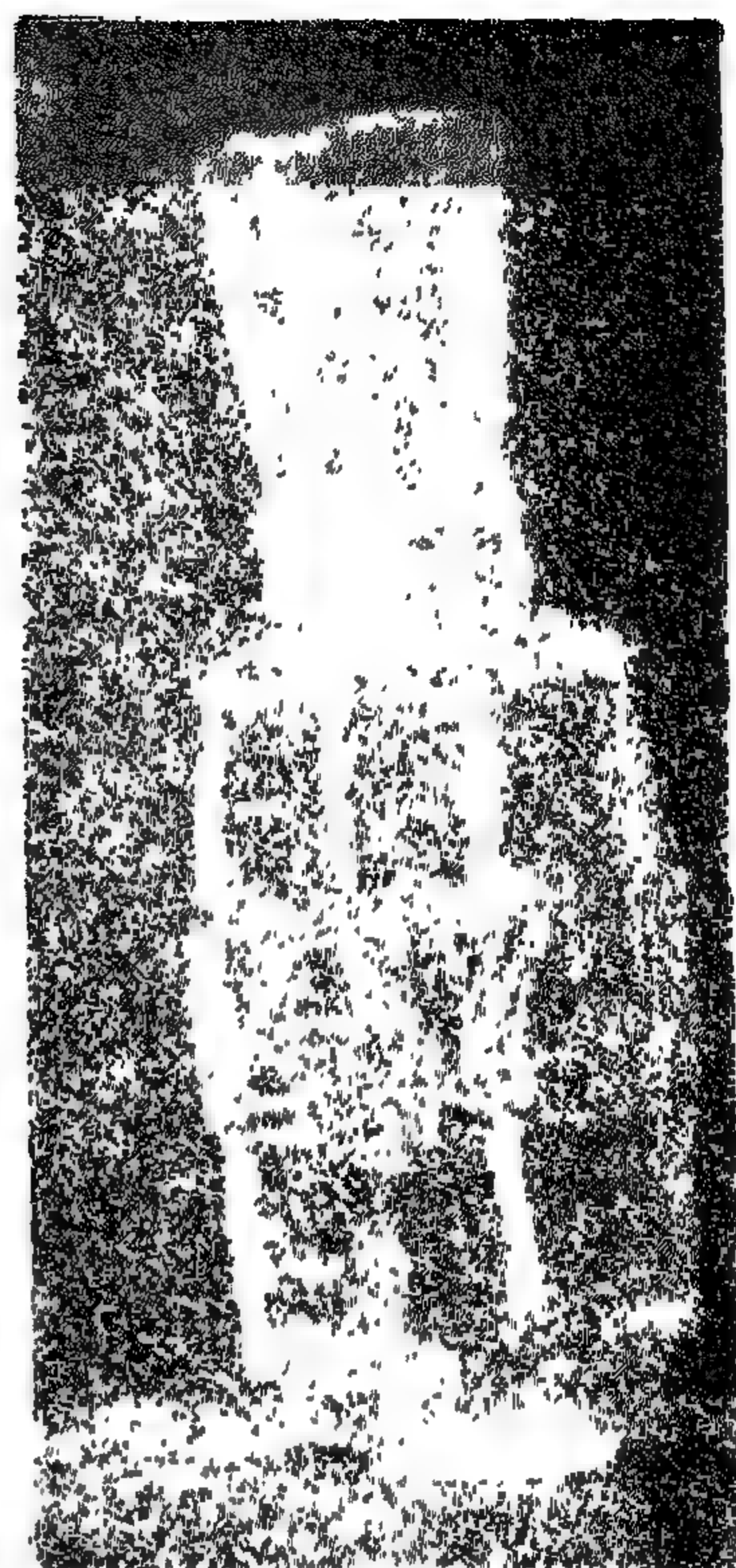
(شكل ٦) صفحة من مصحف مكتوب على الرق ، محفوظة بدار الكتب في مدينة جونا . مصر ، القرن ٢ هـ (٨)



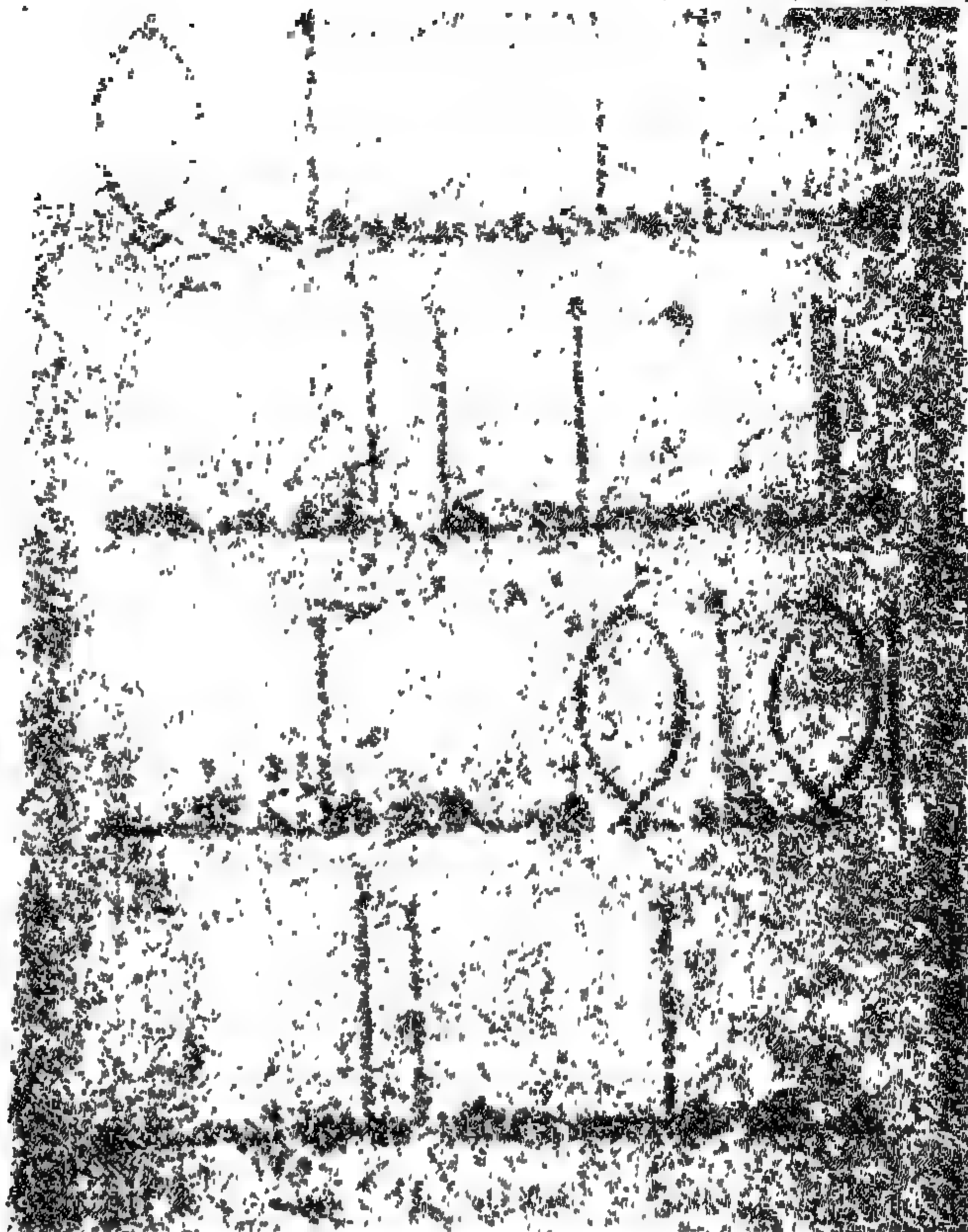
(شكل ٧) لوح من الرخام . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٩) معراب صغير متنقل من الخشب . مصر ،
القرن ٥ هـ (١١)

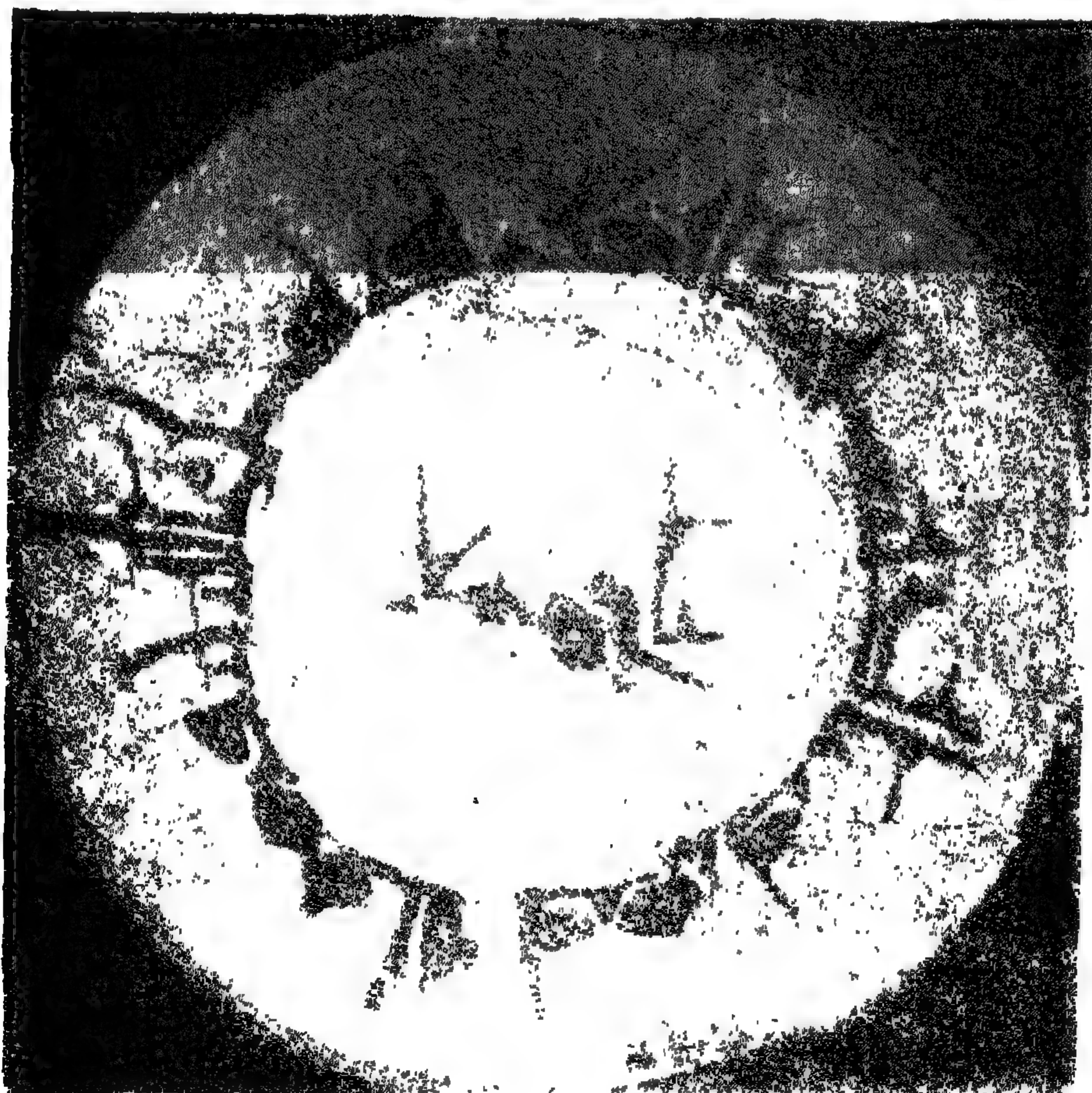


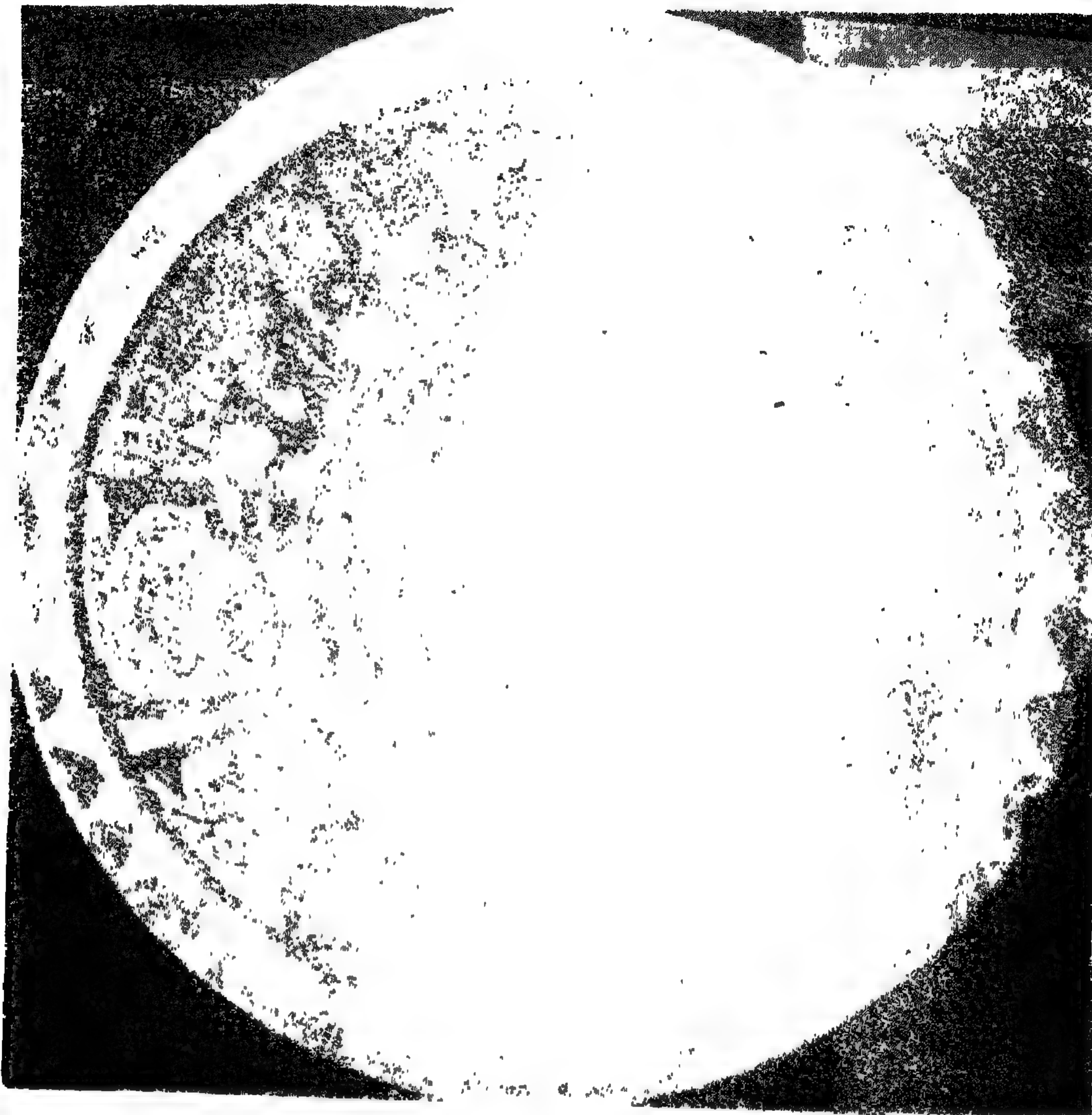
(شكل ٨) قنينة من البلور المصري .
مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ١٠) ورملة من مصحف ،
الخراساني ، القرن ١٢/٦ هـ .
(١٣/١٢) .

(الشكل ١١) صحن من
الخراساني ، القرن ١٢ هـ
(١٠)





(شكل ١٢) صحن من الخزف ذي البريق المعدني ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١)



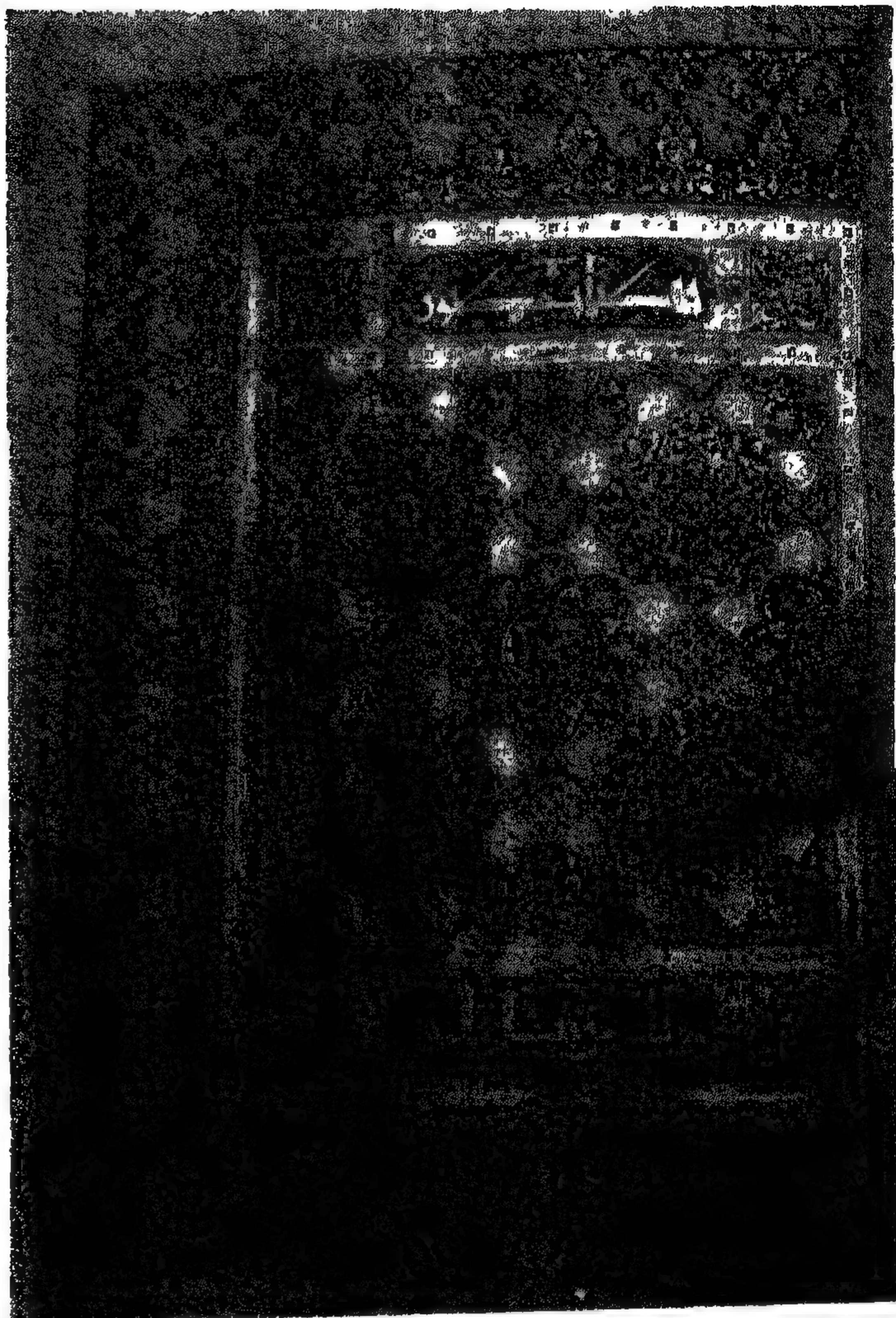
(شكل ١٣) شريك من الحرير ، سابقا في متجذرة مورد ، إيران ، القرن ٦ هـ (١٢) .



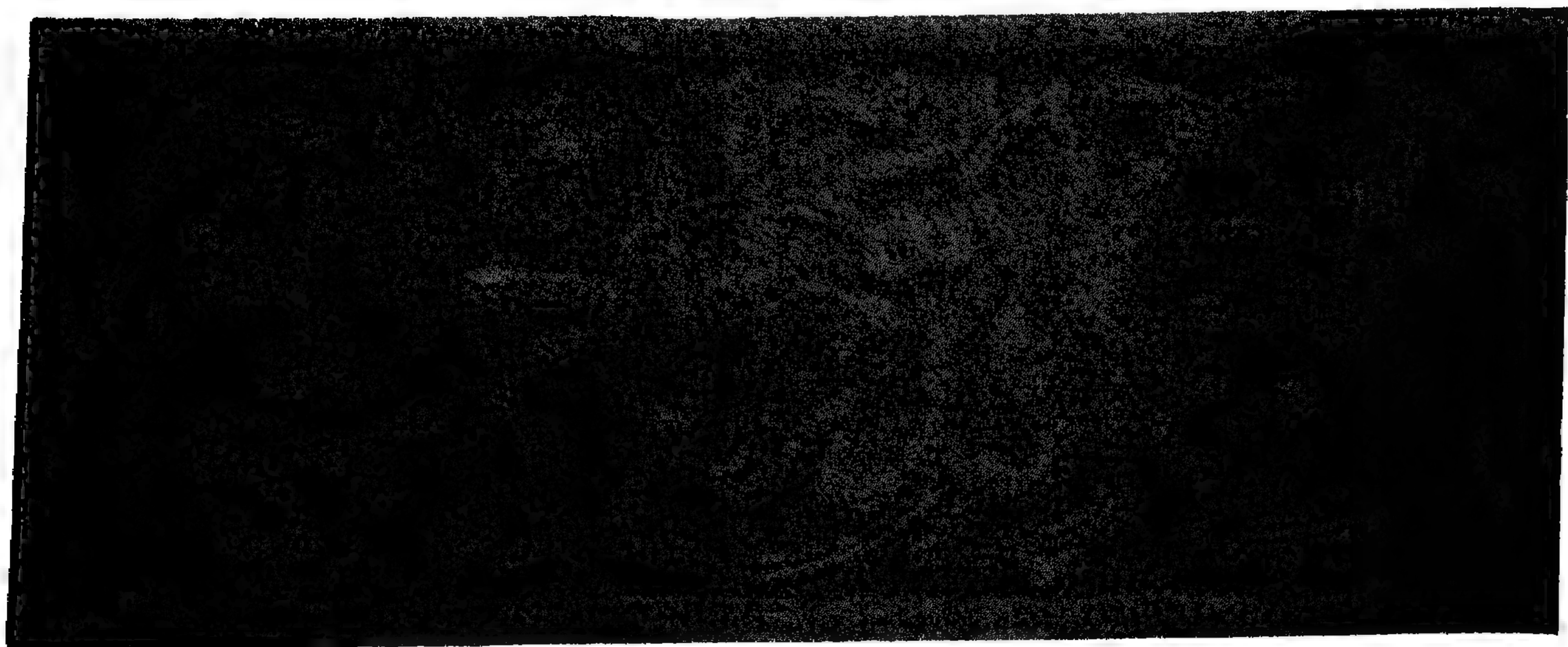
(شكل ١٤) شمعان من النحاس المكفت بالفضة ، محفوظ في متحف فرير جاليري
بمدينة واشنطن ، إيران ، النصف الثاني من القرن ٦ هـ (١٢) .



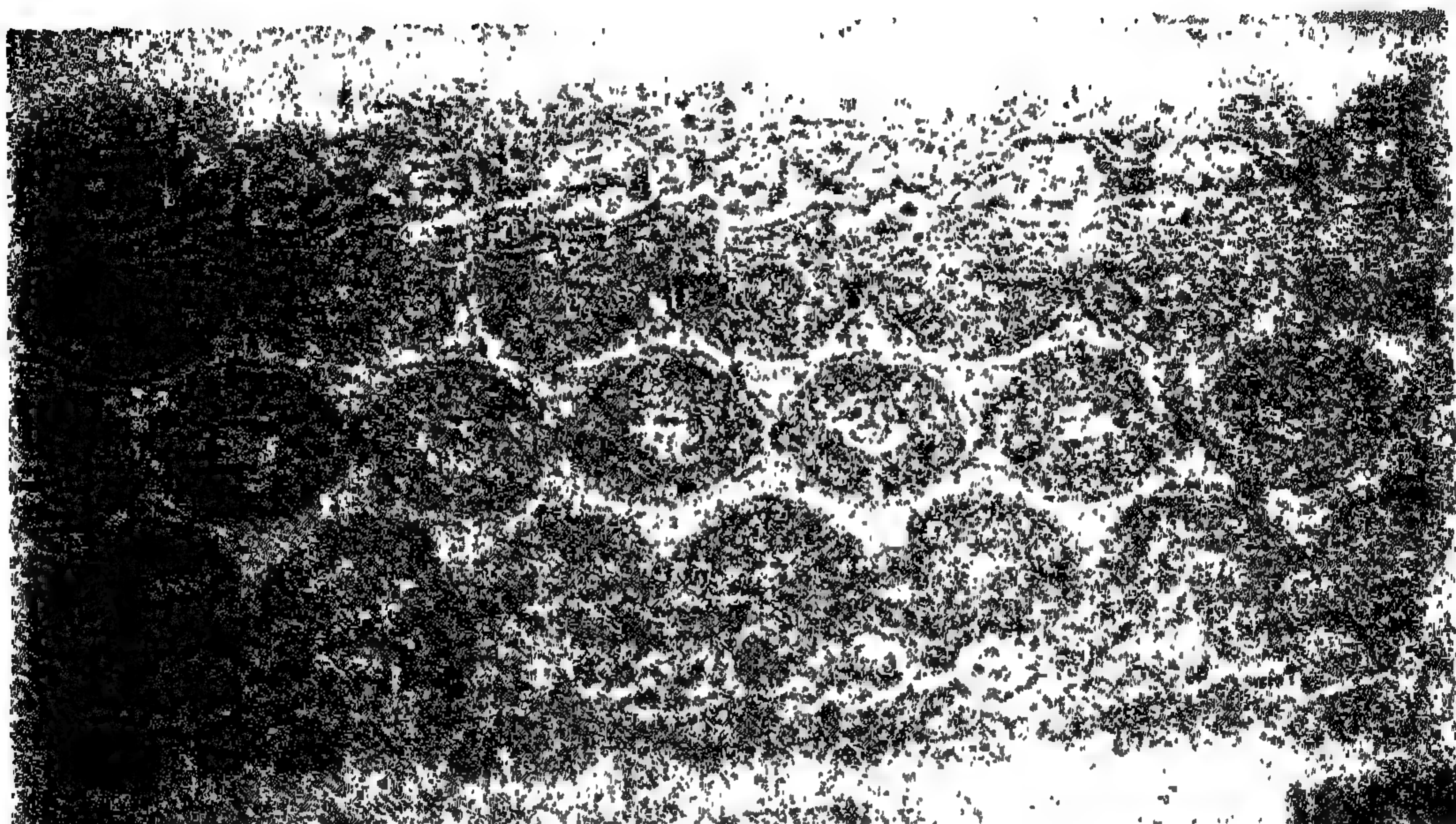
٠ (١١) هـ ٨٠٠ م . مخطوطة جامع شيخنا شيخنا شيخنا (١٥٠ م)



(شكل ١٦) صفحة في بداية مصحف السلطان الاشرف
شعبان ، محفوظ بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة .
مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



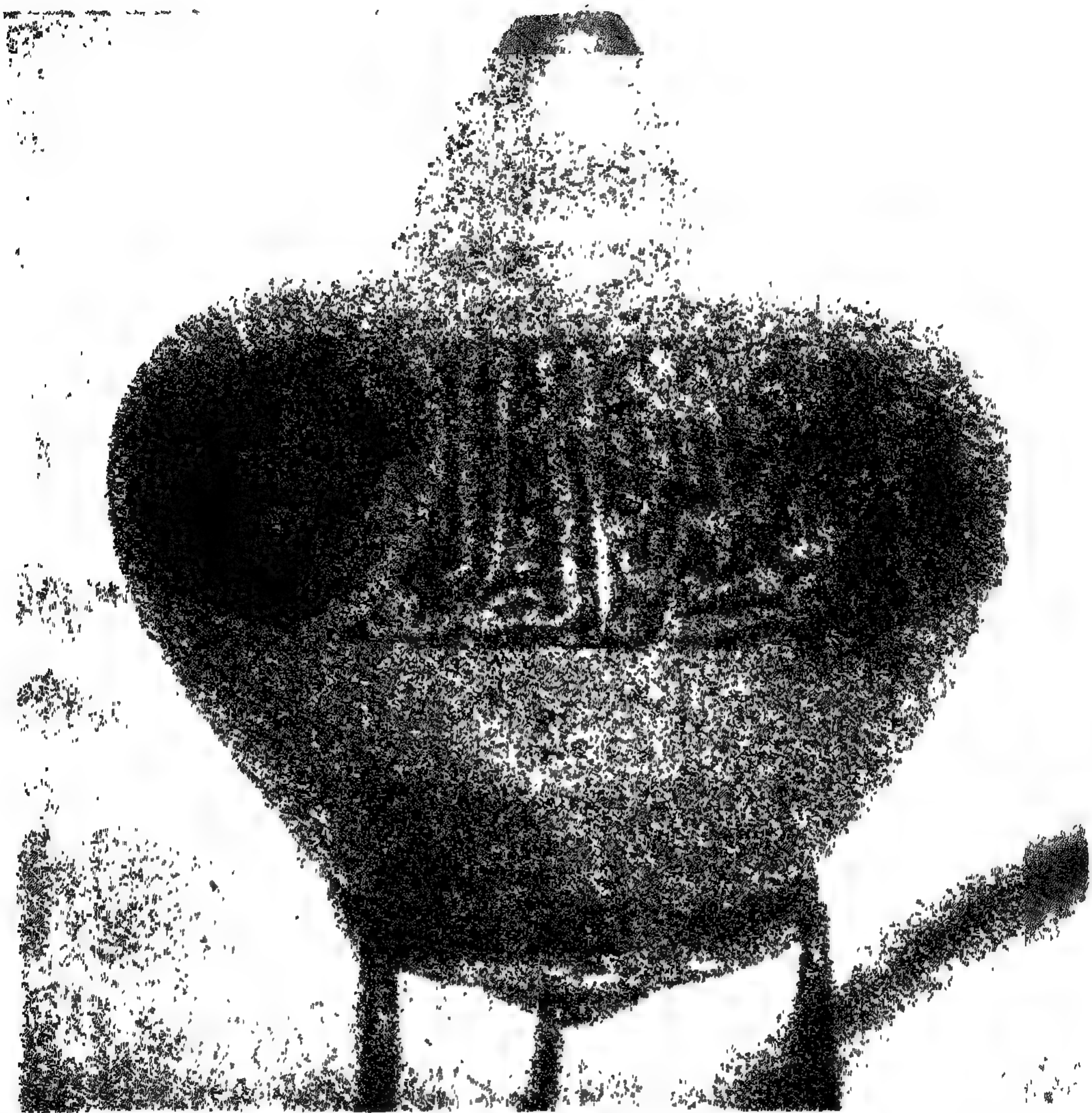
(شكل ١٧) حنوة من الرخام . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



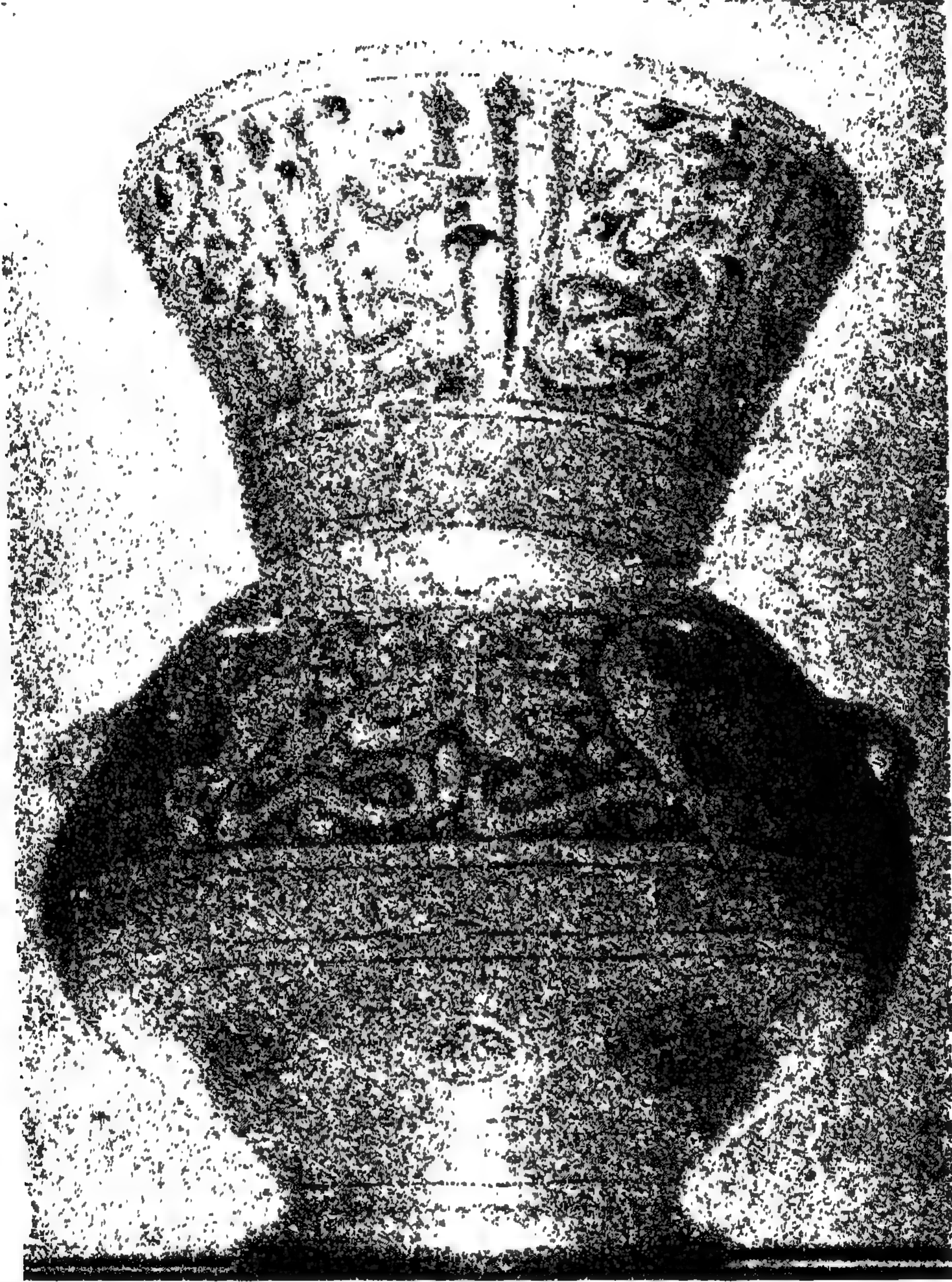
(شكل ١٨) شريط من الحبوب . مصر ، القرن ٧/٦ هـ (١٢/١٢)



(شكل ١٩) شمعدان من النحاس المكثت بالفضة . الموصل ، أوائل القرن ٧ هـ (١٣)

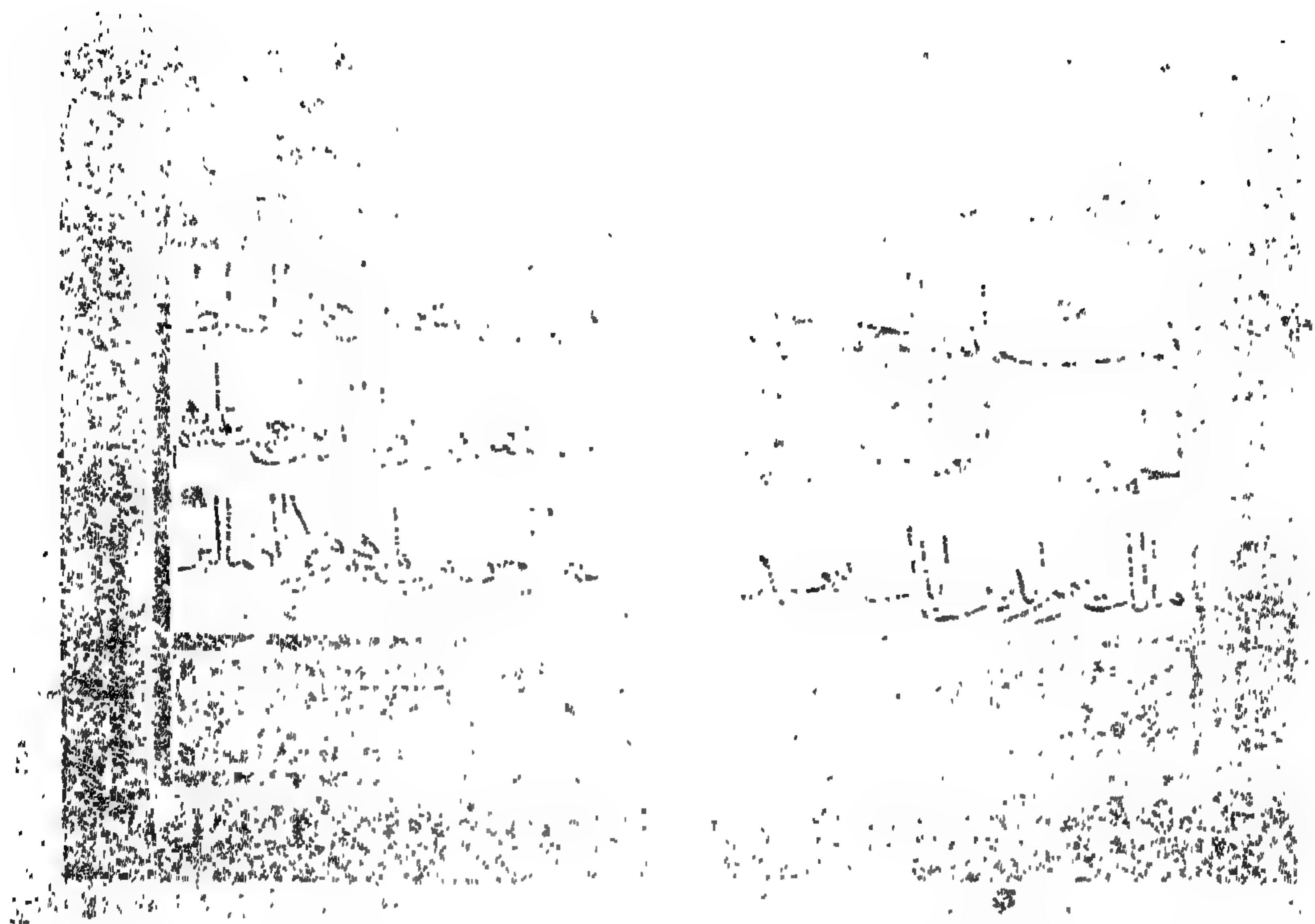


(شكل ٢٠) قندبل من الزجاج الموه بالينا للامير الطنيفا . مصر ، اواخر القرن ٧ هـ (١٣) .



(شكل ٢١) مشكاة من الزجاج الموه بالبناء ، للسلطان الناصر محمد بن قلاوون . مصر ، من مسجد سم بناؤه
في سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨)

١



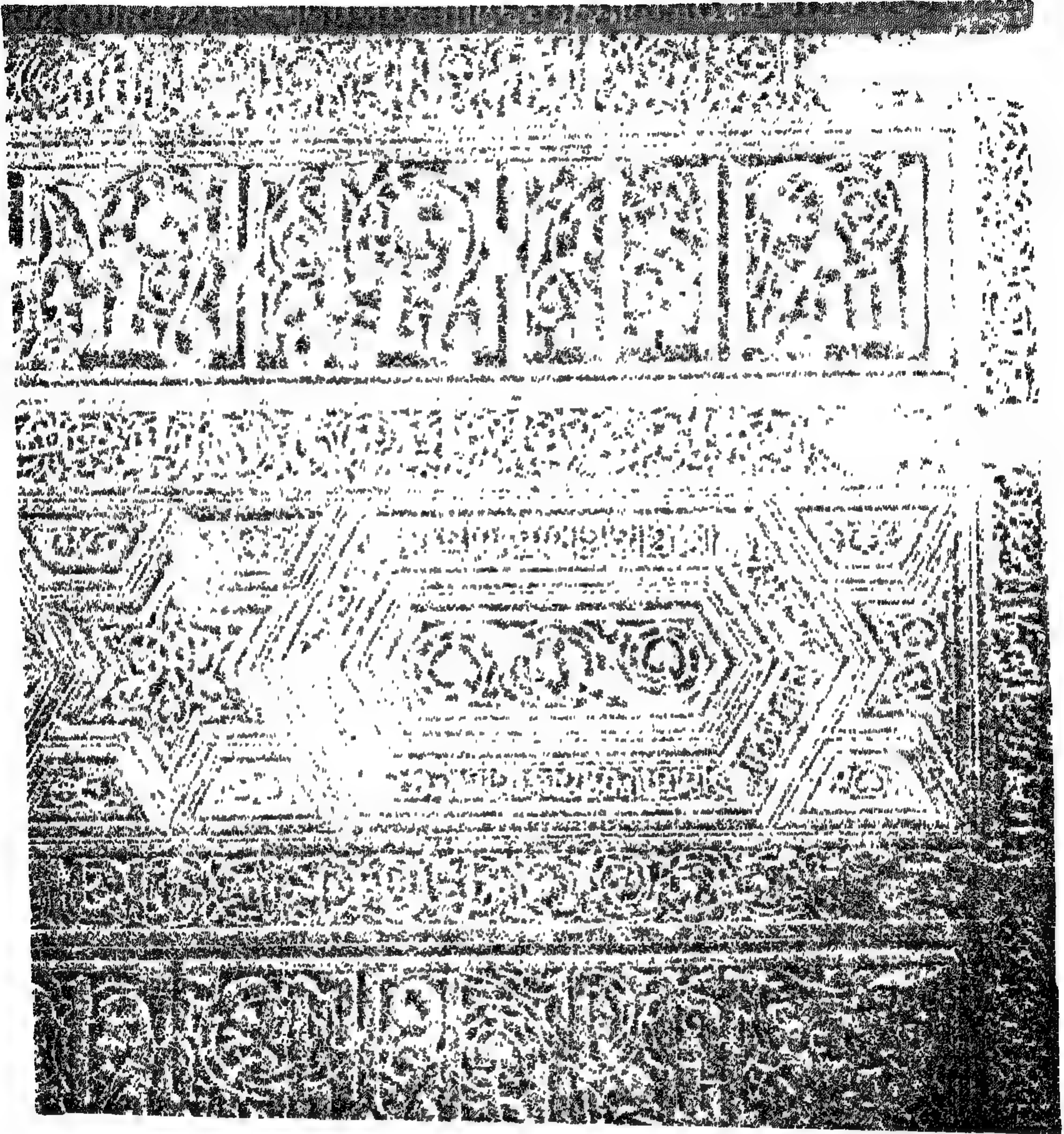
(شكل ٢٣) صفحة سورة الفاتحة، في مصحف السلطان الأشرف شعبان ، بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة . مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



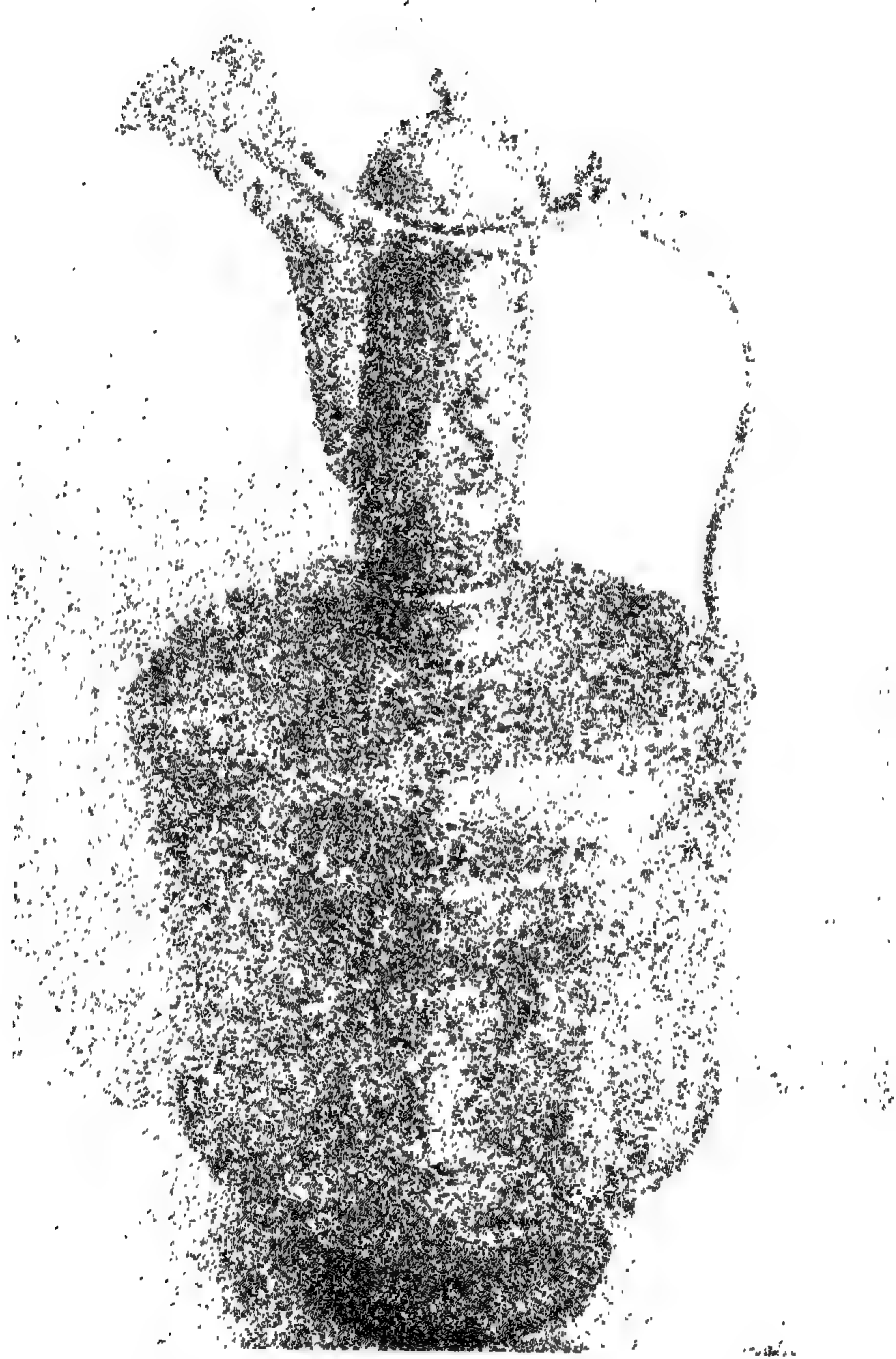
(شكل ٢٣) كوب من الخزف الملوكي ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٢٤) سلطانية من الفخار المظلي الماوي . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٢٥) تركيبة من الخشب من مسجد الامام الحسين بالقاهرة . مصر ، أواخر القرن ٦ هـ (١٢) .



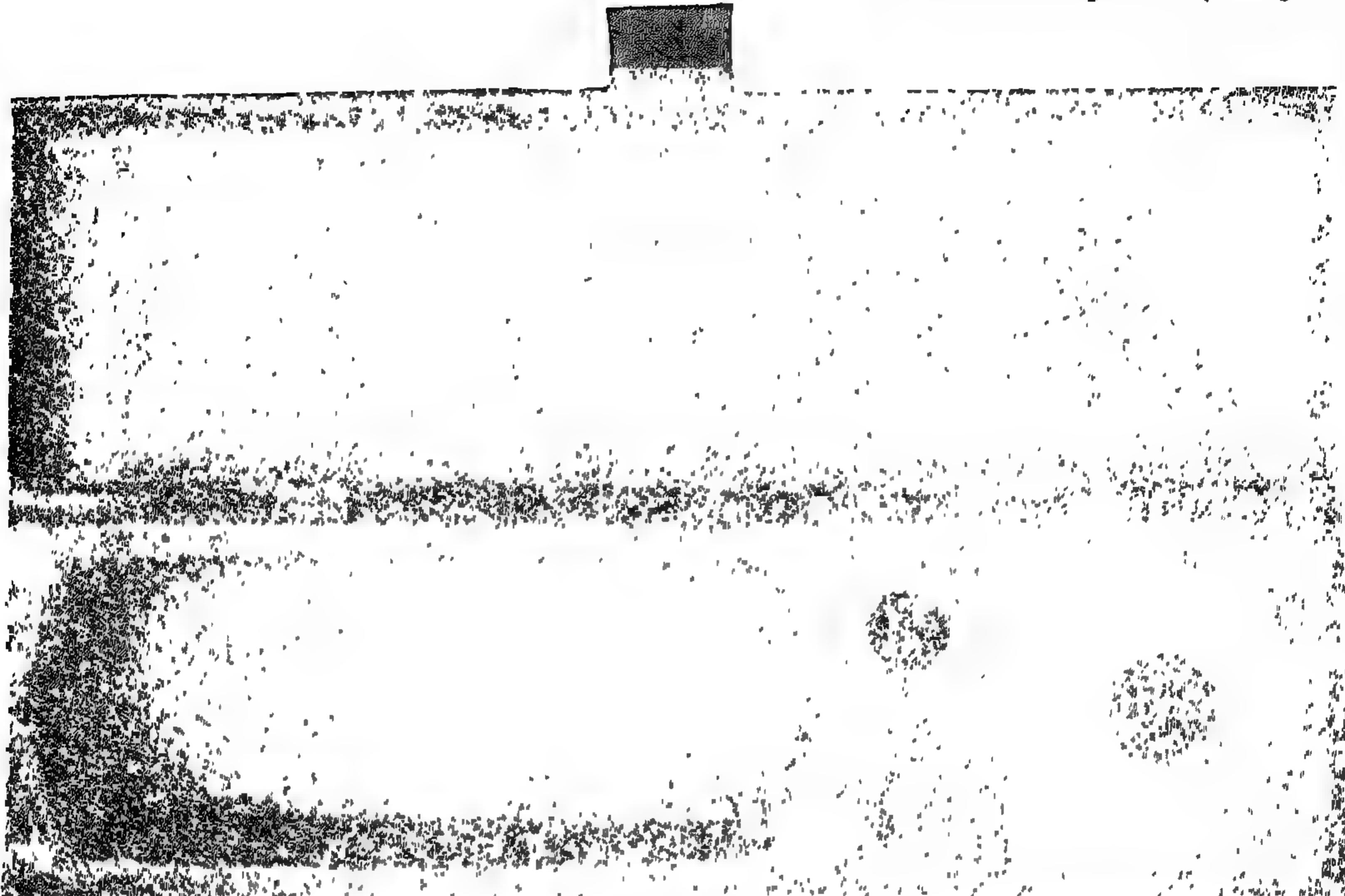
(شكل ٢٦) ابريق من النحاس مكفت بالفضة ، ايران ، القرن ٦ هـ (١٢) .



(شكل ٢٧) محراب من الخزف ذي البريق المعدني ، محفوظ بمتحف الدولة ، في برلين .
 ايران ، مؤرخ في شهر صفر سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٦)



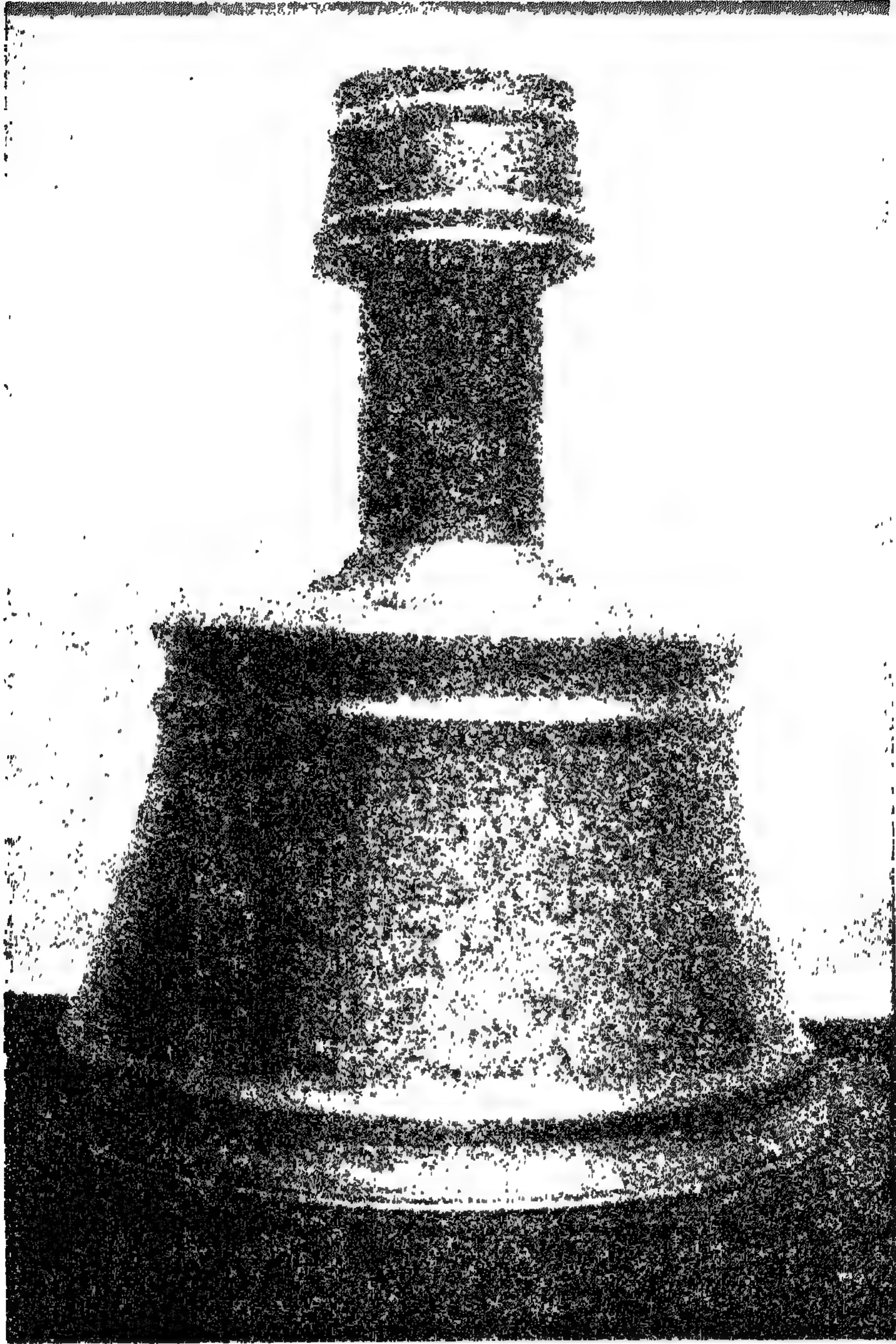
(شكل ٢٨) سطح كرسي من النحاس المكفت بالفضة ، عليه اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وتوقيع الفنان محمد بن سنقر . مصر مؤرخ ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .



(شكل ٢٩) مقلعة من النحاس المكفت بالفضة والذهب ، عليها اسم السلطان المنصور محمد . مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



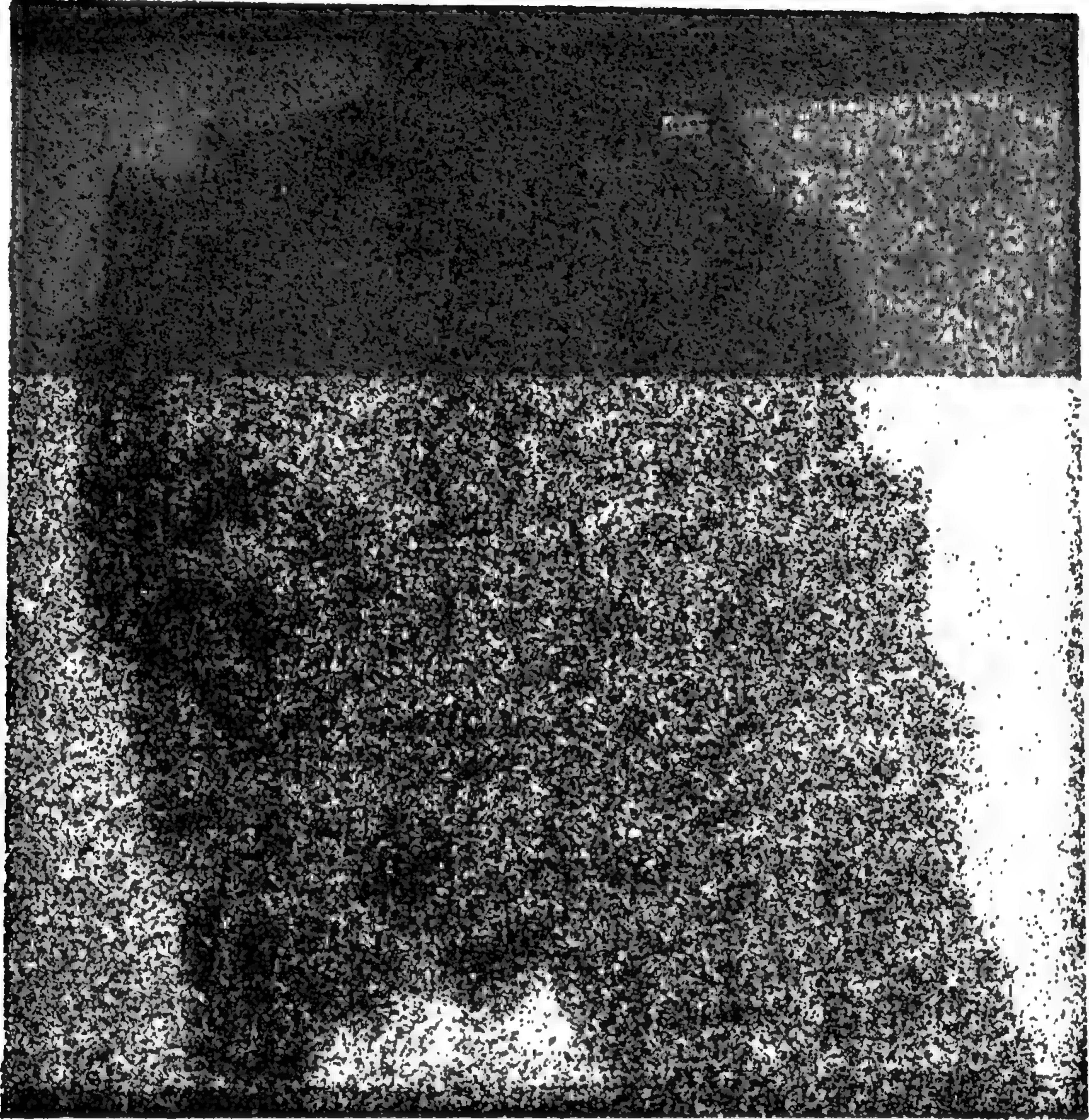
(شكل ٣٠) نسيج من الحرير بخيوط مذهبة ، محفوظ في قصر فيشيو ، بمدينة فيرونا . ايران ، القرن ٨ هـ (١٤) .



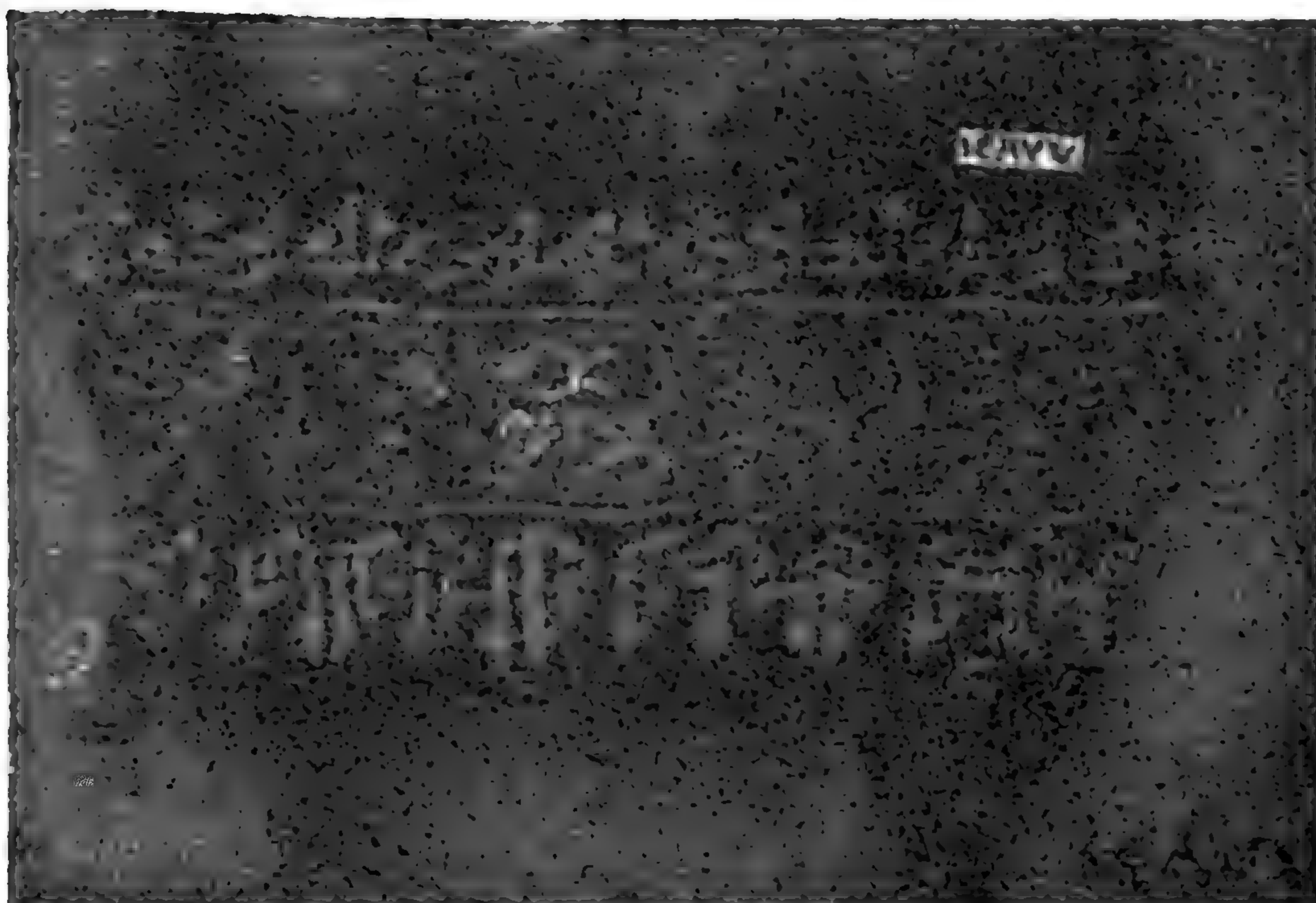
(شكل ٣١) شمعان من النحاس ، عليه اسم السلطان الاشرف قابچاي . مصر ، مؤرخ
في شهر رمضان سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .



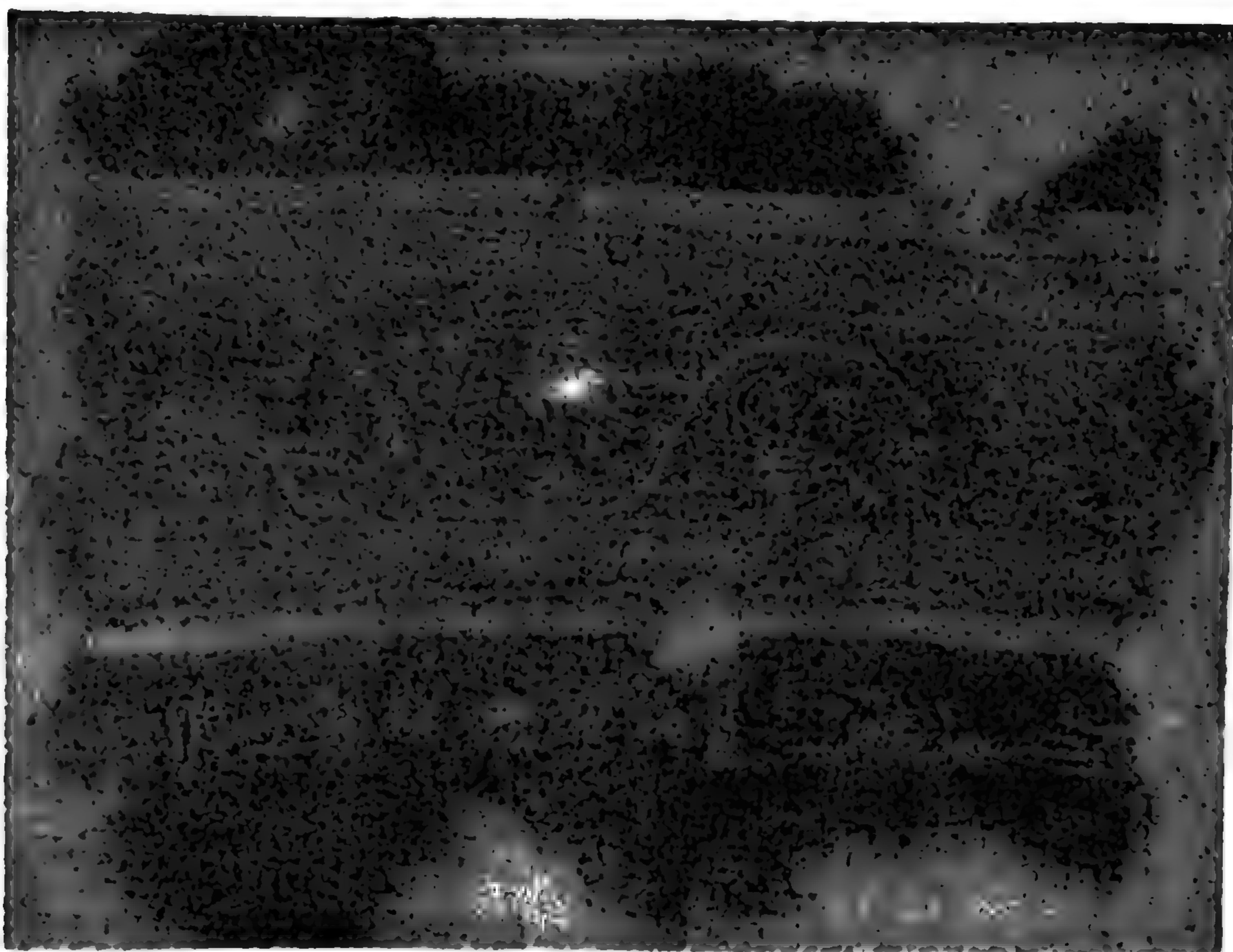
(شكل ٣٢) رقية شمعان من النحاس المكفت بالفضة والذهب عليها اسم السلطان
كتيها المنصوري، مصر، قبل سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤)



(شكل ٢٣) قطعة من النسيج بزخارف منسوجة . مصر ، القرن ٢ هـ (٨) .



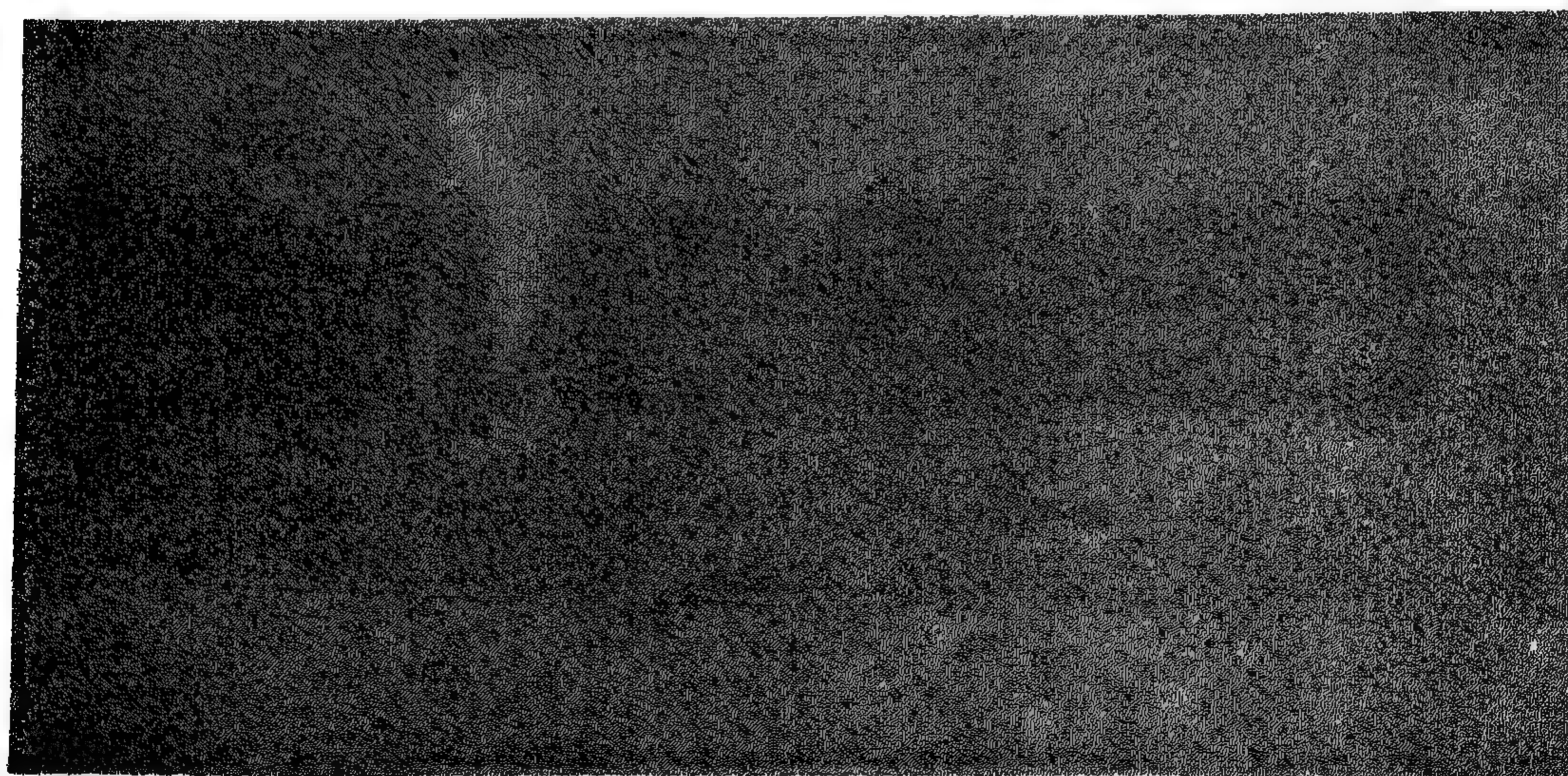
(شكل ٢٤) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



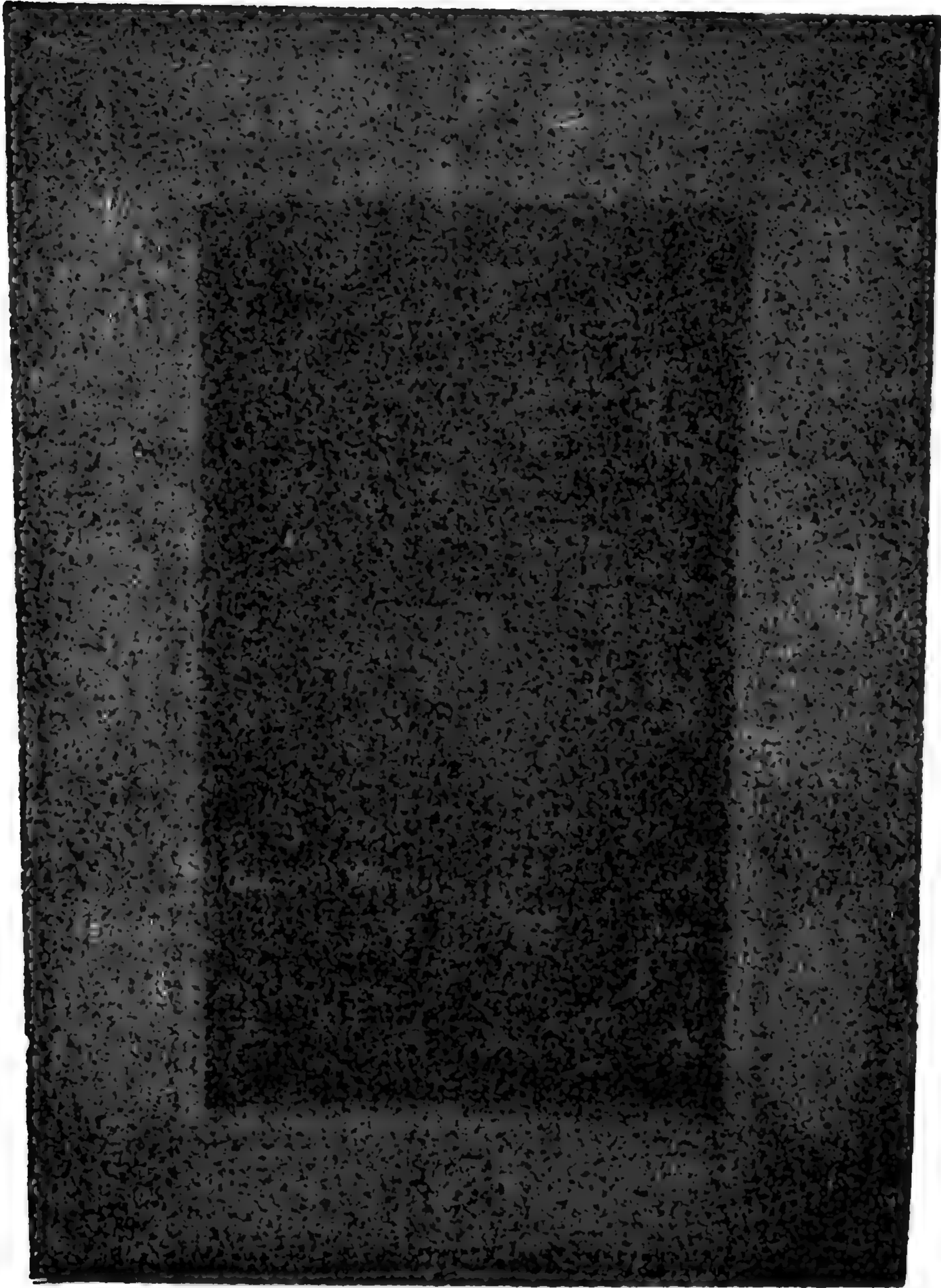
(شكل ٢٥) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



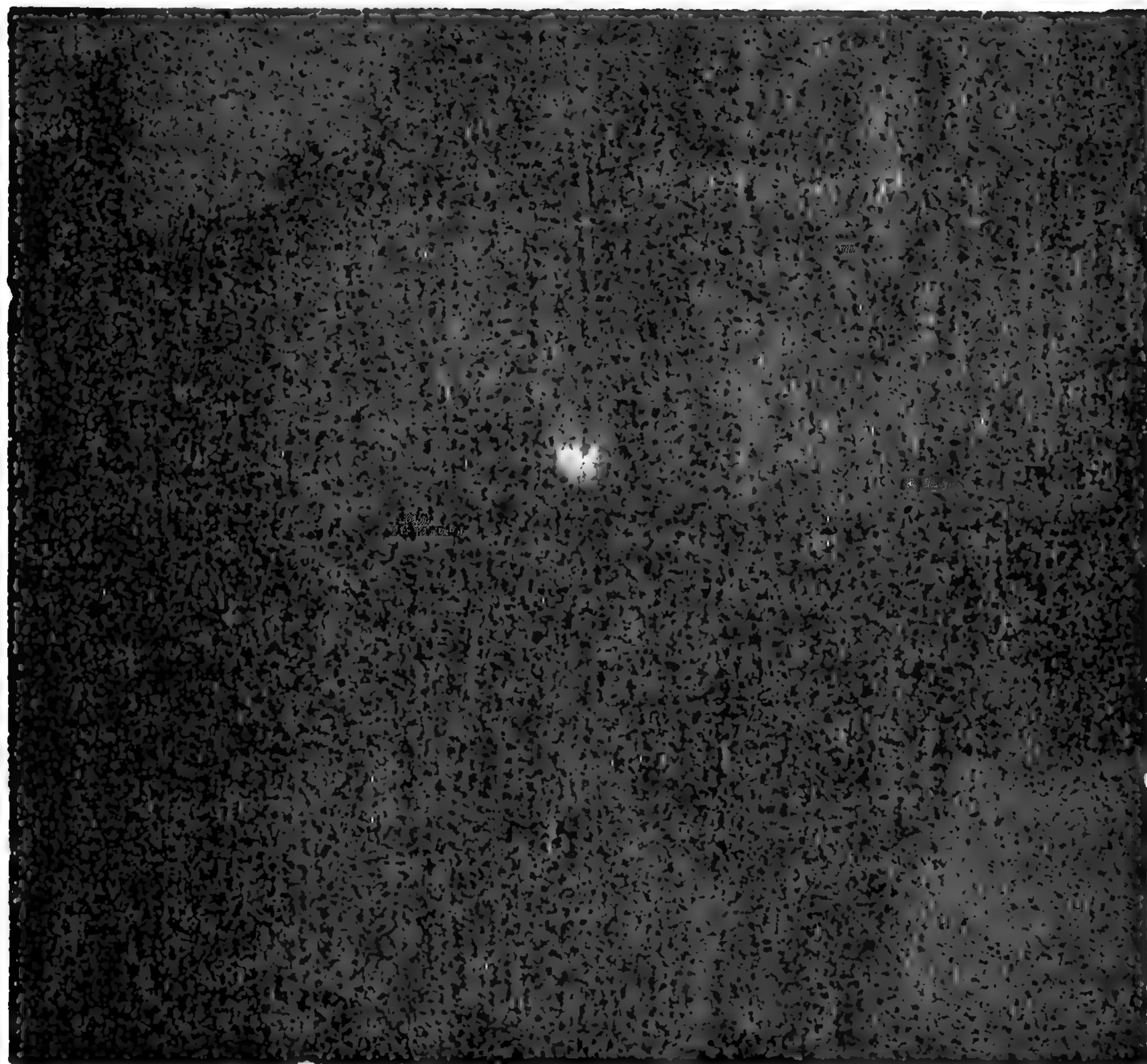
(شكل ٣٦) قدر من الخزف من نوع الفيوم . مصر ، أواخر القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٣٧) نسيج مطرز مملوكي . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٣٨) سجادة من نوع اصفهان . ايران ، اواخر ١٠ هـ (١٦) .



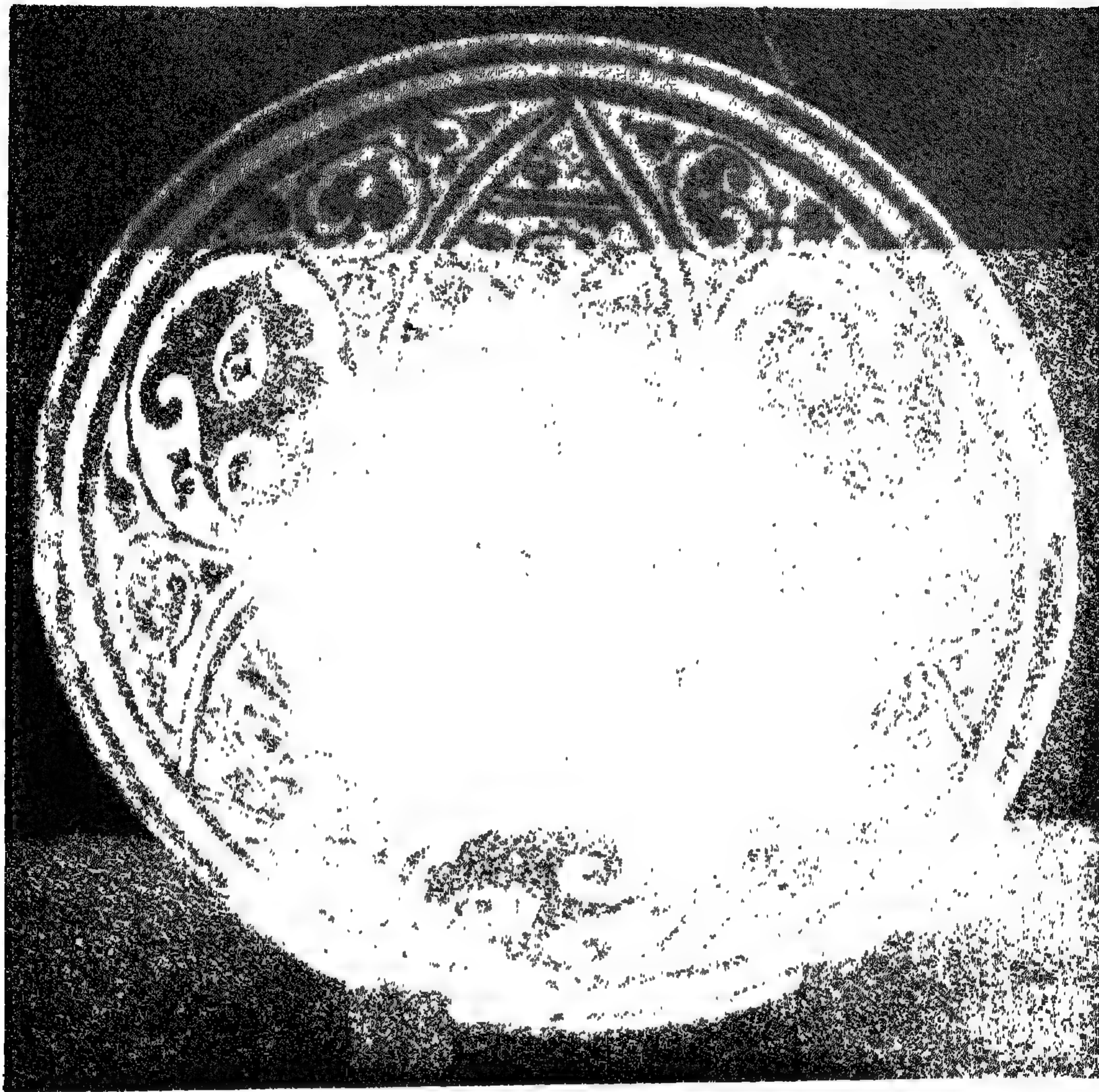
(شكل ٢٩) نسيج مطبوع بالذهب . اليمن ، اوائل القرن هـ (١٠) .



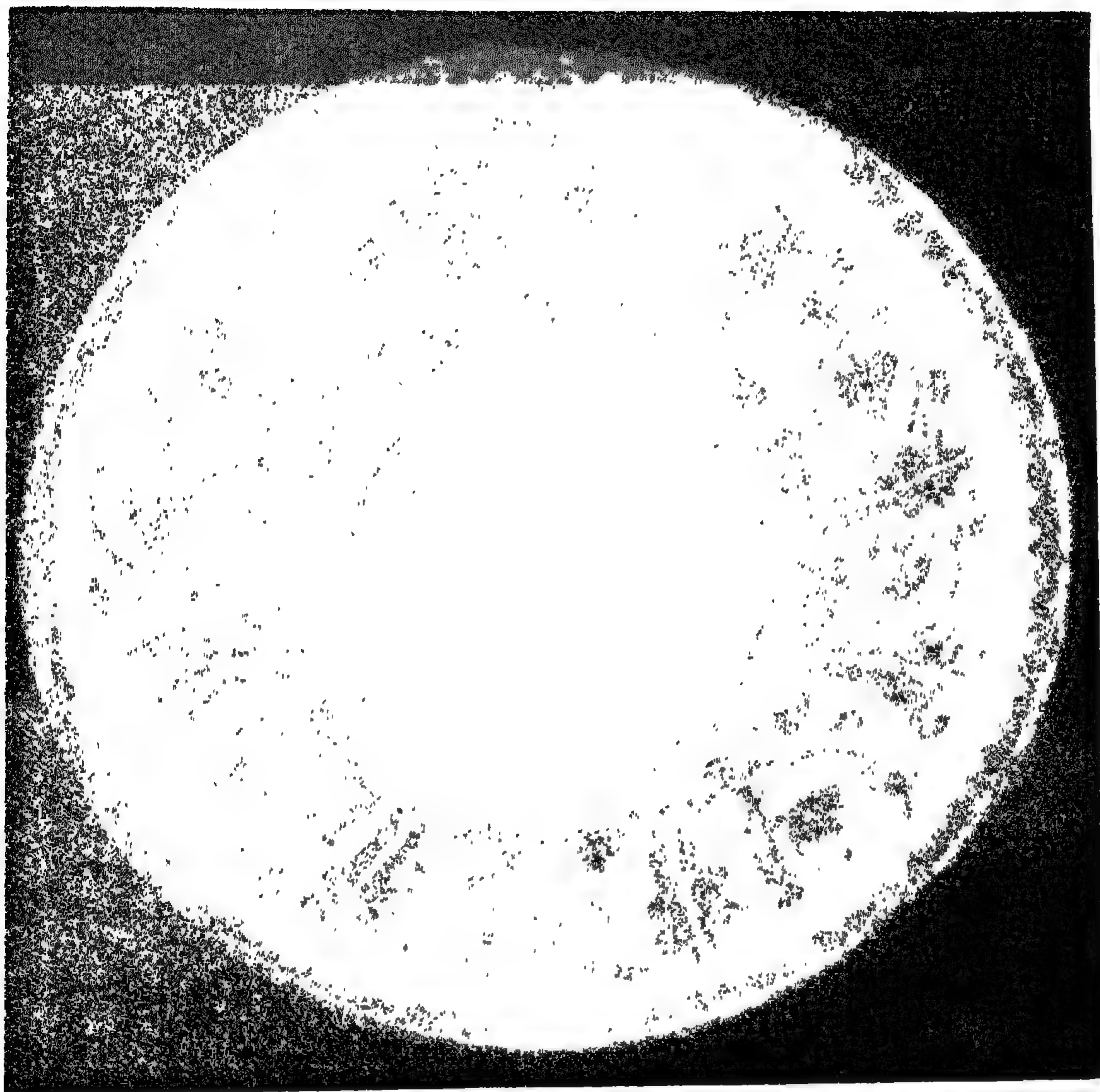
(شكّل ٤) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



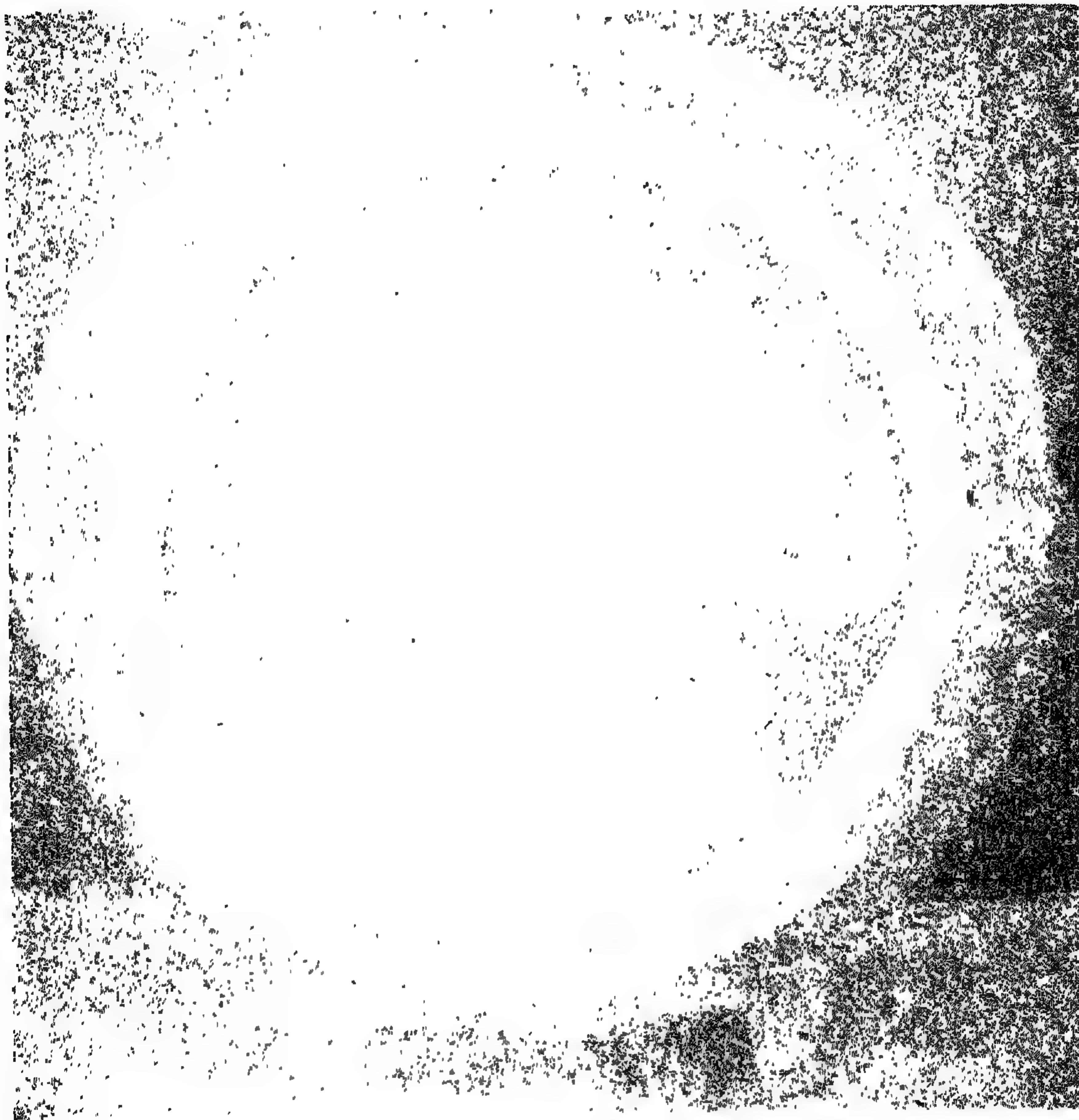
(شكّل ١١) قطعة من النسيج الفاطمي . مصر ، القرن ١١ هـ (١١) .



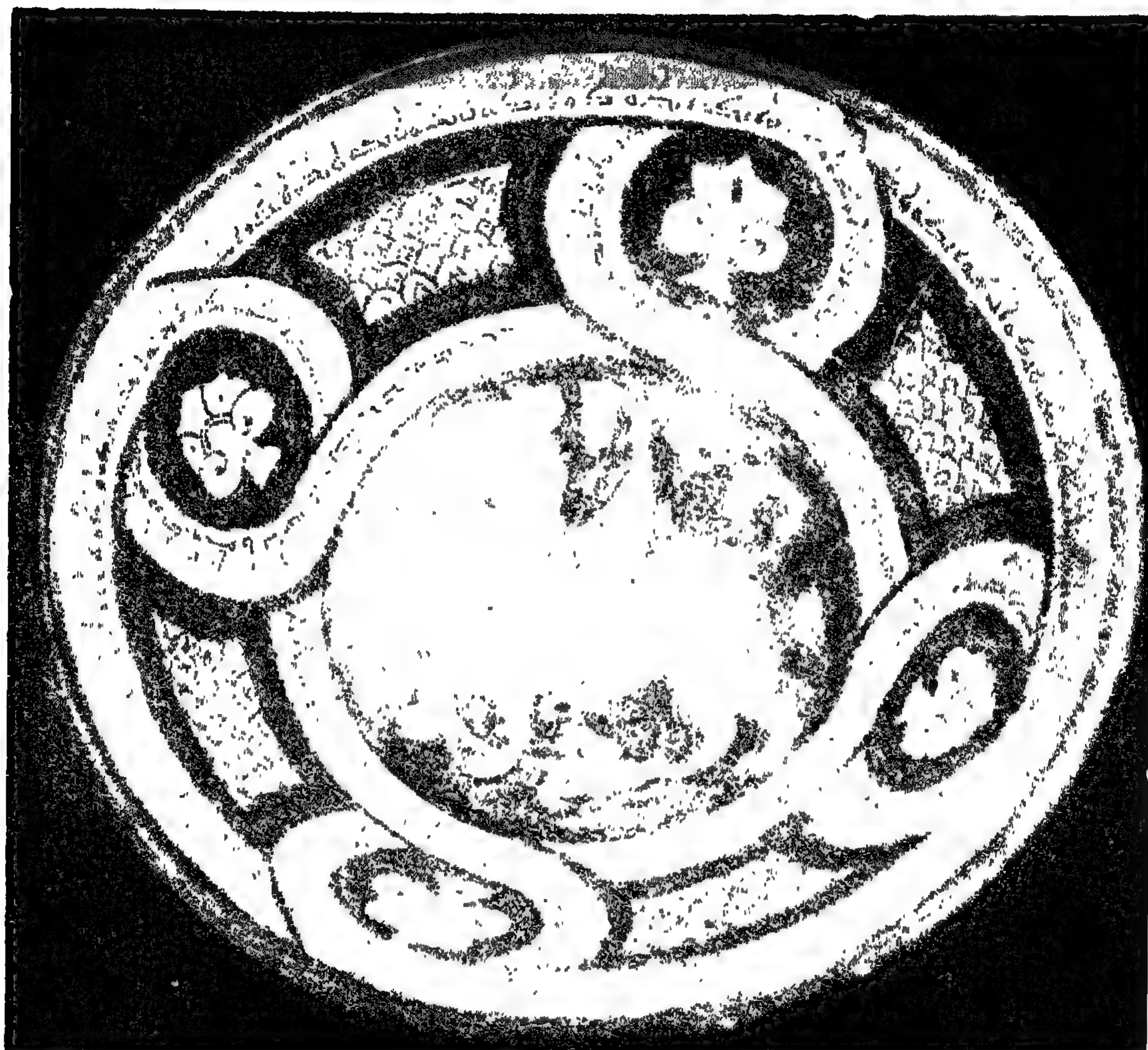
(شكل ٤٢) صحن من الخزف ذي البريق المعدني مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



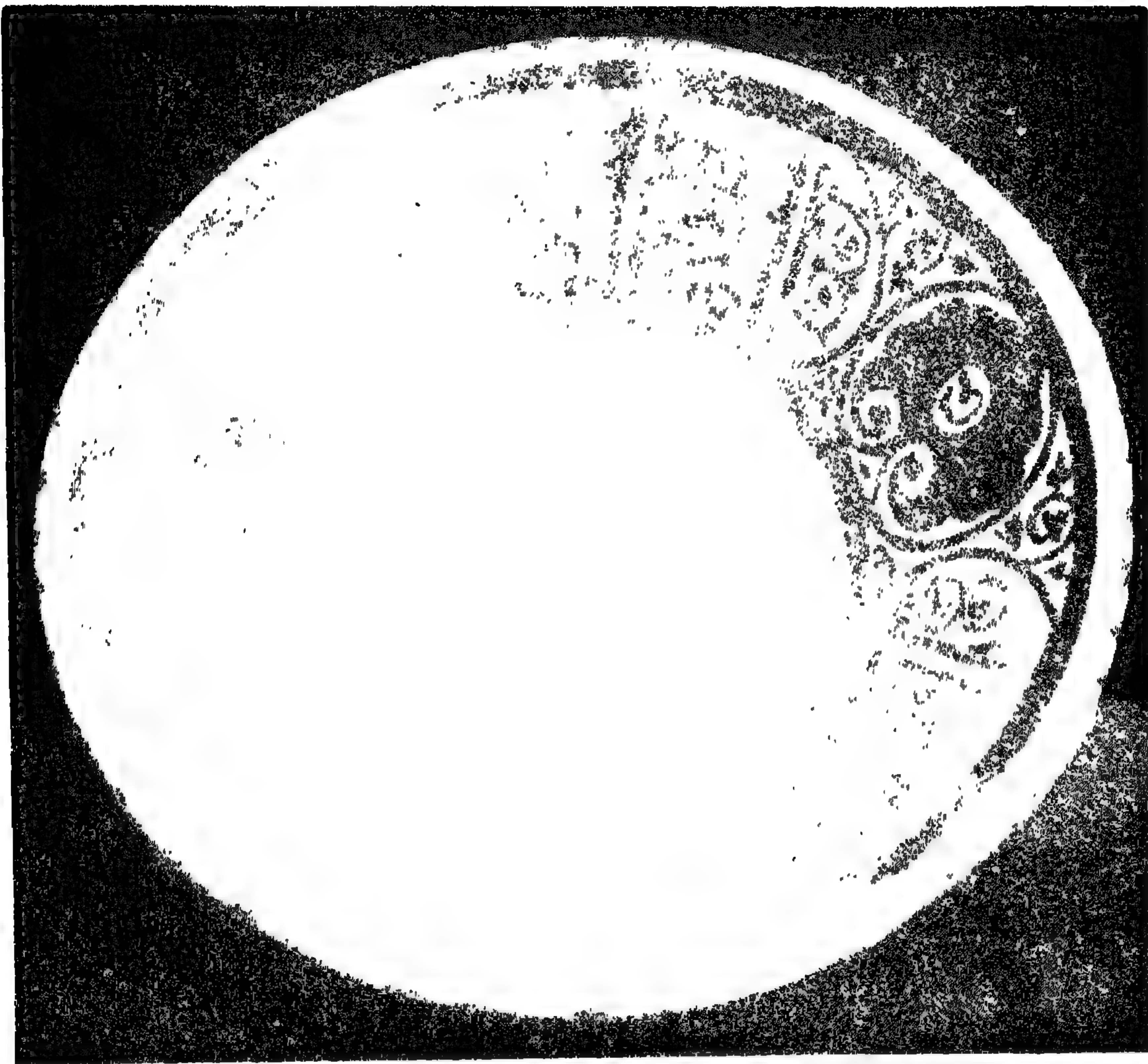
(شكل ٤٣) صحن من الخزف ذي البريق المعدني مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



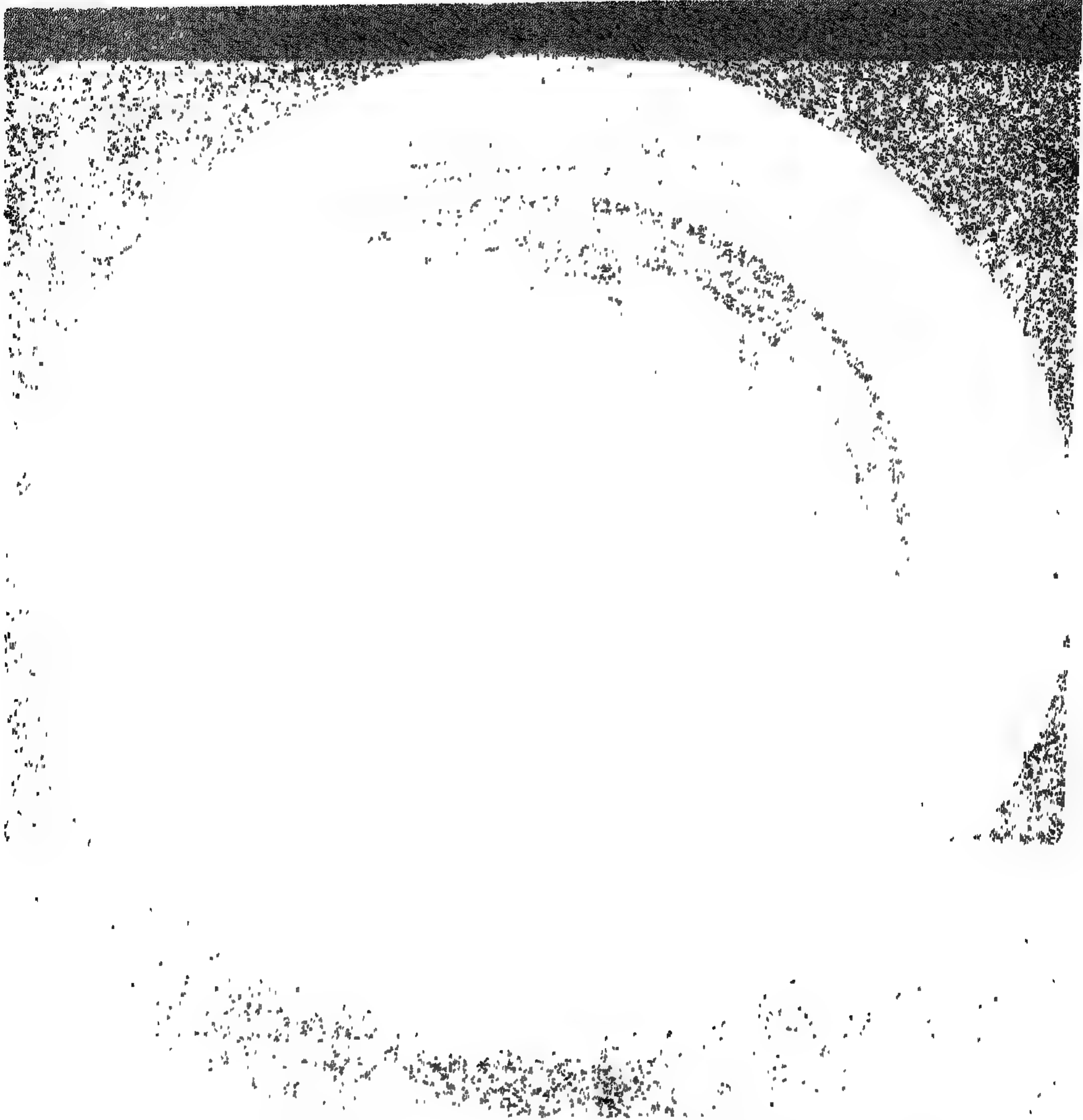
(شكل ٤٤) صحن من الخزف ذي البريق المعدني . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



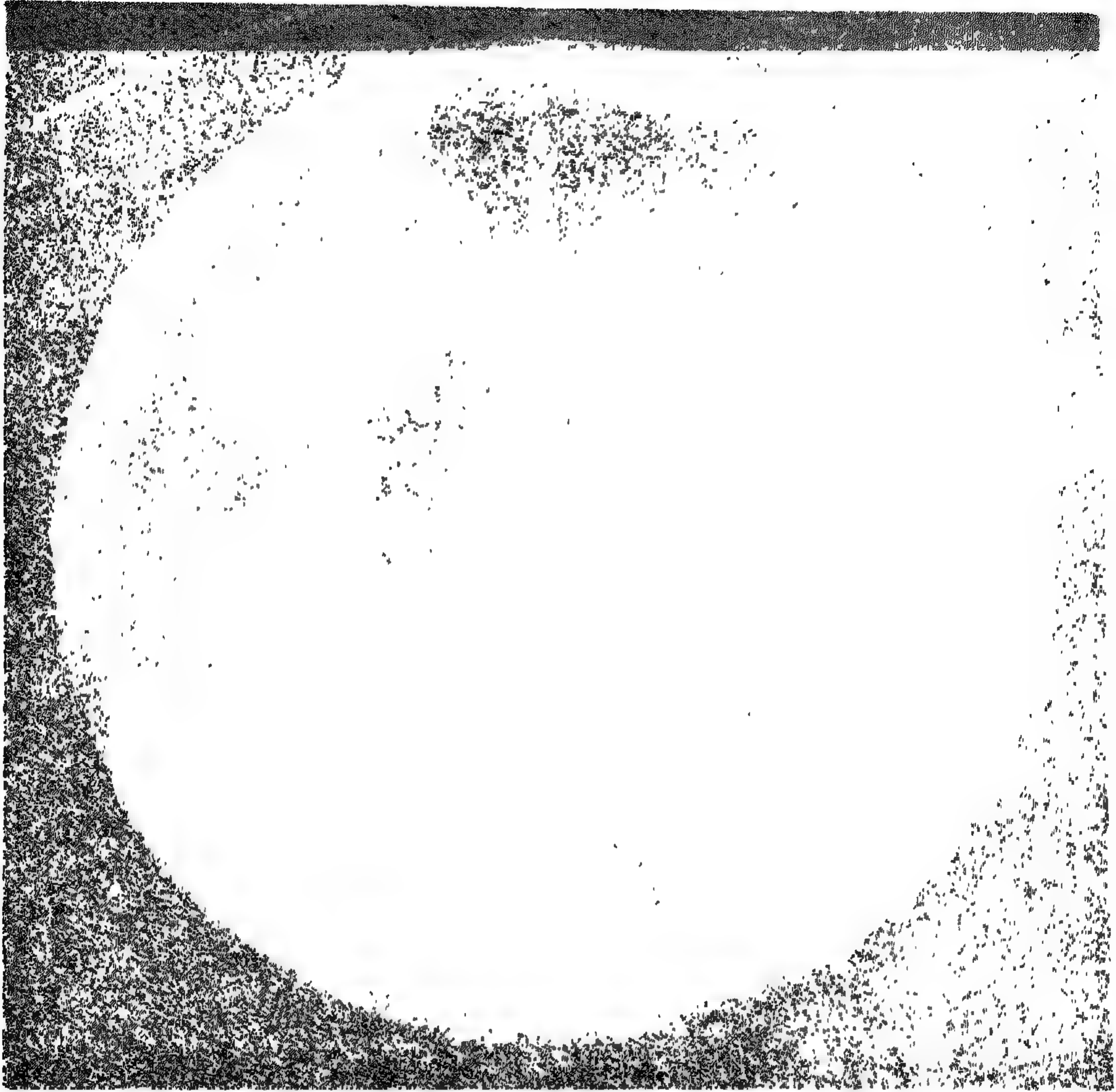
(شكل ٤٥) صحن من الخزف ذي البريق المعدني ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



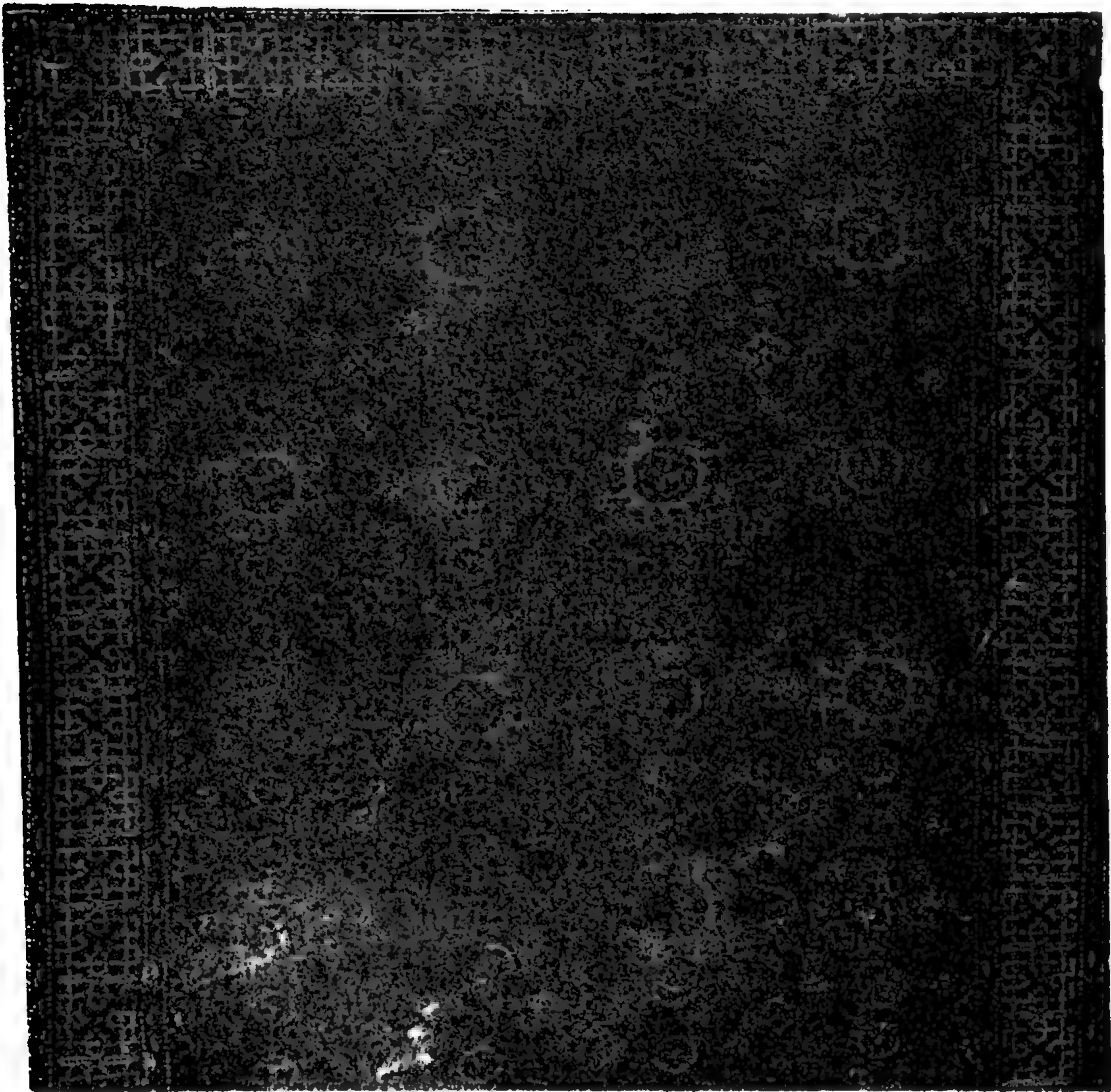
(شكل ٤٦) صحن من الخزف ذي البريق المعدني . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



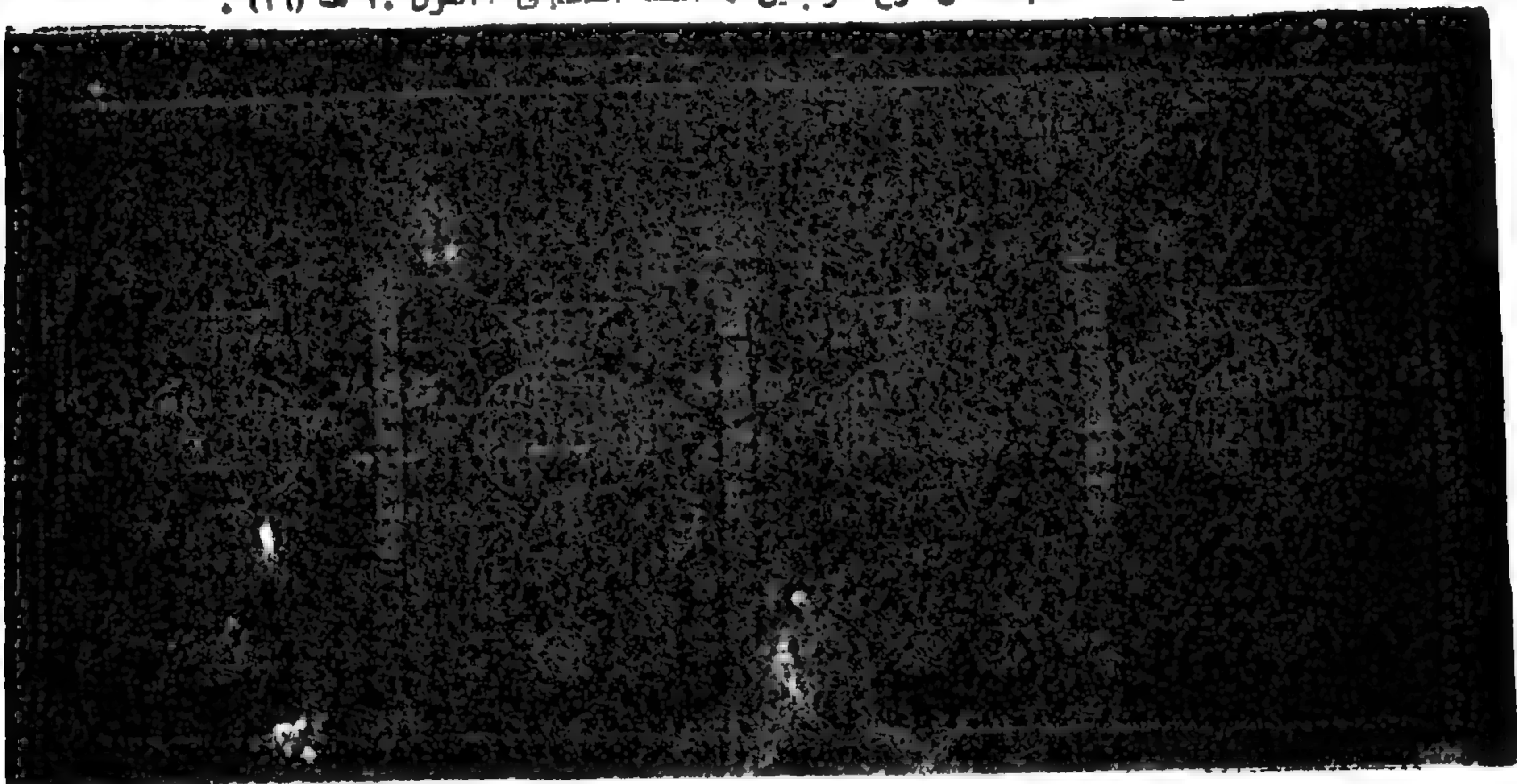
(شكل ٤٧) صحن من الخزف ذي البريق المعدني - عصر، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٤٨) ابريق من الخزف - ايران ، القرن ١٠ هـ .



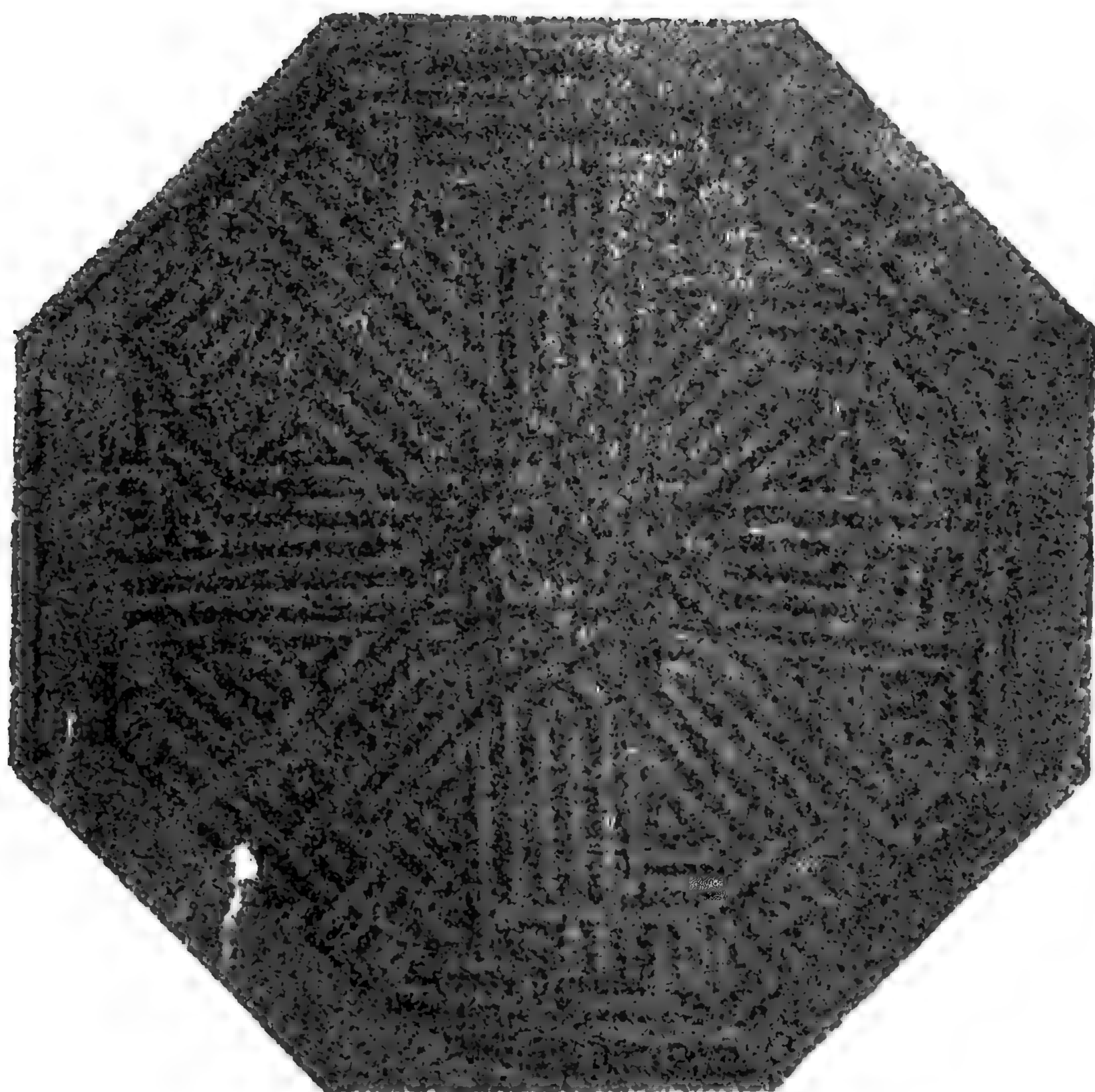
(شكل ٤٩) سجادة من نوع هولباين . آسيا الصغرى : القرن ١٠ هـ (١٦) .



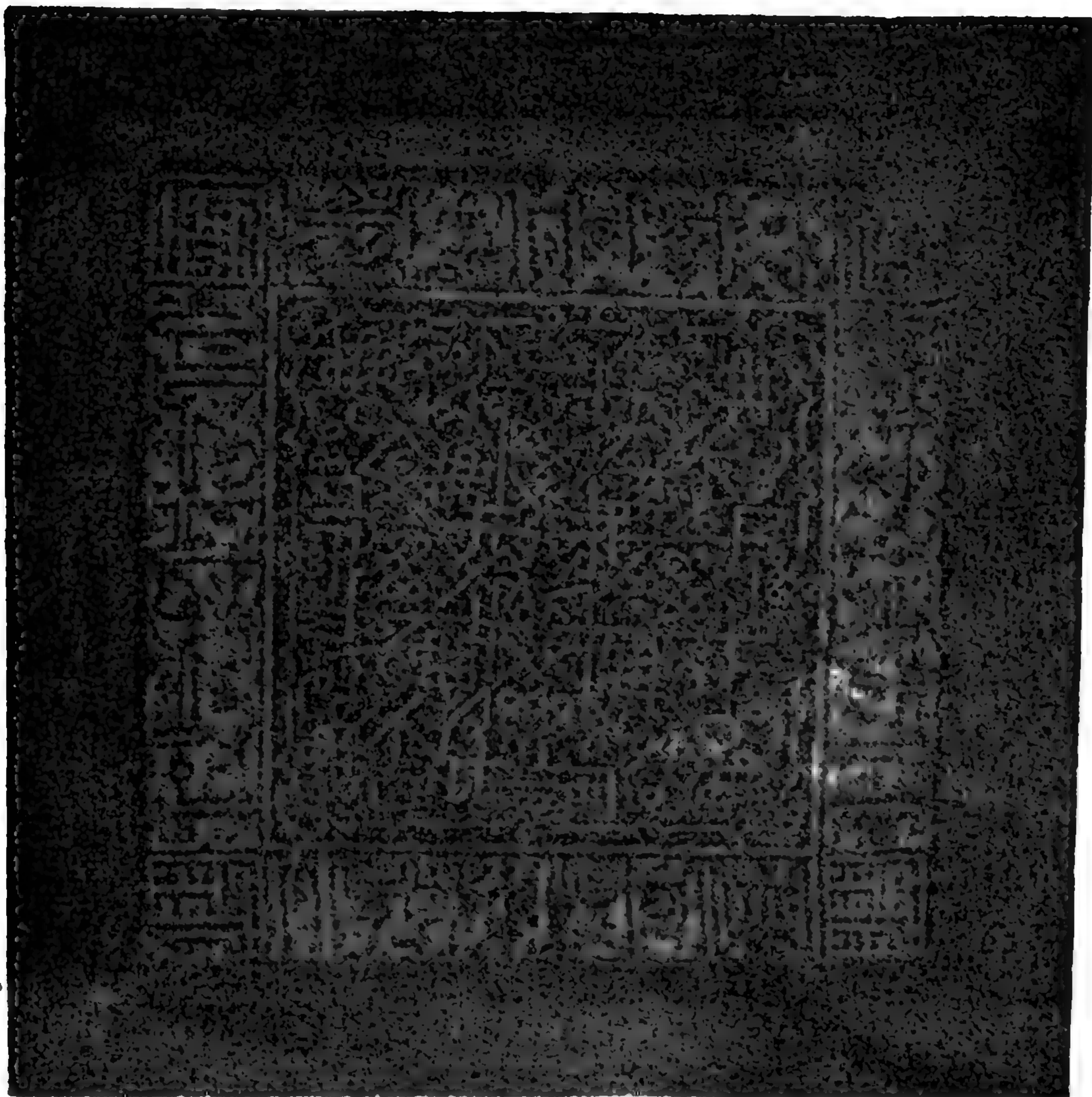
(شكل ٥٠) نسيج بخيوط من الفضة . سوريا ، القرن ١٠ هـ (١٦) .



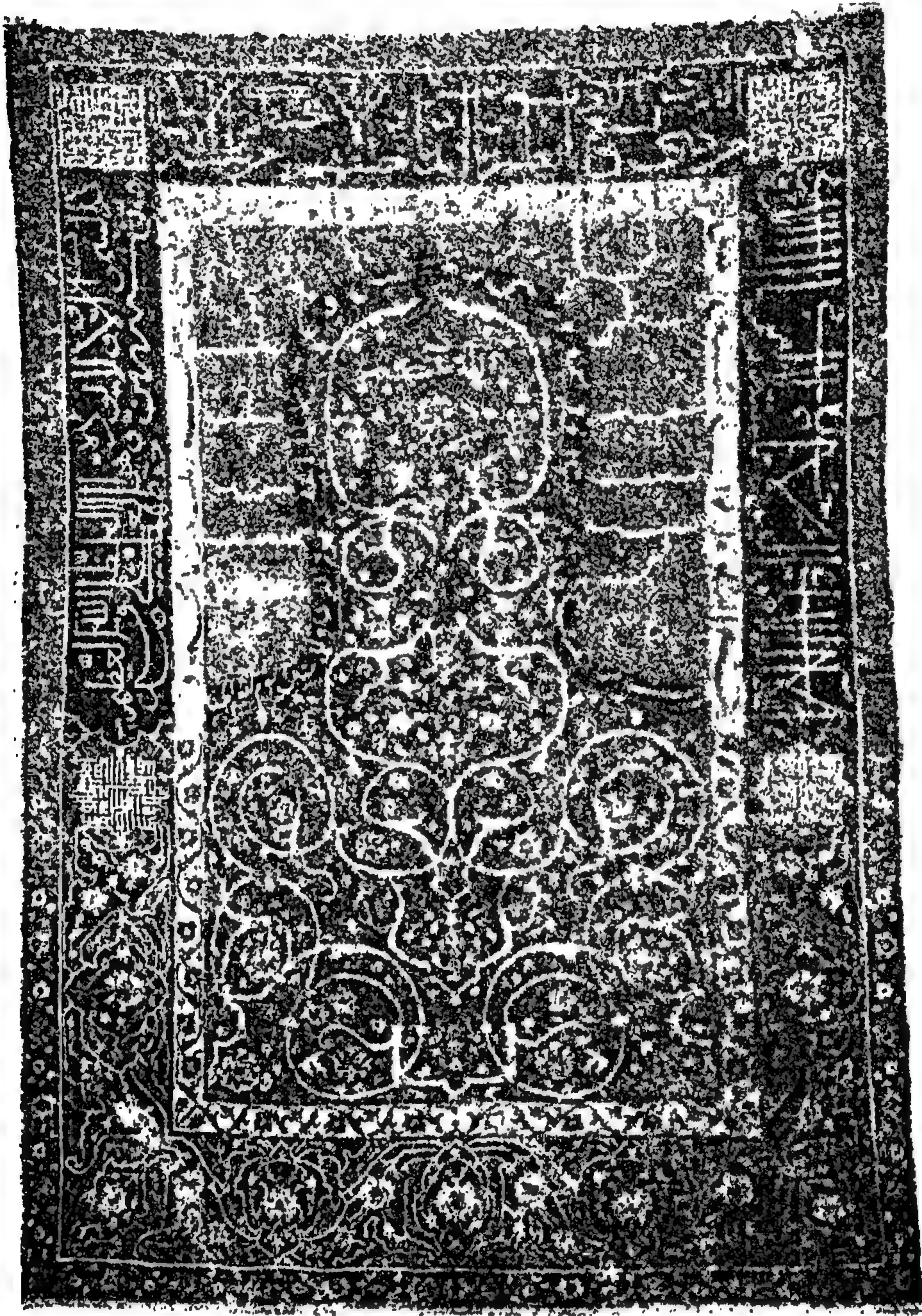
(شكل ٥١) نسيج حرير مملوكى بشارات صينية . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



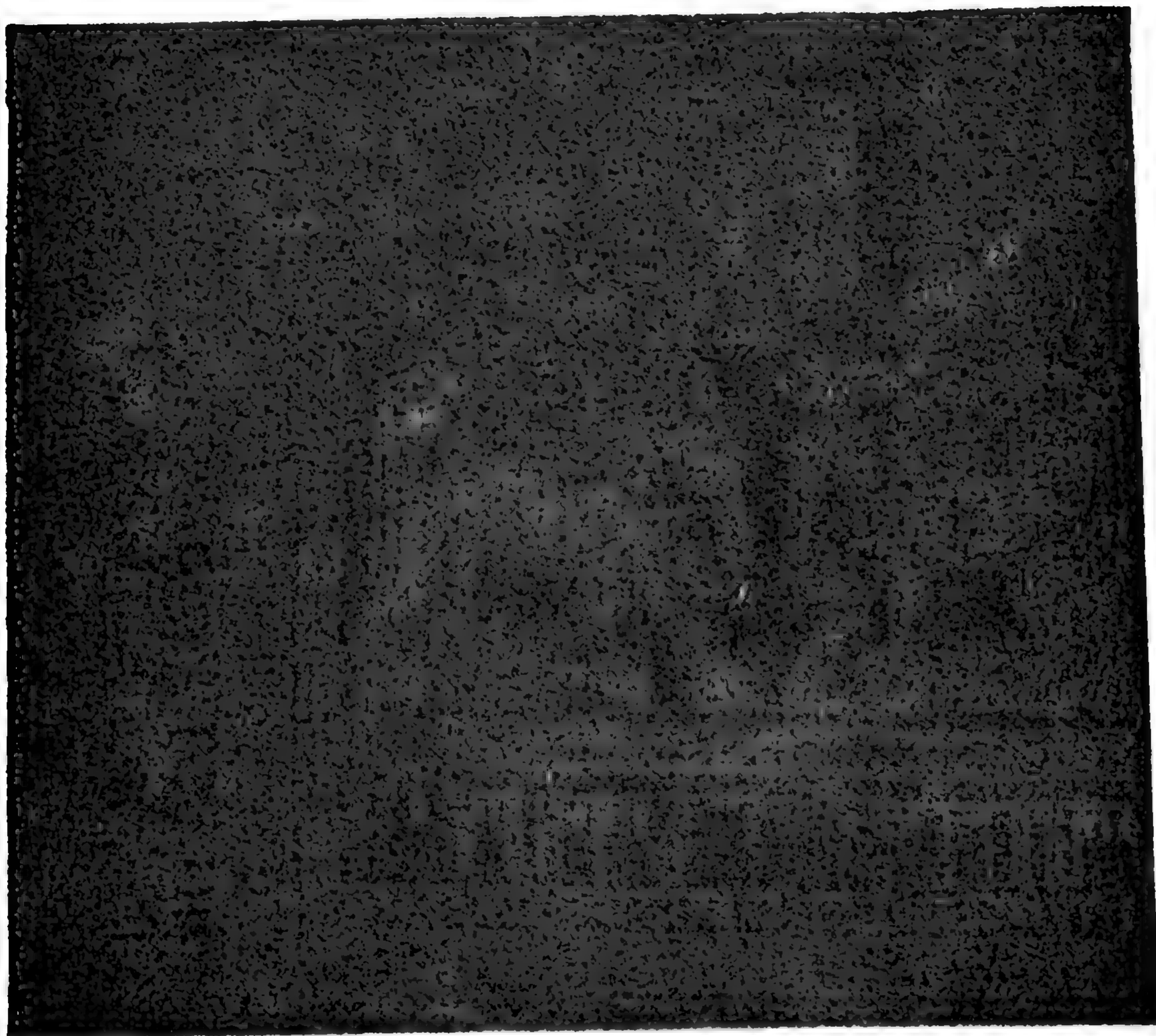
(شكل ٥٢) لوحة من فسيفساء الرخام بقلد الاخام المسننيه . مصر، القرن ٨ هـ (١٤)



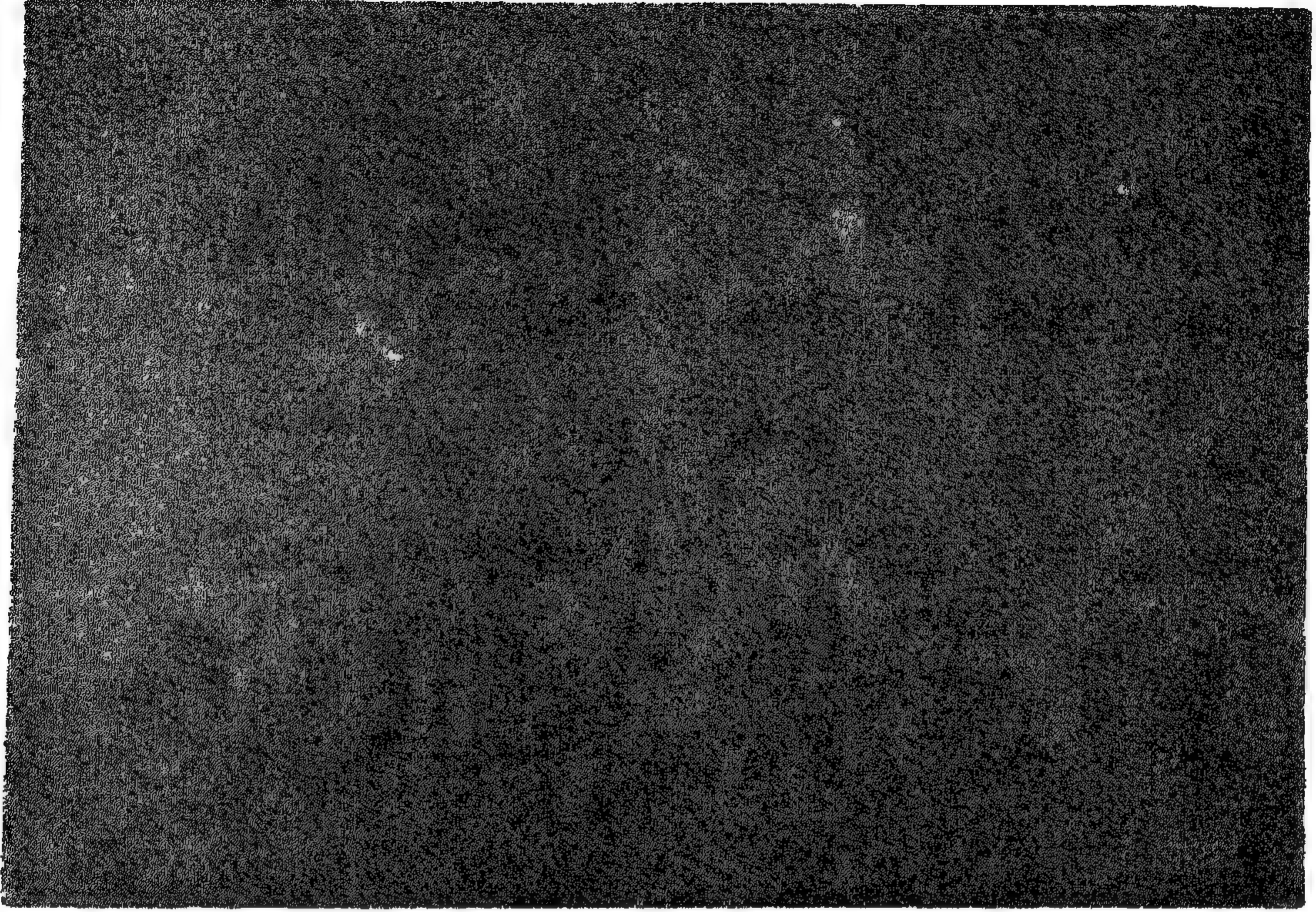
(شكل ٥٢) بلاطة من الخزف الملوکسى عليها بوفیع الخزاف غیبی . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



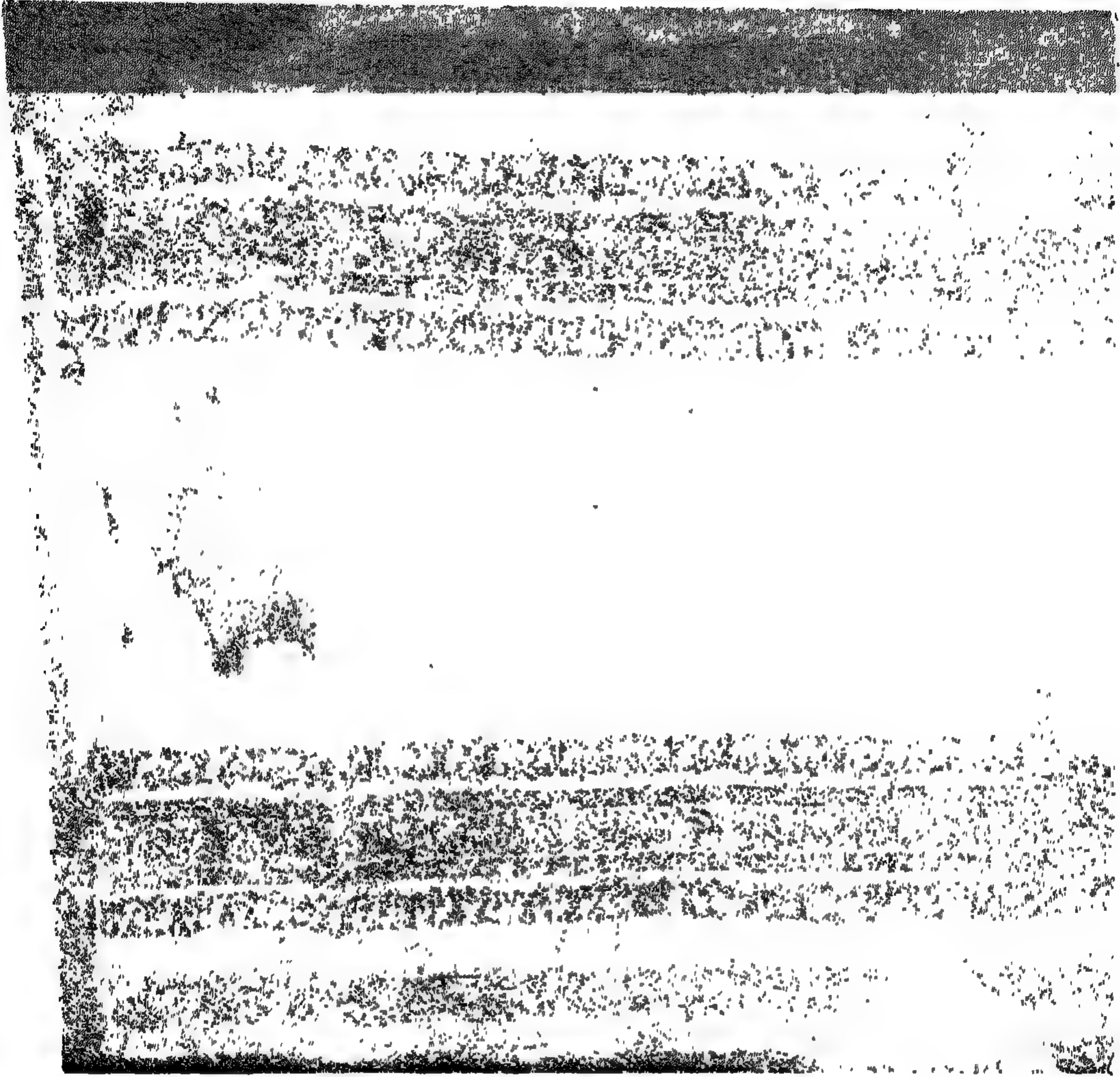
(شكل ٥) سجادة صلاة من الحرير بخيوط معدنية . ايران ، اواخر القرن ١٠ هـ (١٦) .



(شكل ٥٥) نسيج من الحرير باسم المائد بختجين، محفوظ بمتحف اللوفر في باريس . إيران ، تولى المائد بختجين في
سنة ٣٤٩ هـ (٩٦١)



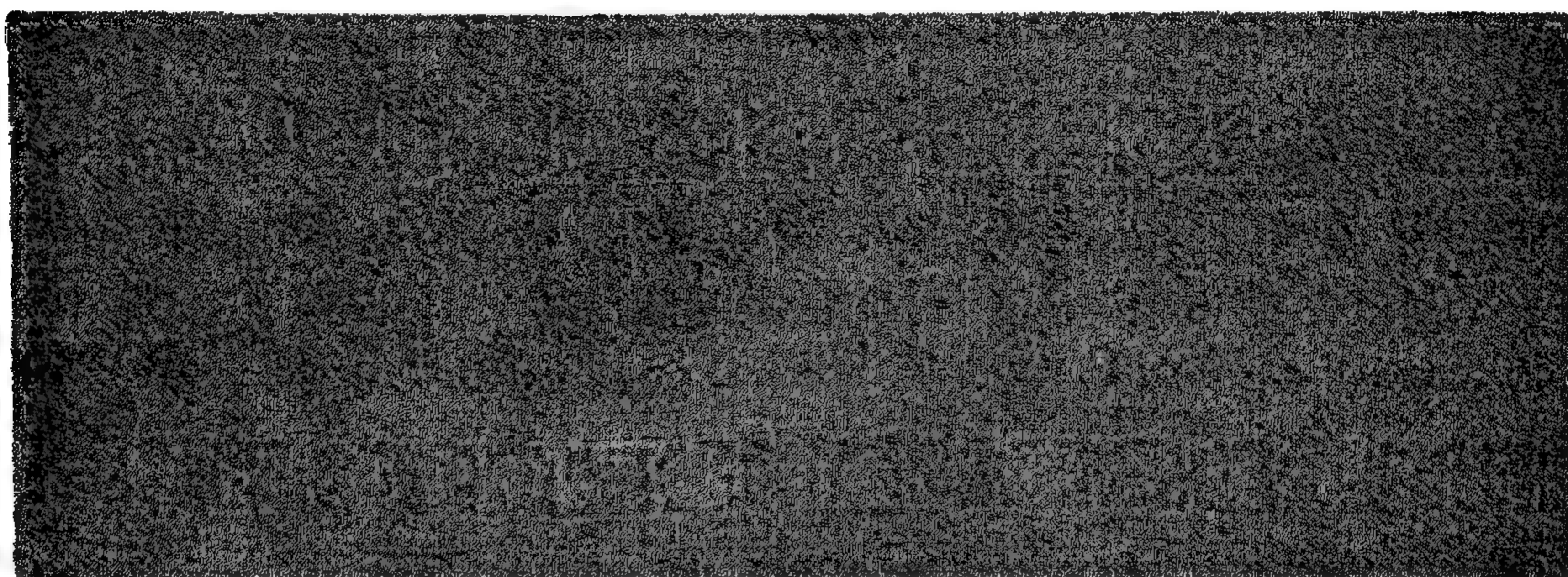
(شكل ٥٦) نسيج باسم الخطبة المأظمية العزيز بالله . مصر ، القرن ١٠ هـ (١٠) .



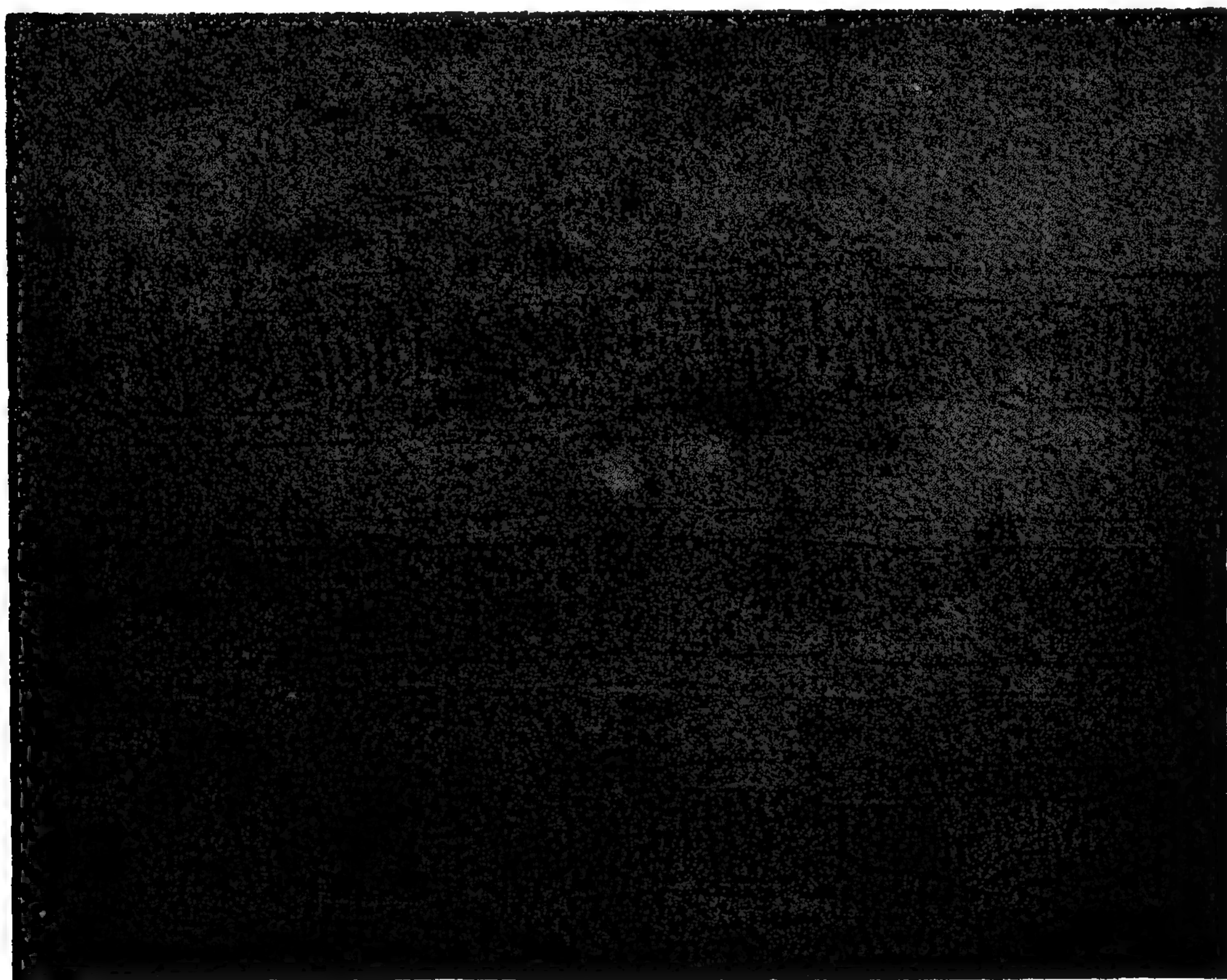
(شكل ٥٧) منديل باسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله . مصر ، القرن ١٠ هـ (١٠) .



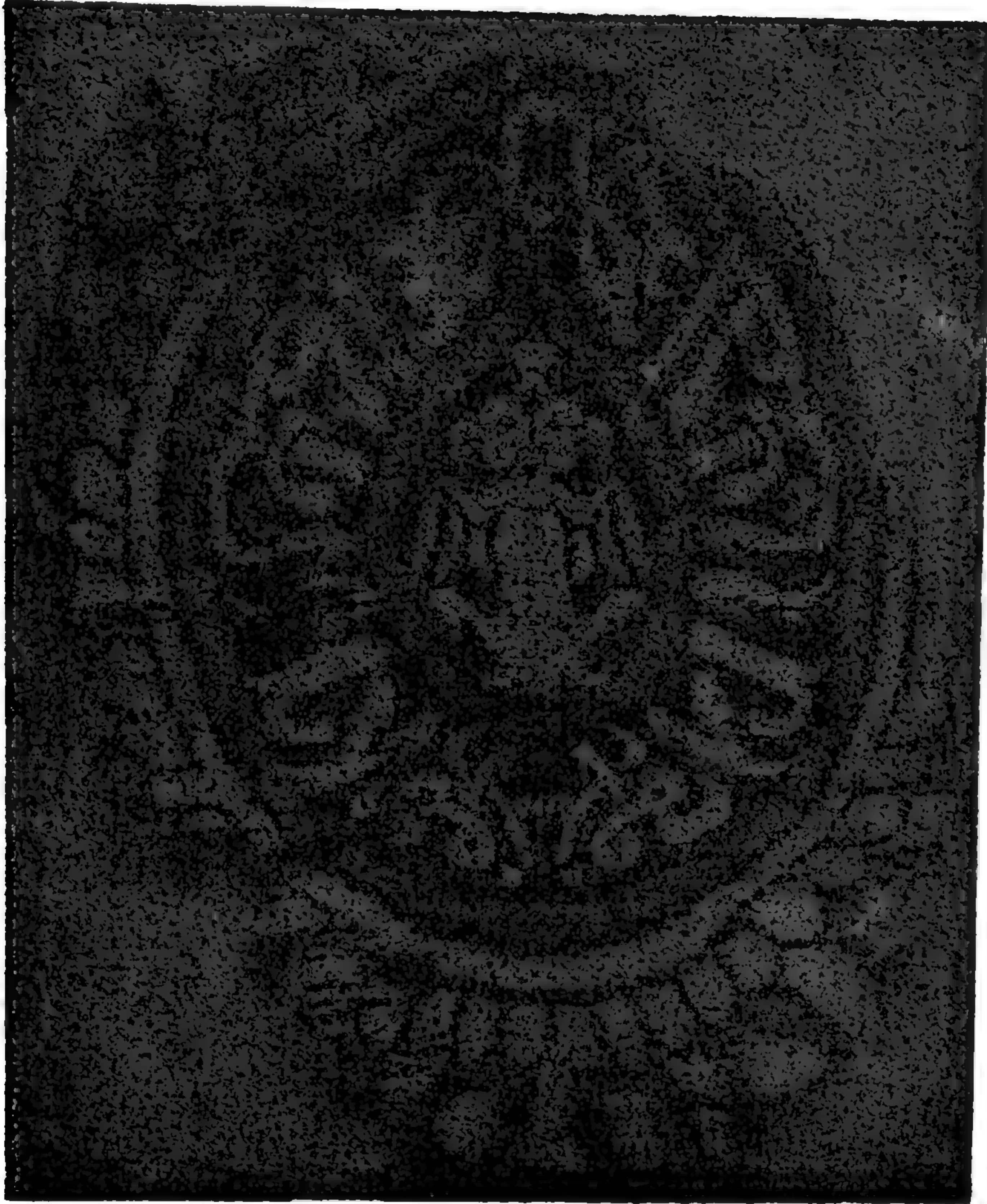
(شكل ٥٨) نسيج باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمرالله . مصر ، أوائل القرن ١١ هـ (١١) .



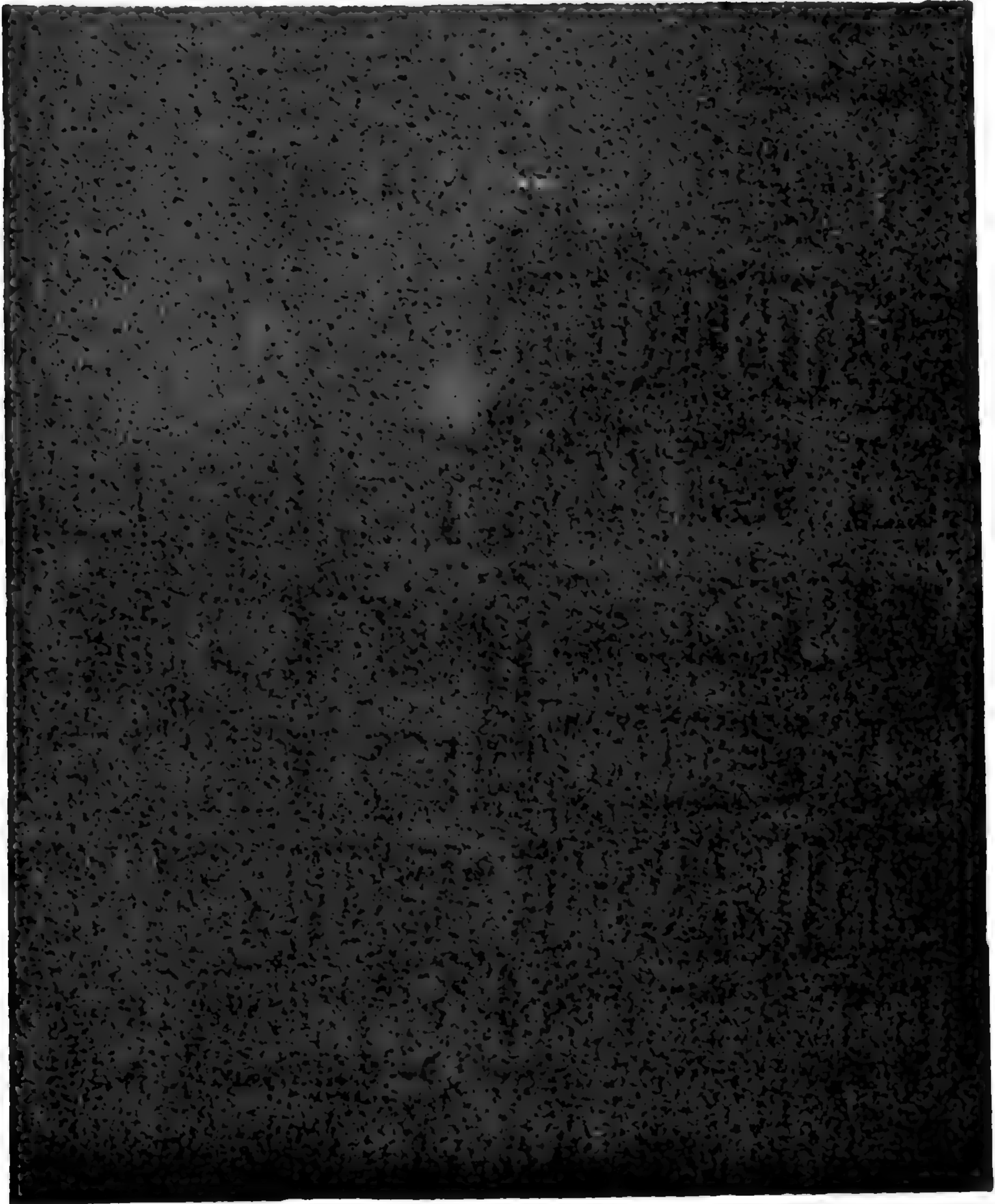
(شكل ٥٩) نسيج باسم الخليفة الفاطمي الامر باحکام دین الله . مصر ، اوائل القرن ٦ هـ (١٢) .



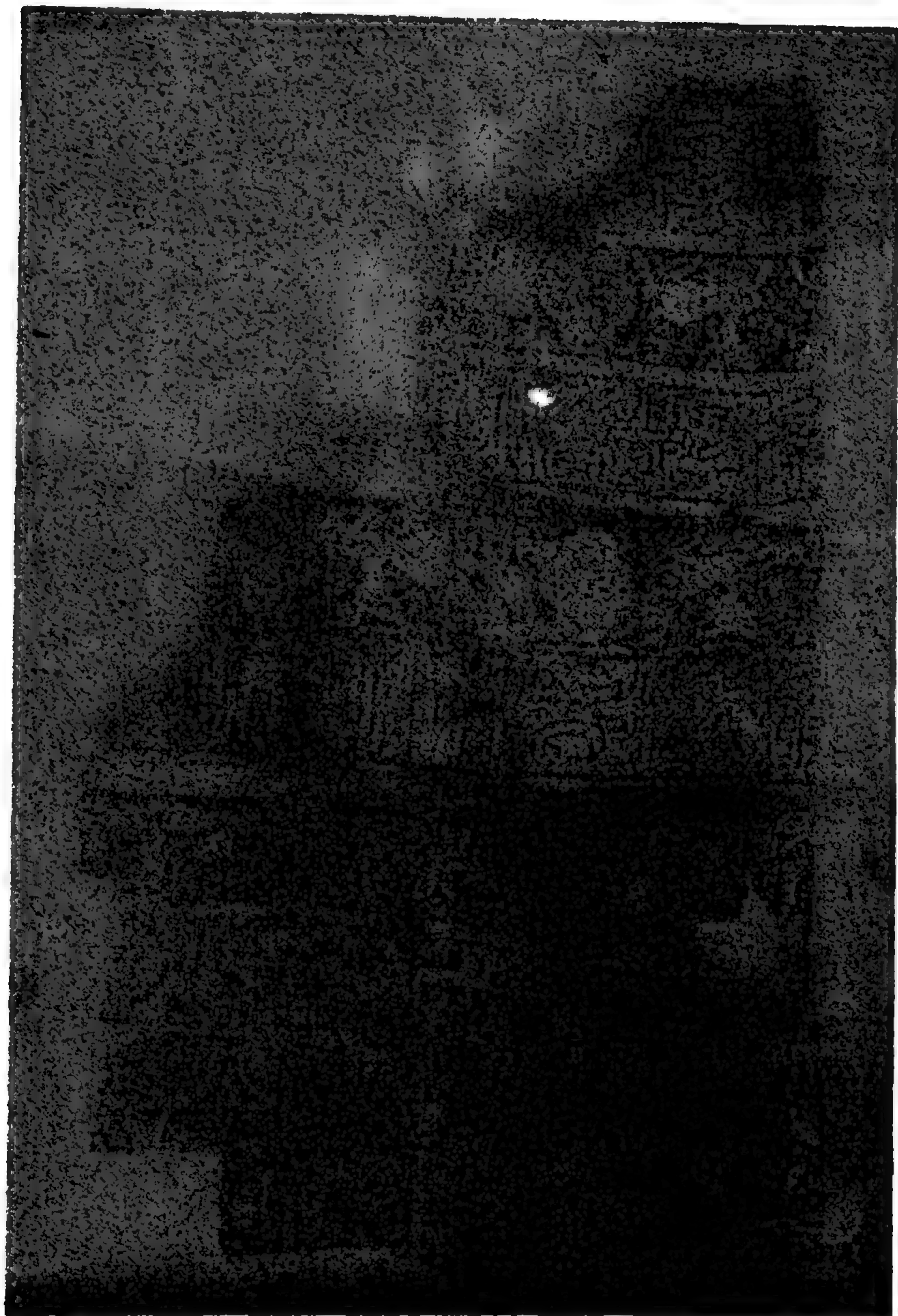
(شكل ٦٠) نسيج حرير مملوکی باسم الملك الناصر . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



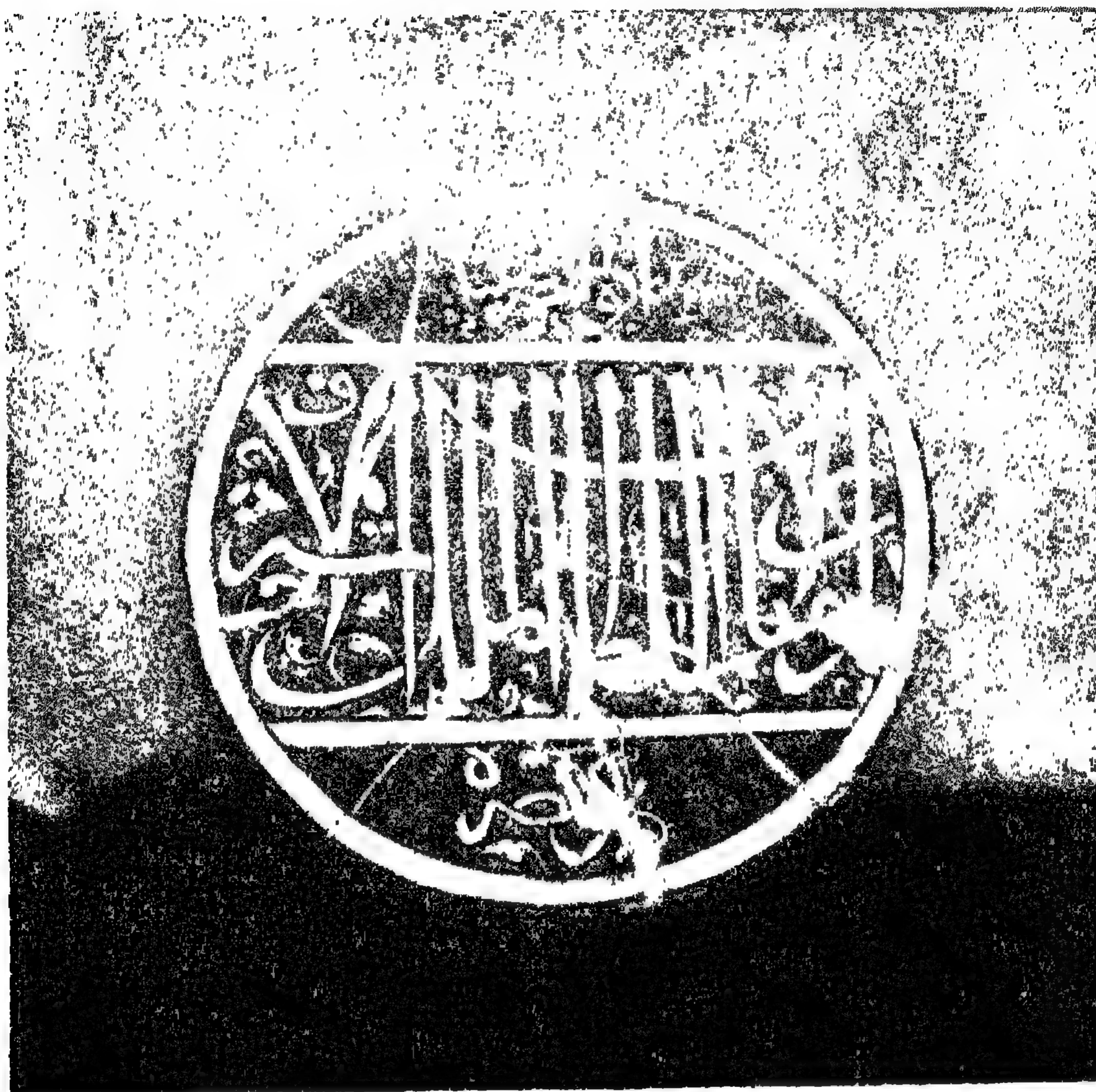
(شكل ٦١) نسيج من الحرير الملوكى عليه كتابة زخرفية ورنك نسر برأسين . مصر ، أوائل القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٦٢) نسيج من الحرير الملوكى بكتابة نسخيه وزخارف فى مربعات . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٦٣) نسيج من الحرير الملوكى باسم الملك الاشرف . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .

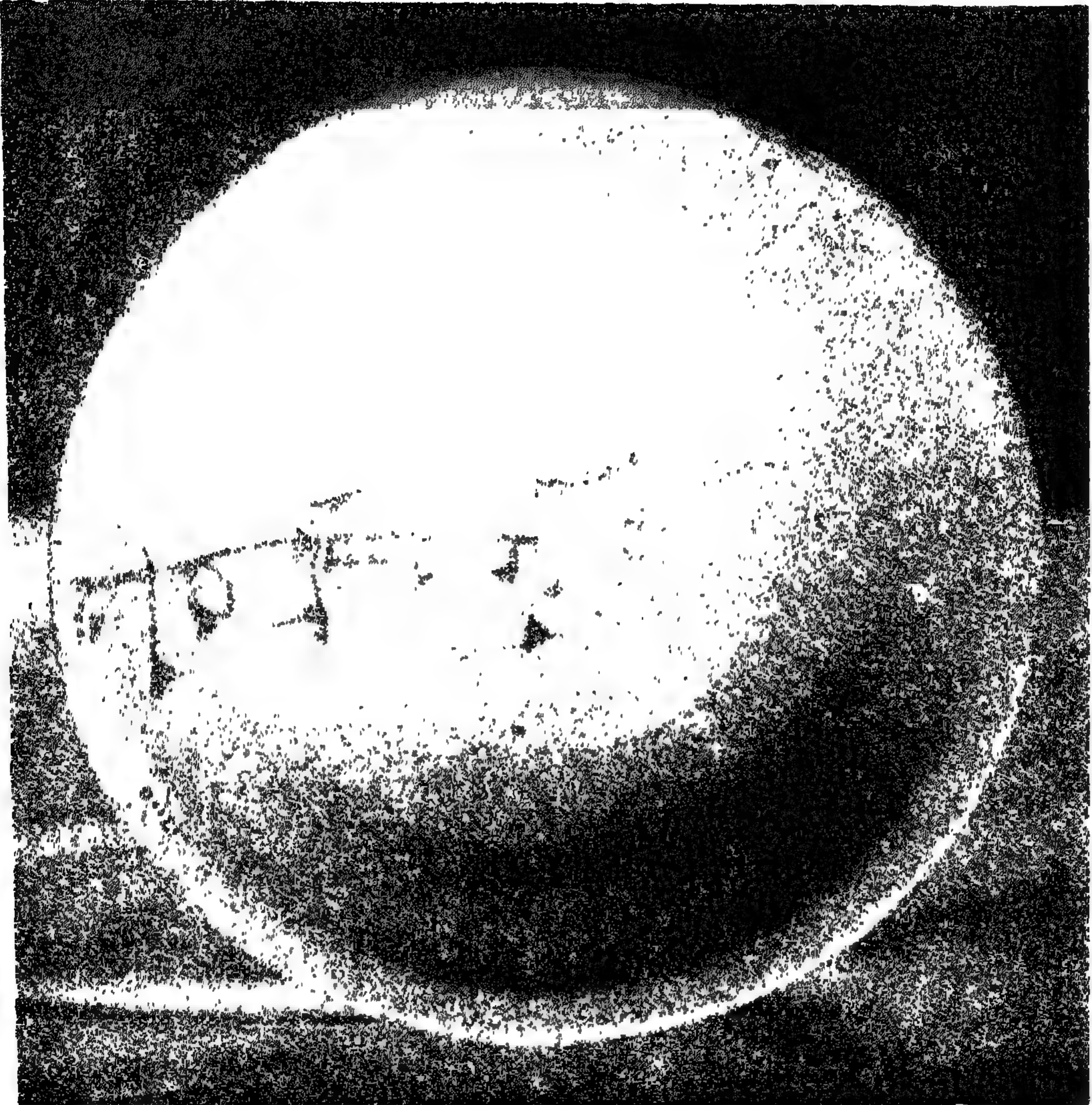


(شكل ٦٤) بلاطة من الخزف المملوكى عبارة عن خرطوش السلطان الاشرف قاتباى . مصر ، القرن
٩ هـ (١٥) .

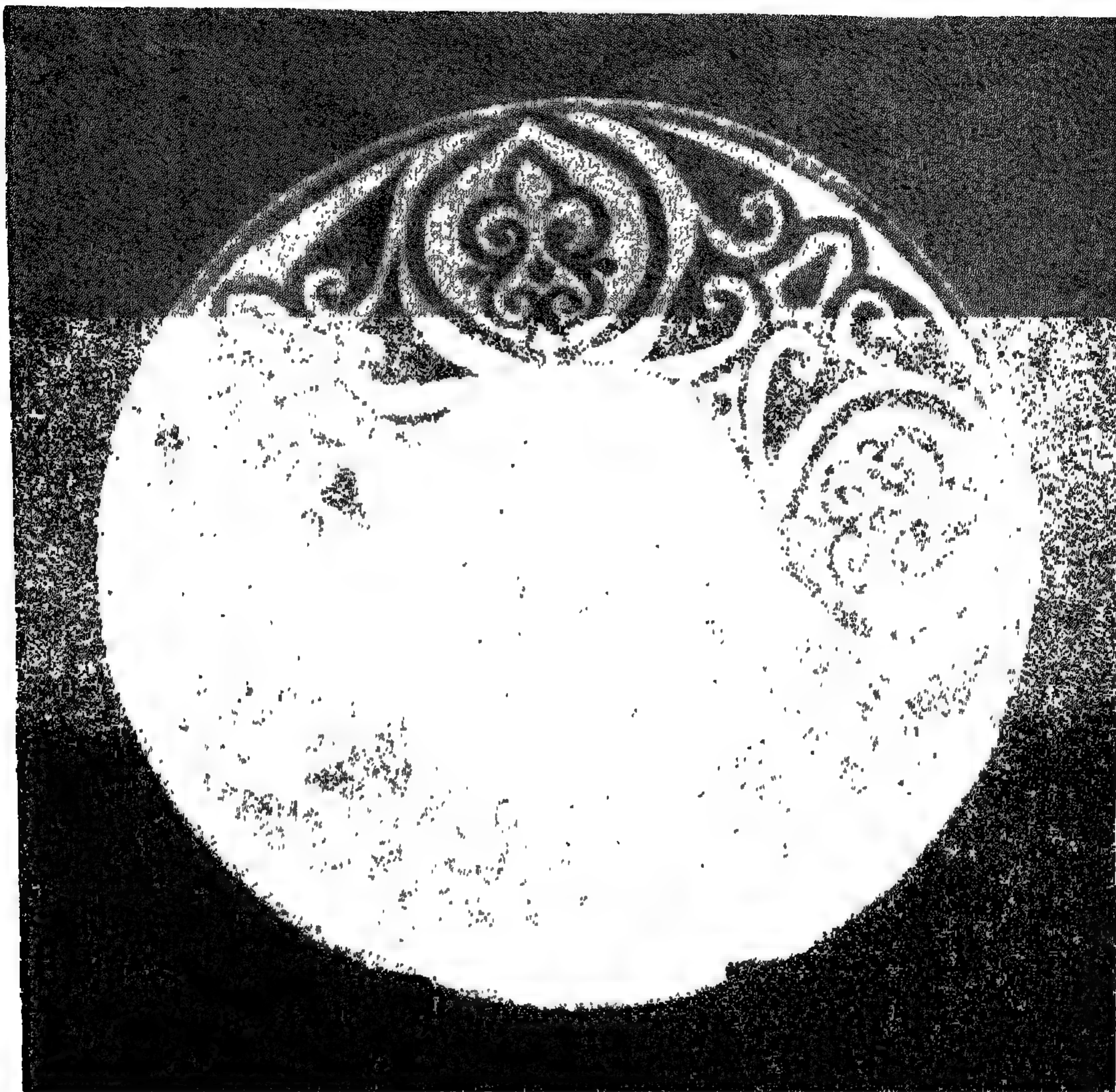
الكتابة العربية عن حروف



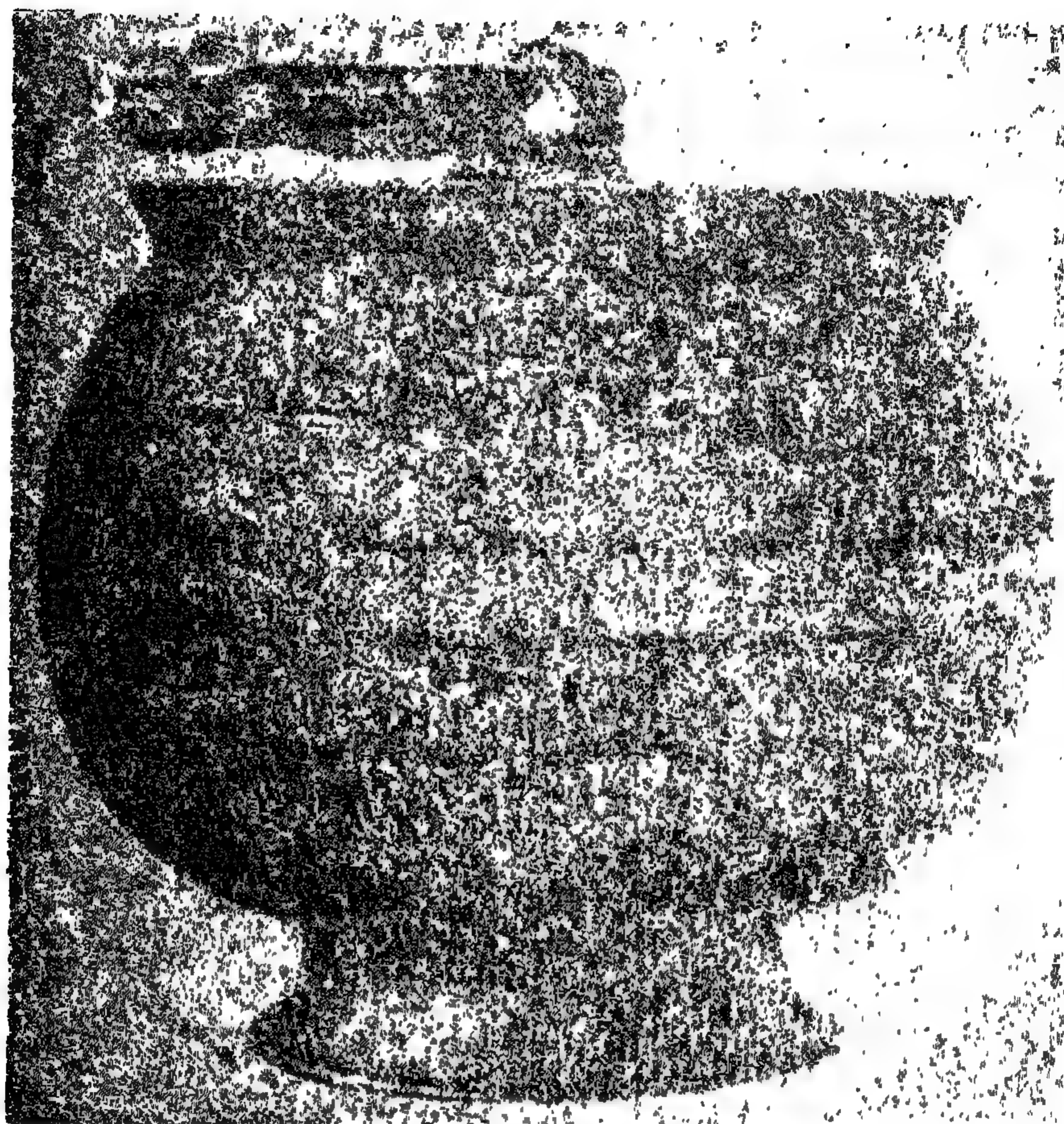
(شكل ٦٥) لوحة من الجص عليها صورة سيدة واسم المصور مقلح ، من حفائر سامرا . العراق ، القرن
٣ هـ (٩)



(شكل ٦٦) صحن من الخزف عليه اسم الخزاف سهيل . ايران ، اوائل القرن ٤ هـ (١٠) .



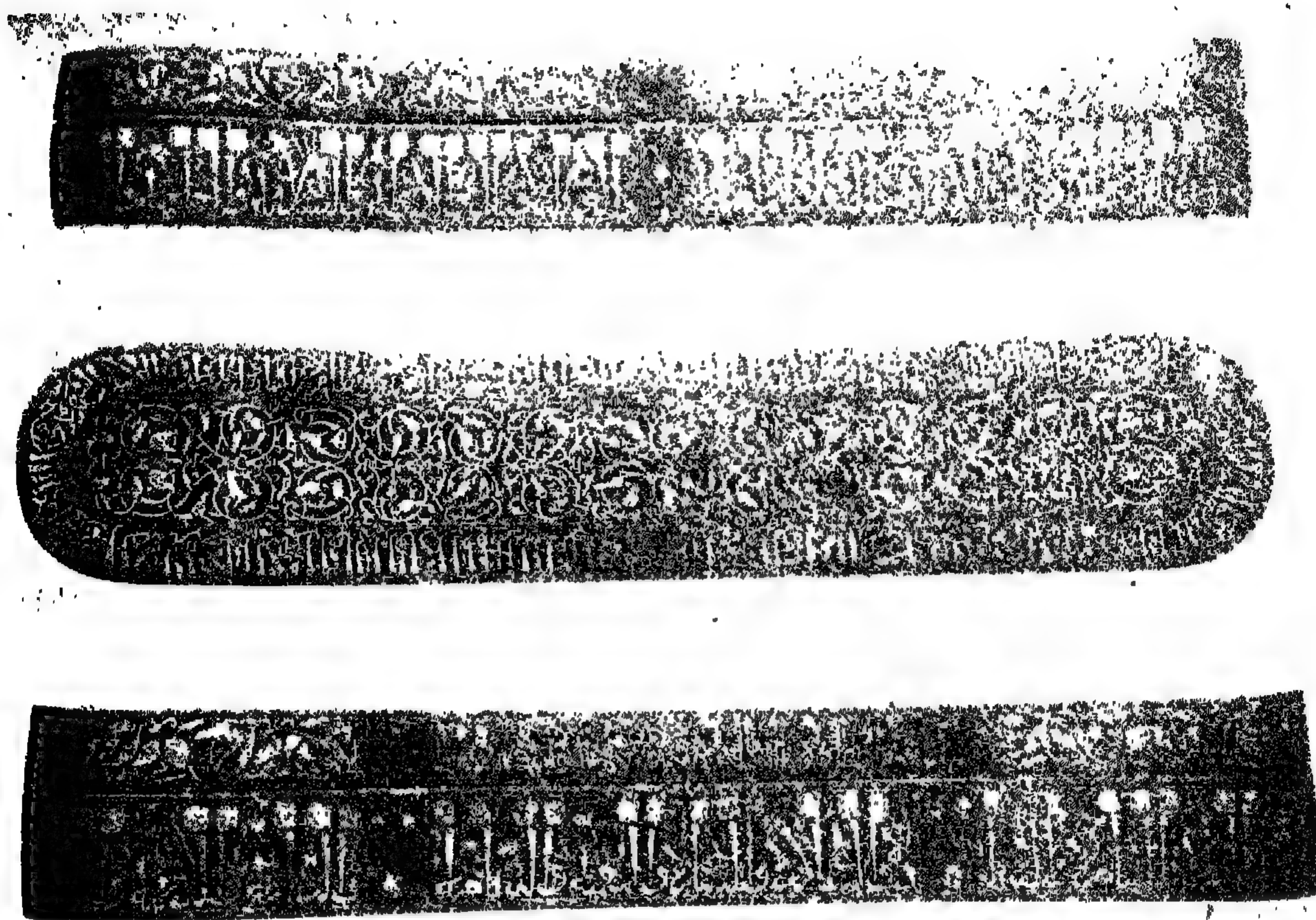
(شكل ٦٧) صحن من الخزف ذو البريق المعدنى ، عليه اسم الخزاف مسلم بن الدهان . مصر ، أوائل القرن ٥ هـ (١١) ؛



(شكل ٦٨) سطل من البرونز مكثت بالفضة والنحاس ، باسم صاحب عبد الرحمن بن عبد الله الرشودي ، واسم الصانع محمد بن عبد الواحد ، ونقشه حاجب مسعود بن أحمد في مدينة هراة ، أفغانستان ، على القبر تاريخ سنه ٥٥٩ هـ (١١٦٣) ،



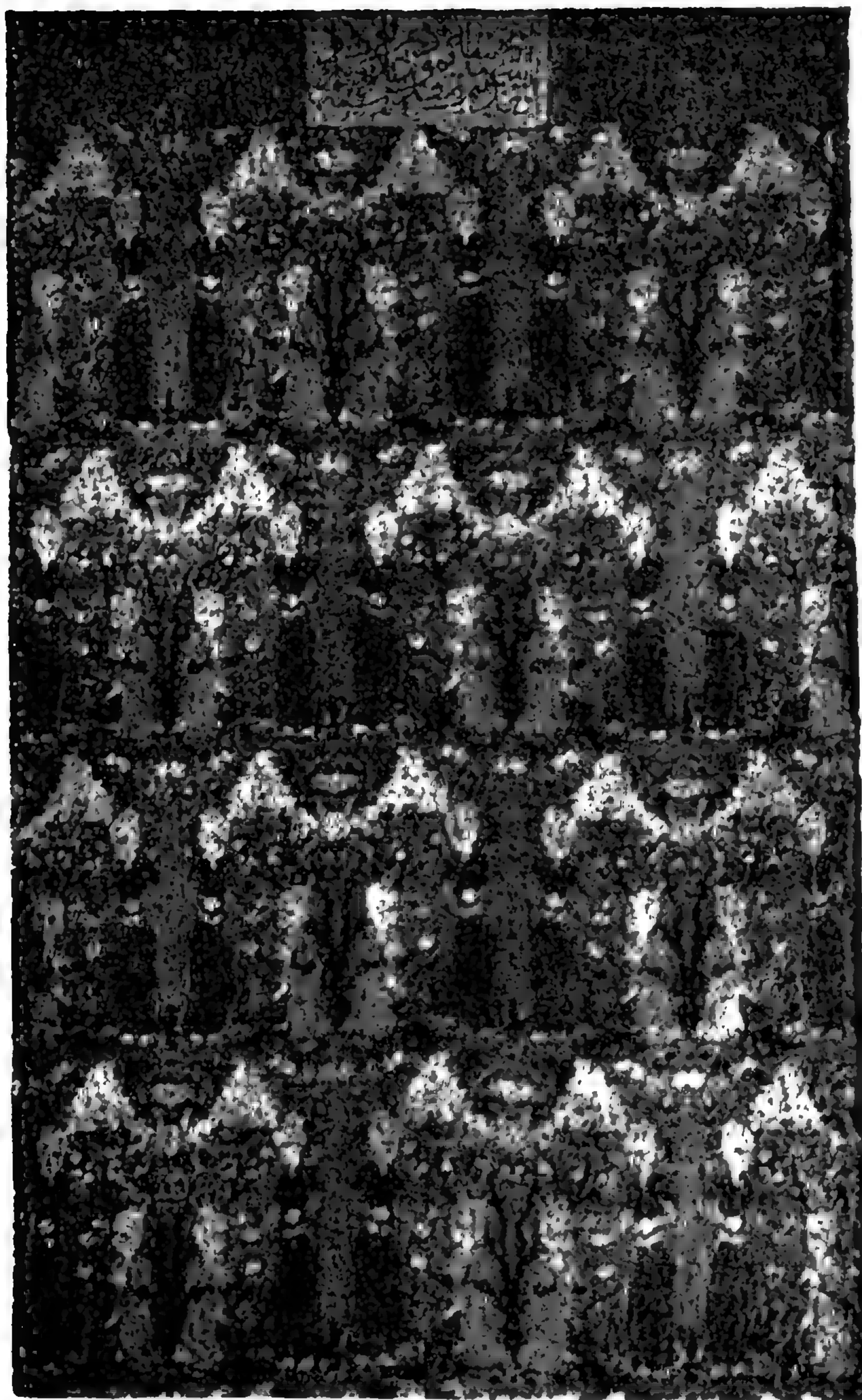
(شكل ٦٩) شمعدان من النحاس مكعب بالفضة عليه اسم الصانع محمد بن فوج الموصلى المطعم أجبر
التجاع الموصلى النعاشى مصر ، القرن ٧ هـ - (١٣) .



(شكل ٧) مقلعة من النحاس المكف بالفضة عليها بوضع شادى النقاش ، محفوظة في متحف فرير جالبرى ، بمدينة واشنطن . ايران ، مؤرخ في شهور سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١/١٢١٠) .



(شكل ٧١) مشكاة من الزجاج الموه بالبناء ، باسم الماس حاجب ، وعلى القاعدة توقيع على بن محمد امكي .
مصر ، من مسجد بن بناؤه في سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠) ،



(شكل ٧٢) نسيج من الساتان عليه اسم غلام شهرزاده . سابقا في مجموعة بارنس واسن ايران ، مؤرخ سنه ٩٧٩ هـ (١٥٧١)

البناء العرصة سحر رحرقي



(شكل ٧٣) نسيج من نوع القجوم ، صنع في طرز النخس . بمنطور من كوره القجوم . مصر ، القرن ٤ - (١٠) .



(شكل ٧٤) شريف من النسيج الفاطمي عليه اسم الخليفة المطيع لله ، وصنع بطراز الخاصة بمصر ، على يد فايز مولي أمير المؤمنين . مصر ، حوالي سنة ٢٦٢ هـ (٩٧٤) .



(شكل ٧٥) صورة بوضيحية من مخطوط مقامات الحريري للواسطي ، محفوظة في دار الكتب
الاهلية ، ، في بارس . العراق ، مؤرخ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧) .



(شكل ٧٦) صورة من مخطوط للشاعر نظامي ، تصوير الفنان
سلطان محمد ، محفوظ بالمتحف البريطاني ، في لندن . إيران ،
مؤرخ ٩٤٩/٩٤٦ هـ (١٥٤٣/١٥٣٩) .

الكتابة العربية منصر زخرفي

من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م)
عليها شريط مطرز بوسطه كتابة
دعائية بالخط النسخي ، تقرأ : « سعادة
مؤيدة ونعمة مخلدة » . وتكرر هذه الكتابة
في مناطق تربط بين وحدات زخرفية دقيقة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٣٠٨٥ ،
٢٠×٤٠ سم » .

ومثال آخر السجادة (شكل ٣٨) من نوع
أصفهان من القرن ١٠ هـ (١٦ م) محبشة
بخيوط معدنية وتتألف زخارف اطار السجادة
من جامات ممتدة ، بها أبيات من الشعر ،
باللغة الفارسية تربط بين الوحدات الزخرفية
الآخري . وفي وسط السجادة زخارف عربية
من فروع وأوراق رشيقة ومتناسقة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٧٦٤ ،
١٦٧×١٣٠ سم » .



وكثيرا ما يملأ الفنانون والخطاطون في البلاد
الاسلامية ، مساحات وأشرطة بعبارات
وكلمات ، أو بحروف من شبه الكتابة لا رابط
بينها ، ولا معنى لها سوى الفرض الزخرفي
المحض .

ويزخرف قطعة النسيج (شكل ٣٩) وهي
من صناعة اليمن في بداية القرن ٤ هـ (١٠ م) ،
شريط عليه شبه كتابة بالخط الكوفي مطبوعة
بالذهب .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٧٠ ،
٢٦×٤٤ سم » .

وقطعة من نسيج الصوف (شكل ٤٠)
وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى ،
وتؤرخ بالقرن ٤ هـ (١٠ م) يزخرفها شريط
عريض ، عليه صور سباع وعناصر زخرفية
آخري ويحده اطار به حروف من شبه كتابة .

أرانب جبلية تقفز تحت الخيول . وتزخرف
الارضية بين هذه الوحدات ، كلمات مفردة
تكرر بالخط الكوفي . وقد عهد الفنان الى
كتابة هذه الكلمات في الاتجاه العادي للكتابة ،
وذلك في القسم الايمن من قطعة النسيج ،
بينما كتبها في القسم الايسر في اتجاه عكسي
مراعاة للتناسق الفني . وكل ذلك امعانا في
تقوية التأثير الجمالي والزخرفي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٩٧
٢٥×٢١ سم » .

وعلى قطعة من النسيج من الصوف (شكل
٣٤) ينسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى
ويؤرخ في القرن ٤ هـ (١٠ م) ، تتألف
الزخارف من سطرين من كتابة دعائية بالخط
الكوفي ، يحدان شريطا به كلاب صغيرة بالوان
متنوعة ، تجري في اتجاه واحد .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٧٧
٧٠×١١٠ سم » .

وتؤرخ في القرن ٤ هـ (١٠ م) ، قطعة من
نسيج الصوف (شكل ٣٥) تنسب هي الآخري
لاقليم الفيوم بمصر الوسطى ، عليها شريط
عريض به رسوم طيور تذكرنا بالدجاج والحمام ،
ويظهر أن هذا الشريط كان يعلو سطر كتابة
بالخط الكوفي وبالالوان ذاتها .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٢٥٥٦
١٨×٢٢ سم » .

والقدر من الخزف من نوع الفيوم (شكل
٣٦) ، يؤرخ في أواخر القرن ٥ هـ (١١ م) ،
وعليه مناطق نجمية الشكل ، تزخرف بعضها
كلمات دعائية بالخط الكوفي تقرأ « بركة كاملة » .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٨٠
ارتفاع ٢٩ سم » .

كما نجد مناطق بها كتابات دعائية بالخط
النسخي على قطعة من النسخي (شكل ٣٧)

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٦٠٥٠ ،
٢٦٢ × ١٣٠ سم » .

وشبه كتابة من الخط الكوفى ، نراها
تزخرف قطعة من النسيج (شكل ٤١) من
صناعة مصر فى القرن ٥ هـ (١١ م) ، اى
من العصر الفاطمى . وعلى الشريط الاوسط
العريض مناطق تضم احداها ارنبا جبليا ،
والى اليمين جزء من منطقة اخرى من بقية
رسم شجرة . وفى اعلى هذا الشريط ، وايضا
فى اسفله سطر من شبه كتابة بحروف بالخط
الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٤ ،
٢٢ × ٢٢ سم » .

وتوجد تحف كثيرة من الخزف من صناعة
مصر فى العصر الفاطمى ، استعمل الخزافون
الكتابة العربية بمهارة فائقة لزخرفتها فى نفس
اسلوب الزخارف المستعمل فى الخزف ذى
البريق المعدنى .

والصحن من الخزف ذى البريق المعدنى
(شكل ٤٢) من صناعة مصر فى القرن ٥ هـ
(١١ م) ، تزخره ثلاث اوراق نخيلية .
وهو عنصر زخرفى شاع فى العصر الفاطمى .

وبين هذه الاوراق الثلاث اشكال بيضوية
لها طرف مدبب تضم شبه كتابة بالخط الكوفى
على ارضية من فروع نباتية ملتفة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٦٩ ،
٢٤ سم » .

والصحن من الخزف ذى البريق المعدنى
(شكل ٤٣) من القرن ٥ هـ (١١ م) ، فى
الوسط رسم ارنب محفوظ بالابيض على
ارضية بالبريق المعدنى ، وعلى الحافة زخرفة
متكررة من حروف كبيرة بالخط الكوفى ، لا
معنى لها ، ولا دلالة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٠٦ ،
قطر ٢٧ سم » .

ونرى زخرفة مماثلة من ارنب جبلى
محفوظ بالابيض على ارضية بالبريق المعدنى ،
على صحن (شكل ٤٤) من القرن ٥ هـ (١١ م)
ويحيط به شريط من شبه كتابة بحروف
بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٦٧
قطر ٢٩ سم » .

والزخرفة بشبه كتابة ، نراها ايضا على
صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل
٤٥) من القرن ٥ هـ (١١ م) فى شكل اشربة
تحيط برسم حيوان خزانى مجنح له رأس
نسر وجسم شبع (جريفون) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٧ ،
قطر ١٨ سم » .

وعلى صحن آخر من الخزف ذى البريق
المعدنى (شكل ٤٦) من صناعة مصر فى القرن
٥ هـ (١١ م) نرى صورة طاووس ، تحيط
به حروف متكررة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٩
قطر ٢٩ سم » .

وايضا من صناعة مصر فى العصر الفاطمى
صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل
٤٧) من القرن ٥ هـ (١١ م) . عليه رسم
شخص جالس يبدو انه قسم من مناظر فى
حفل طرب وشراب وعلى جانبيه دورقان
للشراب ويمسك بيده كأسا ويحيط به شريط
به شبه كتابة من حروف متكررة بالخط
الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٥
قطر ٢٧ سم » .

ونلاحظ ان الكتابة العربية استعملت ايضا
بنفس الاسلوب كعنصر زخرفى على التحف

يرونها على أنواع التحف الفنية والبورسيلان والسيلادون ، مما كان يستورد مباشرة من الصين الى مصر وبلاد الشرق الاوسط ، ولا سيما فيما بعد القرن ٧ هـ (١٣ م) ، وكان ينقل من الصين عبر طريق التجار القديم الى بلاد الشرق الاوسط ، حيث كان الفنانون يستوحون العناصر الزخرفية الصينية في أعمالهم الفنية .

ويبدو أن قطعة الديباج (شكل ٥١) من صناعة الصين في القرن ٨ هـ (١٤ م) ، وتتألف الزخرفة من مراوح بشكل طبيعي وأغصان مرسومة بشكل طبيعي أيضا بالاسلوب الصيني التقليدي . وتزخرف كل مروحة نخيلية شبه كتابة بحروف بزوايا قائمة لتقليد الكتابة الصينية وفي الوقت نفسه لكى تشبه الكتابة بالخط الكوفي .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٧ ، ٢٩×٣١ سم » .

واستوحى الفنانون في البلاد الاسلامية ما رأوه من الاختتام التجارية ، والكتابات الصينية فمزجوا بينها وبين زخارف ما أنتجوه من تحف فنية بطريقة زخرفية محورة .

ومثال لذلك لوحة مثمثة الشكل من الفسيفساء (شكل ٥٢) . من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) . وتتألف زخرفتها من كتابة عربية مكتوبة بطريقة زخرفية ، بزوايا قائمة تقليدا للاختتام التجارية الصينية .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠٩٧ ، ٥٤×٥٤ سم » .

ومثال آخر لهذا النوع من الكتابة الزخرفية ، نجده على بلاطة من الخزف (شكل ٥٣) من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) . ملأ الفنان سطح هذه البلاطة بكتابات عربية ، للفرض الزخرفي المحض . فنرى عليها في الوسط كتابة بالخط النسخي ،

الايرانية كما نراه على صحن من الخزف صناعة ايران (شكل ٤٨) من القرن ٤ هـ (١٠ م) . وفي وسط الصحن شكل مربع موسوم بخطوط باللون الازرق الكوبالت ويضم شبه كتابة بالخط الكوفي .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٣ قطر ١٨×٢ سم » .



ولم يكن الخزافون وحدهم هم الذين أوحى اليهم العنصر الزخرفي للكتابة العربية بنماذج جديدة فنية ، بل ان التأثير الزخرفي للكتابة العربية قد تأثرت به صناعة المنسوجات والبسط والسجاد .

فاننا نرى في النوع المعروف بسجاد « هولباين » (شكل ٤٩) من صناعة آسيا الصغرى في القرن ١٠ هـ (١٦ م) ان الاطار مزخرف بنوع من شبه حروف كتابية كوفية متشابكة باللون الابيض . وهذا النوع من سجاد آسيا الصغرى نجده مرسوما في لوحات عدد من المصورين الايطاليين والالمان في القرنين ٩ هـ ، ١٠ هـ (١٥ / ١٦ م) . ولا سيما في لوحات المصور هانس هولباين .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٦١٣ ١٥٢×٣٠٠ سم » .

وعلى قطعة من الديباج بخيوط من الفضة (شكل ٥٠) من صناعة سوريا في القرن ١٠ هـ (١٦ م) ، رسم الفنان أربعة عقود ، تركز على أعمدة ، تتدلى من كل عقد مشكاة تزخرفها شبه كتابة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٢٠٢١ ٦٦×١١٥ سم » .



كما عمل الفنانون في البلاد الاسلامية على تقليد العناصر الزخرفية الصينية ، التى كانوا

تنتهى حروفها بأشكال مجدولة هندسية ، وتحيط بها على الحافة كتابة أخرى بالخط الكوفي الزخرفي . وفي الأركان توقيع الخزاف المصرى المشهور « غيبى بن التوريزى » وقد قصد فى أسلوب كتابته أن يقلد به توقيعات الخزافين الصينيين على الاختتام التجارية وعلى منتجاتهم من البورسيلان والسيلادون ، مما كان يستورد الى مصر .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠٧٧ ، ٤٤×٤٤ سم » .

وعلى سجادة صلاة من الحرير (شكل ٥٤) من صناعة إيران فى القرن ١٠ هـ (١٦ م) ترى فى الركنين العلويين كتابة زخرفية لتقليد الكتابة الصينية وبينهما فى القسم العلوى من السجادة شريط من كتابة قرآنية منسوجة ، بالخط النسخي .

« موسوعة الفنون الإيرانية لوحة رقم ١١٦٥ » ، « متحف الجزيرة بالقاهرة ، ١٦٢×١٠٧ سم » .



ومن الطبيعى ان تضم الكتابات على التحف الفنية ، اسم صاحب التحفة او اسم من اقتناها ، مع التمنيات الطيبة والدعوات والبركات لصاحبها . ومن البديهي ايضا ان يذكر فى نصوص الكتابة اسم الفنان صانع التحفة ، وتاريخ صنعها ، واسم البلد الذى صنعت فيه .

وتوجد قطعة من نسيج الحرير ، على سداة من الصوف (شكل ٥٥) من صناعة إيران عليها كتابة دعائية بأسلوب الخط الكوفي ، وتحمل اسم القائد الأعلى لخراسان « أبو منصور بختاجين » . ومن المعروف انه توفى سنة ٣٩٤ هـ (٩٦١ م) ، مما يؤرخ هذه القطعة من النسيج الى هذا العصر . وتزخرف هذه القطعة رسوم قلة تحمل محفات .

« متحف اللوفر ، في باريس ، ٩٢×٥٤ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٦) من صناعة مصر ، نرى عليها شريط به جامات متجاورة بكل منها صورة بطة ويحد هذا الشريط سطران من كتابة دعائية بالخط الكوفي ، باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، الذى تولى الحكم فى مصر فى أواخر القرن ٤ هـ (١٠ م) .

« متحف الفن الاسلامى ، بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٥ ، ٢٢×٣٥ سم » .

وقطعة أخرى باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله هى عبارة عن منديل مربع من الحرير (شكل ٥٧) عليه زخرفة مطرزة من أسطر كتابة بالخط الكوفي تكرر اسم « العزيز بالله » . والاشربة الزخرفية تحتوى على رسوم طيور تجرى متتابعة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٤ ، ٤٠×٤٠ سم » .

ومن القرن ٥ هـ (١١ م) قطعة من النسيج (شكل ٥٨) عليها سطران من كتابة دعائية بخط كوفي جميل باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله .

« متحف الفن الاسلامى ، بالقاهرة رقم السجل ١٣١٧٤ ، ١١٠×٥٢ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٩) منسوجة بخيوط من الذهب شريط به جامات تضم طيوراً ويحد الشريط على كل من جانبيه سطر كتابة كوفية دعائية باسم الخليفة الفاطمى « الأمر بأحكام دين الله » ، الذى تولى الحكم فى مصر فى أوائل القرن ٦ هـ (١٢ م) . وتنتهى حروف الكتابة بمربعات بها عناصر زخرفية .

« متحف الفن الاسلامى ، بالقاهرة رقم السجل ١٥٠١٩ ، ٤٠×١٠٠ سم » .

ومن القرن ٨ هـ (١٤ م) ، قطعة من

وقد تولى الحكم في مصر في النصف الثاني من القرن ٩ هـ (١٥ م) .

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ٣٢٦٥ ، قطر ٣٠ سم » .

ونجد توقيعات واسماء الفنانين على التحف الفنية ، منذ بداية العصر الاسلامي .

فنرى على اجزاء من اعمدة القصور من مدينة سامرا صوراً متنوعة على احداها (شكل ٦٥) صورة سيدة يعلوها توقيع الفنان « مفلح » مكتوب بحروف بالخط الكوفي البسيطة .

« ارنست هرتسفلد : التصاوير من مدينة سامرا ، ١٩٢٧ لوحة ٦٧ » .

والزخرفة الوحيدة على صحن من الخزف (شكل ٦٦) من صناعة ايران في القرن ٤ هـ (١٠ م) ، عبارة عن اسم الفنان « سهيل » مكتوب بالخط الكوفي البسيط .

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٥ ، قطر ٢٣ سم » .

وعلى صحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٦٧) نرى في الوسط رسم حيوان خرافي مجنح « جريفون » يتدلى من فمه فرع نباتي . وعلى الحافة جامات بها زخارف عربية ، تتخللها مجموعات متماثلة من اوراق نباتية ملتوية ومدببة الاطراف ، والى جانب احداها توقيع الخزاف الشهير « مسام بن الدهان » ، الذي اشتهر بصناعة الخزف ذي البريق المعدني في مصر اوائل القرن ٥ هـ (١١ م) .

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٠ ، قطر ٣٤ سم » .

ويوجد سطل من البرونز مكفت بالفضة والنحاس الاحمر (شكل ٦٨) . عليه اشربة

نسيج الحرير (شكل ٦٠) ، على الشريط الاوسط منها رسوم حيوانات ترى منها سبعة يفترس غزالا . والشريطان الاخران بهما كتابات دعائية باسم السلطان المملوكي « الناصر » .

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ٩٩٥١ ، ٣٦x٥٢ سم » .

وقطعة أخرى من نسيج الحرير (شكل ٦١) من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) ، عليها ايضا كتابة دعائية باسم السلطان الناصر .

ونلاحظ ان الكتابة ، في القسم الايسر من قطعة النسيج تتجه اتجاهها صحيحا ، بينما في القسم الايمن نرى ان الكتابة تتجه اتجاهها عكسيا امعانا في ابراز التناسق الزخرفي ، وفي الوسط يوجد رنك به نسر ناشر جناحيه .

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ٢١٣٩ ، ١١x١٤ سم » .

وباسم احد سلاطين المماليك ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٢) من صناعة مصر ، في القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها اشربة بها كتابات دعائية بالخط النسخي .

● ● ●

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ١٢٦٦٧/١ ، ١٤x١٢ سم » .

وعصر المماليك ايضا ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٣) من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها اشربة زخرفية بها كتابات دعائية باسم السلطان الاشرف ، وتتابع هذه الاشربة مع اشربة أخرى بها رسوم غزلان .

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ١٥٥٥٤ ، ٢٢x٣٥ سم » .

والبلابة من الخزف (شكل ٦٤) من صناعة مصر وهي عبارة عن « خرطوش » يحمل اسم السلطان الاشرف « قايتباي »

زخرفية، عليها مناظر تمثل حياة الترف والطرب والموسيقى في القصور . والاشربة الزخرفية تتابع معها ثلاثة أسطر كتابة ، الاوسط منها بالخط الكوفي والآخران بالخط النسخي . ويقرأ من هذه الكتابات ان السطل صنع بناء على طلب من عبد الرحمن بن عبد الله ، من عامل صانع النحاس محمد بن عبد الواحد . وتنص الكتابة على ان زخارف التكفيت من عمل مسعود بن أحمد ، بمدينة هراة في أفغانستان ، وعلى المقبض تاريخ سنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م)

« متحف الهرميتاج ، في ليننجراد . ارتفاع ١٩ سم » .

من نفس الاسلوب شمعدان من النحاس مكفت بالفضة ، نرى منه تفاصيل في (شكل ٦٩) . ويؤرخ هذا الشمعدان بالنصف الثاني من القرن ٧ هـ (١٣م) . ونرى عليه اشربة زخرفية بها مناظر تمثل الحياة في البلاط . وفي الوسط جامة تضم صورة صياد يركب على جواد ، يتعقبه دب . وبين أرجل الجواد كلب صيد وأرنب جبلي . والجامات الزخرفية تقطع سطر كتابة وتقسمه الى مناطق تملأها كتابات بالخط النسخي أو بالخط الكوفي الزخرفي المجدول . وهناك سطر كتابة آخر تنص على الشمعدان صنعه الحاج اسماعيل ، وزخرفه محمد بن فتوح الموصل ، أجير الشجاع الموصل .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥١٢١ ارتفاع ٣٤ سم وقطر القامة ٣١٥ سم » .

والقلمة من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٧٠) عليها كتابات بالخط النسخي . وعلى القسم الاسفل ، كما نرى في الصورة ، كتابة بالخط الكوفي تنص على ان القلمة صنعها الكفتي شادي في سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠) .

« متحف فريد جاليري ، في واشنطن ، طول ٢١٥ سم » .

والمشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، المتعددة الالوان (شكل ٧١) عليها كتابة بالخط النسخي ، تنص على انها صنعت لمسجد أقامه الماس احد افراد ممالك السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقد بني هذا المسجد في سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) . وعلى قاعدة المشكاة ، بالخط النسخي أيضا توقيع الصانع علي بن محمد أمكي .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ٢١٥٤ ارتفاع ٣٣ سم قطر ٢١ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٧٢) كتابة تنص على ان هذه القطعة نسجت للمكان المقدس ، وان ناسجها هو شولان شير زادة ، في سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١) . وأسفل الكتابة منظر لأمير في حديقة ويركع امامه احد أتباعه .

« موسومة الفنون الايرانية لوحة رقم ١٠٢٩ » ،

« مجموعة باريس واتسون سابقا طول ٣٢٤ سم » .

وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر ، قطعة من نسيج الصوف (شكل ٧٣) من القرن ٤ هـ (١٠م) عليها كتابة تنص على انها نسجت في طراز الخاصة بمطمور من كورة الفيوم ، مما نلاحظ اثره في الاسلوب الريفي الجذاب في رسم الحيوانات والجمال على الشريط الزخرفي ، وفي اسلوب الكتابة أسفل ذلك ، وكل ذلك بألوان متعددة .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ٩٠٦١ ، ٢٧×٢٧ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان بخيوط ذهبية (شكل ٧٤) شريط زخرفي في الوسط ، عليه رسوم أغنام تجري في اتجاه واحد . ويحد هذا الشريط سطر كتابة ، تنص على

مرة للقتال ، فاستوقفته امرأة عجوز لتشكي له أن أحد عساكره قد سرق منها حاجة — وقد أظهر السلطات امتعاضه لأنها استوقفته لصفاثر الامور أثناء خروجه للقتال ، فسأله العجوز ، كيف يستطيع أن يفتح بلادا اجنبية وهو يعجز عن حفظ النظام في بلده ، وقد رسم المصور « سلطان محمد » هذه المنمنمة بمهارة فائقة ، واستطاع ان يخلق التناسق الجميل بين أبيات الشعر الفارسية التي كتبها بالخط العربي وبين مناظر القصة . وهذا المخطوط مؤرخ بين سنتي ٩٤٦/٩٤٩ هـ (١٥٤٣/١٥٣٩) .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٨٩٩ » ،
« المتحف البريطاني ، في لندن » .

● ● ●

وهكذا نرى ان الكتابة العربية تستعمل في زخرفة التحف الفنية وتزيينها في جميع البلاد الاسلامية ، ولا غرابة في ذلك ، فان المسلمين في انحاء العالم يحفظون القرآن الكريم بلغته العربية، كما كانت جميع الشعوب الاسلامية تكتب لغاتها بالحروف العربية ، ولو لم تكن اللغة العربية لغة بلادها . بل كما بقيت كتابة النصوص التاريخية تكتب على المباني والعمائر باللغة العربية الى عهد قريب في كل هذه البلاد حتى ولو لم تكن لغة البلد هي العربية مثل ايران وتركيا .

أن هذه القطعة نسجت في طراز الخاصة بمصر للخليفة العباسي المطيع بالله ، تحت اشراف فايز مولى أمير المؤمنين . والمعروف ان الخليفة المطيع بالله توفي سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤) .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ١٠٨٢٧ ،
٢٨×١٢٥ سم » .

● ● ●

واستعمل مصورو المنمنمات الكتابة العربية لزخرفة لوحاتهم . ومثال لذلك منمنمة (شكل ٧٥) من مخطوط مقامات الحريري ، وهو مؤرخ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧ م) وقد كتبه الخطاط والمصور الشهير « الواسطي » . وتمثل هذه المنمنمة جماعة من الاشخاص يحتفلون بانقضاء شهر رمضان ، وبداية عيد الفطر . وهم ينفخون في ابواق ويحملون رايات ، ويلوحون باعلام تزخرفها حروف كتابة بالخط الكوفي .

« دار الثب الاهلية في باريس ، ٣٠٠٢×٢٢٨ سم » .

وعلى منمنمة أخرى (شكل ٧٦) من مخطوط للمنظومات الخمسة للشاعر نظامي . وقد استعمل الفنان مناطق بها اشعار ليخلق التناسق في التكوين الفني . وهذه المنمنمة من عمل المصور « سلطان محمد » أحد تلاميذ المصور بهزاد . وهي تصور قصة من حياة السلطان السلجوقي سنجر ، عندما خرج

★ ★ ★

بعض المراجع

- مصحف السلطان الاشرف شعبان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة .
- يوسف احمد ، الخط الكوفي ، الرسالة الثانية ، القاهرة ١٩٣٤ .
- جاستون فييت ، القيمة الفنية للكتابة العربية ، مجلد الموطأ ، الجزء الثاني من السنة الثالثة - المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٣٨ .
- محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط ، تاريخ الخط العربى وآدابه ، القاهرة ١٩٣٩ .
- محمد فريب العربى ، الخط الديوانى .. كيف ظهر ؟ فى مجلة مدرسة تحسين الخطوط الملكية ، القاهرة ١٩٤٣ .
- زكى محمد حسن ، الزخارف الكتابية فى الفن الاسلامى ، مجلة الكتاب ، يناير ١٩٤٦ .
- ابراهيم جمعة ، قصة الكتابة العربية . سلسلة « اقرأ » العدد ٥٣ - ابريل ١٩٤٧ .
- م.س. ديماندا ، الفنون الاسلامية ، الترجمة العربية لاحمد محمد عيسى ، راجعها احمد فكرى ، القاهرة ١٩٥٤ .
- محمد مصطفى ، الكتابة العربية عنصر زخرفى مجلة « المجلة » العدد الثانى ، القاهرة فبراير ١٩٥٧ .
- محمد مصطفى ، روائع من التحف الاسلامية ، من محاضرات المؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية (بغداد ١٨ - ٢٨ نوفمبر ١٩٥٧) . فصله من كتاب جامعة الدول العربية عن المؤتمر - القاهرة ١٩٥٩ .
- قاسم محمد الخطاط ، قواعد الخط العربى ، بخط قاسم محمد الخطاط ، بغداد ١٩٦١ .
- محمد مصطفى . متحف الفن الاسلامى ، دليل موجز ، القاهرة ١٩٦٣ .
- عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، تاريخها وآثارها ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ناجى زين الدين المصرف ، بدائع الخط العربى ، بغداد ١٩٧٢ .
- محمد ابو الفرج المش ، نشأة الخط العربى وتطوره ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، المجلد ٢٣ ، دمشق ١٩٧٣ .
- محمود شكر الجبورى ، نشأة الخط العربى وتطوره ، بغداد ١٩٧٤ .
- ثروت مكاشة ، فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى ، القاهرة ١٩٧٤ .
- السيدة منى مصطفى العجمى ، فن الكتابة العربية ، القاهرة ١٩٧٥ .

S e l e c t e d B i b l i o g r a p h y

Periodicals :

Ars Islamica

Ars Orientalis

Kunst des Orients

Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft. Katalogisierung der Orientalischen Handschriften in Deutschland.

- Moritz, B. Arabic Palaeography. Cairo 1905.
- Noldeke, Bergstrasser, Pretzl, Geschichte des Qorans.
- Gluck, Heinrich und Diez, Ernst, Die Kunst des Islam. Berlin 1925.
- Herzfeld, Ernst, Die Malereien von Samarra. Berlin 1927.
- Thomas W. Arnold and Adolf Grohmann, The Islamic Book, a Contribution to its Art History from the seventh to the eighteenth century. 1929.
- Kochlin, R. and Migeon, G., Cent Planches d'art musulman. Paris 1929.
- Wiet, Gaston, Lampes et Bouteilles en verre emaille. Catalogue Generale du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1929.
- Wiet, Gaston, Objets en Cuivre. Catalogue Generale du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1932.
- Weill, Jean David, Bois et Epigraphes. Catalogue Generale Du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1936.
- A Survey of Persian Art. ed. by Arthur Upham Pope. London,. New York 1938 ff.
- Abott, Nabia, The Rise of the North Arabic Script and its Kur'anic Development, with a full description of the Kur'anic Manuscripts in the Oriental Institute. Chicago 1939.
- Wiet, Gaston, Stèles Funeraires. Catalogue Generale du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1939.
- Abott, Nabia, Arabic Paleography. Ars Islamica. Vol. VIII. 1941.
- Dimand, M.S., A Handbook of Muhammadan Art. New York 1944.
- Kuhnelt, Ernst, Die osmanische Tughra. Kunst des Orients. Wiesbaden 1945.

- Erdmann, Kurt, Arabische Schriftzeichen als Ornamente in der abendlandischen Kunst des Mittelalters. Wiesbaden 1953.
- Grohmann, Adolf, The Origin and Early Development of Floriated Kufi. Ars Orientalis 1957.
- Ettinghausen, Richard, Arabische Malerei. Genf 1962.
- Grohmann, Adolf, Die Dekorative Rolle der arabischen Schrift. bustan 4. Wein 1962.
- Kühnel, Ernst, Islamischen Kleinkunst. Braunschweig 1963.
- Grohmann, Adolf, Arabische Palaographie. Wien 1967-71.
- Kühnel, Ernst, Die islamischen Elfenbeiskulpturen. Berlin 1971.
- Kühnel, Ernst, Islamische Schriftkunst. Berlin 1942. Neuauflage Graz 1972.
- Sourdél-Thomine, Janine und Bertold Supler, Die Kunst des Islam. Propyläen Verlag Berlin 1973.
- Kühnel, Ernst, The Arabesque. Meaning and Transformation of an Ornament. Translated from the original Text in German by Richard Ettinghausen. Graz 1976.
- Martin Lings and Yasin Hamid Safadi, The Qur'an. World of Islam Festival Publication. London 1976.



ديناميات التغير السياسى والاجتماعى فى العالم الثالث

عرض وتحليل : محمد غانم الرميحى

نيجيريا ، سوريا ، الصين الشعبية ، وقد قام
محرو الكتاب David E. Schmitt اضافة الى
تحرير الكتاب بكتابة مقدمته ، الطويلة نسبيا
وخاتمته . اما الكتاب الستة الاخرون فقد قام
كل منهم بتحليل ديناميات التحدث السياسى
والاجتماعى فى القطر الذى كتب عنه .

الكتاب الذى بين ايدينا يلقى الضوء على
ديناميات التحدث فى العالم الثالث من جهة
التحدث السياسى والتغير الاجتماعى .
ويشترك فى الكتاب سبعة من المتخصصين
يتناول كل منهم على حدة بلدا مختارا من اقطار
العالم الثالث هى : الهند ، تشيلي ، المكسيك

DYNAMICS OF THE THIRD WORLD POLITICAL AND SOCIAL CHANGE

Editor : David E. Schmitt. Published by : Winthrop Publishers, Inc. 1974.

David E. Schmitt, (Editor)), Dynamics of the Third World Political and Social Change,
Winthrop Publishers, INC. 1974.

ويهدف الكتاب الى تقديم فهم عام للقضايا الرئيسية التي تواجه العالم الثالث في سبيل تطوير نفسه ، وكشف الادوات والاستراتيجيات التي يستخدمها قادة العالم الثالث من اجل مواجهة وحل المشكلات . ويعرف الكتاب العالم الثالث تعريفاً سلبياً فهو يشير الى ان العالم الثالث هو « افقر واقل تطوراً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي » ويشير الكتاب الى ان معظم دول آسيا وأفريقيا والشرق الاوسط هي من العالم الثالث . مع استثناء وهو استبعاد اليابان ، وهذا معقول واسرائيل (وهذا غريب) من اطار العالم الثالث * .

ويهتم الكتاب بالعالم الثالث من حيث علاقاته الدولية ، فيشير الى انه مهما بعدت هذه الاقطار عن الولايات المتحدة ومهما قلت مصالح الاخيرة فيها الا ان « امن المواطن الامريكي » وبالتالي امن الدول المتقدمة مرتبط بشكل او باخر بمشكلات الدول في العالم الثالث وخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

لقد تبنى الكتاب اطاراً ثلاثي الابعاد في التحليل النظري لمشكلات التغير السياسي والاجتماعي . وصفها على انها اما :

اولاً : تغير تابع - اي ان التغيرات السياسية والاجتماعية هي نتيجة لعوامل اخرى يمر بها المجتمع كالتغيرات الاقتصادية مثلاً .

ثانياً : متغير فاعل - اي التغيرات السياسية هي في حد ذاتها مؤثرة في العلاقات الاجتماعية السائدة في ذاك المجتمع .

ثالثاً : هي متغير مستقل اي انها تتطور في المجتمع دون التفاعل بالعناصر الاخرى الاجتماعية او الاقتصادية .

في المقدمة يشير محرر الكتاب الى الاسباب التي دفعته هو وزملاؤه لتناول هذا الموضوع ، وبالتحديد اختيار هذه البلدان ، فهي تمثل عينة مختاره من بلدان العالم الثالث والتي تختلف فيها التجارب والاجتهادات السياسية والاجتماعية من تلك النتمية لاتجاه الديمقراطية الغربية حتى تلك التي تبني الماركسية اللينينية في معالجتها للتحديث السياسي والنمو الاجتماعي . كما ان تلك الاقطار تمثل محاور جغرافية متعددة في آسيا وأفريقيا وامريكا اللاتينية . ويصر محرر الكتاب على القول ، في مقدمته ، بأن الهدف من هذا الكتاب هو فقط ان يشكل مقدمه عامة لدراسة الموضوع من جوانبه المتعددة ، وانه ليس كتاباً متخصصاً ، فكيفيه ان يشوق القارئ ، على حد تعبيره ، لقراءة الكتاب والاطلاع على بعض المؤشرات الهامة ، الاجتماعية والسياسية ، في بعض اقطار العالم الثالث وهي تسير في ركب التغير . ويبرر اختيار هذه الدول دون غيرها بأنها دول كبيرة ومهمة عدا سوريا فهي ، كما يدعى ، دولة صغيرة نسبياً ، ولكنها تتميز بتغيرات سياسية واجتماعية سريعة منذ الاستقلال ، وقد كتب الفصل الذي عالج الوضع في سوريا . Alan R. Balbomi وهو يهودي يهتم بالصراع العربي الاسرائيلي ، وقد كتب قبل ذلك كتاباً عن جماعات الضغط الامريكية الصهيونية . اما بقية الكتاب الاخرين فهم مجموعة من المتخصصين الامريكيين وينتمون الى عدة جامعات امريكية ، وتنحصر تخصصاتهم في العلوم السياسية او في الاقتصاد السياسي ، وهم مهتمون بالمناطق التي كتبوا عنها .

ويتناول الكتاب في جزء اساسي بعض جوانب العلاقات الدولية ، من حيث كشف علاقة بعض هذه الاقطار بالدول الكبرى الاوروبية او الشرقية .

ويذهب الكتاب الى تقسيم اشكال التطور السياسى الى قسمين رئيسيين :

الاول : **النمط الديمقراطي الغربي** - وهو من شقين :

اولا : كما هو موجود فى الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض دول أوروبا الغربية ، والذي يفضل تقليديا بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية مع كل المؤسسات التابعة لهذا الشكل من التطور السياسى .

والشق الثاني وهو ، الشكل الاخر من التطور السياسى هو **نظام الحزب الواحد** كما يظهر فى الاتحاد السوفيتي وبعض دول المنظومة الاشتراكية . ويؤكد الكتاب هنا ان كلا الشكلين يقومان ضمن اطار التطور السياسى فى النمط الديمقراطي . وهذا يناقض كثيرا من الكتب المماثلة ، والتي تنظر الى انظمة الحزب الواحد على انها تجسيد سياسى اكثر منها تطور . لذا يضيف الكتاب القول ان « كلا الشكلين المذكورين انما من التطور السياسى استطاعا ان يتما شيئا مع التحديث والبقاء والتجديد » . ويضيف الكتاب انه لا يمكن الافتراض بشكل تلقائي ان واحدا من هذين الشكلين فى التطور السياسى هو افضل من الشكل الاخر ، او ان هذه المؤسسات هى الشكل الوحيد للتطور ، انما يؤكد الكتاب ان هذين الشكلين ربما يكونان غير صالحين لعدد وفير من شعوب العالم الثالث التى لها قيم ثقافية وانماط اجتماعية وظروف اقتصادية لها خصوصياتها . ولكن الكتاب هنا يقع فى ازدواجية غير مفهومة وغير مفسره فحيث انه يحصر التطور السياسى فى قسمين ياتي مرة اخرى ليترك الكثير من الهوامش التى يمكن ان يدخل تحتها عدد لا حصر له من تجارب (التطور السياسى) ، فهو يضيف فى هذا الخصوص انه لا يجب النظر الى ان الشعوب المتقدمة هي اكثر تقدما فى مجال التطور

فى الحالة الاولى ينظر الى التغيرات السياسية والاجتماعية على انها تابع للبيئة المحلية وبالتالي تدخل فى تكوينها النهائي عدة عناصر اقتصادية واجتماعية وسياسية ولكن كما يشدد الكتاب بانه من التبسيط المخل النظر الى التغيرات الحادثة فى البنى السياسية والاجتماعية فى دول العالم الثالث على انها فقط تابع لتغيرات اخرى ، وان النظام السياسى هو استجابة لما حوله .

والنظر الى التغير السياسى فى هذه المجتمعات على انه متغير فاعل على اساسى ان الانظمة الاخرى فى المجتمع مستحبة (تابعة) للتغير السياسى او مستحبة للقرارات والخطوات المتخذة من الحكومة او القيادة السياسية يظهر ان النظام السياسى له سيطرة كبيرة على المجتمع واذا كانت هذه ظاهرة ملاحظة بوضوح فى بعض البلاد كما يشير الكتاب عند دراسة نموذج الصين الشعبية فهى فى رأينا تعميم تنقصه الدقة العلمية .

يبقى ركن الاطار الثالث الذى ينظر اليه الكتاب فى تحليله النظرى وهو التطور السياسى المستقل ، ولو اننا نجد صعوبة فى ادماج هذا الركن مع الركنين السابقين فى التحليل وهما التابع والفاعل . الا ان هذا الركن يفسره الكتاب بالقول ان التطور السياسى او التدرج السياسى هو « الطريقة التى يزيد بها النظام المعنى قدرته على التعامل مع المتطلبات المتجددة للمجتمع ، ومع المجموعات الجديدة وتوسيع المشاركة السياسية » . يبدو لنا هنا ان ذلك يدخل ايضا فى اطار الفكرة القائلة بان التغيرات السياسية (تابعة) او مستجيبة للتطور فى المجتمع . اى ان ذلك يعنى خلق ورعاية تأييد شعبي وبناء مؤسسات سياسية وادارية صالحة للعمل والاستجابة للحاجات الجديدة ، مثل احزاب سياسية ومؤسسات جماهيرية ... الخ .

١ - الاستعمار :

سيطرت شعوب أوربا على شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لذلك فإن الشعوب القبلية في إفريقيا وجنوب آسيا ، والامبراطوريات التقليدية في آسيا قد تغيرت نتيجة لصراعها مع الامبريالية الغربية . لقد قدمت القوة الاستعمارية مفاهيم جديدة في التجارة وفي العلاقات الاجتماعية وفي التنظيم السياسي ، تأثرت على أثرها الشعوب التي لم تخضع طويلا للاستعمار الغربي ، وقد طالتها ذلك التأثير الا ان « الطلب » على التغير قد ازداد بعد رحيل المستعمر مباشرة . ويضرب مثالا على ذلك في الصين وتايلاند . هنا يتجاهل الكتاب فكرة ترددت في الكتابات السياسية في العقدين الآخرين وهي التبعية الاقتصادية او الاستعمار غير المباشر ، وفي هذا الخصوص يقرر الكتاب ان الاضطرابات السياسية دائما تتلو التحرير . فالتاريخ السياسي لآسيا وأفريقيا بعد الحرب مليء بالانقلابات والعصيان ، ويناقش هذا الموضوع على انه متغير مستقل ليست له علاقة بالوضع الاستعماري او بالطبقات الحاكمة التي تركها الاستعمار المباشر بعد رحيله . وكأن السبب في عدم الاستقرار هو داخلي بحث نابع من حب المغامرة او عدم الوصول الى سن الرشد لهذه الشعوب . ويضيف مؤكدا فكرته انه بالرغم من ان الاستعمار بشكله القديم قد ترك او حاول ان يترك حكومات على النمط الديمقراطي الغربي ، الا ان الحكومات التسلطية هي التي سارت في العالم الثالث ، نتيجة للاضطراب السياسي ، وهي القاعدة بدل ان تكون الاستثناء .

٢ - التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية :

التغيرات الاقتصادية تسرع في خطوات الحياة ، والاقتصاد المتطور يحتاج الى وسائل مواصلات سريعة لنقل العمال والمواد الخام الاولى والمصنعة من وإلى الاسواق والتغيرات

السياسي ، لان التطور السياسي يشير الى طرق دائمة لاحتضان التغير الاجتماعي بسهولة ومتى ما اصبحت اقل قدرة على احتضان ومعالجة التغير ، تصبح غير ذات محتوى متطور . ويخرج من هذه المقدمة بتعريف شامل للتطور السياسي وهو « مقدرة النظام السياسي على هضم التغير ومسايرة المهام المتطورة النابعة في المجتمع نتيجة عمليات التحديث » .

بعد هذا التعريف الليبرالي الشامل يفاجئنا الكتاب بالقول ان هذا لا يتم بالضرورة من خلال مؤسسات او نظام حكومي كامل ، انما قد يعتمد مثلا على نظام قبلي . ويبقى السؤال كيف يمكن ان يهضم حكم قبلي حاجات متجددة في مجتمع يسير في ركب التطور ؟ .

ثم يعرض الكتاب قضية هامة هي ميكانيكية العلاقة بين النظام السياسي في أي مجتمع وبين بيئته الاجتماعية والاقتصادية ، فيعتبر ان لا حكومة تستطيع ، وبشكل مطلق ، ان تتحكم في بيئتها ، وليست كثير من الحكومات في المقابل خاضعة بشكل مطلق لشعوبها ، انما هناك تبادل مستمر بين النظام السياسي مع مكوناته الاخرى ، كالنظام الاقتصادي والثقافي السائد في المجتمع وبين البيئة الاجتماعية والمصالح المتعددة لمجموعات الضغط ، ولكن مشكلات الحكومات في العالم الثالث هي مشكلات معقدة او ، على حد تعبير الكتاب ، « ان حكومات العالم الثالث مبحرة في بحر مليء بالمشكلات التي لا تستطيع حلها » . ويفسر ذلك بأن هناك قوى جديدة وقوى قديمة تتضارب مصالحها فتسبب هذا الاضطراب .

ثم يذهب الكتاب الى مناقشة اهم العوامل السياسية التي اثرت على الوضع السياسي الحالي في العالم الثالث ، وساهمت الى حد بعيد في اشاعة الاضطراب السياسي فيه فيشير الى :

هذه النقاط الاساسية التى يعرضها الكتاب كأهم العوامل التى تؤثر فى المتغيرات السياسية فى دول العالم الثالث ولوانه يناقشها من وجهة نظر احادية فقط ، فهناك لاشك ايجابيات كثيرة للتغيرات الثقافية فى العالم الثالث لصالح التقدم .

ويتابع الكتاب بعد هذا ماسماه (الازمات ونسب التغير السياسى والاجتماعى) فيعرض الى ان « الثورة » هى تغير اساسى وجدرى فى النظام القائم ، وتنتج الثورة من غربة مجموعة من الشرائح الاجتماعية عن المجتمع ورغبتهم للعمل معا نحو تحطيم « الامر القائم » السياسى والاجتماعى ، وتتصاعد احتمالات الثورة عندما تكون توقعات الناس مرتفعة نتيجة للاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى هذا الاطار يشير الكتاب ، ولو بطرف خفى ، الى انه كلما زادت الاصلاحات الاجتماعية والسياسية توقع الناس اكثر ، فاذا لم يتحقق ذلك فان الثورة قائمة . والدرس الواضح من ذلك كله ، كما يريد الكتاب ، ان يعلمنا هو انه يجب حساب الاصلاحات فى العالم الثالث حسابا دقيقا . .

النظام السياسى كمنسق مستقل :

هل النظام السياسى يمكن ان يكون نسقا مستقلا فى التطور والتحديث السياسى وما هى الطرق والوسائل الكفيلة بجعل النظام السياسى هو قائد التحديث ؟ يعتقد الكتاب ان ذلك ممكن عن طريق احد العوامل التالية :-

١ - الشخصية العظيمة :

الشخصية القيادية المؤثرة والتى تظهر فى الازمات فى الدول التى لا تحظى بأنظمة سياسية مؤسسية . لذلك فان ظهور هذه الشخصية قد يؤثر فى التحديث السياسى . وهذه الفكرة بالطبع فكرة مبالغ فيها ، لانه بدون ان تنضج الظروف الموضوعية فى المجتمع

الاقتصادية ايضا تتبعها تغيرات فى نمط الحياة الاجتماعية مما يسبب ضغوطا على الحكومات من الشعب قد لا تستطيع هذه الحكومات ، لاسباب متعددة ، انجازها .

٣ - نمو المدينة :

ساعدت الزيادة فى السكان وتغير التكنيك الزراعى والرغبة فى حياة افضل على نمو المدينة وتضخمها ، وسكان المدينة يحتاجون الى خدمات حكومية اكثر من سكان الريف ، انهم يحتاجون الى طرق ومواصلات ومدارس ومحطات اطفاء والى مجموعة كبيرة اخرى من الخدمات . وسكان المدن اكثر استعدادا للانتظام فى اشكال سياسية تطالب باصلاحات او تتحدى النظام القائم .

٤ - ثورة الاتصالات العالمية :

مشكلات متعددة جلبتها معها ثورة الاتصالات العالمية فقد جاءت الثورة التكنولوجية بالتلفزة والسينما والصحافة والاذاعة والتى تحمل اخبارا عن المنتجات المادية للعالم من اكثر العواصم تطورا ، وهى تقدم صورة عما وصلت اليه الحياة البشرية ، فالفسلات الاتوماتيكية والطباخات على الغاز هى مجال لتحرر الناس الذين لا يزالون يفلسون على ضفاف الانهار او يطبخون على نار الحطب .

٥ - التغيرات الثقافية :

المعتقدات والقيم والافكار القديمة تتصادم مع القيم والافكار الحديثة التى تجعل المعتقدات القديمة والشعبية تضعف ، وكلما ضعفت هذه المعتقدات أصبح هناك فرصة اكبر للافادة من الوعي الجديد لدى الشعب ، ومن خلال السياسيين الطموحين والضباط لظهور عدم قدرة الحكومة القائمة على الوفاء بطلبات الجماهير .

يكون دور « الشخصية العظيمة » دورا غير ذي معنى .

٢ - البيروقراطية العامة :

وفي العالم الثالث لا توجد أو لا يسمح بوجود مؤسسات سياسية تنقد الحكومة القائمة وموظفيها ، فالقيمة والفعالية العامة لم ترق إلى التنظيم الحديث ، والولاء القبلي والعائلي يأخذ الأسبقية ، لذلك فالبيروقراطيون لهم الفاعلية الأكثر في هذه المجتمعات والسياسيون لهم وسائل فعالة للسيطرة على الموظفين العاملين غير الأكفاء ، لذلك فإن التأثير البيروقراطي يمكن أن يكون مؤثرا في التطور السياسي .

٣ - الأحزاب السياسية :

لمعالجة المشكلة هناك آراء متعددة تطرح عادة منها أن وجود أحزاب سياسية متناسقة وقوية كما في الصين والمكسيك ، يمثل الحزب فيها أداة الحاكم القوية يمكن أن يكون لهذا الحزب دور سياسي .

والدور السياسي للحزب هو معالجة أزمة المشاركة الناشئة من التحديث . والحزب هو الوسيلة الأساسية لتنظيمه والإشراف على التوازن بين متطلبات المجتمع ككل وقدرة (الحكومة) على تلبية هذه المطالب . في العالم الثالث (يلاحظ الكتاب) أنه لا توجد أحزاب فاعلة قوية ، هناك مجموعات شخصية وشللية معتمدة على شخصية زعيم قوي وتابعة . وربما في التحليل الأخير نجد أن الكتاب قد ذهب إلى تعميمات غير مستحبة علميا . فهناك أحزاب في العالم الثالث كما هو في الهند - على سبيل المثال - وقد أثبتت فاعليتها الديناميكية في إطار التحدث السياسي .

٤ - الأيديولوجية :

الأيديولوجية هي « نظام من الأفكار يتمحور حول السياسات المحتاجة إلى شرح أو تبرير من خلال كلمات مكتوبة أو مقالة ، وفي العالم الثالث تتمحور الأيديولوجية حول الاستقلال القومي » .

هكذا يلخص الكتاب مفهوم الأيديولوجية كنسق مستقل ومؤثر في التحديث السياسي وربما يكون قد جانبه الصواب في هذا الإطار وبخاصة فيما يخص العالم الثالث ، فقد لعبت (الأيديولوجية) وما زالت تلعب دورا حيويا في إطار التحديث والتقدم لدول وشعوب متعددة في العالم الثالث . يعترف بها الكتاب في مكان آخر عندما يتكلم عن التعليم كطريقة للتثقيف الأيديولوجي فهو يقول أنه حتى العلوم البحتة والرياضيات تستخدم الفكر السياسي . فيقرر أن (التعليم واحد من المجالات الهامة التي يستطيع القادة القوميون أن يبسطوا سلطتهم من خلالها) .

٥ - التعليم :

يساعد على المساهمة في تثبيت النظام السياسي عندما يخطط له من أجل ذلك . ولكن التعليم ، كما يقرر الكتاب ، سلاح ذو حدين ، فمن جهة يمكن السيطرة عليه من خلال البرامج الموجهة في التعليم ، سواء كان تعليميا عاما أو جامعيًا أو مهنيًا ، ولكنه من الجهة الأخرى يرفع درجة توقعات المتعلمين من النظام السياسي السائد ويدفعهم إلى تحديه .

٦ - التطور الاقتصادي :

للتطور الاقتصادي مردود أكبر من مجرد إشباع الحاجات الإنسانية ، ولكنه أيضا يعطي خيارات متعددة للحراك والتطور الاجتماعي ، لذا فإن التطور الاقتصادي جزء أساسي في دعم أو إعاقة التطور السياسي .

جعل المؤسسات السياسية قادرة على امتصاص التطور السياسي والاجتماعي . ويصف الكتاب اهم اسباب الانقلابات العسكرية وهي الازمات السياسية الزمن والمظاهرات والاضرابات وعدم الاستقرار السياسي بوجه عام .

طرق التطور السياسي :

طرق التطور السياسي متعددة ، وكل طريق منها تؤدي غرضا او اغراضا ايجابية ، وقد يكون لها عناصر سلبية ، ولكن على كل قائد سياسي ان يتبع طريقة محددة وواضحة في التطور السياسي ، والا يدخل في تخطيط غير مفهوم للجمهور ، بعض الطرق السياسية صالحة للحكومات الشيوعيون ، فلاحزاب مثلا يمكن ان تستخدم في اية ايدولوجية سياسية .

ويعرف الكتاب مجموعة من الطرق المعروفة الان في العالم سواء المتقدم او في العالم الثالث منها : -

١ - الديمقراطية الليبرالية الغربية :

من مظاهرها حرية الانتخابات والتنافس غير المحدود بين الاحزاب لكسب الاصوات ، ولكن هل يمكن تطبيق ذلك في دول العالم الثالث ؟ واذا كانت الايدولوجية الغربية قد ينجح في الدول الغنية فهل يمكن ان تنجح كذلك في الدول الفقيرة ؟ . هذه الاسئلة يتركها الكتاب لدراسة النماذج ، واكثر نموذج في هذا الخصوص هو الهند .

٢ - الديمقراطية السياسية المحدودة :

يحدد الكتاب الهدف مما اسماء بالديمقراطية السياسية المحدودة بان تقوم قيادة قوية لاجراء اصلاحات هامة في المجتمع من خلال التغير الاجتماعي حتى تصل هذه الاصلاحات الى الديمقراطية الليبرالية ، والاصلاحات العامة تتجه الى التعليم العام ،

٧ - الجيش (العسكر) :

يمكن ان يكون الجيش مساعدا على التطور في العالم الثالث ، كما يمكن ان يكون معوقا للتطور والتحديث . وحتى الانقلابات العسكرية يمكن ان تأتي بعد تقدم اقتصادي وسياسي ، والجيش هو الطريقة الوحيدة والغالبة في العالم الثالث التي يمكن من طريقها تحويل السلطة من الارستقراطية غير المعطاءة الى شرائح اجتماعية اخرى . والعسكر اكثر قدرة على انجاز التطور الاقتصادي من بعض المؤسسات الاخرى من خلال ما تعودوا عليه في تسلسل الاوامر التنفيذية - الضبط والربط - ويقوم الجيش في العالم الثالث بشكل الاسفنجية التي تمتص العاطلين من العمل ، وتوفر مصادر رزق لقطاع كبير من الشعب دون ان يكون بمقدور هذه القطاعات المشاركة الايجابية في الساحة السياسية .

وكثيرا ما تتم الانقلابات العسكرية لاسباب انانية عندما تغلق سبل الترقيات مثلا في وجوه الضباط الكبار ، هذه الاسباب في العادة تتوخى اسبابا سياسية وتجيء في غمرة تدهور سياسي لان الانقلاب العسكري اقل احتمالا في اجواء حكم شعبي يحقق طلبات شعبه .

ولكن العسكريين لا يستطيعون الاحتفاظ بالشعبية لوقت طويل ، لانهم غير قادرين على مواجهة الازمات الزمن للتحديث . ويقدم الكتاب حولا لعلاج خطر الانقلابات وذلك عن طريق احالة الضباط الطموحين الى الاستبداد في وقت مبكر ، وكذلك اجراء قفزات في الترقية للضباط الاخرين ، ونقل الضباط من مكان الى آخر حتى لا يكون لهم استقرار دائم في مكان تنبت لهم فيه ولاءات ، واضفاء الشرف الاجتماعي على البعض بين وقت وآخر وربما اشراكهم في القرارات الممكنة فيما يلزمهم ضمن سياسة الحكومة . وربما ان افضل طريق لحفظ العسكر خارج التدخل في الحكم هو

٤ - النظام التعبوي (الشيوعي) :

الأنظمة السياسية هنا ، كما يشير الكتاب تعتمد على القوة المطلقة ، على الأقل في المدى القريب ، ويضرب امثلة على ذلك كالصين الشعبية. والنظام التعبوي قد لا يكون (شيوعيا) بالضرورة - كما يبدى الكتاب - فقد تتماثل مظاهر النظام التعبوي دون أن يكون ، بالضرورة معتنقا للفكر الماركسي ، ويتجه هذا النوع من الأنظمة ليس الى تعاون وحلول وسط بين فئات المجتمع المختلفة دائما ، وانما تبدأ الاصلاحات من خلال اعلان حكومي وتصادر الاراضى الزراعية ببساطة من ملاكها الكبار لتوزعها على الفلاحين المعدمين ، وتؤمم المصانع دون أن يعرض اصحابها ، والمعارضون للثورة يمكن أن يطبق عليهم القصاص ويردعون عن طريق السجن أو الإبعاد خارج البلاد . ولكن حتى هذه الأنظمة - كما يقول الكتاب - تحتاج الى دعم شعبي اذا أريد لها الحياة الطويلة ، والقادة عادة في مثل هذه الأنظمة يهتمون بالدعم الشعبى ، لذلك نجدهم يستخرون بكثافة الايديولوجية المتوفرة لديهم للحصول على الدعم الجماهيرى . وهذه الأنظمة ليست كبقية أنظمة العالم الثالث يمكن الاطاحة بها بسهولة ، فيقدر الكتاب انه لم يحصل ان أطيح بحكم شيوعى في العالم الثالث .

من التقسيمات التى تبناها الكتاب والتى عرضت في الانماط السابقة تبين لنا انها تقسيمات ، قد تكون عشوائية الى درجة كبيرة ، ويبدو التضارب واضحا في الحديث عن النظام (التعبوي) والذي انهى الكتاب تحليله حوله بالقول انه لا يمكن الاطاحة بها دون اعطاء تبرير كاف لذلك عدا وجود الايديولوجية ، وفي رأينا ان المشاركة السياسية من قبل اكبر القطاعات هى التى تعتبر صمام الامان لمثل هذه الأنظمة . كما انه لا يبدو فرق واضح بين السلطوية اليسارية واليمينية من حيث منظور التطور السياسى ، فالسلطوية هى سلطوية في البداية والنهاية واحتكار القرار

القضاء على الفقر ، الاصلاح الزراعى ... الخ ويقود الديمقراطية السياسية المحدودة حزب واحد في البلاد ، ويتجه هذا الحزب لاتاحة الفرصة لاحزاب اخرى ، بعد ان يكون قد انجز المهمات الاساسية المطلوبة .

٣ - السلطوية :

نظام حكم متسلط لا انتخابات حرة ، ولا حرية تعبير ، ولكنه يسمح فقط بمنظمات متعددة مثل المنظمات الدينية والمنظمات التجارية ، وربما منظمات عمالية في اضيق الحدود تأخذ هذه المنظمات حرية العمل ما دامت مستمدة من السلطة ومتعاونة معها . ومع ان السلطوية تعتمد على تعاون مجموعات اساسية في المجتمع ، الا ان سلطتها الاساسية مستمدة من (العسكر) او الشرطة . وهناك اتجاهان في السلطوية أحدهما هو السلطوية اليمينية والثانى هو السلطوية اليسارية .

أ - السلطوية اليمينية :

تمتاز بأنها تحدد التفيرات الاجتماعية وتتحكم فيها عن طريق عدم فسح المجال لمجموعات النخبة الجديدة والتحكم في نموها ، كالإبتعاد عن التصنيع وتحديد التعليم والاعتماد على مجموعات تقليدية في المجتمع كاصحاب الاراضى والجيش والمجموعات الدينية . وعادة في هذا النوع من السلطوية نجد أن المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) مضغوط عليها .

ب - السلطوية اليسارية :

تحطم المحتوى التقليدى للنظام السياسى ، وتقوم بتوزيع الاراضى لكسر الاحتكار السياسى لاصحاب الاراضى والاقطاعات الكبيرة وتشجع المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) في مجالات تتوافق والاهداف العامة للسلطة .

الهند ، بمعناها الليبرالى ، قد سبقت التطور الاقتصادى، ومن هنا كان بقاؤها واستمرارها .

التركيب السياسى فى الهند استمد شرعيته قبل الاستقلال سنة ١٩٤٨ ، بر من طويل وقبل أن يبدأ التطور الاقتصادى الحديث فى غزو الريف الهندى ، فقد لعب الاستعمار البريطانى فى حالة الهند دورا ايجابيا من حيث توحيدها ، اذ اهتم الاستعمار بالهند كوحدة وظهرت المواطنة لعموم الهند منذ منتصف القرن التاسع عشر . فقد بدأت بريطانيا تستجيب (بنصف قلب) لرغبات الهنود فى المشاركة السياسية ، وذلك من أجل البعد عن التقسيمات الادارية التقليدية . واشراك الهنود كشعب ، لا كطوائف فى السلطة ، وذلك ليسهل الاستقلال الاقتصادى لعموم الهنود من قبل السلطة الاستعمارية . وشهدت الهند فيما بين الحربين تطورا هاما هو اصدار قانون ١٩٣٥ للاصلاحات السياسية وما سبق ذلك من ربط الهند بشبكة مواصلات ، بعد القضاء على ثورة ١٨٥٧ التى قادها حكام الولايات المختلفة والمتنفذون من كبار الاستقراطية ونتيجة لها قامت بريطانيا بحملة واسعة من أجل اضعاف سلطة هذه الطبقة، وهذه الخطوة الأخيرة ساعدت بوجه آخر على ازالة عقبة سياسية من وجه التطور الديمقراطى اللاحق، وهذا هو عكس ما هو قائم فى امريكا اللاتينية حيث ساعد الاستعمار ، بشكل أو بآخر على ايجاد طبقة متنفذة وقوية عطلت فى وقت لاحق التطور الديمقراطى ، كما قامت بريطانيا فى الهند بتشجيع وتنمية طبقة وسطى ، هذه الطبقة وفرت لبريطانيا شريحة ادارية متوسطة وكبيرة العدد ساعدت بدورها على فرض مفاهيم غربية فى المجتمع الهندى . هذه الطبقة الوسطى المتعلمة فى الغرب أو على الطريقة الغربية بدأت بدورها بالمطالبة

السياسى ، وعدم وجود المشاركة الشعبية الواسعة قائم فى الاثنين .

بعد هذه المقدمة النظرية يتناول الكتاب بالتفصيل ، الاقطار التى تبناها كنموذج ، واحدا تلو الآخر ، الا أنه نظرا لاختلاف الكتاب الذين تناولوا هذه الاقطار واختلاف وجهات نظرهم السياسية والاجتماعية فاننا نلاحظ ان تحليلاتهم لا تتطابق تماما مع ما جاء فى الاطار النظرى للكتاب ، فبعضهم تناول الدولة التى يتحدث عنها من وجهة نظر متعاطفة (كما فى الهند) وبعضهم تناول الدولة التى يتحدث عنها من وجهة نظر (معادية) كما فى حالة سوريا مثلا .

ونحن هنا سوف نعرض لدولتين فقط من الدول الست التى جاءت دراستها فى الكتاب حتى نتيبين بالتحديد مدى انطباق التوجه النظرى على الواقع الملموس ، وقد أخذنا الهند وشيلي مثلين لهذا العرض .

الهند :

يصفها الكتاب بأنها أكبر الدول الديمقراطية فى العالم ، وبالطبع فهو يشير هنا الى عدد السكان . ولكن ما هو الثمن المدفوع لهذا النوع من التطور السياسى على حساب التطور الاقتصادى والاجتماعى ، فى مجتمع كالهند متعدد التقسيمات اذ ينقسم الى طوائف دينية وطبقية ولغوية ، مغمور بالفقر والامية ، ولماذا اختارت الهند هذا التطور السياسى وفضلته على النمط الغربى الليبرالى ، ولماذا لم تتحول البلاد الى شيوعية كما هى عليه الصين ، أو تحكم بالعسكر كما هى عليه نيجيريا مثلا ؟

الاسباب التى يضعها الكتاب كعامل للتطور السياسى فى الهند هى ان الديمقراطية فى

بالاصلاح على الطريقة الغربية ، في حين استمرت اللعبة البريطانية ضد الوضع الاجتماعى السائد ، تحرض اميرا ضد امير ، ومسلما ضد هندوسى ، وطائفة ضد طائفة .

وال مؤتمر الهندي الذى انشئ في سنة ١٨٨٥ كانت جذوره الاجتماعية من الطبقة الوسطى الادارية والمتعلمة سابقة الذكر ، وطالب هذا المؤتمر بتمثيل اكبر للهنود في الخدمة المدنية والمجلس التشريعي ، ثم بدأ يطالب بعد ذلك بالحريات الليبرالية والتمثيل الشعبى ، وتطور (المؤتمر) بعد ذلك الى ان حصل انشقاق في صفوفه بين (معتدلين) نادوا بالتطورية اى ان يشارك الهنود في الحكم بشكل تطورى ، (ومتطرفين) وهى صفة أطلقها عليهم البريطانيون . هؤلاء اتجهوا الى الجماهير ورفعوا شعار المقاطعة في الاتجاه للوصول الى الحكم الذاتى ، وتجاوب البريطانيون مع هذه الفئة (ايضا بنصف قلب) بعد مذبحه رهيبة في سنة ١٩١٩ تركت ٣٧٩ هنديا قتيلًا وأكثر من ٢٠٠٠ جريح وتزعم المؤتمر في هذه الفترة المهاتما غاندى الذى أعلن بعد المجزرة ان (اى متعاون مع السلطة الاستعمارية هو مجرم) وفي بداية العشرينات بدأت قوة (الكونجرس) حزب المؤتمر تظهر بقوة عن طريق فروعه الممتدة في أنحاء الهند ، وبدأت هذه الفروع تنتخب ممثلها في جو ديمقراطى ، ولان تشكيل المؤتمر قد اعتمد اساسا على مجموعات متفرقة من الشعب الهندي فقد جاء ممثلا للجماهير الهندية باختلاف قطاعاتها . بالطبع كانت هناك اتجاهات سياسية اخرى في الهند أهمها المسلمون الذين تكتلوا عن طريق انشاء (الرابطة الاسلامية) وهذه ايضا نبعت من الطبقة المتوسطة الا ان اهدافها الايديولوجية كانت مختلفة عن (المؤتمر) .

اذن فالطبقة الوسطى الهندية قد طلقت ما بين الحربين والى الابد كل ما يربطها بالامراء والاقطاعية والارستقراطية ، واختلفت التجربة مثلا عن شمال نيجريا حيث تعاونت الطبقة الوسطى مع الزعماء التقليديين ضد الاستعمار ثم قفدت الثانية على السلطة لفترة ، فأصبحت العلاقة بين الطبقة الوسطى والطبقة الارستقراطية علاقة وثيقة .

التطور الاقتصادى في الهند :

الانجاز الاكبر للبريطانيين في الهند كان في الناحية السياسية ولم يكن في الناحية الاقتصادية ، فقد أعدوا المؤسسات وبنوا الهياكل التنظيمية والادارية ودربوا النخبة وسخروا معظم خطواتهم الاقتصادية لاحلال الاستقرار السياسى . وربما يكون الكتاب ، هنا ، قد تجاوز الواقع عندما افترض ان الاقتصاد الهندي لم يكن ذا قيمة وخدمة للبريطانيين فقد كان هو الهدف ، وفي الطريق الى تحقيق ذلك الهدف ربما تم بناء المؤسسات الادارية .

التشرذم الثقافى :

يعتقد كثير من الدارسين ان التشرذم الثقافى هو سمة من سمات المجتمع الهندي ، فهناك تقسيمات طائفية وعرقية واجتماعية واقتصادية ، بل ان في الطائفة الواحدة مجموعة من التقسيمات الداخلية ، فالهندوس مثلا ، يقسمون انفسهم ، في داخل الطائفة ، الى عشرات الاقسام ، فهناك المحاربون والتجار والناس العاديون . . . الخ وادنى مستوى اجتماعى هو لطائفة المنبوذين الذين يعتبر حتى الاختلاط بهم مجلبة للنحس والنجاسة . ولكن الملاحظ ان الدائرة الطائفية ليست مغلقة نهائيا ، فيمكن عن طريق الحصول على قوة سياسية او اقتصادية الصعود في السلم

اللغة - حتى الان - يجيدها فقط قلة من المتعلمين والعاملين بالادارة .

وبالرغم من هذه الصعوبات، فقد استطاعت الدولة فى الهند ، ان تسير فى طريق التغير السياسى بطريقة ديمقراطية ليبرالية عن طريق حكومة مركزية مستقرة ونافذة ، يمكن لها ان تحقق .

١ - تشكيل الهوية القومية .

٢ - السلطة المركزية الخاضعة عن طريق اجراءات مؤسسية ومجلس تمثيلى .

٣ - ايجاد احزاب جماهيرية ممثلة لقطاعات مختلفة من الشعب بدلا من النبلاء المحليين والاستقراطيين .

٤ - الاقتراع العام .

التنظيم الحزبى والبرلمان :

فى الهند ، هناك على المستوى القومى ، برلمان مكون من مستويين الاول هو (مجلس الشعب Rajya Sabha) وهو الاكثر اهمية، ومنتخب على المستوى العام ، ورئيس الوزراء هو زعيم حزب الاغلبية فى هذا المجلس . اما المجلس الثانى فهو (المجلس الاعلى) (Lok Sabha) ، وهو يشبه مجلس اللوردات البريطانى ، واعضاؤه منتخبون من الحكومات المحلية للولايات . وعلى مستوى الولايات يوجد المجلس التشريعى للولاية وهو الاهم كما ان رئيس مجلس وزراء الولاية يختار من الاغلبية فى هذا المجلس والسلطة فى يد الوزارة على المستوى المحلى ، وهى ايضا فى يد الوزراء بشكل فعال على المستوى القومى وفيما عدا فترة قصيرة فى حياة الهند السياسية

الاجتماعى ، وبخاصة بعد ان سيطرت القوة الاستعمارية على الهند لعدة قرون ، واستطاعت بعض الفئات ، عن طريق الفرص الجديدة ، الانتقال من درجة ادنى فى السلم الاجتماعى الى درجة اعلى ، ولكن الصراع الاجتماعى / الطائفى قد اضر كثيرا الصراع الطبقي فى الهند ، فخلال الانتخابات الدورية غير مستغرب ان يستخدم السياسيون الشعارات الطائفية الاجتماعية لجلب الانصار .

الا انه بسبب الانتشار الجغرافى للطوائف المختلفة من الصعب تكوين التنظيمات السياسية على اساس طائفى / حزبى فقط . كما ان فى الشعب الهندى فوق ذلك تابعين لأكثر الديانات المعروفة فى العالم ولكن الاغلبية هم الهندوس (٨٥ ٪) والمسلمون الذين يشكلون اكبر الاقليات الدينية (١٠ ٪) تقريبا . وقد شكل المسلمون فى الهند عشية الاستقلال قضية سياسية هامة ، ففى بداية القرن ، ونتيجة للثقة المفقودة بين الهندوس والمسلمين ، اتجه المسلمون لحماية انفسهم بتشكيل (الرابطة الاسلامية) فى بداية الثلاثينات تحت قيادة محمد على جناح ، ثم أصبحت الرابطة الاسلامية بعد ذلك رابطة جماهيرية نتيجة استغلال الخوف المتفشى بين المسلمين حول مستقبلهم ، وفى المقابل لم تكن هناك مؤسسات (دينية) هندوسية قوية (كما هو الحال بالنسبة للتنظيمات الدينية للمسلمين عن طريق العلماء مثلا او الكنيسة الكاثوليكية فى امريكا الجنوبية) كان يمكن ان تعمل ضد التحديث فى الهند . وقد حدث ذلك فى الدولة المسلمة الهندية (باكستان) لاحقا . وقد ساعد اختلاف اللغات والعنصر بشكل عجيب على ربط الشعب الهندى ، فعندما قدم المستعمر لفته (الانجليزية) تغلبت على اللغات المحلية المتعددة ، ولكن هذه

وفي النهاية يناقش الكتاب سؤالاً مهماً هو : هل يمكن اعتبار الهند مثالا للديمقراطية الغربية في العالم الثالث ؟ . الكتاب يجيب على هذا السؤال بنعم ، حتى لو كانت فقيرة ومتخلفة فهي تعتبر مثالا لبلدان العالم الثالث التي تبنت الديمقراطية الليبرالية كطريق لحل مشكلاتها السياسية والاجتماعية ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا . ما هو الثمن الاقتصادي الذي تدفعه الهند لذلك ؟ .

لا يحاول الكتاب الاجابة على ذلك رغم اشارته للسؤال .

تشيلي : الجذرية وسقوط الديمقراطية

يناقش الكتاب مسيرة شيلي - التي اخترناها للعرض هنا - لأنها تمثل « ظاهرة » لا في العالم الثالث فحسب ، وانما في العالم قاطبة حيث تحولت ، في فترة وجيزة نسبيا ومن طريق الديمقراطية الليبرالية الى دولة تؤمن بالماركسية وتطبقها . فقد صوت في سنة ١٩٧٠ اكثر من ٩٠ ٪ من الناخبين في انتخابات حرة واختاروا « شيوعيا » من الحزب الاشتراكي رئيسا للجمهورية . كما ان شيلي تعتبر نموذجا من وجهة نظر أخرى ، فهي دولة من العالم الثالث تتفشى فيها الاحتكارات الرأسمالية .

وتشيلي ، كغيرها من بلدان العالم الثالث ، « النامية » لها علاقات وطيدة بالامبريالية العالمية - حيث شعرت الاحتكارات الاقتصادية مثل (شركة التلجراف العالمية) مع بعض الوكالات الرسمية الاميركية بخطورة تطور وضع شيلي وحرمان الاحتكارات من اوضاعها المميزة ، فكان ان عملت على خلق مصاعب اقتصادية وسياسية نجحت في اسقاط النظام المنتخب وبشكل دموي وعن طريق العسكر . وبذلك سقطت تجربة كان العالم الثالث يعلق عليها الآمال .

بين ٦٩ - ٧١ ، ثم بعد سقوط انديرا غاندي الاخير ، كان حزب المؤتمر هو صاحب الاغلبية على المستوى القومي في مجلس الشعب . وكما هو في البلاد الديمقراطية فان الكثير من الممثلين الشعبيين لهم حساسية خاصة تجاه مطالب ناخبهم ، لان السياسيين في الغالب ، يحكمون من خلال الخدمات التي يقدمونها لناخبهم .

البيروقراطية :

تتحكم في الادارة العامة في الهند بيروقراطية موحدة على المستوى القومي او المحلي . كذلك هناك (حاكم) لكل ولاية تابع مباشرة « لرئيس الجمهورية » مهمته في اوقات الازمات ان يكون (حاكم) الولاية هو ممثل السلطة المركزية في مواجهة أية اضطرابات محلية .

الجيش والشرطة :

الكثير من الجيش والبوليس في الهند مهمم بتغيير السلطة ، ولكن القليل منهم يحاول ان يعمل شيئا باتجاه ذلك ، ولم تحدث في الهند منذ الاستقلال أية محاولة انقلاب . وتقسم القيادات العسكرية في الهند الى خمسة اقسام اقليمية ، وهذا التقسيم قلل من احتمال وجود قوة عسكرية موحدة في الجيش ضد الحكومة . اما الشرطة فهي كالشرطة في معظم اقطار العالم لا تتمتع باحترام شعبي لذلك فان علاقتهم بالشعب علاقة سلبية ، مما يقلل احتمال الثقة بهم .

الايدولوجية :

(تعتمد القيادة الهندية على ايدولوجية محددة خاصة بها كالايدولوجية الصهيونية في اسرائيل مثلا . وتتبنى الحكومة الهندية شيئا من الاشتراكية الديمقراطية في شكلها الفضفاض وتترك جانبا كبيرا للمشروع الخاص

أهمية التجربة التشيلية :

يعرض الكتاب الى ان أهمية التجربة الشيلية هي الدروس التى يجب أن تستقى منها ، وهى أن وصول الليندى الى السلطة كان نتيجة طبيعية لعدم قدرة الأنظمة التقليدية على الاستجابة للمطالبات « الشرعية » للجماهير ، مما حدا بالشيليين الى المطالبة بالتغيير حتى لو كان الى أقصى اليسار والشيوعية . ثم بدأ الكتاب ، فى هذا الموضوع بمناقشة العوامل الاقتصادية والسياسية التى أدت الى ذلك كله .

يشير الكتاب الى ان عدد سكان تشيلى هو عشرة ملايين نسمة ، قسم كبير من هؤلاء السكان يعيشون فى المدن - التى تكتظ المهاجرين المتعطلين - معتمدين على اقتصاد متخلف وتابع . لقد حظيت شيلي بفترة طويلة من الاستقرار السياسى الليبرالى - فاستقلالها عن الاستعمار الأمريكى فى أوائل القرن التاسع عشر (١٨١٧) لم يكن من خلال صراع مع الاستعمار من قبل قوى محلية لها مصلحة فى التطوير ، وقد خرج الاستعمار تاركا التركيبة القديمة التى اعتمد عليها ، بهم كبار الاقطاعيين والمضاربين الباحثين عن الفضة أو الذهب وأصحاب الاقطاعات الكبيرة تركهم فى سدة الحكم ، وتحول الاستعمار المباشر الى استعمار غير مباشر (اقتصادى) تتحكم فيه قلة ارسقراطية كانت اصلا متعاونة مع الاستعمار ومن خلال حكم ليبرالى مقنن استمر الاستنزاف الاقتصادى ، وقدرت الاستثمارات الأمريكية فى تشيلى فى نهاية الستينات (١٩٦٨) بحوالى بليون دولار .

كما ان اكثر من ثلث ما تستورده تشيلى من الخارج يأتى من الولايات المتحدة الأمريكية

يناقش الكتاب فى موضوع تشيلى هذا السؤال : كيف يمكن لبلد مثل تشيلى له خبرة طويلة فى الديمقراطية الليبرالية - ودخل سكانها فى المتوسط اكثر من دخل ٩٠ ٪ من اقطار العالم الثالث ان تتجه الى الطريق « الجدرى للتغير » فى انتخابات ديمقراطية حرة ؟ وكانت النظرة حتى ذلك الوقت انه لا يمكن لشعب حر ومن خلال الانتخابات الحرة أن يتجه بوعى ارادى الى اعتماد الماركسية اللينينية كطريق للخلاص ، على أساس ان تلك الديمقراطية الليبرالية هي نهاية الطريق وفى حدود لعبها يمكن أن يحدث التطوير السياسى المنشود .

ويجب الكتاب على ذلك السؤال بتحليل للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتطورها فى العقود الاخيرة . فيعرض الكتاب الى انه بعد الحرب العالمية الثانية بدا أن النظام السياسى الشيلى لا يقدر على مواجهة الطلبات الاجتماعية والاقتصادية المستجدة . وفى خلال الستينات كانت قدرة النظام الشيلى على عدم الوفاء بالطلب الاجتماعى المرتفع ظاهرة ملحوظة ، لدرجة ان كل العناصر القيادية فى تشيلى ، بتعدد مشاريها السياسية ، كانت تطالب بالتغيير .

لذلك فان وصول سلفادور الليندى الى سدة الرئاسة فى سنة ١٩٧٠ هو تعبير عن المعاناة السياسية والاقتصادية ، ولكن هل ترك حتى ينفذ برنامج الذى وافق عليه الشعب الشيلى ؟ بالطبع لا . فقد استطاعت القوى المضادة - من طريق الاتفاق مع بعض الاجهزة الأمريكية والعسكرية الاطاحة بحكم الليندى فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ ، فأطيح بالشرعية السياسية فى أهم تجربة فى العالم الثالث .

هي أكثر بلدان العالم الثالث تقدماً ، وتعتمد شيلي تاريخياً على الزراعة ، ومنذ سنة ١٨٠٠ بدأت تعتمد على صناعة التنجيم ، وهي الآن أكبر قطاع في الاقتصاد القومي في البلاد .

وبالرغم من أن العاملين في الزراعة يشكلون ٢٨ ٪ من النشطين اقتصادياً إلا أن هذا القطاع لا يساهم بأكثر من ١٠ ٪ من الناتج القومي ، ومنذ القرن التاسع عشر لم تهتم الحكومات المتعاقبة في شيلي بالزراعة . لذلك ساءت الأحوال في الريف ، وبخاصة في السنوات الأخيرة ، وأصبحت البطالة في هذا القطاع تقذف إلى المدينة بمجموعات كبيرة من العاطلين بصورة شبه مستمرة ، ولم تعد تشيلي تستطيع تغذية أهلها ، لذلك استخدمت أموال تشيلي في شراء الطعام من الخارج بينما أرض تشيلي الخصبة غير مستغلة .

وتركز الأرض في يد القلة جعل منها احتكراً ، ففي أواسط الستينات تبين أن ٧ ٪ من الملاك يملكون أكثر من ٨٠ ٪ من الأرض الخصبة ، وأن ١٠ ٪ من الملاك يملكون أكثر من ٩٠ ٪ من الأرض الصالحة للزراعة ، وهذه الأرض تملك من أجل المضاربة أو تعزيز الواقع الاجتماعي للملاك ، ولكنها بالتأكيد لا تستخدم في الإنتاج . فمعظم ملاك الأرض هم ملاك غائبون لهم مصالح تجارية في المدينة ، لذا فإن تركيز الأرض في يد قلة كانت له نتيجتان رئيسيتان ، فقد كانت أولاً من أسباب نقص المواد الغذائية ، وثانياً في إعطاء قلة من الملاك قوة سياسية جبارة ضد الكثير من الفلاحين .

والنشاط الاقتصادي الثاني في تشيلي هو الصناعة المنجمية ، وكما هي الزراعة ، كان لهذه الصناعة نتيجة لتطور طويل ، سلبيات

وربع البضائع المستوردة يأتي من ثلاث دول غربية هي بريطانيا - ألمانيا - فرنسا . وأكثر من ثلاثة أرباع ما تصدره تشيلي يذهب إلى الولايات المتحدة وغرب أوروبا . كما تعتمد تشيلي في تسليحها على الولايات المتحدة ضمن برنامج ضخ من المعونة العسكرية . وكان الطابع الليبرالي الظاهري في الاقتصاد والسياسة في الحقيقة استنزافاً لمصادر تشيلي بالرغم من أنها تبدو أوروبية الطابع (أفكاراً وممارسات سياسية) ، إلا أنها كانت مستنزفة تتمتع فيها القلة بكل الامتيازات وتحرم الأغلبية منها .

التحديث الاجتماعي والاقتصادي

تضاعف عدد سكان شيلي في الستين سنة الأولى من هذا القرن من ٣ ملايين نسمة إلى ٧ مليون نسمة ، ومن المتوقع أن يتضاعف في نهاية القرن ليصل إلى حوالي ١٧ مليون نسمة . أما المدينة الشيلية فإن التضخم السكاني كان أكثر وضوحاً فيها من الريف ، حيث كان في سنة ١٩٠٠ نحو ١٢ ٪ من السكان يعيشون في ثلاث مدن بكل منها ٥٠٠.٠٠٠ نسمة وأكثر . وقفز في سنة ١٩٤٠ إلى ١٨ ٪ يعيشون في ست مدن بكل منها ٥٠٠.٠٠٠ نسمة أو أكثر من السكان ، وفي سنة ١٩٧٠ كان هناك حوالي ٢٥ مدينة في تشيلي في الواحدة منها أكثر من ٥٠٠.٠٠٠ نسمة ، وسكانها يمثلون حوالي ٥٠ ٪ من مجموع سكان تشيلي .

التطور الاقتصادي

تعد شيلي مع بعض بلدان أمريكا اللاتينية كالارجنتين وفنزويلا والارجواي من الدول المتقدمة في أمريكا اللاتينية - وأمريكا اللاتينية

نجد فى أواسط الستينات أن ١٢ ٪ من العمال فقط كانوا منظمين ، سياسيا أو نقابيا ، فى الوقت الذى ذكر فيه احصاء سنة ١٩٦٠ أن ٨٠ ٪ من النشطين اقتصاديا يمكن تصنيفهم كعمال .

غير أن هذه الصورة قد تغيرت فى العقد الاخير بشكل جذرى ، حيث وجهت جهود تنظيمية كبيرة الى قطاع عمال المدن وعمال الريف من قبل التنظيمات السياسية الوسطى واليسارية .

الاحزاب السياسية :

فى تشيلى كانت الاحزاب السياسية مؤسسة حقيقية ، ويبدو أن الحكومة الحالية تفكر فى تكوين حزب حكومى واحد ، وينظر الكتاب فى تطور الاحزاب خاصة نحو احزاب اليسار منذ الاربعينات وخلال الخمسينات والستينات ثم تطور القيادة فى تلك احزاب ، ويعزو ذلك الى ان تطور الاحزاب الى اليسار والقيادات الجذرية هنا هو نتاج الوضع الاقتصادى وعدم المشاركة السياسية الواسعة .

التغيرات الاخيرة فى تشيلى :

يعزو الكتاب التغيرات الاخيرة الجذرية (وصول حكومة لها توجه جذرى) الى سدة الحكم ، وعن طريق انتخابات ليبرالية حرة ، الى التراكمات الاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى العقدين الاخيرين (الخمسينات والستينات) والى عدم استطاعة النظام السياسى السابق حل هذه التراكمات بسبب طبيعته المغلقة ، كما ان مجموعة من العناصر الأخرى منها القرارات التى اتخذتها قيادات الاحزاب الوطنية التشيلية للنزول الى الريف مما سبب تزايدا فى الاضرابات السياسية

على المجتمع الشيلى اكثر من ايجابياتها فى المجال السياسى والاقتصادى . فمنذ بداية القرن التاسع عشر - بدأ البحث عن معدنى الفضة والنحاس - وكانت المصدر الاول للعمولات الصعبة ، ومنذ الحرب العالمية الثانية مثلت الصناعة المنجمية من ٧٥ - ٨٠ ٪ من الدخل الحكومى وكونت ٢٥ ٪ من الميزانية الحكومية بعد الحرب الثانية .

ولان المناجم وصناعة التنجيم قد طورت وملكت من قبل رأس المال الاجنبى حيث الارباح تذهب الى بلدان رأس المال ، فان هذه الصناعة ساعدت بشكل قليل بقية القطاعات الصناعية . واحيانا فان الاموال قد امتصت من القطاعات الاقتصادية الأخرى الى هذا القطاع مما شكل عدم توازن اساسى فى الاقتصاد الشيلى ، والى وقت قريب ، فان الضرائب المفروضة على هذا القطاع كانت اسمية .

ونظرا لهذا كله فقد كان الاقتصاد الشيلى فى دائرة الركود فى الغالب والانتعاش القليل احيانا .

وبالرغم من عدم وجود ارقام محددة حول توزيع الدخل ، بين كل القوى الاجتماعية (عدا المالكين) ، فى العقدين الاخيرين ، فقد قدر أن ٨٠ ٪ من الشعب يحصلون فقط على ٢٥ ٪ من الدخل القومى فى أواسط الستينات

التركيب الطبقي :

من المتعارف عليه أن هناك ثلاث درجات طبقية : الطبقة العليا ، الطبقة الوسطى (أو الموظفون) ، الطبقة الدنيا ، وقد سيطرت الارستقراطية التشيلية على حياة الدولة فى النشاطات السياسية وهى القلة القليلة ، بينما

والتوقف عن العمل . ولم يكن هناك متنفس للمجموعات الجديدة في خلال الحياة السياسية كما أن وجود الحريات العامة والحريات الصحفية في حملات الانتخابات المتعددة أسرع في تكون الوعي السياسي لدى عامة الشعب . كل هذا جعل من عدم الرضا عن الوضع القائم حقيقة يلمسها الناس يوميا مما دفعهم الى التغيير .

خلاصة :

من الخطوط العريضة التي بداها الكتاب ، كمجمل نظري للمشكلات السياسية التي تواجه العالم الثالث واقتراح حلول لها ، يبدو لنا ان الكتاب الذي بين يدينا بجميع مساهميه تقريبا قد نظروا الى هذه المشكلات من منظور غربي

- أي من خلال التجارب التي مرت بها الامم الغربية - لذا جاءت تحليلاتهم وتوقعاتهم مجملة لهذه النظرية دون اعتبار عميق لدرجة أصبح علماء السياسة والاجتماع في العالم يأخذونها بعين الاعتبار الآن وهي علاقة التبعية الاقتصادية بين العالمين النامي من جهة والمتطور من جهة أخرى، والتي في حد ذاتها اما انها افشلت تجارب سياسية نابعة من خصوصيات بعض بلدان العالم الثالث ، أو ركزت تجارب هشة بتثبيت مصالح العالم المتقدم في دول ومجموعات تصدير الخامات الاولى تحت شعارات متعددة .

ويعنى في النهاية ان هذا الكتاب يستحق القراءة ولو من أجل معرفة كيف يفكر الاكاديميون الغربيون تجاه مشكلات العالم الثالث السياسية .

★ ★ ★

العدد التالى من المجلة

العدد الرابع - المجلد العاشر

يناير - فبراير - مارس سنة ١٩٨٠

قسم خاص عن

((آفاق المعرفة))

بالإضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	إلانة	٣	ليرات
السعودية	٥	إلانة	٢٥٠	دينار
البحرين	٤٠٠	فلس	٢٥٠	دينار
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	٤٠٠	باب
العراق	٣٠٠	فلس	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	٥٠٠	عليم
الأردن	٢٥٠	فلسا	٥	دراهم
سوريا				
المصرية				
السودان				
ليبيا				
مصر				
الجزائر				
تونس				
المغرب				

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

عالم الفكر (١٩٧٠-١٩٨٠) قصة هذه المجلة

النفر القليل من المهتمين بشئون الثقافة والفكر والدين وقع عليهم خلال السنوات العشرة الماضية عبء الأضطلاع بالتخطيط لمجلة عالم لفكر واصدارها ، والذين آمنوا برسالتها فاستهموا - من وحي هذا الايمان - في تحريرها وعملوا ما استطاعوا على ابلاغ تلك الرسالة الى القراء ، وتابعوا السير في الطريق الصعب الذي رسمته المجلة لنفسها منذ البداية وحتى الآن ، يصلحون مثالا طيبا لما يمكن ان يؤدي اليه تضافر الجهود الصادقة والتعاون الوثيق الصادر من وضوح الرؤية ووحدة الهدف والرغبة العميقة في تحقيق ذلك الهدف ، كما يعتبر العمل الذي انجزوه دليلا قاطعا على زيف الدعاوى التي تزعم بان عالما العربي المعاصر لم يعد يصلح مجالاً للثقافة الرفيعة الخالصة التي تتطلب الكثير من المعاناة ، سواء في ابداعها أو توصيلها للآخرين ، او تقبل هؤلاء الاخوة لما اقبلهم علينا بصفة لا تقل صدقا عن تلك التي دفعت الى انتاجها وابداعها .

ولقد كان وراء « عالم الفكر » قصة كفاح اعتقد أن من حق القراء أن يعرفوها بعد أن مضى من عمر المجلة عشر سنوات كاملة كانت حافلة بالتحديات ، مثلما كانت مفعمة بروح الإيمان بضرورة التكاتف للتصدي لتلك التحديات لتدليلها والتغلب عليها . ولقد كانت هذه الروح أيضا هي التي تسيطر على سلوك القائمين على المجلة في تعاملهم بعضهم مع بعض ، بحيث كانت تربط بينهم ، على الرغم من كل المشكلات التي لا بد من أن تنشأ بين أعضاء أى فريق يشتركون معا في عمل واحد ضخم ، له رسالة محددة ، ويخضع للتقويم المستمر منهم هم أنفسهم ومن القراء الذين صدر هذا العمل (المجلة) من أجلهم ، والذين حددتهم المجلة ذاتها سلفا بأنهم « خاصة المثقفين » .

ولقد كانت فكرة إصدار مثل هذه المجلة أملا يداعب في منتصف الستينات خيال اثنين - على الأقل - من المهتمين في الكويت بشئون الفكر والثقافة ويودون تحقيق ذلك الأمل وإخراج الفكرة إلى حيز الوجود والواقع ... كانت الفكرة تدور في ذهن أحمد مشاري العدواني الذي كان حينذاك وكيلًا مساعدًا للشئون الفنية بوزارة الإرشاد والأنباء (الإعلام) قبل أن يصبح فيما بعد أمينًا عامًا للمجلس الوطني لرعاية الآداب والفنون (وهو منصبه الحالي) ، مثلما كانت تغزو فكري بشدة ، وكنت في ذلك الحين استاذًا معارًا من جامعة الإسكندرية إلى جامعة الكويت حيث كنت أعمل مع الرعيل الأول من الأساتذة الذين بدأوا التدريس بتلك الجامعة عام ١٩٦٦ . ولم أكن قد التقيت بالعدواني وإن كنت أعرف عنه أنه شاعر رقيق مرهف الحس إلى جانب تمتعه بثقافة واسعة عريضة . ولكن يبدو أن آراء كل منا نقلت إلى الآخر عن طريق بعض الأصدقاء المشتركين ، وحدث ما لم يمكن ثمة بد من أن يحدث في مثل هذه الأحوال ، فالتقيت مع العدواني وتبادلنا وجهات النظر . واتفقت آراؤنا على إصدار ما أصبح يعرف باسم « عالم الفكر » .

ولقد حملنا - أحمد مشاري العدواني وأنا - الفكرة إلى وزير الإرشاد والأنباء (الإعلام) الشيخ جابر العلي . وكان السؤال الوحيد الذي طرحه علينا هو إذا ما كنا نعتقد حقًا أن مثل هذه المجلة ذات المستوى الرفيع الذي نتصوره لها سوف تجد لها قراء كثيرين في العالم العربي ؟ وهو تساؤل مشروع بغير شك . وجاءه الجواب : أن قراء مثل هذه المجلة لا بد أن يكونوا بطبيعة الحال قلة قليلة جدًا إذا هم قورنوا بقراء مجلة (العربي) مثلاً التي تصدر عن الوزارة ذاتها . ولكن للمجلة رسالة يجب أن تصل إلى الجمهور الذي يحتاج إليها ، وهو جمهور كبير بغير شك ، كما أن إصدارها سوف يساعد على سد جزء كبير من النقص الذي يعيب حياتنا الفكرية والثقافية ويعيد إليها شيئًا من التوازن الذي فقدته بفعل الكتابات الكثيرة الضحلة السطحية الفجة التي كانت تزحف زحفًا حثيثًا على هذه الحياة . وحتى إذا لم تجد المجلة انتشارًا واسعًا في أول الأمر فلا بد لها من أن تعمل على فرض نفسها ، وهو أمر

الشخصية اليهودية

حسن ضاظا *

حدود الشخصية الاسرائيلية . اذ يمكن بسهولة ان نستنتج منه النزعة العنصرية التي تجعل الاسرائيلي يشعر انه من جوهر غير طينة البشر جميعا ، وان هذا الجوهر منفرد بأسرار ومواهب لا توجد في غيره ، وان الاسرائيلي قد خلق كذلك بتدبير سماوى ، لان الدنيا التسي

هناك قول ماثور رددته التلمود اكثر من مرة ، هو :

كما ان العالم لا يمكن ان يعيش بلا هواء ، فانه لا يمكن ان يعيش بدون اسرائيل (١) .

وهذا القول وحده كاف لوضع علامات على

* الاستاذ الدكتور حسن ضاظا استاذ العلوم اللغوية بجامعة الاسكندرية (كلية الآداب) . تخرج من جامعة القاهرة والجامعة العبرية بالقدس ، وحصل على عدد من التبلومات في الدراسات اللغوية والشرقية والتاريخية بجامعة باريس ، كما حصل على دكتوراه الدولة بالآداب من السوربون . له عديد من المؤلفات مثل : « الساميون ولغاتهم » (١٩٧١) « والفكر الديني الاسرائيلي » (١٩٧١) . كما ترجم كتاب « تاريخ الانبياء عند بني اسرائيل » (بيروت ١٩٦٧) فضلا عن عدد كبير من البحوث بالفرنسية والعربية في المجلات المتخصصة .

(١) التلمود البابلي ، عبوده زاره ، ١/ب - تعنيت ٣/ب - مبراش يلقوط على سفر زكريا ١٩٦٩ .

أبدعها الله سبحانه وتعالى ما كان يمكن أن يستقيم أمرها من غير اليهود ! .

فنحن نرى كيف يتحول الاحساس بالقلة والدلة ، الى صورة لا مثيل لها من الغرور وجنون العظمة والصلف والكبرياء ، التي تجعل عودة تلك الفئة من الناس الى اطار المجتمع الانساني السليم أمرا مستهكما ، يحتاج الى اصلاح عميق وعلاج طويل .

واذا كانت القاعدة انه لا دواء قبل معرفة الداء ، فان معرفة الشخصية الاسرائيلية تكاد تكون فرضا على النفوس المحبة للانسانية ، وضريبة على العقول الباحثة عن العدل والاخاء والسلام . وهي اليوم اكثر اهمية منها في أى عصر مضى ، ثم هى فى مجتمعنا العربي أشد الحاحا منها فى أى مجتمع آخر ، على الأقل لان القضية الفلسطينية ما تزال تستنزف فى قلب وطننا قدرا هائلا من العرق والدمع والدم ، ومن الحبر الذى تجرى به اقلام الكتاب والباحثين .

وقولة التلمود التي افتتحنا بها هذا المقال قد تضعنا على طريق هذه المعرفة ، ولكنها لا تكفى للبحث ولا للحكم . فالشخصية الاسرائيلية أشد تعقيدا من ذلك بكثير . تدخل فى تركيبها عناصر شتى ، تجمعت فى ظروف شديدة التنوع والتباين ، عبر مسافات شاسعة بعيدة فى الزمان والمكان ، حتى أصبح من

أصعب الامور ان يصف الباحث الحدود الخارجية لهذه الشخصية ، فضلا عن القسّمات الدقيقة ، والملامح الجزئية ، وصفا ناطقا بحقيقتها ، جامعا مانعا مقنعا . ولكن على الرغم من كل الصعوبات التي تقف فى هذا السبيل ، فان التعرف على الشخصية الاسرائيلية يظل ممكنا طالما استعد له الباحث باكثر قدر من التجرد والموضوعية ، التي لا ينساق فيها وراء خرافات اليهود ، ولا يأخذ فيها بخرافات أعدائهم كذلك .

ولنبدأ هنا بالاتفاق على دلالة بعض الالفاظ التي يكثر دورانها عند الخوض فى هذا الموضوع ، فنسال مثلا : ما هي الشخصية ؟

تقول المعاجم فى تعريف الشخص انه « سواد الانسان وغيره الذى تراه من بعد . وقد يراد به الذات المخصوصة . ولا يطلق فى اللغة الا على ما له جسم . وقد يخصص للانسان فقط ، ذكرا او انثى » . (٢) والشخصية لفظة مولدة مشتقة منه ، تدل فى علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة على العلامات المميزة لانسان او لمجموعة من البشر . وليست هذه العلامات مقصورة على السحنة او القامة او شكل الجمجمة او لون البشرة والشعر والعينين ، او حتى اللغة ، بل لعمل ذلك كله يتعرض للاختلاط والتغيير والتبديل ، حتى يصعب

(٢) لفظة شخص العربية تقابلها فى اللغات الاوروبية الفاظ من الاصل اللاتيني persona ، واصل مطلقا فى اللاتينية القناع الذى كان الممثل يضعه على وجهه للاداء المسرحي ، وكان هذا القناع يعجل اللامع المميزة للشخصية . التي يقوم الممثل باداء دورها . ثم استعملت اللفظة عندهم بمعنى المميزات الشخصية فى المظهر والاخلاق ، واستعملت ايضا بمعنى شخص . ويرى علماء لغة اللغة اللاتينية ان لفظة persona هذه اصلها يوناني مع تحريف شيعي فى النطق ، والاصل اليوناني هو prosopon . ومن هذه الاصول القديمة اشتق الاوروبيون ايضا اللفظة التي تعنى الشخصية ، بالفرنسية مثلا personnalité . ويفسرونها بانها مجموع الصفات الجسمانية والخلقية التي تميز الشخص من غيره . ولما استعملت اللفظة عندهم تدل الشخصية على الوجهة من الناس والوجهاء ، كما هو الشأن فى تطور دلالتها عندنا فى العربية .

Eugène Benoist et Henri Geolzer; Nouveau Dictionnaire Latin-Français; Garnier Frères; Paris, 1936.

Paul Guérin; Dictionnaire des Dictionnaires; Tome V; Paris.

قديمة عندهم أضخم بكثير من الحادثة نفسها وكل ذلك يمثل وقوداً تنضهر فيه النفوس ، وتنسبك به السجايا ، وتنبلور فيه الشخصية ،

واذا كنا قد وصلنا الى تصور ما لمدلول لفظة الشخصية ، فاننا ما نزال بحاجة الى استيضاح معنى « الاسرائيلية » .

ومن الممكن - فرارا من الجدل الطويل - ان نقول ان الاسرائيلية تعنى كل ما يتصل باسرائيل ، او باليهود . ولكن يكون الخطأ جسيما مع هذا الاكتفاء . فاللفظتان غير مترادفتين تماما . وقد تقفز امامنا ونحن نتأملهما مصطلحات اخر لا تقل عنهما تعقيدا ، نحو « العبريين » او « الصهيونيين » او « شعب الله المختار » او « الشعب الابدى » او حتى « اليهودى التائه » .

من هو اسرائيل الذى اليه تنتمي الاسرائيلية ؟

في تواراة اليهود انه سيدنا يعقوب . وهي تروى في ذلك قصة تذكر انه شهدا عند هجرته الى ارض الكنعانيين - فلسطين - وهو قادم اليها بأهله شريدا غريبا هاربا من اصهاره بالعراق ، يخوض جدولا صفيرا في منطقة الاردن اسمه « اليبوق » .

قال الراوى : « فبقى يعقوب وحده ، يصارعه رجل ما حتى مطلع الفجر . فلما رأى أنه لا يقدر عليه ، ضرب حق فخذه ، فانخلع حق الفخذ من يعقوب في صراعة معه . ثم قال : اطلقني فقد طلع الفجر . فقال : لا اطلقك الا اذا باركتني . فقال له : ما اسمك ؟ قال : يعقوب . فقال لن يدعى اسمك يعقوب من بعد بل اسرائيل ، لانك صارعت الله والناس ، وغلبت » - (التكوين ٣٢ : ٢٤ وما بعدها) .

وواضح ان هذه القصة تروى موقفا خارقا للمألوف . وقد طال النقاش بين الباحثين حول مضمونها جملة وتفصيلا . وقد رأينا

الاعتماد عليه في تحديد الشخصية . على حين تدخل عناصر أخرى أثبت وأعمق وأهم عند الباحثين ، كالعادات والتقاليد ، والمأثورات الشعبية ، والتراث الحضارى القديم ، والتماسك حول نواة اجتماعية قد تكون أسطورية ، ولكنها مع ذلك قد ظلت نشيطة وفعالة في سبك الطباع ، وتكوين الشخصية .

فهذه الخطوط الفكرية والاجتماعية المميزة اقدر على صب الشخصية في قالبها المعين ، من كثير من الاعتبارات الاخرى . فالبريطاني والاسباني شخصيتان مختلفتان على الرغم من وحدة الاصل والدين واللغة وتشابه السحنة ، لان كلامهما تطور في ظروف اقليمية واقتصادية تغاير ظروف صاحبه . ومن السهل تعقب هذه الظاهرة في شخصية الايطالي والفرنسي والاسباني ، وهم جميعا اوروبيون مسيحيون كاثوليك من اصل لاتيني . ولكن اختلاف الزمان والمكان ، وانبثاق ثقافة محلية قديمة لكل من هذه الشعوب ، جعلها في النهاية شخصيات مستقلة عن بعضها . وقد ساعد على ذلك طبيعة اختلاط كل منهم بعناصر بشرية مختلفة . فالفرنسيون خالطوا النورمانديين والقوط والكلت ، والاسبان امتزجوا بالوندال والقوط والعرب ، كما امتزج الايطاليون باليونان والأتوريين وغيرهم . وهي هجنة تركت مميزات واضحة في شخصية كل من هذه الشعوب .

وعلى ذلك فان البحث الجاد عن « الشخصية » ينبغي ان يطل على مجموعة كبيرة من الظواهر التي لعبت دورا - قل أو كثر - في حياة فئة من الناس ، وفي ظروفها ومقدراتها . على أن هناك درجات في الاهمية يجب ألا تغرب عن البال عند اختيار الظروف والعناصر والظواهر التي تخلق الشخصية . فقد تكون الاسطورة التي تؤمن بها فئة من الناس أعمق اثر من الوثيقة التاريخية . وقد تكون البدعة التي اختلطت بالدين أقوى عندهم من الدين نفسه ، وقد تكون ذكرى حادثة

مثلا أن الذي صار يعقوب مذكور في النص أنه « رجل » لا أكثر . ولكن سعديا الفيومي ، علامة اليهود في بغداد في أيام العباسيين ، يضع مكانها في ترجمته العربية للتوراة لفظة « ملاك » ثم يحاول في آخر القصة الابتعاد عن الثبات حدوث مصارعة بين الله ويعقوب ، فيتصرف في النص ويقول « لانك تراست عند الله وعند الناس ، وطقت ذلك » ٣ .

واهتم علامة الفولكلور البريطاني فريزر بهذه المصارعة العجيبة ، في فصل كامل من كتابه « الفولكلور في العهد القديم » ، أشار فيه إلى أن المشهد قد حدث ليلا بجانب مجرى ماء ، طبقا لاعتقاد أسطوري بدائي في وجود مخلوقات غامضة من قبيل الأرواح والعماريات تسكن مجاري المياه ، وتظهر للناس في الظلام .

وقد قدر ليعقوب أن يكون شيخ عشيرة تنتمي إليه ، هم بنو إسرائيل . فراحوا يتناقلون هذه المفخرة الماثورة عن سلفهم القديم المبارك ، الذي فعل المعجائب في تلك الليلة الرهيبة ، وأثبت أنه من الأقوياء الجبابرة ، القادرين على المصارعة وعلى التغلب على الانداد ، لا من البشر فحسب ، بل عندما يصارع الله أيضا ! وعبادة القوة البدنية من شيم المجتمعات الفطرية البدائية ، وقد تكرر ذلك كثيرا في آداب اليهود ، ويكفى أن نشير إلى ما يروونه حول رجل آخر من أبطالهم الأسطوريين هو شمشون ، الذي كتب لمغامراته أن تشيع وتذيع في جميع الاقطار والأمصار . لكن الغريب في أمر يعقوب أنه في صباه لم يكن يبشر بهذه القوة ، التي تجعله أشد المصارعين بأسا في التاريخ كله . فالتوراه نفسها تقارن

بينه وبين أخيه التوأم « عيسو » ، فتصف هذا الأخير بأنه كان صيادا ورجل بادية ، وأنه كان خشنا غزير الشعر غليظ الصوت ، وأن يعقوب كان بعكس ذلك تماما . ثم أننا في قراءة التوراه نلتقي بـيعقوب خائفا من أخيه يهرب من وجهه ، ويترك له البلاد ومن عليها ، ثم نجده مرة أخرى خائفا من أصهاره هاربا من حميه ، ثم نجده في آخر عمره مستكينا حزينا يبكي بكاء الشكلى حتى أبيضت عيناه ، عندما اختفى ابنه يوسف . وفي هذه المواقف كلها ينفرد يعقوب بموقف بطولى واحد يصارع فيه ويتغلب على نده ، رجل الليل الغامض ، أو الملاك ، بل الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

ومهما يكن من شيء فإن هذه المفخرة الماثورة عند الأحفاد تجعله في نهاية تلك المصارعة ، عند مطلع الفجر ، يستحق لقب « إسرائيل » أي « قوة الله » ، من لفظتين ساميتين قديمتين هما « أسر » بمعنى القوة والغلبة ، مثل الأزر تماما ، ولفظة « ال » أي الإله ، الله .

وقد قدمنا أن القصة الماثورة قد تكون أقوى أثرا في الشخصية من الوثيقة التاريخية المكتوبة . وليست عندنا وثائق تقول أن إسرائيل هو يعقوب . ولكن وردت في النقوش كلمات قريبة من لفظة « إسرائيل » تشير إلى فئة من البشر أو عشيرة من الناس . فقد ذكر البريطاني فلندرز يترى أن اللغة المصرية القديمة تستعمل كلمة « أسيرآرا » اسما لمجموعة من الناس ، كما يشير الألماني شرادر وغيره من علماء المسمارية إلى أن لفظة

(٣) الجزء الأول من التفسير والكتب والرسائل ، لريينو سعديا جاون بن يوسف الفيومي ، أخرجها وصححها صحنبة جماعة من علماء : الفقير المتقرب إلى رحمة ربه يوسف ديرينبورج ، تفسير التوراة بالعربية ، باريس ١٨٩٢ . صحيفة ٥١ .

(٤) جيمس فريزر ، الفولكلور في العهد القديم ، (مجلدان) . ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم ، مراجعة الدكتور حسن طاعا - نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الجزء الأول ١٩٧٢ والثاني ١٩٧٤ ، ج ١ ص ٣٦٤ وما بعدها .

الجسم والسكن والثياب . حتى أصبح امرا عاديا أن يسمع الانسان في بقاع متفرقة من الارض عبارات مثل « اليهودى التائه » ، « اليهودى الجشع » ، « اليهودى القدر » ؛ وهو أمر دعا كثيرا من اثرياء اليهود الى تجنب هذه التسمية ، وتفضيل اسم اسرائيلي عليها .

ومع ذلك فان تيودور هرتسل زعيم الصهيونية الحديثة ، ورئيس المؤتمر الصهيوني العالمى الاول المنعقد في مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧ ، لم يتردد في تسمية كتابه المتضمن لدعوته هذه « دولة اليهود » . ولكن هذه الدعوة آثرت عند الكتابة عن فلسطين ان تسميها « أرض اسرائيل » لا « أرض اليهود » ، وكأنهم حرصوا على تأكيد انتماء هذه الارض الى من يزعمون أنهم اسلافهم الاول ، وهم أبناء يعقوب ، أو بنو اسرائيل .

كذلك عندما اعلنت الصهيونية عن قيام دولتها في فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ أطلقت عليها كما نعلم اسم « اسرائيل » ، مفضلة ذلك على الاسم الذى كان هرتسل قد اختاره وهو « دولة اليهود » . والأسباب التى دعته الى ذلك يبدو أنها كثيرة أهمها :

— ايجاد تناسق بين اسم الدولة والاسم العبرى لفلسطين ، وهو أرض اسرائيل .

— ايثار الصفة العنصرية الكامنة في اسم اسرائيل على الصفة الدينية في لفظة اليهود .

عدم الرغبة في التذكير بالحدود القديمة لمملكة اليهود البائدة ، التى لم تكن تشمل الا القسم الجنوبي من فلسطين بدون ساحل البحر ، مما يمثل قيذا تاريخيا للمطامع

« سريلاي » مستعملة في البابلية الاشورية بمعنى « اسرائيل » و « اسرايلى » (٥) .

وهكذا نجد هذه الطائفة من الناس قد تعلق بقصة هذا الجد القديم ، ودرجت على ان تسمى نفسها « بيت اسرائيل » أو « آل اسرائيل » أو « بنى اسرائيل » وكثيرا ما يختصرون التعبير فيقولون « اسرائيل » فقط كما رأينا في مآثور التلمود ، وكما ورد في الوثائق الفرعونية والبابلية الاشورية .

وظهرت الى جانب هذه التسمية منذ القدم تسميتان اخريان هما « عبرى » من جهة ، و « يهودى » من جهة اخرى ، وسنعود اليهما بالشرح عما قليل . ويكفى الآن ان نشير الى ان التسمية « يهودى » قد شاعت وذاعت في أيام اليونان والرومان ، أى من القرن الرابع قبل الميلاد ، واستمرت حتى الآن . اذ كان سبط يهوذا ، وهو احد أبناء يعقوب ، قد استقر في جنوب فلسطين ، وظهر منه سليمان وداود ، ثم قام من بعدهما حكم ملكى في بنى اسرائيل كله من يهوذا ، يسيطر على العبريين في هذا الاقليم ، حتى سمي الاقليم نفسه يهوذا في السجلات اليونانية والرومانية ، كما سمي أهله اليهود . ولاحقتهم هذه التسمية بعد جلائهم عن الارض وتشتتهم في البلاد .

وفي الشتات اتخذ اسم اليهود معنى بغضا بين الامم . فهم أبناء هذه الطائفة المتمردة ، المنطوية على نفسها ، الشديدة التعصب ، المتهمة بصلب المسيح ، الى جانب صفات سيئة اخرى اكتسبوها من الظروف الشاذة التى عاشوا فيها بين الامم الاخرى على شكل اقلية محتقرة ، من أبرزها الجشع وحب المال والقسوة وعدم التدقيق في نظافة

التوسعية الاستعمارية للصهاينة ، الذين يريدون أن يضعوا تحت قبضتهم أوسع رقعة ممكنة من الوطن العربي .

ومن هنا اكتسبت لفظة « اسرائيلي » في المصطلح السياسي المعاصر دلالة مختلفة تماما عن الاسرائيلي قبل الصهيونية ، والاسرائيلي في بداوة العبريين الاولى . وهي ظاهرة ما تزال تمثل مشكلة معقدة جدا أمام المشرعين في دولة الصهاينة . اذ يسألون :

من هو الاسرائيلي ؟

ويبدو أن الظروف الدولية قد اضطرتهم الى القول بأن الاسرائيلي هو أى شخص توافقت الدولة الصهيونية على أن يكون من أبنائها ، يهوديا كان أم غير يهودي . وهو تعريف زاد المشكلة تعقيدا . فالعرب الذين بقوا في وطنهم فلسطين بعد اعلان دولة اسرائيل هناك ، كان لا بد أن توافقت هذه الدولة على أن يكونوا من أبنائها . وكان لا بد في نفس الوقت أن تضغط عليهم حتى يفادروها ، وأن تتلمس شتى العلل والأسباب لأرهابهم وطردهم وتشريدهم ، وأن تتعامل مع كثير ممن تشبث بأرضه منهم وكأنه عدو لا مواطن . وهناك يهود في جميع أنحاء العالم يمثلون الاغلبية العظمى من بنى اسرائيل ، لم ينزحوا الى اسرائيل ، وهم يتمتعون بحقوق المواطن في بلادهم التي يعيشون فيها ، بينما تحرص اسرائيل على ادخالهم في حظيرتها .

ولواجهة هذا الوضع المعقد أصدرت الدولة الصهيونية قانونين لتنظيم صفة المواطن بما يتفق مع أهدافها :

١ - **قانون العودة** ، الصادر في ٥ يولييه سنة ١٩٥٠ . وهو يعطى لكل يهودي في العالم حق الهجرة الى اسرائيل بلا قيد أو شرط . بل انه ينص في المذكرات التفسيرية الصادرة معه على أن هذه الهجرة ليست حقا وانما هي واجب على اليهود . ويتطابق هذا القانون ما

ورد في اعلان قيام الدولة بتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٨ ، الذي تسمية اسرائيل « وثيقة اعلان الاستقلال » ، اذ ينص على أن « الدولة الاسرائيلية ستفتح أبوابها لهجرة اليهود المنتشرين في كافة أنحاء العالم » .

٢ - **قانون الجنسية الاسرائيلية** ، الذي اقره مجلس النواب الاسرائيلي (الكنيست) في ١٤ ابريل سنة ١٩٥٢ ، وأصبح نافذا منذ ١٤ يولييه من نفس تلك السنة . وقد اعتبر جميع يهود فلسطين مواطنين دون أية قيود . أما الفلسطينيون العرب من سكان البلاد ، البالغ عددهم حسب الاحصاء الاسرائيلي (وهو مزيف بلا شك) ١٧٠ ألف عربي ، فقد كان على كل واحد منهم أن يثبت بالوثائق أنه كان فلسطيني الجنسية قبل ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ ، تمهيدا للنظر في منحه الجنسية الاسرائيلية . كما أن الصهيونية اشترطت شروطا أخرى لجعل أولئك العرب رعايا للدولة لم تشترطها في اليهود ؛ في مقدمها معرفة اللغة العبرية ، وتقديم ما يثبت أن هذا العربي الفلسطيني لا يحمل أية جنسية أخرى . وهي عراقيل لم تسمح بحق المواطنة الا لعدد محدود جدا من العرب ، بينما بقيت جماهير كثيرة جدا منهم محرومة من الحقوق الاساسية للمواطن ، بل للانسان . وبعد سنين طالت فيها المساومات بين أولئك العرب والمغتصب الصهيونى أصبحوا يعتبرون في عداد « السكان » المقيمين في بلاد اليهود ، أى مواطنين في أدنى درجات المواطنة . وفيما يتصل بمنح الجنسية الاسرائيلية لليهود نجد هذا القانون يكتفى بأن يكون عمر طالب هذه الجنسية ثمانية عشر عاما ، وأن يقيم في اسرائيل ثلاث سنين يكون قد حصل في أثنائها على حق الإقامة الدائمة . وجعل « الجنسية المزدوجة » مباحة لهم .

ونتيجة للعدوان الاسرائيلي المتكرر على الاراضى العربية المجاورة ، وضم أقاليم واسعة منها الى السلطة العسكرية الصهيونية ، ازداد عدد العرب الواقعين في تلك الاراضى .

ومثل هذا الاشتقاق الشعبى شائع في تراث الأمم القديمة ، وان كان اليهود هنا قد حاولوا أن يتناسوا أن العرب أيضا هم من أبناء عابر هذا . فالتوراة تذكر من أبنائه « يقطان » (التكوين ١٠ : ٢٥) ، وهو المعروف عندنا باسم « قحطان » ، الذى تنتمي اليه جميع قبائل العرب الجنوبية في اليمن وحضرموت ، وغيرهم . كما أن العرب الشماليين أو « العدنانية » ينتمون الى ابراهيم سليل عابر هذا ، شأنهم في ذلك شأن بنى اسرائيل . ولكن الفكر الشعبى في تعلقة بالمأثورات لا يتحرى هذا التدقيق ، ولذلك نجد اليهود في انتسابهم لعابر يصرون على أنهم وحدهم العبريون ، لا شريك لهم في ذلك . وهكذا يقول « يهودا جور » في معجمه العبرى الحديث : « عبرى ، أى أحد أبناء عابر من أحفاد سام ، وعلى الخصوص أحد بنى اسرائيل ، أى المنتمين الى عنصر العبريين » . وهكذا تنبثق العنصرية من الأسطورة مرة أخرى .

وفي بعض مراحل التاريخ اليهودى كانت كلمة عبرى تستعمل مرادفة تماما لكلمة يهودى . جاء في سفر ارميا ٣٤ : ٩ ، « حتى يطلق كل امرئ عبده وأمته ، العبرى والعبرية حرين ، فلا يستعبد أحد انسانا يهوديا من اخوته » . وقبل ذلك في أيام النبی صمويل يبدو أن الفلسطينيين كانوا يستعملون الاسم « عبرى » مرادفا للاسم اسرائيلى ، اذ يقول أحدهم في التحريض على قتال بنى اسرائيل : « تشجعوا يا أهل فلسطين ، وكونوا رجالا ، حتى لا تستعبدوا للعبريين كما استعبدواهم لكم ، فكونوا رجالا وقاتلوا » ، (١ صمويل ١٣ : ١٩) .

وبعد العودة اليهودية من السبى البابلى في القرن الخامس قبل الميلاد ، أصبح استعمال اسم « العبريين » مخصصا بالرعييل الاول من أمة اليهود ، أى من أيام يعقوب ويوسف وموسى الى ما قبل السبى البابلى ؛ بينما

ومن ثم كثر وصفهم - حتى في الأوراق الرسمية - بكلمة « فلسطينى » لا « اسرائيلى » . ويبدو أن ذلك تمهيد من اسرائيل للسماح بقيام فلسطين عربية يلقون اليها بكل من عندهم من العرب ، بعد التأكد المطلق من أن هذه الدولة الفلسطينية لن تمثل خطرا عسكريا أو سياسيا عليهم ، ولن تعرقل شيئا من مشاريعهم المستقبلية .

والخلاصة أن « الاسرائيلى » في مفهوم هذه الدولة هو أولا وأخيرا : اليهودى المقيم في اسرائيل ، واليهودى المقيم في خارج اسرائيل أيضا ، بشرط أن يكون صهيونيا متمسكا بالولاء لاسرائيل . وفيما عدا ذلك لا شيء ، الا ألفاظا للتعمية على أبشع صورة من صور العنصرية التى ظهرت في العصر الحديث .

ومع ذلك فان الدولة الصهيونية ، عند تطبيق هذين القانونين ، تواجه مشاكل لا حصر لها ، ما تزال تثير مناقشات حادة بين الأحزاب الصهيونية حتى الآن . وفي مقدمة ذلك مشكلة الزواج المختلط ، ومستقبل الأطفال الذين يولدون من مثل هذا الزواج ، فضلا عن مشاكل الداخلين في الدين اليهودى . من غير بنى اسرائيل ، والخارجين عن هذا الدين منهم ، واتباع بعض الطوائف اليهودية المنشقة كالسامرة والقرائين مثلا .

● ● ●

واذا كان هذا هو ما جرى من تطورات على لفظة اسرائيلى ومدلولها ، فما هو مدلول لفظة « عبرى » ؟

ترتبط هذه اللفظة في الفكر الاسرائيلى بمعنى عنصرى أيضا . فالروايات المقدسة ترفعها الى اسم واحد من الاجداد القدامى للساميين ، هو عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام ، أكثر أبناء نوح خيرا وبركة ، (التكوين ١١) .

بعض المحققين الصلة بين اللفظتين ، ومنهم المستشرق الفرنسي الراحل ادوار دورم .

اما الراى السائد فهو ان كلمة عبرى مشتقة من « العبور » ، اى الاجتياز من جهة الى اخرى . ومن هذا الاصل جاءت كلمة العبر ، بكسر العين ، اى الضفة الاخرى . نقول « عبر النهر » ، وكذلك « عبر الوادى » ، وهو استعمال شائع فى كل لغات الساميين : بالعبرية « عبر هانهر » ، والاكاوية « ابر نارى » بلفظهم الذى لا يثبت حروف الحلق ، وكذلك « ابرى نارى » ، والآرامية « عبر نهرا » ، وجاء مثل ذلك فى النقوش العربية الجنوبية القديمة أيضا .

وكان الساميون قديما اذا قالوا « عبر النهر » دون أن يذكروا اسم هذا النهر ، يقصدون به الفرات دون غيره . وقد عبر يعقوب الفرات هاربا من اصهاره فى العراق ، اذ تقول التوراة : « فهرب هو وكل ما كان له ، وقام وعبر النهر ، وجعل سمته نحو جبل جلعاد » ، (التكوين ٣١ : ٢١) . وفى هذه القصة يقوم « لابان » صهر يعقوب بمطارته حتى يدركه فى بادية الشام ، فيتفقان على الانفصال : « وقال لابان ليعقوب ان هذا الحجر ، وهذا النصب ، اللذين وضعتهما بينى وبينك ، يشهدان اننى لا اعبر هذا الحجر اليك ، وانت لا تعبر هذا الحجر وهذا النصب نحوى للعدوان » ، (التكوين ٣١ : ٥١ ، ٥٢) ولهذا السبب يميل الباحثون الى اعتبار رحلة يعقوب وعبره الفرات أساسا لاسم العبريين . فهم ينتسبون الى عبر النهر ، كما ينتسبون الى من قام بهذا العبور ، وهو يعقوب ، الذى سمى اسرائيل كما اسلفنا (٦) .

ويبدو لنا ان عبور يعقوب هذا لم يكن الوحيد من نوعه فى التاريخ الاسرائيلى . فمما

جرت العادة باستعمال تسمية « اليهود » أو « اسرائيل » للأجيال التى جاءت بعد السبى . وكانت اللغة العبرية قد أوشكت أن تموت فى ذلك الوقت ، وكانوا يسمونها « لسان عابر » .

وفى العصر الحديث نجد كلمة عبرى ترتبط على السنة اليهود بالمقدسات التراثية القديمة . فبينما يسمى اتباع الشريعة الموسوية « اليهود » ، وتنظيمهم العنصرى الاستعماري « الصهيونية » ، ودولتهم « اسرائيل » ، نجدهم يحرصون على عبارة « اللغة العبرية » ، « الثقافة العبرية » ، « الأدب العبرى » ، « الجامعة العبرية » ، « الصحافة العبرية » .

واذا كنا قد اشرنا الى ان ارتباط لفظة « عبرى » باسم عابر أحد أحفاد سام ليس الا اشتقاقا شعبيا ، فما هي آراء العلماء فى مصدر هذه التسمية ؟

حاول بعض الباحثين المحدثين ربطها بلفظة وردت فى لوحات تل العمارنة بصعيد مصر ، وفى نقوش من دولة الكشيين التى أعقبت الأسرة البابلية الاولى فى العراق ، وفى كتابات حيثية من بوغاز كوى بتركيا ، وفى وثائق آشورية من حفائر نوزى القريبة من كركوك فى شمال العراق . هذه اللفظة هي « خيرو » أو « خيرو » القريبة من « عبرى » .

وأكثر العلماء يتحفظون فى تقرير أن العبرى والخيرو من أصل واحد . اذ يشيرون الى أن « عبرى » صفة تدل على النسب أو الانتماء ، بوجود ياء النسبة فى آخرها ، بينما الخيرو لا تعنى غير المزاولة والمرافقة ، فهى قد تدل على مجموعة من الناس تقوم بعمل واحد ، أو تقيم فى اقليم واحد ، دون أن تنتسب بالضرورة الى أصل واحد . ولذلك يرفض

بالافتخار به والانتماء اليه من الانتماء الى عبور رجل خائف هارب من اصهاره . وقد يتساءل بعض المدققين ، كيف يسوغ ذلك بينما بنو اسرائيل كانوا يسمون العبريين قبل عبور موسى ؛ كما جاء في سفر الخروج عند الحديث عن نشأة موسى في مصر قبل خروجه مع قومه : « واذا برجل مصرى يضرب رجلا عبريا » ، (الخروج ٢ : ١١) ، بل في طفولة موسى نجد بنت فرعون تقول عنه : « هذا من اولاد العبريين » ، (الخروج ٢ : ٦) ، بل قبل مولد موسى تتحدث التوراة عن « المولدات العبريات » ، (الخروج ١ : ١٥) . ولكننا نعلم أن أقدم مدارس رواية التوراة إنما كانت بعد موسى بقرون طويلة - حوالى سبعة قرون - وفي هذا الوقت كانت لفظة عبري قد اتخذت دلالة مقدسة تحول كل شيء الى عصبية عرقية عنصرية متصلة بالانساب ومرتبطة بالاسلاف ، مهما كان هذا الارتباط خرافيا لا يقوم عليه دليل . فليس عجيبا أن نجد اللغويين اليهود المعاصرين يفسرون هذه الكلمة نفسيرا عنصريا ايضا ، فيقول ابراهام ابن شوشان مثلا في شرح هذه اللفظة في معجمه العبري الحديث : « عبري ، أى اسرائيلي ، يهودى ، من نسل ابراهيم واسحق ويعقوب » .

اما الاسم « يهودى » فقد المحنا الى أنه نسبة الى سبط يهوذا ، بالدال او اللال ؛ وهو تلك العشيرة من أبناء يعقوب - اسرائيل - التى نبغ منها داود وسليمان ، أعظم حكام بنى اسرائيل على الاطلاق . فانتسب الشعب كله الى عشيرتهما وحملوا اسم « اليهود » .

ومعلوم أن يعقوب كان له اثنا عشر ابنا : يوسف والاحد عشر كوكبا ، أنجبهم من أربع

لا شك فيه أن الراوية المقدس وهو يتحدث عن سيدنا ابراهيم ، جد يعقوب ، وعن خروجه من العراق أيضا ، من أور الكلدانيين ، نحو أرض كنعان ، قد تصور أنه عبر النهر هو كذلك نحو بادية الشام . والواقع أن العبور من العراق الى الشام ومن الشام الى العراق لم يكن أمرا غريبا على أولئك الساميين ، بل كان طريقا طبيعيا لقوافلهم وهجراتهم ، كما تشهد به النقوش السامرية والكنعانية المختلفة ، بل كما تشهد به أسماء مواضع كثيرة واقعة على هذا الطريق (٧) .

وهناك عبور آخر لعله أعجب من عبور الفرات ، هو عبور موسى بينى اسرائيل من وجه فرعون ، واجتيازهم البحر ، واندحار فرعون وجنوده ، وغرقهم في هذا البحر . فهذا العبور المعجز ، الفذ ، المقترن بكثير من البطولات ، بقيادة مؤسس الشريعة اليهودية نفسه ، موسى عليه السلام ، يبدو لنا أولى بانتماء اليهود اليه ، وهم من نعلم من الحرص على تسجيل مثل تلك المفاخر . ورواية التوراة تجعل موسى نفسه أول من تغنى بهذا العبور ، وما اقتن به من انتصار على فرعون : « حينئذ أشهد موسى وبنو اسرائيل هذه القصيدة للرب ، قائلين : أغنى للرب الذى تمجد بالجلال ، فرمى الفرس وراكبه في البحر . . . سمعت الأمم فارتعدت ، واستولى الرعب على أهل فلسطين . وقتها خاف قادة أدوم ، وجبابرة مؤاب أخذتهم الرجفة ، وارتعش كل سكان كنعان ، نزل عليهم الدعر والهلع ، فأصبحوا بقوة ذراعك بكما كالحجارة ، حتى يعبر شعبك يا رب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته . » ، (الخروج ١٥) .

فمثل هذا الموقف فى عقليات الأقدمين أولى

(٧) « ويبدو من نزول شيوخ العبريين الاول ، وعلى رأسهم ابراهيم واسحق ويعقوب ، الى فلسطين لم يكن له اثر سياسي يذكر ، فقد ظلوا كما كانوا بدوا رحلا يعيشون على هامش المدن والبلدان الفلسطينية التى كان يسكنها أهل البلاد الاصليين ، من فلسطين (تسميهم التوراة فلستيم) وكنعانيين واموريين وحثيين وجويين وادوميين . . الخ » . المرجع السابق ، صحيفة ٧٤ .

نساء ، زوجتين شرعيتين هما ليا وراحيل ابنتا لابان ، وجاريتين هما زلفة التي كانت تخدم ليا ، وأخرى تخدم راحيل هي « بلهة » .

وكان أبناء ليا ستة : راويين وشمعون ولاوى (ليفى) ويهوذا ويساكر وزبولون . وأنجبت راحيل اثنين هما يوسف وبنيامين ، كما أنجبت زلفة جاد وآشر ، وبلهة ولدت دان ونفتالى . وعلى ذلك يكون يهوذا الذى ينتمى اليه اليهود هو الابن الرابع من أبناء يعقوب وأمه الزوجة الاولى ، ليا .

واسم يهوذا مشتق لغويا من أصل سامى قديم وهو مادة (ودى) التى تفيد الاعتراف والاقرار والجزاء - ومن هذا المعنى كلمة الدية عند العرب - وفى العبرية اكتسبت هذه المادة معنى الاقرار والاعتراف بالجميل وأخيرا تقديم الشكر . ومن هذا المعنى الأخير استوحت ليا اسم ابنها الرابع « فقالت : هذه المرة (أشكر) الرب ، ولذلك سمته (يهوذا) ، ثم توقفت عن الولادة » ، (التكوين ٢٩ : ٣٥) . وكان هذا التوقف لفترة ما ولدت بعدها يساكر وزبولون ، كما ولدت بنتا اسمها « دينا » ، لا تدخل فى عداد المواليد فى عقلية أولئك البدو الذين كانوا لا يعدون البنات .

ويظل معنى الشكر فى اسم يهوذا يشد انتباه الراوية المقدس ، فيقول على لسان يعقوب وهو يبارك أبناءه قبل موته : « يا يهوذا ، سيسكرك اخوتك . يدك على نواصى أعدائك ، وسيسجد لك أبناء أبيك . يهوذا شبل أسد » ، (التكوين ٤٩ : ٨ ، ٩) . وتستمر بركة يعقوب ليهوذا فى هذا النص بشكل غامض حار فيه المفسرون حتى انتهوا الى أنه بشارة بمجىء المسيح المخلص المنتظر من أحفاد هذا الابن . ومع ذلك فالمأثورات الخاصة بحياته تصويره رجلا بعيدا عن الاستقامة والقداسة والطهارة ، حتى ان أرملة ابنه تحمل منه سفاحا ، وتلد توأمين هما فارص وزارج ، يعترف بهما بعد ذلك ، ومن الأول منهما ينحدر

داود وسليمان (التكوين ٣٨) . والعهد فى ذلك كله على الرواة الدينيين اليهود ، طبعا .

واستقرت ذرية يهوذا فى منطقة النقب الصحراوية الفقيرة فى جنوب فلسطين ، وظهرت أسماء جغرافية تنسب اليهم مثل : جبل يهوذا (القضاة ١ : ٣) ، أرض يهوذا ، أو بلاد يهوذا (عاموس ٧ : ١٢) ، رقعة يهوذا ، أو اقليم يهوذا (اشعيا ١٩ : ١٧) ، بلدة يهوذا ، أى اورشليم القدس (٢ أخبار الايام ٢٥ : ٢٨) ، مدن يهوذا (ارميا ٤ : ١٨) . وسمى اليهود جميعا آل يهوذا ، أو بيت يهوذا (اشعيا ٢٢ : ٢١) ، ورجال يهوذا (١ ملوك ١ : ٩) . وظهر فى لغة الشعر اسم بنت يهوذا ، علما على مملكة اليهود كلها ، وعلى عاصمتها اورشليم (المراثى ٢ : ٢) .

وكثر استعمال لفظة اليهود بمعنى رعايا مملكة يهوذا فى جنوب فلسطين ، كقوله : « فى ذلك الزمان استرد رصين ملك آرام ايلات للأدوميين ، وطرده اليهود من ايلات » ، (٢ ملوك ١٦ : ٦) . ومع الزمن أصبحت لفظة يهودى تعنى أحد بنى اسرائيل عموما ، كقوله : « وعادت استير فتكلمت بين يدي الملك ، وسجدت عند قدميه ، وبكت ، وتضرعت اليه فى ازالة شر هامان الاجاجى ، وكيده الذى دبره ضد اليهود » ، (استير ٨ : ٤) . وجاء بخصوص عيد پوريم (الكرنفال) : « سن اليهود وأوجبوا على أنفسهم وعلى ذريتهم وعلى كل من يتصل بهم الا يبطل تعييدهم لهذين اليومين » ، (استير ٩ : ٢٧) .

ويتضح من نصوص كثيرة أن العبريين على أيام السبى البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد ، وبعد عودتهم من السبى تحت حماية قورش امبراطور الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كانوا يسمون « اليهود » ، كما كانت اللغة العبرية تسمى اليهودية . ورد فى العهد القديم فى قصة حصار الاشوريين لمدينة اورشليم ، وحوار الوفد الاسرائيلى مع قائد الجيش الاشورى قول اعضاء هذا الوفد :

كان بنو اسرائيل دائما متمردين ، وكانوا يعيشون باستمرار في تناقض بين احوالهم ودعوة انبيائهم ، حتى ان النبي الذي يتجاوز الحد في زجرهم ، او في محاولة تغيير ما هم فيه من فساد ، كان يتعرض للسب والضرب والقتل . بهذا العنف عاملوا نبيهم ارميا ، في الوقت الذي كان يختنصر يحاصرهم ، وبعد العدة لقتلهم وسلبهم واسرهم . ودسوا عليه من بينهم انبياء ماجورين فضحهم ارميا بقوله مثلاً : « لذلك هكذا قال الرب عن الانبياء الذين يتنبأون باسمي وانا لم ارسلهم ، وهم يقولون : لن يكون سيف ولا جوع في هذه الارض ، بالسيف والجوع يهلك اولئك الانبياء . والشعب الذي يتنبأون له يكون مطروحا في شوارع اورشليم بسبب الجوع والسيف ، وليس من يدفنهم هم ، ونساؤهم وابناؤهم وبناتهم ، اذ اصب عليهم رذائلهم » ، (ارميا ١٤ : ١٥ ، ١٦) . وهم الذين ساقوا نبيهم يحيى (يوحنا المعمدان) الى القتل قبيل ظهور المسيح ، وهم الذين تأمروا على المسيح وطالبوا بصلبه . وكلما وقعوا في شر اعمالهم عادوا فتنهبوا الى التناقض بين سلوكهم ووصايا انبيائهم ، فبكوا واستنجدوا بالرب الذي كانوا يعتبرونه حليفا لهم ، وحاميا خاصا بهم ، يعاقبهم لينقذهم ، وليسلطهم على اعدائهم . واعدائهم هم البشر جميعا . وكثرت الروايات عن الانبياء تنذر بتشتيت بنى اسرائيل ، فتصف هذا اليهودي التائه ، المعاقب ، ثم تصف تجمع اولئك الناس من جديد ، والانتقام الرهيب من اعدائهم ، « والان هكذا يقول الرب خالقك يا يعقوب ، وصانعك يا اسرائيل : لا تخف لاني فديتك . دعوتك باسمك . انت لى . اذا اجتزت في المياه فانا معك ، وفي الانهار فانها لا تغمرك . اذا مشيت في النار فلا تلسع ، واللهيب لا يحرقك ، لاني انا الرب الهك ، قدوس اسرائيل ، مخلصك . جعلت مصر فداءك . كوش وسبأ عوضك . اذ صرت عزيزا في عيني ، مكرما ، وانا قد احببتك ، اسلم اقواما بدلا منك ، وشعوبا عوضا عن نفسك . لا تخف فاني معك . من المشرق آتى بنسلك .

« كلم عبيدك بالارامية لاننا نفهمها ، ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الشعب الذي على السور » ، (٢ ملوك ١٨ : ٢٦) . وجاء في قصة تعمير اورشليم ، بعد العودة من السبي : « ولما سمع سنبلط اننا نبني الاسوار اشتد غضبه ، واستاء كثيرا ، واستهزا باليهود » ، (نحميا ٣ : ٣٣) .

ويبدو ان لفظة يهودى قد اخذت في اذهان امم العالم معنى كريها منذ وقت مبكر ، فقد جاء في التلمود عند الحديث عن قصة استير وعيد البوريم : « ان كل كافر في تلك الازمان كان يدعى يهوديا » ، (المجلة ١٣ : ٧١) .

وهكذا نرى ان كلمة يهودى قد بدأت حياتها في النفسية الاسرائيلية مصطلحا عنصريا يجمع بين العصبية العرقية والفروغ السياسى ، فكان رد الفعل من الامم الاخرى انها استعملته وصمة عار وسبة وسخرية في وجه العبريين ، وراح اليهودى في كثير من بقاع الارض يتهرب من هذه الصفة ويفضل عليها اسم الاسرائيلى .

ومع ذلك فان وجود هذه المصطلحات المتقاربة قد اوقع هؤلاء الناس في حيرة كبيرة . فالاسرائيلى اسم له صفة العنصرية . واليهودى اسم اصبح ينم في النهاية عن العصبية الدينية . كما ان صفة العبرى اصبحت تقترن بذكرىات عن عشائر قديمة جدا مندثرة . ولكن النفسية الاسرائيلية انتهت الى تقسيم الموضوع تقسيما تحكيميا اصطلاحيا : فجعلت للجنسية مصطلح الاسرائيلى ، وللدين مصطلح اليهودى ، وللثقافة مصطلح العبرى ، وظننت انها بذلك قد اراحت واستراحت . ومع ذلك فان معرفة من هو اليهودى ليست بأقل من معرفة من هو الاسرائيلى اثارا للنقاش والجدل بين الاحزاب الصهيونية حتى الآن .



ولقد عرفت الامم المسيحية مصطلح « اليهودى التائه » ، فما اصل هذه التسمية ؟

ومن المغرب اجمعك . اقول للشمال هات ، وللجنوب لا تمنع . احضر ابنائى من بعيد ، وبنائى من اقصى الارض » ، (اشعيا ٤٣ : ١ - ٧) . ومثل هذه الخواطر المنسوبة لانبياى اسرائيل يفص بها كتابهم ، وتعتبر من مقومات النفسية الاسرائيلية كما سيتضح لنا من بعد .

واذا كان هذا الشتات فى الشرق والغرب والشمال والجنوب قد اتخذ صورة الوعيد على السنة الانبياء ، فانه فى اوربا المسيحية فى العصور الوسطى قد اتخذ صورة التنديد بالجرم اليهودى ، واصبح اليهودى التائه رمزا لهذا الشعب الصغير الممعن فى القسوة والغرور . وفى ذلك تقول اسطورة شعبية تعتبر هى المنطلق لشخصية اليهودى التائه : (٨)

كان اليوم الذى اخذ فيه المسيح للصلب يوما شديدا الحرارة فى مدينة اورشليم . وكانت الجموع اليهودية قد عقدت على جبين المسيح اكليلا من الشوك ، وارغمته على ان يحمل صليبه الثقيل على ظهره ، ثم راحت تطوف به شوارع المدينة صاخبة شامتة مستهزئة ، تمعن فى تعذيبه ، وتتلذذ باهائه وايدائه . واشتد بالمسيح التعب والعطش ، ولفحه هذا الحر الشديد . فارتقى عند باب يهودى اسمه فى الاسطورة احشويروش ، وهو يلهث من التعب . وسمع اليهودى الضجة امام بيته فنزل يستطلع الخبر ، ورأى المسيح ملقى خائر القوى فى ظل بيته . فركله بقدمه وطرده قائلا : اذهب من هنا ، وابعد بلعنتك عن بيتى . فنظر اليه المسيح ، وعلامات الحزن والارهاق بادية على وجهه ، وقال له : انك تنتهرنى ، وتحرمنى من ظل حائطك ، لانك لم

تجرب تعب المشى ولا عبء الاهانة والمطاردة . وسرعان ما تحدث المعجزة ، فيبدأ احشويروش فى المشى رغم انفه ، لا يستطيع ان يتوقف . وراح يسير حتى خرج من البلد ، وامعن فى السير حتى خرج من فلسطين ، ثم كتب عليه ان يسير ويسير ، وان يظل ماشيا لا يستريح الى يوم القيامة . عليه معطف قديم ممزق ، وعلى كتفه خرج فيه زاد حقير ، وبيده عصاه ، وفى جيبه قطعة صغيرة جدا من النقود ، وقد طالت لحيته ، وتراكم عليه الغبار . يرى فى حر الصيف بين الصخور وعلى الرمال ، ويرى فى برد الشتاء على الثلوج وفوق الجبال . هذا هو اليهودى التائه ، المخلوق الاسطورى الذى انبثق من صدام عنيف بين النفسية الاسرائيلية الكزة ، الشديدة التعصب والغرور ، والحقن على الامم الاخرى ، وبين النفسية الاوربية فى مسيحية العصور الوسطى ، التى كانت تعاني من جوار المرابى اليهودى الامرين ، وتحاول بهذه الاسطورة ان تصب عليه لعنة المسيح .

ولعلنا قد لاحظنا من كل ما سبق ان عقدة الانفصال عن البشر ، والامتياز على امم العالم اتخذت طريقها الى النفسية الاسرائيلية ، واصبحت عاملا اساسيا فى تكوين شخصية هذه الطائفة من الناس منذ القدم : عن طريق الانساب والاعراق ، وعن طريق الذكريات الدينية والسياسية التى تضخمت وغلظت مع الزمن . بالرغم من ان جميع البحوث الاجتماعية والتاريخية والانثروبولوجية تؤكد ان اليهودى يعتبر من ابعد الجماعات البشرية عن النقاء العنصرى الذى يدعيه . وفى ذلك يقول العلامة السويسرى اوجين بيتار (٩) :

(٨) يشير كثير من مؤلفي المعاجم من الاوربيين الى اليهودى التائه وقصته ، نذكر منهم على سبيل المثال :

Littre; Dictionnaire de la Langue Française; Tome III; Paris, 1883.

Paul Guérin; Dictionnaire des Dictionnaires; Tome IV; Paris.

(٩) اوجين بيتار : الاجناس البشرية فى التاريخ - بالفرنسية :

Eugène Pittard; Les Race Et L'Histoire; Paris 1924; p. 413 55.

لكراهية الامم الاخرى، قد عاشوا منذ السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد ، والتشريد الروماني منذ القرن الاول الميلادي، يصارعون عوامل الفناء ، ويتغلبون بتضامنهم الاجتماعي على كل مشاريع الابداء التي خططت من اجلهم . وكان طبيعيا أن يأخذهم الزهو والغرور بهذا البقاء الدائم . فظهرت في تعبيراتهم اللغوية الفاظ يطلقونها على انفسهم ، لتؤكد هذا الغرور ، وتزيد من الالتحام والتضامن الذي يربطهم بعضهم ببعض . وجعلوا هذه الظاهرة مرتبطة باختيار الهى لهم دون سائر شعوب الارض ، وبارادة سماوية لا قبل للبشر بمقاومتها .

فمن هذه الالفاظ ادعائهم انهم أبناء الله ، وحلفاء الله ، واحباب الله .

وفي تعبيراتهم الشعرية يرون أن الرب قد اتخذ امتهم عشيقه له ، بل انه تزوجها زواجا ابديا ، حتى انها اذا خانت وندست شرف العلاقة التي بينها وبينه لم يطلقها كما يفعل احقر مخلوق من البشر ، ولكنه يكتفى بأن يفضب ثم يرضى ، وأن يعاقب ثم يصفح . فهي الامة الحبيبة المعشوقة المدله ، التي تعلم مقدما أن الرب لن يجرؤ يوما ما على قتلها مهما اُجرت . ويصف نبي اليهود هوشع هذا الموقف بقوله على لسان الرب : «سأكشف الآن عورتها على مرأى من عشاقها ، ولن ينقلها أحد من يدي . فأبطل كل افراحها وأعيادها وغرر شهورها وسبوتها وكل حفلاتها ، وأدمر كرمها وتينها ؛ اذ قالت هو أجرى جعله لى عشاقى ، فأصير ذلك أجمة يأكلها وحش الصحراء ، وأحاسبها على أيام الاصنام التي بخرت لها ، وتزينت بأقراطها وحليها وانطلقت وراء عشاقها ونسيتنى ، يقول الرب . ثم اننى املقها وآتى بها الى البرية، وأخاطب قلبها، وأعطيها كرومها من هناك ، مع وادى عكور ، بابا للامل . فتغنى هناك كما فى أيام صباها ، وفى يوم صعودها من أرض مصر . » (هوشع

«أن جميع اليهود فى نظر علماء الانثروپولوجيا، على الرغم من كل ما يدعيه اليهود المنضوون تحت الفكرة العنصرية الاسرائيلية ، بعيدون عن الانتماء الى « جنس يهودى » . وكما يقول رينان : لا توجد سحنة يهودية ، بل هناك عدة سحنات يهودية . وليس هناك اصح من قوله هذا . فنحن لا نستطيع أن نعتبر اليهود الحاليين مكونين لكثلة بشرية ذات عنصر واحد ، ولا حتى فى فلسطين ، بعد أن جرت اليها الحركات الصهيونية كثيرا من الاسرائيليين دون اختيار أو تمييز . فاليهود ينتمون الى طائفة دينية واجتماعية ، اندمج فيها فى كل عصور التاريخ اشخاص من اجناس متباينة . وكان أولئك المتهودون يدخلون فيها من جميع الافاق المسكونة بالبشر ، من اليهود الاحباش - الفلاشة - الى اليهود الاشكناز - من الجنس الجرمانى - الى التاميل - اليهود الافارقة الزنوج - الى اليهود الهنود الذين يسمون بنى اسرائيل ، واليهود الخزر الذين ينتمون الى الجنس التركى . فهل هناك من هذه الانواع الاسرائيلية نوع يعتبر من ناحية التشريح والتحليل ممثلا حقيقيا ونقيا للجنس اليهودى ؟ » ويستمر عالم الاجناس البشرية السويسرى فى تحليل كل نوع من الجاليات اليهودية فى العالم ، من حيث القامة والجمجمة والهيكل العظمى والتقاطيع ولون البشرة والشعر والعينين وشكل الانف وغيرها من المميزات البيولوجية ، ليخرج بنتيجة حاسمة وهى أن الدعوى العنصرية التي يجاهر بها اليهود من ناحية واعداء اليهود من ناحية اخرى ليست الا ادعاء خرافيا من نسج الخيال .

ولكننا اشرنا من قبل الى أن الخرافة قد تكون اقوى اثرا فى خلق النفسية العنصرية من الحقيقة التاريخية نفسها ، خصوصا اذا اصطبغت مع الزمن بقدسية الدين . وهذا ما كان من أمر الشخصية الاسرائيلية .

فقد رأى اليهود أنهم ، فى مجتمعاتهم المتفرقة فى أنحاء العالم، التى كثيرا ما تعرضت

الرب - ولو مجازا - فتخيلوا أنهم يشاركونه في أزليته وأبديته ، وأنهم مثله لا أول لهم ولا آخر ، ولا بداية ولا نهاية . وهو قول كبير ، أحس بعض مفكريهم بفداحته ، ففسروه على أنهم من أقدم شعوب العالم ، وهو المقصود بالأزلية ، ومن أدوم شعوب العالم ، وهو المقصود بالأبدية . وهى دعوى خرافية حتى بعد هذا التخفيف الشديد . فاليهود كما يعلم الجميع ليسوا أقدم من الفراعنة ، ولا من سومر وبابل وأشور ، ولا من الهنود أو الصينيين ، ولا من العرب . وهم أيضا ليسوا أطول دواما من كثير من تلك الأمم . وهم وراء ذلك كله : أمة لا حضارة لها .

فكل الأمم لها طرز في الفن تعرف بها للنظرة الأولى . فليس من أحد يخطئ التعرف على قطعة من الفن الفرعونى أو الهندى أو الصينى أو الأوروبى أو حتى الأفريقى الزنجى . وكذلك الأمر فى الأدب والفلسفة والموسيقى وغيرها . فإين الفن اليهودى فى كل هذا ؟ قد يقول المتعصبون منهم أنهم منحوا العالم ما هو أقوى من الفن . منحوه التوحيد والنبوة والكتب المقدسة والحياة الروحية المنظمة . ولا نريد أن نشير إلى أن كل هذه أمور قد سبق اليهود إليها وأنهم - حتى فى مقدساتهم هذه - قد عدوا على تراث هذه الأمم فنهبوه واغتصبوه . وما تزال البحوث الجادة تبين أن شرائع السومريين ، وقانون حمورابى ، وتوحيد اخناتون ، وابتهالات مصر القديمة وإيران والهند ، وملاحم الشرق قبل العبريين القدماء ، كل هذه تنعكس على المرأة الاسرائيلية ناطقة بأصولها ومصادرها . لا نريد أن نقول ذلك ، وإنما يكفى فى مجازاة القوم أن نقول ان هذا التراث الدينى ، باعتقادهم هم ، وحى أنزله الله من السماء ، لا فضل لهم فيه ، بل أنهم لم يعنوا بتبليغه للأمم الأخرى ولا اجتهدوا فى التبشير به ، بل على العكس من ذلك احتكروه ، وجعلوه متما لعصبيتهم القبلية الجاهلية العتيقة . وهم لا يستطيعون أن يعلنوا عدم اسهامهم فى تقدم الفن بأن التوراة قد حرمت

٢ : ١٠ - ١٥) . وتكثر فى مثل هذا المعنى أقوال الأنبياء والكهنة والشعراء والحالمين والصوفية على مدى أجيال اسرائيل . ومن هنا لا يتردد اليهود فى تسمية أنفسهم « شعب الله المختار » . ويفسرون هذا الاختيار الإلهى بأنه تفضيل للأقوى والأصلح ، ويردونه إلى ليلة المصارعة العجيبة التى أدى فيها جدهم يعقوب - اسرائيل - امتحان القوة والصبر على المكار به بنجاح باهر ، ويرون أن هذا الاختيار قد تختفى دلالته عندما يضعف اليهود ويدلون ، ولكنهم يعودون إلى الجبروت والسطوة من جديد ، « لأن الرب سيرحم يعقوب ، ويعود فبصطفى اسرائيل ، ويريحهم فى أرضهم ، وينضم الغريب إليهم ، ويتصل بيت يعقوب . وتأخذهم الشعوب وتحضرهم إلى مكانهم فيمتلكهم بيت اسرائيل فى أرض الرب عبيدا وجواري ، فيأسرون الذين أسروهم ، ويستولون على من سخرهم » . (اشعيا ١٤ : ١ ، ٢) . وواضح من مثل تلك النصوص أن اعتقاد اليهود فى اختيار الرب لهم ليس مجرد مفخرة يتشددون بها ، بل هو برنامج ؛ فبهم يعاقب الله الأمم الأخرى ، وهم الذين يبقون وحدهم فى آخر الزمان ، متسلطين على رقاب العالم ، وهم باختصار الذين يلعبون دور البطولة على هذا المسرح الهائل ، مسرح التاريخ ، والأمم الأخرى ليست إلا أشخاصا ثانوية خلقها الله لتكملة مشاهد هذه المسرحية الطويلة وحوادثها ، على نحو تظل فيه البطولة لاسرائيل . ومن هنا تبرز خطورة النفسية الاسرائيلية على أمم العالم ، ويتضح مدى احتياجها لعلاج ناجع - لا بد أن يكون مرا - حتى تصحو من غرورها لتندمج فى أمم هذا العالم .

والداء الذى نشير إليه مزمن عند القوم . ففى مصطلحاتهم نجدهم يسمون أنفسهم أيضا « الشعب الأزلى » - بالعبرية : عام عولام - كما يسمون أنفسهم « الشعب الأبدى » - بالعبرية : عام نيسح - وهكذا تناولوا على

مجموعة المخطوطات العبرية المكتشفة اخيرا في منطقة اريحا على البحر الميت (١١) ، وهي التي تعرف باسم « وثائق قمران » . وعنوان هذا المخطوط الذي يعنينا هنا هو « حرب ابناء النور ضد ابناء الظلام » . وهو نص طويل يقع في تسعة عشر عمودا ، تتضمن نبوءة اسكاتولوجية يقوم فيها اليهود - سبط يهوذا وسبط بنيامين ومعهم الكهنة من سبط لاوى - بشن حرب اباداة على جميع الشعوب التي تسكن فلسطين وما حولها في ذلك الوقت (القرن الاول قبل الميلاد) . واليهود يدعون في سياق هذا الحديث بابناء النور ، اما ابناء الظلام فهم الادوميون والعرب المؤابيون والعمونيون والفلسطينيون وكذلك اليونان . ويسمى الكاتب جنود اولئك الاعداء « جيش بليعال » اي جيش الشيطان . ويتفنن في وصف النظام الدقيق الذي يسود ابناء النور . فهم كتاب من الفرسان والمقاتلين ، قد اصطفت واستعدت بخيلها وسيوفها ورماحها ودروعها وتروسها وقسيها وسهامها ، ترفرف عليها رايات جميلة الطراز ، قد نقشت عليها شعارات الايمان والجهاد والنصر . اما ابناء الظلام فيصورهم هذا الشيخ اليهودي الحالم بانهم شرادم رثة الهيئة ، كثيرة اللفظ والفوضى ، متخاذلة ، يشيع فيها الخوف والجبن ، ولا تفكر الا في الهزيمة والاندحار .

ويطول بنا الحديث لو اننا اردنا تتبع كل اثار هذا الادب الفئائي عند اليهود . فأكثر سفر النبي حزقيال من قبيل هذه الرؤى النهائية الحتمية ، تشب فيها حروب ، تبدأ بتطهير المجتمع اليهودي نفسه من الدنس الذي كان قد غرق فيه الى الابدان . وهو تطهير يتم بالحرب والحصار والموت . يسلط فيه الله غضبه على اورشليم وساكنيها « تلت

من الداخل ، هو المجتمع الرجعي التفليدي بطبقاته واشكاله المختلفة . وليس عجيبا ان يكون يهود أوروبا الشرقية هم أول من يهضم الدعوة الجديدة ، لأنهم على أجيالهم كانوا يعيشون نفسيا مع داود ضد جالوت .

وطبقا لهذا التصور افترض كارل ماركس ان الطبقة المنتصرة في الصراع من حقها ان تحكم حكما مطلقا ، لايسمح بالمعارضة . ولكن الرجل جاء في عصر الديموقراطيات ، والبرلمانات ، والأحزاب المتعددة الاتجاهات ، المختلفة العقائد والبرامج . وهو نفسه حالم بالحرية ، لكن في أسوار نفسية أقامتها أجيال من مجتمعات الجيتو . ومن أجل ان يصل الى وفاق بين حلمه في الحرية ، وتصوره للنصر النهائي الساحق الذي تحوزه الطبقات الدنيا المحتاجة للانصاف ، ابتدع النظام الهرمي في انتخابات ممثلي الجماهير : من القاصدة الى القمة ، مجالس بعضها فوق بعض ، لا يبرز فيها الا المؤمنون بالعقيدة الجديدة ، المناضلون من أجل تثبيتها والدفاع عنها . بحيث يتلخص نظامه كله في دكتاتورية معدلة ، هي دكتاتورية الطبقة العاملة ، كما يسميها هو صراحة .

ولو اننا رجعنا الى الخلف ، الى التراث اليهودي القديم ، لوجدنا فيه فنا من فنون الادب الديني ، يطلق عليه اصطلاحا « الاسكاتولوجيا » (١٠) ، ومعناه الحرفي « وصف النهاية » ، أي تصور حتمية معينة ينتهي بها هذا العالم . وفي كل الكتابات اليهودية حول هذا الموضوع نلاحظ اقتران فكرة الصراع بهذه النهاية الحتمية ، كما نلاحظ ان المنتصر الاخير في هذا الصراع هو حتما وبطبيعة الحال ، اسرائيل . ومن اوضح الامثلة على ذلك نص طويل وصلنا كاملا في

(١٠) Eschatologie من كلمتين يونانيتين هما eschatos اي النهاية ، logos اي كلام او وصف .

(١١) محمود العابدی ، مخطوطات البحر الميت ، عمان ١٩٦٧ ، ص ٨١ ، ١٩٥/١٩٤ ، من اجل فكرة عامة ، اما النصوص وترجمتها ومناقشتها فقد ظهرت فيها مئات الكتب والابحاث بمختلف اللغات .

يموت بالوباء وبالجوع يهلكون في وسط المدينة،
وثلث يسقط بالسيف من حولها ، وثلث يذريه
الرب في كل ربح ، ويرفع من ورائهم سيفاً
مسلولاً » - (انظر حزقيال ، الاصحاح
الخامس) . وبعد هذا التطهير يكون الشعب
المختار - او من بقى منه - قد أصبح جديراً
بخوض المعركة النهائية التي ينتصر فيها على
العالم ويخضعه لارادته .

وقد ارادت المسيحية ، في نشأتها الاولى ،
ان تعطى معنى دينياً لهذا الصراع النهائي،
تخرجه عن اهدافه العدوانية غير الانسانية التي
ترعرعت فيها شخصية اسرائيل ، بان تضيف
عليه معاني دينية روحانية تجعله بها ممهداً
ليوم القيامة ، يوم الحساب للناس جميعاً .
وابلغ امثلة هذا التطور هو بلا شك رؤيا
القديس يوحنا ، في العهد الجديد . اذ تنبعت
بأمر الرب الجالس على عرشه افواج
من الكائنات العليا ، ومع كل منها امر بالفناء
قد حدد له زمان ومكان ، حتى يتبدل كل شيء .
« ثم رايت سماء جديدة ، وارضاً جديدة .
لان السماء الاولى والارض الاولى قد مضتا ،
والبحر لم يعد موجوداً من بعد . وانا يوحنا ،
رايت المدينة المقدسة اورشليم الجديدة نازلة
من السماء ، من عند الله ، وقد تهيأت كمروس
مزيّنة لزوجها . وسمعت صوتاً عظيماً من
السماء يقول : ها هو ذا مسكن الله مع الناس ،
وهو سيسكن معهم ، وهم يكونون له شعباً ،
والله ذاته يكون معهم رباً لهم . وسيمسح الله
كل دموعهم من عيونهم ، وينعدم الموت فيما بعد ،
ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع من بعد ،
لان الامور الاولى قد انتهت . وقال الجالس
على العرش : اننى سأصنع كل شيء جديداً .
وقال لى : اكتب ، فان هذه الاقوال صادقة
واكيدة . ثم قال لى : قد تم . انا الالف والياء ،
البداية والنهاية . اعطى العطشان من نبع ماء
الحياة بلا ثمن . من يفلب يرث كل شيء . ،
واكون له الها ويكون هو لى ابناً . واما
الخائفون وغير المؤمنين والمدنسون والقتلة
والزناة والسحرة وعبيد الاوثان وكل الكذابين

فان مصيرهم في البركة التي تتأجج بالنار
الكبريت ، وهو الموت الثانى » ، (رؤيا
يوحنا ٢١ : ١ - ٨) .

**وقد راينا حتى الان من مقومات الشخصية
الاسرائيلية :**

**أ - التعصب العنصرى حول اسطورة خاصة
بالاعراق والانساب .**

**ب - التعصب الدينى حول شريعة اعتبرها
اليهود خاصة بهم لانهم شعب الله المختار .**

**ج - حتمية الصراع ، وفناء امم العالم امام
اسرائيل .**

ولما كانت هذه المقومات الثلاثة تدور حول
فكرة واحدة هي فكرة الامتياز والاستعلاء
والانفصال عن البشر ، فقد اقتضى ذلك في
الفكر الاسرائيلى بعض التفصيلات الهامة التي
دعمت تلك المقومات .

**فمن ذلك الايمان العميق بحقارة امم العالم .
واللغة العبرية تميزهم بلفظ خاص بهم هو
« الجويم » .**

واشتقال لفظة الجويم هذه ما يزال الى
الان غامضاً ، يشير نقاشاً طويلاً بين العلماء .
فبعضهم يؤثر التوقف ويقول لا ادري ، بينما
يحاول آخرون ان يلتمسوا للمفرد « جوى »
وجمعه « جويم » اصلاً في اللفظة العبرية
« جوية » التي معناها « جثة » او « جسد »
او حتى « رمة » ووجدوا ان لفظة جوى كثيراً
ما استعملت بمعنى « شخص » او « نفس » .
فقد جاء في التوراة قوله « اتقتل نفساً (جوى)
بريئة ؟ » (التكوين ٢٠ : ٤) . وفي نص آخر
« في بطنك اثنان من النفوس (جويم) ،
(التكوين ٢٥ : ٢٣) . وواضح ان المقصود
هنا (ولدان) او (جنينان) ، وان كان
المفسرون اليهود قد فسروا ذلك هنا بأنه

والروحانية ، والكفر . واصبحت كلمة «جوى» عندهم سبة، لدرجة أن اليهودي الذي يتعدى حدود الدين كان يشتم بها . واقتران معنى هذه الكلمة على السنة متعصبى اليهود بالنسبة والتعير جعلهم اذا ارادوا الاشارة الى شعب من غير اليهود يريدون مع ذلك الا يشتموه أو يحقروه ، استعملوا كلمة « أمة » بنفس نطقها العربى ، أو كلمة « لاوم » بدلا من « جوى » .

ولم يقف اليهود فى شغفهم باحتقار الأمم الاخرى عند تسميتها « جوى » ، بل ظهر الى جانبها عدد من الفاظ السباب أشهرها « عاريل » ومعناها « الاقلف » ، أى الذى لم تجر له عملية الختان أو الطهارة ، بل بقى بدائيا ، فطريا ، وهو بهذه الحالة قاسر وكافر فى آن واحد .

وهناك أيضا من الفاظ السباب « ممزير » ومعناها « ابن الزنا » . وقد وردت لفظة « عاريل » وصفا لأبناء الشعب الفلسطينى الاصلى (١ صمويل ١٧ : ٢٦) ، كما جاءت للدلالة على اشرار الناس وأوباشهم عموما ، من غير بنى اسرائيل طبعا (القضاة ١٥ : ١٨) . واستعملت لفظة « ممزير » كذلك نعتا للفلسطينيين من أهل اشدود (زكريا ٩ : ٦) ، كما دلت على كل شعب حقير مختلط الانساب فى مواضع كثيرة من النصوص المقدسة .

واخيرا اتجهت العقليّة الاسرائيلية من خلال تعصبها العنصرى الى تخصيص مدلول الشتم والمسبة فى هاتين اللفظتين . فأصبحت لفظة « عاريل » من نصيب المسيحى لأن الختان ، غير شائع عنده . أما لفظة « ممزير » ، أى ابن الحرام ، فقد آلت الى المسلم ، لأنه فى تفكير أصحابنا مولود من سيدنا ابراهيم لكن عن طريق هاجر ، التى يعتبرونها أجنبية وجارية ، فكل من ينتمى اليها ، منتسبنا بالأصل أو بالدين الى سيدنا محمد - وهو من سلالة سيدنا اسماعيل - يعتبر فى هذا

سيخرج من بطن رفقة ، زوجة اسحق ، شعبان : الأدومى والاسرائيلى . ومن العلماء من لا يستبعد أن تكون الكلمة من أصول غير سامية قديمة جدا ، جاءت الى العبريين من حيث لا يعلمون . ويشير اهتمامنا استعمال لفظة « جوى » للدلالة على الحيوانات المتجمعة فى قطع ، أو الطيور والحشرات والهوام التى تتحرك فى أسراب . ويعبر النبی صفيّا عن ذلك بقوله « حيوانات الشراذم (جوى) » (صفيّا ٢ : ١٤) . ويحوم النبی يوثيل حول نفس الفكرة اذ يقول فى موعظة له : « بقية الهوام أكلها الجراد ، وبقية الجراد أكلها الجندب ، وبقية الجندب أكلها الديب . استيقظوا أيها السكارى ، وابكوا وولولوا على الرحيق الذى انقطع عن أفواهكم ، يا جميع شاربى الخمر . فان أمة (جوى) قد زحفت على أرضى ، وهى عظيمة لا تحصى ، أسنانها أسنان اسد ، ولها أنياب السباع » ، (يوثيل ١ : ٤ - ٦) . ولا نستبعد أن يكون قدماء الساميين قد استعملوها بمعنى الهوام والحشرات التى تزحف فى جموع كبيرة ، مكررة مرتين للتهويل ، فكانوا يقولون مثلا « جوى - جوى » ، ومن هذا التركيب الازدواجى بقى فى لغتنا العربية « فوغاء » ، ومعناه أيضا جموع الجراد ونحوه من الحشرات ، ثم انتقل الى معنى الكثير المختلط من الناس ، ثم أصبح يدل على السوق والاشرار خصوصا .

وقد سلكت « جوى » فى العبرية نفس الطريق فى تطورها ، من افادة معنى الهوام والحشرات ، الى اختلاط الناس ، ثم الى سفلتهم وأشرارهم . ومن هنا خصصتها العنصرية الاسرائيلية منذ القدم للدلالة على الناس جميعا من غير بنى اسرائيل . وأمثلة ذلك فى الكتاب المقدس كثيرة منها : فى اللاويين ٢٦ : ٣٣ ، نحميا ٥ : ٨ ، المزامير ٩ : ٢١ ، اشعيا ٤٢ : ٦ .

ثم توسع أحبار اليهود فى مدلول الجويم ، فاضافوا الى الكلمة معنى القدرة المادية

الفكر اليهودي العنصري المتحجر من أبناء الحرام ، « ممزير » !

وفي مقابل هذه الشتائم التي وصم بها العبريون الأمم الأخرى ، كثرت صفات المدح والتعظيم التي خلعوها على أنفسهم . وقد رأينا منها عبارات : شعب الله المختار ، الشعب الأزلي ، الشعب الأبدى . وتقابلنا صفات أخرى ظهرت في فترات متفاوتة من التاريخ . فهم « شعب مقدس » ، لا يقف أمر قداسته عند طاعة الله وعبادته ، بل يتعدى ذلك إلى إهدار دم الأمم الأخرى واستباحة أموالها وأعراضها وأوطانها ، « لا تقطع لهم عهدا ، ولا تشفق عليهم ، ولا تصاهرهم . لا تعط بنتك لابنه ، ولا تأخذ بنته لابنك ، لأنه يرد ابنك عنى ، فيعبد آلهة أخرى ، فيحمر غضب الرب عليكم ، ويهلككم سريعا . ولكن هكذا تفعلون بهم : تهدمون مذابحهم ، وتحطمون أنصابهم ، وتقطعون سواربهم ، وتحرقون أصنامهم بالنار ، لأنك أنت شعب مقدس للرب الهك ، إياك اصطفى الرب الهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب التي على وجه الأرض . ليس من كونكم أكثر عددا من سائر الشعوب التحم الرب بكم ، بل هو اختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب ، من محبة الرب لكم ، وحفظه القسم الذي أقسم لأبائكم » ، (التثنية ٧ : ٢ - ٨) . وتكرر هذا الدرس في العنصرية البغيضة في قوله ، « لأنك شعب مقدس للرب الهك ، وقد اختارك الرب لتكون له شعبا خاصا ، فوق جميع الشعوب التي على وجه الأرض » ، (التثنية ١٤ : ٢) . فهم كما قلنا « شعب الله » وبالعبرية « عام الوهيم » وهي تسمية وردت في كتابهم (٢ صمويل ١٤ : ١٣) .



العنصرية في التنظيم الاجتماعي الإسرائيلي

كان موقف العداوة الذي وقفه اليهود من جميع أمم العالم ، مع ضعفهم وقلة عددهم

سببا في شعورهم الدائم بالخوف . كانوا يخافون من العزلة التي فرضوها على أنفسهم ، كما كانوا يخافون من الاندماج ، ويرون فيه تهديدا بضيايع كل تراثهم ، وهي عقدة مرضية في شخصية إسرائيل ، أساسها الشعور بالبناء الهش المتهافت الذي لا يستطيع الثبات أمام الحضارات الشامخة التي تبنيتها الأمم الأخرى . وكان الإسرائيلي قد آثر أن يظل بدويا جاهلا متخلفا يشمئز من التقدم ، ويخاف من المدنية .

فلما أصيب المجتمع الإسرائيلي بالتشريد على أيدي الرومان سنة ٧٠ ميلادية ، فكر إقطابه في أن يؤلفوا نوعا من الحكومة السرية التي تسهر على بقاء التكتل العنصري ، وتضمن عزلة شبه كاملة لتلك الطائفة وسط أمم العالم .

وكان أول شكل من أشكال هذا التنظيم العنصري هو « السنهدرين » . وهو المجلس الأعلى الذي يحكم الطائفة ، ويملك وحده حق الحل والعقد في شئونها .

والسنهدرين كلمة دخيلة على اللغة العبرية بعد عصر الكتاب المقدس بأجيال . وأصلها يوناني « سونديرون » بمعنى المجلس ، أو الجمعية ، أو الهيئة الاستشارية ، من فعل في اللغة اليونانية هو « سونديرو » معناه اجتمع . واستعمل اليونان لفظة « سونديرون » في لغتهم للمؤتمر السياسي الذي ينعقد على أثر الحروب ، ولهيئة أركان الحرب ، كما عبروا بها عن المحكمة العليا ، وكذلك مجلس الشيوخ .

واستعملها المؤرخ اليهودي يوسفوس في القرن الأول الميلادي ، في حديثه عن التنظيمات الجديدة التي أدخلها « جوبينوس » الحاكم الروماني على الشام ، سنة ٥٧ قبل الميلاد ، عندما قسم فلسطين إلى خمس محافظات ، وجعل لكل منها هيئة حاكمة تسمى

أيضا . وكان السنهدرين الأصغر محكمة تقف في القضاء عند درجة معينة لا تتعداها ، اذ تذهب القضايا الكبرى الى السنهدرين الاعظم .

ورئيس السنهدرين الاعظم كان يحمل لقب « أمير » - بالعبرية « ناسيء » - ويتخذ مكانه في وسط الاعضاء ، بصفته خليفة موسى . وكان اختياره يتم بالانتخاب بين الاعضاء ، ولم يكن يشترط فيه ان يكون اكبرهم سنا ، ويكتفى بأن يكون اوسعهم علما واشدهم غيرة على الدين واعمقهم وعيا بمصالح اليهود .

وفي التلمود جزء خاص بهذا التنظيم عنوانه « السنهدرين » ؛ نشعر من قراءته بأنه كان كما قلنا حكومة سرية لليهود ، واجبة الطاعة ، نافذة الأحكام . ومن هذه الأحكام الاعدام ، وكان ينفذ بالسيف وبالشنق بالحبال وبالصلب . ولا يستثنى من ذلك كبار المسئولين كالمملوك الفسقة والكهنة المنحرفين والأنبياء الكذبة . ونحن نعلم أن سنهدرين اورشليم هو الذي اصدر حكم الصلب على سيدنا عيسى المسيح عليه السلام . ويستفاد من اقوال التلمود ان احكام الاعدام في الجنايات العادية كانت تصدر على ابناء العوام والسوقة من السنهدرين الاصغر ، وكان ذلك كافيا .

وقد اشرنا الى نظام جلوسهم عند الاجتماع . وكان لترتيبهم جنبا الى جنب وصفا وراء صف احكام دقيقة يراعونها ، ولهم اوقات محددة يجلسون فيها - كلهم او بعضهم - للفصل في أمور الناس ، ولهم جناية مرتبة تعفيهم من العمل ، بحيث ينقطعون لخدمة المجتمع اليهودي .

وتقول المأثورات التلمودية ان السنهدرين الاعظم قد استمر في القيام بمهمته في اورشليم

« السنهدرين » ، وكانت اورشليم احدي هذه المحافظات الخمس .

وأوضح كثير من محققى التاريخ اليهودي ان استعمال هذه الكلمة اليونانية بين اليهود اقدم من ذلك ، يرجع الى القرن الثانى قبل الميلاد . وقد ترجموا بها اللفظة العبرية الفصحى « زقينيم » ، أى شيوخ الجماعة . اقتداء بموسى الذى اختار من قومه سبعين رجلا ، هم أعضاء المجلس الذى يحكم بنى اسرائيل . ولا ندرى كيف كانوا يحكمون على أيام موسى ، ولكننا نعلم أنهم في عصور ما بعد السبى البابلى كانوا يقومون بالمشورة والافتاء وتنظيم الهيكل والقضاء بين الناس ، كما كانوا هم الذين يصدرون احكام الاعدام . وكانت هذه المهمة الاخيرة دقيقة جدا بالنسبة لهم ، فكانوا يعنون بالبحث عن الشبهات والظروف المخففة حتى لا تكثر احكام القتل ، احتراسا من قول التلمود : « ان السنهدرين الذى يقتل واحدا كل اسبوع لجدير بأن يسمى مخربا » .

وقد نظم احبار التلمود السنهدرين فجعلوه على درجتين :

- السنهدرين الاعظم ، وهو المجلس الاعلى المركزى لجميع اليهود . ويتألف من سبعين رجلا على رأسهم واحد ينوب عن موسى ، هو الملك ان وجد ، او الحاخام الاكبر . وكانوا اذا اجتمعوا جلسوا في نصف دائرة .

- السنهدرين الأصغر، وهو مجلس محلى لكل تجمع يهودى ، يتألف من ثلاثة وعشرين عضوا . وقد ورد في التلمود أن مدينة اورشليم كانت تمتاز بمجلسين من السنهدرين الأصغر، ينعقد كل منهما عند باب من ابوابها، الى جانب السنهدرين الاعظم الموجود بها

حتى في عهد الحكومة الرومانية بفلسطين .
وذكروا أن مكان اجتماعه كان عند باب
« جزيت » من أبواب المدينة ، وهو سوق
الصوف الذي يباع بعد جز الغنم ، ويبدو أنه
في الجهة الشمالية من الهيكل .

وعندما ساءت العلاقات بين اليهود
والرومان ، تقرر طرد السنهدرين والفاؤه
من أورشليم ، كما ورد ذلك في التلمود (باب
السبت ١٥) . وقالت الرواة أن الأربعين سنة
الأخيرة قبل تدمير الهيكل اليهودي سنة ٧٠
ميلادية شهدت جلاء السنهدرين من أورشليم ،
فكان ينعقد سرا في بعض الأماكن المجهولة من
الرومان ، كبعض الحوانيت التي يملكها تجار
من اليهود ، أو بعض الساحات القريبة من
الهيكل . وطارده الرومان بلا هوادة ، فكان
الأعضاء يجتمعون في مخابئ حول أورشليم ،
ثم هربوا إلى بلدة « بينة » غرب القدس ، ثم
إلى قرية بمنطقة الجليل في شمال فلسطين
اسمها « أوشا » ، ثم إلى بينة من جديد ،
وعادوا إلى أوشا ، ومنها إلى بلدة يسميها
التلمود « شفرعام » ، وهي « شفا عمرو » ،
ثم إلى « بيت شماريم » بالقرب من صفورية ،
ثم إلى « صفورية » بالجليل الأعلى « قضاء
الناصره » ، ثم انتهى بهم المطاف إلى
« طبرية » .

في ممارسة سلطاته خارج فلسطين قرونا
طويلة ، جعلها بعضهم تسعمائة سنة .

وفي بعض النصوص الدينية اليهودية نشعر
بأن السنهدرين الأعظم في أورشليم على عهد
الرومان لم يكن واحدا بل اثنين ، أحدهما
سياسي والآخر ديني وقضائي . وربما كانت
الحقيقة أنهما وظيفتان لجماعة واحدة .

وعند اختفاء السنهدرين في العصور
الوسطى ، حل محله « القهل » أو « القهيلة » ،
التي سنعطى عنها فكرة في هذا المقال أيضا .
أما اسم السنهدرين فلم يعد إلى الحياة عند
اليهود إلا في فرنسا في عهد نابليون
بوناپرت (١٢) .

ففي ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٦ جمع نابليون
الحاخامين اليهود في مؤتمر بباريس ، وقدم
لهم ورقة أسئلة يريد بها أن يعرف درجة ولاء
اليهودي الفرنسي للوطن ، وهل يتعارض هذا
الولاء مع الشريعة الإسرائيلية ، وكانت الأسئلة
هي :

١ - هل تعدد الزوجات مباح في الشريعة
اليهودية ؟

٢ - هل يملك اليهودي حق الطلاق بدون
الرجوع إلى القضاء الفرنسي ؟

ويزعم مؤرخو اليهود أن السنهدرين استمر

(١٢) كان السبب في تفكير نابليون في المشكلة اليهودية كثرة الشكاوى المرفوعة إليه من الفرنسيين في حق اليهود . ومن
ذلك ما تقدم به وفد من المواطنين بالانزاس إلى الامبراطور عند مروره بمدينة استراسبورج عائدا من حربه في أوسترليتز ،
يومي ٢٢ ، ٢٣ يناير سنة ١٨٠٦ ، وكان على رأسهم محافظ الإقليم « كيلرمان » وجميع وجهاء المحافظة ، وقد ورد في
شكاوهم من اليهود : « أنهم يفزون كل ميادين الوساطة التجارية والتجارة ، ويخربون بيوت الفلاحين بالربا ونزع
الأملاك ، ويخشى مما قريب أن يكونوا وحدهم المالكين للانزاس » .

وعلى أثر ذلك كتب نابليون إلى وزيره للشئون الدينية بورتاليس أمرا بالدعوة إلى مؤتمر يهودي للبحث في هذه المشاكل
وامثالها ، جاء فيه : « وأشير من جديد إلى أنه لا أحد يشكو من البروتستانت ولا من الكاثوليك كالشكوى من اليهود ،
مما يبين أن الذي يرتكبه اليهود لا يأتي منهم كأفراد بل من وضع هذه الأمة نفسه . فهم حشرات وجراد يدمرون
فرنسا » . ومن أجل ما ورد على قلم نابليون في هذه الرسالة قوله : « أن في طرد اليهود من فرنسا علامة ضعف
بينما القوة في القدرة على تاديبتهم » . (نقل عن : جيغس ، اليهود في المجتمع الفرنسي) .

(Gygès; Les Juifs dans la Société Française; Paris 1956, p. 28-29.)

وانعقد أول اجتماع لهذا السنهدين في إحدى قاعات البرلمان الفرنسي بباريس ، في ٩ فبراير سنة ١٨٠٧ . فألقى الرئيس خطبة بالعبرية والفرنسية ضمنها تحية لفرنسا وباريس ونابليون . وأعقبه أحد وجهاء اليهود الفرنسيين وهو النائب البرلماني « فورتادو » فألقى كلمة باسم الحكومة . وكانت الجلسة الثانية لهذا السنهدين يوم ١٢ فبراير . وفيها قام ثلاثة من الحاضرين ، من مجلس القهل الهولندي في أمستردام ، وهم : آشر ، ليمنون ، ليتفاك ، فاشتركوا في المناقشات ، الاثنان الأولان بالفرنسية والآخر بالعبرية . ولكن الحاخام رئيس الجلسة رد عليهم بالعبرية طالبا منهم عدم الاشتراك في المناقشات، تنفيذا لأمر الامبراطور الذي جعل هذا المؤتمر خاصا بيهود فرنسا فقط ، كما أبلغهم ذلك المندوب البرلماني .

واستمرت الجلسات أيام ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٦ فبراير ، ويوم ٢ مارس أيضا ، حتى تمت الاجابة على أسئلة نابليون . وفي الجلسة الثامنة للسنهدين ، يوم ٩ مارس ، سمح بالكلام لبعض المراقبين اليهود غير الفرنسيين ، ورد عليهم الحاخام الأكبر زينتسهايم بأن مقررات هذا المؤتمر يرجى منها أن تكون لصالح الأمة الاسرائيلية جمعاء .

ورفع السنهدين مقرراته الى لجنة برلمانية اجتمعت يوم ٢٥ مارس ، ثم عادت الى الاجتماع يوم ٦ ابريل ، فأقرت الاجابات التي صدرت عن هذا السنهدين الحديث ، وأدخلتها ضمن قوانين الاحوال الشخصية للدولة . وتلخص الاجابات المذكورة فيما يلي :

- ١ - تعدد الزوجات محرم على اليهود بفتوى من الربي « جرشوم » .
- ٢ - لا مانع من أن تكون أحكام الطلاق لليهود صادرة من محاكم الدولة .

٣ - هل يجوز زواج اليهودية من مسيحي ، وكذلك العكس ؟

٤ - هل يعتقد اليهودي الفرنسي أن المسيحي الفرنسي غريب من « الجويم » ؟

٥ - ما هي الروابط التي تربط يهودي فرنسا بالوطن حسب الشريعة الاسرائيلية ؟

٦ - هل يلتزم اليهودي الفرنسي بكل واجبات المواطن حتى الخدمة العسكرية ؟

٧ - من الذي ينتخب الحاخامين ؟

٨ - هل يملك الحاخام سلطة محاكمة اليهودي ومعاقبته خارج قوانين الدولة ؟

٩ - هل اختيار الحاخام وسلطانه نابعة من الدين ، أم هي مجرد تقاليد ؟

١٠ - هل هناك حرف وأعمال يحرمها الدين اليهودي على أتباعه ؟

١١ - هل تحرم الشريعة الربا بين اليهود ؟

١٢ - هل تبيح هذه الشريعة لليهودي الربا من غير اليهود ؟

وجعل نابليون الاجتماع على شكل « سنهدين » من مائة واحد عشر عضوا من الحاخامين ورؤساء العائلات اليهودية الكبيرة . وكان على هذا المجلس أن يختار من بينه لجنة من تسعة أعضاء لتنسيق الاجابة عن هذه الأسئلة . ولما كانت ايطاليا في ذاك الوقت تحت حكم نابليون فقد شملها القرار ، كما حضر مائة واربعة من رجال الدين وأعيان اليهود من بلدان أخرى بصفة مراقبين ومستمعين . وتولى رئاسة الجلسات الحاخام دافيد زينتسهايم ، حاخام استراسبورج الأكبر ، يعاونه نائبان هما : يوشع بنزاويون سجرى حاخام فرساي ، وأبراهام دي كولونيا حاخام مانتوا .

وبمقارنة سنهدين نابليون بما ورد في التلمود نجد أنهم لم يحتفظ من سلفه القديم إلا بالاسم فقط ، أما المسمى فقد تغير تماما ، اذ أصبحت سلطاته استشارية بحتة ليست لها قوة النفاذ ، وهى فى نفس الوقت محلية لا تخرج عن حدود فرنسا ، وحتى فى فرنسا نفسها لا تعترف بها الحكومة إلا اذا اعترف السنهدين بسيادة هذه الحكومة غير اليهودية عليه ، وأولوية قوانينها على شرائعه . ومن هنا يتبين أن صفة الدبلوماسية والنفاق التى وردت فى حكمنا عليه لم تات عفوا . وليس الانحناء للعاصفة ، ومداهنة ذوى القوة والبأس بالشئ الجديد فى الشخصية الاسرائيلية .

واذا كنا قد رأينا السنهدين يمارس سلطاته على اليهود علنا عندما كان لهم فى فلسطين على أيام اليونان والرومان حكم ذاتى هناك ، ورأينا نزول السنهدين الى سراديب النشاط السرى بعد الصدام بين اليهود والرومان ، فان الشتات الاسرائيلى فى أرجاء الارض قد جعل بقاء « سنهدين » أعلى يسط سلطانه على جميع يهود العالم أمرا مستحيلا . والذين قالوا من اليهود ان هذا المجمع المركزى لمدينة اورشليم قد ظل على قيد الحياة ، يعمل فى الخفاء ، فى قرون الشتات ، انما تعلقوا بتقليد ذى قدسية عندهم أرادوا أن يصونوه بأى ثمن . فالسنهدين - أى المجلس الحاكم - بدأ من خلال التلمود وكأنه رمز للتماسك القوى ، العنصرى والدينى ، لليهود ، وكان من الصعب على عقول يهودية كثيرة أن تتأقلم فى حياة ليس فيها سنهدين .

أما التنظيم الاجتماعى الذى حل عمليا محل السنهدين بين يهود الشتات فهو « القهل » ، الذى أشرنا اليه ، أو « القهيلة » .

وقبل أن تصبح هذه الكلمة ذات مدلول اجتماعى خاص فى حياة اليهود المشتتين فى

٣ - الزواج اليهودى رباط قانونى بين الزوجين مطابق لقوانين البلاد .

٤ - الزواج المختلط بين اليهود وغيرهم صحيح مدنيا باطل دينيا .

٥ - مفروض على اليهودى اعتبار موطنه غير اليهودى أخا له كإبن دينه .

٦ - يعتبر اليهود أوطانهم التى ولدوا فيها أو هاجروا اليها كإرض آبائهم تماما .

٧ - لا تحرم الشريعة اليهودية أى نوع من الحرف أو الفنون أو الأعمال .

٨ - توصى الديانة اليهودية بممارسة الزراعة والصناعة والحرف كما صنع الآباء فى فلسطين .

٩ - الربا محرم على اليهود فيما بينهم ، وكذلك مع أبناء الأمم الأخرى المسيحيين .

ونلاحظ من خلال هذه الاجابات ، ومن تحريم المناقشة على اليهود غير الفرنسيين ، أن هذا السنهدين كان دبلوماسيا أكثر منه شرميا ، وبصراحة كان ينافق الامبراطور ، بهدف اكتساب حقوق مدنية فى الدستور الفرنسى ، ولو كان ثمن ذلك اجابات تتضمن كثيرا من الفس والانحراف عن منطوق الشريعة ومفهومها فى العقل اليهودى . ومنذ نحو سبعين عاما وصفت دائرة المعارف اليهودية الامريكية هذه القرارات بأنها تفوح منها روائح التطوير ، والبرامج الاصلاحية « الريفورم » ، التى كانت أعراضها قد بدأت فى الظهور فى ذلك الوقت نفسه فى ألمانيا وهولندا . وأضافت هذه الموسوعة العبرية أن المجتمعين فى هذا السنهدين كانوا - كما قلنا - يريدون الحصول لليهود على المساواة فى الحقوق باى ثمن ، ولكن أملهم قد خاب عندما صدرت قوانين نابليون فى ١٧ مارس سنة ١٨٠٨ ، وفيها تحديد لحقوق اليهود .

بحضور عشرة على الأقل ، وأغلب فقهاء اليهود ينصون على أن يكونوا عشرة رجال ، ولا تدخل النساء في هذا العدد . ويطلقون على الحاضرين لصلاة الجماعة لفظة « صبور » . وهى لفظة لم ترد في الكتاب المقدس ، بل هى من المستحدثات الكهنوتية بعد عصور الأنبياء .

كانت الجالية اليهودية بعد الشتات تتكتل وتعيش في عزلة عن البشر الذين يحيطون بها . وكانت دائما تكون لها تنظيما اجتماعيا لا تعلم عنه الدولة شيئا ، تسميه بتحريف آرامي تلمودي « قهلا قديشا » أى « الجالية المقدسة » . وهدفها من ذلك كما أسلفنا هو أن تحمي نفسها من الاندماج والدوبان في « الجويم » .

وكان لكل جالية مجلس ادارة يتكون من سبعة من وجهاء اليهود في البلد ، يتصدرهم « العائل » ، بالعبرية « پرناس » ، أو المدبر ، بالعبرية « جزبار » ، الذى تطور مع الزمن فأصبح « المدير المالى » أو « أمين الصندوق » . وكان زعيم الطائفة يسمى أحيانا « رئيس الهيئة » ، بالعبرية « روش عده » ، ويسمونه أيضا « عضو المدينة » ، بالعبرية حبيرها « غير » ، لأن القهل كانوا يسمون أنفسهم أيضا « أبناء المدينة » ، بالعبرية « بنى ها غير » .

ومع ذلك فهناك بعض أسماء مختلفة بحسب البلدان .

ففى مصر وبعض بلدان شمال افريقية والمغرب والاندلس كان رئيس الطائفة يحمل لقب « نجيد » أى « عظيم » .

وكان شيخ يهود العراق على وجه التخصيص يحمل لقب « رأس الجالوت » أو « رأس المثيبة » ، وبالعبرية « ريش جالوثا » ، منذ اجلاء اليهود الى العراق فى السبى البابلى ، أو بتعبير أدق احياء للذكرى هذا الجلاء القديم ، وإشارة الى قدم يهود العراق فى الاستيطان فى وادى الرافدين .

الأرض ، كانت تستعمل فى البداية بمعنى « الاجتماع » أو « الجماعة » . وهى ترتبط فى اشتقاقها اللغوى القديم بلفظة « قول » بمعنى النطق ، وهى فى العبرية تدل على الصوت والصياح والنداء . فالقهل هو مجموع الناس الذين تبلغهم الدعوة فيأتون للاجتماع ، وفى التوراة « بيوم ها قهل » أى « فى يوم الاجتماع » ، (التثنية ١٨ : ١٦) . ومن ثم أصبح القهل هو الهيئة التى تدعى عند المهمات ، كقول النبی یوئیل « قدشو قهل » أى « قدسوا الجماعة » فى خطبة له قد تزيدنا تفهما لهذا المعنى اذ يقول : « اضربوا بالبوق فى صهيون . كرسوا صوما . نادوا باعتكاف . اجمعوا الشعب . (قدسوا الجماعة) . احشدوا الشيوخ . اجمعوا الاطفال وراضعى الثدي . ليخرج العريس من مخدعه ، والعروس من خدرها . ليبك الكهنة خدام الرب ، بين الرواق والمذبح ، ويقولوا : ارحم شعبك يا رب ، ولا تسلم ميراثك للعار حتى تجعلهم الأمم عبرة » ، (يوئيل ٢ : ١٥ - ١٧) . فنحن نرى أن القهل هنا هو جمهور المجتمع اليهودى كله عندما يدعون من أجل مهمة تجتاحهم جميعا ، من الكهنة الى العامة والرجال والنساء والاطفال ، يأتون على صوت الأبواق وصيحات النداء . وتأتى لفظة « قهيله » بنفس المعنى تقريبا ، وقد ورد فى التوراة « قهيله يعقوب » بمعنى « جماعة يعقوب » ، (التثنية ٣٣ : ٤) .

وقارىء التلمود والمدراش - وهى من الأدب اليهودى بعد الشتات الرومانى - يجد أن القهل أو القهيلة تمثل جمهور اليهود المتجمعين فى منطقة واحدة . وكان لهم مجلس ادارة يسمى بالعبرية « عده » أى مؤتمر الجماعة ، ويوصف أحيانا بأنه المجلس الملى المقدس ، بالعبرية « عده قدوشه » . وظهرت بجانب هذا لفظة « صبور » . وكان معناها مختلفا عن القهل ، فهى جماعة المشتركين فى طقوس دينية جماعية على التخصيص . وتقرأ فى نصوص الشريعة الاسرائيلية مثلا أنه لا يمكن اعتبار صلاة الجماعة فى المعبد جائزة الا

اصدار التشريعات والفتاوى ، بشرط الا تكون مخالفة أو مبطللة أو مناقضة أو ناسخة لحكم افتى به الاقدمون .

وتؤكد الصفة المحلية لمجلس القهل في انه كان لا يستطيع ان يتدخل في شئون مجلس آخر الا بعد اتفاق مشترك . وتأتى في هذا الصدد تفاصيل طويلة تتصل بمقدار مسئولية كل قهل من التجمعات اليهودية المتقاربة ، عندما تتعرض لمشاكل وأخطار من قبل غير اليهود . وكلها تهدف الى الدفاع عن مجموع الطائفة ، وتقليل الضحايا - ان كانت هناك ضرورة للتضحية - الى أدنى ما يمكن . وعند مجلس كل قهل لائحة داخلية خاصة بتدرج السلطات الدينية والسياسية والاجتماعية على اختلافها، وبيان حقوق كل من قادة القهل بحسب درجته في الزعامة .

وفي كثير من البلدان كانت الحكومات تلجأ الى مجلس القهل وتستعين به في جباية الضرائب الرسمية ، وكان ذلك يمثل اعترافا بوجود الطائفة ومجلسها .

وانتهز الكثير من مجالس القهل هذه الفرصة فوسعوا من نشاطهم ، وجعلوا لهم سياسة علنية تعرفها الحكومات ، واخرى سرية مقصورة على اليهود ، تهدف الى تقوية العنصرية ، وتشديد العزلة الدينية والحضارية وهذا التخطيط السرى كان يسمى « دعم الجالية » ، بالعبرية « حرقة هايشوب » ، وقد ذاع بين اليهود حتى أصبح يسمى باختصار « حرقة » أى « الدعم » .

وفي اخريات العصور الوسطى وصل امر القهل الى صورة خطيرة من صور التضامن السرى ، انتهت باتحاد كثير من مراكز الاستيطان اليهودى ممثلة في مجلس قمة للشئون اليهودية كان يسمى « مؤتمر الاقاليم الأربعة » ، بالعبرية « وعد أربع أرسوت » . وفي بعض الأحيان كان القهل يستطيع توقيع العقوبات الجنائية على المخالفين للشريعة . وفي

والظاهر أن مجلس القهل كان في الاصل يتكون من سبعة أعضاء . كما يبدو من بعض نصوص الشريعة الشفوية اليهودية - المشنا - أن هذا المجلس البلدى قد عرف قبيل الشتات عندما تزعزع شأن اليهود في فلسطين في الأجيال المحيطة بميلاد المسيح ، تحت ضغط الرومان والسوريين والأردنيين والعرب . فكان اليهود يختارون لهم مجلسا بلديا مكونا من سبعة من وجهائهم ، (المشنا / مجله ٨٤ : ١) .

وتحول القهل في الشتات الى مجتمع مغلق كما قلنا ، يمثل مجلسه الخاص حكومة سرية واجبة الطاعة ، تفرض الضرائب على اليهود من غير علم الدولة ، وتتصرف في ميزانيتها ، مقرررة اعانات معينة للفقراء وللمنشآت والأعمال الخيرية الجماعية . وواضح ان هذا هو اصل السلطة التى منحها الصهيونية في العصر الحديث لشعبها وفروعها ، لفرض مثل تلك الاتاوات على يهود العالم حتى تستعملها في تحقيق استعمارها لفلسطين . كما كان لمجلس القهل حق توقيع العقوبات ، واستدعاء الافراد للمهمات العلنية والسرية .

وكانت الضرائب التى يفرضونها متنوعة ، بعضها على الافراد وبعضها على الممتلكات والأرباح . ويعفى من كل هذه الضرائب أعضاء المجلس ، لانهم يقومون بخدمة دينية في الجهات من أجل اليهود لا تقل عن خدمة الكهنة للهيكل ، والكهنة لا يدفعون شيئا ولهم جراية من الأمة . وفي كل قهل سجل بأسماء الافراد ومحل اقامتهم وما يجب على كل منهم من الضرائب . كما كانت هناك دفاتر لاثبات جميع الانجازات والمصروفات التى يقررها مجلس القهل . وكل هذا مودع عند أمين محفوظات القهل . وكانت الضريبة ، بالعبرية « مس » تثبت في السجل بدقة . وهذا السجل يسمى « بنقاس » .

والذى يدلنا على أن مجلس القهل كان البديل للسندرين ، ما يتمتع به من حق

وكانت خزانة القهل في كثير من الاحيان تستثمر ما عندها من اموال الطائفة ، وكانت اكثر طرق الاستثمار شيوعا هي الاقراض بالربا وبضمانة ممتلكات مرهونة .

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تفننوا في فرض الضرائب على نحو يفوق ثقل الضرائب الرسمية نفسها، فكانوا يحصلون ضرائب على الملح والتبغ والاسماك المملحة والزفت ، واخرى على المتاجر والفنادق ومحال الجزارة والعقارات المؤجرة وبعض الحرف الاخرى . هذا بالاضافة الى ضريبة الاعالة ، لتمويل القوة العسكرية الحكومية الموجودة في منطقة اليهود ، ولدفع مرتبات الموظفين الرسميين المسيحيين في المنطقة .

ولم تشعر اوربا بخطر القهل ، وبانه حكومة يهودية حقيقية في داخل الدولة ، الا في غضون القرن التاسع عشر . فاصدرت روسيا وبولونيا قانونا بغاء القهل سنة ١٨٤٤ . وكانت النتيجة المباشرة لهذا القانون ان بدا اليهود يتحركون نحو الصهيونية . ومع ذلك ظلت هذه الحكومة اليهودية السرية تمارس سلطتها في شرق اوربا سرا حتى سنة ١٨٩٣ ، اى الى ما قبل المؤتمر الصهيونى العالمى الاول بأربع سنوات فقط .

ولم تكن نقمة الحكومات المختلفة على القهل بلامبرر ، او بدون معلومات كافية . بل كانت صدى لتمرد كثير من المنحدرين اليهود على هذا النظام المستبد . ففي سنة ١٨٦٩ نشر اليهودى يعقوب برافمان كتابا يفضح فيه الحكومة اليهودية السرية في القهل . واثار الكتاب ضجة كبيرة في وقته ، وراح القهل يصدر المنشورات لتكذيب برافمان .

وفي سنة ١٨٠٦ حدث في فرنسا التى كان يحكمها نابليون بونابرت حدث هام سبق السنهدين الجديد الذى تحدثنا عنه ، وذلك هو تجميع المستوطنات اليهودية الفرنسية « القهلوت » كلها في مجالس ملية رسمية تحت

ايام الحكم العربى في الأندلس حصل القهل على حق معاقبة اليهود على الجرائم الدينية، حتى تنفيذ عقوبة الاعدام في من تقضى عليه شريعتهم بذلك .

وفي كثير من بلدان اوربا الشرقية، وخصوصا بولونيا ولتوانيا ، كان القهل يستطيع القبض على المارقين عن الدين ، والمتهمين بفضح اسرار الطائفة عند الامم الاخرى « الجويم » وكان المتهم يحبس في سجن خاص ملحق بالمعبد اليهودى ، ويبقى محبوسا يوما او يومين ، يمر به جميع المصلين والزائرين فيشتمون ويصقون في وجهه .

وقد اثار تعسف القهل ، وتدخله العنيف في حرية الفكر وحرية العقيدة سخط كثير من اليهود ، لا سيما بعد انتشار الحريات في اوربا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وتبعاً لذلك كثرت حوادث التنكيل والتعذيب والاهانة التى يمارسها القهل على اليهود . وكانت التهم الموجهة الى المتمردين تتلخص في الكفر والزندقة والانحلال الدينى والخلقى، او « الابيقورية » كما كانوا يسمونها اقتداء بالتلمود . كذلك كثر مع سهولة الاندماج في الامم الاخرى في عصر الحرية اتهم القهل لبعض رعاياه بالخيانة وافشاء الاسرار بقصد تعريض الطائفة للخطر . وهناك حالات كثيرة عوقب فيها اليهود لتلاعبهم باقتصاد القهل باخفاء موارد ثروتهم ، او كتمان الارقام الصحيحة لارباحهم تهربا من الضرائب والاتاوات المفروضة .

وكان اختيار العائل ، او المدير الاقتصادى للقهل ، يتم بالانتخاب لدى الحياة ، او لعدد معين من السنين ، وفي بعض مراكز الاستيطان كانوا ينتخبون عائلا لكل شهر من شهور السنة وكان مجلس القهل يتولى تعيين القضاة ، ورؤساء المحاكم المالية، ورجال الدين ، ومعلمى المدارس ، وكل من يحمل مسئولية في الخدمة العامة .

إشراف الدولة ، تتجمع بدورها في المجلس
الملئ العام ليهود فرنسا « الكونسستوار » .

ومنذ ذلك الوقت حدثت بلاد أوروبا الغربية
وأمریکا حدو فرنسا ، فقام في بريطانيا اتحاد
المعابد اليهودية ، برئاسة الحاخام الدكتور
ناتان أدلر سنة ١٨٧٠ .

ونسأل الآن هل انزاح ظل القهل ، سرا
وجهرا ، عن العالم ؟

الجواب : لا . فالؤتمرات الصهيونية
بفروعها وشعبها وهيئاتها العلنية وعصابتها
السرية التي تمارس الارهاب على اليهود
المحررين الانسانيين، والتي تخطط لبث التفرق
والشقاق بين الاخوة والأقرباء في المجتمعات
الدولية ، وفي المجتمعات العربية والاسلامية،
وفي البلاد حديثة الاستقلال ، والبلاد النامية،
كل هذا ليس الا توسيعا لظل القهل الأسود
الذي يريد أن يتسع وينتشر بمقدار ما اتسعت
الصهيونية وانتشرت في غفلة من شعوب
العالم ، أو بالتواطؤ مع بعض الانتهازيين من
تلك الشعوب .



الشخصية الاسرائيلية وعقدة الشعور

بالاضطهاد

معلوم أن الحقْد هو الابن الشرعى للشعور
بالاضطهاد . والحقْد اليهودى لا يشد من هذه
القاعدة . وليس وجود عقدة الاضطهاد في
الشخصية الاسرائيلية شعورا من تخييل
الوهم أو نسج الخيال . فمما لا شك فيه
أن اليهود ذاقوا مرارة الاضطهاد كثيرا ، وفي
عصور متعددة من تاريخهم . ولكن الذى
يحوم حوله الشك هو كون هذا الاضطهاد
مجانا وبلا جريرة من قبل اليهود . اذ لا تكاد
توجد ظاهرة في مجتمع من المجتمعات بدون
علة أو سبب ، وأحداث التاريخ لا تخبط
خبط عشواء الا نادرا جدا . واذا كانت جماعة

صغيرة من الناس تجعل التمييز العنصرى
أساسا لفكرها منذ البداية ، ثم لا تفكر على
مر العصور الا في تقوية هذا التمييز العنصرى،
فهى جماعة مقضى عليها بالكراهية . فاذا كانت
الى جانب ذلك قليلة العدد ، ضعيفة ، هشة،
تحولت الكراهية بسرعة الى اضطهاد . ويظل
الاستعلاء العنصرى يجذب الكراهية ،
والكراهية تولد الحقْد ، والحقْد يغرى
بالاضطهاد ، واذا باليهود يدورون ، والعالم
على اثرهم ، في حلقة جهنمية مفرغة .

وهناك ذكريات في التاريخ اليهودى يحولها
اليهود الى غذاء لنيران الحقْد والاضطهاد
في تلك الدائرة الجهنمية .

ومن أهم تلك الذكريات ما يسمى عندهم
« الشتات » أو « دياسپورا » ، وهى كلمة
يونانية أخذها العبريون الى لغتهم ، وأدخلوها
في اللغات الأوروبية أيضا ، ومعناها الأصل
التفرق في الأرض ، والذهاب فيها أشتاتا .

والشتات ظاهرة كثيرة الوقوع في تاريخ
اليهود ، حتى قبل ظهور هذه الكلمة .
والحقيقة أن اليهود قد تصورا وضعا طبيعيا
لكيانهم كان في جوهره منافيا للطبيعة ، وبنوا
على هذا التصور كل شعورهم بالاضطهاد .
فكم من قوم يتبعون ديننا واحدا وليسوا من
أصل واحد ، ولا يطالبون بوطن واحد .
فالاسلام والمسيحية والبوذية مثلا تضم
مؤمنين بتلك الشرائع من جميع الأعراق
والأوطان . لكن حدث أن استطاع اليهود في
فترة قصيرة من تاريخهم أن يتجمعوا في أرض
لم تكن لهم ، هى فلسطين ، التى تقول عنها
التوراة نصا : « وسكن يعقوب في أرض غربة
أبيه ، في أرض كنعان » ، (التكوين ٣٧ : ١) .
ثم يتحول تجمعهم هذا الى مملكة قصيرة
الأجل تعاقب على عرشها شاول وداود
وسليمان في مستهل الألف الاول قبل الميلاد .
ثم راحت هذه المملكة تضمحل ، اذ انقسمت
الى مملكتين صغيرتين ضعيفتين بعد موت
سليمان مباشرة . ولم يكن من المتصور

معقل الصهيونية الأكبر في فلسطين « تل أبيب » أيضا .

وبعد سبعين سنة تقريبا ظهر في ايران قورش الأول ، يريد هو أيضا أن يؤسس امبراطورية على انقاض الامبراطورية الكلدانية المتداعية . فساعده أولئك اليهود الحاقدون ، واعتبروه مخلصا ربانيا لهم ، ووصفوه بأنه المسيح المنتظر ، « هكذا يقول الرب لمسيحه ، لقورش ، الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما ، وأحل أحزمة ملوك ، لافتح أمامه المصراعين ، فلا تغلق الأبواب . اننى امشى أمامك ، وأمهد الهضاب ، وأحطم مصراعى النحاس ، وأكسر مزاليج الحديد ، وأعطيك مكنونات الكنوز وذخائر المخابىء ، حتى تعرف انى أنا الرب الذى يدعوك باسمك ، اله اسرائيل ، لأجل يعقوب عبدى ، واسرائيل الذى اصطفيته ، دعوتك باسمك ، لقبتك وانت لا تعرفنى » ، (اشعيا ٤٥ : ١ - ٤) . أما هذا المسيح المنتظر فقد أعطى لليهود وعدا بالعودة الى فلسطين ، يشبه وعد بلفور فى العصر الحديث . وهكذا أصبح للقوم كيان فى فلسطين فى ظل هذا الاستعمار القديم .

وتعاقب على المنطقة بعد ذلك اليونان بقيادة الاسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق . م . ثم تنازعها من بعده خلفاؤه : السلوقيون فى الشام ، والبطالسة فى مصر ، وكانت فلسطين فى أغلب الأحيان من نصيب البطالسة ، يخضع لهم اليهود ، ويستنجدون بهم أحيانا ضد العرب الذين ظهرت فيهم عروش تطالب بفلسطين ، واشتهر من ملوكهم فى النصوص اليسوانية واللاتينية أذينة وحارثة وغيرهما (١٣) .

سياسيا أو اجتماعيا أن يبقى هذا الكيان الغريب فى فلسطين ، وأن يقاوم الفراعنة والأشوريين والكلدانيين . كانت إحدى هاتين المملكتين - وتدعى اسرائيل - تشغل منطقة كبيرة فى شمال فلسطين ، وتتخذ لها هناك عاصمة هى السامرة ، التى تغير اسمها بعد ذلك الى الاسم الحالى « سبسطية » فى قضاء نابلس . أما الأخرى فكانت مملكة يهوذا ، فى جنوب البلاد ، بعاصمتها « اورشليم » .

وزالت المملكة الأولى سنة ٧٢٠ ق . م عندما انقضت عليها الجيوش الآشورية . ويقول رواة اليهود ان عشرة أسباط من الاثنى عشر سبطا الذين يكونون بنى اسرائيل ، كانوا رعية هذه المملكة ، وقد فرض عليهم الشتات على اثر الهزيمة . قالوا : وقد ضاع هؤلاء الاسرائيليون فى بلاد الله ، بحيث ان وجد رجل يؤمن بشريعة موسى ، او يسلك مسلكا قريبا منها ، فانه يعتبر من بقايا هذه الأسباط العشرة البائدة .

أما المملكة الثانية فزالت سنة ٥٨٦ ق . م على يد بختنصر الكلدانى . وكان رعايا هذه المملكة من السبطين الباقيين : يهوذا وبنيامين . وقد ضرب عليهم نوع آخر من الشتات ، اذ نقل الكلدانيون كل من له قيمة فى جماعتهم الى العراق - أرض بابل - حيث فرضت عليهم اقامة اجبارية ، تقول الروايات انها حول موضع كان فى العراق اسمه « تل أبيب » على نهر الخابور ، (حزقيال ٣ : ١٥) . وقد حرصت الصهيونية الحديثة على الإبقاء على نار الحقد اليهودى منذ هذا الحادث الذى يسمى فى تاريخهم « السبى البابلى » ، فسمت

(١٣) هناك ملكان من ملوك العرب اسم كل منهما حارثة ، أولهما كان معاصرا لآخر حكم البطالسة (القرنين الثانى والاول قبل الميلاد) والثانى كان معاصرا للإمبراطور الرومانى يوليوس قيصر ، وكان على خلاف مع اليهود والرومان . وقد ذكرهما المؤرخ اليهودى القديم يوسيفوس فى كتابه « حرب اليهود » .

Josephus; The Jewish War; Penguin Books, 1959; pp. 35, 38, 42; 99, 120.; أما أذينة فكان فى القرن الثالث الميلادى ملكا لتدمر ، وهو الذى حارب الإمبراطور الفارسي سابور الاول ومنعه من التقدم نحو فلسطين ، وضمها هو لملكته . وبعد موته خلفته على العرش زوجته الزباء .

Max L. Margolis et Alexandre Marx; Histoire du Peuple Juif; Paris. 1930; pp. 210, 226.

وورث الرومان البطالسة فاحتلوا مصر وفلسطين معا ، وكان احتلال فلسطين سنة ٦٣ ق . م .

وظل المجتمع اليهودي يغلى سياسيا ودينيا ، وكثرت فيه الفرق والاحزاب والحركات ، وكان بعضها متطرفا شديد التطرف ، يقول بالافتعال والتكفير لأوهى الأسباب ، والطرده والحبس والصلب ، وهى الفترة التى تعرض فيها لذلك سيدنا عيسى المسيح عليه السلام .

وفى سنة ٧٠ ميلادية ضاق الرومان ذرعا بشغب اليهود ، وتأمرهم ، وتمردهم . فوجه اليهم الامبراطور فسبازيان من الاسكندرية جيشا كبيرا يقوده ابنه تيتوس . وبعد قتال مرير استطاع الرومان تدمير هذا الوجود اليهودي الضئيل المشاكس .

ومن هنا فقط تبدأ الدياسپورا ، الشتات ، بالمعنى الاصطلاحي . فلاول مرة فى التاريخ الاكيد المدعم بالوثائق ، يتفرق اليهود لا فى عالم الساميين فى الشرق الاوسط فحسب ، بل فى الجانب الاوربى من البحر الابيض المتوسط ، وحيث أمكنهم المقام فى هذا العالم الغربى . أما فلسطين فكان قد ظهر فيها من قبل دين سماوى جديد يمثل هو ايضا عقبة شبه أبدية أمام مطامع اليهود فى اعادة الكرة ، وهو الدين المسيحى .

ومع ذلك فقد راحوا يتسللون الى الارض المقدسة من جديد ، ولم يكدهم يمضى نصف قرن من الزمان حتى كانت جموعهم فى فلسطين كافية لازعاج الرومان مرة اخرى . وقام فيهم زعيم سياسى وعسكرى متطرف ، هو « بر كوكبا » ، فقاد سنة ١٣٢ ميلادية ثورة ضارية ضد الرومان ، انتهت بالفشل الذريع أمام عملية قمع قادها الامبراطور الرومانى هدرىان ، وانتصر فيها على اليهود سنة ١٣٥ ميلادية . وأمر هدرىان بعدم السماح لاي

يهودى بالاقامة فى فلسطين ، كما ازال كل ما يشعر بوجود لأولئك الناس ، لدرجة أنه محا اسم اورشليم ، ودعاها « ايليا كاپيتولينا » ، وهو اسم صاغه خصيصا من اسمه الاول وهو « ايليو س » واسم « الكاپيتول » وهو المعبد الوثنى الرومانى المقدس فى مدينة روما .

وبعد موت هدرىان راح اليهود يفدون سرا على فلسطين من جديد ، حتى اذا كان القرن الرابع الميلادى وجدنا لهم مدارس تلمودية هناك . ولكن الامبراطور الرومانى قسطنطين الاول اعتنق المسيحية ، وأصدر سنة ٣١٣ ميلادية « مرسوم ميلانو » الشهير ، الذى يعطى للمسيحيين حرية ممارسة دينهم فى الدولة ، ويمنع من التعرض لهم . ثم صدرت ارادة امبراطورية بجعل الدين المسيحى دينا رسميا للدولة . وانعقد فى سنة ٣٢٥ ميلادية مجمع نيقية الاول . وهو اعظم مجمع مقدس مسكونى للمسيحيين فى التاريخ كله . وفيه قام عدد من القديسين ، وآباء الكنيسة الاقدمين أمام قسطنطين الذى كان يرأس المجمع ، فشرحوا كيف اجرم اليهود بالتآمر على حياة المسيح ، وطلبوا من الامبراطور اغلاق مدارسهم التلمودية فى فلسطين .

ويشعر الباحث فى تاريخ الفترة الواقعة بين ثورة بر كوكبا ومؤتمر نيقية - وهى حوالى قرنين من الزمان - بأنها كانت فترة نشاط سرى لليهود فى فلسطين على الرغم من التضييق الرومانى . فكانوا يعودون متسللين ، ومن بينهم زعماء لهم خطرهم ، حتى تكونت منهم جالية قوية ، كانت حوالى سنة ١٥٠ ميلادية تقيم فى منطقة الجليل ، فى مدينة طبرية وما حولها ، وكان لها « سنهدين » يمارس سلطاته سرا أو علنا بحسب الظروف . وأغرب من ذلك أنه حوالى سنة ٢٠٠ ميلادية استطاع الربى العلامة يهودا الاكبر الناسىء جمع الشريعة

وبين هذه الأمم . فقد أرادت جموعهم في الشتات أن تظل - كما أشرنا - وحدات متحوصة في جسم المجتمع الذي تعيش فيه، يرفضها وترفضه ، حتى أصبح اليهودي في النهاية - ظالما أو مظلوما - شخصية مشبوهة كريمة في كل هذه المجتمعات . وراينا في أوقات كثيرة محروما من حق امتلاك الأرض وزراعتها ، واستخدام العمال غير اليهود ، وأخيرا من السكنى في داخل الجماهير ، وممارسة الصناعة والتجارة بأمن وحرية . فلم يبق له والحالة هذه من مصدر للرزق الا ما تشمئز منه الفضائل الدينية من أعمال ، كالربا ، والصيرفة ، وبعض الحرف الشاقة أو القدرة كدبغ الجلود ، واستخراج الملح ، وتقديد الأسماك ، وسبك المعادن ، والصباغة ، الى جانب ألوان من الاحتيال وراء ستار السمسرة أو ألعاب القمار والمراهنة . وقد ضاق كثير من المصلحين اليهود بمثل هذا النمط من المعيشة ، ووصفوا الذين يأخذون به بأنهم من « رجال الهواء » ، أى الذين يعيشون بلا ركيزة ولا أساس، ويمكن للمجتمع أن يستغنى عنهم . (١٥)

وفي أوروبا المسيحية زاد بغض اليهود بسبب ما كان بينهم وبين المسلمين في الشرق والأندلس والمغرب من تفاهم وتعاون ، في ظل حرية أعطاهم لهم العرب على نحو لم يروه في التاريخ، ربما في عهد سليمان نفسه . ثم جاءت الحروب الصليبية فلهبت نار هذا السخط ، بحيث كثرت حوادث اعتداء الصليبيين على التجمعات اليهودية الواقعة على طريقها . ففي سنة

الشفوية (المشنا) وتدوينها في صورتها النهائية، وهى المتن الأساسى الذى يشرحه التلمود. (١٤)

وهكذا كانت الفترة من ٧٠ الى ٣٣٠ ميلادية مرحلة انتقال لليهود من فلسطين الى الشتات، بصور مختلفة انتهت بتضافر القوة الرومانية مع العقيدة المسيحية في الضغط على اليهود .

وأخيرا أخذ هؤلاء اليهود يتفرقون ، ويمعنون في البعد عن مراكز الاضطهاد ، الى أبعد ما استطاعوا الوصول اليه من بلاد العالم، حيث عاشوا في هذا الشتات ، تنضخهم في نفوسهم عقدة الشعور بالاضطهاد ، ويتضخم معها الحقد على أمم العالم ، فلا يبقى لهم حل بعد ذلك الا العزلة ، التى ألقت بهم في النهاية في « الجيتو » .

وإذا كان السنهدين والقهيلة من صور العزلة اليهودية الاجتماعية التى أراد بها اليهود أن يحافظوا لأنفسهم على كيان يستعصى على اللوبان في الأمم الأخرى ، فان « الجيتو » - أو الحى الخاص بسكنى اليهود في أوروبا - كان صورة أخرى من اندحار اليهودية وراء أسوار معمارية حقيقية فرضها القوم على أنفسهم ، وأقرتهم على ذلك الأمم التى يعيشون بينها . كان الجيتو تنويجا لمسلك العزلة والعداوة بين اسرائيل والأمم الأخرى ، وكان بوثقة جديدة أعيد فيها سبك الشخصية الاسرائيلية .

كانت الطريقة التى يعيش بها اليهود بين تلك الأمم كافية لإيجاد الكراهية المتبادلة بينهم

(١٤) كان اليهود ، وما يزالون ، يحرصون على العزلة عن أمم العالم ، ولا يريدون أن تعرف هذه الأمم عنهم شيئا الا ما يسمحون هم بالاطلاع عليه . وكان العهد القديم العبرى (أى اسفار التوراة الخمسة ، وكتب الانبياء ، واسفار المألوات الحكمية) تعتبر عندهم من الاسرار التى يجب الانتساب الى الجويم . فلما قام اتباع السيد المسيح بابلاغها الى غير بني اسرائيل ، بلغاتهم ، فكر اليهود فورا في انشاء مستودع فكرى ودينى آخر خاص بهم . ومن هنا نبتت فكرة الشريعة الشفوية (المشنا) وتفسيرها الخاصة (التلمود) ، واعطيت عندهم نفس الدرجة من القدسية التى لتوراة موسى ، بل أكثر ، حتى تستمر في داخلها عزلتهم عن العالم ، ورفضهم الانفتاح على شعوبه .

(١٥) بالالمانية - واليهود الاشكناز المتكلمون بهذه اللغة او بالرطانة الالمانية الخاصة بالجيتوهم مصدر التسمية : Die Luftmenschen

مميزة على ملابس اليهود ، وكان أشهر هذه العلامات « العجلة » ، وهي حلقة يشبثها اليهودى على صدره . وقد سهلت هذه العلامة تعرض اليهود للاهانة والعنف في الطريق ، حتى استنجدوا بالبأبأ غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) الذى أمر بالتسامح معهم وتجديد القوانين الرحيمة بهم التى صدرت فى عهد البأبأ أونوريوس الثالث والبأبأ إسكندر الثالث .

ومع ذلك فقد أحس اليهود بأن المجتمع الأوربى قد لفظهم . فأثروا السكنى فى أحياء وحارات خاصة بهم ، كانت تسمى « حى اليهود » أو « حارة اليهود » أو « اليهودية » فقط . وكانت هذه المستوطنات شديدة الزحام كثيرة القدارة ، تنتشر حولها الأقاويل الساخرة الحاقدة . إذ كان الناس يعتقدون أنها مأهولة بالسحرة والمشعوذين ، وأن الصغار يتسكنها مع اليهود . بل أن الرسامين فى تلك الفترة تعودوا أن يرسموا اليهودى على شكل الشيطان ، له قرنان ، وذنب يتدلى وراء قفطانه ، وقد يكون له طرف مدبب مثل سنان الرمح . (١٧)

وانتشرت كذلك منذ تلك الأزمنة « تهمة الدم » التى تنسب إلى اليهود ذبح بعض المسيحيين ، وخلط دمهم بخبز عيد الفصح ، وهى تهمة سرت فى كل أنحاء العالم ، وظلت تنبثق شرقا وغربا حتى مشارف القرن العشرين . (١٨)

فى أوائل القرن الثالث عشر كان يحكم الثلث الأوسط من أوروبا الامبراطور فردريك

١١٧٩ مثلا ، كان جماعة من اليهود مسافرين من مدينة كولونيا الألمانية ، على طريق يحاذى نهر الراين . وعلى هذا الطريق وجدت جثة قتيلة مسيحية ، اتهموا هم بقتلها . وخيرتهم حكومة الولاية بين اعتناق المسيحية أو القتل ، نض اليهود الارتداد عن دينهم ، والقوا جميعا فى النهر . واشتدت العداوة بين اليهود والمسيحيين الألمان ، وكان من مظاهرها الإفراط فى فرض الغرامات والاتاوات على بعض الجاليات الاسرائيلية هناك . وشجع هذا « ناربيين الصليبيين على التنكيل باليهود ، وتكرر الاعتداء عليهم أبان الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة ، مما سجله كاتب يهودى معاصر لتلك الفترة ، هو أفرايم بن يعقوب (١٦) من مدينة بون الألمانية (توفى حوالى سنة ١٢٠٠) .

ولم يكن اليهود يرحمون المسيحي إذا تعامل معهم أيضا . وكان سلاحهم هو اقراضه المال بالربا الفاحش ، حتى أن البأبأ انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) أصدر أمرا بأن يكون القرض الذى يأخذه المقاتل الصليبي من اليهود بدون فوائد ، واليهودى المخالف يعاقب بالحرمان المطلق من التعامل مع المسيحيين ، واتخذ هذا الأمر البأبوى صفة القانون فى مجمع لاتران المقدس الرابع سنة ١٢١٥ .

وتفنن اليهود مع ذلك فى التلاعب بأرزاق المسيحيين وأموالهم . وكان لا بد من التفكير فى طريقة يعرف بها اليهودى من غيره فى المدن والأسواق . وظهرت فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر أوامر رسمية تفرض علامات

Max L. Margolis et Alexandre Marx; Histoire du Peuple Juif; Paris; 1930; p. 345.

(١٦) الرجوع :

(١٧) من امثلة ذلك - وهي كثيرة لا تكاد تحصى - رسم انجليزى من العصور الوسطى :

Cecil Roth; A short History of the Jewish People; London, 1953; plate 79.

(١٨) من المؤلفات الخاصة بهذا الموضوع :

Albert Monniot; Le Crime Rituel chez les Juifs; Paris, 1914.

اللفظة مع الاستعمال ، فلم يبق منها الا آخرها « جيتو » ، الذي انتشر من بالرمو ليصبح اسما لكل الاحياء المماثلة في أوروبا .

ومع ذلك فان الأخذ بهذا الاشتقاق ما يزال موضع نقاش بين الباحثين . فاللغوى الفرنسى « البير دوزا » يقول ان هذه الكلمة لم يرد عليها شاهد الا في اللهجة الايطالية لمدينة البندقية « فينيسيا » يرجع الى سنة ١٥١٦ ، اذ كانت اسما لحى فيها ، توجد به مسابك المعادن ، وكان لهذا السبب قدرا ملوثا بالدخان مجللا بالسواد ، وهو الذى أصبح مسكنا لليهود . ويضيف ان هذه الكلمة لم ترد في النصوص الفرنسية القديمة الا مرة واحدة ترجع الى سنة ١٦٩٠ ، ولم تتكرر بعد ذلك الا ابتداء من سنة ١٨٤٢ (١٩) . أما معجم « ملتسى » الايطالى فانه يذكر ان الجيتو صدر به مرسوم من البابا بولس الرابع فى ١٤ اغسطس سنة ١٥٥٥ ، يحتم على اليهود الاقامة فى حى خاص بهم ، يغلق عليهم فى ساعة معينة من المساء ، ولا يفتح حتى مطلع الفجر . وبقي أمر الجيتو ساريا فى روما الى أن ألغاه البابا بيوس التاسع فى ابريل سنة ١٨٤٧ (٢٠) . وأمام هذه المشاكل تقول دائرة المعارف العبرية « اوتسار اسرائيل » ان اشتقاق كلمة جيتو غير معروف . وتروى أن يهودا دى مودينا زار فلورنسا فى القرن السادس عشر فوجد اليهود يسكنون فى حى خاص عليه سور ، اسمه « جيتو » . وتقول ان كلام دى مودينا يحتمل أن يكون الجيتو اسما للسور المحيط بالحى ، أو اسما للحى اليهودى نفسه . ولكن يفهم من المقال أن اليهود قبل اقرار الجيتو كانوا يختارون لانفسهم أماكن منعزلة عن الأمم الأخرى ، ليقيموا فيها حول معبدهم

الثانى (١٢٢٠ - ١٢٥٠) . واشتهر حكم هذا العاهل الألماني بكثرة الخلافات مع الفاتيكان من جهة ومع بعض الولايات الايطالية القريبة من المركز البابوى . فاختار طريق الانفتاح العلمى والحضارى لتدعيم سلطته ، وراح يقرب اليه العلماء من مسيحيين ومسلمين ويهود . وكان له قصر فى بالرمو بجزيرة صقلية ، يعتبر مركزا لهذه الحركة الفكرية ، كما عنى بتقوية الجامعات والكليات ، وأسس جامعة فى نابولى ، كما وضع الخطوط الأولى لجامعة فيينا . وفى ظل هذا التسامح كثر اليهود فى مملكته . فحدث سنة ١٢٣٥ فى مدينة « فولدا » ان انتشرت « تهمة دم » ، فى غير موسم عيد الفصح ، تتلخص فى أن رجلا طحانا مسيحيا ذهب مع زوجته الى الكنيسة . وعند عودته الى البيت وجد جميع ابنائه - ثلاثة أو خمسة على اختلاف فى الروايات - مذبوخين . واتجهت الشبهة الى اليهود . فزحفت جموع من المسيحيين على الحى الخاص بهم وذبحوا اثنين وثلاثين - وقيل أربعة وثلاثين - ذكورا واناثا . واتسمت الفتنة حتى وصلت الى مسامع الامبراطور ، فأمر بعقد لجنة من اليهود المتنصرين ، الدين لهم معرفة بالشريعة الاسرائيلية ، ليقولوا كلمة الدين فى تلك التهمة . وصدر قرار اللجنة بتبرئة اليهود ، ولكن السخط الشعبى ضدهم أجبر فردريك على أن يحكم عليهم بدفع تعويضات للمسيحيين .

ووصلت الفتنة الى بالرمو ، فاضطر الامبراطور لتخصيص حى مغلق يسكن فيه اليهود وحدهم ، تأمينا لهم ، وتجنباً للاضطرابات . وفى رأى كثير من مؤرخى اليهود أن هذا الحى كان يسمى بالاطالية « بورجيتو » أى القرية الصغيرة ، ثم تآكلت

ومقبرتهم ومدرستهم التلمودية ، طبقا للنظام الاجتماعي الذي وضعه مجلس « القهل » (٢١)

وعلى أية حال فإن حارة اليهود كانت رمزا للترمت ، والجمود الفكري والاجتماعي ، والعزلة عن الانسانية ، والحقدها عليها . فكانت تتعرض لغارات وهجمات من جيرانها لأسباب أساسها في الغالب اقتصادي ، هو ثورة الشعوب على الربا اليهودي والتفنن في ابتزاز الأموال . ولهذه الحارة أسماء أخرى في العالم ، لعل من أشهرها وأقربها لفظة « الملاح » في المغرب العربي . وربما جاءت من احتراف اليهود تجارة الملح ، أو تمليح الأسماك ، أو دبح الجلود باستخدام الأملاح المختلفة لذلك .

وربما كان أول خبر عن مسكن خاص باليهود يرجع إلى ما تذكره التوراة ، من إجبار فرعون لبني إسرائيل على البقاء في المكان الذي كانوا قد اختاروه لأنفسهم في إقليم « جوشن » بشرق الدلتا ، في موضع يدعى « رعمسيس » ، حصرهم المصريون فيه ، « وجعلوا عليهم رؤساء للتسخير ، حتى يرهقوهم بأعبائهم ، فبنوا لفرعون مدينتين للمخازن ، بيتوم ورعمسيس » ، (الخروج ١ : ١١) . وبالطبع لم يكن هذا المقام الإجباري يحمل اسم الجيتو في تلك الأزمان السحيقة ، ولكنه من نفس هذا القبيل .

والذي نريد أن نستخلصه هو أن اليهود منذ القدم يبدأون طائعين مختارين بفرض حصار على أنفسهم وراء أسوار من العزلة والتزمت والتعصب الديني والعنصري ورفض الأمم الأخرى ، ثم ما يلبث هذا الحصار أن يصبح إجباريا بأيدي أعدائهم ، لا يستطيعون الفكالك منه . وأشد ما يخشاه كثير من مفكري اليهود في العصر الحديث ، هو أن يكون « الوطن

القومي » الذي تخيلته الصهيونية في فلسطين ، وأصبح أخيرا دولة إسرائيل ، مجرد معزل اختياري عالمي لليهود ، معرض لأن يصبح نوعا من الجيتو الضخم ، الذي تنتقل مقاليدته إلى القوى العظمى المتحكمة في سياسة العالم ، فيبقى اليهود محبوسين فيه ، ومن حولهم تلك الأسوار البشرية والحضارية الضخمة التي تتمثل في العالم العربي .

وتصل عقدة الشعور بالاضطهاد في الشخصية اليهودية إلى ذروتها عندما يصبح الاضطهاد الموجه ضد اليهود نوعا من العقيدة أو المبدأ السياسي والاجتماعي فيما يسمى « (اللاسامية) »

وهذه الكلمة من أشد المصطلحات الخاصة باليهود حرجا ، وهي أيضا من أكثرها ورودا على الألسنة والأقلام ، بين اليهود وغيرهم من أمم العالم . ومع ذلك فإن معظم استعمالها في المعسكرين لا يخلو من وهم وتساؤل وخطأ ومغالطة . ولغة « اللاسامية » التي شاعت بين العرب هي ترجمة غير دقيقة للكلمة الأوربية « أنتيسيميتيزم » ، التي تعني حرفيا « المذهب المعادي للسامية » . أما من حيث المقصود الفعلي منها فهو « معاداة اليهود » أو « نبذ اليهود من المجتمع » أو « مناهضة اليهود » . لأنهم الممثلون الوحيدون للجنس السامي في أوربا ، على حسب الدعوى العنصرية التي أشاعوها هم عن أنفسهم .

أما الخطأ والمغالطة في استعمالها فانهما يأتيان غالبا من جانب اليهود . فاليهودي يعيش في عقدة الشعور بالاضطهاد بسبب عنصريته ، ويتخيل أن كل ما يحل به من مشاكل في علاقاته بالأمم الأخرى إنما يرجع إلى أنه يهودي ، يكرهونه لهذا السبب ، ويحقدون عليه ، ويسعون دائما لإيدائه ، لأنهم

نشره مرة أخرى سنة ١٩٣٤ (٢٣) . وتلاحظ أن ظهوره لأول مرة كان في أعقاب قضية « دريفوس » ، لأن المتهم فيها كان يهوديا ضابطا بالجيش الفرنسي . وكانت المحاكم الفرنسية قد أدانت دريفوس بالخيانة العظمى ، وتسليم وثائق عسكرية في زمن الحرب إلى قيادة الجيش الألماني . وانبرى المحامي والأديب الفرنسي الكبير « اميل زولا » للدفاع عن دريفوس وهو في سجنه . ولم يكن تحريك زولا للقضية يهدف إلى انتقاد هذا الضابط السجين ، ولكنه كان حركة أساسية في برنامج سياسي يقوم على الاشتراكية الديمقراطية ، المناهضة للفكر الرجعي ممثلا في اليورجوازية والكنيسة . وهذا ما يفسر لنا أن الأمر لم يقف عند ساحة القضاء ، بل أثار زولا « مشكلة اليهود » كلها في الصحافة وفي الرأي العام بهذه المناسبة (٢٤) . وفي نفس الوقت كان الكاتب الفرنسي « ادوار دريمون » يقود معركة عكسية بكتابه الخطير « فرنسا اليهودية » الذي نشره سنة ١٨٨٦ (٢٥) ، أي قبل صدور الحكم على دريفوس ببضع سنوات ،

مصابون بداء « اللاسامية » . ومن أجل هذا كانت تلك الكلمة أكثر رواجاً لدى اليهود منها عند غيرهم .

وهي بلفظها الأوربي مستحدثة . يقول اليهودي الصهيوني « ليون پولياكوف » في كتابه « تاريخ مختصر للاسامية » أنها استعملت لأول مرة على يد الكاتب الألماني « فلهلم مار » حوالي سنة ١٨٨٠ (٢٢) .

ويبدو أنها صادفت هوى في أفئدة اليهود ، وفتحت لهم آفاقاً جديدة للهجوم والدفاع ، إذ جعلوها « تهمة » لكل من لا يرى رأيهم ، ولا يساعدهم على تنفيذ مآربهم وإنجاز خططهم ، مهما كانت هدامة ومدمرة . فلا عجب بعد ذلك إذا خصص لها مفكرهم دراسات ومؤلفات ، بعضها مختصر كالذي سبقت الإشارة إليه ، وبعضها مفصل مستفيض ، مثل كتاب « برنار لازار » الذي ظهر بالفرنسية في مجلدين سنة ١٨٩٤ بعنوان « اللاسامية : تاريخها وأسبابها » ، ثم أعيد

Léon Poliakov; Petite Histoire de l'Antisémitisme; Paris; p. 7.

(٢٢)

Bernard Lazare; L'Antisémitisme, son Histoire et ses Causes; Paris; 1934

(٢٣)

(٢٤) كان اميل زولا يمنح صداقته وتأييده ليهود فرنسا ، تدعيماً لركائز سياسية واجتماعية يريد منها كسب انصار جدد للاشتراكية الليبرالية التي كان يدعو لها ، من هؤلاء الاصدقاء برنار لازار صاحب كتاب اللاسامية . وقبل انغماسه في قضية دريفوس كانت له كتابات كثيرة في صالح اليهود من أشهرها « اللاسامية والصحافة الدنسة » في صحيفة « الفيجارو » يوم ٥ ديسمبر ١٨٩٧ .

L'Antisemitisme et la presse immonde; Le Figaro, 5 Décembre 1897.

ثم اصدر بعد ذلك منشورات مستقلة أهمها « رسالة إلى الشباب » « رسالة إلى فرنسا »

Lettre à la Jeunesse — Lettre à la France.

اما اهم ما كتبه في قضية دريفوس فهو مقال بعنوان : انا انهم ! في جريدة « لورور » الفجر - عدد ١٢ يناير ١٨٩٨ .

Emile Zola; J'Accuse ! — L'Aurore 13 Janvier 1898.

وهو خطاب مفتوح موجه إلى رئيس الجمهورية الفرنسية ، يعلن فيه زولا تبرئة دريفوس ، ويذكر من سماهم المتهمين الحقيقيين في القضية . وقد احدث المقال ضجة كبيرة ، ووزعت الصحيفة يومها ثلاثمائة ألف نسخة ، وهو رقم قياسي في أوروبا وأمريكا في تلك الأيام .

ويؤكد بعض الباحثين أن عنوان المقال من اختيار السياسي الفرنسي الداهية كليمنصو وأن المقال نفسه من املاء برنار لازار . المرجع :

Henri Duraît-Crozon; Précis de l'Affaire Dreyfus; Paris, 1924; p. 125 .

Edouard Drumont; La France Juive; Paris, 1886.

(٢٥)

الذي يرمى الى أن يتخذ اليهودى مكانه في الحضارة الحديثة .

كل تلك الملابس جعلت قضية دريفوس حدثا هاما جدا في التاريخ اليهودى الحديث . وكان يقيم في باريس في تلك الأثناء « تيودور هرتسل » ، ويعمل مراسلا لصحيفة نمساوية تصدر في فيينا باسم « نويه فراي پرسه » أى الصحيفة الحرة الجديدة . وحوالى نفس الوقت الذى كان زولا يحرك فيه الجماهير في صالح اليهود ، وكان دريمون يحركها في الطريق العكسى ، وكان برنار لازار يصدر كتابه عن اللسامية ، وكانت الجماهير الفرنسية تتطاحن في تلك العاصفة ، رأى هرتسل أن الحل الجذرى للمشكلة اليهودية هو فى إقامة وطن لهؤلاء الناس يبتعدون فيه عن الأمم الأخرى ، تحكمهم حكومة منهم . وانطلاقا من هذه الفكرة نشر كتابه المشهور - بالالمانية - « دولة اليهود » (٢٦) . ثم تزعم حركة تهدف الى تحقيق الحل الذى يراه ، هى « الصهيونية » ، التى عقد لها المؤتمر العالمى الاول فى بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، حيث قرر المجتمعون بكل بساطة « اغتصاب فلسطين » لتكون فى المستقبل هى « دولة اليهود » .

وما دما نتحدث عن عقدة الشعور بالاضطهاد وأثرها فى الشخصية الاسرائيلية ، فاننا نشير الى أن طبعة ثانية من كتاب برنار لازار « اللسامية » ظهرت سنة ١٩٣٤ ، بعد وفاة المؤلف باحدى وثلاثين سنة ، ولم يكن ذلك بالصدفة . اذ كان الحزب النازى الذى يتزعمه هتلر قد أصبح حزب الأغلبية فى ألمانيا ، وكانت اللسامية من النقط الأساسية فى برنامجها .

اذ ان الحكم قد صدر على اثر المحاكمة الاولى سنة ١٨٩٥ . واشتهر كتاب فرنسا اليهودية بأنه من أمهات الكتب التى تأخذ مسلك اللسامية . والواقع أن قضية دريفوس كانت ذات ابعاد على أكبر جانب من الخطورة ، بسبب الأحداث التى لابستها :

فالاتحاد الاسرائيلى العالمى الذى قام فى باريس منذ عام ١٨٦٠ كان يمارس برنامجا انعاش فكرى واقتصادى واجتماعى بين يهود العالم ، كما كان ينشئ مستوطنات يهودية فى فلسطين .

وفى انجلترا كانت الجمعية الانجليزية اليهودية تمارس نشاطا من نفس النوع منذ سنة ١٨٧١ .

وكانت سويسرا قد اعترفت بالحقوق المدنية لليهود بقانون صدر عام ١٨٦٣ .

وفى أوروبا الشرقية كان الوعى اليهودى القومى قد بلغ ذروته بسبب الاضطهاد الذى كان يجتاح اليهود أحيانا ، ثم يخف عنهم فى فترات معينة . الى ان ظهرت أول منظمة صهيونية علنية على يد شباب من يهود اوديسا فى روسيا سنة ١٨٨٣ ، هى « احباء صهيون » ثم انتشرت لها فروع فى كثير من بلدان أوروبا الشرقية ، وفى بولونيا على الخصوص .

أما يهود أمريكا فقد قامت فيهم حركة تحررية تهدف الى ترك التزم القديم ، وكان ذلك سنة ١٨٨٥ . فقد اجتمع عدد من الحاخامين الأمريكان فى بيتسبورج بولاية بنسلفانيا وقرروا تكوين « المذهب الاصلاحى »

تطرف اليهود ، وتعصبهم ، وخطتهم السياسية بالدين ، ووضع ذلك كله تحت شعار التكتل العنصرى ، وما يداخل أنفسهم من كبرياء تتجلى في اعتقادهم أنهم شعب الله المختار ، مما أدى الى تقوقعهم وعزلتهم ، وتبرير تلك العزلة بالخوف من أن يتنجسوا بالاختلاط بالأمم الأخرى ، وما ترتب على ذلك من أوضاع مادية وروحية وثقافية تجعلهم منبوذين مكروهين . هذا ما يقوله المؤلف اليهودى في تحليل اللسامية من جانب قومه . وهو بالطبع ينتقل الى ما كان لذلك من رد فعل عند الأمم الأخرى . وهو مهما كان عنيفا وقاسيا ، لا ينساب من قوة مجنونة لا ضابط لها .

لكل ذلك ينبغى الحذر الشديد أمام لفظة اللسامية ، ويتعين التأكد من صحة استعمالها وتوجيهها توجيهها عادلا كلما صادفناها . لاسيما عندما تروجها أجهزة الدعاية اليهودية . ومهما يكن من شيء فإن هذه التهمة على كثرة الالتجاء اليها من جانب اليهود ، لا يستقيم الصاقها بالعرب . فالعرب ساميون أيضا ، وحضارتهم من أكثر الحضارات تسامحا ، وبخاصة مع اليهود . فما من شك أن ائمن ما تحتفظ به الثقافة الاسرائيلية ، بعد التوراة والتلمود ، إنما ترعرع في ظل العروبة والاسلام وهو العصر الذهبى للآداب والعلوم والفنون عند اليهود . يكفى أن لفتهم لم تعرف النحو والصرف والمعاجم والتفسير وتفصيل الأحكام الشرعية والكتابة في الفلك والرياضيات والفلسفة . والأخلاق والكيمياء والطبيعة وعلوم النبات والصيدلة والطب والملاحة الا في العصر العربى . ويكفى أن أجمل ما فى العبرية من روائع الشعر والنثر وآداب الرحلات والموسيقى والغناء إنما كان بمجاورة العرب وبتأثير من

واذا كانت كلمة اللسامية من اللفاظ المستحدثة ، لم يمض على صنعها قرن من الزمان فإن مفهومها فى الأذهان قديم ، شأنها شأن الجيتو . فالمفكرون فى التاريخ اليهودى يعتبرون فرعون موسى رائد اللسامية الأول . ثم تتوالى الأجيال فىرى اليهود بختنصر الكلدانى ، وثسپازيان وتيتوس وهديران وغيرهم من أباطرة الرومان الساخطين على اليهود ، وكذلك بعض البابوات فى روما فى العصور الوسطى ، ثم حملات التنكيل التى كان يقوم بها سكان أوربا الشرقية على يهودهم مما يسمى « يوجروم » .

ولم يكن تعرض اليهود لمثل تلك الشدائد بسبب دينهم كما يزعمون ، ولكنها الأطماع الاقتصادية والسياسية ، والمصالح المادية التى تتخفى وراء الدين ، لتكون ائارة الفتنة واشعال نار التعصب أسهل وأسرع اثرا . وتعرض اليهود للاضطهاد المتكرر الذى غرس فى قلوبهم ما نعلم من الحقد على أمم العالم له أسباب أعمق من أنهم يهود . ولكن اللسامية كانت وما تزال تهمة مريحة جدا ، سهلة الاستعمال ، يضعون على حسابها كل أوزارهم . وليس معنى ذلك أن اللسامية فكرة وهمية ، فهى واقع لا شك فيه ، نلاحظه فى تعامل أمم العالم أحيانا مع اليهود . ولكن أمم العالم ليست مجنونة بحيث تتنكر لفئة من الناس ظلما وعدوانا وبغير سبب . فأسباب اللسامية كثيرة جدا ، تعود المسئولية فى معظمها الى الشخصية اليهودية نفسها . وهذا برنار لازار الكاتب اليهودى الذى عالج الموضوع يجعل عنوان الفصل الأول من كتابه : الأسباب العامة للسامية . وتحت هذا العنوان يضع قائمة طويلة من الأسباب ، كلها صادرة عن

أساندهم (٢٧) . ثم اذا كانت اللاسامية تفترض أن اليهود ضحية ، وأن من يؤمن بهذا المسلك هو المعتدى ، فالوضع معكوس تماما في ظل الصهيونية : العرب هم الضحية ، والمعتدى هو التكتل الصهيوني .

وقد مرت بنا لفظة « پوجروم » في الحديث عن ذروة السخط على اليهود في أوربا الشرقية . والكلمة روسية الأصل ، تعنى التنكيل ، أو « النكال » ، وهو الغارة الشعواء التي يشترك فيها العامة متجهين الى مراكز التجمع اليهودي للفتك بها .

ويقسم كتاب اليهود پوجروم الى نوعين:

أحدهما تلقائي ، يشب فجأة كالحرائق أو البراكين . وكان يحدث عادة على أثر وجود قتل روسي مسيحي على مقربة من تجمع يهودي ، أو اختفاء شخص في ملابس تثير الشبهة حول اليهود . وقد تكون هناك روايات من الحقد ضدهم بسبب الديون والربا ، وما يضاف الى ذلك من طمع بعض الهمج في مقتنيات اليهود .

والثاني هو المخطط الرسوم الذي سبقه تدبير سرى اشترك فيه بعض أنصار اللاسامية ، وقد حصلون قبل التنفيذ على اغضاء المسؤولين

في المنطقة ، أو على موافقتهم . ويكون لهذا النوع هدف معين تعمل الغارة العنيفة على انجازه .

ومن أشهر غارات النكال المدبرة تلك التي حدثت في جنوب روسيا عام ١٨٨١ . فقد كانت أعصاب الروس متوترة على أثر حرب القرم بينهم وبين تركيا العثمانية سنة ١٨٧٧ . ومنذ ذلك الوقت ظهر سخط الروس على اليهود في الجنوب ، بالقرب من أوديسا . ولا يقول المؤرخون اليهود لماذا . لكن الواضح أن يهود الجنوب الروس وضعوا أنفسهم في موقف المستفيد من الكارثة ، بالتلاعب في الاقتصاد ، مع بعض محاولات من جانب الزعماء اليهود للتفاهم سرا مع الأتراك ، على أمل الحصول على تيسيرات للهجرة الى فلسطين . لذلك لم يكن هذا النكال منبثقا من العوام ، بل كان يتزعمه المثقفون ووجهاء المجتمع الروسي . ثم تحول في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر الى حركة عداوية حقيقية انتشرت بين الطلبة في المدارس الثانوية والكليات ، ولا سيما في مدينتي أوديسا وكييف . وفي ١٥ أبريل سنة ١٨٨١ انفجر پوجروم من هذا النوع في منطقة « خرسون » ، وانتقل منها بسرعة الى كييف وأوديسا وعدد كبير آخر من البلدان الروسية . مما يشعرنا بأن هذا النكال لم يكن كله ظلما

(٢٧) تاريخ الفكر اليهودي في المصور الوسطى الاسلامي يعتبر وحده ميدانا للبحث العلمي التخصصي ، ولا يكاد عدد الذين اسهموا في هذه الحركة الناهضة المتحررة يحصى ، ولكن نذكر على سبيل المثال :

سعديا سعيد بن يوسف الفيومي ، الخاخام الأكبر للعباسيين في بغداد ، لفوى ، وفقه ، ومفسر - أبو سليمان داود بن ابراهيم الفاسي ، لفوى ، مؤلف اقدم معجم ابجدي معروف للغة العبرية - يهودا بن قريش المغربي ، لفوى - أبو زكريا يحيى بن داود حيوج ، لفوى - صمويل بن نغريلة ، الأندلسي ، وزير واديب - ورجل سياسة واقتصاد - حشداى بن شبروط ، كاتب واديب ورجل سياسة - مناحم بن سروق ، لفوى - دونش بن لبرط ، لفوى ادخل أوزان الشعر العربي طبقا للخليل بن احمد الى الشعر العبري - يحيى بن فاقودة ، فيلسوف وفقه وعالم أخلاق - ابن تبون ، كاتب ومترجم - يهودا الحريزي ، رحالة واديب وشاعر أول من ادخل فن كتابة المقامات في الادب العبري - أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي ، طبيب ونحوى لفوى ، وهو أشهر نحاة اليهود - يهودا اللاوى ، اديب وشاعر وعالم في العقائد ، صاحب كتاب الخزرى - ابراهيم بن عزرا شاعر وكاتب ولفوى ، ومن أكثر اليهود تبحرا في علوم البلاغة - ابن جبيرول ، فيلسوف وفلكي وكاتب وشاعر ، اشتهر بقصائده الدينية - موسى بن ميعون ، طبيب وصيدلي وفقه وعالم في العقائد ، مؤلف « دلالة الحائرين » - بنيامين التطيلي ، فلكي ومؤرخ ورحالة يهودي أندلسي ، كتب رحلة مشهورة جدا .

اليهودية كانت قد نظمت لها حرسا اسرائيليا مسلحا يتولى التصدي للمهاجمين ، مما اعتبرته الحكومة الروسية مخالفا للقانون . وكانت الحكومة القيصريّة اذ ذاك كثيرة المخاوف من المؤامرات والحركات السرية والانتقلايات . وكان عندها علم اليقين بأن عناصر يهودية تشترك في كثير من ذلك ، بعضها فوضوى يريد اسقاط الحكومة لمجرد التخلص منها ، وبعضها شيوعى يريد اسقاط الحكومة واقامة جمهورية اشتراكية ماركسية . وباختصار كان موقف اليهود معقدا جدا ، فلا هم يتمتعون برضا الشعب ، ولا هم يستظلون بثقة الحكومة .

وكانت روسيا القيصريّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تضم نصف يهود العالم في اراضيها . ففي احصاء سنة ١٩٠٩ كان عدد اليهود المستوطنين في روسيا القيصريّة والأراضي الواقعة تحت نفوذها ٥٠٠.٠٠٠ ره ٢١٠ ره ، وكان عدد يهود العالم جميعا اذ ذاك ١١.٥٠٠.٠٠٠ ره . وكانت هذه الجالية الكبيرة قد بدأت تتخذ صورة المشكلة الحقيقية في عهد الامبراطورة كاترين (١٧٢٩ - ١٧٩٦) اذ حدثت في عهدها منازعات على مناطق النفوذ مع روسيا والنمسا . وكان اقتسام بولونيا هو أهم ما في الموضوع ، وقد حدث اتفاق على التقسيم ثلاث مرات من ١٧٧٢ الى ١٩٧٣ . وفي كل مرة كانت روسيا تحصل على مزيد من الأراضي البولونية ، حتى زالت بولونيا من الخريطة بعد التقسيم الثالث ، ولم تسترد استقلالها الا بعد الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ . وفي هذا التقسيم ضمت روسيا كذلك مقاطعات اوكرانيا ، وروسيا البيضاء (بيلوروسيا) ، وأقاليم بحر البلطيق ، فكان هذا من أهم أسباب الزيادة الكبيرة في عدد اليهود الروس ، لأن تلك الأقاليم - وبخاصة بولونيا - كانت مهجرا لليهود منذ القدم . وكانت عداوة الروس لليهود - بسبب الترفع اليهودي والعزلة عن المجتمع - واضحة منذ القرن السابع عشر ، واتخذت صورة

وعدوانا ، أن من بين مدبريه حزبا سياسيا سريا اسمه «نورود نيا فوليا» اى «الاشتراكية الثورية» ، وكان يضم كثيرا من اليهود ، اشتركوا هم أيضا في الحملة . وإلى جانب هذا التنظيم كانت هناك جمعيات أخرى تدعو إلى التغيير الشامل في أوضاع روسيا القيصريّة ، منها جمعية تسمى «بوجوروف» تصدر منشورات تطالب فيها بوضع حد للعريضة اليهودية في مقدرات الوطن ، وكان بعض أعضائها من اليهود . كما كانت لها صحيفة تسمى «ليستوك نورودنى فولى» تعلن عن مسئولية الجمعية عن بعض حوادث النكال ، ومن ذلك ما ظهر في عهدها الأول بتاريخ ٢٣ يولييه ١٨٨١ . كذلك دعت في العدد السادس إلى الاستمرار في التنكيل باليهود لأنهم يمتصون دماء الشعب ، ويعوقون تحرره وتقدمه . وفي عدد ٢٦ اكتوبر ١٨٨١ تدافع الصحيفة عن المشتركين في الحملات ضد اليهود ، وتصفهم بأنهم مواطنون شرفاء ، أبرياء ، لم يرتكبوا أى جرم . كل ذلك يشهد بأن وراء السخط الشعبى الموجه نحو اليهود على هذه الصورة العنيفة أعمالا يهودية لا ندعى أنها تبرره ، ولكن نقول بالتأكيد انها كانت بمثابة الشرارة التى أشعلت الحريق كله . ويقول اليهود ان السلطة القيصريّة كانت تقف موقفا متراجخا في حماية ضحايا النكال . ولكن شهود العيان ، وتقارير بعض المسئولين الروس في قوات الأمن تؤكد أن موجة الغضب الشعبى على اليهود كانت تكتسح كل شيء ، على نحو يخشى معه أن تتطور الأمور إلى ثورة شعبية شاملة أو حرب أهلية . وكان بعض هذا الهيجان الشعبى يستمر عدة أيام . ففي أوديسا استمر خمسة أيام كاملة ، من ٣ إلى ٧ مايو ١٨٨١ . وأرسلت الحكومة الروسية وحدات من الجيش لمساعدة الشرطة في إعادة النظام ، ولكن كثافة الجماهير ، وفظاعة المناظر التى شهدتها الجنود أخافتهم من التصدى للشعب . وبعض مؤرخى اليهود يتهمون الشرطة الروسية بالظلم ، ويقولون انها في نهاية المأساة راحت تقبض على بعض اليهود ، بدلا من مرتكبى الفارة . والواقع أن التجمعات

المذابح ، في غارات القوازي بقيادة زعيمهم « شمبليكي » .

وحاولت الامبراطورة كاترين ان تفرض رقابة حكومية على التجمعات اليهودية الكبيرة فأصدرت القوانين التي تحدد المناطق التي يقيم فيها اليهود ، وتجعل الانتقال منها باذن استثنائي . وهذه المناطق هي التي تسمى بالعبرية « يشوب » . وكانت لا تستعمل اللغة الروسية ولا تدفع الضرائب بصدق ونزاهة . هذا الى جانب انضمام الكثيرين من اليهود الى الحركات السياسية السرية . فقد ظهر من سجلات الشرطة القيصرية ان نسبة اليهود بين المعتقلين السياسيين كانت ١٣٤ في المائة بين سنتي ١٨٨٤ - ١٨٩٠ - ثم ارتفعت الى ١٨٧ في سنة ١٨٩٨ - ثم ٢٤٨ في سنة ١٨٩٩ ، بينما كانت نسبة غدد اليهود الى مجموع السكان في احصاء سنة ١٨٩٧ هي ٤ في المائة .

ويذكر بوكورفسكي في دائرة المعارف السوفيتية ان نسبة اليهود كانت تتراوح بين الربع والثلث في جميع الحركات الثورية المنظمة .

ويبدو ان الشخصية اليهودية التي تؤثر العزلة ، وتسعى من خلالها الى السيادة على العالم قد شطرت يهود روسيا في اواخر القرن التاسع عشر شطرين ، أحدهما ثوري ديموقراطي اشتراكي ، والاخر صهيوني . وليس من قبيل الصدفة البحتة ان تكون سنة ١٨٩٧ هي السنة التي تكونت فيها المنظمة الماركسية العمالية « البوند » التي كانت اول اتحاد عام للعمال اليهود في روسيا وبولونيا وليتوانيا ، وان تكون هي نفس السنة التي تكونت فيها أيضا « الصهيونية العالمية » في مؤتمرها الاول في بال .

وكانت العلاقة بين الاتحاد العمالي « البوند » والصهيونية علاقة عداوة واختلاف في المبدأ . فالبوند يطالب باستقلال ذاتي للطائفة اليهودية،

تتمتع في ظله بالشعور القومي ، وبالحرية الدينية والثقافية ، في داخل الوطن الروسي ، بينما كانت الصهيونية باتجاهها الى استعمار فلسطين تمثل في نظر البوند حركة رجعية عمادها البورجوازية اليهودية الصغيرة ، مما يؤدي الى تحويل اهتمام القاعدة اليهودية العريضة عن النضال الطبقي من أجل الخلاص . والصهيونية من جانبها كانت تتهم البوند بأنه دعوة لها صفة العالمية ، والاندماج في الأمم الأخرى ، مما يمثل في نظرها خطرا على كيان اليهود كشعب ، وعلى خصائصهم التراثية .

ويقدر مؤرخو اليهود في تلك الفترة عدد الأعضاء المسجلين في منظمة البوند بنحو ٧٠٠٠ عضو . أما الصهيونية فقد انضوى تحت لوائها ما لا يقل عن ١٢٠٠ جماعة من « احباء صهيون » وغيرها من المنظمات اليهودية المحلية ، بحيث كان عدد أعضائها عند ظهور وعد بلفور أكثر من ربع مليون عضو ، في تقدير بعض المؤرخين اليهود مثل « بارون » الذي يميل الى شيء من المبالغة .

والجدير بالتأمل هو ان الشيوعية السوفيتية كانت ترفض الحركتين جميعا ، البوند والصهيونية . وموقفها من الصهيونية كان اذ ذاك واضحا ، فهي حركة بورجوازية رأسمالية متحالفة مع الاستعمار ، وان كان الموقف قد تغير من الناحية العملية ، فكانت روسيا في مقدمة الدول التي أبدت اليهود واهترفت باسرائيل . وربما كان ذلك على أساس ما خلفته الحرب العالمية الثانية في نفوس الروس من عداوة للهتلرية النازية ، وهي عداوة شاركوا فيها اليهود الذين كانوا من ضحايا هذا المذهب السياسي .

وأما كراهية الشيوعية للبوند فترجع الى انكار الماركسية للدين كأساس للقومية ، وإلى ان اليهود في نظر أقطاب الشيوعية ، ونخص بالذكر منهم كارل ماركس لينين وتروتسكي وستالين ، ليسوا أمة ، ولكنهم طائفة ذات

وقد أشرنا الى أن اليهود لم يكونوا دائما حكماء في علاج هذه النوبات العنيفة التي يتعرضون لها ، وأنهم فكروا في مقابلة القوة بالقوة كثيرا ، كما حدث قبيل وقوع پوجروم شهر مايو سنة ١٨٨١ في اوديسا . ولم تكن الصهيونية بعيدة عن هذه التصرفات الرعناء ، فقد كان يتزعم التنظيم العسكري اليهودي المذكور كثير من المنتمين الى احباء صهيون ، في مقدمتهم الأديب « رينوفيتش » الذي كان يوقع مقالاته باسم « بن عمى » والقانوني « كلمنوفيتش » ، والدكتور « خفكين » المشهور بمسحضر طبي ضد الكوليرا، وغيرهم . وقد انتهى الأمر الى أن أصبح الروس يرون في هذا الحرس القومي اليهودي تحديا لهم ، فكانوا يتعاملون مع أفرادهم بقسوة شديدة جدا . ففي اكتوبر ١٩٠٥ شب پوجروم شنيع في اوديسا ، كان عدد القتلى فيه من افراد التنظيم العسكري اليهودي وحدهم خمسة وخمسين . وكم من الضحايا اليهود وغير اليهود وقد أودت بحياتهم حماقة الشعور اليهودي بعقدة اضطهاد ، يتوهمونها فيتخذون بسببها موقفا وسلوكا من البشر ، فاذا دارت عليهم الدوائر وجدوا في ذلك تأكيدا جديدا لهذه العقدة . وهكذا نجد الحلقة الجهنمية المفرغة التي يدور فيها اليهود تظهر في كل جيل وفي كل حضارة بشكل مختلف بينما الجوهر واحد وهو رفض الشخصية الاسرائيلية الدخول في المجتمع الانساني دخولا شريفا أساسه المساواة التي لا تعرف ميزة لشعب على آخر الا بما يضيفه الى رفاة البشرية من ابتكارات وانجازات ومظاهر من الحضارة الحقيقية .

واذا كان پوجروم هو الجانب الدموي من المشكلة القائمة بين اسرائيل وأمم العالم ، فإن الصراع الفكري لا يقل خطورة عنه في شيء . وقد أشرنا الى كتابات اليهود عن اللاسامية ، والى كتابات أعدائهم ضدهم ، وبخاصة ما كتبه الفرنسي « دريمون » . ولكن هناك أيضا كتابات مجهولة المؤلف ، وكثيرة جدا ، كانت تنتشر في أماكن متعددة من العالم اما للدفاع

تقاليد خاصة أكثرها يجب أن يزول أو أن تخف وطأته كثيرا حتى يندمجوا في المجتمعات المتحضرة المحيطة بهم .

والذي نخرج به من هذا كله هو أن الشغب اليهودي في شرق أوروبا ، كان أعمق سياسيا واجتماعيا من أن يفسر بالتعصب الديني كما يريد السطحيون من كتاب الصهيونية . فقد استمر هذا الشغب في ظل الشيوعية ، وبعد إلغاء التكتلات الدينية بشتى مظاهرها في الاتحاد السوفيتي ، واستمر معه كره الروس لليهود ، حتى فكر المسئولون السوفييت في تخصيص اقليم في جنوب البلاد للتجمع اليهودي ، على أن يكون في النهاية جمهورية سوفيتية باسم « بروبيجان » . ومع ذلك فقد تكفلت الصهيونية بفشل هذا المشروع . واذن فعندما يصف كتاب اليهود پوجروم بأنه عدوان مجاني من جانب المتعصبين موجه ضد شعب الله المختار ، فان وصفهم هذا لا يمكن النظر اليه الا على أنه مغالطة . فالشخصية الاسرائيلية كثيرا ما تظهر بمظهر استفزازي في المقدرات الاقتصادية للناس ، تدعو السوق والغوغاء من المتضررين بالعبث اليهودي الى استعمال العنف ، والعنف قوة جنونية اذا افلحت وجمحت لا يدري أحد كيف تنتهي . وكان پوجروم من مظاهر جموح هذه القوة الجنونية ، حتى في القرن العشرين ، في عصر التسامح الديني الذي وصل في بعض بقاع العالم الى انكار الأديان . ويكفي من أمثلة پوجروم في روسيا في السنوات الخمس الأولى من هذا القرن ، أي في نفس الفترة التي كانت الدعوة الماركسية تنتشر فيها بسرعة في هذه البلاد ، الحوادث التالية :

في نيقولايف سنة ١٩٠٠ ، وفي اوديسا سنة ١٩٠١ ، وفي كيشينيف ٦ ، ٧ ابريل سنة ١٩٠٣ ، وفي هوميل من ٢٩ اغسطس الى اول سبتمبر سنة ١٩٠٤ ، وفي جيتومير ٢٣ ، ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٥ ، وكذلك في أماكن متعددة من المستوطنات اليهودية الأخرى في ١٧ اكتوبر سنة ١٩٠٥ .

القيصرية ، التابعة للجنة الصليب الأحمر ،
سنة ١٩٠٥ .

ويبدو أن اليهود كانوا يتعقبون طبعات هذا
الكتاب فيشترونها ويعدمونها ، فقد طبعت
طبعة أخرى سنة ١٩١١ ، واختفت كذلك
بنفس الطريقة . كما طبع سنة ١٩١٧ ، وهي
سنة قيام الحكم الشيوعي في روسيا ،
فصادرت حكومة الثورة وحرمت نشره في
روسيا حتى الآن .

ولكن نجت نسخة واحدة من الطبعة الثانية
سنة ١٩٠٥ ، اذ انتقلت الى لندن ، ودخلت
ضمن مكتبة المتحف البريطاني بتاريخ ١٠
اغسطس سنة ١٩٠٦ . وهذه النسخة تحمل
تصريح رقابة المطبوعات في موسكو بتاريخ ٢٨
سبتمبر سنة ١٩٠٥ .

وصدرت ترجمة انجليزية للبروتوكولات ،
على اثر قيام ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ في
روسيا ، نظرا لوجود نبوة بقيام هذه الثورة
في البروتوكولات ، اى قبل وقوعها بخمسة
عشر عاما . ولقيت البروتوكولات رواجا فأعيد
طبعا مرارا وترجمت لكثير من لغات العالم .

اما الجانب اليهودي فان أهم من عبر عنه
هو **الحاخام الفرنسى موريس ليبر (٢٨)** بقوله :
« لقد كشفت الأميرة رادزيويل ، التى تقلبت
بين الطبقات العليا للمجتمع في كثير من عواصم
أوروبا عن نشأة البروتوكولات . وهذه الأميرة
قد سجلت مذكراتها العجيبة حول كل ما رأت
وسمعت . وكان كشفها عن البروتوكولات ،
التى حضرت مولدها ، بمحاضرة ألقاها في
نيويورك ، ثم في مقال ظهر في المجلة العالمية ،
عدد ١٥ مارس ١٩٢١ . ويستفاد من تصريحاتها

عن اليهود ، واما لتشويه صورتهم عند الناس ،
واضافة مزيد من الوقود الى نار الحقد
المشتعلة بين الجانبين . ومن أشهر هذه
**الكتابات المجهولة المصدر كتاب « بروتوكولات
حكماء صهيون »** . فأعداء اليهود يحاولون
اقامة الأدلة على كون هذا الكتاب وثيقة حقيقية
تتضمن تخطيطا شيطانيا يريد به اليهود تدمير
جميع مصادر القوة لدى أمم العالم ثم استعباد
هذه الأمم ، بينما يتبرأ اليهود منه ، ويعلنون
اشمئزازهم من الذين يلقون مسئوليته عليهم .

ويذكرون لهذا الكتاب بدايات مريبة ،
تصادف نفس الفترات التى انتشرت فيها
غارات البوچروم في روسيا . وقع الكتاب في
يد احد رجال الدين الروس واسمه « نيلوس »
سنة ١٩٠١ كما يقول الرواة . ويبدو من سياق
القصة أن الكتاب كان مجموعة صفحات مكتوبة
بأكثر من لغة ، بالعبرية ، واليديش ،
والفرنسية ، والألمانية وغيرها ، ولم يكن له
ترتيب ولا عنوان ، بل كان أشبه بمسودات
جمعية سرية تضم جماعة مختلطة من الناس ،
يجمعهم الحقد على البشر . فتولى سرجى
نيلوس ترتيب هذه الصفحات وترجمتها الى
اللغة الروسية ، واخراجها في نشرة قليلة
النسخ سنة ١٩٠٢ ، وعلى غلافها ما ترجمته :
سرجى نيلوس - خطر ينتهى الى حقير -
المسيح الدجال - حادث سياسى محتمل
الوقوع - مذكرات مؤمن مستقيم
(ارثوذكسى) .

ومع اشتداد البوچروم سنة ١٩٠٥ تظهر
طبعة ثانية بالروسية أيضا بنفس العنوان على
غلافها ، مع عبارات : الطبعة الثانية ، منقحة
مزيدة - « القرية القيصرية » ، مطبعة القرية

(٢٨) ظهر تعليق **الحاخام موريس ليبر** لأول مرة في مجلة يهودية فرنسية اسمها « الايمان والوحي » .

Maurice Liber; Les Protocoles des Sages de Sion; Foi et Réveil, XIV, 38 ss.

واعاد نشرها الكاتب الصهيونى الفرنسى **ادمون فليج** في الجزء الثانى من كتابه « مختارات يهودية »

Edmond FLag, Anthologie Juive; Paris, 1923; Tome II, p. 220 — 222.

أن الصهيونية حديثة ومتقدمة جدا ، الى حد أن تخيل أن هذا المخطط السياسي (البروتوكولات) قد عمل قبل المسيح بمدة ٩٢٩ سنة ، على يد سليمان وحكماء مملكة اليهود . والواقع أن حكماء صهيون هم المشرعون والأنبياء ، الذين صدر عنهم الكتاب المقدس . ومفسروهم هم شيوخ المعبد اليهودي ، الذين أولوا نص نبوءة اشعيا عن رب الجنود ، تلك النبوءة التي مجدها عدل الرب القدوس ، وكرستها الشريعة ، وهي : سيأتي يوم يكون فيه الله معبودا من جميع الخلائق التي ستكون عصبة واحدة ، تتم ارادته بقلب واحد . وعندها سيرد الى الشعب المختار اعتباره ، ويجمع شمله ، وسيبرئ ذلك الأبرار ويفرحون . وسيخرس الظلم ، ويتلاشى الخبث كال دخان ، وتختفى مملكة الشر من فوق الأرض ، ويملك الرب وحده على كل الخلائق في اورشليم ، مقر جلالته . - هذا هو مثلنا الأعلى .

ونلاحظ أن الحاخام ليبر يتجاهل أن هناك طبعة روسية من البروتوكولات توجد نسخة منها بالمتحف البريطاني ، وترجع الى سنة ١٩٠٥ ، أي قبل حملة الاعلام التي قامت بها الأميرة رادزفيل بسنين . ثم انه يعلن ظهور البروتوكولات بالنتائج النفسية للحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨ ، والبروتوكولات مطبوعة قبل ذلك بكثير أيضا . ويحاول اضعاف نوع من التحقيق العلمي على روايته بذكر شخصين ، من الثكرات ، ينسب اليهما الانضمام الى مدير الشرطة السرية الروسية لتأليف هذه البروتوكولات ، ولكن أقواله تظل محصورة في نطاق الخبر المحتمل للصدق والكذب ، بل في نطاق الأسطورة التي تدعو الى الشك في كل ما يقول . ثم يكشف هذا الحاخام عن أهدافه الحقيقية فيربط البروتوكولات بحقد العالم المسيحي على الصهيونية ، وغيره منها لأنها « حديثة ومتقدمة جدا » ، كما يزعم . وكأن العالم المسيحي مكوّن كله من انسانية متخلفة لا حضارة لها ، تبهرها حضارة اليهود وحدهم

أن الشرطة السياسية الروسية (أوخرانا) كانت قد أرسلت الى باريس اثنين من رجالها سنة ١٩٠٥ ، كلفتهم بصنع ما يسمى البروتوكولات ، بحيث تحتوى على ملخص للنشاط اليهودي عبر القرون ، وتصور الاسرائيليين على أنهم الخطر الأكبر الذي يهدد الحضارة الأوروبية ، وجميع الاسر المالكة . وقد حضر الرسولان الى باريس ، لينضموا الى راتشكوفسكى مدير الشرطة السرية الروسية . وكان أحدهما يحمل اسما مستعارا هو « منسافيتش مانيلوف » ، وقد افتضح امره فيما بعد كجاسوس عميل للألماني « شتورمر » ، كما كان أقرب الأصدقاء والناصحين للراهب الروسي الأفاق السفاح راسبوتين . أما الرجل الثاني فقد دعا نفسه « ماثيو جولفينسكى » ، وكانت شخصيته مريبة أيضا ، كما كانت أمه صديقة للأميرة رادزفيل نفسها ، مما سمح له بالذهاب لزيارة الأميرة في باريس ، حيث كشف لها عن الغرض من رحلته ، وأطلعها على عمله .

وقد تسببت هذه البروتوكولات السخيفة الزائفة في القضاء على الآلاف من اليهود الروس ، كما بدأت تلعب بعقول الآلاف من المسيحيين . وهو أمر مؤسف ، ولكنه لا يدعو الى كثير من الدهشة . فنحن نعلم أن الانسان عندما ينزف منه دم كثير يضعف تفكيره . وهكذا يمكن القول بأن الكثيرين من معاصرينا بعد هذه الحرب الدامية قد أصبحوا مستعدين لتقبل أية دعوة عداوية . ولأجل اقناعهم بوجود مؤامرة رهيبة يكفى اخراج الكابوس الذي يحملونه في داخلهم الى الخارج . كما أن الكنيسة الكاثوليكية تتطوع باتهام أعدائها بالتخطيط للسيطرة على العالم ، كما فعلت ذلك مرارا من قبل .

أما اليهودية ، التي ليست لها كتابات سرية ، فانه ينبغى لها جهل فريد من نوعه ، أو ما يشبه ذلك من سوء النية ، حتى يمكن تشويه آمالها في المستقبل . وقد ذهب بعض الناشرين الروس للبروتوكولات ، بعد أن رأى

بعد أن دخلوا في الصهيونية أفواجا . ثم هو يقحم الكنيسة الكاثوليكية في الموضوع ، ويتهمها بالتعصب الدائم ضد اليهود ، ناسيا في لهيب غضبه أن البروتوكولات قد نبعت في أرض أرثوذكسية (روسيا) ، لا كاثوليكية ، ثم عرفت للعالم الغربي من بريطانيا ، وهي كذلك أنجليكانية وليست كاثوليكية . والواقع أن الرجل قد نسي في رفض البروتوكولات كل دليل علمي ، واكتفى بترويج مغالطات لا يمكن منحها الصفة التاريخية ، ليكشف في النهاية من حقه على العالم المسيحي ، وعن انخراطه في زمرة المتطرفين من أنصار الصهيونية . وهو بطبيعة الحال حر في التعبير عن رأيه ، حتى بهذا النوع من الهديان ، ولكن الذي يؤخذ عليه هو أنه بدأ مقاله بشبهة ، وأنهاء بآية من الكتاب المقدس ، وهو في ذلك يكون قد خدش في شخصه صفة الحاخام ، لأنه وضع كلام الأنبياء في نفس المستودع الذي وضع فيه ما شاء من الأباطيل .

ثم ان اليهود يختلفون فيما بينهم في أسلوب التشكيك في نسبة هذه البروتوكولات اليهم . فالكاتب الصهيوني الفرنسي « ادمون فليج » — وهو معاصر للحاخام ليبس يعيش معه في فرنسا ، وفي باريس — يدلي في هذا الصدد بأقوال مختلفة تماما . فالبروتوكولات توصف بقلمه الوصف التالي : (٢٩)

هي محاضر مزورة ، تهدف الى كشف مؤامرة مزعومة ، يدبرها الشعب الاسرائيلي لحكم العالم . وقد نشرت بلغات مختلفة بين سنتي ١٩٠٥ — ١٩٢٠ ، وانتشرت في كل مكان بعد الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ — ١٩١٨ ،

بجهود أنصار اللاسامية . وقد اقيمت البراهين المستفيضة على تزويرها بفضل لوسيان فولف ، وسالومون ريناك ، وموريس ليبس (وغيرهم من اليهود) ، وبفضل الأب اليسوعي پير — شارل أيضا . وقد عثر على النصوص الأصلية التي استعملها مرتكبو هذا التزييف ، وكلها نابعة من الشرطة السرية لقيصرية روسيا : نيلوس ، راتشكوفسكي ، مانويلوف . وفكرتها الأساسية مأخوذة من رواية كتبها جويدشه ، بعنوان « بياريتز » ، ظهرت في برلين عام ١٨٦٨ . وفيها يجد القارئ جمعية سرية من « المختارين من اسرائيل » تعقد جلسات في المقابر اليهودية ، بمدينة براغ في تشيكوسلوفاكيا . وفي أحد هذه الاجتماعات يرد خطاب خيالي على لسان حاخام يهودي يعرض المخطط الاسرائيلي . وقد أهدى نشر هذا الخطاب في ألمانيا سنة ١٨٩٣ ، لكن بعد ادعاء أنه وثيقة حقيقية حصل عليها البريطاني السير جون ردكليف . وقد أضيفت زيادات مختلفة الى هذا الخطاب المزعوم ، مستمدة مباشرة أو بطريق غير مباشر من الكتابات اللاسامية التي كتبها آيزر نمجر ، جو جنودي موسو ، پوبيد ونورتسيف (٣٠) ، وغيرهم . وهذا هو أصل البروتوكولات .

ونلاحظ هنا أيضا محاولة ادمون فليج أن يستعمل الأسلوب العلمي في التهويش ، بالكثير من الأسماء والتواريخ والاحالات الى نصوص يعتبرها أصل البروتوكولات ، دون أن يكون هناك أي توثيق لمزاعمه ، ولا محاولة للذكر نص واحد من النصوص الكثيرة المتهمة واثبات أنها انتقلت الى البروتوكولات .

(٢٩) المرجع السابق ، الجزء الثاني ، صحيفة ٣٩٢، ٣٩٢ .

(٣٠) الأسماء التي يذكرها فليج هي على ترتيب ورودها في مقالة :

Lucien Wolff — Salomon Reinach. — Maurice Liber — Pierre — Charles — Nilus — Rotchkowski — Maniouloff — Goedsche — Biarritz — Sir John Redcliffe — Eisenmenger — Gongenot des Mousseaux — Pobedonoszev.

في مقدمتهم الطبيب والأديب اليهودي الروسي الدكتور ليوبينسكي ، والتلمودي الأديب المتبحر في الفكر اليهودي موسى ليلينبلوم ، وزميله آشر جينزبرج الذي كان يوقع مقالاته باسم « آحاد هاعام » أي : واحد من الشعب ، وغيرهم . وقد رأينا كيف اتسعت منظمة أحباء صهيون بحيث ضمت الأغلبية الساحقة من الشباب اليهودي في أوروبا الشرقية كلها ، حيث كان لها ما لا يقل عن ١٢٠٠ مركز في تلك الأنحاء . كل هذا في وسط نيران الهوجروم ، التي أشرنا إلى بعض أمثلتها . فليس عجيبا أن تفكر عناصر متطرفة من جماعة بهذه الضخامة ، في كتابة مذكرات تنبع من تفاعل بين الأفكار السياسية الثورية الحديثة ، والشخصية الاسرائيلية التقليدية الشاعرة بعقدة الاضطهاد ، وأن تقع بعض هذه المذكرات في أيدي الكارهين لليهود من الأمم الأخرى ، فينشروها على الناس ، أما بأمانة ، وأما بعد مراجعة تتدخل فيها أقلامهم لتجعل رنين ناقوس الخطر أشد اقزاعا .

وعلى سبيل المثال تقدم هنا البروتوكول الرابع ، من ترجمة محمد خليفة التونسي :

كل جمهورية تمر خلال مراحل متنوعة .

أولها فترة الأيام الأولى للثورة العمياء التي تكتسح وتخرّب ذات اليمين وذات الشمال .

والثانية هي حكم الغوغاء ، الذي يؤدي إلى الفوضى ، ويسبب الاستبداد . أن هذا الاستبداد من الناحية الرسمية غير شرعي ، فهو لذلك غير مسئول . وأنه خفي ، محجوب عن الأنظار ، ولكنه مع ذلك يترك نفسه محسوسا به . وهو على العموم تصرفه منظمة سرية تعمل خلف بعض الوكلاء ، ولذلك سيكون أعظم جبروتا وجسارة . وهذه القوة السرية لن تفكر في تغيير وكلائها الذين تتخذهم ستارا . وهذه التغييرات قد تساعد المنظمة ، التي

ويرى الذين يثبتون التهمة على اليهود أن ما جاء في البروتوكولات مطابق دائما لأحكام وتفسير ووصايا وردت في التوراة والتلمود والمدرّاش ، وأن بعض هذه الوصايا ثابت في نسخ مخطوطة ، أو في طبقات قديمة من الكتب اليهودية ، قبل أن تجرى فيها أقلام كهنة اليهود المحدثين بالتصفية من كل ما يشير للاسامية . ويقولون أن الفوص في هذا اللون من الأدب الديني الاسرائيلي العميق الجذور في التقاليد اليهودية ، المكتوب بلغات وأساليب لا يتقنها إلا حكماء هذه الطائفة ، من الأدلة على ثبوت التهمة عليهم .

ويضيفون دليلا آخر على ثبوت تلك التهمة ، هو أن اليهود يحرصون دائما على جمع كل ما يصدر من نسخ البروتوكولات بأية لغة لاعدائها ، ويدفعون في ذلك الأموال ، ويبدلون الجهد المضي ، ولو كانوا أبرياء لما اهتموا كل هذا الاهتمام ، ولتركوا النسخ بين أيدي الناس ونشروا بجانبها ما يدحض نسبتها اليهم فعلا .

ونشعر نحن من جانبنا ، وفي وسط هذا الغموض الشديد ، بأن البروتوكولات قد تنتمي بطريق غير مباشر لا إلى « حكماء صهيون » ، ولكن إلى « أحباء صهيون » ، تلك الجمعية التي نشأت في أوديسا ، وانعقد أول مؤتمر لها سنة ١٨٨٤ . وكان قيامها رد فعل لصدور « قوانين مايو سنة ١٨٨٢ » الخاصة بفرض قيود على نشاط الأقلية اليهودية في روسيا . أي أن هذه المنظمة كانت ثمرة سلسلة من حوادث الحقد اليهودي واللاسامية الأممية ، وكانت قد تغذت - إلى جانب الغذاء الفكري التقليدي - بكتابات رواد الصهيونية الأولى مثل الحاخام يهودا القلعي ، والحاخام تسفى هيرش كاليشر ، والمفكر اليهودي الألماني الصهيوني موسى هيس .

وكانت جماعة أحباء صهيون هذه تضم مجموعة من الأدباء والكتاب والمفكرين اليهود ،

ستكون كذلك قادرة على تخليص نفسها من خدمها القدماء ، الذين سيكون من الضروري عندئذ منحهم مكافآت أكبر ، جزاء خدمتهم الطويلة .

من ذا ، وماذا يستطيع أن يخلع قوة خفية عن عرشها ؟ هذا هو بالضبط ما عليه حكومتنا الآن . ان المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم لا يعمل في غفلة كقناع لاغراضنا . ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا ، وفي مركز قيادتنا ، ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيرا .

يمكن الا يكون للحرية ضرر ، وان تقوم في الحكومات والبلدان من غير أن تكون ضارة بسعادة الناس ، لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله ، وعلى الأخوة والانسانية ، نقية من افكار المساواة التي هي مناقضة مباشرة لقوانين الخلق ، والتي فرضت التسليم . ان الناس - محكومين بمثل هذا الايمان - سيكونون موضوعين تحت حماية كنائسهم (هيئاتهم الدينية) ، وسيعيشون في هدوء واطمئنان وثقة ، تحت ارشاد أئمتهم الروحيين ، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض . وهذا هو السبب الذي يحتم علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين ، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورية مادية . ثم ، لكي نحول عقول المسيحيين عن سياستنا ، سيكون حتما علينا أن نبقيهم منهمكين في الصناعة والتجارة ، وهكذا ستصرف كل الأمم الى مصالحها ، ولن تفتن ، في هذا الصراع العالمي ، الى عدوها المشترك .

ولكن لكي تزلزل الحرية حياة الجوبيم الاجتماعية زلزالا ، وتدمرها تدميرا ، يجب علينا أن نضع التجارة على أساس المضاربة . وستكون نتيجة هذا أن خيرات الأرض المستخلصة بالاستثمار ، لن تستقر في أيدي الأميين (غير اليهود) ، بل ستعبر خلال المضاربات الى خزائننا .

ان الصراع من أجل التفوق ، والمضاربة في عالم الأعمال ، سيخلق مجتمعا أنانيا ، غليظ القلب ، منحل الأخلاق . هذا المجتمع سيصير منحل كل الانحلال ، ومبغضا أيضا من الدين والسياسة ، وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد ، وسيكافح هذا المجتمع من أجل الذهب ، متخذا اللذات المادية التي يستطيع أن يمد بها الذهب ، مذهبا أصيلا . وحينئذ ستندمج اليها الطبقات الوضيعة ، ضد منافسينا الذين هم الممتازون من الأميين ، دون احتجاج بدافع نبيل ، ولا رغبة في الثورات أيضا ، بل تنفيسا عن كراهيتهم المحضة للطبقات العليا .

بهذا ينتهي البروتوكول الرابع الذي يصف فن اليهود في انتهاز كل الفرص : الحرية والاستبداد ، السلم والحرب ، المادية والروحانية ، التقوى والالحاد ، الأغنياء والفقراء . كل ذلك يستغلونه لمصلحتهم هم بوصفهم شعب الله المختار ، وبفضل حكومة سرية في أيام الشتات ، قد لا تكون دائما الماسونية ، أو قد تكون بجانبها قوى رهيبة ظاهرة أو باطنة مثل القهيلة ، أو السنهدرين ، أو الرأسمالية اليهودية ، أو الشيوعية اليهودية أيضا ، أو دولة الصحافة والاعلام والملاهي - وبخاصة السينما - وكذلك الكتب التي تمجها المطابع بغزارة ، لا للتثقيف ولكن لقتل الوقت والهلب النفوس بانفعالات مدمرة : جنسية وروحانية وخرافية واجرامية ، وما الى ذلك .

واذا كان كتاب البروتوكولات يثير كل هذا الجدل فقد سبقه ببضع عشرات من السنين كتاب لا جدال فيه ، من تأليف « الكساندر ماك كول » ، وهو دكتور في اللاهوت المسيحي ، ورئيس رعاة كنيسة « سان جاك » في لندن ، وعنوان الكتاب « مسالك اسرائيل » ، وقد

يعترف بها كل من يعرفهم . منها حب العمل ، والتضامن امام الشدائد ، والاخلاص بين الاصدقاء ، والرغبة في المعرفة ، والابتهاج بالانجازات الكبيرة ، والعناية بتربية الابناء ، واحترام الكبار .

— النفوس المنحرفة ، اى ان نزعات العدوان عند هذه الطائفة من المجرمين ليست طبيعية متأصلة في عجينة الشخصية ، ولكنها جاءت من المحيط الخارجى . فبعض الأحداث ينشأون في اسرة مفككة ، بين أب سكير مقامر غافل عن كل مسئولية ، وام كثيرة الصخب ، جاهلة ، كارهة لزوجها ، او ما هو أشنع من ذلك . فاذا اضيف الى هذا مجموعة من الرفاق اكثرهم يعانى من ازمات مماثلة ، وقع الانحراف ، واستقرت الجريمة في النفوس . واليهود ليسوا من تلك الطائفة أيضا . فحرصهم على تقاليد قديمة جدا ، يبين انه لم يكن هناك تفكك اجتماعى او نفسى خطير يمكن ان يسوقهم الى الانحراف . وبروز كثير من مفكرهم على مر العصور ، الذين يريدون باخلاص ان يسهموا في سعادة الانسان دليل آخر على ضعف دور الانحراف في سببك الشخصية اليهودية .

— النفوس المريضة ، وفي هذه الحالة الأخيرة نجد الشخصية الاجرامية تمثل نتيجة لسلسلة من الاصابات العميقة ، وتحمل اضطرابات في الشخصية سببها وراثية ثقيلة من امراض الاسلاف ، ثم حالة من الصحة النفسية والاجتماعية تأبى الانخراط في الحياة العادية للمجتمع الانسانى . وفي جميع التشريعات نجد القضاة يضعون موضع الاعتبار كون التصرفات الاجرامية صادرة عن شخصيات مريضة ، ويعتبرون ذلك ظرفا مخففا ، بحيث

اعطاه عنوانا عبريا أيضا هو « نثيبوت عولام » اى : المسالك الأزلية (٣١) . وهو يحتوى على مجموعة من نصوص التلمود والمدراش في اكثر من اربعمائة صفحة ، معها اصولها العبرية والآرامية . وكلها تحوم حول الحقن على العالم ، والتأمر على سلامة البشر ، والسخرية من جميع العقائد والاديان ما عدا اليهودية ، ونحو ذلك مما يمكن ان يكون ادمغ حجة من البروتوكولات نفسها . فهو مثلا ينقل نصا من التلمود والمدراش ، خلاصته ان اى فرد من الجويميم — ابناء الامم الأخرى — يعنكف على دراسة التوراة يجب قتله ، اذ ليس له الا ان يلتزم من الوصايا العشر الا بسبع فقط هى التى خصصت للجويميم . كذلك اذا منح واحد من الجويميم نفسه يوم راحة في الاسبوع ، ولو كان من الأيام العادية (غير السبت) فانه يجب قتله . كما يذكر نصوصا تحرم على المرأة اليهودية ارضاع طفل جارتها غير اليهودية ، حتى لو تعرض الطفل للموت جوعا . وأشياء كثيرة من هذا القبيل .

الشخصية الاسرائيلية والحل الانسانى

الذين يدرسن طبيعة الاجرام في العصر الحديث ، يقسمونه الى فصائل وأنواع تتلخص في أن المجرم ينتمى الى قسم من الاقسام الثلاثة الآتية :

— النفوس الشريرة بطبيعتها ، التى لا يمكن فيها وازع ولا ضمير ، ولا تريد بحال من الأحوال ان تحترم انسانية الآخرين من البشر ولا ممتلكاتهم ولا امراضهم ولا مقدساتهم ولا آمالهم في الأمن والرفاهية . ونعتقد ان اليهود ليسوا من هذا القسم . فالوازع الدينى والانسانى موجود عندهم ، ولهم تقاليد طيبة

(٣١) الترجمة الفرنسية التى امكنا اليها من هذا الكتاب بعنوان :

Nethivath olam; Les Sentiers d'Israel; Librement traduit de l'Anglais de; M. Alexandre Mc Caul; Docteur en théologie; et Recteur de l'Eglise de St. Jacob, à Londres, par; Ph. J. Oster; Paris — Metz.

يكون حكمهم في النهاية وافيا بفرضين : الحد من الجريمة ، والعلاج من المرض . وفي رأينا أن الشخصية الاسرائيلية من هذا النوع الثالث . وقد استفحل مرضها ، حتى وصل في بعض الأحيان الى الجنون المطبق ، بسبب أفواج المتطرفين والحمقى والمصابين بالهستيريا والهلوسة وجنون العظمة وأحلام اليقظة وأزمات الاكتئاب واليأس والبكاء ، تولوا مقاليد هذه الجماعة ومقدراتها ، قديما وحديثا فكانت نتيجة كل ذلك الصهيونية .

فالصهيونية فكرا وسلوكا وتطبيقا موبوءة بالتعصب العنصري والتعصب الديني ، وعقد الشعور بالاضطهاد ، والفرع من اللاسامية ، كما أنها مصابة بأورام انتقلت عدواها اليهم من طغاة كثيرين فتكوا بالاسرائيليين ، وتفننوا في التنكيل بهم ، وكان من أواخر ذلك الپوجروم واللاسامية الهتلرية . فراح الغلاة من الصهاينة يقلدون أولئك السفاحين .

والعلاج من هذه المجموعة من الأمراض ، ما كان منها وراثيا ، وما أخذ بالعدوى ، وما تحوصل في ثنايا الشخصية الاسرائيلية في الظروف التي شاء اليهود أن يعيشوا فيها ، أو التي أجبروا عليها ، لا بد أن يكون طويلا يحتاج الى صدق نية منهم في الشفاء ، وإلى نظرة انسانية شاملة من جميع النفوس المحبة للخير . وهي تجربة ليست بالسهلة . فمن السمات المميزة للشخصية الاسرائيلية العناد ، والاسراع الى الارتداد عن طريق الخير . وصفهم ربهم في التوراة بأنهم شعب صلب الرقبة ، أبعد الناس عن الطاعة وعن لين الجانب (الخروج ٣٢ : ٩ و ٣٣ : ٣ ، ٥ و ٣٤ : ٩ التثنية ٩ : ٦ ، ١٣) ، كما أكثر أنبياءهم الشكوى من كفرهم وعنادهم وقسوتهم . ويكفي في ذلك أن نسوق سطورا من كلمة طويلة للنبي ارميا يقول فيها : « مثل خزي اللص اذا وقع ، هكذا خزي آل اسرائيل ، هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياءهم ، اذ يقولون للخشب أنت أبى ، وللحجر أنت

والدى ، لأنهم أداروا نحوى قفاهم لا وجههم ، وفي وقت مصيبتهم يقولون قم وخلصنا . فأين آلهتك التي صنعت لنفسك ؟ فليقوموا ان استطاعوا أن يخلصوك في وقت بليتك . لأنه قد صارت آلهتك بعدد مدتك ، يا يهوذا . لماذا تخاصموننى ؟ كلکم عصيتمونى ، يقول الرب . ضربت أبناءكم بلا فائدة ، اذ لم يقبلوا تأديبا . سيفكم اكل أنبياءكم كأسد مفترس » (ارميا ٢ : ٢٦ - ٣٠) .

وقد حاول مفكرون من عظماء اليهود على مر الاجيال أن يعالجوا الأمة المريضة من دائها القديم فلم ينجحوا . كان كلام بعضهم يفسر على غير ما أريد به ، اما لكى يتجه بتفسيره المفتعل نحو أهدافهم ومآربهم ، كما صنعوا بفكر الطبيب موسى بن ميمون ، واما للتشنيع والتجريح والافتراء على رواد الإصلاح من اخوانهم ، كما فعلوا بصاحبهم موسى مندلسون ، أحد الانسانيين الكبار في القرن الثامن عشر . فقد ذهب هذا المصلح اليهودى الى أن مشكلة اليهود الحقيقية تكمن في أن شخصيتهم قد تبلورت وراء أسوار الجيتو ، وأن فكرهم نفسه قد أقيمت من حوله حواجز أقوى من أسوار الجيتو ، صنعوها هم بأنفسهم وتحصنوا في داخلها ، وتمودوا على ظلامها الدامس . ورأى أن الخروج من هذا الحبس الاجتماعى والفكرى لا يكون الا باعتبار اليهودية عقيدة وديانة وأخلاقا ونمطا في المعيشة ، لا دخل فيها للعنصرية ولا للكبرياء النابعة من الخرافات . هو الذى رفع في قومه الشعار المشهور : « كن يهوديا في بيتك ، ومواطننا مخلصا في الطريق » . وكان حله هذا في حقيقة الأمر متسقا مع اتجاه العالم نحو الحرية ، فقد قامت الثورة الفرنسية ، التي أعلنت فيها حقوق الانسان بعد موت مندلسون بثلاث سنوات فقط . فما كان جزاؤه من قومه عن هذا الجهد المضنى ؟ الكذب والافك المفترى الذى يخدش الرجل فى علمه وعقله وكرامته وعرضه وأسرته . انبرت له الأقلام اليهودية المسمومة بالتعصب ، فلم تترك جانبا من

واذا بالقهل يحاول اربابه ، ثم يحاول قتله ، لولا أن تداركه بعض المعجبين به من تلاميذه ومحبيه ، فنصحوه بأن يترك أمستردام ، ليعيش في بعض الأرياف القريبة منها ، حتى يتمكن هو وأصدقائه من تمييز الارهابيين والسفاحين والقتلة لو أن بعضهم حدثته نفسه بالمجيء اليه في المكان الذي اعتزل فيه .

ولم نشأ أن نذكر في تلك الزمرة سيدنا المسيح عليه السلام ، لأن دعوته كانت من نوع آخر ، ليست اجتهدا عقليا فلسفيا ، ولكنها وحى من السماء . لقد تعب المسيح مع اليهود . حاول في أول الأمر أن يجعل دعوته بينهم هم وحدهم ، فأخذهم العناد ، وتصلبت أعناقهم ، وكابروا وتآمروا ، وطالبوا بقتله . فلما رأى ذلك منهم حطم أسطورة العنصر ، وجعل الشريعة للناس كافة . ويرمز الانجيل الى هذا الانتقال بقصته مع امرأة من غير بنى اسرائيل ، يصفها القديس متى بأنها كنعانية ، ويريد القديس مرقس ذلك تحديدا فيقول انها كانت من الجوبيم « أممية » وفي جنسها فينيقية سورية » ، (انجيل مرقس ٧ : ٢٦) . وقد بدأ المسيح كلامه معها بقوله : « اننى لم أبعث الا للخراف الضالة من بنى اسرائيل » ، (انجيل متى ١٥ : ٢٤) . ولكن المرأة الحت عليه ، مما تأكد معه انها تؤمن ببركته ، وكانت تطلب منه أن يدعو لابنتها المريضة حتى تشفى . فشفاهها ، وأعلن بعد ذلك أنه بالايمان وحده ، لا بالنسب ، يدخل الانسان في ملكوت السماء .

ومع ذلك بقى اليهود مرضى حتى الآن .

وبعد ، فهل هناك من حل ؟ ان بداية الحل في استئصال أسباب المرض . وهذه الأسباب تحوصلت في العصر الحديث في الصهيونية ، التى تلعب بالمريض لعب الساحر الدجال في المجتمعات الجاهلة المتخلفة ، الذى يعد بالشفاء والعافية عن طريق تحضير الجن ، واطلاق البخور ، وتكثيف الظلمات ، واصدار

جوانب حياته الا لوئته . وتعقب المعاندون من رجال الدين الاسرائيلي كتبه فجمعوها وأحرقوها ، وحرموا على قومهم قراءتها ان أعيد طبعها ، وجعلوا هذا التحريم مؤبدا الى يوم القيامة ، لأنهم وصموا الرجل بالزندقة أيضا .

وقبل مندلسون ظهر في هولندا الفيلسوف اليهودى المتحرر باروخ سبينوزا ، في القرن السابع عشر . وكان هو أيضا يعتقد أن نهاية الشقاء اليهودى ، شقاء اليهود وشقاء العالم باليهود ، تكمن في ايمان هؤلاء الناس بالدين فقط ، وتخلصهم من النعرة القومية الاسطورية التى تفسد ما بينهم وبين الانسانية كلها . وكان يرى أن الشخصية الاسرائيلية يمكن ان تحافظ على فضائلها لو أنها لزمت شرائع الدين ، دون أن تفكر في الاتجاه نحو أرض معينة مثل فلسطين بحجة أنها أرض الآباء والأجداد . ففى يقينه ان الله لا يشترط لعبادته مكانا جغرافيا معينة ، وأنه يقبل الصلاة ويسمع الدعاء من أى مكان على ظهر الأرض . وكان يوضح منطقته هذا بقوله انه هولندى يؤمن بشريعة موسى ، والمعبود اليهودى فى امستردام هو بالنسبة له كهيكل سليمان فى اورشليم بالنسبة لسليمان . ولم يكن الرجل يقتصر على تعليم اليهود وحدهم ، بل كان يشجع كل من قصده ليتلقى عنه العلم ، لانه لم يكن من ضيق الأفق بحيث يحصر نفسه فى نطاق التلمود والمدراس . كان مفكرا وفيلسوبا يؤمن بوحدة الوجود : فالله سر كبير يسرى فى الخليقة كلها . وهكذا يستحيل أن يكون له « شعب مختار » دون سائر الشعوب . فماذا كان جزءا هذا المصلح اليهودى من قومه ؟ أعلنت السلطات الدينية الاسرائيلية طرده من الدين ، والصقت به من التهم ما أمدها به خيالها الخصب . ولم يحاول الرجل أن يتصدى لهذه الفوغائية فى الفكر ، وانصرف الى العلم ، والى عمله الذى يكتسب منه رزقه ، وهو صناعة العدسات البلورية .

الحرب ، ويختاروا لولاية الأمر فيهم قوما آخرين ، مخلصين في حب السلام ، ومتواضعين التواضع الذي وصفه المدرش بأنه درس هام أراد الله تعليمه لليهود عندما ترك جبال الدنيا العظيمة المليئة بالعيون والغابات الخضراء الجميلة المتوجة بالثلوج ، واختار جبل الطور ليكلم منه موسى ، كما ترك أعظم الأشجار وأجملها ليتجلى لرسوله من شجرة صغيرة على هذا الجبل (٣٢) . كذلك كثر في التلمود والمدرش القول بأن اليهود يجب أن يمتازوا بثلاث فضائل هي الرحمة والحياء والاحسان (٣٣) .

أما الاغتصاب ، والتهديد بالقوة ، والعدوان المتكرر المستمر ، فانه يطيل الداء ، ويبعد الشفاء . ومما لا شك فيه أن العالم العربي لن يرضخ للجوار الدائم بجانب مريض ، لاسيما اذا كان مرضه في الشخصية ، بحيث يضعه على حافة الجنون . ولن يكون لليهود أمل في الخلاص ، الذي يعتبر ركنا من أركان الدين عندهم ، الا اذا تخلصوا هم أولا من عقدهم وامراضهم ، وتخلصوا كذلك من المفسدين المعبردين الذين يوجدون في قياداتهم وزعاماتهم . بهذا تتحرر الشخصية الاسرائيلية من هذيان المرضى ، وتدخل في منطق العقلاء . ونرجو أن يكون ذلك قريبا .

القعقة الشديدة التي تصم الأذان ، يشعر المريض شعورا وهميا بأن القوى الخفية قد انطلقت لتحل له جميع مشاكله . لقد دأبت الصهيونية على أن توسوس في صدور أولئك الناس بأوهام الغزو والفتح والقهر والانتصار ، والسيطرة على العالم العربي ، والوصاية على أرزاقه ومقدراته . ولا بد أن يقوم من الاسرائيليين انفسهم فريق واع بحقائق الأمور ، مدرك خطورة المرض المستبد باليهود ، فيتعاون مع كل ذوى النفوس السليمة في العالم على الوصول الى الشفاء . وقد لا يكون الشفاء محتاجا حتى الآن الى عمليات رهيبة ، مثل البتر أو الكي . فقد يكفي في ذلك أن يعيد بعض الحكماء من الاسرائيليين النظر في تكوين مجتمعهم ، فيستبعدون منه المجانين ، خصوصا أولئك الذين يأخذون مكانا في القمة وفي الصفوف الأولى . عندئذ قد ترد الشخصية الاسرائيلية الى ادراك واقعي لأبعاد قوتها ، وتقدير حقيقى للأخطار الرهيبة التي تهددها لو أنها استمرت في ايمانها بفلسفة العدوان والارهاب . ان بقاء الشخصية الاسرائيلية حافظة لفضائلها متخلصة من رذائلها ، آمنة من شبح الانهيار الكبير الذي تعرضت له أكثر من مرة في التاريخ ، يتوقف على صدق النية في السلام . ولن تصدق النية في السلام حتى يطيح اليهود بتجار

★ ★ ★

(٣٢) مدرش يلقوط على سفر الخروج - ٢٨٤ .

(٣٣) التلمود ، يماموت ١٧٩ - التلمود الاورشليمي ، قدوشين ١/٤ - مدرش ربا على سفر العدد ٨ ، وعلى سفر التثنية ٣ - مدرش يلقوط على سفر التكوين ٢/٨٢ وعلى سفر التثنية ٨٤٨ ، ٨٨٩ ، وعلى سفر صمويل ١٥٤ ، وارميا ٢٧٦ .

التركة السحرية

سامية احمد أسعد

الا القليلون . لكنها في الوقت نفسه ، اكتسبت أهمية لم تكن لها من قبل في القرون الماضية ، حيث كان النقد مجرد « خادم للآداب » ، وكان الناقد فاشلا ، يتجه الى النقد لعدم بروزه في مجال فني آخر ، ولعل الناقد الفرنسي سانت بييف Sainte - Beuve خير دليل على ذلك ، فلقد حاول ان يكتب ، ولكن عندما فشلت روايته « لذة » "Volupté" اتجه الى النقد واصبح من البارزين فيه ، الان حلم النجاح الادبي ظل يراوده طول حياته . والان تشهد الساحة الادبية في فرنسا ظاهرة غريبة ، ألا وهي أولوية النقد على الادب وفنونه ، والاهتمام بالنقاد اكثر من الاهتمام بالكتاب انفسهم وكتاباتهم . بحيث اصبحت أسماء رولان بارت R. Barthes

اتجه النقد الحديث في السنوات الاخيرة انبجها جديدا كان قد مهد له الناقد الفيلسوف جاستون باشلار G. Bachelard عندما كتب عن « الحياة والحلم » و « الارض واحلام الراحة » و « التحليل النفسي للنار » الخ . . . وربط العناصر الاساسية الاربعة - الارض والنار والماء ، والهواء - بالخيال المادى لكل من القارئ والكاتب ، ويتمثل هذا الاتجاه الجديد في التجاء الناقد الى كافة العلوم الانسانية التي شهدت تطورا ملحوظا في بداية القرن العشرين عامة ، وبعد الحرب خاصة . فأصبح على الناقد ان يكون قارئا مدققا فحسب ، وانما ايضا فيلسوفا ومحللا نفسانيا وعالما اجتماعيا ، ولغويا واثروبولوجيا الخ مما جعل من مهمته مهمة شاقة لا يقدر عليها

النهاية المجتمع البشري الذي لم يتكيف معه ، ويختار حياة العزلة في صحراء معنوية يتقي فيها شروره . وكتب كل من كورني ورأسين Racine المأساة ممثلين لذات القواعد ، لكن مسرح كل منهما ظل مميزا عن مسرح الآخر ، بحيث سمي مسرح الاول « مسرح الواجب والشرف » ، وسمي الثاني مسرح « الاهواء الانسانية » . ونستخلص من كل هذا ان الادب كان دائما وسيظل سابقا للنقد ، وان النقد مهما نزع الى المنهج العلمي لا يمكنه السيطرة مباشرة على عملية الخلق الادبي .

لكن احدا لا ينكر فضل العلوم الانسانية الحديثة على النقد الادبي ، فبعد ان كان يهتم ، على سبيل المثال ، بحياة الكاتب وتفاصيلها الدقيقة تاركا العمل الادبي في الظل او في المرتبة الثانية ، رايناه يتعمق في دراسة العمل الادبي معطيا اياه الاولوية ومستعينا بحياة الكاتب عند اللزوم فقط ، بل ان بعض النقاد - البنيويين مثلا - ذهب الى حد النظر الى النص الادبي بمنأى عن صاحبه ، وازداد النقد عمقا واتسعت رقعته بالتجائه الى هذه العلوم . والواقع ان بعضها له علاقة مباشرة بهذا اللون الادبي او ذاك ، فدراسة المجتمع من خلال علم الاجتماع خلفية لا بد منها لتفسير الرواية ، تاريخية كانت ام اجتماعية ام نفسية ، وعلم اللغة خلفية لا بد منها لدراسة الشعر ، والتحليل النفسي خلفية لا بد منها لدراسة المسرح ، حيث تطرح الوان شتى من الصراع ينطلق جميعها تقريبا من عقدة أوديب .

ولم يحتل علم اللغة مكان الصدارة بين هذه العلوم لانه يعتمد منهجا علميا فحسب ، فهو بطبيعة المادة التي يدرسها ويبحث فيها اقرب العلوم الى الادب ، لان الادب قوامه النص ، مكتوبا كان ام مقروءا ، واذا كان هذا ينطبق كل الانطباق على الرواية والتصيد والمقال الخ فهو لا ينطبق تماما وفي كل الحالات على المسرح .

ولوسيان جولدمان Goldmann وجوليا كريستيفا J. Kristeva أسماء معروفة أكثر من أسماء الشاعر ج . ميشو G. Michaux والكاتب الروائي ج . كيرول J. Cayrol واحتل علم اللغة Linguistique مكان الصدارة بين هذه العلوم ، نظرا لاستناده الى منهج علمي دقيق ، وحاول النقد الادبي ان يطبق هذا المنهج على كافة الاشكال الادبية المعروفة من رواية ، وشعر ومقال ومسرحية ، سعيا وراء هدف كان بعض نقاد القرن التاسع عشر الفرنسي ، وعلى رأسهم تين Taine قد حاولوا الوصول اليه : جعل النقد الادبي علما لا فنا . واتخذت النتائج التي توصل اليها الباحثون في هذا المجال صبغة علمية في احيان كثيرة ، لكنها تركت في اغلب الاحيان ثغرة تنفذ منها في نهاية المطاف الفكرة القائلة بان النقد اساسا فن طالما ان مادته ، وهي الكتابات الادبية ، كانت ومازالت وستظل فنا لا يمكن خلقه ، انطلاقا من بعض القوانين العلمية الموضوعية سلفا . ولدينا في الادب الكلاسيكي الفرنسي في القرن السابع عشر مثال قريب على احتفاظ كل عمل ادبي ، بل وكل عمل فني ، بطابعه الذاتي الخاص ، حتى عند مراعاته لبعض القوانين الراسخة السابقة له . من المعروف مثلا ان الكاتب المسرحي في ذلك العصر كان يتحتم عليه اخضاع ما يكتب ، مأساة كان ام ملهاة ، لبعض القواعد والتقاليد المأخوذة عن الاقدمين وعلى رأسهم ارسطو . كان على ذلك الكاتب ان يراعي ما سمي آنذاك بقاعدة الوحدات الثلاث ، وحدة الزمان ، ووحدة المكان ، ووحدة الحدث . كان عليه ان ينهي المأساة بفاجعة ، وان ينهي الملهاة نهاية سعيدة ، الخ ومع هذا كتب كورني Corneille مأساة « السيد » Le Cid وانهاها نهاية سعيدة ، تزوج فيها البطل رودريج البطلة شيمين . وكتب موليير ملهات « همدو البشر » Le Misanthrope حيث يهجر السيست في

١ - نص المؤلف .

٢ - نص المخرج .

٣ - نص العرض . ، فالنص الاول يشتمل على المادة الاساسية بالإضافة الى الاشارات المسرحية ، وهي جزء منفصل عن النص كثيرا ما يوضع بين قوسين او يكتب بحروف مختلفة ، وعندما يدخل المخرج على هذا النص بعض التعديلات ويحذف هذا المشهد او يضيف ذاك يتخذ النص شكلا آخر ، وأبلغ دليل على قدرة المخرج على تحويل النص للمؤلف الى نص آخر هو ما شهده المسرح الغربي من محاولات ، بعضها ناجح وبعضها فاشل ، قام بها مخرجو أمثال روجية بلانشان R. Planchon وبيتر بروك P. Brook وغيرهم ، ليقدّموا الأعمال المسرحية القديمة - مولير او شكسبير مثلا - في اطار جديد كل الجدة لا يبقى الا على جزء قليل من النص الاصلي . وعندما تعرض المسرحية ويتحول النص المقروء الى كلمات منطوقة وأصوات وحركات ، نجد انفسنا امام نص ثالث اذا جاز القول ، تتسع احيانا المسافة بينه وبين نص المؤلف الى حد كبير .

ونستخلص من كل ما تقدم ان علم اللغة وحده لا يمكن ان يكون أساسا للنقد المسرحي ، لانه يقوم على اللغة بينما يعتمد المسرح على اللغة اعتمادا جزئيا فقط . ولسوف نستعرض فيما بعد الآراء التي وردت بهذا الخصوص ، لذا كان من الطبيعي ان يتجه النقد المسرحي الى السيميولوجيا أو علم الدلالات Sémiologie حالما اكتشف الباحثون أهمية هذا العلم بالنسبة للدراسة الادب والفن ، ولكن ما هو علم الدلالات هذا ؟ يقول لي روبير Le Robert انه جزء من الطب يدرس دلالات الامراض ، وفي مجال علم اللغة يعرفه سوسور Saussure بأنه « علم يدرس حياة الدلالات داخل الحياة الاجتماعية وعلم يدرس مجموعات الدلالات : اللغات الشفرات codes ، الاشارات الخ ... »

ذلك ان الحديث عن المسرح يفرض سؤالا بديهيا : هل ينتمي المسرح الى الادب وهل يمكن اعتبار النص المسرحي نصا ادبيا ؟ الكتابة المسرحية نوع من انواع الكتابة الادبية ما في ذلك والدليل على ذلك ان كثيرا من الكتاب كتب الرواية والقصيدة والمسرحية على حد سواء . كتب ف هيجو « الشرقيات » Les Orientales و « البؤساء » و « هرناني » Hernani وكتب ا . دى موسيه « الليالي » « Les Nuits » و « لورنزانشو » L'Ornazzaccio لكن الكتابة المسرحية لم تجعل اساسا لكى تقرأ ، وانما لكى تعرض امام جمهور من المتفرجين . صحيح ان هناك ما يسمى بمسرح الكتاب ، اى المسرح الذى يكتب لكى يقرأ ، لكن هذه الكتابة فى رأينا لا تمت الى المسرح بصلة ، اللهم الا بالحوار . اذن النظر الى النص المسرحي فقط نظرة قاصرة ، لا تكتمل الا بالبحث عن ظروف العرض او العروض المسرحية المختلفة التي اعتمدت على ذلك النص . وفى هذا المجال لا يجد الباحث دائما الوثائق اللازمة لاستكمال دراسته . فالنص المسرحي اذن هو جزء من كل يشتمل عليه وعلى العناصر العديدة المكونة لعملية الاخراج والعرض . ومن ثم لا يمكن القطع بان المسرح ينتمي الى الادب ، وبأن النص ادبي ، لان هذا النص يتضمن الاشارة الى الديكور والازياء وحركات الممثلين الخ ... ، اى كل ما يندرج تحت اسم « الاشارات المسرحية indications sceniques » ، وهي منفصلة عن نص المؤلف وان كانت بقلمه لانها موجهة الى المخرج او الراجيسير ، ثم ان هذا النص المسرحي ليس نصا ادبيا بمعنى الكلمة ، اى نصا ثابتا كتب للمرة الاولى والآخرى ، فعندما كتب فلوير روايته « مدام بوفارى » وصحح نصها عدة مرات ثبتته فى النهاية فى النص الذى نشر آنذاك ، ومازال يقرأ حتى اليوم . لكن نص المسرحية يعتبر نصا مسرحيا لانه يمر بمرحلتين تاليتين تغيرانه كثيرا او قليلا ، بحيث يمكن الحديث عن ثلاثة نصوص :

ويطلق بعض اللغويين على علم الدلالات اسم سيميوتيكـا *Semiotique* أى نظرية الدلالات العامة ، هذا وتنقسم الدلالات الى دلالات طبيعية او اصطناعية او تصويرية *iconique* او اصطلاحية ، فما يدل على منحنيات الطريق مثلا هي دلالات تصويرية ، وعلامة الضرب x هي دلالة اصطلاحية .

ولا بد من ايضاح نقطة هامة في البداية : هناك مستويات ثلاث للدلالة : الصورة *icone* والاشارة *indicé* والرمز *symbole* . كثيرا ما يفرق الباحث بينهما ، لكنه عادة لا يحسن تفسيرها ، لذا عرفها بيرس *Peirce* على النحو التالي : « ... الصورة دلالة تحدد مادتها الديناميكية وفقا لطبيعتها الداخلية ... والاشارة دلالة تحدد مادتها الديناميكية وفقا للعلاقة الحقيقية بينهما . والرمز دلالة تحدد مادتها الديناميكية وفقا للمعنى الذى ستفسر به . » يرجعنا الرمز الى شيء ما بقوة القانون ، هذا ، على سبيل المثال هو حال كلمات اللغة . والاشارة دلالة توجد الى جوار الشيء الذى تشير اليه : مثلا ظهور أعراض المرض ، انخفاض درجة الحرارة .. الخ اما الصورة فتظهر صفة الشيء الذى تدل عليه او صفاته : فالبقعة السوداء تدل على اللون الاسود ، ويلاحظ بيرس انه لا يمكن مساواة العلاقة التصويرية بالشبه بين مدلولين : لا يمكن ان نقول ان البقعة السوداء سالفة الذكر تشبه اللون الاسود .

وفي السياق الذى نحن بصددده ، يعرف لى روبير الدلالة عامة بانها : « حركة يقصد بها الاتصال بشخص ما ، او اعلامه بشيء ما » وهى

« شيء مادي بسيط يعترف المجتمع بأنه يمثل حقيقة معقدة » . وفي مجال اللغة الدلالة « عنصر لغوى » يجمع بين دال *Signifiant* ومدلول *Signifie* . يتضح من هذا التعريف البسيط ان الحديث عن الدلالة المسرحية يفترض ان المسرح عرض يجرى أمام جمهور ، ويسعى الى الاتصال به عن طريق عناصر كثيرة ، تأتى الكلمة او الدلالة اللغوية فى مقدمتها . مما يفرض بنا الى قضيتين أساسيتين بالنسبة لموضوع البحث هنا . هل العرض المسرحي تواصل *communication* أم لا ؟ وما هو وضع الكلمة كدلالة لغوية فى المسرح ؟



يؤكد ج . مونان *G. Mounin* ان اول سؤال يجب ان يطرح فى مجال المسرح هو ما اذا كان العرض المسرحي تواصلا أم لا ؟ قد يبدو هذا السؤال خاليا من المعنى بالنسبة لغير المتخصص ، او على الاقل من يجهل الكثير من عالم المسرح . وقد يبدو الجواب عليه واضحا بديهيا ايضا . لكن الامر ليس بهذه البساطة . يلاحظ ا . بوينس *E. Buyssens* فى كتابه « التواصل والنطق (لغوى) » ، ان « الممثلين على المسرح يتظاهرون بأنهم شخصيات حقيقية يتصل بعضها ببعض الاخر ، لكنها لا تتصل بالجمهور على الاقل ، لا تستخدم فى اتصالها به مجموعات الدلالة (وهى هنا لغوية) التى تستخدمها للاتصال فيما بينها . ففي المسرح يظل الممثلون - المرسلون *acteurs - émetteurs* هم هم دائما ، ويظل المتفرجون - المتلقون *spectateurs - recepteurs* هم هم دائما ايضا . (٢)

Ducrot (O.) et Todorov (T.) : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1972, p. 115.

(١)

Helbo (A.) : Sémiologie de la représentation. Bruxelles, Editions Complexe, 1975, p. 13.

(٢)

لكن الا يمكن ان يعتبر تدخلهم في العرض على هذا النحو ردا على الممثلين ، وردا ينتمي الى مجال التواصل ؟ اجاب الباحثون والنقاد اجابات متباينة على هذا السؤال ، فالبعض رد بالايجاب والبعض الآخر رد بالنفي . اما ج . موان ، فلاحظ ان هناك مهنة لتمثيل ، وان الارتجال هو اصعب جزء فيها ، وأنه يجب ان نفكر في ذلك قبل ان نقرر ما اذا كان من يشاهد مسرحية من مسرحيات « الهابننج » يرد على الممثلين بلغتهم الخاصة ام لا . (٣)

ويمثل التواصل في المسرح في عدة علاقات اولها علاقة المتفرج بالنص ، هذه العلاقة علاقة أساسية ، فالمؤلف غير موجود ولن يوجد اثناء العرض ، وان وجد كان متفرجا كسائر المتفرجين . نحن هنا اذن امام علة احادية الاتجاه ، وتواصل يستخدم الاداة اللغوية بطريقة خاصة ، شأنه في ذلك شأن الادب عامة ، ومما لاشك فيه ان المؤلف يريد ان يوصل شيئا للمتفرج ، وهذا الشيء هو معنى المسرحية ومضمونها . لكن هذه الرسالة message في مجموعها تنقل الى المتفرج ، بطريقة غريبة ، تبني من جديد التجربة اللغوية التي اراد المؤلف توصيلها ، فالكلمات والاجابات والاماكن والازمنة الخ كل هذا يبني ثانية بطريقة مميزة تجعل منه دلالات يفسرها كل متفرج حسب ما يشاء ، وبالرغم من ان التواصل بين النص والمتفرج يتم بواسطة الاداة اللغوية فهو لغوي باى حال من الاحوال . هناك ايضا علاقة المتفرج بالممثل ، فالممثل هو الذى ينقل النص الى المتفرج ويظن البعض ان الممثل يتصل بالمتفرج ، وان هذا التواصل يمت الى التواصل اللغوي بصلة ، في حين البعض الآخر عكس ذلك . ويعتقد ج . موان ان العالم النفساني والمحلل النفساني هما اللذان يستطيعان تفسير هذه العلاقة المعقدة التي تتم او لا تتم بمقتضاها الموافقة على نبرة الصوت

ويلاحظ ان «التواصل اللغوي يتميز بحقيقة اساسية هي احدى مكونات عملية التواصل ذاتها ، الا وهي ان المرسل emetteur يستطيع ان يصبح بدوره متلقيا recepteur والعكس صحيح . لكننا لا نجد شيئا كهذا في المسرح ، وان وجد التواصل سار في اتجاه واحد ، بعكس ما يحدث في عملية التواصل اللغوي سالف الذكر ، فالمتفرجون لا يستطيعون ان يردوا على الممثلين . صحيح ان هناك الهمسات ، وهمهمات الاستحسان او الاستهجان ، والصفير والدلالات اليمائية والحركية الاخرى ، وفيها يتمثل الجواب الوحيد الذى يمكن ان يرد به المتفرجون على الممثلين ، لكن هذا الجواب ليس سوى جزء من وسائل اتصال اخرى غير الوسائل المكونة للمسرحية ذاتها . خلاصة القول ان المتفرجين لا يستطيعون الرد على الممثلين ردا مسرحيا ابدا . وقد يعترض البعض ويذكر تلك الاجوبة الحديثة التي يقدمها جمهور المتفرجين للممثلين في مسرحيات « الهابننج » happenings التي توسع حلقة الاجوبة هذه وتنوعها ، لكن الهابننج في الواقع لا يدخل تغييرا جذريا على طبيعة ما يحدث عندما يصفق المتفرجين ، بالرغم من كل هذا يحدث اثناء العرض شيء قريب على الاقل مما يسمى تواصل . لكن هل يمكن ان يوجد تواصل مسرحي غير لغوي ؟ اذا اردنا ان نفهم ماذا نعني عندما نتحدث عن التواصل وجب علينا ان نتذكر ان المرسل يتصل بالمتلقى اذا استطاع هذا الاخير ان يرد عليه ، مستخدما ذات القناة وذات الرموز . قلنا ان هذا التواصل لا وجود له في المسرح اذا ما استبعدنا بعض الرموز القليلة التي تدل على ردود نمطية ، وتعبير عن رد فعل الجمهور امام العرض والاشكال المسرحية الحديثة الهابننج . . . ومسرح الشارع ومسرح القهوة ، والمسرح الدائري ، تحاول ان تدخل المتفرجين في دائرة العرض ، وان تجعل منهم مرسلين شأنهم شأن الممثلين ،

التي تقوم في الصالة اثناء العرض ، بين كل متفرج والمتفرجين الآخرين ، وربما كان البحث في هذه النقطة مشمرا لو انه اتجه الى ما سماه عالم الاجناس الانجليزي مالىنوفسكي « المشاركة العقلية » fonction phatique

ولقد اطلق هذا العالم هذا الاسم بمعناه الواسع على الاتفاق والارتياح الجماعي الذي ينشأ عن الكلمات والصرخات الخالية من المعنى ، التي تطلق في مواقف محددة بوضوح ، حتى اذا كانت هذه المواقف تنتمي الى الحياة اليومية وبعيدة عن فكرة توصيل اية رسالة . ويرى ج . مونان ان البحث يجب ان يتطرق ايضا - ولم لا ؟ - الى العلاقة التي تقوم بين المتفرج ونفسه ، عندما يشاهد عرضا مسرحيا .

في النهاية يرى مونان انه من الافضل ان نفسر ما يحدث في المسرح اثناء العرض باستخدام كلمة الاثارة stimulation لا كلمة التواصل . بالمعنى الذي يعطيه لها علماء النفس ، ذلك ان المؤلف والمخرج ومصمم الديكور ومصمم الازياء والممثلين ، الخ يكونون ، اثناء العرض مشدودين برغبتهم في قول شيء ما للمتفرج . هذا على الاقل ما يقولونه ، لكنهم في الواقع يسمعون جميعا الى التأثير عليه . فالدائرة التي تنطلق من خشبة المسرح وتنتج الى الصالة دائرة معقدة اساسا تعتمد اثارة الرد والجواب ، والمتفرج يتأثر فعلا بما يراه ويسمعه ، وهذا ما يهدف اليه كل من يلعب دورا في العرض . ويرى مونان ان هذه النقطة يمكن ان تكون افضل بداية التحليل هو تشبيهه بالمقطوعة الموسيقية التي التي تبحث - وربما وجدت - عن الوسائل التي تمكن المتفرج من المشاركة مشاركة جسمانية في العرض ، وان اعتماد كلمة الاثارة في التحليل تجعل العرض المسرحي يبدو وكأنه شبكة من العلاقات المعقدة بين خشبة المسرح والصالة ، وهو يرى ان افضل تشبيه لمثل هذا

والايماء والحركة والسلوك الجسماني عامة لشخصية التي يقتضيها الممثل ، ربما سمي هذا النوع من العلاقات مشاركة او اسقاطا او تقمصا نفسيا identification او اى شيء آخر ، وقد يتلقي الممثل كذلك ردا خاصا على هذه الدفعة المنفصلة عن النص ، ردا يمثل في رجفة الصالة كما يقال ، وكل ما يدل على ان هذه العلاقة بين الممثل والمتفرج قد قامت سلبا او ايجابا (٤) والممثل والنص مجتمعان يبينان علاقة جديدة هي علاقة المتفرج بالشخصية ، ومما لا شك فيه ان هذه العلاقة تختلف عن سابقتها ، وانها ليست تواسلا بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، وان اعتمدت على الكلمات قد تكون مشاركة او تقمصا نفسيا او اسقاطا ، لكنها في كافة الاحوال علاقة ثقافية معقدة .

في هذا السياق لا بد ان يوضح الباحث ايضا الطريقة التي يتم بها الاتصال بين كل من المخرج ومصمم الديكور والمتفرج ، ولا بد ايضا من بحث كل شيء في هذه النقطة على المستوى السيميولوجي ، لانه وجدت ومازالت توجد - مفاهيم عديدة للديكور تجعل منه مجموعة من الشفرات ، كأن يرمز عامود ذى شكل معين الى العصور القديمة ، او معبد صغير ذى شكل معين الى القرن الثامن عشر ، او النخلة الى افريقيا ، كما وجدت مفاهيم اخرى جعلت من الديكور مجرد شيء مصاحب لا يدل الى موقف بمعنى الكلمة . وايا كان المفهوم فان مصمم الديكور ينقل الى المتفرج شيئا ما ، ولا بد من تحليل عملية النقل هذه ، ويمكن للباحث ان يحلل ايضا العلاقة التي تقوم بين المخرج والمتفرج ، وتلك التي تقوم بين المتفرج والمؤلف والتي قال عنها ا . بويسنس انها تتعلق بتواصل آخر يضاف الى عملية العرض .

ولا شك انه يجب البحث ايضا عن العلاقة

او النقد المسرحي المنشور في الصحف . الرد اذن موجود لكنه ليس مسرحيا بمعنى الكلمة . اذن تظل عملية التواصل أمرا واقعا اثناء العرض المسرحي مادام « وجود المتلقي او المرسل اليه كان دائما بارزا في المسرح » ، كما يقول أ. هيلبو . (٦)

كل عمل ادبي هو شكل لغوي ذو بعدين . فنحن نجد فيه من ناحية أربعة مستويات متميزة لكنها مرتبطة فيما بينها ارتباطا وثيقا : المستوى الصوتي للكلمات والوحدات الصوتية العليا ، والمستوى السيمانتيكي للجمل ووحداته العليا ، ومستوى اللوحات المرئية ، ومستوى الحقائق المصورة . من ناحية أخرى يجب ان نفرق بين تتابع الاجزاء والبناء المتميز الذي يحتوي على العمل المسرحي في مضمونه من البداية الى النهاية .

والمسرحية نوع من الادب على الاقل ظلت كذلك لفترة طويلة . وعندما تعرض حقا على المسرح يبني عرض تظهر فيه الاشياء والشخصيات المصورة وافعالها بشكل محسوس ، اما الكلمات والجمل التي يتكون منها النص الرئيسي فتظهر للمتفرج في شكلها الصوتي الملموس مادام الممثلون لا ينطقون بها حقا . وننتحدث هنا عن النص الرئيسي ، لان بعض النقاد مثل ر. إنجاردن Ingarden يرون في النص المسرحي نصين : نصا رئيسيا وآخر ثانويا . الكلمات التي تنطق بها الشخصيات تكون النص الرئيسي ، والاشارات المسرحية التي يوردها المؤلف تعتبر نصا ثانويا - ومن الطبيعي ان تختفى هذه الاشارات عندما تعرض المسرحية ، فهي اذن لاتدرك ولا تؤدي وظيفتها التصويرية الا عند قراءة المسرحية .

والحقيقة الاساسية التي تجعلنا نلمس كل المشاكل الخاصة باللغة في المسرح هي ان النص

التحليل هو تشبيهه بالمقطوعة الموسيقية التي يعزفها قائد الاوركسترا ، اذ تحدث في كل لحظة اثناء العرض اثارات على مستويات مختلفة ، لغوية وضوئية وحركية وتشكيلية ، وكل عنصر من هذه العناصر ينتمي الى مجموعة مختلفة يمكن تفسير قواعدها الاساسية . ويقول موانان ان فهم العرض على المسرح على هذا النحو لا يقلل من شأنه ولا يهدم شيئا من القيم التي صورها المسرح ، كل ما هنالك انه يحاول ان يوضح عمل المسرح الحقيقي ، ولربما كن الشيء المبتكر والوحيد في هذا المفهوم هو اقتراحه تنظيم جديد لكل ما عرف حتى الان عن المسرح بطريقة مبعثرة ، وادراج هذه المعرفة في نظرية موضوعية عن المسرح .

واذا عدنا الى السؤال الذي طرحناه : العرض المسرحي تواصل ام لا ؟ وجدنا ان الاتفاق مع ج . موانان على المسرح ليس توافقا كذلك الذي يحدث في مجال اللغة امر وارد . لكن الاكتفاء بالحديث عن الاثارة يفقد العرض المسرحي كثيرا من عناصره ، لانه يقصره على عملية واحدة بينما يظل المسرح توافقا بين طرفين : الراسل والمتلقي عن طريق رسالة توجه من الاول الى الثاني . ويرى أ. هيلبو A. Helbo ان موقف موانان « يقصر التواصل على لغة البشر ، ومثل هذا التحديد يفقد اي فهم للعرض يتم بلغة تتعدى التماثل كل اهميته . . لكن هذا التحديد يحث على البحث عن ثوابت paramètres محددة تحلل خواص الظاهرة المسرحية » . (٥) واتضح مما اسلفنا ان النقاش في هذه النقطة دار حول رد المتلقي على الراسل مسرحيا والواقع ان رد جمهور المتفرجين موجود دائما سواء كان نمطيا او لا . كل ما هنالك انه يأتي في حينه او يؤجل حتى انتهاء العرض والخروج من المسرح ، وقد يتخذ شكل النقاش او النقد الاذاعي او التافريوني ،

الرئيسي في مجموعة يكون عنصراً من عناصر العالم الذي يصوره العرض المسرحي ، عندئذ يصبح النطق بكل كلمة وكل جملة عملية تتم في إطار هذا العالم المصور ، حيث يصبح الكلام عنصراً من عناصر السلوك الشامل للشخصيات ؛ والكلام الذي يقال على المسرح يقوم أيضاً بوظيفة اللغة التصويرية ، ومن ثم عليه أن يكون على علاقة وثيقة بوسائل العرض المسرحي الأخرى ، أي العناصر المرئية التي يحملها الممثلون .

والكلام الذي ينطق به الممثل على خشبة المسرح مجموعة معقدة من الدلالات ، فهو يشتمل على كل دلالات لغة الأدب ، فضلاً عن أنه جزء من أحداث المسرحية ، حتى الكلام في الحياة اليومية هو مجموعة من الدلالات المتعددة المتباينة ، فالتكلم يعبر بما يقوله عن حالته الذهنية أو النفسية ويدل كلامه في الوقت نفسه على مستواه الثقافي والاجتماعي . ويستخدم كل من الكاتب المسرحي والممثل هذه الدلالات كوسيلة للتعبير عن الانتماء السياسي أو الاجتماعي أو القومي للشخصية التي يصورانها ، لكن الكاتب المسرحي ، والممثل لا يختاران ، ويحدث هذا بالنسبة للزى أيضاً ، الأجزاء صغیر من مجموع الدلالات التي تحملها اللغة اليومية ، ففي هذه اللغة ترتبط الدلالات المميزة لطبقة ما ارتباطاً وثيقاً باللهجة الخاصة بالمنطقة التي تنتمي إليها الشخصية ، لكن على المسرح ليس من الضروري في كثير من الأحيان تعيين المنطقة التي تنتمي إليها الشخصية بدقة ، فالرجل الريفي مثلاً لا يستخدم إلا بعض السمات المميزة للهجة منطقة ما ، وأحياناً يجمع في كلامه بين السمات المميزة لعدة لهجات في آن واحد . صحيح أن هذا الجمع بين لهجات عدة يتنافى مع الواقع لكنه يعتبر تعبيراً قوياً عن الرجل الريفي الذي

يؤدي دوره الممثل ، ويقول بوجاتيرف Bogatyrev في هذا الصدد : « أرى أن لهجة مصطنعة من هذا النوع لها كل الحق في التواجد على خشبة المسرح » ، ويضيف قائلاً « ونجد حالات مماثلة في مجال الزى المسرحي والديكور » . (٧) وإذا اختلفت الكلمات والأشكال وإبنية الجمل واللفظ بها عما هي عليه في الحياة اليومية دل ذلك على أن الشخصية التي تستخدمها اجنبية ، والكلام بايقاع معين يدل على الشيخوخة أو المرض أو الاضطراب النفسي ، وإذا كان سريعاً دل على الانفعال والثورة والغضب . . وفي بعض الأحيان تتمثل الوظيفة الأساسية للكلمات التي تنطق بها الشخصية على المسرح في مضمونها ذاته ، بل وفي الدلالات اللفظية التي تحدد جنسية المتكلم أو انتمائه الطبقي ، عندئذ تعبر عن مضمون الكلام دلالات مسرحية أخرى : الحركة مثلاً ، والتعبير اللفظي للممثل على المسرح عموماً دلالات عدة ، فإذا تعدد الخطأ في الكلام دل ذلك على أنه اجنبي أو على الأقل غريب على اللغة التي يتكلم بها ، وأحياناً يعتمد الممثل الكوميدي على مثل هذا الخطأ ، كذلك وجدت حتى الآن وسائل متفق عليها للتمييز بين عامة الشعب والطبقة الراقية عن طريق اللغة ، واستخدمت بعض المدارس المسرحية الأساليب اللفظية لإجراء هذا التمييز ، فخصت المدرسة الكلاسيكية الفرنسية الشعب باستخدام النثر ، في حين خصت الطبقة الراقية بالشعر ، ويسوق الناقد بوجاتيرف مثال المسرح الروسي أيضاً ، حيث يتكلم القيصر والنبلاء بأسلوب راق ، في حين يتكلم القرويون لغة عادية هي الروسية .

الكلمة موجودة إذن في أغلب العروض المسرحية ويختلف دورها باختلاف الألوان الدرامية والموضات الأدبية أو المسرحية وأساليب الإخراج الخ . . . وأغلب من تناووا

ويلعب ادوارا سيميولوجية عدة . فقد تكون دلالة للمونولوج الداخلي للبطل ، أو دلالة لراو يرى ولا يرى ، أو شخصية جماعية ، أو شبح الخ

والكلمات التي ينطق بها الممثلون على المسرح لها دور تلعبه داخل العالم المصور ودور آخر تلعبه بالنسبة لجمهور المتفرجين .

أولاً : تصور هذه الكلمات الحقائق التي ترجعنا اليها بمعناها . قد يتعلق الامر بحقائق يشار اليها باسم الاشياء ، والكائنات البشرية والاحداث وحقائق تصور في جمل وتستخدم بدورها لتصوير الاشياء والكائنات البشرية . يمكن ان تتم عملية التصوير هذه بطريقة ذهنية بحثة ، كما يمكنها ان توصل الحقائق في شكل صور محسوسة يضطلع بالدور الرئيسى في هذا المجال العنصر المرئى المتمثل في الحقائق التي تظهر على المسرح ، ومثال التمثيل اليماني والفيلم الصامت يبين الى اى مدى لا يمكن ان يستغنى العرض المسرحى عن وسيلة التصوير باللغة هذه . لكن دور التصوير باللغة يختلف حسب المسرحيات ، ومن الاهمية بمكان ان يدرس الناقد - بل وكل مؤلف مسرحي - كل عمل على حدة من هذه الزاوية الخاصة .

ثانياً : تعبر الكلمات التي ينطق بها الممثلون عن التجارب والحالات النفسية المختلفة التي تعيشها الشخصيات ، وتتم عملية التعبير هذه بالقول واللهجة والنبرة التي تقال بها الكلمات ، وتتخذ مكانها في اطار الوظيفة التعبيرية الشاملة التي تؤديها حركات المتكلم وايحاءاته هذه العملية اذن جزء لا يتجزأ من هذه الوظيفة التعبيرية الشاملة ، ولصفتها هذه تدخل عالم العرض في الوقت الذي تساهم في تكوين بعض اجزائه . توجد اذن بين عملية التعبير باللغة هذه والوظائف التعبيرية الاخرى

هذا الموضوع بالبحث اخذوا الدلالات اللغوية بمعناها ، اى الكلمات التي ينطق بها الممثلون اثناء العرض ، ويرى ت . كوفزان Kowzan ان التحليل السيميولوجي للدلالة اللغوية يمكن ان يجرى على مستويات مختلفة المستوى السيماتيكى الذى يتعلق بالكلمات والجمل والوحدات الاكثر تعقيداً ، او مستوى الصوتيات او مستوى النحو الخ فاذا كانت هناك كلمات يكثر فيها حرف « س » و « ز » و « ش » و « ج » دلت هذه الاصوات على غضب الشخصية التي تنطق بها وثورتها . واذا كانت الكلمات المستخدمة قديمة بالية دلت على فترة تاريخية بعيدة او شخصية متخلفة عن عصرها . وتغيير الوزن ، في حالة ما اذا كان الكلام شعراً ، والايقاع قد يدل على تغيير المشاعر او الحالة النفسية او المزاج . واذا كان الحال فالكلمة على المسرح تؤدي وظيفة سيماتيكية خالصة بالاضافة الى وظيفتها السيميولوجية على مستوى الصوت والنحو الخ

والحديث عن الكلمة من وجهة النظر هذه يطرح سؤالاً مسرحياً بحثاً ذا اهمية كبرى ، ما هي العلاقة بين المتكلم ومصدر الصوت ؟ في المسرح لا يكون المتكلم مصدر الكلمة دائماً ، وتترتب على ذلك نتائج سيميولوجية هامة ففي مسرح العرائس مثلاً تمثل الدمى الشخصيات ، اما الكلمات فينطق بها فنانون لا يظهرون على المسرح ، واذا استبدلت العرائس بشخصيات حية ، واختلف الدور السيميولوجي للكلام تماماً ، كان تؤدي الشخصية بعض الحركات وتفتح فمها بدون ان تنطق بكلمة واحدة بينما تصدر كلماتها عن احد الميكروفونات . ويقول ت . كوفزان : « ان الفصل المتعمد بين مصدر الصوت الطبيعي والمتكلم دلالة لشخصية الدمية » (٨) هذا ويمكن ان يتخذ هذا الفصل اشكالا عدة

روابط متفاوتة حسب ما اذا كان عالم العرض يقدم وحدة مكتملة أم لا .

الكلمات والجمل التي تنطق بها شخصيات المسرحية تؤدي وظيفة اتصالية ، فما يقوله المتكلم ينقل الى شخصية اخرى هي الشخصية التي توجه اليها هذه الجمل . اذن الكلمات التي تقال توجه دائما الى اخر بالقدر الذي تستخدم بها بطريقة طبيعية ، وتستثنى المونولوجات من هذه القاعدة ، لكن دورها قصر الى اقصى حد في الدراما الحديثة لانها تفتقر بالذات الى هذه الوظيفة الاتصالية .

رابعاً : من النادر ان يقتصر الحوار على التواصل البحت ، لان ما يدور حوله اكثر حيوية من ذلك بكثير ما دام الامر يتعلق بالتأثير على المخاطب ، ففي كل صراع يتطور داخل المسرحية يعتبر الكلام الوجه الى اى من الشخصيات شكلاً من اشكال فعل المتكلم ، وهو لا يكتسب في نهاية الامر معنى حقيقياً بالنسبة للاحداث التي يصورها العرض الا اذا ساهم مساهمة فعالة في تطور تلك الاحداث وتتحد الكلمات التي تقال وتعتبر عنصراً محرراً للاحداث اشكالا مختلفة ، ولتؤكد ان وظيفة الاقناع التي يقوم بها المتكلم ازاء الشخصيات الاخرى المشتركة في الاحداث الشاملة للمسرحية خاصة اساسية من خواص القول والكلام ، وجدير بالذكر ان هذه الوظائف الاربعة تشمل فقط تلك التي تقوم بها الكلمات التي تقال داخل عالم للعرض المسرحي ، لكنها ليست الوظائف الوحيدة التي يقوم بها الكلام على المسرح .

والكلمات التي تنطق بها الشخصيات تقوم بوظيفة معينة بالنسبة لجمهور المسرح ، الذي يجرى العرض المسرحي من اجله فالعرض المسرحي لا يقتصر على خشبة المسرح ، بل يشمل ايضا الصالة وجمهور المتفرجين . والعالم الذي يجرى فيه بناء خاص يختار ارادياً بالنسبة للجمهور ، خشبة المسرح الحقيقية مفتوحة دائماً اثناء العرض والعبارة التي تقول :

« رفع الستار » لها دلالتها في هذا الشأن ، لكن يمكن النظر الى المكان الذي يصور على المسرح وتجرى فيه الاحداث - وهو مكان وهمي الى حد ما - بطريقتين مختلفتين : كما لو كان كل شيء يدور في عالم مفتوح امام الجمهور ، او على عكس ذلك ، كما لو كان شيء يجرى في عالم مغلق امام هذا الجمهور . ففي الحالة الاولى يمكن تعيين عاملين يحددان طريقة تصوير عالم العرض واظهاره للمتفرجين ، هذان العاملان هما: **اداء الممثلين ووضع قطع الديكور** ، ويجب ان نبحث عندئذ عما اذا كان فتح المسرح جعل من اجل جمهور مكون من متفرجين سلبيين ، ام من اجل مجموعة من الاشخاص تجردت من دورها السلبي ، عليها ان تشارك الى حد ما على الاقل فيما يجرى على خشبة المسرح . تحت الباب الاول تتدرج مسرحيات شكسبير التي تؤدي ادوارها ، بحيث يخاطب الممثلون الجمهور فعلاً بدون ان يخرجوا عن دورهم الاصلى . اما في الباب الثاني فيمكن ان تدرج المأساة الاغريقية وبعض مسرحيات « الاسرار » الدينية التي كان الجمهور يشارك فيها مشاركة فعالة .

مع المسرح الطبيعي *naturaliste* فقط ظهرت فكرة المسرح المغلق ، وهو مسرح موجه الى مجموعة من المتفرجين ، تولد المسرحية فيهم متعة جمالية ، يتعلق الامر في الواقع بخشبة مسرح مغلقة تؤدي الادوار عليها كما لو كان هناك حائط رابع ، وكما لو كان المتفرجون لا يشاهدون ما يجرى على خشبة المسرح من احداث ، في هذه الحالة يجب ان يولد الممثل احساساً بأنه يرى ويسمع من الشخصيات التي يتجاوز معها في عالم العرض فقط ، وبالتالي يبدو هذا العالم وكل ما يحدث فيه كما لو كان لا يوجد احد لمشاهدته من الخارج ، اذ يجب ان يحدث كل شيء فيه بطريقة طبيعية ما أمكن . مع هذا يوجه عالم العرض واداء الممثلين الى المتفرج ، لكن الى متفرج يعامل كما لو كان غير موجود . وكان اصحاب نظرية المسرح الطبيعي يرون ان تقديم الطبيعة مجردة كما

خواص اللغة وامكانياتها ، ولا يسمح بأن تطلق كلمة لغة الا على الكلمة المنطوقة ، اي الكلمة المكتوبة في المسرح كما نفهمه هنا في فرنسا ، النص هو كل شيء » . (٩)

ما هو مصير الكلمة اذن في مسرح آرتو أو مسرح القسوة كما اسماه؟ هل تصمت ام تزول؟ يقول آرتو : ان الكلمة لن تتحكم في خشبة المسرح بعد الان ، لكنها ستكون حاضرة عليها وستشغل مكانا محددا عليها ، وستكون لها وظيفة محددة داخل مجموعة من العناصر الفنية ، ومعروف ان آرتو كان يرى ان عروض مسرح القسوة يجب ان تنظم سلفا ، لكن غياب المؤلف والنص لن يترك خشبة المسرح لفوضى الارتجال أو « النزعة التجريبية السريالية » ، أو اساليب الكوميديا دي لارتي الايطالية ، وذلك لان كل شيء في مسرح القسوة سينتظم في نص لن يشبه نسجه نسج العرض المسرحي الكلاسيكي .

ولن تمحي الكلمة وكتابتها من مسرح القسوة الا بالقدر الذي كانتا تسعيان به الى ان تكونا املاء ، اي استشهادات ، أو لقاء أو أوامر ، لن يقبل المخرج أو الممثل ما يملى عليهما بعد الان : « سوف نتخلى عن خرافة النص المسرحي ودكتاتورية الكاتب » . ووفقا لها للرأي ينتهي أيضا عصر اللقاء الذي يجعل من المسرح مجرد تدريب على القراءة .

كيف تعمل الكلمة وكتابتها اذن ؟ يقول آرتو انهما ستتحولان الى حركات من جديد ، ويعنى هذا ان الامر لا يتعلق ببناء مسرح صامت ، بل ببناء مسرح لم يسكت ضجيجيه بعد في شكل الكلمة ، لان النص جثة الكلمة المعنوية ولا بد من العودة الى « الكلمة السابقة للكلمات » ولغة الحياة نفسها ، لا بد من العودة الى ذلك الوقت الذي كان منطق العرض لا يفصل فيه بين الكلمة والحركة . يقول آرتو : « انا اضيف الى لغة الكلام لغة اخرى ، واحاول ان اعيد الى لغة

هي للمتفرج هو ذروة الفن ، فأي تغيير في سلوك الشخصيات أو سير الاحداث يستهدف التأثير على المتفرج يعتبر في نظرهم تزييفا للطبيعة ، هكذا اوصدوا الحائط الرابع الوهمي في وجه المتفرج . وعندما كان كل شيء يحدث كما لو كان المسرح مغلقة فعلا قالوا ان العرض بلغ ذروته ، لان المسرح اصبح عندئذ شفافا حتى الدراما التأثيرية impressioniste اعتبرت دراما طبيعية مع فارق بسيط هو ان الطبيعة تتحول فيها الى انطباعات واجواء تحسها وتعيش فيها شخصيات المشهد الواحد .

والحديث عن الدلالة اللغوية في المسرح لابد وان يتطرق الى موقف هام هو موقف آرتو A. Artaud من الكلمة أو النص المسرحي ، ولرأى آرتو اهمية قصوى في هذا الصدد ، لانه كان منطلقا لكثير من المخرجين المجددين البارزين ، الذين قالوا انهم يواصلون مسيرة هذا الرائد ، ويحاولون تحقيق ما لم يحققه هو ، ومما لا شك فيه ان رأي آرتو كان نقطة تحول جذرية في تاريخ المسرح الغربي ، الذي راح يقدم المخرج على المؤلف ، والاخراج على النص ، حتى كانت بعض التيارات المسرحية الحديثة مثل المسرح الحي Living Theater التي نبذت النص ، والمؤلف بالتالي ، كلية وجعلت منه مجرد خطوط عريضة يسترشد بها عرض ارتجالي في اغلب الاحيان ، هذا في الوقت الذي تركزت فيه عملية الاخراج كلها بين يدي المخرج .

يقول آرتو : « اري ان ما من احد يستحق ان يقول عن نفسه انه مؤلف اي مبدع الا ذلك الشخص الذي يتحكم في خشبة المسرح مباشرة » المقصود هنا هو المخرج « هنا بالدات تكمن نقطة ضعف المسرح كما يفهم ، لا في فرنسا فقط وانما في اوروبا كلها ، بل وفي الغرب كله ، فالمسرح الغربي لا يطلق كلمة لغة ولا ينسب

الكلام التي نسوا امكانيتها الفاعلية فاعليتها القديمة السحرية الكاملة ، وعندما أقول انني لن امثل مسرحيات مكتوبة بعد الان ، أقصد انني لن امثل مسرحيات تقوم على الكلمة والكتابة ، وان الجزء الجسماني سيكون الجزء الغالب فيها ولا يمكن ان يثبت هذا الجزء او يكتب بلفة الكلمات العادية حتى الجزء النطق المكتوب سيأخذ معنى جديدا . « (١٠)

ما هي اذن هذه الكتابة المسرحية الجديدة كما يفهمها آرتو ؟ لن تكون هذه الكتابة مجرد تدوين لبعض الكلمات ، لانها ستعطي مجال اللغة الجديدة كله ، ولن تكون كتابة صوتية وانما كتابة « هيروغليفية » تنسق بين العناصر الصوتية والبصرية والتشكيلية الخ . . . وفكرة الكتابة الهيروغليفية هي محور اول بيان أصدره آرتو « اذن يعي المسرح هذه اللغة ، لغة الفضاء والاصوات والصرخات والاضواء ، عليه ان ينظمها بأن يجعل من الشخصيات والاشياء حروفا هيروغليفية حقا ، وبأن يستخدم رموزهم وتوافقهم مع كافة الاعضاء وعلى كافة المستويات » . (١١)

والكلمة كما يرى آرتو استخدامها على المسرح نفس الوظيفة التي يعطيها لها فرويد على مسرح الحلم ، فالكلمة موجودة في الحلم لكنها لا تتدخل فيه الا كعنصر بين عناصر أخرى . يقول فرويد : في الحلم « تتحول الافكار الى صور - مرئية بصفة خاصة - ويتحول تصوير الكلمات الى تصوير الاشياء المقابلة لها ، ويتم كل شيء كما لو كان الموقف محكوما بشيء واحد : القدرة على الاخراج » ويستطرد قائلا : « وجدير بالملاحظة ان عمل

الحلم لا يقتصر الا قليلا على تصوير الكلمات ، فهو مستعد دائما لاستبدال الكلمات بعضها ببعض الى ان يجد التعبير الذي يسهل استخدامه في الاخراج التشكيلي » . (١٢) يتحدث آرتو أيضا عن « التصوير المادي المرئي التشكيلي » للكلمة واستخدام الكلمة بمعنى مكاني ملموس يهز الاشياء ، وفيما يتعلق بالمعنى الذي يعطيه لكلمة اللغة ويقول آرتو في مقال يرجع الى عام ١٩١٣ : « لا ينبغي أن نعني بكلمة اللغة التعبير عن الافكار بالكلمات فقط ، وانما أيضا لغة الحركات وأي نوع آخر من التعبير عن النشاط النفسي ، الكتابة مثلا . . . » (١٣)

ويلاحظ ان آرتو يصف دور الكلمة والكتابة في مسرح القسوة وفقا للعبارات التي يستخدمها فرويد نفسه ، فهو يقول في البيان الاول الذي صدر عام ١٩٣٢ : « لغة المسرح لا تتعلق الامر بحذف الكلمة المنطوق بها ، وانما اعطاء الكلمات الاهمية التي تعطى لها في الحلم تقريبا . بالنسبة لما تبقى لا بد من ايجاد وسائل جديدة لتسجيل هذه اللغة كأن تقترب هذه الوسائل من وسائل الكتابة الموسيقية ، أو أن يستخدم نوع من الكتابة المرقمة . وفيما يتعلق بالاشياء العادية وجسم الانسان الذين سيرتقون الى مرتبة الدلالات من الواضح انه يمكن استلهاهم الحروف الهيروغليفية » (١٤) ويختم آرتو بحثه في هذه النقطة بقوله انه لا يحد من امكانيات المسرح واللغة بحجة انه لن يمثل مسرحيات مكتوبة ، بل سيوسع نطاق هذه اللغة ويعدد امكانياتها .

(١٠) المرجع السابق ص ٣٥٢ .

(١١) المرجع السابق ص ٣٥٢ .

(١٢) المرجع السابق ص ٣٥٢ .

(١٣) المرجع السابق ص ٣٥٤ .

(١٤) المرجع السابق ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

الدلالة المسرحية

— **اي مسرح ايدولوجي ، او ثقافي او تفسيري .** بمعنى ، اي مسرح يحاول ان يوصل مضمون ما ، او رسالة ما ، ايا كانت طبيعتها ، سياسية ، دينية سيكولوجية ميتافيزيقية الخ ...

وجدير بالذكر ان احتفال مسرح القسوة لا يجري الا مرة واحدة ، فلقد اراد آرتو ان يمحو كلية التكرار : « لنعترف بأن ما قيل لا ينبغي ان يقال ثانية ، وان قيمة أية عبارة لا تتكرر مرتين ، ولا تحيا مرتين ، وان كل كلمة ينطق بها تموت ، وانها لا تؤثر الا في اللحظة التي تم فيها النطق بها ، وان الشكل الذي استخدم لا يدعونا الا الى البحث عن شكل آخر ، وان المسرح هو المكان الوحيد في العالم الذي لا تتكرر فيه الحركة الواحدة مرتين . » (١٥) في الواقع عندما ينتهي العرض المسرحي لا يترك وراءه أثرا فهو طاقة ، واذا اخذناه بهذا المعنى أصبح فن الحياة الاوحد .



يمكن ان تفسر الدلالة اللغوية بقراءة المسرحية او مشاهدة العرض اذا كانت المسرحية قد اخرجت على المسرح ، وحديثنا هنا عن الدلالة المسرحية التي تنسحب لا على الدلالة اللغوية وحدها وانما على مجموعات أخرى من الدلالات التي لا يمكن تفسيرها الا من خلال العرض ، لذا كان الربط بين الدلالات المسرحية والعرض امرا ضروريا ، ومع هذا ، يمكن لقارئ المسرحية ان يفسر الدلالات الخاصة بالزى والديكور الخ .. لكن على مستوى الخيال فقط .

والمرح في العرض ، بمعنى الكلمة ، ولا بد ان ندرك منذ البداية ان العالم الذي يصور على خشبة المسرح ينتج عن تركيب عوامل ، فهو يتألف من مجالات ثلاثة ليست من حيث

ويعتبر آرتو ان انواع المسرح الآتية غريبة على مسرح القسوة :

— **المسرح الذي يفرد مكانة مميزة للكلمة ،** وای مسرح يعتمد على الكلمة حتى لو كانت هذه الكلمة تهدم نفسها او تتحول الى حركة متكررة يائسة ، لان علاقة الكلمة بنفسها علاقة سلبية . باختصار ، يرفض آرتو ما سمي بمسرح العبث او اللامعقول .

— **اي مسرح تجريدي** يستبعد شيئا من مجمل الفن ، وبالتالي من الحياة ومصادر معانيها : الرقص ، الموسيقى ، العمق التشكيلي ، الصور المرئية او الصوتية الخ .. ومن الخطأ ان نستخلص من هذا انه يكفي ان نكدس كل الفنون او نضعها جنباً الى جنب لكي نوجد المسرح الشامل الذي يخاطب حواس الناس كلها .

— **مسرح المسافية** distanciation

فهذا المسرح يكرس عدم مشاركة المتفرجين ، بل والمخرجين والممثلين ، في العملية الابداعية ، بينما يجد المتفرج نفسه في مسرح القسوة بوسط العرض الذي يحيط به ، وفي مسرح القسوة لا يوجد عرض ومتفرجون بل يوجد احتفال ، وفيما يرى آرتو ، يجب ان يكون هذا الاحتفال فعلا سياسيا ، وفعل الثورة السياسية فعل مسرحي في المقام الاول .

— **اي مسرح غير سياسي** اذا فكرنا في المعنى السياسي لهذا الفعل وهذا الاحتفال وجدنا ان صورة المجتمع التي يثيرها آرتو هنا تذكرنا حتما بجان جاك رومسو ، سواء في « العقد الاجتماعي » ام في « خطابه الى دالميرا » . يقترح فيلسوف القرن الثامن عشر استبدال العرض المسرحي باحتفالات عامة بلا عرض ولا شيء يرى ، احتفالات يتحول المتفرجون انفسهم فيها الى ممثلين .

تكوينها سوى عناصر متشابهة الى حد ما داخل عالم واحد . ومع هذا لابد من التمييز بينها من حيث أسس التصوير والوسائل المستخدمة لهذا الغرض . هذه المجالات الثلاثة هي :

١ - بعض الحقائق الموضوعية : اشياء أو كائنات بشرية تظهر للمتفرج من خلال أداء الممثلين أو وضع الديكور .

٢ - بعض الحقائق الموضوعية التي تصل الى العرض عن طريقين مختلفين ، فهي تظهر من ناحية بطريقة محسوسة ، ومن ناحية أخرى تصور عن طريق اللغة بالقدر الذي يجرى به حديث عنها على المسرح ، عندئذ يكمل التصوير الكلامي التصوير المرئي ، وبالتالي لا بد من أن يوجد انسجام تام بين هاتين الوسيلتين لتجنب أى تناقض بين الحقائق المصورة .

٣ - بعض الحقائق المصورة التي لا تصل الى العرض الا عن طريق اللغة ، لا تظهر هذه الحقائق على المسرح ، وان كان هناك حديث عنها في النص الرئيسى . يبدو لاول وهلة ان هذه الحقائق تقع فيما يتعلق بطريقتها في التصوير في نفس المستوى الذي تقع عنده الحقائق الخاصة بالاعمال الادبية الصرفة ، لكن اذا فحصناها من قرب بدت مختلفة بعض الشيء ، فبعضها على الأقل له علاقة بالحقائق التي تظهر على المسرح ، ومن ثم تكتسب قدرا من الواقعية وقدرة ايجابية تفوق قدرة الاعمال الأدبية ، وحتى في هذه الحالة ، لا بد للمحافظة على وحدة عالم العرض من مطابقة العرض اللغوي للحقائق الفأئية عن المسرح عرض الحقائق التي تظهر فعلا ويمكن أن تكون مجموعة الحقائق التي تنتمي الى الماضي حالة خاصة داخل هذه الفئة من الحقائق المصورة .

كل هذه الحقائق التي توجد على خشبة المسرح - نص المؤلف وأداء الممثلين والاضاءة الخ ... تدل على حقائق أخرى ، مما يجعل العرض المسرحي مجموعة من الدلالات ويعبر ا و . زيخ O. Zich في كتابه « جماليات الفن الدرامي » عن نفس الفكرة « الفن المسرحي فن العرض ، وذلك بطريقة موحدة في كل عناصره » . (١٦) فالممثل يمثل شخصية ما ، وخشبة المسرح تمثل مكان الاحداث ، والضوء الأبيض يمثل النهار ، والضوء الأزرق يمثل الليل ، والموسيقى تمثل الحدث .

صحيح ان خشبة المسرح هي بناء ، لكنها ليست حقا جزءا من المعمار ، لأن المعمار لا يقوم بوظيفة العرض ، في حين تقتصر وظيفة خشبة المسرح على العرض ، وهي تفقد صفتها هذه منذ اللحظة التي لا يعرض فيها شيء عليها ، ووظيفة العرض التي تقوم بها خشبة المسرح تنطبق أيضا على النواحي الأخرى للظاهرة المسرحية ، فالممثل عادة يكون شخصا يتكلم ويتنقل على المسرح ، لكن جوهره لا يكمن في كونه كذلك . جوهره هو أنه يمثل شخصا ما ، ا. يدل على شخص ما ، وكونه انسان أمر لا أهمية له . فهو يمكن أن يكون قطعة من الخشب ، واذا أدت قطعة الخشب هذه حركات تصاحبها كلمات أصبحت ممثلا ، واستطاعت أن تصور أى شخصية مسرحية على نطاق أوسع ، ويمكن أن يقوم أى واقع بوظيفة الممثل : الدمية ، أو الآلة ، أو أى شيء آخر ، واذا استطاع الصوت وحده أن يصور شخصية ما أصبح الممثل هذا الصوت الذي يمكن أن يسمع في الكواليس أو من خلال الميكروفون . وفي المسرحيات الإذاعية لا يصور الصوت الشخصيات المسرحية فحسب ، بل يصور كل الظواهر المسرحية الأخرى : الديكور ، والاكسسوار والاضاءة . ويستخدم الراديو في هذا الصدد دلالات صوتية كثيرة ، بحيث

أثرا ، لا في الفن فحسب ، وإنما في الثقافة الغربية كلها يختص بأكثر من نوع خاص من البناء المسرحي ، لذا يتخطى موضوعه مجال التكنيك المسرحي البحث ، ويؤكد آرتو باصرار أن التفكير في تكنيك المسرح لا ينبغي أن يكون منفصلا عن الفنون الأخرى . أن الثورات الفنية ستظل مرتبطة بذلك المسرح الذي سعى إلى هدمه طالما لم تمس أسس المسرح الغربي ذاته .

وفقا للتقاليد يشتمل بناء المسرحية على العناصر الآتية : مؤلف مبدع غائب ، مسلح بنص معين يتحكم في وقت العرض ومعناه ، ويجعل ذلك العرض يصور مضمون أفكاره ونواياه . ويعتمد العرض على المخرج والممثلين ، ويتقمص هؤلاء شخصيات تمثل ، بما تقول ، فكر المؤلف المبدع مباشرة أم غير مباشرة . ويرى آرتو أن المجموعة من المخرج والممثلين عبید ينفذون بأمانة خطط سيدهم ، ويقول ساخرا : أن هذا السيد لا يخلق في الواقع شيئا ، بل يتوهم أنه يفعل ذلك مادامت مهمته تقتصر على كتابة نص ذي طبيعة تصويرية ، علاقته بالواقع علاقة نقل ومحاكاة .

لم يتغير هذا البناء العام ، بحيث يرتبط كل عنصر في العرض بالعناصر الأخرى لفترة طويلة ، وأبقت عليه الثورات المسرحية ، بل حاولت في أغلب الأحيان أن تحميه ، فظل كما هو ، وظل النص الصوتي ، أي الكلمة أو القول ، المتحكم الأول في حركة العرض ، وأيا كانت أهمية الأشكال التصويرية أو الموسيقية أو الحركية التي ادخلت في المسرح الغربي ، فلقد اكتفت بمصاحبة النص أو خدمته أو زخرفته .

وكتب آرتو في خطاب إلى ب كريميو B. Cremieux عام ١٩٣١ : « المسرح فن

يمكن الحديث عن « الديكور السمعي » صوت الآلة الكاتبة ، جرس التليفون صوت الزجاج الذي يتكسر ، الخ . . . كما يمكن أن يصور أي واقع مكاني خشبة المسرح . إلا أن الإشارة إلى خشبة المسرح ، وهي مكان ، لا تتم حتما بالمكان . مثال ذلك المسرح الإذاعي الذي لا يعتمد إلا على الأصوات . وهناك مسرحيات يتحول الصوت فيها إلى مسرح : ففي مسرحية تشيكوف « بستان الكرز » يلعب البستان الدور الرئيسي ، وفي المشهد الأخير يتواجد على المسرح ، لكننا لا نراه ، فهو لا يوجد في المكان ، وإنما يوجد بالصوت ، أي بضربات البلمبة التي تقطع أشجار الكرز ، واستطاع كل من المؤلف والمخرج أن يوحيا إلى المسرح بالتجائهما إلى هذه الوسيلة الصوتية .

وفي معرض الحديث عن العرض المسرحي لا بد من التوقف عند رأي آرتو مرة أخرى ، كما هاجم آرتو النص ، كما يفهمه المسرح الغربي ، هاجم أيضا المفهوم الكلاسيكي للعرض المسرحي . وقال أن مسرح القسوة ليس عرضا لأنه الحياة ذاتها ، بل كل ما لا يمكن أن يعرض فيها : « قلت قسوة كما لو كنت قد قلت حياة (١٧) » هذه الحياة تحمل الإنسان ، لكنها ليست حياة الإنسان ، لأن الإنسان مجرد صورة للحياة ، عند هذا الحد وقفت ميتافيزيقا المسرح الكلاسيكي . . يقول آرتو : يمكن أن تأخذ على المسرح الآن افتقاره المخيف إلى الخيال ، يجب أن يتساوى المسرح مع الحياة ، لا الحياة الفردية ، أو ذلك الجانب الفردي من الحياة الذي تنتصر عنده الطبائع ، وإنما نوع من الحياة المحررة تمحو الفردية الإنسانية ، ولا يصبح الإنسان فيها إلا ظل (١٨) وفقا لهذا المفهوم ، يجب أن تكون خشبة المسرح المكان الأساسي المتميز الذي تهدم فيه المحاكاة ، لأنها تأثرت أكثر مما في أي فن آخر بعملية العرض الكامل هذا العرض الذي ترك

(١٧) Derrida ، المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

مستقل ، عليه ، لكى يبعث أو يحيا بكل بساطة ، أن يحدد ما يميزه عن النص ، عن الكلمة الخالصة ، عن الأدب ، وكل الوسائل المكتوبة المثبتة الأخرى ، يمكن مواصلة التفكير فى مسرح قائم على أولوية النص ... لكن هذا المفهوم الذى يجعل عددا من الشخصيات تجلس على المقاعد وتتبادل الحكايات مهما كانت روعتها ، لا ينفى المسرح نفيًا مطلقا ، بل يكون بالأحرى افسادا له (١٩) . لذا يجب أن يتخلص الاخراج من النص وسيطرة المؤلف ، وعندئذ سيسترد حريته الإبداعية ، ولن يكون المخرج والمشاركون مجرد أدوات تستخدم فى العرض . ولا يعنى هذا أن آرتو رفض أن يطلق اسم « العرض على عروض مسرح القسوة ، لكنه اشترط أن يكون هناك اتفاق على معنى هذه التسمية . وإذا رجعنا الى أصل كلمة « عرض » قلنا ان المسرح ، كما يفهمه آرتو ، لن يعرض شيئا ، لأنه لن يضاف كصورة محسوسة الى نص كتب سلفا . ولن يكون أيضا تكرارا للحاضر الذى كان من قبل فى مكان آخر . ولن يكون عرضا اذا قصدنا بهذه الكلمة مساحة يقدم عليها عرض يخاطب بعض المشاهدين المتلصقين ، ولن يكون تصوير عرض فى الحاضر اذا كانت كلمة حاضر تعنى ما يجرى الآن العرض كما يفهمه آرتو اذن هو عرض أصلى يقدم على مساحة ما ، فى وسط متعدد الأبعاد ، وتجربة تخلق مكانها الخاص الذى لا يمكن أن تلخصه الكلمات ، يقول آرتو فى هذا الشأن : نحن ننوى ارساء مسرحنا على العرض أولا وقبل كل شيء ، ونسندخل فى هذا العرض مفهوما جديدا للمكان الذى سيستخدم على كافة المستويات الممكنة ، وبكافة درجات المنظور المتجه الى العمق والى اعلى ، ولسوف تضاف الى هذا المفهوم فكرة خاصة عن الزمان تضاف

بدورها الى فكرة الحركة ... هكذا يستخدم الفضاء المسرحى لا بأبعاده وحجمه فقط ، وانما بخباياه أيضا (٢٠) .

يرفض آرتو اذن العرض الكلاسيكى ، ويعيد بناء مكان مسرحى مطلق يجرى فيه عرض أصلى يعبر عن القوة والحياة ، والمقصود بالمكان المطلق هنا مكان ينبع من داخل الذات . هذا العرض هو عرض مرئى طبعا ، بعكس الكلمة التى تحجب الأشياء عن النظر . لكن رؤياه لا تنظمها كلمة المؤلف - السيد ، بمعنى انه عرض لما هو مرئى ومحسوس فقط ، ويتضح هذا المعنى الصعب المعقد للعرض من جزء من خطاب آرتو سالف الذكر : طالما أن الاخراج سيظل حتى فى نظر أكثر المخرجين تحررا ، مجرد وسيلة للعرض ، وطريقة ثانوية للكشف عن بعض المؤلفات ، ونوعا من التسلية الخالية من المعنى ، لن تكون له قيمة الا بالقدر الذى يتوصل به الى التستر خلف الأعمال المسرحية التى يدعى خدمتها (٢١) ... وفقا لهذا المفهوم الجديد للاخراج يؤثر العرض كقوة محركة . هذا وتفترض العودة الى العرض الاصلى أن المسرح أو الحياة يكفان عن « عرض » لغة أخرى كلفة الأدب مثلا .

هذا العرض المسرحى المحمل بمختلف الدلالات فى حاجة الى تفسير ، أو بعبارة أخرى الى قراءة كيف يتوصل المتفرج الى هذه القراءة ، وما هو المنهج الذى يمكن أن يستند اليه الناقد فى تفسيره للدلالة المسرحية ؟ هذان هما السؤالان اللذان سنحاول الاجابة عليهما ، ولنلفت النظر ، منذ البداية الى أن الابحاث والدراسات التى اجريت فى هذا المجال ، مجال علم الدلالات المسرحية ، لا تزال حتى الآن قليلة للغاية ، وفى مرحلة التكوين على حد قول م . كورفان . M. Corvin

(١٩) الرجوع السابق ، ص ٢٤٨ .

(٢٠) الرجوع السابق ص ٣٤٩ .

(٢١) الرجوع السابق ص ٣٤٩ .

وباءت بالفشل ، ولا يعنى هذا ان الباحث في مجال المسرح يخطئ دائما اذا توقع ان يهب علم اللغة لنجدته ، لكنه من الأفضل ان يلجأ الى علم آخر نشأ عن أعمال اللغويين أنفسهم ، الا وهو علم الدلالات ، الذي يعمل على تحليل ووصف كل وسائل التواصل بين البشر ، وربما بين الحيوانات أيضا .

يرى ف . دى سوسور أن علم اللغة ليس الا جزءا من علم الدلالات هذا ، لكن ظهرت اليوم نظرة مختلفة تعتبر علم الدلالات جزءا او جانبا من علم اللغة . وأيا كان موقعه ، فان علم الدلالات علم خصب يتقدم بصفة خاصة داخل علم المنطق وعلم النفس .

ويلقى التحليل السيميولوجي للعرض المسرحي صعوبات جادة ، ويشير أسئلة كثيرة ، هل يتعلق الأمر باستخلاص الدلالات الخاصة بمختلف المجموعات ، أولا وقبل كل شيء ، أم بتقسيم العرض ومسيرته الى وحدات ؟ ويلاحظ أن العرض وأغلب تركيبات الدلالات لها مواقعها في الزمان والمكان أيضا ، مما يعقد عملية التحليل الى حد كبير .

ويمكن تطبيق علم الدلالات على مجال فن العرض المسرحي بطرق عديدة ، لكن أى منهج يختار الباحث ؟ لأنه لا توجد أسس سيميولوجية متينة يمكن ان نستخلص منها بعض النتائج حول دور مختلف الدلالات في ظاهرة العرض المسرحي المعقدة . كوفزان مثلا ، ينطلق من اعتبار النص حقيقة موجودة ، ويحاول ان يدخل شيئا من النظام في فوضاه ، الظاهرة على الأقل الناتجة عن كثرة ما يجرى في الزمان والمكان أثناء العرض ، وهو يقصر تحليله على العرض المسرحي بمعناه الواسع ، الذي يشتمل على الدراما ، والأوبرا ، والباليه والباثومي ، ومسرح العرائس الخ . . أما

واذا كان الادب عامة قد استفاد كثيرا من تطبيق منهج علم اللغة فان المسرح نظرا لطبيعته الخاصة لا يمكن ان يعتمد على المنهج اللغوي فقط ، يقول ج موان : قد يظن اليوم ان علم اللغة الحديث يستطيع ان يقدم لكل الذين يتساءلون عن المسرح ، ووظيفته الخاصة وطريقة سير العرض فيه ، عصا سحرية قادرة على حل كل المشاكل المسرحية . . وقد يظن أيضا للأسف ان كل هذه المشاكل بالحديث عن المسرح وكأنه « لغة » language او دال ومدلول . . . ولا يدرك من يظن هذا انه يكتفى في أغلب الأحيان بصب بعض البديهيات أو الآراء التي لم تثبت صحتها بعد في قالب الاستعارات اللغوية الشائعة مؤقتا ، والتي ستختفى بعد خمسة أو عشرة أعوام ، بدون ان تكون معرفة المسرح قد اكتسبت منها شيئا (٢٢) ويحذر موان الباحثين من الحديث مسبقا عن المسرح وكأنه لغة ، لأن هذا يفترض ان كل المشاكل الخاصة بالعرض المسرحي قد حلت ، في حين يجب البدء باكتشافها وتحديدتها عن طريقة التحليل الدقيق العميق ، وربما الشروع في إيجاد حل لها .

ومن المؤكد ان العرض المسرحي لا يمكن ان يفسر بنقل مفاهيم وأساليب علم اللغة وتطبيقها تطبيقا آليا عليه . فاذا نظرنا الى لغة اللغويين نجدها وكأنها مجموعة من اللغات الانسانية الطبيعية ولا شيء غير هذا (الانجليزية ، والصينية ، والاسبانية مثلا) وانها نظام للتواصل يعمل اجمالا كمجموعة من الشفرات الخاصة جدا التي لم يوجد بناؤها حتى الآن في أية وسيلة من وسائل الاتصال الأخرى التي يستخدمها البشر فيما بينهم (٢٣) ، واذا حاولنا ان نثبت ان المسرح لغة ، باستخدامنا علم اللغة فقط اتسمت محاولتنا بالسداجة ،

(٢٢) Mounin ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

الناقد السوسيولوجي ديمارسي Demarcy فيستوحى تكنيك « تحليل المضمون » الذي يطبق في الصحافة ، فيثبت تيمات هذا المضمون ، ويحاول أن يعرف كيف يتم التعبير عنها مسرحيا ، أى كيف يتم عرضها على المسرح ، ويحاول أن يعثر على التجسيد المادى للشخصيات والأشياء والدالات السمعية والبصرية ، والذي يتكلم هنا على عكس ما يجرى في عالم الصحافة - ليس النص فقط أو الكلام الشفوي فقط ، وإنما عدد من اللغات الخاصة بالمسرح ، لغات تخاطب العين أو الأذن بسبل عدة . ويرى ديمارس أنه يجب البحث عن الطريقة التى تنتظم بها هذه الدلالات وتترابط ، والطريقة التى ينتج بها هذا الانتظام بعض المعاني والقيمات . وذلك لان بناء العمل المسرحى ذاته يحمل فى طياته بعض التيمات . وهذه التيمات بالذات هى التى تخفى بعناية ولا ترى ، أى أن منهج ديمارس يبدأ من النص وينتهى الى التنظيم البنائى للعمل المسرحى ، مارا بمختلف الدلالات ، هكذا يبدأ مما هو واضح كل الوضوح وينتهى الى ما هو خاف كل الاختفاء أماج . موانان فيقول عن تفسير العرض المسرحى : ان ما يسمى تقليديا عن خطأ توأصلا مع المؤلف أو المسرحية يعنى بلا شك بالنسبة لكل مسرحية تفسير معناها على أساس الدلالات التى يقدمها العرض : النص أولا بطبيعة الحال ، ولا نتحدث هنا عن الضوء الثقافى الذى تلقىه معرفة المؤلف ، وزمن الاحداث والمسرح عامة ، وكل ما يضيفه الى النص مجموع الموقف المسرحى : الممثلين ، الديكورات ، الحركات ، وتقبل المتفرجين ، واثارة بعض المتفرجين للبعض الآخر ، ومعنى المسرحية أبعد عن معنى الرسالة اللغوية البحتة ، منه عن معنى أى حدث ما ، فالعرض المسرحى يفسر بالضبط كما يفسر حدث نشهده ونشارك فيه ، فنحن لا نقرأه ولا نحل

شفرتة كما نحل شفرة أى رسالة لغوية عادية ، كل ما هنالك أن العرض المسرحى يبنى كنوع خاص جدا من الاحداث المتتابعة التى تصور عمدا لكي تفسر ، ولن يكون علم الدلالات المسرحية الا بحثا منهجيا عن القواعد (ان وجدت) التى تحكم هذا الانتاج المعقد ، للدلالات والاثارات التى تسمى الى اشراك المتفرج الى اقصى درجة فى حدث مفتعل يرجى ان يكون ذا معنى بالنسبة له . (٢٤)

وتحدث بعض الباحثين عن طرق مختلفة لقراءة العرض المسرحى . نذكر من بينها الطريقة التى اطلق عليها ديمارس اسم القراءة المستعرضة ، أى القراءة بالعرض "lecture transversale" تقوم هذه القراءة على أسلوب للتلقى يجعل المتفرج لا يدخل فى قصة المسرحية أساسا ، واذا تابعها لا تصبح موضع اهتمامه الوحيد ، فهو يلاحظ كل عناصر المعنى التى يشتمل عليها العمل المسرحى ، وي طرح هذا السؤال ، كلما ظهر واحد منها : ما هذا ؟ هذا الاسلوب فى التلقى عن بعد يجعل المتفرج ينطلق من المبدأ القائل بأن الآلة التى أمامه ترسل حشدا من المعلومات التى يجب أن يتحدد موقعها تحديدا صحيحا ، وذلك من خلال مجموعات مختلفة من الدلالات تتمثل فى الديكور ، والمواد والألوان والحركات الخ . والفرق بين هذه القراءة والقراءة الأفقية يكمن فى الرغبة فى العثور على مختلف الوحدات الدالة التى يشتمل عليها العرض والوحدة الدالة قد لا تكون واحدة ، وإنما مجموعة من العناصر المركبة بحيث تنتج معنى معين . وتتم هذه القراءة بعمليات ثلاث يقوم بها المتفرج فى وقت واحد ، وهذه العمليات الثلاث هى : ١ - التعرف على العناصر الدالة ، ٢ - قراءة هذه العناصر ، أى استخلاص معانيها المتعددة بالرجوع الى الواقع الثقافى والاجتماعى ، ٣ - تثبيت المدلول الحقيقى

الا أن القراءة المستعرضة لا يمكن أن تكتفى بالتعرف على الدالات ، حتى لو كان هذا التعرف كاملا ، لكن كيف يستطيع المتفرج أن ينتقل الى مستوى المدلول ؟ وبأية وسيلة يستخلص مدلولات الوحدات الدالة التي جمعها شيئا فشيئا طوال سير الأحداث ، والتي يتألف منها في نهاية المطاف ما جاء لرؤيته ؟

ونعود مرة أخرى الى منهج ديمارس الذي يقول أنه لا بد من استخلاص الدلالة بالقراءة المستعرضة ، ثم ارجاعها الى الثقافة والمجتمع اللذين أوجداها ، وبحث مكانها ووظيفتها داخلهما ، ويعنى هذا العثور مرة أخرى على البعد العميق للدلالة والرجوع الى رصيدها الثقافي وثقلها التاريخي ، لا يوجد مدلول اذن الا عن طريق المجتمع وتاريخه ، فهو الذي أعطى الدال معانيه المختلفة وتاريخ المجتمع سجل شيئا فشيئا في الدلالة ، وعندما يرى المتفرج الدال في اطار العرض ويتساءل : ما هذا ؟ ... ويتعرف على الشيء الذي يدل عليه سيتساءل أيضا : وما هذا الشيء في الواقع ؟ وماذا يعكس ؟ لا ينبغي أن يقف المتفرج اذن عند مستوى العرض وفي العرض ، وإنما يجب أن يخرج منه باستمرار لاجراء هذا التقابل . وهكذا تتكشف له ايدولوجية العمل المسرحي الاجتماعية الحقيقية ، لأن أي عمل فني يؤدي وظيفة معينة ، رجعية كانت أم تقدمية .

يبقى بعد القراءة عدد من التساؤلات مرجعه ان الواقع الثقافي والاجتماعي يدخل في الدلالة عديدا من المعاني ، لذا يجد القارئ نفسه امام سلسلة غامضة من المدلولات ، ومن ثم يجب تثبيت المعنى الحقيقي ووضع حد لهذه التساؤلات . ويرى ديمارس أن هناك سبيلان الى ذلك :

١ - ايجاد ما يربط بين مختلف الدالات التي يشتمل عليها العمل المسرحي ، وذلك بالبحث عن السمات المتشابهة بينها ، وادراك

بالتعرف على السمات المتشابهة أو المتكاملة لمختلف الوحدات الدالة طوال العرض .

تعمل اثناء المراحل الثلاث هذه للقراءة المستعرضة أنواع ثلاثة من الوعي تحدث عنها الناقد رولان بارت في المرحلة الأولى ، يتعلق الامر بالرؤية والنظر والملاحظة وتشغيل الحواس وربط العين والأذن بالعمل المسرحي ، واستعادة متعة النظرة التي تفسر وتتعرف على الأشياء وتسميتها أي متعة المفاجأة والاكتشاف . منذ تلك اللحظة يمكن أن نقول أن الوعي « الباراد جماتيكي » ، أي الوعي الابدالي paradigmatic يلعب دوره ، لأن الرؤية تفترض التمييز بالحواس والفكر واستخلاص خواص عنصر ما داخل مجموعة من العناصر . هذا التفكير المقارن يحدد الفوارق ويمكن من الكشف عن الطابع الخاص للدلالة المرئية ، بعد ذلك يمكن النزول الى أعماق التراث الاسطوري الذي ترجع اليه الدلالة . في المرحلة الثالثة ، بعد أن يكون فكر المتفرج قد ملأه الدلالة بمدلولاتها المختلفة المستمدة من المجتمع والتاريخ ، يتدخل الوعي « السنتجماتيكي » أي الوعي التوزيعي syntagmatic الذي يمكن من تثبيت بعض المعاني دونما البعض الآخر عن طريق التشابه والتكامل والتضاد ، ولا شك أن المتفرج يمكن أن يلجأ الى أنواع الوعي الثلاثة هذه معا ، وأن يمزجها اثناء وبعد عملية التلقي .

لطريقة القراءة هذه مزايا عديدة ، أهمها انفتاح العمل المسرحي على المجتمع الى أقصى درجة ، واعطائه بالتالي كل ثقله الثقافي والاجتماعي . وهي تمكن الباحث ، في الوقت نفسه ، من اكتشاف ايدولوجية العمل وطابعه الاسطوري العميق . وبفضل هذه المعرفة التي اكتسبها يصبح المتفرج سييدا للعمل المسرحي ويسيطر عليه بدلا من أن يفتن به ، ومن ثم يتحول الى فاعل حقيقي ، ويتمكن من المشاركة في العرض مشاركة فعلية .

أن لها مدلولاً مشتركاً في مستوى معين من العمومية ، وأنها تقول إما نفس الشيء أو أشياء متكاملة أو مترابطة . وشيئاً فشيئاً يتأكد المدلول الحقيقي باستمرار ، مدلول واحد عبر الدلالات المختلفة .

٢ - التعرف على التيمات التي يحتوى عليها النص طريقة أخرى لتثبيت المعنى ، لكن هذه الطريقة ليست فعالة في كل الحالات ، بالقدر الذي يكون به النص عنصراً مكملًا لعناصر أخرى وبالقدر الذي يمكن أن يقترح به مجموعات عدة من الدلالات المتباينة جذرياً التي تتكون منها كل الأقوال discours السمعية والبصرية الممكنة .

وفي النهاية يتكون من التكامل بين قصة المسرحية والتاريخ والدلالة موقف جديد يتخذه المتفرج ، موقف ثقافي هو مزيج من المتعة والفضول والخيال والتبصير والتحرر . . . الخ ولنا عودة إلى موضوع قراءة العرض المسرحي وتفسير دلالاته عندما يتطرق حديثنا إلى الجمهور .

المسرح هو عالم الدلالات حقاً . لقد قال ر . بارت في هذا الشأن « العرض المسرحي فعل سيميائي مركب إلى أقصى حد يستخدم كأداة للتواصل دالات تفضي بطريقة تكاد تكون منتظمة دائماً إلى بعض المضامين connotation لذا ، كان المسرح فن الشفرة Code والاصطلاح أكثر من الفنون الأخرى ، واعتماده على الشفرة هو إحدى معطياته الأساسية .

أين موقع المسرح من الفنون الأخرى التي تستخدم الدلالات أساساً وأهمها الأدب والسينما ؟ يمكن القول بأن المسرح يحتل مكاناً وسطاً بين الأدب والسينما عندما درس ك . ميز Ch. Metz دلالات السينما أوضح الوضع التماثلي للصورة على حد قوله ، أي تشابهها التام مع الشيء المصور . وهذا

ما يسميه أخصائيو علم الدلالات الأمريكيان التصويرية inconicite ، ولا يعني هذا أن التماثل ينشأ عن غياب الشفرة ، ففي السينما مثلاً ، عندما تنقل الصورة الواقع وتعكسه تبقى الشفرة . ولا يتعلق الأمر أبداً بالتعارض بين التماثل والشفرة ، بل بالتعارض بين موقفين من العمل الفني : أما نقل الشفرة الموجودة في الواقع ، أو تجاوزها حتى في عاداتنا التي ندرك بها الواقع ، والمسرح يحمل في جوهره فكرة تغيير عادات المتلقى الإدراكية حتى عندما يحاول المخرجون أن ينقلوا الواقع نقلاً دقيقاً بحيث يكون النقل صورة طبق الأصل من الواقع مثلما في المدرسة الطبيعية يوجد التجاوز دائماً ، كما أن خشبة المسرح وأداء الممثلين يخلقان بطبيعتهما موقفاً مصطنعاً وهذه الخاصية هي التي تجعل قراءة المتفرج للعرض أمراً ضرورياً ، وغالباً ما تجبر اللغة المسرحية المتفرج على قراءة دلالاتها وتفسيرها ، لكن لا بد من الاعتراف بأن اللغة المسرحية المرئية تحتل مكاناً وسطاً بين اللغة المرئية المكتوبة واللغة السينمائية المرئية . وذلك لأنها على عكس الكتابة تأخذ من الواقع بضعة أشياء لكي تبني نفسها كلفة . فعلى سبيل المثال تستخدم الكتابة كلمة « جيش » لكي يظهر الجيش في خيال القارئ . أما المسرح ، فيمكنه أن يذكر هذه الكلمة على لسان أحد الممثلين ، لكنه لن يظهر الجيش على المسرح كما تفعل السينما ، وسيحاول أن يعثر على عنصر صوتي أو مرئي ليقول « جيش » ، ويصورها بحيث تظهر في ذهن المتفرج . إذن ، في المسرح ، لا يتلقى المتفرج الشيء المرئي مباشرة كما هو الحال في السينما ، بل عليه أن يقرأ الدلالة المرئية مثلما في الكتابة إلى حد ما ، لكن بقدر أقل من الدقة .

هذا ويمكن تعقيد المسرح بالدات في هذا الوضع الوسط الذي يشغله بين الكتابة والسينما ، فمن ناحية ، لا تستفيد الصورة المسرحية من ذلك التلقى السهل الناتج عن التماثل الذي تتميز به السينما ، ومن ناحية

المسرح الصينى مثلا ، كل خطوة يخطوها الممثل تتضمن معنى معيناً . وكل حركة من حركات يده تعنى دعوة خاصة ، والسير نحو ناحية الخروج اليسرى من المسرح تعنى العودة ، وتكتسب معنى جديداً فى كل موقف . وفى مسرح العرائس التشيكي ، تحول دخول العرائس الى قاموس كامل من الدلالات ، فالدخول من أعلى يعنى « الظهور المفاجئ » ، والاختفاء تحت الأرض يعنى الموت أو الرحيل الى الجحيم .

ولا بد من أن نلاحظ أن ثبات الدلالات وأسس بنائها لا يجعل التعبير فقيراً حتماً ، لأنه يمكن ادخال بعض التغيرات على البناء التقليدى ، والمتفرج يشعر بكل ذبذبة ، مهما كانت خفيفة فى عالم العرض ، وهذه التغيرات التى تجرى بالذات داخل البناء هى التى تولد شتى الانطباعات فى المتفرج .

ولا بد من أن نلاحظ أيضاً أنه توجد فى المسرح ، مثلما فى أى فن آخر ، دلالات لا تنتمى الا الى بعض المدارس . ففى المأساة الاغريقية مثلا ، كانت هناك دلالة تميز الشخصية الرئيسية عن الشخصيات الثانوية . وكانت هذه الدلالة تتمثل فى الجهة التى يدخل منها الممثل الذى يقوم بدور تلك الشخصية وأقرت الأوبرا ، فى القرن الثامن عشر الفرنسى ، النظام التالى : « كان كل العازفين المنفردين يقفون متوازين فى المقدمة ، ووراءهم الشخصيات الكوميدية ، وكان الكورس يقف وراء هؤلاء ، وكانت الأماكن داخل الصف الأول موزعة على النحو التالى : كان الممثلون الذين يؤدون الأدوار الرئيسية يقفون على يسار المتفرجين ، كل حسب صفته من اليسار الى اليمين ، أما البطل فكان يحتل مكان الشرف ، أى المكان الاول من اليسار لأنه كان

أخرى لا يمتلك المسرح حتى الآن المناهج الثابتة التى تمكن المتفرج من قراءة دلالاته ، لذا يعيد المسرح المتفرج الى متطلبات ما يسمى بالفكر الرمزي أكثر مما تفعل الفنون الأخرى .

وبما أن المسرح عالم من الدلالات ، يمكن تعريف الاخراج بأنه عرض لقول مسرحى صوتى ومرئى ، بواسطة أنواع شتى من التجسيد المادى ، انطلاقاً من النص أو من أى خطة أخرى ، ولكي يصل الى هذه الغاية ، يجد المخرج فى متناول يده مجموعة من اللغات التى يمكنه أن يسجل فيها دلالاته : الديكور والاكسسوار ، والأزياء ، والألوان ، والأصوات والأضواء ، والحركات ، الخ . . . ولكل واحدة من هذه اللغات إمكانيات كبيرة لم تستغل الا قليلاً فى الواقع ، ويكفى أن نذكر الأبحاث العلمية الحديثة التى احتلت مكان الصدارة فى سيميولوجيا المسرح ، لكى ندرك مدى أهمية هذا الموضوع . ويمكن أن نقول أن المسرح العظيم أو المخرج العظيم هو الذى يدرك ، بالحدس أو عن وعي ، أهمية الدلالات هذه . وعندما تحدث بارت عن مسرح برخت قال : لقد عالج فن برخت الثورى الشكل وفقاً لمنهج خاص هو المنهج السيميولوجى (٢٥) .

وإذا كانت الظاهرة المسرحية بناء من الدلالات ، فإن هذا البناء يجب أن يحتفظ بتوازنه فى كل المواقف ، وإذا كانت له نقاط ارتكاز متينة ، عوضت التغيرات التى تطرأ على نسجه المعقد بدون أن تلاحظ ، لكن إذا غابت واحدة من قواعده أصبح من الضرورى اجراء تغييرات أساسية فى خط البناء كله ، ومن أمثلة أبنية الدلالات الثابتة مسرح «النو» اليابانى ، ومسرح «الكابوكى» ، ومسرح العرائس ، الخ . . . ومتانة البناء تجعل الدلالات المسرحية تتخذ معان معقدة وثبات الدلالات يزيد من قدرتها على الدلالة ، ففى

مخصصا عامة لأهم شخصيات المسرحية (٢٦). نستخلص من كل هذا أن المكان الذي كان يشغله الممثل كان دلالة لدوره ، وفي مسرحيات الكوميديا دي لارتي كان الزي - زي الدكتور، أو بنطلون أو أريكان - دلالة دقيقة للشخصية في نظر المتفرج . ومن الطبيعي ألا تتغير الدلالات المسرحية من فترة إلى أخرى أو مدرسة إلى أخرى فقط ، فهي تتغير في الوقت الذي يتغير فيه الأسلوب المسرحي في مجموعه ، وتحل محلها دلالات أخرى ، كما أن الممثلين المختلفين يعطون دلالات مختلفة للدوار التي يؤدونها .

وإذا كان المسرح هو عالم الدلالات ، فهو ، دونا عن الفنون الأخرى ، فن تظهر فيه الدلالة بما يمكن من ثراء وتنوع وتركيز ، فالكلمة التي ينطق بها الممثل لها معناها اللغوي ، وهي دلالة للأشخاص والأشياء والمشاعر والأفكار أو علاقاتهم المتبادلة ، تلك العلاقات التي أراد مؤلف النص أن يصورها ونبرة صوت الممثل والطريقة التي ينطق بها هذه الكلمة أو تلك يمكن أن تغير قيمتها . وكلنا نعرف أن هناك طرقا مختلفة تقال بها كلمة « أحبك » مثلا ، وحركات الوجه أو اليد يمكن أن تؤكد معنى الكلمات أو تعطيها طابعا خاصا ، وتتوقف أشياء كثيرة على وضع الممثل الجسماني ووقفته بالنسبة للممثلين الآخرين ، والعامود قد يعنى أن الأحداث تدور أمام أحد القصور، والتاج على رأس الممثل ، دلالة للملك في العرض المسرحي ، كل شيء أذن له دلالة .

قد تكون هذه الدلالة لغويا أولا ، فالعرض المسرحي يستخدم الكلمات ومجموعات الدلالات الأخرى سواء بسواء ، فهو يلجأ إلى الدلالات السمعية كما يلجأ إلى الدلالات البصرية .

وهو يستغل كل الدلات الخاصة بالتواصل

بين البشر ، وكافة الدلالات التي تفرضها احتياجات النشاط الفني ، ويستمد دلالاته من كل مكان : الطبيعة ، والحياة الاجتماعية ، ومختلف الحرف ، وكافة المجازات ، توجد دلالة لا يمكن استخدامها في العرض ، فالشراء السيميولوجي لفن العرض المسرحي يفسر لنا في هذه الحالة ، التعقيد (٢٧) .

ونادرا ما تظهر الدلالات على المسرح وحدها . فالدلالة اللغوية تصاحبها في أغلب الأحيان دلالة النبرة والإيماء والحركة وكافة وسائل التعبير المسرحية الأخرى : الديكور والزي والماكياج والصوت . الخ ، كل هذا يؤثر في وقت واحد على المتفرج في شكل تركيبات متكاملة يوضح بعضها البعض الآخر أو يناقضه .

وبما أنه لا يوجد في الوقت الحاضر مناهج ثابتة لدراسة الدلالة المسرحية بفضل اعتماد منهج علم اللغة للقيام بهذه الدراسة ، ولو مؤقتا ، انطلاقا من هذا الموقف ، يعتمد كوفزان مبدأ سوسو الخاص « بالدال » و « المدلول » ، وهما العنصران المكونان للدلالة فمثلا ، قد يدل صوت ما على سقوط المطر ، في هذه الحالة يكون الصوت الصادر عن قطعة الصفيح التي يدق عليها الدال وتكون فكرة المطر المدلول ، لكن سقوط المطر يمكن أن يصور على المسرح بطرق عدة تستخدم مجموعات مختلفة من الدلالات : عرض سقوط المطر على شاشة بيضاء (الاضاءة) أو معطف واقى من المطر (الزي) أو مظلة (اكسسوار) ، أو ممثل ينفذ الماء عن ملابسه وهو داخل (الحركة) ، أو شعر مبتل (تسريحة الشعر) ، أو صوت المطر (الموسيقى أو الاصوات) الخ . قد تتواجد هذه الدلالات في وقت واحد أو تتابع ، كذلك

(٢٦) Bogatyrev ، المرجع السابق ص ٥٢٨ .

(٢٧) Kowzan ، المرجع السابق ص ٦٥ .

أن تؤكد أن الفرق الاساسى بين الدلالات الطبيعية والدلالات الاصطناعية يقع عند مستوى ارسال *émission* لا الادراك الحسى *perception* ، وأنه يتوقف على وجود أو عدم وجود الرغبة فى ارسال الدلالة . ويقول كوفزان فى هذا الشأن : كل شيء دلالة لشيء ما فى ذاتنا أو فى العالم المحيط بنا فى الطبيعة ونشاط الكائنات الحية . والدلالات الطبيعية هى تلك التى توجد بدون مشاركة الارادة ، وارسالها يظل لا اراديا بالرغم من أن لها طابع الدلالة فى نظر من يدركها ويفسرها ، تشتمل هذه الفئة من الدلالات أساسا على ظواهر الطبيعة : فالبرق دلالة للمطر ، وارتفاع درجة الحرارة دلالة للمرض ، ولون البشرة دلالة للجنس الخ وافعال البشر التى لا يقصد بها شيء الحركات الانعكاسية *réflexes* مثلا . أما الدلالات الاصطناعية فيخلقها الانسان أو الحيوان اراديا للاشارة الى شيء ما أو الاتصال بشخص ما .

والدلالات التى يستخدمها الفن المسرحى تنتمى كلها الى مجموعة الدلالات الاصطناعية لأنها ناتجة عن عملية ارادية ، وكثيرا ما تخلق عمدا وهى تستهدف التواصل فى نفس اللحظة التى ترسل فيها .

والدلالات المسرحية وظيفية الى درجة كبيرة ، فالمسرح يستخدم دلالات مأخوذة من كافة مجالات الطبيعة ، وكل ألوان النشاط الانسانى ، وعندما تستخدم أى من هذه الدلالات على المسرح تكتسب قيمة ومعنى أكثر وضوحا من معناها السابق .

هذا ويحول العرض المسرحى الدلالات الطبيعية الى دلالات اصطناعية حتى لو كانت هذه الدلالات لا ارادية فى الحياة ، نراها تتحول

أن تتواجد دلالات مختلفة ، ويظل لى واحداً : سقوط المطر . وهذا مثال : يمكن تصوير فكرة الشخص عديم نسبة على المسرح باستخدام دلالات لغة : الكلمة أو اللهجة ، أو الایماء ، أو كحات أو التحركات أو الزى الخ المدلول يظل شخصا عديم الثقافة . فى لى الخامس من مسرحية برنارد شو « جماليون » يطل مستر دوليتل عند مسز مرق وهو يرتدى بدلة بورجوازي ثرى . يجلس الممثل الذى يلعب هذا الدور فى لى ، ويضع قبعته على الارض ، ويشعل سارا ويتردد لحظة باحثا عن منفضة ، مما لا يجدها يستخدم قبعته لهذا الغرض لى حركته هذه انه يريد أن يضع رماد سجار فى مكان ما ، انه سىء السلوك ، انه أن يسلك سلوك الجنتلمان . وتوجد لى هذه الحالة دلالة واحدة ودال واحد ، لى مدلولات مترابكة .

مصطلح أغلب الباحثين فى هذا الموضوع لتقسيم الدلالات الى مجموعتين : دلالات لغة ، ودلالات اصطناعية ، واستخلصوا لى ثلاثة عشر مجموعة منها . ويقبل أن هذا التصنيف لأنه « يريد أن يوفق حدد ما بين الأهداف النظرية والأهداف بسة ، خدمة للبحث السيميولوجى حتى ، وإيجاد اداة مؤقتة للتحليل العلمى لى المسرحى (٢٨) ، ويظهر هذا التمييز للدلالات فى كتاب اندريه لالاند

«Vocabulaire technique et critique la philosophie, A. Lalande . يقول الكاتب : الدلالات الطبيعية هى لى التى لا تنشأ علاقتها بالشيء الذى عليه الا عن قوانين الطبيعة : مثلا الدخان للنار ، الدلالات الاصطناعية هى تلك تستند علاقتها بالشيء الذى تدل عليه لى ارادى غالبا ما يكون جماعيا،ويمكن

الى دلالات ارادية على المسرح ، وحتى اذا كانت تفتقر الى اية وظيفة تواصلية في الحياة نراها تؤدي هذه الوظيفة على المسرح فعلى سبيل المثال مونولوج العالم الذى يحاول أن يعرض افكاره يتكون من دلالات لغوية ، أى دلالات اصطناعية ، لا يريد بواسطتها توصيل شيء ما ، لكن اذا نطق هذا العالم بمونولوجه على المسرح استرد المونولوج دوره الاتصالي .

قلنا ان كل الدلالات التى يستخدمها الفن المسرحى دلالات اصطناعية ، لكن هذا لا يستبعد وجود بعض الدلالات الطبيعية ، ففى لقاء الممثل وحركاته تتجاوز العلاقات الشخصية والحركات التى تخلق عمدا وتختلط الحركات الواعية بالحركة اللارادية ، ومن ثم تختلط الدلالات الطبيعية بالدلالات الاصطناعية ، على سبيل المثال صوت الممثل الشاب الذى يلعب دور رجل عجوز دلالة اصطناعية ، بينما صوت الممثل العجوز الذى يلعب دور رجل عجوز دلالة طبيعية .

ولا بد ان يستتبع تقسيم الدلالات الى مجموعتين كبيرتين تصنيف آخر يأخذ فى اعتباره الدلالات التى تنتمى الى مجموعة واحدة ، ويمكن تصنيف الدلالات ومجموعاتها حسب الاشخاص الذين يوجد منها اراديا ما دامت الدلالة الاصطناعية تفترض الخلق الارادى ، يخلق الكاتب المسرحى دلالات الكلمة أساسا ، الا انه يستطيع أن يوحى - من خلال النص أو بحضور البروفات - بدلالات تنتمى الى المجموعات الأخرى . واذا وردت فى النص اطلق عليها اسم الاشارات المسرحية ، وغالبا ما تعزل عن النص بحروف مميزة أو بوضعها بين قوسين ، ومنها يتألف ما سميناه بالنص الثانوى ، والمخرج فى ايامنا هذه أصبح سيد العرض المسرحى ، والشخص الذى يتحكم فيه أساسا ، فهو يستطيع أن يخلق الدلالات أو يحذفها جزئيا أو كلية ، بما فيها مجموعة الدلالات اللغوية ، ففى مقدوره أن يغير النص بحذف أشياء منه أو اضافة أشياء أخرى

اليه ، اما الممثل فيحدد بطريقة مستقلة الى حد ما دلالات اللهجة ، والحركة والايماء وأحيانا الماكياج والزى ، وعلى مصمم الديكور أن يخلق دلالات الديكور والاكسسوار والاضاءة أحيانا ، وعندما يحدد معالم المكان الذى يجرى فيه العرض يوحى اذا شاء بدلالات الحركة ، والممثل أو الموسيقار يشارك فى العرض بخلق الدلالات الموسيقية ، وأحيانا الاصوات المختلفة ، وفى حالة الباليه أو البانتوميم يوحى الى الممثل بدلالات الحركة ، وهناك تصنيف يقسم الدلالات الى خمس مجموعات كبيرة : دلالات خاصة بالنص الذى يلقي أو التعبير الجسماني أو مظهر الممثل الخارجى ، أو مكان العرض ، أو الآثار الصوتية ، ونشر الى تصنيف ثالث يفرق بين الدلالات السمعية والدلالات البصرية ، والكلمة واللهجة والموسيقى والاصوات bruitage دلالات سمعية بينما تضم الدلالات البصرية كلا من الايماء ، والحركة والماكياج والتسريحه والاكسسوار والديكور والاضاءة ، ويرتبط بهذا التصنيف القائم على ادراك الدلالات حسيا تصنيف آخر يحدد موقعها من الزمان والمكان ، فالدلالة السمعية توصل فى الزمان فى حين نجد ان الدلالات البصرية أكثر تعقيدا ، لأن بعضها ينتمى الى المكان من حيث المبدأ : الماكياج والتسريحة ، بينما يعمل البعض الآخر فى الزمان والمكان فى آن واحد : الحركة والاضاءة ... واذا قسمنا الدلالات حسب من يحملها ، حصلنا على أربع مجموعات كبيرة : دلالات سمعية تصدر عن الممثل ، دلالات بصرية توجد فى الممثل ، دلالات بصرية خارجة عن نطاق الممثل ، ودلالات سمعية خارجة عن نطاق الممثل .

وأيا كان التقسيم المتبع فان الباحثين اصطلاحوا على اعتبار مجموعات معينة من الدلالات دلالات مسرحية ، وكلها خارجة عن نطاق الدلالة اللغوية ، وأهم الدلالات هى : الزى ، الديكور ، والاكسسوار ، والأشياء

الميلودراما أفضل مثال يمكن أن يساق في هذا المجال ، كانت الميلودراما تعتمد على ثلاث شخصيات نمطية محددة الدور ، لا يمكن أن يختلف عنها المتفرجون ، وكان لون الزي أحد العوامل التي تساعد على التعرف على هذه الشخصيات ، فالفتات الطاهرة البريئة كانت ترتدى اللون الأبيض بينما يرتدى حبيبها الشهم الشجاع اللون الأحمر مثلا ، ويرتدى الشرير الذي يقف حائلا بينهما ، وغالبا ما تكون الفتاة ضحية له ، اللون الاسود والمسرحيات التي حاول كتابها أن يصيغوا تيماتا القديمة - تاريخية كانت أم اسطورية - صياغة حديثة ، واسقاطها على أحداث الحاضر لجأوا الى وسيلتين متناقضتين كل التناقض : اما الاحتفاظ بالزي التاريخي أو زي الاسطورة القديمة ، اما الباس الممثلين أزياء حديثة ، كما فعل جان انوى في مسرحيته الشهيرة انتيجونا ، فلقد أخرجت هذه المسرحية عام ١٩٤٤ ، أى قبل تحرير فرنسا بعام واحد ، لذا حاول المؤلف والمخرج ان يحثا الجمهور على التمرد والثورة على الاحتلال الألماني فجعلوا الممثلين يرتدون ملابس العصر الحديث لمحو المسافة الزمنية بين مضمون المسرحية الماضي ومضمونها الحاضر ، واستخدما الزي استخدما ذكيا هاما وصولا الى تلك الغاية .

والدور الاساسى الذى يلعبه الديكور هو الدلالة على المكان الجغرافى (ميدان عام) أو الاجتماعى (مسرح ، قهوة) أو كليهما (شارع تطل عليه ناطحات السحاب) ويمكن أن يدل الديكور أو أحد عناصره على الزمان ، فالمعبد اليونانى دلالة لفترة تاريخية معينة ، وسقف المنزل الذى يغطيه الجليد دلالة لفصل الشتاء ، وغروب الشمس وظهور القمر دلالة لجزء من الليل أو النهار ، وقد يكون الديكور دلالة للجنسية أو الوضع الاقتصادى أو الديانة الخ ... والى جانب وظيفته السيمولوجية فى تحديد زمان الأحداث ومكانها ، يمكن أن يشتمل الديكور على دلالات لها علاقة بأكثر الظروف تباينا ، ولا بد من

والحركة ، وتسريحة الشعر ، والاضواء والموسيقى والاصوات .

الزى شئ ودلالة فى آن واحد ، ويمكن أن يحمل بناء ما لمجموعة من الدلالات ، فهو قد يدل على الانتماء الى طبقة اجتماعية معينة أو جنسية معينة أو ديانة معينة ، كما يمكن أن يدل على الوضع الاقتصادى لمن يرتديه أو سنه ، وغالبا ما يكون الزى المسرحى دلالة لاحدى الدلالات الخاصة ، أو لشئ ما على سبيل المثال ، قد يميز الزى شخصية رجل صينى ثرى ، بمعنى أن يكون فى آن واحد دلالة للجنسية (صينى) والوضع الاقتصادى (ثرى) لكن الزى المسرحى شأنه فى ذلك شأن الديكور أو حركات الممثلين لا يحمل دلالات كتلك التى يحملها الزى الحقيقى ، ويقتصر عدد هذه الدلالات عادة على واحدة أو اثنين أو ثلاثة ، فالمسرح لا يستخدم الا دلالات الزى التى لا بد منها لموقف درامى معين ، والزى شأنه شأن الديكور والدلالات المسرحية اخرى لا يقوم دائما بوظيفة تصويرية ، والحالات التى تظهر فيها دلالات لدلالات أخرى أكثر من الحالات التى تظهر فيها للأشياء ، فالممثل الذى يؤدى دور رجل جائع قد يرينا أنه يأكل الخبز فى حد ذاته بدون أن يكون الخبز دلالة للفقر .

وعندما يظهر الممثل على المسرح ، ندرك لأول وهلة ما اذا كان ملكا أو فلاحا أو عاملا ، أى أننا نحدد مكانته وانتمائه الاجتماعى ، وذلك من خلال شكل الزى الذى يرتديه والمادة التى صنع منها ، فالحريز أو المخمل دلالة للثراء والارتقاء الاجتماعى ، ومنها يصنع زى الملك والنobil وسيدة الطبقة الراقية . كما أن الزى يحدد الزمان والمكان الذى تدور فيه أحداث المسرحية ، يمكن أن نقول أن الممثل يتقمص شخصية جندي روماني ، أو كاهن فرعونى ، أو فلاح صينى من خلال زيه ، واستعمل الزى فى فترة معينة استعمالا اصطلاحيا بحثا من خلال لونه ، ولعل

الإشارة إلى أن الحقل السيمولوجي للديكور المسرحي يكاد يكون واسعا كحقل الفنون التشكيلية : الرسم ، والنحت والعمارة والزخرفة ، والوسائل التي يستخدمها مصمم الديكور متعددة الشكل واللون والنوع ، ويتوقف اختيارها على التقاليد المسرحية السائدة ، والتيارات الفنية السائدة والدوق الشخصي والظروف المادية التي يجرى فيها العرض ، قد يكون الديكور غنيا بالتفاصيل وقد يكتفى ببعض العناصر الأساسية بل بعنصر واحد أحيانا ، فإذا دل الديكور على منزل بورجوازي مثقل بالتفاصيل أصبحت كل قطعة أثاث وكل شيء دلالة من الدرجة الأولى لقطعة أثاث أو شيء حقيقيين ، لكن أغلب هذه الأشياء يفتقر إلى المعنى المنفرد في الدرجة الثانية ، وتركيب عدد من دلالات الدرجة الأولى هو الذي تتكون منه دلالات الدرجة الثانية : بيت بورجوازي ، ولا تتوقف قيمة الديكور السيمولوجية على كمية دلالات الدرجة الأولى ، لأنه يمكن أن يكون للدلالة الواحدة مضمون أغنى بكثير من مضمون مجموعة كاملة من الدلالات ، ووظيفة الديكور السيمولوجية لا تقتصر على الدلالات التي تشتمل عليها عناصره ، فحركته وتغييره قد يكون لهما معنى تكميلي أو معنى مستقل ، وهناك عروض مسرحية تستغنى عن الديكور كلية ، وفي هذه الحالة يحل محله كل من الحركة أو الكلمة أو الزى أو الأكسسوار أو الإضاءة الخ فالمسرح الدائري الغي الديكور تقريبا ، واكتفى ببعض العناصر التي لا بد منها لحركة الممثلين ، لأنه لا يمكن عمليا وضع الديكور وسط المتفرجين ، والا حجب عنهم الممثلين ، في حين عمد مخرجو المسرح الطبيعي إلى إدخال كل التفاصيل التي تعكس الواقع على ديكور المسرح ، لدرجة أن المخرج انطوان ، رائد هذه المدرسة أوصى بأن يوضع على المسرح فخذ عجل حقيقي إذا ما كان مكان الأحداث محل أحد القصابين ، وأوصت المدرسة الكلاسيكية الفرنسية باحترام وحدة

المكان احتراما صارما ، لذا كان ديكور مسرحيات هذه الفترة ديكورا ثابتا لا يتغير مع تغير مكان الأحداث ، وكانت مهمة المتفرج سهلة إلى أقصى حد ، لأنه كان يتعرف منذ اللحظة التي يرفع فيها الستار على مكان الأحداث وزمانها : اليونان القديمة ، أو روما القديمة ، أو فرنسا ، عامة ... وثبات الديكور هنا مرتبط ارتباطا وثيقا بالأحداث وطريقة تصويرها ، فبعض الأحداث كانت تجري على المسرح ، وعادة ما كانت الدلالة اللغوية هي أدائها ، لأن هذه الأحداث كانت عاطفية ونفسية في أغلب الأحيان ، أما الأحداث التي تعتمد على الحركة ، كشرب السم أو طعنة الخنجر أو ضربة السيف ، فكانت تجري خارج المسرح وتذكر بالكلام فقط ، أي أنها كانت لا تظهر لعين المتفرج ، وبالتالي كان يمكن أن يظل الديكور ثابتا لا يتغير ، وعندما جاء الرومانسيون وعلى رأسهم ف هيجو ، ثاروا على هذا الأسلوب المفتعل في رسم أطار الأحداث ، وأوصوا بتغيير المكان مع تغير الأحداث ، وهكذا حلت فكرة الديكور المتحرك محل فكرة الديكور الثابت وفتح الباب أمام المحاولات - وبعضها غريب جدا - التي نشهدها اليوم . وإذا كان الديكور دلالة سهلة الإدراك ، فإن بعض المؤلفين والمخرجين حاولوا أن يعقدوها باستخدام ديكور يدل على هذه الفترة أو تلك ، أو هذا المكان أو ذاك ، ونذكر مثلا لذلك مسرحية أ. آداموف سياسة الفضلات التي يصور فيها حالة مريض نفسي ترتبط عقده - اعتقاده بأن كل الفضلات بكافة أنواعها توضع في طريقه لكي يأكلها - بفكرة معاداة الزواج . وتدور الأحداث في محكمة لا يحدد المؤلف مكانها بالضبط فبينما يقول في مكان ما ، أن ملابس المحلفين أميركية ، يقول في مقام آخر أن مكان الأحداث يمكن أن يكون الولايات المتحدة الأمريكية ، أو جنوب إفريقيا ، أو أي بلد تستشرى فيه التفرقة العنصرية ، ومن ثم تتحول وظيفة الديكور الدلالية من التحديد إلى التعميم .

وأشياءها ، وإذا كان الممثل يؤدي دور مليونير ويلبس خاتما به ماسة كبيرة ، رأى المتفرجون في الخاتم دلالة للثراء الفاحش بدون أن يتساءلوا عما إذا كانت الماسة حقيقية أم لا ، ويرى أ. زيك أن كل الأشياء التي تستخدم كدلالات على المسرح تسعى إلى واحد من الهدفين الآتيين :

الاول تحديد خواص الشخصيات والمكان الذي تجرى فيه الاحداث تحديدا فعالا .

والثاني ، وهو وظيفي ، المشاركة في أحداث المسرحية . ولا يقتصر هذا التحليل الذي يقدمه زيك على الأشياء التي تستخدم على المسرح ، بل يمتد لها إلى كافة الأشياء التي نستخدمها في حياتنا اليومية ، وعلى لمسرح يحدث عكس ما يحدث في الحياة اليومية لأن كل شيء يرى دلالاته تتحول بأسرع ما يمكن وبطرق مختلفة . ففي الحياة اليومية يستخدم الدثار للتدفئة وأحيانا للتأنيق ، لكنه يلعب دورا مختلفا كل الاختلاف في مسرحية جوتة « فاوست » إذ يستخدمه مفيسستو في أحد المواقف للدلالة على خضوعه التام لفاووست . وفي موقف آخر يعبر به عن قدرته اللامحدودة على السيطرة على القوى الشيطانية . والأشياء التي تلعب دور الدلالة على المسرح تتخذ سمات وصفات ليست لها في الحياة اليومية ، فالأشياء على المسرح شأنها شأن الممثل تبعث من جديد وتبدو مختلفة عما هي أصلا . وكما يتحول الممثل على المسرح إلى شخص آخر تكسب الأشياء التي يلعب بها أحيانا وظائف جديدة كانت غريبة عليها حتى تلك اللحظة . مثال ذلك دور المندبل دليل الخيانة في « عظيم » ، والشريط الحريري دليل الخيانة أيضا الذي تدسه الكونتيسة في صدرها في مسرحية بومارشيه « زواج فيجارو » . ولطالما لعبت الرسائل دورا دلاليا هاما على المسرح على مر العصور ، وفي مجال السينما نذكر مثال شارلي شابلن الذي يحول يادائه في أحد أفلامه الحذاء

ويعتبر الأكسسوار ، لعدة أسباب مجموعة مستقلة من الدلالات ، وأفضل مكان يمكن أن يشغله هو ذلك المكان الذي يقع بين الزى والديكور ، فكل عنصر من عناصر الزى يمكن أن يصبح أكسسوارا حالما يلعب دورا خاصا مستقلا عن الوظائف السيميولوجية التي يقوم بها الزى عادة ، قد تكون العصا مثلا جزءا من زى الرجل الانيق ، لكن إذا ما نسيها هذا الرجل في مخدع إحدى السيدات أصبحت أكسسوارا تترتب على وجوده في ذلك المكان نتائج عديدة ، وفي كثير من الأحيان يصعب على الباحث وضع حد فاصل بين الأكسسوار والديكور ، فالسيارة في الفصل الاول من مسرحية جول رومان « كتوك » عنصر أساسي من عناصر الديكور ، في حين أنها مجرد أكسسوار في الفصل الثالث من مسرحية برخت « السيد بونتيلا وتابعه ماتي » هذا وتوجد في الطبيعة والحياة الاجتماعية أشياء عديدة يمكن أن تتحول إلى أكسسوارات مسرحية . وإذا دلت هذه الأشياء على الأشياء الموجودة في الحياة فقط أصبحت دلالات اصطناعية لها ، أي دلالات من الدرجة الاولى . لكنها قد تدل على المكان أو الزمان أو ظرف معين له علاقة بالشخصيات التي تستخدمها ، بالإضافة إلى وظيفتها الأولية هذه ، وعندئذ تصبح دلالات من الدرجة الثانية ، وهناك حالات يمكن أن يكون للأكسسوار فيها قيمة سيميولوجية أكبر ففي مسرحية تشيكوف « النورس » يرمز طائر النورس المحنط إلى نورس قتل من فترة وجيزة ، لكنه يدل أيضا على فكرة مجردة هي التطلع إلى الحرية ، وتدلل تلك الفكرة بدورها على الحالة النفسية لأبطال المسرحية .

لا يستخدم كل من الزى والديكور والأكسسوار كدلالات أو مجموعات من الدلالات فقط على المسرح فهي تستخدم أيضا كأشياء حقيقية ، أي في حد ذاتها - لكن المتفرجين لا ينظرون إلى هذه الأشياء الحقيقية على أنها كذلك ، بل على أنها دلالات لدلالات أخرى

الى طعام ، وياكل رباطه وكأنه قطعة من المكرونة .

ويرى ا. ايكو U. Eco أن « أول عناصر العرض المسرحي ... عنصر يقدمه جسم انسان يتحرك ويتقدم بوصفه شيئا حقيقيا ، أو مادة لبعض الدلالات الممكنة ، إلا أن العنصر السيميولوجي حقا في المسرح يتمثل في أن جسم الانسان لم يعد شيئا بين الاشياء ، لأن احدا يتولى اظهاره بفصله عن سياق الاحداث الحقيقية وتحويله الى دلالة ، ويجعل في الوقت نفسه من الحركات التي يؤتيها ذلك الجسم والمكان الذي تؤتي فيه دلالات معينة » (٢٩) .

وعلم الحركة Kinesique هو العلم الذي بدأ يدرس معنى الحركات وتعبيرات الوجه والوقوفات والأوضاع الجسمانية . ووضعت لكل هذه السمات الحركية شفرات دقيقة . ويرز ر. دوران R. Durand أهمية هذه الدراسات بقوله : « تفهم أهمية الحركة في الابحاث الجارية . وبطبيعة الحال ستدرس الحركة على ضوء ما يمكن أن تأتي به بعض العلوم الجديدة كعلم الحركة أو « علم المكان المحيط » proxémique وأهمية الحركة تتعدى وضعها كعنصر من عناصر اللغة المسرحية ، لأنها أهمية استراتيجية . وهناك اغراء بالنظر الى المسرح على أنه المكان الخاص بالحركة ، مكان لا يدين بشيء للغة الكلام ويمكن أن يدعى جسدا . وتكمن الخطورة هنا في الانزلاق الى نوع من ميتولوجيا التلقائية المباشرة ، والمطلوب هو أن يكون المسرح علما ماديا لا يكتب بل يبحث على التنفيس... » (٣٠) .

وجسم الممثل وحركته يعيداننا الى مجموعة سيميولوجية مختلفة عن النص تسعى الى الوصول الى العلاقة بين الكلمة وتجسيدها .

يؤدي الممثل دوره بالحركة والكلمة .

والحركات التي يعبر بها عن دوره تصدر عن جسده وفقا لبعض الاساليب الفنية . وحركات الوجه هي اقرب الدلالات الحركية الى التعبير بالكلمة . وهناك عدد كبير من الحركات اليمائية التي تتطلبها عملية النطق بالكلام في هذا المستوى . يصعب جدا وضع حد فاصل بين الدلالات الطبيعية والدلالات الاصطناعية . وفي اغلب الحالات تكون دلالات الوجه اليمائية - وهي تتوقف على النص الذي ينطق به الممثل ، أي على مستوى الكلمة السيمانتيك - دلالات اصطناعية . وهي تصاحب الكلمة وتزيد من قدرتها التعبيرية . ويحدث أحيانا أن تقلل حركات الوجه من دلالة الكلمة أو تناقضها . والقيمة التعبيرية التي تحظى بها دلالات عضلات الوجه تجعلها محل الكلمة أحيانا . كما أنه توجد أنواع شتى من الدلالات اليمائية المرتبطة ببعض اشكال التعبير غير اللفوية والانفعالات : كالدهشة ، والغضب مثلا ، والاحساسات الجسمانية والعضلية : كالتعبير عن الجهد ، أو الألم .. الخ .

والحركة من أغنى وسائل التعبير عن الافكار وأكثرها مرونة ، بمعنى أنها تمثل أكبر مجموعات الدلالات اتساعا وتطورا . وقد تكون الحركة حركة اليد أو الذراع أو الساق أو الرأس أو الجسد كله . وتسعى الحركة الى خلق بعض الدلالات وتوصيلها : الممثل الذي يقطع خشبة المسرح ذهابا وإيابا يعبر عن قلقه وحيرته أو يفتح فمه وتتسع عيناه تعبيرا عن دهشته ، أو يفرك يديه تعبيرا عن فرحه ، أو يجري ويلتفت وراءه على أنه مطارده الخ .. هذا وتشتمل الدلالات الحركية على عدة مجموعات ، فمنها ما يصاحب الكلمة ومنها ما يحل محلها ، أو يحل محل عنصر من عناصر الديكور : حركة الذراع التي تفتح بابا وهميا ، أو اكسسوار من الاكسسوارات ومنها ما يدل على الاحساسات والانفعالات الخ وأغلب

(٢٩) Helbo ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

مجموعة دلالات الماكياج ، وان كانت كظاهرة فنية تنتمي الى مجال الزى ، لكنها من الناحية السيميولوجية تلعب دورا مستقلا عن الماكياج والزي ، وغالبا ما يكون هذا الدور حاسما . لذا اعتبرها كوفزان « مجموعة مستقلة من الدلالات » يمكن ان تكون التسمية دلالة للانتماء الى منطقة جغرافية معينة ، او دائرة ثقافية معينة ، او فترة زمنية معينة ، او طبقة اجتماعية معينة الخ . . . وتكمن قيمتها السيميولوجية لا في شكلها او تغيراتها التاريخية والاجتماعية فقط ، وانما في درجة العناية التي تظهر بها ايضا . على سبيل المثال تلعب اللحية او الشارب دورا سيميولوجيا هاما ، سواء استقلا عن التسمية او صاحبها ، والشعر المنسق دلالة للاستقرار النفسى او الهندام ، في حين يدل الشعر المنكوش على الاضطراب النفسى البالغ .

والاضاءة المسرحية وسيلة فنية حديثة الى حد ما وهي تستخدم اساسا لابرار وسائل التعبير الأخرى . لكنها يمكن ان تلعب دورا سيميولوجيا مستقلا . واليوم يزداد استخدامها ويتسع نطاقه سواء كان المسرح مفتوحا أم مغلقا . الاضاءة قادرة اولا على تحديد المكان . فاذا ما سلطت الكشافات على جزء من البلاطه دون سواه كان معنى هذا ان الجزء المضاء هو المكان الذى تجرى فيه الأحداث مؤقتا . كما ان ضوء الكشافات يمكن ان يعزل أحد الممثلين عن الآخرين ، او قطعة اكسسوار عما يحيط بها . والغرض من هذا ليس تحديد المكان المادي الذى يشغله الممثل او الشيء فحسب ، وانما ابرازهما بالنسبة لما يحيط بهما . ومن ثم تصبح الاضاءة دلالة لاهمية الممثل والشخصية التي يتقمصها ، او اهمية الشيء سالف الذكر . وتقوم الاضاءة بوظيفة أخرى هامة فهي تستطيع ان تضخم حركة من الحركات او جزءا من الديكور ، او تغيرهما ، بل انها تستطيع ان تضيف الى ما تسلط عليه قيمة سيميولوجية جديدة . وأحيانا تشكل الاضاءة وجه الممثل او جزءا

الحركات التي يؤتيها الممثلون على المسرح هي اصطلاحية الى حد كبير ، كما هو الحال بالنسبة لحركات التأدب - تقبيل يد السيدات والانحناء امام الاكابر - الدالة على التحضر ومداه . وجدير بالملاحظة ان الحركة في مسرح بعض بلاد آسيا مثلا ، دلالات اصطلاحية الى اقصى حد ، أى دلالات لها قوانينها ورموزها وتتناقلها الاجيال ، ولا تفهم الا من قبل المتخصصين .

والماكياج على المسرح يبرز ملامح وجه الممثل الذى تسلط عليه الاضواء بطريقة معينة ، وهو يساهم مع حركات الوجه في تكوين وجه الشخصية التي يتقمصها ذلك الممثل . واذا كانت حركات الوجه تخلق دلالات متحركة اساسا فان الماكياج يخلق دلالات اكثر ثباتا . احيانا يوضع الماكياج على بعض اجزاء الجسم المكشوفة كاليدين والكتفين ،

واذا استخدم تكتيكا ومواد متنوعة استطاع ان يخلق دلالات خاصة بالجنس والسن والحالة الصحية . . الخ . . وعادة ما تقوم هذه الدلالات على بعض الدلالات الطبيعية . وبواسطة الماكياج يستطيع المخرج ان يخلق مجموعة من الدلالات التي تتألف منها شخصية نمطية كشخصية الساحرة أو السكران . كما تسمح دلالات الماكياج بتصوير شخصية تاريخية أو معاصرة ، ويرتبط الماكياج بحركات الوجه ارتباطا وثيقا ، وكل واحدة من هاتين المجموعتين تساند الأخرى أو تكملها . ومع هذا قد يحول الماكياج دون امكانية تعبير الممثل بحركات وجهه ، خاصة عندما يضع على وجهه قناعا من المطاط . ونقول بالمناسبة ان دور القناع جدير بان تفرد له دراسة خاصة في سيميولوجيا العرض المسرحي . يرى البعض مبدئيا انه ينتمى الى مجموعة دلالات الماكياج ، وان كان من الناحية المادية يعتبر جزءا من الزى ، ومن الناحية الوظيفية جزءا من حركات الوجه .

كثيرا ما يضع الباحثون تسمية الشعر في

يقوله النص : الفرح ، الحزن ، الخوف ، الخ ... وقد تقول شيئاً آخر كأن تكون كلها حنان ، في حين يتسم النص بالقسوة والعنف .

فيما يتعلق بالاصوات bruitage توجد أولا مجموعة كبيرة من الدلالات الطبيعية ، فوق الاقدام وصرير الباب ودقات الساعة كلها دلالات تظل طبيعية أثناء العرض ، والاصوات التي يجب أن يهتم بها الباحث هي تلك التي تعتبر دلالات طبيعية أو اصطناعية في الواقع ، والتي يعاد بناؤها أثناء العرض ، والحقل السيميولوجي لاصوات العرض المسرحي واسع للغاية ، وربما كان أوسع من عالم الاصوات الموجود في الواقع . قد تدل هذه الاصوات على الوقت . صياح الديكة يدل على بزوغ الفجر ، بينما يدل صوت البوم أو عواء الذئب على الليل ، وقد تدل على الحالة الجوية : سقوط المطر ، هبوب العاصفة ، أو المكان : صوت مدينة كبرى أو الحركة : صوت السيارة التي تقترب أو تبتعد والوسائل المسرحية التي تستخدم لأحداث الاصوات متنوعة ، فمنها اصوات تحاكي اصوات الحيوانات مثلا . وتقدم التكنيك الحديث يسمح بتسجيل الاصوات الطبيعية النادرة ، ويفسح المجال امام العمل الخلاق حقاً ، وهناك تجارب عديدة أجريت وما زالت تجري في هذا المجال .

• • •

ايا كانت المجموعة التي تنتمي اليها تقوم الدلالة المسرحية عامة بوظيفتين أساسيتين :
تحديد المكان ، وتحديد معالم الشخصية .
فالدلالات التي يختارها المخرج للاتصال بالمتفرجين تهدف دائماً الى تحديد مكان الاحداث ، وفي هذا التحديد يكمن ثباتها بالنسبة لما تبقى ، وتحفظ الدلالات بقدرتها الممكنة على الحركة . واذا كانت الدلالات تحدد مكان الاحداث ، فهذا لا يعنى انها دلالات مكانية بالضرورة ، اذ يمكن أن يظهر المكان من

من الديكور، وقد يكون للون دور سيميولوجي أيضا . فاللون الابيض يدل على الحلم ، بينما يدل اللون الاحمر على جو القتل والتعذيب ، ويلعب عرض الصور والافلام ثابتة كانت أم متحركة دوراً خاصاً في هذا الصدد ، فهي تنتمي الى مجموعة الدلالات الضوئية من الناحية الفنية ، لكن دورها يتعدى نطاق هذه المجموعة بكثير . ولنلاحظ أن الصور الثابتة قد تكمل الديكور أو تحل محله ، في حين تضيف الصور المتحركة بعض الآثار الديناميكية كحركة السحب أو أمواج البحر ، واستخدام الاضاءة . اتخذ اشكالا متعددة في المسرح المعاصر . وأصبح الوسيلة الفنية لا يصال الدلالات المنتمية الى مختلف المجموعات ، بل والدلالات الخارجة عن نطاقها اما عن العرض السينمائي الذي يجري أثناء العرض المسرحي فيجب أن يدرس في اطار سيميولوجيا السينما . وكثيرا ما يستعمل للدلالة على أحلام الشخصيات أو استرجاع ماضيها . الخ .

ولا يمكن القيام بتحليل منهجي قيم للدلالة المسرحية الا انطلاقاً من البحث السيميولوجي عن الأبنية الأساسية للموسيقى : الايقاع والنغم والحن ، أي العلاقات القائمة بين الاصوات . ولا شك أن للموسيقى التي تصاحب العرض المسرحي وظيفة سيميولوجية أكيدة . ففي الاوبرا أو الباليه تصبح الموسيقى النقطة التي يبدأ منها العرض ، واذا اضيفت الى العرض أو صاحبته أصبحت وظيفتها تأكيد الحدث أو الاجساس ، أو تضخيمهما أو نفيهما . وعن طريق الايقاع أو اللحن تستطيع بعض أنواع الموسيقى أن تخلق جو الأحداث ، أو زمانها ، أو مكانها . واختيار الآلة الموسيقية له قيمة سيميولوجية أيضا ، فهي توحى بالمكان ، أو البيئة الاجتماعية أو الجو العام للمسرحية . كما يمكن أن تصاحب قيمة موسيقية معينة دخول الشخصيات أو خروجها ، وبالتالي تصبح دلالة لها . نلاحظ أخيراً أن الموسيقى يمكن أن تقول ما

يمكن أن يتم أيضا عن طريق الزى ، أو الإيماء أو حركات الممثلين ، والديكور يلعب دورا أيضا في هذا الشأن ، هكذا الأمر بالنسبة لغرفة الاعزب الكسول في مسرحية جوجول « الزواج » ، أو معمل العالم فاوست ، فهما يعبران عن طباع من يشغلها أفضل تعبير . هذا بعكس المسرح الشعبي حيث يكاد الديكور يكون عديم الأهمية . ومن ثم لا يستخدم في وصف نفوس الشخصيات . ويقوم الأكستوار بهذه المهمة بدلا منه ، وسلوك الشخصيات وسيلة أخرى لتحديد سماتها . في مسرحية بوشكين « الفارس البخيل » يقول البارون عن نفسه أنه رجل يحب ثرواته حبا جما . ويتضح هذا المعنى بالفعل من خلال حركاته والطريقة التي يتحرك بها على المسرح . هناك أيضا حديث الشخصيات عن بعض الشخصيات الأخرى - في مسرحية مولير « طرطوف » لا يظهر طرطوف إلا في الفصل الثالث ، ويدور معظم الحديث عنه طوال الفصلين الأول والثاني وأزياء الشخصيات التي لها علاقة مباشرة بالشخصية التي يراد وصفها : في أوبرا بيتهوفن « فيديليو » ، تدل ملابس السجناء البائسة على قسوة الحاكم وظلمه .

للدلالة المسرحية وظائف محددة ، ولها أيضا خواص تتميز بها . وقد تكون قدرتها على التحول هي أهمها . فخاصية الدلالة المسرحية الأساسية هي تبادل المواد ، والانتقال من مظهر إلى آخر ، وبعث الحياة في الشيء الجامد ، والانتقال من مجال السمع إلى مجال الرؤية أو العكس . ويستحيل علينا في مجال المسرح أن نقرر بصفة قاطعة ما إذا كان ما يسمى « حركة » لن يدل عليه عنصر آخر من عناصر العرض ، أو أن نتنبأ بأن ما يعتبر ظاهرة تصويرية لن يعهد به إلى الموسيقى مثلا . الخ . . . قدرة الدلالة المسرحية على التحول هي إذن طابعها الخاص ، وبفضله نفهم لماذا

خلال الصوت أو الضوء . وإذا كانت خشبة المسرح وسط المتفرجين أصبحت مكانية تحديد موقع الأشياء والديكورات محدودة للغاية . وغالبا ما تعتمد على الممثل الذي يصبح عندئذ قطعة ديكور أو قطعة أثاث أو أكسسوار . وهذه الأساليب التي اعتمدها بعض المخرجين المحدثين تشبه إلى حد كبير عادات المسرح الصيني والياباني التقليدي . فخشبة المسرح الصيني التقليدي بسيطة جدا ، والإشارات مكانية عليها تنتقل إلى العناصر المسرحية الأخرى . كذلك الأمر بالنسبة للمسرح الياباني الذي يستخدم كل وسائل التعبير المسرحية للدلالة على المكان . وليس من الضروري أن يدل المكان على المكان ، أو الصوت على الصوت ، أو الضوء على الضوء ، أو الحركة على فعل إنساني . يقول ج . هونزل J. Honzl « قد يحدث أن نرى أصواتا ما ، أو نسمع منطقة ما ، أو نعرف من نظرة خاطفة إلى زى الممثل كل ما نعرفه بواسطة الكلمات في المسرح الأوروبي » . (٣١) .

في كل المسرحيات تقريبا ، وفي مسرحيات الطبائع خاصة لا بد من تحديد سمات الشخصية أو الشخصيات الرئيسية : طرطوف المنافق ، هرباجون البخيل ، شاييلوك الأب البخيل الماكر ، الخ ويستخدم المسرح كل الوسائل المتاحة وصولا إلى هذه الغاية وأولها الوصف الذاتي للشخصيات ، ونجد مثلا جيدا لهذا التكنيك في مسرحيات « الأسرار » التي شاعت في العصور الوسطى والمسرحيات الشعبية . لكن هذا الوصف الذاتي لا يظن دائما بوضوح ، مثلما في مسرحيات شكسبير أو بعض المسرحيات الأخرى ، حيث تنطق الشخصيات بمونولوجات يتعرف المتفرج من خلالها على الجوانب الخافية في نفوسها . وإذا تركنا مجال الكلمة وجدنا أن وصف الشخصيات

يدل على تعقيد الدلالة المسرحية . وقد تساعد فكرة المضمون Connotation على حل بعض المشاكل في هذا المجال ، لكنها لا تؤدي نتيجة في كل الحالات .

فضلا عن أنه توجد في المسرح دلالات مبهمة عمدا ، على مستوى الكلمة والمجموعات الأخرى سواء بسواء . قد يدل نفس الديكور مثلا على قبة إحدى الكاتدرائيات ، أو أشجار إحدى الغابات ، وقد يشتمل الزى الواحد على عناصر مختلفة من الجنسين أو من فترتين زمنييتين ، والصوت قد يدل في آن واحد على دقات القلب أو أصوات الطبول .

هناك حقيقة أخرى عن الدلالة المسرحية وهي أنها لا تفلت من عملية التصوير iconisation يلاحظ بنتلي Bentley في هذا الشأن أن كل فن يكشف عن النفس الإنسانية ، وأن هذا الكشف يتم على المسرح بالتواجد المادي لجسم الإنسان ، مما يطرح - داخل إطار العملية التصويرية - للبحث موضوع العلاقة بين الدال والمدلول ، والممثل والشخصية ، ولندكر أن برخت أدرك جيدا هذا الانفصال ويرى أ . ايكو أن هناك مشكلة تعترض الباحث عندما يحاول أن يعرف الدلالة التصويرية - إذ يظن الكثيرون أنها مشابهة للشيء الذي ترجعنا إليه - أي الشيء الذي يصبح دلالة . فاذا ما اختير شيء ما كدلالة ، عمل بصفته الجديدة تلك نظر البعض خواصه ، ولهذه الخواص فقط . ومنذ تلك اللحظة ، يصبح شيئا مجردا ونموذجا مصغرا للشيء الحقيقي . وكما قيل تكون الدلالة تصويرية عندما يوجد تماثل مادي بين الدال ومدلوله . في مجال الحركة مثلا يمكن أن يعتبر المشي نقلا للمشي الحقيقي إلى المسرح . وهناك من يقول أن كل خطوة وكل نظرة في المسرح يحسب حسابها بدقة . أما الجري فيعتبر عن عملية التصوير تعبيرا واضحا بالقدر الذي يتطلب به الاختيار والإيماء .

يستطيع البناء المسرحي كله أن يتحول في أية لحظة . وهنا تكمن الصعوبة الأساسية لتعريف الظاهرة المسرحية . فاما أن يقصر هذا التعريف على العروض التقليدية - درامية أو غنائية - أو أن يوسع نطاقه لدرجة افقاده معناه . وتحرك الدلالة المسرحية يعين الباحث على إيضاح نقطة نظرية خاصة بالعنصر الجوهرى في الظاهرة المسرحية . ما هو هذا العنصر ؟ أو بعبارة أخرى ما هو جوهر المسرح ؟ إذا قلنا أنه النص ، انسحب هذا على عدة أشكال مسرحية ، ولما استطعنا أن نصل إلى جوهر المسرح في كثير من أشكاله التاريخية ، ولما استطعنا أن نقرر في حالات عديدة أن هذا الجوهر هو النص ذاته . كذلك لا يمكن أن نقطع بأن الممثل هو جوهر المسرح وعماده . فهو قد يكون مجرد دمية تؤدي بعض الحركات البسيطة ، وتصبح قطعة من الأكسسوار أو الديكور . وإذا زعم مخرج حالي أنه محور عملية الخلق المسرحي ، استطعنا أن نقول أنه على حق ، اللهم إلا إذا تحدث عن المسرح القديم ، حيث لم يكن للمخرج وجود بعد . خلاصة القول أن الدلالة المسرحية تنتقل من مادة إلى أخرى بحرية لا نجدها في أي فن آخر ، والقدرة على التحول قاعدة من قواعد العرض المسرحي .

ومن خواص الدلالة المسرحية أيضا الميل إلى التعقيد . فهناك حالات يضطر المتفرج فيها أن يجمع بين دالتين أو عدة دلالات تنتمي إلى مجموعات مختلفة ، لكي يكشف المدلول المركب ، مثلا تعبّر مجموعة من المتظاهرين خشبة المسرح وهي خالية الأيدي بينما تعرض على شاشة بيضاء بعض الشعارات توجد إذن في هذه الحالة عدة دلالات تنتمي إلى مجموعة الحركة ومجموعة الديكور ، وتوجد بالتالي دلالات مختلفة ومدلولات مختلفة أيضا . وإذا ربط المتفرج بين هذه الدلالات على مستوى مدلولاتها يقف على المدلول المركب ، ألا وهو هؤلاء الناس يتظاهرون حاملين لافتات يطالبون فيها بتلبية رغباتهم ، مثل هذا المثال

أذواقهم ومتطلباتهم الجمالية ، من فهم المسرحية الواحدة .

وموضوع كمية الدلالات التي ترسل أثناء العرض المسرحي له أهمية أساسية من وجهة النظر السيميولوجية . الاقتصاد في الدلالات أحد قطبيه ، والاكتثار منها قطبه الآخر . ولا شك أن دراسة الاساليب المسرحية من وجهة النظر هذه أمر لا بد منه . تطرح القضية بين هذين القطبين المتعارضين . وهي تتطلب ألا تتكرر أو تتعدد الدلالات بلا داع فقط ، وإنما أيضا أن يتمكن المتفرج من استخلاص كمية كبيرة من الدلالات المرسل في آن واحد .

وهذه بعض أمثلة للاكتثار من الدلالات قبل أن يبدأ العرض ، ينظر المتفرج الى الستار ، وعندما يرفع هذا الأخير تظهر على الجدار روزنامة ضخمة تشير الى تاريخ الاحداث بالضبط ، في حين تشتمل الجمل التي تتبادلها الشخصيات على معلومة قيمة : نحن في سنة كذا . . . وفي مسرحية أخرى يتكلم الممثلون ويتحركون بينما تظهر فوق رؤوسهم جريدة مضبوطة ، وتعرض صور متتابعة على الشاشة ، بحيث يستحيل على المتفرجين متابعة مايجري على المستويات الثلاثة في آن واحد . وفي عرض آخر لم يكتف المخرج بتخديد مكان الاحداث وجوها العام وهو مستشفى للأمراض العقلية ، بل جعل بعض المرضى يتنزهون هنا وهناك . وجعل عشرات منهم يجلسون في أركان الديكور المكون من مستويات عدة ، وجعل بعض الاصوات والحركات المدروسة تصدر عنهم طوال العرض . والاكتثار من الدلالات يسعى الى هدف فني لا جدال فيه ، ويتخذ اشكالا عدة : تكرار الدلالات أو تعددها تجاور الدلالات ذات المدلول الواحد أو التشابه ، اصدار عدد كبير من الدلالات في آن واحد ،

كذلك الامر بالنسبة لحركات الممثل : فالصفحة الشهيرة في مسرحية كورني « السيد » تتطلب استخدام قفاز يكتسب الصوت ، وبدونه لا تصبح الصفحة تصويرية ويكون لها اثر مضحك . ويمكن أن يبلغ الديكور درجات عدة من التصوير باستخدام الكشافات مثلا حسب ابتعاده عن الواقع أو اقترابه منه .

لا بد من الاعتراف بأن الفن المسرحي يتميز من أى انتاج فني آخر بكمية الدلالات التي يحملها وهذا أمر مفهوم . فالعرض المسرحي بناء مكون من عناصر تنتمي الى فنون مختلفة : الشعر ، الفنون التشكيلية ، الموسيقى ، الغناء . . الخ ، كل عنصر من هذه العناصر يأتي بدلالة على المسرح . وبطبيعة الحال يضيع عدد منها أثناء عملية الانتقال هذه . النحت مثلا يفقد على المسرح واحدة من أهم خواصه ، وهي تغيير شكل القطعة المنحوتة باختلاف الزاوية التي ننظر منها اليها ، فعلى المسرح ، نحن لا نراها الا من زاوية واحدة . والاعمال التي تنتمي الى فنون أخرى تفقد أيضا جزءا من دلالاتها على المسرح . لكن بعض العناصر تكتسب دلالات جديدة باتصالها بالاشكال والاساليب الفنية الاخرى الخاصة بالمسرح . فاذا اضيفت الموسيقى التصويرية الى حركات ممثل يلعب دور رجل يحتضر وكلماته ، اشاعت جوا من الحزن .

وتعدد المعنى الذي يتميز به الفن المسرحي يجعل المتفرجين يفهمون المشهد الواحد بطرق مختلفة . مثلا ، اذا كان المشهد مشهد وداع يشترك فيه الحوار والموسيقى اعطى المتفرج الميل الى الموسيقى أهمية خاصة لها ، في حين يركز المتفرج المهتم بالحوار جل اهتمامه على الالتقاء . وهذه الخاصية التي ينفرد بها الفن المسرحي تمكن المتفرجين ، مهما اختلفت

التي تتخلل الدور وتكسبه لونا كوميديا او
مأساويا .. الخ .

ولا يفوتنا في معرض حديثنا عن كمية
الدلالات ذكر نظرية فاجنر حول المسرح الشامل،
ولعلها اشهر النظريات التي قامت على قدرة
المسرح على التحول ، وحاولت أن تنظم وتوحد
المواد والوسائل والاساليب المسرحية المختلفة.
المسرح كفن شامل ينظم الوسائل المختلفة
بحيث تتوحد نتائجها وتحدث أثرا شاملا .
في هذه الحالة توجد الشخصية المسرحية لا
على المسرح فقط وانما في الاوركسترا ايضا .
وندرك حالتها النفسية وتطورها ومصيرها ،
لا من خلال الكلمات والاحداث التي نشاهدها
على المسرح فحسب، وانما من خلال الاصوات
التي نسمعها ايضا . يتعلق الامر اذن بتواز
بين الموسيقى ، والتمثيل والكلمات والديكور
والاضاءة .. الخ . ويعني مبدأ « المسرح
الشامل » ضمنا أن قوة الأثر المسرحي ، أي
الانطباع الذي يتولد لدى المتفرج ، تتوقف
مباشرة على ما يدركه في وقت واحد بفكره
وحسه ، ويرى فاجنر أن على الفنان المسرحي
أن يستخدم مختلف الوسائل المسرحية بحيث
يولد انطباعات من نوع واحد لدى المتفرج .
والملاحظ أن نظرية فاجنر هذه لا تعترف
بتغيرات الدلالة المسرحية التي تنتقل في كل
مرة الى مادة مختلفة ، بل نراها على عكس
ذلك تؤكد أنه لا توجد مادة مسرحية خاصة،
وانما توجد أنواع عدة من المواد يجب وضعها
جنباً الى جنب . ويرى فاجنر أنه لا يوجد فن
مسرحي بمعنى الكلمة ، بل يوجد كل من
الموسيقى والنص والممثل والديكور والاكسسوار
والاضاءة . عن كل هذا ينشأ الفن المسرحي
كما يراه . وهو لا يوجد في حد ذاته ، بل
يبدو وكأنه تركيبة من الفنون الأخرى . ويرى
هونزل أن هذه النظرية تنهار اذا رجعنا الى

في حين لا يدرك المتفرج الا جزءا منها فقط .
وفكرة التكرار هذه مأخوذة عن نظرية الاعلام
théorie de l'information لكنها لا
تحل كل المشاكل الخاصة بالاكثار من الدلالات
المسرحية . وهذا مثال للاقتصاد في الدلالات:
مسرح يكاد يكون خاليا ، وستائر سوداء ،
تدخل الفرقة متماسكة ، ويرتدي أفرادها
ملابس العمل الزرقاء ثم يخرج من بينها
ممثل يأخذ قبعة ، وعصا ، ويتكلم . بذلك
تكون الشخصية قد تكونت . ثم يلقي ضوء
الكشاف على ممثل آخر يتقدم بدوره ويرد
على الممثل الاول ، وشيئا فشيئا تبعث الحياة
في عالم صغير يتحرك ، ويتألم أو يبتهج . هذا
نموذج للاخراج المجرد، حيث يسمح للاقتصاد
في الدلالات بإبراز كل دلالة على حدة ، ويفرض
عليها مهمة كانت توزع عادة بين عدة دلالات .

واذا عقدنا مقارنة بين المسرح الطبيعي
والمسرح اللا واقعي عامة - ولا يشترط أن
يكون رمزيا - وجدنا أن الاول لا يستخدم
بعض الاشكال الفنية ، كالرقص والموسيقى
وغيرهما ، بالقدر الذي يستخدمهم به الثاني .
ومن ناحية أخرى ، يقدم المسرح اللا واقعي
عددا من الدلالات أكبر بكثير من ذلك الذي
يقدمه المسرح الطبيعي .

والتعبير اللغوي بناء من الدلالات المكونة
لا من الدلالات اللغوية فقط ، بل من دلالات
أخرى أيضا . على سبيل المثال الكلام الذي
يدل على الوضع الاجتماعي للشخصية تصحبه
حركات الممثل ويكملة الزى والديكور ، وكل
ما يدل على الوضع الاجتماعي ايضا . والمجالات
التي تستمد منها الدلالات المسرحية ، كثيرة
كانت أم قليلة ، متعددة دائما . ونذكر من
بين الدلالات الكلامية بناء الجملة بطريقة خاصة،
وتوزيع لحظات التوقف ، وبعض الاساليب

يقول ب . كومبيانو P. Campeanu « يعرف العرض المسرحي أولا كمجموعة من الدلالات بأنه تفاعل بين هذين العنصرين : الجمهور والممثلين . وأقصد بكلمة الممثلين هنا كل العناصر المشتركة فنيا في العرض » . (٣٢) ويلفت النظر الى المعنى الرمزي للضوء الذي يلقي على مجموعة ما ، بينما تظل الاخرى في الظلام . وهكذا يرسم حد فاصل بين مكان الاحداث ، اي المسرح ، ومكان التأمل ، اي الصالة . ويختتم فكرته بقوله : « اذن ، مكان الصراع الهندسي ليس العرض الوهمي الذي يجري على خشبة المسرح ، وانما واقع العرض الذي يشمل على المسرح والصالة معا ، وهما في حالة من التوتر لا تنقسم » . (٣٣)

ولا شك أن قضية ادراك الدلالات وتفسيرها تستفيد كثيرا من مناهج نظرية الاعلام . فحيث توجد مجموعة من الدلالات ، لا بد ان توجد شفرة ، وشفرة الدلالات التي تستخدم في المسرح تستخلص من التجربة الفردية او الاجتماعية والتعليم والثقافة الادبية والفنية . وهناك انواع من العرض لا بد من معرفة شفرة خاصة لتفسيرها . مثال ذلك العرض الذي يقدم بلغة اجنبية - الاوبرا الايطالية ، فتفسيره يتوقف على مدى معرفة المتفرج لهذه اللغة الاجنبية ، ومدى معرفته للمسرحية المعروضة . وايا كان الحال ، فان عدد الدلالات المتلقاه بالنسبة لعدد الدلالات المرسله يتوقف على المستوى الثقافي العام للمتفرج ، ومعرفته للأوساط والعادات المعروضة ، وحالته النفسية ومدى اندماجه فيما يحدث على المسرح ، وقدرته على التركيز ، والمكان الذي

المتفرج وسيكولوجية الادراك . أولا يجب أن نعرف ما اذا كان المتفرج يدرك بحواسه الدلالات السمعية والبصرية بنفس القوة وفي نفس الوقت ، أم يركز ادراكه على جزء منها فقط ، واذا كان على ذهن المتفرج أن يركز لكي يصل الى القيمة الدلالية لحقيقة ما فيمكن أن نفترض أنه يركز أيضا على نوع معين من الادراك السمعي أو البصري . هكذا تتناقى سيكولوجية الادراك مع مبادئ نظرية فاجنر حول الفن الشامل . كذلك تخفي هذه النظرية جوهر المسرح اكثر مما تكشف عنه ، فهي تبعثر حول المسرح فنونا اخرى يدوب فيها ويختفى . ولا ينحاز زيك لفكرة المسرح الشامل ، لكنه يصرح بأن الفن المسرحي « فن واحد ، لا ذوبان لعدة فنون » . وهو يرى أن الطابع الخاص لوحدة المسرح هو اتحاد عنصرين متزامنين لا يمكن التمييز بينهما : العنصر السمعي والعنصر المرئي .



سبق أن تحدثنا عن قراءة العرض المسرحي وتفسير دلالاته من الناحية المنهجية ، ونستكملها الآن بالحديث عن الجمهور ، بوصفه المتلقي أو المرسل اليه في عملية التواصل التي تتم اثناء العرض بين خشبة المسرح والصالة . نلاحظ أول الامر أن المسرح يفصل بدقة بين خلق الصورة وتأملها . وهذا الفصل هو الذي يوجد الفصل الوظيفي بين الممثلين والمتفرجين ، فالممثلون يحاكون بعض أنواع السلوك ، بينما يظل سلوك المتفرجين سلوكا أصيلا بالرغم من أن العرض يوجهه وجهة معينة ، مما يكسب العرض ذاته صفة مزدوجة خيالية وواقعية .

(٢٢) Helbo ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٢٣) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

يشغله وقدرته على الرؤية والسمع ، وكمية الدلالات التي ترسل في آن واحد ، والظروف التي ترسل فيها .. الخ .

وبعض الدلالات التي يتلقاها المتفرج لغوي وبعضها الآخر فني ، لكي يفهم المتفرج تعبيراً لفظياً فردياً ، يجب أن يعرف اللغة التي أخذ منها هذا التعبير ، أو يعرف بالأحرى اللغة كواقع اجتماعي . كذلك الأمر بالنسبة للفن ، مثلاً ، يجب أن يكون المتلقى مستعداً لفهم التعبير الفردي للممثل ، أو لفه الخاصة أو لغة أي فنان آخر ، لكن يوجد فرق مبدئي كبير بين فهم الدلالات اللغوية وفهم الدلالات الفنية . فيما يتعلق بمجال اللغة وبالقدر الذي يتعلق به الأمر بوظائفها كأداة للتواصل ، تتم عملية التلقي على النحو الآتي تقريباً : عندما نسمع كلاماً نفصل عنه كل ما هو فردي ، ولا نثبت إلا ما هو واقع اجتماعي في الجملة أو الجمل التي سمعناها . فإذا نطق شخص غريب على اللغة بجملة فيها أخطاء ، « ابنك كبيرة » مثلاً ترجمناها في وعينا بجملة : « ابنتك كبيرة » بدون أن نشغل أنفسنا بالخطأ الذي وقع فيه المتكلم الغريب . وفهم العمل المسرحي عملية مختلفة تماماً ، فنحن ننظر إلى الدور الذي يقوم به الممثل على أنه كل لا يتجزأ ، فإذا أجاد دور عظيم مثلاً شعرنا أن كل شيء في هذا الأداء صحيح وحقيقي من الناحية الفنية : كالزى ، الحركات ، الوقفات ، لون الشعر وملامح الوجه الخ .. وإذا أراد ممثل آخر أن يقلده نقل عنه كل شيء حتى إيقاع الجمل واللقاء الذي تميز به هذا الممثل المجيد . وفي عملية النقل هذه تنقل أيضاً عيوب الممثل الشخصية وهي لا تنفصل عن الصورة العامة للدور التي بقيت في وعينا . في الواقع ، يستطيع كل ممثل عندما يفسر دوراً ما أن يستخدم أساليب أحد الممثلين الكبار ، لكن

عليه إذا أدى هذا الدور أن يستخدم لبرات صوته الخاصة ، وحركاته وتحركاته الخاصة ، أي أن يترك بصماته على الدور الذي يقلد فيه ممثلاً آخر .

يقوم التمثيل بالدور الرئيسي في عملية التواصل بين المسرح والصاله ، لسبب بسيط سبق ذكره ، وهو أن الممثل يحمل أكبر كمية من الدلالات ، والممثل هو الكائن الحي الوحيد على المسرح ، على عكس مسرح العرائس ، حيث الممثل ككائن حي لا وجود له ، ففي هذا المسرح لا يبقى من الممثل إلا صوته الذي يقرب الدمية من الإنسان . وبالرغم من أن الممثل يعبر بالزى عن العظمة الملكية ، وبمشيته عن سنه المتقدم ، وكلامه عن الغربة ، الخ .. لا نرى فيه مجموعة من الدلالات ، بل كائناً حياً أيضاً . ولكي نتحقق من الأمر ، يكفي أن نفكر فيما قد يحدث لو أن أحد المتفرجين نظر إلى أحد أقربائه وهو يؤدي دوراً على المسرح . هذا النوع الخاص من الازدواج له أثر هائل في المسرح الشعبي ، حيث يعرف الجمهور الممثلين معرفة جيدة . ويشعر المتفرج بنفس الشيء عندما يرى ممثلاً يعرفه في أدوار مختلفة . وهذا الإدراك المزدوج للممثل له أثر بعيد ، فهو يبعث الحياة في الدلالات التي يعبر عنها ذلك الممثل ، ويؤكد أنه إذ يؤدي دوره لا يتقمص بحال من الأحوال الشخصية التي يؤدي دورها .

أكدت كافة أنماط المسرح اللاواقعي على هذا الازدواج الذي كان ، بلا شك ، عائقاً في سبيل تصوير الطبيعة والواقع تصويراً أميناً كما أراد المسرح الطبيعي . ولعل أحد مخرجي هذا المسرح كان على حق عندما قال أن على الممثل أن يظهر أقل ما يمكن على حقيقته أمام الجمهور ، لأنه لو فعل فقد كثير من المتفرجين

أمام مضيفه أورجون ، في حين يجب ان يبدو للفرجين منافقا بغضا يتظاهر بالطيبة فقط . وهذا مثال آخر لمسرحية مأخوذة عن قصة « ذات الرداء الاحمر » : يجب ان يشبه الذئب المتخفي في زي الجدة ، تلك الجدة في نظر البنت الصغيرة حتى لو بدا غريبا الى حد ما ، في حين يجب ان يرى فيه المتفرجون ذئبا يغير صوته ويقلد صوت الجدة . أى يجب ان يظهر دائما للمتفرجين على أنه ذئب ، والاظنوا أنه الجدة ، شأنهم في ذلك شأن ذات الرداء الاحمر .

وفي المسرحيات الرمزية يتخذ أداء الممثلين معان عدة ، فبعض الشخصيات فيها تحمل دلالات موجهة الى الجمهور والممثلين الآخرين في آن واحد .

والطابع الخاص للدلالة المسرحية يفضى الى علاقة خاصة بينها وبين الجمهور . وتختلف هذه العلاقة كل الاختلاف عن علاقة الانسان بالاشياء الحقيقية او الناس الحقيقيين . على سبيل المثال طريقة سير الرجل العجوز وحركاته عادة ما تثير الشفقة في الحياة اليومية العادية . لكن غالبا ما يكون لها اثر كوميدي على المسرح .

والحديث عن أداء الممثل لا بد وان يشير الى نظرية برخت الشهيرة عن التقمص النفسي identification او تشبه

المتفرج اللاشعوري بالممثل والشخصية التي يتقمصها نجد في هذه النظرية معارضة تدعمها الادلة والبراهين لفكرة التقمص هذه ، لصالح موقف يظل فيه المتفرج ناقدًا بصيرا يشغل عقله وذكائه وقدرته على الفهم . ويرقص برخت التقمص النفسي لان « المتفرج يدفع ثمنه غالبا في حياة الواقع » بالتقمص يخلف اثرا في

الايهام بالواقع اذا ما راوه ، بعد ذلك في دور هاملت أو الملك لير مثلا لن يستطيعوا عندئذ ان يتصوروا أنهم امام الملك لير أو هاملت الحقيقي ، لا الممثل الذي يؤدي دورهم فحسب .

فيما يتعلق بأداء الممثل وجدت وما زالت توجد مدرستان يحاول بعض الممثلين ان يكونوا مختلفين كل الاختلاف من دور الى آخر . في حين يعتمد البعض الاخر ان يتعرف المتفرجون عليه من خلال صوته ، أو وجهه أو قناعه ان وجد . فيما يتعلق بالأداء أيضا نلاحظ ان الممثلين المختلفين يعطون دلالات مختلفة للدوار التي يؤديونها . ثم تنتقل هذه الدلالات من بعدهم الى من يقلدونهم بالقدر الذي لا يستطيع به هؤلاء ان يخلقوا شيئا جديدا . وذلك حتى اللحظة التي يظن فيها ممثل موهوب آخر يغير الدور ويستبعد الدلالات القديمة التي أوجدها سلفه ويستبدلها بأخرى ، وهلم جرا . نحن نعرف مثلا مجموعة من الدلالات كنا نظنها مميزة لدور هاملت : ، كالزي ، تعبير الوجه والحركات ، الايماءات ، الالتقاء . الخ . وأوجد هذه الدلالات ممثلون موهوبون ، ولعل لورنس أو ليفييه أشهرهم ، واعتبرها خلفاؤهم كما اعتبرها المتفرجون نهائية ثابتة . بصفة عامة كل أداء إبداعي لدور ما على المسرح يناهض الدلالات التقليدية ويحلل دلالات جديدة محلها .

ويحمل الدور الذي يؤديه الممثل دلالات مختلفة حسب ما اذا كان المتفرجون يعرفون عددا من شخصيات المسرحية ام لا . فكل حركة من حركات طرطوف ، وكل نبرة من نبرات صوته يجب ان تدل على أنه رجل طيب

بحريته . ولكي يتخذ المتفرج مثل هذا الموقف لا بد من ان توجد مسافة بينه وبين العرض ، وهذا ما اصطلح على تسميته « ما فية » distancing من المؤكد ان

هذه المسافة ليست انتقادية حتما ، ولقد قال برخت عندما تحدث عن وظائفها : ان اثر المسافة ليس اجراء تكتيكية وانما هو اجراء اجتماعي . فالمسافة في رايه تمكن المتفرج من « التحرر » من العالم المعروض امامه ومن العرض نفسه ، ويعنى هذا انها تستهدف الثورة الجمالية والثورة السياسية .

ونسوق مثالا لهذا الموقف الذي يقترحه برخت بالنسبة للأعمال المسرحية التي تبث الماضي . يقترح برخت على المتفرج ان يقترب من المسرحيات الكلاسيكية بوصفه رجل اليوم ، مستخدما الى اقصى درجة زيادة المعرفة الانسانية . هذا الموقف يقضي بالمتفرج الى ايجاد مسافة بينه وبين المسرحية التي تبث الماضي ، بدون ان يحاول تقربها الى عصره تقريبا مفتعلا . ولا يتعلق الامر هنا باخفاء المسافة التاريخية ، بل بالاعتراف بطابعها الماضي بالنسبة للعصر الحاضر . ويقول برخت في هذه النقطة : « المهم هنا هو ان تمثل هذه الاعمال القديمة بطريقة تاريخية ، أي ان توضع في موقف يجعلها تناقض عصرنا تناقضا عنيفا . ذلك ان شكلها يبدو قديما في حالة واحدة فقط : عندما يكون عصرنا هو خلفيتها ، وفي حالة غياب هذه الخلفية ، أشك في ان يتمكن هذا الشكل من الكشف عن نفسه ، بأي طريقة كانت . » (٣٥) ولا يعني برخت بقوله هذا ان المخرج لن يستخدم على المستوى

المتفرج ، ويجعله عدوا لنفسه . والبراهين التي ساقها في هذا الصدد لها أهمية كبرى ، ونقرأ في « شراء النحاس » الحوار التالي :

« كارل : حسن ، انهم لا يتقمصونه (أي الممثل) اذن لأنهم يعرفون ان مصالحهم تتعارض مع مصلحة . ومع هذا يمكنهم ان يتقمصوا نفسيا شخصا يدافع عن مصالحهم .

« توماس : طبعا لكنهم قد يعجزون عندئذ ايضا عن فهم القوانين التي يظهر بمقتضاها هذا الشخص . بوسعك ان تقول : مع انه يقودهم الى سواء السبيل . أي خطر اذن في السير وراءه سيرا اعمى ؟ المهم في حياة الانسان ، ليس الاتجاه الذي يسير فيه ، بل السير ذاته . والصفة الاساسية : الكبرى للانسان هي النقد ، فهو الذي اوجد اكبر جزء من خيرات هذا العالم ، وهو الذي ساهم بأكبر قدر في تطوير الحياة . فمن يتقمص نفسيا أي انسان آخر بلا تحفظ يتخلى في الواقع عن أي نقد له ، كما يتخلى عن نقد ذاته . وبدلا من ان يأخذ الحذر يتحول الى انسان يمشي وهو نائم . وبدلا من أن يفعل شيئا يسمح بأن يفعلوا منه شيئا . فهو شخص يحيا معه الآخرون ، ويحيا منه الآخرون ، أي شخص لا يحيا حقا ، بل يتوهم انه يفعل ذلك . » (٣٤)

هذه الافكار تحسم الموقف العلمي الذي يجب ان يتخذه المتفرج وهو الشرط الأول لحريته ، وايا كان العمل المسرحي الذي يجد المتفرج نفسه امامه ، يتحتم عليه ان يحرك في نفسه وسائل تلقي اخرى اذا اراد ان يستمتع

(٣٤) Demarcy ، المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

تاريخيا بالبحث عن ريبورتوار شعبي ، لان الشعب يحب التاريخ، هذا على الاقل ما اتضح من التحقيقات السوسولوجية التي اجراها ديمارس حول هذا الموضوع . فمن ثم ، كان اختيار « مسرح الشمس » للثورة الفرنسية واختياره لا الابطال ، كبارا كانوا ام صغارا ، وانما المواقف التاريخية التي تجعلنا نقرا التاريخ في حركته الديناميكية قبل الاحداث وبعدهما .

تحدثنا هنا اساسا عن الدلالة المسرحية من الناحية النظرية والمنهجية ، وحاولنا ان نربط حديثنا بالعلوم المختلفة التي تساعد على قراءة العرض المسرحي وتفسيره . وبقي الجانب التطبيقي الذي لا بد وان يستند الى من المؤلف وملف الاخراج الخاص بهذه المسرحية او تلك . ولنا عودة اليه في دراسة لاحقة ان شاء الله .

المسرحي عناصر فترة اخرى . كل ما هنالك ان استخدام هذه العناصر الاخرى سيكون معياره تقارب المعنى حول القول الذي يريد المخرج ان يطرحه ابتداء من المسرحية الكلاسيكية . هكذا استعمل برخت موسيقى رافيل « بوليرو » في مسرحيته « انتيجونا » . وبعد برخت اتبع بعض المخرجين الذين عملوا معه او تأثروا به - روجيه بلونشون مثلا - خط سير يعمل لا على استبعاد مؤلفات الماضي ، وانما على استعادتها استعادة انتقادية تربط الحدث المسرحي بقراءة التاريخ . والمسرحيتان اللتان قدمتهما فرقة مسرح الشمس بادارة ا . منوشكين A. Mnouchkine تحت عنوان ١٧٨٩ و ١٨٩٣ افضل مثال لهذا الاتجاه . فهما مسرحيتان معاصرتان تعالجان احداثا تاريخية . وتقول ا . منوشكين انها ارادت باختيارها هذا ان تربط موضوعا

المراجع

- Begatyrev (P.) Les signes du théâtre, in Poétique, n° 8, 1971.
- Demarcy (R.) Eléments d'une sociologie du spectacle. Paris, Union Générale.
- Derrida (J.) L'écriture et la différence. Paris, Seuil, 1967.
- Ducrot (O.) et Todorov (T.) Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Paris, Seuil, 1972.
- Helbot (A.) Sémiologie de la représentation. Bruxelles, Editions Complexes, 1975.
- Honzl (J.) La mobilité du signe théâtral in Travail Théâtral, n° 4, 1971.
- Ingarden (R.) Les fonctions du langage au théâtre, in Poétique, n° 8, 1971.
- Kouzan (T.) Le signe au théâtre, in Diogene, n° 61, 1968.
- Mounin (G.) Introduction à la sémiologie, Paris, Ed. de Munit, 1970.

★ ★ ★

تكنولوجيا العصر والعالم العربي

مصطفى كمال محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل
السيول زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية
أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما
الزبد فيذهب جفأً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض
كذلك يضرب الله الأمثال .

صدق الله العظيم

(القرآن الكريم ، سورة الرعد ، الآية ١٧)

النهضة الأوروبية . فتكنولوجيا العصر لها
مدلولها الخاص في كل ما هو مستحدث
وجديد في مجال العلوم النظرية ، فالعلوم
النظرية تقوم بامدادنا بالمعرفة والفهم الاساسي
للحقائق . أما التكنولوجيا فتقوم بالاستفادة
بهذه المعرفة وتطبيقها في مجالات عديدة مثل
الصناعة والمواصلات وفنون استغلال البحار
والطب والالكترونيات وغيرها من ألوان المعرفة،
أي أنها تساعد في إنتاج وزيادة الثروة التي
تتمتع بها البشرية .

الحاجة أم الاختراع ، والرغبة في الشيء
تشعل الفكر لاتقانه والابداع فيه . فالعلم
والبحث العلمي وتكنولوجيا العصر ، والابداع
العلمي هي أكثر الكلمات والمواقف والأنشطة
ازدهارا في تاريخ العالم العربي . فقد عرفناها
منذ بنى قدماء المصريين أهراماتهم ، ومنذ
مارسوا نشاط الطب والكيمياء والفلك وغيرها
من العلوم . وكما عرفنا أيضا المنهج العلمي
السليم في الحضارة الإسلامية . وكانت أيضا
بحوث العرب في الكيمياء والفلك والطب ركيزة

بهدف تحديد وظائفه النفسية العليا مثل الذاكرة والتفكير والانتباه والادراك .

والقوة في نظر العلم الحديث ، وفيما يقرره من نتائج لتجارب مسلم بها ، لا يمكن أن توصف بالمادية بمعناها كما كان يقرره انصار المادة في القرن الثامن عشر ، وفي حقبة طويلة من القرن التاسع عشر ، حيث كانوا يجعلون القوة مجرد ظاهرة للكتلة المادية . الى ان جاء القرن العشرون ومعه من أساليب العلم والقوة من الانتصارات العلمية التكنولوجية الهامة . ان النمو العلمي التجريبي السريع قد أدى الى اكتشافات هامة تدل على أن الانسان العربي يقف الان على ابواب اكتشاف جديد ، مما يجعل في مقدورنا ليس التعمق في معرفة طبيعة العالم الذي يحيطنا فحسب ، بل سيمكننا ايضا من تطوير التكنيك وهندسة الطاقة وبحوث البترول والصناعة تطويرا ثوريا علميا تكنولوجيا وكذلك الحياة التي كان يرى انصار المادة أنها ايضا مجرد تفاعل أو ظاهرة للمادة ، مع ان الحياة كما نفهمها ، لا يمكن أن تنشأ الا عن مبدأ حي ، كما هو الراى اليوم على ما قرره صفوة من علماء الحياة وعلماء الجراثيم . كذلك « الفكر » الذي كانوا يرون أنه مجرد افراز لمعضو من الجسم هو المخ ، كما تفرز بقية الاعضاء سوائها ، مع ان الكون جميعه يسدو اليوم في نظر علماء الرياضيات ، كأنه مجرد معادلة رياضية عقلية .

فالعلم هو العلم للمجتمع ، وهو الذى ينظم اموره باعتبار ما هو « خير » اعتبارا معقولا ومن ثم يقوم العلم على مبدأ الاختصاص . وعلى العلماء والباحثين ان يعلموا كيف يميزون الحقائق وراء الصور ، وأن يخوضوا معمعة الحياة في منافسة مع المصانع ويصطدمون برجال الحيلة والدهاء . وفي ميدان هذا النزاع يتعلمون من كتاب الحياة المفتوح امامهم ، بعض مذهبهم الفلسفية العلمية ، وقد يؤذي الكفاح اصابعهم وقد تخرج حقائق للحياة ، ولكن الى

كما يمكن ان نأخذ قاعدة « ان ابرز انتصارات العلم » في أى دولة متقدمة تم خلال التعاون بين الفروع المختلفة للعلوم وبين العلماء الذين يعملون في الميادين المختلفة ، فبناء الاقمار الصناعية والقذائف الفضائية وغيرها من العلوم الحديثة هي وليدة التعاون المثمر لميادين العلوم والتكنولوجيا فاكشفاف ظاهرة النشاط الاشعاعى ، وانتاج الطاقة وغير ذلك من طفرات نووية هامة ، كانت المفتاح لمنشأ الطاقة الشمسية والبقع الشمسية والراديو والساعة البلورية . ونتيجة لبحوث هامة اشترك فيها علماء الفيزياء النووية والذرية - مثل تحطيم نواة الذرة ، ثم الى انشطار نواة اليورانيوم ، مع تحرير الطاقة الهائلة الداخلية للذرات ، فقد أدى تطبيق هذه الاعمال الى المفاعلات الذرية والنووية والى انتاج القنابل النووية التكتيكية . حقا كان أول تطبيق للقنبلة الذرية تطبيقا مدمرا ، ولكن تلتها تطبيقات عديدة هامة لخدمة الانسان والمجتمع . وكذلك منذ اكتشاف المعاملات الحرارية للمعادن وسبائكها بعد ان كانت تعامل كفن أصبحت الان تعامل كعلم وتكنولوجيا . فنتيجة للابحاث العلمية وتطويرها نشأت نظريات متناسقة للمعالجات الحرارية ادت الى ابتكار وتحسين جودة الانتاج لانواع جديدة من السبائك ذات خصائص وفوائد صناعية هامة وعلى أساس علمى صحيح . فنحن ننتظر الكثير من فروع المعرفة التي قامت وتقوم كحلقة اتصال بين العلوم المختلفة مثل الكيمياء الحيوية والفيزياء الحيوية والهندسة الحيوية والكيمياء الجغرافية وعلم السيبرنيטיكا والمعدات الحاسبة الالكترونية (علم المبادئ العامة للتحكم ووسائل التحكم واستخدامها في التكنيك في الاجسام الحية والمجتمع البشرى) وتبرز ميادين علمية جديدة بين الاقتصاديات والرياضيات واللغويات وما الى ذلك ، كما ان علوما أخرى تبرز كنتيجة للتفاعل بين علوم عديدة مثل الكيمياء الطبيعية الحيوية الاشعاعية وعلم النفس الهندسي (علم يدرس الخصائص النفسية للنشاط العملي للانسان

شديد وبمهارة فائقة تكنولوجيا العالم المتقدم لبناء المجتمع العربي عام ٢٠٠٠ * .

ويتناول هذا البحث عددا من المسائل المتصلة بتكنولوجيا العصر الحديث ان العالم اليوم يعيش عصر الثورة التكنولوجية الجريئة التي تتميز بتطور في السبرنتيكا والنظم الالية بما ادخلته من تغيير جذري على الانتاج والتكنولوجيا الاجتماعية . سوف نستعرض في بعض المجالات الهامة في التكنولوجيا والتي كانت سببا اوليا لتقدم شعوب العالم المتطور علميا وتكنولوجيا .

مجال الطاقة :

أكد الزمن تصميم الانسان على تدعيم وسائل البحث العلمي والتكنولوجيا وتطويرها في جميع مجالات الحياة . كما حاول علماء العصر الاستفادة من كل جديد في العلوم والتكنولوجيا وفهم مصدر الانصبابات الهائلة من الطاقة . وكان اول تفسير للطاقة يتعلق بطاقة الشمس منذ اكثر من اربعين عاما . والشمس عبارة عن كتلة ضخمة جدا او من الممكن ان تكون كمية هائلة من الطاقة تنطلق نتيجة للانكماش الحادث لتأثير قوى جاذبيتها ، فكان هذا التفسير غير مرغوب فيه وموضع رفض . وتلت بعد ذلك بحوث عديدة لتفسير طاقة الشمس ، وكان ذلك بداية اكتشاف ظاهرة النشاط الاشعاعي

ان يتعلموا ان يكسبوا خبرهم بعرق جبينهم ، هنا يقضون سنين عديدة وقد هزلهم السن والاختبار ، وخفض من كبريائهم النظرية خوض معمعة الحياة . فيمرون وقد تحلوا بالعلم والحكمة الناشئة عن القاليد والخبرة والتهديب والتأمل . هؤلاء العلماء هم علماء العصر الحديث . فنحن نحتاج الى طائفة تهتم بالتأمل والفهم واردة هؤلاء نور لا نار فيجب ان نفسح امام العلماء الناشئين ميدان المساواة في الحصول على العلم والامكانيات لاننا لانستطيع ان نقرر في أي سن يلمع مصباح العبقرية في نفوسهم وعقولهم .

كل ذلك يدعو الى المبادرة بانشاء الوكالة الوطنية للعالم العربي لرفع قيمة البحث في قطاع التعاون العربي وتؤمن مصالح الدول العربية منفردة ومجتمعة ومحققة للمصالح المشتركة للعالم العربي .

حقا ان بعض الدول العربية قد بدأت اهتماما بمبدأ ان الوطن العربي وحدة متكاملة في نطاق التكنولوجيا . فاقامت قدة مؤتمرات هادفة وهامة لتحقيق هذا الغرض ، ولاتاحة فرصة العرض والمناقشة والاستماع الى الاراء في مختلف ميادين العلم والتكنولوجيا . ولكن يجب علينا في الوقت نفسه ان نتابع بحرص

* وقد عقد عدد من المؤتمرات العلمية في العالم العربي لوضع الاسس العلمية وخطوات البحث لمواجهة متطلبات العصر :

- المؤتمر العلمي العربي في صيف ١٩٧١ بدمشق - الجمهورية العربية السورية .
- المؤتمر العربي الاول للثروة المعدنية في فبراير ١٩٧٢ - بغداد - الجمهورية العراقية .
- مؤتمر مصر الاول من الآن وحتى عام ٢٠٠٠ في ديسمبر سنة ١٩٧٤ - القاهرة ج. م. ع .
- مؤتمر التضامن الاسلامي في مجالات العلم والتكنولوجيا في مارس سنة ١٩٧٦ الرياض/ المملكة العربية السعودية .
- مؤتمر مصر الثاني لعام ٢٠٠٠ في ديسمبر ١٩٧٦ القاهرة - ج. م. ع .
- المؤتمر العربي الثالث استراتيجيات تنمية الثروة المعدنية في الدول العربية - في ابريل/ ١٩٧٧ - المغرب .
- المؤتمر الاول للبيولوجيين العرب في اكتوبر سنة ١٩٧٧ مدينة الاسكندرية/ مصر .
- مؤتمر الحديد والصلب للدول العربية في نوفمبر سنة ١٩٧٧ مدينة الرباط/ المغرب .

فافتترضت تفسيرات عديدة لكيفية انتاج الطاقة ففي عام سنة ١٩٣٠ كان لبحوث سير أرنست رانجرتون وغيره من العلماء أن الشمس كتلة ساخنة جدا من الغازات تبلغ حراراتها حوالي ٢٠ مليون درجة سنتجراد. وعند هذه الدرجة العالية من الحرارة لا تنفصل الجزئيات الى ذرات ولا تنفصل الالكترونات عن الذرات، وإنما تتصادم النوى الذرية نفسها أحيانا مما يؤدي الى طفرات نووية وكان هذا هو المفتاح الى سر منشأ طاقة الشمس ففي نطاق الابحاث الجارية الان ، وهي تتناول الطاقات الجديدة التي لا تنفذ ولا تلوث كما تسمح باستخدامها بشكل مستقل كامل . سعى العلماء الى الاستفادة منها ، واتباع الطرق الحديثة العلمية في موضوع انتاج الكهرباء بواسطة تحويل حرارة الشمس ، مع ملاحظة القوة والحركة ودراسة شاملة لانظمة الحرارة . كما حددوا المظاهر الناتجة عن مختلف وسائل تحويل الطاقة الشمسية وذلك باستخدام بطاريات خاصة تلتقط طاقة الضوء وتتناول هذه التطبيقات تمويل المحطات المستقلة بالكهرباء ، كما بدأت بالفعل تتطور في الاعمال الخاصة مثل ضخ المياه والاتصالات داخل البلدان المحرومة من الشبكات الكهربائية ، وبخاصة الريف ، وقد اهتمت الابحاث الجارية بالاستفادة بجميع التطبيقات الممكنة للاشعاعات الصادرة من الشمس (الاشعة دون الحمراء) واستخدامها في ميدان التدفئة المنزلية وتسخين المياه وهي تلخص في نظامين :-

١ - التدفئة الشمسية بشكل جزئي
بالاضافة الى التدفئة الكهربائية .

٢ - التدفئة الشمسية الكاملة .

وفي كلا الحالتين تؤمن الانظمة خمس وظائف لالتقاط الطاقة الشمسية :-

تخزين الحرارة - توزيع وتنظيم الحرارة - عزل المنازل ، وسيتحقق التقاط الطاقة الشمسية بواسطة معدات التقاط تستخدم في نظام مرور المياه ، وهذا يمثل فائدة عظيمة بسبب سهولة استخدامه .

وفي نظام التدفئة الشمسية بشكل جزئي ستتراوح مساحة التقاط الطاقة بين ٣٠ ، ٥٠ مترا مربعا . بالنسبة للتدفئة الشمسية التي تزود بمساحات التقاط للطاقة توازي ٤٥ مترا مربعا .

فمثلا نظم المركز الوطني للابحاث الفضائية والمركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا مؤتمرا دوليا حول الكهرباء الشمسية . سمحت الابحاث التي اذيعت في هذه المناسبة بتحديد المواضيع الهامة المتعلقة بانتاج الطاقة الكهربائية ابتداء من طاقة الشمس ، بواسطة بطارية تضييء عند اثارها وما يتعلق بالعلاقة بين الحرارة والطاقة الميكانيكية Thermodynamic كما تناولت المحركات الشمسية للبطارية التي تضييء عند اثارها ، تشمل بطاريات بالسيليسيوم أو كبريت الكاديوم ، بطاريات لمعدات الجمع والتركيز . انظمة لتوليد الطاقة . . . وسوف توجه الجهود في هذا الميدان نحو البحث وتطوير وصنع المعدات الاقتصادية واستخدامها في الاعمال الفضائية والبرية . وتناولت تقارير محركات توليد الطاقة الشمسية آلات الالتقاط ، والمرايا والغلايات والمبدلات وكذلك القضايا التي يثيرها التنظيم الحراري أو المظاهر الميكانيكية الحرارية .

مفاعل تجارى يولد الطاقة باستمرار :

تعتبر محركات توليد الطاقة باستمرار من الدراسات التي لها أهمية منذ عام ١٩٥٠ وبالنسبة للمفاعلات العاملة بالمياه الخفيفة

وخلال الاعوام الماضية ظهر أكثر من أربعمئة عالم بمراكز البحوث العلمية بأوروبا يعملون ويقومون بدراسات واسعة كاملة هادفة بناءً وذلك من أجل حل أزمة الطاقة مع الوقت

فعلى سبيل المثال هناك مشروع يتعلق بطريقة الانصهار المراقب Controlled Fusion يقدر العلماء بأنه من الممكن ان يمدنا هذا المشروع فى عام ٢٠٠٠ بطاقة ذرية ضخمة ومستمرة وذلك بدون أى خطر من الاشعاع ، كما ذكروا أيضا ان الهيدروجين فى هذه الحالة يمكن ان يحل مكان البترول ، كما يتحقق التفوق على الطاقة الشمسية .

المصانع الشمسية : -

ستقام هذه المصانع فى الاريزونا والمكسيك الجديدة ، وبامكانها ان تقدم ٢٥٠ ألف كيلو وات من الطاقة الرخيصة غير الملوثة وهي طاقة لا تنفذ... كما نظمت اللجنة الفرنسية للحرارة والكهرباء مؤتمرا فى ابريل سنة ١٩٧٥ حول موضوع مضخة الحرارة la Pompe à Chaleur فى الصناعة حيث يتعلق الامر بمنشآت يتجمع فيها التبريد بشكل كثيف . اما الحرارة الناتجة عن ذلك فتوزع للتدفئة... ومن بين البيانات الهامة التى لا بد من الاشارة اليها ما يلي... تذكير بمبادئ مضخة الحرارة ، أهميتها وامكانياتها وحدودها النظرية للعمل...

بعض الاستخدامات الصناعية :

تجفيف الخشب بحرارة منخفضة وذلك بواسطة نزع الرطوبة .

تجفيف المواد المصنوعة من الجص...

التدفئة الكهربائية للإنبسية الصناعية بواسطة مضخة الحرارة ووسائل أخرى ، توفير الطاقة فى الصناعة بواسطة مضخات الحرارة .

(light water) والمستخدمة تجاريا . فانها تمثل فائدة إضافية فى عدم احتراق اليورانيوم ولكنها تستخدم البلوتونيوم . ومن ناحية تهتم بصناعة البلوتونيوم بحكم انها تستهلكه . ونظرا لاهمية المفاعلات التجارية لتوليد الطاقة باستمرار اجريت دراسات تتعلق بهذا المفاعل (شركة كهرباء فرنسا مع شركة أمريكية) ويعمل بالنيوترونات السريعة (يحتاج انتاج الطاقة من اصل نووى الى صناعة أحواض كبيرة جدا ، وهي تعمل فى جو وضغط وحرارة مرتفعة ، كما تدعو الى استخدام صفائح سميكة جدا (بين ٥٠ ، ٣٠٠ مم) ولا بد ان يكون للصفائح اللازمة من اجل صناعة الاحواض ذات احجام كبيرة على قدر الامكان ، وذلك لتخفيض اعمال اللحام ، ويدعو ذلك الى صنع اعمال موحدة وثقيلة جدا ، وهي تتراوح بين ١٠ ، ٨٠ طنا) وقد بدأ التعامل فى هذا المصنع يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٧٢ ، كما اتصل بشبكة كهرباء فرنسا خلال شهر ديسمبر سنة ١٩٧٣ وتم اعداد مقارنة بين الامكانيات التجارية لانشاء مصنع ينتج الطاقة باستمرار (الطاقة الكهربائية) وبين المصانع النووية والكلاسيكية التى تعمل بالفعل الآن . كما تم استغلال مصنع لتوليد الطاقة باستمرار بواسطة النيوترونات السريعة على صعيد صناعي فى المفاعل فينكس (reatour phenix) التابع لمؤسسة الطاقة الذرية وقد اقيم فى ماركول بفرنسا . كما تم ايضا التعاون بين هذا المصنع وشبكة كهرباء فرنسا منذ شهر ديسمبر سنة ١٩٧٣ . وبعد أربعة آلاف ساعة من العمل بكامل قوته ، أنتج المصنع أكثر من مليار كيلو وات ساعة وبهذا الشأن أمكن تحقيق هدفين : -

١ - انشاء شركة لتحقيق المفاعلات النووية بحرارة قوية .

٢ - انشاء شركة لدراسة وتحقيق المحروقات الذرية .

أيام الشمس : -

في شهر ابريل / ١٩٧٧ نظمت أيام الشمس في مدينة نيس برعاية مندوبية الطاقات الجديدة ، كما اشتملت هذه الايام على ما يلي : -

- معرض دائم للمعدات الشمسية .

- معلومات تتناول هذه المعدات والمنظمات العامة والخاصة التي تشجع تطور هذه الطاقة الجديدة .

- مسكن شمس ونظام التدفئة والتكييف الشمسي .

- كهرباء من أصل شمسي - بطارية تعمل بواسطة النور

- مصنع شمسي يعمل بواسطة التجمع .

- منظمات البناء وتجميل المدن .

استخدام الكهرباء لاندفاع السيارات : -

منذ سنوات قريبة وذلك بعد الدراسات والابحاث التي حققتها شركة الكهرباء الفرنسية وخاصة حول استخدام الكهرباء لاندفاع السيارات . زادت هذه الابحاث اخيرا برعاية وزارة-نوعية الحياة *Ministere de La qualité de la Vie* وذلك في نطاق الدراسات المتعلقة بتخفيف الاضرار وتوفير الطاقة . فاعدت لذلك سيارتان من نوع « ايستافيث الكهربائية » احدهما لنقل الاشخاص والاخرى لنقل البضائع ، وتمون هذه السيارات بواسطة بطاريات من الرصاص التي يمكن تعبئتها من جديد خلال ٨ ساعات او تبديلها خلال ثلاث دقائق . وهي تسير بشكل مستقل مسافة ٥٠ كيلو مترا بسرعة متوسطة تبلغ ٦٠ كيلو مترا في الساعة . وتعتبر تكاليف هذه السيارات

اقل من تكاليف السيارات المماثلة التي تستخدم المحركات الحرارية .

اول تحقيق للتدفئة النووية : -

تم اول تحقيق للتدفئة النووية في فرنسا في عام ١٩٧٥ وكانت نواة التعاون بين قسم المفاعل الذري وقسم النقل الحراري . والمنشأة تتكون اساسا من مضختين

Pompes à chaleurs

الذين ينقلان جزءا من حرارة دوائر التبريد الثانوية للمفاعل الى دوائر التدفئة للمباني التي لم يطرا عليها اى تعديل ، بعد مرور الماء الموجود في الدوائر الثانوية في المحولات ولاستخلاص ٣٥ مليون وات منتجة بواسطة المفاعل الذري ، تخرج المياه بحرارة ٣٠ درجة سنتجراد (حوالى ٥٠ مترا مكعبا في الساعة) تتجه نحو مضخات الحرارة حيث درجة حرارتها تنخفض الى ٢٧ درجة مئوية تقريبا . عندئذ توجه هذه الحرارة الى الدوائر المائية المستقلة للتدفئة بحيث ترتفع الحرارة بطريقة تسمح برفع درجة الحرارة لما بين ٣٥ الى ٤٠ درجة سنتجراد وذلك حسب الحاجة . خلال التوقف الشهري للمفاعل ، تلتقط مضخات الحرارة ما يلزم من حرارة المياه المخزونة ٥٠٠٠ متر مكعب في مستودع تهبط الحرارة فيه من ١٥ حتى ١٣ درجة مئوية . اما بالنسبة للحرارة الخارجية الاكثر انخفاضا والملاحظة وتبلغ الصفر تقريبا فيحصل على حرارة متوسط للمياه من دوائر التسخين وهي تبلغ ٣٧ درجة مئوية وكافية لمحافظة المباني على حرارة تزيد عن ٢١ درجة مئوية وهكذا نأمل من تحقيق وتوفير نفقات تدفئة المباني ، بعد ان كانت هذه التدفئة تجرى بواسطة غلايات المازوت . واذا تبين مع الوقت ان هذه التجربة ستكون مرضية فسيكون بالامكان تدفئة ابنية اخرى ، لان استعادة الطاقة لا تمثل غير قسم ضعيف من الطاقة التي ينتجها المفاعل .

● ● ●

— مبادئ عامة لصنع الافران وعملها وتنظيمها: مواد مقاومة للحرارة وهي تستخدم لصنع الافران ، مبادئ صنع الافران وتأثيرات مختلف الظروف والمواد على المواد التي يجري تسخينها ، آلات اشتعال — غرف الاحتراق ، أعمال الافران الحرارية .

— دراسة أهمية استخدام الطاقة الشمسية في كل بلد عربي وفقا للظروف المناخية والاجتماعية والاقتصادية : لخاصة لهذا البلد .

— استخدام الطاقة الشمسية عند اعداد احدى الهيئات الجديدة في المدن أو الارياف ، وكذلك لاعداد مصنع ينتج ملايين الواتات الكهربائية التي يمكن ان تحل مكان المصانع التي تستخدم الزيت .

— تطبيق العلاقة بين المظاهر الميكانيكية والحرارية في بطاريات الهيدروجين



الصناعات المعدنية والنوعية : —

ادت التحولات الاجتماعية والاقتصادية الجارية في العالم العربي الى تغير وجه الحياة في الامة العربية كلها وجاء عبور ٦ اكتوبر المظفر ليزيل فكرة حتمية الهزيمة كما اعداد للشعب وللعماء أسباب الثقة بالنفس والاصول والجدور الحضارية الاصلية ، ويعيش العالم والبشرية اليوم عصر الثورة العلمية الصناعية التي تحيط بالمجتمع المتطور علميا ، والتي لا بد ان تصبح هدفا يستقطب اصحاب الخبرة من الداخل والخارج ، عربا واجانب ، في تلك المجالات مما يجعل من بحث تلك المشاكل اثره البعيد في تطوير واستغلال الصناعات المعدنية سواء كانت حديدية أو غير حديدية — صناعة الاسمنت — معدات البناء ، الصناعات الميكانيكية . . . كشفًا واستخراجًا وتصنيعًا لرفاهية الانسان العربي

اما فيما يتعلق بالتجهيزات القائمة في ميدان الطاقة والعالم العربي سنة ٢٠٠٠ فهناك نقاط عديدة هامة يجب ان توضع في الاعتبار : —

— دراسات واسعة تشمل القضايا الحرارية مثل : —

مظاهر حرارية لمشاكل الطاقة .

انفعالات الانحلال الكيميائي بواسطة الحرارة وتطبيق الاستعمال في الدراسات الكيميائية .

— تحقيق واختبار اشكال التحويل للحركة الحرارية التي تستخدم مختلف مركبات جمع الاشعة والنقل الحراري والتخزين والآلات حرارية .

— استخدام هذه الاشكال في وحدات الاستهلاك والكهرباء والتدفئة والتبريد وتكييف المناخ والضخ وري الاراضي الخ

— اعداد مصنع ينتج ملايين الواتات الكهربائية التي يمكن ان تحل مكان المصانع التي تستخدم الزيت .

— تحديد العوامل الآلية للتفاعل بواسطة الحرارة ، وبحث ودراسة وتحليل الحرارة وتوالدها .

— التجفيف بواسطة الموجات الدقيقة .

— تذكير عام وبسيط مختلف مواد الاشتعال (انفعالات كيميائية — قانون الاحتراق — رسم أوسو الدالياني diagramme d'Oswald

— نقل الحرارة : مختلف اشكال انتقال الحرارة والطاقة الحرارية .

— اعداد مثيرفين على حرارة الافران .

"Matériaux composites a base des alliages eutectiques obtenus par Solidification Unidirectionnelle"

ويتكون من بينها عدد من هذه السبائك بواسطة ترابط أو تزامن من مختلف الاطوار تمنح في مجموعها مميزات خاصة . في المواد المركبة المسلحة بالالياف المعدنية او الالياف الالامعدنية بمعنى ان المادة المركبة matériaux composites تتكون بالفعل من المعدن الاساسي Matrix المطلوب تسليحه بهذه الالياف ذات المقاومة الميكانيكية العالية فنجد ان الدور الاساسي لهذه الالياف ذات المقاومة العالية قدرتها الكبيرة على تحمل الاجهادات الميكانيكية بصورة واضحة ومتكاملة . كما انه في الوقت نفسه تعتبر الوظيفة الاساسية للمعدن الاساسي توزيع الاجهادات بصورة منتظمة بين الالياف المختلفة وللتأكد من حمايتها من أى تشويه ، كما نجد أن تلائم المعدن الاساسي والالياف التي تتمتع ببعض الخواص المميزة بها مشاكل تكنولوجية لا بد ان توضع في الاعتبار وهي اختيار المواد وتلائمها . كما تعين طبيعة الالياف اساسيا بواسطة خصائصها الميكانيكية وخمولها الكيميائي . كما ان اختيار المعدن الاساسي يعتمد على بعض الصفات من أهمها : -

- يجب ان يعمل على حماية الالياف من الوسط الخارجى ليمنحه قدرة مقاومة الصدمة في مجموعها .

- يجب عليه تحويل القوى المؤثرة عليه (على المعدن الاساسي) الى الياف التسليح مما لها قدرة فائقة على تحمل الاجهادات وذات قوة ميكانيكية عالية وذلك للتقليل من تأثير تعاريج الالياف التي تؤدي الى كسرها قبل الوقت المحدد لها .

حيث تلعب المعادن الحديدية وغير الحديدية دورا كبيرا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الدولية ، لما لها من دور ايجابي في توليد الطاقة وفي الصناعات الثقيلة والصناعات الميكانيكية والكهربائية والصناعات الكيميائية والاسمدة والطباعة ، وفي الانشاء والتعمير

فالتنمية الصناعة المعدنية وابحاث الطيران الفضائي ، والتجهيزات الجوية ، والصناعات الحربية للعالم العربي سنة ٢٠٠٠ تتطلب وجود مواد جديدة لها خواص فيزيائية وكيميائية وميكانيكية مع جودة تكنولوجية عالية . كما يجب ان تتميز بعدة صفات منها خاصية فوق اللدونة Superplasticity والكثافة المنخفضة والمقاومة العالية للكسر High Mechanical Resistance وخاصيته فوق التوصيل Supraconducteur مع الاحتفاظ بخصائصها عند درجات الحرارة المرتفعة .

على هذا الاساس ، فتح باب جديد من العلم والتكنولوجيا منذ سنين قليلة في الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفيتي وغيرها من الدول لانماء الالياف المعدنية وغير المعدنية التي لها قوة ميكانيكية عالية . وتكنولوجيا المواد ذات اللدونة العالية (Superplasticite) والنوع الليفي الشكل (Whiskers) المقصود به الخيوط الاحادية البلورة فانها تتمتع بمميزات تكنولوجية عالية عن حالتها الصلبة .

ومن الجدير بالذكر ان هذا النوع من المواد (Composite Materials) هو ميلاد جديد لتكنولوجيا المواد المركبة المسلحة بالالياف المدنية او الالامعدنية المحتوية على الياف قصيرة او الياف طويلة مصفوفة بطريقة منتظمة تعطى اغلبيه السبائك المعدنية الاجابة والتعريف الكامل لهذه المواد المركبة .

* Technologie des matériaux superplastiques, B. Baudalet Memoires Scientifiques Revue Metallurgie Fevrier 1975

التسليح للمعدن الاساسى وهو فى حالته المنصهرة ، ثم بعد ذلك تتم عملية تسليح المونة (الاسمنت) بحديد التسليح فى بناء المنشآت .

كما تم بالفعل تسليح الالمنيوم المنصهر بأسلاك من الصلب ذات أقطار مختلفة ، وبالفعل نجحت التجربة ولكنها ما زالت عمليات تطبيقها موضع الاعداد والدراسة .

الطريقة الثانية : -

وهى الطريقة المباشرة ، بمعنى ان نقوم بتحضير المركب بما فيه المادة المراد تنميتها على هيئة الياف طويلة منتظمة ثم نضعها فى الفرن المراقب Controle Furnace والخاص لذلك ويسمى بالفرن المراقب للتجمد فى اتجاه واحد فتتم عملية صهر المركب مرة اخرى داخل الفرن ، ويتبع ذلك تجمد المركب فى اتجاه واحد لتساعد على انماء الالياف بطريقة منتظمة ومتوازنة فى اتجاه واحد من المعدن الاساسى .

بالطبع لاجراء مثل هذه العملية يجب ان تؤخذ الاحتياطات اللازمة سواء من معدل سرعة الفرن او الميل الحرارى وعوامل اخرى تتطلب مراعاتها بدقة كاملة . وهذا ما تم بالفعل عمله واجراؤه اثناء دراستى بفرنسا للحصول على درجة دكتوراه الدولة فى العلوم الفيزيائية .

وتم هذا تحت اشراف الاستاذ الدكتور روجيه جوتى R. Jouty بجامعة العلوم والتكنولوجيا - بمدينة موبيليه - فرنسا . حيث تعرض البحث لمشكلة هامة وهى صناعة السبائك الموجهة والمحضرة بطريقة التجمد المراقب ذات الاتجاه الواحد والليفية الشكل .

لقد قامت بحوث عديدة نظرية وتجريبية خصصت لدراسة الخواص الميكانيكية والكهربائية والفيزيائية عامة لهذه المواد المركبة ذات التركيب الاصهرى والتي عولجت بطريقة التجمد المراقب فى الاتجاه الواحد .

matériaux composites a base des alliages eutectiques , obtenus par Solidification Unidirectionnelle

وكانت هذه الابحاث تتعلق بوجه خاص بدراسة المميزات الميكانيكية الفيزيائية ومالها من اهميتها الصناعية . فاجريت اختبارات الشديدة ليجرى تحديد المتانة والقدرة على المقاومة ضد الكسر فى اتجاه الالياف المصنوفة بطريقة منتظمة ، كما انها مرتبطة بالعوامل الميكانيكية الاساسية الملحوظة لكل طور .

كما اجريت دراسات نظرية وتجريبية لنفس النوع من السبائك الاصهرية eutectic alloys متكون من معدن عادى ومعدن آخر له خاصية فوق الموصل Supra Conducteur فأوضحت النتائج ان هذا النوع من السبائك اذا عولجت بطريقة التجمد المراقب فى الاتجاه الواحد فانها تعطى سبيكة لها خاصية فوق الموصل Supra Conducteur

اما بالنسبة لتحضير المواد المركبة ذات التركيب الانصهارى توجد هناك طريقتان شائعتان : -

الطريقة الاولى : - وهى الطريقة غير المباشرة

Methode Indirect بمعنى انها

تتطلب اولاً تحضير هذه الالياف المعدنية او اللامعدنية Whiskers ثم تتم عملية

1. Mustafa Kamal, Preparation, Conditions D'obtention et Propriétés mécaniques d'alliages eutectiques a solidification dirigée. These de Docteur es Sciences Physiques Université des Sciences et Techniques du Languedoc Montpellier - FRANCE. 1974. No. A.O. 9902

فتمت دراسة سببها دولية لها مدلولها العلمى والتكنولوجى فى المجالات الصناعية المختلفة ومنتشرة فى جميع أنحاء العالم وهى السياميين كما تم تحضيرها بطريقة اقتصادية فى نطاق الدراسات المتعلقة بتخفيف الاضرار وتوفير الطاقة .
Economics d'energie

صناعة الحديد كفن : Le Ferronnier d'art

إذا كان أجدادنا قد عرفوا صهر الحديد قبلنا بشكل جيد . فقد بدأ استخدام هذه المادة فى القرن السابع عشر وذلك لصنع حواجز الشرفات . كما امتاز القرن الثامن عشر بازدهار هام لهذا الفن . فمثلا فى الماضى كان يجرى اعداد الحديد بشكل صفائح أو قطع داخل مصنع الحداد . أما اليوم فيجرى اعداده فى المصانع الكبرى للفولاذ . ومن أجل جمع مختلف القطع التى تمثل فى أكثر الحالات مجموع عمل ، يلحم صانع الحديد فى مصنعه ، أو يصنع المسامير عندما يتعلق الأمر بأشكال قديمة . يستخدم اللحام بواسطة الانصهار كما يستخدم اللحام الكهربائى فى الأعمال الحديثة فقط . وبذلك يعتبر أيضا عملية تحويل المعادن وخاصة الحديد والفولاذ من أقدم أعمال الإنسان ، وقد تطور قبل العهد الصناعى فى حرف تعنى بالصب على شكل صغير أى فى إطار ضيق . فى ذلك الحين، كانت مهن الحدادة والسباكة تجيب الحاجات اليومية الاولى ، وهى تناول النقل والادوات الزراعية والاسلحة . . . الخ ، مع تطور السكك الحديدية وحجم البواخر أحدث العهد الصناعى تطورا هاما فى وسائل التحويل ، سواء كان الأمر يتعلق بالقوة أو بالاتساع . كما تحتل أسواق الحدادة والصب والختم مكانا هاما فى العالم الصناعى Technique de l'estampage du Coulage et de la Forge وهى تستخدم بين ٢٥ ، ٣٠ ٪ من الفولاذ الذى يجرى انتاجه فى العالم لتجهيز قطاعات الصناعة البحرية والطيران والتجهيزات بالمنتجات التى توازى وظائف محددة .

فالواقع أن الصناعة الفولاذية يجب أن تملك المعدات التى تستطيع تحقيق ما يلى : -

- تنظيم واعداد الفولاذ الخاص وهو المعروف باسم « الفولاذ النووى »

- طرق قطع الاحجام الكبيرة (الواقع ان الطرق وحده هو الذى يستطيع أن يعطى الفولاذ المميزات الميكانيكية اللازمة لاستخدامه القاسى فى ظروف صعبة) .

- تنويع الانتاج بحيث يقدم للصناعة النووية مجموع المركبات المطروقة اللازمة لصناعة آلات التوليد الواقعة فى أسفل المفاعل ومولد البخار .

- ضمان مراقبة فعالة للمعطيات والجودة .



فى أواخر عام (١٩٧٧) نظم فى باريس مؤتمر عنوانه الفولاذ الخاص والطاقة النووية . Colloque Sur les aciers Spéciaux et l'énergie Nucléaire

أبرز هذا المؤتمر جهد الابحاث التقنية والاعداد التكنولوجي خلال المراحل المتعاقبة لتسليم الفولاذ الخاص الى الطاقة النووية :

- تحديد المقاييس الجديدة لمقاومة التآكل والمقاومة الميكانيكية فى الظروف النووية الخاصة (٣٠٠ درجة سنتجرات للدوائر الاولى فى المفاعلات التى تنتج من الطاقة وبين ٥٠٠ ، ٦٠٠ درجة سنتجرات للدوائر الاولى فى المفاعلات التى تنتج من الطاقة أكثر مما تستهلك) .

- ضرورة اختبار قدرة المواد الجديدة فى ظروف قريبة للواقع على قدر الامكان .

- تنظيم وسائل جديدة للاعداد والمراقبة ، وهى تسمح بتأمين « النظافة

والصفائح أساسية ، وخاصة فيما يتعلق بغياب الأخطاء والطهارة الكيميائية للسطح مع مميزات الاستخدام كما هو الحال في عملية اللحام .

نتيجة لخطر الانفعالات الحادثة بين الصوديوم والماء وتأثيرات ذلك على عمل المنشآت ، تعتبر مولدات البخار في المفاعلات العاملة بالنيوترونات السريعة والمبردة بالصوديوم كجزء من المنشآت التى يعتبر أعدادها وتحقيقها دقيقا بشكل خاص .

قضايا « السلامة النووية » ونتائجها على المواد

حددت « السلامة النووية » كمجموعة أعمال مقررّة لتأمين حماية الأشخاص والمعدات من الأخطار والأضرار أو الانزعاج من أى شيء ناتج عن الإبداع والعمل وتوقف المنشآت النووية الجأمة أو المتحركة ، وكذلك من أخطار الحفظ والنقل والاستخدام وتحويل المواد المشعة من طبيعية أو اصطناعية .

تشمل السلامة النووية أولا سلامة المنشآت الخاصة ، أى مجموعة التدابير اللازمة لتأمين عمل عادى واستدراك الحوادث وتحديد تأثيراتها . كما يبدو دور المواد المستعملة في مختلف الحواجز والمقاومة لها دور أساسى وهي الموجودة على التوالي بين مصدر الإشعاع الأشخاص (أحزام المحروقات النووية ، غطاء دائرة السوائل الناقلة للحرارة ، الغلافات الخارجية المتأخمة) . تقدر مطابقة المواد (سواء أكانت معدنية أم غير معدنية ، ومركبة من عناصر مختلفة أو منسجمة) ، تقدر تبعا للضعف الممكن الذى يجب أن يدرس بمختلف أشكاله في نطاق الأعمال النظرية والتجريبية ، وكذلك تبعا للخبرة الحاصلة .

تشمل السلامة النووية كذلك حماية العاملين ، وخاصة من تأثيرات الإشعاعات وهنا

النووية « التى تعتبر أحد أهم مميزات درجة المتانة في وقت استخدام المواد .

— وضع معدات جديدة في المصانع .

— إنشاء أشكال لتنظيم الجودة ، وهي تضمن درجة متانة القطع الهامة في مفاعلات نووى .

تأثير المظاهر النووية المحددة على اختبار المواد المعدنية : —

يعتبر إشعاع النيوترونات القوية في أصل التأثيرات الهامة التى لابد من مراعاتها في مميزات استخدام المعادن وسبائكها ، وهي التى تدخل في صناعة قلب المفاعل النووى . عندما تكون الحرارة منخفضة ، تفت الأنظار خاصة تأثيرات الإشعاع على المميزات الميكانيكية ومتانة الفولاذ المستخدم في نطاق الضغط . وحرارة متوسطة ، وذلك في اتجاه الحرارة المطلقة للانصهار ، تعتبر مظاهر تبدلات الإشعاع والانحناخ وتبدل الأشكال التى تسفر عن الإشعاع أهم النتائج التكنولوجية . وأخيرا نجد عند حراره مرتفعة يبدو أن مظاهر أخرى تساهم في إنتاج الغاز النادر بواسطة الانفعال النووى ، يبدو أنها تميل الى تخفيض تمدد تبدل الفولاذ ومزيج النيكل .

مميزات استخدام الفولاذ النحاس للمفاعلات العاملة بالمياه المضغوطة بشكل عادى : —

دعا تطور المصانع النووية والعاملة بالمياه المضغوطة بشكل عادى الى اختيار مواد مطابقة للأحواض أو لمعدات تبدل الحرارة والمضخات . أما أهم المواضيع التى تحتاج الى حل فتتناول من ناحية : سرعة العطب تبعا للوقت ، ومن ناحية أخرى ، مختلف أشكال التآكل . كما تعتبر جودة الانابيب

خلال عملية واحدة لفولاذ البناء (L'acier de Construction) مع سماكة تتراوح بين ٥٠ ، ٢٠٠ ملمتر وذلك بواسطة الشعاع الالكتروني كما سيسمح بجمع قطع تزيد سماكتها عن مائة ملمتر ، خلال عملية واحدة وبدون تشويه التركيب البنائي الداخلي للقطع . فأصبحت طريقة اللحام بواسطة الشعاع الالكتروني تسمح الآن بصنع محركات تبلغ قوتها ٢٠٠٠ مليون وات . فان الآلات الدوارة تفتح ابوابا هامة لصنع المستودعات الكبيرة وجمع الاشكال الاسطوانية وكذلك في الصناعة البحرية .

فنون صب البرونز : La fonte du bronze

تهدف جميع فنون صب البرونز للحصول على صبه ناعمة ذات جودة سطحية عالية ، فيستخدم لهذا الغرض وسيلتان لتحسين صب البرونز في الصناعة احدهما مع الشمع المنصهر والاخرى مع الرمل . اما فيما يتعلق بطريقة الصب مع الشمع المنصهر ، فيحقق المصنع قالباً فوق التمثال الاصلي ، وهو من الجص او الهلامى ثم يدهن داخله بطبقة خفيفة من الشمع وتغطى بالصمغ الذى يعطى سماكة البرونز وبالتالي نحصل على تمثال مقعر من الشمع نملؤه عندئذ بمادة حرارية تقاوم النار ، ويمثل ذلك بداية العمل أى نواة العمل ، ثم بعد ذلك يعد المصنع قنوات من الشمع او الراتنج الذى يستخدم لصب البرونز تحت هواء مفرغ . يغطى الكل بمادة حرارية ذات مقاومة عالية للنار ، بعد الانتهاء من عمل القالب يوضع داخل الفرن حيث ان حرارة الفرن تساعد على صهر الشمع . يسحب القالب الساخن ويصب البرونز المنصهر داخل القنوات التى أصبحت فارغة ليمد جلاء الشمع . ثم يترك البرونز للتبريد . وبعد تبريد البرونز ، ينكس الغطاء الحرارى وبالتالي يحصل على تمثال خام من الصب . وبعد ذلك تجرى الاعمال النهائية من النقش والاكسدة .

ايضا تقوم المواد بدور هام مباشر (شاشات الحماية) او غير مباشرة (اعمال العناية والتصليح في منطقة العمل ، تأليف المواد المشعة المتأكلة) واخيرا تشمل السلامة النووية حماية الجمهور من تأثيرات الحوادث الممكنة ، وكذلك من انبعاث الاشعاع الصادر من المصنع العامل بشكل معتاد . وهنا نصادف قضايا استخدام المواد المحكمة ، وهى مجاورة للسابقة . والى هذا المظهر الاخير يمكن اضافة « المتاخمة » للنفايات المشعة التى تفرض وجود حواجز طبيعية او اصطناعية من فعالة ودائمة بشكل هام .

اهمية اللحام بواسطة الشعاع الالكتروني في الصناعات الثقيلة :

Le Soudage au faisceau d'électrons dans l'industrie lourde.

احدى المصاعب الاساسية الهامة في صناعة فولاذ البناء ، تكمن في الحصول على الاتصالات مرضية بين العناصر المختلفة ، وذلك بسبب ضعف التركيب البنائي لمنطقة اللحام عند تبريدها وهى في الحالة المنصهرة .

فاتجهت الدراسات العلمية التكنولوجية نحو البحث ودراسة هذه النقطة الهامة وبوسائل اقتصادية وذلك للقضاء على هذه المشكلة . وهكذا امكن استخدام وسيلة تكنولوجية وبواسطة الشعاع الالكتروني بمعنى ان يتم اللحام بواسطة شعاع الكترونى ، soudage au faisceau d'électrons

حيث انه يسمح بالحصول على تجانس جيد للتركيب البنائي وذلك بعد استخدام المعالجات الحرارية ، وهذا بفضل القوة المستخدمة والتي لها مقدرة على توليد معدل تسخين وتبريد عال

ونتيجة لذلك قامت عدة تجارب عديدة لتحقيق هذه النتيجة في الصناعة فامكن بالفعل اتمام عملية اللحام بواسطة الشعاع الالكتروني

فن صناعة الخزف : l'art de la Poterie

تعتبر الاشياء المصنوعة من الفخار من انتاج عمال فى القرى والمدن ، وهى تدل على مدى استاهام مبدعيها وعلى تنوع المناطق . وهناك نوعان من الفخار :

الجاف والمطلى la mate et la Vernissée

وبعكس الفخار الجاف يغطى الفخار المطلى وبالإمكان وضعه فى النار . ان اعداد وتركيب معجون الفخار وطبخه يعتبر من الاعمال الدقيقة بالنسبة لصانع الفخار. يجرى اعداد المعجون بواسطة الخزف النقى l'argile purifiée والمزوج بالرمل ومع زيادة قساوة المعجون ومقاومته للنار ، تزيد قساوة الأنية الفخارية التى تصبح كاملة .

يجرى صنع الاواني والقطع المدورة فوق مخرطة صانع الفخار . ولا بد لعجينة الخزف من الدوران بسرعة كبيرة كي تتمكن أصابع صانع الفخار من رفع المعجون الذى يتخذ اشكالا شيئا فشيئا . اما الاجزاء الأخرى للقطعة (الزينة والاذن واليد) فتكيف وتضاف بعد ذلك مع قليل من المعجون . وتجري عملية التجفيف le Séchage على مراحل عديدة . وعندما يصبح المعجون قاسيا يكون بالإمكان اضافة الزينة بواسطة الطبع او الرسم وجعله غير قابل للتسرب (بواسطة طلاء او مينا او صمغ) وطبخه فى فرن بحرارة مرتفعة .

وفى الوقت الحاضر يبدل التعليم جهده فى القطاع العام داخل صفوف التعليم المهني التكنولوجي . فمثلا منذ سنوات قليلة يشهد فى اوروبا ، وبخاصة فى فرنسا ، تطور هام فى دورات تعليم المهن الفنية . فنجد مثلا هناك رفاق الحرفة le Compagnonnage يرتبط اسم « الرفيق » Compagnon بكبار صانعي اشهر المبانى فى فرنسا . فان صورة رفيق دورة فرنسا يتنقل من عمل لآخر ويساهم فى بناء

وبالنسبة لطريقة الصب مع الرمل فهي تشبه تقريبا طريقة الصب مع الشمع المنصهر حيث يوضع قالب من الرمل وتحفر قنوات للسماح بوصول البرونز تحت هواء مفرغ ، وهذه القوالب البرونزية تتخذ اشكالا مشابهة للاصل وتبدو محافظة على شكل المادة الاصلية .

فنون الزجاج : L'ART DU VERRE

البللور والزجاج المرسوم Cristal et Vitrail

يعتبر اعداد الزجاج والبللور فنا وعلم ، يميز كلا من العمل التكنولوجي والتنظيم بين صناعة البللور والزجاج .

والواقع ان البللور يمتاز بكثافة وتقوة ووضوح وصوت يتميز به ، يعود ذلك الى ما يحتويه من اكسيد الرصاص . فرغما من تحقيق عدد من مراحل الانتاج بشكل ميكانيكي (النفخ Soufflage والتمديد etirage واعادة التخمير recuisson) وكذلك عدد من الوسائل الجديدة التى سمحت باتمام نوع من التقدم فى الصناعة ، لاتزال الوسائل العامة من اعمال المهن اليدوية ، وهى تختلف قليلا عما كان يجرى منذ ألف عام . وهكذا يستمر استخدام عملية الصهر فى البوتقة والنفخ . وفيما يتعلق بوسائل صناعة الزجاج المرسوم نلاحظ عودة واضحة لاستخدام الزجاج والرصاص

l'elaboration en creuset et du Soufflage وتصنيع البلاط الزجاجي المصبوب والغارقة فى الاسمنت او الراتنج . كما برهنت الجهود المبذولة والابحاث العلمية عن ان الزجاج المرسوم Vitrail يتخذ مكانا تزداد اهميته فى شكل الزينة ، كما لاتوجد مادة غيره لابتداع جو هادى ونطاق جديد فى الحياة . فمن اجل المحافظة على هذا الفن سواء فن صب البرونز او فن الزجاج فمن الضرورى اعداد المحترفين اللائقين بصفة مستمرة ويتحقق ذلك بواسطة انتشار التعليم والتدريب داخل المصانع .

أصحاب الحرف والمبدعين ، وتعمل على تحقيق انتاج جيد من الناحيتين التكنولوجية والفنية . ويتم هذا بتطوير الاعمال اليدوية في التعليم الابتدائي والاعدادي والثانوي مع اجراء امتحان تكنولوجي للحصول على شهادة اللياقة المهنية في مهن الفن .

كما ان هذا القطاع يمثل دورا كبيرا في الانماء الاقتصادي والتجاري للعالم العربي .

رفع قيمة النفايات الصناعية :

حيث ان موضوع رفع قيمة النفايات الصناعية يتخذ مظاهر عديدة والى تحديد البحث حول اربعة مواد لها قيمة مثالية :

والمعادن الحديدية ، والمعادن غير الحديدية ، والزجاج ، والورق

ومع كيفية تطور وسائل رفع قيمة هذه المواد يجب ايضا ، تنظيم دورات دراسية لمعالجة مواضيع الجوار الصناعي ، تتناول معطيات عامة نحو تلويث الهواء بواسطة وسائل من اصل صناعي ، ومكافحة التلوث الجوي ، دراسات تفصيلية للعمليات الفيزيائية والكيميائية نحو معالجة نفايات المياه الصناعية ، دراسة الوسائل الاساسية لمكافحة الضجة في الجوار الصناعي *l'environnement industriel* .

التجهيزات الكهربائية: l'équipement électrique

تحديد مدى واهمية هذا القطاع في الميادين التالية مع تقدير حيوية هذا القطاع الصناعي :

المنشآت ذات الاهمية البالغة فانه رمز لماض مجيد . وفي عالم يتطور باستمرار فنظم الرفاق اعمالهم تلبية لحاجات القرن العشرين تجد ان رفاق المهنة حاضرين في اكثر مراكز العمل الهامة وفي أحدث المصانع ، حيث يستخدمون مهارتهم المهنية بشكل كامل . هناك ثلاث جمعيات لرفاق الحرف ، واهمها جمعية عمال رفاق الواجب واتحاد جمعيات رفاق الحرف لمهن البناء . وهذه اهم المهن التي يجرى تعليمها من جانب جمعيات رفاق الحرف هياكل البناء Charpentier - التسقيف

Couvreur البناء Maçon النجارة Menuisier التجهيـص Platrier الترصيـص Plombier القفال Serrurier قاطع الاحجار Tailleur de Pierre مياكل السيارات Carrossier automobole ميكانيكي أدوات (outillage) Mecanicien صانع الحديد الفني Ferronnier صانع القطع المعدنية والمحدبة Chaudronnier اسكافى Cordonnier سراج Sellier فراش Tapissier خباز Boulanger صانع الحلويات Patissier

وفي الغالب ينظم أصحاب الحرف دورات دراسية مع رقابة السلطات العامة بشكل يناسب دواعي العالم الحديث . وبذلك يفتحون مصانعهم أمام الكبار والفتيان الراغبين في تعلم فنونهم ، كما يقدمون اليهم معرفة واسعة وعميقة لمهنهم بدون أى حرص على الاختصاص ان ذلك يضمن مستقبلهم ومطابقة اعمالهم التي تتناسب بشكل متواصل مع تطور الفنون . فتمثل هذه الدورات فائدة كبرى باحداثها جوا فنيا مناسباً وادراك المصاعب الخاصة لكل مهنة .

فيجب ان نأخذ في الاعتبار ومع حرص شديد انشاء دور للمهن الفنية العربية تضم

من مدة وجيزة بدأ التركيز على المواد التى تتمتع بخاصية فوق اللدونة Supreplastique مما لها أهمية حيوية صناعية فى تشكيل المعادن . حيث ان لهذه المواد خصائص مميزة بها فمثلا لها مقدرة على الاستطالة حيث تصل الى ألفين فى المائة عند نقطة كسر السبيكة تحت اجهاد ضعيف نسبيا وعند درجة حرارة اعلى تقريبا من نصف مرة من درجة انصهار المادة . وتنحصر هذه الخاصية فى بعض السبائك (les alliages eutectique et eutectoide مع مراعاة مواصفات معينة من حيث التركيب البنائى الداخلى وترتيب المكونات الداخلية وتجانسها فى المادة ، وعند الحصول على مثل هذه المواد فلها فوائد عديدة صناعية ، واهمها تشكيل المعادن نتيجة خاصية الاستطالة العالية فتسمح بتحقيق أشكال معقدة خلال عملية واحدة ، أى ليس من الضرورى تجميع القطع الاساسية الاولى لتحقيق شكل معقد ، وليس من الضرورى ايضا تكرار عملية التشكيل للحصول على الشكل النهائى .

تدعيم التعاون العالمى فى مجال الثروة المعدنية باستخدام أحدث الآلات تطورا علميا وتكنولوجيا .



المجال الالكترونى واهميته للعالم العربى عام

٢٠٠٠ :-

يعيش العالم اليوم عصر الثورة العلمية والتكنولوجية التى تتميز بتطور جريء فى علم الالكترونيات والنظم الآلية بما أدخلته من تغيير جدرى على الانتاج والتكنولوجيا الصناعية ... وعلم الالكترونيات هو أحد الاسس الهامة التى يقوم عليها التقدم العلمى والتكنولوجيا الحديثة ، كما انها تعتبر قرعا من فروع العلم والتكنولوجيا يتطور تطورا سريعا جدا .

— قضايا توزيع التيار بقوة متوسطة :
Problemes de la distribution de courant en moyenne tension

— الكهرباء الريفية، درس القضايا الناتجة من اقامة محركات متنقلة لانتاج الطاقة .

— كيفية تعريف وتحديد أحسن وسيلة للتنوير بشكل يناسب السلامة ونوع الحياة والتوفير والتقدم .

— مراعاة الاهتمام بتطبيق الوسائل الفيزيائية الالكترونية فى ميادين عديدة وذلك لاعطاء الفرصة لكثير من العلماء والصناعيين الذين يهتمون بالمجالات الآتية : —

— الادوات الالكترونية للقياس والمراقبة.

— القياس كوتوفير الطاقة

— القياس وتوفير المادة

— تطور تجهيزات المعدات الصناعية ومراقبة الجوار

— التقدم فى ميدان المراقبة الميكانيكية .

— صناعة القياس وتقدم المركبات الالكترونية

— التوسع فى المكننة الصناعية وفى الصناعة الفولاذية وصناعة المعادن والسبائك غير الحديدية .

— مراعاة المواصفات القياسية العالمية والمحلية فى المنتجات الصناعية والزراعية المختلفة ...

— تكنولوجيا المواد ذات خاصية فوق اللدونة .

Technologie des matériaux superplastiques

القيادة الاتوماتيكية :

الاتوماتيكا فرع من فروع العلم والتكنيك يدرس نظام وبناء نظم التحكم دون مشاركة الانسان .

فمن أجل تحسين ظروف النقل وارتياح خطوط الاوتوبيسات . جهزت إحدى الشركات الفرنسية حوالي مائة من سياراتها بالات تسجيل خاصة ، كما كلفت الشركة الفرنسية للتجهيزات الجوية والمختصة باعداد وتحقيق اعمال القيادة الاتوماتيكية بتحقيق هذا النظام .

تسجل كل الة عدد دورات العجلات والواقف والمسافرين والراكبين والهابطين ثم تنزع الات التسجيل كل اسبوع وتدرس معلوماتها بواسطة عقل الكتروني صغير كما اجريت تجربة اخرى بمساعدة نظام اختباري للمراقبة الاتوماتيكية لحركة الاوتوبيسات كل عشر ثوان ، يرسل هذا النظام بواسطة الاذاعة الهاتفية معلومات الى مركز تنظيم الخط للسير ، وهي تتناول موضع الاوتوبيس وعدد الركاب . في اتجاه معاكس ترسل الى سائق الاوتوبيس معلومات بواسطة شريط صغير يوضع امامه او بواسطة الاذاعة الهاتفية .

من ناحية اخرى يقاد هذا النظام بواسطة الة حاسبة صغيرة تسمح فوراً باعداد احصاءات تتعلق بأهم مقاييس الاستغلال . واتخاذ التدابير الفورية اللازمة لتجنب الازدحام .

اذن الكترونية للصم البكم :

خلال المؤتمر الحادي عشر للحديث عن امراض الاذن والانف والحنك وقد عقد في بوينس ايرس (الارجنتين) ، ذكر الدكتور كلود شوارد أنه حقق مع تعاون الالكترونيين « اذنا الكترونية » يمكن ان تقدم مساعدة هامة للصم البكم . كما اوضح كيفية وصوله لدمج

وتشمل الالكترونيات أسس تصميم وعمل استخدام الاجهزة الكهربائية المفرغة والاجهزة المصنوعة من اشباه الموصلات (Semi Conductor) فنجد مثلاً عددا لا بأس من استخدام هذا الفرع في خدمة الانسان والمجتمع .

منتج الكتروني لصانعي النظارات :

تعتبر الات السحق الاتوماتيكية التي تستخدم لسحق الزجاج الخاص بالنظارات الة ميكانيكية ، كما انها تستخدم قالباً من مادة بلاستيكية او معدن يتخذ الشكل اللازم . كان هذا النظام سابقاً له بعض العيوب والصعوبات والاضرار العديدة فمثلاً :

- تراكم القوالب ومصاعب التصنيف والبحث .

- نقص في الدقة واخطاء محور القوالب .

- نقص في دقة جوانب النظارات .

لهذه الاسباب المختلفة تسمح الات الاتوماتيكية نادراً بتركيب الزجاج مباشرة في هيكل النظارات بدون رتوش وتعديل . ومنذ زمن بعيد كان يأمل صانعو النظارات بتحقيق الة تسمح بانتاج الزجاج مباشرة وذلك وفقاً لهيكل النظارات ، مما يقضي على جميع الحالات غير الملائمة . وكان تحقيق مثل هذه الالة يصطدم بمشاكل عديدة . فأعدت شركة اسلان الفرنسية وهي مختصة منذ ٤٠ عاماً في صنع الات السحق الاتوماتيكية الة الكترونية تنتج الزجاج مباشرة حسب شكل هيكل النظارات . تشمل الالة طاولة لتحديد الوسط المركزي ، بسرعة كما تشمل ثلاث الات الكترونية للانتاج . وهي تؤمن في آن واحد الانسجام بين دوران الزجاج وهيكل النظارات ونقل الزجاج والة السحق الاتوماتيكية .

متماثلة ، او معلومات عديدة ومتماثلة في آن واحد .

وتصل المسافة بين طرفي الخط حوالي اربعة كيلو مترات ، اما الشريط الزجاجي الواصل فيمتاز بتخفيض هام لقوة الارسال وذلك بمعدل ١ ديسيبل $décible$ في الكيلو متر الواحد .

كما يتألف هذا النظام من الاساسيات الاتية:

— مذياع نبضات مضبوطة للاشارات المنقولة .

— سلك زجاجي لا يتأثر بالاضطرابات الكهربائية المغناطيسية .

— لاقط يعيد تقديم الاشارات الاصلية .
ولهذا النظام تطبيقات مختلفة ، فمن احدى تطبيقاته اتصالات على متن الطائرات والبواخر وفوق الارض رادار قوى للكشف عن مظاهر الاحوال الجوية :

Un puissant radar pour détecter les phénomènes météorologiques

مجهز بلاقط هوائي يبلغ قطره اربعة امتار يستطيع تحديد مواقع الرياح والامطار بدقة حتى بعد ٢٠٠ كيلو متر تقريبا . كما يستطيع تحديد اهميتها . بإمكان هذا الرادار كذلك الكشف حتى بعد ٤٠٠ كيلو متر عن ظهور تطورات الاحوال الجوية غير المعتادة والتي تمثل خطرا كالزوايع (les tornades) ، وهو يمثل ذروة الفنون التي يجري استخدامها على صعيد الرادارات للاحوال الجوية . يمكن للذين يستخدمون هذا الرادار ان يحددوا بدقة اكثر تقديراتهم وذلك باضافة لائحة المعلومات التي تعتبر نتيجة مشاهدة في البحر على متن البواخر . وهكذا يمكنهم قبل ساعات ثمينة من ارسال اشارة الخطر في حالة وجود مظاهر خطيرة لا يمكن الكشف عنها فورا بواسطة شبكة المراقبة التقليدية وذلك بسبب سرعتها وعنفها .

اوردينا تور صغير (عقل الكتروني) في اذن داخلية وتحقيق الاتصال مع اطراف عصب السمع . وضعت هذه الالة اللاقطة نهائيا تحت الجلد . ويبلغ قطرها سنتيمترين مع سماكة سنتيمتر واحد . وهي تتلقى النبضات الكهربائية المغنطة لمذياع منقول بحجم الة تسجيل صغيرة .

وظيفة العقل الالكتروني لمراقبة التغذية الكهربائية :

نظام للانفورماتيك

يؤمن هذا النظام بشكل اوتوماتيكي اعطاء الاوامر لنصف الشبكة الكهربائية . كما ان هذا النظام يتألف من جهازي كومبيوتر يعملان معا بالاتصال مع جداول الاشارة (جداول شاملة تشير الى فرق المهنيين المكلفين بسر اعمال مراكز التوزيع) ومراكز توزيع التيار بواسطة الفي كيلو متر من الخطوط البرقية . ويمكن للمشرفين ابراز صور مصادر التموين او مراكز التوزيع . وعند وقوع حادث في الشبكة الكهربائية يرن جرس الخطر ، بينما يبدو في الصورة على الشاشة التلفزيونية النظام الفاسد بشكل اوتوماتيكي وذلك باربعة ألوان من اجل تسهيل معرفته . عندئذ يمكن للمشرف ان يتزود بمعلومات تضاف الى الصورة ، ويمكنه ان يحدد بدقة اهمية العطل واتخاذ التدابير الفورية اللازمة لاعادة تنظيم التموين . يشرف هذا النظام على سبعة مراكز توزيع وسيرتفع عدد هذه المراكز عام ١٩٨٠ الى عشرين كما سيتجاوز الخمسين مركزا عام ٢٠٠٠ .

● ● ●

نظام نقل المخابرات بواسطة الياف زجاجية صوتية :

Systeme de transmission sur Fibre Optique

أطلق على هذا النظام تحت اسم (D F O) ويسمح هذا النظام بنقل معلومات عديدة او

صنع هذا الرادار في ارجانتوى من قبل شركة « اومرا - سيجيد »
Argenteuil par la Societe Omera-Segid
lannion جرى استخدامه اولا في لانيون (Cotes du-Nord) وذلك في نطاق
التجارب المرتبطة بالمحطة المدارية الامريكية « سكاي لاب » .

• • •

العلم والصناعة في خدمة استغلال البحار والفنون الصناعية للعمل في البحر : -

يعتبر استغلال البحار والفنون الصناعية للعمل في البحر علما واسعا ، كما انه يتطور بتطور علم الفيزياء الالكترونية التي تدرس العمليات الالكترونية وكذلك العمليات التي تحدث عند السطح الذي يفصل بين المواد الغازية والمواد الصلبة والسائلة . وكذلك بتطور علم السيبرينيتيك الذي يبحث وسائل التحكم والاتصالات في الآلات والكائن الحي . كما ساعد هذا العلم على صنع الآلات الالكترونية الحاسبة .

والتقدم العلمي الصناعي الكبير يعتبر نصرا كبيرا في مجال استغلال البحار اذ يتضمن دقة العمل وجودة الانتاج في كل الاجهزة الاوتوماتيكية والتلفزيونية التي تشترك في الرحلات البحرية للتحقيق السليم والحصول على مساهمة فعالة من اعمال الباحثين . فعندما نتحدث عن العلم والتكنولوجيا في خدمة استغلال البحار للعالم العربي عام ٢٠٠٠ فيجب علينا ان نطرق مواضيع هامة وذلك لرفع قيمة الثروات البحرية . . ومن اهم هذه المواضيع :
اولا : انشاء وحدة كاملة للتطبيقات الالكترونية لدراسة وتحقيق واعداد المعدات التي تتناول مختلف الميادين من ابحاث بحرية وصناعية وطب .

ثانيا : صنع الادوات الصوتية الدقيقة (فوق الصوتيات) وهي اهتزازات من طبيعة الصوت ولكن تردده من القوة بحيث يجعل سماعه متعبا . . . كما استطاعت بعض الشركات الاوروبية صنع معدات كثيرة منها وادارة الملاحه بواسطة الصوت الدقيق (فوق الصوتيات) Ultrasonic) ويبلغ مداها ١٠ الاف متر ، وهي أداة تحدد موقع حاملها بما يقرب عدة امتار كما تستخدم فنون الفوق الصوتيات بابحاث استغلال البترول في البحر وفي معدات لنقل وتركيب المستودعات تحت البحر خلال تركيبها و مداها .

ثالثا : التجهيزات الميكانيكية والكهربائية للبواخر وقواعد الحفر ومنشآت المرافق .

رابعا : دراسة ميكانيكية السوائل والهندسة البحرية .

خامسا : المواصلات والعمل الاوتوماتيكي في الحفريات والانتاج منها :

- كتلة قيادة موجهة لسد رؤوس آبار الحفريات .

- أدوات قيادة موجهة لسد رؤوس آبار الحفريات .

- أدوات قيادة موجهة لرؤوس آبار الانتاج .

- أنظمة اوتوماتيكية لمراقبة غطس قواعد الحفر .

- محركات توليد وبطاريات تعمل بواسطة المحروقات .

سادسا :

فنون اخرى مثل انواع خاصة من الديزل للاستخدام في العمليات البحرية بواسطة الرشق (Par Jet)

يبلغ طول الباخرة ١٠ و ٢٣٠ مترا وعرضها ٣٤ و ٨٠ مترا وعمقها في الماء ١٩ و ٥٥ مترا وهي مجهزة بأربعة مستودعات ناقلية أي متنقلة ... وفي مؤخرتها اقيم موقع لنظام القيادة الموجهة ، مما يسمح بإدارة جميع أعمال الباخرة بشكل أوتوماتيكي ، كما أن آلات اندفاع الباخرة تتألف من محركين لمروحة واحدة . اما القوة الناتجة فهي عبارة عن ٢٨ ألف حصان مع ١٢٠ دورة في الدقيقة ، مما يسمح للباخرة ببلوغ سرعة معقولة .. كما أن هناك منشآت أوتوماتيكية تسمح بقيادة ومراقبة المحركات ابتداء من غرفة القيادة أو مراقبة الآلات .

محركات تستخدم للدراسة وأعمال الاستغلال

— الصحن الفاطس
Soucoupe plongeante SP 3000 (Cyana)
يبلغ طوله ٧٠ م مترا وعرضه ٤٠ م مترا ووزنه ٨ أطنان . بإمكانه الغطس حتى عمق ٣٠٠٠ متر وبسرعة ٣ عقد .

— الباثيسكاف أرشيميد
Bathyscaphe "Archimede"
يبلغ طوله ٣٠ و ٢١ مترا ، وبالإمكان التحرك أثناء الغطس بحمولة قدرها ٢٠٨ طن بإمكانه بلوغ أعماق البحيرة .

— العوامة المختبر « بورها ٢ »
Bouee - laboratoire „Borha II“
يبلغ عمقها داخل الماء ٦٠ مترا وبالإمكان التحرك بحمولة قدرها ٨٧ طنا ، وهي عوامة مسكونة لتحقيق الأبحاث . تشمل تجهيزات تسمح بتحقيق أعمال فيزيائية والعلاقة بين القوة والحركة في البحار، وكذلك إمكانية دراسة التبادل الميكانيكي بين البحر والجو .

الصحن الفاطس : — Soucoupe plongeante

— حقق البرنامج الفرنسي الأمريكي

وبالإمكان تطبيق هذا النوع للقذف البحري على محركات ديزل تتراوح قوتها بين ٥٠ ، ٤٣٠ حصانا . وهي تمثل فوائد عديدة منها أنها لا تحتاج إلى دفعة أو مروحة . كما تسمح بعبور البحر مع حد أدنى للغطس ورسو بدون خطر بالنسبة لعناصر المحركات ومن ناحية أخرى ، يبدو أعدادها الميكانيكي بسيطا كما تهبط تكاليف العناية بها .

ومنذ عشر سنوات تقريبا ، بدأت المؤسسة الفرنسية للبتروول برامج واسعة للأبحاث في مجالات التنقيب واستغلال الحقول البترولية تحت البحر . وغاية ذلك أعداد مجموعة من الوسائل والادوات الجديدة للاستفادة منها في المجالات السابقة وقد أسفرت نتائج الأبحاث العلمية والصناعية في خدمة استغلال البحار إلى عرض من النتائج التي تتناول أعمال التنقيب والحفر والإنتاج .

— نظام يعتمد على الهزات بواسطة الانفجار الداخلي مما يحدث موجة صوتية .

— طريقة لدراسة وتفهم معلومات الهزات .

— عرض الباخرة لوسورا وإنزالها إلى البحر .

وتعتبر هذه الباخرة بين بواخر البحث والمراقبة والتدخل والمساندة التي أعدها فرنسا ، كما ستحقق هذه الناقلية أبحاثا بحرية في ميدان الفيزياء والتعرف على تركيب وطبيعة الأعماق البحرية والجيوفيزياء والحياة في البحر ، وبإمكانها كذلك أن تستخدم محركات غاطسة من نوع الصحن الفاطس Soucoupe plongeante وفي أواخر عام ١٩٧٦ أنزلت إلى الماء باخرة نقل الغاز السائل le Monge وتبلغ حمولة الباخرة حوالي ٣٥٠٠ طن، وأعدت الباخرة لنقل ٧٣١٠٠ متر مكعب من الغاز السائل (الامونيات والبروبان والبيوتان) بحرارة تبلغ ٤٦ درجة مئوية تحت الصفر .

— الاتصتات مع سطح البحر وهي تؤمن بواسطة مذياع ولاقط اذاعي (فوق سطح البحر) او بواسطة الهاتف العامل تحت البحر بواسطة الموجات الصوتية او الهاتف المتصل مع سطح الماء .

— تجهيزات المراقبة والملاحة وهي تتألف من معدات السير والجيروسكوب والسونور (وهو جهاز لاكتشاف وجود الاشياء تحت الماء بواسطة موجات صوتية) ، والجيروسكوب اداة لحفظ الباكخرة ولتحديد الاتجاه .

— تجهيزات اخرى مختلفة وتشمل آلة تسجيل وآلة تصوير خارجية وآلة تصوير من نوع ١٦ ملليمتر او آلة تليفزيون للتصوير « الصحن الفاطس » فيؤمنان بواسطة باخرة مرافقة للبحرية الوطنية .

عرضت في كاسيس (شرقي مرسيليا) داخل البحر مركبة جديدة موجهة ، وهي غير مسكونة . أعدت المركبة للمراقبة ومعرفة الحركات تحت البحر ، وقد عرضتها الشركة البحرية للخبرة وهي مختصة في اعمال الفطس الصناعية . يتعلق الامر بمركبة توم ٣٠٠٠ للعمل تحت البحر والتي تحققت بالاشتراك مع تومسون (C. S. F.) على اساس الفنون التي درستها المؤسسة الفرنسية للبترول . ويبلغ طول المركبة ٣٦٠ مترا وعرضها ١٧٠ متر وارتفاعها ١٨٢ متر ووزنها ثلاثة اطنان . بإمكانها الانتقال بسرعة ثلاث عقد في الساعة . تشمل تجهيزاتها الاساسية آلتين للتصوير التلفزيوني مع أضواء ساطعة لالتقاط ٨٠٠ صورة . تعتبر توم - ٢٠٠ « أول مركبة موجهة تحت البحر وهي مجهزة بآلة حقيقية لاتجاه الباكخرة تسمح بالاقتراب من شكل معدنى بدون تعذيل الاتجاه . اما الشريط الذي يصل بين المركبة وسطح الماء فيمتد الى اقصى حد كي يسمح بالعمل على علق ٣٠٠ متر . هناك كذلك مصنع كهربائي مائي مصغر ، وقد وضع في المركبة كي يسمح بتحريك ذراع متنقلة .

للتنقيب في منتصف المحيط الاطلسي « فاموس » غواصة صغيرة اطلق عليها اسم الصحن الفاطس وقد انشئت الغواصة من قبل مركز الدراسات البحرية المتقدمة في مرسيليا لحساب المركز الوطني لاستغلال البحار . ويبلغ وزن هذه الغواصة ٧٥ طن . يبلغ طولها ٨٧٠ مترا وعرضها ٣٠٤ مترا وارتفاعها ٢١٠ مترا . . . اما هيكلها المقرر لمقاومة الضغط السائد على عمق ثلاثة آلاف متر فهو من الفولاذ الخاص ، ويبلغ سكه ٣٠٥ ملليمتر . كما تزود بمجموعة من المحركات الكهربائية العاملة بالرصاص تنتج تيارا يتراوح قوته بين ١٣٠ ، ١١٧ فولت وهي الطاقة اللازمة لتشغيل هذا الصحن الفاطس . . . اما اندفاع الغواصة فيؤمن بواسطة محركين كهربائيين يعملان بواسطة تيار متواصل يؤمن لها سرعة قوى توازى ٤١ متر في الثانية (خمسة كيلو مترات في الساعة) كما يتألف مكان القيادة من كرة يبلغ قطرها متران . . . وداخل هذه الكرة يمكن الجلوس لثلاثة غطاسين . . . ويجد المراقبان نافذتين للرؤية ، كما يجد الملاح شاشة للمراقبة التلفزيونية . . . اما من حيث التنفس فيؤمنها نظام تنفيذ الهواء لمدة ٧٢ ساعة وتوجد جميع أنظمة المراقبة لقيادة الصحن الفاطس (لاندفاع والتوازن والادوات المختلفة) داخل الكرة . كما تعتبر تجهيزات الصحن الفاطس عديدة ومتشابة وبالإمكان تصنيفها الى المجموعات الآتية : —

— الذراع الموجهة وبالإمكان تجهيزه باحدى الادوات التالية :

ملقط بثلاث قواطع ، ملقط للادوات على شكل حرف T (للقطع وجرف الرواسب . . الخ) . مقراض نارى ، مقلع وملقط لاداة دائرة أو حافزة .

— سلة لجميع النماذج وبإمكانها حمل خمسين كيلو جراما من الصخور خلال كل عملية غطس .

فى فرنسا، يدرس موضوع رفع قيمة الرواسب المعدنية من قبل المركز القومى لاستغلال البحار. وبدأ المركز بتحقيق برنامج هام يتعلق بأعمال التنقيب عن الحقول المعدنية وجمع الرواسب . كما كلف مؤسسة الطاقة الذرية بموضوع معالجتها ، كما ان مؤسسة الطاقة تمتاز بخبرة طويلة فى ميدان معالجة اليورانيوم . وهى تحتل مكانا جيدا بين المؤسسات العالمية وبخاصة فى موضوع معالجة عزل المعادن وتنقيتها عندما تكون موجودة فى الرواسب المعدنية . وقامت المؤسسة بتجارب عديدة تشمل أكثر من عشرين وسيلة للمعالجة ، وخاصة الوسائل التى تستخدم هيدرو - ميتالورجيا ، وإبتداء من هذه الأعمال ، تقرر أعداد دراسات اقتصادية على صعيد صناعى . كما بدأ توسيع الأعمال لتحسين النتائج . يتعلق ذلك بتحقيق عملية استخراج النوشادر والكبريت . بالتالى أصبحت دراسة الرواسب علما هاما يتناول البحث عن القوانين الفيزيائية والكيميائية التى تخضع لها المواد المعلقة فى المياه ، كما تصبح رواسب وبعد ذلك صخورا ، وتؤدى هذه الدراسة الى تطبيقات صناعية هامة جدا ، وخاصة فى ميدان البحث عن البترول والمعادن ورفع قيمة موارد الطاقة الطبيعية . تتناول هذه الدراسات :

أولا : البحث عن حقول المعادن وتحديد مواقعها ، وهى :

la recherche et la localisation de gisements de nodules polymetalliques

التي يمكن ان تصبح هدف طلبات للتنقيب عن المناجم وذلك فى نطاق تشريع دولى جديد . وبعد ذلك ، تتناول الجهود لتحقيق معدات صناعية نموذجية لجمع الرواسب المعدنية la realisation d'un peototype industriel de ramassag de nodules

وأخيرا تتناول الجهود تحديد جميع العناصر التقنية والاقتصادية التى تسمح

استغلال الرواسب المعدنية البحرية :

les nodules

عرف وجود الرواسب المعدنية تحت البحر منذ مائة عام تقريبا ، اما فكرة استغلالها فلم تبرز قبل عام ١٩٦٠ وذلك عندما تبين انها تمثل حقولا كثيفة تحتوى على معادن تهم الصناعات المعدنية .

فى الوقت الحاضر تزداد أهمية برامج البحث - كما سيؤدى ذلك الى استخدام آلات الجمع والمعالجة للاستغلال الصناعى لهذه الموارد الجديدة وذلك ابتداء من عام ١٩٨٠ .

اما الحقول الهامة فتوجد فى المحيط الهادى حيث تحتوى الرواسب المعدنية بشكل متوسط على ٣٢٪ من ثاني أكسيد المنجنيز ، ٢٤٪ من أكسيد الحديد ، ١٩٪ من ثاني أكسيد السيليكون (السيليكا) والنيكل والنحاس والكوبالت وكذلك بعض المعادن الثقيلة المختلفة .

ومع مراعاة الطلب العالمى والاحتياطي فى باطن الارض وأهمية المعادن وتطور الاسعار فقد صنفت المعادن الموجودة فى الرواسب الى ثلاثة انواع :

- النحاس والنيكل ، ويعتبر تركيزهما هاما بشكل نسبى ، وتمثل أسواقا اكيدة ، ستؤمن بين ٦٠ ، ٨٠ فى المائة من العائدات .

- المنجنيز والكوبالت بالامكان ان تحقق ما بين ٣ ، ٣٠ فى المائة من العائدات .

وأخيرا هناك معادن مختلفة توجد فى الرواسب وهى متجمعة بشكل ضعيف . ومع ذلك ، فانها تمثل أهمية تجارية هامة : الموليبدوم والجاليوم والعناصر الارضية النادرة والتيتانيوم . أما وسائل البحث العلمى ووسائل المعالجة فقد تناولت جمع النيكل والنحاس . كما تناولت امكانية الحصول على المعادن الاخرى بتكاليف منخفضة .

بتحقيق مصنع معالجة الرواسب المعدنية البحرية .

La determination de tous les elements techniques et economiques qui permettront la realisation d'une de traitement metallurgique des nodules

نتيجة للاهمية الكبرى والدور الاساسي للبحر في جميع الميادين العلمية والفنية والثقافية والاقتصادية والتجارية للحياة الوطنية ، انشئت في فرنسا مؤسسة تسمى بمؤسسة البحر في ٢٤ يونيو عام ١٩٧٥ ، ومهمتها اثارة اهتمام الراى العام بشأن الدور الاساسي للبحر في جميع الميادين العلمية . . وبعد أشهر تقريبا من انشاء هذه المؤسسة نظمت المؤسسة يوما خاصا سمي بيوم البحر Journee de la mer في متحف البحرية بباريس ، وذلك برعاية رئيس الجمهورية ، وقد اقيم تحت عنوان (البحر في مظاهر المستقبل الاقتصادى للامة)

la mer dans les perspectives [economiques de la nation

ففى ذلك اليوم افتتح السيد جاموران رئيس مؤسسة البحر أمام مائتى شخص تقريبا . وهم يمثلون الاوساط السياسية والادارية والصناعية . كما انه شدد على الدور الذى تقوم به المحيطات واثرواتها التى بدا استغلالها بشكل بسيط ، وذلك فى حياة الانسانية خلال السنوات القادمة . وفى هذه المناسبة، عرض مدير عام المركز الوطنى لاستغلال المحيطات الفكرة القائلة ان النشاط الصناعى البحرى يمثل قطاعا رئيسيا فى الاقتصاد الفرنسى وذلك فى وقت تبحث فيه فرنسا عن تخفيض عجزها التجارى بزيادة تصديراتها ، كما برهن على ان تربية الاسماك فى امكانها ان تساهم تدريجيا فى تخفيض عجز الميزان التجارى لمنتجات البحر وهذا فى نطاق برنامج الابحاث المتعلقة بتحسين عائدات تربية الاسماك . les recherches sur l'amelioration du rendement de l'aquaculture.

واخيرا لوحظ انه فى السباق العالمى

الذى سيتناول الموارد المعدنية وخاصة السباق للحصول على الرواسب المعدنية ، وهو سباق يجرى بين الامم الصناعية الكبرى، وتملك فرنسا عناصر عديدة ومناسبة أهمها ما حصلت عليه فى ميدان البحث عن الحقول المعدنية وذلك بفضل الحملات التى تقوم بها بواخر للابحاث البحرية . . كما أود هنا أن أضيف وأتحدث عن مساهمة الاجهزة الالكترونية فى اجراء بحوث وقياسات واسعة تشمل حتى تلك البحوث والقياسات التى لا تدخل فى نطاق دراسة علم الالكترونيات ، فالمضخات والمولدات والمقومات ومرسمات التذبذبات واجهزة القياس وغيرها من الاجهزة الالكترونية أصبحت سلاحا فعلا للبحوث العلمية ولتنظيم العمليات الانتاجية . فان علم استغلال البحار l'exploitation des Oceans يرودنا بامكانيات غير محددة .

فيما يتعلق بالتجهيزات القائمة فى ميدان استغلال البحار ووسائل البحث عن حقول الرواسب المعدنية البحرية فهناك نقاط عديدة يجب أن توضع فى الاعتبار :

- انشاء مركز عربى للابحاث البحرية واعمال التجهيزات الفاطسة للابحاث . وذلك لمتابعة برنامج ودراسة علاقة الكائنات الحية مع الوسط المحيط فى البحر .

- تعتبر تربية الاسماك فى البحر من المواضيع التى لها الاهمية الكبرى ، وبذلك نجد من الاهمية انشاء شركة عربية لانماء وتحسين عائدات تربية الاسماك ، وتنقسم الى مرحلتين :

مرحلة الاختبار ثم مرحلة الانتاج ويشرف على هذا الميدان المركز العربى للابحاث البحرية .

- وضع برنامج لدراسة التحول العام

- فى نطاق الاتفاقات المتبادلة ، وضع فنون اجنبية تحت تصرف الصناعة العربية ، ومن شأنها أن تثير اهتمامها .

- اتخاذ قرار حاسم يتعلق بإنشاء المؤسسة العربية للبحث العلمى والتكنولوجيا مع تحديد مقر المؤسسة .

- إنشاء دورية علمية عالمية باسم علماء العرب فى جميع تخصصاتهم .
التطبيقاتى والتكنولوجى ودعم روابط علماء العرب فى جميع تخصصاتهم .

- إتاحة مزيد من الفرص للشباب العلماء العرب .

- مزيد من القدرة على العمل الميدانى والنزول الى خطوط الانتاج بخطوات جريئة وبحث مشاكلها ومعوقات الوصول بالانتاج الى حدوده القصوى .

- بناء قاعدة صناعية قوية على أساس التكنولوجيا الحديثة . . مشروعات الحديد والصلب والفسفات ومشروعات بناء السفن ومحطات توليد القوى الكهربائية . . واستخدام الطاقة الشمسية .

- ضرورة تجميع الخبرات العلمية المتوافرة فى العالم العربى فى خدمة قضايا التنمية .

ولقد كان أخطر أسلحة الاستعمار هو ضرب قيم الايمان فى نفوسنا ، كما كانت أخبت مخططاته هى محاولة اخفاء اسرار العلماء والتكنولوجيا عن مجتمعاتنا ، حتى تزداد الهوة الحضارية بيننا وبين المجتمعات المتقدمة .

وأخيرا نجد بجانب هذه التكنولوجيا الرفيعة وتصنيعها أن نركز ونعتنى أيضا بأنماء وتعميق مقياس الارتقاء الفكرى والثقافى والسمو الفكرى - والمآثر الثقافية فى العالم العربى .

للاجو وذلك تمهيدا لايجاد وسائل تقدير الاحوال الجوية لمدة طويلة .

- تنظيم شبكة لمراقبة تلوث البحار بالاستعانة واستخدام تكنولوجيا العصر ، ومن افضل اجهزة العصر هو المقياس الازامى العامل بالاشعة الحمراء ويدعى « سوير سيكلوب » .

- فى ميدان استغلال المعادن والمتحجرات : إنشاء المركز الوطنى العربى لاستغلال البحار وتتناول جهود هذا المركز البحث عن حقول المعادن وتحقيق معدات صناعية نموذجية لجمع الرواسب المعدنية مع تحقيق مصنع لمعالجة الرواسب المعدنية .

وسيطر العلم يكتشف حقائق جديدة تؤدي تطبيقاتها الى حياة افضل واسلم وأسهل ، والعالم كله اليوم يعرف أن الإرادة العربية موجودة وفعالة ومؤثرة . وواجبنا بل ومن صالحنا أن نساعد كل منا بطريقته الخاصة على ادخال تعديلات حيوية بناءة ، والان يجب ان نعمل ما فى وسعنا ليحتل علماءنا المكان الذى يتوقعه العالم لهم . وعلى العالم أن يسمع ويستجيب ، وكل ما أعنيه هنا أن أسس البحث والدراسة وتكنولوجيا العصر هى فكرة التقدم المطرد المستمر وكيفية تطبيقه فى عالم الصناعة للمجتمع ، وهى روح العلم نفسه .

وكل ذلك يدعو الى المبادرة بإنشاء وكالة وطنية للعالم العربى لرفع قيمة البحث فى قطاع التعاون العربى تتلائم مع المعطيات الجديدة للامة العربية وتؤمن مصالح الدول العربية منفردة ومجتمعة ومحقة للمصالح المشتركة للعالم العربى ، أخذا بعين الاعتبار النقاط الهامة التالية :-

- تأمين استقلال عالمى لأعمال التجديد التقنى العربى القيم .

- تأمين وجود المخترعات العربية وذلك فى كل مناسبة هامة تتناول الاعمال التكنولوجية .

المراجع

1. Baudalet, Technologie des materiaux Superplastiques, Memoires Scientifiques Revue Metallurgie, Fevrier 1975.
2. Crosley, P.B. and Mondolfo, L.F., Modern Castings, 4, (1966) p. 63.
3. Hellawell, A., Progress in Materials Science 15 No. 1, 1970, p. 3.
4. Kamal Mustafa, Préparation, Conditions D'obtention et Propriétés Mecaniques d'allia-
ges eutectiques a Solidification dirigee, Thèse de Docteur és Sciences Physique, Université
des Sciences et Techniques du Languedoc, Montpellier, France, 1974. No. Ao. 9902
5. Kamal, M.; Jouty, R., Preparation and Mechanical Properties of Al -Si Composites.
Presented at the Second Cairo Solid State Conference, Cairo, Egypt, April 1973.
6. Tiller, W.A., Liquid Metals and Solidification American Society for Metals, Cleveland,
Chio, 1958.s

★ ★ ★

المأثر الرياضي في مصر القديمة

عبد الحميد أحمد زايد

تقديم :

آخر دورة عرفناها في التاريخ القديم بين عامي ٣٩٢ - ٣٩٦ م . ولا ندري ، لماذا توقفت هذه الاحتفالات الدولية ، الا ان يكون قد مر على أوربا في هذه الفترة ركود في النشاط الحضاري بعد السيادة الرومانية التي مرت على العالم ، وظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي ، وانتشار الحضارة الاسلامية ، والتي عبرت البحر المتوسط فوصلت اسبانيا وجنوبي فرنسا . وقام علماء المسلمين وغيرهم بترجمة الكثير من تراث اليونان .

يعيش عالم القرن العشرين الميلادي متأثرا بالدورات الاولمبية التي تقام حلقاتها كل اربع سنوات ، والتي بدأت دورتها في القرن التاسع عشر الميلادي . ويرجع تاريخ اول دورة الى عام ٧٧٦ ق.م ، حيث اقيمت بالقرب من مدينة اوليمبيا Olympie بجبل اوليمبياس Olympia^s بتساليا ببلاد اليونان . وكانت تقام دوليا كل اربع سنوات على شرف الاله جوبيتر Jupiter . واقامت

وفي القرن الثامن عشر الميلادي ، عصر النهضة الأوروبية ، أحياء الأوربيون التراث اليوناني ، فكانت تقام الدورات الأولمبية كل أربع سنوات . ويرجع السبب في اتجاه الأوربيين الى اقامة هذه الدورات الى أن معرفتهم للحضارة المصرية لم تتم الا في أعقاب الكشف عن أسرار اللغة المصرية القديمة ، والديانة المصرية القديمة ، والحضارة المصرية القديمة ، على يد العالم الفرنسي جان فرانسوا شامبلون في بداية القرن التاسع عشر . ولم تكتمل معلوماتنا عن الحضارة المصرية بشكل واضح الا في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . من أجل ذلك ، كان اتجاه العالم في ذلك الوقت الى التراث اليوناني ، واعتبره الأوربيون المنار الذي أضاء لهم الطريق نحو هذا الميدان وغيره من الميادين الأخرى ، وسار الناس وراءهم على هذا الدرب ، وتأثر بهم الكثير من أبناء الشرق ، وغاب عنهم أن المصريين القدماء هم الذين وضعوا اللبنيات الأولى في بناء جسم الإنسان ، والاسس الأولى في مختلف أنواع الرياضة البدنية يوم أن كان التاريخ طفلا ، وكان العالم يتيه في ظلمات الجهل .

وسوف نرى أن المصريين القدماء فطنوا منذ الألف الثالثة قبل الميلاد الى ضرورة العناية بالأجسام والعقول ، وحرصوا على تقويم أطفالهم بنين وبنات ، واعدوهم اعدادا منظما منذ نعومة أظفارهم ، لانهم أدركوا أن سلامة العقول تستوجب سلامة الاجسام .

● ● ●

أولا : اللياقة البدنية

اعتنى المصريون رجالا ونساء بأجسامهم ومن النادر ، أن تجد بين الرسوم المصرية ، أو في النحت المصري ، رسما أو تمثالا لرجل بدين أو لامرأة بدينة وتميز الرجال بالأناقة ،

والسيدات بالرشاقة . وكان الملك يمارس بعض أشواط من الجري (فيما نسميه الهرولة) حول أول عاصمة لمصر المتحدة ، والتي كانت تسمى (انب حدج = الجدار الأبيض أو انبو حدج = الجدار الأبيض والتي ستسمى بعد ذلك من نفر = ممفيس ثم أطلق عليها العرب منف . وهي تقع تحت أنقاض قرية ميت رهينة ، مركز البدرشين ، محافظة الجيزة ، على بعد حوالي ٢٠ كيلو مترا جنوبى القاهرة) ، وذلك في حفل مهيب ، ليثبت أمام عيون الناس أن الملك لائق بدنيا للجلوس على عرش مصر . وقد ظهرت على بعض صفحات جدران قبر الملك زوسر رسوم تصور الملك وهو يعدو ، أو بمعنى أدق يهرول في مناسبة معروفة تحت اسم (عيد سد Hb-Sd حب سد) (١) - وهو عيد يتكرر الاحتفال به كل فترة من الفترات ، وحينما يحس الملك أنه في حاجة الى اثبات قدرته البدنية - وظل يمارس هذا اللون من الهرولة كل فراعنة مصر حتى النساء منهم ، فوجدت الملكة حتشبسوت تهرول في عيد سد . وعلى هذا ، كانت اللياقة البدنية شرطا أساسيا في الجلوس على العرش ومن غير شك ، دان الناس بدين ملوكهم - كما نقول - فاهتموا بأجسامهم من أجل ذلك مارسوا ألوانا مختلفة من الرياضة البدنية وقد مثل الملك زوسر الذي عاش من ٢٦٦٠ - ٢٥٩٠ ق.م تقريبا يهرول في إحدى المناسبات الدينية (شكل ١) لوحة تمثل الملكة حتشبسوت « حكمت في أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد هي واخوها تحتمس الثانى ١٥٢٠ - ١٤٨٤ ق.م تقريبا » وهي تهرول نقشيت على أحد مقاصيرها بمعبد الكوكب بالاقصر .

وما ذمنا في معرض الحديث عن اللياقة البدنية فقد حدثنا التاريخ أن ملوك مصر كانوا يهتمون بتربية أطفالهم على الشجاعة ، وممارسة الكثير من ألوان الألعاب الرياضية ، فهذا



(شكل ١).

تحتتمس الثالث (١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م تقريباً) يقول عن ولده امنحتب الثانى « تأمل ، انه تغاضى عن شهوات الجسم ، واحب الشجاعة » (٢)

ثانيا : ألعاب الاطفال

فطن المصريون الى اهمية اللعب للاطفال ، ووجدوا فيها شجدا لعقولهم ، وتسلياً لآوقات فراغهم ، وعثر على الكثير من هذه اللعب في مقابر المصريين . وفي المتحف المصرى بالقاهرة الكثير من الكرات تحت رقم ٦٠٩٩ . وقد صنع بعضها من الجلد ، والبعض من القش ، وخيطة بخيوط من الكتان . وسوف نرى بعد قليل فتيات يمارسن اللعب بهذه الكرات . كذلك ، عثر على بعض الدمى المصنوعة من الخشب ، وبعض دمي لطيور وحيوانات صغيرة (انظر مجموعة (٣) توت عنخ امون بالمتحف المصرى بالقاهرة) وغيرها من تماثيل لحيوانات وطيور صغيرة من خشب بدور التحف العالمية . كما اهتم المصريون بتدريب ابنائهم على مختلف انواع الرياضة البدنية منذ نعومة اظفارهم كما سنرى فيما بعد .

ثالثا : ألعاب الصبية

حفلت قبور صقارة (خصوصا مقبرة بتاح حتب من الاسرة الخامسة (٢٤٧٠ - ٢٣٢٠ ق.م تقريباً) برسوم تمثل اطفالا يؤدون تمارين عدة منها ما يمثل : الملاعبة ، والعدو والمصارعة (شكل ٢) . اما مناظر سابق القفز على الحواجز فنراها ممثلة على

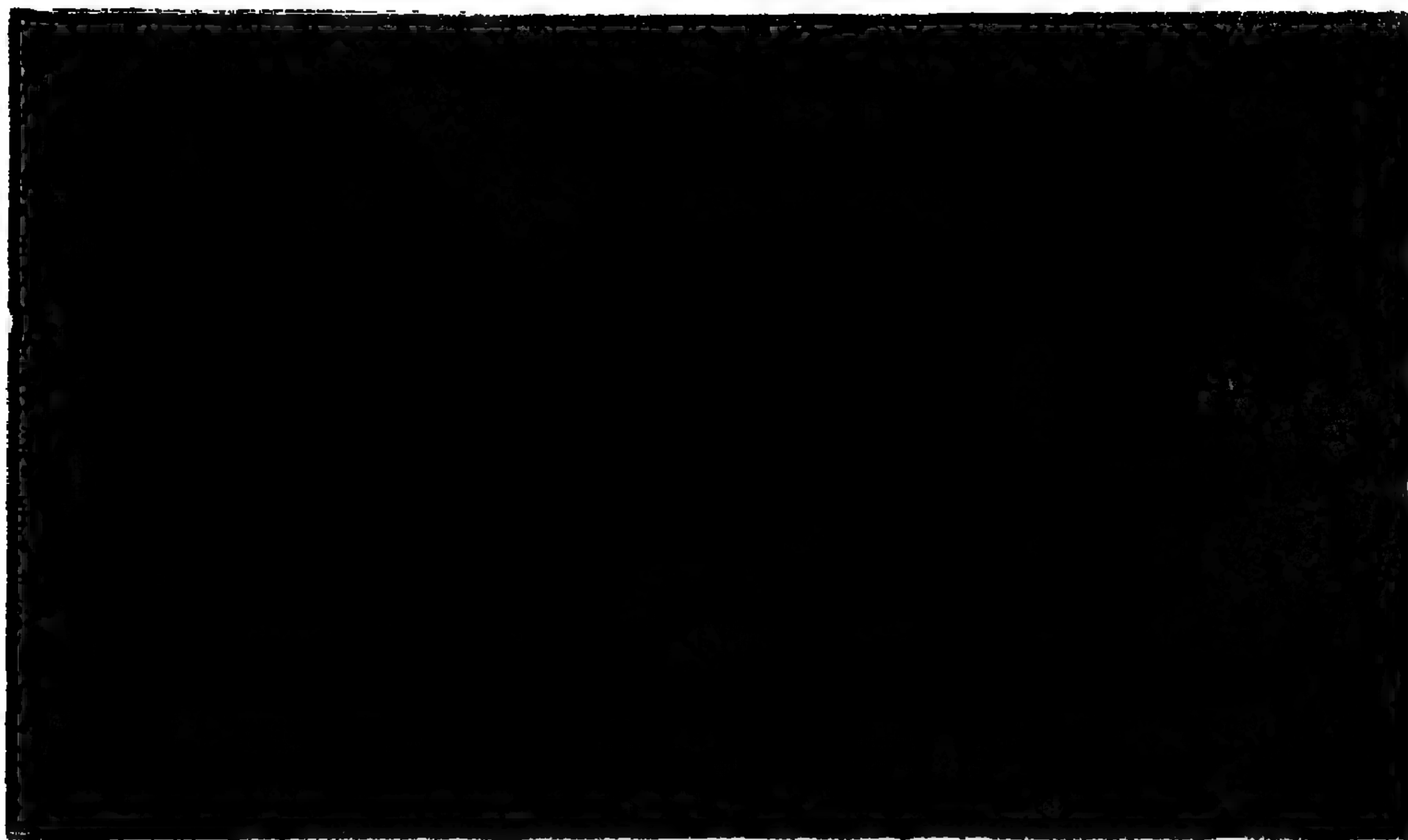
مقبرة بتاح حتب ومقبرة مري روكا من الاسرة الخامسة ايضا ، وفيها نرى ولدين جلسا على الارض متقابلين وايديهما وسيقانها ممدودة (فى الرسوم المصرية) مناظر الاولاد ممثلة فوق بعضها ، وهذه هى الطريقة عند المصريين (شكل ٣) يمثل احد الاولاد وقد امتدت فى انفراج اصابع الايدي والسيقان وكعب القدم اليسرى فوق اصابع القدم اليمنى التى استندت على الارض . وعلى هذه الصورة تكون الحاجز الذى اعد للاعبين الذى سيقومون بالقفز عليه دون ان يمسك بهم احد . ويحاول اللاعبون الذين يكونون هذا الحاجز ان يمسكوا قدم اللاعب الذى يقفز . فاذا استطاع الامساك به وقع على الارض واصبح كما نقول اليوم فى الريف المصرى « الجدى على الارض » . ومن النصوص التى صاحبت المنظر فى مقبرة مري روكا والتى تدل على ضرورة عدم خداع اللاعبين ، كان على اللاعب الذى سيقوم بالقفز ، ان يعلن بصوت عال وهو يقفز قائلا : « اثبت جيدا فانا آت اليك ايها الرفيق (٤) . ولعبة المروحة . والحبو على الاكتاف . وصور الاطفال يلعبون فى قبر مري روكا (شكل ٤) . فنرى فى الصف العلوى (شكل ٢) ، انقسم الاطفال الى فريقين ، ولوحظ فى كل فريق ، ان اللاعب يلف ذراعيه حول خصر اللاعب الذى يتقدمه . ووقف اللاعب الاول فى كل فريق يواجه زميله وظهر قدم كل منهما امام قدم خصمه ، وثنى كل منهما ذراعيه فوق صدره ، وحاول كل منهما طرح غريمه ارضا . وقام احد الفريقين بتشجيع زميلهم قائلين له « ذراعك اقوى منه بكثير فلا تتخاذل » . ويرد افراد الفريق الآخر قائلين « فريقنا اقوى ، انتصر

(٢) Annales du Service des Antiquites de l'Egypte, XXXVII (1937, 139 ff.

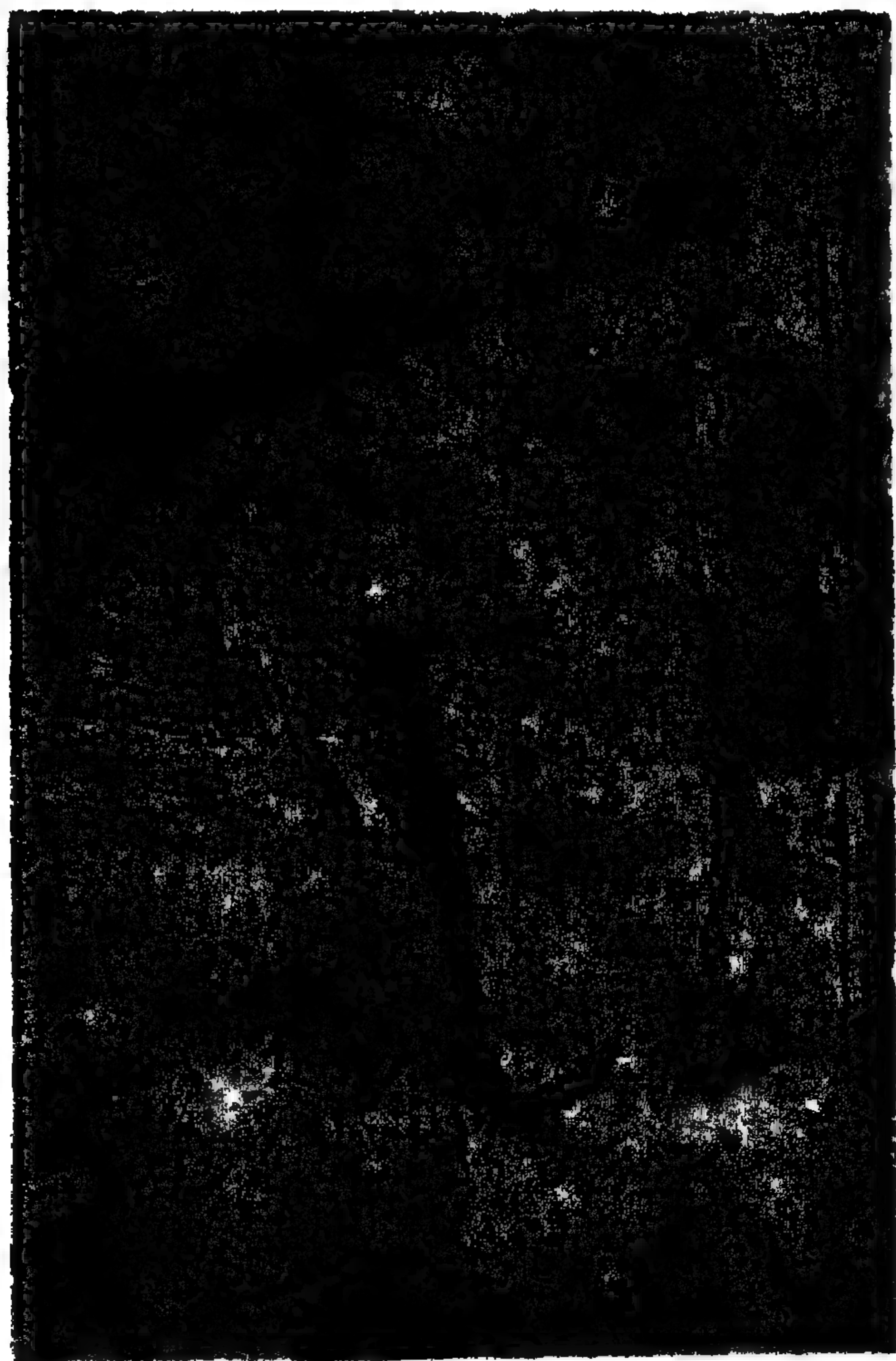
(٣) المهندس احمد الدمرداش توتى : تاريخ الرياضة عند قدماء المصريين ، القاهرة ١٩٧١ من صفحة ١١١ الى صفحة ١٢

(٤) Pierre Montet, La Vie Quotidienne en Egypte au Temps des Ramses (XII-XII Siecles avant J.C.)

ترجمة عزيز مرقص حنا تحت عنوان الحياة المصرية فى عهد الرعامسة (الدار المصرية للتأليف والترجمة) القاهرة ١٩٦٥ . انظر صفحة ١٢٤ .



(شكل ٢)



(شكل ٣)



(الشكل ٤)

كذلك ، مارس المصريون المصارعة والمبارزة مع أجنبى وحضرتيا وفرد من آسيا وليبيا ، وقام بالفصل فييا حكام دوليون . والاشكال المصورة من ص ٢٦ - ٢٩ (٦) تمثل فرحة الفوز والتحكيم المحلى والدولى وذلك من مناظر منقوشة بالحفر الفائر على معبد مدينة هابو بقرب الاقصر من عهد رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ ق . م تقريبا) من الاسرة العشرين .

خامسا : ألعاب القوى

مارس المصريون الكثير من ألعاب القوى ، منها الجرى والوثب العالى : وصورت لعبة الجرى على قبر بتاج حتب وهو يمثل احد الصبية يعدو (درج المصريون على تصوير الصبية من الشباب بخصلة جانبية من الشعر وعرايا) . اما عن الوثب العالى أو ما يمكن ان نسميه القفز الطويل ، فلدينا منظر مصور على احدى جدران مقابر بنى حسن مؤرخ من الدولة الوسطى ظهر احد الشباب يقوم بقفزة جريئة وطويلة فبدأ القفز من مؤخرة الثور واستطاع ان يصل امام قرنئ الثور . وقد أشرف على ايقاف الثور خمسة من الشبان الاقوياء حتى يتوقف عن الحركة ولا يقع الشاب الذى يقوم بالقفز في مكروه نتيجة تحرك الثور .

سادسا : التجديف

علم النيل المصريين ركوب الماء ، فمارسوا التجديف ، ووجدت صور المراكب منذ عصر ما قبل الاسرات على صفحات الفخار ، وتزخر الرسوم المصرية فى المقابر وعلى جدران الكثير من المعابد بالعديد من المراكب التى يقوم فيها ملاحون بالتجديف ، ولكننا لا نستطيع ان نقرر بشكل مؤكد ان بعضا منها كان الهدف

عليه ايها الفريق « وفى الصف السفلى ، نرى تمثيل لعبة شد الحبل ، وتمارين خاصة بالاتزان .

وفى معبد الاقصر (شكل ٥) منظر طريف من عهد رمسيس الثانى (١٣٠١ - ١٢٣٥ ق . م تقريبا) اذ قام بعض النلمان بالتدريب على تمارين صعبة خاصة بحفظ التوازن . فثبتوا لهم صاريامن خشب فى وضع رأسى ، وزودوه بأعواد مائلة مختلفة الاطوال ملساء وتسابقوا على التزلق عليها .

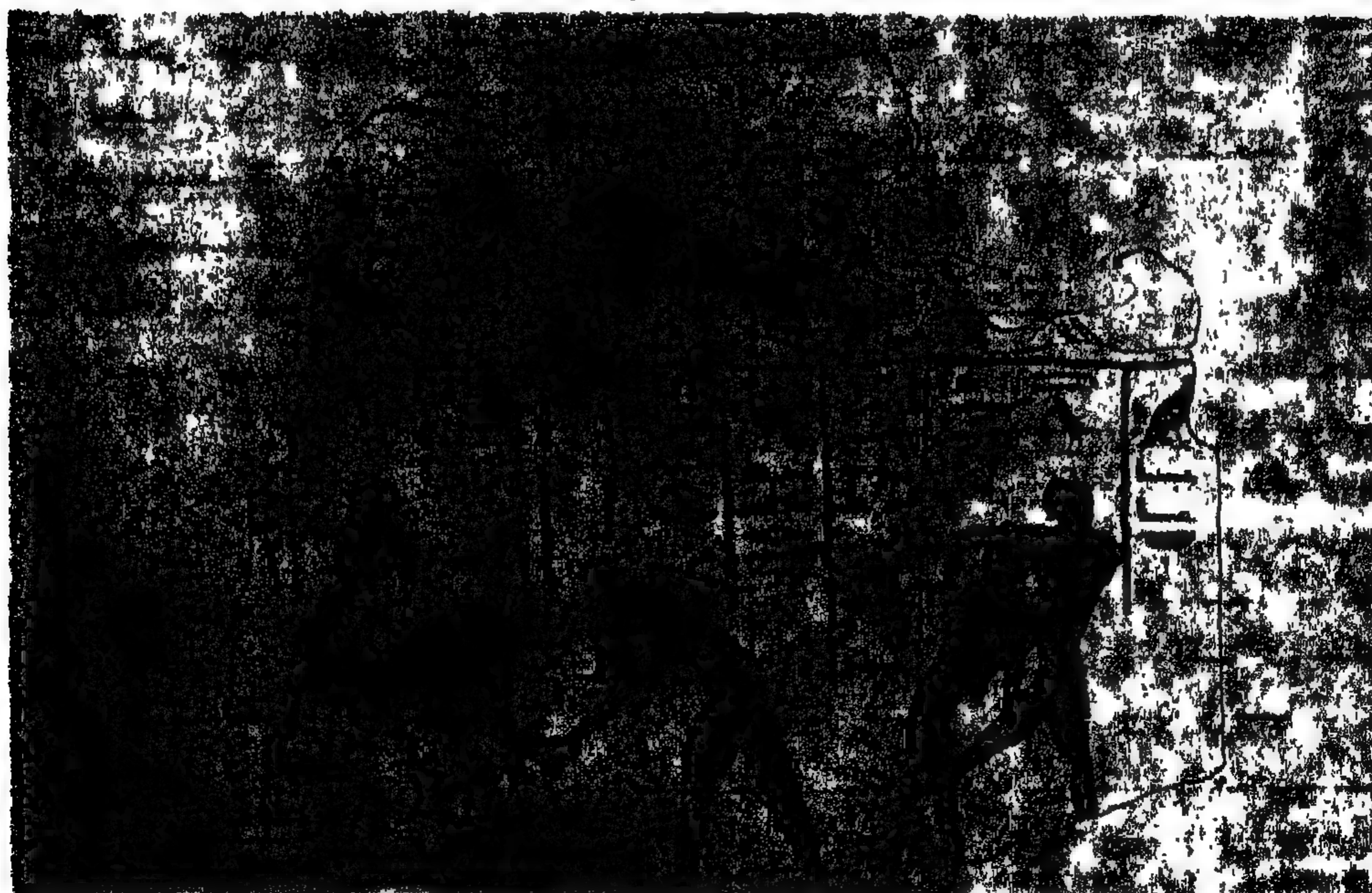
رابعا : التحكيم فى المباريات

اقيمت مباريات مختلفة بين الشباب فى المصارعة ، ووجد ذلك مصورا على الكثير من المقابر منذ الدولة القديمة والوسطى . فعلى صفحة احد جدران مقبرة من الدولة الوسطى بناحية البرشا (٥) مركز ملوى محافظة المنيا (شكل ٦) وليس من شك ان الشخص المثل فى الوسط يمثل فى الغالب حكما ، ونجده ينحن قليلا نحو المتصارعين المصورين على اليمين ليتأكد من سلامة الحركة وقد حاول كل من المتصارعين ايقاع زميله فأحدهما انحنى قليلا وقد قبض على الساق اليسرى لزميله ليطرحة على الارض ، بينما هذا الاخير ضغط بكل قواه على ظهر الزميل المنحنى ليتجنب الوقوع ارضا ولمحاولة الافلات منه . اما المجموعة التى على يسار الحكم ، فنصور فيها المتبارزان على النحو التالى :

اذ نجد المتبارز المصور على يمين هذه المجموعة يحاول طرح غريمه على الارض وذلك برفع ساقه اليسرى ، بينما يعمل غريمه على دفعه وذلك بالقبض على رأسه .



(شكل ٥)



(شكل ٦)

وهذا يذكرنا بما تقوم به الحكومات حاليا من تدبير بعض الوظائف للمبرزين في بعض الألعاب الرياضية . ويحدثنا هذا الضابط في سيرته قائلا « لاحظني الملك عندما كنت أقوم بالتجديف في السفينة الملكية ... ولما ان وصلنا الشاطئ ، احضروني الى جناح في القصر ، ومثلوني امام (امحتب) فبادرني قائلا : لقد عرفت خلقك منذ ان كنت صغيرا ، حينما كنت في جيش والدي ، اني سأضعك في وظيفة طيبة » . (٨)

● ● ●

سابعا : الرقص

ترك لنا المصريون مناظر عديدة تمثل أنواع الرقص . وظهرت دراستان (٩) لهذا الموضوع قبل الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ . وفي نفس التاريخ تقريبا ، قام هنري فيلد H. Wild بمناقشة رسالة عن الرقص في مصر القديمة بمدرسة اللوفر ، وقد ذكر فاندريه J. Vandier في كتابه انه استعان بهذه الرسالة في دراسة موضوع الرقص .

برع المصريون في الرقص ، وظهرت صور الراقصات منذ عصر فجر التاريخ . وحفلت المناظر بمادة تسمح بتقسيم الرقص الى مجموعات مميزة . وجدير بالذكر ، ان الرقص رياضة ، وهو اصلا بمثابة تصريف لطاقة زائدة تكمن في الشخص . وليس من شك ان الصيغة

منه ممارسة تلك الرياضة . انما سوف تسعفنا بعض النصوص بما يشير الى وجود هذه الرياضة عند المصريين . واخيرا ، كشف بهضبة الجيزة عن اقدم مركب بجوار الهرم الاكبر ، وقد اعيد بناؤها فبلغ طولها اكثر من ٤٢ مترا وقد زودت باثني عشر مجدافا بها ما يدل على استخدامها .

وقد مارس الملك امحتب الثاني (١٤٥٠ - ١٤٢٥ ق.م تقريبا) رياضة التجديف . اذ جاء على احد اللوحات التي كشف عنها في الجيزة بجوار ابو الهول والمؤرخة من عهده ما يلي « قوى الدراع ، لا يكل اذا ما قبض على المجداف واخذ يجدف في مؤخرة قاربه الملكي الملقب بالصقر مزودا بمائتين من البحارة عرايا ، وتركوا شاطئ النهر ، وقطفوا ثلثي ميل ، ولكن ضعفت اعضاؤهم وخارت قواهم ولم يستطيعوا التنفس ، بينما ظل جلالته قويا ومعه مجدافه (البالغ) طوله عشرون ذراعا (٣٤ قدما) ورست سفينة الصقر بعد ان قطعت اربعة اميال ضد التيار وهو يجدف دون توقف لحظة واحدة ، وينظر الناس اليه عندما يفعل ذلك » (٧)

وكان الملك امحتب يشجع الرياضيين ، فقد جاء في الخبر انه حينما شاهد احد قواده المدعو امنحاب يقوم بالتجديف بنشاط وقوة في احد القوارب الملكية ، قدم اليه مكافاة ، وذلك بان عينه في وظيفة كبيرة .

(٧) Annales du service des Antiquites de l'Egypte, XXXVII (1937), 139 ff.

(٨) J. Breasted, Ancient Records, II, 809.

(٩) Irena Lexova, Ancient Egyptian Dances, 1935.

وقد قام بترجمته د . محمد جمال الدين مختار الى العربية تحت عنوان : الرقص المصري القديم القاهرة ١٩٦١
(1938) Brunner-Trant, Der Tanz im alten Aegypten وقام هنري فيلد H. Wild بدراسة موضوع الرقص في بحث قدمه الى مدرسة اللوفر للحصول على دبلوم المدرسة تحت اشراف جاك فاندريه Jack Vandier تحت عنوان :
وذكر جاك فاندريه في كتابه : La Danse dans l'Egypte ancienne
Manuel d'Archeologie egyptienne T. IV. p. 391.
قد طبع في ذلك الوقت في دراسة موضوع الرقص .

رشاقة الحركات وتهذيبها ، ففي شكل ٨ نجد حركة رقصة بديعة ، فالراقصة تقف على ساق واحدة ، ورفعت الساق الثانية الى أعلى ، ويميل جذعها الى الخلف ، في حين تمتد ذراعها الى الأمام في وضع مواز للساق المرفوعة ، وهذا وضع يمثل جزءا من حركة وهو بالغ الصعوبة . ويؤكد شكل ٩ ان رقصة «القنطرة» كانت احد اوضاع الرقص المحبوبة ، فهي تمثل قوسا كاملا . كما تصور الفتاة في اللحظة التي تمثل اتمام وضع القنطرة . ويمثل شكل ١٠ الانبطاح (١١) ، اذ ظهرت فتاتان اتكأت ايديهما فوق الارض وتقوس جسماهما حتى تمكنتا من رفع الجزء الاعلى من جسديهما مع انعطاف الرأس الى الخلف ، وقد رفعا السيقان وثنيها في محاولة للمس رأسيهما بها .

ويصعب على الانسان أن يضع حدا فاصلا بين ما يسمى الرقص «الأكروباية» والالعب «الأكروباية» . وامامنا شكل ١١ لأوضاع ثلاثة في دور معقد ، قامت به راقصتان فلدينا فتاتان متماثلتان تمام التماثل ، وقد وقفت الواحدة خلف زميلتها ، وانفرجت سيقانهما . وقامت الاولى بعمل قنطرة وحضنت زميلتها من الوسط ، وانحنى الثانية فوق الاولى وقبضت على وسطها . وتعمل الفتاة الثانية على الوقوف راقعة الفتاة الاولى بحيث تجعل رأسها متجهة الى اسفل في حين تمتد ساقها الى أعلى فيما بين رأس زميلتها . ثم تنحني الفتاة الثانية الى أن لمس الفتاة الاولى الارض . وبهذه الطريقة ، تعودان الى الوضع الاصل بعد تبادلها مواقعهما وادوارهما .

ويجدر في هذه المناسبة ان اضع تحت بصر القارئ الكريم وصف شاب من سيراكوزا

والفتيات كانوا يتدربون على الرقص ، ويقوم على تدريبهم مدرب . فعلى احد جذران مقبرة اهن اخت Ahanakht بالبرشا (١٠) منظر يوضح احدى المدربات تقوم بتدريب فتيات على الرقص ، فنجدها وقد قبضت بيدها اليمنى على عصا صغيرة رفعتها الى أعلى ، وكذلك رفعت ساقها اليسرى وظل الفخذ في شكل مستعرض ووقفت بمواجهتها فتيات يتدربن ، وقد رفعن ايديهن الى أعلى الرأس طبقا للإشارة التي اشارت بها المدربة بالعصا الصغيرة ، وقلدن مدربتهم في حركة الساق اليسرى (وجدير بالذكر اننا لا نستطيع ان نتبين من الرسوم الفرعونية ان كان هؤلاء شبان ام شابات ، لان اردية الرقص متشابهة عند الذكر والانثى كذلك الصدر لكل جنس لم يظهر تماما حتى يتمكن من التمييز ، لان هؤلاء كانوا في مقتبل العمر ولم يكبر بعض الصدر) . وهذه هي اهم انواع الرقص في مصر القديمة .

١ - الرقص الحركي الخالص

يحصل كل من الراقص والمتفرج على المسرة من تلك الحركات . وتحولت الحركات اللاشعورية الى حركات شعورية منظمة عندما يبدأ النظارة في الاهتمام بالرقص ومصاحبه بتصفيق الايدي او بصيحات تنظم الايقاع . وفي الامكان أن ندخل تحت هذا النوع رقصات صورت على اوان فخارية من عصر فجر التاريخ (شكل ٧) ولدينا رقصات ترجع الى عصور احدث . ويدلنا التماثل الذي نلاحظه في بعض الرقصات الجنائزية وغيره من اشكال مشابهة وأوضاع الراقصين على اواني عصر فجر التاريخ في (شكل ٧) .

٢ - الرقص الرياضي :

عملت المنافسة بين بعض الراقصين على زيادة

Newberry, El Bersheh, Vol II, pl. XIV.

(١٠)

Brunner — Traut, Der Tanz in alten Aegypten (1938), p. 39.

(١١)



(شكل ٧)



(شكل ٨)



(شكل ٩)



(شكل ١٠)

- وحفظت لنا مقبرة امير من امراء بنى حسن (١٣) « وهو خنمحبى الذى عاش في عصر سنوسرة الثانى (١٨٩٧ - ١٨٧٧ ق.م) تقريباً . فوق جدران هذه المقبرة نرى منظراً لناووس ابوابه مفتوحة يضم تمثال الامير ، يجره اشخاص ستة وهم يصيحون : قدم الاله ، تنبهوا . وثمة اشخاص خمسة ينشدون نشيدا ، كتب مطلعهم على الناووس ، وهو « تفتح ابواب السماء ويتجلى الاله » . وامام الموكب خمس من المهرجات توشحن بازار قصير وقد سرحن شعورهم على هيئة الاقماع المقطوعة الرؤوس ، وهن يرقصن رقصة بهلوانية (شكل ١٢) وتتجه اربع منهن تجاه الموكب وهن يؤدين حركات مختلفة ، فتري احدهن واقفة وقد مدت ذراعيها الى الامام، كما نرى الثانية قد انثنت الى الخلف وكأنها ستقفز قفزة خطيرة ، والثالثة حنت ظهرها الى الوراء وقد وضعت يمانها على منكبيها الايسر ، والرابعة ثانية ركبتها واضعة يديها على راسها وقد أمسكت بشعرها « عالمه » خامسة تدفع قبضتها اليمنى كما لو كانت تهم بضربها . وتقرأ فوق رؤوس الاولى من المهرجات كلمة « الريح » ، كما تقرأ فوق رؤوس المجموعة التى الى اليسار هذه العبارة « تحت قلبنى » .

وهذا المنظر ، كما يذكر دريتون يفسر ما هو موجود في نصوص التوابيت ، في النص رقم ١٦٢ . تحت عنوان (السيطرة على رياح السماء الاربع) : (تقول الفتيات) لقد اعطيت هذه الرياح .

هذه هى رياح الشمال التى تسر سفن الايونيين .

والتي تمتد ذراعيها حتى اطراف مصر

والتي تغفو بعد ان تمنح اللذة لمن يريدها ، كل يوم

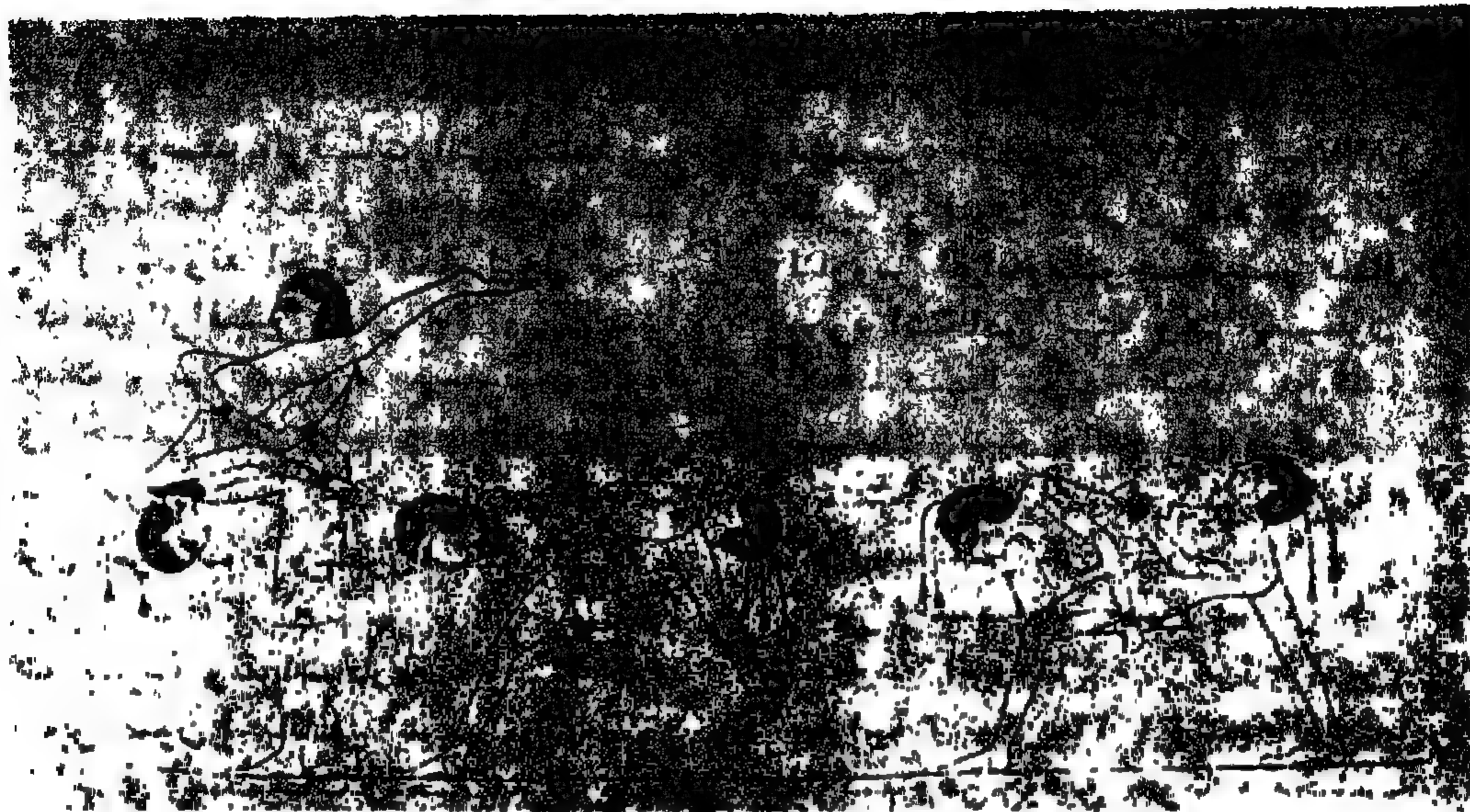
عاصمة جزيرة صقلية من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، كان قد تلقى دعوة من احد المصريين بمنف الى مادبة فوصف الرقصات التى شاهدها ونقتبس منها هنا ما يخص هذا اللون من الرقص فقال : (... وقد اختفوا فجأة ليحل محلهم مجموعة من الراقصين اخذوا يقفزون في جميع الاتجاهات ، ثم يجتمعون مع بعضهم ثانية ، يتسلق احدهم الآخر برشاقة منقطعة النظر ، ويصعد آخرون فوق اكتاف ورؤوس زملائهم ويكونون اهرامات ، ويلفون سقف الصالة : ثم يهبطون فجأة الواحد بعد الآخر ليقوموا بوثبات جديدة وقفزات بارعة ، وهم في حركة دائبة ، يرقصون احيانا على ايديهم ، ويتجمعون احيانا اخرى في مجموعات زوجية ، وقد يهبط احدهم برأسه الى سفل فيما بين ساقي زميله ، ثم يرفعون انفسهم بالتبادل حتى يعودوا الى اوضاعهم الاصلية وكل فرد منهم يحمله زميله ، وعند سقوطه يرفع هو بدوره زميله الى أعلى (١٢) .

٣ - رقص المحاكاة

قلد شعوب العالم الحيوانات : فالوطنيون الافريقيون يمارسون رقصة النعام قبل الصيد وذلك للعمل على استمالة الحيوان . كذلك يحاول الافريقيون محاكاة بعض الظواهر الطبيعية ، فمثلا يحاول بعض السحرة عن طريق رقصات معينة استئزال المطر . على ان رقص المحاكاة عند الشعوب المتحضرة يعمل على ادخال السرور على قلوب الناس . ولم نمثر حتى آخر المقتنيات الحديثة لاثار مصر الفرعونية على رقصة تمثل حركات الحيوانات ولكن جاء على اللوحة التى اقامها بطل تحرير من الهكسوس الملك احموس الاول مايلس (انعكس) بهاذه على محيا الرجال كبهاء آتوم في السماوات الشرقية ، عندما ترقص النعامة في الصحراء .

(١٢) الرقص المصرى القديم ، تأليف ايرينا لكسوف ترجمته د. محمد جمال الدين مختار ص ٢٧

(١٣) المسرح المصرى القديم تأليف اتيبن دريبنوز ترجمته د. ثروت عكاشة القاهرة ١٩٦٧ ص ١٢ وما بعدها .



(شكل ١١)



(شكل ١٢)

وهو يحملنى الى المرقا

● ● ●

ان فطائرى لا عدد لها

اما الفتاتان المشتركتان في الرقص (الى اقصى اليمين في هذه اللوحة فانهما تمثلان منظرا معروفا منذ الاسرة الاولى (٣٢٠٠ ق م . تقريبا) على لوحة نعمر المعروفة والمحفوظة بمتحف القاهرة ، اذ مثل نعمر يضرب احد الاعداء جاث امامه ويهوى عليه بعصا ، وقبض باليد الاخرى على خصلة من شعر رأسه والفتاة الراكعة هنا تمثل ملكا من الاعداء هزيم ، اما الفتاة الواقفة فتمثل ملكا مصريا يقبض بيده اليسرى على شعر ذلك العدو ، وييده اليمنى صولجان الحرب . وقد اصبح هذا المنظر معبرا عن تمثيل انتصار الملك على عدوه . وجدير بالذكر ، ان المصريين آثروا دائما الاختصار في الرسم فسجلوا دائما الحلقة الاخيرة من المنظر وهو تمثيل هزيمة العدو ، انما لا بد ان سبق ذلك كرف وقر وقتال ، ولذلك مثل هنا فقط المنظر الحاسم الذى يعبر عن القصة كلها .

هذا المشهد نراه هنا امام تمثال الميت ، حتى تستطيع روحه التي تمثلها (العاله) وهي الخامسة في المنظر ان تمسك بزمام رياح الجهات الاربع الاصلية وتعيش بها .

والملاحظ ، ان الفتاة التي كانت تمثل ، الرياح ، بسطت ذراعيها ، اما الفتاتان الاخريان ، فكانتا تمثلان بانثناهما النباتات المتميلة وما كان يوجد في المستنقعات من بوص وغاب . وعلى هذا ، فقد استطاع المصريون ان يمثلوا حركات النبات عن طريق رقص المحاكاة ، اما محاكاة الحيوان بالرقص ، فيحتمل ان جسمي الراقصتين في شكل ٢٤ من كتاب الرقص المصرى القديم المذكور في ملاحظة رقم ١٢ يحاكي اجسام كلاب الصيد . وعلى هذا ، فيحتمل جدا ان المصريين عرفوا محاكاة الحيوان والنبات بالرقص .

ان ريح الشمال هي ريح الحياة

اعطيتها وانا احيا بها

(تقول الفتيات)

لقد اعطيت هذه الرياح

ها هي ذى ريح الجنوب التي تهب في صورة زنجى الجنوب

والتي تحضر الماء الذى يبعث الحياة

ان ريح الحياة هي ريح الجنوب

اعطيتها وانا احيا بها

وتحاول فتاة اخرى يمكن ان تطلق عليها اللفظ الدارج الذى عرفناه من قبل تحت اسم (عاله) وتحاول ان تنتزع من الفتيات كنزهن الثمين وتخدعن قائلة سلام يارياح السماء الاربع .

افصحى لى عن اسمائك واسم من اعلاك اياها .

واكشفى لى عن حقك في السبق بها

لقد تسلمتها من قبل ان يولد البشر ،

ومن قبل ان تتكاثر الالهة

ومن قبل ان يقع الطائر في الشرك

ومن قبل ان يشد الحبل حول عنق النور

● ● ●

لقد طلبتها من سيد الرياح

وهو الذى اعطانى اياها

واذ مايتست هذه الفتاة من الرفض .

عملت على نزع الكنل منهن

مستغلة حب الفتيات الى الطعام :

— تعالى في رفقتى ارك قاربى

وانزلك فيه

كلا ، اننى استخدم قاربى

٤ - الرقص الزوجي

لم نحصل على رقص زوجي بالمعنى المتعارف عليه الآن من وجود امرأة ورجل يرقصان وقد احتضن كل منهما الآخر ، او حتى أمسك كل منهما بيد الآخر . فازدواج الراقصين في مصر القديمة اما رجلان أو امرأتان .

فمن الاسرة الخامسة (٢٧٧٨ - ٢٤٢٣ ق.م تقريبا) فتيات يرقصن أزواجا (شكل ١٣) من كتاب الرقص وقد واجهت كل واحدة زميلتها وتماسكن بالأيدي ، وظهرت كل واحدة وهي واقفة على ساق واحدة ، بينما ترفع الساق الثانية بثنية عند الركبة وقد التقت أطراف أصابع القدمين .

ويمثل شكل ١٣ أزواج اربعة من فتيات راقصات ، وقد واجهت كل راقصة زميلتها في ثلاث من هذه المجموعات ، على أن المجموعة الرابعة ، وهي الثانية من اليسار ، ترى إحدى الفتيات وقد أدارت ظهرها لزميلتها ، وهذا ربما يجعلنا نتصور ان الفتيات يقمن بالاستدارة اثناء عملية الرقص .

٥ - الرقص الجماعي المقصود بهذا التعبير ، ان تؤدي الراقصات حركات متباينة لكنها متصلة ببعضها البعض ، مثل الرقصة التي نطلق عليها « الدوران المرح » وقد قام بالرقص فتيان وفتاتان (شكل ١٤) (وجدير بالذكر ، انه في الامكان اعتبار هذا المنظر اشتراك الفتى مع الفتاة في الرقص) .

وشكل ١٥ يمثل اربعة شبان ، انقسموا الى مجموعتين ، وقد تقدم كل زوج ليواجه الزوج الآخر بخطي راقصة ، ووقفت ثلاث فتيات خلف المجموعتين لضبط النغم بالتصفيق .

ويظهر في شكل ١٦ فتاة صغيرة ترقص مستخدمة صنوجا بين راقصتين تلعب احدهما على الطنبور ، وتعزف الثانية بمزمار مزدوج .

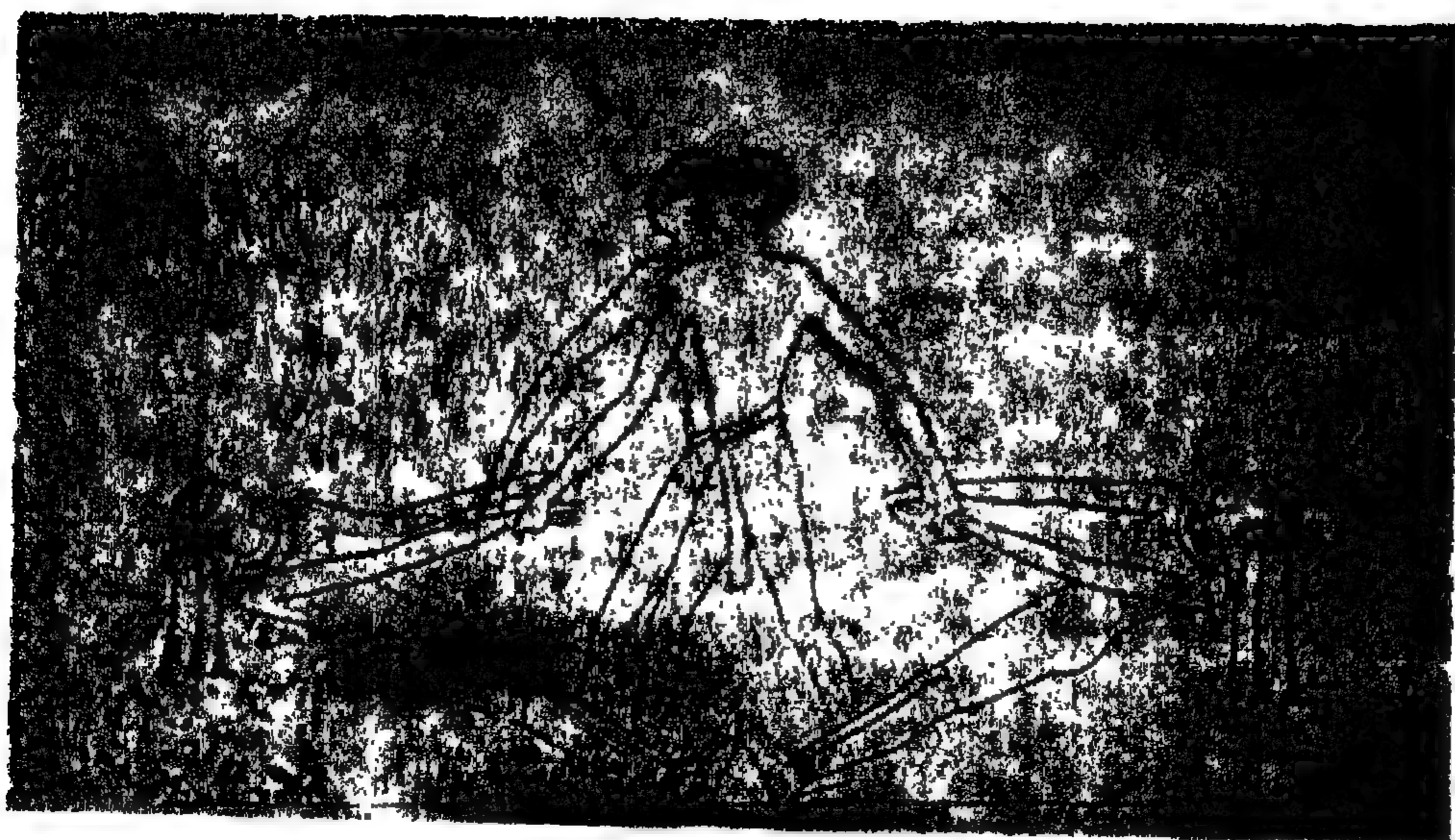
٦ - الرقص الحربي يمثل شكلا ٦٠ ، ٦١ من كتاب الرقص المصري القديم السابق ذكره في الملاحظة رقم ١٢ جنودا مرتزقة في الجيش المصري من النوبة ومن ليبيا ومن آسيا ومن الشراذنة (اغلب الظن أن هؤلاء كانوا من سكان جزيرة سردينيا وقد خدموا في الجيش المصري في الدولة الحديثة وتميزوا بطول القامة) .

ويمارس افراد القوات المسلحة هذا اللون من الرقص والذي أطلقنا عليه تعبير (رقص حربي) في اوقات الراحة ، فتقوم جماعة من الجنود الملونين بالرقص الممثل بحركات غير منتظمة تصحبها صيحات - كما يفعل الزنوج في افريقيا حاليا اثناء الرقص - ويتولى قارع طبله كبيرة - كما نرى حاليا ايضا بين زنوج افريقيا - تنظيم الايقاع وتوجيه حركات الراقصين بالضرب على الطبل . بينما نظم الجنود الليبيون ايقاعهم بطرق عصي من الخشب معقوفة (أو تقليد للعصى المعقوفة) وفي الوقت نفسه ، نرى زملاء لهم استخدموا قطعاً خشبية معقوفة في رقص يمثل المبارزة (تميز الجنود الليبيون بريشة مثبتة في رؤوسهم) . ونرى مثل هذا اللون من الرقص بالعصى المعقوفة ممثلاً أيضاً في قبر خنتي كاوس Khentikaous شكل ٢٠٧ من كتاب فاندييه السابق ذكره في ملاحظة رقم ٥ .

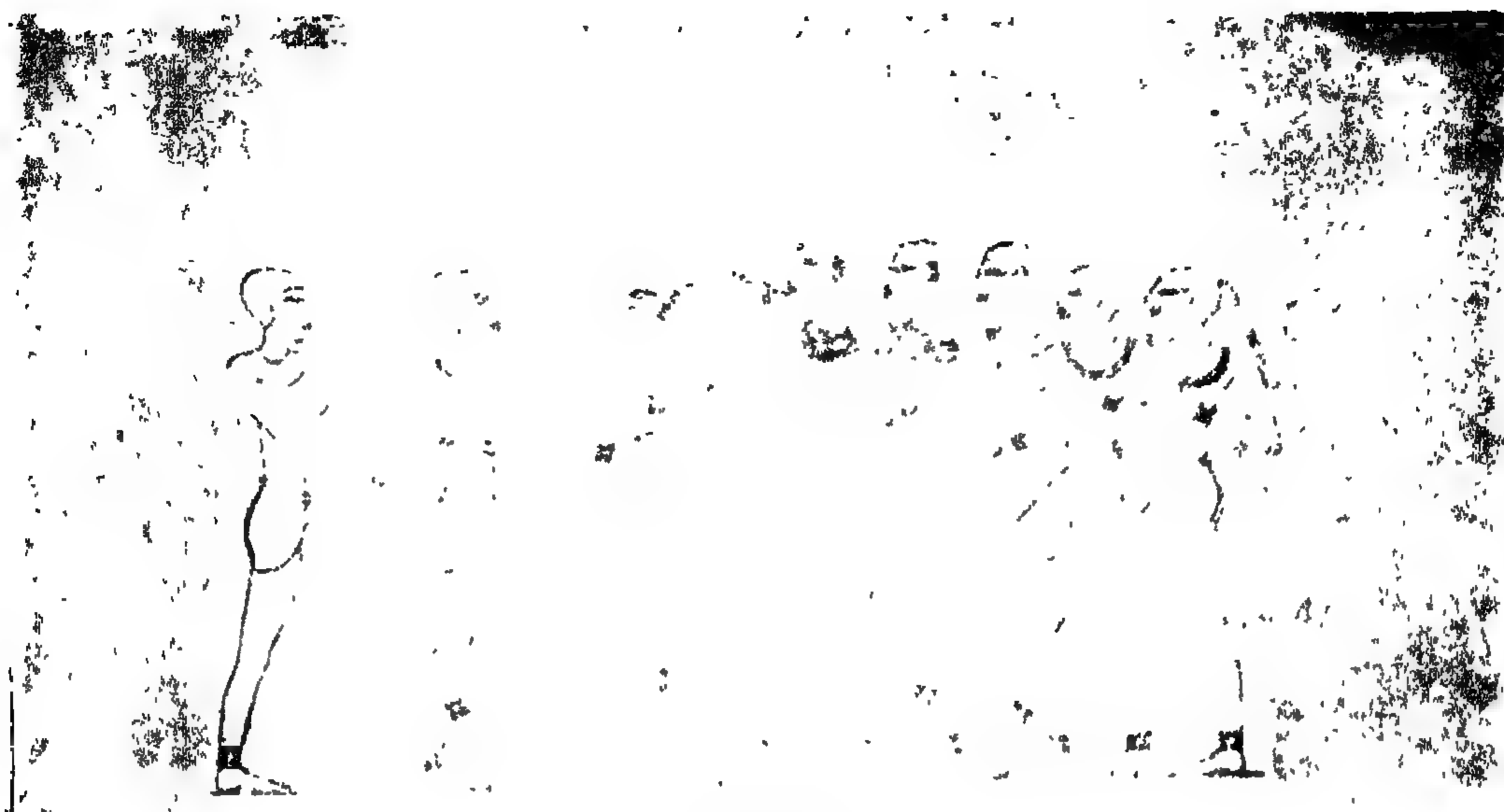
٧ - الرقص الموسيقي : عرف المصريون الرقص الموسيقي ، فقد ذكر أحد سكان سيراكوزا (انظر الملاحظة رقم ١٢ الخاصة بالرقص الرياضي) في هذا الشأن ما يلي : « ووقع نظري على فرقة من الموسيقيين مقبلين نحونا وفي أيديهم آلات موسيقية متنوعة تبينت من بينها الجناك والقيثارة والكناره والمزمار المفرد والمزدوج والدف والصنج . وقد غمرونا طوال الوقت بفيض من الاغاني كان النظارة يصفقون استحسانا لها . ثم استقر في وسط القاعة - عند اشارة معينة - راقص وراقصة مزودين بالمصفاقات ، وهي تتكون من قطعتين مستديرتين ومجوفتين من الخشب توضعان في الكفين



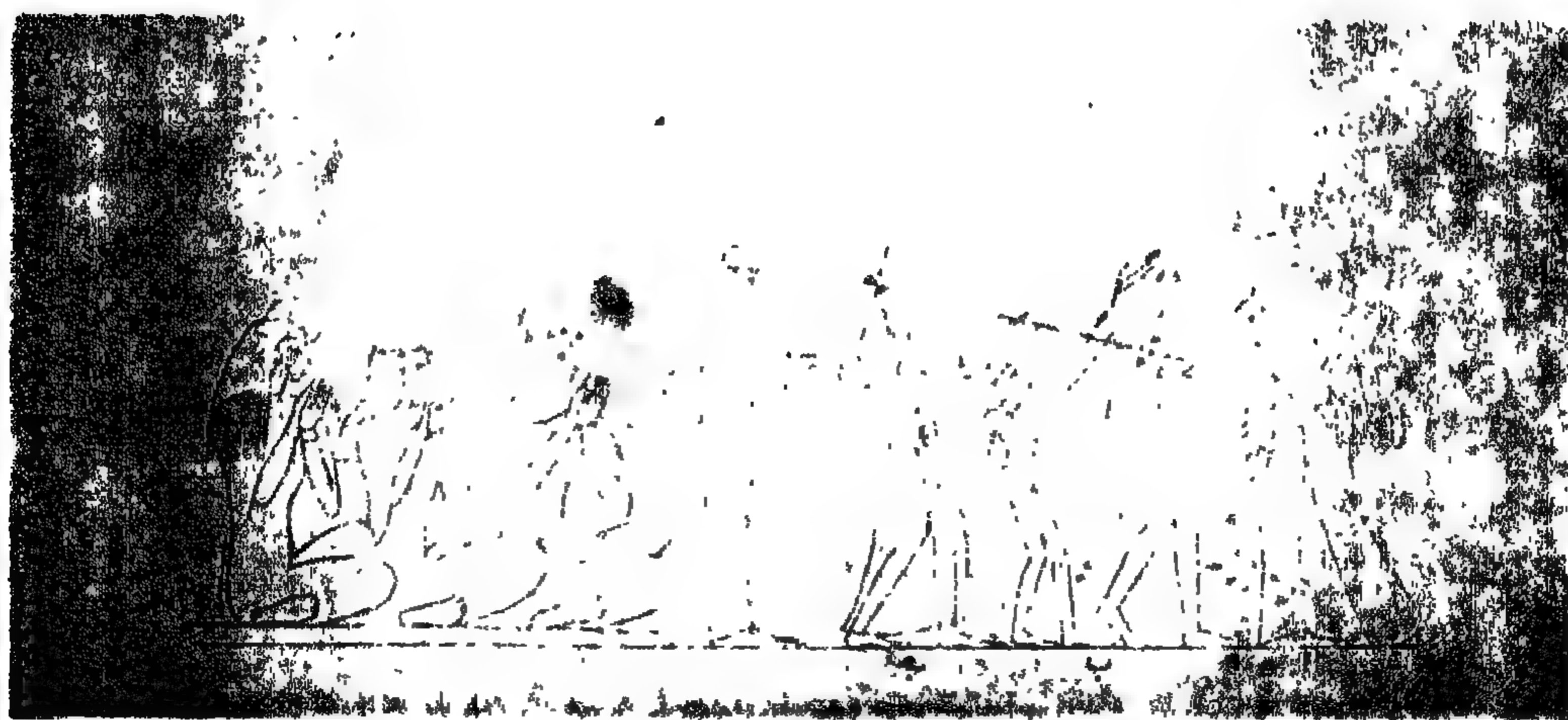
(شكل ١٣)



(شكل ١٤)



(شكل ١٥)



(شكل ١٦)

مثل ذلك الذي سبق أن أوضحناه في شكل ٦ ، واستمر هذا اللون من الرقص في العصر التاريخي ، وكان يمارسه عدد كبير من الراقصين يصاحبهم آخرون يصفقون تصفيقا ايقاعيا ، ويتحرك الراقصون والراقصات منتصبين القامة ، واقفين وأيديهم فوق رؤوسهم من الدولة القديمة . وظهرت رقصات أيضا من العهد الصادي من هذا النوع .

٩ - **الرقص الديني** : مارس الآلهة الرقص في مصر القديمة ، فهذا الحكيم آني يقول : « الغناء والرقص والبخور هي وجبات الآله » وكان البشر أيضا يرقصون من أجل الآلهة . ففي معبد دندره الذي كرس من أجل الآلهة حاتور نجد النص التالي « انا نقرع الطبول من أجل روحها ، ونرقص لجلالها ، ونرفع صورتها للسموات العليا ، فهي سيدة (الصلاصل ، وربة القائد الرنانة ...) هي سيدة أكاليل الرقص ، سيدة الافتتان ، نحن لا نرقص لاحد أو نحى أحدا سوى روحها » (١٤) . وليست لدينا تسجيلات يمكن الاستدلال منها على طريقة تلك الرقصات .

ويبقى سؤال ، من أين اذن اشتقت الرقصات في عصرنا الحالي ، والاضاع القديمة اللوق والتي يدعون أنها مصرية ؟ . غالبا ، ان هذه الرقصات وجدت عند الاتروسكانيين أو ما نسميهم الاتروريين (وهم شعب غامض ، هاجر في الغالب من آسيا الصغرى الى ايطاليا في القرن الثامن قبل الميلاد ، فاضع السكان الاصليين ، وأسس عددا من المدن المستقلة ، وتميز بنشاطه في الحرب والتجارة) (انظر كلا من شكل ٧٧ وشكل ٧٨ من كتاب الرقص المصري القديم ملاحظة رقم ١٢ ، وهما يمثلان نماذج صور لراقصين وراقصات من قبور اترسكانية نقلا من كتاب :

Fritz Weege : "Der Tanz in der Antik", 1926.

فتنتظم خطوات الرقص على دقاتهما . وقد رقص هذان الراقصان منفردين حينما ، ومعا في شكل متناسق حينما آخر . وكانا ينضمان معا ، ثم يتباعدان ، ثم لا يلبثان أن يقتربا من بعضهما مرة أخرى . وقد جرى الراقص الصغير وراء زميلته متتبعا لها وقد بدت عليه تعبيرات رقيقة تنم عن الرغبة . اما الفتاة فكانت تهرب باستمرار ، وهي تدور ولف وكأنها ترفض محاولاته بعد هذه المطارحة الفرامية .

ويرمز شكل ٥ من كتاب الرقص المصري القديم الى تمثيل رقص تصاحبه الموسيقى ، فتظهر الفتاة الوسطى وهي تتقدم بطلب في تواضع ، بينما الفتاة الاخرى تقف امامها أغلب الظن انها تتردد في الاستجابة لطلب زميلتها ، وتظهر فتاة ثالثة الى اليمين ويدها آلة موسيقية .

وبغير مجهود رقم ١٢٩ بطيبة (انظر شكل 1, 247 من كتاب فاندیه Vandier الذي ذكر في الملاحظة رقم (٥) ، تظهر احدي الراقصات ، وهي شابة صغيرة ، تغطي وجهها بشعرها وذراعيها ، وزميلتها من خلفها اكتفت بتشابك كفيها . اما الجوقة فتتكون من اربع سيدات : حاملة القيثار ، نافخة مزمار مزدوج تلتفت بوجهها الى زميلتها ، واخرى تحمل ربابا ، واخرى بيدها طبله مستطيلة .

٨ - **الرقص الجنازي**

يمكن تميز ثلاثة أنواع من الرقص الجنازي : الاول الرقص الطقسي ، وهو لون من الطقوس الجنازية ، والثاني يتمثل في الحركات التي تعبر عن الحزن ، والثالث الرقص الدنيوي وكان يؤدي بغرض الترفيه عن روح الموتى .

وقد ظهر هذا النوع منذ عصر فجر التاريخ

اما عن الرقص التوقيعى للرجال على التصفيق بالايدي فهو كثير منذ الدولة القديمة، وكذلك الرقص التوقيعى للسيدات على التصفيق بالايدي ، واستمر طوال التاريخ المصرى القديم .



ثانيا : رفع الاثقال

لدينا صورة فريدة من نوعها ، غالبا تبين رفع الاثقال عند قدماء المصريين ، من قبر الشريف باقت من بنى حسن ، من الاسرة الحادية عشرة ، التى حكمت مصر خلال الفترة من ٢٠٤٠ - ١٩٩١ ق.م تقريبا . (شكل ١٧) . وهى تمثل محاولة رفع كيس مملوء بحبوب او رمال تقريبا يساعد واحد الى اعلى ، مع الاحتفاظ بالكيس فى وضع قائم . وهذه هى الطريقة المتبعة فى الريف المصرى حتى اليوم .

تاسعا : الرماية

اهتم المصريون بالرماية لانها من ضروريات ممارسة الصيد البرى ، وكذلك لازمة للاموال الحربية وخوض المعارك . واعتنى فراعنة مصر بهذا اللون من الوان الرياضة وكلف الملك تحتمس الثالث (١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م تقريبا) احد قواده ويدعى (مين) برماية ولده امنحتب منذ ان كان طفلا . وصور وهو يتدرب على الرماية حينما اشتد عوده ، مرتديا ثوبا شفافا فضفاضا حتى لا يقيد حركاته (شكل ١٨) و صوب سهمه نحو هدف وضعوه امامه ، وكان قد اصابه بأربعة سهام . اما مدربه (مين) فقد وقف خلفه يراقبه ، يسدى اليه النصيح حتى يتمكن من اصابة الهدف . ومن الطريف ان الفنان المصرى القديم زود هذه اللوحة بعنوان يدل عليها ، فقد كتب فوق المنظر ما يلى : « الامير (امنحتب) يتمتع بدرس فى الرماية فى ردهة القصر الفسيحة فى ثينى (وهى حاليا احدى اقرى محافظة سوهاج بالقرب من

جرجا) . وصاحب المنظر ما يلى انه (مين) الذى لقن الصغير الاسس الاولى فى تعليم الرماية » . قائلا « شد القوس حتى اذنك ، واستخدم كل قوة ذراعيك وثبت السهم ... ايها الامير (امنحتب) » .

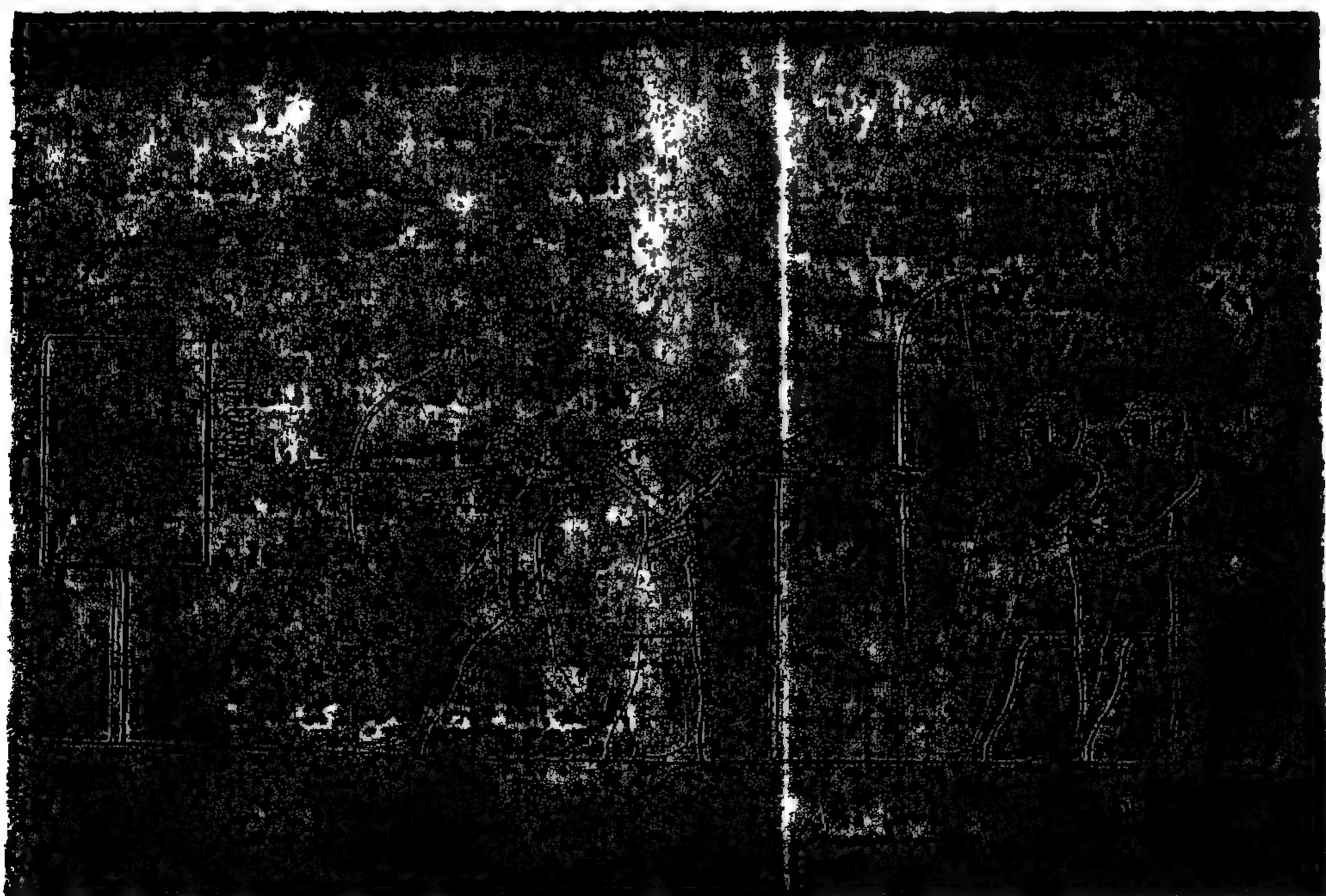
وقد احب امنحتب قوسه هذا حتى انه لما مات اثر ان يدفن الى جواره ، فعثر فى قبره على قوس كبير من الخشب والقرن ، وبدون شك هو احد الاقواس التى استخدمها فى اصابة الاهداف . وكان كثيرا ما يقول : « انه لا يوجد رجل يستطيع ان يشد قوسه من رجال جيشه ، او بين حكام البلاد الاجنبية » .

وجاء على لوح الجيزة المؤرخ من عهد امنحتب الثانى ، انهم نصبوا له هدفا من نحاس فى هضبة الجيزة . وقبل ان يصوب نحو الهدف « قام باختبار ثلثمائة قوس ليميز صناعة الفخ من الثمين » ، مثلما يفعل الرياضيون الآن عند اختبار ادوات الالعاب الرياضية قبل البدء فى استخدامها . ثم يستطرد النص : « وقد جاء ليفعل ما وضع امام وجوهكم ، ودخل مكان التدريبات ، فوجدهم ثبتوا له اربعة اهداف من النحاس الاسيوى سمك راحة اليد ، وبين كل هدف والاخر عشرون ذراعا . وبعد ذلك ظهر جلالته على مركبته مثل (مونتو) فى قوته ، فقبض على قوسه ، واخذ فى يده اربعة سهام دفعة واحدة ، واتجه الى الشمال ، وصوب نحو (الهدف) مثل (مونتو) فى زينته ، فخرجت سهامه من خلفه (الهدف) . بعد ذلك ، رمى هدفا آخر . وهذا (العمل) لم يؤت ابدا من (قبل) ، ولم يسمع به من ان سهما صوب على هدف من النحاس فأخرج وأسقط على الارض » .

كيف يتم مروق سهم فى هدف من نحاس ؟ فى الواقع ، لا يمكن تصديق مثل هذا العمل ، الا ان يكون الهدف به عدة ثقوب ، وكان على المصوب ان يسدد سهمه فى احد تلك



(شكل ١٧)



(شكل ١٨)

« سباحة الزحف » ، وهى أحدث وأسرع طرق السباحة (شكل ٢٠) .

٣ - على احدى جدران قبراخيتوى من الاسرة الحادية عشرة ببنى حسن منظر يمثل سباحة الجنود عندما سقطوا فى الماء . فنرى سباحة الزحف وسباحة الصدر والسباحة على الظهر (شكل ٢١) .

٤ - بمتحف اللوفر بباريس اثر يحمل رقم ١٧٢٥ من الاسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ - ١٣٠٦ ق م تقريبا هو فى الواقع يمثل اداة من ادوات التجميل ، اغلب الظن انها مغرفة كانت تضم مسحوقا من مساحيق التجميل . ويد هذه الاداة على هيئة سيدة تقوم بالتدريب على سباحة الصدر (وتزخر دور التحف العالمية بنماذج من هذا النوع الذى يمثل سيدات يُسبحن ، بعضها يمثل سباحة الغطس) متحف موسكو تحت رقم ٣٦٢٧) . وفى جميع هذه الادوات يبرز جمال الجسم ، ودقة اداء حركات السباحة .

٥ - بمعبد رمسيس الثانى (١٣٠٢ - ٢٣٥٠ ق م تقريبا) بالعراة المدفونة (١٦) مركز البلينا ، محافظة سوهاج ، منظر على الحائط الخارجى للمعبد من معركة قادش . وقد ظهر ملك حلب وقد سقط فى النهر ، فأنقذوه وذلك بقلبه بحيث تكون رأسه الى أسفل ، ليتم تفريغ الماء من جوفه (المنظر على الحائط الخارجى الشمالى ، فى الطرف الغربى) . كذلك منظر على نفس الحائط يوضح كيفية المعاونة على السباحة .

٦ - بمتحف تورينو بايطاليا اثر يحمل رقم ٩٥٤٧ يمثل سباحة تصطاد طيور الماء ، وهى مؤرخة من الاسرة العشرين (١٢٠٠ - ١٠٨٥ ق م) تقريبا . واثر آخر بالمتحف المصرى يحمل رقم

الثقوب التى تتسع لمرور السهام . وقد شوهد الملك آى فوق عربته امام امراء من الاجانب يشد قوسه ويصوب سهمه نحو الهدف الذى وضع امامه ، ولوحظ على الهدف عدة ثقوب مرسومة بالمداد . هذا ، وجدير بالذكر أن المصريين كانوا يعتبرون فرعون مصر الها يأتى بالخوارق . وفرعون مصر امنحتب الثانى واحد من هؤلاء .

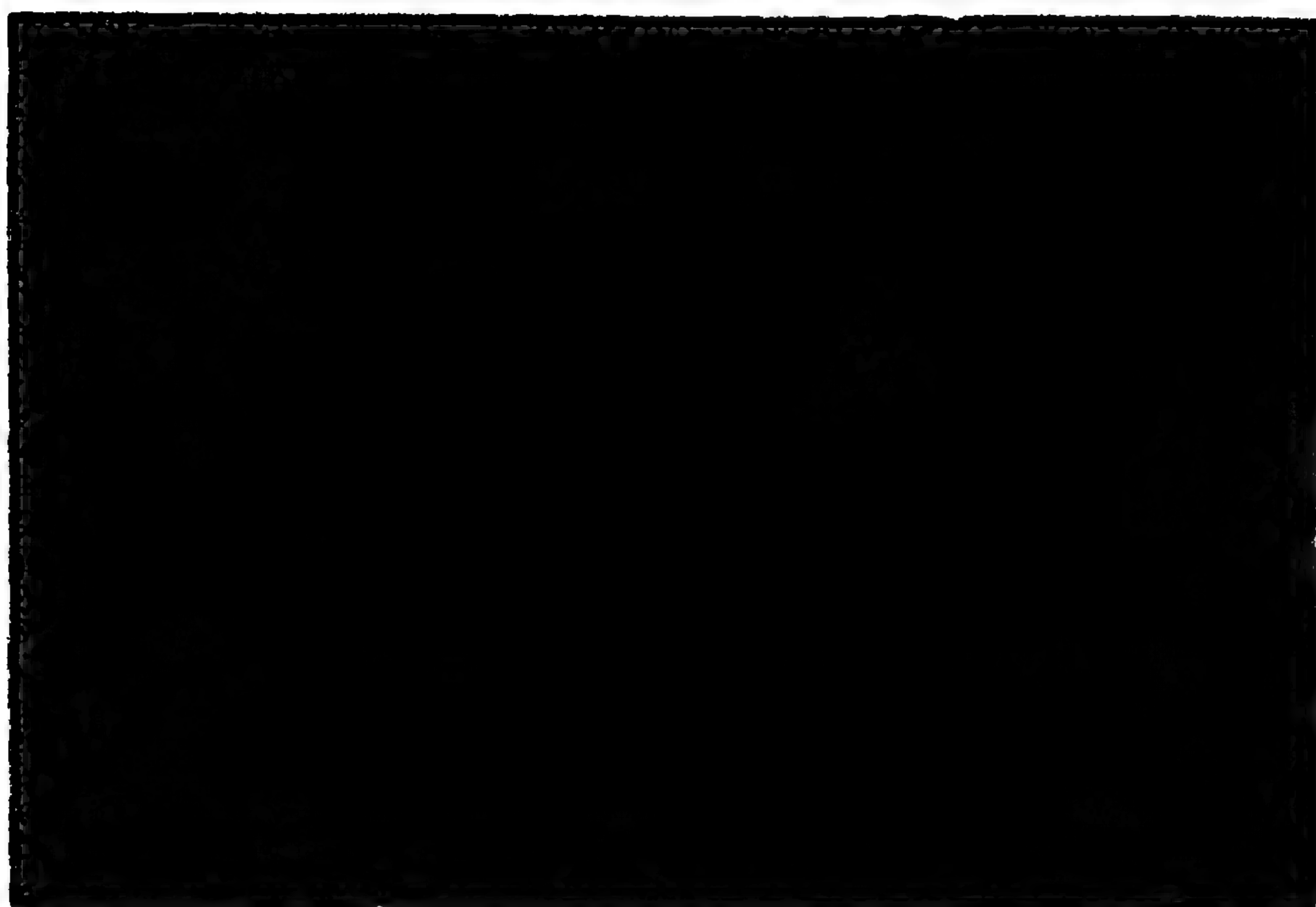
والى القارىء الكريم منظرا يمثل رمسيس الثانى يشد قوسه من فوق العربة الحربية (شكل ١٩) .

عاشرا : السباحة

كان النيل هو الملهم الاول للمصريين فى جميع أمورهم ، فعلمهم السباحة ، وعلى سبيل المثال ، لدينا نص على احدى صفحات قبر احد حكام محافظة اسيوط من العهد الاهناسى ، من الاسرة التاسعة (٢١٦٠ - ٢١٣٠ ق م) تقريبا وهو اخيتوى (١٥) « الذى ذكر لنا على صفحات قبره ، كيف تربي صغيرا فى القصر باهناسيا مع أبناء الملك ، واهتم بواقعة من نوع لم نألفه من قبل ، وهو تعلمه السباحة مع اولاد الملك ، وذكر لنا ان أمه كانت تشرف على المحافظة ، اثناء فترة تدريبه ، على تلك الرياضة » . ولدينا لوحات تمثل مختلف ألوان السباحة وهى :

١ - سباحة اشبه بالزحف بين قوارب الصيد الذين يتبارزون . وهى من قبر بصقارة من الاسرة الخامسة (انظر شكل ٥٥ من كتاب تاريخ الرياضة السابق ذكره) .

٢ - بالمتحف المصرى بالقاهرة اثر نحت رقم ١٣٤٦٦ المؤرخ بالسنة ٢٢٠٠ ق م تقريبا ، يوضح لونا من ألوان السباحة وهى ما نسميه



(شكل ١٩)



(شكل ٢٠)



(شكل ٢١)

لها . واهملت النصوص ذكر قيام كل من الملك سيتي الاول ورمسيس الثاني من الاسرة التاسعة عشرة بصيد الفيلة في وادي الفرات ، أو الخريت في الجندل الثالث والرابع في النيل ، ولكن لدينا منظر طريف مصور على إحدى حوائط معبد سيتي الاول بالعرابة المدفونة يصور الملك وأميرا يقومان بالامساك بعجل من عجول التضحية . فيرى الملك وهو يستخدم الوهق (حبل في طرفه أنشودة تصاد به الدابة lasso) في القبض على الحيوان ، بينما يقوم الأمير بجذب الثور من ذيله . ويقول النص ما يلي : « الامساك بعجل مصر العليا بواسطة الملك » (١٧) .

ولكن النقوش الغائرة في معبد مدينة هابو تمثل الملك رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ ق.م تقريبا) وهو يقوم بصيد أسد وثور وحشى وأحد الوهول . ومثل الملك فوق عربته ، وتحت بطن حصاني العربة أسد جريح ، انقلب على ظهره محاولا ان ينزع بمخالبه سهمًا أصابه في صدره . وكذلك أسد آخر طعن برمحين وحربة يتجه نحو أجمة من الغاب ليختبئ فيها ، وأسد ثالث يثب في وسط أجمة خلف العربة . وفي منظر آخر ، يطارد الملك قطيعا من الثيران الوحشية ، وصور أحد الثيران مثخنا بجروح السهم التي تمكنت من ظهره ، وقد ارتدى داخل الأجمة ، واخذ يتلوى ويضرب الهواء برجليه . بينما تمرغ ثور آخر تحت أرجل الخيل ، وحاول ثالث الوثوب في الماء .

أما صيد الوهول ، فقد مثل خير تمثيل في مقابر الاشراف ، وعلى جدران دور العبادة عبر التاريخ المصرى القديم . وظهر المصريون وهم يصوبون السهام نحو حيوانات الصحراء .

استخدم المصريون طرقا كثيرة لصيد الحيوانات : طريقة الخية والانشودة (الوهق)

٣٧٩١٣ مؤرخ من (٦٥٠ - ٥٠٠ ق م) تقريبا يمثل أيضا سباحة تصطاد طيورًا مائية .

حادى عشر : الصيد والقنص

الصيد لون من ألوان الرياضة ، فلا بد أن يكون الصياد على علم تام بكيفية إصابة الهدف ، ولذلك فعليه تعلم الرماية خصوصا في تلك العصور القديمة التي لم تظهر فيها الوسائل الحديثة للصيد ، وشد القوس وتسديد السهم نحو الهدف تمرين طيب لعضلات الجسم وتقوية البصر، كما ان ممارسة الصيد في الهواء الطلق ، تعطى الصائد فرصة التمتع باستنشاق الهواء النقى ، ومشاهدة المناظر الطبيعية في الصحراء والاحراش . الى جانب ذلك ، فمن الواجب على من يمارس الصيد أن يعرف طبائع الحيوانات البرية والمائية واصواتها والوانها ليتمكن من اصطيادها في سهولة ويسر ، حتى تقع في حوزته أحيانا حية وذلك بطريق الشباك . والمحترفون من الصيادين يجدون فرصا طيبة في كسب معيشتهم من هذه الحرفة .

مارس المصريون كل أنواع الصيد منذ فجر التاريخ ، البرى والمائى ، في داخل البلاد وخارجها . وجاء في أحد النصوص من عهد الملك تحتمس الثالث انه في إحدى حملاته في آسيا ، عند غابة (نى) بالقرب من نهر الفرات، لاحظ الملك قطيعا من الفيلة بلغ ١٢٠ فيلا ، وبينما كان الملك يصوب سهامه نحوها هجم عليه أحد الافيال ، ولكن من حسن حظ الملك ان احذر فقاؤه من رجال الجيش وهو امنحاج تقدم بسرعة وقطع خرطوم هذا الفيل . وقد مارس ولده من بعده ، وهو الملك امنحتب الثانى هواية الصيد ، وسجل ذلك على لوح كشف بميت رهينه ، جاء فيه ان الملك توجه وبعض رجاله الى غابة (رينى) ، واضطادوا غزلانا ومهارة وارانب وحمرا وحشية لا حصر

وطريقة الفخ . واستعانوا في الصيد بالكلاب ، واقتنوا منها أنواعا لها قدره على اقتفاء الاثر ومهاجمة الفريسة واحضارها الى الصائد دون ان تصاب بضرر ، ودربوها على القنص والمطاردة (ولدينا منظر طريف يمثل كلابا للصيد وهي تقبض على غزلان منقوش نقشا بارزا على احدى الاقراص بمقبرة حمكا من الاسرة الاولى) .

وطاردوا حيوانات الصحارى مستخدمين القوس والسهم . وقام الهواة من الصيادين في الصباح الباكر يرافقهم عدد كبير من الخدم والاتباع . ولجا كثير من هؤلاء الاتباع الى اقامة شباك تحيط بمساحة من الارض يتركون أحد جوانبها مفتوحا ، ثم يطلقون كلاب الصيد لاحالة الحيوانات ، بينما ينتشر الصيادون في المكان محاولين بالسهم توجيه الحيوانات داخل الشباك .

صور فرعون مصر ساحورع من الاسرة الخامسة (٢٥٦٣ - ٢٤٢٣ ق.م تقريبا) وهو يصطاد حيوانات الصحراء ، وقام اتباعه بتوجيهها الى مكان محدود حتى يمكن اصطيادها .

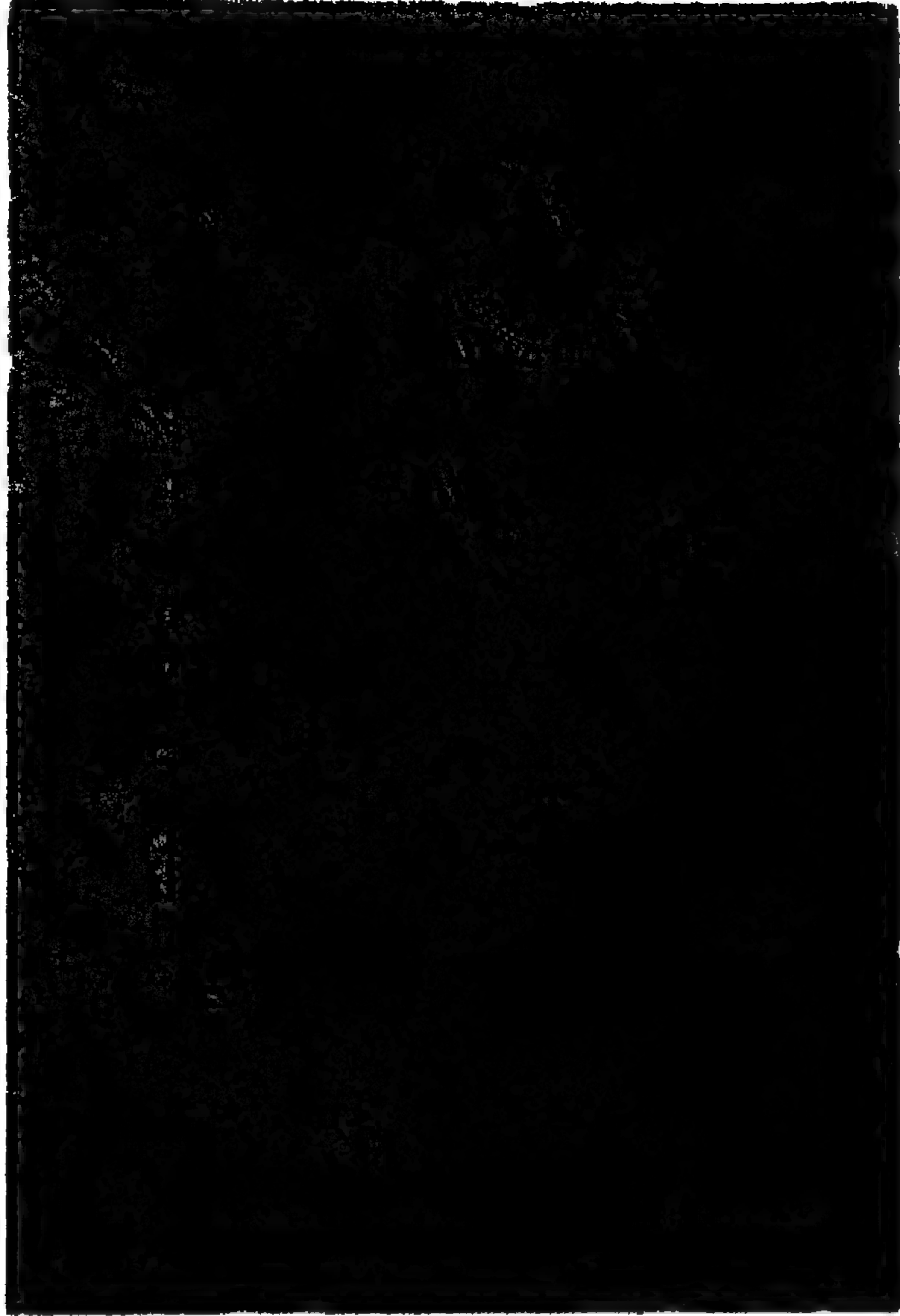
ومارس المصريون القدماء قنص الطيور بعصي الرماية المعقوفة التي كانوا يفضلونها على القوس والسهم ، ومن الجائز ان تكون العصا المعقوفة في الاساس لها اصل اجنبى ، وان المصريين استوردوها ، اذ نجدها أحيانا بأيدي الجند النوبيين (وجدير بالذكر انه عثر على عصا معقوفة في حضارة البدارى من عصر النحاس) في الدولة الحديثة وليست بأيدي الجند النوبيين (وجدير بالذكر انه عثر على المناظر التي يمارس فيها الصيد بالعصا المعقوفة انه في اللحظة التي يظهر فيها الشريف وهو يصوب نحو الطيور يقبض في يده الاخرى

على طيور . ويذكر فان دى فال (١٨) Van de Valle ان هذه الطيور كانت تلعب دور الصفارات المندرة .

اما عن أهم الطيور في هذا العهد فهي : الاوز ، البط ، الكركى ، السجع ، السمان ، العصفير . وحرّم المصريون صيد بعض الطيور المقدسة كالصقر الذى كان يرمز للمعبود (حور) وطائر يشبه ما نسميه حاليا أبو منجل ، وكان يرمز للاله جحوتى ، اله الحكمة .

اما عن الطريقة التى اتبعوها في ذلك النوع من الصيد ، فهي ان يختبئ الصياد بقربه في احدى المستنقعات المليئة بالبردى ويمسك في يده اليسرى عصا الرماية . وهي عبارة عن قطعة من الخشب منحنية عند ثلثها الاخير في شكل زاوية منفرجة ، وهي تشبه الى حد كبير عصا البومارانج boomerang التى يستخدمها الاستراليون القدامى ، فاذا ما شاهد الصائد سريا من الطيور ، قذف الصائد بيده اليمنى ، ثم اتبعها بغيرها . ويتتابع انطلاق العصا ، في حركة دائرية ، فتصيب الكثير من الطيور التى تسقط بين احراش البردى ، ويسرع احد الاتباع او الزوجة في التقاطها (شكل ٢٢) وهو يوضح احد الاشراف يقوم بالصيد بالعصا المعقوفة .

كذلك ، اشرف النبلاء على ايقاع الطيور في الفخاخ او في قنصها بشباك طويلة تنشر ويتولى الاشراف على مسكها بحبال عدد كبير من الرجال . وحين تنقض الطيور على الشباك لالتقاط الحب ، وتتجمع اعداد كبيرة منها ، يعطى رجل مختبئ في الاحراش اشارة الى زملائه القابضين على حبال الشباك فيشدونها ، وتغلق على ما تضمه من طيور .



(شكل ٢٢)

وظهر الشريف فقط كمتفرج . وفي المنظر الذي ذكرناه في دير الجداوى مخالفا لتسلك القاعدة ، شوهد صيد فرس النهر على غير الطريقة المألوفة وسط عمود من الماء ، وقد صوب نحوه الأمير أو ابنه . ويعمل يونكر وجود عمود الماء هذا ، بأن أقدم منظر للصيد بالحربة كان ملكيا ، والناس دائما على دين ملوكهم . ولم يظهر الملوك الا في أوضاع لائقة بمراكزهم ، فلا نراهم مثلا وهم يستحمون ، وإذا كان الفنان حقيقة يريد تصوير الصائد تصويرا حقيقيا ، كان عليه أن يصور الصائد منحنيا ، ويقوم بمجهود حقيقي ليرفع السمك ثقيل الوزن الذي نواه وقد يغلق في حركته بطريقة لا توحى بحقيقة الوضع تماما . وعلى هذا ، لم يقبل الفنان تصوير الملك منحنيا من أجل ذلك ، صور الماء أمامه على هيئة عمود . ولقد الاشراف الملوك في هذه المناظر . وجدير بالذكر ، ان عمود الماء هذا اختلف في المناظر من حيث الشكل والارتفاع .

وسجل صيد فرس النهر منذ الاسرة الاولى ، ووجد ذلك على ختم اسطوانية للملك اوديمو Oudimou ، وظهر صيد فرس النهر في مقابر من الدولة القديمة والوسطى والحديثة . وكانوا يقومون بصيد فرس النهر بحراب طويلة ذات انصال معدنية وتتصل بهذه الحراب حبال طويلة تستخدم في سحب القريسة بها عوامات ليتمكن الصائد من متابعتها اذا فقدت منه . وكان صيد هذا الحيوان مثيرا وخطيرا . وكانوا يلاحقونه عندما يظهر فوق سطح الماء فيسارعون بتسديد الحراب الى اجزاء جسمه ، ويفصلون

اما عن صيد الاسماك : فقد قام المصريون باستخدام العديد من الوسائل : فقام المحترفون باستخدام الشباك على مختلف اشكالها واحجامها والسلال والشصوص المتعددة السنائر . اما هواة الصيد ، فاستعملوا الحراب . ونرى دائما منظر الشريف وهو يصوب نحو سمكة أو سمكتين ، وقد تعلق السمك بخطاف الحربة خارج المياه . ولكن كما ذكر مونتيه (١٩) P. Montet نرى عمودا من الماء أمام الصياد الذي وقف في القارب ، وقد سدد حركته في السمك الذي ظهر مغروزا في خطاف الحربة ، واطلق على هذا المنظر (جبل من الماء La montgne d'cau نقلا عن التعبير الالماني Wasserberg كما تحدث عنه (١٧) Schäfer شيفر في منظر مصور على احدى مقابر دير الجبراوى بمحافظة أسيوط . وهو يشير الى أن الصائد قام بالتصويب على السمك في الماء . وتساءل يونكر Junker كما يقول فانديه (٢٠) ، أن كلا من شيفر وكذلك بالسز Balcz لم يفسرا لماذا لم يظهر عمود الماء هذا فقط الا في حالة صيد السمك بواسطة الحربة ، ولا يظهر عمود الماء في صيد فرس النيل وكذلك في الصيد بالشباك التي على هيئة حقائب ، أو الشباك المثلية فيما عدا حالة واحدة بدير الجداوى . (٢١) فمن أين اذن جاء هذا المنظر الغريب للصيد بالحربة . لاحظنا في جميع المناظر التي مثل فيها الصيد بالحربة الشريف ومعه عادة ابنه البكر . وفي بقية مناظر الصيد الاخرى ، نجد ان الذين يمارسون الصيد فلاحون عاديون ،

P, Montet, Les Scenes de la vie privée dans les tombeaux egyptiens de l'Ancien, (١٩) Empire. Publications de la Faculté des Lettres de l'Université de Strasbourg, fasc. 24, Strasbourg, 1925, p. 20.

(٢٠) انظر مقالا لي في مجلة كلية الاداب والتربية جامعة الكويت ١٩٧٩ تحت عنوان نظرات عابرة عن الصيد والقنص في مصر القديمة ص ١١٢ -

Vandier, ibid, p. 731 et seq.

وأقدم منظر معروف لدينا حتى آخر
المقتنيات الحديثة ظهر فيه استخدام الحصان
للكوب هو غالبا من أيام تحتمس الثالث .
اذ يحتفظ متحف متروبوليتان Metropolitan
بنيو يورك على لوحة من حجر السيتيت
Steatite مغطاة بالخزف ، وعلى أحد
وجهيها مصرى يمتطى جوادا ويده مقمعة
وقوس يدوس عدوا طرح أرضا . وعلى الوجه
الأخر اسم تحتمس الثالث داخل خرطوش .
ولا نستطيع ان تؤكد تماما ان كان هذا الفارس
هو تحتمس الثالث نفسه ، لانه لم يظهر عليه
التاج كذلك لم يضع أى إشارة على جبهته
من شارات الملك . ولدينا من أواخر الأسرة
الثامنة عشرة المناظر الآتية التى استخدم
فيها الحصان للركوب .

١ - منظر يمثل تحتمس الرابع يتعبد
الى اله يمتطى حصانا وذلك على كسرة
Ostracox من الحجر الجيرى .

٢ - منظر فى متحف بولونيا بايطاليا يصور
أحد العساكر يمتطى حصانا

٣ - منظر بمتحف

Royal Scottish Museum at Edinburgh
على قطعة من الحجر الجيرى ، وغالبا ماتكون
من صقارة ، يمثل رجلا يمتطى جوادا .

٤ - تمثال صغير من الخشب يمثل حصانا
على ظهره رجل بمتحف المتروبوليتان .

٥ - لعبة بمتحف المتروبوليتان ، عبارة
عن عربة مثل عليها رسم ملون يبين رجلا
يمتطى حصانا .

٦ - على أحد أسلحة الحرب (بلطة)
المصنوعة من البرونز منظر يمثل رجلا يمتطى

الحراب بهزات خفيفة ، ويفوص فرس النهر
المتألم فى الماء ، ثم يظهر ليلتقط أنفاسه ،
فيوجهون نحوه الضربات حتى يصيبه الارهاق
ويسحب ، كذلك أيضا مارسوا صيد
التماسيح .

ثانى عشر : الفروسية

ناقش (٢٢) ريتشارد شولمان

Alan Richard Schulman فى مقاله هذا
راى هلك Helck فى هذا الشأن والذي يذكر
فيه ان السلالة المصرية من الخيول لم تكن
لتقوى على حمل الاثقال . ورفض راى هلك
معتمدا فى ذلك على ما ذكره من قبل كويبل
Quibell فى مجلة مصلحة الآثار ، عندما
قام هذا الاخير بفحص هيكل عظمى لحصان
من الدولة الحديثة دفن فى صقارة ، موضحا
قوة هذه السلالة ، وعدم وجود أى اختلاف
بينها وبين خيول عصرنا الحالى . وانتهى
شولمان الى القول بأنه « اذا كانت سلالة
الحصان من النوع الضعيف فكيف بها
تستطيع جر عربة بما عليها ، ولا تستطيع
ان تحمل فوق ظهرها راكبا ، وان هذا
الاخير أخف حملا من العربة وما عليها . »

أما عن المناظر التى بقيت فى الآثار المصرية
وقد مثل عليها المصريون يمتطون جيادا فغالبا
ما كانوا يشكلون بعضا من فرق الكشافة .
وعرف المصريون أيام الدولة الحديثة وفى
حروبهم فى آسيا نظام وحدات الاستطلاع التى
تسبق الجيوش قبل عمليات الهجوم . وكانت
العجلات كوسيلة للانتقال غير سريعة اذا ما
قارناها براكبى الحصان ، خصوصا فى عمليات
الاستكشاف التى تتطلب السرعة فى سلوك
طرق ملتوية لاستطيع العربات ان تسلكها فى
كثير من الاحيان ، وعلى الاخص فى تلك المناطق
الجبلية .

جوادا ، وهو محفوظ حاليا بالمتحف البريطاني .

٧ - يد شفرة للحلاقة من البرونز بالمتحف البريطاني على هيئة رجل يمتطى حصانا .

٨ - تمثال صغير من الطين المحروق عليه طبقة لامعة مصقولة ، يمثل رجلا يمتطى حصانا محفوظ في Oriental Institute Museum

٩ - نقشيت أربعة مناظر على جدران بعض المعابد المصرية تصور راكبي خيول في معركة قادش من الأسرة التاسعة عشرة (اثنان من معبد أبو سمبل) واثنان من معبد الأقصر يركب جانبيا ووصف الفارس في نقش معبد الأقصر بالكشاف .

١٠ - يحتفظ متحف القاهرة برسم رجل يمتطى حصانا على كسرة من الحجر الجيري .

١١ - بمتحف اللوفر بباريس قطعة من الحجر الجيري عليها نقش جندي يمتطى جوادا تحت رقم ٢٥٤٨٦ من الأسرة الخامسة والعشرين (٧٥١ - ٦٥٦ ق . م تقريبا) (شكل ٢٣) .

واستخدم الحصان للركوب في العهد البطلمي .

وعلى هذا ، فالفروسية بمعناها الحقيقي لم تكن معروفة في مصر القديمة بمثل القدر الذي كانت معروفة به في الحضارات التي عاصرت الحضارة المصرية مثل الحضارة الاشورية والبابلية والحثية . ففي هذه الحضارات استخدم الحصان للركوب بكثرة وظهرت مهارات في هذا الميدان . وقد عثر في الوثائق التي كشف عنها في بوغاز قوى بآسيا الصغرى عن دراسة خاصة بتدريب الخيول ، كتبت على أربعة الواح ، قام بالتدريب فيها شخص يدعى (كيكولى) احد مواطني بلاد ميتاني . والسبب في تخلف

المصريين عن ترويض الحصان للركوب هو انه وصل اليهم متأخرا ، بينما ظهر في الرافدين وآسيا الصغرى قبل ان يظهر في مصر القديمة .

ثالث عشر : الكرة

بين ودائع المتحف المصري بالقاهرة كرات تحت رقم ٦٠٩٩ من الجلد والقش والخيط . وعلى بعض جدران مقابر بنى حسن والمؤرخة من الأسرة الحادية عشرة ٢١٣٣ - ١٩٩١ ق.م تقريبا . مناظر لنسوة تستخدم الكرة ، ومن هذه المناظر اللوحات التالية :

١ - لوحة من قبر الشريف اخيتوى ، تقوم النسوة بتلقف الكرة .

٢ - هذه اللوحة ، أيضا من قبر الشريف اخيتوى ، وهنا قامت النسوة بتلقى الكرة وقد ركن ظهور زميلاتهن .

٣ - لوحة من قبر الشريف باكت ، صورت سيدات يتلقفن الكرات وهن على ظهور زميلاتهن (شكل ٢٤) .

رابع عشر : المبارزة

كانت رياضة المبارزة مستحبة شائعة . ولم يقتصر الامر على الريف (كما هو شائع الآن في الريف المصري) ولكن كان لها هواتها من اهل المدن . ومارسها رجال الجيش خلال التدريبات العسكرية .

وتتطلب المبارزة بالعصى خفة ومهارة ، وتختلف العصي طولا وقصرا ، وكذلك في السمك . وتزود في بدايتها بمقبض من جلد يمسكها به اللاعب بيده اليمنى (ويتلقى الخصم بترس صغير شد الى ذراعه الايسر بشريط من الجلد) وأحيانا ، ينزل اللاعب الى المبارزة بعصوين ، عصا يضرب بها وأخرى يرد بها ثم يحاول ان يلمس وجه خصمه أو رأسه بعضا .



(شكل ٢٣)



(شكل ٢٤)

وولع المصريون بالمبارزة على القوارب بين الصيادين . فمن مقبرة مري روكا بصقارة من الاسرة الخامسة (٢٥٦٣ - ٢٤٢٣ ق.م تقريباً) منظر يبين مبارزة صيادى السمك . وآخر من قبر خير واف بغرب الاقصر من الاسرة الثامنة عشرة يبين المبارزة بسيقان البردى . وثالث يمثل التحطيبات (المبارزة بالعصا) من مقبرة مينومورا غرب الاقصر من الاسرة التاسعة عشرة .

وعلى معبد مدينة هابو من عهد رمسيس الثالث مناظر ، تمثل كما يقول مونتيه (٢٣) Montet « احدى تسلية الملك ان يشاهد المصارعات والمسابقات التى تقوم بين الجنود الذين احسن تدريبهم . وكثيرا ما كان يدعو معه رجال البلاط ليستمتعوا بالمشاهدة . ويسير الامراء وهم يحملون مراوح ذات ايد وثبتت دلالات فى الشعر تغطى الخدود . وكان يشترك مع المصريين امراء اجانب مثل اللاجىء حداد Hadad عدو الملك داود . ويمكن تمييز السوريين بالثزر الذى يحيط بوسطهم ، وبشعورهم الطويلة التى حبكت بشريط ، وبلحاهم . اما الزنجى فيتزين بأقراط ضخمة فى اذنيه ويفرس ريشة نعام فى شعره . اما الحيثيون والليبيون فيرتدون الملابس المزركشة والآن يقف المتبارزون فى الميدان ، يرى متنافسان كل منهما تجاه الآخر ، وكلاهما مسلح بعصا ، وقد ارتدى الزى الحربى الذى يتكون من ثزر على هيئة مثلث وتكس طرف العصا الى اسفل . وقد لف كل منهما على ساعد ذراعه اليسرى اسورة ، ويحمى اليد اليمنى قفا من الجلد ، واما الدقن والصدغان فتلف بأربطة كثيفة عريضة تتصل بربطة تحمى الجبهة . وينحنى احد المتبارزين نحو ولي العهد الرئيس الاعلى للجيش ، فيشجعه هذا

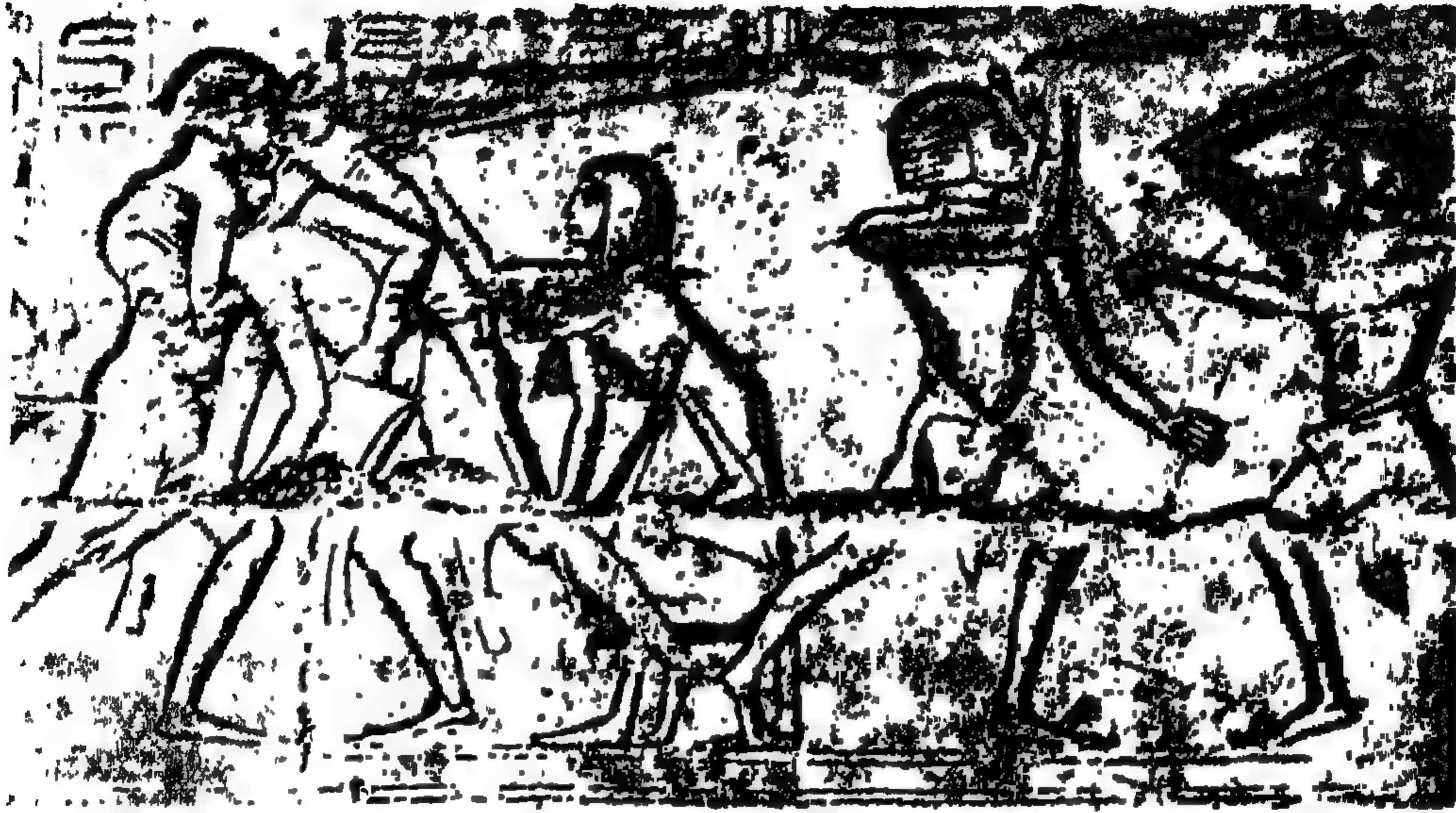
قائلا : « تحية لقلبك - تحية لقلبك ايها المحارب . اما المبارز الآخر فيرفع كلتا يديه الى السماء ، وتبدأ بعد ذلك المبارزة . يكيل المتبارزان كل منهما للآخر ضربات قوية بالعصى ويحمى كل منهما وجهه بذراعه اليسرى ، ويتبادلان التحديات قائلين : « خذ حذرك . . . سارك قوة ساعد المحارب » .

ويلى المتبارزين بالعصا المصارعون . يرفع مصارع مصرى خصمه الذى يعض يد خصمه ، فيصرخ المعضوض قائلا : « الويل لك ايها الآسيوى الذى يعض بفمه . ان فرعون معى ضدك - فله الحياة والصحة والقوة ان مولاي ؟ » . فهل يمكن ان تعتقد ان فرعون يوقف المبارزة ويعاقب المصارع المخادع ، او ان هذا التصرف غير السليم من الناحية الرياضية لا يحول دون انتصار البطل المصرى لان فرعون يؤيده بدعواته ؟

والآن يتبارز مصريان ، يرفع الذى على اليسار ساق خصمه من الأرض ويعلن فى لغة الجند بأنه سيلقى أرضا أمام فرعون .

واخيرا يواجه مصرى ، ربما كان الذى قد ربح المبارزة السابقة ، زنجيا . ويتبارزان ، ويشجع الحكم المصرى موطنه قائلا له « اعلم تماما انك امام فرعون ، له الحياة والصحة والقوة مولانا الطيب » ويرفع المصرى الزنجى من وسطه قائلا له وهو على وشك ان يلقي به على الأرض : « آه ها انت ذا بين يدي ايها الرنجى القدر ، سوف ارميك ممزق الاضلاع امام فرعون » . ثم يسقط الزنجى ويتهلل الفائز فرحا رافعا ذراعيه ، مؤكدا انتصاره كما يفعل المتبارزون حاليا .

انظر احد هذه المناظر من معبد رمسيس الثالث بمعبد مدينة هابو (شكل ٢٥) .



(شكل ٢٥)

خامس عشر : المصارعة

كانت المصارعة (٢٤) من أبرز ألوان الرياضة عند المصريين القدماء . ووجدت مصورة منذ الدولة القديمة . وكان يقوم بها صبية . أما في الدولة الوسطى ، فزاولها شبان محترفون أو يحتمل انهم مارسوها ممارسة كاملة . وفي الدولة الحديثة ، قام بها فتیان من الجنود .

وأقدم منظر حتى آخر المكتشفات الحديثة عن المصارعة هو الذى وجد مسجلا على جدران قبر بتاح حتب بصقارة ، من وزراء القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد . وظهر الصبية فى ستة أوضاع للمصارعة .

فى المنظر الاول قبض كل من المتصارعين جسم زميله بالذراعين ، ويحاول كل منهما أن يرفع زميله من الأرض . ولم يعطنا الرسام للأسف الحلقة الأخيرة لنهاية المباراة . ففي ثلاثة أوضاع (هم من الشمال الى اليمين الوضع ١ ، ٤ ، ٦) ان المتبارزين ولو انهما فى أوضاع مختلفة الا انهما فى بداية الحلقة . بينما فى الثلاثة أوضاع الأخرى نلاحظ ان أحد المتبارزين استطاع رفع زميله . وقد أوضح الرسام بدقة وضع كل متصارع . وظهر أن المتصارعين عرايا ولكل منهما خصلة من الشعر الذى يتميز به اطفال المصريين . (شكل ٢٦) .

وأمدتنا الدولة الوسطى بمنظر المصارعة: منها ما نقش على قبر واخ حتب Oukh hotep ابن سنبي Senbi بناحية مير مركز القوصية محافظة أسيوط . كذلك ، ثلاث مجموعات تمثل المصارعة فى قبر سنبي بن واخ حتب .

كما بقي منظر للمصارعة على احدى مقابر دير البرشا مركز ملوى محافظة المنيا . وواضح مما بقى من الرسوم احتمال وجود (حكم) كان يقوم بمراقبة المصارعة (شكل ٦)

فى قبر واخ حتب بن سنبي المؤرخ من الدولة الوسطى بمير (٢٥) مثلت أربع مجموعات ، واحدا فقط هو المحفوظ حفظا جيدا . وتبدأ أولى حلقات المصارعة من اليمين : لم يبق منها الا سيقان المتصارعين ، ولكن طبقا لهذا الوضع ، لا نرى الا ان كلا من المتصارعين قبض بذراعيه على جسم خصمه وفى المجموعة الثانية ، استطاع أحد المتصارعين رفع زميله ، وفى المجموعة الثالثة ، ظهر أحد المتصارعين مقلوبا ورأسه الى أسفل ، واتكا غريمه بقوة على ذقنه ، وأخيرا ، المجموعة الرابعة ، فقد استطاع الفنان أن يصورها بوضوح . فوضع أحد المتصارعين ركبته اليمنى على الأرض ، وتقدمت ساقه اليسرى ، وقبض على رقبة غريمه بذراعه الايمن ، محاولا قلبه بيده اليسرى ، وذلك بالضغط على ركبته اليمنى . وظهرت ساقا هذا المتصارع الاخير الى أعلى ، وفى وضع سيىء ، محاولا الافلات . وحتى يحمى نفسه من المسكة التى تلقاها من زميله ، تمسك فى حالة من اليأس بالفخذ الايسر لغريمه الذى هو قاب قوسين أو أدنى من التغلب عليه .

أما المجموعات الثلاث المحفوظة فى قبر سنبي بن واخ بتاح فهى طريقة ، لأنها توضح لنا تتابع الحلقات . ففي المجموعة اليسرى ، نلاحظ أحد المتصارعين وقد انحنى بخفة ليمسك زميله من فخذيه ، وحتى لا يقع هذا الأخير ، فقد مرر ذراعه الايمن حول رقبة

(٢٤) ذكر فانديه فى كتابه الذى سبق أن ذكرته فى الملاحظة رقم ٥ من هذا البحث أن آخر من قام ببحث موضوع المصارعة فى مصر القديمة هو :

Wilsdorf, Ringkampf im alten Aegypten (1939)

Blackman, The Rock tombs of Meir, 6 vol. 1914 — 1953 (Vol. II pl. II) (٢٥)

المنظر المصور فى هذا البحث مأخوذ من الكتاب السابق جزء



(شكل ٢٦)

خصمه ، وثبت يديه بقوة تحت إبطه الأيسر . وفي المرحلة الثانية ، سقط أحد المتصارعين ، متكئاً على كوعه الأيسر . وحاول بذراعه الأيمن التخلص من خصمه الذي يعمل على الثبات في وضعه وذلك برفع ساق زميله الملقى على الأرض بيده اليمنى ، وكذلك بالامساك بفخذ غريمه بساقه اليسرى . ومن ناحية أخرى ، يحاول هذا الخصم ، اتمام اسقاط زميله على الأرض بواسطة وضع كوعه تحت ذقن غريمه . اما المجموعة الثالثة ، فهي توضح ان المتصارع الذي سقط نجح في النهوض ، ولكن وضعه لا يزال صعباً ، فقد اثنت ساقه اليسرى ، واثكأ على الأرض بيده اليسرى ، وحاول بكوعه الأيمن إبعاد غريمه . ولكن هذا الأخير ، يحاول بكل قواه الضغط عليه وذلك بلف ساقه اليسرى حول الساق اليمنى لخصمه الممتدة الى الخلف والذي أوشك على السقوط .

هل كان للمصارعة قواعد : في الامكان ان نتصور ان المنظر الذي سبق ان اشرنا اليه (شكل ٦) عن احتمال وجود حكم يفصل بين المتصارعين . وقد صاحب هذا المنظر نص صعب ترجمته (ليس من شك ان اسلوب الرياضيين في مخاطبة بعضهم اثناء المباراة صعب فهمه ، كذلك اسلوب الحكم ايضاً يصعب علينا فهمه ، وربما كانت توجد مصطلحات غير معروفة لدينا حتى الآن .) ومن الجائز ايضاً اعتبار هذا الشخص المتوسط في هذا المنظر مدرباً . وعلى أية حال ، فسواء كان هذا حكماً او مدرباً ، فلدينا الحقيقة التي تشير الى وجود نظم وقواعد للمصارعة . اذ نلاحظ ان الحكم انحنى ليرى المتصارعين في الناحية اليمنى من المنظر ويلاحظهما ليتأكد من سلامة المسكة . وظهر ان أحد المتصارعين انحنى بخفة ، وقبض على الساق اليسرى لخصمه ليتمكن من اسقاطه على الأرض ، بينما ، يتكئ هذا الأخير بكل قواه على ظهر زميله ليتجنب الوقوع على الأرض ، ويعمل

على الامساك به حتى لا يفلت من تحته . اما في الناحية اليسرى من المنظر فنلاحظ ان الخصم الايمن يحاول العمل على اسقاط غريمه وذلك برفع ساقه اليسرى ، بينما يعمل المتصارع الذي في الناحية اليسرى على حماية نفسه وذلك بالامساك برأس خصمه .

اما مناظر المصارعة المشهورة في مقابر بنى حسن ، فاقدمها مؤرخ بأوائل الدولة الوسطى واكثر مجموعات هذه المناظر تطوراً ذلك المكون من ٢١٩ مجموعة ، وآخر مكون من ١٢٢ مجموعة ، وثالث مكون من ٥٩ مجموعة . وظهر المتصارعان ، احدهما ملون بلون قاتم ، والاخر ملون بلون فاتح ، حتى يمكن التفرقة بينهما . ونظمت الحلقات في صفوف عرضية ، ولكن لا يمكننا تقسيم هذه المناظر الى حلقات كما فعلنا من قبل . ولكن في الامكان القول بأن المصارعة المصرية كانت لها اصول وقواعد كما سبق ان اوضحنا ذلك . والمتخصصون في هذا الميدان يعرفون انواع المسكات المختلفة . وأحياناً ، كانت قواعد المصارعة المصرية اشد اتساعاً من المصارعة الحديثة . فقد عرف المصريون ما نسميه اليوم (الشنكله Croc-en-jamb) وكان مسموح بها في أيام الفراعنة ، وحالياً هي محرمة في المصارعة الحديثة . ومن رسوم بنى حسن هذه ، نستطيع ان نرى في بعضها ما نسميه بالمصارعة اليابانية jiu jitsu وبعض هذه الرسوم غريبة ، حتى انه لا يمكن ان نضعها في عداد المصارعة . حتى ان أحد المهتمين بتلك الدراسات ، أمثال ولسدورف الذي سبق ان اشرنا اليه ، ذكر انه لا يمكن اعتبار هذه الرسوم تمثيلاً منظماً خصص من أجل بحث في المصارعة ، وادعى ولسدورف انها تصرف من تصرفات فناني الرسوم . وبالرغم من صعوبة تمييز الحلقات التي مرت بها هذه المجموعات ، الا ان ولسدورف يؤكد في النهاية

ثامن عشر : اليوجا

حفل الكثير من رسوم المصريين على مناظر تشبه ما يعرف اليوم باسم اليوجا . ومن هذه الرسوم لوحتان : أحدهما من قبر بتاح حنوب من الأسرة الخامسة وظهر اثنان وقد جلسا على ركبتيهما واثنتان السيقان وامسك كل منهما قدميه بيديه انظر (شكل ٢٩) ١) أحد هذين الرجلين . ويضم قبر آخر يحتوي على حزن السابق ذكره ثلاثة مناظر تشبه حركات اليوجا . منها تمرين لللف الجذع الاعلى بقوة . وتمرين آخر يصور فيها شاب وقف على قمة رأسه ، محتفظا بتوازنه من غير أن يعتمد على يديه . أما التمرين الثالث في نفس المقبرة جلس فيه اثنان على الأرض متظاهرين ، وحاول كل منهما الوقوف دون أن يستعينا بأيديهما .

تاسع عشر : عروض جماعية أو أكروبات

من مناظر العروض الجماعية أو الاكروباتية الكثيرة عند آل فرعون هذا المنظر الطريف والمصور على أحد قبور بنى حسن من الدولة الوسطى (شكل ٣٠) وقد رسم أمام عملية نقل تمثال الشريف امنى (تصغير امنمحات) Amenى وظهرت خمس فتيات (الفتاة التى الى اقصى اليسار غالبا جاءت في نهاية الحفل لتقدم جائزة كانت عبارة عن قلادة لمن اتقنت تمثيل دورها) ، ووضعت كل واحدة منهن ازارا قصيرا ملتصقا تماما على الجسم ، يشبه ما ترتديه لاعبات الاكروبات حاليا .

وقفت اولى اللاعبات ، من اليسار ، وقد تباعدت قدميها ورفعت ذراعيها ، مثل ما يفعل اغلب الراقصات . أما الفتاة الثانية فقد اثننت الى الخلف ، ورفعت ذراعا وخفضت الذراع الآخر تستعد لعمل حركة دائرية ، أما الفتاة الثالثة والرابعة ، فقد

انه كانت توجد مدارس في مصر القديمة لتعليم الشباب المصارعة . (٢٦)

لكننا لم نلاحظ وجود مدرب في مناظر بنى حسن الخاصة بالمصارعة غير أن هذه الرسوم الحقت برسوم خاصة ببعض المعارك الحربية ، وهذا يدل على أن شباب القوات المسلحة المصرية ، كان عليهم قبل النزول الى المعارك الحربية التدرب على المصارعة ، وأن هذا التقليد - على الاقل - عرف منذ الدولة الوسطى . وهذا لا يمنع أن تكون المصارعة ، الى جانب ضرورتها لرجال القوات المسلحة ، مارسها الناس على انها لعبة أو رياضة . والمناظر الاولى التى سبق أن وصفناها في هذا العرض تؤيد هذا الرأي .

سادس عشر : الملاكمة

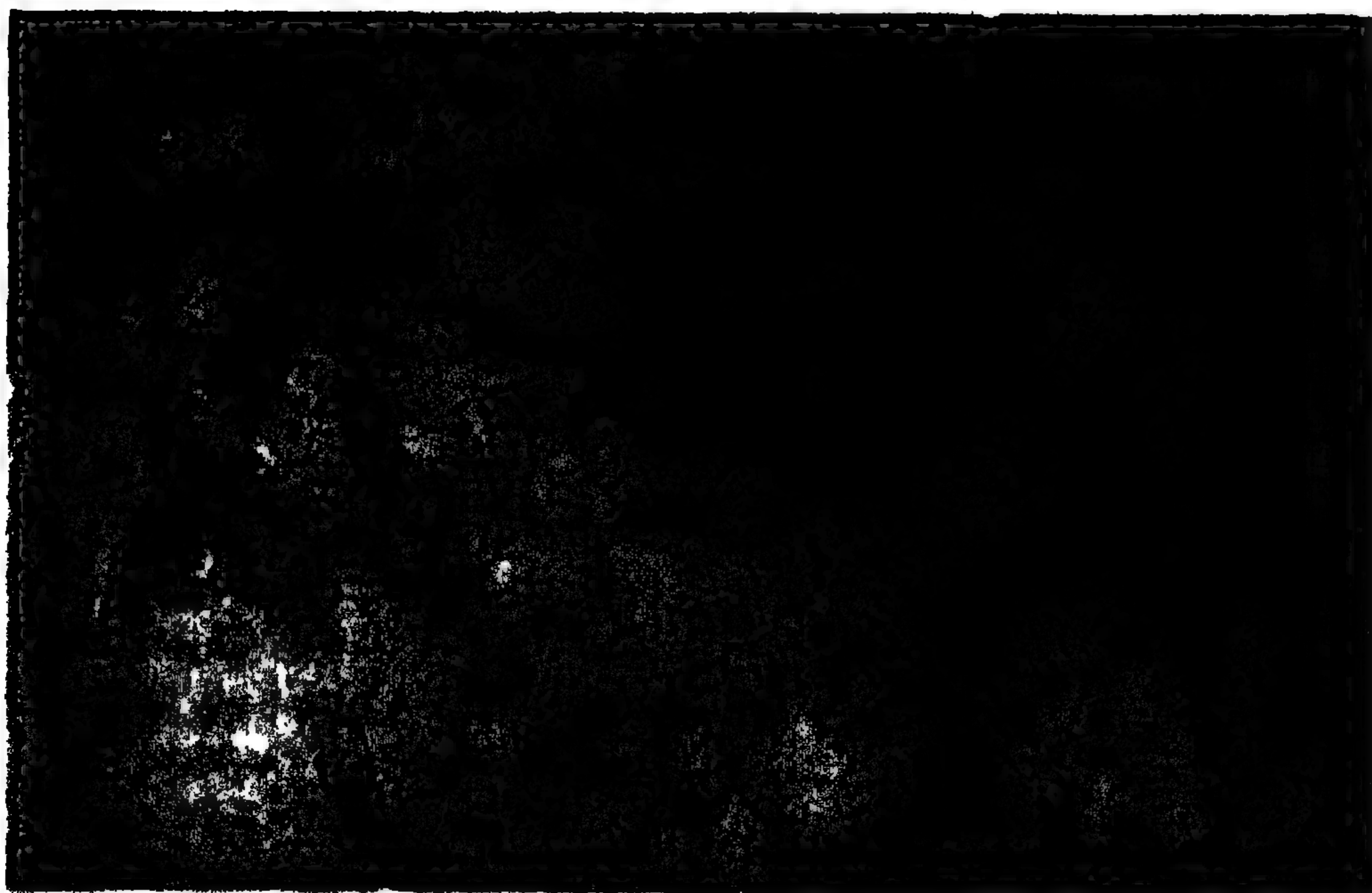
مارس المصريون رياضة الملاكمة ، ولدينا ثلاثة مناظر للملاكمة من قبر خيرواف من كبار موظفى الدولة في الأسرة الثامنة عشرة من مقبرة خيرواف بالقرنة غرب الاقصر من الأسرة الثامنة عشرة (احدها في شكل ٢٧) والملاحظ في هذه المناظر انها متباينة الازواضع ، كما أن كلا من المتبارزين لم يضع في أيديهما قفازات ، وكانت أيديهما مضمومة الاصابع .

سابع عشر : الهوكى

على أحد جدران قبر الشريف اخيتوى بنى حسن والمؤرخ من الأسرة الحادية عشرة منظر يعتبر أصل رياضة الهوكى . وقد استعير من الكرة التى تستخدم حاليا في هذه الرياضة بطوق أو حلقة . وتدل وقفة اللاعبين والعصا المعقوفة أن هذا الاثر هو أصل الهوكى (شكل ٢٨) من مقبرة اخيتوى بنى حسن من الأسرة الحادية عشرة .



(شكل ٢٧)



(شكل ٢٨)



(شكل ١٢٩)



(شكل ٢٩ ب)



(شكل ٣٠)

انحنى احدهما في زاوية شبه قائمة ، وارتكزت يديها على ركبة واحدة ، ووقفت زميلتها منتصبة على ظهرها بواسطة ذراعيها الى الجانبين . اما الفتاة الخامسة فانها غالباً تحاول القفز معتمدة على ساق واحدة ، ودفعت بالساق الثانية الى الخلف ، بواسطة يدها اليمنى بقوة الى الامام ، بينما اليسرى الى الخلف قابضة على القدم اليسرى . من هذا المنظر ، يتضح ان الفتيات الخمس كن يتمتعن بلياقة بدنية رائعة ، وتميز كل منهن بحركة طريفة . وفي اقصى اليسار فتاة ربما تقدم مكافأة ، غالباً عقد .



خاتمة

نحن في حياتنا المعاصرة ، نقدر للتربية البدنية عادة ما تكفله لمن يمارسها لياقة البدن وصلابة العود ، وما تحققه من متعة والفائدة بين اللاعبين حتى ليضرب المثل بها في التعاون كما نقدر لها ما توحى الى لاعبيها من الثقة بالنفس والتفوق على الصعاب . وليس من شك ، ان تراثنا المصرى القديم قدم لنا وللانسانية هذه المفاهيم حينما كان التاريخ طفلاً . قدموا كما شاهدنا ألواناً من الالعاب الرياضية عملت على تقويم أبدانهم . وتوفرت لهذه الصنوف من الالعاب الرياضية قواعد وأصول ، قام بها كل فرد على حدة ، كما قامت الجماعة على تنسيق الجهود .

لهذه الرياضة أهداف تربوية ، فقد دفعوا بالصبية منذ نعومة أظفارهم الى ممارسة هذه التمارين . وكان من بين الاهداف ، رشاقة البدن ، وتقوية العضلات ، والتعود على الجراة .

هل كانت الرياضة سهلة يسيرة على كل الناس . ربما يتصور البعض أنها لم تكن ميسرة الا للاغنياء من الناس أو لبعض رجال الجيش ، أو لمن تسمح لهم أوقات الفراغ بمزاولتها . ولكن طالما أننا لم نعثر الا على مقابر الملوك والاثرياء ، فليس هناك ما يمنع أن الشعب كان مولعاً بالرياضة . حتى لو افترضنا ان هذا الميل كان وقفاً على الاثرياء فقط ، فهذا لا يؤثر في وصف المجتمع المصرى بالميل الى الرياضة . لقد استعان الناس بها ، وقدموا عروضاً مختلفة في مناسبات دينية ، وحين تأدية بعض الطقوس الجنائزية وصاحب بعض التمارين الرياضية تنغيمات لفظية وأخرى موسيقية . كما ان ذبوع مناظر الالعاب الرياضية على صفحات جدران مقابر المصريين في مختلف المواقع ، من طيبة في الجنوب الى مقابر في بعض مدن محافظة أسيوط ، الى بعض مواقع في محافظة المنيا ، خصوصاً مقابر بنى حسن ، الى مقابر صقارة بالجيزة وغيرها ، لن الأدلة القوية على انتشارها .

كلمة اخيرة أحب ان أسجلها في ختام هذه العجالة . هل عرف تاريخ العالم القديم في ذلك الزمان ، وفي غير أرض وادى النيل تفهما لهذه الروح الرياضية كما فهمها المصريون القدماء ؟ وهل قدمت لنا الحضارات القديمة التى عاصرت الحضارة المصرية فى الرافدين أو فى أى بقعة أخرى من بقاع الدنيا مثل هذا التنوع والازدهار فى المآثر الرياضية ؟ اعتقد ان مصر وحدها كانت الرائدة ، ومنها انتقلت الفنون جميعها الى أقطار الدنيا .

مع مسيرة العلوم نحو المستقبل

عبدالعزیز آمین

للفاء بحاجات الانسان الفكرية والعلمية
والتكنولوجية .

ولعله من الاصبوب ان نتعرف أولا على
الظروف التي نعيش فيها الآن على كوكبنا ،
وان نحللها ونتعرف على مفردات عواملها ،
والعلاقات بينها ، حتى نتمكن من كشف ما
سوف تتطلبه الاجيال القادمة من معرفتنا
لاحوال البيئة والموارد الطبيعية . ان هذه
الدراسات ولا شك سوف تلقى أضواء كاشفة
على تفاعل الانسان مع البيئة وما يقوم به في
بيئاته المختلفة من خير او شر ، وما يتعرض
له من نفع او ضرر . وعندئذ نستطيع ان نعمل
على تقوية عوامل الخير وابتكار وسائل مستحدثة
لاسعاد البشر ومقاومة الاخطار والاضرار .

مر الفكر الانساني بثورتين منذ القرن
السادس عشر : ثورة علمية وثورة صناعية ،
واستحدث الفكر ثلاثة اتجاهات في ثورته
العلمية ، هي الترتيب والاسباب والصدفة .
وهذه الاتجاهات ليست من خصائص العلوم
فحسب ، بل هي أيضا من الاتجاهات الفكرية
في كل نواحي حياتنا .

ولكي نتطلع الى مستقبل الانسانية ينبغي
ان نلتفت الى الوراء ولو قليلا لنعرف الاتجاه
الفكري السائد في العصور القريبة ، ولنسير
معها من الماضي الى الحاضر ونعرف ما حملته
الاحداث من التراث ، ولنحاول ان نرسم
الخطوط الرئيسية لمسيرة العلوم وامتدادها الى
المستقبل ، تمهيدا لوضع الخطط اللازمة

واننا نرى في ضوء هذه الحقيقة عظم ما بلغه الانتاج العالمى بالنسبة لضالة ما وصل اليه العلم. من معرفة الطبيعة ومن قدرتنا على التحكم فيها . ان من الواجب ان نراعى الحذر الشديد والحيطه في استغلال الثروات الطبيعية حتى لا يضطرب التوازن الدينامى النسبى بين مختلف العمليات التي تجرى على الكرة الارضية .

ان عوامل ثلاثة تحدد تطور البيئة في الوقت الحاضر تحديدا واسع المدى. هي كمية الاشعاع الشمسى الذى تمتصه الارض ، والعمليات الخاصة بتركيب القشرة الارضية ، والتوسع في الانتاج الاجتماعى . . . ويتوقف الانتاج وقدرته على النمو السكانى والاحتياجات المادية للناس وما يتعايش معهم من كائنات حية .

ان قوى الانتاج تعمل على تغيير طبيعة البيئة بسرعة اعظم مما تتغير لو تركت للتطور الطبيعى الحر ، لان العامل التكنولوجى يزداد اهمية باستمرار . ويمكن ان نقول ان المحافظة على التوازن الدينامى في الطبيعة بالكرة الارضية كلها الذى نتج من استمرار التطور عبر ملايين السنين ، يتوقف الى حد كبير على طريقة تنظيم الانسان لانتاجه ، فمن واجب الاجيال الحاضرة ان تنظر الى عالمنا نظرة علمية عميقة لنعرف مكاننا بالضبط في الكون ، ولنتصور المشاكل التي قد تصادفنا في مسيرتنا نحو المستقبل ، ولنعمل على منع حدوثها ، او لايجاد الحلول مما قد يقع منها . ولا شك ان منجزات العلوم الطبيعية والاجتماعية في الوقت الحاضر وما سوف يستجد منها مستقبلا سوف تكفل حل المشاكل ، واسعاد ابناء الاجيال المقبلة .

وتقتضى دراساتنا لكشف صورة المستقبل ان نعرف علاقتنا بالشمس ، ونفهم مشاكل الطاقة في العالم والاستفادة من طاقة الشمس والطاقة النووية والجوفية الارضية ، ومتابعة مسيرة العلوم في استخلاص المعادن وتوليد الكهرباء ، وتطور صناعات التخليق الكيمياءى ،

ويقتضى الامر أولا التأمل في الحياة وفي الأرض وفي الشمس فما نحن الا تابعون لهذا النجم الكبير مورد الدف والنور والحياة ، والتأمل ايضا في الناس وفي البيئة والمواد والطاقة وفي تفاعل الانسان وانشطته في بيئته . فاذا عرفنا انفسنا وبيئتنا وانشطتنا ، فاننا نكون قادرين على رسم الخطط العامة وما يلزمها من خطط فرعية او اقليمية لارساء قواعد الرخاء والسلام والمحبة في جميع ربوع العالم .

التطور الطبيعى والتوازن الدينامى :

ان البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الانسان هي أساس حياته ومصدر موارده وينبوع انتاجه ومجال نشاطه . ولا شك اننا نفكر في مستقبلنا ومستقبل الاجيال القادمة على المدى القريب والمدى البعيد ، في ضوء الاحمال الثقالة التي يضيفها الانسان دائما الى البيئة ، وكذلك في ضوء التغيرات السريعة التي تحدث بكل شىء حولنا ، ونتساءل عما سوف يحدث . والحق ان الاجابة على السؤال ليست بالامر الهين ، لان اغلب العمليات التي تجرى في الطبيعة وفي المجتمعات ايضا لا تزال غامضة على الرغم من كل ما بلغته مختلف العلوم من تقدم . ان التكهّن بالمستقبل في العلوم الاجتماعية لا يزال يحبو ، فمن العسير ان نتنبأ مثلا بالتغيرات الاقتصادية الاجتماعية التي سوف تحدث في الدول النامية مثلا في غضون السنوات الباقية من القرن العشرين .

ونحن لا نزال نضع اقدامنا على عتبة المعرفة بالدورة الدينامية للعمليات الطبيعية ، اى الدورة الطبيعية للمادة والطاقة . ولا تزال معارفنا ضحلة في التحكم بالدورة الطبيعية . ومع الاسف لا تسير دراسات التفاعلات الطبيعية في هذه الدورة بمختلف المناطق للتكهّن بتأثير تفاعل الانسان مع البيئة ، بنفس سرعة سير التفاعلات التي تحدث تلقائيا في البيئة بعوامل غير بشرية وبخاصة في المجتمعات المتخلفة .

وتسير بحوثهم في ثلاثة اتجاهات : الوقود المعدني والكهرباء ، والطاقة الشمسية ، والطاقة النووية .

ان اشعاع الشمس في الكون يجعلها تفقد خمسة ملايين طن من جسمها في الثانية . فالجزء الذي يصلنا من اشعاعها يكاد أن يكون مهملا بالنسبة لمجموع اشعاعها ، لأن ما يصلنا لا يتجاوز في المتوسط جزءا واحدا من عشرة آلاف مليون من اشعاعها الكلى . ونعرف من نظرتنا السريعة الى هذه النسبة الضئيلة ، قدرة الشمس الهائلة وعظم هذا المورد الطبيعي للطاقة . فان ما يصلنا من الاشعاع الشمسي يعادل تقريبا عشرة أمثال احتياطي القدرة المعروفة لنا بكل الطاقة الحفورية (الفحم والبتروول والغاز الطبيعي) وما تحتويه من طاقة اليورانيوم والثوريوم (الوقود الذري) ، فطاقة الشمس وافرة ونظيفة، ولا تكلفنا سوى اصول رأسمالية فقط ثمننا لمعدات التقاطها وتجميعها وتراكمها واستخدامها . وليست الشمس بالمورد الجدير للطاقة، بل هي ينبوع الحياة وأصل كل التغيرات الطبيعية .

وعلى الرغم من أهمية الطاقة الشمسية فانها لم تلق الاهتمام الكافي الا في السنوات الاخيرة . وقد اهتم الناس في العصور الحديثة بالموارد المادية ، واخيرا بمشكلة الطاقة ، وبخاصة الوقود المعدني ثم الوقود النووي ، واخيرا اتجهوا ايضا في اهتماماتهم الى طاقة الشمس . ولعل ارجاء اهتمام الناس بدراسة الطاقة الشمسية الى السنوات العشرين الاخيرة يرجع الى وفرتها والتأكد من استمرار ورودها الينا .



الحاجة الى الطاقة في العالم .

اعتمد الانسان البدائي على الأخشاب والنباتات الجافة ومخلفات الحقل لتوليد ما كان يلزمه من حرارة، ثم عرف الفحم الحجري

وتطور الآلات ووسائل النقل ، والاتصال وتطور الانشاءات ، والمباني السكنية في المستقبل ، ومناقشة مشكلة زيادة عدد السكان ، ومشاكل الطعام ، ومكافحة تلوث البيئة ، وكثير من المشاكل التي قد تتعرض لها الانسانية .



الشمس والحياة

لا يستطيع أى انسان عاقل انكار الحقيقة أن الشمس أصل الحياة على الارض فهي الكوكب الذي يمدنا بالاشعاع منذ الازل ، وهي التي عملت على تكوين الماء على هذا الكوكب من الهيدروجين والاكسجين . وهي التي جمعتها وكونت منه المحيطات والبحار ، واشعاعها يكسب الارض الدفء والخصوبة . وهو الذي ينبت النبات في الارض وينميه ويجعله يتكاثر ويتنوع .

واذا أردنا أن نصف اشعاع الشمس وصفا علميا ، فاننا نستطيع القول انه شعاع كهرومغناطيسي يقسمه علماء الفيزياء الى ثلاثة انواع حسب أطوال موجاته : اشعة فوق بنفسجية قصيرة الموجات ، وهي تمثل ٣ في المائة من الاشعاع الشمسي ، واشعة مرئية بنسبة ٤٢ في المائة واشعة تحت حمراء بنسبة الباقي (٥٥ ٪) . ويمرّز الى الاشعاعات الشمسية هذه كل مظاهر الحياة فالخشب والفحم والبتروول والغاز الطبيعي طاقة شمسية خزنت في باطن الارض في صورة طاقة كيميائية في أجسام النباتات والحيوانات البحرية التي عاشت يوما ما على هذا الكوكب ثم دفنت بفعل العوامل الطبيعية والجيولوجية ، ثم تحللت وتحولت الى ما نسميه الآن بالوقود المعدني .

وتعمل الشمس على حفظ درجة حرارة سطح الارض في حدود تناسب حياة الكائنات، وتمدها بالطاقة اللازمة لحياتها . ويتجسده العلماء في الوقت الحاضر الى دراسة ما يلزمنا من الطاقة لمشروعاتنا الحاضرة والمستقبلية .

يستخدمه في الصناعات القديمة ، وكشف البترول والغاز الطبيعي وعرف أهميتهما في الصناعة . وكانت هذه الكشوف عظيمة الأثر في قيام الثورة الصناعية والقضاء على نظم اجتماعية وسياسية سادت القارة الأوروبية ، خاصة عدة قرون ، وطورت المجتمع تطورا اقتصاديا عظيما باكتشاف الآلات البخارية ومحركات الاحتراق الداخلي ، وبانشاء محطات توليد الكهرباء . وتقدر حاجة الفرد الآن من الوقود التقليدي في العام بطنين (بالنسبة الى وقود معيارى قيمته الحرارية ٧ آلاف كيلو سعرا للكيلو جرام الواحد) . اما نصيب الفرد من استهلاك الوقود فيختلف باختلاف بلاد العالم ومدى ما بلغته من التقدم ، فبينما يبلغ متوسط نصيب الفرد في الولايات المتحدة ١٠ أطنان نجده في دولة نامية كبيرة مثل الهند لا يتجاوز ٢ ر. من الطن فقط على الرغم من تقدمها نوما ما في الصناعة ، لأن الفرد لا يستلزم بتلك الدول النامية الحصول على احتياجاته الكاملة من الوقود .

واستخدمه في الصناعات القديمة ، وكشف البترول والغاز الطبيعي وعرف أهميتهما في الصناعة . وكانت هذه الكشوف عظيمة الأثر في قيام الثورة الصناعية والقضاء على نظم اجتماعية وسياسية سادت القارة الأوروبية ، خاصة عدة قرون ، وطورت المجتمع تطورا اقتصاديا عظيما باكتشاف الآلات البخارية ومحركات الاحتراق الداخلي ، وبانشاء محطات توليد الكهرباء . وتقدر حاجة الفرد الآن من الوقود التقليدي في العام بطنين (بالنسبة الى وقود معيارى قيمته الحرارية ٧ آلاف كيلو سعرا للكيلو جرام الواحد) . اما نصيب الفرد من استهلاك الوقود فيختلف باختلاف بلاد العالم ومدى ما بلغته من التقدم ، فبينما يبلغ متوسط نصيب الفرد في الولايات المتحدة ١٠ أطنان نجده في دولة نامية كبيرة مثل الهند لا يتجاوز ٢ ر. من الطن فقط على الرغم من تقدمها نوما ما في الصناعة ، لأن الفرد لا يستلزم بتلك الدول النامية الحصول على احتياجاته الكاملة من الوقود .

وتشير بعض الدراسات الاحصائية الى نضوب موارد الوقود خلال ثمانين سنة . فاذا افترض أن كفاءة البحث عن البترول سوف تزداد الى ٨ أمثالها الآن فان الموارد قد يمتد أجلها الى سنة ٢١١٠. أن التطور التكنولوجى والتقدم في الانتاج الصناعى خلال السنوات العشر الاخيرة يؤدي الى زيادة نصيب البترول والغاز الطبيعي من الاستهلاك العالمى للوقود الى ٧٠ فى المائة ، ويجعل نصيب الفحم يهبط الى ٣٠ فى المائة . ومع ذلك ، لا تزال الموارد العالمية للبترول والغاز الطبيعي أقل من خمس موارد الفحم . فاذا استمر الاستهلاك على معدله الحالى ، فان شباب الجيل الحاضر سوف يشهدون استنفاد الموارد البترولية . وسوف يكون هذا صدمة قوية لتسيير المركبات والسكك الحديدية والطائرات وادارة عجلات الانتاج الصناعى . ويرى البعض أن الأمر قد يقتضى الانتكاس الى استخدام الفحم فى توليد الكهرباء وتسيير عجلات المصانع . ومع ذلك هناك من الكيميائيين المتفائلين من يشك فى استمرار زيادة معدلات استخراج البترول واستخراجه

ويستخرج الوقود المعدنى بمعدل ٦ بلايين طن فى العام ، وهى كمية تكفى لتوليد سبعة ملايين كيلو سعرا من الحرارة من كل طن من الوقود . ويمكن بعملية حسابية بسيطة أن نقول أن اجمالى ما يمكن توليده من الحرارة من هذا الوقود سنويا يبلغ 10×15 كيلو سعرا ، يستهلك منها ٣٠ فى المائة بالمحطات الكهروحرارية بكفاءة لا تتجاوز ٣٠ فى المائة ، بينما يبلغ ما يتولد من الكهرباء فى المحطات الكهرومائية ١٧ فى المائة من اجمالى الانتاج العالمى للكهرباء .

ولا تزال المحطات الحرارية النووية قليلة الانتاج نسبيا . قد يتساءل المرء فى غمرة تزايد الطلب على الطاقة وعلى الوقود المعدنى ، « الى متى سوف تكفىنا الثروة البترولية والفحم والغاز الطبيعي الموجود فى الارض ، لمجابهة المعدلات العالمية العالية للتنمية الصناعية والميكنة الزراعية . وما سوف

واليورانيوم والثوريوم واسعا الانتشار بمقادير ضئيلة في العالم ، واصبحت طرق استخلاصهما حتى من الخامات الفقيرة معروفة . فاليورانيوم موجود بنسب صغيرة جدا في مياه البحر وفي المواد الرسوبية ، لكن هذه الطرق صعبة ومكلفة . وبالإضافة الى ذلك يوجد اليورانيوم في الطبيعة كمخلوط من نظيرين : اليورانيوم - ٢٣٨ وهو غير مشع ، وهو الغالب بنسبة ٩٩.٩ في المائة ، واليورانيوم - ٢٣٥ ذو النشاط الاشعاعي ونسبته ٠.١ في المائة .

وقد أجريت البحوث التي أدت الى صنع مفاعل نووية يحترق فيها اليورانيوم - ٢٣٥ احتراقا نوويا - أى يتفكك - ويتحول الى عنصر جديد من صنع الانسان هو البلوتونيوم بنسبة من ٣.٥ الى ٥.٥ في المائة من اليورانيوم - ٢٣٨ كله ، وقد تبلغ نسبة البلوتونيوم واحدا في المائة .

وبعدما ثبت من البحوث النظرية والتطبيقية امكان الاستفادة من اليورانيوم - ٢٣٨ بتحويله الى البلوتونيوم ، وأنه يزيد توليد الطاقة النووية الحرارية في العالم مائة ضعف، تطورت تكنولوجيا معجلات سرعة الجسيمات التي تستخدم كقدائف لتحطيم الذرة . وتمكنت الولايات المتحدة في الخمسينات من تعجيل النيوترونات حتى بلغت سرعتها من نصف بليون الى بليون الكترون فولت * . ونوقشت فكرة اختراق النيوترون نطاق الالكترونات في الذرة التي توضع في هدف معين حتى يمكن أن يقتحم نواة اليورانيوم - ٢٣٨ ويطردها نيوترونات يتسارع عددها بين الثلاثين والخمسين . وتتفاعل هذه الالكترونات الشاردة تفاعلا نوويا مع ذرات اخرى من اليورانيوم - ٢٣٨ فتتحول الى بلوتونيوم .

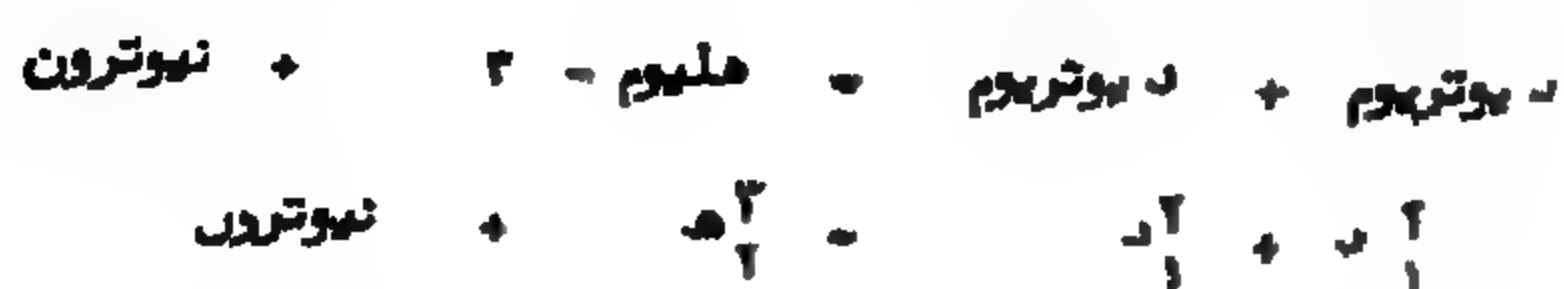
من دول نامية الى أن يبلغ ذروة تربو على انتاج كل الدول المتقدمة ، وهناك أيضا متشائمون يقولون ان العالم على حافة هاوية نقص الطاقة ، وأن الناس لا يعيرون وزنا لانتاج مواد غالية سوف يحتاجها ابناء الاجيال القادمة من كيماويات ومخصبات ومواد عضوية وعقاقير طبية ومنظفات ولدائن واليااف صناعية واطعمة تخليقية . وكل هذه المواد تخلق باستخدام مواد بترولية الاصل .

ان على المشتغلين بالعلوم والهندسة والزراعة والاقتصاد والاجتماع تضافر الجهود وحشدتها لكشف الوسائل الفعالة لمجابهة متطلبات الابناء والاحفاد ، والعمل على حل أزمة الطاقة ، ومواردها لا تزال تكفى عددا غير قليل من السنين . ويجب الاعتراف بأن جهودا نشطة بدأت تبحث المشكلة وتكشف وسائل جديدة لانتاج الطاقة . والمعروف أن حرق الوقود التقليدي يصاحبه انبعاث دخان ضار وغازات ، تؤثر تأثيرا على الصحة العامة مثل ثنائي اكسيد الكبريت والسناج والرماد . وقد زادت فعلا نسبة ثنائي أكسيد الكربون في الجو عن معدلها المعروف بزيادة طفيفة ، وهذه الزيادة ولا شك تؤثر في المناخ العالمي . ان ثنائي أكسيد الكربون يمتص الاشعاعات تحت الحمراء التي تنعكس من الارض فترتفع درجة حرارة الارض ، وتزداد الرطوبة ، فهذا الغاز بمثابة كاسم للاشعاعات تحت الحمراء ، فيتحوّل الجو الحار الرطب الى حالة خانقة لا تطاق . وتشير أصابع الاتهام الى محطات توليد الكهرباء والآلات ذوات الاحتراق الداخلي في جميع أنحاء العالم، بأنها تلوث البيئة بأدخنتها وقد أدى هذا الى الاهتمام باستخدام الطرق النووية لتوليد الطاقة، ولكن ندرة اليورانيوم والثوريوم في العالم تحول دون سرعة انتشار توليد الطاقة النووية على المستوى المطلوب .

* الالكترون فولت وحدة طاقة تساوي الطاقة التي يكتسبها جسيم يحمل شحنة مقدارها الوحدة عندما يتحرك في الفراغ خلال جهد مقداره كفولتا واحدا . والالكترون فولت = ١.٦ x ١٠^{-١٩} أ.ج .

بسرعة خاطفة لكي تصل سرعة التفاعل مقدارا مناسباً وكافياً . وقد تؤدي هذه الدرجة العالية جداً من الحرارة الى انصهار الغلاف الخارجى للمفاعل وتبخره ، اذا لم تتخذ تحوطات وقائية تسيطر على هذه الكميات الهائلة من الطاقة الحرارية الفجائية وتحكم فيها . ولحل هذه المشكلة والعمل على انقاص الحرارة المفاجئة استخدمت فكرة « الحبس المغناطيسى » كحل ، ودلت التجارب على صلاحيتها للسيطرة على التفاعلات النووية الحرارية المفاجئة استخدمت فكرة « الحبس فى التفاعلات النووية هو ما يسمى بتفاعلات « الالتحام النووى » . وليس بمستغرب أن يكون تفاعل الالتحام أساساً لتوليد الطاقة بعدما عرف العلم أن الشمس قرن نووى هائل تلتحم فيه ذرات الهيدروجين كل أربع ذرات معا ، ويتكون الهليوم مع انطلاق طاقة حرارية هائلة .

ويمكننا أن نعتبر الماء بالارض أساساً لفكرة تفاعلات الالتحام النووى . ان الماء العادى يتكون كما نعلم من الهيدروجين والاكسجين ، ويحتوى على نسبة صغيرة من ماء آخر يدعى الماء الثقيل لأنه يتكون بدلا من الاكسجين والهيدروجين من الاكسجين ونظير للهيدروجين كتلة ذرته ضعف كتلة ذرة الهيدروجين العادى . ويسمى هذا النظير « ديوتريوم » أو الهيدروجين الثقيل . فنواة ذرة الهيدروجين العادى عبارة عن بروتون فقط ، أما نواة ذرة الديوتريوم ففيها بروتون ونيوترون . ولذلك رقم كتلته ٢ . والارتباط فى نواة الديوتريوم بين البروتون والنيوترون ضعيف نسبياً ، فيمكن أن تتلاحم نواتان من الديوتريوم مكونة ذرة هليوم رقمها الذرى ٢ ، ورقم كتلتها ٣ وينطرد نيوترون .



كما يمكن أيضاً أن تتحد نواتان من الديوتريوم . ولكن لا يتكون الهليوم النظير ٣ ، بل يتكون

ودارت مناقشات علمية على مستوى عالمى فى مجال استحداث التفاعلات النووية من اليورانيوم - ٢٣٨ واستخدمت اجهزة الاكثار النووى بدول عديدة كبرى فى النادى النووى كالولايات المتحدة وفرنسا والاتحاد السوفيتى . وتعتبر هذه الاجهزة اماكن للتربية والاكثار للبلوتونيوم . ولا تزال طريقة الاكثار مسيرة وتسير بخطى مشجعة فى طريق التحسين ، وتمتاز هذه الطرق بخلوها من المخلفات المشعة الضارة الملوثة للجو ، ولا ينبعث منها سوى النزر اليسير من الكربتون ، ويمكن التخلص منه فى مفاعلات توليد الكهرباء بالمفاعلات النووية الحرارية .

ان العيب الرئيسى فى استخدام المفاعلات النووية يكمن فى مشاكل التخلص من التلوث بالمخلفات ذوات النشاط الاشعاعى . وتستلزم طرق الوقاية والتخلص من هذه الموارد الضارة تطويراً كبيراً فى تكنولوجيا الطاقة النووية . فالمخلفات يجب ان تدفن فى قبور نووية شديدة الاحكام لا تتسرب منها مواد شعاعية نووية الى البيئة حتى بعد مئات السنين .

ان النجاح فى توليد الكهرباء من الطاقة النووية يسير فى سبيل يدعو الى التفاؤل والى التطلع الى خير كثير ، ولكن تزايد اعداد المفاعلات النووية سوف يعرض العالم الى مشكلة التلوث بالاشعاعات النووية ومشاكل السيطرة والتحكم فيها ، ويجب ايجاد الحلول لكل هذه المشاكل حتى يسهل استخدام التفاعلات النووية فى مختلف الأغراض السلمية . ان الطاقة الحرارية النووية سوف تسهم بقسط وافر فى حل أزمة الوقود اذا ما احسنا التحكم فيها ، ووجهنا استغلالها الى أفضل الأغراض ، كتوليد الكهرباء وتحلية مياه البحر وتعمير الصحارى .

الماء وتفاعلات الالتحام .

ان عمل المفاعل النووى الحرارى يحتاج الى رفع درجة الحرارة الى درجة شديدة الارتفاع

الالتحام في تطور وتحسين حركتها وتسهيلها وبخاصة تفاعل التهام الديوتريوم فقط ، المنتظر أن يكون أساس الطاقة النووية الحرارية في المستقبل ، لا سيما وأن مورد الماء التفعيل متوفر بغير حدود ، فالديوتريوم (الهيدروجين الثقيل) يوجد فعلا في الماء الطبيعي على هيئة الماء الثقيل بنسبة واحدة الى ٦٣٠٠ من وزن الماء الطبيعي . ويمكن بالحساب الاستنتاج ان تفاعل الالتحام النووي الحراري سوف يعنى الاجيال المقبلة من استخدام الوقود التفتيدي بالمحطات النووية الحرارية . والامل كبير جدا في صلاحية التفاعلات الالتحامية النووية بعد ان أصبح استخلاص الديوتريوم من الماء من الناحية التكنولوجية من العمليات الميسورة المعروفة في الصناعات الكيماوية الحديثة ، بواسطة التحليل الكهربائي المتبوع بانحد الهيدروجين الثقيل بالاكسجين ، واعادة التحليل الكهربائي للناتج .

وتمتاز تفاعلات الالتحام النووي بخلوها من التلوث الاشعاعي الخطر .



الطاقة النووية بداية طريق

لا يمكن أن تعتبر الانجازات العظيمة التي تمت في الثلاثين سنة الاخيرة بشأن تحرير الطاقة النووية ، نهاية المسيرة الطويلة التي سارها الرواد الأوائل منذ سنين حتى الآن . ان هذه الطاقة التي حررها الانسان ، مستخدما عقله الذكي ، من عقول نوايات الذرات للعناصر الثقيلة كاليورانيوم والثوريوم لا تزال نسبة ضئيلة مما تحتويه هذه العناصر . ان على الانسان أن يستفيد من كل الطاقة الحبيسة في النواة ، وان يستغلها في مشروعات كبرى على المستوى العالمي . ويتطلع احد العلماء السوفييت في هذا الشأن الى مشروعات تهم طبيعة بلاده الشديدة البرودة ، ويشير الى ضرورة اذابة ثلوج جمرينلاند والقطبين وتشبيد سد على مضيق بهرنج ، وتحويل

نظير للهيدروجين له نشاط اشعاعي يسمى تريتيوم ورمزه (ت) وينبعث بروتون :



ويمكن ايضا التلاحم بين الديوتريوم والتريتيوم وعندئذ يتكون هليوم ٤ مع انبعاث نيوترون :



والتفاعل الاخير اسهل من سابقه ، لكنه يستلزم تخليق التريتيوم اولا ، فالتريتيوم لا يوجد اصلا في الطبيعة ، بل يستحدثه تفاعل نووي يستلزم استعمال احد نظائر الليثيوم كتلته ٦ يوجد في الليثيوم الطبيعي بنسبة ٧ في المائة ، فعندما يتلاقى نيوترون بنواة الليثيوم النظير (٦ لث) تنقص سرعة النيوترون في الغلاف الخارجى للمفاعل النووي الحراري ، ويتكون التريتيوم وهليوم .



ثم تستخلص التريثيوم ويعاد استعماله بالعملية الأساسية . وينتج في التفاعلين النوويين الحراريين كميات كبيرة من الطاقة الحرارية . والجرام من الديوتريوم (الهيدروجين الثقيل ينتج من الحرارة مايساوي حرارة احتراق عشرة اطنان من الفحم . اما التفاعل الثانى فينتج ما يعادل حرارة ١٤ طنا من الفحم عند درجة حرارة شديدة الارتفاع تستطيع تحويل الغاز الى بلازما مكونة من الكثرونات ونوايات موجبة الشحنة .

وقد استخدمت اشعة الليزر بتصويبها على هدف من الليثيوم المتحد بالديوتريوم اتحادا كيمائيا لاستحداث الطاقة الحرارية اللازمة لبدء التفاعل في الفرن النووي الحراري وتبشر النتائج بالنجاح . ولا تزال تفاعلات

مياه المحيط الهادى الدافئة الى المحيط المتجمد الشمالى وتدفئة المناطق المتجمدة الخالدة . ولم ينس ان يشير ايضا الى تفجير سلاسل جبال ، وشق طرق ، وتكوين بحار ، وتغيير مسارات التيارات البحرية والمحيطية ، وبناء الجزر ، وترويض البراكين ، وتغيير المناخ ، والسفر ، والتحول فى الفضاء بين الكواكب . وكل هذه الآمال فى بداية الطريق ، ولكن المحقق ان الطاقة النووية سوف تستغل فى بعض الميادين الفنية والانتاج الصناعى . ان انتاج الحديد الزهر مثلا يعتمد حاليا على مواقع الرواسب الغنية بالحديد ، ومواقع مناجم الفحم من مصانع التعدين . ولذلك يمكن ان تقام محطات توليد الطاقة النووية بالقرب من تلك المواقع حيث تشييد المصانع للتعدين ايضا ، واستغلال الطاقة النووية فى عمليات الانتاج ، كالأفران العالية ، وتحويل الزهر الى صلب ، ثم تشكيله وتقطيعه ، فتقل تكاليف انتاج الصلب .

وتعقد الآمال ايضا انتاج المحركات النووية ذات القدرة اللانهائية بمصدر يشغل حجما صغيرا جدا يقوم بانتاج الطاقة الى الابد ، ولا يحتاج الى وقود تقريبا . ولا بد ان أى محرك نووى ستكون له مزايا كبيرة عن المحركات التقليدية . وان تمتاز بالقدرة العالية والوزن الخفيف مع الاقتصاد فى التكاليف ، وستكون سهلة التجهيز والتشغيل ، بكفاءة عالية .

وسوف ترى الاجيال القادمة الطائرات النووية والقاطرات النووية والشاحنات النووية ، وسفن الفضاء النووية والصواريخ النووية والبطاريات النووية .



الطاقة الشمسية

على الرغم من اهتمام العلماء بالطاقة النووية واعتبارها الملاذ الأخير للحصول على احتياجاتنا فى الطاقة عندما تنضب موارد البترول ، فان

هذا لا ينسينا اطلاقا الاهتمام بالطاقة الشمسية ، فهى التى تزودنا بالحرارة بمعدل 4×10^{12} كيلو سعرا فى الثانية ، وينعكس منها ٣٠ فى المائة الى الفضاء الخارجى ، بينما تمتص الطبقات الجوية العليا بعض الحرارة ، ولا يصل الى سطح الأرض الا ٥٠ فى المائة فقط من كمية الاشعاع الشمسى الذى ينبعث الينا من الشمس ، وهى كمية تعادل 2×10^{12} كيلو سعرا فى الثانية . ان خمسة فى المائة من هذه الكمية تساوى 1×10^{12} كيلو سعرا فى الثانية أو 3×10^{12} كيلو سعرا فى العام ، كمية كبيرة جدا تزيد عما نحصل عليه من حرارة من الوقود العادى بسبعمئة مرة ، وتغلب كل احتياجاتنا حتى لو زاد الطلب بمرور السنين ٥٠٠ مرة مع تزايد عدد السكان فى العالم بمعدله المتوقع .

ان الجو يمتص نصف الاشعاعات الحرارية الشمسية ، وتساعد الغيوم والتراب على هذا الامتصاص فلا يصلنا منها سوى ٤٠ فى المائة ، ومع ذلك تزيد هذه الكمية عدة مرات على ما نتوقع الحصول عليه من الطاقة النووية الحرارية .

ان نشأة الحياة ترتبط بوجود الماء والهواء والطاقة الشمسية . وقد بدأ ظهورها على هذا الكوكب الذى نعيش عليه فى شكل كائنات دقيقة مجهرية الأحجام ، ثم ظهرت أجناس أكثر تطورا وانتشرت النباتات ، وتكونت بها الظروف الملائمة التى أوجدت التمثيل الضوئى ، الذى يحول الطاقة الشمسية الى طاقة كيميائية يتفاعل ثانى اكسيد الكربون مع الماء ، وتكونت المادة العضوية . وأنبعث غاز الاكسجين فى الهواء نتيجة لهذا التفاعل ، وهو أصل تكوين عنصر الاكسجين فى صورة غير متحدة بالجو مع ثبات نسبة ثانى اكسيد الكربون فى الهواء ، وقد ساعدت الظروف البيئية على تطور الاحياء وظهور مملكة الحيوان .

٦ التخليق الكيميائي الضوئي .

٧ - التحكم في الطاقتين الشمسية والنوية .

(١) تحويل الطاقة الشمسية الى حرارة :

ان التكنيك الحديث يعمل باستمرار على تحسين معدات تكييف الهواء ، فتحسب كميات الحرارة الشمسية الداخلة في المباني ، وتتخذ القياسات وحساب التبادل الحراري بحيث تؤدي لأن تكون الحرارة المكتسبة أكبر من الطاقة المفقودة حتى يمكن تدفئة المبنى . ولهذا الغرض اخترعت أجهزة التقاط الأشعاع الشمسي وتجميعه . وهي أجهزة عالية الكفاءة تحل مشاكل التسخين ، ولو حلا جزئيا في المباني . وتهتم بحوث الطاقة الشمسية بأجهزة تحسن وسائل التسخين في دورات المياه بالمساكن وفي حمامات السباحة . وتجري البحوث في تكييف الهواء بالتسخين أو التبريد . ولا تزال وسائل استخدام الطاقة الشمسية في أجهزة التبريد في خطواتها الأولية ، ولكنها تشير الى طريق النجاح في دراساتها الاقتصادية ، ويحتمل سرعة انتشار استخدامها .

ان الطاقة الشمسية تتحول الى كهرباء في الخلايا الكهروضوئية ، وهي تولد تيارا كهربائيا يمكن الاستفادة منه في التبريد المباشر ، اما بما يعرف بتأثير بلتيه (Peltier Effect) أو باستغلاله في تشغيل آلة ميكانيكية أو مكبس تبريد . ولا تزال طرق التبريد باستخدام الطاقة الشمسية باهظة التكاليف .

ويستفاد من الطاقة الشمسية في إزالة ملوحة ماء البحر ، لتزويد كثير من البلاد الصحراوية وشبه الصحراوية الشديدة الحرارة بأفريقيا وآسيا ، والتي ينقصها الماء العذب - بما يلزمها من الماء بعد تحليته . وأساس العملية تقطير ماء البحر باستخدام حرارة الشمس أو مصدر حراري خارجي ،

ان الوقود المعدني نشأ من تكوينات من نباتي دفنت في باطن الأرض وانحلت انحلالا عضويا . وكذلك انحلت الحيوانات المدفونة بالأرض انحلالا عضويا بالضغط الشديد ودرجة الحرارة العالية في جو الأرض ، والشمس هي التي عملت على نشأة النباتات وانماء أجسامها منذ ملايين السنين . . . وهي التي تبنى الطعام بطاقتها منذ الأزل لكل الكائنات الحية . ويعتبر البعض أن الإنسان كآلة يتغذى بالوقود الذي تصنعه الشمس . فالطعام نباتيا كان أو حيوانيا أصله من فعل الشمس في التمثيل الضوئي ، ولا تتجاوز كفاءة هذه الآلة البشرية ٣٠ في المائة . وهذا المقدار يعادل كفاءة آلة ذات احتراق داخلي ، اما كفاءة التفاعلات الكيميائية التي تحول المادة العضوية الى شغل مضى فتبلغ السبعين في المائة ، فالآلة العضلية أكفا من محطة توليد الكهرباء مرة ونصف المرة . وتتحول الطاقة الكيميائية بسهولة في أجسام البشر أكثر من تحولها في أفضل المعدات الصناعية . وتبلغ كفاءة العملية الحيوية المائية في المائة تقريبا كتفاعل حشرة اليراعة المضيئة ، ومثلها كفاءة خلايا الوقود التي تحول الطاقة الكيميائية الى ضوء ، والتي تقرب كفاءتها من حد الكمال ، ولكنها لم تبلغه بعد ، والمنتظر ان يستخدم فيها تفاعل أكسدة الهيدروكربون بدلا من أكسدة الهيدروجين الكثير التكاليف . ومن الاتجاهات الحديثة المتعلقة ببحوث الطاقة الشمسية عدة اتجاهات أخص بالذكر منها الموضوعات التالية :

١ - تحويل الطاقة الشمسية الى حرارة .

٢ - الفرن الشمسي ١٥

٣ - الآلة الشمسية .

٤ - الطاقة الشمسية ونتاج الطعام .

٥ - موازنة الطاقة الشمسية والانتاج النباتي ١٦

فترتفع درجة الحرارة الى نقطة الغليان .
ويستخدم المجمع الحرارى البسيط المنبسط
الذى يوضع فيه الماء ساكنا فى خزان اسود
يكسوه لوح زجاجى، فتختزن الحرارة بالجهاز،
وترتفع درجة حرارة الماء ، ويتبخر الماء ثم
يتكثف على لوح زجاجى ويجمع القطر عند
أقصى نقطة بالجهاز .

ويمكن أن يشبه هذا الجهاز المستخدم فى
تحلية ماء البحر بمدرج يمتص الاشعاع
الحرارى . ويبلغ انتاجه ما بين ثلاثة وستة
لترات من الماء العذب يوميا لكل متر مربع من
السطح المجمع للحرارة . ولو أن هذه الاجهزة
باهظة التكاليف حتى الآن الا أن الماء بتلك
المناطق هو الفاصل بين الحياة والموت .

(٢) الفرن الشمسى :

وأصبح استخدام الطاقة الشمسية فى
توليد الحرارة بأنواع حديثة من الافران من
الامور المعروفة فى التكنولوجيا الحديثة . وقد
أقيم أحد الافران الشمسية فى أديلو بفرنسا .
ويستخدم هذا الفرن وغيره من الافران
الشمسية فى دراسات علمية تحتاج لدرجات
حرارة عالية ١٠٠٠ : و ٣٨٠٠ : مئوية . ويجب
فى هذا الشأن أن يذكر العالم الفرنسى لفوازييه
الذى عاصر الثورة الفرنسية فى القرن الثامن
عشر . وهو الذى استخدم حرارة الشمس
واستعمل العدسات لتجميع اشعتها فى بؤرة
سخنت البلاتين الى نقطة انصهاره . والحق
أن للفرنسيين باعاً طويلاً فى السنوات الاخيرة
فى بحوث الطاقة الشمسية ، فقد أقاموا فرناً
شمسياً آخر فى « ميدون » تبلغ درجة حرارته
ثلاثة آلاف درجة باستخدام مرآة مصباح
كهربائى كاشف للطائرات . وأقاموا فرناً آخر
بقلعة (مونتوا) يستخدم لاجراء البحوث
والتجارب الحرارية الشمسية . ولحسن
الحظ فقد أثمرت التجارب الاولى ، فكانت
نتائجها تشجع المسئولين على مواصلة التقدم،
فشيدوا فرناً شمسياً جديداً تبلغ قدرته

١٠٠٠ كيلو واط فى أديلو سنة ١٩٧٠ فيه
مرآة تكافؤية كبيرة محمولة على بناء شاهق .
وتصل درجة حرارة الفرن الشمسى ٣٨٠٠ :
عند البؤرة ، وتوضع أجهزة فحص تجريبية
فيها لمعرفة بعض الخواص الحرارية للمواد
الكيميائية وتفاعلاتها وتطبيقاتها أثناء الانصهار،
كما يستخدم هذا الفرن ايضا فى تجارب
للبحث عن مواد جديدة ومعدات تكنولوجية
فى تحويل طاقة الشمس الى حرارة ثم الى
كهرباء ، وفى دراسة مقاومة المواد للحرارة .

(٣) الآلة الشمسية

يقال أن الطاقة الشمسية استخدمت فى
توليد الطاقة الميكانيكية ، فى أول آلة شمسية
عرفت فى القرن الثانى قبل الميلاد . وعلى
الرغم من عدم توافر البيانات عن هذه الآلة ،
فإن القرن التاسع عشر (سنة ١٨٦٧) شهد
الآلة البخارية التى شغلها الاستاذ الفرنسى
موشو (Mouchot) فى ريدون Redon
مستخدماً الطاقة الشمسية . ولو أن أكثر
من مائة عام قد انقضت منذ ذلك التاريخ فالآلة
الشمسية لا تزال فى مهدها ولا يزال الفحم هو
الوقود السائد فى توليد الطاقة الحركية . ولا
يزال الفحم والبترول يجلسان فى مجلس
الصدارة بالحياة المدنية والصناعية بين موارد
الطاقة الأخرى .

وقد صنعت بعض الشركات مضخات
شمسية تحول اشعاع الشمس الى حركة
تضخ المياه فى المناطق المجربة . وسوف يكون
لهذه المضخات شأن كبير فى التنمية الاجتماعية
والاقتصادية بصحارى افريقيا وآسيا وأمريكا
الوسطى والجنوبية . أن هذه المضخات
الشمسية تستطيع أن تزود القرى النائية
والواحات بما يلزمها من مياه ، وسوف يستفيد
منها البدو الرحل ، فيميلون الى الاستقرار
بجوار موارد المياه ، والعمل فى زرع الصحراء
بالإضافة الى الرعى . وفعلاً أقيمت عشرات
المضخات الشمسية فى أجزاء مختلفة من

ولذلك يمكن استخدام هذه الطريقة الأخيرة بالمناطق المتقلبة الطقس ، ولو أن كفاءتها قليلة وتحتاج الى سطوح كبيرة لتجميع الاشعاع .

وفي مشروع فرنسي حديث استخدم تركيز الاشعاع في بؤرة ببرج يسمى برج التشميس الثابت (هليوستات) يتركب من مجموعة من المرايا اللامة تجمع الاشعة في بؤرة تبلغ مساحتها عشرات الامتار المربعة . وتدور المرايا حول محور ، وتعمل كل منها على ميل مسار الاشعة كي تكون صورة للشمس في قمة برج عال يبلغ ارتفاعه عشرات الامتار . وتتراكم صور الشمس التي تكونها المرايا صورة فوق الاخرى في بؤرة ضوئية لطاقة الشمس . ويركب عندها مرآة يدور فيه مائع مناسب بواسطة الضغط . وقد يستعمل كمائع الماء أو الهواء أو الهليوم ، فيسخن المائع وينقل الحرارة لتشغيل توربين .

ولا تزال المحطات الشمسية في مشروعات على الورق فقط ، لكن المعتقد ان مشاكلها سهلة الحل . ويهتم المشتغلون بتكنولوجيا الطاقة الشمسية بدراسة الخزانات الشمسية التي تملأ ماء وتمتص الاشعة بها ، كما يهتمون ببحوث الخلايا الضوئية الفولتائية ، التي تولد الكهرباء من الضوء ، والتي بدىء استخدامها فعلا لتوليد الكهرباء في الاقمار الصناعية . وقد أسهمت هذه الخلايا في الستينات والسبعينات في تكنولوجيا سفن الفضاء . وتصل كفاءة هذه الخلايا الى ٢٥ في المائة ، ولكنها لا تزال باهظة التكاليف ، اذ تبلغ تكلفة انتاج الواط من القدرة الكهربائية حوالي ٢٠ دولارا (سنة ١٩٧٦) . ولكن سوف تنخفض التكلفة بمرور الزمن ، وتقدم التكنولوجيا فتصل الى حد يجعل هذه الخلايا تنافس الخلايا الفولتائية المعتادة في توليد الكهرباء اللازمة بماكينات الديزل . وسوف تستخدم في امداد المعدات الثابتة بالاماكن المنعزلة بما يلزمها من كهرباء . ومن هذه الاغراض محطات الارسال التلفزيوني في المناطق القاحلة ، او على قمم الجبال الشاهقة او بعلامات الطرق البحرية .

العالم ، ولا يزال انتاجها محدودا بعشرة امتار مكعبة في الساعة اذا استخدم سطح لاقط للحرارة لا يتجاوز المائة متر مربع .

وتدرس الآن مشروعات وحدات مضخات عالية القدرة باستخدام الطاقة الشمسية ، كما تدرس مشروعات لمضخات شمسية بمحركات توربينية تولد الكهرباء وتحرك المضخات ، ويبلغ انتاج ضخها ١٠٠٠ متر مكعب في اليوم ، وهو مقدار يناسب الاستخدام في اغراض زراعية .

ان الآلات الشمسية تمتاز على غيرها من الآلات بنظافتها وعدم تلويثها للبيئة ، كما أنها قليلة النفقات لانها توفر ائمان مد الشبكات الكهربائية لمسافات طويلة ونفقات صيانة المعدات . وأهم عيوب الآلة الشمسية عدم امكان استمرار تشغيلها عند افول الشمس ومع ذلك فانها تمتاز بطول العمر ، وسهولة التحكم في التشغيل ، وعدم التعرض لتقلبات أسعار الوقود .

وقد اخترعت حديثا آلات جديدة لتوليد الكهرباء بشدة عالية ، ولكنها لا تزال من المخترعات الجديدة التي تحتاج الى مزيد من الفحص والتجريب .

ومن الواجب مناقشة العملية الدينامية الحرارية Thermodynamic Process وأن نفرق بين الانواع المختلفة المستعملة من الاجهزة التي تحول الحرارة الى حركة معتمدة على تركيز الاشعاع الشمسي في بؤرة ، وبين الاجهزة التي تلتقط هذا الاشعاع في المجمعات ، ففي تلك الانواع الاولى تجمع الاشعة في بؤرة قبل التقاطها في جهاز التراكم الحراري ، أما الانواع الاخرى فتلتقط الاشعاع على ما هو عليه دون تجميع او تركيز سابق وتستخدمه ، وفي الطريقة الاولى تسخن الموائع الى درجات حرارة عالية بكفاءة كبيرة ، بينما في الطريقة الثانية يمكن تشغيل المعدات بالتشميس غير المباشر .

وقد اقيمت في النيجر شبكة تليفزيونية فيها محطات ارسال وغرف استماع لبرامج تعليمية تنقلها الاقمار الصناعية .

(٤) الطاقة الشمسية وانتاج الطعام

تهتم البحوث الحديثة بمشكلة الغذاء في العالم ، وتجرى الآن مئات البحوث العلمية لرفع كفاءة انتاج الغذاء عن طريق الاهتمام بالزراعة اولا ، ثم بتقليد النظم الحية في خلايا ضوئية فولتاوية وفي عمليات الكيمياء الضوئية (Photochemical Processes)

لقد كان الخشب الوقود الرئيسي المستعمل لتوليد الحرارة . واخذ استهلاكه في هذا الغرض يتناقص بمرور الزمن وزيادة الوعي بانخفاض قيمته الحرارية ، بالمقارنة بالقيم الحرارية لكل من الفحم والبتروول والغاز الطبيعي ، بالاضافة الى ان الخشب يحتاج مناولة ومعالجة اكثر مما يحتاجه الوقود السائل او الغازي ، ولكن الغابات متجددة التكاثر والخشب يتجدد بالغابات بواسطة الاشعاع الشمسي . ويكاد ان يكون مورده مستديما طالما احسن استغلال الغابات دون اسراف او ازالة .

وفي السنوات من ١٩٤٢ الى ١٩٦٠ اقيمت آلاف الوحدات الصغيرة في أوروبا على شكل براميل تملأ من آن الى آخر بالقش وتترك لتتخمر ، فينتج عنها غاز الميثان . وهذه عملية تخمر لاهوائي تحول مادة القش (السليلوز) الى ميثان وثاني اكسيد الكربون بطريقة تلقائية في زمن وجيز . ويصلح الناتج وقودا للتسخين المنزلي وللأضاءة ولطهي الطعام .

ويتطلع الباحثون الآن الى استغلال التمثيل الضوئي للطحالب في مياه البحر والعمل على زيادة كفاءة انتاجها في بناء الكربوهيدرات والبروتينات . ويمكن الافادة من النباتات البحرية التي تجمع ثم تحرق او تخمر لكي

يتولد منها غاز الميثان وأول اكسيد الكربون . ويمكن انتاج الكحول وأنواع أخرى من الوقود من نواتج التخمر . وتجرى الآن تجارب لانتاج الهيدروجين من الميثان وأول اكسيد الكربون الناتجين من تخمر الطحالب البحرية أو المواد السيلولوزية عامة ، وبذلك تتحول الطحالب أو مخلفات الحقول الى وقود غازي أو الى سماد .

وقد تبين ان نظرية مالتوس الانجليزي عن تزايد السكان ، الذي يرى انه يهدد العالم بمجاعة ، فيها كثير من المبالغة والتشاؤم . ان سوء التغذية ونقص المواد الغذائية والقحط والاحداث لا يمكن انكار وجوده في بعض مناطق العالم . وتعمل هيئة الامم المتحدة وغيرها من هيئات رسمية وغير رسمية على التنمية الاقتصادية والزراعية والاجتماعية والصحية في الدول المتخلفة والنامية . وتبحث عن مشاكل هذه البلاد ، ويتناول المختصون طرق تحسين الزراعة والتسميد والري بالعناية الكبيرة حتى تصل الى كل مساحات الاراضي التي يمكن ان يشقها محراث . وقد تبين من الاحصاءات العالمية انخفاض كبير في معدل الانتاج الزراعي عما يجب ان يبلغه ، وبخاصة انتاج المحاصيل الغذائية ، علما بأن الانسان يستهلك الثلث فقط في طعامه ، ويذهب الثلثان الباقيان طعاما للحيوانات . ان الفرد يحتاج لحوالي كيلو جراما واحدا من الطعام في اليوم محسوبا على اساس وزن المادة الجافة ، وثلاثة أرباع هذه الكمية من الخضروات ، والربع الاخير من اللحوم او الاطعمة الاخرى الحيوانية الاصل ، كالجبن واللبن . وتكفي مساحة الاراضي الصالحة للزراعة في العالم اجمع لانتاج ما يحتاجه السكان من الطعام . ان هذه المساحة ومعها مساحة الاراضي اللازمة لانتاج علف الحيوان أيضا تعادل ٢٢ فقط من مساحة اليابسة ، ما عدا القارة القطبية الجنوبية . وهذه المساحة تساوي ربع المساحة المزروعة الآن . وهذا يدل على قصور الكفاية الانتاجية في الزراعة عن حاجة الانسان والحيوان .

استطاع ابتكار أحسن الطرق لتخليق الكيماويات باستخدام الطاقة الكيميائية الضوئية ، ومعرفة العلاقة بين الاشعاع الشمسي والبناء العضوي .



(٥) موازنة الطاقة الشمسية والانتاج النباتي .

وإذا قورن الانتاج العالمى لطعام الانسان وماشيته بالانتاج العالمى للوقود التقليدى يتبين ان الانتاج السنوى للمحاصيل (٧٩٩ × ١١٠ طنا) يزيد قليلا عن الانتاج السنوى للوقود (٦ × ٩١٠ طنا) . ويمكن بالموازنة الحرارية مقارنة ما ينتجه علف الحيوان من الحرارة (٤ × ١١٠ كيلو سعرا للطن) بالقيمة الحرارية لوقود معيارى (٧ × ١١٠ كيلو سعرا للطن) . فيتضح ان حرارة انتاج الطعام للانسان والحيوان يبلغ ٧٠ فى المائة من اجمالي حرارة الانتاج العالمى للوقود .

ان مجموع ما ينتجه التمثيل الضوئى باليابسة والبحار والمحيطات من مواد عضوية حوالى الثمانين بليون طن . وتزيد هذه الكمية على كمية الانتاج السنوى للوقود باربعة عشرة مرة . ومن المعلوم ان نشاط عملية التمثيل الضوئى باشجار الغابات كبير ، ويبلغ ٨ أطنان للهكتار من المساحة بالغابات فى المناطق الشمالية الباردة ، ويزداد هذا النشاط عن ذلك فى المناطق الحارة .

وقد درست انتاجية التمثيل الضوئى فى الغابات لبناء الاخشاب التجارية ، وقدرت بسبعة أمثال انتاج الوقود المعدني وزنا أو أربعة أمثاله حرارة ، دون الأخذ فى الاعتبار الجذور والاشجار الضعيفة والخشب التالف أو المتعفن .

وتستهلك أغلب الاخشاب فى الدول المتأخرة فى التدفئة وطهي الطعام ، على عكس استهلاكه فى البلاد المتقدمة حيث يفضل الاستفادة منها فى البناء والتشييد وفى صناعة الاثاث ودعائم

وان الفرص سائحة لرفع كفاية الانتاج الزراعى واستصلاح الاراضى الجرداء وتوفير المياه لها . وقد ابتكرت فعلا وسائل تكنولوجية حديثة فى الزراعة مثل تدفئة التربة الباردة والبيوت الزجاجية الخضراء لتربية النباتات ، وزودت هذه البيوت الخضراء (الصوبات) بثانى اكسيد الكربون والرطوبة وأشعة الشمس . واستخدمت أيضا طرق حماية التربة من شدة الحرارة فى المناطق الحارة باستخدام أغطية مناسبة . وكذلك استخدمت الاحواض الدافئة لتربية النباتات مع عدم تسرب الرطوبة والماء من التربة الرملية .

وستعمل هذه العوامل الحديثة على توفير الطعام لكل فم ، فالمشكلة ، اذن ، ليست مشكلة عدم كفاية الرقعة الزراعية بقدر ما هى مشكلة قصور القدرة المحصولية للاراضى . ويمكن التغلب على هذه الصعوبة بحسن ادارة الاعمال الزراعية ، وتحسين نظم الري ، وتربية النباتات ، واستخدام أحدث وافضل الاساليب العلمية فى اختيار البذور الجيدة المنتقا ذات الصفات الوراثية الطيبة ، وافضل المخصبات ، وانسب خطط للدورات الزراعية ، مع حسن توزيع المحاصيل فى العالم . فاذا أحسن استخدام كل هذه الوسائل فان الانتاج الزراعى يريد أضعافا مضاعفة ، فلا تتعرض الاجيال القادمة لمشكلة طعام ، بل سوف يواجهون بمشكلة الحاجة الى مزيد من الانتاج الصناعى ومزيد من الطاقة لاجل التنمية الصناعية ، وبخاصة انتاج الآلات الزراعية ووسائل النقل والمعدات والبتروكيماويات ، لتحقيق المتطلبات الجديدة ولتحسين الحالة المعيشية وتوفير عدالة اجتماعية فى جو يسوده الرخاء والرفاهية والمحبة والسلام .

وسوف يربط حل مشاكل المستقبل بقدرة الانسان على الاستفادة من الطاقة الشمسية فى الانتاج الزراعى . وسوف يتحقق ذلك اذا أحسن الانسان دراسة المشكلة وفهم الموازنة للطاقة الشمسية والانتاج النباتي فى العالم ،

الطرق الحديدية وأعمدة البرق وصناعة السفن الشراعية ، وفي صناعة كيماوية كالورق والدائن والحبر الصناعي .

ولا تزال الكفاءة قليلة هزيلة (٥٠ في المائة) في تحويل الطاقة الشمسية الى كيماوية لانتاج الطعام للانسان والحيوان ، بالنسبة الى الانتاج العالمي للمحاصيل . وتتناسب هذه النسبة الصغيرة مع كفاءة التمثيل الضوئي في تحويل الطاقة الشمسية الى كيماوية لانتاج الطعام النباتي بكفاءة بيولوجية ٣ في المائة . وهذه كفاءة منخفضة لان النباتات صغيرة السن تكون بمراحل نموها الاولى قليلة الاخضرار وصغيرة الاوراق . وتمتص المزروعات بالحقول المترامية الاطراف حرارة الشمس حتى يكتمل نموها ، فتتشابك اوراقها ويظل بعضها البعض ويقل استفادتها من طاقة الشمس ، التي تصل فقط الى القمم العليا للنباتات . وهذا يعوق التفاعلات الكيماوية الحيوية فتتخفف كفاءة عملية التمثيل الضوئي . ولكن اذا وزعت الطاقة الشمسية توزيعا عادلا متجانسا على الاوراق فان كفاءة التمثيل الضوئي تزداد ، حتى اذا كانت شدة الضوء صغيرة .

وقد ثبت ان هذه الظروف الطيبة يمكن ايجادها بالحقول لزيادة كفاءة عملية التمثيل في حقول الدرة لمدة اسبوعين او ثلاثة اسابيع مثلا ، قبل الحصاد ، وفي نبات قصب السكر في سنتها الثانية (الخلفة) فطول اوراق النبات وميلها على الساق بزاوية حادة صغيرة تمكن الاشعة من النفاذ في أعماق المحصول ، وانتشارها منعكسة من سطوح الاوراق الخضراء والمرور خلالها في تجانس مفيد ، فتزيد كفاءة التمثيل الضوئي الى حوالي ٧ في المائة من الطاقة الشمسية الساقطة على النباتات .

وبهذه العوامل كلها سوف نتمكن من امداد العالم بالطعام الجيد والكافي لا للانسان فقط

بل لاطعام الحيوان أيضا على مدى السنوات المائتين القادمة على الأقل حتى لو زاد عدد السكان في حدود المعدلات المتوقعة .

(٦) الضوء والتخليق الكيماوي :

يستنزف الانسان الوقود المعدني ، وقد عمد الانسان أيضا في السنوات الاخيرة الى تطوير تكنولوجيا الطاقة وتوليد الكهرباء لاستخدامها بدلا من الوقود المعدني . والوقود المعدني خلقت الطاقة الشمسية . والاشعاع الشمسي يخلق الكيماويات أيضا في المعامل والمصانع الكيماوية . وقد تمكن العلم من استحداث عمليات تخليق بالمعامل كالتى تتم في اجسام النباتات الحية .

وقد ابتكرت بطاريات كهربائية تعمل بتأثير طاقة الشمس بالاستفادة من أشباه الموصلات . واستعملت هذه البطاريات الشمسية بسفن الفضاء في كشف سطح القمر والمريخ . وبلغت كفاءة الخلايا الكهروضوئية أكثر من عشرة في المائة ، وقد تزداد الى عشرين بعد تطويرها .

ان خفض تكلفة أشباه الموصلات Semiconductors سيسهل الحصول على طاقة من خلايا شمسية تصف على مساحات كبيرة من الارض فتلتقط الاشعاع الشمسي وتخزنه في شكل كهرباء ، والواقع ان الخلايا الشمسية مراكم ضوئية كهربية يستفاد منها عند الحاجة الى كهرباء . وربما لا تحتاج هذه الخلايا الى الكثير من أعمال الصيانة ، لكنها تستلزم انتاج الاعداد الكبيرة من اشباه الموصلات . وهى لا تزال باهظة التكلفة ولا يزال انتاج الكيماويات العضوية باستعمال الخلايا الشمسية وأشباه الموصلات بمراحل التطوير الاولى ، ولا تزال كفاءتها محدودة .

ان قصة التخليق الكيماوي للمواد العضوية بدأت في الثلث الاول من القرن الماضى عندما تمكن « فوهرر » من تخليق البولينا (اليوريا)

يرمز له بحروف ثلاثة هكذا ATP (ايه تي بي) . وعندما تبدل العضلات طاقه يتحول هذا المركب الى ادينوسين ثنائى حامض الفوسفوريك ADP (ايه دى بي) وبعد ذلك يكتسب هذا المركب الاخير الطاقة من اشعاع الشمس ويتحول الى ادينوسين ثلاثى حامض الفوسفوريك (ATP) .

وتؤدي الوظائف الحيوية في الكائنات الحية بواسطة تفاعلات تسير بمساعدة مواد حفازة Catalysts تعجل التفاعلات الحيوية ، وهذه المحفزات عبارة عن خمائر Ferments فيها أيونات فلزات متغيرة التكافؤ المتعدد . ويمكن تشبيه الخلية الحية بمصنع دقيق تنتج فيه الطاقة بأجسام في غاية الصغر ، يمكن أن نشبهها بالاقسام في المصانع الكيميائية المتخصصة . وهذه المصانع الخلوية تشحن الحامض الثلاثى الفوسفوريك بالطاقة وتوزع منتجاتها على مختلف أجزاء الخلية . فتنتقل الاحماض الامينية بواسطة هذا المصنع الصغير ويبنى البروتين .

وبالخلية مراقب يشرف على سير التفاعلات الحيوية ويجمع الاجزاء المكونة للمواد ، وتتحكم بكل دقة في سير التفاعلات . وتسير العملية الحيوية في الخلايا باحكام وارتباط بباقي العمليات الحيوية الأخرى ، وباحكام شديد يضمن تبادل العلاقات والوظائف وفق خطة احكم الله تعالى ابداعها في اعجاز ويحاول العلماء تقليد الطبيعة وتخليق بعض المركبات الحيوية مثل البروتين ، فنجح العالم الأمريكي « دى فينو » في بناء بروتين من احماض امينية ، وجاء الناتج مطابقا للبروتين الطبيعى المختار . وقد منح جائزة نوبل سنة ١٩٥٥ تقديرا لاهماله المجيدة في هذا المضمار . وتتابع بحوث تخليق بروتينات ، واهتم العلماء بالهرمونات والهيوجلوبيين - المادة الحمراء في الدم - كما اهتموا بتشكيلات البروتينات وبكشف ما فيها من احماض امينية وبترتيبها الوضعى . وفي

بالمعمل الكيميائى بطريقة اصطناعية دون الالتجاء الى أى تفاعل حيوى . وهدم بهذا الكشف العلمى « نظرية القوة الحيوية » التى كانت تزعم أن المركبات العضوية لا يمكن تخليقها الا فى جسم حى . والحق أن فوهرل مهد طريق التقدم لعلم الكيمياء العضوية ، فتقدمت ايضا العلوم البيولوجية تبعا لذلك ، واتسع المجال فى تخليق المركبات العضوية على المستوى الصناعى . ويفرغ أغلب ما نراه الان من ثورة فى علوم الاحياء الى تلك النجاحات والانجازات التى حققتها الكيمياء والفيزياء فى التعرف على خواص المواد . وقد تطورت هذه الانجازات وادت الى ظهور علم البيولوجيا الجزيئية وعلم الكيمياء العضوية الحيوية .

وفعلا كشفت العلوم الحديثة امكان اجراء تفاعلات كيميائية حيوية بالمعامل ، واثبتت أن هذه التفاعلات تسير فى الاجسام الحية بطرق تختلف عن سيرها فى اجهزة المعامل . ولم يكن فوهرل مخطئا في قوله بإمكان تخليق المركبات العضوية بالمعامل . وفعلا تمكن العلماء من تخليق كثير من المركبات العضوية حتى البروتين بل ذهبوا فى تقدمهم الى ابعد من ذلك ، ونجحوا فى تخليق حامض النووىك الذى يعتبر من الاسس الهامة للحياة .

ونحن نعرف أن التفاعلات الحيوية تتم فى الاجسام الحية عند درجة الحرارة المعتادة بها ، وتحت الضغط العادى فى زمن وجيز ، بينما تستغرق نفس التفاعلات شهورا اذا أجريت فى اجهزة المعامل الكيميائية فى ظروف معينة من الحرارة والضغط . ان النبات يستخدم الاشعاع الشمسى فى تخليق مادة جسمه ، أما الحيوان فيكتسب طاقته من اكسدة سواد غذائية تناولها ثم وجهها للحفاظ على استمرار سير تفاعلاته الحيوية ، وليمد عضلاته بالطاقة التى تلزم لبدل شغلها . وتختزن هذه الطاقة فى شكل كيميائى بجزئيات المركب العضوى ادينوسين ثلاثى حامض الفوسفوريك

Adenosine Triphosphoric Acid

سنة ١٩٥٩ استطاع « كندرو » من تخليق بروتين شديد الشبه بالهيموجلوبين . ولكن العلم حتى الان لم ينجح في تقليد كل التفاعلات الكيميائية الحيوية ، ولم يتمكن تسييرها في التوافق والاتزان الطبيعي . ولا تزال اغلب هذه التفاعلات الحيوية محاطة بكتل كثيفة من الغموض والريبة .

ويعتقد الاخصائيون في كيمياء الجزئيات العملاقة أن التكنولوجيا الكيميائية سوف تتطور ، وأنهم سوف يسيرون بدرب مثل الذي سلكوه لتخليق النشادر اصطناعيا بتثبيت نتروجين الهواء ، وباستخدام عوامل حفازة ، مقلدين الطبيعة التي تسخر كائنات دقيقة لتثبيت النتروجين الذي بالهواء في درنات بجذور الفول والبرسيم وبعض نباتات أخرى من العائلة البقولية ، بعد أن ثبت أن كائنات مجهرية تفرز خمائر تعمل على تحفيز تفاعل تثبيت النتروجين ، وأن هذه الخمائر بروتينات عملاقة الجزئيات ، فيها مجموعات شديدة النشاط الكيميائي وبجزيئاتها أيونات موليبدنم أو فناديوم . وقد استخدمت بعض المركبات المترابطة Complex compounds محتوية على أيونات فلزات عديدة التكافؤ القابل للتغير ، بدلا من الخمائر الطبيعية لأجراء تفاعلات حيوية بالمختبرات بسرعة قريبة من سرعتها بالاحياء .

وفعلا نجح كل من « فولبين » سنة ١٩٦٤ و « شيلوف » سنة ١٩٦٦ و « نيات وسينجر » سنة ١٩٦٦ في تجاربهم لاختزال النتروجين الى نتريد بمحلول غير مائي ، مستعملين عوامل حفازة اصطناعية . وتكون عدد من مركبات نتروجينية ثابتة من نتروجين الهواء عند درجات حرارة منخفضة نسبيا . وقد تم تحضير الهيدرازين (ن بد) ٢ ٤

تحضيرا مباشرا من الهواء ، ثم تكون النشادر . وقد درس شيلوف التركيب البنائي لمركبات فلزات الانتقال بجدول بجدول ترتيب العناصر

لمندليف ، عندما تتحد هذه الفلزات بالهيدروجين بالمحاليل غير المائية ، ونجح في كشف التركيب البنائي لمجموعة هذه المركبات مع الفناديوم . وبهذا النجاح انفتح باب الامل في تخليق كالنشادر بمثل هذه المخففات عند درجات الحرارة المعتادة والضغط غير العالية . ومتى حضر النشادر أمكن تحضير الاسمدة النتروجينية مثل نترات الامونيوم واليوريا .

ان تفاعل التمثيل الضوئي في النباتات لبناء السكريات ، ثم باقى المواد الحيوية فيها عبارة عن تفاعل يعرف في علم الكيمياء بتفاعل تأكسد واختزال ، مثل تفاعل تثبيت النتروجين ويحتاج الى نفس الكمية من الطاقة تقريبا ، كما أنه يسير بمركبات تشبه التي تستخدم في تثبيت نتروجين الهواء . ولذلك يتكهن العلماء بإمكان تسير التمثيل الضوئي اصطناعيا بكفاءة تصل الى ٢٠ في المائة في أحواض كبيرة مصنوعة من البلاستيك ومصفوفة بمساحات كبيرة ومعرضة لضوء الشمس وفيها محاليل مائية لمواد أصلية . وتدور المحاليل ببطء بالأحواض ثم ترفع الى معامل الاستخلاص لفصل مايتكون من نواتج التمثيل الضوئي التي اختزنت الطاقة الشمسية بان حولتها الى طاقة كيميائية في النواتج .

ويمكن إقامة حقول الطاقة الشمسية بمناطق صحراوية او شبه صحراوية قاحلة . وتقدر مساحة تلك الحقول المتوقع انشاؤها بحوالى ٢٥٠ × ٨١٠ هكتارا . وهذه الحقول تستطيع أن تمتص ٣٤ × ١١٠ كيلو سعرا بالهكتار الواحد . فيكون اجمالي كمية الحرارة اللازمة ٣٤ × ١١٠ × ١١٠ = ٣٤ × ١٨١٠ كيلو سعرا في العام ، يستفاد منها في انتاج الطعام اصطناعيا بدون زرع . وسوف تزيد هذه الطاقة عن حاجة الانسان ستين مرة .

٧ - التحكم في الطاقتين الشمسية والنووية .

اهتمت عدة دول كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين والهند وفرنسا والمملكة

استخلاص الفلزات من الخامات الفقيرة

ومن المشاكل التي بدأت تظهر في عالم الموارد في العصر الحديث سرعة استهلاك المواد المعدنية كالحديد والنحاس والالومنيوم وغيرها ، وهي التي تسمى في علم الكيمياء «الفلزات» فنقص الموارد يهدد العالم باقتراب حدوث أزمة عندما يكون المتاح من المواد الطبيعية من هذه الفلزات أقل من الذي تتطلبه المصانع في السنوات المقبلة . وكان المعتاد استثمار الخامات الغنية بهذه الفلزات وإهمال الخامات الفقيرة . ولكن بدء ظهور الأزمة جعل العلماء ومهندسي التعدين يبتكرون الطرق الجديدة المناسبة لاستخلاص الفلزات من خامات فقيرة ، بل أيضا باستخلاصها من المخلفات الفلزية ، وبدأت هذه الطرق الحديثة معقدة وباهظة التكاليف . وتجرى الآن محاولات لخفض هذه التكاليف إلى المستوى الاقتصادي المناسب . وسوف للكهرباء أثر كبير لزيادة القدرة على الاستخلاص وسرعته مع خفض التكاليف ، لتمكين المنتجين من استخلاص كميات كبيرة من الفلزات من خامات فقيرة ومن المخلفات . أن الخامات الفقيرة تحتاج أولا إلى تركيز ، ثم يداب الخام المركز بواسطة الأحماض والقلويات أو كيماويات أخرى ، ثم تستخلص منها الفلزات المطلوب إنتاجها إما بطرق كهروحرارية أو كهر وكيماوية .

وحتى ماء البحار بدأ العلماء دراسة استخلاص الفلزات منه . فنحن في بداية استخلاص المعادن النفيسة أو النادرة الوجود ، كالذهب واليورانيوم والثوريوم من مياه البحار ، على الرغم من ضآلة نسبة وجود هذه الفلزات في البحر . وتعتمد أغلب طرق الاستخلاص الحديثة على الخواص المغناطيسية للخامات أو على الاستفادة من خاصية الامتزاز (الالتصاق السطحي) adsorption واستخدام الأصماغ الصناعية المبادلة لأيونات ion-exchange resins وعلى

المتحدة والبرازيل ومصر وغيرها ببحوث الطاقة النووية ، كما تهتم بعض هذه الدول باستخدام تفاعلات الالتحام بين نوايات الهيدروجين الثقيل وتكوين الهليوم لإنتاج الطاقة ، ومع كل تلك البحوث لم تحظ الطاقة الشمسية بنفس القدر من الاهتمام . وسوف يزداد العمل في مجالات استخدام الطاقة الشمسية في الحقول الشمسية وفي الزراعة الشمسية بالتمثيل الضوئي الصناعي ، وسوف يقتضى الأمر ابتكار أجهزة كيماوية وفيزيائية ومعدات ميكانيكية وكهربائية وإلكترونية باهظة التكاليف . وسوف تبدل جهود كبيرة في التحكم الحراري وفي الموازنة الحرارية للمحافظة على درجة حرارة الجو . أن طرق التدفئة الصناعية بالطاقة الشمسية بدأت تنشر في صحف ونشرات علمية متخصصة منذ أكثر من ثلاثين سنة ، فقد ظهرت عدة مقالات تصف العمليات والأجهزة والمعدات اللازمة للتدفئة ولواقد وآلات شمسية . والمنتظر أن التعاون العلمي سوف يطور البحوث لاستخدام التمثيل الضوئي الصناعي والتدفئة بالطاقة الشمسية والنووية ، وربما تستغل أيضا الطاقة الأرضية في نفس هذه الأغراض .

ولن يبلغ التقدم التكنولوجي بالمحطات النووية الحرارية حدا كبيرا من الانتشار في العالم إلا بعد انقضاء مدة غير قصيرة قد تمتد إلى مائة عام . وسوف يحتاج التطور الفني مدة قد تصل إلى خمسين سنة لإنجاز تنفيذ مشروعات انشائية لاستخدام تفاعل الالتحام النووي الحراري لتوليد الطاقة ، وللقيام بأعباء الاختراع والتطوير والانشاء للمعدات الضرورية للتخليق الكيميائي الضوئي وأجهزة التحكم التلقائي والوقاية والأمن الصناعي ، ولحل ما يستجد من مشاكل .



المذيبات العضوية وعلى الكروماتوجرافيا chromatography . ومع هذه الوسائل مجتمعة لا غنى عن الكهرباء لاستخلاص الفلزات من المحاليل المائية بعد هذه المعالجات المطولة ، وذلك بواسطة امرار التيار الكهربائي في الظروف المناسبة التي تسرب الفلز المطلوب ، بدلا من استخدام الطرق الحرارية القديمة المتعبة والباهظة التكاليف .

ويتجه العلم الحديث ايضا في اتجاهات تساعد التكنولوجيا على ابتكار الطرق السريعة القليلة التكاليف لتنقية المواد المقاومة للحرارة والتآكل واشباه الموصلات ، التي سوف يكثر الاحتياج اليها مستقبلا . وستكون الكهرباء الرخيصة عوننا على التقدم التكنولوجي في القرن الحادي والعشرين . وسوف يتمكن العلم من ابتكار او تخليق بدائل لمواد البناء المعتادة ، وسوف ينتج الاحجار الخفيفة الوزن والعجائن العضوية سهلة التصلد ، وسوف تمتد خطوط الكهرباء في كل بقاع الريف والحضر للاستفادة منها في الاضاءة وادارات آلات الزراعة وآلات الصناعية . وسوف يتحول الريف بالتدريج الى حالة اجتماعية متقدمة يسودها الرخاء .

وسوف يستفاد من كل المخلفات المعدنية بالقمامة وسوف تستخلص الفلزات من الآلات والسيارات القديمة المهمة بعد كبسها وتهشيمها ومعالجتها بالحرارة او الكيماويات فتستعيد الطبيعة هذه المواد وترجعها الى الدورة الصناعية .

الكهرباء ومشروعات حديثة .

سوف تتغير الصورة العامة للحياة الاجتماعية والاقتصادية في الريف والحضر على السواء عندما يعم استخدام الطاقة النووية الحرارية في توليد الكهرباء وتتطور الصناعة في جميع انحاء العالم ، وتعالج نواحي جديدة لم تكن مألوفة من قبل . ان مشكلة المياه التي

تتخلف في العمليات الصناعية تلوث البيئة عادة ولذلك تستخدم وسائل لتنقيتها مما بها من شوائب وسموم . وسوف تكون الحاجة ماسة لكل قطرة من الماء . وسوف تعالج المياه المتخلفة عن العمليات الصناعية وتستخلص الشوائب منها ، ثم تستعاد المياه النقية الى دورتها الاصلية بالعمليات الصناعية . وتكرر هذه العملية بحيث تكون المياه الصناعية في دورات مغلقة بالمصانع ، كالدورة الدموية بجسم الانسان . وسوف تستخدم في تنقية المياه عمليات الامتزاز والاستخلاص بالمذيبات والمبادلات الايونية ، وبالتحليل الكهربائي . واغلب هذه العمليات تدار بالكهرباء . وسوف ينقص استهلاك المياه بالمصانع تبعا لهذا التطور التكنولوجي المرتقب . وسوف يكون للكهرباء اعظم الاثر في اقامة محطات تنقية المياه بالترشيح والتنظيف والتعقيم . وسوف تبتكر مواد جديدة وأنماط جديدة لازالة المواد العالقة او اللدائبة الضارة للتمكين من استعادة استعمالها مرارا وتكرارا .

وسوف تعمل المصانع ايضا على تنقية الأدخنة من الغازات الضارة والمخلفات الصلبة العالقة . وسوف تحتاج هذه العمليات الى كهرباء والى جهود بشرية عقلية وبدنية ، والى مهارات وكفايات ، والى أموال لتنفيذ مشروعات التنقية لتخدم الانسان ولتحسن استغلال الموارد الطبيعية ولتعمل على المحافظة على نظافة البيئة .

فمثلا ليس من الصعب اطلاقا التخلص من ثاني اكسيد الكبريت من المخلفات الغازية بتحويله الى حامض الكبريتيك ، النافع في كثير من الصناعات . ولن تكون ندرة الماء عائقا للتقدم الحضاري ، فبعض المشروعات سوف تتحول الى دوائر مغلقة بها أنظمة مياه تلقائية التنظيف . ولا تلفظ المصانع مياهها الصناعية بالمصارف ، ثم تلوث الانهار والبحار والمحيطات . ان الانسان الآن في نشاطه الصناعي الواسع النطاق ينتج المصنوعات والسلع كما ينتج

وعندما يتحدث الرجل العادى عن المواد الهندسية الجديدة فانه يعنى عادة التحدث عن مواد ذات قوة عالية . وقد يذكر الشخص الاعلى ثقافة علمية شيئاً عن مقاومة المواد الجديدة للتآكل وسهولة التشكيل ، وتحسين معاملات الاحتكاك والتوصيل الحرارى والمقاومة الكهربائية . لذلك يكافح علماء الفلزات والتكنولوجيا فى أكثر من ميدان لانتاج سبائك خفيفة الوزن حسنة الخواص ، وهم لذلك يختارون العمليات المثلى فى الانتاج الصناعى للسبائك مثل المعالجة الحرارية وطرق التشكيل بالضغط . وقد استطاعوا انتاج عالية الخواص الطيبة للصناعة . ونصفها عادة بأنها عالية القوة أو ذات فوق توصيلية حرارية أو فوق لدنة superplastic أو أنها تحت مطاطة hyper-elastic . وتستخدم فى الاصطلاح العلمى الكلمتان فوق وتحت للدلالة على اتجاهات جديدة فى الهندسة الميكانيكية ، وفى استخدام هذه المواد الجديدة لأجل تحسين خواص الآلات .

ومن الاتجاهات الحديثة انتاج مواد ذات خواص فريدة لم تكن من خواص الانواع المألوفة من هذه المواد . فنحن مثلاً نعرف ان الزجاج شفاف، وان الفلزات موصلة للكهرباء ، وأن الحديد مغناطيسى ، وأن المطاط يتحمل تأثير الضغوط ويقاوم تغيير شكله . ولكن ماذا لو تمكنا من انتاج الفولاذ شفافاً والخشب موصلاً للكهرباء وفلزاً ذا مطاطية كالمطاط ، أو مطاطاً له خواص مغناطيسية ؟ ان هذا يبدو مستحيلاً . ولكن العلم لا يعرف المستحيل . افقد أصبح فى المستطاع ، باستخدام الضغوط العالية جداً ، تحويل الاكسجين وثانى اكسيد الكربون الى حالة الصلابة عند درجة الحرارة المعتادة . وقد أنتجت سبيكة من التيتانيوم والنيكل يمكن كناية أن نسميها ذات ذاكرة ، فيمكن ثنيها وطرقها الى أشكال ، ولكن بمجرد تسخينها تستعيد شكلها الاصلى .

المخلفات الضارة بالبيئة التى تعبت بمختلف الكائنات فى المياه العذبة وفى المياه المالحة ، كما تعبت بالتوازن الحيوى الطبيعى فى تلك المياه . وسوف تنشأ أيضاً محطات تحلية المياه المالحة ، وسوف تنتج من هذه المحطات كميات كبيرة من المياه الحلوة باستخدام الطاقة النووية الحرارية . وسيكون بين هذه المحطات وحدات متنقلة فى الأماكن الصحراوية تستطيع تزويد مساحات كبيرة من أرض الصحراء بما يلزمها من المياه للرى لانتاج الطعام للانسان والماشية . ولن يعانى أهالى المناطق الصحراوية الجذب بعد ذلك ، ولن يتعرضوا للقحط والهلاك ، بل سوف يسود بلادهم نوع من اليسر والرخاء .



مواد جديدة للمستقبل .

فى كل خطوة جديدة فى تنمية الصناعات الهندسية تظهر مواد جديدة ، ويمكن التعبير بشكل آخر بأن نقول أن المواد الجديدة تساعد على التطور الهندسي . والحق أن السبائك الشديدة التحمل هى السبب فى امكانية صناعات كثيرة ، مثل الصواريخ الحديثة ، والطائرات النفاثة التى نستخدمها فى عصرنا الحاضر . ومهندسو الصواريخ بدورهم يعمدون الى تشجيع المشتغلين بعلم الفلزات على انتاج سبائك جديدة . ان خاصة فوق التوصيلية الكهربائية لم تكن معروفة منذ خمسين سنة ، ولكنها الآن تستخدم فى توليد مجالات مغناطيسية عالية القوة وتيارات أدت بدورها الى دفع عجلة البحوث العلمية فى عدة مجالات أخرى . واصبح الآن لدينا أعداد هائلة مختلفة من السبائك ذات التوصيلية الفائقة superconductive نستطيع استخدامها فى أغراض هندسية مختلفة . وبذلك تدفع كل من علوم التعدين والهندسة بعضها البعض ، وتشجع بعضها البعض ، على التقدم المستمر فى علم الفلزات وفى بناء الآلات .

ولقد اعتدنا استخدام المواد المتجانسة ذات الخواص المتجانسة ، ولكننا اليوم قد دخلنا عصر الاتجاهات المتباينة والخواص المختلفة ، والمواد المتعددة الطبقات والمواد المدعمة القوة ، فنحن جميعا نعرف الخرسانة المسلحة التى شاع استخدامها فى التشييد ، وشاهدنا فى السنوات الاخيرة تقدما كبيرا فى انتاج انواع من اللدائن المقواة بألياف من الخزف ، وايضا عرفنا الورق المقوى ، والورق المنسوج فيه خيوط فولاذ ، وراينا ايضا صفائح الالومنيوم المغطاة بطبقات مقاومة للحرارة .

وبدراسة بناء الجزيئات فى مختلف المواد وأشكال الشبكات البلورية ، تمكن العلماء من معرفة أنواع الذرات وقوى الترابط بينها . ويقول أحد العلماء انه فى الامكان وجود مادة أو مواد خواصها الميكانيكية أفضل عدة مرات من خواص الماس ، كالفرق بين قوة الماس وقوة الجرافيت . ان ذلك الزعم مجرد افتراض بأن المادة الشديدة الصلادة ذات حزم بلورى متقارب جدا . والمتوقع انتاج مادة اشد تماسكا وصلابة من الكربون والماس تسمى « فوق الماس » (superdiamond) وأن كثافتها سوف تكون ٧ر٦ وقوتها ٤٠٠٠٠ كيلو جراما / مليمترا مربعا (وقطة انصهارها ٥٢٣٠٠٠ درجة مئوية .

والمتوقع بلوغ نتائج أفضل من حالة الماس اذا استخدم الأكسجين أو الهيدروجين أو الكبريت . ويقال ان النتروجين سوف يفوق الجميع فى هذا المضمار ، فالمتوقع أن يكون البناء الشديد التماسك بين ذرات البلورة لهذا العنصر عالى الكثافة (٢٥ جم / سم ٣) ومقاومته الحرارية عالية جدا ونقطة انصهاره ٨٠٠٠٠ درجة مئوية ، وقوة تحمله تكاد أن تكون غير معقولة (٢٨٠٠٠٠ كيلو جراما / مليمترا مربعا) أى أعلى من أفضل أنواع الصلب بألفى مرة .

ومن الذى يستطيع انكار معادلة اينشتاين المشهورة التى تربط الكتلة بالطاقة ، وهى أيضا التى توضح النهاية العظمى أى حدود انتاج المادة من الطاقة . ان هذه المعادلة عادت الطريق الرئيسى للعلوم الهندسية النووية فى العصر الحاضر . ان العالم الروسى « ديمترى مندليف » تحدث فى القرن الماضى عن عناصر افتراضية ، وقد تم فعلا اكتشافها كما ان الحل السالب لمعادلة ديراك التى افترضت وجود اليكترونات مضادة antielectrons كانت وقتا ما فكرة سقيمة حتى السنوات القليلة التى جاءت بعد ديراك ، لما اكتشفت الاليكترونات المضادة ، فى شكل ما نسميه الآن بوزيرونون (position) . ولعل أكثر الطرق المحتملة للحصول على مواد ذات حزم بلورى متماسك شديد التقارب هو استخدام الضغوط العالية جدا ودرجات الحرارة الشديدة الارتفاع ، وأعلى بكثير مما تستخدم فى المختبرات الحديثة حتى الآن ، أو من التى بأى مكان فى الكون . وربما كان هذا هو السبب فى عدم كشف هذه المواد فوقية الخواص حتى الآن . ويقال ان بعض العلماء قد نجحوا فى بعض بلاد العالم من بلمرة الأكسجين بواسطة ضغط تفجيرى ، بحيث يظل فى حالة الصلابة عند درجة الحرارة المعتادة .

ولعل المرء يتساءل عن المزايا التى نستفيدها من المواد فوق العالية القوة وفوق العالية المقاومة الحرارية . انه لمن المؤكد أن المواد الجديدة ذوات الخواص الفوقية سوف تغير وتحسن حياتنا ، وقد ينتج عنها ثورة تكنولوجية ليس من السهل تصور نتائجها ، فمثلا قد تبلغ كفاءة الآلات الحرارية ١٠٠ فى المائة . وقد تترك المراحل البخارية والتوربينات البخارية والمولدات الكهربائية أماكنها لتحتلها مولدات مغناطيسية هيدروديناميكية أبسط وأعلى كفاءة . وسوف تستطيع التكنولوجيا الكيماوية انتاج مواد عالية الصلادة تجعل

مع مسيرة العلوم نحو المستقبل

زجاجات الى اعالي الجبال او بانفاق المناجم ،
للمساعدة على التنفس بعد تحويله الى غاز .
وربما يصل العلم أيضا الى تحضير الهيدروجين
جامدا كالفلزات او الكبريت شديد الصلادة
كالماس .

مع خواص فيزيائية جديدة .

ومن موضوعات البحوث الفيزيائية الحديثة
النفاذية المغناطيسية Magnetic Permiability
وعروة التخلف المغناطيسي Magnetic hysteresis
وهي بحوث هامة في الهندسة الكهربائية .
ويحاول العلماء في بحوثهم المغناطيسية التحكم
في ترتيب الذرات في السبائك للفلزات ذوات
الخواص المغناطيسية مثل الحديد والكوبلت
والنيكل والمنجنيز ، محاولين انتاج مغناطيسات
عظيمة القوة ودائمة . وتسير هذه البحوث في
تؤدة . والأمل محدود في سرعة تحقيقها انتاج
مغناطيس كهربائي شديد القوة .

ان المغناطيسات الكهربائية شائعة في الاعمال
الهندسية بأشكال وحجوم متباينة من
المغناطيس الصغير بأصغر الميكروفونات الى
الكبير الذي يزن عدة أطنان ، والمستخدم في
التكنولوجيا النووية لاستحداث الرنين النووي
المغناطيسي ، الذي يستعمل في دراسة البنية
الداخلية للمادة ، وكشف بناء الجزيء
وتصويره في صورة توضح الترتيب الوضعي
المتتابع للذرات ، وأنواع الترابط بينها وبين
الجزيئات .

ان المغناطيسات الطبيعية لا تصلح لتكوين
المجال المغناطيسي المناسب القوة لهذه البحوث ،
ومن ثم فسوف تستخدم مغناطيسات عالية
القوة بمبلفات عديمة المقاومة الكهربائية ،
تسم بخاصية تعرف « بالتوصيلية الفائقة » ،
او فوق التوصيلية Superconductivity
وهي خاصية كشفت فعلا مثل عشرات السنين
في الفلزات عندما تنخفض درجة حرارتها
انخفاضاً شديداً وتقترب من درجة الصفر

انصال المحاريث والقواطع والمقصات شديدة
الصلادة وغير قابلة للتلف .

وسوف يتمكن الانسان من تشييد الأبراج
الشاهقة للاستشعار اللاسلكي وأيضاً مصاعد
بالغة الارتفاع باستخدام مثل هذه المواد
الجديدة .



ان التكهّن بانتاج المواد الجديدة ليس من
ضروب الخيال بل هو من ثمار التفكير العلمي
في اتجاهات مسيرة العلوم . وهي تنبؤات لا
تشذ عن القوانين الطبيعية ، بل هي امتداد
للصورة العلمية المعاصرة ولحركة التقدم
المستمرة .

وقد أسفرت البحوث العلمية عن ابتكار
طرق تخليق مركبات سلسلية الترابط او
ليفية ، وهي ما تسمى بالمركبات الجزيئية
الكبيرة (macromolecules) او الجزيئات
العملقة ، فالجزيء الواحد منها يحتوي على
عشرات آلاف الذرات . وستكون هذه المركبات
العملقة الجزيئات أساس تخليق مواد
مستقبلية مديدة ، وبدراسة الشبكات البلورية
للمواد عرف أن العيوب في الشبكة البلورية
تغير خواصها . ونجح العلماء في تكوين مواد
تجمع بين الفلزات والفخار ، وانتجت بلورات
كربيد النيوبيوم غرست في فلز النيوبيوم ذي
الخواص الكهربائية الممتازة والردىء التحمل
للحرارة ، ولكن الناتج الجديد احتفظ بالصفات
الطبيعية لفلز النيوبيوم ولكربيد النيوبيوم .
وكذلك غمست خيوط البورون في مصهور
فلز الالومنيوم فنتجت خيوط تمتاز بخفة
الوزن ، كالالومنيوم ، وقوة التحمل كالبورون .

ويتوقع بعض العلماء الاستفادة من تآصل
العناصر وتحضير جزيئات حلقة البناء
للاكسجين مثل حلقات مركبات الكربون ،
فيتحول الأكسجين في الظروف المعتادة من
الضغط والحرارة الى سائل يمكن نقله في

المطلق ، فتندعم مقاومة الفلز للتيار الكهربائي . وظلت فوق التوصيلية غامضة الى أن أتاح لها الله ، العالمين الأمريكيين باردن وكوبر ، Barden and Coppe فوضعا « نظرية فوق التوصيلية » وتكهّن البحوث المغناطيسية بقرب اختراع مركبات نقل تسير بالمغناطيسية وبفوق الموصلات Super conductors عند درجة حرارة شديدة الانخفاض (انصهار الهليوم) . فلو اخترعت هذه المركبات المتوقعة فسوف يتخلص العالم من تلوث الهواء بمخلفات السيارات التي تتسرب الى الهواء . تخترع سيارة تسير بالدفع المغناطيسي . ويعتقد اليابانيون أن السيارة المغناطيسية ستكون سريعة وقليلة الاستهلاك للطاقة ، وسوف يعوض قلة استهلاكها للطاقة تكاليف خفض درجة الحرارة . ان فوق الموصلات هذه سوف تطور تكنولوجيا وسائل النقل تطورا جذريا وتحولها الى أنظمة بسيطة ونظيفة الاستخدام .

وسوف يؤدي استخدام اشباه الموصلات semi conductors مثل السليكون والجرمانيوم الى تحسين خواص السبائك الموصلة للكهرباء . وسوف تكتشف اشباه موصلات ذوات خواص معينة وصغيرة الاحجام للاستخدام في الاجهزة الالكترونية الحديثة الصغيرة كاجهزة الراديو والتسجيل والحاسبات الالكترونية الدقيقة . وكلما تحسنت صناعة اشباه الموصلات زاد انتشار استخدام الاجهزة الالكترونية ، وعدم استعمال طرق الرقابة والتحكم الالكتروني بالمصانع والاعمال العامة والخاصة . اننا بدأنا نرى هذه الاجهزة في بيوتنا وفي المعاهد والمكاتب والمصانع .

ان تقدم البحوث الفيزيائية يؤدي باستمرار الى كثير من الاكتشاف والمخترعات الجديدة . ونسمع اليوم عن التطور الكبير في الانتقال الحراري باستخدام فكرة الانبوبة الحرارية التي ابتدعها لأول مرة المهندس الأمريكي

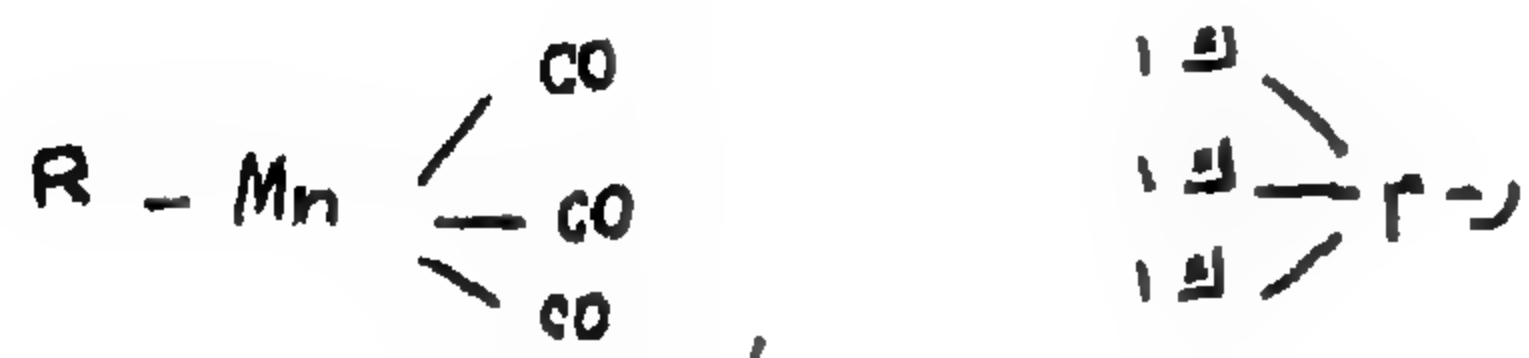
ريتشارد جوجلر Richard Gogler سنة ١٩٤٢ اثناء الحرب العالمية الثانية . ولكن العمل بهذه الانابيب الناقلة للحرارة لا يزال طور البحوث ، ودلت التجارب على انها شديدة النشاط حتى عند نقطة انصهار الجليد وعند نقطة انصهار الفولاذ . فهي تنقل الفيض من الحرارة وكان الحرارة سائل يسير في انبوبة بتأثير ضغط شديد . وهذه الانابيب عبارة عن انابيب مبطنة بمادة مسامية شديدة التوصيلية الحرارية . وقد سجلت براءات اختراع لعدد من هذه الانابيب الحرارية . وطبيعى ان المخترعين يعملون في هذا المجال باكثر العلوم التكنولوجية تقدما في الطيران وغزو الفضاء والهندسة النووية . ومن مزايا هذه الانابيب كونها تعمل بواسطة الخاصة الشعرية فقط ، اى بالتجاذب الجزيئي ، فهي لا تحتاج الى مصادر خارجية للطاقة .

كيمائيات غير مالوفة :

عندما وضع العالم الروسي ديمتري مندلييف جدول ترتيب العناصر لم تكن جميع العناصر قد كشفت ، ومع ذلك ترك للعناصر المجهولة اماكن شاغرة في جدولته وتنبأ باكتشافها . وبعد ذلك عرفت النظائر ، الثابت منها والمتغير ، واستخدمت النظائر الثابتة - ذوات الاعمار الطويلة في الصناعات المعتادة . واذا تطلعنا الى مستقبل استعمالنا للعناصر فانا نستطيع التكهن بأنها ستكون نفس العناصر المألوفة ، لكننا نتوقع ان تكون المواد الجديدة مترتبة من ذرات مترابطة في جزيئات بترتيبات وضعية غير مالوفة ، وقد يكون ترابط الذرات مختلفا عن انواع الترابط التكافؤية التي نعرفها . ان اهل الكيمياء قد برعوا في تخليق بعض المركبات المركبات التي بدت لأول وهلة شاذة عن القواعد المعروفة للتكافؤ . ان من يدرس الكيمياء النظرية لا بد ان تصادفه اعمال الفريد فرنر Alfred Werner الذي اعتبر من ابرز علماء عصره عندما وضع نظرية التناسق Co-ordination

وقد نجح العالمان الألمانيان لوترنجهاوز وشيل (Luttringhaus and Schill) في سنة ١٩٦٤ في تحضير أول هذه المركبات في شكل جزيئين حقيقيين متداخلين ، باحدى حلقتي السلسلة ٢٦ ذرة كربون وفي الحلقة الاخرى المتداخلة مع الاولى ٢٨ ذرة كربون ، وسمى كيتان ٢٦ - ٢٨ ، وتبعهما آخرون وخلقوا كاتينانات بها ثلاث حلقات متداخلة . وسوف تكون لهذه المركبات استعمالات في المستقبل .

ومن التقدم العلمى في تخليق مركبات بها ذرات فلزية ومجموعات عضوية رابع ايثيل الرصاص الذى يضاف الى وقود السيارات ليمنع دق المحرك ولكن نواتج احتراقه سامة فاستبدل بمركب جديد يدعى سى ام تى (C M T) . وترجع قصة هذا المركب الى سنة ١٩٥١ عندما اكتشف باوستن وكيلي احد المركبات الحلقية المحتوية على الحديد في شكل بلورات برتقالية بديعة شديدة الثبات الكيميائي . وكان ذلك مصادفة . وتبين انها مركب حلقى يتكون من حلقتين كربونيتين خماسيتين وبينهما ذرة حديد وسميت هذه المركبات (ساندوتش) وسمى المركب الحديدى ذاته فيروسين (Ferrocene) اما المركب سى ام تى الذى استخدم بديلا لرابع ايثيل الرصاص فيتكون من حلقة خماسية ذرات الكربون ، متحدة من جانب بذرة منجنيز ، ومن الجانب الاخر بثلاث مجموعات كربونيل (ك ا) . فتكون الصيغة الكيميائية للجزيء هكذا :



وهو المستعمل لمنع دق المحرك بالسيارات وذلك باضافته للوقود . وعندما يحترق الوقود لا يحدث الانفجار المفاجئ بالاسطوانة ، بل يكون الاحتراق متجانسا وبطيئا دون انفجار ، ويمتاز هذا المركب على رابع ايثيل

في التركيب الكيميائي ، فقد اعتبرت في ايامه ذروة الكيمياء النظرية ، ولكن كثرت بعدها بحوث التخليق الكيميائي بين الفلزات والنشادر او السيانيد او الهاليدات او الماء ، يكون الفلز في الوسط وتحيط به ايونات او مجموعات غير فلزية . وسميت هذه المركبات متراكبة Complexes مثل كبريتات النحاس النشادرية ومثل الكلورو البلاتينات وهي مركبات متراكبة للبلاتين والكلور . والعجيب ان هذه المتراكبات ليست بدعة حقيقية ، فهي موجودة باجسام الكائنات بصور مختلفة . ولكن ظل سرها غامضا حتى كشفت بنية جزيئات الهيموجلوبين وجزيئات الكلوروفيل والخمائر والانزيمات ، وثبتت انها متراكبات بكل منها ذرة فلزية « ايون فلز » يحيطه جزء عضوى بشكل هندسى متناسق من حيث مواضع الذرات او المجموعات الذرية . وتخضع هذه المجموعات لقوانين الطبيعة ، ولكن ظل تفسير تكوينها غامضا حتى اماطت نظرية فرنر اللثام عن سر هذا الترابط الفريد ، فالجزيء به ذرة وسطى او ايون مركزى مضاف ، تركز اليه مركبات او مجموعات ، وكأنها ضيوف تحيط به ، وتستقر في مواضعها حوله ولا تتركه بسهولة ، في نظام الشبكة البلورية ، لهذا المركب المتراكب . وكان الذرة او الايون الذى بالوسط مقيد او واقع تحت اسر هؤلاء الضيوف .

ولعلنا نذكر من مبادئ الكيمياء العضوية ان الكربون رباعى التكافؤ وان له مركبات تعرف بالمركبات العطرية جزيئاتها عبارة عن حلقات خماسية او سداسية ذرات الكربون مثل البنزول والنفثالين والانتراسين وكلها مركبات معروفة . ولكن العلم الحديث استحدث طائفة من المركبات الحلقية تترايط بالتداخل الحلقى مثل تداخل عروات سلسلة . ومن ثم سميت هذه المركبات كاتينانات (Catenanes) وهى كلمة مشتقة من (كاتينا) اليونانية ومعناها سلسلة . وهى مركبات مستقيمة او متفرعة او متشابكة ومتصلة بمركبات حلقية بدون ترابط تكافؤى .

الرصا ص بكونه غير سام النواتج . ويقول ان شيوع استعماله سوف يوفر بلايين الجنيهات سنويا ، كما انه سيخفف من تأثير التلوث . وربما يتمكن العلم من تخليق كاتينات من ذرات النتروجين والاكسجين والكبريت والفوسفور ايضا ، فاذا تم مثل هذا النجاح فان هذه المركبات سوف تحل مشاكل صناعية كثيرة في انتاج منسوجات شديدة المتانة سهلة الاصطباغ بالوان ثابتة . وسوف تمتاز منسوجات المستقبل بالمرونة المثالية وشدة التحمل ودقة الخيوط وحسن الرونق .

ان المركبات الفريدة التي يبتدعها الانسان لن تخرج في بنائها عن قوانين الطبيعة مهما بلغت اصالة التكوين واصالة الخواص . وقد يكشف لنا العلم حالات جديدة من حالات تكافؤ العناصر مثل كربون خماسي التكافؤ او فوسفور ثماني التكافؤ ، ولن تهدم هذه الكشف ابدا قوانين الطبيعة ، بل وسوف تتيح لنا اعمان الفكر في تفسير تكوينها تفسيراً علمياً يتمشى مع النواميس الطبيعية العامة .

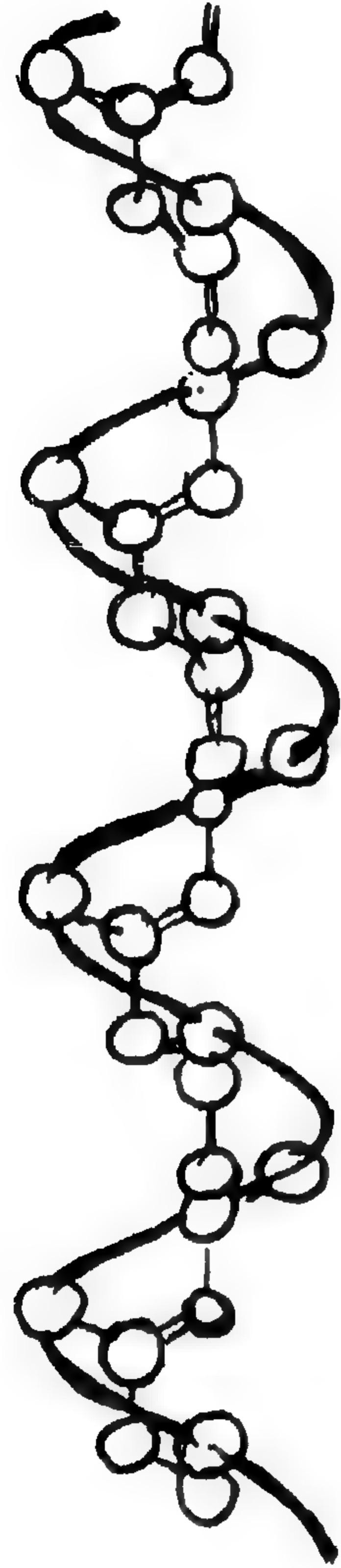
عملاقة الجزيئات

ان من الجزيئات ما تحتوى على اعداد صغيرة من الذرات المتشابهة النوع او المختلفة مثل جزيء الهيدروجين وبه ذرتان من نفس النوع وجزيء الماء الذي يحتوى على ثلاث ذرات ، ذرتان هيدروجين وذرة اكسجين واحدة . ويكون بالجزيء من المركب عدة ذرات ، مثل حامض الكبريتيك الذي في جزيئه اربع ذرات اكسجين وذرتا هيدروجين وذرة واحدة من الكبريت . وتوجد مركبات عضوية بجزيئاتها الاف الذرات . وقد تستطيل هذه الجزيئات في شكل سلاسل من ذرات الكربون المترابطة على خط مستقيم او متفرع او بشكل حلقات متصلة الذرات وبها سلاسل جانبية . وتتكون هذه المركبات عادة من الكربون والهيدروجين والاكسجين والنتروجين والكبريت والفوسفور .

وقد نجح علماء كثيرون في تخليق مركبات عملاقة الجزيئات مكونة من اعداد كبيرة من وحدات جزيئية متشابهة او مختلفة . ومن هذه المركبات السيلولز والمطاط والاصماغ والبروتينات التي يتكون الجزيء منها من عدة الاف الذرات . وتمكنت المصانع الكيماوية من انتاج مطاط اصطناعي بالتخليق كبديل للمطاط الطبيعي الذي يفرزه شجرة الدموع (الهيڤيا) . وقد اقتحمت الكيمياء العضوية مجال تخليق المطاط بعدما كشف سر مطاطية هذه المادة الطبيعية ، ودرست خواص هذه الدموع النباتية ، فتبين انها جزيئات تتسم بنظام ترابط ذري خاص ، وانها سلاسل طويلة من الهيدروكربون وحدتها مادة تدعى ايزوبرين isoprene قانونها الكيميائي C_5H_8 وهى مترابطة باعداد كبيرة مكونة جزيئات المطاط العملاقة وتسمى عملية ترابط هذه الوحدات بـ « عملية البلمرة » ، (Polymerisation) .

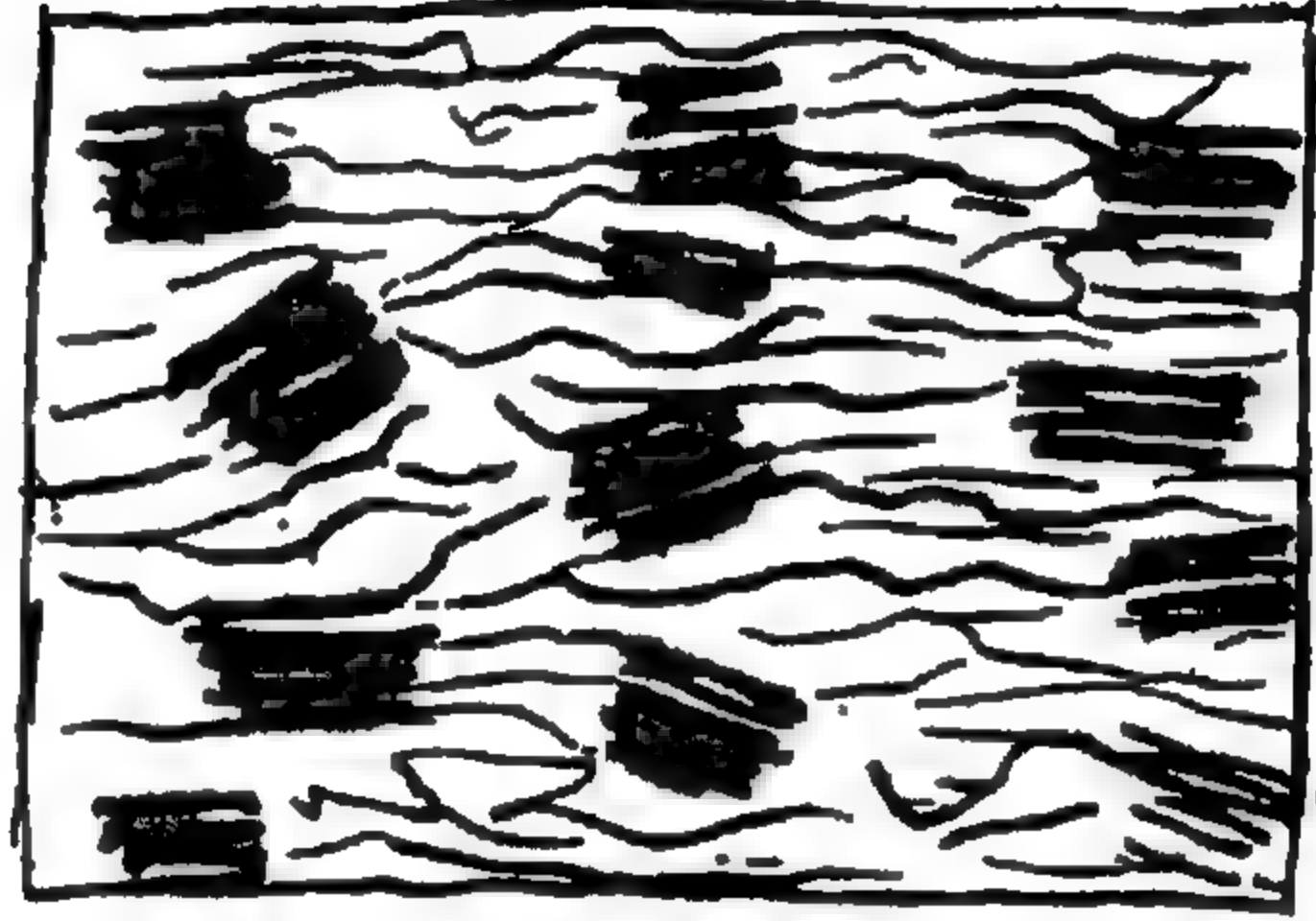
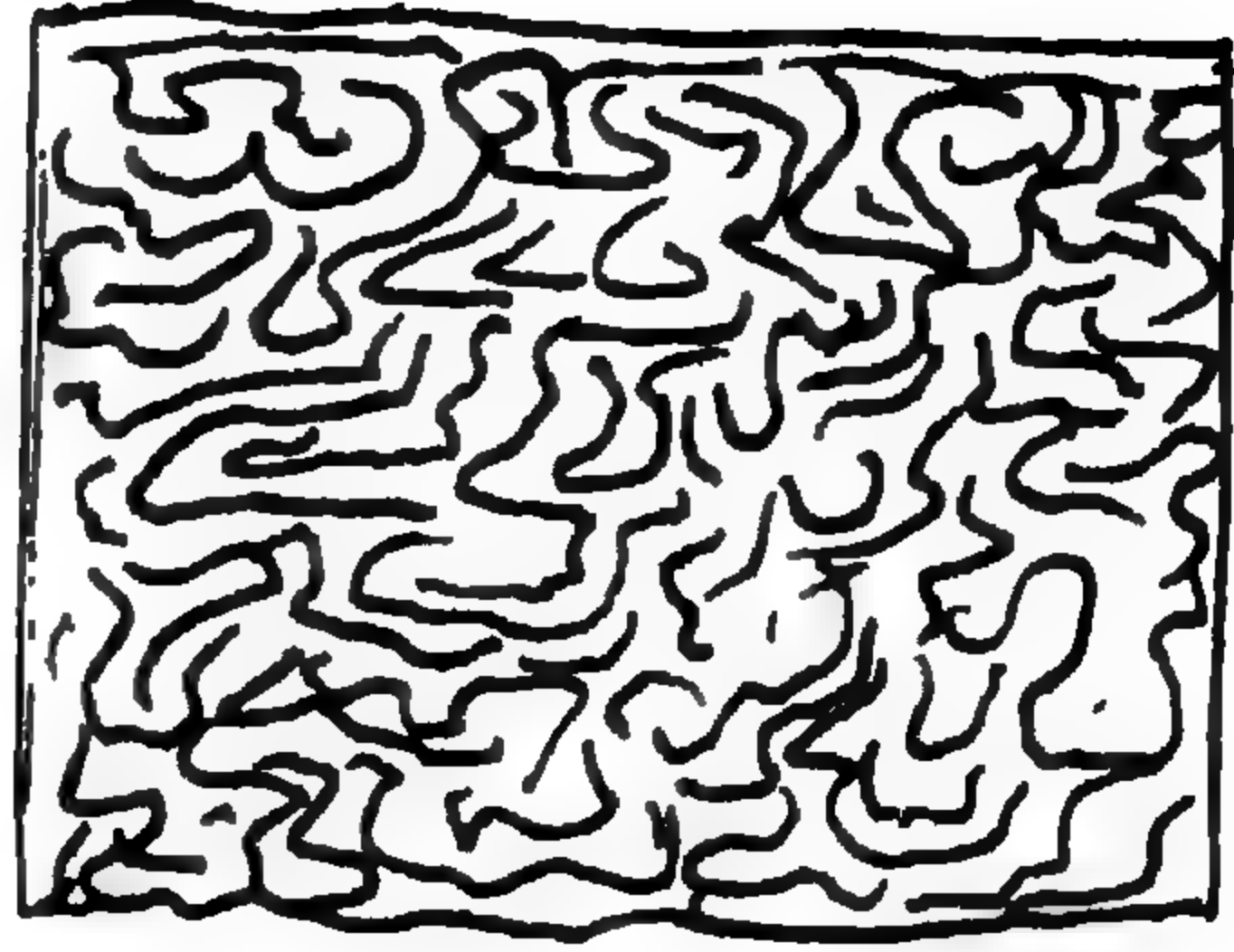
وفعلا نجح علماء الكيمياء في تخليق الايزوبرين ثم بلمرته ، وانتاج مطاط اصطناعي تفوقت خواصه على خواص المطاط الطبيعي من حيث صلاحيته للاستعمال الصناعي في مختلف الاغراض .

ونجحت الكيمياء ايضا في تخليق مواد اخرى عملاقة مثل الحرير الصناعي والالياف الصناعية كالنيلون والكابرون وغيرها من لدائن بلمرة . وقد امكن تصوير جزيء النيلون ومعرفة تركيبه البنائي الوضعي فكان عبارة عن جزيئات عملاقة مثل قلادة متشابهة الحبات . وقد تنجح العلوم والتكنولوجيا في تخليق جزيئات عملاقة مخططة من قبل وفق برنامج لترتيب الذرات بحيث يتم التخليق البرمج بطريقة تلقائية تنتج مركبات ذات خواص معينة لكي تستعمل في اغراض صناعية او انشائية او حيوية محددة من قبل .



جزء من جزيء عملاق
(بولي بروجينيه)

شكل (١)



- ١- جزيء عملاق غير متكرر مثل
في صمغ البوليسترية كالمطاطات
المستوائيه.
- ٢- بنى منتظمة لجزيء عملاق مثل
النسويه.
- ٣- بنى منتظمة مثل لبولياثيليه.

تخليق مادة حية .

يصف أحد العلماء الحياة بأنها ظاهرة لعمليات كيميائية فيزيائية تنطوي على تغيير في مواضع الإلكترونات والذرات والايونات مثل ما يحدث أثناء تفاعلات المواد غير الحية . ويعتقد بعض علماء الكيمياء الحيوية في امكان تخليق مادة حية ، ولو في أبسط صورها ، بعدما نجحوا في تخليق أحماض أمينية ، ثم عرفوا لبنات تركيب البروتينات وترتيبها الوضعى في الجزيئات . ويجب عدم المبالغة في تقدير أهمية هذه الحقائق، فنحن لا نزال في أول طريق معرفة أسرار الحياة .

أن أبسط تغيير يحدث في التتابع الوضعى لوحدات الأحماض الأمينية التى يتكون البروتين منها قد يتسبب عنه تغيير خطير في نمط التفاعلات الحيوية ، وقد يؤدي الى الإصابة بمرض خلقى ، أو الى تغيير الصفات الوراثية للكائن الحى . أن الكيمياء تسير بسرعة في طريق التخليق وبخاصة الأحماض الأمينية والبروتينات . فقد تمكن العالم الفرنسى « برانكو » من تحضير الحامض الأمينى « جلايسين » بتسخين الجيلاتين فى محلول حامضى ، وحصل عليه فى شكل بلورات حلوة المذاق . ثم حضرت أحماض أمينية أخرى . وكشفت هذه الأحماض فى أجسام النباتات والحيوانات . ويدخل ٢٢ من الأحماض الأمينية فى تركيب البروتينات . وتتحد هذه الأحماض لتكون البروتين بأنظمة عديدة بطريقة التكثيف الكيميائى (condensation) مكونة جزيئات عملاقة هى البروتينات ، فى شكل سلاسل طويلة من وحدات تسمى ببتييدات peptides عديدة الوحدات ، أو ما تسمى بـ بولى ببتييدات . وقد تحتوى على سلاسل جانبية أو ترتبط سلسلتان متوازيتان منها بواسطة ذرات كبريت بوصلة ثنائية كبريتيد (- ك - ك - سحب -) .

أن دراسة بنية البروتينات وسلاسلها الجانبية قد أوضحت أن فيها مجموعات كبيرة من الخواص ، وأن الجزيء قد يتفرع بعدة تشكيلات من سلاسل جانبية وقد تكون لها تشكيلة جانبية تناسب سلسلة فى بروتين آخر ، أو فى فيروس أو بمكان معين على سطح خلية بكتيرية بحيث تكون الشحنة السالبة على الجسم المضاد (antibody) أمام شحنة موجبة على الجسم الغريب المهاجم فيحدث تجاذب بين الجسمين ، وينتج جسم واحد غير ضار بتلاحم الجسم المضاد بغريسته .

ونستطيع فهم تحفيز الانزيم لتفاعل ما اذا تصورنا أن للانزيم تشكيلة جزيئية ذات سلاسل جانبية تسمح لمادتين متفاعلتين باحتلال فراغين متجاورين فى تشكيلة الجزيء وهناك تلتقى المادتان وتتفاعلان بسرعة ، ثم يترك المركب الناتج المكان المحتل لغيره وهكذا تتكرر العملية . وقد حضر العالم الفرنسى « دى فينو » البروتين من أحماض أمينية ، كما حضر هرمون يدعى اكتروسين ، وكان هذا انتصارا علميا هائلا ، فحصل على جائزة نوبل تقديرا لجهوده (سنة ١٩٥٥) ، ثم توالى البحوث فى تخليق الهرمونات ، وخصوصا فقد اهتم العلماء بتركيب الانسولين والهيوجلوبين وبروتينات عديدة .

ثم درست كيمياء الكروموسومات والجينات الوراثية . وعرف أن الكروموسومات الموجودة فى الخلايا بالنواة هى التى تنشطر مكونة نسخا طبق الاصل حاملة بها صفات الوراثة وهى العملية المعروفة « بالتناسخ » الحيوى ، فالجين يحمل شفرة الوراثة بأن يصدر التعليمات كى تقوم الخلية بإنتاج سلاسل من البولى ببتييدات المعينة ، التى تتكون منها الانزيمات المعنية المتخصصة فى تحفيز تفاعلات محددة تكسب الكائن الحى الصفات المعنية الوراثة ، مثل زرقة العيون أو طول القامة أو بياض الشعر .

تكوينها من عدد محدود من الحروف الأبجدية ومن الكلمات. وتتكون الكلمات من نفس حروف الهجاء، لكن الجمل في اللغة تعد بالآلاف، ولها آلاف المعاني. لكن لغة الكيمياء في تركيب البروتين كلماتها ٢٢ كلمة فقط هي أحماض أمينية تترتب في جزيء البروتين بأى ترتيب. فإذا أخذنا على سبيل المثال الفاسوبروسين أو الأكسيتوسين لوجدنا بكل من جزيئيهما ثمانية أحماض أمينية فقط، فإذا رمزنا لأسماء هذه الأحماض بأعداد من واحد إلى ثمانية، فإننا نستطيع احصاء عدد الاحتمالات الممكنة من التشكيلات الوضعية لهذه الأحماض الثمانية في الجزيء المركب فيكون عددها:

$$١ \times ٢ \times ٣ \times ٤ \times ٥ \times ٦ \times ٧ \times ٨ = ٤٠٣٢٠ \text{ تشكيلة مختلفة.}$$

لكن جزيء الأنسولين مثلا، يتكون من ٣٠ حامضا أمينيا، فإذا كان من بينها ١٥ حامضا أمينيا مختلفا، وأن اثنين من كل منهما موجودان في جزيء الأنسولين، فإن عدد التشكيلات المختلفة الممكن بناؤها عدد كبير فلكي (٨ × ٢٧١٠). وإذا تأملنا في تكوين جزيء الهيموجلوبين نجده يحتوى على ١٤٠ حامضا أمينيا في سبعة مجموعات بكل منها ٢٠ حامضا أمينيا. ويكون عدد التشكيلات المحتملة عددا من العسير تصور كبره، فهو يبدأ من اليسار بالعدد ١٣٥ وعلى يمينه ١٦٥ صفرا. أن هذا العدد الفلكي الهائل أكبر من عدد الدرات التي توجد لا في الكرة الأرضية كلها ولا في جميع كواكب المجموعة الشمسية بل في جميع الاجرام السماوية المعروفة بالكون كله.

ويتبين لنا من ذلك أن أعداد البروتينات الممكن أن تتكون من ٢٢ حامضا أمينيا غير محدودة. ويكفى هذا الإعجاز لتغير تعقد أشكال الكائنات وخصائصها. والعجيب حقا أن الكائن الحي ينتقى في جسمه من بين ٤٠٣٢٠ تشكيلة من الناسوبروسين تشكيلة واحدة معينة ليستفيد منها ويرفض أى

نشر جورج بيدل نتائج تجاربه سنة ١٩٤١ مبرهنا على أن الجينات تنتج البروتينات المعينة. وكان هرمان مولار (سنة ١٩٢٦) قد أثبت تأثير الأشعة السينية في جينات ذبابة الفاكهة واستحدثاتها لطفرات وراثية، وحصل على جائزة نوبل سنة ١٩٤٦. كما حصل على نفس الجائزة سنة ١٩٥٨ تاتوم وبيدل لنجاحهما في معالجة عفن بالاشعاع، واستنباط سلاسل جديدة من العفن. وازداد شغف العلماء بتكوين البروتينات وبناء جزيئاته. فقد استخدم « كندرو » طريقة حيود الأشعة السينية في دراسة بناء جزيء البروتين لمعرفة المواضع المختلفة والترتيب الوضعى لمكوناته، وتمكن من بناء نموذج مجسم لجزيء بروتين. ومنح هو أيضا جائزة نوبل سنة ١٩٦٢. وتمكن جون كوندرو متعاوننا مع فرديناند بيروتس من كشف بناء أحد البروتينات (مايوجلوبين) الذى يوجد بالعضلات، وهو يشبه إلى حد ما الهيموجلوبين، لأنه يحمل الأكسجين، ولكنه يختلف عنه في كون حجم جزيئه ربع حجم جزيء الهيموجلوبين، وقد وجدنا أن جزيء المايوجلوبين يتركب من سلسلة تبيتيد واحدة يتصل بها حديد، على خلاف جزيء الهيموجلوبين الذى يتركب من أربع مجموعات. وتتكون السلسلة الجانبية الوحيدة للبوليببتيد في المايوجلوبين من ١٥٠ حامضا أمينيا، وهي ليست من نواتج تفكك الهيموجلوبين، بل هي أحماض ذات بناء مميز لها. وكشف كندرو أيضا (سنة ١٩٥٩) بناء المايوجلوبين.

ويبدو لأول وهلة من هذه النتائج أن مشكلة بناء البروتين غير عويصة. ولكننا إذا درسنا فعالية التشكيلات المتنوعة للترتيب الوضعى للأحماض الأمينية في بناء جزيء البروتين نجد أن أى تغيير طفيف في أماكنها قد يغير خواص البروتين تغييرا جوهريا.

يقول أحد العلماء الأمريكيين أن التركيب الكيميائى للبروتين مثل الجمل التى يمكن

تشكيلة اخرى . ويختار تشكيلة واحدة من
الانسولين من بين ثمانية اكتليون محتملة . ان
كيفية هذا التحكم الطبيعى ظل غامضا حتى
كشفت شفرة الوراثة .

حامض النوويك وشفرة الوراثة .

وقد يتساءل المرء بعد ان عرف هذا العدد
الهائل من التشكيلات ، عن كيفية استطاعة
الخلية انتقاء البوليببتيدات المناسبة . لا بد
ان تكون في الخلية تعليمات امر في مكان بها .
ان بناء منزل بحيث يطابق تفاصيل منزل آخر
يعتضى مقارنات مستمرة بين البيتين اثناء
تنفيذ تشييد المبنى ، او ان يوجد رسم على
نسخة زرقاء طبق الاصل للتصميم الهندسي
التفصيلي للبيت المراد تشييده . وكذلك في
الخلية الحية يوجد نظام مماثل .

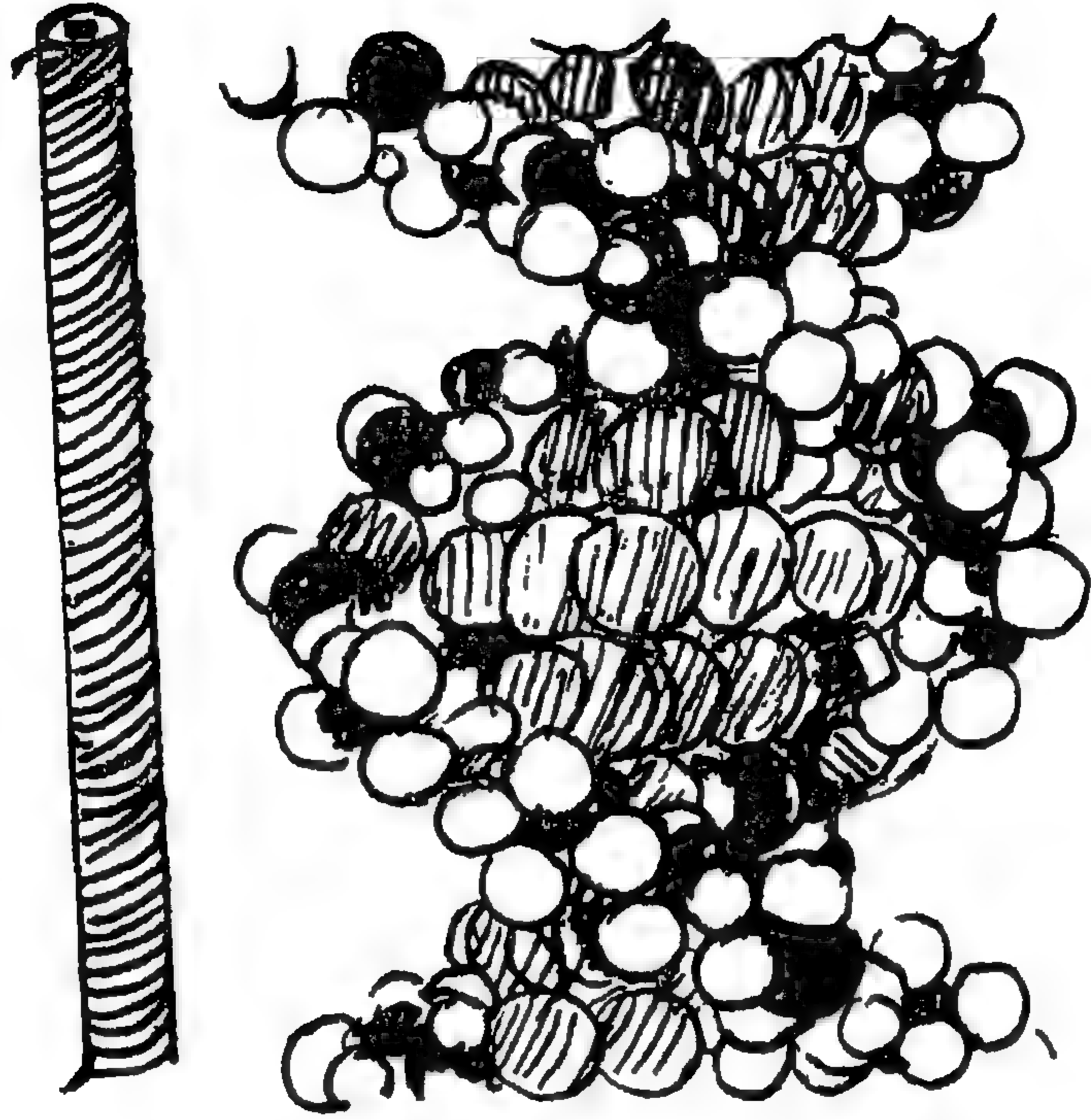
ان اختراع الميكروسكوب الالكتروني ، وتقدم
الكيمياء العضوية الحيوية قد اظهرا نتائج
باهرة في كيمياء الفيروسات والتركيب البنائي
للجينات الوراثية . وقام ثلاثة من علماء
الكيمياء الحيوية في معهد روكفلر بالولايات
المتحدة بكشف بناء الجين ، واثبتوا انه لا شيء
سوى حامض النوويك . وهؤلاء العلماء الثلاثة
هم **اسوالدت** افرى، وكولين م . ماكدونالد ،
وماكلين ماكارى . وتمكنوا من تحويل احدي
السلالات البكتيرية الى سلالة اخرى بواسطة
محلول حامض النوويك دون استخدام اى
بروتين . وبذلك ثبت ان حامض النوويك
يحمل شفرة الوراثة ، ولم تقم بعد ذلك قائمة
للنظرية السابقة التى كانت تعتبر البروتين
حاملًا لشفرة الوراثة .

وكذلك كشفت البحوث بالميكروسكوب
الالكتروني بناء جزئيات الفيروس وتبين انها
عادة مثل المحارة الفارغة قوامها بروتين وبها
جزء نوويك في سلسلة واحدة طويلة نسبيا ،
بينما الجزء البروتيني عبارة عن عدة اقسام
صغيرة نسبيا ومتشابهة . ومن هنا بدأ العلماء

يتشككون في طبيعة جزئيات البروتين وفي انه
اثر تعقيدا من بناء جزىء حامض النوويك .

وفي سنة ١٩٥٢ أجرى **الفريد د . ه شى**
وم . تشاس على نوع من الفيروس يقتحم
الخلايا البكتيرية ويتكاثر في داخلها ويفنك بها
ولذلك يسمى هذا الفيروس بكتريوفاج
(Bacteriophage) اى قاتل البكتيريا ،
لانه يفجر غشاء خلية البكتيريا فيخرج منها
عدد كبير من الفيروس . وفي هذه البحوث
استخدم الكبريت المشع والفوسفور المشع
فدخلت الذرات المشعة في بناء اجسام البكتيريا
ومعها الذرات غير المشعة ضمن غذاء البكتيريا .
ولوحظ تفكك تلقائي مستمر للذرات المشعة
وتنبعث منها جسيمات صغيرة تحمل طاقة
يكشفها العلماء باجهزة خاصة . وبذلك
يتعرفون على العنصر المشع الذى تشعر به
هذه الاجهزة . ولذلك سميت هذه البكتيريا
التي دخلت اجسامها عنصر مشع « **البكتيريا
المعلمة** » . وسمح للبكتريوفاج باصابة بكتيريا
مسلمة ، فتبين ان جزئيات الفيروس المهاجم
للبكتيريا كوت جزئيات مماثلة لها خارج الخلايا
البكتيرية المعلمة ، فتحولت جزئيات الفيروس
الى جزئيات معلمة ايضا . واتبعت هذه
الجزئيات نظاما خاصا ، وتبين انها على غير
المألوف تحتوي على ذرات فوسفور معلمة
وثبت ان البكتريوفاج المحتوى للذرات كبريت
او فوسفور معلمة يمكنه حمل ذرات الفوسفور
التي في داخله في حامض النوويك ، بينما يوجد
الكبريت بالجدار البروتيني له .

ومن ثم يكون حامض النوويك هو الجزء
الداخل للفيروس ، وانه هو الذى يقتحم
البكتيريا ، اما الغشاء البروتيني فيظل مهملا
بالخارج . ولا مفر من القول ان حامض
النوويك هو الذى يحمل شفرة الوراثة وليس
البروتين . وقد تمكن هاينز فرينكيل كونرات
سنة ١٩٥٥ من انتزاع حامض النوويك خارج
الغشاء البروتيني للفيروس الذى يصيب اوراق
التبغ دون الاضرار بالحامض او بالبروتين .



جزى طوليل ملف
شريطي

جزى شفرة الوراعة
شكل (٢)

ووضع نظرية سفرة الوراثة Gode of Heridity وابتكرا البناء الخلزوني المزدوج لجزيئة . وتمكن جورج كوتران سنة ١٩٦٢ من انتاج حامض النوويك ، وتكهن بمستقبل عظيم له في صناعات كيماوية جديدة . وتبين ان الحامض ح د ن هو الذي يقوم بانتاج ح ر ن في الخلية ، وان هذا الاخير ينتج الوحدات التي يبنى منها البروتين . والمعتقد ان العلم اذا توصل الى استنباط طرق سهلة لفصل كميات كبيرة من ح ر ن وعرف الانزيم الخاص الذي يتحكم فيه هذا الحامض ، فقد يتوصل العلماء الى كشف طريقة لاستخدام ح ر ن للتعرف على نوع جزيء ح د ن الذي ينتج ح ر ن .

ويتعلق العلماء باهداب الامل في تخليق مادة حية بعدما كشف سر شفرة الوراثة . ان السيتوبلازم بالخلية سائل غير متجانس شديد التعقيد فيه ملايين الجسيمات المختلفة الانواع والاشكال والخصائص والوظائف ، وهو مكان تخليق البروتينات . واكثر هذه الجسيمات وضوحا في جسيم بالخلية يسمى الميتاكوندريا ، وهي عبارة عن مراكز توليد طاقة الخلية ، وهي غنية بالانزيمات وتقوم بدور عظيم في بناء مركبات غنية بالطاقة ومنها الارينوزين ثلاثي الفوسفات . وكشفت بالخلية ايضا جسيمات تدعى ميكروسومات التي لاحظ جورج بلاد (سنة ١٩٥٣) انتشارها على افشية شبكية ترتبط بالجزء الميكروسومي وتمكن (في سنة ١٩٥٩) من فصل هذه الجسيمات الصغيرة جدا (واحد من مليون من حجم الميتاكوندريا) ، وهي توجد بحجم الجين الواحد . وقد وجد ح ر ن في الجزء الميكروسومي ، وان اغلب ح ر ن بهذه الجسيمات الضئيلة الحجم التي يتكون منها ح ر ن وبروتين بنسب متساوية (٥٠ : ٥٠) وسميت هذه الجسيمات ريبوسومات . وقد ازداد الاهتمام بها في الستينات واعتقد العلماء انها مفتاح لفز تخليق البروتينات . ونوقش موضوعها وعلاقتها بالحامض ح ر ن الذي يبنى الريبوسومات .

ودرس تأثير كل منهما على حدة في احداث اصابة بمرض تبقع اوراق التبغ ، وتبين ان الاصابة تحدث فقط اذا خلط الاثنان ، كما ثبت ايضا ان بالفطاء البروتيني انزيم يلديب جزءا من جدار خلية البكتريا فيثقبها ويدخل حامض النوويك في الخلية وحده من هذا الثقب ، لكنه لا يستطيع اقتحامها اذا لم يوجد الفشاء البروتيني الذي ينتج الانزيم الذي بدوره يثقب جدار الخلية .

وتبين من كل هذه البحوث ان حامض النوويك يرتبط بالبروتين كارتباط الرجل بسيارته ، فهما معا يمكنهما الرحيل من مدينة الى اخرى . لكن لا الرجل وحده ولا السيارة وحدها استطاعة السفر دون الآخر . اما الرجل فيستطيع السفر سيرا على قدميه اذا اضطر الى ذلك ، فالرجل هو الجزء الاساسي في المجموعة وكذلك حامض النوويك هو الجزء الحيوي في الفيروس المكون من هذا الحامض والبروتين .

ودرس التركيب البنائي لحامض النوويك وثبت انه وثبت انه حامل الشفرة الوراثية . وتبين احتواء هذا الحامض على مجموعة سكرية في بناء جزيئه ، وهي مجموعة الريبوزوهو سكر خماسي ذرات الكربون . وكشف ليفين ان الريبوز ليس في كل انواع حامض النوويك بل يوجد ايضا نوع من السكر في هذا الحامض يشبه الريبوز ، ولكنه ينقص عنه ذرة اكسيجين ومن ثم يدعى دي - اوكسي ريبوز deoxyribose . ولذلك عرف ان لحامض النوويك نوعين حامض الريبو نوويك (Ribonucleic acid) ويرمز له بالحروف اللاتينية RNA وليكن بالعربية ح ر ن . والحامض الاخر دي اوكسي ريبو نوويك ويرمز له بالحروف اللاتينية DNA او بالعربية ح د ن . ويوجد ح د ن في النواة فقط بالكرموسومات . وتمكن د . واطسون وف . كريك من امطة اللثام عن بنية جزيء ح د ن

الحقائق يستار كتيّف من أقوال وأفعال بعض رجال السياسة والصناعة والعلوم أيضا ، حسب أهواء التحرير في الصحف في مختلف العهود . والافضل أن تناقش أسباب قلقنا على بيئتنا ، وأن نتعرف على جدوى الحلول ، وخاصة بعدما زاد الوعي والاهتمام بالأنشطة الاجتماعية والانتاجية في مختلف بلاد العالم . ولعل تلك الصرخات المنذرة بالخطر على البيئة إنما هي روافد تيار عصرى تتجمع في مجرى نهر حياتنا الاجتماعية وتخلق الازمات وتهول الخطر أكثر مما ينبغي . علينا أن نفكر تفكيرا عميقا ومركزا في مختلف نواحي الموضوع ، وأن نعرف أن لكل عصر مشاكله ، ولكل جيل متاعبه ، وعلى الانسان العصرى دراسة المشاكل والعمل على تحليلها وحلها حتى يكتب له النجاح واستمرار الحياة الرغدة عبر الاجيال والقرون .

ويجب أن نعرف أيضا هؤلاء الذين يشنون حربا شعواء على التلوث ليس جميعهم على ايمان واقتناع بالمشكلة ، بل هم من محترفي الكتابة ومن مرتزقي الدعاية ، أو من الراضين في منافع مادية معينة ، فلنتركهم يكتبون ويهولون ، ولنتروى ونتبع الحكمة والطريق العلمى في تحديد المشاكل وحلها في هدوء دون انزعاج أو قلق .

ان الانسان يتفاعل مع الارض ويعيد تشكيلها كما يحلو له ذلك ، فهو يغير شكل سطحها ، ويقتلع الاشجار الطبيعية ، ويحرق الارض ، ويشق مجارى الماء ، ويحول مسار الانهار ، ويشيد السدود والخزانات ، ويغير المناخ ، وبذلك يعيث بالنظام الطبيعى المتوازن متشابك العوامل ، فيختل التوازن وتسير الطبيعة في تفاعلات انعكاسية تصيب الحضارة والمدنية بانتكاسات بطيئة دون أن يشعر الانسان الا بعد فوات الاوان .

ان تفاعل الانسان يغير نظام التبادل الطبيعى بين المادة والطاقة بما يقوم به من

وتعددت الآراء وتبين أن الريبوسومات هي مصانع البروتين وليست حرن الريبوسومى . فهذا ليس واسطة في تكوين البروتين وليس حاملا لشفرة الوراثة ، بل هو عمود فقرى لتكوين الريبوسومات .

الانسان والبيئة .

بعد سبات عميق دام آلاف السنين ، أو غفلة عامة يتسبب فيه الانسان من اضرار بالبيئة التى يعيش فيها منذ هبوطه على الأرض . أفاق الناس فجأة واستشعروا الخطر الذى يتهدد الجنس البشرى من جراء تلوث البيئة ، فلا تخلو الآن صحيفة أو مجلة في السنوات العشر الأخيرة من مقال أو نبأ يختص بموضوع التلوث . ولحسن الحظ أن نجد الجماهير تسنجيب لمختلف النداءات الداعية للنظافة . ونرى على سبيل المثال مقالا للاستاذ ميدوز Meadows يشير الى تزايد عدد سكان العالم وعلاقته بتزايد التنمية الصناعية والى أنهما عاملان على التلوث واستنزاف الموارد . ويتكهن بأن التلوث والاستنزاف للموارد سوف يعملان على الحد من النمو الحضارى في السنوات المائة القادمة . ان هذا الحد قد ينقص أعداد السكان كما ينقص الانتاج . ويرى أحد علماء الانجليز ان حماية الطبيعة من الأضرار التى تلحق بها قد تتسبب هى الاخرى في أضرار أخرى بدلا من المنافع . ان الأوبئة الفتاكة بالبشر قد اختفى أغلبها من العالم بفضل التقدم في الطب والعلاج والوقاية والتحصين ، فنقصت الاصابات بالدرن الرئوى، وكاد يختفى تماما التيفوس والكوليرا واختفى مرض الجدري نهائيا من أوروبا . ويرى أن الدول المتقدمة سوف تفلح في القيام بأعباء الزيادة المتوقعة في عدد السكان وستتغلب على مشاكل التلوث الذى يقلق الناس .

والحق أن الموقف الحاضر بالنسبة لنظافة البيئة مشحون بالتناقضات التى تحجب

أنشطة . ان النباتات تمتص ثاني اكسيد الكربون والماء والمواد المعدنية، مستخدمة طاقة الاشعاع الشمس لتبنى أجسامها وتطرد الاكسيجين في الهواء ، وهذا تفاعل حيوى يشرى الجو بالاكسيجين . وتقوم الكتل الحيوية الناتجة من النباتات باطعام الحيوانات آكلة العشب ، وهذه بدورها طعام لأكلة اللحوم . وتموت الكائنات من حيوان أو نبات وتحلل أجسامها وتعود موادها المتحللة الى الدورة الحيوية مرة أخرى . هذه دورة متصلة الحلقات تعتمد كل حلقة منها على الحلقات الاخرى لكى تستمر الدورة الحيوية . وما الانسان الا احدى حلقات هذه الدورة ، ومع ذلك نراه يضرب ضرباته القاضية لافساد النظام الطبيعي المثالى المتناهي الاحكام .

يبعد الانسان الغابات ويتلف الأرض ويصيد اسماك البحر باسراف شديد ويترك الماشية ترعى الكلا والعشب دون ضابط . ان الانسان فى الواقع يجهد الطبيعة بانشطته الاجتماعية ، وتحاول الطبيعة تعويض هذا الاتلاف لكنها لاتستطيع ملاحقته ، وبخاصة بعدما زادت الانشطة البشرية بما أصبح يستعمله الناس من الآلات ومعدات حديثة ، ومن الفنون والصناعات العصرية التى يشنون بها غاراتهم العنيفة على الطبيعة . . ولا يعقل ان تنعكس مسيرة الحضارة وتستخدم الوسائل القديمة كالتحطيب واسقاط الاشجار وصيد الاسماك بالطرق البائدة ، بل أصبح الآن فى الامكان دراسة اماكن انتشار السمك فى البحار والمحيطات بواسطة الطائرات ويتم الصيد باساطيل قوية ذات شباك هائلة وتمسح أعالي البحار ويعود بكميات رهيبه من الصيد . ونرى اليوم الجرارات والكاسحات والمناشير والآلات القطع الكهربائية تهاجم اماكن عديدة من غابات العالم وتزيل أشجارها وتحولها الى حقول او الى مدن وطرق ومشروعات مدنية . وتجد الطبيعة فى اصلاح ما اتلفه الانسان وتعوضه لكنها محدودة الوسائل ولا تتمكن من منافسة عبقرية الانسان .

وهل تحل هذه المشكلة بالعودة الى الاساليب السالفة ونترك الآلات الزراعية والمحركات الميكانيكية، ونشق الارض بمحراث يجره الثور أو بأن نركب الخيل بدلا من السيارات والطائرات ، وان ندافع عن اوطاننا بالعصى والمنجنيق بدلا من آلات الحرب الحديثة ، او ان ننشئ قرى باكواخ من القش وجلود الحيوان بدلا من المدن ذات ناطحات السحاب . ان انجازات الانسان فى الحضارة الحديثة لا تنكر من حيث تقدمها فى العلم والتكنولوجيا . ان العلم والتكنولوجيا تزودان العالم بالغذاء الوافر والمواد الصحية ، والمساكن المريحة وطرق المواصلات السهلة ، ووسائل الدفاع العصرية ، كما تمنحنا العلوم والتكنولوجيا والثقافة العامة فرصا طيبة لراحة اجسامنا بعد اجهادات العمل ، وتنمى عقولنا وتبدر فينا بذور الافكار النيرة والبناءة، فنتغلب بها على الجهل والجوع والمرض .

ان الطبيعة التى طالما هددتنا بالفناء تتعرض هي اليوم الى تهديد الانسان لها . فنحن نبدد اصولنا الراسمالية الطبيعية وارصدنا القديمة بجهالة دون ان ندخر احتياطيًا للظروف غير المتوقعة . ان الاعداد الوفيرة من البشر يعيشون فى بلاد متقدمة حياة سهلة سعيدة بعد ان ملكوا علما وافرا وتكنولوجيا متقدمة تمكنهم من اطلاق الطاقة الحبسية فى الذرة من محبسها والتحكم فيها . وتمكنهم ايضا من الاستفادة من طاقة الشمس فى اغراض حديثة ، ومن الثروة الكامنة فى أعماق الأرض . ولذلك يجب العمل على رسم الخطط السليمة للمستقبل ولحسن استهلاك الموارد.

تزايد السكان ونقص الطعام

ليست زيادة عدد السكان فى العالم بالمشكلة الكبرى كما قد يتوهم الكثيرون ، فالكثافة السكانية موجودة بالمدن فقط . وتبدو المشكلة الحقيقية فى اطعام هؤلاء السكان . ومع ذلك جاء فى تقرير لوزارة الطعام والزراعة

الطعام وعلاقتها بالزيادة السكانية ، ويشير الى مشكلتين امام الانسان المعاصر ، وهما نمط انتاج الطعام ونمط استهلاكه ، فالميل السائد في جميع بلاد العالم هو التوسع في مساحات الحقول مع قلة عدد الزراع ، بينما في البلاد الفقيرة فان المزارع اقل اتساعا ، ويفلحها نفس الاعداد من الفلاحين او اعداد كبيرة منهم . والميل السائد الآن هو استخدام الميكنة الزراعية واستثمارات ضخمة لرؤوس الاموال مع توفير القوى العاملة . ولكن هذه الظروف العصرية لا تلائم الاحوال السائدة في الدول النامية .

ويقول الدكتور سواينماتهان في محاضرة القيت باكاديمية العلوم في الهند سنة ١٩٦٤ ان ٢٨٠٠ كيلو سعر من الطاقة كانت تلزم في الهند واندونيسيا لانتاج الكيلوجرام الواحد من البروتين بالأرز ، بينما في الولايات المتحدة يحتاج الى طاقة حرارية اكثر لانتاج نفس المقدار من البروتين من القمح ، واكثر من ٦٥٠٠٠ كيلو سعر لانتاج الكيلو جرام من بروتين اللحم البقري ، وان ٩٦ في المائة من مدخلات الطاقة في الولايات المتحدة سنة ١٩٧٠ ترد اليهم من الوقود التقليدي ، بينما نجد في نفس السنة بالهند ان وقودا من الروث وخشب الحريق ومخلفات القمامة ومخلفات المزارع تمدهم بحوالي ٦٠ في المائة من حاجتهم الى الطاقة . وهناك تتحدى التكنولوجيا الفقر بالدول النامية بواسطة استمرار زيادة انتاجية الوقعة الزراعية ، مع الاقلال من الاعتماد على مواد لا تتجدد ، وبخاصة موارد الطاقة ، مع العمل على استعادة دورة المواد استعادة أكثر كفاءة . ويناقش « جوبالان » ، في نفس المحاضرة مشكلة انتاج الطعام وانماط استهلاكه في الهند ، ويزعم ان المشكلة ليست ذات بعد كمي فحسب ، بل ايضا لها ابعاد نوعية ، وان عدد السكان سوف يرتبط بنمط البناء العمرى للأفراد ، ويشير الى ان الاطفال تحت سن الرابعة عشرة عاما يشكلون اكثر من ٤٠ في المائة من مجموع السكان (سنة ١٩٧١) ، ويقول انهم سوف يشكلون اكثر

بالولايات المتحدة ان زيادة في انتاج الطعام والمواد الغذائية الصناعية تصل الى ٣ في المائة موجودة بالفعل ، بينما تصل زيادة السكان الى ٢ في المائة فقط . ومع ذلك فان اكثر من نصف سكان العالم ياكلون طعاما ردي النوع ، ويعانى ثلث السكان تقريبا من سوء التغذية والجوع .

ان حاجة الفرد من الحرارة اللازمة لقيام اعضائه بوظائفها الحيوية الفسيولوجية تبلغ حوالى ثلاثة آلاف سعر حراري في اليوم . وتبلغ حاجته للبروتين عالي القيمة الغذائية حوالى ٨٠ جراما . ويحصل الفرد في امريكا الشمالية على اكثر من هذه الكمية ، بينما يبلغ استهلاك الفرد في بعض الدول النامية ما يمدّه بألفين فقط من السعرات الحرارية في اليوم ، كما يستهلك ٥٠ جراما من البروتين ، ربعها بروتين حيواني . اما في افريقيا الوسطى فتبلغ القيمة الحرارية لطعام الفرد في اليوم نفس القيمة ولكن البروتين لا يزيد عن ٤٠ جراما أغلبها نباتي . وهذه تعادل نصف الاحتياج الطبيعى حسب المعايير الفسيولوجية

ان زيادة معدل انتاج المواد الغذائية تعنى زيادة اهتمام الدول المتقدمة بالتغذية ورعاية المواطنين . ولكن لا يمكن ان يتاح الغذاء الكافي لكل افراد العالم حتى في المناطق التى ينقصها انتاج الطعام الكافي ، ولكن يمكن حل المشكلة اذا روعى الاعتماد على الطبيعة ، واستغلت وسائل علمية لانتاج الطعام ايضا ، واذا اهتم العالم اجمع كذلك بالتخطيط للمستقبل للغذاء مثل تخطيطه للغذاء . والواقع ان الثورة الخضراء قد هبت بالعالم من أجل المزيد من الغذاء لكل فم .

وقد عقدت المؤتمرات المختلفة بشأن مشاكل الطعام . ومنها مثلا البحث الذى تقدم به س . جوبالان - من المجلس الهندى للبحوث الطبية في نيودلهى - الى المؤتمر الثانى لمؤسسة الطعام البريطانية الذى عقد في كمبريدج سنة ١٩٧٦ ، يشرح فيه الوعى العالمى بمشكلة

من ٣٠ في المائة من المجموع في سنة ٢٠٠٠ . ويعتبر هذا الانخفاض في نسبة الصفار إشارة طيبة ، وإلى أن زيادة السكان في السنوات المقبلة سيرتبط بتزايد هجرة الأهالي من الريف إلى الحضر وتحضر المناطق الريفية .

وحسب ما جاء في تقرير لهيئة الأمم المتحدة (سنة ١٩٧٣) فإنه سوف يزداد سكان الحضر في آسيا والشرق الأقصى من ٢٥ في المائة إلى ٤٣ في المائة من مجموع سكانها سنة ٢٠٠٠ ، وهذه الزيادة سوف تغير أنماط استهلاك الطعام .

وقد حاول معهد التغذية القومي في الهند معالجة الاحتياجات المستقبلية من الطعام وتقديرها ووضع نظام وجبة غذائية متوازنة ورخيصة ، فيها المواد المناسبة والطاقة الكافية حسب أرقام تناسب سد الحاجة ، مع الأخذ في الاعتبار ، العادات والتقاليد المرعية في تناول الطعام بين غالبية الأهالي . ويقدر على هذا الأساس ما يلزم من انتاج الغلاء بمقدار ١٨٠ مليون طن . ويشيرون إلى أن اللبن يجب أن يزداد بنسبة مائة في المائة ، وأن يزداد انتاج كل من زيوت الطعام واللحم والبيض إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه سنة ١٩٧٠ .

ويهتم الأغلب بتوفير الغذاء من حيث الكم والنوع بوضع السياسات والتشريعات التي تتحكم في نمط استهلاك الأهالي للطعام وتحسين العادات الغذائية . ويقرن . ايچ . لارسن وم . ايچن وجرام من جامعة أوصلو بالنرويج أن الحكومة النرويجية تقدمت إلى البرلمان بتقرير شامل عن التغذية في بلادهم وعن سياستها الغذائية (سنة ١٩٧٥) وتناقش برنامجاً طويلاً الأجل في السنوات من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠ يتلخص في نقاط هامة أربع :

١ - وجوب تشجيع العادات الغذائية الصحية .

٢ - وجوب وضع سياسة طعام وفق توصيات المؤتمر العالمي للطعام .

٣ - ولاسباب تتعلق بالامداد والتموين ، يجب أن تهدف السيادة إلى زيادة انتاج الطعام المنزلي واستهلاكه ، مع تقوية القدرة على زيادة درجة الاكتفاء الذاتي في الامداد بالطعام .

٤ - ولاسباب اقليمية ، يجب أن تكون الأولوية لاستغلال موارد انتاج الطعام في المناطق الفقيرة .

والمهمة الأولى لهذه السياسة هي التنسيق الفعال بين هذه النقاط الأربع .

تكنولوجيا جديدة للمواد والطعام

يعتبر انتاج المواد الغذائية وتجهيزها لتكون صالحة للتناول جزءاً مكملًا للنظام الاجتماعي في كل بقاع العالم . فالطعام لجميع الشعوب يعني عدة أمور علاوة على تحرير الانسان من معاناة الجوع والحرمان . وقد نشأت فنون شعبية هامة لتجهيز الطعام بالطرق التقليدية كالتجفيف والتعليق والتخمير والطهي وتلجأ بلاد كثيرة إلى الاستفادة من كل المواد الغذائية وغير الغذائية قدر المستطاع لتحويلها إلى مواد نظيفة مستساغة للتناول كطعام .

ان علف الحيوان يعتمد في العصر الحاضر على مخلفات أو منتجات جانبية لعمليات عصر الحبوب الزيتية وخلطها بحبوب نشوية في وصفة متوازنة تصلح كتغذية الماشية . وقد أصبحت حيوانات الحقول تستهلك جزءاً كبيراً من الحبوب التي كانت تستهلك في تغذية الانسان . والآن أصبحت التكنولوجيا قادرة على تخليق البروتينات بواسطة استخدام تأثير الطاقة الشمسية في محاليل مواد عضوية . ويستفاد أيضاً من زرع البحر ومن التمثيل الضوئي الاصطناعي بالحقول الشمسية ، كما تقوم بتحويل مخلفات الحقل إلى علف للماشية . ويبنى الآن البروتين بأجسام الحيوانات من تغذيتها بالبروتين النباتي أو من بروتين مخلوق بطرق اصطناعية ، ثم تزويد الانسان بلحوم هذه الحيوانات . وسوف تنشأ عدة صناعات تعتمد على العلوم لتجفيف الطعام وحفظه

تخليق الفيتامينات والهرمونات بخطى واسعة وسريعة . وقد دخل الانسان الآن ابواب عصر صناعة المواد الغذائية بالطرق غير التقليدية .

ولم يقصر سير العلم على هذا الدرب بل يسير أيضا في دروب تقدمية لتخليق الوقود وقد تمت له في هذا المضمار نجاحات غير قليلة مثل تخليق الكيروسين والبنزين بدلا من استخراجهما من الزيت الطبيعي . واحتلت الطاقة النووية مقاما مرموقا في اقتصاديات الطاقة بالدول المتقدمة بعد ما نجح العلماء في ابتكار طرق التحكم في توليد الطاقة النووية الحرارية والتغلب على الطبيعة ، ليتحرر الناس من قيودها بالتدريج ، حتى يتخلص من كل قيودها على الرغم من كونه جزءا منها .

ان المفاعلات النووية الحديثة تعمل بكفاءة عالية وهي تعتمد على اليورانيوم كمادة أساسية لوقودها ، ولكن موارد اليورانيوم محدودة وليست خالدة ، ولذلك يعتمد الانسان للتغلب على هذه الصعوبة بواسطة مفاعلات التربة النووية الحرارية التي تعمل بكفاءة لا يستهان بها ، وسوف يستفيد منها الانسان في توليد الطاقة النووية الحرارية ، بحيث يمكن ان تزودنا بالطاقة لآجال بعيدة جدا تقدر بألف مليون سنة ، ومن ثم يمكن اعتبار الموارد الجديدة للطاقة موارد خالدة .

ان المرء قد يستمتع من آن الى آخر بالتنزه في الأماكن الخلوية ليستنشق الهواء النقي ، وقد يذهب الى الريف أو الى شاطئ البحر حيث تقوم الطبيعة تلقائيا بتنقية الهواء من التلوث على خلاف الحال بالمدن ، حيث لا يساير الطبيعة في تنقيتها للهواء سرعة تلويث الانسان له .

فالطبيعة تعمل على التبادل بين المادة والطاقة في هذا الكوكب الذي اراد الله سبحانه وتعالى لنا ان نسكنه . ولكن العمليات التكنولوجية الحديثة تغير طرق ووسائل التبادل بين المادة والطاقة ، فقد ظهرت في

واعداده للاستهلاك الانساني . وسوف يرى العالم في عشرات السنين القادمة مصانع حديثة ذات معدات مبتكرة ومخترعات في صناعات غذائية تخليقية . وسوف نرى ابتكارات ومخترعات لوسائل الطهي والحفظ باستخدام طاقة الشمس أو بالأفراان النووية المنزلية الصغيرة ، مزودة بوسائل الوقاية من الاشعاعات النووية ونواتج الانشطار النووي ، وسوف يرى شباب الجيل المقبل الاغذية المركزة سريعة الاعداد سابقة التجهيز ، التي تساعد على سرعة اعداد الطعام للأسرة ، وسيكون ذلك خير عون للسيدات العاملات .

ويقول احد المفكرين انه يتأمل في مستقبل الجنس البشرى ويتكهن بتحول الانسان الى كائن يعتمد على ذاته في انتاج الطعام ذاتيا متحررا من تأثيرات الطبيعة الحيوانية ، بل يمكن ان يستغنى عن الطبيعة في انتاج الطعام . ونرى الآن التقدم تقدما بطيئا في توفير الحاجات كالطعام والساء والمسكن بطرق اصطناعية باستخدام المواد التخليقية في هذه الاغراض .

ان العالم الفرنسى الكيميائى المشهور م . بريتلو الذى عاش في القرن الماضى وضع تنبؤات لحالة العالم سنة ٢٠٠٠ وأن الانسان لن يجد ما يكفيه من غذاء . وربما لن تتحقق تكهنات برتلو ، ولكنه وضع لنا روح واتجاه التغيير المحتمل الحدوث . وتجرى الابحاث في مجال تخليق الغذاء . وربما لا يكون الوقت الذى نرى فيه اللحم التخليقى بعيدا عن العصر الحاضر . وقد يكون بعد سنوات معدودات البديل التخليقى للحم البقر قد حل محل اللحم الطبيعى على موائد الطعام . ان العلم قد سار فعلا خطواته الاولى في هذا المضمار ونجح فعلا في تخليق اثنين من الاحماض الامينية الأساسية في طعامنا ، ليقوم الجسم بوظائفه الحيوية الهامة ، وهذان الحامضان هما الميثايونين واللايسين methionine and Lysine فقد أصبحا يخلقان بعشرات الالف الاطنان . وتسير في نفس الوقت صناعة

وساؤها الدفاعية الهائلة للمحافظة على توازن ظروفها ، فمثلا من بين هذه الوسائل الدفاعية الطبيعية القدرة الذاتية على تنظيف خزانات المياه الطبيعية في الانهار والبحيرات مما يلوثها باستمرار ، فالمواد العضوية التي تصل الى مياه الانهار كالاوراق المتساقطة من النباتات ، وكذلك قمامة المنازل التي يقذف بها في الماء ، ومخلفات المصانع التي تصرف مياهها في المجارى المائية العامة ، كلها او اغلبها يعتبر غذاء طيبا للبكتيريا . وهذه تؤكد المواد العضوية فتحللها الى مواد غير ضارة مثل الاملاح المعدنية ، كما ان هذه البكتيريا طعام لكائنات اخرى دقيقة جدا توجد في المياه المحتوية على مواد نباتية متعفنة ، هذه الكائنات تعرف باسم « النقيعات » (انفيزوريا) *infusoria* وهى طعام شهى لصغار السمك وتغذى الاسماك الكبيرة على هذه الاسماك الصغيرة كما يتغذى الانسان بالسمك ايضا . ومن ناحية اخرى نجد ان الاملاح المعدنية الناتجة عن الانحلال العضوى سماد للنباتات ، فهي تزيد خصوبة التربة التي ينمو بها طعامنا ، فالمخلفات التي بمياه النهر تتحول بواسطة البكتيريا الى مواد سمادية بالنسبة لانماء الطحالب ، سواء في المياه العذبة او المالحة .

ولكن عندما تفتح فوهات عشرات الانابيب التي تصب مياه مخلفات المصانع في نهر ما فان البكتيريا التي بالمياه لا تستطيع القيام بالمعبء الكبير الذي يقع على عاتقها لتحليل هذا الفيض من المخلفات . وقد توجد بتلك المخلفات مواد سامة واحماض وقلويات او فينولات او مواد معدنية سامة تهلك البكتيريا ، فلا تتحلل السموم وتظل المياه ملوثة بما اصابها ، ويزداد تركيز التلوث بها بمرور الزمن ، فتهلك الكائنات بها تدريجيا او فجأة ، ويتحول النهر الى مجرى مائى لا حياة فيه .

ان الانسان يجب ان يظل واضعا نصب عينيه موضوع تكييف الحياة وتوازن الطبيعة .

السنوات الاخيرة صناعات كيماوية ونووية عديدة ، كما انتشرت صناعات متنوعة في النفل والهندسة والغذاء والدواء ، وكل هذه الصناعات تستهلك مقادير رهيبه من الماء والهواء والكيماويات والوقود . ويتوسع الانسان في مشروعاته المدنية للاسكان والتعمير . وهذه الانشطة البشرية بأنماطها المتباينة لا تنتج فقط السلع والمنتجات النافعة ، بل تلفظ ايضا مخلفات غازية وسوائل وجوامد تلوث البيئة من بر وبحر وجو . ان الطبيعة التي تتخلص عادة من المخلفات الطبيعية المحدودة المقادير فتحولها الى مواد تدخل من جديد في خطوة او اخرى تنفع الكائنات ، ويستمر التوازن الطبيعى بين الاحياء والبيئة والظروف المناسبة من درجة حرارة ونقاء هواء وخصوبة التربة ووفرة الطعام للكائنات . ولكن هذه القدرة على حفظ التوازن محدودة ولا يمكن ان يساير هذا التلوث الكبير الذي يطرا على البيئة الان . اننا نعرف فعلا حالات من تلوث بالهواء تسببت في اصابة كثيرين بالتسمم باكاسيد النتروجين ، او بثاني اكسيد الكبريت ، او بالفلزات الثقيلة مثل الزئبق والرصاص ، كما نعرف حالات تلوث الهواء بالسناج الخانق وتلوث البيئة بصفة عامة بالمبيدات الحشرية والكيماويات الزراعية ومبيدات الطحالب والفطريات والمنظفات الصناعية والكيماويات العضوية السامة ، مثل الفينولات التي كثيرا ما تجد سبيلها الى مياه البحار فتبيد الاسماك ، او تتراكم بأجسامها ثم تنتقل الى الانسان والماشية . وقد اصبحت حالات التسمم هذه معروفة جدا في السنوات الاخيرة .

دفاع الطبيعة

ان العلم يهتم الآن اهتماما كبيرا بموضوع تلوث البيئة ويعمل على مناهضة التلوث اينما كان والعمل على منع حدوثه كلما كان ذلك مستطاعا . ويقول بعض اخصائي البيئة ان المخلفات الصناعية والمدنية والزراعية يجب الا تؤرقنا اكثر مما ينبغي طالما تمنحنا الطبيعة

ينتجها النباتات من هذا الغاز في المناطق الصناعية بها . ان هذا يدعو الى القلق على حالة الهواء ومصير نسبة الاكسيجين فيه وصحة الانسان ، اذ يزداد معدل استهلاك الاكسيجين زيادة مروعة في تلك المناطق ، فالطائرات تحرق ما بين الخمسين والمائة طن منه اثناء طيرانها عبر المحيط ، ويستهلك كل طن من الفحم عند احتراقه كمية اكسيجين تعادل احتياج الفرد في عام ، أما السيارة فتستهلك منه ما يعادل ما يستنشقه الفرد من هذا الغاز في السنة عندما يكون قد مشى مسافة تقدر بألف كيلو متر ، فاذا كان عدد السيارات في العالم حوالى ٢٠٠ مليون سيارة ويتزايد هذا العدد زيادة مضطردة فان هذه السيارات كلها تلوث الهواء وتنقص الاكسيجين ولكن من حسن الحظ ان هذا التلوث يخففه ما يهب على المدن من الريف ومن البحر من نسيم الهواء النقي فتزول بعض الآثار السيئة .

ان محطات توليد الكهرباء بالطرق الحرارية المعتادة والتي تلوث الهواء بثانى اكسيد الكبريت تتزايد أعدادها باستمرار وسوف تبلغ قدرتها في سنة ٢٠٠٠ عشرة أضعاف القدرة الحالية . وسوف ينطلق من مداخنها مئات ملايين الاطنان من ثانى اكسيد الكربون المحمل بالرماد والمواد الكيماوية السامة . ويجب ان نذكر أيضا التجارب النووية والانفجارات النووية المروعة وما تنفثه في الهواء من سموم ومواد صلبة دقيقة التجزئة ، وما يصاحبها من اشعاعات نووية شديدة الفعالية .

ان عشرة آلاف طن من الأتربة تتساقط سنويا من الفضاء علينا ، كما يتساقط أيضا رماد بركاني الاصل ورمال من الصحراء شديدة النعومة ، بحيث تظل الحبيبات معلقة في الهواء لعدة أيام أو أسابيع ، تلف اثناءها حول الكرة الارضية مرات عديدة . ويظل التراب ذو النشاط الاشعاعى بالهواء لسنوات . ويقلل هذا التراب شفافية الهواء ونفاذية الاشعاعات الشمسية ، كما يتحول أيضا

ويجب ان يدرك عدم استطاعة تكييف نفسه حتى بعد آلاف السنين على حياة في بيئة مسممة . والواجب علينا ان نكافح التلوث في كل من الهواء والماء ، في البحار والمحيطات ، وفي الانهار والبحيرات وبالأرض الزراعية وبالمدن والمصانع وفي كل مكان . ان على الانسان العصري أن يخوض معارك ضارية في هذه الميادين لمكافحة التلوث مستعينا بالوعى والدعاية وبالعلم والتكنولوجيا الحديثة ، وكل ما يمكنها من وسائل وأدوات ومخترعات ، فالطبيعة لن تفي وحدها بالفرض .

مكافحة تلوث الهواء

منذ نشأة الأرض تحدث تفاعلات في باطن الأرض تزيد من نشاط البراكين التي تطرد عدة عناصر الى الغلاف الأرضي . وتحدث تفاعلات كيميائية مختلفة بين هذه المواد وخواصها حتى تستقر فورة التفاعلات في توازن دينامي طبيعي بين مكونات الهواء والماء واليابسة في هذا الكوكب .

ويقدر أحد العلماء في تقرير له عن المخلفات التي يدفعها الانسان في الهواء في السنوات المائة الماضية بملايين الأطنان من السليكون والزرنيخ والنيكل والكوبلت والخاصصين والانتيمون . ويقول في ذلك التقرير أن مليوني طن من التراب في بريطانيا تطرد الى الهواء حاملة ٥١ مليون طن من تراب الفحم وخمسة ملايين طن أخرى من ثانى اكسيد الكبريت . ويقول أيضا ان الشرطى الذى يقف في وسط مدينة لندن يستنشق يوميا من الدخان المتصاعد من عوادم المركبات ما يعادل تدخينه لمائة لفافة تبغ (سيجارة) ، كما يشير الى أن اهالى باريس يستنشقون هواء به من الحموضة ما يفتت الجرانيت .

ومهما يبلغ التهويل في تأثير الحضارة الحديثة على تلويث الجو بالمدن ، فالواقع ان الصناعة في دولة متقدمة جدا، مثل الولايات المتحدة ، تستهلك من الاكسيجين أكثر مما

الى ستار يعكس الاشعاع . وسوف يمتلىء الهواء بالأتربة ويبرد الجو . ويتكهن البعض باحتمال ظهور عصر جليدى جديد ، بينما يتوقع آخرون ارتفاع درجة الحرارة بسبب تسخين قشرة الارض ، لأن ارتفاع نسبة ثانى اكسيد الكربون بالهواء سوف تؤدي الى ارتفاع درجة حرارة الجو ، وهذا ما نسميه بالتلوث الحرارى للجو .

ان حوالى ٢٣ بليوناً من أطنان ثانى اكسيد الكربون تضاف سنوياً الى الهواء من احتراق سبعة بلايين طن من الوقود التقليدى ، ويقدر بيترسون E.K. Peterson - فى مقال له سنة ١٩٧٠ * ان حوالى بليون طن من الدخان والغازات تطرد سنوياً فى الهواء لعدم الكفاية التكنولوجية فى تنقية الدخان ومخلفات الانتاج الصناعى . وهذه الكمية الهائلة لا تتضمن الجسيمات الصلبة ذوات الاقطار الاكبر من ١٠ ميكرون التى تترسب بالقرب من مصادر التلوث . وترد الأنهار والبحيرات حوالى ٥ x ١١٠ طناً من مياه قدرة محملة بمواد سامة مختلفة تطردها المصانع والمنازل .

وتستمر الدورة الطبيعية لثانى اكسيد الكربون بالهواء دون هواده ، كما تدخل أيضاً فى مياه البحار فيتراكم فى الماء حوالى ٦٠ ضعفاً من هذا الغاز بالنسبة لما يوجد بالهواء . ان النباتات تستهلك سنوياً حوالى ١٦٠٠٠٠ مليون طن من هذا الغاز الذى تتكون منه أيضاً طبقات الحجر الجيري بالقشرة الارضية . وهكذا تقوم الطبيعة بعملية التوازن . ومع ذلك توجد نباتات خضراء تعاني فى بعض المناطق نقصاً فى التغذية ، بينما يزداد ثانى اكسيد الكربون فى الهواء من عام الى آخر فى السنوات الاخيرة بنسبة تصل الى ٢. فى المائة ، ولم تستطع تفسير هذه التغذية السيئة فى هذه المناطق . ان تراكم ثانى اكسيد

الكربون يعطل قدرة نفاذ الهواء فى بعض الاجزاء من الطيف الشمسي فيصبح الجو لوحاً زجاجياً فى البيوت الزجاجية المستخدمة فى تربية النباتات (الصوباء) ، فيمر الاشعاع الشمسي من الخارج الى الداخل ويمتصر ما بالداخل جزءاً من الطاقة ويحولها الى اشعة تحت حمراء لا تستطيع الافلات الى الخارج . واذا احتفظ بمستوى التشبع بثانى اكسيد الكربون فى المستقبل بالجو ، فان نسبته فى الهواء سوف تزداد الى ٣٧٩. فى المائة أى بزيادة قدرها ٢٠ فى المائة عن نسبته الحالية ، وقد ترتفع درجة حرارة الجو بحيث يدوب الجليد القطبى الخالد .

ان الدراسات الفلكية تشير الى اشباح الكواكب كالمريخ البارد المترب ، والزهرة الشديدة الحرارة وعديمة الحياة . ولذلك نفترض عاملين هما برودة الارض وسخونتها ، ولعل أحد النقيضين يعوق تأثير الآخر ، ولكن العلم لا يزال غير مؤيد أو منكر باحتمال أيهما .

تلوث المحيط .

وبعد مناقشة تلوث الهواء لنبحث موضوع تلوث مياه المحيطات . ان المحيط فى صراع دائم وممرير مع النشاط البشرى منذ بدء الخليقة ، وقد زاد تلوث المحيط حتى أصبح فى رأى أحد الكتاب العلميين عن البيئة فى حالة اختصار . فقد تحولت مياه البخار الى بؤرة للادران والسموم التى تحملها الأنهار وتصبها فى البحار ، وتحمل الرياح والأمطار من جونا الملوث مواد صلبة تتساقط فى مياه البحار ، وتشارك ناقلات البترول فى تلوث البحار ، ولا عجب فى قول جاك ايف كوستو « ان الحياة آخذة فى الافول بمياه البحار » . وسواء صح أو خاب فآله فالأمر يحتاج الى وقفة للتأمل ولمحاولة حل مشكلة تلوث البحار التى تهدد الحياة بالفناء . ان تكهن كوستو يتأيد بما دونه

* E. K. Peterson, "The Atmosphere : A Clouded Horizon" — Environment, (1970),

في سنة ١٩٧٢ الى الكتابة ويقول مرة أخرى « ان المحيط في خطر » و « ان افكارنا عن التلوث ليست واضحة المعالم .. قد ذكر الكثير عن تلوث الماء والهواء والتربة، ولكن التلوث واحد فقط هو تلوث الماء ، لان كل شيء يلصق الى الماء .. الى المحيط الذي تحول الى مباءة قاذورات « ... » اننا نحن سكان الارض كالمسافرين على متن سفينة لديها كمية محدودة من الماء ومع ذلك تأمل السفينة ، وهي معرضة للخطر ، في مقدم سفينة أخرى لتنفذها ، بينما نحن وحدنا في الكون ... وحدنا تماما ومعنا كمية محدودة من الماء نحتاجها لاجل حياتنا .

تلوث المياه الداخلية

ان المياه الداخلية باليابسة سواء كانت مياه انهار او بحيرات او آبار لا تقل تلوثا عن مياه المحيطات ، فالمصانع الكيماوية الكبرى تحول الانهار الى مجارى عامة تزخر بالمخلفات تشبهها بصفوف متباعدة من المواد المتخلفة عن صناعات السبائك الحديدية وغير الحديدية ومعامل تكرير البترول ومصانع السليلوز والورق والالياف الصناعية والدائن ، ومصانع الغزل والنسيج والمصانع ، ومصانع الكيماويات والاسمدة والاحماض والقلويات ، ومصانع الاغذية المحفوظة والعقاقير الطبية وكل هذه المصانع تضر البيئة .

ان الفطاسين في بحيرة ايرى بالولايات المتحدة يصفونها بأنها أصبحت « وعاء قمامة لعمل كيميائي » . ان حالات التسمم في المدن الكبيرة أصبحت متعددة ، وقد عرفت حالة تسمم مشهورة أصابت اهالي مدينة الاموجورو في نيومكسيكو بالولايات المتحدة ، اذ أصيب كثيرون من الاهالي بتسمم زئبقى بسبب القاء مخلفات زئبقية من أحد المصانع المجاورة في مياه الانهار والبحيرات فتواجد بها الزئبق بتركيز كبير أصاب الاسماك ، وفعلًا وجد الزئبق بتركيز كبير في علب الصفيح المحتوية على السمك . ووجد ان الزئبق في كائنات حية

الرحالة النرويجي ثور هايردال الذي قام برحلته الشهيرة على قارب صنعه من نبات البردي وسماه رع - ٢ . فقد جاء في تقريره عن رحلته ان درجة التلوث تدعو الى الدهشة والانزعاج ، فالامواج تقذف على القارب كل مساء كتلا من الزيت الخام في حجم قبضة اليد . وقد كشف التصاق طحالب وأصداف وريش بتلك الكتل البترولية الاصل . وقد دون في الحادي والثلاثين من مايو ، وهو بعيد عن الشاطئ الافريقي ما نصه « توجد قطع غير معقولة من الاسفلت المفطى باعداد كبيرة من القواقع ، وباحجام كرة لعب صغيرة وتتجمع هذه الكتل على هيئة عناقيد ... » ثم يضيف « لاحظنا ايضا قارورة من البلاستيك وصندوقا معدنيا وملفا كبيرا من حبل مخضر اللون وبعض مصنوعات من النيلون وصندوقا خشبيا وقطعا من الورق المقوى ... انه حقا لمنظر مريع ! كيف يلوث الانسان المحيط الاطنطي ؟ » .

ان الحوادث البحرية سببت في السنوات الاخيرة تسرب اربعة ملايين طن من البترول الى مياه البحار والمحيطات ، انتشرت على شكل طبقة على سطح الماء . وهذه المواد البترولية تتلف التبادل الطبيعي بين الماء والغازات الجوية وتضعف حياة « الهائمات » البحرية الحية التي تمتد مياه البحر وهواء الجو بالاكسجين اللازم لاستمرار الحياة . وتكتسب المياه في الوقت نفسه مواد عضوية اولية ضرورية للاحياء . ان كارثة ناقلة البترول « تيري كانيون » التي حدثت بعيدا عن الشاطئ البريطاني لا تزال عالقة بالاذهان ولا يزال الاسى في نفوس اهالي المفقودين . وقد دفعت هذه الكارثة الاهالي في بريطانيا وبلادا أخرى كثيرة الاهتمام بمصير المحيط والى النظر الى قدره . وتتخذ الآن اجراءات وقائية لحماية مياه البحار من التلوث بالبترول . ان كارثة « تيري كانيون » حدثت سنة ١٩٦٧ أى قبل ما يدون ثور هايردال تقريره عن رحلته في سنة ١٩٧٠ .

ويعود الباحث الفرنسي « جاك ايف كوستو »

والهواء فعندئذ تبدأ قوى الدفاع الطبيعي عملها ، فتلتهم الكائنات الدقيقة المواد المسببة للتلوث ، التي تكون قد تسربت الى الدورة الطبيعية البيولوجية . وقد تتحول تلك المواد في الهواء أو في الماء أو في التربة بتأثير ضوء الشمس والماء دون نشاط حيوى . ان الاضرار التي تحدثها مادة ما من المخلفات أو عدم اضرارها بالتوازن الطبيعي يتوقف على عدة عوامل مثل الكمية وصلاحياتها لتغذية الميكروبات ، وقدرتها على التفسخ والانحلال في الظروف الطبيعية السائدة .

وفي بعض الحالات تلقى بالمهملات بعض المواد كما هي بعد الاستغناء عنها . ومن هذه المواد مبيدات حشرية مثل الـدى دى تى ومركبات الكلور المبيدة للحشرات كـلجـاـمـاـكـسـان والسلفونال المنظف الكيماوي . وهذه مشاكل كبيرة لان الطبيعة لا تحلل هذه المخلفات . والانسان سوف يستمر في كفاحه وينفق المبالغ طائلة لمكافحة التلوث وتآكل الفلزات المتلف للمعادن والمسبب لخسائر فادحة بالمعدات المعدنية بالمصانع ومختلف الاعمال والمنشآت العامة . وقد يعجب المرء اذا عرف فداحة الخسارة الناجمة عن تآكل المعادن . ومع ذلك يقول البعض انه نعمة وليس نقمة لانه يفتت الفلزات ويحللها ، ويعيدها الى الطبيعة بالدورة الطبيعية للمواد في صورة املاح أو اكاسيد فلزية . وقبل عصر اللدائن لم يكن هناك ما يدعو الى ما نحن فيه من القلق ، فكنا لا نعبأ بأن تلقى وعاء معدني فارغا بالقمامة المنزلية ، ولا نهتم باعادة استعماله كخردة معدنية أو بتحويله بفعل الطبيعة الى صدا ، فانه ولا شك سوف يتحول في النهاية الى مركبات معدنية ذوابة في الماء وتسرى محاليلها في الارض وتعيد المعدن الى دورته الطبيعية ، ولكن المشكلة الآن ان الاوعية أصبحت تصنع من مواد غير معدنية بل مواد تخليقية كاللدائن ويرمى منها حوالي ٦٥٠٠٠ مليون وعاء فارغا من البلاستيك في العام بالولايات المتحدة وحدها . وللأسف لا تتحلل مادة البلاستيك بواسطة

أخرى تعيش في مياه البلطيق ، وفي أسماكها وفي بيض الدجاج ، وكانت نسب وجود الزئبق بها عالية ومعرضة لهذه الكائنات للخطر . وتصل أيضا عناصر سامة أخرى كالرصاص والكاديوم والنحاس الى أجسام هذه الكائنات المائية . ويبدو الخطر كبيرا على البيئة في تسرب المبيدات الحشرية المستخدمة في الزراعة . ان هذه السموم تذوب في مياه الري بالحقول ، ولما كان أغلب هذه المبيدات مركبات ثابتة أي صعبة الانحلال فانها تتسرب في محاليلها المائية ومعها الأسمدة الكيماوية الفائضة وتندفق في البرك والانهار ومنها الى البحار والمحيطات .

ان التكنولوجيا الحديثة دائبة في انتاج كميات ضخمة من المواد الخام ومن الوقود ، وتتفاعل خاماتها مع الماء والهواء ابان العمليات الانتاجية ثم تتحول في النهاية الى مخلفات أغلبها ضار وسام . والانسان بهذا النشاط الصناعي المعاصر يتلف البيئة اتلافا لا تعوضه مزايا الصناعات الحديثة ، لان مساوئ التلوث أضخم من أن نتخيلها بسهولة .

ويريد قلقنا على البيئة وعلى قدر الانسان بزيادة الدعاية بالصحف والتقارير التي تصدرها الهيئات والمؤتمرات بشأن التلوث . فاننا مثلا نجد عالما كبيرا مثل فليب هاردر رئيس أكاديمية العلوم بالولايات المتحدة يرى « أننا نحتاج الى مزيد من التكنولوجيا ومزيد من العلم لمعالجة الانتاج ، ولنعيد دراسة طرق التنمية التكنولوجية من أجل المستقبل » . فاننا في حاجة الى مزيد من الوعي والشعور بالمشكلة وبالمسؤولية الملقاة على ابناء هذا الجيل ، وإلى تحليل المعارف المتاحة حاليا لكي نوقن من امكان حل مشكلة المخلفات الصناعية بأكثر من حل واغلب الحلول سوف تكون سهلة ميسورة اذا ما فخصنا الكيفية التي يحدث بها التلوث ، وحددنا مراحله وعيننا المرحلة التي يمكن عندها الهجوم على المشكلة وايقاف حدوث التلوث من منبعه . ان في استطاعتنا البدء من حيث النهاية بعدما تصل المخلفات الى الماء والتربة

وأقل تكلفة من استخلاصها من الخامات الأصلية لتلك الفلزات .

والمعروف أن أحد المصانع كان يستقبل شهريا أكثر من طن من الكروم لاستعماله في طلاء المعاون ، وكان يستفيد من خمس هذه الكمية في الطلاء الفعلى ، بينما يسكب الباقي في مياه المجاري، ومع ذلك لا يزال المصنع مستمرا في الإنتاج وأضاعة الاف الاطنان من الكيماويات والسبائك التي تسكب ذائبة في مياه الصرف ان مثل هذه الحالات جديرة بالاهتمام والتأمل فهي مصانع تعمل في نفس الوقت على تلويث البيئة اثناء قيامها بعملياتها الانتاجية . وهي ايضا تعتبر من الموارد الحقيقية لخامات غالية نادرة الوجود اذا احسن تعديل العمليات فيها للاستفادة من تلك المواد الغالية النادرة .

والمهم الا نتعرض لهذه الملوثات السامة . ويقول خبراء التلوث « لا حاجة لنا بتنقية الهواء او تنقية المياه ، بل اهمية وجدوى الا نلوث البيئة » . وليست المشكلة في عدم كفاية النظافة بقدر كونها بعد التكنولوجيا عن الكمال لمنع التلوث وقصور الفكر عن ايجاد وسائل تكنولوجية نظيفة وطرق وقاية اكثر فعالية ، والوقاية خير من العلاج .

مزيد من السلع وقليل من المخلفات :

تصمم المصانع الحديثة تصميمها على اساس النظافة الصناعية لتنتج الوفرة من السلع دون ان يتخلف عن عملياتها النهائية أى مواد لافائدة منها ، بل يتحول كل شيء من موادها الى منتج او آخر ، او تدخل المواد الثانوية في عمليات انتاجية اخرى فلا يتخلف عنها أى شيء ليرمى كمخلفات صناعية . والواجب ان تكون العمليات الصناعية بلا مداخل اذ ان كل ما بها نافع . وتنقى مياهها من كل شائبة ثم تستعاد في الدورة الصناعية للاستخدام مرات . ولسوف تحدث تغييرات جذرية في التنظيم الصناعي وفي الاقتصاديات الصناعية باتباع هذا الاتجاه التكنولوجي

الكائنات الدقيقة في الطبيعة ، بل تظل هذه المخلفات كما هي ولا تعود الى الدورة الطبيعية . وهذا ما يدفع الانسان العصري الى التفكير في ابتكار مواد اخرى للتعبئة والتغليف والاقتصادى بحيث تكون سهلة الانحلال بتأثير البكتريا ، كما يرجى من كشف سلالات وأنواع بكتيرية تفك بالبلاستيك وتحلله عضويا الى مواد غير ثابتة .

ونرى اشارات بالصحف التكنولوجية الى معدات وطرق فنية لحرق هذه المسود البلاستيكية وغيرها من المخلفات والاستفادة من حرارة احتراقها لتوليد الطاقة الكهربائية او لتسخين مياه لأغراض التدفئة بالمنازل . وتستخدم الطرق البيولوجية لتنقية مياه المجارى بالبكتريا والكائنات الأولية كالمعروفة في الدورة الطبيعية لتنقية مياه النهار من التلوث . وتبتكر الآن بعض الطرق الجديدة التي تزيد من كفاءة تلك الكائنات الحية الدقيقة في تنقية المياه ، ومع ذلك لا تزال المشكلة الهامة في وجود السموم بالمياه ، لانها تقتل جميع الكائنات الحية .

وتشكل المواد غير القابلة للانحلال البيولوجي مشكلة أخرى من مشاكل التلوث بالظروف العادية . ومن حسن الحظ ان طرق تخليص الغازات والادخنة من السموم قبل خروجها من المداخل الى الهواء قد تحسنت اخيرا تحسنا كبيرا باستخدام المرشحات الكيماوية والميكانيكية .

والغريب ان هناك من يؤمن بعدم ضرر المواد العالقة في الدخان ، بل يعتقد البعض بأنها قد تنفع . ان كمية الفضة بمخلفات إحدى العمليات الكيميائية الصناعية يزيد تركيزها عشريين ضعفا عن تركيز الفضة بالخامات الطبيعية بالقشرة الأرضية ، وكذلك يزيد تركيز الموليبدن خمسين ضعفا عن خاماته في الطبيعة بينما تركيز الزرنيخ في المخلفات قد يكون أكثر من تركيزه في خاماته بمائتين وخمسين مرة . وهذه عناصر ذوات فوائد عديدة ، ويمكن استخلاصها من المخلفات بطريق أكثر يسرا

الحديث المزود بالوعي التقدمي للمحافظة على نظافة البيئة .

البيوت الزجاجية في المناطق الباردة لتدفئتها أيضا .

ومن أروع أمثلة هذا التقدم الواعي مصانع الألومنيوم الحديثة التي تنتج الألومنيوم من خام البوكسيت Bauxite بالتحليل الكهربائي لل خام المختلط بمادة تخفض نقطة الانصهار وهي الكريوليت ، ويخرج من هذه العملية مفادير غير قليلة من غاز الفلور ، وهو غاز سام شديد الخطورة . ولذلك تتركب أجهزة قوية بأقسام المصنع لوقاية العاملين من الفلور فتتقصد نسبة تركيزه في هواء المصنع الى حد ضئيل يزيل الخطر . لكن المناطق المجاورة قد تتأثر بالفلور وتتحول الى صحراء لاحياة فيها . ان الفلور ذاته علاوة على مايعرف عن خطورته عظيم القيمة الاقتصادية ، فاذا استفادت منه التكنولوجيا الحديثة بأن جمعته يمكن أن يدخل في تركيب مواد كيميائية هامة يبذل في انتاجها الجهود والاموال الضخمة . ومن ثم يستخلص هذا الغاز السام من مخلفات مصانع الألومنيوم بأحكام اغلاق حمامات التحليل الكهربائي للمصهور واستخلاص هذا الغاز الخام بتكاليف معقولة مع المحافظة على صحة العاملين وعلى سلامة المعدات من البيئة وعلى سلامة البيئة من هلاك الاحياء . وبذلك يمكن الاستغناء عن أجهزة التهوية القوية المعقدة التركيب .

وسوف تكون مصانع القرن الحادى والعشرين مصممة على أساس نظيف شعاره « لاقدارة في الكيمياء » فالقدارة في حد ذاتها مادة كيميائية لكنها موجودة في غير المكان المناسب . اننا مقبلون على عصر استخدام واسع للعلوم والتكنولوجيا لبناء المشروعات النظيفة ، فيمكن أن تصمم محطات توليد الكهرباء وبجوارها مصانع كيميائية يدخلها الرماد والخبث والدخان لانتاج كيمائيات نافعة مثل حامض الكبريتيك والاسمدة ومواد البناء وثنائي اكسيد الكربون . وهذا الغاز الاخير ان تزود به البيوت الزجاجية (الصوباء) لتربية الخضروات ، او تزود به ، وهو ساخن ،

ان أحد المصانع الكيماوية كان يسكب الماء الملوث في واد ضيق بين جبلين قرييين منه فيفقد بهذه المياه سنويا الفى طن من حامض الكبريتيك و ٩٠٠ طن من حامض النتريك و ٧٠٠ طن من نترات الامونيوم و ١٠٠٠ طن من النشادر . ان هذه الكميات ليست بالقليلة ، فهي تعادل انتاج أحد المصانع الصغيرة . وقد استمر المصنع في العمل على هذا المنوال ثلاثين عاما حتى وضعت تصميمات حديثة لمعدات التنظيف ، ولكن كان التجديد باهظ التكلفة ، مما ادى الى اتجاه الفنيين الى معالجة المشكلة من زاوية أخرى . وفعلا تمكنوا من استخلاص الشوائب من المياه المتخلقة عن الصناعة الاصلية . وكان الاستخلاص اقتصاديا اذ استخلصت مواد غالية ونافعة كانت تضيع في مياه الصرف وتضر الناس والزرع والكائنات الأخرى . وكان العمل فى حد ذاته شاقا وغير زهيد ، لكنه كان أيضا منقدا للعاملين والأهالى ، وتمكن المصنع بعد سنوات من التحول الى منشأة كبرى تعمل بالكامل انتاجا متكاملا بلا مخلفات فى مياه الصرف أو الهواء . ان الأمر لم يستلزم سوى القليل من الجهود والكثير من الفكر . وقد أقدم رجال الكيمياء في حزم وتصميم على حل مشكلة التلوث على مستوى الصحة العامة من أجل المجتمع قبل أن ينظروا اليها من الناحية الاقتصادية أو الصناعية . ان التلوث يجب القضاء عليه من أجل رفاهية الناس وصحتهم .

وكذلك تعتبر صناعة اليورانيوم مثالا هاما للاهتمام بمقاومة التلوث . فاليورانيوم يستخلص من خاماته الفقيرة بطرق شاقة وعمليات طويلة لاستخلاصه ، وكذلك لاستخلاص العناصر المختلفة الأخرى التى تلازمه فى تلك الخامات ، ويفصل كل منها وينقى الى درجة عالية . وعلى الرغم من طول وصعوبة هذه العمليات على المستوى الصناعى ، فقد تمكن العلماء من

في التقديرات الاقتصادية. وفعلًا يقدر الاستاذ « ن . فيردورينكو » في سنة ١٩٧٢ - وهو مدير المعهد المركزي للرياضيات الاقتصادية بموسكو - الموارد الطبيعية للثروة في بلاده بأكثر من ٤٠٠ بليون روبل ويقارن هذه القيمة بجميع الأصول الانتاجية بالاقتصاد القومي في بلاده البالغ ٤٦٠ بليون روبل .

ان التعايش الرشيد مع البيئة يقتضى نوماً مناسباً من التربية والتعليم لجميع الناس ، وان يعرف الكل شيئاً عن القوانين الطبيعية للتعايش البيولوجي بالكرة الأرضية . ويجب أن يدرس علم البيئة في مدارس التعليم العام للتعرف على العلاقات المتبادلة بين الكائنات والبيئة . ويجب أن يكون علم البيئة حجر الزاوية للعلوم الحديثة ، فالوقت قد حان لأن ننظر الى العالم نظرة من زاوية . البيئة . ويجب على الدول المختلفة انفاق الأموال الكثيرة على تنظيف ما لوته الانسان من مياه . ولقد يدهش المرء اذا علم أن الولايات المتحدة وحدها أنفقت على تنقية الموارد المائية من التلوث حوالي خمسمائة بليون دولار .

ويقول « جورج والد » أحد كبار أساتذة الكيمياء الحيوية في أمريكا « ان الاختبار بين شيئين ، علم الأحياء والتكنولوجيا » .

ويجب أن تربي الأجيال الصاعدة تربية واعية بالبيئة ، فلا تلوث البيت أو المدرسة أو الطريق أو مكان العمل أو أماكن النزهة ، بل يجب الالتزام بنظافة الوطن . ويجب على المختصين بالاعلام الاهتمام بهذا الاتجاه الواعي لمكافحة أخطار التلوث التي تهدد البيئة ، ويجب تشجيع الصناعة الواعية والعمل النظيف الرشيد ، ان العمل سعادة وكفاح طبيعي يجب أن يستمر . والتكنولوجيا ليست سمه من سمات المستقبل فحسب ، بل سوف تكون وسيلة لتكييف الحضارة النامية وتطويرها لانماء الطبيعة لا لهلاكها . وسوف تسعد الأجيال المقبلة بعيشة راضية في أرض كطيفة وبيئة نظيفة وسماء صافية .

حل هذه المشاكل على الرغم من تشابه بعض العمليات وتشابه خواص كثير من المكونات في الخامات ، وصعوبة فصل المواد ذات النشاط الاشعاعي . واستخدمت الدورات المغلقة للمياه بالمصانع فلا يطرد منها مخلفات سائلة أو صلبة أو غازية الى الخارج بل يدخلها مواد ويخرج منها منتجات .

وليست صناعة استخلاص اليورانيوم بالمثل الاوحد في عصرنا التكنولوجي للاناج الخالي من المخلفات ، فقد تم في احد مشروعات تعدين الذهب تشغيل منشأة عدة سنوات في الصحراء بكفاءة مع العناية بالبيئة ولم يكن بالعمليات صرف لمياه متخلقة ، بل كان كل شيء يمر في عمليات تنقية ثم يستعاد الى الدورة الصناعية بالتشغيل الانتاجي. ان قطرة الماء بالصحراء قد تكون أثمن من الذهب .

وقد ابتكرت طريقة صناعية لانتاج حامض النتريك بالتخليق الكيميائي دون طرد أكاسيد النتروجين في الهواء . وهذه الأكاسيد غازات سامة تخرج من مداخن مصانع هذا الحامض في شكل ذيول بنية طويلة تتصاعد من المداخن . وفي الطريقة الجديدة تتحول هذه الأكاسيد الغازية السامة الى مواد نافعة في شكل أسمدة نتروجينية بدلا من ضياعها في الهواء .

بين الوعي والتشريع :

وسوف يرى أبناء القرن الحادي والعشرين المدن الصناعية النظيفة ، وربما ننسى مشهد المداخن والادخنة السامة وسوف يشهدون المناطق الصناعية ومن حولها مزارع نظرة وجوا نقيا وبحيرات وأنهار صافية رقراقة المياه خالية من ميث الانسان وتلويث البيئة . عندئذ يمكن أن تفخر الانسانية بجهودها الجيدة . ان المستقبل سوف يميظ اللثام عن علم حديث وليكن اسمه « علم الاقتصاد الحيوى » الذى اشتمل بين علمى الاقتصاد والبيئة . وسوف يرتبط الاقتصاد بالبيئة . وسوف تنطوى تقديرات تكلفة الموارد الطبيعية

- (١) د . حسن كامل عواض « عالم الفكر » مجلد ٧ ، عدد ٢ (١٩٧٦) الكويت . مقال بعنوان «شفرة الوراثة لغة الحياة» .
 (٢) د . عبد العزيز أمين « عالم الفكر » مجلد ٧ ، عدد ٢ (١٩٧٦) ، الكويت . مقال بعنوان « لوث ولتكن ملمونا » .
 (٣) اداباشيف « الانسان يصلح كوكبه » دار التقدم موسكو .

- (4) Asimov, I.; "Fact and Fancy". Discuss-Books, Avon (1972).
 () Asimov, I.; "The Intelligent Man's Guide to the Physical Sciences", Discuss Books, (1964), U.S.A.
 (6) Peterson, E.K.; "The Atmosphere", Environment, (1970), 12, No. 3.
 (7) FAO, Production Yearbook (1968), UNO.
 (8) Schaab, H.; „Die Welt Kunststoffproduction", (1970).; Kuststoffe, (1971), No. 9.
 (9) Seiler, W., Junge C. "Carbon monoxide in the Atmosphere".
 J. Geophysics Res. (1970) No. 12.
 (10) Singh, G. "The Indus Valley's Culture.", Archeol. and Physic. Anthropol. Oceanica, (1971), 2.
 (11) Adams, P.W. et-al. Lancet, (1973), I 897.
 (12) WHO Programme (1965 — 1971), WHO, Geneva.
 (13) Fedchenko, V. "Things to Come," English Translation, MIR (1977), Moscow.
 (14) Swaminathan, M.S., Lecture, „All India Radio" p. 3 (1973).
 (15) Economic Commission of South Asia and Far East, (1972). pp. 91-95.
 U.N. Bangkok.

★ ★ ★

التعريب في اللغة العربية

ابراهيم السامرائي

لها اصول يونانية او رومية. ومن غير شك ان هذه الرومية كانت تعنى اصولا لاتينية أو شيئا آخر لا يبتعد عن التراث الاغريقي . ولم تكن تلك الاصول الغريبة في هذه المعربات القديمة واضحة كل الوضوح لدى الباحثين في عصرنا أو في العصور الماضية ، فلم يستطيعوا ان يقطعوا فيها برأى ثابت قاطع .

ان « التعريب » مصطلح جديد اريد به شيء من النمط الغربي قد وسمت به « العربية المعاصرة » . واود ان اقول : ان مصطلح « التعريب » بالعين المهملة في عرف اللغويين الاوائل (١) قد اشتمل على شيء من هذا ، ذلك ان طائفة من « المعربات » القديمة قد كان

(١) جاء في « العرب » للجواليقي ص ٦ ان اللغويين الاوائل قالوا : - « اعلم انهم كثيرا ما يجترئون على تغيير الاسماء الامجمية اذا استعملوها فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم الى اقربها مخرجا . وربما ابدلوا ما بعد مخرجه » . اقول : هذا الكلم العرب عندهم ، اما اهل مصرنا هذا فالتعريب عندهم شيء آخر وهو توليد الكلمة العربية لتقابل الكلمة الاجنبية فهو شيء من ترجمة خاصة .

وقال الاب انستاس الكرملسي في لفظ
الباذق « :

« كان لليونانيين المتأقين الأشربة وآنيتهما
نوع من الكؤوس تستعمل لشرب الخمرة
المطبوخة واسمها عندهم « BAZ(XXH
فلعل العرب سموها الشيء باسم آتته (٧) .

وقد رد « ادى شبر » على قول الكرملسي
فقال : -

« قلت ان اشتقاق باذق من اليونانية فيه
تعسف ظاهر . والأصح ان الباذق تعريب
« باده » الفارسية وهى الخمر والنبيد « (٨)

وقالوا في كلمة « البريد » قيل اصله
فارسي من « بردن » أى نقل وحمل . وقيل :
اصله « veredus » وهو دابة البريد كما
يذهب الاب لا منس . (٩)

وعلى أية حال كان في العربية القديمة آثار
مما ندعوه في عصرنا هذا بـ « التفريب » على
أن الباحثين في عصرنا ، مسشرقين وغيرهم ،
لم يقدموا مادة تقطع فيها بحكم قطعا تاما ،
غير أنهم أرسخ قدما وأهدى طريقا في الوصول
الى الحقائق من اللغويين العرب الأوائل الذين
كانوا يطلقون الاحكام في الاصول المعربة من
غير ان يكون لهم علم اكيد .

ومن المفيد ان أعرض لشيء من هذه المواد
« المعربة » لأخلص الى ان التفريب « في هذا
المصطلح الجديد قد عرفته العربية القديمة ،
بله المعاصرة .

لقد ذكر « فرنكل » في كتابه في الالفاظ
العربية الارامية الاصل :

ان « الابريز » وهو الذهب الخالص معرب
عن اليوناني « ὀβριζον »^(٢)

وان « القرميد » يوناني معرب وهو
« κερχμιτόν »^(٣)

وذكر « ادى شير » في كتاب الالفاظ
الفارسية المعربة .

واما القيطون والقليد فماخوذان عن
اليونانية « κοιλών » « وعن »
« χελιδοίον » أى المخدع وشبه مخدع (٤)

وقال : واما الاصطبل فهو تعريب الرومى
« stabulum » (٥)

وقال الاب لا منس في كتاب الفروق : -

ان « الباله » وهو وعاء الطيب والقارورة
والجراب معربة عن اليونانية « φτεχλή »
الذى اخذ منه « fiole » (٦) .

Siegmund Fraenkel : Die aramaischen Fremdwoerter in Arabischen Leiden, (٢)
1886. P. 151.

(٢) المصدر السابق ص (٥)

(٤) ادى شير ، كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ص ٨

(٥) المصدر السابق ص ٨

(٦) الاب لا منس ، كتاب الفروق عن « الالفاظ الفارسية المعربة » ص ١٦

(٧) الكرملسي ، مجلة المشرق ٢ : ٣٤٨ .

(٨) ادى شير ، كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ص ٤

(٩) الاب لا منس ، كتاب الفروق .

عصرنا هذا الى أن يقول بقدّم « التغريب »
في لغتنا القديمة .

ولنضرب لذلك مثلاً واضحاً من مادتنا اللغوية يتصل بالنحو العربي فاقول : ان النحو العربي من علوم اللغة في الدراسات اللغوية عامة قديمها وحديثها . لقد ذهب الباحثون في تاريخ هذه اللغة الى ان نشأة النحو كانت بسبب فشتو اللحن ، وان اهل الراى قد هالهم ان يعرض هذا الخطر فحثوا اهل العلم على وضع شيء من ضوابط يتعلمها الدارسون لتقيهم غائلة اللحن ، وقد ورد في الأثر ان علي بن ابي طالب قد طلب الى ابي الاسود الدؤلي ان يضع شيئاً فكانت الخلاصة الاولى . وقد وردت اخبار اخرى تفيد ان عمر بن الخطاب قد امر ابا الاسود ان يضع النحو حين سمع اعرابياً يلحن وهو يقرأ في سورة براءة قوله تعالى : - « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بكسر اللام من (رسوله) .

وقد قيل ان زياد بن ابيه قد بعث الى ابي الاسود الدؤلي وقال له : يا ابا الاسود ان هذه الحمراء قد كثرت وافسدت من السن العرب ، فلو وضعت لهم شيئاً يصلح به الناس ويعرب به كتاب الله (١٥)

وانا من اولئك الذين يستبعدون ان يكون هذا النحو بتقسيمه وأبوابه قد وضع في هذه الحقبة المتقدمة واستبعد ان يكون علي بن ابي طالب قد أملى على ابي الاسود : ان الكلمة اسم وفعل وحرف ، وان الاسم كيت وكيت،

قال ابن دريد « الجهرة » (١٠) : الطوبة هي الآجرة ، لغة شامية ، واحسبها رومية .

وجاء في « لسان العرب » (١١) والطوب هو الأجر بلغة اهل مصر .

غير ان القائلين بالتغريب من الباحثين المتقدمين ومن المستشرقين في العصور الحديثة لم تتضح لهم الأصول .

قال الجواليقي في « المعرب » : « وسقنطار قالوا هو الجهبد بالرومية . وقد تكلمت به العرب ، وقالو سقطرى » (١٢) .

وقال فرنكل : « انه معرب عن

secretarius σερνηξρος

وهو اسم في الدولة البيزنطية (١٣) وذهب ادى شير : « وعندى انه تعريب الفارسي سكالدرا ومعناه ذوفكر وذكاء » (١٤) .

وعندى ان هذه « المعربات » القديمة ، على تردد القائمين بها ، لتؤيد ان مصطلحنا الجديد وهو « التغريب » قديم في العربية .

ان هذه الالماحة الموجزة بالعربية القديمة، وما حفلت به من الدخيل الغربي ، لتفسح لنا في مجال القول ، فنتجاوز هذه الطاقة اللغوية التي تتصل بالمفردة القديمة ، لنقول ان العربية القديمة على اصلاتها ورسوخها واعتمادها على الاصول العربية القديمة ، قد تأثرت بعوامل تجعل الباحث الدارس في

(١٠) ابن دريد ، الجهرة ٣١١/١

(١١) لسان العرب (طوب)

(١٢) المعرب ص ٥٨

(١٣) فرنكل ص ٢٧٩

(١٤) الالفاظ الفارسية ص ٩٢

(١٥) نزهة الالباء ص ٤ - ٥

وان الفعل حدث ... وان الحرف لاهذا
ولا ذاك ...

والذى يقوى من انكاري لهذا الراى الذى
غلب على الدراسين ان حقبة النصف الاول
من القرن الهجرى الاول لايمكن ان يكون فيها
هذا العلم القائم على هذا التقسيم ، وليس
طبيعيا ان - يهتدوا الى هذا المصطلح المحدد.

ولنبق في هذا السياق التاريخي لنقول
ان تاريخ النحو العربي ينبئن ان عيسى بن
عمر المتوفى سنة ١٤٩ هجرية كان عالما بالعربية
والنحو والقراءة ، وانه صنف كتابين في النحو
سمى احدهما « الجامع » والاخر « الاكمال »
وفيهما يقول الخليل بن احمد : -

ذهب النحو جميعا كله

غير ما احدث عيسى بن عمر

ذاك اكمال وهذا جامع

فهما للناس شمس وقمر (١٦)

وقد اخذ الخليل عن عيسى بن عمر . غير
ان المؤرخين يقطعون ان الكتابين لم يرهما احد
وانا استبعد ان يكون البيتان من قول الخليل
بن احمد ، ذلك ان الخليل لم يذكر الكتابين
في مروياته الكثيرة التي نجدها في كتاب
سيبويه ، كما لم يذكرهما في « كتاب العين »
فضلا عن ان البيتين مر الركة وسوء التأليف
مما لايمكن ان يكونا من نظم الخليل .

وعلى هذا نجد انفسنا امام اول كتاب في
النحو هو كتاب سيبويه ، وسيبويه من علماء
القرن الثاني الهجرى ، توفي سنة ١٨٠
للجهرة وقد اخذ عن الخليل . ومن اجل هذا
حفل هذا « الكتاب » بأقوال الخليل وآرائه
في النحو .

وكتاب سيبويه من الكتب العسيرة في مادته
واسلوبه ، وان الدارس ليجد فيه من عسر
هذا العلم الشيء الكثير ، ولذلك عكف عليه
النحاة الذين خلفوا سيبويه دارسين
مستفيدين وشارحين . واذا عرفنا ان ابا
سعيد السيرافي قد شرحه بمجلدات عدة ، وان
الرماني النحوى قد شرحه ايضا شرحا كبيرا ،
ادركنا مكانة هذا السفر التاريخي .

وكان ابو العباس المبرد اذا اراد مرير ان
يقرا عليه كتاب سيبويه يقول له : ركبت
البحر تعظيما لكتاب سيبويه واستعصا(١٧)
ومن اجل هذا تحاماه الدارسون طوال
العصور ، وما اظن ان هذا النحو الواسع
العسير في ابوابه وتفريعاته كان من الادوات
التي استعين بها على دفع غائلة اللحن .

اقول : لو كان النحو مادة ارير بها الحفاظ
على السليقة النقية في اللغة الفصيحة
واستبعاد اللحن والخطأ والعدول عن الصواب
لكان النحو اداة « وظيفية » او ما يسمى في
عصرنا هذا بـ « النحو الوظيفي » يراد به
الغاية التعليمية . اقول : لو كان هذا هو
الغرض لكان النحو الموضوع لسد هذه الحاجة
والوفاء بها مادة موجزة هي حل لمشكلات
جدت .

فهل نرى ان هذا « الكتاب » وغيره من
الكتب التي يظن وجودها ، شيء ارير به دفع
غائلة اللحن ؟ ومادة يتعلمها الشداة الدارسون
ليتوفر لهم قدر من الفصاحة والصلاح
اللغوية ؟ ما اظن ان هذا « الكتاب » الذى
استصعبه المبرد وتعسر على الدارسين حتى
شرحه غير واحد من العلماء شروحا واسعة
كان وفاء لغرض تعليمي .

(١٦) المصدر السابق ص ١٤

(١٧) انباه الرواة ٢/٢٤٦

ان الاعراب في آخر الكلمة عندهم اثر يجلبه « العامل » فكان ذلك هو النتيجة التي تعقب السبب . الا نرى ان الاولاد الشداة في عصرنا مضطرون ان يقولوا في قولهم : « يكتب زيد » ان الفعل « يكتب » مرفوع ولم يكتبوا بذلك بل يقولون : « لتجرده » عن الناصب والجازم . ان مسألة التجرد هذه لتشعر الدارس ان الوضع في النحو قد ذهب بعيدا في مسألة « العامل والعلّة » حتى اّحال النحو الى شيء يبتعد كل الابتعاد عن كونه علما لغويا . وبسبب من هذا « التفريب » في اسلوب الدرس صار النحو العربي علما مهمته البحث في « العلل » و « العوامل » .

يقول الزمخشري في خطبة كتاب « المفصل » : وعلم النحو هو الاعراب (١٩) . وليس هذا « التفريب » في النحو العربي عنصرا ايجابيا ، وذلك لان مادة المنطق غريبة كل الغرابة عن المادة اللغوية ، ومن هنا كان هذا الاثر من « التفريب » مفسدا للنحو ومبعدا له عن ان يكون شيئا من « علم لغوي » .

ومثل النحو سائر ما يسمى بـ « علوم العربية » التي تآثرت بالتفريب فنال ذلك من الحقيقة العلمية فيها كعلوم البلاغة العربية مثلا .

وكان لا بد لي ان اعرض لهذه المقدمة بهذا القدر من السعة لاخلص الى « التفريب » في عصرنا هذا الذي شمل رقعة فسيحة من الثقافة العربية ، ولينفصح لنا المجال في الكلام على الموضوع في عربيتنا المعاصرة . وسأتناول في هذا الباب مسألة ذات خطر ذلك ان « التفريب » في لغتنا العربية الحديثة ، بل

ان النحو العربي القديم ، الذي ما زال الدراسون يشفون به ، علم من العلوم الانسانية القديمة ، وان المتقدمين قد شقوا به ، وانه كان علما معقدا كثير الفصول والابواب في العصور المتقدمة ولو عرضت لهذا النحو القديم لوجدت انه اشتمل على منهج ابعده ما يكون عن شيء ، ندعوه « علم اللغة » (Linguistique) وذلك لسبب من « التفريب » الذي عم كثيرا من مواد العلوم الانسانية في عصور التأليف ابتداء منذ اواخر القرن الثاني للهجرة .

والسؤال الذي تضعه في هذا هو : —

ما اثر التفريب في علم النحو ؟

اقول : ليست مواد النحو القديم مأخوذة من النحو اليوناني على حسب ما يزعم الذين كتبوا في هذه المادة تقليدا ومحاكاة لطائفة من المستشرقين (١٨) وانهم ذهبوا الى ان تقسيم الكلمة الى ثلاثة اقسام هي الفعل والاسم والحرف مأخوذ من نحو الاغريق في تقسيمهم لاجزاء الكلمة . وان سائر الابواب النحوية مثل المسند والمسند اليه مأخوذ من مصطلحات يونانية هي . الموضوع والمحمول .

ان الدارس المنصف لمواد النحو في العربية لا يتأني له ان يذهب هذا المذهب ، بل انه ليجد في النحو العربي شيئا من المنطق الارسطي الذي اولع به العرب اشد الولوع فأفادوا منه في كثير من علومهم . وليس بدعا ان يدخل هذا المنطق في اساليب الدرس اللغوي ولا سيما النحوي .

ومن آثار هذا الدخيل الغريب في المادة النحوية مسألة « العلّة والعامل » ومعنى ذلك

(١٨) انظر مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٩٢٨ ، « مقالة الدكتور مدكور » .

(١٩) انظر خطية المفصل للزمخشري .

قل في ثقافتنا المعاصرة ، قد تجاوز الالفاظ الى غيرها ، فشمّل طرائق التعبير مما يدخل في باب الاساليب . ومن غير شك ان هذا يرجع الى ان طريقة التفكير وتناول المسائل والموضوعات العلمية لدى الباحثين العرب في عصرنا قد تأثرت بالاساليب الغربية ، ومن هنا كان لمصطلح « التغريب » مكانه في ثقافتنا العربية ، بله اللغة المعاصرة .

ومن الطبيعي ان يكون في هذه العربية هذا اللون من الجديد الذي يتناول ابنيته كما يتناول اصواتها وقد يتجاوز هذا القدر فيؤثر في طبيعتها من حيث قبول بعض الطرائق الغربية في اطلاق المصطلح وبناء الجملة . وربما لا نستطيع ان نحد من هذا الجديد الاخذ الواسع الذي يبدو في لغتنا بسبب ان العصر يفرضه ، وهذا يعني ان العرب في ديارهم المختلفة ، أمة تتلقى الجديد الواسع المعقد منذ مطلع هذا القرن ، بل قبله بكثير ، لانها تتلقى الحضارة الجديدة رضية بها ام ابت . اقول : رضية بها ام ابت ذلك ان شيئا من اجزاء هذه الحضارة بمادياتها ومعنوياتها ليس مما نفتقر اليه كسائر الاجزاء الاخرى ، ولكننا مع ذلك نمارس الجديد ، بل قل تفرضه علينا الحياة الحاضرة فرضا . ولعل السبب في هذا ان كثيرا من مواد حضارتنا الشرقية العربية الاسلامية قد اخذ ينكمش ازاء هذا البريق الساطع الوافد اليها من الغرب . نعم ان فينا حاجة الى هذه الاجزاء الحضارية الغربية في العلوم والفنون والآداب ومظاهر السلوك الانساني الاخرى . وان الحاجة هي التي تدفعنا الى هذا الجديد بخيره وشره فنجتهد لتوفير الادوات اللغوية له ومن هنا كان « التغريب » بالعين المهملة وهو في حقيقته « تغريب » بالعين المعجمة . واذا قلت : ان الحاجة دفعتنا بل تدفعنا ابدا الى ان نلج هذا العالم الغربى « فنغرب » معه ، فلا يعنى

ان ذلك وحده سبب في هذه الالوان التي كادت تعم في وسائل اعرابنا في مجالات مختلفة . اننا محتاجون ، كما عرضت ، الى هذا الجديد الوافد ، ولكننا قد نأخذ بل نتأثر بشيء بل بأشياء تقليدا ومحاكاة وليس عن حاجة ، وربما كان الاخذ ليس لهذا او ذاك فقد يكون ضربا من التأثير لا يشعر به .

لقد استعمل المتقدمون من اهل العلم ومنهم الخوارزمي كلمة « ديا بطيق » لمرض السكر ، ولم يجدوا ضيرا في استعمالهم ذلك ، ولم يشقوا بايجاد المصطلح العربى الذى نستعمله الان في عصرنا هذا ، ومن غير شك ان التقليد وحب الجديد فرصا المادة الاعجمية .

ولعل من هذا ما ورد في كتاب « الروضتين » لابي شامة : ان السلطان صلاح الدين استعمل « الترم (Terme) في احدى معاقباته مع الافرنج سنة ٥٨٧ هـ وجمع على « تروم » (٢٠) ومن غير شك ان لغة الغالب المنتصر قد تحمل الضيم على لغة المغلوب .

لقد كان ذلك بعد حصار الافرنج لمدينة عكا وهى من مدن صلاح الدين يومئذ ، وفتحهم اياها بالسيف ، فقد اجبروا صلاح الدين على ان يؤدى اليهم مائة الف دينار في ثلاثة تروم اى ثلاثة اقساط . ولو اردنا ان نأتى على شيء من الكلم من اصول غربية لوجب علينا ان نبدأ بشيء من الاصول الاغريقية ومنها : -

الاسطول والفردوس والفلسفة والموسيقى والبرج والكيمياء والدرهم والاقليم والاسقف والانجيل والجغرافيا وكثير غيرها .

ولا نعدم ان نجد اصولا لاتينية هي : السراط والاسطبل والامبراطور والقيصر والكردينال والجنرال والقنطار وغير ذلك .

وانى لاحترز فاقول ان اللغة وجود يتجسم في وجود انساني ووجود اجتماعي ، وقد تطور العالم وتحول عما كان عليه في عصور سلفت . غير ان هذا ليس بمانع من الرجوع الى اساليب القوم في اخذهم للمواد الغريبة الغريبة .

ولو عرضنا لما نقله اصطف بن بسيل ، وحنين بن اسحاق ، وثابت بن قره ، وقسطا بن لوقا وغيرهم ، ممن ذكرهم ابن النديم وابن ابي اصيبعة وحجى خليفة ، لرأينا ان جملة صالحة مما نقلوه قد اخذوه بأسمائه اليونانية . ولعلمهم يرمون في ذلك ان ما لم يجدوا له اسما في العربية قد يتبها للباحثين بعدهم ان يوفروه . وهذا يعنى ان لا ضير على العربية ان يكون فيها قدر كبير من الكلم العلمى مما يحتاج اليه من المواد الغريبة ، ولا سيما ما اخذ من الاصول الاغريقية واللاتينية وغيرها من الاصول العلمية .

وقد تحقق هذا الاحتمال فنشأ ما يسمى بـ « التغريب » وهو يعنى نقل الاسم من صيغته الاعجمية الى شئ يشبه الابنية العربية في اقيستها واصواتها .

والى مثل هذا ذهب البيروني في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » فقال :

ان كان الاسم المنقول مشتقا يمكن تحويله في العربية الى معناه لم امل عنه الى غيره ، الا ان يكون بالهندية اخف في الاستعمال فنستعمله ، بعد غاية التوثق منه في الكتب ، وان كان له اسم عندنا مشهور فغير سهل الامر فيه « (٢٢) .

وقد اصلح ثابت بن قره ما ترجمة الترجمة الاولون مما لم يقبله العربية .

فاذا تجاوزنا هذه المواد التى عرضت للعربية القديمة وجدنا اشياء كثيرة سنعرض لها .

اقول : ان العرب قد عربوا العلوم الطبيعية منذ عصور عدة واهتموا بها اهتماما بالغاً .

لقد جعل ابن سينا ان الغرض من العلوم الطبيعية هو تحقيق « رأى الانسان فيما يدركه من الواقع بواسطة سعيه وعمله » .

ويعرض ابن خلدون في « المقدمة » للبحث في المحسوسات وعوارضها ، وهو العلم الطبيعى بما يشتمل عليه من الفروع من دراسة الاجسام العنصرية والمكونة عنها ، اى ما يسمى اليوم بالفيزياء والكيمياء ، والمعادن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التى تنبعث عنها الحركات (٢١) .

واستمد العرب اولى معارفهم في هذه العلوم بانواعها مما نقلوه من اثار اليونان ، ومنها انطلقوا فبحثوا وكشفوا و اضافوا جديدا . وهذا يعنى ان مشاركة العرب تتجاوز الاخذ والنقل ، بل انهم مضوا في بحثهم وتنسيقهم الى ان يكون لهم مكان فيه اصالة وجدارة في تاريخ العلم . ومن هنا كان علينا ان نعرض لطرائق العرب في « التغريب » الذى هو عملية « تغريب » شملت العربية القديمة ، فكانت ارثا واضحا للعربية الجديدة ، ونموذجا يجتذى به العاملون في « المصطلح الجديد » ، وانا ادعوا الى ان نفيد من تجربة المتقدمين في العمل على توفير المصطلح الجديد . وليست الدعوة التى تتبع خطى السلف من باب التعلق بالقديم لقدمه ، وذلك لان المتقدمين قد اتبعوا طرائق تظهر جدارتها وجدواها ، وانها دلت على نباهة وذكاء في هذا الباب .

(٢١) المقدمة ، مجموعة الفصول التى تناول فيها العلوم المختلفة

(٢٢) البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٩

وقد نقل اصطفن كتاب ديسو سقوريدس في الادوية المفردة ، وكان قد اعتمد على من خلفه من اهل العلم في اصلاح ما عرض له من وهم أو سهو ، ممن تيسرت لهم معرفة باسماء الادوية .

وذكر ابن البيطار في كتابه « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » من اسماء الادوية مما اخذ من اللاتينية، وهي أعجمية الاندلس التي كانت شائعة في زمانه سيرا مع نهجه في اثبات الاسماء - المختلفة للأدوية والاغذية في الاصقاع المختلفة .

هذه حال العربية وكيف عرض دفع من « التغريب » فكان « التعريب » وكان الدخيل وذلك خلال عصور قديمة عدة .

أما وقد طلع علينا العصر الحديث فقد بدأ الغرب يقترب من الشرق العربي في مطلع هذا القرن . وكان الناس قبل ذلك في معزل عن هذه الحضارة الوافدة وفي مأمن من هذا الغزو الذي جر عليهم الوبال . غير ان هذا الغزو لم يقتصر على الميدان السياسي فحسب ، بل تجاوز ذلك الى غيره من الميادين ، فقد اخذ هذا الشرق العربي - رضي أم كره - بهذه الحضارة التي يعتمد في جوانب كثيرة منها على الخير ، فهي ليست شرا يتعافاه الناس أبدا . وكان من نتيجة هذه الحضارة أن تأثر العربي وهو في بيئته بها ، تأثر في افكاره وتأثر في طريقة عيشه ، وتأثر في جوانب عدة من حياته اليومية ، وصار العربي يقرأ ثمرات الفكر الغربي في اللغات التي كتبت بها ، وكان من جراء ذلك ان العربية الحديثة قد افادت شيئا جديدا ، أو قل دخل فيها شيء جديد نال من خصوصيتها ومن شكلها بوجه عام ، فجذت فيها أساليب كثيرة لم تكن الا وليدة النقل والترجمة . ان الكتاب الجدد باطلاعهم على العربية ، فهي بنت ظروف واحوال اجتماعية لم توجد في هذا المشرق العربي ، وأنت تجد من ذلك حشدا كبيرا تلقاه في الكتب العلمية وفي

غيرها من وسائل الثقافة كالصحافة والاذاعة والتلفزة والسينما ، وحسبك ان - تعرف ان علوما برمتها لم يكن لها اسماء في العربية فترجمت الاسماء الاجنبية فكان : علم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم الاحصاء وغير هذا كثير . ان الفارسي العربي ليحسب انه يقرأ في الصحيفة اليومية صفحة « الحياة الاقتصادية » ويفهم هذا الذي يقرؤه وما علم ان « الحياة الاقتصادية » مثلا مصطلح او شبه مصطلح جيء به من الثقافة الغربية الحديثة . وهو يقرأ من هذا كل يوم اشياء جديدة يقذف بها الكتبة ، منتظرين ان اهل العربية سيجدون لها مادة جديدة اخرى كالاستراتيجية والتكتيك ، وقدر كبير من اللفظ الغريب تجده في وجوه مختلفة من وجوه الثقافة الحديثة .

غير ان العربية وهي السمحة « السهلة الطيعة » لم تنكر لهذا الجديد في الكلم والأساليب ، فقد دخلت في الاستعمال وجرى عليها ما جرى على الكلم القديم من تغيير في الأبنية والأقيسة لتكون ملائمة للاقيسة العربية . هذا حال الكلم الجديد . اما الاساليب فهي شيء كثير وقد قبلت العربية طائفة ضخمة منها ، واندurst في كتابة الكتاب في العربية المعاصرة حتى امست هذه المعاصرة الجديدة شيئا فريدا تناولت حواشيه الوان من هذا الغزو الجديد الذي ندعوه بـ « التغريب » بالغين المعجمة . ومن الحق ان أقول : ان شيئا من هذا الجديد لم يجر على نسق فصيح صحيح في العربية ، ولكن جهل الكتاب في عصرنا بلغتهم قد حمل الضيم على هذه العربية الجديدة والا كيف يجوز ان يقال : -

اول احسن المسائل :

الا ترى معي ان الترجمة الرديئة قد جارت بهذا التركيب العقيم ؟ ألم يكن هذا من قولهم في الانكليزية : - « One of the best questions »

على النماء والتوسع ، وعلى قدر ما تأثرت به سلبا وإيجابيا .

أقول : « سلبا وإيجابا » لأن طائفة من هذه الأساليب الجديدة ليس مما نحن مضطرون الى قبوله واستعماله ، وان في العربية غنى ووفرة ومراغما كثيرا يفنينا عن العثرات والساقط المرذول . ولقد أثرت الى ان التراجمة والنقلة لم يكونوا جميعهم من اهل المعرفة والاحاطة بالعربية ، وبسبب من ذلك جاء من هذا الجديد شيء غير مقبول ، ولكنه ذهب مع غيره .

الا نرى ان « المعطيات » شيء من النقل الحرفي لكلمة « Donnees » الفرنسية التي تستخدم في الفرنسية بعيدة كل البعد عن الفعل « اعطى » ولكن المترجم - عفا الله عنه - درس هذه « المعطيات » فجاءت نافرة غريبة وكتب لها الشيوخ ، ومثل هذا كثير مما نرده الى جهل الناقل او المترجم في عصرنا هذا . ولو شدا هؤلاء التراجمة والنقلة طرفا من بلاغة العربية وتبينوا اسرارها لما اندست في العربية اساليب غريبة عنها بحيث لاتعد من طائفة المصطلح الفني Terme Technique الذي نجتهد في توفيره ليكون من مواد هذه العربية الجديدة .

ولاضر على العربية من دخول طائفة من هذه الأساليب ، بل ربما افادت منها واثرت ونمت ، وقد علمنا ان لغتنا قبلت من الدخيل الغريب شيئا كثيرا على مر العصور . ومن صفات اللغة الحبة ان تقبل من غيرها فتزدهر وتنمو . واذا علمنا ان اللغة ظاهرة اجتماعية ، فقد قبلنا انها متطورة متجددة يؤثر فيها الزمان والمكان ، وقد خضعت العربية لسننة التطور ، فتنوعت اساليبها ، فماتت فيها الفاظ وجدت اخرى . ودونك الكثير من الفاظ الشعر الجاهلي التي اصبحت « متحجرات لغوية » ان جاز هذا التعبير مما لانجد في لغة القرآن والحديث ولغة الادب في

قلت : ان هذه الأساليب الجديدة قد راضها الاستعمال حتى توهم القارئ وهو يقرأ صحيفته اليومية ، او مجلته الجديدة ، ان الذي يقرؤه لغة عربية اصيلة لم يتخط اليها دخیل غريب من الجديد الوافد . ولم يقتصر الامر على القارئ الذي لا يعنيه امر العربية واطوارها . وموضوع اللغات وما يتصل بأسرارها من خصوصيات خاصة بكل منها ، بل خفى ذلك على الفطن اللبيب المختص ، حين تجاوزت هذه الأساليب لغة الصحف السائرة الى المقالة الادبية والكتابة العلمية في عصرنا هذا . وليس مهما ان تعالج هذه الناحية خلال ما يسمى بـ « الخطأ أو الفصح » او خلال باب استعمله طائفة من المختصين بالعربية واساليبها الفصيحة ، فادخلوه ضمن « قل ولا تقل » لا اريد ان اذهب هذا فاحجر على الناس ان يكون لهم لغة جديدة ، ذلك ان جمهرة اللغات في عصرنا هذا جديد يختلف عنه قبل نصف القرن الأخير كل الاختلاف . واذا كانت هذه حال اللغات المتطورة المتقدمة في انها استجابت لكثير من دواعي العصر والخضارة المعاصرة ، بالرغم من تنبيهات اهل الضبط والشدة من علماء اللغات واعضاء المجامع اللغوية ، فليس غريبا ان تأتي الينا عربية جديدة كل الجدة في ثوب قدها في عصرنا هذا ، وليس بدعا ان تكون هذه العربية « متغربة » في كثير من كلماتها ومصطلحاتها ثم اساليبها .

ولتوضيح ما ذهبنا اليه سنستوفي ما امكن استيفائه من هذا الكلم الجديد والاساليب الجديدة - ليقف عليها الدارس الجديد المهتم بتطور هذه اللغة وبتاريخها . وليس مقبولا ان لا يحسب المؤرخ اللغوي في عصرنا هذا حسابا للعربية الجديدة المعاصرة ، فيقف على آثار « التفريب » وقفة خاصة غير قائمة على الرفض والانكار واحتساب ذلك من الخطأ الجديد . ان الدارس الجديد وهو يقرأ هذه العربية المعاصرة ليحكم على هذه اللغة وقدرتها

العصور المتقدمة. وقد بدا لبعضهم ان العربية اعتمدت على المجاز والاستعارة والكناية ، وهي وسائل زادت من موادها . فلم لا تكون طائفة كبيرة من الاساليب الحديثة التي دخلت في لغة الصحف اليومية ولغة الكتابة السائرة مترجمة دخيلة ، وكيف لا تكون عربية وقد افادت من طرائق المجاز والاستعارة ؟

اقول ردا على هذه الاستفهامات : ان المجاز والاستعارة والكناية ، من الوسائل التي امدت العربية باساليب كثيرة وافادت منها فائدة عظيمة . بحيث لم نستطع الان ان نحصى هذه الاساليب او ان نتبينها ، ذلك بان جزءا كبيرا من هذه المجازات صار متلبسا بالحقيقة ، او كانه استعمال حقيقي لشيوعه وذويوعه ، ولان الاستعمال الحقيقي الاصيل قد نسي ، فامحى اثره ولم يبق له اثر .

على ان هذه الوسائل ، وهي المجاز والاستعارة والكناية ، لم تكن مقصورة على العربية فهي في كل اللغات ، واللغات مختلفة فيها ، فقد نجد استعمالا مجازيا في لغة مؤديا معنى من المعاني يختلف عن مجاز آخر في لغة اخرى يؤدي المعنى نفسه. وعلى هذا فالمجازات التي ذكرناها في هذا البحث واعتبرت من الدخيل الطارئ في العربية هي من هذا الباب ، اى مما لم تألفه العربية في اساليبها فهي مترجمات من لغة اخرى (٢٣) . وعمر هذه الاساليب لا يتجاوز النصف الاول من القرن الماضي .

وسواء رضينا ام لم نرض فقد اندس هذا الدخيل الوافد فتعرب . ولا بأس من ذلك كما اسلفنا ، ذلك ان طائفة كبيرة منها مما تدعو اليها الضرورة ، وان الفاظها عربية

فصيحة ، وان باب التوسع والمجاز بعد كل ذلك مفتوح ، ودونك شيئا من مقررات المجمع اللغوي المصرى في هذا الموضوع : (فالباب مفتوح للاساليب الاعجمية تدخله بسلام ، لذ ليس في هذه الاساليب كلمة اعجمية ولا تركيب اعجمي ، وانما هي كلمات عربية محضة ، ركبت تركيبا خالصا ، لكنها تفيد معنى لم يسبق لاهل اللسان ان افادة بتلك الكلمات) (٢٤) .

وعلى هذا فلا ينبغي ان يفهم القارئ انى في معرض تخطئة الكتاب ، او انى من اولئك الذين يطلبون الحفاظ على العتيق البالي ، ولكنى اسجل هذه الاساليب بالمنهج العلمي ، خدمة للعربية واظهارا للاطوار التي تجتازها الكلمة عبر العصور ، وما يجد ويستحدث فيها .

وانا اعرض الان من هذه الاساليب ما انتهى اليه استقرائي لنصوص العربية الحديثة كما هي مثبتة في الصحف والمجلات والكتب الحديثة :

استعمال الفعل (عاد) في تركيب لم يعرف في العربية ، وانما حدث ذلك عن طريق الترجمة كأن نقول : (لم يعد فلان قادرا) وهذه ترجمة لاستعمال اوروبى كما في الفرنسية : II n'est plus capable

ونقول : يبكي فلان بكاء مرا . وهو من

II pleure amerement

ومادما بصدد البكاء فلا بد ان نشير الى الجملة الاتية والتي تتردد في الصحف

(٢٣) هذه الاساليب الصحفية تمد العربية بمادة جديدة ولذلك فان لغة الصحافة مادة مهمة في التطور اللغوي وفى قيام « عربية جديدة » وان توكلت كثيرة على لغات الاعاجم الاوربيين . وقد تنبه اللغويين في مطلع هذا القرن الى هذه اللغة فنبذوها من اللغات المردولة غير الفصيحة جهلا بعلم اللغة الحديث .

ونقول : لقتل الوقت ، وهي في الفرنسية :
pour tuer le temps.

وفي الانكليزية :

To kill the time.

ونقول : وهو يلعب دوره ، وهو في الفرنسية :
Il joue son role

وفي الانكليزية

He plays his part.

ونقول : بدوره ، وهو في الفرنسية :
a son tour.

وفي الانكليزية :

In his turn.

ونقول : اعطى وعدا ، وهو في الفرنسية :
Il a donne rendez-vous.

وفي الانكليزية :

To give a promise.

ونقول : هو اعطى صوته ، وهو في الفرنسية :
Il a donne sa voix.

وفي الانكليزية :

To give one's vote to.

ونقول : هو يكسب بعرق جبينه ، وهو في
الفرنسية :

Il gagne a la sueur de son front.

ونقول : هو مع رفيقه على قدم المساواة ،
وهو في الفرنسية :

Il est sur pied d'égalité avec son ami :

وفي الانكليزية :

He is on equal footing with his friend.

والكتابات الحديثة هي : هو يبكي بدموع
التماسيح (٢٥) . ومعناها معروف ، وهي
من التعبير الفرنسي :

Il pleure aux Larmes de crocodile.

وفي الانكليزية :

To shed crocodiles tear.

ونقول : ابتسامة هادئة ، وهذا من
الفرنسية :

"Sourire Camle"

وفي الانكليزية :

"Calm smile"

ونقول : هو يمثل الراي العام (٢٦) ، وهو من
قولهم في الفرنسية :

"Il represente L'opinion publique".

وفي الانكليزية :

"He represents public opinion".

ونقول : هو يسهر على المصلحة العامة ،
وهذا من

Il veiller sur le bien commun,

ونقول : هذه القضية مطروحة على بساط
البحث ، وهذا كما في العبارة الفرنسية .

Cette cause est mise sur le tapis.

ونقول : ذر الرماد في العيون ، وهو من
الفرنسية :

Il jette de la poudre aux yeux.

وفي الانكليزية :

To throw dust in the eye.

(٢٥) من المفيد ان نشير الى شيئا من هذا التعبير قد جاء في ارجوزة ابن المعتز في البيت الذي نثبته ، غير اننا
لا بد ان نؤكد ان التعبير الشائع لم يكن عربي الاصل كما استعمل عند ابن المعتز ، وانما جاء عن طريق الترجمة من
اللغات الاوروبية .

كذلك كذاه يفعل التماسيح

البيت : ثم بكوا من بعده وناحوا

(٢٦) تحميل كلمة (الراي العام) هذا المعنى هو من الباب الذي نسجله في هذه الصفحات ، وكذلك استعمال
الفعل (مثل) هذا الاستعمال ، داخل في هذا الباب ايضا .

ونقول : ضحكة صفراء ، ابتسامة صفراء ،
وهو في الفرنسية :

Rire jaune.

ونقول : كرس (٢٧) حياته ، وهو في
الفرنسية :

Il a consacré sa vie.

وفي الانكليزية :

To sacrifice one's life.

ونقول : المصائب محك الصداقة ، وهو
في الفرنسية :

Les malheurs sont la pierre de touche de
l'amitié.

ونقول : نزولا عند رغبته ، وهو في الفرنسية :

Cédant à son desir..

وفي الانكليزية :

At his own request.

ونقول : الضرورة الملحة ، وهو في الفرنسية :

Nécessité. insistante.

وفي الانكليزية :

insisting needs.

ونقول : بكل معنى الكلمة ، وهو في
الفرنسية :

Dans tout le sens du mot.

وفي الانكليزية :

In the full sens of the word.

ونقول : وضع النقاط على الحروف ، وهو
في الفرنسية :

Il a mis les points sur les ii.

ونقول : اجاب بالحرف الواحد ، وهو في
الفرنسية :

Il a répondu à Ja lettre.

ونقول : حجر عثرة ، وهو في الفرنسية :
Pierre d'achoppement.

وفي الانكليزية :

a stumbing block.

ونقول : لعب ورقته الاخيرة ، وهو في
الفرنسية :

Il a joué sa dernière carte.

وفي الانكليزية :

He played his last card.

ونقول : اعطاه ورقة بيضاء ، وهو الفرنسية :
Il lui a donné une care blanche

وفي الانكليزية :

To give a blank cheque

ونقول : هو يلعب بالنار ، وهو في الفرنسية :
Il joue avec le feu.

وفي الانكليزية :

To play with fire.

ونقول : هو يصطاد في الماء العكر ، وهو في
الفرنسية :

Il peche en eau trouble

وفي الانكليزية :

To fish in troubled water.

ونقول : على شرف فلان ، وهو في الفرنسية :
En son honneur.

وفي الانكليزية :

on his honour.

ونقول : توترت العلاقات ، وهو في الفرنسية :
Lest rapports sont tendus.

وفي الانكليزية :

Sirained relations

(٢٧) الفعل كرس من الالفاظ المسيحية الكنيسية وهو من اصل سرياني ارامي ، على ان التركيب كله دخيل
في العربية وهو مترجم عن العبارة الفرنسية .

. التفریب فی اللغة العربیة

ونقول : اكد علی (٣٠) نقاط معينة ، وهو فی
الفرنسیة :

Il a insisté sur certains points.

وفی الانكليزية :

He emphasized certain points.

ونقول : اثر علیہ (٣١) ، وهو فی الفرنسیة :
Influer sur lui.

ونقول : یبلور الفكرة ، وهي فی الفرنسیة :
Il cristallise son idée.

ونقول : یسم الراى العام ، وهو فی
الفرنسیة :

Il empoisonne l'opinion publique.

وفی الانكليزية :

To poison the public opinion.

ونقول : خنق الحریات ، وهو فی
الفرنسیة :

Etranglement de libertés.

وفی الانكليزية :

To strangle the liberties.

ونقول : الضمیر العالمی ، وهو فی الفرنسیة :
La conscience mondiale.

وفی الانكليزية :

The world conscience.

ونقول : مؤتمر المائدة المستديرة ، وهو فی
الفرنسیة :

Congrès de table ronde.

وفی الانكليزية ؟

Rond table conference.

ونقول : الاوساط (٢٨) المطلعة ، وهو فی
الفرنسیة :

Les milieux les bien informés.

وفی الانكليزية :

Well-informed quarters.

ونقول : الاوساط الجديرة بالثقة ، وهو فی
الفرنسیة :

Les milieux dignes de foi.

وفی الانكليزية :

trust worthy circles.

ونقول : الدوائر العليا ، وهو فی الفرنسیة :

Les hauts cercles.

وفی الانكليزية :

The higher circle.

ونقول : دفع الثمن غالیا (بالاستعمال
المجازی بمعنى لقی الصعاب من جراء امر من
الامور ، او عمل من غير تفكير) وهو فی
الفرنسیة :

Il a payé cher.

وفی الانكليزية :

He paid dear.

ونقول : ركز (٢٩) البحث علی نقاط معينة ،
وهو فی الفرنسیة :

Il a concentré sa recherche sur certains points

وفی الانكليزية :

He concentrated on certain points.

(٢٨) ان من یرجم العبارة الاجنبیة باستعمال (المعادل المطلع) یكون الصق بالعربیة وفصاحتها ، لان
الواسط جمع وسط ، ولم یعرف عن الوسط فی العربیة هذا الانتقال المجازی .

(٢٩) التركز بهذا المعنى دخیل استعمله المشتغلون بالكیمیا .

(٣٠) متعدية الفعل (اكد) یعلی بسبب التركيب الاجنبی ، فالفعل الاجنبی فی هذا المعنى یتعدى بهذا الحرف ،
والصواب ان الفعل العربی یتعدى نفسه .

(٣١) وتعدیه الفعل (اثر) یعلی بسبب نظیره الفعل الاجنبی الذى یتعدى یعلی ، اما الفعل العربی فالفصح ان
یتعدى بحرف الجر (فی) .

ونقول : الاكثرية الساحقة (٣٤) ، وهو في
الفرنسية :

La majorité écrasante.

وفي الانكليزية :

Over whelming majority.

ونقول : على هامش السياسة ٣٥ ، وهو في
الفرنسية :

En marge de la politique.

وفي الانكليزية :

On the margin of the policy.

ونقول : التراب الوطني (٣٦) ، وهو في
الفرنسية :

Le territoire national :

وفي الانكليزية :

National territory, dominion.

ونقول : جرح شعوره ، وهو في الفرنسية :
Il a blessé son amour.

وفي الانكليزية :

He wounded his Feeling.

ونقول : اخذ بنظر الاعتبار ، وهو في
الفرنسية :

Il a pris en considération.

وفي الانكليزية :

He took in consideration.

ونقول : طبقة على مقياس واسع ، وهو في
الفرنسية :

Il l'a pratiqué en large mesure.

وفي الانكليزية

He applied it on wider scale

ونقول : وهو يعمل في اطار ضيق ، وهو
في الفرنسية :

Il travaille dans un cadre tres restreint.

وفي الانكليزية :

He works in a narrow cercle.

ونقول : اطارات الجيش (٣٢) ، وهو في
الفرنسية :

Les cadres de l'armée.

ونقول : العين المجردة ، وهو في الفرنسية :
Un oeil nu.

وفي الانكليزية :

Naked eye.

ونقول : ان لم تخنى الذاكرة ، وهو في
الفرنسية :

Si la mémoire ne m'a pas trahi.

ونقول : حرق البخور (٣٣) لسيدة ، وهو في
الفرنسية :

Il a brûlé de l'encens pour son maître.

وفي الانكليزية :

He burnt the incense for his sir.

(٣٢) دلالة الاطار في العربية معروفة ، ولم يستعمل هذا الاستعمال المجازي ، واستعماله هذا على طريقة المجاز نقل للاستعمال الفرنسي الذي اشرنا اليه . ومن اجل كثر هذا الاستعمال في الصحف العربية في الشمالي الافريقي بصورة خاصة ، اما اهل الشرق العربي فيستعملون في هذا المقام الفاظا عربية مثل (الملك ، والتنظيمات وما اشبه ذلك) وربما وجدنا لفظة (الكوادر) مستعملة على صورة الجمع للكلمة الاجنبية ، كما يحدث في الصحف اللبنانية والمصرية .

(٣٣) تعبير ذو اصل ديني مسيحي متصل بالبخور الذي يحرق في الكنائس .

(٣٤) تعبير متصل بالتقاليد (البرلمانية) .

(٣٥) الهامش كلمة دخيله قديمة ولكنها لم تستعمل هذا الاستعمال المجازي .

(٣٦) تعبير شائع في العربية في الشمال الافريقي .

وفي الانكليزية :
They practised the policy of throwing down
the gauntlet.

ونقول : اتبعوا سياسة القاء القفاز (٣٨)
وهو في الفرنسية :
Sur le compte de l'opinion publique.

وفي الانكليزية :
At the expense of public opinion.

ونقول : الحياة الادبية (٣٩) ، وهو في
الفرنسية :
La vie littéraire.

وفي الانكليزية :
The literary life.

ونقول : يشل الاعمال ، وهو في الفرنسية :
Il paralyse les affaires.

ونقول : ضرب الرقم القياسي او كسره ،
وهو في الفرنسية :
Il a battu le record.

وفي الانكليزية :
He beats the record.

ونقول : اعمال الكاتب الكاملة (٤٠) ، وهو
في الفرنسية :
Les oeuvres completes de l'écrivain.

وفي الانكليزية :
The complete works of the writer.

ونقول : اخذ مكانه بين رفاقه ، وهو في
الفرنسية :
Il a pris sa place parmi ses camarades.

وفي الانكليزية :
He took his seat between his comrades.

ونقول : التيارات الادبية ، وهو في
الفرنسية :
Les courants littéraires.

وفي الانكليزية :
The literary current.

ونقول : مع الاسف ، وهو في الفرنسية :
Avec mes regrets.

وفي الانكليزية :
With regrets.

ونقول : مع تمنياتي ، وهو في الفرنسية :
Avec mes souhaits.

وفي الانكليزية :
With my best wishes.

ونقول : النجاحات (٣٧) جمعا لنجاح ،
ونشاطات جمعا لنشاط وهذه شائعة في
الفرنسية :
Succès, activités.

وفي الانكليزية :
Successes, activities.

ونقول : اتبعوا سياسة القاء القفاز ، وهو
في الفرنسية :
Ils ont pratiqué la politique de mettre
les gens.

(٣٧) اجاز الاقدمون جمع المصدر اذا افاد النوعية المختلفة ، واذا انتقل من الحدث الى الاسمية . كما نجده
في مقررات المجمع اللغوي في القاهرة وهو منشور في مجلة المجمع العلمي بدمشق الجزء الخاص بمؤتمر المجمع العلمية
اللغوية لسنة ١٩٥٧ .

(٣٨) تعبير يتصل بالبيئة التي استخدم فيها وهي البيئة الرياضية .

(٣٩) تعبير شائع في الصحف والمجلات في عصرنا الحاضر حتى خيل للمهتمين بمسائل اللغة انه تعبير عربي
في الاصل ، وليس الامر كذلك .

(٤٠) لم يعرف في العربية هذا الاسلوب وانما يقال مؤلفاته او كتبه او آثاره او مصنفاته .

ونقول : لا يرقى اليه الشك ، وهو في الفرنسية :	وفي الانكليزية : He goes through difficulties.
ونقول : عاش التجربة ، وهو في الفرنسية :	ونقول : عاش التجربة ، وهو في الفرنسية : Il a vecu l'épreuve.
ونقول : ولقلب صفحة (٤٣) ، وهو في الفرنسية :	ونقول : ولقلب صفحة (٤٣) ، وهو في الفرنسية : Qu'on tourne la page.
ونقول : البرج العاجي (٤١) ، وهو في الفرنسية :	وفي الانكليزية : Turne new page.
ونقول : يلقى ضوءا على هذه المسألة ، وهو في الفرنسية :	ونقول : المعطيات (٤٤) ، وهو ترجمة للكلمة Les données.
ونقول : يمر بتجربة قاسية (٤٢) ، وهو في الفرنسية :	ونقول : هو خارج امكانياتي ، وهو في الفرنسية : Il est en dehors de mes possibilités.
ونقول : على ضوء الاحداث ، وهو في الفرنسية :	ونقول : الشخصية (٤٥) ونريد بها صاحب الشخصية رجلا أو امرأة ، وهو في الفرنسية : personnalité.
ونقول : يلقى نظرة ، وهو في الفرنسية :	ونقول : الشخصية البارزة ، وهو في الفرنسية : Personnalité marquante .
ونقول : يمر بتجربة قاسية (٤٢) ، وهو في الفرنسية :	وفي الانكليزية : a marked personality.
ونقول : يلقى نظرة ، وهو في الفرنسية :	ونقول : يعلق اهمية خاصة ، وهو في الفرنسية : Il attache Une certaine importance.
ونقول : يمر بتجربة قاسية (٤٢) ، وهو في الفرنسية :	وفي الانكليزية : To attach importance.
ونقول : يمر بتجربة قاسية (٤٢) ، وهو في الفرنسية :	ونقول : يلقى نظرة ، وهو في الفرنسية : Il jette un coup d'oeil.
ونقول : يمر بتجربة قاسية (٤٢) ، وهو في الفرنسية :	ونقول : يمر بتجربة قاسية (٤٢) ، وهو في الفرنسية : Il passe une épreuve dure.

(٤١) والفصح ان يقال : البرج العاج .

(٤٢) تحميل التجربة معنى الحادثة أو المحنة دخیل اجنبي ، وهو من باب التضمين في اللغة .

(٤٣) الاسلوب اجنبي ، ولعل ما يقابله في الاساليب العربية قولهم : ولنضرب صفحا .

(٤٤) يراد بالكلمة الفرنسية الافكار والمعاني ، اما (المعطيات) فهي من ابتداعات السوريين واللبنانيين .

(٤٥) تدل الشخصية على الحالة أو الهيئة التي يكون فيها الشخص ، وهي من اصطلاحات على النفس ، ولها مدلول فلسفي ، والمصدر الصناعي مفيد في بساط المصطلحات العلمية .

ونقول : اعرني اذنيك ، وهو في الفرنسية :
Pretez-moi les oreilles.

وفي الانكليزية :

Lend me your ear.

ونقول : غطاء النفقات ، وهو في الفرنسية :
La couverture de frais.

وفي الانكليزية :

To cover the expenses.

ونقول : الجهاز الحكومي ، وهو في الفرنسية :
L'organ gouvernemental.

وفي الانكليزية :

The official organ.

ونقول : الماكينة الحكومية ، وهو في الفرنسية :
La machine gouvernementale.

ونقول : يحمل على الاعتقاد ، وهو في
الفرنسية :

Il porte a croire.

ونقول : هو ينظر من زاوية ، وهو في
الفرنسية :

Il voit d'un coin.

وفي الانكليزية :

He looks from one angle.

ونقول : حجر الزاوية ، وهو في الفرنسية :
La pierre angulaire.

وفي الانكليزية :

Corner stone.

ونقول : يعلق املا كبيرا ، وهو في الفرنسية :
Il attache une grande espoir.

وفي الانكليزية :

To attach great hope.

ونقول : اجاب في شىء من الدهشة ، وهو
في الفرنسية :

Il a répondu avec un peu d'étonnement.

ونقول : وهو يجذب الانتباه ، وهو في
الفرنسية :

Il tire l'attention.

وفي الانكليزية :

It attracts attention.

ونقول : هو يعكس الحالة الاجتماعية ،
وهو في الفرنسية :

Il reflète la situation sociale.

وفي الانكليزية :

Il reflects the social back-ground.

ونقول : الجنس اللطيف ، وهو في الفرنسية :
La belle sexe.

وفي الانكليزية :

The fair sex.

ونقول : وجهات النظر (٤٦) ، وهو في
الفرنسية :

Les points de vue.

وفي الانكليزية :

The points of view.

(٤٦) دلالة (وجهات النظر) على الرأي والذكورة والنظر العقلي غير عربية اصيلة وانما دخلت العربية عن طريق الترجمة كما بينا .

ونقول : سابقة خطرة ، وهو في الفرنسية :
Précédent dangereux.

وفي الانكليزية :
a dangerous precedent.

ونقول : ازمة نفسية ، وهو في الفرنسية :
Crise psychologique.

وفي الانكليزية :
Psychological crisis.

ونقول : بوصفه او بصفته ، وهو في
الفرنسية :
En sa qualité

وفي الانكليزية :
In his capacity.

ونقول : هو جاهل لغاية ان يكون بدائيا ،
وهو في الفرنسية :
Il est ignorant a tel point qu'il soit primitif.

ونقول : حمامة السلام ، وهو في الفرنسية :
La colombe de paix.

ونقول : واذا ارتقينا (او صعدنا او
ارتقينا) الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو
في الفرنسية :

Si nous remontons au cinquième siècle
avant J.C.

ونقول : يهضم الافكار ، وهو في الفرنسية :
Il digère les idées.

وفي الانكليزية :
To digest ideas.

ونقول : يحتضن الفكرة ، وهو في الفرنسية :
Il couve l'idée.

ونقول : يتبنى الفكرة ، وهو في الفرنسية :
Il adopte l'idée.

وفي الانكليزية :
He adopts the idea.

ونقول : اعتنق الفكرة (٤٧) ، وهو في
الفرنسية :
Il a embracé l'idée.

وفي الانكليزية :
He embraced the idea.

ونكرر الظرف الشرطي (كلما) في استعمالنا
فنقول : كلما عمل ، كلما ربح (٤٨) وهو في
الفرنسية :

Plus il travaille, plus il gagne.

وفي الانكليزية :
The more he works, the more he earns.

ونقول : تناول الكلمة ، وهو في الفرنسية :
Il a pris la parole.

ونقول : اعطى الكلمة ، وهو في الفرنسية :
Il a donné la parole.

وفي الانكليزية :
He gave a speech.

ونقول : عنده حق ، وهو في الفرنسية :
Il a raison.

وفي الانكليزية :
He has the right.

(٤٧) وفي العربية شيء ربما أشبه هذا ، فقد ذكر الزمخشري في اساس البلاغة ما نصه : واعتنق الامر لزمه .
انظر مادة (عنق) .

(٤٨) نبه اللغويون على هذا الخطأ فقل وروده ، على انه ما زال موجودا في لغة الجرائد .

ونقول : تمتد جذر المسألة ، وهو في
الفرنسية :

Les racines de la question étendent.

وفي الانكليزية :

The root of the problem go deep.

ونقول : وموقفه امام (٥٢) هذه القضية،
وهو في الفرنسية :

Sa situation devant cette question.

ونقول : وهذه القضية من طرف (٥٣)
السلطات الحاكمة ، وهو في الفرنسية :

Ce problème est de la part de gouvernement.

وفي الانكليزية :

They exchanged greeting.

ونقول : تحت الدرس ، وهو في الفرنسية:
Il est sous l'étude.

وفي الانكليزية :

It is under study.

ونقول : يسهر على المصلحة العامة ، وهو
في الفرنسية :

Il veille sur le bien commun.

ونقول : لا جديد تحت الشمس ، وهو
في الفرنسية :

Rien de nouveau sous le soleil

وفي الانكليزية :

Nothing new under the sun.

ونقول : هو مرن (٤٩) ، وهو في الفرنسية:
Il est souple ou flexible.

وفي الانكليزية :

He is flexible.

ونقول : هو موضوع على طاولة البحث
(٥٠) ، وهو في الفرنسية :

Il est mis sur la table de travail.

ونقول : الانواع الادبية (٥١) ، وهو في
الفرنسية :

Le genres littéraires.

ونقول : عاصفة من التصفيق ، وهو في
الفرنسية :

Une tempête d'applaudissement.

وفي الانكليزية :

A storm of applause.

ونقول : نقطة انطلاق ، وهو في الفرنسية:
Le upont de départ.

وفي الانكليزية :

Point of departure.

ونقول : طلب يدها : وهو في الفرنسية:
Il a demandé sa main.

وفي الانكليزية :

To ask the hand of.

ونقول : اصلاح جذري ، وهو في الفرنسية:
Réforme radicale.

وفي الانكليزية

Radical reform.

(٤٩) لم يعرف هذا الاستعمال المجازي في العربية ، وانما يعبر عن ذلك بعبارات اخرى كان يقال : هو لين او طيع او ما في هذا المعنى.

(٥٠) الطاولة دخيلة وهي تعريب .

(٥١) تعبير جديد مترجم ، وربما قيل في العربية : الفنون الادبية .

(٥٢) يقال في الاسلوب الفصيح : ازاء بدلا من امام ، لان الامام ما كان في المقدمة ومنه سمي الامام اي الذي ياتهم الناس به .

(٥٣) هذا التعبير شائع في بلن ان الشهابي الافريقي.

ونقول : تحت رعاية ، وهو في الفرنسية :
Sous l'égide ou le haut patronage.

وفي الانكليزية :

Under the patronage of.

ونقول : هو متأثر الى درجة انه فاقد اعصابه ، وهو في الفرنسية :

Il était ému jusqu'à ce qu'il ait perdu ses nerfs.

وفي الانكليزية :

He was so excited that he lost his self-control.

ونقول : الجيل الصاعد ، وهو في الفرنسية :
La génération montante.

وفي الانجليزية :

The rising generation.

ونقول : يضحك على الدقون ، وهو في الفرنسية :

Il rit dans sa barbe.

ونقول : الوان صارخة ، وهو في الفرنسية :
Des couleurs criardes.

ونقول : نقد مر ، وهو في الفرنسية :

Critique amère

وفي الانكليزية :

Bitter criticism.

هذه نماذج قد تفتقر الى الاستيفاء ولكنها مواد مهمة نستضيء بها على سير التطور العلمي لهذه اللغة الحية التي بزت اخواتها من اللغات السامية . وربما عدت الى الموضوع نفسه لاتبين الجديد الفني الذي امد البلاغة العربية الجديدة بشيء لم تعرفه من ذي قبل .

ونقول : هو رجل الساعة ، وهو في الفرنسية :

Il est l'homme de l'heure.

وفي الانكليزية :

The man of hour.

ونقول : كلمة بطرف شفثيه (٥٤) ، وهو في الفرنسية :

Il lui a parté de bout de lèvres.

ونقول : الى الملتقى ، وهو في الفرنسية :
Au revoir.

ونقول ، الى الغد ، وهو في الفرنسية :
A demain.

ونقول : شرب على صحته ، وهو في الفرنسية :

Il a bu a sa santé

وفي الانكليزية :

He drank his health.

ونقول : مسألة بسيطة (٥٥) ، وهو في الفرنسية :

Une question superficielle.

وفي الانكليزية :

assimple question.

ونقول : مسألة سطحية (٥٦) ، وهو في الفرنسية :

Une question superficielle.

ونقول : تصفية القضية الفلسطينية ، وهو في الفرنسية :

La liquidation de la question palestinienne.

وفي الانكليزية :

The liquidation of the Palestine question.

(٥٤) كتابة عن الزاوية به .

(٥٥) شاع الوصف بالبساطة في العربية ، وهو اسلوب مترجم .

(٥٦) والوصف بـ (سطحية) اسلوب مترجم ايضا للدلالة على ان المسألة ليست متعمقة .

كتبت ترصع النهر

عرض تحليل الدكتور / احمد عبد الرحيم مصطفى

عاطفية، علما بأن الحقيقة هي وحدها المدرسة الكبرى التي تنشئ الاجيال على مواجهة الواقع، دون اللجوء الى استيحاء «العبقريات» أو الفلد المفرد . فأيا كانت البطولات فإن لها كبواتها - والبطل لا ينشأ ولا يتحرك في فراغ بل هو جزء لا يتجزأ من مجتمع ما في وقت ما، ونجاحه أو فشله انما هما كامنان في الظروف المحيطة به ، وكما هو الحال دائما لا بد من وجود بطولات حقيقية واخرى زائفة - وقد يظهر البطل الحقيقي في غير عصره فيفشل -

يعد فن السيرة من اصعب الدراسات التاريخية - اذ انه يستلزم ، الى جانب التمرس بمناهج البحث التاريخي ، المام باصول الدراسات النفسية والاجتماعية ، ومقدرة على كيفية الربط بين المترجم له والعصر الذي عاش فيه ، كما انه يستلزم قدرا من التجرد والانضباط الموضوعي ، والتحرر من التعاطف مع المترجم له - وهو ما نلمسه في كثير من التراجم العربية التي تستوحى تضخيم البطولات جريا وراء دوافع قومية أو

« ولام المخطيء الهبل » ، وقد تظهر الظروف تكرات في ثوب الابطال ، وبخاصة اذا ما كانت الساحة خلوا من الابطال الحقيقيين - اذ الشعوب باستمرار بحاجة الى رموز وقيادات ومثل أعلى .

وهريت كتشنر - موضوع هذه الدراسة من الشخصيات التي أضفت عليها الظروف هالة تفوق انجازاته ، فلقد أحرز شعبية كبيرة في بريطانيا لم يحرزها قائد عسكري بريطاني آخر منذ أن قهر ولنجتون نابليون في معركة ووترلو الشهيرة . ومرجع هذا تدميره لقوة الدراويش المهرين في السودان الذين قتلوا تشارلز غوردون ، وانهأه لحرب البوير الذين تغلبوا - بقوتهم المحدودة - على جيوش الامبراطورية البريطانية في جنوبى افريقيا . وهكذا نجد الصحافة البريطانية والكتاب الشعبين البريطانيين يجعلون منه مثالا للبطل القومى والفارس المتجول الذى يمكن ايفاده الى اى ركن فى العالم تتعرض فيه المصالح البريطانية للخطر حيث يتوقع ان تحل عصاه السحرية المشكلات حلا عبقريا . وهكذا نجده يستدعى الى الهند لتنظيم القوات الهندية التى قبض لها ان تلعب دورا متواضعا فى معارك الحرب العظمى . كما عين مندوبا ساميا فى مصر عام (١٩١١) حيث تجاهل الباشوات وساسة القاهرة وكرس جهده لتحسين احوال الفلاحين مما خلع عليه لقب «صديق الفلاح» . وبعد نشوب الحرب العظمى تولى وزارة - الحرب البريطانية لمدة عامين ، الى ان غرق نتيجة لارتطام السفينة التى كان يستقلها الى روسيا القيصرية بلغم المانى .

وقبل مرور عقد على وفاة كتشنر تعرض للنقد الشديد من جانب عدد كبير من الكتاب الذين أخذوا يوجهون معاولهم الى صورته العامة ، فى الوقت الذى لم يتمكن فيه أصدقاؤه - وهم قلة - من الاسهام الفعلى فى الدفاع عنه ، خاصة وأنه كان من المتعذر الحصول

على الوثائق الرسمية التى تمكنهم من دحض التهم الموجه اليه . وهكذا انفسح المجال امام خصومه الذين عزوا اليه كل الاخطاء الكبرى فى الادارة المركزية للحرب . وترسبت آراء هؤلاء النقاد لدى اجيال متعاقبة بالصورة التى يعزوها الدكتور كاسار - مؤلف الكتاب الذى نعرض له - الى التحايل الشديد على الاعمال والقيم التى سادت العصر ، فقد قيل ان اكاليل العظمة لم توضع فى موضعها ، لان من وضعت على جبينه كان يفتقر الى الخيال ويتصف بقصر النظر والخشونة ، على حين ان مظهر القوة والتحفظ لديه لم يكن فى الواقع سوى قناع يخفى وراءه ضعفه وتردده . على ان كلا من المنبهرين بانجازات كتشنر ونقاده لم يقدموا صورة صادقة لشخصيته وحياته العامة ، خاصة وأنه كان رجلا شديدا التعقيد ، ربما لانه عاش اعزب وحيدا ، مع قلة أصدقائه وخشونة طباعه . كما أنه لم يحتفظ بملفات مناسبة طيلة مدة خدمته ، وهو ما لا يصادفنا كثيرا بالنسبة الى رجال الدولة الانجليز الذين لا يهتمون فقط بحفظ السجلات الرسمية بل انهم يحافظون كذلك على اوراقهم الخاصة التى تساعد مؤرخي المستقبل على الكتابة عنهم وعن ادوارهم . وهكذا لم تتوفر المادة الخام اللازمة للاستعراض التفصيلي لنشاطات كتشنر فى وزارة اسكويث . يضاف الى ذلك ان مهمة مؤرخ كتشنر لم تكن بالمهمة الهينة فى اعقاب الحرب العظمى ، وذلك لصعوبة التوصل الى الاوراق الخاصة والرسمية التى لا يسمح بالاطلاع عليها عادة قبل مرور فترة زمنية قد تطول وقد تقصر . على ان القيود المفروضة على الاوراق الخاصة والرسمية قد خفت خلال العقد الاخير ، مما سهل مهمة اعادة تقييم اعمال كتشنر والفترة التى عاش فيها ، رغم انه لم يترك مذكرات خاصة . ولما كان خجولا قليل الكلام امام الاعداء والاصدقاء على حد سواء ، فبعد مرور اكثر من ستين عاما على وفاته نجد ان كثيرا من الظلال لا تزال تحيط بحياته العامة والخاصة .

الداتي دون ان يحرز من الانتصارات ما يحرزه عادة العسكريون الكبار ، تماما كما حدث في السودان حيث انتصر على الدراويش نتيجة لتفوق الجيش البريطاني - المصري في السلاح والعتاد . واذا ما اردنا ان تلقى مزيدا من الضوء على تفسيرنا ، فاننا نلمح الى قائد بريطاني آخر - هو برنارد مونتجومري الذي احرز شهرة كبيرة نتيجة لاقتراح اسمه بنصر العلمين ، وهو النصر الوحيد الكبير الذي احرزته بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، ومما يجدر ذكره ان مونتجومري قد احرز هذا النصر على ثعلب الصحراء «اروين روميل» الذي مرغ سمعة بريطانيا العسكرية في التراب برغم قلة قواته واعتدته نتيجة للتفوق الضخم في العدد والعتاد الذي تمتع به الجيش البريطاني في العلمين . ومونتجومري الذي علت مكانته نتيجة لهذا الانتصار البريطاني الوحيد خلال الحرب العالمية الثانية هو ذاته الذي ارتكب اخطاء كبيرة في ميادين القتال الاوربية بعد ذلك ، واهمها الخطا الذي اودى بحياة بضعة آلاف من قوات الحلفاء - التي ابعدت في ارنيم . وهكذا يبدو لنا ان ثمة شخصيات تدين بسمعتها ومجدها لا لانجازات كبرى ، بل للظروف الموضوعية التي احاطت بنشاطاتها . وكثيرا من الشخصيات تلك التي غمطها التاريخ حقها لانها لم تظهر في الوقت المناسب او ظهرت في فترة تمج بالابطال . وكثيرا ايضا من الشخصيات تلك التي احاطها التاريخ بهالات واسعة لا لشيء الا لكون الساحة خالية من البطولات الحقيقية

ونعود الآن الى كتاب سير فيليب باجنوس
عن كتشنر - وهو الكتاب الذي - بالاضافة الى عدم تفسيره مصدر هيبة كتشنر الضخمة - لم يتناول ازمة الذخيرة وعوامل النزاع حول التجنيد وانشاء الجيوش الجديدة ، والخلاف والجدل الذين احاطا بكتشنر لدى تشكيل الحكومة الائتلافية في مايو ١٩١٥ - ويرى الدكتور كاسار ان باجنوس قد اظهر كتشنر بمظهر العسكري الجامع المفتقر الى

ويذهب الدكتور كاسار الى ان كاتبى سيرة
كتشنر السابقين لم ينصفوه - اذ ان المؤلفات التي تعرضت له بعد وفاته مباشرة لم تزد عن كونها دفاعا متحيزا عن سياسته يقوم على العاطفة والجهل دون استناد الى الادلة الكافية، ومن ثم اتجه اصحابها الى احاطة كتشنر بهالة جعلت منه شخصا اقرب الى السوبر مان . وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية تجدد الاهتمام بكتشنر حين ظهرت في عام ١٩٥٨ الدراسة التي نشرها فيليب ماجنوس عنه وتضمنت الافادة من اوراق لورد سولسبرى ، وان لم يبدل المؤلف جهودا اخرى للحصول على مزيد من المادة الوثائقية ، ومن ثم اهماله للقضايا الاساسية او معالجته لها بشيء من السطحية، وهكذا لم يقدم سير فيليب ماجنوس تفسيراً لهيبة كتشنر الضخمة التي لم يسبق لها مثيل لدى الشعب البريطاني والتي لم تلق الاهتمام لدى كثير من مؤرخيه . وتفسيرها لدينا يكمن في كون بريطانيا لم تشترك منذ حرب القرم (١٨٥٣ - ٦) في حرب عامة ، وبالتالي لم تنجب قادة عسكريين مرموقين من طراز مولبرا وولنجتون ونلسون ، وبالتالي كانت تتوق الى رمز تتمسك به في الوقت الذي ثار فيه الرأي العام لمقتل غوردون ، ثم للهزائم المتتالية التي اوقعها شعب مصر (البوير - اى الفلاحون هولنديو الاصل في جنوبي افريقيا) بجيوش الامبراطور العجوز التي فرضت عليها عزلة موحشة لمدة سنوات بعد ان تكتلت ضدها معظم دول القارة الاوربية وابدت شعوبها شماته في الدولة العظمى التي - على اتساع امبراطوريتها ووفرة مواردها - لم تستطع ان تواجه شعبا مغمورا تصدى للدفاع عن استقلاله . وهكذا شعرت بريطانيا بخطورة السياسة التي سارت عليها من حيث التشبث « بالعزلة المجيدة » واطفقت تبحث عن مخرج من ورطتها . وجاء هذا المخرج في نهاية الامر على يد كتشنر بعد ان حشدت بريطانيا في الترنسفال اكثر من ربع مليون جندي - فلقد انهى كتشنر الحرب بحل وسط سمح للبوير بنوع من الاستقلال

الخيال والمخطط القاسى الاناني الذى تعوزه الصفات اللازمة للقائد العسكرى الكبير باستثناء الدقة وقوة العزيمة . ويفند كاسار ذلك بالادلة التاريخية ما يذهب اليه ماجنوس من ان كتشنر كان يفتقر الى الالهام والقدرة على اتخاذ قرارات سريعة ، وان يكن يستثنى من ذلك حالة واحدة ابدى فيها كتشنر بعض التردد، ملمحا الى انها لا تكفى لتبرير التصميم الذى يطلقه ماجنوس على عواهنه من حيث ان كتشنر لم يؤت الارادة القوية ، وبالتالي لم يتصف بسرعة البت .

وعلى اى حال فقد استغرقت الدراسة التى قام بها الدكتور كاسار ست سنوات رجوع خلالها الى حوالى ٩٠ مجموعة من المخطوطات، كما اطلع على كل الدراسات الرئيسية المتصلة بحياة كتشنر . ورغم ان الفصول الاولى من الدراسة مستقاه من المصادر المطبوعة فان المؤلف عمد فيها الى تفسير مخالف للاحداث وأضاف مادة لا توجد فى اى من الترجمات السابقة : فقد ركز على تنبؤ كتشنر بنشوب الحرب فى اوربا ، وفصل الكلام عن حكمه للسودان . كما حاول كاسار فى تقييمه لكتشنر ان يلجأ باستمرار الى تطبيق قيم العصر على شخصية كتشنر وانجازاته ، وان يكن يقر بأن ترجمته كانت أميل الى العطف على المترجم له ، دون ان تعميه حماسه عن الاخطاء التى جرى ارتكابها أو تجعله راضيا تماما عما كتب . وفى نهاية بحثه قدم ملخصا لحياة كتشنر وأبدى بعض الملاحظات النهائية التى تحكم على انجازاته على ضوء الظروف الموضوعية التى أحاطت بحياته ، فكتشنر ابن لضابط متقاعد ، ومن ثم بدؤه لحياته العملية دون سند من ثروة أو من نفوذ اجتماعى - وهكذا يدين بترقية من أسفل السلم الى أرفع منصب عسكرى فى الامبراطورية البريطانية الى الخصائص الآتية : « تعقله وقوة ذاكرته ، وجلده الشديد على العمل وقوة عزمته ونظرته الشاملة وقدرته على انتزاع أقصى جهد من مرؤوسيه ومقدرته الفذة على العطاء.

فهو لم يتهرب من اى عمل ايا كانت صعوبته أو عدم ميل نفسه اليه - ومهما يكن طموحه فانه لم يجعل رغبته فى الترقى تطفى على اهتمامه بمصلحة البلاد . ويذهب كاسار الى ان كتشنر قد ابدى فى السنة الاخيرة من حياته عظمه حقيقية حين تشبث بمنصب وزير الحرب ، باذلا أقصى جهده فى مصلحة البلاد ، ومتحملا الهجمات الضاربة سواء من جانب زملائه أو من جانب قطاعات هامة فى الصحافة دون أن تصدر عنه اى شكوى عامة - هذا برغم ان السياق العام للكتاب - فى رأينا - يدل على انه ، برغم تأمر بعض زملائه عليه ، وبخاصة لويد جورج ، وتهجم بعض الصحف الكبرى عليه دون سند حقيقى ، الا انه كان خلال هذه السنة الاخيرة معزولا عن زملائه فى مجلس الوزراء من أحسوا بضرورة تخليه عن منصبه ، ولو أنهم - حرصا منهم على المصلحة العامة - قد أبقوه فيه بعد تقليص كثير من صلاحياته . أما عدم شكواه العامة فقد يكون مرجعه - الى جانب حرصه على مصلحة البلاد خلال حرب عالمية - هو اثباره العافية وعدم تمرسه بالاساليب الديمقراطية وخشيته من مهاجمة الجماهير أو مصارحتها .

ويسلم كاسار بأن كتشنر لم يتصف بالجاذبية الشخصية . فهو لم يعد التفاتا لنصائح الغير ولم يكثر كثيرا بالثناء على من احسن عملا ولم يبدا اهتماما بالآخرين - وبالتالي كان التعامل معه على قدر كبير من الصعوبة . كان يعلم أن مرؤوسيه يرهبونه ، فعمل على تأكيد هذا الانطباع لجعلهم يبدلون أقصى جهد ممكن ، وان يكن من المحتمل انه واصل اتباع هذه المعاملة تمشيا مع طبيعته ذاتها لا لاي هدف آخر . ويبادر المؤلف ، المتعاطف مع المترجم له ، لدحض ما شاع عن كتشنر من كونه خلو من النوازع العاطفية ، ومن انه لم يزد عن كونه آلة بشرية، مؤكدا ان شخصيته لم تكن تفتقر الى ملامح رقيقة لم يلمسها الا أقرب الناس اليه ممن

في تاريخها الحديث أى تمرد من جانب العسكريين الذين يأتمرون بأوامر الساسة من حيث الاستراتيجية العامة وتترك لهم تفاصيل كيفية تنفيذ الخطط العامة . وليس ثمة ما يثبت ان كتشنر - الذى جعلت منه الصحافة ووسائل الاعلام تجسيدا لقوة بريطانيا وعزمها على احراز النصر - هو الوحيد الذى أمكنه اقناع مجلس الوزراء والشعب بالاستعداد لحرب طويلة . حقيقة ان الجهود التي بذلها لانشاء جيوش جديدة خلال الحرب ، وفي وجه عقبات لا تحصى من الناحيتين الانسانية والطبيعية ، كانت على حد قول ونستون تشرشل - من اعاجيب العصر - الا ان هذا الانجاز ليس الوحيد في تاريخ بريطانيا التي دخلت الحرب العالمية الثانية ايضا دون كبير استعداد ، ثم ما لبثت ان هيات نفسها « بالدم والعرق والدموع » - على حد قول ونستون تشرشل - لكسب النصر . ولا شك ان كتشنر قد بذل جهدا كبيرا في كمية العتاد الحربى ، وان يكن ذلك امرا حتمه اشتراك بريطانيا في الحرب العالمية . كما انه منذ نشوب الحرب اعتقد جازما بأنه ليس امام بريطانيا خيار سوى الوقوف بثبات الى جانب فرنسا ، وان يكن هذا الاعتقاد قد املته الضرورة : اذ ان سقوط فرنسا امام مطارق الهجوم الالماني من شأنه ان يعرض بريطانيا ذاتها للخطر ، وهو ما حدث في عام ١٩٤٠ خلال الحرب العالمية الثانية ، مما جعل ونستون تشرشل ، حرصا منه على المحافظة على روح القتال لدى الفرنسيين في فرنسا ذاتها وفي مستعمراتها فيما وراء البحار ، يعرض على الساسة الفرنسيين خلق نوع من الاتحاد السياسي بين الدولتين الغربيتين ، ويتبنى شارل ديغول الذى مثل هو واتباعه القليلون روح النضال لدى الشعب الفرنسي

تبيينوا ميله الى الدعاية وما اتصف به من بساطه جعلته حسن المعشر ، كما لمسوا فيه الاستعداد لحماية من يخدمونه باخلاص وحبه للجمال الذى يدل عليه بشغفه بحديقة وروده وبمجموعة التحف الفنية التي احتواها اثنائه . ويدافع كاسار عن انجازات كتشنر بصفته جنديا وسياسيا ويؤكد انها لم تتكرر كثيرا - ان تكررت على الاطلاق - في التاريخ البريطاني الحديث ، ويذهب الى ان الحملة التي قادها للقضاء على المصريين كانت نموذجا للتنظيم والتخطيط الدقيق ، والى انه وضع أسس انعاش السودان في اعقاب النصر ، وامكنه وضع حد لازمة فاشودة التي كان من الممكن ان تؤدي الى نشوب الحرب بين بريطانيا وفرنسا ، علما بأن انسحاب فرنسا من جنوبى السودان قد جرى بعد مناقشات عاصفة في باريس ادرك الفرنسيون على اثرها الا طاقة لهم بمواجهة بريطانيا المسيطرة على البحار ومن ثم اثارهم للعافية واصدار الحكومة الفرنسية الاوامر لمارشان - قائد القوة الفرنسية - بالانسحاب . كما يشيد الدكتور كاسار بالكيفية التي انهى بها كتشنر حرب البوير ، ويلمح الى أنه أبدى في نهاية المطاف كرم النفس ساعة النصر بمقدار ما كان جبارا في ميدان القتال ، علما بأن البوير قد دوخوه بحرب العصابات وبأنه لم يحرز عليهم نصرا حاسما ومن ثم اثاره حسم الحرب صلحا . وفي معرض دفاعه عن كتشنر يذهب المؤلف الى أنه لولا توليه منصب وزارة الحرب لربما انقسمت بريطانيا الى شيع سياسية وعسكرية ، وهو امر بعيد الاحتمال في بلد مثل بريطانيا تعلق فيه المصلحة العامة ساعة الازمات على النزاعات الحزبية ، بدليل الاتفاق التلقائي على تشكيل وزارة قومية تضم اعضاء من كل الاحزاب الكبرى ، كما ان بريطانيا لم تعرف

ولما كان كتشنر يعتقد ان ليس بالامكان توجيه ضربه قاضية الى المانيا ، على اعتبار انه لا يمكن تطوير قوة بريطانية بالكامل قبل عام ١٩١٧ ، فقد سعى الى تجنب الهزيمة وصمم على تماسك الحلف البريطاني - الفرنسي مهما كان الثمن . فهو لم يشك على الاطلاق في امكان كسب الحرب على الجبهة الغربية وحدها ، وفي ضرورة تأجيل القيام بهجوم واسع النطاق قبل توفير اعداد هائلة من المقاتلين وكميات ضخمة من العتاد - وحتى يتم ذلك بفضل اتباع استراتيجية دفاعية فعالة في فرنسا ، ولكنه لم يستطع اقناع زملائه بذلك - اذ كان من الصعب عليه ان يقنع مجلس الوزراء بالانتظار السلبي وترك زمام المبادرة للامان وحلفائهم من دول الوسط ليصولوا ويجولوا في ميادين القتال كما يشاءون . ويعزو الدكتور كاسار فشل كتشنر في هذا المضمار الى اشارة التكتم وعجزه عن التعبير عما يجول بخاطره وافتقاره الى اللباقة والوضوح ، وان يكن هذا التفسير قاصرا - اذ اجمع زملائه على ضرورة اخذ زمام المبادرة في اكثر من جبهة حتى يشتتوا قوى دول الوسط ولا يسمحوا لها بالقيام بعمل منسق يتيح لها كسب الحرب .

ويرى الدكتور كاسار ان كتشنر ليس وحده الذي يجب ان يوجه اليه اللوم . فبعد انتهاء الحرب انتقده زملاؤه لتشدده - ويتطلب المؤلف من هؤلاء الزملاء الناقدين ان يدركوا انه كان في سن الخامسة والستين وانه لم يالف العمل الجماعي ، خاصة وانه عاش في الخارج معظم سنى شبابه بحيث صعب عليه ان يتكيف تماما للظروف الجديدة . ولنا مع ذلك أن - نتساءل : « كيف يفتقر المسؤولون لزميل لهم - ايا كانت ظروفه - ان يتصلب في الوقوف ضد اجماعهم خلال حرب قومية ؟ وهل نتطلب منهم ان يضعوا نصب أعينهم على طول الخط ظروف نشأته وصفاته الخاصة . . ؟ اننا نكرر

هنا ما سبق ان ذهبنا اليه من ان كتشنر يدين بسمعته الى خوضه حريين سهلتين ضد شعبين لا يدانيان بريطانيا قوة وعتادا ، حتى اذا جد الجدل بدا ان توليه وزارة الحرب كان خطأ كبيرا ، فكان لا بد من ازاحته جزئيا او كلياً ايا كانت الشعبية التي يتمتع بها . وقد تكرر ذلك في اوائل الحرب العالمية الثانية حين ازيح بنقل تشمبرلين عن مركز القيادة لعدم كفاءته بعد ان اشترك في الهجوم عليه ليس فقط المعارضون من العمال والاحرار وأيضا زملاؤه في حزب المحافظين . ويذهب الدكتور كاسار الى ان نقاد كتشنر لم يقلوا عنه ضيق افق ، وانهم لم يفيدوا شيئا في نهاية الامر من مهاجمة الرجل الذي انقذ اعمال البلاد ومستقبلهم السياسي - كما يذهب الى انهم بتجاهلهم لنصائح كتشنر قد زجوا بالبلاد في ثلاثة ميادين جانبية فاشلة : حملة الدردنيل ، الهجوم في الميدان الغربي ، والتقدم من البصرة صوب بغداد دون حاجة ملحة الى ذلك . الا اننا نعقب على ذلك بان الحروب الكبرى الطويلة ليست سجلا متصلا للانتصارات ، وان - العبرة بالنتائج . حقيقة ان مخططي هذه الميادين الجانبية قد ارتكبوا بعض الاخطاء التي ادت الى الفشل . الا انها على المدى البعيد كان لها اثرها في تشتيت قوة المانيا وحلفائها ومنعتها من تركيز قواتها لاجراء روسيا القيصريّة من الحرب في وقت مبكر ثم التحول الى الجبهة الغربية . وفي النهاية ارتكبت المانيا من الاخطاء ما زج بالولايات المتحدة في الحرب الى جانب الحلفاء مما عادل خروج روسيا من الحرب على اثر نشوب الثورة البلشفية في اكتوبر ١٩١٧ وفي النهاية كان النصر في جانب الحلفاء عقب فشل الهجوم الالمانى في الجبهة الغربية . وحين تم ذلك في عام ١٩١٨ كان كتشنر قد فارق الحياة منذ سنتين ، اى انه لم يصمم النصر كما جاء في عنوان الكتاب الذي نعرض له .



العامه . الا انه لم يتخذ اى خطوة لاعادة تنظيم هذه الهيئة التي لم تعمل تحت رئاسته بصفتها هيئة استشارية للحكومة فيما يتصل بالمشاكل الاستراتيجية الكبرى ، بل اقتصر عملها على تزويد وزير الحرب بالمعلومات . وهكذا حاول كتشنر ان يواجه حربا عالمية بنفس الاساليب الفردية التي لجأ اليها في السودان وجنوبي أفريقيا، فلم يعتمد على رؤوسيه الا في القليل النادر وقاوم كل المحاولات التي جرت لتخفيف اعبائه . وبالتالي كان عليه ان يواجه المشاكل الجديدة بخطط عشوائية دون سابق اعداد ، وما ارتبط بذلك من تغير القرارات بالتغير الفجائي لمجرى الحرب . . . بل انه عجز في بعض الاحيان عن اتخاذ اى قرار . . .

وحين لم تسر الحرب على ما يرام سواء في فرنسا او في الدردنيل ضاقت الحلقة حول كتشنر خاصة وان زملاءه في مجلس الوزراء لم يتحملوا اساليبه ، فهو لم يبذل تكييفا لاجراءات مجلس الوزراء حيث يعمل الوزراء معا على قدم المساواة ، خاصة وأنه عاش وحيدا خلال معظم حياته العملية حين كانت المسؤوليات التي اضطلع بها فردية لاجتماعية ، وحين لم يجد مبررا للايضاح او الاعتذار ، او لأن يعلق حكمه على نتائج المناقشات والحوار . بل انه لم يكن يتلقى اى نصائح يستنير بها الا ممن كان يختار مساءلتهم ، وهكذا أدى مزاجه الفردي الى عدم شعوره بوجوب الاستشارة بآراء زملائه في مجلس الوزراء وهي الآراء التي كان يعتمد الى تجاهلها بل انه في حالات فشله كان يقدم لهم أرقاما وتقديرات خاطئة او يعتمد الى الكذب المفضوح . وكلما ازداد شكه في زملائه كلما عمد الى السرية ، خاصة وقد تسربت بعض الاسرار التي أفضى بها الى هؤلاء الزملاء الذين استغلها بعضهم في تدبير المؤامرات او في تقوية مراكزهم . وبمرور الزمن فقد ثقة زملائه بالتدريج خاصة وان مجرى الحرب

هذا هو مجمل عرضنا لوجهات النظر الواردة في كتاب الدكتور كاسار عن كتشنر والتي لخصها في مقدمة الكتاب وفي خاتمته . حقيقة ان المؤلف قد بذل جهدا كبيرا في تحرى المادة الخاصة بكتشنر وعصره واهم انجازاته، مستعينا في ذلك بكثير من المادة الوثائقية الاصلية التي لم يتح لمن سبق لهم تناول حياة كتشنر واعماله ان اطلعوا عليها . ولكن الكتاب رغم اهميته - ورغم الجهد الكبير الذي بذله مؤلفه، لم يوفق في دحض كثير من الاتهامات التي وجهت لكتشنر ، بل سلم ببعضها ، مقرا بأن شهرة كتشنر - المدوية كانت من صنع الصحافة في المحل الاول . فلقد رافق حملة السودان صحفى لا مع هوجي دبليو ستيفنس - مراسل جريدة الديلي ميل الذى - لامتيازه في فن القصص - قدم لقرائه المشدوهين بطلا غير عادى اطلق عليه اسم « السردار » (١) ، وخلع عليه من الصفات ما استأثر باهتمام الجماهير - وكانت بداية اسطورة كتشنر التي تضخمت بمرور الايام . وبعد نشوب الحرب العظمى جعلت وسائل الاعلام من كتشنر رمزا للحكومة، وقدمت مزيدا من التقارير التي ضخمت كل نجاح للحلفاء وقللت من اهمية اى تحرك المانى . وهكذا دبجت في الصحف مقالات عن كتشنر اشادت باعماله السابقة وخلصت الى التاكيد بأنه يخطط لهزيمة المانيا . ووجدت الحكومة البريطانية من جانبها ان تؤكد تعلق الجماهير باسطورة كتشنر حتى تغطي بذلك على عدم احرازها لانتصارات سريعة ، وما لبث ظهور « نابليون جديد » ان ادى الى اطمئنان امة ذات اعداء كثيرين واصدقاء قليلين .

وبعد تبوؤ كتشنر منصب وزارة الحرب بثلاثة شهور اخذ يلح في طلب اعفائه من منصبه وذلك على اثر فشله في مواجهة نقد زملائه له ، دون ان يدري انه - بإمكانه تجنب بعض المآزق التي انزلق فيها لو اعتمد على هيئة الأركان

لم يسر في صالح الحلفاء ، وبالتالي تضعفت سلطته وتعرض للنقد والهجوم مما أضعف حيويته ومبادرته - ومن ثم ما اعتراه من تردد وعدم استقرار وتناقض وفقده احترام كثير من زملائه الذين أجمعوا على ضرورة تخليه عن وظيفته . وما انتهى عام ١٩١٥ حتى لم يعد المستشار الأكبر لمجلس الوزراء فيما يتصل بالمسائل العسكرية والاستراتيجية ، وان يكن حتى وفاته قد ظل البطل الموثوق به لدى الجماهير .

ورغم الدراسة القيمة التي قام بها الدكتور كاسار وما بذله في سبيلها من جهد ، فان دفاعه عن كتشنر لم يعد كثير الانطباع الذي خلفته لنا دراسة السير فيليب ماجنوس من حيث أن كتشنر رجل خلقت الظروف ، حين وضع في غير موضعه سرعان ما بدا فشله بحيث كان عليه أن يغادر المسرح . وفي نهاية المطاف مات في الوقت المناسب قبل أن يتعرض لمزيد من النقد والتحقيق . على أن الكتاب الذي نعرض له قد تضمن كثير من التفاصيل الجديدة عن سياسة بريطانيا الخارجية قبيل الحرب العظمى وفي أعقابها ، مما يجعله من المصادر الهامة لهذه الفترة .

وأخيرا هناك نبذة عن كتشنر تتصل بارتباطه بالتحركات البريطانية ازاء الشرق العربي خلال الحرب العظمى . فهو الذي اتصل بالشريف حسين قبل دخول تركيا الحرب وفي أعقابها ، وهو الاتصال الذي استأنفه السير هنري مكماهون - المندوب السامي البريطاني في مصر - فيما عرف باسم مراسلات الحسين - مكماهون ، ورغم ما يذهب اليه المؤلف من أن تحديد الدور الذي لعبه كتشنر في هذه المراسلات غير معروف ، فانه يبدو من غير المحتمل أن توافق وزارة الخارجية البريطانية على ماتم اقراره بهذا الصدد دون

عرضه على وزير الحرب الذي كان أكبر خبراء الحكومة فيما يتعلق بشئون الشرق الأدنى ، وعلى حين أن كتشنر لم يتولى المسؤولية المباشرة عن مراسلات الحسين - مكماهون ، فانه يقال انه أشرف على كل تفاصيل اتفاق سايكس - بيكو ، مما يدل عليه أن السير مارك سايكس قد صرح فيما بعد انه نفذ كل الاجراءات « حسب خطة اللورد كتشنر » وهكذا وقع في نفس التناقض الذي سبق أن الحنا اليه من حيث التلويح للشريف حسين بالاستقلال واقامة دولة عربية في المشرق العربي ، مع بذل الوعود لفرنسا في نفس الوقت بالاستيلاء على نفس المناطق التي وعد بها الشريف . وأيا كانت رغبته في المحافظة على سلامة الحلف الفرنسي - البريطاني ، وما يدعيه المؤلف من انه لم يطلع على نصوص مراسلات الحسين - مكماهون ، فانه شارك في الخدعة الكبرى التي وقع العرب في أحابيلها والتي دفعت بريطانيا ثمنها بعد أقل من جيل ، مما مهد لزوال نفوذها في الشرق الاوسط . ونحن لا تؤيد ما ذهب اليه سير آدموند جابريل - أحد المساعدين المقربين الى كتشنر في قسم العمليات الحربية بوزارة الحرب - من أن كتشنر لم يتح له الوقت لمقارنة اتفاق سايكس - بيكو بالوعود السابقة المبذولة للشريف حسين . ربما كان كتشنر في الواقع شديد المشغولية بحيث لم يركز على هذه المسألة ، ولكن كان لديه أكثر من نصف عام بإمكانه أن يجد فيه ساعة لدراسة الوثيقة . فلو أنه كان مهتما بالتفاصيل لسنحت له الفرصة لمراجعة هذه المسألة ، خاصة وأنه حضر اجتماع لجنة وزارة الحرب (١٦ ديسمبر ١٩١٥) وكان لا يزال على قيد الحياة حين وافقت الحكومة لبريطانية على الاتفاق في ٤ فبراير ١٩١٦ ، وحين جرى ابرامه في ٢٦ مايو ١٩١٦ قبل أحد عشر يوما من غرق السفينة هاميشير التي كانت تقله الى روسيا القيصرية .

الأمزجة الحضرية العالمية *

مؤلف الكتاب / فاروق احمد مصطفى

مجلات علم الاجتماع ، والمهندسين ،
والتخطيط . ومن أهم كتب المؤلف كتاب
بعنوان « الأرض لن يزرعها : تجربة من
الجزائر في إدارة العمال » . وكتاب آخر
بعنوان « عمق التخطيط » والكتاب الذي
نعرض له « الأزمة الحضرية العالمية » نشر في
سلسلة علم الاجتماع والعالم الحديث
Sociology and Modern World
والتي يشرف عليها الاستاذ جون ريكس
John Rex . الاستاذ بجامعة ورويك
University of Warwick .

مؤلف الكتاب توماس ل. بليز سوسيولوجي
تخصص في الدراسات الحضرية . وقد قام
بالتدريس في جامعات بوسطن Boston
وكولومبيا Columbia ومتشجن Michigan
قبل ان يحضر الى انجلترا سنة ١٩٦١ ويتحمل
عبء القيام بالابحاث الخاصة بالتحضر
Urbanization في مؤسسة فورد Ford Found-
ation وزار افريقيا وامريكا اللاتينية . وهو
يشغل الان منصب استاذ ورئيس قسم
التخطيط الاجتماعي للبيئة بمعهد الفنون
التطبيقية بلندن ، ونشر كثيرا من المقالات في

Thomas L. Blair, The International Urban Crisis, Hart-Davis, London.

يقع الكتاب في مائة وست وسبعين صفحة من الحجم المتوسط ، ويتكون من ستة فصول ، فضلا عن المقدمة ، وثبت باهم المراجع التي اعتمد عليها المؤلف . ويتناول المؤلف في الفصول الخمسة الاولى من الكتاب المشكلات الرئيسية التي يعالجها وهي : الانفجار الحضري Urban Explosion ، والمناطق المتخلفة والضواحي Slums and Suburbs ، والحركة والازدحام Movement and Congestion ، التلوث والبيئة Pollution and the Environment ، والاغتراب والصراع والعنف Alienation, Conflict and Violence ، ويضع لنا في الفصل الاخير تصوره لحل هذه المشكلات وهو بعنوان « البحث عن الحلول »

Search for Solutions

ويوضح المؤلف في مقدمة الكتاب ما تعانيه المدن العملاقة التي يسكنها الملايين الكثيرة من السكان (مثل نيويورك ولندن وطوكيو وباريس وموسكو) من نمو غير مخطط للمناطق الحضرية ، وازدحام في وسط المدينة ، وتدهور في ضواحيها ، ونظام معقد للمواصلات والمرور ولا يحقق حاجات السكان ، وزيادة في المناطق المتخلفة ، ونقص في القوى الكهربائية والمياه اللازمة ، وتلوث في البيئة ، وهذا يعني ان المدن الغنية بمواردها قد تعاني من المشكلات الكثيرة والمحيرة . ويتساءل المؤلف هل هناك علاج لهذه المشكلات ؟ وهل يمكن ايقاف الانحلال والتردى في الحياة الحضرية ؟ ويجب بان ذلك ممكن لو استخدمنا اساليب جديدة ، ومارسنا افعالا عامة وخاصة تعدل من سلوكنا ، مع اجراء اصلاحات جذرية في كل مستويات الحياة حتى نستطيع ان نحقق المستقبل الانساني والاجتماعي للحياة الحضرية .

ويتناول المؤلف في الفصل الاول الانفجار الحضري ، ويرى ان الميزات الاساسية في

المدن هي وجود الصناعة ، والمهن ، وارتفاع الاجور ، واسواق المستهلكين ، واتخاذ القرارات السياسية وبعث الفنون والثقافة والاختراعات الحديثة التي تعدل من سلوكنا وطريقة حياتنا اليومية ، فالانسان الذي يستطيع ان يسيطر على بيئته ويعدل فيها . . . اصبح يبحث عن التقدم ، والتقدم المادي على وجه الخصوص يمكن ان يجده في المراكز الحضرية ، وقد كان من نتيجة الضغوط المتزايدة على التسهيلات الحضرية ان حدث انفجار ، وعجزت المراكز الحضرية عن ان تفي بحاجات سكان الحضر . ولقد نجمت الزيادة الكبيرة في سكان المدن عن ثلاثة عوامل عامة هي : الزيادة الطبيعية المطردة ، وحركة المهاجرين من الريف الى المدن ، والنمو الاقتصادي السريع المصاحب للتغير التكنولوجي . وشهدت القرون الثلاثة الماضية زيادة كبيرة في السكان وهي ما يطلق عليها اسم الانفجار السكاني Population Explosion اذ وصل عدد السكان في العالم الى ٥ بليون نسمة بعد ان كان عددهم في سنة ١٩٦٨ ٣١/٢ بليون نسمة بزيادة ١٩٪ . ويعيش اليوم ٤٠٪ من سكان العالم في مناطق حضرية ، وهذه النسبة في زيادة مطردة . وهذا الاتجاه اكثر وضوحا بين سكان العالم الثالث عنه بين سكان الدول الاكثر تقدما ، وتحمل المدن الكبرى مسئولية النمو الضخم في عدد السكان .

وتعتبر المجتمعات الحضرية تطورا تاريخيا طبيعيا للمجتمعات الانسانية ، فقد ظهرت المدن منذ عام ٣٥٠٠ ق.م وارتبط ظهورها باديان الأنهار كما هو الحال في العراق وباكستان ومصر والصين . وبمرور الوقت انتشرت المدن في البحر المتوسط وفي افريقيا وفي العالم الجديد ، ودارتبط النمو الحضري بإمكانية توفير الغذاء الضروري لسكان المناطق الحضرية ، وزادت أهمية المدن بتقدمها الاقتصادي وبزيادة قدرتها على انتاج السلع . وبمؤ الحرف وصناعة الأغذية اتجهت الملايين

منطقة الراندستاد The Randstadt في هولندا وهي تعتبر رابع مدينة متربوليتانية في غرب أوروبا بعد لندن وباريس والراين ، وتحشد في العاصمة امستردام مصادر التمويل المختلفة ، والصناعات الخفيفة والصناعات الاخرى .

وتطورت المدن الكبيرة (المتربوليتان) الى شكل آخر هو المدن العملاقة Megalopolis التي نشأت عن التقدم الاقتصادي ، والتقدم الصناعي ، والتقدم التكنولوجي ، والنمو في الاسواق التجارية . فمناطق المثلث الذهبي لأوروبا ، والذي يضم مناطق من برمنجهام ، ولندن ، وباريس ، وروكسيل ، والراندستاد ، والراين ، وبرلين ، وفرانكفورت تعد مثلاً للمدن العملاقة . والنمو والالتحام بين المدن هما سمة من سمات القرن العشرين ، وشكل جديد للحضرية . ويتنبأ المؤلف بأن العالم سيصبح في سنة ٣٠٠٠ عبارة عن خمسة أو ستة مراكز حضرية بحيث تضم المدينة العملاقة الواحدة ١٥٠٠ مليون نسمة .

وقد خصص المؤلف الفصل الثاني لموضوع ((المناطق المتخلفة والضواحي)) ويشرح في شيء من الإيجاز كيف ظهرت المناطق المتخلفة والضواحي ، ويربط بين ظهورها وبين تطور المجتمعات من المرحلة القروية الى المرحلة الحضرية وهجرة الملايين من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية بحثاً عن فرص العمل والاقامة في المدينة وقد ساعد على ذلك تقدم النمط الصناعي وتفوقه على النمط الزراعي . فكانت النتيجة الطبيعية لتركز مجموعة كبيرة من الناس في المدن أن ازداد الطلب على الاراضي الفضاء مما أدى الى ارتفاع ثمنها . وبدأ التفكير في الاستفادة من هذه الاراضي ، هل تستخدم للمصانع ؟ أم لبناء مكاتب ؟ أم للطرق أم للمدارس أم للوحدات السكنية ؟ وكلها مشروعات تحتاج الى المال . فاقامت مساكن جديدة لمواجهة مشكلة الاسكان في وسط المدينة كما اقيمت المكاتب واتجه كثير

في أوروبا صوب المدن ، وقد اعتبرت الدول الصناعية نموذجاً متكرراً ومتشابهاً ، فاستقبلت المدن هجرة أعداد ضخمة مما أدى الى مضاعفة عدد سكانها ، وباتساع المدن وزيادة التقدم الاقتصادي والتكنولوجي ظهرت المدن الضخمة (المتربولتان Metropolis) وهي مدن تضم ما يزيد عن مليون نسمة ، وتعتبر مراكز تجارية ، ومالية ، وثقافية ، وهي سمة من سمات القرن العشرين . ويعطى المؤلف امثلة لهذه المدن : كمدينة لندن التي نمت بسرعة منذ الثورة الصناعية . ففي سنة ١٨٣١ كانت المنطقة الحضرية تحتل ١٨ ميلاً مربعاً ويسكنها ١٦٥ مليون نسمة ، وبعد مائة وخمسة وعشرين سنة أصبحت لندن تغطي مساحة قدرها ٧٢٢ ميلاً مربعاً ويسكنها ٨.٢ مليون نسمة . وبعد وسط لندن مركزاً لنشاطها الاقتصادي . ففي كل يوم تتم ٨ مليون رحلة الى وسط لندن ، سواء أكانت بالمواصلات العامة أم بواسطة مترو الانفاق ، أو بواسطة المواصلات الخاصة . وفي باريس أيضاً يتم النمو والتغير بسرعة فائقة لدرجة لا تعرف معها الى أين ستصل حدودها ، فباريس اليوم تحتوى على ثلاث مدن في مدينة واحدة ، ويواجهها مشكلات أهمها حشود الناس وازدحامهم للعمل وضغطهم على حركة المواصلات . ويعاني سكان الضواحي من طول المسافة التي يجب أن يقطعوها يومياً للذهاب الى عملهم وسط طرق مزدحمة . أما طوكيو كمدينة ضخمة فإنها تنمو بدرجة كبيرة ، وهي من أغنى مدن العالم ، ولكنها مدينة المتناقضات فمصانعها تنتج أحدث المنتجات الفنية والتكنولوجية من تلفزيونات ، وترانزستورات ، وآلات تصوير ، وسيارات ولكن أكثر من ٧٠٪ من سكانها يعانون من انخفاض الدخل . وتتمتع طوكيو بأكثر شبكة مواصلات في العالم حيث تنقل يومياً ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ من الضواحي والمناطق المزدحمة وتصل قدرتها الى ثلاثة ملايين في ساعة الازدحام . ومن المناطق المتربوليتانية الأخرى

من الناس الى امتلاك مناطق وسط المدينة وشراء الاراضي . ودفع هذا الوضع الكثيرين من الناس الى الاقامة اما في مساكن غير مناسبة او هجرة هذه المساكن وبحث الاسر المتوسطة الدخل عن مساكن مناسبة ، واتجهت الى سكني الضواحي .

ويتناول المؤلف في هذا الفصل ظهور مصطلح المناطق المتخلفة منذ سنة ١٨٠٠ ، فالمناطق المتخلفة تختلف من حيث الحجم والشكل والتنظيم . وقد تكون الوحدات السكنية فيها مؤجرة او مملوكة لبعض المواطنين بعقود ملكية رسمية ، او ان تكون محتلة من قبل بعض المواطنين دون اى سند من قانون . فالمناطق المتخلفة عبارة عن مناطق اقامة ولكنها في جانبها الفيزيقي والاجتماعي لا تصلح لتحقيق الاستقرار الاسرى . فالحياة فيها مستحيلة حيث تعيش الاسر في وحدات سكنية تفتقر الى الضوء والتهوية ، والمرافق الصحية الخاصة كالحمامات ودورات المياه . ويؤدي الازدحام داخل هذه المناطق الى سوء الصحة والى الصرامات الاسرية والى انحرافات الشخصية والسلوك .

ويمكن التمييز بين اربع مناطق مختلفة لكل منها خصائص محددة بالذات ، وهذه الانواع الاربعة هي : (١) مناطق تحتوى على عمارات سكنية لا تتوفر فيها الشروط الصحية (كدورات المياه والحمامات) ، (٢) مناطق مزدحمة تقيم فيها الطبقة المتوسطة ، (٣) القرى الحضرية مثل المناطق التي يقيم فيها اليهود والزوج والعصبيات المختلفة ويطلق عليها اسماء مختلفة مثل ايطاليا الصغيرة Little Italy (٤) ثم المناطق التجارية التي يطلق عليها الغابة الحضرية Urban Jungle حيث يعيش غير المتزوجين المتعطلين او المهريين وتجارة « الترانزيت » .

وقد ربط المؤلف بين سكني الضواحي والهجرة من وسط المدينة والىها ، وبين تحقيق

ظروف تعليمية افضل وفرص عمل مجزية ، واثار الى تغيير في سلوك سكانها . وان عملية التحرك من وسط المدينة يسير سيرا مطردا حتى اضحت الضواحي منطقة لسكنى الطبقات الفقيرة التي لا تستطيع ان تدفع ايجارا مرتفعا . الامر الذى ادى الى ظهور الجيوب والمناطق المهملة والمتخلفة داخل الضواحي ايضا نتيجة للتغيرات الكبيرة التي أحدثتها التحضر الصناعي . ويشير المؤلف في آخر هذا الفصل الى أن مشكلة المناطق المتخلفة والضواحي ترتبط ارتباطا وثيقا بالاطر العام للتحضر وان حل هذه المشكلة يتطلب جهدا منظما ومركزا ومخطط من جميع الزوايا : السياسية والقانونية ، والتمويل ، والتعليمية ، والاجتماعية .

ويتناول المؤلف في الفصل الثالث موضوع الحركة والازدحام داخل المدن ، فازمة النقل في المناطق الحضرية تتمثل في ان السيارات الخاصة في مدينة كبيرة مثل لندن لا تزيد عن ٣٠٪ من مجموع عدد السيارات التي تجرى في الشوارع الرئيسية وهى لا تفي بحاجات ٨٪ من حركة المسافرين ، وهذا يعنى ان نسبة كبيرة من السكان يعتمدون في تنقلاتهم على استخدام وسائل المواصلات العامة ، وهى تحمل ضعف ما تحمله السيارات الخاصة ولكنها في حاجة دائمة الى ادخال التحسينات عليها ولا يمكن تركيز عملها في وسط المدينة لازدحامه .

وتمتد ازمة النقل والحركة الى امريكا ، بل تستفحل هذه الازمة فيها نظرا لزيادة عدد السيارات في العشر سنوات الاخيرة بمقدار ٥٠٪ . وازدحام شوارع المدن . وتلعب السيارات الخاصة دورا هاما في حركة السفر بين المدن حيث يستخدم ٨٦٪ من المسافرين سياراتهم الخاصة في رحلات طويلة تزيد على الف ميل . والسيارات في امريكا تتكلف بلايين الدولارات سنويا ، فاكثر من ٩٣ر٩ بليون دولار تصرف في شرائها ، وفي الوقود ، وفي

في عمليات التمويل والترويج لسكان لندن
واخيرا مكانا للتخلص من فضلاتهم .

وقد أجرى المجلس البريطانى للبحوث الطبية
The British Medical Research Council

الدراسات التى اثبتت ان هناك ارتباطا وثيقا
بين تلوث البيئة بغاز ثانى اكسيد الكبريت
وحالات الوفاة بين الذكور فوق سن ٤٥ لان
زيادة نسبة هذا الغاز فى البيئة تؤدي الى
احداث الوفاة . اما فى طوكيو فنجدهم
يجمعون كل يوم ما يقرب من ١٣٤٠٠ طنا من
النفايات من المناطق الحضرية ويتم حرق ثلث
هذه الكمية والباقي يتم رفعه بالسيارات التى
تمر من خلال المناطق السكانية الى خارج
طوكيو . وقد اثبتت الصور الفوتوغرافية التى
التقطها القمر الصناعى بان طوكيو تعاني من
مشكلة التلوث الجوى اكثر مما تعاني لندن
ولوس انجلوس ، ولا تصلح المنطقة الصناعية
بها لاقامة منازل جديدة نظرا لارتفاع نسبة
التلوث الجوى الناتج عن صناعة الحديد وتكرير
البتروول والصناعات البتروكيماوية .

وتقل مشكلة التلوث الجوى الناتج من
استخدام وسائل المواصلات فى موسكو عنها فى
المدن الكبيرة التى تتساوى معها فى الحجم نظرا
لوجود نظام للنقل المركزى تحت الارض وفى
الاتفاق ووجود شبكة كهربائية «للترولى باص» .

ويرى توماس بليز ان التلوث ليس مشكلة
جديدة بالنسبة للمجتمعات المختلفة ، فقد
لوث الانسان بيئته منذ ان عاش فيها ، ولكن
المشكلة تكمن اساسا فى التلوث السريع فى
المناطق الحضرية الناتج عن تغير النشاط
الانسانى ، وعن الاقامة فى مساكن قريبة من
المناطق الصناعية . بل اصبحت المناطق
المحيطة بالمدن الصناعية اوعية تلقى فيها فضلات
المجتمعات الصناعية الحضرية وقد ادى
استخدام الطاقة فى الصناعة وفى ادارة الآلات

النظافة ، والتأمين والاصلاح ، وفى اعداد
مناطق وقوف السيارات فى الشوارع واصلاح
الطرق بالاضافة الى ١١ بليون دولارا تخصص
فى محاولة التخفيف من تلوث البيئة . ويتوقف
احداث تغير داخل الولايات المتحدة فى نظام
الحركة والنقل على استخدام سيارات الاجرة ،
والاتوبيسات المحلية ، والقطارات وهى لا تزال
تمثل ٥٪ فقط من الانفاق العام على حركة
المسافرين فى الوقت الحاضر كما انها تمثل ٢٠٪
من الرحلات الى العمل حيث يستخدم الغالبية
العظمى من السكان سياراتهم الخاصة وهم
يتجهون الى اعمالهم . وتنحصر الشكوى
الرئيسية فى امريكا الان من الضوضاء وتلوث
الهواء نتيجة لحركة المرور لضخمة .

ويحصر المؤلف فى نهاية الفصل بعض المشكلات
التي تسببها عمليات النقل المرتبطة بالنمو
الحضرى مثل سوء الخدمة ، والاهمال ،
والازدحام والضوضاء وقلة الراحة وكثرة
نسبة الاصابات الناتجة عن حوادث السيارات
حتى وصلت هذه النسبة فى امريكا (عشرة امثال
ضحايا فيتنام) . ويعرض بعض الحلول لهذه
المشكلات ومنها استخدام الطرق العلوية فى
عملية النقل الكثيفة واعادة تخطيط حركة
النقل الحضرى باعتبارها نسقا كليا والا تلجأ
الى الحلول الجزئية التى تؤدي الى النهاية الى
تعطل المدن وخلق الاختناقات فى الطرق وصعوبة
الحركة .

وقد افرد المؤلف الفصل الرابع لموضوع التلوث
والبيئة ، والتلوث بوضوح هو افساد الانسان
للبيئة الطبيعية بما يهدد صحته . وينتج
التلوث من المواد الضارة المتخلفة عن الصناعة ،
ومن النفايات الزراعية ، وفضلات المنازل ،
والسوائل السامة ، والغازات ، والضوضاء ،
والحرارة والطاقة ، ومخلفات الاسمدة وغيرها .
فكثيرا ما يتخلص الانسان من نفاياته بالقائها
اما فى البحار او فى الانهار ، فعلى سبيل المثال
يعد نهر التيمز وروافده ممرا ملاحيا ويستخدم

والماكينات في الاستخدامات الاستهلاكية الاخرى ان زاد تلوث البيئة بغاز ثنائي اكسيد الكبريت الناتج عن الاحتراق . فتلوث البيئة في زيادة مستمرة وستضاعف نسبته في الولايات المتحدة الامريكية في سنة ٢٠٠٠ عنها في سنة ١٩٦٠ نتيجة مباشرة لزيادة استخدام السيارات وتقدم الصناعة ونمو استخدام القوى الكهربائية .

لهذا كله يعتبر موضوع التلوث الحضري من الموضوعات التي تثير القلق لدى رجل الشارع العادي ولا يمكن تجاهلها خصوصا في وجود جماعات المحافظة على البيئة ، ولجان المواطنين التي اتخذت كثيرا من الاجراءات والترتيبات ضد التلوث وساعدت في اصدار التشريعات ضد السيارات التي تتصاعد منها الادخنة ، والمصانع ، ونظرا لان المراكز العلمية قد اثبتت ان ٦٠٪ من التلوث ناتج عن استخدام الوقود في الصناعة وفي الأغراض المنزلية ، ولذا فان المؤلف يقدم بعض المقترحات الخاصة بتغيير مصادر الطاقة المستخدمة باستخدام الوقود الجاف وادخال بعض العمليات الكيماوية للتخلص من غاز ثنائي اكسيد الكبريت ، وتغيير شكل الاحتراق والتدفئة المنزلية باستخدام التسخين المركزي ، وكلها امور ليست سهلة التنفيذ .

ويتعرض الفصل الخامس لموضوع الاغتراب والصراع والعنف فقد دفع الانسان التكلفة الحقيقية للتغير الحضري السريع ، في شكل التضحية بالعلاقات الاجتماعية القوية والانماط الثقافية السائدة كما دفعها في شكل قلق دائم ورعب مستمر في حياة المدنية .

هناك الان ازمة في شخصية انسان المدينة واهم امراض المجتمعات الحضرية التي يعاني منها سكان المدن نتيجة صراع القيم ، فكل مرحلة من مراحل نمو المدن وتطورها تصيب البناء الاجتماعي وتسبب المشكلات الكثيرة كالعزلة والصراع الاجتماعي ، والفرع وكلها

مصاحبة لعملية التغير . فالمجتمع البريطاني يعاني من مشكلات كثيرة ، منها معارضة الطلبة للمكانة التي يحتلها القلة ، والمناداة برفض دفع الضرائب ، وارتفاع نسبة الجريمة ، وظهور السطو المسلح على البنوك وهي كلها دلالات على تصدع البناء الاجتماعي . وقد عانت اليابان وخصوصا عاصمتها طوكيو من كثير من امثال هذه المشكلات ففي دراسة قامت بها الجمعية السيكولوجية بها اعلنت بانه في الوقت الذي اصبحت فيه طوكيو اهم مراكز الاختراعات والتحول الحضرية الضخمة الا ان التقاليد الاجتماعية والبناء الاجتماعي القديم لها قد تم تدميره نهائيا كما ظهرت حالات كثيرة من تصدع الابنية الاجتماعية في المدن الكبرى ، شملت مجموعة القيم الاجتماعية والانشطة الاجتماعية الاخرى التي تحدد الوجود الاجتماعي لهذه المدن في الوقت الحاضر .

ويرى المؤلف ان المجتمع الحضري قد قسم الفرد الى ادوار مختلفة وجعله امام منافسة قاسية للحصول على المكانة الاجتماعية التي قد يؤدي الفشل في الحصول عليها الى حالة مرضية لما يصاب به الانسان من احباط . وقد ادى تقسيم العمل الى جعل العمال اكثر مهارة ولكنهم اقل حبا للصناعة . وتركز الامراض النفسية والعقلية في وسط المدينة ، وغالبا ما تصيب الفقراء الذين ينتقلون من مكانة اجتماعية الى اخرى في السلم الاجتماعي والاقتصادي . فيعانون من امراض نفسية وجسمية ، ويتناولون الحبوب المهدئة ، ويدخنون بشراهة ، ويتناولون الخمر بهدف اراحة اعصابهم . وعلى العموم فان انسان الحضرة يعاني من الانفصام - على حد تعبير فرويد Erik From وكارن هورني Karan Horney الذي يرجع الى صراع القيم ، الصراع القائم بين الذات والمجتمع ، والحرية والسلطة ، والمنافسة والحب ، وبين الماديات والمعنويات .

وكيفية التخفيف عن سكان المدن وامتصاص غضبهم من الازدحام المتزايد ؟ وكيفية مواجهة مشكلة تنمية المناطق الحضرية في المدن الضخمة ؟ هل عن طريق اصدار مجموعة من القوانين تنظم استعمال الاراضي ؟ هل عن طريق توفير الخدمات الاجتماعية ؟ هل عن طريق الاستخدام المناسب للكمبيوتر ؟ وحاول بلير ان يجد اجابة لبعض هذه التساؤلات . فبالنسبة لمواجهة مشاكل الازدحام ونقل الحشود داخل وخارج المدن ، يرى انه يجب الاستفادة من السرعة ، وتوفير الامن والراحة في خدمات النقل لمجموع المواطنين وكذا تنظيم سير السيارات والمركبات الاخرى في الشوارع والاستفادة من الاختراعات الجديدة في نقل المجموعات كما حدث في سنتياجو Santiago وكلكتا Calcutta فاستخدمت قطارات حديثة تحمل حوالي ٣٠٠.٠٠٠ مسافر في الساعة بسرعة تصل الى ٨٠ ميل/ساعة بالإضافة الى وسائل النقل الاخرى السريعة والحديثة « كالمترو » في المدن الاوروبية والتي تستطيع ان تنقل ٢٥٠.٠٠٠ راكبا وتسير بسرعة ٥٠ ميل/ساعة .

وبالنسبة لتنمية المدن والقضاء على الاحياء المتخلفة ، يرى ان تجربة انشاء مدن جديدة في بريطانيا تعد حلا مؤقتا لان مشكلات المدن القائمة تنقل الى المدن الجديدة فلا يزال هناك ١٨ مليون يسكنون في مناطق متخلفة من المدن ، ويجب توفير المساكن الملائمة لهم ، وستفاقم المشكلة في سنة ١٩٨١ حيث يحتاج مليون مواطن الى السكن . كما ان عملية اعادة اصلاح المناطق القديمة لا يمكن الاعتماد عليها دون بناء مدن جديدة تتطلب كثيرا من التكلفة في البناء .

ويقترح المؤلف حلا للمدن القائمة يتلخص في الاتجاه الى التخطيط للمدينة الضخمة ، عن

وبالرغم من ان المجتمع الحضري مجتمع ضخم في نظامي الانتاج والتوزيع الا انه يعاني من سوء توزيع الدخل القومي وفرص التعليم ، والملكية ، والمكانة الاجتماعية ، والقوى السياسية ففي المجتمع الامريكي مثلا نجد ان ٥٠٪ من الاسر الامريكية تحصل على ٥٪ من الدخل القومي الكلي ، بينما ٢٠٪ اخرى تحصل على ٤٥٪ من الدخل . وبالنسبة للتعليم الجامعي لا تستطيع الحصول عليه الا الاسر التي يزيد دخلها السنوي عن ١٥.٠٠٠ دولارا بيد ان ٤١٪ من السكان من متوسطي الدخل ودخلهم يقل عن ٣.٠٠٠ دولار سنويا ، ولا يستطيعون الحصول على التعليم الجامعي . وهذا يعني ان هناك الملايين التي تعيش في الحضر حياة الفقر القاسية ، وتعيش على دخول غير آمنة وغير كافية ، وتنتظر باستمرار ادخال التحسينات على دخولها .

وتعاني المدن من انتشار الجريمة بشكل عام والتي ترجع الى الثقافة الحضرية . فمناطق الاجرام في المدينة تحوى اوكر القمار، والبغاء ، والخمر ، وتشهد ازدياد جرائم القسوة والقتل والسرقة وكلها جرائم ترتبط بالمجتمعات الفقيرة وفي المناطق المتخلفة ومناطق الزنوج في امريكا . هذا فضلا عن فرص ضئيلة امام الملايين تتمثل في مسكن سيء ، وبيئة قاسية ، واحوال اسرية بائسة ، وفرص عمل قليلة الاجر ، وهجرة اضطرارية للاحقة فرص العمل مما ادى الى ظهور حركات العصيان بين الطلاب والشباب المتعطل . وفي هذا يرى المؤلف ان الصراع الاجتماعي والعنف ناتج عن النظام السياسي وفشله في توزيع المنافع بطريقة عادلة .

اما الفصل السادس وهو بعنوان « البحث

عن حل » فقد خصصه المؤلف لاثارة عدد من التساؤلات التي تواجه السياسيين والمخططين في العالم بالنسبة للمدن الحضرية ، مثل كيفية تنظيم مسألة الاستفادة من الاراضي الفضاء ؟

صنع القرارات مع السياسيين . واخيرا فان الجهود التي تبذل في المجتمعات الحضرية تعتمد على التكامل التكنولوجي من اجل تخطيط التصنيع والتحضر والاستفادة من المصادر المتاحة ، واستخدام الوسائل والابتكارات والاختراعات الجديدة سريعة الفاعلية ، وهذا يفرض علينا دائما احداث تغيير في نظمنا السياسية والحكومية والتعليمية ، بل قد يمتد هذا التغيير الى نسق المعتقدات والقيم .

والكتاب بما يشي به من مشكلات تعاني منها المجتمعات الحضرية ، يلقي - في الواقع - الضوء على ميادين جديدة للدراسات السوسولوجية والانثروبولوجية ويجب الا تقتصر هذه الدراسات على توضيح اثر الظروف والاوزاع الاجتماعية الحضرية وتأثيرها على سلوك سكان المدينة ومعالجة مظاهر السلوك الانحرافي بل المجتمعات الحضرية دراسة مركزة وهذا ما نجحت فيه بالفعل الدراسات الانثروبولوجية الجديدة التي اتجهت عدة اتجاهات ربما كان اهمها الاتجاه الذي يعني بدراسة المجتمعات المحلية Locality Communities داخل مجتمع المدينة وتحديد القوى التي تؤثر في هذه المجتمعات . ويمكن ان نشير في هذا الصدد الى الدراسات التي قام بها انتوني ليدز Anthony Leads للمجتمعات المحلية في البرازيل والتي تطلق عليها مصطلح الـ « فافلا » Favela ودراسة بيتر لويد Beter Loyd عن الحضرية في نيجيريا ، ودراسة اوسكار لويس Oscar Lewis عن الحضرية في المدن المكسيكية ، ودراسة روبرت سميث Rober Smith للمدينة اليابانية وغيرها من الدراسات الحضرية التي استفادت من نتائج الدراسات الانثروبولوجية للمجتمعات التقليدية وفي تطبيق المناهج الانثروبولوجية المتطورة في دراسة المجتمعات المركبة والمعقدة التي كانت الى عهد قريب قاصرة على الدراسات السوسولوجية والسكولوجية .

طريق اقامة مناطق تحيط بالمدن الحالية وتضم اليها الضواحي والمدن الجديدة وتنمية المناطق الريفية المحيطة والقريبة منها ويشير الى الصعوبات التي تواجه هذا الحل من التجربة الامريكية بالنسبة للمناطق « المتربوليتانية » المخططة . وهي شعور المواطنين بالعداء والخوف من سيطرة المدنية على ممتلكاتهم ومحو الشخصية المستقلة لهم وفرض سياسة .

ويجب المؤلف عن التساؤل الخاص بمستقبل الحضرية ، ويرى ضرورة التخطيط لمستقبل المناطق الحضرية ولكن تتم عملية التخطيط لا بد من اتاحة الفرصة للمخططين المتخصصين لتحمل المسؤولية ومشاركة السياسيين والاداريين في مواجهة حاجات المواطنين ، واهتمامهم في نفس الوقت بالمستقبل الحضاري للمناطق الحضرية . ويجب ان يسير الاهتمام بمستقبل الحضرية متوازيا مع نمو مجموعات التكنولوجيين المدربين تدريباً على درجة عالية من الكفاءة حتى يمكن الاستفادة من تنظيم وادارة وتوجيه النظم الاجتماعية والحكومية ، والاستفادة من الصناعة ومن الامكانيات المتاحة . ويجرنا موضوع مستقبل التخطيط الحضري الى الاهتمام بموضوع التخطيط نفسه وتوضيح عمليات التغير التي تحدث في المدن ، وتوزيع الخدمات الاجتماعية على المواطنين ، وتوسيع مجالها ، والقرارات الجماعية الخاصة بزيادة الرفاهية لكل من يعيش في المدينة .

وينهي المؤلف هذا الفصل بتوضيح موقف الناس من التخطيط ، واهتمام بعض الجامعات بتدريس التخطيط للمواطنين الذين يرغبون في تقديم خدماتهم للاسهام في تخطيط المجتمعات . وقد حدث تغيير في الابنية التخطيطية نتيجة لزيادة معرفة المواطنين بأسس التخطيط ومطالبتهم بالمشاركة في

للغالبية المغلوبة عجاى امرها

عرض الكتبة / فتحيته محمد ابراهيم

اشكالا مظهرية تحولها وسائل الاعلام الى مادة
للتندر والسخرية ، مما يسىء الى قضية
المرأة .

وتحاول المؤلفة فى هذه الدراسة ان
توضح اولا زيف الصورة الشائعة عن المرأة
الامريكية، وتظهر الواقع الذى تعيشه مهضومة
الحقوق ، محرومة من تكافؤ الفرص مع
الرجال ، ثم تتساءل عن السبب فى استمرار
اضطهاد النساء الأمريكيات بالرغم من انهن

تناقش المؤلفة كريستين اموندسين، الاستاذة
المساعدة بكلية ساكرامنتو بجامعة كاليفورنيا ،
قضية تحرير المرأة الامريكية فى هذا الكتاب
الصادر عام ١٩٧١ ، والذى يبدو انه جاء
حصيلة لكل خبرتها العملية خلال ممارستها
للعمل السياسى ، فى اطار الحركات
النسائية فى امريكا ، وهى لذلك تنقد
استراتيجية بعض هذه الحركات فى المطالبة
بحقوق النساء ، على اساس انها تتخذ احيانا

KIRSTEN AMUNDSEN THE SILENCED MAJORITY, Prentice — Hall, Inc., New
Jersey 1971.

يمثلن أغلبية السكان (٥٣ ٪) ، وتحاول
الاجابة من خلال عرضها لابعاد قضية المرأة ،
فتربط بينها وبين البناء الاجتماعى القائم الذى
تسيطر فيه صفوة قليلة على كل منابع القوة
الاقتصادية والسياسية ، ومن مصلحتها ان
تبقى العاملات فى وضعهن الحالى ليستمر
استغلالهن اقتصاديا ، مما يضيف ملايين
الدولارات الى ارباح الشركات الرئيسية ، كما
تربط بينها وبين الايديولوجية السائدة فى
المجتمع ، والتي تضع للرجل نموذجا للشخصية
يقوم على سمات القوة والتحدى وحب
المنافسة ، فى حين تضع للمرأة نموذجا يقوم على
السلبية والوداعة والاذعان ، وتتطلب منها الا
تخرج عليه ، والانظر الآخرون اليها على أنها امرأة
مسترجلة ، ويتشرب الذكور والاناث هذه
الاتجاهات من خلال عملية التنشئة الاجتماعية
لتمهد بعد ذلك لقبولهم للاشعورى ، لعملية
الاضطهاد الجنسى ، على أنها مسألة طبيعية
تفرضها الاختلافات القائمة بين الجنسين .

ويشتمل الكتاب على ثمانية فصول يتحدث
أولها عن المرأة الأمريكية بين الاسطورة والواقع ،
والثانى عن الوضع المختلف للمرأة ، والثالث
عن الاضطهاد الجنسى ، والرابع عن المرأة
الأمريكية و منابع القوة ، والخامس عن الوجوه
الآخري ل منابع القوة ، والسادس عن ايديولوجية
الاضطهاد الجنسى ، والسابع عن الديمقراطية
والضحايا الآخرين ، والثامن عن المجتمع
المتحرر .



تحدث المؤلفة فى الفصل الاول عن الصورة
الشائعة للمرأة الأمريكية كما تظهرها الصحف
اليومية والمجلات والافلام السينمائية
والسلسلات الاذاعية والتلفزيونية والاعلانات ،
والتي تبدو فيها شابة حسنة رقيقة انيقة تقضى
معظم وقتها فى كل ما يزيد جاذبيتها فى عين
الرجل ، فشغلها الشاغل هو ادخال البهجة
على قلب الرجل الأمريكى ، الذى يهوى لها

بدوره الفراغ الكافى والمقدرة المالية التى
تساعدنا على ذلك ، واذا تناولها الحديث ،
كربة بيت او كام ، فان بيتها يبدو دائما زاهيا
جلابا ، تزدحم فيه كل الاجهزة الآلية الحديثة
التي تجعل من العمل المنزلى عملية سهلة
لا تستلزم الا اقل جهد ممكن ، وفى مقابل هذه
الصورة المشرقة توجد عنها صورة أخرى
مغايرة يتناولها الرجال فى احاديثهم الخاصة ،
ومزاحهم المتبادل وتعليقاتهم على الحركات
النسائية الراهنة ، تبدو فيها على أنها تلك
الانثى الانانية البخيلة المدبرة للمكائد ، التى
تسيطر على مقاليد الامور ، لا من خلال
جهدا او انجازها الخاص ، وانما من خلال
الآخري .

وتظهر وسائل الاعلام من ناحية أخرى
صورة الرجل الأمريكى على انه دائم السعى
وراء المرأة ، وان حرصه على ارضائها يدفعه
دائما الى اختيار العديد من الهدايا ذات القيمة ،
وتستغل شركات الاعلان هذا الوضع الغامض
بين الجنسين من اجل تأكيد فكرة ان المرأة
مخلوق مادي لا تنتهى مطالبه ، ويرغب دائما
فى كل ما يثير البهجة فى نفسه ، وان خير ما
يفعله الرجل لكى يضمن تعلقها به هو أن يشبع
لديها هذه الرغبة ، وتواجه المرأة الأمريكية
العاملة ، وهى تشق طريقها فى الحياة بصعوبة
بالغة نتيجة هذا الخليط من الصور المختلفة
لشخصية المرأة ، لانها ان اظهرت نشاطا
ورغبة فى تأكيد ذاتها اتهمت بالميل الى السيطرة
والعدوانية ، وان اظهرت وداعة ودماثة
واستجابة لكل مطالب العمل لم تجد فرصتها
الكافية فى الترقى كالرجال بدعوى انها تفتقد
الطموح الكافى ، ومن هنا كان رد الفعل الغالب
لديها هو الانسحاب الصامت من المنافسة
والتقبل السلبي لما يفرض عليها ، وهذا من
شأنه اشباع غرور الرجال وزهوهم ، بالدور
الذى اخذوه لانفسهم ، وهو حماية المرأة
الضعيفة والوقوف فى وجوه النساء المتمردات
او المسترجلات .

الى تحركها في مجال محدود من الوظائف المعينة .

وقد ساعد وجود هذا الوضع الاجتماعي السيئ للمرأة على انتشار دعاوى المساواة في السبعينيات من هذا القرن مع زيادة نشاط الحركات النسائية ودعوتها الى انهاء استغلال ٥٣٪ من المواطنين الامريكيين ، وتوضح الكاتبة ان كل النواحي المتصلة بهذا الموضوع ترتبط في النهاية بالبناء السياسي للمجتمع الأمريكي، بحيث يمكن القول ان تغير العلاقة بين الجنسين انما يتم من خلال العمل السياسي تماما كتغير العلاقة بين الطبقات الاجتماعية او بين الطوائف العنصرية ، وهي تستند في ذلك الى مبررات منها ان بالامكان ، من خلال السياسة ، الوصول الى تعديل القواعد والتشريعات المحددة للاجور وظروف العمل حتى تساعد النساء - والرجال ايضا - على تنمية واستغلال كل ما لديهم من قدرات ومهارات ، بالاضافة الى ان السياسة هي التي تستطيع تغيير النظم والظروف الاجتماعية التي تؤثر في تشكيل شخصيات الافراد ، ومن خلالها ايضا يمكن اعادة بناء القيم وتغيير الاساليب النمطية التي تعوق حاليا ادراك المرأة لدورها الحقيقي وحاجاتها الاساسية .

وتواصل الكاتبة في الفصل الثاني القاء الضوء على وضع المرأة في المجتمع الأمريكي ، فتعالج موقفها بالنسبة لثلاثة عوامل اساسية تحدد التدرج الاجتماعي وهي الطبقة والمكانة والقوة ، ومدى تأثير ذلك بالنسبة لفرصتها في التحرك الاجتماعي ، وتبدأ بالقول بأن مثل هذه الدراسة لم تنل حظها الكافي من الاهتمام، نظرا للاعتقاد الشائع بأن النساء مرتبطات بالرجال كزوجات او بنات او امهات او اخوات، ولا حاجة بالتالي الى البحث في هذا التدرج على اساس النوع ، والنتيجة الطبيعية لذلك هي حرمان المرأة العاملة من الشعور بالانتماء الى زمرة اجتماعية ، لها سماتها المميزة ، ولها

وتحتاج المعالجة الموضوعية لمشكلات المرأة الى التخلص بصفة مبدئية من تلك الاساطير التي سيطرت منذ وقت طويل على الازدهان بالنسبة لكل ما يتعلق بالنساء ، كميلهن الى الحياة السهلة ، وحاجتهن الى الحماية ، وشعورهن بالنقص امام الرجال . ويمكن الاستعانة بالاحصائيات الواقعية من اجل ضحد العديد منها ، فهناك مثلا اكثر من ٣١ مليون امرأة امريكية خرجن الى ميدان العمل ويمثلن حوالى ٤٠٪ من مجموع القوة العاملة حسب احصاء ١٩٧٠ ، وعندئذ يمكن ان نتساءل : هل تعمل هذه النسبة الكبيرة من النساء للذة العمل وحدها ام بدافع من الضرورة الاقتصادية ايضا ؟ الا تساعد دخولهن المتواضعة في زيادة دخل الاسرة ككل ؟ الاحصائيات تؤكد ان ما يقرب من ٢٠ مليون امرأة تقل دخول أزواجهن عن المستوى اللائق ، او يعلن صفارا او عائلات باكملها ، او لم يتزوجن بعد ، او من المطلقات او الارامل ، او المنفصلات عن الأزواج ، وان ٢٤ مليون امرأة منهن يقعن ضمن فئة الفقراء في الولايات المتحدة ، ويعلن في نفس الوقت ٥٤ مليون طفلا . اما الباقيات ، وهن حوالى ١١ مليون امرأة عاملة ، فلا تزيد الطبقة ذات الدخل العالية منهن عن ١/٢ مليون امرأة . اما اغلبهن فعاملات تعملن دخولهن فوق حد الفقر ، ولا تصل في نفس الوقت الى الحد الذي يعتبره الاقتصاديون في امريكا ميسرا ، بمعنى ان عليهن ان يبقين في العمل حتى لا ينخفض الدخل في أسرهن تدريجيا الى حد الفقر ، هذا بالاضافة الى ملايين النساء اللاتي لا يجدن أزواجا او اعمالا يتعيشن منها ، فالمعروف ان ثلاثة ارباع المستفيدين من المعونات الاجتماعية في المدن الرئيسية هم من النساء ، فاذا اضعفنا هذا النموذج كذلك الى النماذج السابقة ، لبدا لنا وجه المرأة الامريكية مختلفا تماما عن ذلك الوجه الذي يطل عليها من وراء الشاشة الصغيرة في سهرات التليفزيون ، فهي تعمل نفس ما يؤديه الرجال، ولكن اجرها وترقياتها اقل منه ، بالاضافة

قدرتها على العمل السياسى من اجل تصحيح الاخطاء القائمة . « وما من شك فى ان تزايد هذا الوعى بحقوق المرأة يمثل المقدمة اللازمة لتحريرها » (ص ٢١) ، وتؤيد الكاتبة رأيها هذا بالكشف عن التناقض القائم بين الشعارات الديمقراطية المنادية بأن لكل فرد الحق فى تحقيق كل امكانياته وقدراته والاستفادة منها، وبين الواقع الذى يؤكد ان فرص المرأة ومكاسبها اقل بكثير من نصيب الرجل الذى لا يريد عنها من حيث القدرات والامكانيات ، وهي تستعين بالاحصائيات التى تثبت ان هناك امريكا اخرى «غير منظورة» تضم تلك الجماعات والاقليات التى تطالب بحقوقها فى المساواة ، وتشكل النساء اكبر هذه الجماعات ، ولا يمكن الاعتراض على ذلك بان اجورهن المنخفضة او فرصهن المتواضعة فى مجال العمل لا تؤثر على اوضاعهن الطبقيّة ومراكزهن الاجتماعية ، على اساس انها تضاف الى الاجور العالية التى يحصل عليها ازواجهن او آباؤهن ، فقد اوضحنا من قبل ان نسبة كبيرة من النساء العاملات يعلن اسرا كاملة ، او على الاقل يعلن أنفسهن ، ويمثل دخل الاسرة فى هذه الحالة ثلث دخل الاسرة العادية ، ولهذا فان افراد هذه الاسر كانوا يمثلون ربع فقراء الولايات المتحدة حسب احصاء ١٩٦٦ ، كما ثبت ان معدل عدد النساء الفقيرات والافراد المرتبطين بهن قد زاد خلال عشر سنوات فى المدة من ١٩٥٩ الى ١٩٦٨ بنسبة ١٥ ٪ ، وهذا راجع الى تزايد نسبة الطلاق والانفصال فى المجتمع الامريكى ، وتعرض النساء فى مثل هذه الحالات لظروف اجتماعية غاية فى الصعوبة ، تجعل من الظن الشائع بأن السيدة المطلقة او الارمل تتخفف من كثير من اعباء الزوجة العادية مجرد اسطورة لا اساس لها من الواقع .

وهناك تفسير اساسي لنقص دخل المرأة بالنسبة للرجل ، وهو نوع الاعمال المتاحة امام كل منهما ، فاكثر من ٦٤ ٪ من النساء يعملن حاليا فى مجالات السكرتارية والاعمال الكتابية الاخرى والخدمات والمبيعات وهي جميعا تدر

دخولا متواضعة نسبيا ، فى حين يكاد يستقل الرجال بالاعمال الاخرى الاكثر اهمية ، ولكن هذا التفسير لا يشكل تبريرا لهذا التفاوت ، لان السؤال المطروح هو : هل يرجع السبب فى ذلك الى عدم توفر الامكانيات لدى النساء لاداء مثل هذه الاعمال الهامة ؟ يدل على خطأ هذا الاجتهاد تلك النسب العالية من النساء العاملات فى مجالات الطب والهندسة وغيرها فى الدول الاخرى ، ففي الاتحاد السوفيتي مثلا تشكل النساء نسبة ٧٥ ٪ من الاطباء ونسبة ٨٣ ٪ من اطباء الاسنان ونسبة ٢٨ ٪ من المهندسين ونسبة ٣٨ ٪ من العلماء، فى حين انها فى الولايات المتحدة ٦٥ ٪ و ٢٠ ٪ و ١٢ ٪ و ٧ ٪ فى نفس التخصصات السابقة على التوالي ، وليس هناك بالطبع من يفسر ذلك على اساس قدرات المرأة الروسية اعلى من مثيلتها لدى المرأة الامريكية ، وانما يكمن التفسير فى ذلك التقسيم الاجتماعى للمهن بين الرجال والنساء ، والذي لا يمكن اعتباره تقسيما طبيعيا على الإطلاق . والفريب ان كثيرا من الاعمال الحرفية الدقيقة التى يحتكرها الرجال تحتاج الى مهارات يدوية لا تختلف كثيرا عما تقوم به النساء بالفعل عند الكتابة على الآلات الكاتبة او الاجهزة المماثلة ، واذا اخذنا التعليم كمتغير يوضح مدى الكفاية لدى النساء بالنسبة لمجالات العمل المختلفة لوضحت لنا حقيقة مدهشة ، وهي ان نسبة سنوات الدراسة التى قضتها النساء العاملات اعلى من نفس النسبة لدى الرجال العاملين (ص ٣٥) وبالرغم من ذلك توضح الاحصاءات ان المرأة المؤهلة تأهيلا جامعيًا يقل دخلها السنوي عن الرجل الذى أنهى تعليمه الابتدائي فقط، وذلك بسبب تعدد الفرص المتاحة امامه لزيادة دخله .

ومما يؤكد قيام التحيز الاجتماعى ضد المرأة بالنسبة لتوليها اعمال الادارة ما يحدث مثلا فى مجال التعليم ، فاذا صرفنا النظر عن ان نسبة العاملات من النساء فى المرحلة الابتدائية ، وهي ٨٥ ٪ بالنسبة للرجال تهبط فجأة فى المرحلة الثانوية الى ٥٧ ٪ وحصرنا

والنساء الامريكيين وانما هي نسق من العلاقات القائمة على السيطرة والخضوع، له ايدىولوجيته الخاصة التي تتدعم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، وهذا لا يعني وجود تخطيط مقصود لاماعة تقدم المرأة ، وانما تتجلى خطورته في ان كلا من الجنسين يتشرب خلال عملية التنشئة دعوى ان المرأة مكانها الطبيعي هو البيت ، وانها اقل ميلا الى التفكير العقلي واكثر تأثرا بالنواحي الانفعالية من الرجال ، ومن ثم تصبح انماط السلوك المعبرة عن الاضطهاد الجنسي في غير حاجة الى اختيار مقصود من الافراد ، بل تتم بصورة تلقائية تبعا للاختبارات التي رتبها من قبل عملية التنشئة ، فالنساء كقوة عاملة - بالرغم من ضخامة عددهن - ما زلن ينظر اليهن كجماعة عاملة هامشية ، فصاحب العمل او مديره يبدأ بالنساء في عمليات الاستغناء عن العمال ، كما يستدعيهن للعمل الموسمي لكي يتجنب كثيرا من الابعاء المالية التي تدفع للعمال الدائمين ، ويلاحظ ان الاستغناء عنهن يتم غالبا في شهر نوفمبر ، اى قبل الاعياد العديدة خلال شهري ديسمبر ويناير ، وهكذا تمثل النساء العاملات قوة عاملة مدربة احتياطية يلجأ اليها ارباب العمل لمضاعفة ارباحهم من خلال التشغيل الموسمي لهن ، وهذا ما يشكل الواجهة النفعية لنسق التمييز الجنسي بين الرجال والنساء ، ويؤدي الى تعميق الهوة بين الجنسين في مجال فرص العمل ، ولندع الأرقام توضح : ففي عام ١٩٤٠ كانت نسبة العاملات في مجال الخدمات ٤٠.١٪ فارتفعت في عام ١٩٦٨ الى ٥٧٪ ، وخلال نفس المدة ارتفعت ايضا نسبة العاملات في الاعمال الكتابية من ٥٢.٦٪ الى ٧٢.٦٪ وارتفعت نسبة العاملات في مجال المبيعات من ٢٧.٩٪ الى ٣٩.٧٪ ، ولكن في مقابل ذلك انخفضت نسبة العاملات في المجالات الفنية والمهنية من ٤٥.٤٪ عام ١٩٤٠ الى ٣٨.٦٪ عام ١٩٦٨ وهذا يوضح ان الاضطهاد الجنسي يعبر عن نفسه بطريقتين : **اولاهما** توجيه تلك القوة المتزايدة من النساء العاملات الى المجالات الاقل اجرا والادنى قيمة من

اهتمامنا في المرحلة التي تسود فيها الغالبية النسائية، فان الوضع يبدو غريبا بالنسبة لتولى المرأة ادارة هذه المدارس الابتدائية ، ففي عام ١٩٢٨ كانت نسبة المديرات ٥٥٪ ثم هبطت عام ١٩٤٨ الى ٤١٪ ثم الى ٣٨٪ عام ١٩٥٨ ثم الى ٢٢٪ عام ١٩٦٨ ، وهذا يعني ان الرجال الذين لا يشغلون سوى ١٢٪ من هيئات التدريس يحصلون على نسبة ٧٨٪ من المراكز الادارية ، هل يمكن تفسير ذلك الا عن طريق القول بأن اصحاب حق الاختيار لشغل هذه المراكز في المجالس المحلية والتعليمية المختصة هم من الرجال ؟ ان خطورة هذا الوضع تتمثل في ان مجال التدريس الذي طرقت المرأة منذ وقت طويل ، وما زالت تقبل عليه بأعداد كبيرة ، لا يفسح لها سوى فرصة محدودة من التحرك الاجتماعي ، مما يشير الى مدى التحيز الكامن في البناء الاجتماعي ذاته .

توضح الكاتبة في **الفصل الثالث** مدى التشابه القائم بين اضطهاد السود واضطهاد النساء في امريكا فكلا الطائفتين ينظر اليهما على انهما اقرب الى السمات الانفعالية للاطفال ، واقل في مستوى الذكاء مما يعوق القدرة على الابداع وتحمل المسؤولية ، ويسهل الميل الى الجنوح والى الانغلاق في حدود العمل الروتيني المعتاد الذي لا يحتاج الى قدرات ادارية خاصة ، واذا كانت الجهود المتواصلة ضد التفارقة العنصرية قد اثمرت ولم يعد هناك من يجاهر بتلك الادعاءات ضد الزوج ، فان النساء لم يجدن بعد الحماية الكافية من هذا الاضطهاد . فقد انخفضت مثلا نسبة العاطلين الزوج من ١٢.٨٪ عام ١٩٦١ الى ٢.٦٪ عام ١٩٦٨ وبالنسبة للعاطلات الزوج من ١١.٨٪ الى ٨.٣٪ في نفس الفترة في حين كانت نسبة العاطلات من غير الزوج عام ١٩٦٩ ضعف نسبة الرجال العاطلين ، هناك اذن ما يمكن ان نسميه اضطهادا جنسيا Sexism ونعبر به عن تلك الضغوط الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تعمل على تعطيل تقدم النساء ، وهي ليست مجرد ظاهرة قائمة في عقول الرجال

الناحية الاجتماعية ، وثانيهما تقليل فرص وصولهن الى مراكز القيادة حتى في المجالات التي يعملن فيها الى ادنى حد ممكن ، ولكن من المستفيد من ذلك ؟ ومن الذي يهتم ابقاء هذا الوضع ؟ انهم ولا شك اولئك الذين بيدهم اتخاذ القرارات ، فهم وحدهم الذين ينبغي الالتفات اليهم عندما نود التغيير ، وعندما نود العثور على السبب في عدم حدوثه حتى الان .

لقد اثبتت احدى الدراسات ان ارباح الشركات الصناعية عام ١٩٥٠ الناتجة عن فروق الاجور المخفضة للنساء بلغت ٤٠٠ مليون دولارا ، او ما يمثل ٢٣٪ من جملة ارباحها ، كما اوضحت احصائيات عام ١٩٧٠ ان فروق الاجور المستحقة لعدد ٥٠٠٠٠٠ عاملة بلغت ما يزيد عن ١٧ مليون دولارا ، ولو ان اجورا مخفضة واوضاعا عمالية كهذه كانت من نصيب الرجال لكانت النتيجة مريدا من الاضرابات والاجتجاجات والتنظيمات ، ولكن النساء شيء آخر ، وابعادهن دائما عن مراكز القوة الرئيسية يسمح باستمرار هذا الاستغلال للجانب الاكبر من القوة العاملة في المجتمع لصالح تلك الصفوة من ارباب العمل دون سواهم . (ص ٥٩) .

تعالج الكاتبة في الفصل الرابع موقف المرأة من احد منابع الرئيسية الاخرى للقوة في المجتمع الامريكي وهي المجالس التشريعية والتنفيذية سواء على المستوى القومي او الولايات والمحليات ، ففي هذا المجال السياسي تمثل النساء قوة لا يستهان بها في عمليات التصويت ، اذ يبلغ عددهن ٣٣٪ من مجموع الاصوات ، وكان يمكن لهذه الاغلبية ان تؤثر في مجرى الانتخابات بحيث لا يصل الى مراكز التأثير في القرارات والتشريعات الا المتعاطفون مع قضايا المرأة والساعون الى حل مشاكلها ،

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بالرغم من مضي ما يزيد على نصف قرن من ممارسة النساء لحقهن في الانتخاب ، وهذا الامر قريب مما يحدث بالنسبة للزواج الذين ما زالوا يكافحون من اجل تحقيق مطالبهم ، بالرغم من مضي قرن كامل على ممارستهم لحقهم الانتخابي ، ولكن الفرق الواضح بين الحالتين ان الزواج قد نجحوا في ايجاد نوع من التنظيم السياسي الذي سمح لهم بالوصول الى بعض منابع القوة السياسية ، ومراكز اتخاذ القرارات التي توجه الامور لصالحهم ولو في ببطء ، في حين ان النساء لم يستفدن بعد من وزنهن السياسي ، والعدد الضئيل منهن الذي تمكن من الدخول الى المجال التشريعي والتنفيذي ليست له فاعلية تذكر اذا قيس بالتأثير الواضح لارباب العمل وطبقة المهنيين في مجرى الحياة السياسية بالرغم من قلة عددهم نسبيا .

هكذا تحتل النساء من جديد قاع التدرج الطبقي في المجال السياسي كما سبق لهن احتلاله في المجال الاقتصادي ، ويمكن تأييد ذلك بدلائل عديدة ابتداء من قمة التنظيم السياسي وحتى قاعدته العريضة ، وليس هناك مجال بالطبع لافتراض امكان وصول امرأة ما الى منصب الرئاسة . قولا كهذا سيصبح مثارا للتندر ، ولكن من المفيد هنا ان نذكر ان استخبارا اجري عام ١٩٦٩ بشأن امكان انتخاب امرأة او رجل زنجي لمنصب الرئاسة كانت نتيجته مؤيدة للرجل الزنجي ، في حين ان الزواج لا يمثلون الا نسبة ٥٪ من مجموع السكان وتمثل النساء اكثر من النصف ، وبالنسبة لمجلس النواب والشيونخ توضح الاحصاءات انه في خلال نصف قرن لم يدخل المجلس الاول سوى ٦٥ امرأة ، والثاني عشر نساء فقط اي نسبة ٢٪ فقط ممن التمثيل

ومن كل ما سبق يبدو واضحا كيف تتحول قوة النساء السياسية نتيجة ضخامة حجم تأثيرهن في عمليات الانتخاب الى مجرد اسطورة تكشف عن ضعف وضعهن السياسى كما هو الحال ايضا بالنسبة لوضعهن الاقتصادى ، ولكنها تكشف ، من ناحية اخرى ، عن مدى التحول المرتقب في الاوضاع المحيطة بالنساء لو زاد وعيهن السياسى بصورة كافية ، وامكنهن تنظيم صفوفهن من خلال الحركات النسائية المختلفة بصورة افضل .

وتحل الكاتبة في الفصل الخامس المفردى الاجتماعى للاسطورة الشائعة في المجتمع الأمريكى - والتي تساعد وسائل الاعلام على تدعيمها - عن المرأة الامريكية المتجبرة والسيطرة ، وعن الرجل الأمريكى المغلوب على امره ، فمن السمات الاساسية للاسطورة قدرتها على البقاء حتى في مواجهة الوضوح العقلى وقواعد المنطق ، لأن الافراد لا يقبلونها لمضمونها العقلانى ، وانما لتفسيراتها السهلة والمريحة لعالم الواقع ، فحرص الصحافة ووسائل الاعلام على تناول هذه الصورة المعكوسة للوضع الحقيقى للمرأة انما هو نوع من الميكانيزمات الدفاعية يسبغ الراحة النفسية على قلوب الرجال ، ولهذا ينتشر تداول هذه الاسطورة في صور هزلية عديدة ، وتلقى الترحيب الزائد لدى القراء او المشاهدين او المستمعين عندما يبدو الرجل الطيب على انه ضحية المرأة التي تحب ان تنفرد وحدها بالتحكم والسيطرة ، ويصل الامر في بعض التمثيلات الى حد تصويرها على انها ساحرة او جنية ذات قدرات غير طبيعية ، وهذا ما لا يحدث بالطبع بالنسبة للرجال .

ودور وسائل الاعلام في المجتمع الحديث بالغ الاهمية بالنسبة لكيفية ادراك الافراد

المستحق ، ولو ان هذا العدد القليل وصل الى مراكز التأثير في لجان الكونجرس المختلفة لكان في ذلك تعويض كاف ، ولكن المشكلة كما يعبر عنها واحد من اعضاء الكونجرس لناخبيه ان العضو لا يجد من يستمع اليه في المجلس الا اذا كان قد امضى ما يزيد على عشر سنوات نائبا عن دائرته ، وان ٤٠ عضوا تقريبا هم الذين يحتكرون النشاط في المجلس .

اما بالنسبة للسلطة التنفيذية فان امراتين فقط منذ عام ١٩٢٠ وحتى ١٩٧٠ تمكنتا من الوصول الى منصب وزارى في الحكومة الاتحادية ، وبلغ عدد السفيرات عشرة فقط ، وفي المجالس القومية المختصة بالامن القومى او الطاقة او الميزانية او الدفاع لا تكاد توجد نساء على الاطلاق في المراكز ذات الفاعلية ، مما يعزز القول بأن حق التصويت لم يتح للنساء الوصول الى ما يدعم قضيتهن على مستوى الحكومة الاتحادية ، ونفس الشيء يقال بالنسبة للحكومات والمجالس النيابية في الولايات ، ففي عام ١٩٦٧ كان للنساء ٣١٨ مقعدا نيابيا فقط من بين ٧٧٠٠ مقعد في المجالس المختلفة ، وكانت هناك عشرون ولاية بلا اى تمثيل نسائي فيها . وبالنسبة للمحليات ايضا تبدو الصورة قاتمة ، اذ لا توجد امرأة واحدة على رأس اية مدينة رئيسية ، وتحاول النساء الاشتراك في عضوية المجالس المتخصصة كالمجالس التعليمية مثلا ، لاهمية دورها من حيث الاشراف على المدارس والمناهج الدراسية وظروف العمل للمعلمين ، ومع هذا فان نسبة عضوية النساء فيها بلغت ٩٠٪ من مجموع الاعضاء ، واكثر من نصف هذه المجالس يخلو تماما من العضوية النسائية ، بالرغم مما هو معروف عن النسبة المتزايدة للنساء العاملات في مجال التدريس .

النقص لدى النساء حتى يمكنهم تقبل هذا الوضع على انه وضع « طبيعى » ، وهذا ايضا ما كان يحدث لدى المواطن الأمريكى الأبيض كتبرير للاضطهاد العنصرى ، بحيث احتاج الزنوج الأمريكيون الى جهد كبير وزمن طويل ، ليس فقط من أجل اجبار مواطنيهم البيض على انهاء هذا الوضع الظالم ، بل ايضا من أجل تخلصهم هم انفسهم من الاقتناع الذى تسرب الى نفوسهم بأنهم ادنى حقيقة من غيرهم ، واذا ارادت المرأة الأمريكية ان تغير وضعها فلا بد ان تتعرف أولا على ابعاد تلك الايديولوجية التى تشبعت بها النظم القائمة ، والتى يتقبلها الافراد بلا مناقشة .

وأول مكونات هذه الايديولوجية ان هناك اختلافا بيولوجيا وسيكولوجيا بين الرجال والنساء يقتضى اختلاف دوريهما فى الحياة الاجتماعية ، وتفدى الكتابات والدراسات المختلفة هذا الاعتقاد لتخرج فى النهاية بتصوير خاص لطبيعة المرأة وسيكولوجيتها يساعد فى تدعيم موقف المعارضين لافساح المجال امام المرأة فى مجالات النشاط السياسى المختلفة والمألوفة للرجال ، ويكفى ان نستشهد هنا بكتابات فرويد عن الشعور بالنقص الذى يمتلكه الاناث نتيجة افتقادهن ما يتميز به الذكور ، وكتابات **تالكوت بارسونز** عن الاتجاهات العملية التى تميز الذكور دون الاناث ، وحصيلة هذه الدراسات تجمعت لتحديد ملامح المرأة « الطبيعية » على انها عاطفية حساسة لا تميل للعدوان بل الى المسالمة والاذعان ، والنتيجة المستخلصة من هذه الصورة ان المرأة لا يشغلها سوى الاقتران بمن تحب ورعاية اطفالها ، وان من تخفق فى تحقيق ذلك لا بد ان تشعر بالا حباط وعدم الامان ، وان من حق الآخرين ان ينظروا الى المرأة العاملة فى المجالات التى لم يتعودوا

للاواقع الاجتماعى الذى يعيشونه ، وخطورة هذا الدور تكمن فى ان القلة المسيطرة على منابع القوة السياسية والاقتصادية هى التى تتولى توجيه الخطوط العريضة لوسائل الاعلام لتحويلها من وسيلة فعالة لتغيير الواقع الى وسيلة لتعزيزه وتثبيت دعائمه ، واذا بحثنا عن وضع المرأة فى هذا المجال الاعلامى الذى يؤثر فى نظرة المجتمع اليها لوجدناه هزيلا للغاية ، ففى محيط الارسال التلفزيونى لا توجد امرأة واحدة تشغل ايا من المناصب العليا فى ٣٧ محطة ارسال وهناك قلة ضئيلة من النساء فى باقى المحطات حسب احصاء ١٩٧٠ ، وقد شقت المرأة طريقها فى المحيط الصحفى ، ولكن عددا ضئيلا للغاية من النساء هو الذى تمكن من الوصول الى مجالس ادارة الصحف الكبرى ، ونفس الشئ يقال بالنسبة لساتر الاعلام الاخرى .

فى مثل هذا الواقع تنشط الاسطورة لتقوم بوظيفتها فى تمويهه وتهوينه حتى يصبح تقبله محتملا بالرغم من تعارضه مع الشعارات الديمقراطية عن العدالة والمساواة ، واسطورة المرأة المتجبرة لا تكتفى فقط بقلب الحقيقة الواقعة على رأسها ، وانما تتولى كذلك سجن الجنسين معا بين قضبان من الخيالات والاوهام الغامضة ، التى تشل قدرتهم على تغيير الوضع الحالى فى علاقات القوى الاجتماعية « وطالما بقيت الاسطورة لتعمينا عن رؤية الواقع فلن يزيد نصيب النساء من القوة عما لديهن الآن » (ص ١٠٥) .

وتعالج الكاتبة فى الفصل السادس الاساس الايديولوجى لعملية الاضطهاد الجنسى ، فتؤكد ان الرجال والنساء معا فى مجتمع ينادى بالمساواة وتكافؤ الفرص كالمجتمع الأمريكى يحتاجون الى الاعتقاد بوجود صورة من صور

ولنا الآن ان نساءل : هل يمكن ان تصمد هذه الايديولوجية التي يقوم عليها الاضطهاد الجنسي امام التحقق القائم على المنهج العلمي ؟ وهل هناك شواهد وبيانات امبيريقية كافية لتدعيم تلك النتائج التي يعلنها الباحثون في المسائل المتصلة بالمرأة ؟ لقد ارتكزت نظرية فرويد مثلا عن سيكولوجية المرأة على ملاحظاته المستمدة من عدد محدود من الافراد العاديين والمرضى ثم من تأملاته التي ربطت بينها وبين الخبرات الطفولية المبكرة ، ونحن نعرف حاليا ان السياق الاجتماعي هو الذي يتولى تحديد وتشكيل نمو الشخصية ، فالسمات المميزة للمرأة في اى مجتمع تحددها عمليات الاشراف الاجتماعي في نفس هذا المجتمع وهذا ما اكدته مرجريت ميد مثلا في بعض دراساتها ، وكذلك عديد من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع ، ومع هذا فما زالت المرأة « السوية » في نظر الكثيرين هي التي تتميز بالعاطفية والليل الى الازعان والاعتماد على الغير وتحاشي المنافسة .

ان الفروق الواقعية والواضحة بين الرجال والنساء من الناحية البدنية يضعف تأثيرها بالتدريج ، فيما يتصل بقدرة كل من الجنسين على الانجاز مع التقدم المستمر للحضارة والتكنولوجيا ، فلم يعد هناك سوى القليل من الاعمال التي تتطلب مجهودا بدنيا كبيرا ، كما ان عمليات الحمل ورعاية الاطفال لا تأخذ من حياة المرأة سوى فترة زمنية محدودة ، والمهم في الامر كله ان الشواهد تؤكد ان المرأة لا تقل عن الرجل في قدرتها العقلية والقدرات الخاصة المختلفة ، كما ان الاختلافات السيكولوجية الملحوظة لا ترجع الى عوامل فطرية بقدر ما ترجع الى عوامل اجتماعية مكتسبة .

اشتراكها فيها، على انها لم تفعل ذلك الا نتيجة ظروف خاصة كالطلاق او الترميل .

واذا استعرضنا كتب الاطفال ومجلاتهم التي تؤثر على اتجاهاتهم المبكرة نجد نفس صورة الفتاة السلبية التي تقف خلف الفتى دائما في الصور او في سياق القصة ، ونادرا ما تقدم الام على انها امرأة عاملة بل على انها ربة بيت ، واذا قدمت كعاملة فعلى اساس كونها مدرسة او ممرضة او امينة مكتبة مثلا ، وقد اثبتت بعض الدراسات ان هذا الاتجاه في تصوير المرأة مستمر كذلك في الكتب المدرسية بمراحلها المختلفة ، فدور المرأة في التاريخ او الثقافة او الحاضر السياسي يصور دائما على انه هزيل للغاية ، وهكذا تحاصر الاطفال منذ نعومة اظفارهم اتجاهات اجتماعية محددة تستهدف غرس بعض المفاهيم الخاصة بصورة كل من الذكور والاناث ودوريهما في المجتمع ، وتساعد التربية المنزلية والمدرسية على تحقيق ذلك عن طريق اثابة او عقاب بعض انماط السلوك المعينة لدى كل من البنين والبنات ، حتى ان بعض الدراسات النفسية للفتيات اوضحت ان بعضهن اصبح يربط بين التفوق العقلي والاثار السيء على وضعهن كائنات ، وتؤكد الاحصاءات ان الفتيات اصبحن يملن بعد مرحلة البلوغ الى خفض حرصهن السابق على منافسة البنين وتحقيق التفوق عليهم ، وقد اجرت احدى المجلات الامريكية استخبارا بين النساء اثبتت بعض نتائجها ان اكثر من ربع المشتركات فيه كن يتمنين ان يولدن ذكورا ، وهذا يظهر ان النساء ينظرن الى الاختلافات القائمة بينهن وبين الرجال على انها تمثل اوجه نقص وليس على انها سمات يتميزن بها، ويتمشى مع هذه النظرة ايضا تفضيل المواليد الذكور على الاناث بين الامهات الامريكيات .

الاهتمام بقضايا المرأة ، هكذا لا يبقى امام المرأة الامريكية التي حرمتها ايدولوجية الاضطهاد الجنسي واساليب التنشئة الاجتماعية من التعبير عن ايجابيتها في المجالات الاجتماعية والسياسية الا ان تحاول التعويض عن هذا الحرمان عن طريق سيطرتها على كل شئون البيت ، الذي تعتبره مجالها الاول والاخير ، بما في ذلك الزوج والاطفال الذين يمثلون الضحايا الجدد لعملية الاضطهاد تلك ، والتي كانت المرأة ذاتها ضحيتها الاولى .

تبدأ الكاتبة الفصل الثامن والاخير بالتساؤل عما تريده المرأة وعما تحتاج اليه ، وتقرر ان الاغلبية النسائية ليس في مقدورها ان تحقق ما تريده في ظل الاوضاع الحالية التي يسودها الاضطهاد الجنسي ، والامل معقود على تلك القلة التي تقتنع بضرورة الاوضاع وتبدأ العمل ثم تؤيدها الجماهير الواسعة بعد ذلك ، ويثبت التاريخ ان كثيرا من الحركات الاصلاحية قد بدأت هكذا ونجحت لان الظروف كانت قد نضجت لتقبل الاصلاح المرجو ، والحركة النسائية في امريكا في حاجة الى ذلك التغيير الذي يشمل اساليب الحياة والبناء الاجتماعي والايدولوجية السائدة حتى يتم تحقيق شعارات المساواة وتكافؤ الفرص وقدرة كل فرد على ان يحقق كل ما لديه من امكانيات ، ولا شك ان تحرير المرأة يتضمن - او ينبغي ان يتضمن - تحرير الرجل ايضا من كل تلك الاوضاع الزائفة .

في مثل هذا المجتمع المتحرر سوف يجد كل فرد - رجلا كان أو امرأة - فرصته الكافية لكي يحقق ذاته كما يريد ان تكون بحسب استعداداته العقلية والوجدانية لا كما يرسمها له المجتمع ، وبالتالي لن يشعر الرجل الرفيق

توضح الكاتبة في الفصل السابع كيف تتضافر ايدولوجية الاضطهاد الجنسي مع عملية التنشئة الاجتماعية مع تركيب البناء الاجتماعي لكي تضعف فاعلية الوزن السياسي لعسود الاصوات الضخم للنساء الامريكيات ، والذي كان من شأنه ليس فقط القضاء على اشكال التمييز الجنسي ، بل ايضا تحويل الديمقراطية في امريكا من مجرد واقع سياسي الى واقع اجتماعي ايضا ، وتتساءل الكاتبة : ما الذي يعود على الديمقراطية الامريكية نتيجة هذا الاصرار على وضع المرأة في هذا الاطار من السلبية والاذعان ؟ وما مدى الخسارة التي تلحق بمجتمع يفرض هذا الوضع في اكثر من نصف سكانه ؟ لقد اكد جون ستيوارت مل ان قيمة اي نظام سياسي تقدر بنوعية الافراد الذين تشكل شخصياتهم في اطاره ، ولا شك ان الايجابية والوعي والقدرة على تحمل المسؤولية من اهم الصفات التي تصاغ في ظل الديمقراطية وبالتالي تساعد على تجاوب الافراد وفعاليتهم في النشاط السياسي ، ولكن الاحصائيات تؤكد ان نسبة اقبال المرأة على المشاركة في سائر نواحي النشاط السياسي اضعف كثيرا من الرجال ، ولهذا علاقته بالتنشئة الاجتماعية التي تجعل الابناء والبنات يتعلمون ان الوضع الطبيعي هو ان يشارك الاب في هذه الامور بينما تبتعد الام حتى عن الحديث فيها بالاضافة الى خلو كتبهم المدرسية من الامثلة التي تعبر عن النشاط السياسي للمرأة ، وعلى ذلك يتعمق الشعور بان المرأة - مهما كان دورها الاجتماعي والسياسي في بعض فترات حياتها - لا بد ان تنتهي الى الهدف الذي تسعى اليه كل النساء وهو البيت ، وآخر الامثلة لذلك ما اعلنته شيرلي تل ، التي كانت تمثل امريكا في المحافل الدولية عام ١٩٧٠ ، من انها تفضل الشعور بحماية زوجها لها على

عندما عقدوا العزم على تحدي الاوضاع القائمة
الظالمة والمطالبة بتحقيق المساواة مع البيض ،
« واذا تحول الغضب المكبوت للنساء الامريكيات
الى غضب موجه فلن تقف ثورتهم عند حد »
(ص ١٧٥)

يتضح مما سبق عرضه مدى نجاح المؤلفة
في وضع قضية المرأة الامريكية - وخاصة المرأة
العاملة - في اطارها الاجتماعي الصحيح الذي
يساعد على فهم ابعادها المحلية المختلفة ،
وكذلك حرصها على ان تحيل المشكلة الى قضية
سياسية شبيهة بقضية اضطهاد الزوج ، ولكن
التساؤل الذي طرحته المؤلفة عن السبب في
ان النساء الامريكيات يضعهن المجتمع في موضع
الجنس الثاني بعد الرجال بالرغم من انهن
يمثلن اقلية السكان وبالتالي يحسن حقهن
في مجالات عديدة ، هذا التساؤل لا يعبر عن
ظاهرة امريكية محلية وانما عن ظاهرة انسانية
عامة ، وكان يجب ان تعالجه الكاتبة كجزء من
تساؤل اعم منه عن السبب في ذلك الاتفاق بين
المجتمعات الحالية - بل وعبر التاريخ ايضا -
على النظر الى ادوار المرأة وانشطتها على اساس
انها اقل اهمية وادنى قيمة من مثيلتها لدى
الرجل ، وايضا عن السبب في تقبل النساء
انفسهن لهذا الوضع الثقافي باعتباره امرا
طبيعيا ، بل يصل الامر بالكثيرات منهن الى
الاعتراض على الحركات النسائية المناصرة
لقضية المرأة وانكار شعارتها وبرامجها .

لقد حاولت مثلا بعض النظريات الحديثة
ايجاد اجابة مناسبة لمثل هذه التساؤلات تقوم
على الربط بين المرأة والطبيعة ، على اساس
انشغالها بعمليات الانجاب ورعاية الاطفال
والتنشئة الاجتماعية في مراحلها الاولى ،
والربط بين الرجل والثقافة على اساس ان

الوديع الكاره لكل الاساليب العدوانية بانه
قد خرج على نموذج « الرجولة » القوية الصلبة
المستعدة للعدوان وان بالامكان اتهمه بالتخنث ،
كما لن تشعر المرأة الجريئة التي تميل الى
خوض غمار المنافسة او الصراعات السياسية
بانها امرأة مسترجلة لان سلوكها غير انثوي ،
وينبغي كذلك ان يتغير نمط الاسرة التقليدية
التي تتكون من الرجل الذي يكسب من اجل
المعيش والمرأة التي ترضى شئون البيت والاولاد ،
فاذا اختارت المرأة الزواج فينبغي ان يتم ذلك
بكامل ارادتها ، ولها بالطبع ان تختار بين ان
تعمل او تبقى في البيت ، ولكنها اذا خرجت
للعمل فينبغي ان يحمل عملها نفس القيمة
الاجتماعية لعمل الرجل ، وان تكون لها نفس
الحقوق والواجبات ، وان يتوفر لاطفالها
الصفار دور الحضانة او الرعاية الكافية وان
تعتبر الاسرة جميعها ان العمل المنزلي مسئولية
مشتركة .

ولا شك ان محاولة تغيير الاوضاع سوف
تقابل بكل تحد وعنف من جانب الصفوة
الاقتصادية والسياسية المتحكمة ، ولكن
بامكان الحركات النسائية ان تحشد كل
امكانياتها لتساند حركة الاصلاح من خلال
المؤتمرات والمظاهرات واضرابات التباطؤ في
العمل ، ومهما حدثت مصادمات مع الاجهزة
الامنية فان هذا من شأنه كسب المزيد من
المتعاطفين مع الحركة ، فالبرنامج النسائي
ينبغي ان يجد تأييدا لا من النساء فقط وانما
من كل المواطنين الذين يهمهم صالح الامة ،
وعندما تستطيع الدعوة الى التغيير ان تصل
الى الوعي الراكد للاغلبية النسائية القائمة
فتحركه وتثير فيه الرغبة الى السعي الحثيث
نحو الاهداف الجديدة فان الامل سيصبح
كبيرا في تحقق النساء ما سبق للزوج تحقيقه

تحرره من النواحي السابقة يتيح له فرصة الابداع الصناعي المتمثل في المجالات الثقافية المختلفة بدلا من ذلك الابداع الطبيعي الذي تشغل به المرأة ومثل هذا الوضع هيا للرجل عبر التاريخ ان يتقدم ثقافيا على المرأة وان يصبح تفكيره اكثر تجريدا وميلا الى التجديد منها ، في حين ساعد ارتباط المرأة بالاطفال على ان يتشبع تفكيرها بما هو حسي ومشخص وعلى ان تكتسب سمة المحافظة بالنظر الى الضوابط العديدة والصارمة احيانا التي يضعها المجتمع على نشاطها وسلوكها تأمينا لحسن قيامها بوظيفتها الخطيرة في نقل عناصر التراث الاجتماعي الى الابناء ، واكتساب اية بنت لهذه السمات يتم من خلال دورة تربوية سيكولوجية تبدأ بالتوحد مع الام وتنتهي بالتوحد مع من ستنجبه هي نفسها من بنات

بعد زواجها لتبدأ الدورة من جديد وتظل سيكولوجية المرأة محافظة على سماتها المميزة .

والنتيجة الواضحة التي تنتهي اليها هذه النظريات هي ان ما يسمى « طبيعة نسائية » انما هي سمات ثقافية مكتسبة عبر التاريخ ولا ترجع الى عوامل فطرية ، مما يعني ان ما يجري حاليا في مختلف انحاء العالم من محاولات مستمرة من اجل تغيير او تطوير الاسس التي تقوم عليها العلاقات بين الجنسين وتوزيع الادوار بينهما يمكن ان تثمر مع الزمن لتهيء للمرأة فرصة التوازن بينها وبين الرجل في اطار اجتماعي يقوم على النظرة المتساوية الى الجنسين ، وفي هذه الحالة سوف لا يكون هناك اكراه للاغلبية النسائية على الصمت سواء في امريكا او في غيرها من الاقطار .

الخطابات المتبادلة بين فرويد ويونج *

عرض وتعليق الدكتور / مصطفى احمد تركي

هوجارث وروتلدج كيجان بلندن . ويحتوى الكتاب على ٢٥٩ خطابا متبادلا بين فرويد ويونج كما يحتوى الكتاب على مقدمة للمحرر ، تحدث فيها عن النشأة العلمية لكل منها ، ونشأة العلاقة بينهما .

وحتى تتضح لنا أهمية هذا الكتاب ودلالة الخطابات المنشورة فيه ، نرى أنه من

أولا : مقدمة

هذا الكتاب غير مألوف الطراز ، حيث أنه لا يتكون من فصول وأبواب ، ولكنه يتكون من عدد من الخطابات ، خطابات أرسلها فرويد الى يونج وأخرى أرسلها يونج الى فرويد .

والكتاب نشر عام ١٩٧٤ عن دار نشر

* MCGGuire, W. The Freud / Jung letters. London. Hogarth & Rantledge Kagan Paul. 1974.

الافضل عرض فكرة موجزة عن كل من فرويد ويونج قبل عرض مضمون الكتاب بشيء من التفصيل .

فرويد : Freud

يعتبر اسم فرويد أكثر أسماء علماء النفس انتشاراً بين المثقفين، ويكاد لا يذكر علم النفس أو إحدى المشكلات النفسية في أحد المجالس العامة إلا ويذكر اسم فرويد ، ولا ينطبق ذلك على قطر من الاقطار فقط ، ولكنه حكم صائب على جميع انحاء العالم .

ولد سيجموند فرويد في سنة ١٨٥٦ من أبوين يهوديين بمدينة فرايبورج بمورافيا التي تعرف الآن بدولة تشيكوسلوفاكيا ، وانتقل مع أسرته الى مدينة فيينا عاصمة النمسا عندما كان في الرابعة من عمره حيث نشأ وتلقى العلم في مدارسها ودرس الطب في جامعتها .

وتخصص فرويد في طب الامراض العقلية (الطب النفسي) ومارس علاج هذه الامراض ، وخلال خبراته في ممارسة العلاج توصل الى نظريات هامة في العلاج النفسي أدى بعضها الى تأييده والدفاع عنه ، وأدى البعض الآخر منها الى معارضته والهجوم عليه ومهاجمته بشراسه ومن أهم النظريات التي ترك عليها بصماته : نظريته في اللاشعور والكبت ، ونظريته في اثر الجنس في الامراض النفسية والعقلية ، وكلها تكون نظرية متكاملة في التحليل النفسي . (١)

وذاغت هذه النظريات وخاصة النظرية الاخيرة فأخذت تعاليم التحليل النفسي في الانتشار ليس بين رجال الطب النفسي فقط ، بل بين رجال العلوم والفنون المختلفة ، ولم يعد التحليل فرعاً من فروع الطب فقط ، فبدلت محاولات كثيرة لدراسة الادب والشعر في ضوء هذه النظرية .

وحاول فرويد تطبيق نظريته على دراسة الدين والسلالات والمجتمع وبدأ رجال التربية يوجهون اهتمامهم الى هذه التعاليم الجديدة لا تضمنته من آراء خطيرة عن عقلية الطفل والعوامل المؤثرة في تكوين شخصيته ، ولم يلبث أن اعترف علم النفس الاكاديمي بأهمية نظريات التحليل النفسي ، ولم يستطع علماء النفس الاستمرار في اغفال دراسة ما كشف عنه التحليل النفسي من نواح هامة عن النفس البشرية، كانت من قبل بعيدة عن دائرة البحوث في علم النفس ، كما امتدت التحليل النفسي الى علم الاجتماع والانثروبولوجيا . وتوفي فرويد في عام ١٩٣٩ بمدينة لندن وترك فرويد العديد من المؤلفات نذكر منها ما ترجم الى العربية :

١ - محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي . ترجمة الدكتور احمد عزت راجح - القاهرة : الانجلو المصرية ١٩٥٢

٢ - تفسير الاحلام (١٩٠٠) ترجمة الاستاذ مصطفى صفوان . القاهرة . دار المعارف .

٣ - ثلاثة رسائل في نظرية الجنس (١٩٠٥) ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي . القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٠

٤ - الذات والغرائز (١٩٢١) ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي : دار القلم .

٥ - القلق . (١٩٢٦) ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي . القاهرة . مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٦ .



(١) انظر ولزيد من التفصيل عن نشأة التحليل النفسي كتاب فرويد عن « معالم التحليل » . ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي . القاهرة : دار النهضة العربية . ١٩٦٦ . مقدمة المترجم من صفحة ١ - ٣٩ .

مؤلفاته السابقة ، غير أن يونج قد اهتم اهتماما خاصا ونسب اليه دورا هاما في نظريته . كما توصل يونج الى نظرية الانماط السيكولوجية وذكر انواعا مختلفة لها ، اهمها المنبسط والمنطوى ، والمنبسط عنده هو الشخص الذي تتجه طاقته الحيوية الى الخارج نحو الاشياء ، والمنطوى هو الشخص الذي تتجه طاقته الحيوية الى الداخل نحو ذاته . كما يخالف يونج فرويد في وجود صلة بين الذكريات المكبوتة والرغبات الجنسية الطفلية ، بل انها تتعلق في رايه بجميع مشكلات الانسان التي لم تحل .

وتوفي يونج عام ١٩٦٢ . وترك عدة مؤلفات منها :

- ١ - مساهمات في علم النفس التحليلي ١٩٢٨ .
- ٢ - الانماط السيكولوجية ١٩٣٣ .
- ٣ - تكامل الشخصية ١٩٣٩ .
- ٤ - الذات غير المكتسبة ١٩٥٩ .



ثانيا : موضوع الكتاب :

ان المساهمات التي تركها كل من فرويد ويونج لعلم النفس جعلتهما من ابرز علماء النفس في بداية القرن العشرين ، وتسجل الخطابات المنشور بالكتاب ، الكفاح المبكر لكل من فرويد ويونج منذ اواخر القرن التاسع عشر ، للوصول الى قبول التحليل النفسي ونظرياته وافكاره من الاوساط العلمية ، وخاصة في مجال الطب النفسي .

وعلى الرغم من ان فرويد يسبق يونج بعشرين عاما تقريبا ، كما يسبقه في محاولاته في علاج الحالات المرضية ، الا انها اشتركا معا في علاج بعض الحالات ، وفي النشاط العلمي

يونيغ : Jung

ولد يونج سنة ١٨٧٥ في مدينة بازل بسويسرا ، وتعلم في مدارس هذه البلدة وجامعتها ، ثم حصل على شهادة الدكتوراه في الطب عام ١٩٠٠ ، وفي عام ١٩٠٦ أصبح عضوا في جماعة فرويد ، وفي عام ١٩٠٨ عقد اول مؤتمر للتحليل النفسي في زيورخ بدعوة من يونج ، حيث قرر اصدار مجلة للتحليل ، واسندت رئاسة تحريرها الى يونج ، وكان لعالمنا هذا فضل كبير في تطور حركة التحليل النفسي وانتشارها ، فقد اتاح مركزه في مستشفى الطب النفسي بزيورخ ان يدخل التحليل النفسي الى محيط المستشفى العلمي وان يقوم هو وبلولر بتدريس مبادئه والدعوة له بين طلاب الطب .

وفي عام ١٩٠٩ سافر كل من فرويد ويونج الى امريكا بناء على دعوة من جامعة كلارك بمناسبة مرور عشرين عاما على تأسيسها . وفي عام ١٩١٠ عقد المؤتمر الثاني للتحليل النفسي في مدينة نورمبرج حيث تم تأليف جمعية التحليل النفسي الدولية ، وعمل فرويد على انتخاب يونج رئيسا لها .

ومنذ عام ١٩١١ بدأ تفكير يونج يتجهه اتجاها مخالفا لتعاليم فرويد والتف حوله بعض الاتباع المؤيدين لارائه ، فانتهى الامر بانفصاله عن جمعية التحليل النفسي في عام ١٩١٣ ، وكون مدرسة جديدة في زيورخ تحت اسم « علم النفس التحليلي » .

وعنى يونج - مثل فرويد - بدراسة اللاشعور ولكنه ميز بين نوعين من اللاشعور : لاشعور شخصي وهو مماثل للاشعور الذي تحدث عنه فرويد ، ولاشعور جمعي ، ويحوى التجارب والافكار الموروثة من الاحيال السابقة ويمثل طرائق التفكير البدائي للعقل الانساني ، وليس للاشعور الجمعي في الحقيقة من ابتكار يونج ، فقد سبق ان اشار اليه فرويد في بعض

سواء في مجال النشر أو المؤتمرات ، وهذا ما توضحه بجلاء الخطابات المتبادلة بينهما .

ولاول مرة تنشر مثل هذه الخطابات كاملة تقريبا ، ولقد امتدت الفترة التي تبودلت فيها بين فرويد ويونج حوالى سبع سنوات ، وهي تتنوع بين بطاقة صغيرة الى مقالة تتكون من ١٥٠٠ كلمة . وللحفاظ على مضمون الخطابات وعدم الاختلاف في تفسيرها او قراءتها اتفق الناشر مع ابناء كل من العالمين قبل نشرها على ان تنشر هذه الخطابات كوثائق ، اى دون تعليق او تفسير لها ، ونشرت كذلك بتسلسل تواريخها .

والواقع ان الخطابات المنشورة تحمل شهادة دقيقة للعلاقات المتبادلة لهاتين الشخصيتين الفريدتين ، كما انها برهان مباشر على اللقاء الثمر ، ثم النهاية المساوية بينهما . فتوضح لنا هذه الخطابات بجلاء البداية الحارة للعلاقة بينهما في ١١ ابريل ١٩٠٦ ، حين كتب فرويد اول رسالة الى يونج معلنة بدء المراسلة التي تتضمن حرارة وبرودة العلاقة بين منشئي علم التحليل النفسى .

كما توضح الخطابات في نهايتها كم كان كل منهما يختلف عن الآخر ، والى اى مدى انجذب كل منهما نحو الآخر .

وتصور هذه الخطابات الحقبة التي بدأ منها فرويد استخدام طريقة التحليل النفسى في علاج بعض الاضطرابات العقلية والنفسية ، وبدأ انه في حاجة الى من يستخدمون ويختبرون طريقته من الاطباء ، وذلك في نهاية القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٩٧ ، ثم صدر كتاب فرويد تفسير الاحلام الذى نشر عام ١٨٩٩ ولكن اרך في عام ١٩٠٠ ، ولم يلتفت اليه الاطباء ، ووزع منه عدد قليل من النسخ ، ولكن مع ذلك كان هذا الكتاب نقطة تحول في حياة فرويد ، كما قرر ذلك صديقه ارنست جونز ، واعتبره فرويد اكثر اعماله العلمية

اهمية ، وحجر الاساس في كل انجازاته ، وانه العمل الذى اعطاه القوة لمواجهة المستقبل المضطرب كما صدر له بعد ذلك في بدايات القرن العشرين كتاب **النكات وعلاقتها باللاشعور** (١٩٠٥) **وثلاث رسائل في نظرية الجنس** (١٩٠٥) وكان العمل الاخير ، كما قال جونز ، السبب في اثارة الحد الاقصى من البغض لاسم فرويد ، اذ نشر فيه نظريته التي تتعلق بالغريزة الجنسية في الطفولة .

وكان يونج من المعارضين لنظرية فرويد هذه ، فكان يعتقد ان فرويد قد غالى في تقدير الدور الذى تلعبه الغريزة الجنسية في تكوين العصاب وفضل ان تعطى للبيدو **Libido** معنى اهم واوسع من المعنى الذى وضعه فرويد وهو الطاقة الجنسية .

وكان يونج يعنى بالبيدو الطاقة الحيوية الكلية ، وتظهر هذه الطاقة في صور مختلفة من النشاط مثل النمو والتناسل والحب واللعب وغير ذلك من مظاهر النشاط الانسانى ، ويرى يونج ان فرويد قد قصر اهتمامه على الصورة الجنسية لهذه الطاقة الحيوية ، ولقد عدل فرويد فيما بعد من نظريته في اللبيدو ، فلم يعد يعتبره الطاقة الجنسية فقط ، بل اعتبر الطاقة النفسية المتعلقة بغريزة الحب وهى تتضمن الغرائز الجنسية وغرائز حفظ الذات وحفظ النوع ، وبذلك اصبح معنى اللبيدو عند فرويد يقترب كثيرا من معناه عند يونج .

وكان الاهتمام الاول بالتحليل النفسى خارج دائرة فرويد في المستشفى العام للطب النفسى بزيورخ والتي انشئت عام ١٨٦٠ للقيام بوظيفتين : علاج المرضى ، وعيادة للطب النفسى لجامعة زيورخ ، وفي حوالى ١٨٧٩ اكتسبت شهرة عالمية لتقديمها في العلاج والبحوث .

وفي ديسمبر ١٩٠٠ وضم يونج الى هذه المستشفى ليتولى اول وظيفة له بعد تخرجه ويبدو ان فترة عمله في المستشفى كانت مليئة

И.А.Об.
IX. Встретиле 19.

Freud, 11 Apr. 06 (1 F)

1 F

Dear colleague,²11 April 1906, IX, Berggasse 19¹

Many thanks for sending me your *Diagnostic Association Studies*,³ which in my impatience I had already acquired. Of course your latest paper, "Psychoanalysis and Association Experiments," pleased me most, because in it you argue on the strength of your own experience that everything I have said about the hitherto unexplored fields of our discipline is true. I am confident that you will often be in a position to back me up, but I shall also gladly accept correction.

Yours sincerely,⁴ DR. FREUD

¹ The printed letterhead (on a small sheet, 5¼ x 6¾") has been simplified for this edition. For the full heading, see the facsimile of this letter on facing page. "IX" means Vienna's ninth *Bezirk*, or district. Hereafter, "Vienna" is supplied, unless Freud used unheaded paper. At 52 F he began using a different letterhead.

² Holograph: *Geehrter Herr College*, a rather formal salutation; Freud used it with occasional variations until 18 F.

³ *Diagnostische Assoziationsstudien: Beiträge zur experimentellen Psychopathologie*, Vol. I (Leipzig, 1906), containing six studies by Jung and other doctors at the psychiatric clinic of the University of Zürich (i.e., Burghölzli Hospital), edited by Jung, who had directed the research. The studies had first appeared as articles in the *Journal für Psychologie und Neurologie*, 1904-6. Six further studies appeared 1906-9; collected in Vol. II (1909). All were tr. by M. D. Eder, *Studies in Word-Association* (London, 1918). Those by Jung (including "Psychoanalysis and Association Experiments," orig. 1906) are in CW 2. / Freud's first published reference to Jung, an allusion to these association studies, occurred in June 06 in a lecture before a University seminar on jurisprudence: "Tatbestandsdiagnostik und Psychoanalyse," *Archiv für Kriminalanthropologie*, XXVI (1906) = "Psychoanalysis and the Establishment of the Facts in Legal Proceedings," SE IX; cf. p. 104: "[These experiments] only became significant and fruitful when Bleuler in Zürich and his pupils, especially Jung, began to turn their attention to . . . 'association experiments.'"

⁴ Holograph: *Ihr collegial ergebener*. (Concerning salutations and complimentary closings in general, see the introduction.)

344 J *Internationale Psychoanalytische Vereinigung*

Dear Professor Freud,

Küsnach-Zürich, 6 January 1913

I accede to your wish that we abandon our personal relations, for I never thrust my friendship on anyone. You yourself are the best judge of what this moment means to you. "The rest is silence."¹

Thank you for accepting Burrow's paper.

Yours sincerely, JUNG

الكتاب على اشارات ومناقشات لاعمال فرويد، وفي المقدمة التي ارخها يوليو ١٩٠٦ اعلن : « ان النظرة السريعة في عملي سوف تظهركم انا مدين للكتشف العبقري فرويد الذي لم يلق بعد التقدير الذي يستحقه، بل انه لا يزال يواجه معارضة حتى من معظم الدوائر الرسمية ، وامل ان يسمح لي بان احدد موقفى منه ، ان انتباهى قد اتجه نحو فرويد عندما قرأت اول كتاب له وهو تفسير الاحلام ، والذي بعده قرأت كل كتاباته . »

وفي نهاية صيف ١٩٠٦ انتهى فرويد من تجميع المجلد الاول من كتابه « بحوث في نظرية العصاب » وارسل نسخة الى يونج في اكتوبر من نفس العام ، ويرد يونج على خطاب فرويد كانت العلاقة بينهما في طريقها لاكتساب صداقة قوية وعلاقات متبادلة سواء على المستوى الشخصى او على مستوى العلاقات العلمية لمدة تمتد حوالى ٧ سنوات .

وعندما نشر يونج كتابه عن «الشيزوفرايا» في ديسمبر ١٩٠٦ ارسل نسخة الى فرويد الذى عبر عن شوقه لقراءته ، ولسوء الحظ - فيما يرى محرر الكتاب - فان تعليق فرويد على تلقيه نسخة من هذا الكتاب ورد في احد الخطابات المفقودة من هذه المجموعة .

وكان اللقاء الاول المباشر بين فرويد ويونج في مدينة سالزبورج في ربيع ١٩٠٨ ، ثم اخذت العلاقات بينهما تزداد قوة ، فيزداد التقارب بينهما والثقة والتبادل المستمر للمعلومات والآراء العلمية ، حتى طرا على هذه العلاقات تغيرات مفاجئة ادى بها الى الفتور الذى ادى الى الانفصال ثم القطيعة .

فكان اخر خطاب ارسله فرويد ليونج بتاريخ ٢٧ يناير ١٩١٣ ، واستمر يونج في الكتابة اليه عندما يتطلب العمل العلمى ذلك . وكان اخر خطاب من يونج الى فرويد عام ١٩٢٣، وفيه يطلب منه علاج حالة حولها اليه .

بالمناعب والمضايقات حيث كتب ذات مرة يقول « انها لم يكن بها سوى الافق الضيق والصحراء التى لا نهاية لها من الروتين . »

واول خبرة ليونج بفرويد كانت مثيرة ، ففي بداية عام ١٩٠٠ كتب يونج يقول « لقد قرأت كتاب تفسير الاحلام لفرويد وتركته جانبا ، لاننى لم افهمه ، وفي ١٩٠٣ تناولته مرة ثانية واكتشفت كم يتفق مع افكارى الخاصة ؟؟ » ولقد تأثر يونج في رسالته للدكتوراه بفرويد ، كما ان معظم ما نشره بعد ذلك فيما بين ١٩٠٢ و ١٩٠٥ يحتوى على استشهاد باعمال فرويد .

وظهر كتاب فرويد « جزء من تحليل حالة هستيريا » عام ١٩٠٥ ولم يقض يونج وقتا طويلا حتى اعتمد عليه في بحثه « تجارب التحليل النفسى والتداعى » الذى اعده في ذات العام الذى نشر فيه فرويد كتابه، ونشر البحث عام ١٩٠٦ ، وفي تلخيص البحث قرر يونج ان مراخبتار التداعى قد يكون مفيدا في تسهيل وتقليل وقت التحليل النفسى لفرويد . وهذا البحث كان نهاية كتاب « دراسات التداعى التشخيصى » الذى ارسله يونج الى فرويد في ابريل ١٩٠٦ ، وهو الذى بدأت المراسلات بينهما حوله .

وكان للكتاب قوة الرسالة المباشرة ، لان الدراسات المكتوبة فيه ، وكتبها يونج وبلولر ، بها اشارات لاعمال فرويد ، وهذا يعنى قبول التحليل النفسى في مستشفى زيورخ .

واول خطاب بينهما كتبه فرويد الى يونج في ابريل ١٩٠٦ متضمنا الشكر الحار على اهدائه الكتاب ، الذى كان قد اشترى نسخة منه قبل وصول النسخة المهداة ، وفي يونيو من نفس العام القى فرويد محاضرة تضمنت اول تعليق على يونج وتجارب التداعى ونظرية العقد النفسية ، وخلال صيف ذلك العام اتم يونج دراسته عن «سيكولوجية الشيزوفرايا» والذي كان يجمع مادتها منذ ١٩٠٣ ، واحتوى

يونيغ في زيورخ ، كما رفض أرنيست فرويد أيضا نشر رسائل أبيه وحدها دون نشر رسائل يونيغ معها .

واتصل محرر الكتاب بأسرة فرويد وأسرة يونيغ - بعد وفاته - والتقى ابنا العالمان واتفقا على نشر الرسائل دون التقييد بالمواعيد التي أوصى بها يونيغ ، وبإدلا الخطابات ، أي حصل ابن فرويد على خطابات والده ، وحصل والده ، وحصل ابن يونيغ على خطابات والده أيضا .

ثالثا : خاتمة وتعليق :

يخرج القارئ بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب وما يحتويه من خطابات تبادلها كل من فرويد ويونيغ بفكرة عامة مؤداها أن هذه الخطابات المنشورة ليس لها أية قيمة علمية ، بمعنى أنها لم تكشف لنا عن آراء أو نظريات علمية سواء لفرويد أو يونيغ ، كما أن هذه الخطابات لم تتضمن أية مناقشات علمية بين العالمين ، مناقشات توضح مثلا تطور أو نشأة إحدى نظريات أحدهما .

ويبدو أن هذا هو رأي يونيغ أيضا في الخطابات ، إذ ذكر في خطابه المؤرخ ٢٢ مارس ١٩٥٢ إلى مدير معهد يونيغ أن محتوى هذه الخطابات ليس ذا أهمية . كما ذكر يونيغ في رده على أرنيست جونز حول طلبه نشر هذه الخطابات أن الخطابات ليست ذات أهمية خاصة ، فهي تحتوي أساسا على ملاحظات عن الناشرين ، أو تنظيم جمعية التحليل النفسي ، وبعضها شخصي جدا ولا يهمني نشرها وهي ككل لن تكون أسهاما هاما عن فرويد .

كما ذكرت سكرتيرة يونيغ بعد أن قرأت خطابات فرويد بناء على طلب يونيغ نفسه ، أن الأمر كان مثيرا للغاية عندما بدأت في قراءة هذه الخطابات ، ولكن بعد أن انتهت من قراءتها

وظلت العلاقات الشخصية بين فرويد ويونيغ مقطوعة منذ آخر خطاب لفرويد حتى غادر الأخير فيينا في يونيو ١٩٣٨ إلى لندن ، واحتفظت ابنته بأوراقه الخاصة ومنها خطابات يونيغ إليه ، وذلك بعد أن أحرقت بعض الأوراق الأخرى خوفا من وقوعها في أيدي النازيين أثناء السفر إلى لندن ، ووضعت الملفات الخاصة بفرويد بمنزله الدائم في لندن في خريف ١٩٣٨ ، وهو المنزل الذي توفي فيه فرويد في ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩ .

أما خطابات فرويد إلى يونيغ فظلت دون أن يعبث بها أحد لمدة ٤٠ سنة ، وقد حفظها يونيغ في مكان أطلق عليه اسم « المخبأ » في حائط ملحق غرفة مكتبه في الطابق الأعلى من المنزل وهذا المخبأ كان مغلقا بمفتاح يحمله يونيغ في جيب سترته دائما .

وفي كل كتاباته الأخيرة ، ومنها سيرته الذاتية ، لم يشر يونيغ إلى مراسلاته مع فرويد ، كما اتخذ فرويد نفس الموقف فيما عدا أنه في كتابه « تاريخ حركة التحليل النفسي » الذي نشر عام ١٩٤١ أشار إلى خطاب يونيغ إليه المؤرخ في ١١ نوفمبر ١٩١٢ .

وبعد وفاة فرويد بذلت محاولات عدة مع يونيغ لنشر الرسائل المتبادلة بينه وبين فرويد سواء من زملاء لهما مثل أرنيست جونز وأدلى أو من ناشرين ، ولكن يونيغ رفض بشدة نشر الرسائل وهو على قيد الحياة ، بل واشترط ألا تنشر إلا بعد وفاته بعشرين عاما على الأقل وأرسل يونيغ خطابات فرويد إلى مدير معهد يونيغ مع خطاب شخصي حملته سكرتيرته في ٢٢ مارس ١٩٥٢ يقول فيه أنه يسلم هذه الخطابات إلى المعهد لضمان سلامة حفظها ، وأن الخطابات ذات قيمة تاريخية . كما أودعت صورة من الخطابات في مكتبة الكونجرس عام ١٩٥٨ وكتب عليها « سرى » لايفتح إلا بعد عشرون عاما على وفاة كارل جوستاف يونيغ ، وبعد موافقة مكتب سجل

1003 Seestrasse, Küsnach-Zürich,
18 December 1912

Dear Professor Freud,

May I say a few words to you in earnest? I admit the ambivalence of my feelings towards you, but am inclined to take an honest and absolutely straightforward view of the situation. If you doubt my word, so much the worse for you. I would, however, point out that your technique of treating your pupils like patients is a *blunder*. In that way you produce either slavish sons or impudent puppies (Adler-Stekel and the whole insolent gang now throwing their weight about in Vienna). I am objective enough to see through your little trick.¹ You go around sniffing out all the symptomatic actions in your vicinity, thus reducing everyone to the level of sons and daughters who blushing admit the existence of their faults. Meanwhile you remain on top as the father, sitting pretty. For sheer obsequiousness nobody dares to pluck the prophet by the beard and inquire for once what you would say to a patient with a tendency to analyse the analyst instead of himself. You would certainly ask him: "Who's got the neurosis?"

You see, my dear Professor, so long as you hand out this stuff I don't give a damn for my symptomatic actions; they shrink to nothing in comparison with the formidable beam in my brother Freud's eye. I am not in the least neurotic—touch wood! I have submitted *lege artis et tout humblement* to analysis and am much the better for it. You know, of course, how far a patient gets with self-analysis: *not* out of his neurosis—just like you. If ever you should rid yourself entirely of your complexes and stop playing the father to your sons and instead of aiming continually at their weak spots took a good look at your own for a change, then I will mend my ways and at one stroke uproot the vice of being in two minds about you. Do you *love neurotics* enough to be always at one with yourself? But perhaps you *hate* neurotics. In that case how can you expect your efforts to treat your patients leniently and lovingly *not* to be accompanied by somewhat mixed feelings? Adler and Stekel were taken in by your little tricks² and reacted with childish insolence. I shall continue to stand by you publicly while maintaining my own views, but privately shall start telling you in my letters what I really think of you. I consider this procedure only decent.

No doubt you will be outraged by this peculiar token of friendship, but it may do you good all the same.

With best regards,

Most sincerely yours, JUNG

¹ Holograph: *True* (French).

² As n. 1.

342 F *Internationale Zeitschrift für*
*Ärztliche Psychoanalyse*¹

Dear Mr. President,
 Dear Doctor,²

Vienna, 3 January 1913

I share your opinion that the circulars of the editors of this journal (not *my* circulars as you put it in your letter) ought to have been submitted to the President, and will inform them of your recriminations. There can certainly be no question of ill will.

Burrow's paper arrived today. Your wish that he be included in the masthead of the journal will be respected both by the editors—whom I have not seen in the last few days—and by myself.

Both your suggestions are most welcome as a sign of your interest in the new organ.

I can answer only one point in your previous letter in any detail. Your allegation that I treat my followers like patients is demonstrably untrue. In Vienna I am reproached for the exact opposite. I am held responsible for the misconduct of Stekel and Adler; in reality I have not said one word to Stekel about his analysis since it was concluded some ten years ago, nor have I made any use of analysis with Adler, who was never my patient. Any analytical remarks I have

made about them were addressed to others and for the most part at a time when we had ceased to associate with one another. — In building your construction on this foundation you have made matters as easy for yourself as with your famous "Kreuzlingen gesture."

Otherwise your letter cannot be answered. It creates a situation that would be difficult to deal with in a personal talk and totally impossible in correspondence. It is a convention among us analysts that none of us need feel ashamed of his own bit of neurosis. But one who while behaving abnormally keeps shouting that he is normal gives ground for the suspicion that he lacks insight into his illness. Accordingly, I propose that we abandon our personal relations entirely. I shall lose nothing by it, for my only emotional tie with you has long been a thin thread—the lingering effect of past disappointments—and you have everything to gain, in view of the remark you recently made in Munich, to the effect that an intimate relationship with a man inhibited your scientific freedom. I therefore say, take your full freedom and spare me your supposed "tokens of friendship." We are agreed that a man should subordinate his personal feelings to the general interests of his branch of endeavour. You will never have reason to complain of any lack of correctness on my part where our common undertaking and the pursuit of scientific aims are concerned; I may say, no more reason in the future than in the past. On the other hand, I am entitled to expect the same from you.

Regards,

Yours sincerely, FREUD

فأدى ذلك الى فتور ثم اضطراب ثم انقطاع العلاقات الشخصية والعلمية بينهما وخاصة بعد ان وصف يونج فرويد في احد خطباته اليه بأنه يعامل تلاميذه كما لو كانوا مرضى . وهذه طريقة خاطئة تقدم لنا « اما ابناء خانعين او كلابا حمقا » .

كما وصفه يونج بأنه - اى فرويد - يدور حول التشامخ والتعظيم في كل افعاله وهذا من شأنه - وهذا هو المهم بالنسبة ليونج - ان يقل من قيمة كل شخص حتى يصل الى مستوى الابناء الذين يعترفون خجلا باخطائهم وفي نفس الوقت تبقى القمة كالأب الذي يجلس متربعا في راحة .

ثم يطلب منه يونج في نفس الخطاب الذي ارسله لفرويد في ١٨ ديسمبر ١٩١٢ ان يحاول التخلص من عقدة ويتوقف عن لعب دور الاب ، ثم تصل قمة هجوم يونج على فرويد حينما يصفه بأنه عصابي . فيرد عليه فرويد بخطاب في ٣ يناير ١٩١٣ يقترح فيه بقطع العلاقات بينهما .

« فلقد خلق خطابك موقفا اصبحت من الصعب معه ان نتعامل معا على المستوى الشخصي ومن المستحيل كلية المراسلة . . . » ولذلك اقترح ان نقطع علاقاتنا الشخصية كلية فلن افقد بذلك شيئا ، ولكنك تحصل على كل شيء منها » .

وهنا يشير فرويد الى انه يستفد من يونج، وان العكس هو الصحيح ، والحقيقة ان الخطابات المنشورة بالكتاب توضح مدى الاسهام الذي قدمه يونج لفرويد سواء على مستوى النظرية او على مستوى التحقق منها في مستشفيات الطب النفسي ، فلقب عدل فرويد من نظريته في اللبيد وحتى اصبحت معناه يقترب كثيرا من معناه عند يونج ، كما سبق القول في هذا العرض . فضلا عن ان يونج يعد اهم من ساهموا في ادخال نظريات فرويد في

أصبحت بخيبة أمل ، لأنها لم تجد فيها العمق والحكمة والبصيرة السيكولوجية التي كانت تتوقعها في خطابات فرويد ، ونقلت هذا الانطباع الى يونج فسر له .

أما قيمة هذه الخطابات فتكمن في الكشف عن تطور العلاقات الخاصة والعلمية بين فرويد ويونج ، وعما اذا كان الود والعلاقات الحميمة في بداية تعارفهما لاغراض شخصية بحثة لكل من العالمين ؟

والواقع ان تطور العلاقة بين العالمين كما اوضحتها الخطابات المنشورة بالكتاب تجيب بالاجاب على هذا التساؤل .

ففي عام ١٩٠٠ صدر لفرويد كتاب تفسير الاحلام ولم يلتفت اليه الاطباء ، ولم يوزع منه سوى عدد قليل من النسخ ، ثم في عام ١٩٠٥ اثارت نظريته في الجنس واللبيد والبغض والعداوة له .

فكان فرويد في ذلك الوقت في حاجة الى من يسانده والى من يحمل مذهب ويجريه ويدعو له ، وكان يونج في نفس الوقت الشاب الطموح الذي يسعى للتقدم في البحث العلمي .

فكان فرويد ذلك المنظر الذي يمدده بنظريات تصلح للدراسة ، وكان يونج ذلك الطبيب الذي ساهم في ادخال نظريات فرويد في مستشفى الطب النفسي بزيورخ .

ومن هنا كان كل منهما ، خلال فترة صعودهما ، في حاجة الى الآخر ومكملا له ، وعندما حصل كل منهما على ما يريد ، ولم يعد في حاجة الى الآخر ظهرت جوانب الاختلاف بينهما والتي كانت مخبئة تحت رماد نار الشهرة .

واصبح يونج يرغب في ان يعامله فرويد معاملة الزميل ورفيق الكفاح ، اما فرويد فظل ينظر اليه على انه تلميذ من تلاميذه ومريديه ،

التحليل النفسي الى اهم مستشفى للطب النفسي في ذلك الوقت وهي مستشفى زيورخ، ذلك بعد ان كان الاطباء لا يهتمون بها .

ويوافق يونج بعد ذلك على اقتراح فرويد له في خطاب بتاريخ ٦ يناير ١٩١٣ فيقول « اوافق على رغبتك في قطع علاقتنا الشخصية لانني لم افرض صداقتي على احد » . *

وفي النهاية نرى ان نشر هذه الخطابات في هذه الفترة قد جاء في الوقت الملائم تماما ، فلقد نشرت في وقت قبلها وبعدها الكثير من البحوث التي اختبرت نظريات فرويد تجريبيا* واتضح عدم قابلية بعضها للدراسة العلمية ، مثل فروضه في اللاشعور الجمعي (التوتم

والتابو ١٩١٣) وراثه الخبرات السابقة(موسى والتوحيد ١٩٣٩) . وهذا في حد ذاته يعد مؤشرا واضحا الى ان علماء النفس الان تعدوا مرحلة السبر وراء فرويد الى مرحلة النقد والتمحيص لنظرياته وفروضه وفي مجال دراسات الشخصية الان . مثلا نادرا ما نجد اشارة الى فرويد في بحوث ايزنك ومدرسته في انجلترا ، او بحوث كاتل وجيلفورد ومدارسهم في امريكا ، فمجرى البحوث في كثير من مجالات علم النفس الان ابتعد كثيرا عن تيار فرويد . وهذا هو تماما ما تصوره لنا الخطابات المنشورة في كتابنا هذا لتطور العلاقة الخاصة بين فرويد ويونج ، فبعد ان كانا معا يعتمد كل منهما على الآخر ، انفصلا وانقطعت العلاقة بينهما .

* انظر في نهاية العرض اول خطاب من فرويد الى يونج ، والخطابات الثلاثة الاخيرة التي طلبا فيها قطع العلاقات بينهما .

* * انظر على سبيل المثال :-

Sarnoff I, (1971). Testing Freudian Concepts: New Yourk : Springer.

Paul, K. (1972). Fact and Fantasy in Freudian Theory. London : Methuen.

Eysenck, (1973). The Experimental study of Freudian Theories. London : Methuen.

العدد التالى من المجلة

العدد الاول - المجلد الحادى عشر

ابريل - مايو - يونيو ١٩٨٠

قسم خاص عن

((المدينة الاسلامية))

بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	سوريا	٣	ليرة
السعودية	٥	ريال	المتن	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٢٥	قرشاً
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مستعيط	٤٠٠	ملياً
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	ملياً
الأردن	٢٥٠	فلس	المغرب	٥	درهم

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

